

الكتاب : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير

نسخة موافقة للمطبوع

المؤلف : جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري

الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الطبعة : الخامسة، 1424هـ/2003م

مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

<http://www.raqamiya.org>

[الكتاب موافق للمطبوع ، ومعه حاشيته المسماة نهر الخير على أيسر التفاسير]

شيء عندك انقطعت بك الحياة ولم تجد ما تواصل به سيرك في بقية عمرك فتكون كالبعير الذي أعياه السير فانقطع عنه وترك محسوراً في الطريق لا يستطيع صاحبه رده إلى أهله، ولا مواصلة السير عليه إلى وجهته. وقوله: {إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء} أي يوسع على من يشاء امتحاناً له أي شكر أم يكفر ويقدر لمن يشاء أي يضيق على من يشاء ابتلاء له أي صبر أم يضجر ويسخط، فإنه كان بعباده خبيراً بصيراً} فلذا هو يوسع ويضيق بحسب علمه وحكمته، إذ من عباده من لا يصلحه إلا السعة، ومنهم من لا يصلحه إلا الضيق، وقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق} أي ومما حكم به وقضى ووصى {ألا تقتلوا أولادكم} أي أطفالكم 1 {خشية إملاق} أي مخافة الفاقة والفقر، إذ كان العرب يبدون البنات خشية العار ويقتلون الأولاد الذكور كالإناث مخافة الفقر فأوصى تعالى بمنع ذلك وقال متعهداً متكفلاً برزق الأولاد وآبائهم فقال: {نحن نرزقهم وإياكم} وأخبر تعالى أن قتل الأولاد {كان خطأً 2 كبيراً} أي إثماً عظيماً فكيف يقدم عليه المؤمن؟.

وقوله: {ولا تقربوا 3 الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً 4} أي ومن جملة ما حكم به ووصى أن لا تقربوا أيها المؤمنون الزنا مجرد قرب منه قبل فعله، لأن الزنا كان في حكم الله فاحشة أي خصلة قبيحة شديدة القبح ممنوعة طبعاً وعقلاً وشرعاً، وساء طريق هذه الفاحشة سبيلاً أي بسئ الطريق الموصل إلى الزنا طريقاً للآثار السيئة والنتائج المدمرة التي تترتب عليه أولها أذية المؤمنين في أعراضهم وآخرها جهنم والاصطلاء بحرهما والبقاء فيها أحقاباً طويلة. وقوله: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق} أي ومما حكم تعالى به وأوصى أن لا تقتلوا أيها المؤمنون النفس التي حرم الله أي قتلها إلا بالحق، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق الذي تقتل به نفس المؤمن وهو واحدة من ثلاث: القتل العمد العدوان، الزنا بعد الاحصان، الكفر بعد الإيمان. وقوله: {ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً 5} أي من قتل له قتيلاً ظلماً وعدواناً أي غير خطأ فقد أعطاه تعالى سلطة كاملة على قاتل وليه إن شاء قتله وإن شاء أخذ دية منه، وإن شاء عفا عنه لوجه الله تعالى:

وقوله: {فلا يسرف6 في القتل إنه كان منصوراً7} أي لا يحل لولي الدم أي لمن قتل له

- 1 الإملاق: الفقر، وعدم الملك، يقال: أملق الرجل: إذا لم يبق له إلا الملقات، وهي الحجارة العظام الملس.
- 2 يقال: خطيء يخطأ خطأً، وخطأ: إذا أذنب. وأخطأ يخطيء: خطأً إذا سلك سبيل خطأً عمداً.
- 3 قالت العلماء: قول: {ولا تقربوا الزنى}: أبلغ من قول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنى والزنى يمد ويقصر لغتان.
- 4 قبح سبيلا إي: طريقاً لأنه يؤدي إلى النار.
- 5 الولي: هو المستحق للدم رجلاً كان أو امرأة، والسلطان معناه التسليط فهو إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية.
- 6 أي: فلا يقتل غير قاتله، ولا يمتل بالقتيل، ولا يقتل بالواحد اثنين أو أكثر ولا بالعبد الحر.
- 7 جملة: إنه كان منصوراً: تعليلية أي: علة للنهي عن الإسراف في القتل.

(3/191)

قتيل أن يسرف في القتل فيقتل بدل الواحد أكثر من واحد أو بدل المرأة رجلاً. أو يقتل غير القاتل، وذلك أن الله تعالى أعطاه سلطة تمكنه من قتل قاتله فلا يجوز أن يقتل غير قاتله كما كانوا في الجاهلية يفعلون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- العدة الحسنة تقوم مقام الصدقة لمن لم يجد ما يتصدق به على من سأله.
- 2- حرمة البخل، والإسراف معاً وفضيلة الاعتدال والقصد.
- 3- تجلى حكمة الله تعالى في التوسعة على أناس، والتضييق على آخرين.
- 4- حرمة قتل الأولاد بعد الولادة أو إجهاضاً قبلها خوفاً من الفقر أو العار.
- 5- حرمة مقدمات الزنا كالنظر بشهوة والكلام مع الأجنبية ومسها وحرمة الزنا وهو أشد.
- 6- حرمة قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق والحق قتل عمد عدواناً، وزناً بعد إحصان، وكفر بعد إيمان 1.

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34)
وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن

تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)

1 لحديث الصحيحين: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة" وفي السنن: "لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم".

(3/192)

شرح الكلمات:

إلا بالتّي هي أحسن : أي ألا بالصلة التي هي أحسن من غيرها وهي تنميته والإنفاق عليه منه بالمعروف.

حتى يبلغ أشده: أي بلوغه سن التكليف وهو عاقل رشيد.

وأوفوا بالعهد: أي إذا عاهدتم الله أو العباد فأوفوا بما عاهدتم عليه.

إن العهد كان مسئولاً : أي عنه وذلك بأن يسأل العبد يوم القيامة لم نكثت عهدك؟

أوفوا الكيل: أي اتموه ولا تنقصوه.

بالقسطاس المستقيم: أي الميزان السوي المعتدل.

وأحسن تأويلاً: أي مآلاً وعاقبة.

ولا تقف: أي ولا تتبع.

والفؤاد: أي القلب.

كان عنه مسئولاً : أي عن كل واحد من هذه الحواس الثلاث يوم القيامة.

مرحاً: أي ذا مرح بالكبر والخيلاء.

لن تخرق الأرض : أي لن تتقبحها أو تشقها بقدميك.

من الحكمة: أي التي هي معرفة المحاب لله تعالى للتقرب بها إليها ومعرفة المساخط لتتجنبها تقرباً

إليه تعالى بذلك.

ملوما مدحوراً: أي تلوم نفسك على شركك بربك مبعداً من رحمة الله تعالى.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان ما قضى به الله تعالى على عباده المؤمنين ووصاهم به فقال تعالى:

{ولا تقربوا} أي أيها المؤمنون {مال اليتيم إلا بالتّي هي أحسن} أي بالفعل التي هي أجمل وذلك بأن

تتصرفوا فيه بالثمير له والإصلاح فيه، والإنفاق منه على اليتيم بالمعروف أما أن تقربوه لتأكلوه

إسرافاً وبداراً فلألا. وقوله: حتى يبلغ أشده أي حتى يبلغ سن الرشد فتحاسبه وتعطوه ماله يتصرف فيه حسب المشروع من التصرفات المالية. وقوله تعالى: {وأوفوا بالعهد1} أي ومما أوصاكم به أن توفوا بعهودكم التي بينكم وبين ربكم وبين سائر الناس مؤمنهم وكافرهم فلا يحل لكم أن لا توفوا بالعهد وأنتم قادرون على الوفاء بحال من الأحوال. وقوله: {إن العهد كان مسئولاً2} تأكيد للنهي عن نكث العهد إذ أخبر تعالى أن العبد

1 التعريف في "العهد" للجنس ليشمل سائر العهود.

2 الجملة تعليلية علل بها الأمر بالوفاء بالعهود، وحذف متعلق مسئولاً لظهوره: وهو عنه أي مسئولاً عنه.

(3/193)

سيسأل عن عهده الذي لم يف به يوم القيامة، ومثل العهد سائر العقود من نكاح وبيع وإيجار وما إلى ذلك لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} أي العهود، وقوله: {وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس1 المستقيم} هذا مما أمر الله تعالى وهو إيفاء الكيل والوزن أي توفيتهما وعدم بخسهما ونقصهما شيئاً ولو يسيراً ما دام في الإمكان عدم نقصه، أما ما يعسر التحرز منه فهو من العفو لقوله تعالى: {لا تكلف نفساً إلا وسعها}. وقوله {ذلك خير وأحسن تأويلاً} أي ذلك الوفاء والتوفية في الكيل والوزن خير لبراءة الذمة وطيب النفس به وأحسن تأويلاً أي عاقبة إذ يبارك الله تعالى في ذلك المال بأنواع من البركات لا يعلمها إلا هو عز وجل. ومن ذلك أجر الآخرة وهو خير فإن من ترك المعصية وهو قادر عليها أثابه الله تعالى على ذلك بأحسن ثواب. وقوله تعالى: {ولا تقف2 ما ليس لك به3 علم} أي لا تتبع بقول ولا عمل ما لا تعلم، ولا تقل رأيت كذا وأنت لم تر، ولا سمعت كذا وأنت لم تسمع. وقوله تعالى: {إن السمع والبصر والفؤاد} أي القلب {كل أولئك كان عنه4 مسئولاً} أي لا تقف ما ليس لك به علم، لأن الله تعالى سائل هذه الأعضاء يوم القيامة عما قال صاحبها أو عمل فتشهد عليه بما قال أو عمل مما لا يحل له القول فيه أو العمل. ومعنى أولئك أي تلك المذكورات من السمع والبصر والفؤاد. وقوله تعالى: {ولا تمش في الأرض مرحاً} أي خيلاء وتكبراً أي مما حرم تعالى وأوصى بعدم فعله المشي في الأرض مرحاً أي تكبراً واختيالاً، لأن الكبير حرام وصاحبه لا يدخل الجنة، وقوله {إنك لن تحرق الأرض} أي برجليك أيها المتكبر لأن المتكبر يضرب الأرض برجليه اعتزازاً واهتزازاً، ولن تبلغ الجبال طولاً مهما تعاليت وتناولت فإنك كغيرك من الناس لا تحرق الأرض أي تنقبها أو تقطعها برجليك ولا تبلغ علو الجبال فلذا أترك مشية الخيلاء والتكبر، لأن ذلك معيب ومنقصة ولا يأتيه إلا نو حماقة وسفه. وقوله تعالى: {كل ذلك كان سيئه

عند ربك مكروهاً} أي كل ذلك المأمور به

- 1 القسطاس بضم القاف قراءة الجمهور وبكسرهما قراءة حفص وهو اسم للميزان أي آلة الوزن، واسم للعدل أيضاً وقيل هو معرب من الرومية مركب من قسط أي عدل وطاس وهو كفة الميزان والأصل ضم القاف وكسره العرب لأنه أعجمي وهم يقولون أعجمي العب به ما شئت.
- 2 القفو: الاتباع يقال قفاه يقفوه إذا اتبعه وهو مشتق من القفا وهو وراء العنق.
- 3 بهذه الحكمة وهي ولا تقف ما ليس لك به علم: وضع حد لكثير من المفاصد التي كانت تقع لسبب القول بدون علم منها: الطعن في الأنساب لمجرد ظن. ومنها القذف بالفاحشة. ومنها الكذب، ومنها شهادة الزور إلى غير ذلك من الأضرار التي تتم بسبب القول بالظن وبدون علم.
- 4 كل أولئك: المفروض أن يقال: كلها ولكن عدل إلى أولئك لأهمية تلك الحواس ونظير هذا في كلام العرب قول الشاعر:
ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد أولئك الأيام

(3/194)

والمنهي عنه من قوله تعالى: {وقضى ربك} إلى قوله {كل ذلك كان سيئه 1 عند ربك مكروهاً} سيئة كالتبذير والبخل وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والوزن، والقول بلا علم كالقذف وشهادة الزور، والتكبر كل هذا الشيء مكروه عند الله تعالى إذا فلا تفعله يا عبد الله وما كان من حسن فيه كعبادة الله تعالى وحده وبر الوالدين والإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل والعدة الحسنة فكل هذا الحسن هو عند الله حسن فأته يا عبد الله ولا تتركه ومن قرأ كنافع كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً فإنه يريد ما اشتملت عليه الآيات من التبذير والبخل وقتل النفس إلى آخر المنهيات.

وقوله تعالى: {ذلك 2 مما أوحى إليك ربك من الحكمة} أي ذلك الذي بيّن لك يا رسولنا من الأخلاق الفاضلة والخلال الحميدة التي أمرناك بالأخذ بها والدعوة إلى التمسك بها، ومن خلال القبيحة والخصال الذميمة التي نهيناك عن فعلها وحرمانا عليك إتيانها مما أوحينا إليك في كتابنا هذا من أنواع الحكم وضروب العلم والمعرفة، فله الحمد وله المنة.

وقوله: {ولا تجعل 3 مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً 4} هذه أم الحكم بدأ بها السياق وختمه بها تقريراً وتأكيذاً إذ تقدم قوله تعالى: {ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتتعد مذموماً مخذولاً}. والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كل أحد معني به فأى إنسان يشرك بربه

أحداً من خلقه في عبادته فقد جعله إلهاً مع الله، ولا بد أن يلقى في جهنم ملوماً من نفسه مدحوراً
مبعداً من رحمة ربه التي هي الجنة. وهذا إذا مات قبل أن يتوب فيوحده ربه في عباداته. إذ التوبة
إذا صحت جَبَّتْ ما قبلها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- حرمة مال اليتيم أكلاً أو إفساداً أو تضييعاً وإهمالاً.

2- وجوب الوفاء بالعهود وسائر العقود.

!- وجوب توفية الكيل والوزن وحرمة بخس الكيل والوزن.

1 قرأ الجمهور: سيئة، وقرأ حفص: سيئه، والسيئة ضد الحسنه.

2 الإشارة إلى ما تقدم، والجملة مذيّل بها الكلام تنبيهاً على ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة من
الحكمة تحريضاً على إتباع ما فيها وأنه خير عظيم كما فيها الامتنان على النبي صلى الله عليه
وسلم وعلى أمته بهذه الحكم والمعارف النافعة في الدنيا والآخرة.

3 هذه الجملة معطوفة على مثيلاتها المتضمنة للنهي عن كبائر الذنوب وهي مؤكدة لمضمون
جملة: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه}.

4 المدحور: هو المطرود من رحمة الله المغضوب عليه من الله تعالى.

(3/195)

4- حصول البركة لمن يمتثل أمر الله في كيّله ووزنه.

5- حرمة القول أو العمل بدون علم لما يُفْضِي إليه ذلك من المفساد ولأن الله تعالى سائل كل
الجوارح ومستشهدها على صاحبها يوم القيامة.

6- حرمة الكبر ومقت المتكبرين.

7- انتظام هذا السياق لخمس وعشرين حكمة الأخذ بها خير من الدنيا وما فيها، والتفريط فيها هو
سبب خسران الدنيا والآخرة.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا
الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)

شرح الكلمات:

أفأصفاكم: الاستفهام للتوبيخ والتفريع ومعنى أصفاكم خصم بالبنين واختارهم لكم.
ولقد صرفنا في هذا القرآن: أي بينا فيه من الوعد والوعيد والأمثال والعظات والأحكام والعبر.
ليذكروا : أي ليذكروا فيتعضوا فيؤمنوا ويطيعوا.
لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً: أي لطلبوا طريقاً إلى الله تعالى للتقرب إليه وطلب المنزلة عنده.
ومن فيهن: أي في السموات من الملائكة والأرض من إنسان وجان وحيوان.

(3/196)

وإن من شيء إلا يسبح : أي وما من شيء إلا يسبح بحمده من سائر المخلوقات.
حليماً غفوراً : حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على معصيتكم إياه وعدم طاعتكم له.
معنى الآيات:

يقول تعالى مقرعاً موبخاً المشركين الذين يئدون البنات ويكرهونهن ثم هم يجعلون الملائكة إناثاً
{أفأصفاكم ربكم} بالبنين {أي أخصم بالبنين} واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً {أيها
المشركون إذ تجعلون لله ما تكرهون افتراءً وكذباً على الله تعالى، وقوله تعالى: {ولقد صرفنا 2 في هذا
القرآن} أي من الحجج والبيانات والأمثال والمواعظ الشيء الكثير من أجل أن يُذكروا فيذكروا ويتعضوا
فيُنبيوا إلى ربهم فيوحدونه وينزهونه عن الشريك والولد، ولكن ما يزيدهم القرآن وما فيه من البيئات
والهدى إلا نفوراً وبعداً عن الحق. وذلك لغلبة التقليد عليهم، والعناد والمكابرة والمجادة. وقوله
تعالى: {قل لو كان معه آلهة كما تقولون} أي قل يا نبينا لهؤلاء المشركين المتخذين لله أنداداً
يزعمون أنها آلهة مع الله قل لهم لو كان مع الله آلهة كما تقولون وإن كان الواقع يكذبكم إذ ليس
هناك آلهة مع الله ولكن على فرض أنه لو كان مع الله آلهة {لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً} أي
لطلبوا طريقاً إلى ذي العرش سبحانه وتعالى يلتمسون فيها رضاه ويطلبون القرب منه والزلفى إليه
لجلاله وكماله، وغناه وحاجتهم وافتقارهم 3 إليه. ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه أن يكون معه آلهة فقال
{سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً}. وقوله: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن} 4
فأخبر تعالى منزهاً نفسه مقدساً ذاته عن الشبيه والشريك والولد والعجز، فأخبر أنه لعظمته وكماله
تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن بكلمة: سبحان الله وبحمده {وإن من شيء إلا يسبح
بحمده} كما أخبر أنه ما من شيء من المخلوقات إلا ويسبح بحمده

1 الجملة متفرعة عن جملة: {ولا تجعل مع الله إلهاً آخر} وهي متضمنة للإنكار على المشركين في
تسميتهم الملائكة إناثاً ونسبتهم إلى الله تعالى إذ قالوا: الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك، كما
هي متضمنة توبيخ المشركين على سوء فهمهم وقبيح قولهم بدليل قوله: {إنكم لتقولون قولاً عظيماً}.

- 2 من الجائز أن تكون (في) مزيدة، والقرآن: معمول لصرفنا، إذ التصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة، والمراد به هنا: البيان والتكرير والانتقال من حكمة إلى حكمة ومن عبرة إلى موعظة.
- 3 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "الطلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، وقال سعيد بن جبير المعنى: إذاً لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه لأنهم شركاؤه، وما قاله ابن عباس كالذي قاله سعيد جائز لكن ما ذهبنا إليه في التفسير أولى وألصق بمعنى الآيات والسياق.
- 4 من الملائكة والجنّ والإنس.

(3/197)

بلسان قاله وحاله 1 معاً فيقول سبحان الله وبحمده وقوله: {ولكن لا تفقهون تسبيحهم} 2 لاختلاف الألسنة واللغات. وقوله إن كان أي {الله حليماً}: أي لا يعاجل بالعقوبة من عصاه {غفوراً} يغفر ذنوب وزلات من تاب إليه وأتاب طالباً مغفرته ورضاه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة القول على الله تعالى بالباطل ونسبة النقص إليه تعالى كاتخاذها ولداً أو شريكاً.
 - 2- مشروعية الاستدلال بالعقليات، على إحقاق الحق وإبطال الباطل.
 - 3- فضيلة التسبيح وهو قول: سبحان الله وبحمده حتى إن من قالها مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت في الكثرة مثل زيد البحر.
 - 4- كل المخلوقات في العوالم كلها تسبح الله تعالى أي تنزهه عن الشريك والولد والنقص والعجز ومشابهة الحوادث إذ ليس كمثلها شيء وهو السميع البصير.
 - 5- حلم الله يتجلى في عدم تعجيل عقوبة من عصاه ولولا حلمه لعجل عقوبة مشركي مكة وأكابر مجرميها. ولكن الله أمهلهم حتى تاب أكثرهم.
- وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا نَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (47) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)

1 المراد من لسان الحال: هو تسبيح الدلالة، إذ كل محدث شاهد على أن الله خالق قادر، ولا مانع من أن يسبح كل شيء من إنسان وحيوانات ونبات وجماد والجن والملائكة إلا ذرية إبليس فإنهم لا

يسبّحون بلسان القال ولكن بلسان الحال.

2 قوله: {لا تفقهون تسبيحهم} دليل على أن تسبيح كل شيء بلسان قاله ويؤيد هذا تسبيح الطعام، وسلام الحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدل من هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يسمع صوت مؤذن من جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة".

(3/198)

شرح الكلمات:

حجاباً مستوراً : أي ساتراً لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى.

وجعلنا على قلوبهم أكنة: أي أعطية على القلوب فلا تعي ولا تفهم.

وفي آذانهم وقراً: أي ثقلاً فلا يسمعون القرآن ومواعظه.

ولو على أديبارهم نفوراً: أي فراراً من السماع حتى لا يسمعو.

بما يستمعون به: أي بسببه وهو الهزة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وإذ هم نجوى: أي يتناجون بينهم يتحدثون سراً.

رجلاً مسحوراً: أي مغلوباً على عقله مخدوعاً.

ضربوا لك الأمثال : أي قالوا ساحر، وقالوا كاهن وقالوا شاعر.

فضلوا: أي عن الهدى فلا يستطيعون سبيلاً.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وإذا قرأت القرآن} 1 يخبر تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرأ القرآن

على المشركين ليدعوهم به إلى الله تعالى ليؤمنوا به ويعبدوه وحده جعل الله تعالى بينه وبين

المشركين حجاباً 2 ساتراً، أو مستوراً لا يرى وهو حقاً حائل بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم

حتى لا يسمعو القرآن الذي يقرأ عليهم فلا ينتفعون به. وهذا الحجاب ناتج عن شدة بغضهم للرسول

صلى الله عليه وسلم وكراهيتهم لدعوته فهم لذلك لا يرونه ولا يسمعون قراءته. وقوله تعالى: {وجعلنا

على قلوبهم أكنة أن 3 يفقهوه} جمع كنان وهو الغطاء حتى لا يصل المعنى المقروء من الآيات إلى

قلوبهم فيفقهوه، وقوله: {وفي آذانهم وقراً} أي وجعل تعالى في آذان أولئك المشركين الخصوم ثقلاً

في آذانهم فلا يسمعون القرآن الذي يتلى عليهم، وهذا كله من الحجاب الساتر والأكنة، والوقر في

الآذان عقوبة من الله تعالى لهم حرّمهم بها من الهداية بالقرآن لسابقة الشر لهم وما ظلمهم الله ولكن

كانوا هم الظالمين ببغضهم للرسول وما جاء به وحرّمهم له ولما جاء به من التوحيد والدين الحق،

وقوله

- 1 روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: لما نزلت (سورة تبتّ يدا أبي لهب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها (حجر ملء الكف) وهي تقول مذمّما عصينا وأمره أبيننا، ودينه قلينا، والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر قال: يا رسول الله: لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لن تراني فقراً صلى الله عليه وسلم قرآنا، فوقف على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لأبي بكر بلغني أنّ صاحبك هجاني قال لا ورب هذا البيت ما هجاك فولّت.
- 2 سائراً أي: للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يراه من أراده بسوء، ومستوراً أي: الحجاب لا يراه المشركون وهو موجود فعلاً، ولكن لا يُرى.
- 3 أن يفقهوه أي: لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه.

(3/199)

تعالى: {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده} بأن قلت لا إله إلا الله¹، أو ما أفهم معنى² لا إله إلا الله ولى المشركون على أدبارهم³ نفوراً من سماع التوحيد لحبهم الوثنية وتعلق قلوبهم بالشرك. وقوله تعالى {نحن أعلم بما يستمعون به} يقول تعالى لرسوله نحن أعلم بما يستمع به المشركون أي بسبب أنهم يستمعون من أجل الاستهزاء بك والسخرية منك ومما تتلوه لا أنهم يستمعون للعلم والمعرفة ولطلب الحق والاهتداء إليه. وقوله: {إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى} أي يناجي بعضهم بعضاً {إذ يقول الظالمون⁴} أي المشركون {إن تتبعون} أي لا تتبعون {إلا رجلاً مسحوراً} أي مخدوعاً مغلوباً على أمره، فكيف تتبعونه إذا؟.

وقوله تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال} أي انظر يا رسولنا كيف ضرب لك هؤلاء

المشركون المعاندون الأمثال فقالوا عنك: ساحر، وشاعر، وكاهن ومجنون فضلوا في طريقهم {فلا يهتدون سبيلاً} إنهم عاجزون عن الخروج من حيرتهم هذه التي أوقعهم فيها كفرهم وعنادهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير قاعدة حبك الشيء يعمى ويصم: فإن الحجاب المذكور في الآية وكذا الأكنة والثقل في الآذان هذه كلها حالت دون سماع القرآن من أجل بغضهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن وما جاء به عن الدعوة إلى التوحيد.
- 2- بيان مدى كراهية المشركين للتوحيد وكلمة الإخلاص لا إله إلا الله.
- 3- بيان مدى ما كان عليه المشركون من السخرية والاستهزاء بالرسول والقرآن.
- 4- بيان اتهامات المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر مرة والكهانة ثانية والجنون ثالثة

بحثاً عن الخلاص من دعوة التوحيد فلم يعثروا على شيء كما قال تعالى: {فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً}.

1 أي: وأنت تقرأ القرآن.

2 أي: دلّ على معنى لا إله إلا الله.

3 يجوز أن يكون نفور جمع نافر كشهود جمع شاهد، ويجوز أن يكون مصدرًا من نفر نفورًا أي: نفروا نفورًا.

4 قولهم هذا وهم يتناجون يقولون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً أي: مطبوعاً قد خبله السحر فاختلط عليه أمره. يقولون هذا حتى ينفروا الناس عنه ولا يتبعوه.

5 عجبته من صنعهم كيف يقولون تارة ساحر وتارة مجنون وأخرى شاعر فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً يرجعون معه من حيرتهم أو يتمكنون به من صدّ الناس عنك وصرّهم عن دعوتك.

(3/200)

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَنْبُوعِثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

شرح الكلمات :

وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا : الاستفهام للإنكسار الاستبعاد والرفات الأجزاء المنفردة.

مما يكبر في صدوركم : أي يعظم عن قبول الحياة في اعتقادكم.

فطركم: خلقكم.

فسينغضون : أي يحركون رؤوسهم تعجباً.

متى هو؟ : الاستفهام للاستهزاء أي متى هذا البعث الذي تعدنا.

يوم يدعوكم: أي يناديكم من قبوركم على لسان إسرافيل.

فتستجيبون: أي تجيبون دعوته قائلين سبحانك اللهم وبحمدك.

وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً: وتظنون أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا قليلاً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير العقيدة ففي الآيات قبل هذه كان تقرير التوحيد والوحي وفي هذه الآيات تقرير البعث والجزاء الآخر ففي الآية (47) يخبر تعالى عن إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له

بقوله: {وقالوا 1 أئذا كنا عظاماً ورفاتاً 2} أي أجزاء متفرقة كالحطام {أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً 3} وفي الآية الثانية (48) يأمر تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم

- 1 هذا من قولهم الذي قالوا وهم يسمعون القرآن، ويتناجون بينهم فيقولون كذا وكذا.
- 2 الرفات: ما تكسّر ويَلِي من كل شيء كالفتات، والحطام والرّضاض يقال: رُفِت الشيء رفناً أي: حطم والاستفهام إنكاري.
- 3 الاستفهام للاستهزاء مع الجحد والإنكار، و {خلقاً}: منصوب على الحال من ضمير {المبعوثون}.

(3/201)

كونوا ما شئتم فإن الله تعالى قادر على إحيائكم وبعثكم للحساب والجزاء وهو قوله تعالى: قل كونوا حجارة أو حديداً 1 أو خلقا مما يكبر في 2 صدوركم أي مما يعظم في نفوسكم أن يقبل الحياة كالموت 3 مثلاً فإن الله تعالى سيحييكم ويبعثكم. وقوله تعالى: فسيقولون من يعيدنا؟ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبدين البعث: من يعيدنا وعلمه الجواب فقال له قل الذي فطركم أي خلقكم أول مرة وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه. وقوله تعالى {فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو} يخبر تعالى رسوله بما سيقوله منكرو البعث له فيقول تعالى {فسينغضون} أي يحركون إليك رؤوسهم خفضاً ورفعاً استهزاء ويقولون: {متى هو؟} أي متى البعث أي في أي يوم هو كائن. وقوله تعالى: {قل عسى أن يكون قريباً} علمه تعالى كيف يجيب المكذبين. وقوله {يوم يدعوكم فتستجيبون 4 بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً} أي يكون بعثكم الذي تنكرونه يوم يدعوكم بأمر الله تعالى إسرافيل من قبوركم فتستجيبون أي فتجيبونه بحمد 5 الله {وتظنون إن لبثتم} أي لبثتم إلا قليلاً أي ما لبثتم في قبوركم إلا قليلاً 6 من اللبث وذلك لما تعينون من الأهوال وتشاهدون من الأحوال المفزعة المرعبة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء وبيان حتميتها.
- 2- بيان ما كان عليه المشركون من شدة إنكارهم للبعث الآخر.
- 3- تعليم الله تعالى لرسوله كيف يجيب المنكرين المستهزئين بالتّي هي أحسن.
- 4- بيان الأسلوب الحوارّي الهادي الخالي من الغلظة والشدة.

1 الحديد: تراب معدني لا يوجد إلا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ وأصنافه ثمانية وأشهر

أنواعه الأحمر وهو صنفان، ذكر وأنثى.

2 قال مجاهد: يعني السموات والأرض والجبال لعظمتها في النفوس.

3 لأنّ الموت لا شيء أكبر منه في نفوس بني آدم، قال أمية بن الصلت:
وللموت خلق في النفوس فظيع

وخلقاً بمعنى مخلوق،، ومن يكبر في صدوركم صفة له.

4 روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا
أسماءكم".

5 قال سعيد بن جبير يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك ويحمدك.

6 وقيل: هذا ما بين النفختين، وذلك أنّ العذاب يكفّ عن المعدّبين بين النفختين وذلك أربعين عاماً
فينامون فإذا نفخ النفخة الثانية قالوا: من بعثنا من مرقدنا وظنّوا أنهم ما لبثوا إلا قليلاً.

(3/202)

5- استقصار مدة اللبث في القبور مع طولها لما يشاهد من أهوال البعث.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53)
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (55)
شرح الكلمات:

التي هي أحسن: أي الكلمة التي هي أحسن من غيرها للطفها وحسنها.
ينزع: أي يفسد بينهم 1.

عدوًّا مبينًا: أي بيّن العداوة ظاهرها.

ربكم أعلم بكم: هذه هي الكلمة التي هي أحسن.

وما أرسلناك عليهم وكيلا: أي فيلزمك إجبارهم على الإيمان.

فضلنا بعض النبيين: أي بتخصيص كل منهم بفضائل أو فضيلة خاصة به.

وأتينا داود زبوراً: أي كتاباً هو الزبور هذا نوع من التفضيل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية أهل مكة، من طريق الحوار والمجادلة وحدث أن بعض المؤمنين واجه

بعض الكافرين أثناء الجدل بغلظة لفظ كان توعد به عذاب النار فأثار ذلك حفاظ المشركين فأمر

تعالى رسوله أن يقول للمؤمنين إذا خاطبوا المشركين أن لا يغلطوا لهم القول فقال تعالى: {وقل

لعبادي2} أي المؤمنين {يقولوا التي هي أحسن} من الكلمات لتجد طريقاً إلى قلوب الكافرين، وعلل

لذلك تعالى فقال {إن الشيطان ينزغ بينهم} بالوسواس فيفسد العلائق التي

- 1 روي أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أن رجلاً من العرب شتمه وسبه عمر وهم بقتله فكادت تثير فتنة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلذا الآية دعوة عامة لإحسان القول في أثناء دعوة الناس وهدايتهم.
- 2 أي بالكلمات التي هي أحسن.

(3/203)

كان في الامكان التوصل بها إلى هداية الضالين، وذلك أن الشيطان كان ومازال للإنسان عدواً مبيناً أي بين العداوة ظاهراً فهو لا يريد للكافر أن يسلم، ولا يريد للمسلم أن يؤجر ويثاب في دعوته. وقوله تعالى: {ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم} فيتوب عليكم فتسلموا. {أو إن يشأ يعذبكم} بأن يترككم تموتون على شرككم فتدخلوا النار. مثل هذا الكلام ينبغي أن يقول المؤمنون للكافرين لا أن يصدروا الحكم عليهم بأنهم أهل النار والمخلدون فيها فيزعج ذلك المشركين فيتمادوا في العناد والمكابرة. وقوله تعالى: {وما أرسلناك عليهم إكلاً}. يقول تعالى لرسوله إنا لم نرسلك رقيباً عليهم فتجبرهم على الإسلام وإنما أرسلناك مبلغاً دعوتنا إليهم بالأسلوب الحسن وهدايتهم إلينا، وفي هذا تعليم للمؤمنين كيف يدعون الكافرين إلى الإسلام. وقوله تعالى: {وربك أعلم بمن في السموات والأرض} يخبر تعالى رسوله والمؤمنين ضمناً أنه تعالى أعلم بمن في السموات والأرض فضلاً عن هؤلاء المشركين فهو أعلم بما يصلحهم وأعلم بما كتب لهم أو عليهم من سعادة أو شقاء، وأسباب ذلك من الإيمان أو الكفر، وعليه فلا تحزنوا على تكذيبهم ولا تيأسوا من إيمانهم، ولا تتكلفوا ما لا تطيقون في هدايتهم فقولوا التي هي أحسن واتركوا أمر هدايتهم لله تعالى هو ربهم وأعلم بهم وقوله تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً}، يخبر تعالى عن انعامه بين عباده فالذي فاضل بين النبيين وهم أكمل الخلق وأصفاهم فهذا بالخلعة كإبراهيم وهذا بالتكليم كموسى، وهذا بالكتاب الحافل بالتسبيح والمحامد والعبير والمواعظ كداود، وأنت يا محمد بمغفرتك لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وبارسالك إلى الناس كافة إلى غير ذلك من الإفضالات وإذا تجلت هذه الحقيقة لكم وعرفتكم أن الله أعلم بمن يستحق الهداية وبمن يستحق الضلالة، وكذا الرحمة والعذاب ففوضوا الأمر إليه، وادعوا عباده برفق ولين وبالتي هي أحسن من غيرها من الكلمات.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- النهي عن الكلمة الخشنة المسيئة إلى المدعو إلى الإسلام.

1 الرقيب والحفيظ والوكيل والكفيل كلها بمعنى واحد في هذا السياق ومن إطلاق الوكيل وإرادة الرقيب قول الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبت كأني
برد الأمور الماضية وكيل

2 الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود لعدم الحاجة إلى ذلك لوجود التوراة بينهم، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد والآية صالحة لحجاج اليهود منكري نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

(3/204)

2- بيان أن الشيطان يسعى للإفساد دائماً فلا يمكن من ذلك بالكلمات المثيرة للغضب والحاملة على اللجج والخصومة الشديدة.

3- بيان نوع الكلمة التي هي أحسن مثل {ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم إن يشأ يعذبكم}.

4- بيان أن الله تعالى أعلم بخلقه فهو يهب كل عبد ما أهله له حتى إنه فاضل بين أنبيائه ورسله عليهم السلام في الكمالات الروحية والدرجات العالية.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

شرح الكلمات:

فلا يملكون : أي لا يستطيعون.

كشفت الضر: أي إزالته بشفاء المريض.

ولا تحويلا : أي للمرض من شخص مريض إلى آخر صحيح ليمرض به.

(3/205)

يدعون : أي ينادونهم طالبين منهم أو متوسلين بهم.
يبتغون إلى ربهم الوسيلة: أي يطلبون القرب منه بالطاعات وأنواع القربات.
كان محذورا : أي يحذره المؤمنون ويحترسون منه بترك معاصي الله تعالى.
في الكتاب مسطورا : أي في كتاب المقادير الذي هو اللوح المحفوظ مكتوبا.
أن نرسل بالآيات : أي بالآيات التي طلبها أهل مكة كتحويل الصفا إلى جبل ذهب. أو إزالة جبال مكة لتكون أرضاً زراعية وإجراء العيون فيها.
إلا ان كذب بها الأولون : إذ طالب قوم صالح بالآية ولما جاءتهم كفروا بها فأهلكهم الله تعالى.
الناقة مبصرة: أي وأعطينا ثمود قوم صالح الناقة آية مبصرة واضحة بينة.
فظلموا بها: أي كفروا بها وكذبوا فأهلكهم الله تعالى.
إلا تخويفا: إلا من أجل تخويف العباد بأننا إذا أعطيناهم الآيات ولم يؤمنوا أهلكتناهم.
أحاط بالناس : أي قدرة وعلما فهم في قبضته وتحت سلطانه فلا تخفهم.
وما جعلنا الرؤيا 1 : هي ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج من عجائب خلق الله تعالى.

والشجرة الملعونة 2 : هي شجرة الزقوم الوارد لفظها في الصافات والدخان.
ونخوفهم : بعذابنا في الدنيا بالإهلاك والإبادة وفي الآخرة بالزقوم والعذاب الأليم.
فما يزيدهم: أي التخويف إلا طغياناً وكفراً.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد فيقول تعالى لرسوله قل يا محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك المشركين أدعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله سبحانه وتعالى فإنهم لا يملكون أن يكشفوا الضر عن مريض ولا يستطيعون تحويله عنه إلى آخر عدو له يريد أن يمسه الضر لأنهم أصنام وتمائيل لا يسمعون

1 لفظ الرؤيا يطلق في لب على الرؤيا في المنام، ويطلق على رؤية العين كما في هذه الآية رواية صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا..} الخ قال هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس.

2 قيل فيها ملعونة جرياً على عادة العرب في كل طعام مكروه يقولون فيه ملعون، وجائز أن يكون المراد بالللعن لعن أكلها أي: الشجرة الملعون أكلها.

ولا يبصرون فضلا عن أن يستجيبوا دعاء من دعاهم لكشف ضر أو تحويله إلى غيره، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (54) {قل أدعوا الذين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا}.

وقوله تعالى: {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته} {ويخافون عذابه}. يخبرهم تعالى بأن أولئك الذين يعبدونهم من الجن 2 أو الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين هم أنفسهم يدعون ربهم ويتوسلون للحصول على رضاه. بشتى أنواع الطاعات والقربات فالذي يَعْبُدُ لا يُعْبَدُ، والذي يتقرب إلى الله بالطاعات لا يتقرب إليه وإنما يتقرب إلى من هو يتقرب إليه ليحظى بالمنزلة عنده، وقوله {يرجون رحمته ويخافون 3 عذابه}، أي أن أولئك الذين يدعوهم الجاهل من الناس ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم هم أنفسهم يطلبون الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه. لأن عذابه تعالى كان وما زال يحذره العقلاء، لأنه شديد لا يطاق. فكيف يُدعى ويرجى ويخاف من هو يدعو ويرجو ويخاف لو كان المشركون يعقلون.

وقوله تعالى: {وإن من قرية} أي مدينة من المدن {إلا نحن مهلكوها} أي بعذاب إبادة قبل يوم القيامة، {أو معذبوها عذاباً شديداً} بمرض أو قحط أو خوف من عدو {كان ذلك في الكتاب مسطوراً} أي مكتوباً في اللوح المحفوظ، فلذا لا يستعجل أهل مكة العذاب فإنه إن كان قد كتب عليهم فإنه نازل بهم لا محالة وإن لم يكن قد كتب عليهم فلا معنى لاستعجاله فإنه غير واقع بهم وهم مرجون للثوبة أو لعذاب يوم القيامة وقوله تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات} أي بالمعجزات وخوارق العادات {إلا أن كذب بها} أي بالمعجزات الأولون من الأمم فأهلكناهم 5 بتكذيبهم بها، فلو أرسلنا نبينا محمداً بمثل تلك الآيات وكذبت بها قريش

1 قيل: إنه لما ابتليت قريش بالقحط، وشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى هذه الآية أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة لكم.

2 روى مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قول الله تعالى: {أولئك الذين يدعون} قال: نفر من الجنّ أسلموا، وكانوا يُعْبَدون فبقي الذين كانوا يعبدونهم على عبادتهم وقد أسلم نفر من الجنّ، وفي رواية قال: أنزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجنّ فأسلم الجنّيون، والذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون أي: بإسلامهم فبقوا يعبدونهم.

3 في الآية الجمع بين الخوف والرجاء وهما كجناحي الطائر إن انكسر أحدهما لم يطر بالأخر، ولذا فلا بد للمؤمن منهما فالخوف يحمل على أداء الفرائض واجتتاب المحرمات، والرجاء يحمل على المسابقة في الخيرات، وبذلك تتم ولايته لربه ويأمن عاقبة أمره.

4 {وإن من قرية} أي: ظالمة حذفنا الصفة للعلم بها إذ لا يأخذ الله أهل قرية إلا بعد ظلمهم إذ هو

أعدل من يعدل وعدل، وأرحم من يرحم ورحم وقد جاء هذا الوصف في عدّة آيات منها: {وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} وفي الآية تهديد ووعيد عرفه ابن مسعود رضي الله عنه فقال: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم.

5 أي: وما صرفنا عن إرسالك يا رسولنا بالمعجزات التي يطالب بها المشركون إلا تكذيب الأولين بها وهؤلاء مثلهم لو أرسلناك بها فكذبوا بها واستحقوا الهلاك ونحن لا نريد لهم ذلك.

(3/207)

لأهلكهم، وهو تعالى لا يريد إهلاكهم بل يريد هدايتهم ليهتدي على أيديهم خلقاً كثيراً من العرب والعجم والأبيض والأصفر فسبحان الله العليم الحكيم وقوله تعالى {وأتينا ثمود الناقة مبصرة} أي آية مبصرة أي مضيئة بينة فظلموا بها أي كذبوا بها فعقروها فظلموا بذلك أنفسهم وعرضوها لعذاب الإبادة فأبادهم الله فأخذتهم الصيحة وهم ظالمون هذا دليل على أن المانع من الإرسال بالآيات هو ما ذكر تعالى في هذه الآية وقوله تعالى: {وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً} يخبر تعالى أنه ما يرسل الرسل مؤيدين بالآيات التي هي المعجزات والعبير والعظات إلا لتخويف الناس عاقبة الكفر والعصيان لعلهم يخافون فيؤمنون ويطيعون قوله تعالى {وإذا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس} أي اذكر يا محمد إذ قلنا لك بواسطة وحينا هذا إن ربك أحاط بالناس. فهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه فلا ترهبهم ولا تخش منهم أحداً فإن الله ناصرك عليهم، ومنزل نعمته بمن تمادى في الظلم والعناد، وقوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك} يريد رؤيا الإسراء والمعراج حيث أراه الله من آياته وعجائب صنعه وخلقته، ما أراه {إلا فتنة للناس} أي لأهل مكة اختباراً لهم هل يصدقون أو يكذبون، إذ ليس لازماً لتقرير نبوتك وإثبات رسالتك وفضلك أن نريك الملكوت الأعلى وما فيه من مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة.

وقوله تعالى: {والشجرة الملعونة} أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الكريم وهي شجرة الزقوم وأنها {تخرج في أصل الجحيم} إلا فتنة كذلك لأهل مكة حيث قالوا كيف يصح وجود نخلة ذات طلع في وسط النار، كيف لا تحرقها النار قياساً للغائب على الشاهد وهو قياس فاسد، وقوله تعالى {ونخوفهم} بالشجرة الملعونة وأنها {طعام الأثيم تغلي في البطون كغلي الحميم} وبغيرها من أنواع العذاب الدنيوي والأخروي، وما يزيدهم ذلك إلا طغياناً كبيراً أي ارتقاعاً وتكبراً عن قبول الحق والاستجابة له لما سبق في علم الله من خزيمهم وعذابهم فاصبر أيها الرسول وامض في دعوتك فإن العاقبة لك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد بالحكم على عدم استجابة الآلهة المدعاة لعبادتها.
!- بيان حقيقة عقليه وهي أن دعاء الأولياء والاستغاثة بهم والتوسل إليهم بالذبح والنذر هو أمر

1 في السياق ما يدل على أن هناك رغبة في المعجزات من الكافرين والمؤمنين ولذا ذكر تعالى علل عدم إعطائها لرسوله صلى الله عليه وسلم، فالعلة الأولى تكذيب الأولين بها ودلل بتكذيب ثمود بها والثانية أنه ما يرسل بالمعجزات من أرسلهم بها إلا لعله التخويف فقط والثالثة إعلامه تعالى رسوله بأن ربك محيط بعباده قادر عليهم فلا تخفهم ولا تطلب الآية لهم، والرابعة: أن معجزة الإسراء والمعراج لم تكن للهداية وإنما هي للفتنة لا غير.

(3/208)

باطل ومضحك في نفس الوقت، إذ الأولياء كانوا قبل موتهم يطلبون الوسيلة إلى ربهم بأنواع الطاعات والقربات ومن كان يُعْبُدُ لا يُعْبَدُ. ومن كان يُتَّقَرَّبُ لا يُتَّقَرَّبُ إليه، ومن كان يُتَوَسَّلُ لا يُتَوَسَّلُ إليه بل يعبد الذي كان يُعْبَدُ ويتوسل إلى الذي كان يُتَوَسَّلُ إليه ويتقرب إلى الذي كان يتقرب إليه، وهو الله سبحانه وتعالى.

3- تقرير عقيدة القضاء والقدر.

4- بيان المانع من عدم إعطاء الرسول صلى الله عليه وسلم الآيات على قريش.

5- بيان علة الإسراء والمعراج، وذكر شجرة الزقوم في القرآن الكريم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِرَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَنْطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

شرح الكلمات:

لمن خلقت طيناً : أي من الطين.

أرأيتك : أي أخبرني.

كرمت علي : أي فضلتني علي بالأمر بالسجود له.

أحتتكن : لأستولين عليهم فأفودهم إلى الغواية كالدابة إذا جعل الرسن في

(3/209)

حنكها، تقاد حيث شاء راكبها!.
اذهب: أي منظرًا إلى وقت النفخة الأولى.
جزاءً موفورًا: أي وافرًا كاملاً.
واستفزز: أي واستخفف.
بصوتك: أي بدعائك إياهم إلى طاعتك ومعصيتي بأصوات المزامير والأغاني واللهم.
وأجلب عليهم: أي صبح فيهم بركبانك ومُشانتك.
وشاركهم في الأموال: بحملهم على أكل الربا وتعاطيه.
والأولاد: بتزيين الزنا ودفعهم إليه.
وعدهم: أي بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء.
إلا غرورا: أي باطلاً.
ليس لك عليهم سلطان: أي إن عبادي المؤمنين ليس لك قوة تتسلط عليهم بها.
وكفى بريك وكيلاً: أي حافظاً لهم منك أيها العدو.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم} أي اذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين الجهلة الذين أطاعوا عدوهم وعدو أبيهم من قبل، وعصوا ربهم، اذكر لهم كيف صدّقوا ظنّ إبليس فيهم، واذكر لهم {إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم} فامتثلوا أمرنا {فسجدوا إلا إبليس} قال منكرًا أمرنا، مستكبرًا عن آدم عبدنا {أسجد 1 لمن خلقت طينًا؟} أي لمن خلقتهم من الطين لأن آدم خلقه الله تعالى من أديم الأرض عذبها وملحها ولذا سمي آدم ثم قال في صلفه وكبريائه {أرأيتك} أي أخبرني أهذا {الذي كرمت علي 2؟} قال هذا استصغار لآدم واستخفافا بشأنه، {لئن أخرتني} أي وعزتك لئن أخرت موتي {إلى يوم يبعثون لأحتكن نريته} أي لأستولين عليهم وأسوقهم إلى أودية الغواية والضلال حتى يهلكوا مثلي {إلا قليلاً} 3 منهم ممن

1 الاستفهام انكاري.

2 أي: فضلت، والإكرام: اسم جامع لكل ما يحمد، وفي الكلام حذف تقديره أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين، ويصح بدون تقدير المحذوف أي: أترى هذا الذي كرمته عليّ لأفعلن به كذا وكذا.

3 {إلا قليلاً}: يعني المعصومين وهم الذين قال تعالى فيهم: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} واستثناء إبليس القليل كان ظنا منه فقط كما قال تعالى: {ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه} وقال

الحسن: ظن ذلك لأنه وسوس لآدم في الجنة ولم يجد له عزمًا فحصل له بذلك هذا العلم المعبر عنه بالظن إذ يطلق لفظ الظن، ويراد به العلم.

(3/210)

تستخلصهم لعبادتك فأجابه الرب تبارك وتعالى: {قال اذهب 1} أي مُنظراً وممهلاً إلى وقت النفخة الأولى وقوله تعالى: {فمن تبعك منهم} أي عصاني وأطاعك {فإن جهنم جزأؤكم جزاءً موفوراً} أي وافراً كاملاً.

وقوله تعالى: {واستفزز من استطعت منهم بصوتك} قال هذا لإبليس بعد أن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم أذن له في أن يعمل ما استطاع في إضلال أتباعه، {واستفزز 2} من استطعت منهم بصوتك {أي واستخفف منهم بدعائك إلى الباطل بأصوات المزامير والأغاني وصور الملاهي وأنديتها وجمعياتها، {وأجلب 3} عليهم} أي صح على خيلك ورجلك 4 الركبان والمشاة وسقهم جميعاً على بني آدم لإغوائهم وإضلالهم {وشاركهم في الأموال} بحملهم على الربا وجمع الأموال من الحرام وفي {الأولاد} بتزيين الزنا وتحسين الفجور ودهم بالأمانى الكاذبة وبأن لا بعث يوم القيامة ولا حساب ولا جزاء قال تعالى: {وما يعدم الشيطان إلا غروراً} أي باطلاً وكذباً وزوراً. وقوله تعالى: {إن عبادي} أي المؤمنين بي، المصدقين بقلائي ووعدني ووعدني ليس لك عليهم قوة تتسلط عليهم بها، {وكفى بربك وكيلًا} أي حافظاً لهم: منك فلا تقدر على إضلالهم ولا إغوائهم يا عدوي وعدوهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التذكير بالأحداث الماضية للتحذير من الوقوع في الهلاك.
- 2- ذم الكبر وأنه من شر الصفات.
- 3- تقرير عداوة إبليس والتحذير منها.
- 4- بيان مشاركة إبليس أتباعه في أموالهم وأولادهم ونساءهم.
- 5- بيان أن أصوات الأغاني والمزامير والملاهي وأندية الملاهي وجمعياتها الجميع من جند إبليس الذي يحارب به الآدمي المسكين الضعيف.
- 6- بيان حفظ الله تعالى لأولياءه، وهم المؤمنون المتقون، جعلنا الله تعالى منهم وحفظنا بما يحفظهم به إنه بركريم.

1 الأمر هنا: للإهانة والطرده والاحتقار والصغار.

2 الاستفزاز: طلب الفرز، وهو الخفة والانزعاج، وترك التثاقل، والسين والتاء فيه لشدة طلب

الاستخفاف والإزعاج.

3 الإجلاب: جمع الجيوش وسوقها مشتق من الجلبة التي هي الصياح إذ الجيوش تجمع بالجلبة فيهم والصياح بهم.

4 قرأ حفص: { وَرَجَلِكُمْ } بكسر الجيم لغة في رجل وقرأ غيره و { رَجَلِكُمْ } بسكون الجيم، والمعنى بخيلك: أي فرسانك ورجالك.

(3/211)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْزِقُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ تَبِيعًا (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)

شرح الكلمات:

يزجي لكم الفلك : أي يسوقها فتسير فيه.

لتبتغوا من فضله : أي لتطلبوا رزق الله بالتجارة من إقليم إلى آخر.

وإذا مسكم الضر: أي الشدة والبلاء والخوف من الغرق.

ضل من تدعون إلا إياه: أي غاب عنكم من كنتم تدعونهم من آلهتكم.

أعرضتم : أي عن دعاء الله وتوحيده في ذلك.

أو يرسل عليكم حاصباً : أي ريحاً ترمى بالحصباء لشدتها.

ثم لا تجدوا لكم وكيلا : أي حافظاً منه أي من الخسف أو الريح الحاصب.

قاصفاً من الريح: أي ريحاً شديدة تقصف الأشجار وتكسرهما لقوتها.

علينا به تبيعاً: أي نصيراً ومعيناً يتبعنا لئلا نكون لنا.

ولقد كرّمنا بني آدم : أي فضلناهم بالعلم والنطق واعتدال الخلق.

حملناهم في البر والبحر: في البر على البهائم والبحر على السفن.

(3/212)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والدعوة إليه. فقوله تعالى: {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله} يخبرهم تعالى بأن ربهم الحق الذي يجب أن يعبدوه ويطيعوه بعد أن يؤمنوا به هو الذي {يزجي 1 لهم الفلك} أي السفينة {في البحر} أي يسوقها فتسير بهم في البحر إلى حيث يريدون من أجل أن يطلبوا رزق الله لهم بالتجارة من إقليم لآخر. هذا هو إلهكم 2 الحق، أما الأصنام والأوثان فهي مخلوقة لله مربية له، لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها، نفعاً ولا ضرراً.

وقوله تعالى: {إنه كان بكم رحيماً} ومن رحمته تعالى تسخيره البحر لهم وإزجاء السفن وسوقها فيه ليحصلوا على أقواتهم عن طريق السفر والتجارة. وقوله تعالى: {وإذا مسكم الضر 3 في البحر ضل من تدعون إلا إياه} يذكرهم بحقيقة واقعة لهم وهي أنهم إذا ركبوا في الفلك وأصابتهم شدة من مرض أو ضلال طريق أو عواصف بحرية اضطربت لها السفن وخافوا الغرق دعوا الله وحده ولم يبق من يدعو سواه تعالى لكنهم إذا نجاهم من الهلكة التي خافوها ونزلوا بشاطئ السلامة عرضوا عن ذكر الله وذكروا آلتهم ونسوا ما كانوا يدعونه وهو الله من قبل {وكان الإنسان كفوراً} هذا طبعه وهذه حاله سرعة النسيان، وشدة الكفران. قوله تعالى: وهو يخاطبهم لهدايتهم {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر} يقرعهم على إعراضهم فيقول {أفأمنتم} الله تعالى {أن يخسف 4 بكم} جانب الأرض الذي نزلتموه عند خروجكم من البحر {أو يرسل عليكم حاصباً} أي ريحاً شديدة تحمل الحصباء 5 فيهلككم كما أهلك عاداً {ثم لا تجدوا لكم} من غير الله {وكيلاً} يتولى دفع العذاب عنكم ويقول: {أم أمنتم} الله تعالى {أن يعيدكم فيه} أي في البحر {تارة أخرى} أي مرة أخرى {فيرسل عليكم قاصفاً من الريح} أي ريحاً شديدة تقصف الأشجار وتحطمها {فيغرقكم بما كفرتم} أي بسبب كفركم كما أغرق آل فرعون {ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا} أي تابعاً يثار لكم منا ويتبعنا مطالباً بما نلنا منكم من العذاب.

1 الإزجاء: السوق قال تعالى: { ألم تر أن الله يزجي سحاباً} وقال الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته

سائل بني أسد ما هذه الصوت

2 أي: الذي يجب أن يشكروه بعبادته وحده دون من سواه.

3 لفظ الضرّ يعم المرض وخوف الغرق والإمساك عن الجري وأهوال حالة اضطراباته.

4 الخسف: انهيار الأرض بالشيء فوقها، وجانب البر: ناحية الأرض إذ البحر جانب والأرض

جانب.

5 يقال لكل ريح تحمل التراب والحصباء: حاصب، قال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضرينا

بحاصب كنديف القطن منثور

فما لكم إذا لا تؤمنون وتوحدون وبالباطل تكفرون. وقوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ أي فضلناهم بالنطق والعقل والعلم واعتدال الخلق ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾ على ما سخّرنا لهم من المراكب ﴿ورزقناهم من الطيبات 1﴾ أي المستلذات من اللحوم والحبوب والفواكه والخضر والمياه العذبة الفرات. وقوله تعالى: ﴿فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ فالآدميون أفضل من الجن وسائر الحيوانات، وخواصهم أفضل من الملائكة، وعامة الملائكة أفضل من عامة الآدميين ومع هذا فإن الآدمي إذا كفر ربه وأشرك في عبادته غيره، وترك عبادته، وتخلّى عن محبته ومراقبته أصبح شر الخليقة كلها. قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها، أولئك هم شر البرية﴾.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تعريف الله تعالى بذكر صفاته الفعلية والذاتية.
 - 2- تذكير المشركين بحالهم في الشدة والرخاء حيث يعرفون الله في الشدة ويخلصون له الدعاء، وينكرونه في الرخاء ويشركون به سواه.
 - 3- تخويف المشركين بأن الله تعالى قادر على أن يخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم حاصباً من الريح فيهلكهم أو يردهم إلى البحر مرة أخرى ويرسل عليهم قاصفاً من الريح فيغرقهم بسبب كفرهم بالله، وعودتهم إلى الشرك بعد دعائه تعالى والتضرع إليه حال الشدة.
 - 4- بيان منن الله تعالى على الإنسان وأفضاله عليه في تكريمه وتفضيله.
 - 5- حال الرخاء أصعب على الناس من حال الشدة بالقطط والمرض، أو غيرهما من المصائب.
 - 6- الإعلان عن كرامة الآدمي وشرفه على سائر المخلوقات الأرضية.
- يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71)
- وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ

1 في الآية دليل على إبطال الزهد في لذيذ الطعام كالعسل والسمن واللحم والفواكه والاكتفاء بالخبز بالملح ونحوه مع توفر طيب الطعام والشراب لأنه مخالف لمنهج السلف وفيه كفر ما أنعم الله تعالى به على عباده من طيب الرزق.

2 ﴿فمن أوتي﴾ معطوف على مقدر اقتضاه قوله : ﴿ندعو كل اناس بإمامهم﴾ أي فيؤتون كتبهم ﴿فمن أوتي كتابه...﴾ الخ.

أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِىْنَا إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا (74) إِذَا لَأَذْنَفَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)

شرح الكلمات:

بإمامهم : أي الذي كانوا يقتدون به ويتبعونه في الخير أو الشر.

فتيلاً: أي مقدار فتيل وهو الخيط الذي يوجد وسط النواة.

ومن كان في هذه أعمى: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله تعالى الدالة على وجوده وعلمه وقدرته، فلم يؤمن به ولم يعبه فهو في الآخرة أشد عمى وأضل سبيلاً.

وإن كادوا: أي قاربوا.

ليفتنونك : أي يستنزلونك عن الحق، أي يطلبون نزولك عنه.

لنفتري علينا غيره : أي لنقول علينا افتراء غير الذي أوحينا إليك.

إذا لاتخذوك خليلاً: أي لو فعلت الذي طلبوا منك فعله لاتخذوك خليلاً لهم.

ضعف الحياة وضعف الممات: أي لعذبتك عذاب الدنيا مضاعفاً وعذاب الآخرة كذلك.

ليستفزونك من الأرض : أي ليستخفونك من الأرض أرض مكة.

لا يلبثون خلافاً : أي لا يبقون خلفك أي بعدك إلا قليلاً ويهلكهم الله.

سنة من قد أرسلنا من قبلك : أي لو خرجوك لعذبناهم بعد خروجك بقليل، سنتنا في الأمم.

ولا تجد لسننتنا تحويلاً : أي عما جرت به في الأمم السابقة.

معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله في تقرير عقيدة البعث والجزاء، اذكر يا رسولنا، {يوم ندعو كل أناس بإمامهم} الذي كانوا يقتدون به ويتبعون فيتقدم ذلك الإمام ووراءه أتباعه وتوزع الكتب عليهم واحداً واحداً فمن أعطى كتابه بيمينه تشریفاً له وتكريماً، فأولئك الذين أكرموا بإعطائهم كتبهم بإيمانهم، يقرأون كتابهم ويحاسبون بما فيه {ولا يظلمون} أي لا ينقصون مقدار فتيل لا تنقص حسناتهم، ولا بزيادة سيئاتهم 1.

واذكر هذا لهم بعضهم به لعلهم يتعظون، وقوله تعالى: {ومن كان في هذه} أي الدنيا {أعمى} ، لا يبصر هذه الحجج والآيات والدلائل وأصر على الشرك، والتكذيب والمعاصي {فهو في الآخرة أعمى} أي أشد عمى {وأضل سبيلاً} فلا يرى طريق النجاة ولا يسلكه حتى يقع في جهنم. وقوله: {وان كادوا ليفتنونك}2 أي يصرفونك {عن الذي أوحينا 3 إليك} من توحيدنا والكفر بالباطل وأهله. {لتفتري علينا غيره} أي لتقول علينا غير الحق الذي أوحيناه إليك، وإذا لو فعلت بأن وافقتهم على ما طلبوا منك، من الإغضاء على شركهم و التسامح معهم إقراراً لباطلهم، ولو مؤقتاً، {لاتخذوك خليلاً} لهم وكانوا أولياء لك، وذلك أن المشركين في مكة والطائف، واليهود في المدينة كانوا يحاولون جهدم أن يستنزلوا الرسول على شيء من الحق الذي يأمر به ويدعو إليه مكرراً منهم وخديعة سياسية إذ لو وافقهم على شيء لطالبوا بآخر، وقالوا قد رجع إلينا، فهو إذاً يَقُول، وليس بالذي يوحي إليه بدليل قبوله منا كذا وكذا وتنازله عن كذا وكذا. وقوله تعالى: {ولولا أن ثبتناك} أي على الحق حيث عصمناك {لقد كدت} أي قاربت {تركن}4 ، أي تميل {إليهم شيئاً قليلاً} بقبول بعض اقتراحاتهم {إذاً} أي لو ملت إليهم، وقبلت منهم ولو شيئاً يسيراً {لأذقناك ضعف 5 الحياة وضعف الممات}6، أي لضاعفنا عليك العذاب في الدنيا والآخرة ثم لا تجد لك نصيراً ينصرك إذا نحن خذلناك وعذبناك وقوله تعالى في حادثة أخرى وهي أنهم لما فشلوا في المحاولات السلمية أرادوا استعمال القوة فقرروا إخراجه من مكة بالموت أو الحياة فأخبر تعالى

- 1 لم يذكر من أوتي كتبهم بشمائلهم إذ هم الذين خسروا أنفسهم اكتفاء بذكر من أوتوا كتبهم بأيمانهم، وقد ذكر في أول السورة: {وكل إنسان أزمانه طائره في عنقه} وذكر في سورتي الحاقة والانشقاق.
- 2 عدي فعل يفتنونك بعن لأنه مضمن معنى فعل يتعدى بها وهو الصرف يقال: صرفه عن كذا. أي يصرفونك.
- 3 الآية مسوقة مساق الامتتان على النبي صلى الله عليه وسلم حيث عصمه، وفيها بيان مدى ما كان المشركون يريدونه من صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن الحق الذي جاءه وهو يدعو إليه من التوحيد.
- 4 الركون: الميل بالركن الذي هو الجانب من جسد الإنسان واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب.
- 5 هذه الجملة جزء لجملة: {لقد كدت تركن إليهم} إذ تقدير الكلام لو ركنت إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات.
- 6 جائز أن يكون المراد بعذاب الدنيا: تراكم المصائب والأزراء في مدة الحياة وعذاب الممات أن يموت مكموداً مستذلاً بين من فازوا عليه بشرف سقوطه بينهم وضياح ما كان يأمله ويدعو إليه.

رسوله بذلك إعلماً وإنذاراً، فقال: {وإن كادوا ليستفزونك من الأرض} أرض مكة {ليخرجوك منها وإذا}، أي لو فعلوا لم يلبثوا بعد إخراجك إلا زمناً قليلاً ونهلكهم كما هي سنتنا في الأمم السابقة التي أخرجت أنبياءها أو قتلتهم هذا معنى قوله تعالى: {وإن كادوا ليستفزونك} 1 {أي يستخفونك} من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثوا خلافاً 2 إلا قليلاً سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً} أي عما جرت به في الأمم السابقة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الترغيب في الإقتداء بالصالحين ومتابعتهم والترهيب من الإقتداء بأهل الفساد ومتابعتهم.
 - 2- عدالة الله تعالى في الموقف بإقامة الحجة على العبد وعدم ظلمه شيئاً.
 - 2- عمى الدنيا عن الحق وشواهد سبب عمى الآخرة وموجباته من السقوط في جهنم.
 - 3- حرمة الركون أي الميل لأهل الباطل بالتنازل عن شيء من الحق الثابت إرضاء لهم.
 - 4- الوعيد الشديد لمن يرضى أهل الباطل تملقاً لهم طمعاً في دنياهم فيترك الحق لأجلهم.
 - 6- إمضاء سنن الله تعالى وعدم تخلفها بحال من الأحوال.
- أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ

1 الاستفزاز: الحمل على الترحل، وهو استفعال من فز يفز بمعنى: بارح المكان، والمعنى: كادوا: أن يخرجوك من بلدك كرهاً ثم صرفهم الله عنك حتى خرجت برضائك واختيارك فلذا لم تنزل بهم العقوبة بخروجك من بلدك.

2 قرأ نافع: {خلفك} أي بعدك، وقرأ حفص {خلافك} وهي لغة في خلف بمعنى: بعد.

(3/217)

وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (83) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)

شرح الكلمات:

لدلوك الشمس: أي زوالها من كبد السماء ودحوضها إلى جهة الغرب.

إلى غسق الليل : أي إلى ظلمة الليل، إذ الغسق الظلمة.

وقرآن الفجر: صلاة الصبح.

كان مشهوداً: تشهده الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

فتهجد به1: أي بالقرآن.

نافلة: أي زائدة عن الغرض وهي التهجد بالليل.

مقاماً محموداً: هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يحمده الأولون والآخرون.

أدخلني مدخل صدق : أي المدينة، إدخالاً مرضياً لا أرى فيه مكروهاً.

وأخرجني مخرج صدق: أي من مكة إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليها.

وقل جاء الحق وزهق الباطل: أي عند دخولك مكة فاتحاً لها بإذن الله تعالى.

زهق الباطل : أي ذهب واضمحل.

أعرض وأنا بجانبه: أعرض عن الشكر فلم يشكر، وأنا بجانبه: أي ثنى عطفه متبختراً في كبرياء.

على شاكلته : أي طريقته ومذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلال.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض الهائل لتلك الأحداث الجسام أمر تعالى رسوله بإقام الصلاة فإنها مأمّن الخائفين،

ومنار السالكين، ومعراج الأرواح إلى ساحة الأفراح فقال: {أقم الصلاة لدلوك

1 تهجّد: إذا ألقى الهجود عنه، وهو النوم، وقام يصلي، والتهجّد من الهجود وهو من الأضداد هجد:

نام، وهجد: سهر.

(3/218)

الشمس} أي لأول دلوكها 1 وهو ميلها من كبد السماء إلى الغرب وهو وقت الزوال ودخول وقت الظهر، وقوله {إلى غسق 2 الليل} أي إلى ظلمته، ودخلت صلاة العصر 3 فيما بين دلوك الشمس وغسق الليل، ودخلت صلاة المغرب وصلاة العشاء في غسق الليل الذي هو ظلمته، وقوله: {وقرآن الفجر 4} أي صلاة الصبح وهذه هي الصلوات الخمس المفروضة على أمة الإسلام، النبي وأتباعه سواء وقوله {إن قرآن الفجر كان مشهوداً} يعني محضراً، تحضره ملائكة النهار لتتصرف ملائكة الليل، لحديث الصحيح "يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...". وقوله {ومن الليل فتهجد 5 به نافلة لك} أي صلاة زائدة على الفرائض الخمس وهي قيام الليل، وهي واجب عليه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، وعلى أمته مندوب إليه، مرغّب فيه.

وقوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً} عسى من الله تعالى تفيد الوجوب، ولذا فقد أخبر تعالى رسوله مبشراً إياه بأن يقيمه يوم القيامة {مقاماً محموداً} يحمده عليه الأولون والآخرون. وهو الشفاعة العظمى حيث يتخلى عنها دم فمن دونه... حتى تنتهي إليه صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، أنا لها، ويأذن له ربه فيشفع للخليفة في فضل القضاء، ليدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وتستريح الخليفة من عناء الموقف وطوله وصعوبته.

وقوله تعالى: {وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق}. هذه بشارة أخرى أن الله تعالى أذن لرسوله بالهجرة من تلقاء نفسه لا بإخراج قومه وهو كاره. فقال له: قل في دعائك ربي أدخلني المدينة دار هجرتي {مدخل صدق} بحيث لا أرى فيها مكروهاً، وأخرجني من مكة يوم تخرجني {مخرج صدق} غير ملتفت إليها بقلبي شوقاً وحنيناً إليها. {واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً} أي وسلني أن أجعل لك من لدني سلطاناً نصيراً لك على من بغاك بسوء، وكادك بمكر وخديعة، وحاول منعك من إقامة دينك، ودعوتك إلى ربك،

1 ما في التفسير أشهر وأولى بالأخذ به وهو ما ذهب إليه عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس ومالك، ويرى غير هؤلاء من بعض الصحابة والتابعين: أن دلوك الشمس هو غروبها وعليه فلم تشمل الآية أوقات الصلوات الخمس بخلاف القول بدلوك الشمس: زوالها عن كبد السماء.

2 غسق الليل: سواده وظلمته قال ابن قيس الرقيّات:

إنّ هذا الليل قد غسقاً

واشكيت الهمّ والأرقا

3 وقت العصر إذا زاد ظل كل شيء مثله، ووقت المغرب: غروب الشمس، ووقت العشاء: ذهاب الشفق الأحمر، ووقت الصبح طلوع الفجر ووقت الظهر: زوال الشمس عن كبد السماء.

4 {قرآن}: منصوب على الاغراء أي: والزم قرآن الفجر لأهميته ويصح أن ينصب على العطف أي: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر أي: صلاته.

5 {نافلة لك}: أي نافلة لأجلك خاصة بك دون سائر أمتك.

6 روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت: {وقل رب أدخلني..} الخ وهو تعليم من الله لرسوله هذا الدعاء يقوله في صلاته وخارجها.

وقوله تعالى: {وقل جاء الحق وزهق الباطل} هذه بشارة أخرى بأن الله تعالى سيفتح له مكة، ويدخلها ظافراً منتصراً وهو يكسر الأصنام حول الكعبة وكانت ثلاثمائة وستين صنماً ويقول جاء الحق وزهق الباطل أي ذهب الكفر واضمحل. {إن الباطل كان زهوقاً}. لا بقاء له ولا ثبات إذا صاول الحق، ووقف في وجهه، وجائز أن يكون المراد بالحق، القرآن وبالباطل الكذب والافتراء، وجائز أن يكون الحق الإسلام والباطل الكفر والشرك وأعم من ذلك، أن الحق هو كل ما هو طاعة لله عز وجل، والباطل كل طاعة للشيطان من الشرك والظلم وسائر المعاصي. وقوله تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين} أي وننزل عليك يا رسولنا محمد من القرآن ما هو شفاء² أي ما يستشفى به من مرض الجهل والضلال والشك والوساوس ورحمة للمؤمنين دون الكافرين، لأن المؤمنيين يعملون به فيرحمهم الله تعالى بعملهم بكتابه، وأما الكافرون، فلا رحمة لهم فيه، لأنهم مكذبون به تاركون للعمل بما فيه. وقوله: {ولا يزيد الظالمين إلا خساراً} أي ولا يزيد القرآن الظالمين وهم المشركون المعاندون الذين أصروا على الباطل عناداً ومكابرة، هؤلاء لا يزيدهم ما ينزل من القرآن ويسمعونه إلا خساراً لازدياد كفرهم وظلمهم وعنادهم. وقوله تعالى: {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض³ ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً} يخبر الله تعالى عن الإنسان الكافر المحروم من نور الإيمان وهداية الإسلام أنه إذا أنعم عليه بنعمة النجاة من الهلاك وقد أشرف عليه بغرق أو مرض أو جوع أو نحوه أعرض عن ذكر الله ودعائه كما كان يدعوه في حال الشدة، ونأى بجانبه أي، بعد عنا فلا يلتفت إلينا بقلبه، وذهب في خيالاته وكبريائه وقوله تعالى: {وإذا مسه الشر كان يؤوساً} أي قنوطاً. هذا هو الكافر، ذو ظلمة النفس لكفره وعصيانه. إذا مسه الشر من جوع أو مرض أو خوف أحاط به كان يؤوساً أي كثير اليأس والقنوط تامهما، لعدم إيمانه بالله ورحمته وقدرته على إنجائه وخلصه. وقوله تعالى: {قل كل يعمل على شاكلته فريكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً} أي قل يا رسولنا للمشركين، كل منا ومنكم يعمل على طريقته ومذهبه بحسب حاله هداية وضلالاً، والله تعالى ريكم أعلم بمن هو أهدى منا ومنكم سبيلاً. ويجزي الكل بحسب عمله وسلوكه. وهذه كلمة

-
- 1 {من}: بيانية أي: مبينة للموصول، ما هو شفاء وليست للابتداء ولا هي زائدة أي: و ننزل القرآن الذي هو شفاء وهدى ورحمة للمؤمنين.
 - 2 وقد يستشفى بالقرآن من الأمراض الجسمية ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم بعثهم وكانوا ثلاثين راكباً فنزلوا على قوم من العرب فسألوهم أن يضيفوهم فأبوا فلدغ سيد الحي فأتاهم آت وقال لهم: فيكم من يرقى من العقرب؟ قلنا: نعم لكن حتى تعطونا فقالوا: إنا نعطيكم ثلاثين شاة فرقاه بفاتحة الكتاب قرأها عليه سبع مرات فشفي فأخذوا الثلاثين شاة فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم "كلوا وأطعمونا من الغنم".
 - 3 المراد بالإنسان هنا: الكافر لا المؤمن وال فيه للجنس فيشمل اللفظ كل إنسان كافر لم يهتد إلى

الإسلام.

4 كونه يؤوساً: لا يتعارض مع كثرة دعائه كما في قوله تعالى: {فذو دعاء عريض} إذ يدعو وهو قانط.

(3/220)

مفاصلة قاطعة، للنزاع الناجم عن كون كل يدعى أنه على الحق وأن دينه أصوب، وطريقته أمثل وسبيله أجدى وأنفع.
هداية الآيات:
من هداية الآيات:

- 1- وجوب إقامة الصلاة وبيان أوقاتها المحددة لها.
- 2- الترغيب في النوافل، وخاصة التهجد أي "نافلة الليل".
- 3- تقرير الشفاعة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم.
- 4- ضعف الباطل وسرعة تلاشيهِ إذا صاوله الحق ووقف في وجهه.
- 5- القرآن شفاء لأمراض القلوب عامة ورحمة بالمؤمنين خاصة.
- 6- بيان طبع المرء الكافر وبيان حال الضعف الملازم له.
- 7- تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كيف يتخلصون من الجدال الفارغ والحوار غير المثمر.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) وَلَئِن سَأَلْتَهُنَّ
بِالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا
(87) قُل لَّئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)
شرح الكلمات:

يسألونك : أي يسألك المشركون بواسطة أهل الكتاب عن الروح الذي يحيا به البدن.

(3/221)

من أمر ربي: أي من شأنه وعلمه الذي استأثر به ولم يعلمه غيره.
لنذهبن بالذي أوحينا إليك : أي القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف لفلنا.

لك به علينا وكيلًا: يمنع ذلك منا ويحول دون ما أردناه منك.
إلا رحمة من ربك: أي لكن أبقينا عليك رحمة من ربك فلم نذهب به.
بمثل هذا القرآن: من الفصاحة والبلاغة والمحتوى من الغيوب والشرائع والأحكام.
ظهيراً: أي معيناً ونصيراً.

صرفنا: بينا للناس مثلاً من جنس كل مثل ليتعظوا به فيؤمنوا ويوحّدوا.
فأبى أكثر الناس: أي أهل مكة إلا كفوراً أي جحوداً للحق وعناداً فيه.
معنى الآيات:

يقول تعالى: {ويسألونك 1 عن الروح} إذ قد سأله المشركون عن الروح وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين بإيعاز من يهود المدينة فأخبره تعالى: بذلك وعلمه الرد عليهم فقال: {قل الروح من أمر ربي 2} وعلمه الذي لا يعلمه إلا هو، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً لأن سؤالهم هذا ونظائره دال على إدعائهم العلم فأعلمهم أن ما أوتوه من العلم إلا قليل بجانب علم الله تعالى 3 وقوله تعالى: {ولئن شئنا لنذهبن 4 بالذي أوحينا إليك} هذا امتنان من الله على رسوله الذي أنزل عليه القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بأنه تعالى قادر على محوه من صدره. وسطره، فلا تبقى منه آية ثم لا يجد الرسول وكيلاً له يمنعه من فعل الله به ذلك ولكن رحمة منه تعالى لم يشأ ذلك بل يبقيه إلى قرب قيام الساعة حجة الله على عباده وآية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق رسالته، وليس هذا بأول إفضال من الله تعالى على رسوله، بل فضل الله عليه كبير، ولنذكر من ذلك طرفاً وهو

1 روى ابن إسحق أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود ويثرب يسألانهم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة وذكروا لهما أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي وإلا فإفروا رأيكم فيه فأنزل الله تعالى سورة الكهف وفيها الجواب عن أصحاب الكهف، وذي القرنين، وأنزل هذه الآية: {يسألونك عن الروح}.

2 يطلق الروح على ملك من الملائكة عظيم ويطلق على جبريل ويطلق على هذا الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير وهو المسؤول عنه في هذه الآية، وسؤالهم كان عن بيان حقيقته وماهيته.

3 لفظ الآية عام وإن كان سبب نزولها خاصاً إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإنه ما أوتي أحد علماً إلا وهو إلى جانب علم الله تعالى قليل.

4 روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قوله: إن هذا القرآن الذي أظهركم يوشك أن ينزع منكم. قالوا: كيف ينزع منا وقد أثبتته الله في قلوبنا وكتبناه في المصاحف قال: يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء ثم قرأ: {ولئن شئنا لنذهبن 4 الآية}.

عموم رسالته، كونه خاتم الأنبياء، العروج به إلى الملكوت الأعلى، إمامته للأنبياء الشفاعة العظمى، والمقام المحمود.

وقوله تعالى: {قل لئن اجتمعت 1 الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً} لاشك أن هذا الذي علم الله رسوله أن يقوله له سبب وهو ادعاء بعضهم أنه في إمكانه أن يأتي بمثل هذا القرآن الذي هو آية صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبذلك تبطل الدعوى، وينتصر باطلهم على الحق. فأمر تعالى رسوله أن يرد على هذا الزعم الباطل بقوله: قل يا رسولنا لهؤلاء الزاعمين الإتيان بمثل هذا القرآن لئن اجتمعت الإنس والجن متعاونين متظاهرين على الإتيان بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ذلك لأنه وحي الله وكتابه، وحجته على خلقه، وكفى. فكيف إذا يمكن للإنس والجن أن يأتوا بمثله؟!

وقوله: {ولقد صرفنا في هذا القرآن} أي بينا مثلاً من جنس كل مثل من أجل هداية الناس وإصلاحهم علمهم يتذكرون فيتعظون، فيؤمنون ويوحدون فأبى أكثر الناس إلا كفوراً أي جحوداً بالحق، وإنكاراً للقرآن وتكذيباً به وبما جاء فيه من الحق والهدى والنور، لما سبق القضاء الإلهي من امتلاء جهنم بالغاوين وجنود إبليس أجمعين. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- علم الروح مما استأثر الله تعالى به.
 - 2- ما علم أهل العلم إلى علم الله تعالى إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره من ماء المحيط.
 - 3- حفظ القرآن في الصدور والسطور إلى قرب الساعة.
 - 4- عجز الإنس والجن عن الإتيان بقرآن كالقرآن الكريم.
 - 5- لما سبق في علم الله من شقاوة الناس تجد أكثرهم لا يؤمنون.
- وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا

1 نزلت هذه الآية رداً على كفار قريش عندما قال النضر بن الحارث وغيره لو نشاء لقلنا مثل هذا. ومعنى ظهيراً: أي: عنوناً ونصيراً كما يتعاون الشعراء على قصيد الشعر.

رَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)

شرح الكلمات:

ينبوعاً: عيناً لا ينضب ماؤها فهي دائمة الجريان.

جنة: بستان كثير الأشجار.

كسفاً: قطعاً جمع كسفة كقطعة.

قبيلًا: مقابلة لنهاهم عيناً.

من زخرف : من ذهب.

ترقى: تصعد في السماء

مطمئنين: ساكنين في الأرض لا يبرحون منها.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والبعث وتقرير ذلك. فقال تعالى مخبراً عن قبيلهم لرسول الله وهم يجادلون في نبوته: فقالوا: {لن 1 نؤمن لك} أي لن نتابعك على ما تدعو إليه من التوحيد والنبوة لك والبعث والجزاء لنا {حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً} أي

1 نزلت هذه الآية في رؤساء قريش مثل: عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث وأبي جهل وأمية بن خلف وغيرهم حيث اجتمعوا حول الكعبة ليلاً وبعثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان حريصاً على هدايتهم فأتاهم فقالوا له كلاماً طويلاً ثم خلصوا إلى ما ذكر تعالى في هذه الآية وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا الخ.

(3/224)

عيناً يجري ماؤها على وجه الأرض لا ينقطع {أو تكون لك جنة} أي بستان من نخيل وعنب، {فتفجر الأنهار خلالها} أي خلال الأشجار تفجيراً، {أو تسقط السماء كما زعمت علينا 1 كسفاً} أي قطعاً، {أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا} أي مقابلة نهاهم معابنة، {أو يكون لك بيت من زخرف} أي من ذهب تسكنه بيننا {أو ترقى في السماء} أي تصعد بسلم ذي درج في السماء، {ولن نؤمن

لرقيقك3} إن أنت رقيت {حتى تنزل علينا كتاباً} من عند الله {نقرأه} يأمرنا فيه بالإيمان بك واتباعك! هذه ست طلبات كل واحدة اعتبروها آية متى شاهدوها زعموا أنهم يؤمنون، والله يعلم أنهم لا يؤمنون، فلذا لم يستجب لهم وقال لرسوله: قل يا محمد لهم. {سبحان الله} متعجباً من طلباتهم {هل كنت إلا بشراً رسولاً؟!؟! أي هل كنت غير بشر رسول؟ وإلا كيف يطلب مني هذا الذي طلبوا، إن ما تطلبونه لا يقدر عليه عبد مأمور مثلي، وإنما يقدر عليه رب عظيم قادر، يقول للشيء كن... فيكون! وأنا ما ادعيت ربوبية، وإنما أصرح دائماً بأني عبد الله ورسوله إليكم لأبلغكم رسالته بأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به سواه وتؤمنوا بالبعث الآخر وتعملوا له بالطاعات وترك المعاصي. وقوله تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى} أي وما منع أهل مكة أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى4 على يد رسولهم {إلا أن قالوا} أي إلا قولهم {أبعث الله بشراً رسولاً} منكرين على الله أن يبعث رسولاً من البشر!

وقوله تعالى: {قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً} أي قل يا رسولنا لهؤلاء المنكرين أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم بشراً، المتعجبين من ذلك، قل لهم: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ساكنين في الأرض لا يغادرونها لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً يهديهم بأمرنا ويعلمهم ما يطلب منهم فعلة بإذننا لأنهم يفهمون عنه لرابطة الجنس بينهم والتفاهم الذي يتم لهم. ولذا بعثنا إليكم رسولاً من جنسكم تفهمون ما يقول لكم يقدر على إفهامكم والبيان لكم فكيف إذا تتكرون الرسالة للبشر وهي أمر لا بد منه؟!!

1 الكسف: بفتح السين جمع كسفة بإسكانها، قرأ نافع كسفاً بفتح السين وكذا عاصم وقرأ غيرهما كسفاً بإسكان السين أي: قطعة.

2 فسر قبلاً بعدة تفسيرات قال ابن عباس: كفيلاً، وقال مقاتل: شهيداً، وقال مجاهد جمع القبيلة أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وقيل ضمناً يضمنون لنا إتيانك به وما في التفسير أولى وأظهر في تفسير الآية.

3 الرقى: مصدر رقى يرقى رقيقاً ورُقياً أي: صعد المنبر ونحوه.

4 الهدى: أي ما يحقق الهداية من الكتب والرسول من عند الله تعالى.

(3/225)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- 2- بيان شدة عناد مشركي قريش، وتصلبهم وتحزيبهم إزاء دعوة التوحيد.
- 3- بيان سخف عقول المشركين برضاهم للألوهية بحجر وإنكارهم الرسالة للبشر!
- 4- تقرير أن التفاهم حسب سنة الله لا يتم إلا بين المتجانسين فإذا اختلفت الأجناس فلا تفاهم إلا أن يشاء الله فلا يتفاهم إنسان مع حيوان أو جان.

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ غُمًّا وَكُفًّا وَصَمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)

شرح الكلمات :

شهِيداً : على أي رسول الله إليكم وقد بلغتكم وعلى أنكم كفرتم وعاندتم.

فلن تجد لهم أولياء: أي يهدونهم.

على وجوههم : أي يمشون على وجوههم.

عمياً وكفماً وصمماً : لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون.

(3/226)

كلما خبت : أي سكن لهبها زدها سعيراً أي تلهباً واستعاراً.

وقالوا : أي منكبين للبعث.

مثلهم : أي أناساً مثلهم.

أجلاً: وقتاً محدداً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية إذ يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل لأولئك المنكرين أن يكون الرسول بشراً، {كفى 1 بالله شهيداً بيني وبينكم} على أي رسوله وأنتم منكرون عليّ ذلك.

إنه تعالى كان وما زال {يعباده خبيراً} أي ذا خبرة تامة بهم {بصيراً} بأحوالهم يعلم المحق منهم من المبطل، والصادق من الكاذب وسيجزي كلاً بعدله ورحمته.

وقوله تعالى: {ومن يهد الله فهو المهتد} يخبر تعالى أن الهداية بيده تعالى فمن يهده الله فهو المهتدي بحق، {ومن يضلل فلن تجد لهم 3 أولياء من دونه} أي يهدونهم بحال من الأحوال، وفي هذا الكلام تسلية للرسول وعزاء له في قومه المصرين على الجحود والإنكار لرسالته.

وقوله: {ونحشرهم يوم القيامة} أي أولئك المكذبين الضالين الذين ماتوا على ضلالهم وتكذيبهم فلم يتوبوا نحشرهم يوم القيامة، يمشون على وجوههم 4 حال كونهم عمياً لا يبصرون، بكماً لا ينطقون، صماً 5 لا يسمعون وقوله تعالى: {مأواهم جهنم} أي محل استقرارهم في ذلك اليوم جهنم الموصوفة بأنها {كلما خبت} أي سكن لهبها عنهم زادهم الله سعيراً أي تلهباً

- 1 روي أن نفرأ من قريش قالوا حين سمعوا قوله: {هل كنت إلا بشراً رسولاً} فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل: {قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً}.
- 2 حذفت الباء ليوقف على الدال بالسكون وهي لغة فصيحة وفي حال الوصل يؤتى بالياء نطقاً بها.
- 3 جمع الضمير (لهم) مراعاة إلى أن (من) تكون للواحد والمتعدد.
- 4 أي: يسحبون على وجوههم إهانة لهم كما يفعل في الدنيا بمن ينتقم منه حيث يسحبونه على وجهه في الأرض إهانة، ومن سورة القمر قال تعالى: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} وجائز أن يمشوا على وجوههم عند حشرهم إلى جهنم فإذا دخلوها سحبوا على وجوههم لحديث أنس: "أليس الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه؟" في جواب سائل قال: أفيحشر الكفار على وجوههم؟
- 5 هذا في حال حشرهم إلى جهنم وكانوا قبل ذلك يسمعون ويبصرون وينطقون ثم إذا دخلوها عادت إليهم حواسهم للآيات القرآنية المصرحة بذلك منها: {ورأى المجرمون..} ومنها: {سمعوا لها تغيظاً وزفيراً} ومنها: {قالوا يا مالك ليقض علينا ربك..}.

(3/227)

واستعاراً. وقوله تعالى: {ذلك جزاؤهم} أي ذلك العذاب المذكور جزاؤهم بأنهم كفروا بآيات الله أي بسبب كفرهم بآيات الله. وقولهم إنكاراً للبعث الآخر واستبعاداً له: {أإذا كنا عظاماً ورُفاتاً} أي تراباً {أئننا لمبعوثون خلقاً جديداً} ورد الله تعالى على هذا الاستبعاد منهم للحياة الثانية فقال: {أو لم يروا} أي أينكرون البعث الآخر؟ ولم يروا بعيون قلوبهم {أن الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم}؟؟! بلى إنه لقادر لو كانوا يعلمون!

وقوله تعالى: {وجعل لهم أجلاً} أي وقتاً محدوداً معيناً لهلاكهم وعذابهم {لا ريب فيه} وهم صائرون إليه لا محالة، وقوله: {فأبى الظالمون إلا كفوراً} أي مع هذا البيان والاستدلال العقلي أبى الظالمون إلا الجحود والكفران ليحق عليهم كلمة العذاب فيذوقوه والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- عظم شهادة الله تعالى ووجوب الاكتفاء بها.
 - 2- الهداية والإضلال بيد الله فيجب طلب الهداية منه والاستعاذة به من الضلال.
 - 3- فظاعة عذاب يوم القيامة إذ يحشر الظالمون يمشون على وجوههم كالحيات وهم صم بكم عمي والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار.
 - 4- جهنم جزاء الكفر بآيات الله والإنكار للبعث والجزاء يوم القيامة.
 - 5- دليل البعث عقلي كما هو نقلي فالقادر على البدء، قادر عقلاً على الإعادة بل الإعادة - عقلاً- أهون من البدء للخلق من لاشيء.
- قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا (100) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ

1 جملة: {وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه} معطوفة على جملة {أو لم يروا} لتأويلها بمعنى: قد رأوا ذلك لو كانوا يعقلون. الأجل: الزمن المَجْعول غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال والمراد به هنا مدة حياتهم.

(3/228)

هُؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

شرح الكلمات:

خزائن رحمت ربي : أي من المطر والأرزاق.

لأمسكتكم: أي منعتم الإنفاق.

خشية الإنفاق: خوف النفاد.

قثوراً : أي كثير الإقتار أي البخل والمنع للمال.

تسع آيات بينات : أي معجزات بينات أي واضحات وهو اليد والعصا والطمس والخ.

مسحوراً: أي مغلوباً على عقلك، مخدوعاً.

ما أنزل هؤلاء: أي الآيات التسع.

مثبوراً: هالكاً بانصرافك عن الحق والخير.

فأراد أن يستفزههم : أي يستخفهم ويخرجهم من ديار مصر.

اسكنوا الأرض: أي أرض القدس والشام.

الآخرة: أي الساعة.

لغيراً: أي مختلطين من أحياء وقبائل شتى.

معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، قل يا محمد لأولئك الذين يطالبون بتحويل جبل الصفا إلى ذهب، وتحويل المنطقة حول مكة إلى بساتين من نخيل وأعناب تجري الأنهار من خلالها، قل لهم، لو كنتم أنتم تملكون خزائن رحمة ربي من الأموال والأرزاق لأمسكتم بخلا بها ولم تتفقوها خوفاً من نفاذها إذ هذا طبعكم، وهو البخل، {وكان الإنسان} قبل هدايته وإيمانه {قتوراً} أي كثير التقتير بخلاً وشحاً نفسياً ملازماً له حتى يعالج هذا الشح بما وضع الله تعالى من دواء نافع جاء بيانه في سورة المعارج 1 من هذا

1 هو قوله تعالى: {إنَّ الإنسان خلق هلوفاً إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً إلاّ المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون} إلى قوله: {والذين هم على صلاتهم يحافظون}.

(3/229)

الكتاب الكريم.

وقوله تعالى: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات} 1 أي، ولقد أعطينا موسى بن عمران نبي بني إسرائيل تسع آيات وهي: اليد، والعصا والدّم، وانفلاق البحر، والطمس على أموال آل فرعون، والطوفان والجراد والقمل والضفادع، فهل آمن عليها آل فرعون؟! لا، إذاً، فلو أعطيناك ما طالب به قومك المشركون من الآيات الست التي اقترحوها وتقدمت في هذه السياق الكريم مبينة، ما كانوا ليؤمنوا بها، ومن هنا فلا فائدة من إعطائك إياها.

وقوله تعالى: {فاسأل بني إسرائيل} أي سل يا نبينا علماء بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره، إذ جاءهم موسى بطالب فرعون بإرسالهم معه ليخرج بهم إلى بلاد القدس، وأرى فرعون الآيات الدالة على صدق نبوته ورسالته وأحقية ما يطالب به فقال له فرعون: {إنني لأظنك يا موسى مسحوراً} أي ساحراً لإظهارك ما أظهرت من هذه الخوارق، ومحسوراً بمعنى مخدوعاً مغلوباً على عقلك فتقول الذي تقول مما لا يقوله العقلاء فرد عليه موسى بقوله بما أخبر تعالى به في قوله {لقد علمت} أي فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا رب السماوات أي خالقها ومالكها والمدبر لها {بصائر} أي آيات واضحة مضيئات هاديات لمن طلب الهداية، فعميت عنها وأنت تعلم صدقها {وإنني لأظنك يا فرعون مسحوراً} 3! أي من أجل هذا أظنك يا فرعون ملعوناً، من رحمة الله مبعداً مثبوراً هالكاً. فلما

أعيته أي فرعون الحجج والبيّنات لجأ إلى القوة، {فأراد أن يستفزه من الأرض} أي يستخفهم من أرض مصر بالقتل الجماعي استتصلاً لهم، أو بالنفي والطرْد والتشريد، فعامله الرب تعالى بنقيض، قصده فأغرقه الله تعالى هو وجنوده أجمعين، وهو معنى قوله تعالى: {فأغرقناه ومن معه} أي من الجنود {أجمعين} وقوله تعالى:

1 روى الترمذي وصححه والنسائي عن صفوان بن عسال المرادي: " أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فقال: لا تقل له نبي فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات} فقال: لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا ولا تذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف، وعليكم يا معشر يهود خاصة ألاّ تعدوا في السبت فقبلاً يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي قال: ما يمنعكما أن تؤمنا؟ قالوا: إن داود دعا الله ألاّ يزل في ذريته نبي وإنّا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود". وعليه فالمراد بالآيات: آيات التشريع في التوراة، وهذا وجه. ولا منافاة مع تفسير الآيات بالمعجزات التسع كما في التفسير.

2 لا خلاف في اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والدم وإنما الخلاف في الثلاث الباقية وانفلاق البحر مجمع عليه وإنما في الطمس والحجر لأن الحجر كان في التيه بعد نجات بني إسرائيل.

3 الظنّ هنا بمعنى التحقيق، وذكر لكلمة مثبور عدة معان كلها صحيحة منها: الهلاك والخسران والخبال والمنع من الخير، قال ابن الزبير:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغيِّ ومن مال مَيْلَةً مثبوراً
أي هالك وخاسر.

(3/230)

{وولنا من بعده} أي من بعد هلاك فرعون وجنوده لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام {اسكنوا الأرض} أي أرض القدس والشام إلى نهاية آجالكم بالموت. {فإذا جاء وعد الآخرة} أي يوم القيامة بعثناكم أحياء كغيركم، {وجئنا بكم لفيماً} أي مختلطين من أحياء وقبائل أجناس شتى لا ميزة لأحد على آخر، حفاة عراة لفصل القضاء ثم الحساب والجزاء.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- الشح من طبع الإنسان إلا أن يعالجه بالإيمان والتقوى فيقيه الله منه 1.

2- الآيات وحدها لا تكفي لهداية الإنسان بل لا بد من توفيق إلهي.

9- مظاهر قدرة الله تعالى وانتصاره لأوليائه وكبت أعدائه.

4- بيان كيفية حشر الناس يوم القيامة لفيماً أخلاطاً من قبائل وأجناس شتى.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)

شرح الكلمات:

وبالحق أنزلناه : أي القرآن.

وبالحق نزل : أي نزل ببيان الحق في العبادات والعقائد والأخبار والمواعظ والحكم والأحكام.

وقرآنًا فرقناه : أن نزلناه مفرقاً في ظرف ثلاث وعشرين سنة لحكمة اقتضت ذلك.

على مكث : أي على مهل وتؤده ليفهمه المستمع إليه.

1 قال تعالى : {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}.

(3/231)

ونزلناه تنزيلاً: أي شيئاً فشيئاً حسب مصالح الأمة لتكتمل به ولتسعد عليه.

أوتوا العلم من قبله : أي مؤمنوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي.

للأذقان سجداً: أي سجداً على وجوههم، ومن سجد على وجهه فقد خزر على ذقنه ساجداً.

إن كان وعد ربنا لمفعولاً : منجزاً، واقعاً، فقد أرسل النبي الأُمي الذي بشرت به كتبه وأنزل عليه كتابه.

معنى الآيات:

يقول تعالى: {وبالحق أنزلناه} أي ذلك الكتاب الذي جحد به الجاحدون، وكذب به المشركون أنزلناه بالحق الثابت حيث لا شك أنه كتاب الله ووحيه إلى رسوله، و {وبالحق نزل} فكل ما جاء فيه ودعا إليه وأمر به. وأخبر عنه من عقائد وتشريع وأخبار ووعد ووعيد كله حق ثابت لا خلاف فيه ولا ريبه منه. وقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً} أي لم نرسلك لخلق الهداية في قلوب عبادنا ولا لإجبارهم بقوة السلطان على الإيمان بنا وتوحيدنا، وإنما أرسلناك للدعوة والتبليغ {مبشراً} من أطاعنا بالجنة ومنذراً من عصانا مخوفاً من النار. وفي هذا تقرير لرسالته صلى الله عليه وسلم ونبوته وقوله

تعالى: {وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث} أي أنزلنا القرآن وفرقناه في خلال ثلاث وعشرين سنة لحكمة منا اقتضت ذلك وقوله {لتقرأه على الناس على مكث} آيات بعد آيات ليكون ذلك أَدْعَى إلى فهم من يسمعه ويستمتع إليه، وقوله تعالى: {ونزلناه 1 تنزيلاً} أي شيئاً فشيئاً حسب 2 مصالح العباد وما تتطلبه تربيتهم الروحية والإنسانية ليكملوا به، عقولاً وأخلاقاً وأرواحاً ويسعدوا به في الدارين وقوله تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا} أي قل يا رسولنا للمنكرين للوحي القرآني من قومك، آمنوا به أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به كعدمه لا يغير من واقعه شيئاً فسوف يؤمن به ويسعد عليه غيركم إن لم تؤمنوا أنتم به وهاهم أولاء الذين أوتوا العلم من قبله من علماء أهل الكتابين اليهود والنصارى قد آمنوا به، يريد أمثال عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي والنجاشي أصحح الحبشي وإنهم {إذا يتلى عليهم} أي يُقرأ عليهم {يخرون للأذقان سجداً} أي يخرون ساجدين على أذقانهم ووجوههم ويقولون حال سجودهم {سبحان ربنا} 3

1 قال القرطبي: لا خلاف في أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة.

2 {تنزيلاً}: مصدر مؤكد لنزوله نجماً بعد نجم وهو معنى مفرقاً آية بعد آية وسورة بعد سورة حتى اكتمل نزوله.

3 في الآية دليل على مشروعية التسبيح في السجود وشاهده من السنة رواية مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده وركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" وورد أنه فعله استجابة لقول الله تعالى {فسبح بحمد ربك واستغفره} آخر سورة النصر.

(3/232)

أي تنزيهاً له أن يخلف وعده إذ وعد أنه يبعث نبي آخر الزمان وينزل عليه قرآنًا، {إن كان وعد ربنا لمفعولاً} إقراراً منهم بالنبوة المحمدية والقرآن العظيم، أي ناجزاً إذ وعد بإرسال النبي الخاتم وإنزال الكتاب عليه فأنجز ما وعد، وهكذا وعد ربنا دائماً ناجز لا يتخلف. وقوله {ويخرون 1 للأذقان} يكون 2 أي عندما يسمعون القرآن لا يسجدون فحسب بل يخرون ويكون ويزيدهم سماع القرآن وتلاوته خشوعاً في قلوبهم واطمئناناً في جوارحهم لأنه الحق سمعوه من ربهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- القرآن حق من الله وما نزل به كله حق.

2- الندب إلى ترتيل القرآن لاسيما عند قراءته على الناس لدعوتهم إلى الله تعالى.

3- تقرير نزول القرآن مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

4- تقرير النبوة المحمدية بنزول القرآن وإيمان من آمن به من أهل الكتاب.

5- بيان حقيقة السجود وأنه وضع الوجه على الأرض.

6- مشروعية السجود للقرىء أو المستمع وسنية ذلك عند قراءة هذه الآية وهي ليخرون للأذقان
يكون ويزيدهم خشوعاً فيخر ساجداً مكبراً في الخفض وفي الرفع قائلاً: الله أكبر ويسبح ويدعو في
سجوده بما يشاء.

قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا
وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا (111)

1 {الأذقان} جمع ذقن وهو مجتمع للحيين، والسجود على الجبهة والأنف وإنما ذكر الأذقان هنا لأنّ
الحية تصل إلى الأرض قبل الجبهة والأنف إذا كانت طويلة كما هي السنة.
2 دلت الآية على أن البكاء في الصلاة لا يقطعها، والخلاف في النفخ والأئين والتحنج والصحيح
أنّ ما كان بحروف تسمع كان كلاماً ويقطع الصلاة وما لم يكن بحرف فلا فقد كان النبي صلى الله
عليه وسلم يبكي في صلاته ويسمع له أزيز كأزير المرجل.

(3/233)

شرح الكلمات:

ادعوا الله أو ادعوا الرحمن: أي سموه بأيهما ونادوه بكل واحد منهما الله أو الرحمن.

أياماً تدعوا: أي إن تدعوه بأيهما فهو حسن لأن له الأسماء الحسنى وهذان منها.

ولا تجهر بصلاتك: أي بقراءتك في الصلاة كراهة أن يسمعها المشركون فيسبوك ويسبوا القرآن ومن
أنزله.

ولا تخافت بها: أي ولا تسر به إسراً حتى ينتفع بقراءتك أصحابك الذين يصلون وراءك بصلاتك.

وابتغ بين ذلك سبيلاً: أي اطلب بين السر والجهر طريقاً وسطاً.

لم يتخذ ولداً: كما يقول الكافرون.

ولم يكن له شريك: كما يقول المشركون.

ولم يكن له ولي من الدل: أي لم يكن له ولي ينصره من أجل الدل إذ هو العزيز الجبار مالك الملك
ذو الجلال والإكرام.

وكبره تكبيراً: أي عظمه تعظيماً كاملاً عن اتخاذ الولد والشريك والولي من الدل.

معنى الآيات:

كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه يا الله. يا رحمن، يا رحمن يا رحيم فسمعه المشركون وهم يتصيدون له أية شبهة ليثيروها ضده فلما سمعوه يقول: يا الله، يا رحمن قالوا: أنظروا إليه كيف يدعو إلهين وبنهاننا عن ذلك فأنزل الله تعالى 1: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} أي قل لهم يا نبينا أدعوا الله أو أدعوا الرحمن فأنزل الله هو الرحمن الرحيم ف {أياما تدعوا} منهما الله أو الرحمن فهو الله ذو الأسماء الحسنی والصفات العلی وقوله تعالى: {ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا} أي وسطاً بين السر والجهر، وذلك أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوا قارئه ومن أنزله، فأمر الله تعالى رسوله والمؤمنون تابعون له إذا قرأوا في صلاتهم أن لا يجهروا حتى لا

1 فنزلت الآية مبيّنة أنهما الله والرحمن اسمان لمسمى واحد فإن دُعي يا الله فهو ذلك وإن دعي يا رحمن فهو ذلك.

2 روى مسلم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {ولا تجهر بصلاتك} الخ قوله نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوارٍ بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به". فقال الله تعالى: {ولا تجهر بصلاتك}، فيسمع المشركون قراءتك {ولا تخافت بها} عن أصحابك أي: أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر {وابتغ بين ذلك سبيلا} أي: بين الجهر والمخافة كان هذا في مكة ثم استقرت السنة بالجهر في صلاة الصبح والمغرب والعشاء في الركعتين الأولتين والسر في صلاة الظهر والعصر وثالثة المغرب والأخيرتين من صلاة العشاء.

(3/234)

يسمع المشركون قراءتهم ولا يسروا حتى لا يحرم سماع القرآن من يصلي وراءهم فأمر رسول الله بالتوسط بين الجهر والسر.

وقوله تعالى: {وقل الحمد لله} الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً} أي أمر الله تعالى الرسول أن يحمد الله الذي لم يتخذ ولداً كما زعم ذلك بعض العرب، إذ قالوا الملائكة بنات الله! وكما زعم ذلك اليهود إذ قالوا عزيز بن الله والنصارى إذ قالوا عيسى بن الله! {ولم يكن له شريك في الملك} كما قال المشركون من العرب: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هولك، تملكه وما ملك! {ولم يكن له ولي من الذل} كما قال الصابئون والمجوس: لو لا أولياء الله لذل الله! {وكبره} أنت أو عظمه يا رسولنا تعظيماً من أن يكون له وصف النقص والافتقار والعجز.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إن لله الأسماء الحسنى وهي مائة اسم إلا اسماً واحداً 2 فيدعى الله تعالى وينادى بأبيها، وكلها حسنى كما قال تعالى في سورة الأعراف: {لله الأسماء الحسنى فادعوه بها}.
- 2- بيان ما كان عليه المشركون في مكة من بغض للرسول والقرآن والمؤمنين.
- 3- مشروعية الأخذ بالاحتياط للدين كما هو للدنيا.
- 4- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه وتنزيهه عن كل عجز ونقص.
- 5- هذه الآية {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدن} تسمى آية العز هكذا سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- 1 روي عن عمر أنه قال: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها، وورد أنّ هذه الآية {وقل الحمد لله} الخ خاتمة التوراة وفاتحتها أول سورة الأنعام.
- 2 الإجماع على أنه لا يصح وضع اسم لله تعالى بالنظر والاجتهاد وإنما أسماؤه وصفاته توقيفية مصدرها الوحي الإلهي: الكتاب والسنة.

(3/235)

سورة الكهف

...

سورة الكهف 1

مكية

وآياتها عشر ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)

شرح الكلمات:

الحمد لله : الحمد الوصف بالجميل، والله عَم على ذات الرب تعالى.

الكتاب : القرآن الكريم.

ولم يجعل له عوجاً: أي ميلاً عن الحق والاعتدال في ألفاظه ومعانيه.
قيماً: أي ذا اعتدال لا إفراط فيه ولا تفريط في كل ما حواه ودعا إليه من التوحيد والعبادة والآداب
والشرائع والأحكام.
بأساً شديداً : عذاباً ذا شدة وقسوة وسوء عذاب في الآخرة.

1 روى مسلم: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال" وروى الدارمي في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق" .. وروي أيضاً "أن من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نوراً يبلغ السماء ووقى فتنة الدجال".

(3/236)

من لدنه: من عنده سبحانه وتعالى.
أجراً حسناً: أي الجنة إذ هي أجر المؤمنين العاملين بالصالحات.
كبرت كلمة: أي عظمت فريه وهي قولهم الملائكة بنات الله.
إن يقولون إلا كذباً : أي ما يقولون إلا كذباً بحتاً لا واقع له من الخارج.
باخع نفسك: قاتل نفسك كالمنتحر.
بهذا الحديث أسفاً : أي بالقرآن من أجل الأسف الذي هو الحزن الشديد.
معنى الآيات:

أخبر تعالى في فاتحة سورة الكهف 1 بأنه المستحق للحمد، وأن الحمد لله وذكر موجب ذلك، وهو إنزاله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب العظيم وهو القرآن العظيم الكريم فقال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب} وقوله تعالى: {ولم يجعل له عوجاً}2 أي ولم يجعل لذلك الكتاب العظيم عوجاً أي ميلاً عن الحق والاعتدال في ألفاظه ومعانيه فهو كلام مستقيم محقق للأخذ به كل سعادة وكمال في الحياتين. وقوله {قيماً} أي معتدلاً خالياً من الإفراط والتفريط قيماً على الكتب السابقة مهيمناً عليها الحق فيها ما أحقه والباطل ما أبطله.

وقوله: {لينذر بأساً شديداً من لدنه} أي أنزل الكتاب الخالي من العوج القيم من أجل أن ينذر الظالمين من أهل الشرك والمعاصي عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ينزل بهم من عند ربهم الذين كفروا به وأشركوا وعصوه وكذبوا رسوله وعصوه. ومن أجل أن يبشر بواسطته أيضاً {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} أي يخبرهم بما يسرهم ويفرح قلوبهم وهو أن لهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وقوله تعالى: {وينذر} بصورة خاصة أولئك المتقولين على الله المفتريين

عليه بنسبتهم الولد إليه فقالوا: {اتخذ الله ولداً} وهم اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله! هذا ما دل عليه قوله تعالى: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً} وهو قول تَوَارِثُوهُ لا علم لأحد منهم به، وإنما هو مجرد كذب يتناقضونه

1 روى ابن اسحق في سبب نزول سورة الكهف حديثاً طويلاً خلاصته أن وفداً من قريش أتوا اليهود بالمدينة وقالوا لهم أنتم أهل الكتاب فأخبرونا عن صاحبنا هذا- محمد صلى الله عليه وسلم- فقالت اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل فإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوافه قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟؛ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول فانظروا في أمره ما بدالكم وأتى الوفد مكة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أخبركم بما سألتكم عنه غداً؛ ولم يستثن أي: لم يقل إن شاء الله فانقطع الوحي نصف شهر ثم نزلت سورة الكهف وفيها جواب ما سألوها. 2 العوج: ضد الاستقامة وهو الانحراف في الذوات والمعاني وتكسر عينه وتقع، وقيل: الكسر في المعاني والفتح في الذوات.

(3/237)

بينهم لذا قبح الله قولهم هذا وعجب منه العقلاء، فقال: {كبرت كلمة تخرج من أفواههم} أي عظم قولهم {اتخذ الله ولداً} كلمة قالوها تخرج من أفواههم لا غير إذ لا واقع لها أبداً، وقرر الإنكار عليهم فقال: {إن يقولون إلاّ كذباً} أي ما يقولون إلاّ الكذب البحت الذي لا يعتمد على شيء من الصحة البتة. وقوله: {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً} يعاتب الله تعالى رسوله ويخفف عنه ما يجده في نفسه من الحزن على عدم إيمان قومه واشتدادهم في الكفر والتكذيب وما يقترحونه عليه من الآيات أي فلعلك يا رسولنا قاتل نفسك على إثر رفض قومك للإيمان بك وكتابك وما جئت به من الهدى، حزناً عليهم، وجزعاً منهم، فلا تفعل واصبر لحكم ربك فإنه منجز وعده لك بالنصر على قومك المكذبين لك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حمد الله تعالى على آلائه وعظيم نعمه.
- 2- لا يحمد إلاّ من له ما يقتضي حمده، وإلاّ كان المدح كذباً وزوراً.
- 3- عظم شأن القرآن الكريم وسلامته من الإفراط والتفريط والانحراف في كل ما جاء به.

- 4- بيان مهمة القرآن وهي البشارة لأهل الإيمان والإنذار لأهل الشرك والكفران.
- 5- التنديد بالكذب على الله ونسبة ما لا يليق بجلاله وكماله إليه كالولد ونحوه.
- 6- تحريم الانتحار وقتل النفس من الحزن أو الخوف ونحوه من الغضب والحرمان.
- إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي

1 {بإخاع} مهلك نفسك، قال ذو الرمة:

ألا أبهذا الباع الوجد نفسه

بشيء نحتة عن يديه المقادر

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما الباع بقائل نفسه من شدة الحزن.

(3/238)

الْكَهْفِ سِنِينَ عَدًّا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)

شرح الكلمات:

صعيداً جرزاً: أي تراباً لا نبات فيه، فالصعيد هو التراب والجرز 1 الذي لا نبات فيه.

الكهف: النقب الواسع في الجبل والضيق منه يقال له "غار".

والرقيم: لوح حجري رقت فيه أسماء أصحاب الكهف.

أوى الفتية إلى الكهف : اتخذوه مأوى لهم ومنزلاً نزلوا فيه.

الفتية: جمع فتى وهم شبان مؤمنون.

هيئ لنا من أمرنا رشداً : أي ييسر لنا طريق رشد وهداية.

فضربنا على آذانهم : أي ضربنا على آذانهم حجاً يمنعهم من سماع الأصوات والحركات.

سنين عددا : أي أعواماً عدة.

ثم بعثناهم : أي من نومهم بمعنى أيقظناهم.

أحصى لما لبثوا : أي أضبط لأوقات بعثهم في الكهف.

أمداً: أي مدة محدودة معلومة.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها} من حيوان وأشجار ونبات وأنهار وبحار، وقوله

{لنبلوهم} أي لنختبرهم {أيهم أحسن عملاً} أي أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا

وقوله: {وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً} أي وإنا لمخربوها في يوم، من الأيام بعد عمارتها ونضارتها وزينتها نجعلها {صعيداً 2 جرزاً} أي تراباً لا نبات فيه، إذاً فلا تحزن يا رسولنا ولا تغتم مما تلاقيه من قومك فإن مآل الحياة التي من أجلها عادوك وعصوننا إلى أن

1 الجرز: القاحل الأجرد الذي لا نبات فيه.

2 الصعيد: وجه الأرض والجمع صُعد، والصعيد: الطريق أيضاً لحديث الصحيح: "ياكمم والقعود على الصعدات" أي: الطرق، وجمع الجرز: أجزاز يقال سنين أجزاز لا مطر فيها ولا عشب ولا نبات.

(3/239)

تصبح صعيداً جرزاً. وقوله تعالى: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم 2 كانوا من آياتنا عجباً} أي أظننت أيها النبي أن أصحاب الكهف أي الغار في الكهف والرقيم وهو اللوح الذي كتبت عليه ورقم أسماء أصحاب الكهف وأنسابهم وقصتهم {كانوا من آياتنا عجباً 3} أي كان أعجب من آياتنا في خلق ومخلوقات، السموات والأرض بل من مخلوقات الله ما هو أعجب بكثير. وقوله: {إذ أوى الفتية إلى الكهف} هذا شروع في ذكر قصتهم العجيبة، أي اذكر للسائلين لك عن قصة هؤلاء الفتية، إذ أوا إلى الغار في الكهف فنزلوا فيه، واتخذوه مأوى لهم ومنزلاً هروباً من قومهم الكفار أن يفتنهم في دينهم وهم سبعة شبان ومعهم كلب لهم فقالوا سائلين ربه: {ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً} أي أعطنا من عندك رحمة تصحبنا في هجرتنا هذه للشرك والمشركين {وهيء لنا من أمرنا رشداً} أي ويسر لنا من أمرنا في فرارنا من ديار المشركين خوفاً على ديننا {رشداً 4} أي سداداً وصلاحاً ونجاة من أهل الكفر والباطل، قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآيات وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف الذي ذكره الله في كتابه فقال بعضهم: كان سبب ذلك أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى وكان لهم ملك عابد وثن دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم أو يقتلهم فاستخفوا منه في الكهف وقوله تعالى: {فضرنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً} أي فضرنا على آذانهم حجاباً 5 يمنهم من سماع الأصوات والحركات فناموا في كهفهم سنين معدودة أي ثلاثمائة وتسع سنين، وكانوا يتقلبون بلطف الله وتدبيره لهم من جنب إلى جنب حتى بعثهم من نومهم وهذا استجابة الله تعالى لهم إذ دعوهم قائلين: {ربنا آتنا من لدنك رحمة} وقوله تعالى: {ثم بعثناهم} أي من نومهم ورقادهم {لنعلم أي الحزين أحصى لما لبثوا} أي في الكهف {أمداً} أي لنعلم علمَ مشاهدة ولينظر عبادي فيعلموا أي الطائفتين 6 اللتين اختلفتا في قدر لبثهم في الكهف كانت أحصى لمدة لبثهم في الكهف حيث اختلف

الناس إلى حزبين حزب يقول لبثوا في كهفهم كذا سنة وآخر يقول لبثوا إلى مدى أي غاية كذا من السنين.

- 1 (أم) هذه هي المنقطعة التي تقدّر ببل والاستفهام للتعجب.
- 2 ويجمع الرقيم على رُقم، والرقيم: فعيل بمعنى مفعول أي: مرقوم بمعنى مكتوب.
- 3 إنّ إماتة الأحياء أعجب من إماتة أصحاب الكهف.
- 4 الرشد: بفتحين: الخير، وإصابة الحق والنفع والصلاح أيضاً.
- 5 أي: حائلاً كغشاوة ونحوها مما يحول دون السمع، ومعنى ضربنا، جعلنا أو وضعنا كقوله: {ضربت عليهم الذلّة} أي: جعلت وألصقت بهم.
- 6 يبعد أن يكون المراد بالحزبين: هم أصحاب الكهف أنفسهم بل الذين اختلفوا فيهم حزبان من الأمة التي اكتشفتهم بعد مضيّ سنين عديدة.

(3/240)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان العلة في وجود الزينة على هذه الأرض، وهي الابتلاء والاختبار للناس ليظهر الزاهد فيها، العارف بتفاهتها وسرعة زوالها، وليظهر الراغب فيها المتكالب عليها الذي عصى الله من أجلها.
 - 2- تقرير فناء كل ما على الأرض حتى تبقى صعيداً جزراً وقاعاً صافصفاً لا يرى فيها عوج ولا أمت.
 - 3- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بإجابة السائلين عن أصحاب الكهف بالإيجاز والتفصيل.
 - 4- تقرير التوحيد ضمّن قصة أصحاب الكهف إذ فروا بدينهم خوفاً من الشرك والكفر.
 - 5- استجابة الله دعاء عباده المؤمنين الموحدين حيث استجاب للفتية فأواهم الدار ورعاهم حتى بعثهم بعد تغير الأحوال وتبدل العباد والبلاد.
- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (14) هُوَ لَاءَ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (16)

شرح الكلمات:

نبأهم بالحق : أي خبرهم العجيب بالصدق واليقين.

وزدناهم هدى : أي إيماناً وبصيرة في دينهم ومعرفة ربهم حتى صبروا على الهجرة.

(3/241)

وربطنا على قلوبهم : أي شددنا عليها فقويت عزائم حتى قالوا كلمة الحق عند سلطان جائر. لن ندعوا من دونه إلها : لن نعبد من دونه إلهاً آخر. لو لا يأتون عليهم بسلطان : أي هلا يأتون بحجة قوية تثبت صحة عبادتهم. على الله كذباً : أي باتخاذ آلهة من دونه تعالى يدعوها ويعبدها. فأووا إلى الكهف: أي انزلوا في الكهف تستترون به على أعين أعدائكم المشركين. ينشر لكم ربكم من رحمته: أي يبسط من رحمته عليكم بنجاتكم مما فررتم منه. ويهيء لكم من أمركم : ويبسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغم والكرب. مرفقا: أي ما ترتفقون به وتتفجعون من طعام وشراب وإواء. معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى موجز قصة أصحاب الكهف أخذ في تفصيلها فقال {نحن نقص عليكم نبأهم بالحق1} أي نحن رب العزة والجلال نقص عليك أيها الرسول خبر أصحاب الكهف بالحق الثابت الذي لا شك فيه {إنهم فتية2}، جمع فتى {آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} أي صدقوا بوجوده ووجوب عبادته وتوحيده فيها وقوله {وزدناهم هدى} أي هداية إلى معرفة الحق من محاب الله تعالى ومكارهه. وقوله تعالى: {وربطنا على قلوبهم} أي قوينا عزائمهم بما شددنا على قلوبهم حتى قاموا وقالوا على رؤوس الملائم وأمام ملك كافر {ربنا رب السموات والأرض} أي ليس لنا رب سواه، لن ندعوا من دونه إلهاً مهما كان شأنه، إذ لو اعترفنا بعبادة غيره لكنا قد قلنا إذا شططاً من القول وهو الكذب والغلو فيه وقوله تعالى: {هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة} يخبر تعالى عن قيل الفتية لما ربط الله على قلوبهم إذ قاموا في وجه المشركين الظلمة وقالوا: {هؤلاء قومنا اتخذوا3 من دون الله آلهة، لو لا يأتون عليهم بسلطان بين} أي هلا يأتون عليهم بسلطان بين أي بحجة واضحة تثبت عبادة هؤلاء الأصنام من دون الله؟ ومن أين ذلك والحال أنه لا إله إلا الله؟! وقوله تعالى: {فمن أظلم4 ممن افترى} ينفى الله عز وجل أن يكون هناك أظلم ممن افترى

1 الحق هنا بمعنى الصدق في الإخبار والباء في قوله {بالحق} للملابسة أي: القصص المصاحب للصدق والنبأ: الخبر ذو الشأن والأهمية.

2 الجملة بيانية أي: مبينة للقصص.

3 {من} ابتدائية، أي آلهة ناشئة من غير الله تعالى.

4 {من} اسم استفهام، ومعناه الإنكار والنفي، الإنكار على من اتخذ آلهة دون الله تعالى، والنفي لوجود آلهة حق مع الله تعالى.

(3/242)

على الله كذباً باتخاذ آلهة يعبدها معه باسم التوسل بها وشعار التشفع والتقرب إلى الله زلفى بواسطتها!! وقوله تعالى عن قيل أصحاب الكهف لبعضهم 1: {وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمَ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} من الأصنام والأوثان {فأووا إلى الكهف} أي فصيروا إلى غار الكهف المسمى "بنجلوس" {ينشر لكم ربكم من رحمته} أي يبسط لكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الذي رميتم به من الكافر "دقينوس" {ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً} أي ما ترتفقون به من طعام وشراب وأمن في مأواكم الجديد الذي أويتم إليه فراراً بدينكم واستخفافكم من طالبكم المتعقب لكم ليفتكم في دينكم أو يقتلكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة المحمدية بذكر قصة أصحاب الكهف.

2- تقرير زيادة الإيمان ونقصانه.

3- فضيلة الجرأة في الحق والتصريح به ولو أدى إلى القتل أو الضرب أو السجن.

4- تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله على لسان أصحاب الكهف.

5- بطلان عبادة غير الله لعدم وجود دليل عقلي أو نقلي عليها.

6- الشرك ظلم وكذب والمشرك ظالم مفتر كاذب.

7- تقرير فرض الهجرة في سبيل الله.

8- فضيلة الالتجاء إلى الله تعالى وطلب حمايته لعبده وكفاية الله من لجأ إليه في صدق.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضِلِّ لَّن تَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُم

1 أي: قالوا ما قالوه على سبيل النصح والمشورة الصائبة.

(3/243)

بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا (18)

شرح الكلمات:

تزاور : أي تميل.

تقرضهم: تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم.

في فجوة منه: متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها.

من آيات الله : أي دلائل قدرته.

أيقاظاً : جمع يقظ أي منتبهين لأن أعينهم منفتحة.

بالوصيد: فناء الكهف.

رُعباً: منعهم الله بسببه من الدخول عليهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض قصة أصحاب الكهف يقول تعالى في خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم {وترى الشمس إذا طلعت تزاور 1 عن كهفهم} أي تميل عنه ذات اليمين {وإذا غربت تقرضهم} أي تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم ذات الشمال. وقوله تعالى: {وهم في فجوة 2 منه} أي متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها، وقوله {ذلك من آيات الله} أي وذلك المذكور من ميلان الشمس عنهم إذا طلعت وقرضها لهم إذا غربت من دلائل قدرة الله تعالى ورحمته بأوليائه ولطفه بهم 3، وقوله تعالى: {من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً} يخبر تعالى أن الهداية بيده وكذلك الإضلال فليطلب العبد من ربه الهداية إلى صراطه المستقيم، وليستعذ به من الضلال المبين إذ من يضلله الله لن يوجد له ولي يرشده بحال من الأحوال، وقوله تعالى: {وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود 4} أي أنك إذا نظرت إليهم تظنهم أيقاظاً

1 {تزاور}: تتحى أو تميل من الأزورار والزور: الميل، والأزور من الناس: المائل النظر إلى ناحية وازور: مال ومنه قول عنتره:

فازور من وقع القنا بلبانه

وشكا إليّ بعبرة وتحمم

الللبان: الصدر، والتحمم: صوت دون الصهيل.

2 الفجوة: والجمع فجوات وفجاء وهو المتسع.

3 والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء، وتغير الأبدان والأبدان والتأذي بحر أو برد.

4 {رقود}: جمع راقد كراوع وركوع، وساجد وسجود، والتقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى

باطنه وفعل الله تعالى هذا لحكمة وهي: حتى لا تؤثر الأرض على أجسامهم فتبلى، ولم يعرف كم مرة يقلبون فيها في الشهر أو العام أو في أقل أو أكثر.

(3/244)

أي منتبهين لأن أعينهم مفتحة وهم رقود نائمون لا يحسون بأحد ولا يشعرون، وقوله تعالى :
{ونقلبهم ذات اليمين} أي جهة اليمين {وذاة الشمال} أي جهة الشمال حتى لا تعدو التربة على
أجسادهم فتبليها. وقوله: {وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد} أي: وكلبهم الذي خرج معهم، وهو كلب
صيد {بإسط ذراعية بالوصيد} أي: بفناء الكهف. وقوله تعالى: {لو اطلعت عليهم} أي لو شاهدتهم
وهم رقود وأعينهم مفتحة {لوليت منهم فراراً} لرجعت فاراً منهم {ولملمنت منهم رعباً} أي خوفاً وفزعاً،
ذلك أن الله تعالى ألقى عليهم من الهيبة والوقار حتى لا يدنو منهم أحد ويمسهم بسوء إلى أن
يوقظهم عند نهاية الأجل الذي ضرب لهم، ليكون أمرهم آية من آيات الله الدالة على قدرته وعظيم
سلطانه وعجيب تدبيره في خلقه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان لطف الله تعالى بأوليائه بإكرامهم في هجرتهم إليه.
- 2- تقرير أن الهداية بيد الله فالمهتدي من هداه الله والضال من أضله الله ولازم ذلك طلب الهداية من الله، والتعوذ به من الضلال لأنه مالك ذلك.
- 3- بيان عجيب تدبير الله تعالى وتصرفه في مخلوقاته فسبحانه من إله عظيم عليم حكيم.
وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا هُم لَيْسَاءَ لُو بَيْنَهُم قَال قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا
(20) وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

1 فناء عند مدخل الكهف فشبّه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق.

(3/245)

السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا رُبُّهُمْ أَغْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)

شرح الكلمات:

كذلك بعثناهم: أي كما أنماهم تلك النومة الطويلة الخارقة للعادة بعثناهم 1 من رقادهم بعثاً خارقاً للعادة أيضاً فكان في منامهم آية وفي إفاقتهم آية.

كم لبثتم: أي في الكهف نائمين.

يوماً أو بعض يوم: لأنهم دخلوا الكهف صباحاً واستيقظوا عشية.

بورقكم: بدراهم الفضة التي عندكم.

إلى المدينة: أي المدينة التي كانت تسمى أفسوس وهي طرسوس اليوم.

أزكى طعاماً: أي أيُّ أطعمة المدينة أحلُّ أي أكثر حليَّةً.

وليتلطف: أي يذهب يشتري الطعام ويعود في لطف وخفاء.

يرجموكم: أي يقتلوكم رمياً بالحجارة.

أعثرنا عليهم: أطلعنا عليهم أهل بلدهم.

ليعلموا: أي قومهم أن البعث حق للأجساد والأرواح معاً.

إذ يتنازعون: أي الكفار قالوا ابنوا عليهم أي حولهم بناء يستترهم.

فقالوا: أي المؤمنون والكافرون في شأن البناء عليهم.

وقال الذين غلبوا على أمرهم: وهم المؤمنون لنتخذن حولهم مسجداً يصلى فيه.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في الحديث عن أصحاب الكهف فقوله تعالى: {وكذلك بعثناهم لیتساءلوا بينهم}

أي كما أنماهم ثلاثمائة سنة وتسعاً وحفظنا أجسادهم وثيابهم من البلى

1 البعث: التحريك من سكون أي: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدىً وقلبناهم بعثناهم أيضاً أي:

أيقظناهم من رقادهم على ما كانوا عليه من ثيابهم وأحوالهم.

(3/246)

ومنعناهم من وصول أحد إليهم، وهذا من مظاهر قدرتنا وعظيم سلطاننا بعثناهم من نومهم الطويل لیتساءلوا بينهم فقال قائل منهم مستقهماً كم لبثتم يا إخواننا فأجاب بعضهم قائلاً {لبثنا يوماً أو بعض يوم} لأنهم آووا إلى الكهف في الصباح وبعثوا من رقادهم في المساء وأجاب بعض آخر بقول مُرضٍ للجميع وهو قوله: {ربكم أعلم بما لبثتم} فسلموا الأمر إليه، وكانوا جياعاً فقالوا لبعضهم {فابعثوا

أحدكم بورقكم 1 هذه} يشيرون إلى عملة من فضة كانت معهم {إلى المدينة} وهي أفسوس التي خرجوا منها هارين بدينهم. وقوله: {فلينظر أيها أركى طعاماً فليأتكم برزق منه} أي فلينظر الذي تبعثنه لشراء الطعام أي أنواع الأطعمة أركى أي أظهر من الحرام والاستفاد {فليأتكم 2 برزق منه} لتأكلوه سداً لجوعكم وليتلف 3 في شرائه وذهابه وإيابه حتى لا يشعر بكم أحداً وعلل لقوله هذا بقوله {إنهم إن يظهروا عليكم} أي يطلعوا {يرجموكم} أو يقتلوكم رجماً بالحجارة 4 {أو يعيدوكم في ملتهم} ملة الشرك بالقسر والقوة. {ولن تفلحوا إذاً أبداً} أي ولن تفلحوا بالنجاة من النار ودخول الجنة إذا أنتم عدتم للكفر والشرك.. فكفرتم وأشركتم بربكم.

وقوله تعالى: {وكذلك أعثرنا عليهم} أي وكما أنماهم تلك المدة الطويلة وبعثناهم ليتساءلوا بينهم فيزدادوا إيماناً ومعرفة بولاية الله تعالى وحمايته لأوليائه {أعثرنا عليهم 5} أهل مدينتهم الذين انقسموا إلى فريقين فريق يعتقد أن البعث حق وأنه بالأجسام، والأرواح، وفريق يقول البعث الآخر للأرواح دون الأجسام كما هي عقيدة النصارى إلى اليوم، فأنام الله الفتية وبعثهم وأعثر عليهم هؤلاء القوم المختلفين فأتضح لهم أن الله قادر على بعث الناس أحياء أجساماً وأرواحاً كما بعث أصحاب الكهف وهو معنى قوله تعالى {وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا} أي أولئك المختلفون في شأن البعث أن وعد الله حق وهو ما وعد به الناس من أنه سيبعثهم بعد موتهم يوم القيامة ليحاسبهم ويجزيهم بعملهم. {وإن الساعة لا ريب فيها} وقوله تعالى: {إذ

1 قال ابن عباس كان معهم دراهم فضة عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم والورق: الفضة، وقرىء بكسر الراء وقرىء بسكونها.

2 في هذه الآية دليل على جواز الوكالة في كل مباح مأذون فيه وسواء كان الموكل عاجزاً أو قادراً ورأى بعضهم أن القادر لا يوكل، والصحيح جوازه، وقد وكل النبي صلى الله عليه وسلم وهو صحيح حاضر، ووكل علي رضي الله عنه ووكل كثير من الصحابة من ينوب عنهم في أمورهم.

3 الجمهور على أن نصف حروف القرآن التاء من قوله: {وليتلطف} أي: نصف القرآن من الفاتحة إلى {وليتلطف} والنصف الآخر والأخير منها إلى الناس.

4 القتل بالرجم بالحجارة أشفى لصدور أهل الدين لأنهم يشاركون في القتل بالرجم.

5 أطلعنا عليهم. يقال عثر على كذا: وقف عليه برجله ومنه العثار للرجل وأعثر عليه: جعل غيره يعثر عليه بمعنى يقف عليه مطلعاً عليه ظاهراً.

يتنازعون بينهم أمرهم} أي أعثرناهم عليهم في وقت كان أهل البلد يتنازعون في شأن البعث والحياة الآخرة هل هي بالأجسام والأرواح أو بالأرواح دون الأجسام. فتبين لهم بهذه الحادثة أن البعث حق وأنه بالأجسام والأرواح معاً. وقوله تعالى: {فقالوا ابناو عليهم بنياناً} وتركوهم في الكهف أي سدوا عليهم باب الكهف وتركوهم فيه لأنهم بعد أن عثروا عليهم ماتوا {ربهم أعلم بهم} وبحالهم. وقوله تعالى: {قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً} أي قال الذين غلبوا على أمر الفتية لكون الملك كان مسلماً معهم {لنتخذن عليهم مسجداً} أي للصلاة فيه وفعلاً بنو على مقربة من فم الغار بالكهف.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته.
- 2- وجوب طلب الحلال في الطعام والشراب وغيرها.
- 3- الموت على الشرك والكفر مانع من الفلاح يوم القيامة أبداً.
- 4- تقرير معتقد البعث والجزاء الذي ينكره أهل مكة.
- 5- مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" وقوله "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق يوم القيامة" (في الصحيحين).
- 6- مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لنتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع". إذ قد بنى 2 المسلمون على قبور الأولياء والصالحين المساجد. بعد القرون المفضلة حتى أصبح يندر وجود مسجد عتيق خال من قبر أو قبور. 3.

1 اتخاذ المساجد على القبور من عمل أهل الكتاب قبل هذه الأمة، وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منه وحرمه على أمته لما يفضي به إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى فقد روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج" وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة". وروى مسلم: "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" وفي الصحيحين: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا".

2 روى الترمذي وصححه عن جابر رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجصص القبور وأن يكتب عليها أو يبنى عليها وأن توطأ" وروى أبو داود والترمذي وغيرهما أن علياً

قال لأحد رجاله أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها" والمراد بالمشرف: العالي المرتفع أما تسنيم القبر شبراً وأي ليعرف فلا بأس به.

3 ذكر القرطبي هنا أنّ الدفن في التابوت جائز لاسيما في الأرض الرخوة وقال: روي أنّ دانيال عليه السلام كان في تابوت من حجر وأنّ يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج.

(3/248)

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) وَلَيُبَاطِلُنَّ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيَّبُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)

شرح الكلمات:

رجماً بالغيب: أي قذفاً بالظن غير يقين علم.

ما يعلمهم إلا قليل: أي من الناس.

فلا تمار فيهم: لا تجادل في عدتهم.

ولا تستفت فيهم منهم أحداً: أي من أهل الكتاب، الاستفتاء: الاستفهام والسؤال.

إلا أن يشاء الله: أي إلا أن تقول إن شاء الله.

لأقرب من هذا رشداً: هداية وأظهر دلالة على نبوتي من قصة أصحاب الكهف.

له غيب السموات والأرض: أي علم غيب السموات والأرض وهو ما غاب فيهما.

أبصر به وأسمع: أي أبصر بالله وأسمع به صيغة تعجب! والأصل ما أبصره وما أسمع.

ما لم من دونه من ولي: أي ليس لأهل السموات والأرض من دون الله أي من ناصر.

(3/249)

ولا يشرك في حكمه أحداً: لأنه غني عما سواه ولا شريك له.

معنى الآيات:

مازال السياق في الحديث عن أصحاب الكهف يخبر تعالى بأن الخائضين في شان أصحاب الكهف سيقول بعضهم بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ويقول بعض آخرهم خمسة سادسهم كلبهم 1 {رجماً بالغيب} أي قذفاً بالغيب من غير علم يقيني، ويقول بعضهم هم سبعة وثامنهم كلبهم، ثم أمر الله تعالى رسوله أن يقول لأصحابه تلك الأقوال: {ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليلاً} أي ما يعلم عددهم إلا قليلاً من الناس قال ابن عباس أنا من ذلك القليل فعدتهم سبعة وثامنهم كلبهم ولعله فهم ذلك من سياق الآية إذ ذكر تعالى أن الفريقين الأول والثاني قالوا ما قالوه من باب الرجم بالغيب لا من باب العلم والمعرفة، وسكت عن الفريق الثالث، فدل ذلك على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم والله أعلم. وقوله تعالى: {فلا تمار فيهم إلا مرآة ظاهراً} 2 أي ولا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً بيناً ليناً بذكرك ما قصصنا عليك دون تكذيب لهم، ولا موافقة لهم. وقوله تعالى: {ولا تستقت فيهم} 3 أي في أصحاب الكهف {منهم} أي من أهل الكتاب {أحداً} وذلك لأنهم لا يعلمون عدتهم وإنما يقولون بالخرص والتخمين لا بالعلم واليقين. وقوله تعالى: {ولا تقولن لشيء 4 إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله} أي لا تقل يا محمد في شأن تريد فعله مستقبلاً أي سأفعل كذا إلا أن تقول إن شاء الله 5 وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما سأله وفد قريش بايعاز من اليهود عن المسائل الثلاث: الروح، وأصحاب الكهف وذوي القرنين، قال لسائليه: أجيبكم غداً انتظراً للوحي ولم يقل إن شاء الله، فأدبه ربه تعالى بانقطاع الوحي عنه نصف شهر، وأنزل هذه السورة وفيها هذا التأديب له صلى الله عليه وسلم وقوله: {واذكر ربك إذا نسيت} أي إذا نسيت الاستثناء الذي علمناك فاذكره ولو بعد حين لتخرج من الحرج.

أما الكفارة فلازمة إلا أن يكون الاستثناء متصلاً بالكلام وقوله تعالى: {وقل عسى أن يهدينني ربي لأقرب من هذا رشداً} أي وقل بعد النسيان والاستثناء المطلوب منك {عسى أن يهدينني

-
- 1 أصل الرجم هو الرجم بالحجارة ونحوها والمراد به هنا، رمي الكلام من غير رؤية ولا تثبت، والمراد أنّ ما قالوه في بيان عددهم هو من باب القول بالظن بدون علم.
 - 2 المراد: بالظاهر هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه.
 - 3 الاستفتاء: طلب الفتيا وهي الخبر عن أمر لا يعلمه إلا ذوو العلم روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض نصارى نجران فنهى عن ذلك.
 - 4 لشيء أي: في شيء أو لأجل شيء.
 - 5 أي: إلا أن تذكر مشيئة الله تعالى.

ربي لأقرب من هذا رشداً { أي لعل الله تعالى أن يهديني فيسددني لأسدَّ ما وعدتكم أن أخبركم به مما هو أظهر دلالة على نبوتي مما سألتموني عنه اختباراً لي. وقوله تعالى: {ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة 1 سنين وازدادوا تسعا} يخبر تعالى أن الفتية لبثوا في كهفهم رقوداً من ساعة دخلوه إلى أن أعر الله عليهم قومهم ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي وزيادة تسع سنين بالحساب القمري.

وقوله: {قل الله أعلم بما لبثوا} رد به على من قال من أهل الكتاب إن الثلاثمائة والتسع سنين هي من ساعة دخولهم الكهف إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأبطل الله هذا بتقرير الثلاثمائة والتسع أولاً ويقول {الله أعلم بما لبثوا} ثانياً ويقول: {له غيب السموات والأرض} أي ما غاب فيهما، ثالثاً، ويقول: {أبصر به وأسمع} أي ما أبصره بخلفه وما أسمع لأقوالهم حيث لا يخفى عليه شيء من أمورهم وأحوالهم خامساً، وقوله {ليس لهم} أي لأهل السموات والأرض من دونه تعالى {من ولي} أي ولا ناصر {ولا يشرك في حكمه أحداً} لغناه عما سواه ولعدم وجود شريك له بحال من الأحوال.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان اختلاف أهل الكتاب وعدم ضبطهم للأحداث التاريخية.
- 2- بيان عدد فتية أصحاب الكهف وأنهم سبعة وثامنهم كلبهم.
- 3- من الأدب مع الله تعالى أن لا يقول العبد سأفعل كذا مستقبلاً إلا قال بعدها إن شاء الله.
- 4- من الأدب من نسي الاستثناء أن يستثني ولو بعد حين فإن حلف لا ينفعه الاستثناء إلا إذا كان متصلاً بكلامه.

5- تقرير المدة التي لبثوا فيها الفتية في كهفهم وهي ثلاث مائة وتسع سنين بالحساب القمري.
وَأَنْتُمْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

1 قرأ الجمهور {ثلاثمائة} بالتثنية و {سنين} منصوب على التمييز أو على البدلية، فهو مجرور، وقرأ خلافهم بإضافة ثلاثمائة إلى سنين.

(3/251)

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أَوْلَئِكَ لَهُمْ

جَنَاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)

شرح الكلمات:

وانتل ما أوحى إليك من الكتاب: أي اقرأ القرآن تعبدًا ودعوة وتعليمًا.
لا مبدل لكلماته: أي لا مغير لكلمات الله في ألفاظها ولا معانيها وأحكامها.
ملتحدًا: أي ملجأ تميل إليه إحتماءً به.
واصبر نفسك: أي إحبسها.
يريدون وجهه: أي طاعته ورضاه، لا عرضاً من عرض الدنيا.
ولا تعد عينك عنهم: أي لا تتجاوزهم بنظرك إلى غيرهم من أبناء الدنيا.
تريد زينة الحياة الدنيا: أي بمجالستك الأغنياء تريد الشرف والفخر.
من أغفلنا قلبه: أي جعلناه غافلاً عما يجب عليه من ذكرنا وعبادتنا.
وكان أمره فرطاً: أي ضياعاً وهلاكاً.
أحاط بهم سرادقها: حائط من نار أحيط بهؤلاء المعذبين في النار.

(3/252)

بماء كالمهل: أي كعكر الزيت أي الدردي وهو ما يبقى في أسفل الإناء ثخناً رديئاً.
من سندس واستبرق: أي مازق من الديباج، والاستبرق ما غلظ منه أي من الديباج.
معنى الآيات:

بعد نهاية الحديث عن أصحاب الكهف أمر تعالى رسوله بتلاوة كتابه فقال: {وانتل 1} أي واقرأ {وما أوحى إليك من كتاب ربك} تعبدًا به ودعوة للناس إلى ربهم به وتعليمًا للمؤمنين بما جاء فيه من الهدى.

وقوله: {لا مبدل لكلماته} أي لا تترك تن تلاوته والعمل به والدعوة إليه فتكون من الهالكين فإن ما وعد ربك به المعرضين عنه المكذبين به كائن حقاً وواقع صدقاً فإن ربك {لا مبدل لكلماته} المشتملة على وعده لأوليائه ووعيده لأعدائه ممن كفروا به وكذبوا بكتابه فلم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.
وقوله تعالى: {ولن تجد من دون ملتحدًا} أي انك إن لم تتل كتابه الذي أوحاه إليك وتعمل بما فيه فَنَالِكَ ما أوعد به الكافرين المعرضين عن ذكره. {لن تجد من دون الله ملتحدًا} أي موثلاً تميل إليه وملجأً تحتمي به وإذا كان مثل هذا الوعيد الشديد يوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم فغيره ممن تركوا تلاوة القرآن والعمل به فلا أقاموا حدوده ولا أحلوا حلاله ولا حرموا حرامه أولى بهذا الوعيد وهو حائق بهم لا محالة إن لم يتوبوا قبل موتهم وقوله تعالى: {واصبر نفسك مع

الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} نزل هذا التوجيه للرسول صلى الله عليه وسلم عندما عرض عليه المشركون إبعاد أصحابه الفقراء كبلال وصهيب وغيرهما ليجلسوا إليه ويسمعوا منه فنهاه ربه عن ذلك وأمره أن يحبس نفسه مع أولئك الفقراء المؤمنين {الذين يدعون} ربهم في صلاتهم في الصباح والمساء لا يريدون بصلاتهم وتسبيحهم ودعائهم عرضاً من أعراض الدنيا وإنما يريدون رضا الله ومحبته بطاعته في ليلهم ونهارهم.

وقوله تعالى: {ولا تعد عيناك 2 عنهم} أي لا تتجاوز ببصرك هؤلاء المؤمنين الفقراء إلى أولئك الأغنياء تريد مجالستهم للشرف والفخر وقوله {ولا تطع 3 من أغفلنا قلبه عن ذكرنا} فجعلناه غافلاً

1 تضمنت هذه الآية: {واتل} الخ الرد على المشركين إذ المعنى: لا تعبا بهم إن كرهوا تلاوة بعض القرآن لأن فيها التعريض بالهتيم والتنديد بها حتى طالبوك بأن تجعل بعض القرآن للثناء عليها أو عليهم.

2 لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

3 روي أنها نزلت في أمية بن خلف الجمحي لأنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه وهو إبعاد الفقراء وتقريب صناديد قريش.

(3/253)

عن ذكرنا وذكر وعدنا ووعيدنا ليكون من الهالكين لعناده وكبريائه وظلمه. {وكان أمره فرطاً 1} أي ضياعاً وهلاكاً، وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن 2 ومن شاء فليكفر} أي هذا الذي جئت به وأدعو إليه من الإيمان والتوحيد والطاعة لله بالعمل الصالح هو {الحق من ربكم} أيها الناس. {فمن شاء} الله هدايته فأمن وعمل صالحاً فقد نجاه ومن لم يشأ الله هدايته فبقي على كفره فلم يؤمن فقد خاب وخسر.

وقوله: {إننا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها} أي جدرانها النارية. {وإن يستغيثوا} من شدة العطش {يغيثوا بماء كالمهل} رديئاً ثخناً {يشوي الوجوه} إذا أدناه الشارب من وجهه ليشرب شوى جلده ووجهه ولذا قيل فيه ذم له. {بئس الشراب وساءت} أي جهنم {مرتقفاً} في منزلها وطعامها وشرابها إذ كله سوء وعذاب هذا وعيد من اختار الكفر على الإيمان وأما وعد من آمن وعمل صالحاً وقد تضمنته الآيتان (31-32) إذ قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً} هذا حكمنا الذي لا تبديل له وبين تعالى أجرهم على إيمانهم وإحسان أعمالهم فقال: {وأولئك لهم جنات عدن} أي إقامة دائمة {تجري من تحتهم الأنهار يطولون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق، متكئين فيها على الأرائك} وهي الأسرة بالحجلة.)

ثم أثنى الله تعالى على نعيمهم الذي أعده لهم بقوله: {نعم الثواب} الذي 3 أثيوا به {وحسنت} الجنة في حليها وثيابها وفرشها وأسررتها وطعامها وشرابها وحورها ورضوان الله فيها {حسنت} 4 مرتفقاً يرتفقون فيه وبه، جعلنا الله من أهلها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان خيبة وخسران المعرضين عن كتاب الله فلم يتلوه ولم يعملوا بما جاء فيه من شرائع وأحكام.

1 الفرط: الظلم والاعتداء وهو مشتق من الفروط وهو السبق لأن الظلم سبق في الشر والظلم يؤدي إلى الهلاك والضياع والخسران.

2 الأمر في قوله {فليؤمن} و{فليكفر} للتسوية بينهما وليس في هذا إذن لهما بالكفر وإنما الخطاب للتهديد والوعيد لمن اختار الكفر على الإيمان بدليل الجملة التعليلية: {إنا أعتدنا للظالمين ناراً} الخ، والمراد بالظالمين المشركون لقوله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم}.

3 {الأرائك}: جمع أريكة وهي مجموع سرير وحجلة، والحجلة: قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها ولذلك يقال للنساء ربات الحجال فإذا وضع فيها سرير فهي أريكة يجلس فيها وينام.

4 (المرتفق): محل الارتفاق، وإطلاق المرتفق على النار تهكم، إذ النار لن تكون محل راحة وارتفاق أبداً بل هي دار شقاء وعذاب.

(3/254)

2- الترغيب في مجالسة أبناء الآخرة وهم الفقراء الصابرون وترك أبناء الدنيا والإعراض عما هم فيه.

3- على الداعي إلى الله تعالى أن يبين الحق، والناس بعد بحسب ما كتب لهم أو عليهم.

4- الترغيب والترهيب بذكر جزاء الفريقين المؤمنين والكافرين.

5- عذاب النار شر عذاب، ونعيم الجنة، نعم النعيم ولا يهلك على الله إلا هالك.

واضرب لهم مثلاً رجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (32)

كُنْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ

وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ

وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا

أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38)

شرح الكلمات:

واضرب لهم مثلاً : أي اجعل لهم مثلاً هو رجلين .. الخ.

جنتين : أي بستانين.

وحففناهما بنخل : أي أحطناهما بنخل.

آنت أكلها : أي أعطت ثمارها وهو ما يؤكل.

ولم تظلم منهم شيئاً : أي ولم تنقص منه شيئاً بل آنت به كاملاً ووافياً.

(3/255)

خلالهما نهراً : أي خلال الأشجار والنخيل نهراً جارياً.

وهو يحاوره : أي يحادثه ويتكلم معه.

وأعز نفرأ: أي عشيرة ورهطاً.

تبيد: أي تفتى وتذهب.

خيراً منها منقلباً: أي مرجعاً في الآخرة.

أكفرت بالذي خلقك من تراب؟ ! : الاستفهام للتوبيخ والخلق من تراب باعتبار الأصل هو آدم.

من نطفة : أي مني.

ثم سواك : أي عدلك وصيرك رجلاً.

لكننا : أي لكن أنا، حذف الألف وأدغمت النون في النون فصارت لكننا.

هو الله ربي : أي أنا أقول الله ربي.

معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: واضرب لأولئك المشركين المتكبرين الذين اقترحوا عليك أن تطرد الفقراء المؤمنين من حولك حتى يجلسوا إليك ويسمعوا منك {واضرب 1 لهم} أي اجعل لهم مثلاً: {رجلين} مؤمناً وكافراً {جعلنا لأحدهما} وهو الكافر {جنتين من أعناب وحففناهما بنخل} أي أحطناهما بنخل، {وجعلنا بينهما} أي بين الكروم والنخيل {زرعاً} كلتا الجنتين 2 آنت أكلها ولم تظلم منه شيئاً} أي لم تنقص منه شيئاً {وفجرنا خلالهما نهراً} ليسقيهما. {وكان 3 له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره} أي في الكلام يراجعه، ويفاخره: {أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرأ} أي عشيرة ورهطاً، قال هذا فخراً وتعاضماً. {ودخل جنته} والحال أنه {ظالم لنفسه} بالكفر والكبر وقال: {ما أظن 5 أن تبيد هذه} يشير إلى جنته {أبدأ} أي لا تفتى {وما أظن الساعة

- 1 اختلف في تحديد الفريقين الذين ضرب لهما المثل، وفي الرجلين اللذين ضرب بهما المثل، والظاهر أنّ الفريقين الذين ضرب لهما المثل هم المؤمنون والكافرون المستكفون عن مجالسة المؤمنين، وأما الرجلان فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّهما من بنى إسرائيل وهو الظاهر والله أعلم.
- 2 قال سيبويه: أصل كلا كَلَوَ وأصل كلتا كلوا فحذفت لام الفعل من كلتا وعوضت التاء عن اللام المحذوفة لتدل التاء على التأنيث.
- 3 {وكان له ثمر..} الجملة في محل نصب على الحال، والثمر بضم التاء والميم المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع مأخوذ من: ثمر ماله: إذا كثر، وقرأ الجمهور بضم التاء والميم وقرأ حفص بفتحهما.
- 4 أعرّ أي أشدّ عزّة، والنفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه للدفاع أو القتال والمراد بالنفر هنا أولاده.
- 5 الظنّ هنا بمعنى الاعتقاد ومعنى تبيد: تفتى وتهلك.

(3/256)

قائمة ولئن رددت إلى ربي { كما تقول أنت {لأجدن خيراً منها1} أي من جنتي {منقلباً} أي مرجعاً إن قامت الساعة وبعث الناس وبعثت معهم. هذا القول من هذا الرجل هو ما يسمى بالغرور النفسي الذي يصاب به أهل الشرك والكبر. وهنا قال له صاحبه المسلم {وهو يحاوره} أكفرت بالذي خلقك من تراب؟ وهو الله عز وجل حيث خلق أباك آدم من {تراب ثم من نطفة2} أي ثم خلقك أنت من نطفة أي من مني {ثم سواك رجلاً} وهذا توبيخ من المؤمن للكافر المغرور ثم قال له: {لكنا هو الله ربي} أي لكن أنا أقول: هو الله ربي، {ولا أشرك بربي أحداً} من خلقه في عبادته.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- استحسان ضرب الأمثال للوصول بالمعاني الخفية إلى الأذهان.
 - 2- بيان صورة مثالية لغرس بسنتين النخل والكروم.
 - 3- تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء.
 - 4- التنديد بالكبر والغرور حيث يفضيان بصاحبهما إلى الشرك والكفر.
- وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أْنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلَّبُ كَفِّيهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَى عُرْوَشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ

1 قرأ الجمهور (منهما) بالتنجئة وقرأ عاصم (منها) بالإفراد.

2 النطفة: ماء الرجال مشتقة من النطف الذي هو السيلان.

(3/257)

فِنَّةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا
(44)

شرح الكلمات:

ما شاء الله: أي يكون وما لم يشأ لم يكن.

حسباناً من السماء: أي عذاباً ترمى به فتؤول إلى أرض ملساء دحضاً لا يثبت عليها قدم.

أو يصبح ماؤها غوراً: أي غائراً في أعماق الأرض فلا يقدر على استنباطه وإخراجه.

وأحيط بثمره: أي هلكت ثماره، فلم يبق منها شيء.

يقلب فكفيه: ندماً وحسرة على ما أنفق فيها من جهد كبير ومال طائل.

وهي خاوية على عروشها: أي ساقطة على أعمدها التي كان يُعرش بها للكرم، وعلى جدران

مبانيها.

فئة: جماعة من الناس قوية كعشيرته من قومه.

هنالك: أي حين حل العذاب بصاحب الجنين أي يوم القيامة.

الولاية: أي الملك والسلطان الحق لله تعالى.

خير ثواباً وخير عقباً: أي الله تعالى خير من يثيب وخير من يُعقب أي يحزي بخير.

معنى الآيات:.

ما زال السياق الكريم في المثل المضروب للمؤمن الفقير والكافر الغني فقد قال المؤمن للكافر ما

أخبر تعالى به في قوله: {ولو لا إذ دخلت جنتك} أي هلا إذ دخلت بستانك قلت عند تعجبك من

حسنه وكماله {ما شاء الله} أي 1 كان {لا قوة إلا بالله} أي لا قوة لأحد على فعل شيء

1 هذا وجه في إعراب (ما شاء الله) ما: مبتدأ والخبر كان، وهناك وجه آخر حسنه بعضهم وهو:

هذه الجنة ما شاء الله. فما خبر عن مبتدأ محذوف ويجوز تقديره أيضاً: الأمر الذي شاء الله

إعطاءه.

2 قال مالك: .: ينبغي لكل من دخل داره أو بستانه أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وروي أنه

كان مكتوباً على باب وهب بن منبه ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وروى مسلم أن: لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة وورد استحباب قول بسم الله آمنت بالله توكلت على الله لا قوة إلا بالله.

(3/258)

أو تركه إلا بإقدار الله تعالى له وإعانتة عليه قال هذا المؤمن نصحاً للكافر وتوبيخاً له. ثم قال له 1 {إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً} 1 ليوم {فعسى 2 ربي} أي فرجائي في الله {أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليهما} أي على جنة الكافر {حسبانا 3 من السماء} أي عذاباً ترمى به . {فتصبح صعيداً زلقاً}؟ أي تراباً أملس لا ينبت زرعاً ولا يثبت عليه قدم. {أو يصبح ماؤها غوراً} الذي تسقى به غائراً في أعماق الأرض فلن تقدر على إخراجها مرة أخرى، وهو معنى {فلن تستطيع له طلباً}. وقوله تعالى: في الآيات (40)، (41)، (42) يخبر تعالى أن رجاء المؤمن قد تحقق إذ قد أحيط فعلاً ببستان الكافر فهلك بكل ما فيه من ثمر {فأصبح يقلب كفيه} ندماً وتحسراً {على ما أنفق فيها} من جهد ومال في جنته {وهي خاوية على عروشها} أي ساقطة على أعمدة الكرم التي كان يعرشها للكرم أي يحمله عليها كما سقطت جدران مبانيها على سقفها وهو يتحسر ويتندم ويقول: {يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له} جماعة قوية تنصره {من دون الله وما كان} المنهزم {منتصراً} لأن من خذله الله لا ناصر له. قال تعالى: في نهاية المثل الذي هو أشبه بقصة {هنالك} أي يوم القيامة {الولاية} أي القوة والملك والسلطان {لله} أي المعبود {الحق} لا لغيره من الأصنام والأحجار {هو} تعالى {خير ثواباً} أي خير من يثيب على الإيمان والعمل الصالح. {وخير عقاباً} 4 أي خير من يعقب أي يجزي بحسن العواقب

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1 بيان مال المؤمنين كصهيب وسلمان وبلال، وهو الجنة ومال الكافرين كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وهو النار.
- 2- استحباب قول من أعجبه شيء: {ما شاء الله، لا قوة إلا بالله} فإنه لا يرى فيه مكروهاً إن شاء الله.

1 أنا: ضمير فصل وأقل مفعول ثانٍ لترن وحذفت ياء التكلم بعد نون الوقاية تخففاً.
2 (عسى) للرجاء وهو طلب الأمر القريب الحصول وأراد به هنا الدعاء لنفسه وعلى صاحبه الكافر المشرك.

3 الحسبان: مصدر كالغفران وهو هنا وصف لمحذوف تقديره: هلاكاً حسباناً أي: مقدرًا من الله

تعالى، وقيل هو اسم جمع حسبانية أي: صاعقة، وقيل: اسم للجراد وهو محتمل لكل ما ذكر.
4 العقبة: بمعنى العاقبة وقرىء: بضم العين وسكون القات بمعنى: عاقبة
وهي آخرة الأمر وما يرجوه المرء من سعيه وعمله ولذا فسرت الآية بهو خير عاقبة لمن رجاه وأمن
به، يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه: أي آخره.

(3/259)

- 3- استجابة الله تعالى لعباده المؤمنين وتحقيق رجائهم فيه سبحانه وتعالى.
4- المخذول من خذلة الله تعالى فإنه لا ينصر أبداً.
5- الولاية بمعنى 1 الموالة النافعة للعبد هي موالة الله تعالى لا موالة غيره.
6- الولاية بمعنى الملك والسلطان لله يوم القيامة ليست لغيره إذ الملك والأمر كلاهما لله تعالى.
واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه
الرياح وكان الله على كل شيء مقتديراً (45) المال والبئون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات
خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً (46)

شرح الكلمات:

المثل : الصفة المعجبة.

هشيماً : يابساً متفتتاً.

تذروه الرياح : أي تنثره الرياح وتفرقه لخفته وبيوسته.

مقتديراً : أي كامل القدرة لا يعجزه شيء.

زينة الحياة الدنيا: أي يتجمل بما فيها.

والباقيات الصالحات : هي الأعمال الصالحة من سائر العبادات والقربات.

وخير أملاً : أي ما يأمله الإنسان و ينتظره من الخير.

معنى الآيات:

هذا مثل آخر مضروب أي مجعول للحياة الدنيا حيث اغتر بها الناس وخذعتهم فصرفتهم عن الله

تعالى ربهم فلم يذكره ولم يشكروه فاستوجبوا غضبه وعقابه.

1 {الولاية}: بفتح الواو: الموالة، وبكسرهما: الملك والسلطان.

(3/260)

قال تعالى: في خطاب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: {واضرب لهم} أي لأولئك المغرورين بالمال والسلطان {مثل الحياة الدنيا} أي صفتها الحقيقية التي لا تختلف عنها بحال {كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض} فزها وازدهر واخضر وأنظر، فأعجب أصحابه، وأفرحهم وسرهم ما يأملون منه. وفجأة أتاه أمر الله بريح لاهفة، محرقة، {فأصبح 2 هشياً} أي يابساً مت هشماً متكسراً {تذروه الرياح} هنا وهناك {وكان الله على كل شيء مقتدرًا} أي قادراً كامل القدرة، فأصبح أهل الدنيا مبلسين آيسين من كل خير.

وقوله تعالى: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً} إنه بعد أن ضرب المثل للحياة الدنيا التي غرت أبناءها فأوردتهم موارد الهلاك أخبر بحقيقة أخرى، يعلم فيها عباده لينتفعوا بها، وهي أن {المال والبنون} أو الأولاد {زينة الحياة 3 الدنيا} لا غير أي يتجمل بهما ساعة ثم يبیدان ويذهبان، فلا يجوز الاغترار بهما، بحيث يصبحان هم الإنسان في هذه الحياة فيصرفانه عن طلب سعادة الآخرة بالإيمان وصالح الأعمال، هذا جزء الحقيقة في هذه الآية، والجزء الثاني هو أن {الباقيات الصالحات} والمراد بها أفعال البر وضروب العبادات ومنها سبحان الله 4، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أي هذه {خير ثواباً} أي جزاءً وثماراً، يجنيه العبد من الكدح المتواصل في طلب الدنيا مع الإعراض عن طلب الآخرة، {وخير أملاً} يأمله الإنسان من الخير ويرجوه ويرغب في تحصيله.

1 بعض الحكماء شبه الحياة الدنيا بالماء للاتصالات الآتية:

- 1- الماء لا يستقر في موضع والحياة كذلك.
- 2- الماء يتغير والدنيا كذلك.
- 3- الماء لا يبقى والدنيا كذلك.
- 4- الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبطل والدنيا لا يدخلها أحد ويسلم من فتنها وآفاتها.
- 5- الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبئاً وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر.

وفي الصحيح "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه" رواه مسلم.

2 يقال: هشمه يهشمه إذا كسره وفتته وهشيم بمعنى: مهشوم فهو فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول، وهشم الثريد إذا فتته وبه سمي هاشم بن مناف وكان اسمه عمرو وفيه يقول عبدالله بن الزبيري:

عمر العلاء هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف

3 قيل: في المال والبنين زينة الحياة الدنيا: لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي البنين قوة ودفعاً والمثال مضروب لحقارة الدنيا وسرعة زوالها ولذا قيل: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيء ذاهب ولا مع النساء

لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك.
4 روى مالك في الموطأ: أن الباقيات الصالحات هنّ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(3/261)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان حقارة الدنيا وسوء عاقبتها.

2- تقرير أن المال والبنين لا يعدوان كونهما زينة، والزينة سريعة الزوال وهما كذلك فلا يجوز
الاغترار بهما، وعلى العبد أن يطلب ما يبقى على ما يفنى وهو الباقيات الصالحات من أنواع البر
والعبادات من صلاة وذكر وتسييح وجهاد، ورياضة، وصيام وزكاة.
وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا
لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)

شرح الكلمات:

نُسَيِّرُ الْجِبَالَ : أي تقنلع من أصولها وتصير هباءً منبثاً.

بارزة : ظاهرة إذ فنى كل ما كان عليها من عمران.

فلم نغادر : لم نترك منهم أحداً.

موعداً : أي ميعاداً لبعثكم أحياء للحساب والجزاء.

ووضع الكتاب : كتاب الحسنات وكتاب السيئات فيؤتاه المؤمن بيمينه والكافر بشماله.

مشفقين : خائفين.

يا ويلتنا: أي يا هلكتنا احضري هذا أوان حُضُورِكَ.

لا يغادر صغيرة: أي لا يترك صغيرة من ذنوبنا ولا كبيرة إلا جمعها عدّاً.

(3/262)

ما عملوا حاضراً: مثبتاً في كتابهم، مسجلاً فيها.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى مآل الحياة الدنيا وأنه الفناء والزوال ورغب في الصالحات وثوابها المرجوا يوم القيامة، ناسب ذكر نبذة عن يوم القيامة، وهو يوم الجزاء على الكسب في الحياة الدنيا قال تعالى: {يَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ} أي اذكر {يَوْمَ نَسِيرُ} أي تقتلع [من أصولها وتصير هباءً منبثاً، {توترى الأرض بارزة} ظاهرة ليس عليها شيء فهي قاع صفصف {وحشرناهم} أي جمعناهم من قبورهم للموقف {فلم نغادر 2 منهم أحداً} أي لم نترك منهم أحداً كائناً من كان، {وعرضوا على ربك} أيها الرسول صفاً وقوفاً أدلاء، وقيل لهم توبيخاً وتقريعاً: {لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة 3} لا مال معكم ولا سلطان لكم بل حفاة عراة غرلاً 4، جمع أغرل، وهو الذي لم يختتن.

وقوله تعالى: {بل زعمتم 5} أي ادعيتهم كذباً أنا لا نجمعكم ليوم القيامة، ولن نجعل لكم موعداً فيها أنتم مجموعون لدينا تنتظرون الحساب والجزاء، وفي هذا من التوبيخ والتقريع ما فيه، وقوله تعالى في الآية {ووضع الكتاب} يخبر تعالى عن حال العرض عليه فقال: {ووضع الكتاب 6} أي كتاب الحسنات والسيئات وأعطى كل واحد كتابه فالمؤمن يأخذه بيمينه والكافر بشماله، {فترى المجرمين 7 في تلك الساعة {مشفقين} أي خائفين {مما فيه} أي في الكتاب من السيئات {ويقولون: يا وليتنا} 7 ندماً وتحسراً ينادون يا ويلتهم وهي هلاكهم قائلين:

1 هذا على قراءة تُسِير بالتاء المضمومة للبناء للمفعول وقراءة الجمهور {تُسِير الجبال} والفاعل هو الله تعالى، وقرىء أيضاً: تسير الجبال بفتح التاء مضارع سار يسير كقوله تعالى: {وتسير الجبال سيراً}.

2 المغادرة الترك ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء، وسمي الغدير من الماء غديراً لأنه ترك بعد السيل، ومنه غدائر المرأة وهو شعرها تضفره وتتركه خلفها.

3 أخرج الحافظ أبو القاسم بن مندة في كتاب التوحيد له عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رقيق غير فظيع: يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون احضروا حجتكم ويسروا جوابكم فإنكم مسؤولون محاسبون يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أنامل أقدامهم للحساب" تضمن هذا الحديث تفسيراً كاملاً لهذه الآيات.

4 روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً" غير مختونين".

5 هذا الخطاب لمنكري البعث والجزاء من أهل الكفر والشرك.

6 {الكتاب}: اسم جنس يشمل كل الكتب التي يُعطىها العباد في المحشر.

7 الويلة: مؤنث الويل للمبالغة وهي سوء الحال والهالك كما أنت الدار على داره للدلالة على سعة

المكان، ونداء الويلة معناه: الدعاء على أنفسهم بالهلاك لمشاهدتهم عظام الأهوال وما ينتظرهم من صنوف العذاب نادوا ويلتهم طالبين حضورها .

(3/263)

﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة 1 ولا كبيرة﴾ من ذنوبنا ﴿إلا أحصاها﴾ أي أثبتها عدًّا. وقوله تعالى في آخر العرض ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي من خير وشر مثبتاً في كتابهم، وحوسبوا به، وجوزوا عليه ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ بزيادة سيئة على سيئاته أو بنقص حسنة من حسناته، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرضها على مسامع المنكرين لها.
 - 2- يبعث الإنسان كما خلقه الله ليس معه شيء، حافياً عارياً لم يقطع منه غفلة الذكر.
 - 3- تقرير عقيدة كتب الأعمال في الدنيا وإعطائها أصحابها في الآخرة تحقيقاً للعدالة الإلهية.
 - 4- نفي الظلم عن الله تعالى وهو غير جائز عليه لغناه المطلق وعدم حاجته إلى شيء.
- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)

شرح الكلمات:

اسجدوا لآدم : أي حيّوه بالسجود له كما أمرتكم طاعة لي.

إلا إبليس : أي الشيطان أبي السجود ورفضه وهو معنى ﴿فسق عن أمر ربه﴾ أي

1 أصغر الصغائر: النظر بغير قصد وأكبر الكبائر الشرك بالله تعالى ولا ضابط حق الكبيرة إلا أن هناك ضابطاً يستأنس به وهو: ما توعده عليه أو لعن عليه أو وضع حدّ له في الكتاب أو السنة فهو كبيرة.

(3/264)

خرج عن طاعته، ولم يكن من الملائكة، بل كان من الجن، لذا أمكنه أن يعصي ربه!
أفتتخذونه وذريته أولياء؟ : الاستفهام للاستنكار، ينكر تعالى على بني آدم اتخاذ الشيطان وأولاده
أولياء يطاعون ويوالون بالمحبة والمناصرة، وهم لهم عدو، عجباً لحال بني آدم كيف يفعلون ذلك؟! .
بئس للظالمين بدلاً : قبح بدلاً طاعة إبليس وذريته عن طاعة الله ورسوله.
المضلين عضداً: أي ما كنت متخذ الشياطين من الإنس والجن أعواناً في الخلق والتدبير، فكيف
تطيعونهم وتعصونني.
موبقاً: أي وادياً من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً هذا إذا دخلوا النار، أما ما قبلها فالموبق، حاجز
بين المشركين، وما كانوا يعبدون بدليل قوله: {ورأيي المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها}.
مواقعوها : أي واقعون فيها ولا يخرجون منها أبداً.
ولم يجدوا عنها مصرفاً: أي مكاناً غيرها ينصرفون إليه لينجوا من عذابها.
معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في إرشاد بني آدم وتوجيههم إلى ما ينجيهم من العذاب ويحقق لهم السعادة في
الدارين، قال تعالى في خطاب رسوله واذكر لهم {إذ قلنا للملائكة} وهم عبادنا المكرمون {اسجدوا
لآدم} فامتثلوا أمرنا وسجدوا إلا إبليس. لكن إبليس الذي يطيعه الناس اليوم كان من الجن وليس من
الملائكة لم يسجد، فسق 1 بذلك عن أمرنا وخرج عن طاعتنا. {أفتتخذونه 2} أي أصبح منكم يا بني
آدم أن تتخذوا عدو أبيكم وعدو ربكم وعدوكم أيضاً ولياً توالونه وذريته 3 بالطاعة لهم والاستجابة لما
يطلبون منكم من أنواع الكفر والفسق {بئس للظالمين} أنفسهم {بدلاً} طاعة الشيطان وذريته 4
وولايتهم عن

1 الفسق: مشتق من: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، والفأرة من جحرها، وفسق العبد: خرج
عن طاعة ربه متجاوزاً الطاعة إلى المعصية، فكل من ترك واجباً وفعل حراماً فقد فسق بذلك عن
طاعة ربه أي خرج عنها.

2 الاستفهام للتوبيخ والإنكار، وذرية الشيطان بينت السنة كيفية وجودهم فقد صح عن النبي صلى
الله عليه وسلم قوله: "لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها باض الشيطان
وفرخ"، فهذا دال على أن للشيطان ذرية من صلبه.

3 في مسلم: "أن للصلاة شيطاناً يسمى خنزب مهمته الوسوسة فيها" وروى الترمذي أن للوضوء
شيطاناً يسمى الولهان يوسوس فيه.

4 روى مسلم رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يضع عرشه
على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا
فيقول: ما صنعت شيئاً قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال:
فيذنيه وقال: فيلتزمه ويقول: نعم أنت!!".

طاعة الله ورسوله وولايتهما.

وقوله تعالى: {لما أشهدتهم 1 خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً} يخبر تعالى بأنه المنفرد بالخلق والتدبير ليس له وزير معين فكيف يُعبدُ الشيطان وذريته، وأنا الذي خلقتهم وخلقت السموات والأرض 2 وخلقت هؤلاء الذين يعبدون الشيطان، ولم أكن {متخذ المضلين} وهم الشياطين من الجن والإنس الذين يضلون عبادنا عن طريقنا الموصل إلى رضانا وجنتنا، أي لم أكن لأجعل منهم معيناً لي يعضدني ويقوي أمري وخلصنا ما في الآية أن الله تعالى ينكر على الناس عبادة الشياطين وهي طاعتهم وهم مخلوقون وهو خالقهم وخالق كل شيء. وقوله تعالى: {ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم} أي أذكر يا رسولنا هؤلاء المشركين المعرضين عن عبادة الله إلى عبادة عدوه الشيطان، أذكر لهم يوم يقال لهم في عرصات القيامة {نادوا شركائي الذين} أشركتموهم في عبادتي زاعمين أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم فيخلصونكم من عذابنا. قال تعالى {فدعوهم 3} يا فلان!! يا فلان.. {فلم يستجيبوا لهم} إذ لا يجروا أحد ممن عبد من دون الله أن يقول رب هؤلاء كانوا يعبدونني. قال تعالى: {وجعلنا بينهم موبقاً 4} أي حاجزاً وفاصلاً من عداوتهم لبعضهم. وحتى لا يتصل بعضهم ببعض في عرصات القيامة. وقوله تعالى: {ورأى المجرمون النار} أي يؤتى بها نُجْرٌ بالسلاسل حتى تبرز لأهل الموقف فيشاهدونها وعندئذ يظن 5 المجرمون أي يوقنوا {أنهم مواقعوها} أي داخلون فيها. {ولم يجدوا عنها مصرفاً 6} أي مكاناً ينصرفون إليه لأنهم محاطون بالزبانية، والعياذ بالله من النار وعذابها.

1 أي: ما أحضرتهم لأستعين بهم على خلق السموات والأرض ولا أحضرت بعضهم لأستعين به على خلق البعض الآخر.

2 في الآية رد على أهل الضلال كافة من شيطان وكاهن ومنجم وطبعمي وملحد إذ الجميع مخلوق مريب والله خالق كل شيء ومليكه وربّه ومدبره.

3 أي: امتثلوا الأمر ودعوهم فلم يستجيبوا لهم.

4 فسّر الموبق ابن عباس رضي الله عنهما: بالحاجز، وفسره أنس بن مالك رضي الله عنه بواد في جهنم من قيح ودم، وفسر بالمهلك والتفسير بالمهلك يدخل فيه كل ما ذكر، ومن الجائز أن يتعدد الحاجز ويكون أنواعاً منها: عداوة بعضهم لبعض فإنها حاجز والنار نفسها أعظم موبق ولعلها هي المراد بالموبق.

5 {ظنوا} أي: أيقنوا إذ يطلق الظن ويراد به اليقين وهو كثير في القرآن الكريم. قال الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدحج

سراتهم في الفارسي المسرد

6 {مصرفاً}: أي: مهرباً لإحاطتها بهم من كل جانب ولا ملجأ ولا معدلاً.

(3/266)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عداوة إبليس وذريته لبني آدم.
 - 2- العجب من بني آدم كيف يطيعون عدوهم ويعصون ربهم!!
 - 3- لا يستحق العبادة أحد سوى الله عز وجل لأنه الخالق لكل معبود مما عُدَّ من سائر المخلوقات.
 - 4- بيان خزي المشركين يوم القيامة حيث يطلب إليهم أن يدعوا شركاءهم لإغاثنهم فيدعونهم فلا يستجيبون لهم.
 - 5- جمع الله تعالى المشركين وما كانوا يعبدون من الشياطين في موبق واحد في جهنم وهو وادي من شر أودية جهنم وأسوأها.
- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُرُوفًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)

(3/267)

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)

شرح الكلمات:

صرفنا: أي بيّنا وكررنا البيان

من كل مثل: المثل الصفة المستغربة العجيبة.

جدلاً: أي مخاصمة بالقول.

سنة الأولين: أي العذاب بالإبادة الشاملة والاستئصال التام.

قبلاً: عياناً ومشاهدة.

ليدحضوا به الحق : أي يبطلوا به الحق.

هزواً : أي مهزوءاً به.

أكنة: أغطية.

وفي آذانهم وقرأ : أي ثقلاً فهم لا يسمعون.

موثلاً: أي مكاناً يلجأون إليه.

لمهلكم موعداً: أي وقتاً معيناً لإهلاكهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان حجج الله تعالى على عباده ليؤمنوا به ويعبدوه وحده فينجوا من عذابه ويدخلوا دار كرامته فقال تعالى: {ولقد صرفنا 1 في هذا القرآن من كل مثل} أي ضربنا فيه الأمثال الكثيرة وبيّنا فيه الحجج العديدة، {وصرفنا فيه} من الوعد والوعيد ترغيباً وترهيباً، وقابلوا كل ذلك بالجحود والمكابرة، {وكان الإنسان 2 أكثر شيء جدلاً} فأكثرهم الإنسان يصرفه في الجدل والخصومات حتى لا يذعن للحق ويسلم به ويؤديه إن كان عليه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى: (54) أما الآية الثانية فقد أخبر تعالى فيها أن الناس ما منعهم {أن يؤمنوا إذ جاءهم

1 قال القرطبي: يحتل أي: هذا الكلام وجهين: أحدهما ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية

والثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وما في التفسير لم يخرج عن هذا فتأمله.

2 يحتل اللفظ الكافر لقوله تعالى: {ويجادل الذين كفروا بالباطل} ويحتل المسلم إلا أنه في الكافر

أظهر وأكثر وروي مسلم عن علي رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم طرده وفاطمة

فقال: ألا تصلون؟ فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول : { وكان الإنسان

أكثر شيء جدلاً}.

(3/268)

الهدى} وهو بيان 1 طريق السعادة والنجاة بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الكفر والشرك

وسوء الأعمال {ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين} بعذاب الاستئصال والإبادة الشاملة، {أو

يأتيهم} عذاب يوم القيامة معاينة 2 وهو معنى قوله تعالى: {أو يأتيهم العذاب قبلاً} 3} وحينئذ لا ينفع

الإيمان. وقوله تعالى: {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} أي دعاة هداة يبشرون من آمن وعمل صالحاً بالجنة وينذرون من كفر، وعمل سوءاً بالنار. فلم نرسلهم جبارين ولم نكلفهم بهداية الناس أجمعين، لكن الذين كفروا يتعامون عن هذه الحقيقة ويجادلون {بالباطل ليدحضوا به الحق}. {واتخذوا} آيات الله وحججه {وما أنذروا} به من العذاب اللازم لكفرهم وعنادهم اتخذوه سخريّة وهزءاً يهزءون به ويسخرون منه وبذلك أصبحوا من أظلم الناس. وهو ما قررته الآية (57) إذ قال تعالى فيها: {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه} أي من الإجرام والشر والشرك. اللهم إنه لا أحد أظلم من هذا الإنسان الكافر العنيد. ثم ذكر تعالى سبب ظلم وإعراض ونسيان هؤلاء الظلمة المعرضين الناسين وهو أنه تعالى حسب سنته فيمن توغل في الشر والظلم والفساد يجعل على قلبه كناناً يحيطه به فيصبح لا يفقه شيئاً. ويجعل في أذنيه ثقلاً فلا يسمع الهدى. ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: {وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا} أي بعد ما جعل على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر {أبداً}.

وقوله تعالى: {وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا} أي لو يؤاخذ هؤلاء الظلمة المعرضين {للعجل لهم العذاب}، ولكن مغفرته ورحمته تآبين ذلك وإلا لعجل لهم العذاب فأهلكهم أمامكم وأنتم تنتظرون. ولكن {لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً⁴} يئنون إليه ولا ملجأ يلجأون إليه. ويرجح أن يكون ذلك يوم بدر لأن السياق في الظلمة المعاندين المحرومين من هداية الله كأبي جهل وعقبة ابن أبي معيط والأخنس بن شريق، هذا أولاً. وثانياً قوله تعالى: {وتلك 5 القرى أهلكتناهم لما ظلموا} يريد أهل القرى من قوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

1 أي: بواسطة القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.

2 أي: عياناً، وفسره بعضهم بعذاب السيف يوم بدر.

3 قراءة الجمهور: (قبلاً) بكسر القاف أي: المقابل الظاهر، وقراء (قُبلاً) بضم القاف والباء وهو جمع قبيل أي: يأتيهم العذاب أنواعاً متعدّدة.

4 {موثلاً}: أي: منجىً أو محيصاً يقال: وأل يئل وألاً ووؤلاً أي: لجأ تقول العرب: لا وألت نفسه أي: لا نجت ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها

للعامريين ولم تكلم

5 تلك: مبتدأ وأهلكتناهم الخبر، ويصح أن تكون تلك في محل نصب والعمل: أهلكتنا نحو: زيداً ضربته.

{ وجعلنا لمهلكم موعداً } أي لهلاكهم موعداً محدداً فكذاك هؤلاء المجرمون من قريش، وقد أهلكهم
ببدر ولعنهم إلى الأبد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لقد أعذر الله تعالى إلى الناس بما يبين في كتابه من الحجج وما ضرب فيه من الأمثال.
 - 2- بيان غريزة الجدل في الإنسان والمخاصمة.
 - 3- بيان مهمة الرسل وهي البشارة والندارة وليست إكراه الناس على الإيمان.
 - 4- بيان عظم ظلم من يُذَكَّرُ بالقرآن فيعرض ويواصل جرائمه ناسياً ما قدمت يداه.
 - 5- بيان سنة الله في أن العبد إذا واصل الشر والفساد يحجب عن الإيمان والخير ويحرم الهداية
أبداً حتى يهلك كافراً ظالماً فيخلد في العذاب المهين.
- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا
نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ
أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64)
فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُسُلًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

(3/270)

مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا
أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69)

شرح الكلمات:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : أي أذكر إذ قال موسى بن عمران نبي بني إسرائيل لفتاه يوشع بن نون بن
أفرايم بن يوسف عليه السلام.

مجمع البحرين: أي حيث التقى البحرين بحر فارس و بحر الروم.

حُقُبًا: الحقب الزمن وهو ثمانون سنة والجمع أحقاب.

سبيله في البحر سرياً: أي طريقه في البحر سرياً أي طريقاً كالنفق.

فلما جاوزا: أي المكان الذي فيه الصخرة ومنه اتخذ الحوت طريقه في البحر سرياً.

في البحر عجباً : أي عجباً لموسى حيث تعجب من إحياء الحوت واتخاذها في البحر طريقاً كالنفق في الجبل.

قصصاً: أي يتتبعان آثار أقدامهما.

عبداً من عبادنا: هو الخضر عليه السلام.

مما علمت رشداً: أي ما هو رشاد إلى الحق ودليل على الهدى.

ما لم تحط به خبراً: أي علماً.

ولا أعصي لك أمراً: أي انتهى إلى ما تأمرني به وإن لم يكن موافقاً هواي.

معنى الآيات:

هذه قصة موسى 1 مع الخضر عليهما السلام وهي تقرر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتؤكددها. إذ مثل هذا القصص الحق لا يتأتى لأحد أن يقصه ما لم ينتلقه وحياً من الله عز وجل. قال تعالى: {وإذ قال موسى} أي أذكر يا رسولنا تدليلاً على توحيدنا ولقائنا ونبوتك. إذ قال موسى بن عمران نبينا إلى بني إسرائيل لفتاه 2 يوشع بن نون {لا أبرح} أي سائراً {حتى أبلغ مجمع 3 البحرين} حيث أرشدني ربي إلى لقاء عبدٍ هناك من عباده هو أكثر مني علماً حتى

1 ذهب نوف البكالي إلى أن موسى هذا هو موسى بن منشا بن يوسف عليه السلام وردّ هذا عليه ابن عباس رضي الله عنهما رداً عنيفاً كما في البخاري فالصحيح أنه موسى بن عمران رسول الله إلى بني إسرائيل.

2 اختلف في فتى موسى من هو؟ قيل: إنه كان شاباً يخدمه ولذا أطلق عليه لفظ الفتى على جهة حسن الأدب، قال ابن العربي. ظاهر القرآن أنه عبد وما دام صح الحديث بأنه يوشع بن نون فلا حاجة إلى البحث والتنقيب.

3 أي ملتقاهما. وهما بحر الأردن وبحر القلزم على الراجح الصحيح.

(3/271)

اتعلم منه علماً أزيده على علمي، { أو أمضي حقياً 1} أي أوصل سيرتي زمناً طويلاً حتى أظفر بهذا العبد الصالح لأتعلم عنه. قوله تعالى: {فلما بلغا مجمع بينهما} أي بين البحرين وهما بحر الروم وبحر فارس عند باب المنذب حيث التقى البحر الأحمر والبحر الأبيض. أو البحر الأبيض والأطلنطي عند طنجة والله أعلم بأيهما أراد. وقوله {نسيا حوتهما} أي نسي الفتى الحوت، إذ هو الذي كان يحمله، ولكن نسب النسيان إليهما جرياً على المتعارف من لغة العرب 2، وهذا الحوت قد جعله الله تعالى علامة لموسى على وجود الخضر حيث يفقد الحوت، إذ القصة كما في البخاري

تبتدىء بأن موسى خطب يوماً في بنى إسرائيل فأجاد وأفاد فأعجب به شاب من بنى إسرائيل فقال له: هل يوجد من هو أعلم منك يا موسى؟ فقال: لا. فأوحى إليه ربه فوراً بلى عبدنا خضر، فتاقت نفسه للقياه للتعلم عنه، فسأل ربه ذلك، فأرشده إلى مكان لقياه وهو مجمع البحرين، وجعل له الحوت علامة فأمره أن يأخذ طعامه حوتاً وأعلمه أنه إذا فقد الحوت فثم يوجد عبد الله خضر ومن هنا لما بلغا مجمع البحرين واستراحا فنام موسى³ والفتى شبه نائم وإذا بالحوت يخرج من المكنل "وعاء" ويشق طريقه إلى البحر فينجاب عنه البحر فيكون كالطاق أو النفق آية لموسى. ويغلب النوم على يوشع فينام فلما استراحا قاما مواصلين سيرهما ونسي الفتى وذهب من نفسه خروج الحوت من المكنل ودخوله في البحر لغلبة النوم فلما مشيا مسافة بعيدة وشعرا بالجوع وقد جاوزا المنطقة التي هي مجمع البحرين⁴ قال موسى للفتى {أتنا5 غداً} وعلل ذلك بقوله: {لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً} أي تعباً. هنا قال الفتى لموسى ما قصَّ الله تعالى: قال مجيباً لموسى {أرأيت} أي أتذكر {إذ أوينا إلى الصخرة} التي استراحا عندها {فإني نسيت الحوت} وقال كالمعتذر، {وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره⁶، واتخذ سبيله} أي طريقه {في البحر عجباً} أي حيي بعد موت

- 1 قال النحاس: الحقب: زمان من الدهر مبهم غير محدود وجمعه أحقاب وورد الحقب مقدرًا بثمانين سنة، إلا أنه في قول موسى هذا مراده الأول وهو زمن غير محدود.
- 2 نحو قوله: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} مع أنه لا يخرج إلا من البحر الملح ونحو قوله: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتيكم رسل منكم} مع العلم أن الرسل من الإنس فقط.
- 3 في البخاري: أن موسى عليه السلام قال ليوشع لا أكلفك إلا أن تخبرني حيث يفارقك الحوت قال الفتى: ما كلفت كثيراً.
- 4 هذا يرجح أن يكون البحران: نهر الأردن وبحيرة طبرية.
- 5 في الآية دليل على وجوب حمل الزاد في السفر ففي هذا رد على المتصوفة الذين يخرجون بلا زاد بدعوى التوكل ثم هم يسألون الناس، وشاهد هذا آية البقرة إذ نزلت في أناس من اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون فنزل قوله تعالى: {وتزودوا..} الآية.
- 6 أن: وما دخلت عليه تسبك بمصدر فيقال: وما أنساني ذكره إلا الشيطان.

(3/272)

ومشى حتى انتهى إلى البحر وانجاب له البحر فكان كالسرب فيه أي النفق فأجابه مرسى بما قص تعالى: {قال ذلك ما كنا نبغ} وذلك لأن الله تعالى جعل لموسى فقدان الحوت علامة على مكان الخضر الذي يوجد فيه {فارتدا} أي رجعا {على آثارهما قصصا} أي يتتبعان آثار أقدامهما {فوجدا}

خضراً كما قال تعالى: {فوجدنا عبداً 1 من عبادنا} وهو خضر {أتيناها رحمة من عندنا} أي نبوة {وعلمناه من لدنا علماً} وهو علم غيب خاص به {قال له موسى} مستعظفاً له {هل أتبعك على أن تعلمني هما علمت رشداً} أي مما علمك الله رشداً أي رشاداً يدلني على الحق وتحصل لي به هداية فأجابه خضر بما قال تعالى: {قال إنك لن تستطيع معي صبراً} يريد أنه يرى منه أموراً لا يقهر عليها وخضر لا بد يفعلها فيتضايق موسى لذلك ولا يطيق الصبر، وعلل له عدم استطاعته الصبر بقوله {وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً} أي علماً كاملاً. فأجابه موسى وقد صمم على الرحلة لطلب العلم مهما كلفه الثمن فقال {ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً} أي سأنتهي إلى ما تأمرني وإن لم يكن موافقاً لما أحب وأهوى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عتب الله تعالى على رسوله موسى عليه السلام عندما سئل هل هناك من هو أعلم منك فقال لا وكان المفروض أن يقول على الأقل الله أعلم. فعوقب لذلك فكلف هذه الرحلة الشاقة.
- 2- استحباب الرفقة في السفر، وخدمة التلميذ للشيخ، إذ كان يوشع يخدم موسى بحمل الزاد.
- 3- طرود النسيان على الإنسان مهما كان صالحاً.
- 4- مراجعة الصواب بعد الخطأ خير من التماسي على الخطأ {فارتدا على آثارهما قصصاً}.
- 5- تجلى قدرة الله تعالى في إحياء الحوت بعد الموت، وانجياب الماء عليه حتى كان كالطاق فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً. وبه استدلل موسى أي بهذا العجب على مكان خضر فوجده هناك.
- 6- استحباب طلب المزيد من العلم مهما كان المرء عالماً وهنا أورد الحديث التالي وهو خير من قنطار ذهباً لمن حفظه وعمل به وهو قول ابن عباس رضي الله عنه قال سألت موسى ربه: قال رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأبي عبيدك أفضى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى

1 في البخاري: "فوجدنا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجياً بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه فقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى.. الخ.

علم نفسه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. وللاثر بقية ذكره ابن جرير عند تفسير هذه الآيات.

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74)

شرح الكلمات:

ذَكَرًا : أي بياناً وتفصيلاً لما خفي عليك.

لقد جئت شيئاً إِمْرًا : أي فعلت شيئاً منكراً.

لا ترهقني: أي لا تغشني بما يعسر علي ولا أطيق حمله فتضيق علي صحبتي إياك.

نفساً زكية: أي طاهرة لم تتلوث روحها بالذنوب.

بغير نفس. أي بغير قصاص.

نكراً: الأمر الذي تنكره الشرائع والعقول من سائر المناكر! وهو المنكر الشديد النكارة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام والعالم الذي أراد أن يصحبه لطلب

العلم منه وهو خضر. قوله تعالى: {قال} أي خضر {فإن اتبعنتي} مصاحباً لي لطلب العلم {فلا

تسألني} عن شيء {أفعله} مما لا تعرف له وجهاً شرعياً {حتى أحدث لك منه ذكراً} أي حتى أكون

أنا الذي يبين لك حقيقته وما جهلت منه. وقوله تعالى: {فانطلقا} أي

1 في قول موسى: {هل أتبعك} من حسن الأدب والتلطف في السؤال وتواضع الطالب للشيخ الشيء

الكثير، وفي الآية دليل على أن المتعلم تابع للعالم وإن تفاوتت مرتبتهما، وما كان موسى إلا أفضل

من خضر ولكنه بحكم أنه تابع للخضر العالم تواضع في لطف.

(3/274)

بعد رضا موسى بمطلب خضر انطلقا يسيران في الأرض 1 فوصلا ميناء من المواني البحرية، فركبا

سفينة كان خضر يعرف أصحابها فلم يأخذوا منهما أجر الإركاب فلما أفلعت السفينة، وتوغلت في

البحر أخذ خضر فأساً فخرق السفينة، فجعل موسى يحشو بثوب له الخرق ويقول: {أخرقتها لتغرق

أهلها} على أنهما حملانا بدون نؤل {لقد جئت شيئاً إِمْرًا} أي أتيت يا عالم منكراً فظيماً فأجابه خضر

بما قص تعالى: {قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً} فأجاب موسى بما ذكر تعالى عنه: {قال

لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً} أي لا تعاقبني بالنسيان فإن الناسي لا حرج عليه. وكانت هذه من موسى 2 نسياناً حقاً ولا تغشني بما يعسر علي ولا أطيعه فأتضايق من صحبتي إياك. قال تعالى: {فانطلقا} بعد نزولهما من البحر إلى البر فوجدا غلاماً جميلاً وسيماً يلعب مع الغلمان فأخذه خضر جانباً وأضجعه 3 وذبحه فقال له موسى بما أخبر تعالى عنه: {أقتلت نفساً زكية بغير نفس} زاكية طاهرة لم يذنب صاحبها ذنباً تتلوث به ش روحه ولم يقتل نفساً يستوجب بها القصاص {لقد جئت شيئاً نكراً} أي أتيت منكراً عظيماً بقتلك نفساً طاهرة لم تذنب ولم تكن هذه نسياناً من موسى بل كان عمداً إذ لم يطق فعل منكر كهذا لم يعرف له وجهاً 4 ولا سبباً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جواز الاشتراط في الصحبة وطلب العلم وغيرهما للمصلحة الراجحة.
- 2- جواز ركوب السفن في البحر.
- 3- مشروعية إنكار المنكر على من علم أنه منكر.
- 4- رفع الحرج عن الناس.
- 5- مشروعية القصاص وهو النفس بالنفس.

1 في البخاري: "فانطلقا يسيران على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول أي (أجرة)".

2 في البخاري: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأولى من موسى نسياناً قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة في البحر فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر" حرف السفينة: طرفها، وحرف كل شيء طرفه.

3 في الترمذي: "أنه أخذ رأسه بيده فاقتلعه فقتله" وفي بعض الروايات "أنه أخذ حجراً فضرب بها رأس الغلام فقتله" وما في التفسير أصح وأوضح.

4 سيأتي بيان علة القتل وأنها حق والقتل كان بإذن الله تعالى وما مات أحد ولا قتل إلا بإذن الله تعالى.

(3/275)

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ
سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)
شرح الكلمات:

قال ألم أقل لك : أي قال خضر لموسى عليهما السلام.
بعدها: أي بعد هذه المرة.

فلا تصاحبني : أي لا تتركني أتبعك.

من لدني عذراً: أي من قبلي (جهتي) عذراً في عدم مصاحبتي لك.
أهل قرية : مدينة أنطاكية.

استطعما أهلها: أي طلبا منهم الطعام الواجب للضيف.

يريد أن ينقض: أي قارب السقوط لميلانه.

فأقامه: أي الخضر بمعنى أصلحه حتى لا يسقط.

أجراً : أي جعلاً على إقامته لإصلاحه.

هذا فراق بيني وبينك: أي قولك هذا {لو شئت لاتخذت عليه أجراً} هو نهاية الصحبة وبداية المفارقة.
بتأويل: أي تفسير ما كنت تنكره على حسب علمك.

معنى الآيات:

مازال السياق في محاوراة الخضر مع موسى عليهما السلام، فقد تقدم إنكار موسى على

(3/276)

الخضر قتله الغلام بغير نفس، ولا جرم إرتكبه، وبالغ موسى في إنكاره إلى أن قال: {لقد جثت شيئاً
نكراً} فأجابه خضر بما أخبر تعالى به في قوله: { ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً} لما
سألته الصحبة للتعليم، فأجاب موسى بما أخبر تعالى به في قوله: {قال إن سألتك عن شيء
بعدها} أي بعد هذه المرة {فلا تصاحبني} أي اترك صحبتي فإنك {قد بلغت من 2 لدني} أي من
جهتي وقبلي عذراً في تركك إياي.

قال تعالى: {فانطلقا} في سفرهما {حتى إذا أتيا أهل قرية} (أي مدينة) قيل إنها انطاكية ووصلها
في الليل والجو بارد فاستطعما أهلها أي طلبا منهم طعام الضيف الواجب له {فأبوا أن يضيفوهما}3،
فوجدوا فيها {أي في القرية} جداراً يريد أن ينقض {أي يسقط فأقامه الخضر وأصلحه فقال موسى له:
{لو شئت لاتخذت عليه أجراً} أي جعل مقابل إصلاحه، لاسيما أن أهل هذه القرية لم يعطونا حقنا
من الضيافة. وهنا قال الخضر لموسى: {هذا فراق بيني وبينك} لأنك تعهدت إنك إذا سألتني بعد
حادثة قتل الغلام عن شيء أن لا تطلب صحبتي وها أنت قد سألتني، فهذا وقت 4 فراقك إذاً

{سَأْنَبُكَ} أي أخبرك {بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً} من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الوفاء بما التزم به الإنسان لآخر.
- 2- وجوب الضيافة لمن استحقها.
- 3- جواز التبرع بأي خير أو عمل ابتغاء وجه الله تعالى.

1 اختلف في أيهما أبلغ: إمرأً أو نكرأً، ورجح بعضهم أن إمرأً فيما لم يحدث من فعل منكر فيكون خاصاً بالمستقبل، ومعناه: أمر فظيع مهيل ونكرأً: يكون فيما وقع فهو بين الفساد بالغ في النكر واجب الإنكار.

2 قرىء: {من لدني} بتخفيف الدال وقرىء في السبع بتشديدها وقرىء عذراً بسكون الذال وقرىء في السبع أيضاً بضمهما، وضمّ العين قبلها كُنْذُرٌ وَنُذْرٌ.

3 في الحديث: "إنهم كانوا لئاماً بخلاء" وهو تعليل لعدم استضافة موسى والخضر.

4 في البخاري: هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله موسى لو ددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما".

(3/277)

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَحَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

شرح الكلمات:

لمساكين: جمع مسكين وهو الضعيف العاجز عن الكسب.

يعملون في البحر: أي يؤجرون سفينتهم للركاب.

أعيبها: أي أجعلها معيبة حتى لا يرغب فيها.

غصباً: أي قهراً.

أن يرهبهما طغياناً وكفراً: أي يغشاهما: ظلماً وجحوداً

وأقرب رحماً: أي رحمة إذ الرحم والرحمة بمعنى واحد.

وما فعلته عن أمري : أي عن اختيار مني بل بأمر ربي جل جلاله و عظم سلطانه.
معنى الآيات:

هذا آخر حديث موسى والخضر عليهما السلام، فقد واعد الخضر موسى عندما أعلن له عن فراقه أن يبين له تأويل ما لم يستطع عليه صبراً، وهذا بيانه، قال تعالى (حكاية عن

(3/278)

الخضر) {أما السفينة} التي خرقتها وأنكرت عليّ ذلك {فكانت 1 لمساكين يعملون في البحر} يؤجرون سفينتهم بما يحصل لهم بعض القوت {فأردت أن أعيبها} 2 لا لأغرق أهلها، {وكان وراءهم 3 ملك} 4 ظالم {يأخذ كل سفينة} صالحة {غصباً} أي قهراً وإنما أردت أن أبقياها لهم إذ الملك المذكور لا يأخذ إلا السفن الصالحة {وأما الغلام} الذي قتلته وأنكرت عليّ قتله {فكان أبواه مؤمنين فخشينا} إن كبر {أن يرهقهما} 5 أي يُغشيهما {طغياً وكفراً فأردنا أن يبدلهما} 6 ربهما خيراً منه زكاة {أي طهراً وصالحاً {وأقرب} 7 رحماً} أي رحمة وبراً بهما فلذا قتلته، {وأما الجدار} فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما} أي سن الرشد {ويستخرجا كنزهما رحمة من} 8 ربك {أي كان ذلك رحمة} {وما فعلته عن أمري} أي عن إرادتي واختياري بل كان بأمر الله وتعليمه. {ذلك} أي هذا {تأويل ما لم تستطع عليه صبراً}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان ضروب من خفي ألطاف الله تعالى فعلى المؤمن أن يرضى بقضاء الله تعالى وإن كان ظاهره ضاراً.

2- بيان حسن تدبير الله تعالى لأولياته بما ظاهره عذاب ولكن في باطنه رحمة.

3- مراعاة صلاح الأبناء في إصلاح حال الأبناء.

1 بهذه الآية استدل من قال من الفقهاء بأن المسكين أقل فقراً من الفقير لأن من ملك سفينة لا يعتبر فقيراً، وردّ هذا بأن أصحاب السفينة كانوا سبعة أفراد، وخمسة منهم زمني ورثوا السفينة من أبيهم وبذا هم فقراء مساكين.

2 أعيبها: أي أجعلها ذات عيب، يقال: عبت الشيء فعاب أي: صار ذا عيب فهو معيب.

3 جائز أن يكون الورا على حقيقته أي: خلفهم، وإذا رجعوا أخذ السفينة منهم، وجائز أن يكون وراء بمعنى أمام، ويؤيده قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير: {وكان أمامهم ملك}.

4 قيل: الملك هو هدد بن بدد، واسم الغلام المقتول: جيسور.

5 وفسر أيضاً: يجشمهما ويحملهما على الرهق وهو الجهل والمعنى: أنه يحملهما حبه على الغلو فيه فيطغيان ويكفران.

6 الرحم والرحمة بمعنى واحد قال الشاعر:

وكيف بظلم جارية

ومنها اللين والرُحم

7 قيل: اسم الغلامين: أصرم وصريم، وكان الكنز ذهباً وفضة لحديث الترمذي عن أبي الدرداء، وشاهده من اللغة فإن الكنز: المال المدفون المدخر، وجائز أن يكون مع المال كتاب فيه علم.

8 تسطع وتستطيع بمعنى..

(3/279)

4- كل ما أتاه الخضر كان بوحى إلهي وليس هو مما يدعيه جهال الناس ويسمون بالعلم اللدني وأضافوه إلى من يسمونهم الأولياء، وقد يسمونه كشفياً، ويؤكد بطلان هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الخضر قال لموسى: أنا على علم مما علمني ربي وأنت على علم مما علمك الله وإن علمي وعلمك إلى علم الله إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره من البحر.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قُلُّوا سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93)

شرح الكلمات:

ويسألونك : أي كفار قريش بتعليم يهود لهم.

ذي القرنين : الإسكندر باني الاسكندرية المصرية الحميري أحد الملوك التبابعة وكان عبداً صالحاً.

(3/280)

سأتلوا عليكم منه ذكراً : سأقص عليكم من حاله خيراً يحمل موعظة وعلماً.
مكننا له في الأرض : بالحكم والتصرف في ممالكها.
من كل شيء سبباً: أي يحتاج إليه سبباً موثقاً إلى مراده.
فأتبع سبباً: أي فأتبع السبب سبباً آخر حتى انتهى إلى مراده.
تغرب في عين حمئة: ذات حماة وهي الطين الأسود وغروبها إنما هو في نظر العين وإلا فالشمس
في السماء والبحر في الأرض.
قوماً: أي كافرين.
عذاباً نكراً: أي عظيماً فظيماً.
يسرا: أي ليناً من القول سهلاً من العمل.
مطلع الشمس: أي مكاناً تطلع منه.
قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً : القوم هم الرّجح ولم يكن لهم يومئذ ثياب يلبسونها ولا منازل
يسكنونها وإنما لهم أسراب في الأرض يدخلون فيها.
كذلك : أي الأمر كما قلنا لك ووصفنا.
بين السدين : السدان جبلان شمال شرق بلاد الترك سد ذو القرنين ما بينهما فقيل فيهما سدان.
قوماً لا يكادون يفقهون قولاً: لا يفهمون كلام من يخاطبهم إلا بشدة وبطء وهم يأجوج ومأجوج.
معنى الآيات:

هذه قصة العبد الصالح ذي القرنين الحميري التبعي على الراجح من أقوال العلماء، وهو الأسكندر
باني الإسكندرية المصرية، ولأمر ما لقب بذي القرنين¹، وكان قد تضمن سؤال قريش النبي صلى
الله عليه وسلم بإيعاذ من يهود المدينة ذا القرنين إذ قالوا لقريش سلوه عن الروح وأصحاب الكهف
وذي القرنين فإن أجابكم عنها فإنه نبي، وإلا فهو غير نبي فرؤوا رأيكم فيه فكان الجواب عن الروح
في سورة الإسراء وعن الفتية وذي القرنين في سورة الكهف هذه وقد تقدم.

1 اختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال هي: عبدالله أو الاسكندر أو عباس أو جابر، كما
اختلفوا في تلقيبه بذي القرنين على عشرة أقوال أمثلها أنه ملك فارس والروم أو أنه كان له ضفيريان
من شعر رأسه فلقب لذلك بذي القرنين، واختلف في نبوته، والظاهر أنه كان نبياً يوحى إليه وكان
ملكاً حاكماً.

الحديث التفصيلي عن أصحاب الكهف في أول السورة وهذا بدء الحديث المتضمن للإجابة عن الملك ذي القرنين عليه السلام قال تعالى: {ويسألونك} يا نبينا {عن ذي القرنين قل} للسائلين من مشرقي قريش {سألتوا عليكم منه 1 ذكراً} أي سأقرأ عليكم من أمره وشأنه العظيم ذكراً خبيراً يحمل الموعدة والعلم والمعرفة: وقوله تعالى: {إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سبباً} هذه بداية الحديث عنه فأخبر تعالى أنه مكن له في الأرض بالملك والسلطان، وأعطاه من كل شيء يحتاج إليه في فتحه الأرض ونشر العدل والخير فيها سبباً يوصله إلى ذلك، وقوله {فأتبع سبباً} 2 حسب سنة الله في تكامل الأشياء فمن صنع إبرة وتابع الأسباب التي توصل بها إلى صنع الإبرة فإنه يصنع المسلة، وهكذا تابعه بين أسباب الغزو والفتح والسير في الأرض {حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة} وهي على ساحل المحيط الأطلنطي، وكونها تغرب فيها هو بحسب رأي العين، وإلا فالشمس في السماء والعين الحمئة 3 والمحيط إلى جنبها في الأرض وقوله تعالى: {ووجد عندها} أي عند تلك العين في ذلك الإقليم المغربي {قوماً} أي كافرين غير مسلمين فأذن الله تعالى له في التحكم والتصرف فيهم إذ يسر له أسباب الغلبة عليهم وهو معنى قوله تعالى: {قلنا يا ذا القرنين} وقد يكون نبياً ويكون قوله الله تعالى هذا له وحياً وهو {إما أن تعذب} بالأسر والقتل، {وإما أن تتخذ فيهم حسناً} وهذا بعد حربهم والتغلب عليهم فأجاب ذو القرنين ربه بما أخبر تعالى به: {أما من ظلم} 4 أي بالشرك والكفر {فسوف نعذبه} بالقتل والأسر، {ثم يرد إلى ربه} بعد موته {فيعذبه عذاباً نكراً} أي فظيماً أليماً. {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} أي أسلم وحسن إسلامه {فله جزاء} 5 {على إيمانه وصالح أعماله} {الحسنى} أي الجنة في الآخرة {ونسئول له من أمرنا يسراً} فلا نغلط له في

1 {ذكراً} أي: خيراً يتضمن ذكره.

2 أصل: السبب: الحبل واستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء، وأوتي ذو القرنين من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد فتوصل إلى فتح البلاد وقهر الأعداء وقرىء فأتبع سبباً بقطع الهمزة وقرأ أهل المدينة فأتبع سبباً بهمزة وصل وتشديد التاء.

3 قرأ الجمهور: (حمئة) من الحمأة أي كثيرة الحمأة وهي الطين الأسود وقرأ بعضهم حامية أي: حارة وجائز أن تكون حامية من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء.

4 أي: قال لأولئك القوم أمّا مَنْ ظلم.. الخ.

5 قراءة أهل المدينة (فله جزاء الحسنى) برفع جزاء بدون تنوين والحسنى مضاف إليه والخبر تقديره: عند الله. وقرأ غيرهم بنصب جزاء على التمييز أي: فله الحسنى جزاءً ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية.

القول ولا نكفه ما يشق عليه ويرهقه.

وقوله تعالى: {ثم أتبع سبباً} أي ما تحصل عليه من القوة في فتح المغرب استخدمه في مواصلة الغزو والفتح في المشرق {حتى إذا بلغ مطلع الشمس 1 وجدها تطلع على 2 قوم} بدائين لم تساعدهم الأرض التي يعيشون عليها على التحضر فلذا هم لا بينون الدور ولا يلبسون الثياب، ولكن يسكنون الكهوف والمغارات والسراديب وهو ما دل عليه قوله تعالى: {لم نجعل لهم من دونها} أي الشمس {سترًا}. وقوله تعالى: {كذلك 3} أي القول الذي قلنا والوصف الذي وصفنا لك من حال ذي القرنين {وقد أحطنا بما لديه} من قوة وأسباب مادية وروحية {خبراً} أي علماً كاملاً. وقوله تعالى: {ثم أتبع} أي ذو القرنين {سبباً} أي واصل طريقه في الغزو والفتح {حتى إذا بلغ بين السدين 4} وهما جبلان بأقصى الشمال الشرقي للأرض بنى ذو القرنين بينهما سداً عظيماً حال به دون غزو يأجوج ومأجوج للإقليم المجاور لهم، وهم القوم الذين قال تعالى عنهم {وجد من دونهما 5 قوماً لا يكادون يفقهون قولاً} فلا يفهمون ما يقال لهم ويخاطبون به إلا بشدة وبطء كبير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ هذا جواب آخر أسئلة قريش الثلاثة. قرأه عليهم قرآناً موحى به إليه.

2- إتباع السبب السبب يصل به ذو الرأي والإرادة إلى تحقيق ما هو كالمعجزات.

3- قول: ذو القرنين: {أما من ظلم....} الخ يجب أن يكون مادة دستورية يحكم به الأفراد والجماعات لصدقها وإجابتها وموافقتها لحكم الله تعالى ورضاه، ومن الأسف أن

1 المطلع: يجوز فيه كسر الميم وفتحها مثل المنسك والمجزر والمسكن والمنبت هذه يجوز فيها وجهان الكسر والفتح في ميمها.

2 قال صاحب النوير: والظاهر أنه بلغ ساحل اليابان في حدود منشورياً أو كورياً شرقاً.

3 جائز أن يكون المعنى: كذلك أمرهم كما قصصنا عليك وهو معنى ما في التفسير وجائز أن يكون كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها كذلك.

4 قرأ حفص بفتح السين، وقرأ نافع بضمها، ونظير السد في الفتح والضم الضعف والقر والقر.

5 قوله: من دونهما يعني أمام الـدين لا خلفهما إذ خلفهما يأجوج ومأجوج.

يعكس هذا القول السديد والحكم الرشيد فيصبح أهل الظلم مكرمين لدى الحكومات، وأهل الإيمان والاستقامة مهانين!!

4- بيان وجود أمم بدائية إلاّ عهد ما بعد ذي القرنين لا يلبسون ثيابا ولا يسكنون سوى الكهوف والمغارات ويوجد في البلاد الكينية إلى الآن قبائل لا يرتدون الثياب، وإنما يضعون على فروجهم خيوط وسيور لا غير.

5- تقرير أن هذا الملك الصالح قد ملك الأرض فهو أحد أربعة1 حكموا الناس شرقاً وغرباً.
قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) أَن تُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (96) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا (101)

1 هم : مسلمان وهما ذو القرنين وسليمان عليهما السلام، وكافران وهما: النمرود وبختنصر. كذا قيل والله أعلم.

(3/284)

شرح الكلمات:

يأجوج ومأجوج: قبيلتان من أولاد يافث بن نوح عليه السلام والله أعلم.

نجعل لك خرجاً: أي جعلاً مقابل العمل.

سدّاً: السد بالفتح والضم الحاجز المانع بين شيئين.

ردماً: حاجزاً حصيناً وهو السد.

زبر الحديد: جمع زبرة قطعة من حديد على قدر الحجرة التي يبني بها.

بين الصدفين: أي صدف الجبلين أي جانبيهما.

قطراً: القطر النحاس المذاب.

فما استطاعوا أن يظهروه: أي عجزوا عن الظهور فوقه لعلوه وملاسته.

نقبا: أي فتح ثغرة تحت تحته ليخرجوا معها.

جعله دكا: أي تراباً مساوياً للأرض.

وتركنا بعضهم: أي يأجوج ومأجوج أي يذهبون ويجيئون في اضطراب كموج البحر.
أعينهم في غطاء عن ذكرى: أي عن القرآن لا يفتحون أعينهم فيما تقرأ عليهم بغضا له أو أعين
قلوبهم وهي البصائر فهي في أكنة لا تبصر الحق ولا تعرفه.
لا يستطيعون سمعاً : لبغضهم للحق والداعي إليه.

معنى الآيات:

مازال السياق في حديث ذي القرنين إذ شكأ إليه سكان المنطقة الشمالية الشرقية من الأرض بما
أخبر تعالى به عنهم إذ قال: {قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج1 ومأجوج مفسدون في الأرض} أي بالقتل
والأكل والتدمير والتخريب، {فهل نجعل لك خرجاً} أي أجراً2 {على

1 يأجوج ومأجوج: اسمان أعجميان يهزمان ولا يهزمان ولذا قرئ في السبع بهما وهما ابنا يافث بن
نوح عليه السلام ورد وصفهم أن صنفاً منهم يفرش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل ولا
وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه مقدّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون
أنهار المشرق وبحيرة طبرية، وذلك يوم يفتح سدهم ويهدم، وخروجهم من أسرار الساعة الكبرى.
2 الخرج والخراج: لغتان، وقيل الخرج: ما يعطى تطوعاً والخراج: ما يلزم عطاؤه والمراد به هنا
الأجر مقابل العمل المطلوب من إقامة السدّ.

(3/285)

أن تجعل بيننا وبينهم سداً} أي حاجزاً قوياً لا يصلون معه إلينا. فأجابهم ذو القرنين بما أخبر الله
تعالى به في قوله: {قال ما مكني فيه ربي} من المال القوة والسلطان {خير} أي من جعلكم وخرجكم
{فأعينوني} بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً2} أي سداً قوياً وحاجزاً مانعاً {أتوني زير الحديد} أي
قطع الحديد كل قطعة كاللينة المضروبة، فجاءوا به إليه فأخذ يضع الحجارة وزير الحديد ويبني حتى
ارتفع البناء فساوى بين الصدفين جانبي الجبلين، وقال لهم {انفحوا} أي النار على الحديد {حتى إذا
جعله ناراً} قال أتوني بالنحاس المذاب أفرغ عليه3 قطراً فأتوه به فأفرغ عليه من القطر ما جعله كأنه
صفيحة واحدة من نحاس {فما استطاعوا} أي يأجوج ومأجوج {أن يظهره} أي يعلوا فوقه، {وما
استطاعوا له نقباً} أي خرقاً فلما نظر إليه وهو جبل شامخ وحصن حصين قال هذا من رحمة ربي
أي من أثر رحمة ربي عليّ وعلى الناس وأردف قائلاً {فإذا جاء وعد ربي} وهو خروج يأجوج
ومأجوج عند قرب الساعة {جعله دكاً} أي تراباً مساوياً للأرض، {وكان وعد ربي حقاً} وهذا مما وعد
به وأنه كائن لا محالة قال تعالى: {وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض} أي مختلطين مضطربين
إنسهم4 وجنهم {ونفخ في الصور} نفخة البعث {فجمعناهم} للحساب والجزاء {جمعاً وعرضنا جهنم

يومئذ للكافرين عرضاً { حقيقياً يشاهدونها فيه من قرب، ثم ذكر ذنب الكافرين وعلّة عرضهم على النار فقال: وقوله الحق: {الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى} أي أعين قلوبهم وهي البصائر فلذا هم لا ينظرون في آيات الله الكونية فيستدلون بها على وجود الله ووجوب عبادته وتوحيده فيها، ولا في آيات الله القرآنية فييهتدون بها إلى أنه لا إله إلا الله ويعبدونه بما تضمنته الآيات القرآنية، لو كانوا لا يستطيعون سمعاً} للحق ولما يدعوا إليه رسل الله من الهدى والمعروف

1 القوة: الرجال والمال.

2 الردم أعظم من السدّ.

3 جائز أن يكون المراد بالقطر النحاس المذاب وهذا الظاهر، وجائز أن يكون الحديد المذاب والثالث: أنه الصفر والرابع أنه الرصاص. روى أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما خلاصته أنّ يأجوج ومأجوج يحفران يوماً السدّ حتى إذا كادوا يخرقونه يقولون غدا نتم حفره وإذا جاء الغد حفروا ولم يقولوا إن شاء الله حتى إذا جاء وعد الله قالوا: إن شاء الله ففتح لهم.

4 جائز أن يكون المراد بمن يموج بعضهم في بعض: يأجوج ومأجوج وجائز أن يكون الإنس والجن وذلك يوم القيامة.

(3/286)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية الجعالة للقيام بالمهام من الأعمال.

2- فضيلة التبرع بالجهد الذاتي والعقلي.

3- مشروعية التعاون على ما هو خير، أو دفع للشر.

4- تقرير وجود أمة يأجوج ومأجوج، وأن خروجهم من أسراط الساعة.

5- تقرير البعث والجزاء.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)

شرح الكلمات:

أفحسب الذين كفروا : الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

أن يتخذوا عبادي : كالملائكة وعيسى بن مريم والعزير وغيرهم.
أولياء: أرباباً يعبدوهم بأنواع من العبادات.
نزلاً: النزول: ما يعد للضيف من قرى وهو طعامه وشرابه ومنامه.
ضل سعيهم: أي بطل عملهم وفسد عليهم فلم ينتفعوا به.
يحسنون صنعا: أي بعمل يعمل يجازون عليه بالخير وحسن الجزاء.
وآيات ربهم: أي بالقرآن وما فيه من دلائل التوحيد والأحكام الشرعية.
ولقائه: أي كفروا بالبعث والجزاء.
وزناً : أي لا نجعل لهم قدراً ولا قيمة بل نزيدهم ونذلهم.

(3/287)

ذلك: أي أولئك جزاؤهم جهنم وأطلق لفظ ذلك بدل أولئك، لأنهم بكفرهم وهبوط أعمالهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل لا خير فيه ولا وزن له يستحسن أن يشار إليه بذلك.
معنى الآيات:

ينكر تعالى على المشركين شركهم ويوبخهم مقرعاً لهم على ظنهم أن اتخاذهم 1 عبادة من دونه أولياء يعبدونهم كالملائكة حيث عبدهم بعض العرب والمسيح حيث عبده النصارى، والعزير حيث عبده بعض اليهود، لا يغضبه تعالى ولا يعاقبهم عليه. وكيف لا يغضبه ولا يعاقبهم عليه وقد أعد جهنم للكافرين نزلاً أي دار ضيافة لهم فيها طعامهم وفيها شرابهم وفيها فراشهم كما قال تعالى {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش} هذا ما دلت عليه الآية الأولى (102) وهي قوله تعالى {أفحسب2 الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء 3 إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً}. وقوله تعالى في الآية الثانية (103) يخبر تعالى بأسلوب الاستفهام للتشويق للخبر فيقول {قل هل ننبئكم} أيها المؤمنون {بالأخسرين أعمالاً} إنهم {الذين ضل سعيهم}4 في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} أي عملاً، ويعرفهم فيقول {أولئك الذين كفروا بآيات ربهم} فلم يؤمنوا بها، وبلقاء ربهم فلم يعملوا العمل الذي يرضيه عنهم ويسعدهم في وهو الدين الصحيح والعمل الصالح الذي شرعه الله لعباده المؤمنين به يتقربون به إليه. فلذلك حببت أعمالهم لأنها شرك وكفر وشر وفساد، {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً}5 إذ لا قيمة لهم ولا لأعمالهم الشركية الفاسدة الباطلة فإن أحدهم لا يزن جناح بعوضة لخفته.

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما إنهم الشياطين. وهو صحيح إذ الشياطين هم الذين زينوا لهم عبادة الملائكة والأنبياء والأولياء والأصنام ودعوهم إلى عبادتهم.

- 2 قرىء: (أفحسب) بإسكان السين وضم الباء أي. أفيكفيهم أن يتخذوهم أولياء؟
- 3 جواب الاستفهام محذوف تقديره: كلا بل هم أعداء يتبرؤون منهم وجائز أن يكون: ولا أغضب ولا أعاقبهم، وكلا المعنيين يراد.
- 4 يدخل في هذا كل من المشركين واليهود والنصارى والحرورية والمرعون بأعمالهم، وكل من يعمل الأعمال، وهو يظن أنه محسن وقد حبطت أعماله لفساد اعتقاده ولمراءاته أو لعمله بما شرع الله كأنواع البدع المكفرة.
- 5 روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرأوا إن شئتم: {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً}.

(3/288)

وأخيراً أعلن تعالى عن حكمه فيهم وعليهم فقال {ذلك} أي المذكور من غناء الخلق {جزأؤهم جهنم} وعلل للحكم فقال: {بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً} أي بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات ربه وبرسله فكان الحكم عادلاً، والجزاء موافقاً والحمد لله رب العالمين.

هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- تقرير شرك من يتخذ الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء آلهة يعبدوهم تحت شعار التقرب إلى الله تعالى والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله تعالى بحبهم والتقرب إليهم.
 - 2- تقرير هلاك أصحاب الأهواء الذين يعبدون الله تعالى بغير ما شرع ويتوسلون إليه بغير ما جعله وسيلة لرضاه وجنته. كالخوارج والرهبان من النصارى والمبتدعة الروافض والإسماعيلية، والنصيرية والدروز ومن إليهم من غلاة المبتدعة في العقائد والعبادات والأحكام الشرعية.
 - 3- لا قيمة ولا ثقل ولا وزن لعمل لا يوافق رضا الله تعالى وقبوله له، كما لا وزن عند الله تعالى لصاحبه، وإن مات خوفاً من الله أو شوقاً إليه.
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ

-
- 1 وجائز أن تكون الإشارة بذلك إلى ترك الوزن وخسة القدر والخبر: جزأؤهم جهنم. و (جهنم) بدل من (جزأؤهم) بدلا مطابقاً فيه زيادة توكيد.

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

شرح الكلمات:

كانت لهم : أي جزاء إيمانهم وعملهم الصالح.

الفردوس نزلاً : هو وسط الجنة وأعلاها ونزلاً منزل إكرام وإنعام.

لا يبيغون عنها حولا: أي لا يطلبون تحولا منها لأنها لا خير منها أبداً.

لو كان البحر: أي ماؤه مداداً.

قبل أن تنفد كلمات ربي: أي قبل أن تفرغ.

لنفد البحر : أي ولم تنفد هي أي لم تفرغ.

يرجو لقاء ربه: يأمل وينتظر البعث والجزاء يوم القيامة حيث يلقي ربه تعالى.

ولا يشرك بعبادة ربه أحدا : أي لا يرأى بعمله أحداً ولا يشرك في عبادة الله تعالى غيره تعالى.

معنى الآيات:

بعدما ذكر تعالى جزاء أهل الشرك والأهواء وأنه جهنم ناسب ذكر جزاء أهل الإيمان والتقوى التي

هي عمل الصالحات واجتناب المحرمات فقال: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} أي صدقوا الله

ورسوله وآمنوا بلقاء الله، ووعدوه لأوليائه، ووعدوه لأعدائه من أهل الشرك والمعاصي، وعملوا

الصالحات فأدوا الفرائض والواجبات وسارعوا في النوافل والخيرات هؤلاء {كانت لهم} في علم الله

وحكمه {جنات الفردوس} أي بساتين الفردوس منزلاً ينزلونه ودار كرامة يكرمون فيها وينعمون،

والفردوس أعلى الجنة وأوسطها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصفاً لها ومرغباً فيها وقد

ارتادها وانتهى إلى مستوى فوقها ليلة الإسراء والمعراج قال: "إن سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنها

أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى، ومنه تفجر أنهار الجنة" ، كما في

الصحيح²، وقوله تعالى {خالدين فيها لا يبيغون

1 روى الشيخان من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "جنات الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حليتهما وأنبيتهما وما فيهما، وثلثان من فضة حليتهما وأنبيتهما وما فيهما وليس

بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن".

2 وروى البخاري وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: "الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها، ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس".

(3/290)

عنها حولاً} أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون متحولاً عنها إذ نعيمهما لا يمل وسعادتها لا تنقص، وصفوها لا يكدر وسرورها لا ينغص بموت ولا بمرض ولا نصب ولا تعب جعلني الله ومن قال آمين من أهلها. آمين. وقوله تعالى: {قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً} تضمنت هذه الآية رداً على اليهود الذين لما نزل قول الله تعالى {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} في الرد عليهم لما سألوا عن الروح بواسطة وفد قريش إليهم. فقالوا: أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل الله تعالى قل لو كان البحر مداداً الآية رداً عليهم وإبطالاً لمزاعمهم فأعلمهم وأعلم كل من يدعي العلم الذي ما فوفقه علم بأنه لو كان ماء البحر مداداً وكان كل غصن وعود في أشجار الدنيا كلها قلماً، وكتب بهما لنفد ماء البحر وأغصان الشجر ولم تنفذ كلمات ربي التي تحمل العلوم والمعارف الإلهية وتدل عليها وتهدى إليها فسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم سبحان الله الذي انتهى إليه علم كل شيء وهو على كل شيء قدير. وقوله تعالى: {قل إنما أنا بشر 2 مثلكم يوحى إلي أنما إليهم إله واحد}. يأمر تعالى رسوله بأن يقول للمشركين الذين يطلبون منه المعجزات كالتي أوتى موسى وعيسى: إنما أنا بشر مثلكم لا أقدر على ما لا تقدرون عليه أنتم، والفرق بيننا هو أنه يوحى إلي الأمر من ربي وأنتم لا يوحى إليكم يوحى إلي أنما إليهم أي معبودكم الحق وربكم الصدق هو إله واحد الله ربكم ورب آبائكم الأولين. وقوله {فمن 3 كان يرجو 4} أي يأمل وينتظر {لقاء ربه} خوفاً منه وطمعاً فيه {فليعمل عملاً صالحاً} وهو مؤمن موقن، {ولا يشرك بعبادة 5 ربه أحداً} فإن الشرك محبط للعمل مبطل له، وبهذا يكون رجاءه صادقاً وانتظاره صالحاً صائباً.

1 المداد في أول الآية والمداد في آخرها بمعنى واحد واشتقاقها لا يختلف.

2 قال ابن عباس رضي الله عنهما علم الله تعالى رسوله التواضع لئلا يزهى على خلقه فأمره أن يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره إلا أنه أكرم بالوحي.

3 روي في سبب نزول هذه الآية ما يلي: أتى جندب بن زهير الغامدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أعلم الله تعالى فإذا اطلع عليه سرني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ولا يقبل ما ررني فيه. فنزلت هذه الآية.

4 فسر {يرجو} بمعنى: يأمل وبمعنى يخاف وكلاهما مطلوب الخوف من الله ومن عذاب الآخرة

والأمل في فضل الله وإحسانه وثوابه في الدنيا والآخرة.
5 فسّر سعيد بن جبير رحمه الله {ولا يشرك} بأن لا يرأى. وهو صحيح ولفظ الشرك أعم من الرياء.

(3/291)

-هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 2- بيان أفضل الجنان وهو الفردوس الأعلى.
- 3- علم الله غير متناهي لأن كلماته غير متناهية.
- 4- تقرير صفة الكلام لله تعالى.
- 5- تقرير بشرية النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ليس روحاً ولا نوراً فحسب كما يقول الغلاة الباطنية.
- 6- تقرير التوحيد والتنديد بالشرك.
- 7- تقرير أن الرياء شرك لما ورد أن الآية نزلت في بيان حكم المرء يجاهد 1 يريد وجه الله ويرغب أن يرى مكانه بين الناس، يصلى ويصوم ويجب أن يثنى عليه بذلك.

1 قال ابن عباس وطاووس: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أحب الجهاد في سبيل الله وأحب أن يرى مكاني فنزلت هذه الآية وجائز تعدد النزول من أجل أن يجاب السائل بنفس الآية التي كانت جواباً لسؤال مماثل.

(3/292)

سورة مريم

...

سورة مريم

مكية

وآياتها ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذِ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

(3/292)

شرح الكلمات:

كَهَيْعَصَ 1: هذه من الحروف المقطعة تكتب كهيعص وتقرأ كاف، هاء يا عين صاد. ومذهب

السلف أن يقال فيها: الله أعلم بمراده بذلك.

ذكر رحمة ربك : أي هذا ذكر رحمة ربك.

نادى ربه: أي قال: يا رب ليسأله الولد.

نداءً خفياً: أي سر بعداً عن الرياء.

وهن العظم مني : أي رق وضعف لكبر سني.

واشتعل الرأس شيباً: أي انتشر الشيب ثما شعر رأسي انتشر النار في الحطب.

ولم أكن بدعائك رب شقياً: أي إنك لم تخيبيني فيما دعوتك فيه قبل، فلا تخيبيني اليوم فيما أدعوك فيه.

وإني خفت الموالى : أي خشيت بني عمي أن يضيعوا الدين بعد موتي.

إمرأتي عاقراً: لا تلد واسمها أشاع فهي أخت حنة أم مريم.

فهب لي من لدنك ولياً : أي ارزقي من عندك ولداً.

ويرث من آل يعقوب: أي جدي يعقوب العلم والنبوة.

واجعله رب رضيعاً : أي مرضياً عندك.

سمياً: أي مسمى يحيى.

معنى الآيات:

أما قوله تعالى: {كَهَيْعَصَ 2} فإن هذا من الحروف المقطعة والراجح أنها من المتشابه الذي نؤمن به ونفوض فهم معناه لمنزله سبحانه وتعالى فنقول: {كهيعص} الله أعلم بمراده به.

وأما قوله تعالى: {ذِكْرُ 3} رحمة ربك عبده زكريا} فإن معناه: مما تتلو 4 عليك في هذا القرآن يا نبينا

1 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال إن الكاف من كافٍ والهاء من هادٍ والياء من حكيم

والعين من عليم والصاد من صادق. وعن قتادة أنه اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم للسورة

وقيل: هي اسم الله الأعظم، وكان علي يقول: يا كهيعص اغفر لي.

2 كهيعص: هذه حروف هجاء مكتوبة بمسمياتها مقروعة بأسمائها.

3 {ذكر} خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر رحمة ربك وعبده: منصوب بالمصدر الذي هو ذكر.

4 بناء على أن ذكر رحمة ربك: خبر والمبتدأ محذوف فإنه يصح تقديره. هذا ذكر وذكر رحمة ربك، وهذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك.

(3/293)

فيكون دليلاً على نبوتك ذكر رحمة ربك التي رحم بها عبده زكريا حيث كبرت سنه، وامرأته عاقر لا يولد لها ورغب في الولد لمصلحة الدعوة الإسلامية إذ لا يوجد من يخلفه فيها إذا مات نظراً إلى أن الموجود من بني عمه ومواليه ليس بينهم كفؤ لذلك بل هم دعاة إلى السوء فنادى¹ ربه نداء خفياً قائلاً: {رب إنني وهن العظم مني} أي رق وضعف، {واشتعل الرأس شيباً} أي شاب شعر رأسي لكبر سني، {ولم أكن بدعائك رب شقياً} أي في يوم من الأيام بمعنى أنك عودتني الاستجابة لما أدعوك له ولم تحرمني استجابة دعائي فأشقى به دون الحصول على رغبتني. {وإنني} يا ربي قد {خفت}2 الموالي} أن يضيعوا هذه الدعوة دعوة الحق التي هي عبادتك بما شرعت وحدك لا شريك لك، وذلك بعد موتي {فهب لي من لدنك} أي من عندك تفضلاً به علي إذ الأسباب غير متوفرة للولد: المرأة عاقر وأنا شيخ كبير هرم، {ولياً} أي ولداً يلي أمر هذه الدعوة بعد وفاتي فيرثني فيها {ويرث}3 من آل يعقوب} جدي ما تركوه بعدهم من دعوة أبيهم إبراهيم وهي الحنيفية عبادة الله وحده لا شريك له {واجعله رب رضياً} أي واجعل الولد الذي تهبني يا ربي {رضياً} أي عبداً صالحاً ترضاه لحمل رسالة الدعوة إليك، فأجابه الرب تبارك وتعالى بما في قوله: {يا زكريا4 إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى}5، لم نجعل له من قبل سمياً} أي من سمي باسمه يحيى قط.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره بهذا الذي أخبر به عن زكريا عليه السلام.

2- استحباب السرية في الدعاء لأنه أقرب إلى الاستجابة.

1 النداء هنا: الدعاء والرغبة إلى الله تعالى، وفيه استحباب دعاء السرّ والمناجاة الخفية، وقد أسرّ

مالك القنوت وجهر به الشافعي لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جهر به.

2 الموالي هنا: الأقارب وبنوا العم والعصبة الذين يلونه في النسب لأنّ العرب تسمي بني العم موالى

قال شاعرهم: مهلا بني عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

- 3 المراد من الإرث هو: إرثه في دعوته لأنّ موالیه كانوا مهملين للدين والدعوة فخاف ضياع ذلك فسأل ربه ولداً يقوم بذلك، أمّا المال فإنّ الأنبياء لا يورثون وما يتركونه فهو صدقة.
- 4 في الكلام حذف تقديره: فاستجاب الله دعاه فقال: يا زكريا.. الخ.
- 5 تضمنت هذه البشرى ثلاثة أمور: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوّة له، والثالث: إفراده بتسمية لم يسمّ بها أحد قبله، قيل في قوله: {من قبل} إشارة إلى أنه سيخلف بعده من هو أشرف اسماً وذاتاً وحالاً وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

(3/294)

- 3- وجود العقم في بعض النساء.
- 4- قدرة الله تعالى فوق الأسباب وإن شاء تعالى أوقف الأسباب وأعطى بدونها.
- 5- تقرير مبدأ أن الأنبياء لا يورثون فيما يخلفون من المال كالشاه والبعير 1 وإنما يورثهم الله أولادهم في النبوة والعلم والحكمة.
- قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَنبِئَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَرَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

شرح الكلمات:

أنى يكون لي غلام؟ : أي ن أي وجه وجهة يكون لي ولد.

عتيا : أي يبست مفاصي وعظامي.

آية : أي علامة تدلني على حمل امرأتي.

سويا : أي حال كونك سويّ الخلق ما بك عليه خرس.

1 والدينار والدرهم.

(3/295)

من المحراب 1: المصلى الذي يصلى فيه وهو المسجد.

فأوحى إليهم: أوما إليهم وأشار عليهم.

وأتيناه الحكم صبياً: الحكم والحكمة بمعنى واحد وهما الفقه في الدين ومعرفة أسرار الشرع.

وحناناً من لدنا: أي عطفاً على الناس موهوباً له من عندنا.

وزكاة: أي طهارة من الذنوب والآثام.

جباراً عصياً: أي متعالياً لا يقبل الحق عصياً لا يطيع أمر الله عز وجل وأمر والديه.

وسلام عليه: أي أمان له من الشيطان أن يمسه بسوء يوم يولد، وأمان له من فتاني القبر يوم

يموت، وأمان له من الفزع الأكبر يوم يبعث حياً.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر رحمة الله عبده زكريا إنه لما بشره ربه تعالى بيحيى قال: ما أخبر به تعالى عنه في قوله: {قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً 2} أي من أي وجه وأتيني الولد أمن امرأة غير امرأتي، أم منها ولكن تهبني قوة على مباحثتها 3 وتجعل رحمها قادرة على العلق 4، لأنى كما تعلم يا ربي قد بلغت من الكبر حداً بس فيه عظمي ومفاصلي وهو العنى كما أن امرأتي عاقر لا يولد لها. فأجابه الرب تبارك وتعالى بما في قوله عز وجل: {قال كذلك} أي الأمر كما قلت يا زكريا، ولكن {قال ربك هو على هين} أي إعطاؤك الولد على ما أنت عليه من الضعف والكبر وامرأتك من العقر سهل يسير لا صعوبة فيه وبدلك على ذلك أنى {قد خلقتك من 5 قبل ولم تك شيئاً}، فكما قدر ربك على خلقك ولم تك شيئاً فهو قادر على هبتك الولد على ضعفك وعقر امرأتك وهنا طالب زكريا ربه بأن يجعل له علامة تدله على وقت حمل امرأته بالولد فقال ما أخبر به تعالى في قوله: {قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً} فأعطاه تعالى علامة على وقت حمل امرأته بالولد وهي أنه يصبح يوم بداية الحمل لا يقدر على الكلام

1 المحراب: مكان مرتفع، ومن هنا كره مالك أن يصلي الإمام في مكان أرفع من المكان الذي

يصلي فيه الناس وراءه خشية الكبر عليه، والكبر من كبائر الذنوب ولم يكره أحمد رحمه الله تعالى.

2 قرأ نافع (عُتياً) بضم أوله كما: بُكياً وصلبياً، وبكسرها قرأ حفص، والعنى: هو فحول العظم

ويبوسته.

3 أي: جماعها من إدخال البضع في البضع.

4 أي: علوق النطفة في الرحم.

5 أي: فخلق الولد كخلقك.

وهو سوي البدن ما به خرس ولا مرض يمنعه من الكلام، {فخرج على قومه من المحراب} أي المصلى الذي يصلي فيه {فأوحى إليهم} أي أوما وأشار 1 إليهم {أن سبحوا 2 بكرة وعشياً 3} أي اذكروا الله في هذين الوقتين بالصلاة والتسبيح. وهنا علم بحمل امرأته إذ إمتناعه عن الكلام مع سلامة جسمه وحواسه آية على بداية الحمل. وقوله تعالى: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} هذا قول الله تعالى للغلام بعد بلوغه ثلاث سنين أمره الله تعالى أن يتعلم التوراة ويعمل بها بقوة جد وحزم وقوله {وآتيناها الحكم 4 صبياً} أي وهبناه الفقه في الكتاب ومعرفة أسرار الشرع وهو صبي لم يبلغ سن الاحتلام. وقوله تعالى: {وحناناً 5 من لدنا وزكاة وكان تقياً} أي ورحمة منا به ومحبة له آتيناها الحكم صبياً كما أنه عليه السلام كان ذا حنان على أبويه وغيرهما من المسلمين وقوله {وزكاة} أي طهارة من الذنوب باستعمال بدنه في طاعة ربه عز وجل {وكان تقياً} أي خائفاً من ربه فلا يعصه بترك فريضة ولا يفعل حرام.

وقوله تعالى: {وبرا بوالديه} أي محسناً بهما مطيعاً لهما لا يؤذيهما أدنى أذى وقوله {ولم يكن جباراً عصياً} أي لم يكن عليه السلام مستكبراً ولا ظالماً، ولا متمرداً عاصياً لربه ولا لأبويه وقوله: {وسلام عليه يوم 6 ولد} أي أمان له من الشيطان يوم ولد، وأمان له من فتانى القبر يوم يموت، وأمان له من الفرع الأكبر يوم يبعث حياً، فسبحان الله ما أعظم فضله وأجزل عطاءه على أوليائه، اللهم أمانا كما أمنتنا فإنك ذو فضل عظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- طلب معرفة السبب الذي يتأتى به الفعل غير قادح في صاحبه فسؤال زكريا عن الوجه الذي يأتي به الولد، كسؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى.

1 أو كتب إليهم كتابة.

2 إذ كان يأمرهم بالصلاة بكرة وعشياً فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة بالإشارة لأنه لم يقدر على الكلام إذ جعل الله تعالى عجزه عن الكلام علامة الحمل لامرأته.

3 بكرة وعشياً طرفان في الصباح والمساء.

4 يروى أنه قال له الأولاد: هيا بنا نلعب فقال لهم: ما للعب خلقت، فهذا مما أوتيته من الحكم صبياً.

5 الحنان: التعطف والترحم وأصله من حنين الناقة إلى فصيلها، ويقال: حنانك وحنانيك وهما بمعنى واحد. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر أهو من بعض
6 وجائز أن يكون المراد بالسلام هنا: التحية منه تعالى وهي أشرف من غيرها.

(3/297)

-
- 2- جواز طلب العلامات الدالة على الشيء للمعرفة.
 - 3- آية عجيبة أن يصبح زكريا لا يتكلم فيفهم غيره بالإشارة فقط.
 - 4- فضل التسبيح في الصباح والمساء.
 - 5- وجوب أخذ القرآن بجد وحزم قراءة وحفظاً وعملاً بما فيه.
 - 6- صدق قول أهل العلم من حفظ القرآن في سن ما قبل البلوغ فقد أوتي الحكم صبيّاً.
 - 7- وجوب البر بالوالدين ورحمتهما والحنان عليهما والتواضع لهما.
- وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَفْضِيًّا (21)
- شرح الكلمات:

واذكر في الكتاب: أي القرآن مريم أي خبرها وقصتها.

مريم : هي بنت عمران والدة عيسى عليه السلام.

إذ انتبذت : أي حين اعتزلت أهلها باتخاذها مكاناً خاصاً تخلو فيه بنفسها.

شرقياً : أي شرق الدار التي بها أهلها.

حجاباً : أي ساتراً يسترها عن أهلها وذويها.

روحنا : جبريل عليه السلام.

(3/298)

-
- بشراً سويّاً: أي تام الخلق حتى لا تفرع ولا تررع منه.
إن كنت تقياً : أي عاملاً بإيمانك وتقواك لله فابتعد عني ولا تؤذني.
غلاماً زكياً: ولداً طاهراً لم يتلوث بذنب قط.
ولم يمسنني بشر : أي لم أتزوج.

ولم أك بغياً: أي زانية.

قال كذلك : أي الأمر كذلك وهو خلق غلام منك من غير أب.

هو على هين : ما هو إلا أن ينفخ رسولنا في كم درعك حتى يكون الولد.

ولنجعله آية للناس : أي على عظيم قدرتنا.

ورحمة منا: أي وليكون الولد رحمة بمن آمن به واتبع ما جاء به.

أمراً مفضياً: أي حكم الله به وفرغ منه فهو كائن حتماً لا محالة.

معنى الآيات:.

هذه بداية قصة مريم عليها السلام إذ قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {واذكر في الكتاب} أي القرآن الكريم {مريم} أي نبأها وخبرها ليكون ذلك دليلاً على نبوتك وصدقك في رسالتك وقوله {إذ انتبذت} أي اعتزلت {من أهلها} هذا بداية القصة وقوله {مكاناً شرقياً} أي موضعاً شرقي دار قومها وشرق المسجد، ولذا اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم في صلاتهم ولا حجة لهم في ذلك إلا الابتداع وإلا فقبلة كل مصلي لله الكعبة بيت الله الحرام قوله تعالى: {فاتخذت من دونهم} أي من دون أهلها {حجاباً} ساتراً لها عن أعينهم¹، ولما فعلت ذلك أرسل الله تعالى إليها جبريل في صورة بشر سوي الخلق معتد لها، فدخل عليها فقالت ما قص الله تعالى في كتابه {إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً} أي أحتمي بالرحمن الذي يرحم الضعيفات مثلي إن كنت مؤمناً تقياً فاذهب عني ولا ترعني أو تمسني بسوء. فقال لها جبريل عليه السلام ما أخبر تعالى به وهو {قال إنما أنا رسول ربك لأهب² لك غلاماً زكياً} أي طاهراً لا يتلوث بذنب قط. فأجابت بما أخبر تعالى عنها في قوله: {أني يكون لي

1 قيل: استترت عن أهلها لتغتسل من حيضتها وتمتشط، وذلك لكمال حياتها.

2 قرأ ورش عن نافع: (ليهب) بالياء بغير همزة، وقرأ غيره: (لأهب) بالهمزة فعلى قراءة نافع المعنى: أرسلني ليهب لك، وعلى قراءة غيره أرسلني يقول لك أرسلت رسولي إليك لأهب لك.

(3/299)

غلام} أي من أي وجه يأتيني الولد، {ولم يمسنني بشر} أي وأنا لم أتزوج، {ولم أك بغياً¹} أي ولم أكرانية، فأجابها جبريل بما أخبر تعالى به في قوله: {قال كذلك} أي الأمر كما قلت ولكن ربك قال: {هو علي هين} أي خلقه بدون أب من نكاح أو سفاح، لأنه هين علينا من جهة، {ولنجعله² آية للناس} دالة على قدرتنا على خلق آدم بدون أب ولا أم، والبعث الآخر من جهة أخرى. وقوله تعالى {رحمة منا وكان أمراً مقضياً³} أي ولنجعل الغلام المبشر به رحمة منا لكل من آمن به واتبع طريقته

في الإيمان والاستقامة وكان هذا الخلق للسلام وهبته لك أمراً مقضياً أي حكم الله فيه وقضى به فهو كائن لا محالة ونفخ جبريل في جيب قميصها فسرت النفخة في جسمها فحملت به كما سيأتي بيانه في الآيات التالية.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان شرف مريم وكرامتها على ربها.
- 2- فضيلة العفة والحياء.
- 3- كون الملائكة يتشكلون كما أذن الله تعالى لهم.
- 4- مشروعية التعوذ بالله من كل ما يخاف من إنسان أو جان.
- هـ - التقوى 4 مانعة من فعل الأذى بالناس أو إدخال الضرر عليهم.
- 6- خلق عيسى آية مبصرة تتجلى فيها قدرة الله تعالى على الخلق بدأ وإعادة.

-
- 1 لم تفل بغية لأنه وصف يغلب على النساء فقلما تقول العرب رجل بغي فجرى بغيا مجرى حائض وعافر، وقيل هو فعيل بمعنى فاعل والأول أولى.
 - 2 {ولنجعله} متعلق بمحذوف تقديره: ونخلقه لنجعله.
 - 3 أي: مقدرا في اللوح المحفوظ كتاب المقادير العام.
 - 4 بخلاف الفجور فإنه مصدر كل ضرر وشر.

(3/300)

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (23) فَتَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سَقِطٌ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

شرح الكلمات:

فانتبذت به : فاعتزلت به.

مكاناً قصياً: أي بعيداً من أهلها.

فأجاءها المخاض: أي ألجأها الطلق واضطرها وجع الولادة.

إلى جذع النخلة: لتعتمد عليها وهي تعاني من آلام الولادة.

نسياً منسياً: أي شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر.

فناداها من تحتها: أي عيسى عليه السلام بعدما وضعته.
تحتك سرىا: أي نهراً يقال له سرى.
رطباً جنياً : الرطب الجنى: ما طاب وصلح للإجتاء.
فكلي وأشربى: أي كل من الرطب واشربى من السرى.
وقرى عينا : أي وطيبى نفساً وافرحى بولادتك إياي ولا تحزنى.
نذرت للرحمن صوماً: أي إمساكاً عن الكلام وصمتاً.

(3/301)

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في قصة مريم إنه بعد أن بشرها جبريل بالولد وقال لها وكان أمراً مقضياً ونفخ في كم درعها أو جيب قميصها فحملته 1 فوراً {وانتبتت به مكاناً قصياً} أي فاعتزلت به في مكان بعيد 2 {فأجاءها المخاض 3} أي ألجأها وجع النفاس {إلى جذع النخلة} لتعتمد عليه وهي تعاني من آلام الطلق وأوجاعه، ولما وضعته قالت متأسفة متحسرة ما أخبر تعالى به: {قالت يا ليتني 4 مت قبل هذا} أي الوقت الذي. أصبحت فيه أم ولد، {وكننت نسياً منسياً 5} أي شيئاً متروكاً لا يذكر ولا يعرف وهنا {فنادها} عيسى 6 عليه السلام {من تحتها ألا تحزنى} يحملها على الصبر والعزاء وقوله تعالى: {قد جعل ربك تحتك سرىا} أي نهر ماء يقال له سرى، {وهزىء إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربى} أي كلي من الرطب واشربى من ماء النهر، {وقرى عينا} أي طيبى نفساً وافرحى بولادك، {فإما ترين من البشر أحداً} أي فسألك عن حالك أو عن ولدك فلا تكلميه واكتفى بقولك {إني نذرت للرحمن صوماً} أي صمتاً {فلن أكلم اليوم إنسياً} هذا كله من قول عيسى لها أنطقه الله كرامة لها ليذهب عنها حزنها وألمها النفسي من جراء الولادة وهي بكر لم تتزوج.

- 1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال. قال القرطبي: هذا هو الظاهر لأن الله تعالى ذكر الانتباز عقب الحمل: {فحملته فانتبتت به} والفاء للترتيب والتعقيب.
- 2 انتحت بالحمل إلى مكان بعيد قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال وإنما بعدت فراراً من تعبير قومها بالولادة من غير أب.
- 3 يقال: جاء به وأجاءه إلى موضع كذا: اضطره وألجأه.
- 4 تمنى الموت لا يجوز لحديث: "لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضَرَّ نَزَلَ بِهِ" الحديث وتمنّته مريم عليها السلام لا لصالح نفسها ولكن لله تعالى، وذلك أنها خافت أن يظنّ بها الشرّ في دينها وتُعيّر فتفتن بذلك، وهذا لله، وثانياً خافت أن يقع بعض الناس في البهتان والنسبة إلى الزنى فيهلكون. وهذا أيضاً

الله لا لها.

5 النسبي: الشيء الحقيق الذي شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ونحوهما، ويجمع النسبي على أنساء قال الكميت رضي الله عنه:

أتجعلنا جسرا لكب قضاة

ولست بنسي في معدّ ولا دخل

والنسي أيضاً: خرق الحيض التي ترمى بدمها من الحيض.

6 قرأ نافع (من) بكسر الميم حرف جر، وقرأ حفص من بفتحها، اسم موصول والمراد بالموصول

عيسى عليه السلام ناداها قبل أن ترضعه من تحتها تعجيلاً للمسرة والبشرى لها به فأن في ألا

تحزني تفسيرية لأن النداء قول.

(3/302)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- من مظاهر قدرة الله تعالى حملها ووضعها في خلال ساعة من نهار.

2- إثبات كرامات الله لأوليائه إذ أكرم الله تعالى مريم بنطق عيسى ساعة وضعه فأرشدتها وبشرها وأذهب عنها الألم والحزن، وأثمر لها النخلة فأرطبت وأجرى لها النهر بعد يبسه.

3- تقرير نظام الأسباب التي في مكنة الإنسان القيام بها فإن الله تعالى قد أثمر لمريم النخلة إذ هذا لا يمكنها القيام به ثم أمرها أن تحرك النخلة من جذعها ليتساقط عليها الرطب I الجني إذ هذا في استطاعتها.

4- مشروعية النذر إلا أنه بالامتناع² عن الكلام منسوخ في الإسلام.

فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

1 قالت العلماء: أكل الرطب للنفساء من أنفع الأغذية لها نظراً إلى أن الله تعالى اختاره لمريم عليها السلام.

2 قولها { إني نذرت للرحمن صوماً } فسر الصوم بالصمت كما في التفسير وأولى من هذا أن يكون

صوم النذر في دينهم مستلزماً للصمت وعدم الكلام، والسياق دلّ عليه ظاهر فيه، وما زال النصارى يعتبرون الصمت عبادة فيصمتون دقائق على أرواح موتاهم ونسخ الإسلام هذا كما في الصحيح حيث أمر من نذر أن لا يتكلم أن يتكلم، ومن سنن الهدى في الإسلام الامتناع عن الكلام القبيح في الصيام لحديث الصحيح: "إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فإن امرئ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم" وهو كقول مريم: {فقلولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً}.

(3/303)

شرح الكلمات:.

قأنت به : أي بولدها عيسى عليه وعليها السلام.

جئت شيئاً فرياً 1 : أي عظيماً حيث أتيت بولد من غير أب.

يا أخت هارون: أي يا أخت الرجل الصالح هارون.

امراً سوء : أي رجلاً يأتي الفواحش.

فأشارت إليه: أي إلى عيسى وهو في المهد.

أتاني الكتاب: أي الإنجيل باعتبار ما يكون مستقبلاً.

مباركاً أينما كنت: أي حيثما وجدت كانت البركة فيّ ومعني ينفع الناس بي.

وبرا بوالدتي: أي محسناً بها مطيعاً لها لا ينالها مني أدنى أذى.

جباراً شقياً : ظالماً متعالياً ولا عاصياً لربي خارجاً عن طاعته.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة مريم مع قومها: إنها بعد أن تماثلت للشفاء حملت ولدها وأنت به قومها وما ان رأوها حتى قال قائلهم: {يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً} أي أمراً عظيماً وهو إتيانك بولد من غير أب. {يا أخت هارون}2 نسبوها إلى عبد صالح يسمى هارون: {ما كان أبوك} عمران {امراً سوء} يأتي الفواحش {وما كانت أمك} "حنة" {بيغيا} أي زانية فكيف حصل لك هذا وأنت بنت البيت الطاهر والأسرة الشريفة. وهنا أشارت إلى عيسى الرضيع في قماطته أي قالت لهم سلوه يخبركم الخبر وينبئكم بالحق، لأنها علمت أنه يتكلم لما سبق أن ناداها ساعة وضعه من تحتها وقال لها ما ذكر تعالى في الآيات السابقة.

1 (فرياً): أي: مختلفاً مفتعلاً من الافتراء الذي هو الكذب يقال: فرى وأفرى: كذب ومن كراماتها أن

امرأة مدّت لها يدها لتضربها أصيبت بالشلل الفوري فحملت كذلك وقالت لها: أخرى ما أراك إلاّ

زنيبت فأخرسها الله فوراً فصارت لا تتكلم ومن ثم ألانوا لها الكلام واحترموها.

2 من الجائز أن يكون لمريم أخ صالح من أبيها أو من أباؤها نسبوها إليه ومن الجائز أن تنسب إلى هارون الرسول عليه السلام كقول العرب يا أبا تميم ويا أبا العرب، وما في التفسير إجمال يشمل الكل فتأمل، وفي الآية دليل على جواز التسمية بالأنبياء والصالحين، ولا خلاف في ذلك.

(3/304)

فردوا عليها مستخفين بها منكبين عليها متعجبين منها: {كيف نكلم من كان 1 في المهد صبياً؟} فأنطق الله عيسى الرضيع فأجابهم بما أخبر تعالى عنه في قوله: {قال إني عبد 2 الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً 3 بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً} 4 فأجابهم بكل ما كتب الله وأنطقه به، وكان عيسى كما أخبر عن نفسه لم ينقص من ذلك شيئاً كان عبداً لله وأنزل عليه الإنجيل ونبأه وأرسله إلى بني إسرائيل وكان مباركاً يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله تتال البركة من صحبته وخدمته والإيمان به وبمحبته وكان مقيماً للصلاة مؤدياً للزكاة طوال حياته وما كان ظالماً ولا متكبراً عاتياً ولا جباراً عصياً. فعليه كما أخبر السلام أي الأمان التام يوم ولد فلم يقربه شيطان ويوم يموت فلا يفتن في قبره ويوم يبعث حياً فلا يحزنه الفرع الأكبر، ويكون من الأمنين السعداء في دار السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبودية عيسى ونبوته عليهما السلام.
 - 2- آية نطق عيسى في المهد وإخباره بما أولاه الله من الكمالات.
 - 3- وجوب بر الوالدين بالإحسان بهما وطاعتهما والمعروف وكف الأذى عنهما.
 - 4- التنديد بالتعالى والكبر والظلم والشقاوة التي هي التمرد والعصيان.
- ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

1 كان: هنا زائدة للتوكيد، ومن: مبتدأ والخبر في المهد وصبيياً: حالي من الموصول.
2 قيل: لما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه وقال مشيراً بسبابته اليمنى: {إني عبد الله} فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى، وفي هذا ردّ على الذين ألّهوه وعبدوه من دون الله تعالى.

3 البر: بمعنى البار وخص بهذه الصفة لأن قومهم قل فيهم البرور بالوالدين وكثر فيهم العقوق نظراً إلى فشو الباطل فيهم ورقة حبل الدين بينهم، والجبار: المتكبر على الناس الغليظ في معاملتهم،

والشقي ضدّ السعيد.

4 لما قال ما قال في المهد: إني عبد الله.. إلى قوله: {ويوم أبعث حياً} لم يتكلم حتى بلغ سن التكلم.

(3/305)

فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

شرح الكلمات:

ذلك عيسى ابن مريم : أي هذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره هو عيسى بن مريم.
قول الحق: أي وهو قول الحق الذي أخبر تعالى به.

يمترون: يشكون.

ما كان لله أن يتخذ من ولد: أي ليس من شأن الله أن يتخذ ولداً وهو الذي يقول للشيء كن فيكون.
سبحانه: أي تنزيهاً له عن الولد والشريك والشبيه والنظير.

صراط مستقيم : أي طريق مستقيم لا يضل سالكه.

فاختلف الأحزاب: أي في شأن عيسى فقال اليهود هو ساحر وابن زنا، وقال النصارى هو الله وابن الله تعالى الله عما يصفون.

من مشهد يوم عظيم : هو يوم القيامة.

أسمع بهم وأبصر: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة عند معاينة العذاب.

وأنذرهم يوم الحسرة: أي خوفهم بما يقع في يوم القيامة من الحسرة والندامة وذلك عندما يشاهدون أهل الجنة قد ورثوا منازلهم فيها وهم ورثوا منازل أهل الجنة في النار فتعظم الحسرة ويشتد الندم.

(3/306)

معنى الآيات:

بعد أن قص الله تعالى قصة مريم من ساعة أن اتخذت من دون أهلها حجاباً معتزلة أهلها منقطعاً إلى ربه إلى أن أشارت إلى عيسى وهو في مهده فتكلم فقال: إني عبد الله، فبين تعالى أن جبريل

بشرها، وأنه نفخ في كم درعها فحملت بعيسى وأنه ولد في ساعة من حملها وأنها وضعت تحت جذع النخلة وأنه ناداها من تحتها: أن لا تحزني، وأرشدنا إلى القول الذي تقول لقومها إذا سألوها عن ولادتها المولود بدون أب، وهو أن تشير إليه تطلب منهم أن يسألوه وسألوه فعلا فأجاب بأنه عبد الله وأنه آتاه الكتاب وجعله نبياً ومباركاً وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حياً وأنه بر بوالدته، ولم يكن جباراً شقياً فأشار تعالى إلى هذا بقوله في هذه الآية (34) {ذلك} أي هذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره هو {عيسى ابن مريم}، وما أخبرتكم به هو {قول الحق الذي فيه يمترون} أي يشكون إذ قال اليهود في عيسى أنه ابن زنا وأنه ساحر وقال النصارى هو الله وابن الله وثالث ثلاثة حسب فرقهم وطوائفهم المتعددة وقوله تعالى: {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه} ينفي تعالى عنه اتخاذ الولد وكيف يصح ذلك له أو ينبغي وهو الغني عما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، وأنه يقول للشيء كن فيكون فعيسى عليه السلام كان بكلمة الله تعالى له كن فكان وهو معنى قوله تعالى {إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون}2. وقد نزه تعالى نفسه عن الولد والشريك والشبيه والنظير، والافتقار والحاجة إلى مخلوقاته بقوله: سبحانه أي تنزيهاً له عن صفات المحدثين وقوله تعالى: {وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم}3 هذا من قول4 عيسى عليه السلام لبني إسرائيل أخبرهم أنه عبد الله وليس بابن الله ولا بإله مع الله وأخبرهم

-
- 1 قرأ الجمهور برفع قول وقرأ عاصم بنصبها، فأما الرفع فهو خبر ثانٍ عن اسم الإشارة أو وصف لعيسياً و بدل منه، وأما النصب فعلى الحال من اسم الإشارة.
 - 2 في هذا ردّ على النصارى القائلين بأن المكوّن بأمر التكوين من غير سبب معتاد لا يكون إلا ابن الله تعالى فبيّنت الآية أن أصول الموجودات كلها كانت بأمر التكوين فهل يقال فيها أبناء الله؟! والجواب قطعاً لا، وعليه فقد بطل قولهم: عيسى ابن الله لأنه كان بكلمة التكوين.
 - 3 جملة: {هذا صراط مستقيم} تذييل وفذلكة لما سبق من الكلام وإشارة إلى مضمون ما تقدّم على اختلاف وجوهه، في تقرير الحق وإبطال الباطل.
 - 4 نعم الظاهر أنه من قول عيسى عليه السلام، والجمل قبله من قوله تعالى: {ذلك عيسى بن مريم} اعترض بين قول عيسى الأول: {إني عبد الله} وبين قوله {وإن الله ربي وربكم}.

(3/307)

أن الله تعالى هو ربه وربهم فليعبدوه جميعاً بما شرع لهم ولا يعبدون معه غيره إذ لا إله لهم إلا هو سبحانه وتعالى، وأعلمهم أن هذا الاعتقاد الحق والعبادة بما شرع الله هو الطريق المفضي بسالكه إلى السعادة ومن تنكب عنه وسلك طريق الشرك والضلال أفضى به إلى الخسران وقوله تعالى في

الآية (37) {فاختلف الأحزاب من بينهم1} أي في شأن عيسى فمن قائل هو الله، ومن قائل هو ابن الله ومن قائل هو وأمه الهين من دون الله والقائلون بهذه المقالات كفروا بها فتوعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم فقال {فويل للذين كفروا} بنسبتهم الولد والشريك لله، والويل واد في جهنم فهم إذا دخلوها لا محالة، وقوله {من مشهد يوم عظيم} يعني به يوم القيامة وهو يوم ذو أهوال وشدائد لا يقادر قدرها.

وقوله تعالى في الآية (38) {أسمع2 بهم وأبصر يوم يأتوننا} يخبر تعالى أن هؤلاء المتعامين اليوم عن الحق لا يريدون أن يبصروا آثاره الدالة عليه فيؤمنوا ويوحّدوا ويعبدوا، والمتصاممين عن سماع الحجج والبراهين وتوحيد الله وتنزيهه عن الشريك والولد هؤلاء يوم يقدمون عليه تعالى في عرصات القيامة يصبحون أقوى ما يكون أبصاراً وسمعاً، ولكن حين لا ينفعهم سمع ولا بصر، وقوله تعالى: {لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} يخبر تعالى أن أهل الشرك والكفر وهم الظالمون في ضلال مبين أي عن طريق الهدى وهو سبب عدم إبصارهم للحق وسماعهم لحججه التي جاءت بها رسل الله ونزلت بها كتبه.

وقوله تعالى في آية (39) {وأنذرهم يوم الحسرة3 إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون} يأمر تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن ينذر الكفار والمشركين أي يخوفهم عاقبة شركهم وكفرهم وضلالهم يوم القيامة حيث تشتد فيه الحسرة وتعظم الندامة وذلك عندما يتوارث الموحّدون مع المشركين فالموحّدون يرثون منازل المشركين في الجنة، والمشركون يرثون منازل

1 (من): زائدة واختلاف الأحزاب، وجهه: أن اليهود قادحون والنصارى مادحون، فاليهود قالوا: ساحر وابن زنية، والنصارى فرقة: قالت هو الله وأخرى قالت: ابن الله، وثالثة قالت: ثالث ثلاثة، وهذه الفرق هي الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية ثم تشعبت وأشهرها الآن: الملكانية أي الكاثوليك واليعقوبية: أي أرثوذكس والاعتراضية أي: البروتستانت.

2 هذا الكلام ظاهر أنه أمر لحمل السامع على التعجب من حال المذكورين، ومعناه الخبر أي: لا أحد أسمع منهم ولا أبصر يوم يقفون في عرصات القيامة، ويشاهدون النار ويسمعون زفيرها.

3 روي في مسند أحمد وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وجاء بالموت، كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال فيشربون وينظرونه ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرونه ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح. قال. ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { وأنذرهم يوم الحسرة .. } الآية .

الموحدين في النار، وعندما يؤتى بالموت في صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار، وينادي منادٍ يا أهل الجنة خلود فلا موت؟ ويا أهل النار خلود فلا موت عندها تشتد الحسرة ويعظم الندم هذا معنى قوله تعالى {أنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة} عما حكم عليهم به من الخلود في نار جهنم {وهم لا يؤمنون} بالبعث ولا بما يتم فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم. وقوله تعالى: {إنا نحن} نرث الأرض ومن عليها، وإلينا يرجعون} يخبر تعالى عن نفسه بأنه الوارث للأرض ومن عليها ومعنى هذا أنه حكم بفناء، هذه المخلوقات وأن يوماً سيأتي يفنى فيه كل من عليها، والجميع سيرجعون إليه ويقفون بين يديه ويحاسبهم بما كتبت أيديهم ويجزيهم به، ولذا فلا تحزن أيها الرسول وامض في دعوتك تبلغ عن ربك ولا يضرك تكذيب المكذبين ولا شرك المشركين.

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- تقرير أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس كما قال اليهود، ولا كما قالت النصارى.
 - 2- استحالة اتخاذ الله الولد وهو الذي يقول للشيء كن فيكون.
 - 3- تقرير التوحيد على لسان عيسى عليه السلام.
 - 4- الإخبار بما عليه النصارى من خلاف في شأن عيسى عليه السلام.
 - 5- بيان سبب الحسرة يوم القيامة وهو الكفر بالله والشرك به.
 - 6- تقرير فناء الدنيا، ورجوع الناس إلى ربهم بعد بعثهم وهو تقرير لعقيدة البعث والجزاء التي تعالجها السور المكية في القرآن الكريم.
- وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ

1 هذه الجملة ذيل بها الكلام السابق فتمت به القصة وضمير (نحن) للتأكيد والأرض: المراد بها ما فيها من غير العقلاء (ومن عليها) المراد بهم العقلاء وهم البشر.

(3/309)

إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

شرح الكلمات:

اذكر في الكتاب: أي في القرآن.

إنه كان صديقاً: أي كثير الصدق بالغ الحد الأعلى فيه.

يا أبت: يا أبي وهو آزر.

صراطاً سوياً: أي طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه يفضي بك إلى الجنة.

لا تعبد الشيطان: أي لا تطعه في دعوته إياك إلى عبادة الأصنام.

عصياً: أي عاصياً لله تعالى فاسقاً عن أمره.

فتكون للشيطان ولياً: أي قريباً منه قريناً له فيها أي النار.

معنى الآيات:

هذه بداية قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع والده آزر عليه لعائن الرحمن قال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {واذكر} يا نبينا {في الكتاب} أي القرآن الكريم {إبراهيم} خليلنا {إنه كان صديقاً} أي صادقاً في أقواله وأعماله بالغاً مستوى عظيماً في الصدق {نبياً} من أنبيائنا فهو جدير بالذكر في القرآن ليكون قدوة صالحة للمؤمنين. واذكره {إذ قال لأبيه} آزر {يا أبت 1 لم تعبد} أي تسأله بالدعاء والتقرب بأنواع القربات ما لا يسمع ولا يبصر من الأصنام أي لا يبصر ولا يسمعك {ولا يغني عنك شيئاً} لا يدفع عنك ضرراً ولا يجلب لك نفعاً فأبي حاجة لك إلى عبادته {يا أبت إني قد جاءني من العلم} 2 {أي من قبل ربي تعالى} {ما لم يأتك} أنت {فاتبعني} فيما أعتقده وأعمله وأدعو إليه {أهدك صراطاً} 3 سوياً {أي مستقيماً يفضي

1 الاستفهام للإنكار أي: لأي شيء تعبد.

2 أي: من اليقين والمعرفة بالله وبما يكون بعد الموت وأن من عبد غير الله يعذب أبداً.

3 أرشدك إلى دين قيم فيه نجاتك وسعادتك.

(3/310)

بك إلى السعادة والنجاة، {يا أبت لا تعبد الشيطان} أي بطاعته فيما يدعوك إليه من عبادة غير الله تعالى من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعطي ولا تمنع، {إن الشيطان كان للرحمن عصياً} 1 {أي عاصياً أمره فأبى طاعته وفسق عن أمره. {يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن} 2 {إن أنت بقيت على شركك وكفرتك ولم تنتب منهما حتى مت فيمسك عذاب من الرحمن} {فتكون} أي بذلك {للشيطان ولياً} أي قريباً منه قريناً له في جهنم فتهلك وتخسر. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بالدعوة إليه.
- !- كمال إبراهيم بذكره في الكتاب.
- 3- بطلان عبادة غير الله تعالى.
- 4- عبادة الأوثان والأصنام وكل عبادة لغير الله تعتبر عبادة للشيطان لأنه الأمر بها والداعي إليها.
قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَتَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا
أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيًِّّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

- 1 الجملة تعليلية للنهي عن عبادة الشيطان واتباع وسوسته وما يدعو إليه من الشرك.
- 2 أي: إني أخاف أن تموت على الكفر فيمسك العذاب الأليم.

(3/311)

شرح الكلمات:

- لئن لم تنته : أي عن التعرض لها وعبئها.
لأرجمك: بالحجارة أو بالقول القبيح فاحذرنى.
واهجرني مليا 1: أي سليما من عقوبتي.
سلام عليك.: أي أمنةً مني لك أن أعاودك فيما كرهت مني.
إنه كان بي حفيا : أي لطيفاً بي مكرماً لي يجيبني لما أدعوه له.
عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا : بل يجيب دعائي ويعطني مسألتي.
فلما اعتزلهم : بأن هاجر إلى أرض القدس وتركهم.
وهبنا له اسحق ويعقوب : أي وهبنا له ولدين يأنس بهما مجازاة منا له على هجرته قومه.
ووهبنا لهم من رحمتنا : خيراً كثيراً المال والولد بعد النبوة والعلم.
لسان صدق عليا: أي ربيعاً بأن يُثنى عليهم ويذكرون بأطيب الخصال.
معنى الآيات:

ما زال السياق في قصة إبراهيم مع أبيه آزار إنه بعد تلك الدعوة الرحيمة بالألفاظ الطيبة الكريمة التي وجهها إبراهيم لأبيه آزر ليؤمن ويوحد فينجو ويسعد قال آزر راداً عليه بعبارات خالية من الرحمة والأدب بل ملؤها الغلظة والفظاظة والوعيد والتهديد وهي ما أخبر به تعالى عنه في قوله: في الآية

(46) {قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم} أي أكاره لها تعييبها، {لئن لم تنته} أي عن التعرض لها بأي سوء 2 {لأرجمتك} بأبشع الألفاظ وأقبحها، {واهجرتني ملياً 3} أي وابتعد عني ما دمت معافى سليم البدن سويه قبل أن ينالك مني ما تكره. كان هذا رد آزر الكافر المشرك. فيما أجاب إبراهيم المؤمن الموحد أجاب بما أخبر تعالى به عنه في قوله في آية (47) {قال سلام 4 عليك 5} أي أمان لك مني يا أبتاه فلا أعاودك

1 {واهجرتني ملياً} أي: اتركني وشأني وابتعد عني طويلاً تسلم من عقوبتي.

2 أي: كعيبها وشتمها.

3 وقيل في معناه: اجتنبني سالماً قبل أن تصيبك عقوبتي، وقيل: اهجرتني طويلاً.

4 هذا يسمى سلام المتاركة، وليس هو بالتحية وهل يجوز بدء الكافر بالسلام؟ في المسألة خلاف، والراجح: جواز السلام إذا كان لغرض سليم ككونه جاراً لك أو رفيقاً أو مصاحباً لك في عمل أو لك إليه حاجة وما إلى ذلك إذ سلم الرسول صلى الله عليه وسلم على جماعة فيهم مشركون كما في الصحيح، وأما حديث: "لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام" فهو إذا لم يكن هناك غرض صحيح. 5 (سلام): نكرة وصح الابتداء بها لما فيها من معنى التخصيص فقاربت لذلك المعرفة وصح الابتداء بها. وعليك الخبر.

(3/312)

فيما كرهت مني قط وسأقابل إساءتك بإحسان {سأستغفر لك ربي} أي أطلب منه أن يهديك للإيمان والتوحيد فتتوب فيغفر لك {إنه كان} سبحانه وتعالى {بي حفيماً} لطيفاً بي مكرماً لي لا يخيبني فيما أدعوه فيه.

وقوله تعالى حكاية عن قيل إبراهيم: {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله} أي أذهب بعيداً عنكم تاركاً لكم ولما تعبدون من دون الله من أصنام وأوثان، {وآدعو ربي عسى إلا أكون بدعاء ربي شقياً 1} أي رجائي في ربي كبير أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام. قال تعالى مخبراً عنه فلما حقق ما واعدتم به من هجرته لديارهم إلى ديار القدس تاركاً أباه وأهله وداره كافأناه بأحسن حيث أعطيناه ولدين يأنس بهما في وحشته وهما إسحق ويعقوب وكلا منهما جعلناه نبياً رسولاً، ووهبنا لجميعهم وهم ثلاثة الوالد إبراهيم وولداه إسحق ويعقوب بن إسحق عليهم السلام من رحمتنا الخير العظيم من المال والولد والرزق الحسن هذا معنى قوله تعالى: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب} وهو ابن ولده إسحق {وكلا جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا}. وقوله تعالى عنهم {وجعلنا لهم لسان صدق علياً} هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله حيث

جعل الله تعالى لهم لسان الصدق في الآخرة فسائر أهل الأديان الإلهية يثنون على إبراهيم وذريته بأطيب الثناء وأحسنه وهو لسان الصدق العلي الرفيع الذي حظى به إبراهيم وولديه إكراماً من الله تعالى وإنعاماً عليهم جزاء صدق إبراهيم وصبره وبالتالي هجرته للأصنام وعابديها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان الفرق بين ما يخرج من فم المؤمن الموحد من طيب القول وسلامة اللفظ وبين الجانب والكلام، وبين ما يخرج من فم الكافر المشرك من سوء القول وقبح اللفظ وقسوة الجانب وفظاظة الكلام.

2- مشروعية سلام المتاركة والموادعة وهو أن يقال للسيء من الناس سلام عليك وهو لا يريد

1 أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال، وفي قوله تعالى {فلما اعتزلهم} وهنا له دليل يرجح هذا القول. والله أعلم.

(3/313)

بذلك تحيته ولكن تركه وما هو فيه.

3- مشروعية الهجرة وبيان فضلها وهجرة إبراهيم هذه أول هجرة كانت في الأرض.

4- الترغيب في حسن الأحداث بأن يكون للمرء حسن ثناء بين الناس لما يقدم من جميل وما يورث من خير وإفضال.

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)

شرح الكلمات:

واذكر في الكتاب: أي في القرآن تشريفاً وتعظيماً.

موسى: أي ابن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام.

مخلصاً: أي مختاراً مصطفى على قراءة فتح اللام "مخلصاً" وموحداً لربه مفرداً إياه بعبادته بالغاً في ذلك أعلى المقامات على قراءة كسر اللام.

جانب الطور: الطور جبل بسيناء بين مدين ومصر.

وقربناه نجياً: أي أدنيناه إنداء تشريف وتكريم مناجياً لنا مكلماً من قبلنا.

أخاه هارون نبياً: إذ سأل ربه لأخيه الرسالة فأعطاه فنباؤه وأرسله معه إلى فرعون.

معنى الآيات:

هذا موجز قصة موسى عليه السلام قال تعالى في ذلك وهو يخاطب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم {واذكر} في هذه السلسلة الذهبية من عباد الله الصالحين أهل التوحيد واليقين موسى ابن عمران انه جدير بالذكر في القرآن وعلة ذلك في قوله تعالى: {إنه كان مخلصاً} أي مختاراً مصطفى للإبلاغ عنا عبادنا ما خلقناهم لأجله وهو ذكرنا وشكرنا بذكرنا بألسنتهم وقلوبهم وشكرهم لنا بجوارحهم وذلك بعبادتنا وحدنا دون من سوانا، وكان موسى كذلك، وقول تعالى: {وكان رسولاً نبياً} أي ومن افضالنا عليه وإكرامنا له أن جعلناه نبياً رسولاً نبأناه

(3/314)

وأرسلناه إلى فرعون وملائته، {وناديناه}1 وهو في طريقه من مدين إلى مصر في جانب الطور الأيمن2 حيث نبأناه وأرسلناه وبذلك {وقربناه نجياً} فصار ينجينا فنُسمعه كلامنا ونسمع3 كلامه وأعظم بهذا التكريم من تكريم، وقوله: {ووهبنا له من4 رحمتنا أخاه هارون نبياً} هذا إنعام آخر من الله تعالى على موسى النبي إذ سأل ربه أن يرسل معه أخاه هارون إلى فرعون فيرحمة من الله تعالى استجاب له ونبأ هارون وأرسله معه رسولاً وما كان هذا إلا برحمة خاصة إذ النبوة لا تطلب ولا يتوصل إليها بالاجتهاد والعبادة ولا بالدعاء والصراعة إذ هي هبة إلهية خاصة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضيلة الإخلاص، وهو إرادة الله تعالى بالعبادة ظاهراً وباطناً.
 - 2- إثبات صفة الكلام والمناجاة لله تعالى.
 - 3- بيان إكرام الله تعالى وإنعامه على موسى إذ أعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين باستجابة دعائه بأن جعل أخاه هارون رسولاً نبياً.
 - 4- تقرير أن كل رسول نبياً والعكس لا أي ليس كل نبي رسولاً.
- وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ

1 قيل: كان هذا الكلام والمناجاة ليلة الجمعة. ذكره القرطبي.

2 هو بالنسبة إلى يمين موسى عليه السلام أما الجبل فلا يمين له ولا شمال "ابن جرير الطبري".

3 أي: من غير وحي بل كفاحاً وجها لوجه لا واسطة.

4 وذلك حين سأل ربه قائلاً: {واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي} الآية.

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

شرح الكلمات:

واذكر في الكتاب إسماعيل: أي اذكر في القرآن تشريفا وتعظيما إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

صديق الوعد: لم يخلف وعد قط.

بالصلاة والزكاة: أي بإقامة الصلاة لإيتاء الزكاة.

مرضيا: أي رضى الله تعالى قوله وعمله ليقينه وإخلاصه.

إدريس: هو جد أبي نوح عليه السلام.

ورفعناه مكاناً عليا: إلى السماء الرابعة.

إسرائيل: أي يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام.

وممن هدينا واجتبينا: أي من جملة من هديناهم لطريقنا واجتبيناهم بنبوتنا.

إذا تتلى عليهم آيات الرحمن: أي تقرأ عليهم وهم يستمعون إليها.

سجداً وبكياً: جمع ساجد وباك أي ساجدين وهم يبكون.

معنى الآيات:

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرت من ذكرت من مريم وابنها وإبراهيم وموسى

اذكر كذلك إسماعيل 1 فإنه {كان صادق الوعد} 2 لم يخلف وعداً قط وكان ينتظر الموعد الليالي

حتى يجيء وهو قائم في مكانه ينتظره، {وكان رسولاً نبياً} نبأه تعالى بمكة المكرمة إذ عاش بها

وأرسله إلى قبيلة جرهم العربية ومنها تزوج وأنجب وكان من ذريته محمد صلى الله عليه وسلم وقوله

تعالى:

1 هو إسماعيل بن إبراهيم والذي أمه هاجر عليهما السلام ولا التفات إلى قول من قال: إنه

إسماعيل بن حزقيل الذي بعثه الله إلى قوم فسلخوا جلد رأسه.. الخ كما في القرطبي.

2 في الآية دليل على وجوب صدق الوعد وفي الحديث: "إِنَّ الْخُلْفَ مِنْ آيَاتِ النِّفَاقِ". وقد انتظر

النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام وهو مقيم في مكان ينتظر من واعدته اللقاء فيه وذلك قبل بعثته

صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود والترمذي، والرجل هو: أبو الحمساء وقال له: يا فتى لقد شققت

عليّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك !!

{وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة} المراد من الأهل أسرته وقومه من قبيلة جرهم والمراد من الصلاة إقامتها ومن الزكاة أداؤها، وهذا مما أعلى شأنه ورفع قدره فاستحق ذكره في القرآن العظيم، وقوله: {كان عند ربه مرضياً} موجب آخر لإكرامه والإنعام عليه بذكره في القرآن الكريم في سلسلة الأنبياء والمرسلين، ومعنى {كان عند ربه مرضياً} أي أقواله وأفعاله كلها كانت مقبولة مرضية فكان بذلك هو مرضياً من 1 قبل ربه عز وجل. وقوله تعالى {واذكر في الكتاب إدريس}2 وهو جد أبي نوح واستوجب الذكر في القرآن لأنه {كان صديقاً} كثير الصدق مبالغاً فيه حتى إنه لم يجر على لسانه كذب قط، وصديقاً في أفعاله وما يأتيه فلم يعرف غير الصدق في قول ولا عمل وكان نبياً من أنبياء الله، وقوله {ورفعناه مكاناً علياً} إلى السماء الرابعة3 في حياته كما رفع تعالى عيسى ورفع محمد إلى ما فوق السماء السابعة. وقوله تعالى: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم} كإدريس4، {وممن حملنا مع نوح} أي في الفلك كإبراهيم، {وممن ذرية إبراهيم} كإسحاق وإسماعيل، {واسرائيل} أي ومن ذرية إسرائيل كموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى، {وممن هدينا} لمعرفتنا وطريقنا الموصل إلى رضانا وذلك بعبادتنا والإخلاص لنا فيها {واجتبيينا} لوحينا وحمل رسالتنا. وقوله {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً}5 أي أولئك الذين هديناهم واجتبيينا من اجتبيينا منهم. والاجتباء الاختيار والاصطفاء بأخذ الصفة {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن} الحاملة للعظات والعبر والدلائل والحجج {خروا سجداً} لله ربهم {وبكياً} عما يرون من التقصير أو التفريط في جنب ربهم جل وعظم سلطانه.

1 قيل: إن إسماعيل عليه السلام لم يعد شيئاً إلا وفى به وهو صحيح يقتضيه ظاهر الآية الكريمة، وقد قيل العدة دين، وفي الأثر: وأي المؤمن واجب. والوأي. الوعد. قال الشاعر:

متى يقل حرّ لصاحب حاجة

نعم يقضها والحر للرائي ضامن

وقال مالك: إذا سأل الرجل الرجل شيئاً فوعده ثم بدا له عدم إنجاز ما وعد لا شيء عليه ولا يقضى عليه بذلك لأنّ العدة بخير من باب الإحسان وليس على المحسنين من سبيل.

2 قيل: إن إدريس هو أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر.

3 كما في حديث المعراج في رواية مسلم وجاء فيه: "لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة".

- 4 فنال ادريس الشرف بالقرب من آدم، ونال إبراهيم الشرف بالقرب من نوح ونال إسماعيل الشرف واسحق ويعقوب بالقرب من إبراهيم عليهم السلام أجمعين.
- 5 البكيّ: مصدر من مصادر بكى يبكي بكاءً وبُكياً وبُكياً، ويكون البكي جمع بالك نحو: قعود، وقاعد وسجود جمع ساجد وأصل بكى: بكوي على وزن فعول فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

(3/317)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة إذ الذي نبأ هؤلاء وأرسلهم لا ينكر عليه أن ينبيء محمداً ويرسله.
- 2- فضيلة الأمر بالصلاة والزكاة.
- 3- فضيلة الوفاء بالوعد والصدق في القول والعمل.
- 4- سنية السجود لمن تلا هذه الآية أو تليت وهو يستمع إليها . {خروا سجداً وبكياً}.
- 5- فضيلة البكاء حال السجود فقد كان عمر إذا تلا هذه الآية سجد ثم يقول هذا السجود فأين البكيّ يعني البكاء.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لُعْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا بُرُكَةٌ وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)

شرح الكلمات:

خلف 1 : أي عقب سوء.

أضاعوا الصلاة : أهملوها فتركوها فكانوا بذلك كافرين.

اتبعوا الشهوات: انغمسوا في الذنوب والمعاصي كالزنا وشرب الخمر.

يلقون غيًّا : أي وادياً في جهنم يلقون فيه.

ولا يظلمون شيئاً : أي لا ينقصون من ثواب حسناتهم.

1 الخلف: بإسكان اللام خلف سوء ويفتحها خلف خير وصلاح.

(3/318)

جنات عدن: أي إقامة دائمة.

بالغيّب: أي وعدهم بها وهي غائبة عن أعينهم لغيابهم عنها إذ هي في السماء وهم في الأرض.
مأثياً: أي موعوده وهو ما يعد به عباده آتياً لا محالة.

لغواً: أي فضل الكلام وهو ما لا فائدة فيه.

بكرة وعشياً: أي بقدرهما في الدنيا والآل فالجنة ليس فيها شمس فيكون فيها نهار وليل.
من كان تقياً: أي من كان في الحياة الدنيا تقياً لم يترك الفرائض ولم يغش المحارم.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {فخلف من بعدهم خلف} مخبر تعالى عن أولئك الصالحين ممن اجتنبى وهدى من النبيين وذرياتهم، انه خلف من بعدهم خلف سوء كان من شأنهم أنهم {أضاعوا الصلاة} فمنهم من أخرها عن أوقاتها ومنهم من تركها {واتبعوا الشهوات}2 فانغمسوا في حمأة الرذائل فشربوا الخمر وشهدوا الزور وأكلوا الحرام ولهبوا ولعبوا وزنوا وفجروا، بعد ذهاب أولئك الصالحين كما هو حال النصارى واليهود اليوم وحتى كثير من المسلمين، فهؤلاء الخلف السوء يخبر تعالى أنهم {فسوف يلقون غياً} بعد دخولهم نار جهنم. والغي: ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بئر في جهنم وعن ابن مسعود أنه واد في جهنم3، والكل صحيح إذ البئر توجد في الوادي وكثيراً ما توجد الآبار في الأودية.

وقوله تعالى: {إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً} أي لكن من تاب من هذا الخلف السوء وآمن أي حقق إيمانه وعمل صالحاً فأدى الفرائض. وترك غشيان المحارم. فأولئك أي هؤلاء التائبون المنيبون {يدخلون الجنة} مع سلفهم

1 جائز أن يراد بهذا الخلف السيء كل من أضاع الصلاة بتركها أو بعدم إقامتها بإخلاله بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، واتبع الشهوات من أهل الكتاب ومن المسلمين.

2 اتباع الشهوات لازم لإضاعة الصلاة لقول عمر: من أضاعها فهو لما سواها أضيع، ولأنّ اقام الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: غي: واد في جهنم وإن أودية جهنم لتستعيز من حره أعد الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصرّ على الزنى ولشارب الخمر المدمن عليه ولأكل الربا لا ينزع عنه، ولأهل العقوق ولشاهد الزور ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه.

الصالح، {ولا يظلمون شيئاً} أي ولا ينقصون ولا يبخسون شيئاً من ثواب أعمالهم. وقوله تعالى: {جنات عدن} أي بساتين إقامة أبدية {التي وعد الرحمن عباده بالغيب} أي وعدهم بها وهي غائبة عنهم لم يروها لأنها في السماء وهم في الأرض. وقوله: {إنه كان وعده مأتياً} أي كونهم ما رأوها غير ضار لأن ما وعد به الرحمن لا يتخلف أبداً لابد من الحصول عليه ومعنى مأتياً يأتيه صاحبه قطعاً. وقوله تعالى في الآية (62) {لا يسمعون فيها لغواً} يخبر تعالى أن أولئك التائبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ودخلوا الجنة لا يسمعون فيها أي في الجنة لغواً وهو الباطل من القول وما لا خير فيه من الكلام اللهم إلا السلام فإنهم يتلقونه من الملائكة فيسمعونه منهم وهو من النعيم الروحاني في الجنة دار النعيم. وقوله تعالى: {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا} أي ولهم طعامهم فيها وهو ما تشتهيهم أنفسهم من لذيذ الطعام والشراب {بكرة وعشيا} أي في وقت الغداة في الدنيا وفي وقت العشي في الدنيا إذ لا ليل في الجنة ولا نهار I وإنما هي أنوار وجائز إذا وصل وقت الغداء أو العشاء تغير الأنوار من لون إلى آخر أو تغلق الأبواب وترخي الستائر ويكون ذلك علامة على وقت الغداء والعشاء. وقوله تعالى: {تلك الجنة} آية (63) يشير تعالى إلى الجنة دار السلام تلك الجنة العالية {التي نورث من عبادنا من كان تقياً} منهم، أما الفاجر فإن منزلته فيها نورثها المتقي كما أن منزل المتقي في النار نورثه فاجراً من الفجار، إذ هذا معنى التوارث: هذا يرث هذا وذاك يرث ذاك، إذ ما من إنسان إلا وله منزلة في الجنة ومنزل في النار فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ونزل في منزلته، ومن كفر وأشرك وعمل سوءاً دخل النار ونزل في منزله فيها، ويورث الله تعالى الأتقياء منازل الفجار التي كانت لهم في الجنة.

- 1 روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس في الجنة ليل ولا نهار وإنما هم في نور أبداً وإنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب". ذكره أبو الفرج ابن الجوزي، والمهدوي وغيرهما (القرطبي).
- 2 الجملة مستأنفة، واسم الإشارة فيها للتنبؤ بها وبعلو مقامها وعظم الكرامة فيها لأهل التقوى.

(3/320)

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- التنديد بخلف السوء وهو من يضيع الصلاة ويتبع الشهوات.

- 2- الوعيد الشديد لمن يغمس في الشهوات ويترك الصلاة فيموت على ذلك.
- 3- باب التوبة مفتوح والتوبة مقبولة من كل من أَرادها وتاب.
- 4- بيان نعيم الجنة دار المتقين الأبرار.
- 5- تقرير مبدأ التوارث بين أهل الجنة وأهل النار.
- 6- بيان أن ورثة الجنة هم الأتقياء، وأن ورثة النار هم الفجار.
- وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)
- شرح الكلمات:

وما تنزل: التنزل النزول وقتا بعد وقت.

إلا بأمر ربك: أي إلا بإذنه لنا في النزول على من يشاء.

له ما بين أيدينا: أي مما هو مستقبل من أمر الآخرة.

وما خلفنا: أي ما مضى من الدنيا.

وما بين ذلك: مما لم يمض من الدنيا إلى يوم القيامة أي له علم ذلك كله.

وما كان ربك نسيا: أي ذا نسيان فإنه تعالى لا ينسى فكيف ينساك ويتركك؟.

رب السموات والأرض: أي مالكما والمتصرف فيهما.

واصطبر لعبادته: أي اصبر وتحمل الصبر في عبادته حتى الموت.

هل تعلم له سمياً: أي لا سمياً له ولا مثل ولا نظير فهو الله أحد، لم يكن له كفوا أحد.

(3/321)

معنى الآيتين:

لنزول هاتين الآيتين سبب وهو ما روى واستفاض أن الوحي تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يأتي بالوحي جبريل عليه السلام فلما جاء بعد بطء قال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فأنزل الله تعالى قوله: جواباً لسؤال النبي صلى الله عليه وسلم : {وما ننزل} أي نحن الملائكة وقتا بعد وقت على من يشاء ربنا {إلا بأمر ربك} أيها الرسول أي إلا بإذنه لنا فليس لأحد منا أن ينزل من سماء إلى سماء أو إلى أرض إلا بإذن ربنا عز وجل، {له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك} أي له أمر وعلم ما بين أيدينا أي ما أمامنا من أمور الآخرة وما خلفنا أي مما مضى من الدنيا علماً وتدبيراً، وما بين ذلك إلى يوم القيامة علماً وتدبيراً، وما كان ربك عز وجل يا رسول الله ناسياً لك ولا تاركاً فإنه تعالى لم يكن النسيان وصفاً له فينسى.

وقوله تعالى: {رب السموات والأرض وما بينهما} يخبر تعالى رسوله بأنه تعالى مالك السموات

والأرض وما بينهما والمتصرف فيهما فكل شيء له وبيده وفي قبضته وعليه {فاعبده} أيها الرسول بما أمرك بعبادته به {واصطبر لعبادته} أي تحمل لها المشاق، فإنه لا إله إلا هو، ف {هل تعلم له سمياً} أي نظيراً أو مثيلاً والجواب لا: إذا فاعبده وحده وتحمل في سبيل ذلك ما استطعت تحمله. فإنه لا معبود بحق إلا هو إذ كل ما عداه مربوب له خاضع لحكمه وتدبيره فيه.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

1- تقرير سلطان الله على كل الخلق وعلمه بكل الحلق وقدرته على كل ذلك.

1 روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام: "ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت: {وما ننزّل إلا بأمر ربك} الآية، وقال مجاهد: أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه فقال: ما الذي أبطأك؟ قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم ولا تتقون رواجبكم ولا تستاكون. قال مجاهد: فنزلت الآية في هذا والمراد بالمعيب عليهم: بعض المؤمنين لا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاشاه أن يكون معيباً وهو على أكمل الأحوال.

2 هذا تفسير لقوله تعالى: {وما كان ربك نسياً} أي: ناسياً إذا شاء أن يرسل إليك أرسل.

3 أي: لطاعته، واللام بمعنى: على أي: على طاعته، ولا تحزن لتأخر الوحي عنك، وأصل اصطبر: اصتبر فقلبت التاء طاءً تخفيفاً في النطق.

4 ولذا إجماع أهل الإسلام من عهد آدم أنه لا يجوز أن يسمى مخلوق باسم الله عز وجل "الله".

(3/322)

2- استحالة النسيان على الله عز وجل.

3- تقرير ربوبية الله تعالى للعالمين، وبذلك وجبت له الألوهية على سائر العالمين.

4- وجوب عبادة الله تعالى ووجوب الصبر عليها حتى الموت.

5- نفي التشبيه والمثل والنظير لله إذ هو الله أحد لم يكن له كفواً أحد.

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَبَدًا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا

(67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ

أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ

عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّفُضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

شرح الكلمات:

ويقول الإنسان : أي الكافر بقاء الله تعالى .
ولم يك شيئاً: أي قبل خلقه فلا ذات له ولا اسم ولا صفة.
جثياً: أي جاثمين على ركبهم في ذل وخوف وحن.
من كل شيعة: أي طائفة تعاونت على الباطل وتشيع بعضها لبعض فيه.
عتياً: أي تكبراً عن عبادته وظلماً لعباده.
أولى بها صلياً: أي أحق بها اصطلاء واحتراقاً وتغديباً في النار.
إلا واردة: أي ماراً بها إن وقع بها هلك، وإن مر ولم يقع نجا.
حتماً مقضياً : أي أمراً قضى به الله تعالى وحكم به وحتمه فهو كائن لا بد.
فيها جثياً: أي في النار جاثمين على ركبهم بضيم إلى بعض.

(3/323)

معنى الآيات:

الآيات في سياق تقرير عقيدة البعث والجزاء يقول تعالى وقوله الحق: {ويقول الإنسان} أي المنكر للبعث والدار الآخرة وقد يكون القائل أبي بن خلف أو العاص بن وائل وقد يكون غيرهما إذ هذه قولة كل من لا يؤمن بالآخرة يقول: {أ إذا مت لسوف 1 أخرج حياً} يقول هذا استككاراً وتكديباً قال تعالى: راداً على هذا الإنسان قولته الكافرة {أو لا يذكر 2 الإنسان} أي المنكر للبعث الآخر {أنا خلقناه من 3 قبل ولم يك شيئاً} أي كذب بالبعث وينكره ولا يذكر خلقنا له من قبل، ولم يك شيئاً.
أليس الذي قدر على خلقه قبل أن يكون شيئاً قادراً على إعادة خلقه مرة أخرى أليست إعادة أهون من الخلق الأول والإيجاد من العدم، ثم يقسم الله تبارك وتعالى لرسوله على أنه معيدهم كما كانوا ويحشرهم جميعاً مع شياطينهم الذين يضلونهم ثم يحضرنهم حول جهنم جثياً على ركبهم أذلاء صاغرين. هذا معنى قوله تعالى في الآية (68) {فوربك لنحشرنهم 4 والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً}.

وقوده تعالى: {ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً} يخبر تعالى بعد حشرهم إلى ساحة فصل القضاء أحياء مع الشياطين الذين كانوا يضلونهم، يحضرنهم حول جهنم جثياً، ثم يأخذ تعالى من كل طائفة من تلك الطوائف التي أحضرت حول جهنم وهي جاثية تنتظر حكم الله تعالى فيها أيهم كان أشد على الرحمن عتياً أي تمرداً عن طاعته وتكبراً عن الإيمان به ورسوله ووعدده ووعدده وهو معنى قوله تعالى في الآية (69) {ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً} وقوله تعالى: {ثم لنحشرنهم بالذين هم

1 اللام في: (لسوف) للتأكيد والاستفهام: (أ إذا): للإنكار، واللام: لام الابتداء جاء بها المتكلم لتأكيد إنكاره للبعث بعد الموت والخروج من قبره حياً.

2 الاستفهام للإنكار على منكر البعث، والتعجب من عقليته وعمى قلبه من عدم النظر في عدم أصل خلقه فإنه لو أبصر وزالت غفلته لما أنكر البعث فالذي خلقه اليوم يخلقه غداً ولا عجب.

3 قبل كبعث: ملازمة للإضافة فإذا حذف المضاف بنيت على الضم، والمضاف المحذوف هنا تقديره: من قبل كونه شيئاً يذكر في الوجود وقد أوجده الآن ولعدمه غداً وبحييه بعد موته يوم يريد ذلك.

4 الفاء: للتفريع، والضمير في: (لنحشرنهم) عائد على جنس الإنسان المكذب بالبعث الآخر، والمشارك بالله المصر على ذلك، وذكر حشو الشياطين معهم تحقيراً لشأنهم حيث يحشرون مع أخس الخلق وأحطه ثم أشار إلى أنّ شركهم وكفرهم كان بتزيين الشياطين لهم ذلك، والجثي: جمع جاثٍ مثل: قاعد وقيود، فجثي: أصلها جثوي قلبت الواو ياء، وأدغمت، والجاثي هو البارك على ركبتيه عجزاً عن القيام.

(3/324)

أولى بها صلياً { يخبر تعالى بعلمه بالذين هم أجدر وأحق بالاصطلاء بعذاب النار، وسوف يدخلهم النار قبل غيرهم ثم يدخل باقبيهم بعد ذلك وهو معنى قوله عز وجل: } ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً {1.

وقوله: {وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً} ، فإنه يخبر عز وجل عن حكم حكم به وقضاء قضى به وهو أنه ما من واحد منا معشر بني آدم إلا وارد جهنم وبيان ذلك كما جاء في الحديث أن الصراط جسر يمد على ظهر جهنم والناس يمرون فوقه فالمؤمنون يمرون ولا يسقطون في النار والكافرون يمرون فيسقطون في جهنم. وهو معنى قوله في الآية (72) } ثم ننجي الذين اتقوا {2 أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك واجب ولا بارتكاب محرم { ونذر الظالمين { بالتكبر والكفر وغشيان الكبائر من الذنوب {فيها جثياً} أي وتترك الظالمين فيها أي جهنم جاثمين على ركبهم يعانون أشد أنواع العذاب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بالحشر والإحضار حول جهنم والمرور على الصراط.

2 - تقرير معتقد الصراط في العبور عليه إلى الجنة.

3- تقديم رؤساء الضلال وأئمة الكفر إلى جهنم قبل الأتباع الضالين.

4- تقرير حتمية المرور على الصراط.

5 - بيان نجاة الأتقياء، وهلاك الفاجرين الظالمين بالشرك والمعاصي.

1 يقال: صلى صلياً كَمْضَى يمضي مُضِيًا وهوى يهوي هويًا، وصليًا بكسر الصاد: قراءة حفص، وبضمها: قراءة نافع، وهو مصدر صلي النار كرضي وهو مصدر سماعي بوزن فعول، قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء فصار صليًا كما تقدّم في جثيا.

2 حاول صاحب التحرير أن يردّ مذهب الجمهور في ورود المؤمنين على الصراط كسائر الخلق ثم ينجي الله الذين اتقوا حيث يجتازونه بسلام ويقع فيه الكافرون فلا يخرجون وما هناك حاجة إلى ردّ مذهب الجمهور من أئمة الإسلام إذ حديث الصراط والمرور به ثابت قطعياً ففي صحيح مسلم: "ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة فيقولون: اللهم سلم سلم قيل: يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلايب وحسك تكون فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فجاج مسلّم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم، وبهذا الصراط.. فسّر السلف الورد على جهنم، ولم يقولوا بلازم الورد وهو الدخول، إذ قد يرد المرء على الحوض ويقف على طرفه ولا يدخل فيه وورد وصحّ قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن مات له ثلاثة ولد لم يبلغوا الحنث لا تمسه النار إلاّ تحلة القسم" وهو الورد على متن جهنم نظراً إلى الآية {وإن منكم إلاّ واردها}.

(3/325)

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًّا (74) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا
حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75)
وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (76)

شرح الكلمات:

آياتنا بينات: أي آيات القرآن البينات الدلائل الواضحات الحجج.

خير مقاماً: نحن أم أنتم والمقام المنزل ومحل الإقامة والمراد هنا المنزلة.

وأحسن ندياً: أي ناديا وهو مجتمع الكرام ومحل المشورة وتبادل الآراء.

أحسن أثاناً وريثياً: أي مالا ومتاعا ومنظراً.

إما العذاب وإما الساعة: أي بالقتل والأسر وأما الساعة القيامة المشتملة على نار جهنم.

من هو شر مكاناً: أي منزلة.

وأضعف جنداً: أي أقل أعواناً.

وخير مرداً: أي ما يرد إليه ويرجع وهو نعيم الجنة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير النبوة والتوحيد والبعث الآخر يقول تعالى {وإذا نتلى 1 عليهم آياتنا 2 بينات} أي وإذا قرئت على كفار قريش المنكرين للتوحيد والنبوة المحمدية والبعث والجزاء

1 المراد بهم الكفار الذين سبق ذكرهم في الآيات قبل هذه إذا قرئت عليهم الآيات تعزّزوا بالدنيا وقالوا فما بالنا إن كنا على باطل أكثر أموالاً وأعز نفراً وقصدهم إدخال الشبهة على المستضعفين من المؤمنين

2 (بينات) حال مؤكدة.

(3/326)

يوم القيامة إذا قرأ عليهم رسول الله أو أحد المؤمنين من أصحابه بعض الآيات من القرآن البينات في معانيها ودلائلها على التوحيد والنبوة والبعث {قال الذين 1 كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً} ، وقولهم هذا هو رد فعل لا غير، إذ أنهم لما يسمعون الآيات تحمل الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين مثلهم لا يجدون ما يخفون به ألم نفوسهم فيقولون هذا الذي أخبر تعالى به عنهم {أي الفريقين} أي فريق المؤمنين أو فريق الكافرين خير مقاماً أي منزلاً ومسكناً وأحسن ندياً أي نادياً ومجتمعاً يجتمع فيه، لأنهم يقارنون بين منازل فقراء المؤمنين ودار الأرقم بن أبي الأرقم التي يجتمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وبين دور ومنازل أبي سفيان وأغنياء مكة ونادي قريش وهو مجلس شورا هم فرد تعالى عليهم بقوله: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً}2 أي لا ينبغي أن يغرهم هذا الذي يتبجحون به ويتطاولون فإنه لا يدوم لهم ما داموا يحاربون دعوة الحق والقائمين عليها فكم من أهل قرون أهلكناهم لما ظلموا وكانوا أحسن من هؤلاء مالا ومتاعاً ومناظر حسنة جميلة.

وقوله تعالى: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً} أي اذكر لهم سنتنا في عبادنا يا رسولنا وهي أن من كان في ضلالة الشرك والظلم والمكابرة والعناد فإن سنة الرحمن فيه أن يمد له بمعنى يمهله ويملي له استدراجاً حتى إذا انتهوا إلى ما حدد لهم من زمن يؤخذون فيه بالعذاب جزاء كفرهم وظلمهم وعنادهم وهو إما عذاب دنيوي بالقتل والأسر ونحوهما أو عذاب الآخرة بقيام الساعة حيث يحشرون إلى جهنم عمياً وبكماً وصماً جزاء التعالي والتبجح بالكلام وهو معنى قوله تعالى : {حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون}3 من هو شر مكاناً وأضعف جنداً} أي

شر منزلة وأقل ناصراً أهم الكافرون أم المؤمنون، ولكن حين لا ينفع العلم. إذ التدارك أصبح غير ممكن وإنما هي

1 الذين كفروا كالنضر بن الحارث وأبي جهل والمؤمنون هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كعمار وبلال وصهيب.

2 الأثاث: متاع البيت من فرش وغيرها مما هو جديد، فإن استعمل قيل فيه: الخرثى قال الشاعر:
تقادم العهد من أم الوليد بنا
دهراً وصار أثاث البيت خرثياً

الرئي: المنظر الحسن. وفيه قراءات خمس أشهرها قراءة الجمهور ورئياً بالهمزة، وقراءة نافع ربياً بدون همزة واشتقاقه من الرؤية أي: المنظر، ومن الريّ ضد العطش، إذ الريان هو المنعم ذو الحال الحسنة.

3 في الآية ردّ على قولهم: { أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً } أي سوف تتكشف الحقائق في يوم القيامة، ويعلمون يقيناً من هو الأفضل حالاً والأحسن مآلاً.

(3/327)

الحسرة والندامة لا غير.

وقوله تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى1} أي إذا كان تلاوة الآيات البينات تحمل المشركين على العناد والمكابرة وذلك لظلمة كفرهم فيزدادون كفراً وعناداً فإن المؤمنين المهتدين يزدادون بها هداية لأنها تحمل لهم الهدى في كل جملة وكلمة منها وهم لإشراق نفوسهم بالإيمان يرون ما تحمل الآيات من الدلائل والحجج والبراهين فيزداد إيمانهم وتزداد هدايتهم في السير في طريق السعادة والكمال بأداء الفرائض واجتتاب المناهي.

وقوله تعالى: {والباقيات2 الصالحات خير عند ربك} أيها الرسول {ثواباً وخير مرداً} في هذه الآية تسلية للرسول والمؤمنين بأن ما يتبجح به المشركون من المال والمتاع وحسن الحال لا يساوى شيئاً أمام الإيمان وصالح الأعمال لأن المال فإن، والصالحات باقية فثواب الباقيات الصالحات من العبادات والطاعات خير من كل متاع الدنيا وخير مرداً أي مردوداً على صاحبها إذ هو الجنة دار السلام والتكريم والإنعام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الكشف عن نفسيات الكافرين وهي الإعتزاز بالمال والقوة إذا اعتز المؤمنون بالإيمان وثمراته في

الدنيا والآخرة من حسن العاقبة.

2- بيان سنة الله تعالى في امهال الظلمة والإملاء لهم استدراجاً لهم حتى يهلكوا خاسرين.

3- بيان سنة الله تعالى في زيادة إيمان المؤمنين عند سماع القرآن الكريم، أو مشاهدة أخذ الله تعالى للظالمين.

4- بيان فضيلة الباقيات الصالحات ومنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- 1 وفي الآية وجه آخر مشرق صالح وهو: أن الله تعالى يمدّ لأهل الضلالة في ضلالتهم، ويزيد لأهل الهداية في هدايتهم إذ قال: {من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً}. وقال: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} وما في التفسير صالح ومشرق أيضاً.
- 2 أي: الأعمال الصالحة التي يعمل العبد إيماناً وإحساناً كالصلاة والصيام والصدقات والجهاد وذكر الله ثوابها لأهلها المدخر لهم عند الله تعالى خير من أعمال أهل الكفر والشرك والظلم إذ هي ذاهبة هباء منثوراً فيم يتعزّز الكافرون؟

(3/328)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78)
كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)
شرح الكلمات:

الذي كفر بآياتنا: هو العاص بن وائل.

لأوتين مالا وولداً: يريد في الآخرة.

أطلع الغيب: أي فعرف أنه يعطى مالا وولداً يوم القيامة.

كلا: ردع ورد فإنه لم يطلع الغيب ولم يكن له عند الله عهداً.

ونمد له من العذاب مداً: أي نضاعف له العذاب يوم القيامة.

ونرثه ما يقول: أي نسلبه ما تبجح به من المال والولد وبيعت فرداً ليس معه مال ولا ولد.

معنى الآيات:

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم معجباً له {أفرأيت 1 الذي كفر بآياتنا} أي كذب بالوحي وما يدعوا له من التوحيد والبعث والجزاء وترك الشرك والمعاصي. وهو العاص بن وائل المسمى أبو عمرو بن العاص. {وقال لأوتين مالا وولداً} قال هذا لخباب بن الأرت حينما طالبه بدين له عليه فأبى أن يعطيه استصغاراً له لأنه قين حدادا" وقال له لا أعطيكه حتى تكفر بمحمد فقال له خباب

والله ما أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث فقال له العاص إذا ميتٌ ثم بُعثت كما تقول ثم جننتي ولي مال وولد قضيتك دينك فأكذبه الله تعالى ورد عليه قوله بقوله عز وجل: {أطلع الغيب}2 فعرف أن له يوم القيامة مالاً وولداً. {أم اتخذ عند

- 1 الأئمة ومن بينهم مسلم في صحيحه على أن هذه الآية نزلت في الخباب والعاص بن وائل إذ كان لخاباب دين على العاص فطالبه فأجابته بما خلاصته في التفسير أعلاه.
- 2 {أطلع الغيب} قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنظر في اللوح المحفوظ. وقال مجاهد: أعلم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟

(3/329)

الرحمن عهداً} بذلك بأن سيعطيه مالا وولداً يوم القيامة {كلا}1 لم يطلع على الغيب ولم يكن له عند الرحمن عهداً. وقوله تعالى: {سنكتب ما يقول} من الكذب والإفتراء ونحاسبه به ونضاعف له العذاب به العذاب وهو معنى قوله تعالى: {ونمد له من العذاب مدا} ، وقوله تعالى: {ونرثه}2 ما يقول ويأتينا فرداً} أي ونسلبه ما يقول من المال والولد حيث يموت ويترك ذلك أو ينصر رسوله على قومه فيسلبهم المال والولد. ويأتينا في عرصات القيامة للحساب فرداً لا مال معه ولا ولد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الكشف عن نفسيات الكافرين لاسيما إذا كانوا أقوياء بمال أو ولد أو سلطان فإنهم يعيشون على الغطرسة منه والاستعلاء وتجاهل الفقراء واحتقارهم.
 - 2- تقرير البعث والحساب والجزاء.
 - 3- مضاعفة العذاب على الكافرين الظالمين لظلمهم بعد كفرهم.
 - 4- تقرير معنى آية: إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون.
- وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا (84)
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (86) لَا يَمْلِكُونَ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

1 كلا: ردّ عليه أي: لم يكن له ذلك. أي : لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الرحمن عهداً.

2 وقيل: نحرمه ما تمناه في الآخرة من مال وولد إذ قال: لأوتين مالاً وولداً ورد تعالى عليه قوله بقوله: {اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً}.

(3/330)

شرح الكلمات:

ليكونوا لهم عزاً: أي منعة لهم وقوة يشفعون لهم عند الله حتى لا يعذبوا. سيكفرون بعبادتهم: أي يوم القيامة يجحدون أنهم كانوا يعبدونهم. ضداً1: أي أعداء لهم وأعوانا عليهم.

تؤزهم أزا: أي تزعجهم إزعاجاً وتحركهم حراكاً شديداً نحو الشهوات والمعاصي. وفداً: أي راكبين على النُجُب تحوطهم الملائكة حتى ينتهوا إلى ربهم فيكرمهم. إلى جهنم ورداً: أي يساق المجرمون كما تساق البهائم مشاة عطاشاً. عهداً: هو شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

معنى الآيات:

يخبر تعالى مننداً بالمشركين فيقول: {واتخذوا من دون الله آلهة} أي معبودات من الأصنام فعبدوها بأنواع من العبادات، {ليكونوا لهم}- في نظرهم الفاسد- {عزاً}2 أي شفعاء لهم عندنا يعزون بواسطتهم ولا يُهانون، {كلا}3 أي ليس الأمر كما يظنون {سيكفرون بعبادتهم} وذلك يوم القيامة حيث ينكرون أنهم أمروهم بعبادتهم، {ويكونون عليهم ضداً} أي خصوماً، ومن ذلك قولهم4 {وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون}. وقولهم. {بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}. وقوله تعالى في الآية الثانية (83) {ألم تر 5 أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا}

1 الضدّ: ما يخالف ضده في الماهية أو المعاملة، ومن هذا تسمية العدو ضدّ لأن معاملته تخالف معاملة نظيره، ويكون ضدّ في معنى المصدرعاملوه معاملة المصدر فلا يثني ولا يجمع ولا يؤنث. 2 العزّ: ضدّ الذلّ، وأطلق العزّ هنا وأريد به سببه وهو الشفعاء والأعوان إذ بهم تحصل العزة وتكون المنعة.

3 {كلا}: جائر أن تكون نافية بمعنى: لا وليس وجائر أن تكون بمعنى: حقاً أي: حقاً سيكفرون بعبادتهم.. الخ.

4 أي: فيما أخبر تعالى به في قوله: {وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون} فما هم قد وقفوا ضدّهم بتكذيبهم إياهم. ورأى بعض أهل التفسير أنّ من الجائر أن تكون الآية مبشرة بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يوماً سيأتي يكفر المشركون بالهتهم وذلك بعد إسلامهم.

5 الاستفهام للتقرير وفيه معنى التعجب أي: كيف لم تَرَ ذلك والأمر واضح لوجود آثاره يشاهدها كل أحد. وأرسلنا بمعنى سلطانهم أو خَلِينَاهُمْ يفعلون بهم ما أرادوا من الإغواء والفتنة.

(3/331)

يقول تعالى لرسوله ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أنا أرسلنا الشياطين أي شياطين الجن والإنس على الكافرين بنا وبآياتنا ورسولنا ولفاننا تؤزهم أزا أي تحركهم بشدة نحو الشهوات والجرائم والمفاسد، وترجعهم إلى ذلك بالإغراء إزعاجاً كبيراً. أي فلا تعجب من حال مسارعتهم إلى الشر والفساد ولا تعجل عليهم بمطالبتنا بهلاكهم إنما نعد لهم كل أعمالهم ونحصبها عليهم حتى أنفاسهم ونحاسبهم على كل ذلك ونجزئهم به. هذا معنى قوله تعالى: ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا﴾. وقوله تعالى في الآية (85) ﴿يوم نحشر المتقين﴾ أي أذكر يا رسولنا يوم نحشر المتقين ﴿إلى الرحمن وفداً﴾. والمتقون هم أهل الإيمان بالله وطاعته وتوحيده ومحبته وخشيته وطاعة رسوله ومحبته وفداً أي راكبين على النجائب من النوق عليها رجال الذهب إلى الرحمن إلى جوار الرحمن عز وجل في دار المتقين الجنة دار الأبرار والسلام.

وقوله تعالى: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾: أي ونسوق المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي مشاة على أرجلهم عطاشاً يُساقون سوق البهائم إلى جهنم ويئس 2 الورد المورد جهنم. وقوله تعالى ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من 3 اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ 4 أخبر تعالى أن المشركين المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي فدسوها لا يملكون الشفاعة يوم القيامة لا يشفع بعضهم في بعض كالمتقين ولا يشفع لهم أحد أبداً لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً بالإيمان به ويطاعته بأداء الفرائض وترك المحرمات يملك إن شاء الله الشفاعة بأن يشفعه الله في غيره إكراماً له أو يشفع فيه غيره إكراماً للشافع أيضاً وإنعاماً على المشفوع له. كما أن أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله المتبرئين من حولهم وقوتهم إلى الله الراجين رجهم يملكون الشفاعة إن دخلوا النار بذنوبهم فيخرجون منها بشفاعة من أراد الله أن يشفعه فيهم.

- 1 أي: لا تطالب بهلاكهم الفوري فإننا نعدّ لهم الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء آجالهم.
- 2 يطلق لفظ الورد على الماشية عندما تساق إلى الماء لترده، ويطلق على السير إلى الماء أيضاً كما يطلق على الماء المورد ومنه قوله تعالى: ﴿ويئس الورد المورد﴾.
- 3 الاستثناء منقطع، والمنقطع هو: استثناء الشيء من غير جنسه، ولذا يؤتى بعده ولكن كما هو في التفسير أي: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يشفع.
- 4 من لهم عهد بالشفاعة حيث عهد الله تعالى إليهم بذلك هم الملائكة والأنبياء والشهداء أيضاً بدليل

السنة الصحيحة، وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما العهد أيضاً بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله والقيام بحقها مع التبرؤ من الحول والقوة لله تعالى.

(3/332)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- براءة سائر المعبودات من دون الله من عابديها يوم القيامة خزيماً لهم وإحقاقاً للعذاب عليهم.
- 2- لا عجب مما يشاهد من مسارعة الكافرين إلى الشر والفساد والشهوات لوجود شياطين تحركهم بعنف إلى ذلك وتدفعهم إليه.
- 3- لا ينبغي طلب العذاب العاجل لأهل الظلم لأنهم كلما ازدادوا ظلماً ازداد عذابهم شدة يوم القيامة إذ كل شيء محصى عليهم حتى أنفاسهم محاسبون عليه ومجزيون به.
- 4- بيان كرامة المتقين، ومهانة المجرمين.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْقَطِرُنَ مِنْهُ وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرُ الْأَجْبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

شرح الكلمات:

وقالوا اتخذ الرحمن ولداً : أي قال العرب الملائكة بنات الله وقال النصارى عيسى ابن الله. جئتم شيئاً إدًّا : أي منكراً عظيماً.

ينقطن : يتشققن من عظم هذا القول وشدة قبحه.

وتجر الجبال هداً : أي تسقط وتتهدم وتتهدم.

أن دعوا للرحمن ولداً : أي من أجل إدعائهم أن للرحمن عز وجل ولداً.

(3/333)

ولا ينبغي : أي لا يصلح ولا يليق به ذلك لأنه رب كل شيء ومليكه.

إلا آتى الرحمن عبداً : أي خاضعا منقاداً كائناً من كان.

فرداً : أي ليس معه شيء لا مال ولا سلطان ولا ناصر.

معنى الآيات:

مازال السياق في ذكر مقولات أهل الشرك والجهل والرد عليها من قبل الحق تبارك وتعالى قال تعالى
مخبراً عنهم: {وقالوا} أي أولئك الكافرون {اتخذ الرحمن ولداً} 1 إذ قالت بعض القبائل العربية
الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزيز بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله. يقول تعالى لهم بعد
أن ذكر قولهم {لقد جئتم شيئاً إداً} 2 أي أتيتم بشيء منكر عظيم، {تكاد 3 السموات ينقطن منه} أي
يتشققن منه لقبح هذا القول وسوءه، {وتنشق الأرض وتخر الجبال 4 هدا} أي تسقط لعظم هذا القول
لأنه مغضب للجبار عزّ وجلّ ولو لا حلمه ورحمته لمس الكون كله عذاب أليم. وقوله: {أن دعوا
للرحمن ولداً} 5 أي أن نسبوا للرحمن ولداً، {وما ينبغي للرحمن} أي لا يصلح له ولا يليق بجلاله
وكماله الولد، لأن الولد نتيجة شهوة بهيمية عارمة تدفع الذكر إلى إتيان الأنثى فيكون بإذن الله الولد،
والله عز وجل منزّه عن مشابهته لمخلوقاته وكيف يشبههم وهو خالقهم وموجدهم من العدم؟
وقوله تعالى {إن كل من 6 في السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً} هذا برهان على بطلان قولة
الكافرين الجاهلين، إذ الذي ما من أحد في السموات أو في الأرض من ملائكة

1 قرىء: (وُلداً) بضم الواو وسكون اللام، وقراءة الجمهور (ولدا) بفتح الواو واللام وهما لغتان مثل:

العرب والعرب. والعجم والعجم قال الشاعر:

ولقد رأيت معاشرا

قد ثَمروا مالا ووُلداً

وقال آخر:

مهلا فداءً لك الأقوام كلهم

وما أثمر من مال ومن وُلد

ففي البيت الأول شاهد وُلد بسكون اللام وفي الثاني شاهد لفتحها مع ضم الواو في الأول وفتحا في الثاني.

2 الإِد والإِدة: الداهية والأمر الفظيع. قال ابن عباس: الإِدّ: المنكر العظيم.

3 (تكاد) بالتاء قراءة العامة، وقرأ نافع بالياء (يكاد).

4 الهدّ: الهدم بصوت شديد، والهدّة: صوت وقع الحائط ونحوه.

5 روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "يقول الله تبارك وتعالى: كذّبي ابن آدم ولم

يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذّبيه إياي فقوله: ليس يعيدني كما بدّاني، وليس أول

الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي: فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم

يولد ولم يكن له كفواً أحد.

6 (إن) نافية بمعنى ما. في الآية دليل على عدم جواز ملك الوالد للولد ولا الولد للوالد، وفي الحديث

الصحيح: "لا.. ولد والدا إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه". فإذا لم يملك الأب ابنه فلأن لا يملك الابن أباه من باب أولى.

(3/334)

وإنس وجن إلا أتى الرحمن عبداً خاضعاً ذليلاً منقاداً يوم القيامة كيف يعقل اتخاذه ولداً، إذ الولد يطلب للحاجة إليه، والغنى عن كل خلقه ها هي حاجته إلى عبد من عباده يقول هذا ولدي اللهم إنا نبرؤا إليك مما يقوله الجاهلون بك الضالون عن طريق هدايتك.

وقوله تعالى: {لقد أحصاهم وعددهم عدداً} أي علمهم واحداً واحداً فلو كان بينهم إله معه أو ولد له لعلمه، فهذا برهان آخر على بطلان تلك الدعوة الجاهلية الباطلة الفاسدة وقوله: {وكلهم آتية يوم القيامة فرداً} هذا رد على أولئك الذين يدعون أنهم إن بعثوا يكون لهم المال والولد والشفيع والنصير.

فأخبر تعالى أنه ما من أحد إلا ويأتيه يوم القيامة فرداً ليس معه شافع ولا ناصر، ولا مال ولا سلطان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عظم الكذب على الله بنسبة الولد أو الشريك إليه أو القول عليه بدون علم.
 - 2- بيان أن كل المخلوقات من أجلها إلى أحقرها ليس فيها غير عبد الله فنسبة الإنسان أو الجان أو الملك إلى الله تعالى هي عبد لرب مالك قاهر عزيز حكيم.
 - 3- بيان إحاطة الله بخلقه ومعرفة لعدددهم فلا يغيب عن علمه أحد منهم، ولا يتخلف عن موقف القيامة فرد منهم إذ الكل يأتي الله تعالى يوم القيامة فرداً.
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

1 روي أحمد في المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيه ويدفع عنهم ويرزقهم" أخرجاه في الصحيحين: وفي لفظ إ "نهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيههم.

(3/335)

شرح الكلمات:

وداً : أي حبا فيعيشون متحابين فيما بينهم ويحبهم ربهم تعالى.
فإنما يسرناه بلسانك: أي يسرنا القرآن أي قراءته وفهمه بلغتك العربية.
قوما لداً: أي ألداء شديداً الخصومة والجدل بالباطل وهم كفار قريش.
وكم أهلكنا: أي كثيراً من أهل القرون من قبلهم أهلكناهم.
هل تحس منهم من أحد: أي هل تجد منهم أحداً.
أو تسمح لهم ركزاً: أي صوتاً خفياً والجواب لا لأن الاستفهام إنكاري.
معنى الآيات:

يخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وبرسوله وبوعد الله ووعدته فتخلوا عن الشرك والكفر وعملوا الصالحات وهي أداء الفرائض وكثير من النوافل هؤلاء يخبر تعالى أنه سيجعل لهم في قلوب عباده المؤمنين محبة¹ ووداً وقد فعل سبحانه وتعالى فأهل الإيمان والعمل الصالح متحابون متوادون، وهذا التوادد بينهم ثمرة لحب الله تعالى لهم. وقوله تعالى: {فإنما يسرناه} أي هذا القرآن الذي كذب به المشركون سهلنا قراءته عليك إذ أنزلناه بلسانك {لتبشر به المتقين} من عبادنا المؤمنين وهم الذين اتقوا عذاب الله بالإيمان وصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي، {وتتذرع قوما لداً} 2 وهم كفار قريش وكانوا ألداء أشداء في الجدل والخصومة، وقوله تعالى: {وكم أهلكنا قبلهم 3 من قرن} أي وكثيراً من أهل القرون السابقة لقومك أهلكناهم لما كذبوا رسلنا وحاربوا دعوتنا ف {هل تحس 4 منهم من أحد} فتراه بعينك أو تمسه بيدك، {أو تسمح 5 لهم ركزاً} أي صوتاً خفياً اللهم لا فهلا يذكر هذا قومك

1 روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء - قال: ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام وقال: إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض".

2 (لداً): جمع الألد، وهو: الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: {ألد الخصام} وقال الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كأنني

أخاصم أقواماً ذوي جدل لداً

3 في الآية تهديد وتخويف لأهل مكة المصرين على الكفر والشرك والتكذيب. وكم: خبرية، والقرن: الجيل والأمة. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمة وشاع إطلاقه على المائة سنة.

4 والإحساس: الإشراف بالحس. والاستفهام إنكاري.

5 قيل: الرّكز: ما لا يفهم من صوت أو حركة.

(3/336)

فیتعظوا فیتوبوا إلى ربهم بالإيمان به ویرسوله ولقائه ویتركوا الشرك والمعاصي.
هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- أعظم بشرى تحملها الآية الأولى وهي حب الله وأوليائه لمن آمن وعمل صالحاً.
- 2- بيان كون القرآن ميسراً أن نزل بلغة النبي صلى الله عليه وسلم من أجل البشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح والندارة لأهل الشرك والمعاصي.
- 3- إنذار العتاة والطغاة من الناس أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم من هلاك ودمار والواقع شاهد أين أهل القرون الأولى؟

(3/337)

سورة طه

...

سورة طه

مكية

وآياتها مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

شرح الكلمات:

طه : أي يا رجل.

إلا تذكرة : أي يتذكر بالقرآن من يخشى عقاب الله عز وجل.

(3/337)

على العرش استوى: أي ارتفع عليه وعلا.

وما تحت الثرى: الثرى التراب الندي يريد ما هو أسفل الأرضين السبع.

وأخفى: أي من السر، وهو ما علمه الله وقدر وجوده وهو كائن ولكن لم يكن بعد.

الحسنى : الحسنى مؤنث الأحسن المفضل على الحسن.

معنى الآيات:

قوله تعالى {طه}1 لفظ طه جائز أن يكون من الحروف المقطعة، وجائز أن يكون معناه يا رجل2 ورجح الأمر ابن جرير لوجوده في لغة العرب طه بمعنى يا رجل وعلى هذا فمعنى الكلام يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتتقى رداً على النضر بن الحارث الذي قال إن محمداً شقي بهذا القرآن الذي أنزل عليه لما فيه من التكليف فنفي الحق عز وجل ذلك وقال {ما أنزلنا عليك القرآن لتتقى إلا تذكرة لمن يخشى} وإنما أنزلناه ليكون3 تذكرة ذكرى يذكر بها من يخشى ربه فيقبل على طاعته متحماً في سبيل ذلك كل ما قد يلاقي في طريقه من أذى قومه المشركين بالله الكافرين بكتابه والمكذبين لرسوله، وقوله: {تتزيلاً4 ممن خلق الأرض والسماوات العلى} أي هذا القرآن الذي مما أنزلناه لتتقى به ولكن تذكرة لمن يخشى نُزِّلَ تنزيلاً من الله الذي خلق الأرض والسماوات العلى: {الرحمن5 على العرش استوى} أي رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما الذي استوى على عرشه استواءً يليق به يدبر أمر مخلوقاته، الذي {له6 ما في السموات وما في

1 نزلت (طه) تبل إسلام عمر رضي الله عنه لما روي: أنه دخل على بيت خنته سعيد بن زيد فوجده يقرأها مع زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله عنهم أجمعين فطلبها فلم يُعْطها حتى اغتسل فلما قرأها لان قلبه ورق للإسلام.

2 قيل: إن طه بمعنى: يا رجل لغة معروفة في عكل حتى إنك إذا ناديت المرء بيا رجل لم يجبك حتى تقول: طه وأنشد الطبري في هذا قول الشاعر:

دعوت بطه في القتال فلم يجب

فخفت عليه أن يكون مزيلاً

3التذكرة: خطور المنسي بالذهن لأن التوحيد مستقر في الفطرة والإشراك مناف لها فسماع القرآن كقراءته يثير كامن التوحيد في فطرة الإنسان.

4 (تتزيلاً) حال من القرآن، المراد منها التنويه بشأن القرآن والإعلان عن خطره.

5 (الرحمن) يجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو الرحمن جل جلاله. ويجوز أن تكون مبتدأ واختير اسم الرحمن لأن المشركين ينكرون اسم الرحمن جهلاً منهم وعناداً.

6 تقديم الجار والمجرور: مؤذن بالحصص، وهو كذلك، إذ ليس لأحد ملك السموات والأرض وما فيها وما بينهما وما تحت الثرى سواه عز وجل.

(3/338)

الأرض وما بينهما وما تحت الثرى1 { من الأرضين السبع. وقوله {وإن تجهر بالقول} أيها الرسول أو تُسر {فإنه يعلم السر وأخفى2 { من السر؛ وهو ما قدره الله وهو واقع في وقته المحدد له فعله تعالى ولم يعلمه الإنسان بعد. وقوله: {الله لا إله إلا هو} أي الله المعبود بحق الذي لا معبود بحق سواه {له الأسماء الحسنی} التي لا تكون إلا له، ولا تكون لغيره من مخلوقاته. وهكذا عرّف تعالى عباده به ليعرفوه فيخافونه ويحبونه فيؤمنون به ويطيعونه فيكملون على ذلك ويسعدون فله الحمد وله المنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إبطال نظرية أن التكاليف الشرعية شاقة ومرهقة للعبد.
 - 2- تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة المحمدية،
 - 3- تقرير الصفات الإلهية كالاستواء ووجوب الإيمان بها بدون تأويل أو تعطيل أو تشبيه بر بل إثباتها على الوجه الذي يليق بصاحبها عز وجل.
 - 4- تقرير ربوبية الله لكل شيء.
 - 5- تقرير التوحيد وإثبات أسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العلی.
- وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

1 ما تحت الثرى: هو باطن الأرض كله.

2 وجائز أن يكون أخفى السر: حديث النفس إذ هو أخفى من السر إذ السر ينطق به، وخاطر النفس لا ينطق به.

(3/339)

فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15)
فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16)

شرح الكلمات:

هل أتاك: قد أتاك فالاستفهام للتحقيق..

حديث موسى: أي خبره وموسى هو ابن عمران نبي بني إسرائيل
إذ رأى ناراً: أي حين رؤيته ناراً.

لأهله: زوجته بنت شعيب ومن معها من خادم أو ولد.

أنست ناراً: أي أبصرتها من بعد.

بقبس 1: القبس عود في رأسه نار.

على النار هدى: أي ما يهديني الطريق وقد ضل الطريق إلى مصر.

فلما أتاها: أي النار وكانت في شجرة من العوسج ونحوه تتلألؤ نوراً لا ناراً.

نودي يا موسى: أي ناداه ربه قائلاً له يا موسى....!

المقدس طوى2: طوى اسم للوادي المقدس المطهر.

اخترتك: من قومك لحمل رسالتي إلى فرعون وبني إسرائيل.

فاستمع لما يوحى: أي إليك وهو قوله تعالى: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا}.

لذكري: أي لأجل أن تذكرني فيها.

أكاد أخفيها3: أي أبالغ في اخفائها حتى لا يعلم وقت مجيئها أحد.

1 القبس والمقباس يقال: قبست منه ناراً أقبس قبساً فقبسني أي: أعطاني منه قبساً بتحريك السين

مفتوحة، واقتبست منه علماً لأن العلم نور، من مادة النار التي هي الضياء والإشراق.

2 طوى بالكسر وبالضم أشهر وبه قراءة عامة القراء، وهو اسم للوادي وفي لفظه ما يشير إلى أنه

مكان فيه ضيق كالثوب المطوي أو لأن موسى طواه سيراً.

3 لما كانت الساعة مخفية الوقوع أثار قوله تعالى {أكاد أخفيها} تساؤلات كثيرة أقربها إلى الواقع

ثلاثة. الأول: إخفاء الحديث عنها لأن الحديث عنها لا يزيد المعاندين من منكري البعث إلا عناداً.

والثاني: أن كاد زائدة والتقدير: أن الساعة آتية أخفيها، والثالث: أن أخفيها بمعنى: أزيل خفاءها بأن

أظهرها فتكون الهمزة للسلب نحو أعجم الكتاب: أزال عجمته وأشكى زيدا: إذا أزال شكواه.

بما تسعى : أي سعيها في الخير أو في الشر .

فتردى : أي تهلك .

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد ففي نهاية الآية السابقة (8) كان قوله تعالى {الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى} تقريراً للتوحيد وإثباتاً له وفي هذه الآية (9) يقرره تعالى عن طريق الإخبار عن موسى ، وأن أول ما أوحاه إليه من كلامه كان إخباره بأنه لا إله إلا هو أي لا معبود غيره وأمره بعبادته . فقال تعالى: {وهل أتاك 1} أي يا نبينا {حديث موسى 2 إذ رأى ناراً}، وكان في ليلة مظلمة شاتية وزنده الذي معه لم يقدح له ناراً {فقال لأهله} أي زوجته ومن معها وقد ضلوا طريقهم لظلمة الليل، {امكنوا} أي ابقوا هنا فقد آنست ناراً أي أبصرتها {العلي آتيكم منها بقبس} فنوقد به ناراً تصطلون بها أي تستدفئون بها، {أو أجد على النار هدى} أي أجد حولها ما يهدينا طريقنا الذي ضللناه.

وقوله تعالى: {فلما أتاها} أي أتى النار ووصل إليها وكانت شجرة 3 تتألول نوراً {نودي يا موسى} أي ناداه ربه تعالى قائلاً يا موسى {إني 4 أنا ربك} أي خالقك ورازقك ومدبر أمرك {فاخضع نعليك إنك بالواد المقدس طوى} وذلك من أجل أن يتبرك بلامسة الوادي المقدس بقدميه . وقوله تعالى {وأنا اخترتك} أي لحمل رسالتي إلى من أرسلك إليهم . {فاستمع لما يوحى 5} أي إليك وهو: {إني أنا الله لا إله إلا أنا} أي أنا الله المعبود بحق ولا معبود بحق غيري وعليه فاعبدني وحدي، {وأقم الصلاة لذكركي 6} ، أي لأجل أن تذكرني فيها وبسببها . فلذا من لم يصل لم يذكر الله تعالى وكان بذلك كافراً لربه تعالى . وقوله {إن الساعة آتية 7} أي إن الساعة التي يقوم فيها الناس أحياء من قبورهم للحساب والجزاء

1 هذا الاستفهام أريد به التشويق لما يلقي لعظيم فائدته، وهل هنا بمعنى قد المفيدة للتحقيق هي كما في قوله: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر} أي قد أتى.

2 الحديث: الخبر، ويجمع على غير قياس: أحاديث، وقيل: واحده أحدثه واستغنوا به عن جمع فعلاء لأن فعيل يجمع على فعلاء. كرحيم ورحماء وسعيد وسعداء وهو اسم للكلام الذي يحكى به أمر قد حدث في الخارج.

3 قيل: هي شجرة عئاب.

4 قرأ حمزة وحده، وإننا اخترناك بضمير العظمة.

5 في هذه الآية إشارة إلى أن التعارف بين المتلاقيين حسن فقد عرفه تعالى بنفسه في أول لقاء معه، روى أنه وقف على حجر واستند على حجر ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره وهذه حالة الاستماع المطلوبة من صاحبها.

6 استدلال مالك على أن من نام عن صلاة أو نسيها فإنه يصلها مستدلاً بقوله تعالى: {وأقم الصلاة

لذكرى { أي: لأول وقت ذكرك لها والسنة صريحة في هذا إذ قال صلى الله عليه وسلم "من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها فلا كفارة لها إلا ذلك"
7 الساعة علم بالغلبة على ساعة البعث والحساب.

(3/341)

آتية لا محالة. من أجل مجازاة العباد على أعمالهم وسعيهم طوال أعمارهم من خير وشر، وقوله: {أكاد أخفيها} أي أبالغ في إخفائها حتى أكاد أخفيها عن نفسي. وذلك لحكمة أن يعمل الناس ما يعملون وهم لا يدرون متى يموتون ولا متى يبعثون فتكون أعمالهم بإراداتهم لا إكراه عليهم فيها فيكون الجزاء على أعمالهم عادلاً، وقوله: {فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فتزدى} ينهى تعالى موسى أن يقبل صدّ صادٍ من المنكرين للبعث متبعي الهوى عن الإيمان بالبعث والجزاء والتزود بالأعمال الصالحة لذلك اليوم العظيم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، فإن من لا يؤمن بها ولا يتزود لها يردى أي يهلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم.
 - 2- تقرير التوحيد وإثباته، وأن الدعوة إلى لا إله إلا الله دعوة كافة الرسل.
 - 3- إثبات صفة الكلام لله تعالى.
 - 4- مشروعية التبرك بما جعله الله تعالى مباركاً، والتبرك التماس البركة حسب بيان الرسول وتعليمه.
 - 5- وجوب إقام الصلاة وبيان علة ذلك وهو ذكر الله تعالى.
 - 6- بيان الحكمة في إخفاء الساعة مع وجوب إتيانها وحتميته.
- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشُّقُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سُنْعِيدُهَا سبِرَّتْهَا الْأُولَى (21) وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيكَ

(3/342)

مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

شرح الكلمات:

وما تلك بيمينك يا موسى: الاستفهام للتقرير ليرتب عليه المعجزة وهي انقلابها حية. أتوكأ عليها: أي أعتمد عليها.

وأهش بها على غنمي: أخطب بها ورق الشجر فيتساقط فتأكله الغنم.

ولي فيها مآرب أخرى: أي حاجات أخرى كحمل الزاد بتعليقه فيها ثم حمله على عاتقه، وقتل الهوام.

حية تسعى: أي ثعبان عظيم، تمشي على بطنها بسرعة كالثعبان الصغير المسمى بالجان.

سيرتها الأولى: أي إلى حالتها الأولى قبل أن تنقلب حية.

إلى جناحك: أي إلى جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط.

بيضاء من غير سوء: أي من غير برص تضيء كشعاع الشمس.

أذهب إلى فرعون: أي رسولاً إليه.

إنه طغي: تجاوز الحد في الكفر حتى ادعى الألوهية.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم مع موسى وربه تعالى إذ سأله الرب تعالى وهو أعلم به وبما عنده قائلاً: {وما

تلك بيمينك يا موسى1} يسأله ليقرر بأن ما بيده عصا من خشب يابسة، فإذا تحولت إلى حية

تسعى علم أنها آية له أعطاه إياها ربه ذو القدرة الباهرة ليرسله إلى فرعون وملائه. وأجاب موسى

ربه قائلاً: {هي عصاي أتوكأ عليها وأهش2 بها على غنمي} يريد يخطب بها الشجر اليابس فيتساقط

الورق فتأكله الغنم {ولي فيها مآرب3} أي حاجات

1 الجملة معطوفة على الجمل قبلها، وهي استفهامية أي: وما التي بيمينك؟ والمقصود تقرير الأمر

حتى يقول موسى: هي عصاي.

2 في هذه الآية دليل على جواز إجابة السائل بأكثر مما سأل عنه. وفي الحديث وقد سئل عن ماء

البحر فقال: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" فزاد جملة: "الحل ميتته" وقوله للتي سألته قائلة: ألهذا

حج؟ قال: نعم ولك أجر" فزاد "ولك أجر" وفي البخاري: باب من أجاب السائل بأكثر مما سأل.

3 الواحد: مأربة مثلثة الراء.

(3/343)

{أخرى1} كحمل الزاد والماء يعلقه بها ويضعه على عاتقه كعادة الرعاة وقد يقتل بها الهوام الضارة

كالعقرب والحية. فقال له ربه عز وجل {ألقها يا موسى فألقاها} من يده {فإذا هي حية تسعى2} أي

ثعبان عظيم تمشي على بطنها كالثعبان الصغير المسمى بالجان فخاف موسى منها وولى هارباً

فقال له الرب تعالى: {خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى3} أي نعيدها عصا كما كانت قبل تحولها إلى حية وفعلاً أخذها فإذا هي عصاه التي كانت بيمينه. ثم أمره تعالى بقوله: {واضمم يدك} أي اليمنى {إلى جناحك4} الأيسر {تخرج بيضاء من غير سوء} أي برص وفعل فضم يده تحت عضده إلى إبطه تم استخراجها فإذا هي تتألولو كأنها فلقة قمر، أو كأنها الثلج بياضا أو أشد، وقوله تعالى {آية أخرى} أي آية لك دالة على رسالتك أخرى إذ الأولى هي انقلاب العصا إلى حية تسعى كأنها جان. وقوله تعالى: {لنريك من آياتنا الكبرى} أي حولنا لك العصا حية وجعلنا يدك تخرج بيضاء من أجل أن نريك من دلائل قدرتنا وعظيم سلطاننا. وقوله تعالى: {إذهب إلى فرعون إنه طغى} لما أراه من عجائب قدرته أمره أن يذهب إلى فرعون رسولاً إليه يأمره بعبادة الله وحده وأن يرسل معه بني إسرائيل ليخرج بهم إلى أرض المعاد بالشام وقوله {إنه طغى} أي تجاوز قدره، وتعدى حده كبشر إذ أصبح يدعي الربوبية والألوهية إذ فقال: {أنا ربكم الأعلى} وقال: {ما علمت لكم من إله غيري} ، فأبي طغيان أكبر من هذا الطغيان.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبغ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إذ مثل هذه الأخبار لا تصح إلا ممن يوحى إليه.
- 2- استحباب تناول الأشياء غير المستقدرة باليمين.
- 3 - مشروعية حمل العصا5.

1 أظن موسى في الجواب طلبا لمزيد الأئس بالوقوف بين يدي ربه يناجيه ويوحى إليه.

2 الحية: اسم لمنصف من الحنش مسموم إذا عض بناييه قتل المعضوض.

3 السيرة في الأصل: هيئة السير ونقلت إلى العادة والطبيعة.

4 الجناح: العضد وما تحته من الإبط فهو مع اليد كجناح الطائر.

5 كان خطاء العرب يحملونها في أثناء الخطاب يشيرون بها، وكره هذا الشعبيون من غير العرب وهم محجوجون بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وللعصا فوائد كثيرة آخر فوائدها أنها تذكر بالسفر إلى الآخرة.

(3/344)

4- سنة رعي الغنم للأنبياء.

5- مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله في المعارك.

6- آية موسى في انقلاب العصا حية وخروج اليد بيضاء كأنها الثلج أو شعاع شمس.

7- بيان الطغيان: وهو ادعاء العبد ما ليس له كالألوهية ونحوها.

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ اَهْلِي (29) هَارُونَ اَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ اَزْرِي (31) وَاَشْرِكْهُ فِي اَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) اِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35)

شرح الكلمات:

اشرح لي صدري : أي وسعه لي لأتحمل الرسالة.

ويسر لي أمري: أي سهله حتى أقوى على القيام به.

واحلل عقدة من لساني1: أي حبسة حتى أفهم من أخطب.

اشدد به أزري : أي قوي به ظهري.

وأشركه في أمري: أي اجعله نبياً كما نبأنتي2.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في حديث موسى عليه السلام مع ربه سبحانه وتعالى إنه بعد أن أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده وإرسال بني إسرائيل مع موسى ليذهب به إلى أرض القدس قال موسى عليه السلام لربه تعالى {اشرح لي صدري} لأتحمل أعباء الرسالة {ويسر لي أمري} أي سهل مهمتي عليّ وارزقني العون

1 أصل العقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر وهي فُعلة كغرفة وشرفة أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف ويقال: حُبسة فشبه موسى حبسة لسانه بالعقدة في الحبل ونحوه.

2 يقال: ما برّ أخ أخاه كما برّ موسى أخاه هارون إذ طلب له أشرف مطلب الرسالة والنبوة.

(3/345)

عليها فإنها صعبة شاقة. {واحلل عقدة من لساني} تلك العقدة التي نشأت بسبب الجمرة التي ألقاها في فمه بتدبير الله عزّ وجلّ حيث عزم فرعون على قتله لما وضعه في حجره يلاعبه فأخذ موسى بلحية فرعون وנתقها فغضب فقالت له آسية إنه لا يعقل لصغر سنه وقالت له تختبره بوضع جواهر في طبق وجمر في طست ونقدمهما له فإن أخذ الجواهر فهو عاقل ودونك افعل به ما شئت، وإن أخذ الجمر فهو غير عاقل فلا تحفل به ولا تغتم لفعله، وقدم لموسى الطبق والطست فمد يده إلى الطست بتدبير الله فأخذ جمرة فكانت سبب هذه العقدة فسأل موسى ربه أن يحلها من لسانه ليفصح إذا خاطب فرعون ويبين فيفهم قوله، وبذلك يؤدي رسالته. هذا معنى قوله: {واحلل عقدة من لسان

يفقهوا قولي}1.

وقوله تعالى فيما أخبر عن موسى {واجعل لي وزيراً2 من أهلي هارون أخي} أي طلب من الله تعالى أن يجعل له من أخيه هارون معيناً على تبليغ الرسالة وتحمل أعبائها. وقوله: {اشدد به أزري3} أي قو به ظهري. وقوله: {وأشركه في أمري} وذلك بتبنيته وإرساله ليكون هارون نبياً رسولاً. وعلل موسى عليه الصلاة والسلام لطلبه هذا بقوله: {كي نسبحك4 كثيراً ونذكرك كثيراً} ، وقوله {إنك كنت بنا بصيراً} أي أنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك شيء من أمرنا وهذا من موسى توسل إلى الله تعالى في قبول دعائه وما طلبه من ربه توسل إليه بعلمه تعالى به وبأخيه وبحالهما.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب اللجأ إلى الله تعالى في كل ما يهم العبد.

2 مشروعية الأخذ بالأهبة والاستعداد لما يعترزم العبد القيام به.

3- فضيلة التسبيح والذكر، والتوسل بأسماء الله وصفاته.

1 اختلف في هل انحلت تلك العقدة أو لم تتحل، والصحيح أنها انحلت إجابة الله تعالى لدعوة موسى إذ قال: {قد أجيبت دعوتكما} وأما قول فرعون: ولا يكاد يبين فهو تكرر لما سبق ولأجل الانتقال من كمال موسى عليه السلام.

2 الوزير: المؤزر كالأكيل للمؤاكل، وفي حديث النسائي: "من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه".

3 الأزر: الظهر من موضع الحقوين، والأزر: القوة أيضاً وأزره أي: قواه، وقيل: الأزر العون، ومنه قول أبي طالب.

أليس أبونا هاشم شدّ أزره

وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

4 في هذه الآية دليل على فضل التسبيح والذكر إذ لولا أن موسى علم حب الله تعالى لهما لما توسل بهما لقضاء حاجته.

(3/346)

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ

إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّانَا فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي (41)
شرح الكلمات:

قد أوتيت سؤالك 1 : أي مسؤولك من انشراح صدرك وتيسير أمرك وانحلال عقدة لسانك، وتتبئة
أخيك.

ولقد مننا عليك مرة أخرى: أي أنعمنا عليك مع مرة أخرى قبل هذه.

مما يوحى: أي في شأنك وهو قوله: أن اذفيه الخ.

في التابوت : أي الصندوق.

فاذفيه في اليم: أي في نهر النيل.

ولتصنع على عيني2: تربي بمرأى مني ومحبة وإرادة.

على من يكفله : ليكمل له رضاعه.

وقتلنا نفسا : هو القبطي الذي قتلته بمصر وهو في بيت فرعون.

فنجيناك من الغم-: إذ استغفرتنا فغفرنا لك وأنتمروا بك ليقتلوك فنجيناك منهم.

وفتناك فتونا :أي اختبرناك اختبارا وابتليناك ابتلاء عظيما.

1 سؤل بمعنى مسؤول كخبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول.

2 الصنع هنا: بمعنى التربية والتنمية.

(3/347)

جئت على قدر 1 : أي جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون.

واصطنعناك لنفسي: أي أنعمت عليك بتلك النعم اجتناءً منا لك لتحمل رسالتنا.

معنى الآيات:

مازال السياق في حديث موسى مع ربه تعالى فقد تقدم أن موسى عليه السلام سأل ربه أمورا لتكون

عونا له على حمل رسالته فأجابه تعالى بقوله: في هذه الآية (36) {قال قد أوتيت سؤالك يا موسى}

أي قد أعطيت ما طلبت، {ولقد مننا عليك مرة أخرى} أي قبل هذه الطلبات وهي أنه لما أمر فرعون

بذبح أبناء بني إسرائيل2: {إذ أوحينا3 إلى أمك أن اذفيه في التابوت} أي في الصندوق4 {فاذفيه

في اليم} أي نهر النيل {فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو5 له} فهذه النجاة نعمة، ونعمة

أخرى تضمنها قوله تعالى: {وألقيت عليك محبة مني} أي أضفيت عليك محبتي فأصبح من يراك

حبك، ونعمة أخرى وهي: من أجل أن ثرئى وتغذى على مرأى مني وإرادة لي أرجعتك بتدبيرى إلى

أمك لترضعك وتقر عينها ولا تحزن على فراقك، وهو ما تضمنه قوله تعالى: {إذ تمشي أخذك}6
فنقول: {هل أدلكم على من يكفله} لكم أي لإرضاعه وتربيته. {فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا
تحزن}، ونعمة أخرى وهي أعظم إنجاؤنا لك من الغم الكبير بعد قتلك النفس وائتمار آل فرعون على
قتلك {فنجيناك من الغم} من القتل وغفرنا لك خطيئة القتل. وقوله تعالى: {وفتناك فتونا} 7 أي
ابنليناك ابتلاءً عظيماً وها هي ذي خلاصته في الأرقام التالية:
1- حمل أمك بك في السنة التي يقتل فيها أطفال بني إسرائيل.
2- إلقاء أمك بك في اليم.
3- تحريم المراضع عليك حتى رجعت إلى أمك.
4- أخذك بلحية فرعون وهمه بقتلك.

1 كما قال الشاعر:

نال الخلافة أو كانت له قدرا

كما أتى موسى ربه على قدر

2 أوحى الله تعالى إلى أم موسى: {أن اقذفيه..} الآية.

3 هذا إلهام لها أو منام إذ لم تكن نيّة إجماعاً.

4 الساحل: الشاطيء، وهو ساحل معهود وهو الذي يقصده آل فرعون للسباحة. واللام في (فليلقه)
لام التكوين الإلهي.

5 هذا العدو: فرعون عدو الله تعالى وعدو موسى وبني إسرائيل.

6 أخت موسى تسمى مريم بنت عمران.

7 الفتون: مصدر كالدخول والخروج وهو كالفتنة، وهي اضطراب حال المرء في مدة حياته.

(3/348)

5- قتلك القبطي وائتمار آل فرعون بقتلك.

6- إقامتك في مدين وما عانيت من آلام الغربة.

7 - ضلالك الطريق بأهلك وما أصابك من الخوف والتعب.

هذه بعض ما يدخل تحت قوله تعالى: وفتناك فتوناً وقوله {فلبثت سنين في أهل مدين}1 ترعى غم

شعيب عشرًا من السنين {ثم جئت} من مدين إلى طور سينا {على قدر} منا مقدر ووعد محدد ما

كنت تعلمه حتى لأقبيته. واصطنعتك لنفسك أي خلقتك وربيتك وابتليتك واتيت بك على موعد قدرته

لك لأحملك عبء الرسالة إلى فرعون وبني إسرائيل: إلى فرعون لتدعوه إلى عبادتنا وإرسال بني

إسرائيل معك إلى أرض المعاد. وإلى بني إسرائيل لهدايتهم وإصلاحهم وإعدادهم للإسعاد والإكمال في الدارين إن هم آمنوا واستقاموا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر لطف الله تعالى وحسن تدبيره في خلقه.
- 2- مظاهر إكرام الله تعالى ولطفه بعبده ورسوله موسى عليه السلام.
- 3- آية حب الله تعالى لموسى، وأثر ذلك في حب الناس له.
- 4- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره في كتابه بمثل هذه الأحداث في قصص موسى عليه السلام.

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأَتِيَاهُ قَوْلًا إِنَّآ رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

1 مدين أحد أبناء إبراهيم عليه السلام، وأهل مدين: أي : البلاد التي سميت باسم ابن إبراهيم هم قوم شعيب، والبلاد على ساحل البحر الأحمر جنوب العقبة.

(349/3)

وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنِ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

شرح الكلمات:

- بآياتي: أي بالمعجزات التي آتيتك كالعصا واليد وغيرها.
- ولا تنيا في ذكري : أي لا تفترا ولا تقصرا في ذكري فإنه سر الحياة وعونكما على أداء رسالتكما.
- إنه طغى : تجاوز قدره بادعائه الألوهية والربوبية.
- قولا لينا : أي خالياً من الغلظة والعنف.
- لعله يتذكر : أي فيما تقولان فيهتدي إلى معرفتنا فيخشانا فيؤمن ويسلم ويرسل معكما بني إسرائيل.
- يفرط علينا : أي يعجل بعقوبتنا قبل أن ندعو، ونبين له.
- أو أن يطغى: أي يزداد طغيانا وظلما.
- أسمع وأرى : أي اسمع ما تقولانه وما يقال لكما، وأرى ما تعملان وما يعمل لكما.
- فأرسل معنا بني إسرائيل : أي لنذهب بهم إلى أرض المعاد أرض أبيهم إبراهيم.

بآية: أي معجزة تدل على صدقنا في دعوتنا وأنا رسولاً ربك حقاً وصدقاً.
والسلام على من اتبع الهدى : أي النجاة من العذاب في الدارين لمن آمن واتقى، إذ الهدى إيمانٌ
وتقوى.

من كذب وتولى : أي كذب بالحق ودعوته وأعرض عنهما فلم يقبلهما.

معنى الآيات

مازال السياق الكريم في الحديث عن موسى مع ربه تبارك وتعالى فقد أخبره تعالى في

(3/350)

الآية السابقة أنه صنعه لنفسه، فأمره في هذه الآية بالذهاب مع أخيه هارون مزودين بآيات الله وهي حججه التي أعطاهما من العصا واليد البيضاء، ونهاهما عن التواني في ذكر الله بأن يضعفا في ذكر وعده ووعيده فيقصرنا في الدعوة إليه تعالى فقال : {إذهب أنت وأخوك بآياتي 1 ولا تتنيا في ذكرى 2} وبين لهما إلى من يذهبها وعلّة ذلك فقال: {إذهبوا إلى فرعون إنه طغى} أي تجاوز قدره وتعدى حده من إنسان يعبد الله إلى إنسان كفار ادعى أنه رب وإله، وعلمهما أسلوب الدعوة فقال لهما: {فقولا له قولاً ليناً} أي خالياً من الغلظة والجفا وسوء الإلقاء وعلل لذلك فقال {لعله يتذكر أو يخشى 3} أي رجاء أن يتذكر، معاني كلامكما وما تدعوانه إليه فيراجع نفسه فيؤمن ويهتدي 4 أو يخشى العذاب إن بقي على كفره وظلمه فيسلم لكما بني إسرائيل ويرسلهم معكما، فأبدى موسى وأخو هارون تخوفاً فقال ما أخبر تعالى به عنهما في قوله: فقالا {إنا نخاف أن يفرط علينا} أي يعجل بعقوبتنا بالضرب أو القتل، {أو أن يطغى 5} أي يزداد طغياناً وظلماً. فطمأنهما ربهما عز وجل بأنه معهما بنصره وتأبيده وهدايته إلى كل ما فيه عزهما فقال لهما: {لا تخافا} أي من فرعون وملائته: {إنني معكما أسمع وأرى} اسمع ما تقولان لفرعون وما يقول لكما. وأرى ما تعملان من عمل وما يعمل فرعون وإنني أنصركما عليه فأحق عملكما وأبطل عمله. فأتياه إذاً ولا تترددوا فقولا أي لفرعون {إنا رسولاً ربك} أي إليك {فأرسل معنا بني إسرائيل} لنخرج بهما حيث أمر الله، {ولا تعذبهم} بقتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهم في أسوأ الأعمال وأحطها، {قد جئناك بآية من ربك} أي بحجة من ربك دالة على أنا رسولاً ربك إليك وأنه يأمرك بالعدل والتوحيد

1 يروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الآيات التسع. وهذا باعتبار ما يكون وإلا فما حصل هو آية العصا واليد لا غير.

2 ولا تتنيا؛ أي: ولا تضعفا. يقال: ونى بني ونى أي: ضعف في العمل. أي: لا تتني أنت وأبلغ هارون أن لا يني.

3 لعل: حرف ترح ولكن هي هنا بالنسبة إلى موسى وهارون معناه: لعل رجاءكما وطمعكما. فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر.

4 لقد تذكر فرعون وخشي وذلك ساعة غرقه ولم ينفعه ذلك إذ قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

5 قوله تعالى: {قالا ربنا إنا نخاف} الخ هذه بداية كلام موسى وهارون بعد أن انتهى كلام موسى مع ربه وحده. قبل أن يصل إلى مصر، ومعنى: يفرط يبادر بعقوبتهما ويعجلها، يقال: فرط منه أمر أي: بدر، وأفرط: أسرف وفرط: ترك وأضاع، وفي الآية دليل عدم المؤاخذه بالخوف مما من شأنه أن يخاف، ولكن لا يمنع من عبادة الله تعالى التي هي علّة الخلق والوجود.
6 هي اليد والعصا.

(3/351)

وينهاك عن الظلم والكفر ومنع بني إسرائيل من الخروج إلى أرض المعاد معنا. {والسلام على من اتبع الهدى} أي واعلم يا فرعون أن الأمان والسلامة يحصلان لمن اتبع الهدى الذي جنّناك به، فاتبع الهدى تسلم 1، وإلا فأنت عرضة للمخاوف والهلاك والدمار وذلك لأنه {قد أوحى إلينا} أي أوحى إلينا ربنا، {أن العذاب 2 على من كذب} بالحق الذي جنّناك به {وتولى} عنه فأعرض عنه ولم يقبله كبرياءً وعناداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عظم شأن الذكر بالقلب واللسان والجوارح أي بالطاعة فعلاً وتركاً.
- 2- وجوب مراعاة الحكمة في دعوة الناس إلى ربهم .
- 3- تقرير معية الله تعالى مع أوليائه وصالح عباده بنصرهم وتأبيدهم.
- 4- تقرير أن السلامة من عذاب الدنيا والآخرة هي من نصيب متبعي الهدى.
- 5- شرعية إتيان الظالم وأمره ونهيه والصبر على أذاه.
- 6- عدم المؤاخذه على الخوف حيث وجدت أسبابه.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عَلِمُوا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)

1 والسلام هنا ليس سلام تحية.

2 قوله تعالى : { إن العذاب على من كذب وتولى } هذه أرجى أية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا.

(3/352)

شرح الكلمات:

أعطى كل شيء خلقه: أي خلقه الذي هو عليه متميز به عن غيره.
ثم هدى: أي الحيوان منه إلى طلب مطعمه ومشربه ومسكنه ومنكحه.
قال فما بال القرون الأولى: أي قال فرعون لموسى ليصرفه عن دلائله بالحجج حتى لا يفتضح فما بال القرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود في عبادتهم الأوثان؟
قال علمها عند ربي: أي لم علم أعمالهم وجزائهم عليها عند ربي دعنا من هذا فإنه لا يعيننا.
في كتاب لا يضل ربي: أي أعمال تلك الأمم في كتاب محفوظ عند ربي وسيجزئهم بأعمالهم إن ربي لا يخطيء ولا ينسى فإن عذب أو أفرغ العذاب فإن ذلك لحكمة اقتضت منه ذلك.
مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً : مهاداً، فراشا وسلك: سهل، وسبلاً طرقاتاً.
أزواجاً من نبات شتى : أزواجاً: أصنافاً: شتى: مختلفة الألوان والطعوم.
إن في ذلك لآيات: لدلائل واضحات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته.
لأولى النهى: أي أصحاب العقول لأن النهية العقل وسمي نهية لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح كالشرك والمعاصي.
منها خلقناكم: أي من الأرض وفيها نعيدكم بعد الموت ومنها نخرجكم عند البعث يوم القيامة.
تارة أخرى: أي مرة أخرى إذ الأولى كانت خلقاً من طين الأرض وهذه إخراجاً من الأرض.
معنى الآيات:

السياق الكريم في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون إذ وصل موسى وأخوه إلى فرعون ودَعَوَاهُ إلى الله تعالى ليؤمن به ويعبده وبأسلوب هادئ لين كما أمرهما الله تعالى: فقالا له: والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى علينا أن العذاب على من

(3/353)

كذب وتولى؟ ولم يقلوا له لا سلام عليك، ولا أنت مكذب ومعذب، وهنا قال لهما فرعون ما أخبر به تعالى في قوله: {قال فمن ربكما يا موسى؟} أفرد اللعين موسى بالذكر لإدلائه عليه بنعمة التربية في بيته ولأنه الرسول الأول فأجابه موسى بما أخبر تعالى به بقوله: {ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}2 أي كل مخلوق خلقه الذي هو عليه متميز به من شكل ولون وصفة وذات ثم هدى الأحياء من مخلوقاته إلى طلب رزقها من طعام وشراب، وطلب بقائها بما سن لها وهداها إليه من طرق التنازل إبقاء لأنواعها. وهنا وقد أفحم موسى فرعون وقطع حجته بما ألهمه الله من علم وبيان قال فرعون صارفاً موسى عن المقصود خشية الفضيحة من الهزيمة أمام ملائه قال: {فما3 بال القرون الأولى} أخبرنا عن قوم نوح وهود وصالح وقد كانوا يعبدون الأوثان. وعرف موسى أن اللعين يريد صرفه عن الحقيقة فقال له ما أخبر تعالى به في قوله: {علمها عند ربي في كتاب4، لا يضل ربي ولا ينسى5} فإن ما سألت عنه لا يعنيننا فعلم حال تلك الأمم الخالية عند ربي في لوح محفوظ عنده وسيجزئها بعملها، وما عجل لها من العقوبة أو أخر إنما لحكمة يعلمها فإن ربي لا يخطيء ولا ينسى وسيجزئ كلاً بكسبه. ثم أخذ موسى يصف ربه ويعرفهم به وهي فرصة سنحت فقال {الذي جعل لكم الأرض مهداً} أي فراشاً مبسوطة للحياة عليها {وسلك لكم فيها سبلاً} أي سهل لكم للسير عليها طرقاتاً تمكنكم من الوصول إلى حاجاتكم فوقها، {وأنزل من السماء ماء} وهو المطر المكون للأنهار والمغذي الممد للآبار. هذا هو ربي وربكم فاعرفوه واعبدوه ولا تعبدوا معه سواه. وقوله تعالى: {فأخرجنا6 به أزواجاً من نبات شتى} أي بالمطر أزواجاً أي أصنافاً من نبات شتى أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخصائص. كان هذا من قول الله

1 أعلمه عليه السلام بأن ربه تعالى يعرف بصفاته لا بذاته ولا باسم يعرف به ولم يقل له موسى: إنه الله، لأن الاسم العلم لا يهدي إلى معرفته تعالى كما تهدي إليه الصفات العلى التي لا يقدر فرعون على جحدها وإنكارها.

2 قال ابن عباس: أعطى كل زوج من جنسه ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان. قال الشاعر:
وله في كل شيء خلقه
وكذا الله ما شاء فعل

3البال: الحال أي: ما حالها وما شأنها؟ فأعلمه موسى عليه السلام أن علمها عند الله أي: إن ما سألت عنه من علم الغيب الذي استأثر الله به درن سواه.

4 في هذه الآية دليل على مشروعية كتابة العلوم وتدوينها، حتى لا تنسى فتضيع وفي الحديث مشاهد آخر ففي صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده. إن رحمتي تغلب غضبي".

5 الضلال: الخطأ في العلم شبّه بخطئ الطريق، والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في الذهن.
6 في الكلام التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم والخطاب تنويحاً للأسلوب وتحريكاً للضمير الجامد.

(3/354)

تعالى تمييزاً لكلام موسى وتذكيراً لأهل مكة المتجاهلين لله وحقه في التوحيد. وقوله: {كلوا وارعوا أنعامكم} أي مما ذكرنا لكم من أزواج النبات. وارعوا إيلكم وأغنامكم وسائر بهائمكم واشكروا لنا هذا الإنعام بعبادتنا وترك عبادة غيرنا. وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لأولي النهى} أي إن في ذلك المذكور من إنزال المطر وإنبات النبات لتغذية الإنسان والحيوان لدلالات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وانه بذلك مستحق للعبادة دون سواه إلا أن هذه الدلائل لا يعقلها إلا أصحاب العقول وذوو النهى فهم الذي يستدلون بها علم معرفة الله ووجوب عبادته وترك عبادة غيره. وقوله تعالى: {منها} أي من الأرض التي فيها حياة النبات والحيوان خلقناكم أي خلق أصلكم الأول وهو آدم، وفيها نعيدكم بالموت فتقبرون فيها، {ومنها 1 نخرجكم تارة أخرى 2} أي مرة أخرى وذلك يوم القيامة إذ نبعثكم من قبوركم أحياء للحساب والجزاء بالنعيم المقيم أو العذاب المهين بحسب صفات نفوسكم فذو النفس الطاهرة ينعم وذو النفس الخبيثة من الشرك والمعاصي يعذب.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تعين إجابة السائل ولتكن بالعلم الصحيح النافع.
- 2- تقرير مبدأ من حسن 3 إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.
- 3- تنزه الرب تعالى عن الخطأ والنسيان.
- 4- الاستدلال بالآيات الكونية على الخالق عز وجل وقدرته وألوهيته.
- 5- احترام العقول وتقديرها لأنها تعقل 4 صاحبها دون الباطل والشر.
- 6- تسمية العقل نهية لأنه ينهى صاحبه عن القبائح.

1 بمناسبة ذكر دلائل وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لألوهيته دون سواه ذكرهم بعقيدة البعث والجزاء مستدلاً عليها بقدرة الله تعالى وعلمه.

2 تجمع التارة على تارات كالمرة على المرّات، والتارة: اسم جامد غير مشتق.

3 هذا حديث الصحيح: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

4 تعقل: أي: تحجزه أو تصرفه عما يضرّ حالاً أو مآلاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ
يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَرَ النَّاسُ ضُحَى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)

شرح الكلمات:

أرسلناه آياتنا كلها : أي أبصرناه حججنا وأدلتنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولنا موسى وهارون إليه
كلها فرفضها وأبى أن يصدق بأنهما رسولين إليه من رب العالمين.

من أرضنا: أي أرض مصر التي فرعون ملك عليها.

بسحرك يا موسى : يشير إلى العصا واليد البيضاء.

مكانا سوى: أي مكان عدل بيننا وبينك ونصّف، صالحاً للمباراة حيث يكون ساحة كبرى مكشوفة
مستوية يرى ما فيها كل ناظر إليها.

يوم الزينة: أي يوم عيد يتزينون فيه ويقعدون عن العمل.

وأن يحشر الناس ضحى: أي وأن يؤتى بالناس من كل أنحاء البلاد للنظر في المباراة.

فتولى فرعون: أي انصرف من مجلس الحوار بينه وبين موسى وهارون في كبرياء وإعراض.

فيجمع كيده: أي ذوى كيده وقوته من السحرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحوار بين موسى وهارون من جهة وفرعون وملائته من جهة

أخرى فقال تعالى: {ولقد أرسلناه} أي أرسلنا فرعون {آياتنا كلها} أي أدلتنا وحججنا 1 على أن موسى
وهارون رسولان من {قبلنا} أرسلناهما إليه، فكذب برسالتهما وأبى الاعتراف بهما، وقال ما أخبر
تعالى به عنه: {قال أجئتنا} 2 أي يا موسى {لتخرجنا من أرضنا} أي منازلنا وديارنا ومملكتنا
{بسحرك} الذي انقلبت به عصاك حية تسعى، {فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعداً}
نتقابل فيه، {لأ نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى} 3 عدلاً بيننا وبينك يكون من الاعتدال والاتساع
بحيث كل من ينظر إليه يرى ما يجرى فيه من المباراة بيننا وبينك. فأجاب موسى بما أخبر تعالى
به عنه فقال : {موعدكم يوم الزينة} وهو يوم عيد للأقباط يتجملون فيه ويقعدون عن العمل، {وأن
يحشر الناس ضحى} 4 أي في يوم يجمع فيه الناس ضحى للتفرج في المباراة من كل أنحاء المملكة

وهنا تولى فرعون بمعنى انصرف من مجلس المحاورة وكله كبر وعناد فجمع قواته من السحرة لإنفاذ كيده في موسى وهارون. وفي الآيات التالية تظهر الحقيقة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان كبر فرعون وصلفه وطغيانه.
 - 2- للسحر آثار وله مدارس يتعلم فيها رجال يحذقونه ويعلمونه.
 - 3- مشروعية المبارزة والمباراة لإظهار الحق وإبطال الباطل.
 - 4- مشروعية اختيار المكان والزمان اللائق للقتال والمباراة ونحوهما.
- قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ

- 1 أي: الدالة على وجود الله تعالى ووجوب ألوهيته وعلى صحة نبوة موسى وهارون.
- 2 لما رأى الآيات وبهرته احتال في دفعها للعين بدعواه أن موسى جاء ليخرج فرعون وقومه من بلادهم ليستقل بها دونهم، وهذا من الكذب السياسي الممقوت.
- 3 قرأ حفص (سوى) كطوى بضم السين، وقرأ نافع (سوى) بكسرها كطوى، والكسر أفصح. أي: وسطاً في المدينة لا يشق على من يأتيه.
- 4 اختار موسى اليوم والساعة، وهي: الضحى لعلمه أنه سيغلب السحرة ويهزمون أمامه، فأحب أن يكون الوقت مناسباً للكثر المتفرجين ووضوح الرأي لهم في شباب النهار (الضحى).

(3/357)

وَقَدْ حَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (61) فَتَنَّا زُجْرًا وَأَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ وَآسْرُوا النَّجْوَىٰ (62) قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (64) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْفَىٰ (65) قَالَ بَلْ أَلْفُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66)

شرح الكلمات:

ويلكم: دعاء عليهم معناه: ألزمكم الله الويل وهو الهلاك.

فيسحتكم بعذاب: أي يهلككم بعذاب من عنده.

فتنازعا أمرهم: أي في شأن موسى وهارون أي هل هما رسولان أو ساحران.

وأسروا النجوى: وهي قولهم: ان هذان لساحران يريدان الخ....

بطريقتك المثلَى: أي ويغلبا على طريقة قومكم وهما أشرفهم وساداتهم.

فأجمعوا كيديكم : أي أحكموا أمر كيديكم حتى لا تختلفوا فيه.

قد أفلح من استعلى: أي قد فاز من غلب.

إما أن تلقى: أي عصاك.

فخيل إليه أنها تسعى: أي فخيل إلى موسى أنها حية تسعى، لأنهم ظلوا بالزئبق فلما ضربت

الشمس عليها اضطربت واهتزت فخيل إلى موسى أنها تتحرك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جمعهم فرعون

(3/358)

للمباراة فأخبر تعالى عن موسى أنه قال لهم مخوفاً إياهم علمهم يتوبون: {ويلكم 1 لا تقفروا على الله كذباً} أي لا تتقولوا على الله فتتسبوا إليه ما هو كذب {فيسحتكم 2 بعذاب} أي يهلككم بعذاب إبادة واستئصال، {وقد خاب من افتري} أي خسر من كذب على الله أو على الناس. ولما سمعوا كلام موسى هذا اختلفوا فيما بينهم هل صاحب هذا الكلام ساحر أو هو كلام رسول من في السماء؟ وهو ما أخبر تعالى به عنهم في قوله:

{فتنازعوا 3 أمرهم بينهم} وقوله {وأسروا النجوى} أي أخفوا ما تناجوا به بينهم وهو ما أخبر تعالى به في قوله: {إن 4 هذان لساحران} أي موسى وهارون {يريدان أن يخرجاكم من أرضكم} أي دياركم المصرية، {ويذهبا بطريقتكم المثلى 5} أي بأشرافكم وساداتكم من بني إسرائيل وغيرهم فيتابعوهما على ما جاء به ويدينون بدينهما، وعليه فأجمعوا أمرهم حتى لا تختلفوا فيما بينهم، {ثم اتتوا صفاً واحداً متراصاً،} {وقد أفلح اليوم من استعلى} أي غلب، وهذا بعد أن اتفقوا على أسلوب المباراة قالوا بأمر فرعون: {يا موسى إما أن تلقى} عصاك، وإما أن تلقى نحن فنكون أول من ألقى. فقال لهم موسى: {بل ألقوا}، فلقوا عندئذ {إذا حبالهم وعصيهم} وكانت ألوفاً فغطت الساحة وهي تتحرك وتضطرب لأنها مطلية بالزئبق فلما سخنت بحر الشمس صارت تتحرك وتضطرب الأمر الذي خيل فيه لموسى أنها تسعى (باقي الحديث في الآيات بعد).

1 الويل: الهلاك وهو شبه مصدر، ونصبه إما على تقدير: ألزمهم الله أو على النداء أي: يا ويلهم. كقوله: {يا ويلنا من بعثنا}.

2 سحت وأسحت بمعنى، وأصله من استقصاء الشعر في إزالته قرأ أهل الكوفة: {فيسحتكم} بضم

الياء من أسحت، وقرأ أهل الحجاز بفتح الياء من: سحت قال الشاعر:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحنا أو مجلفا

والشاهد في: مسحت من أسحت.

3 التنازع: مشتق من جذب الدلو من البئر وجذب الثوب من الجسد والتنازع تفاعل إذ كل ذي رأي يريد نزع رأي صاحبه لرأيه لما يراه من الصواب.

4 قراءة الجمهور بكسر إن وتشديد النون، وبلغ الخلاف في هذا الحرف أشده فبلغوا فيه إلى ستة تخريجات أمثلها: أن (إن) حرف جواب بمعنى نعم قال الشاعر:

ويقلن شيب علا

ك وقد كبرت فقلت إنّه

والشاهد في إنه جواب لما في البيت من كلام، والهاء في إنه هاء السكت، وشاهد آخر وهو: أنّ عبدالله بن الزبير قال لأعرابي استجداه فلم يعطه: إنّ وراكبها. لما قال الأعرابي: لعن الله ناقه حملنتي إليك. فقله: إن: أي: نعم وراكبها أي: ملعون كذلك.

5 المثلى: مؤنث: الأمثل، من المثالية التي هي حسن الحال. أراد فرعون إثارة الحمية في قومه ليدافعوا عن عاداتهم وشرائعهم وأخلاقهم.

(3/359)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الكذب على الله تعالى، وإنه ذنب عظيم يسبب دمار الكاذب وخسرانه.
- 2- من مكر الإنسان وخداعه 1 أن يحول القضية الدينية البحتة إلى سياسة خوفاً من التأثير على النفوس فتؤمن وتهتدي إلى الحق.
- 3- معية الله تعالى لموسى وهارون تجلت في تصرفات موسى إذ الإذن لهم بالإلقاء أولاً من الحكمة وذلك أن الذي يبقى في نفوس المتفرجين والنظارة هو المشهد الأخير والكلمة الأخيرة التي تقال لاسيما في موقف كهذا.

قَالَ بَلْ أَلْفُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَاتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَسَدُّ عَدَابًا وَأَبْقَى (71)

شرح الكلمات:

فأوجس في نفسه خيفة: أي أحس بالخوف في نفسه.

أنت الأعلى : أي الغالب المنتصر.

تلقف : أي تبتلع بسرعة ما صنع السحرة من تلك الحبال والعصي .

كيد ساحر : أي كيد ساحر لا بقاء له ولا ثبات.

1 المراد به الإنسان الذي لا يؤمن بالله ولقائه ولا يتحلى بالصبر والتقوى.

(3/360)

لا يفلح الساحر: أي لا يفوز بمطلوبة حيثما كان.

فألقي السحرة سجداً: أي ألقوا بأنفسهم ورؤوسهم على الأرض ساجدين.

إنه لكبيركم : أي لمعلمكم الذي علمكم السحر.

من خلاف : أي يد اليمنى مع رجل يسرى.

في جذوع النخل: أي على أخشاب النخل.

أينا أشد عذاباً وأبقى: يعني نفسه- لعنه الله- ورب مرسى اشد عذاباً وأدومه على مخالفته وعصيانه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن المباراة التي بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون إنه لما ألقى

السحرة حبالهم وعصيهم وتحركت واضطربت وامتألت بها الساحة شعر موسى بخوف في نفسه

فأوحى إليه ربه تعالى في نفس اللحظة: {لا تخف إنك أنت الأعلى} أي الغالب القاهر لهم.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (67) فأوجس 1 في نفسه خيفة موسى والثانية (68) {قلنا لا تخف

إنك أنت الأعلى} وقوله تعالى: {وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ 2 تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا} أي تبتلع بسرعة وعلل لذلك

فقال: {إنما صنعوا كيد ساحر 3} أي هو مكر وخدعة من ساحر {ولا يفلح الساحر حيث أتى} أي لا

يفوز الساحر بما أراد ولا يظفر به أبداً لأنه مجرد تخيلات يريها غيره. وليس لها حقيقة ثابتة لا

تتحول ولما شاهد السحرة ابتلاع العصا لكل حبالهم وعصيبتهم عرفوا أن ما جاء به موسى ليس

سحراً وإنما هو معجزة سماوية ألقوا بأنفسهم على الأرض ساجدين لله رب العالمين لما بهر نفوسهم

من عظمة المعجزة وقالوا في وضوح {أمنا برب هارون وموسى}. وهنا صاح فرعون مزمجرأ مهدداً

ليتلافى في نظره شر الهزيمة فقال

1 (أوجس): أي أحس ووجد أي: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي العصا.

2 لم يقل له: ألق العصا لأن فيها إكباراً لشأن العصا وأنها بحق قادرة على إبطال باطل السحرة.

3 قرأ الجمهور: {كيد ساحر} وقرأ بعضهم: {كيد سحر} بكسر السين أي: كيد ذي سحر، وكيد: خبر مرفوع، والمبتدأ: ما الموصولية في قوله: {إن ما صنعوا} وصنعوا: صلتها، وكيد: الخبر. وقرئ نصب كيد على أن ما كافة. وكيد معمول لصنعوا.

(3/361)

للسحرة {آمنت له قبل أن آذن لكم} بذلك {إنه لكبيركم}1 أي معلمكم العظيم {الذي علمكم السحر} فتواطأتم معه على الهزيمة. {فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف} تعذيباً وتنكيلاً فاقطع يمين أحدكم مع يسرى رجله، أو العكس {ولأصلبنكم}2 في جذوع النخل} أي لأشدنكم على أخشاب النخل واطركنكم معلقين عبرة ونكالا لغيركم {ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى} أي أدومه: رب موسى الذي آمنت به أو أنا "فرعون عليه لعائن الله" هداية الآيات من هداية الآيات:

- 1- الشعور بالخوف والإحساس به عند معاينة أسبابه لا يقدر في الإيمان.
 - 2- تقرير أم ما يظهر السحرة من تحويل الشيء إلى آخر إنما هو مجرد تخييل لا حقيقة له.
 - 3- حرمة السحر لأنه تزوير وخداع.
 - 4- قوة تأثير المعجزة في نفس السحرة لما ظهر لهم من الفرق بين الآية والسحر.
 - 5- شجاعة المؤمن لا يرهبها خوف بقتل ولا بصلب.
- قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ

1 أراد فرعون بقوله هذا التشبيه على الناس والتمويه حتى لا يتبعوا السحرة فيؤمنوا كمايمانهم لا أن موسى استأذهم في السحر وأنه أحذق منهم له وأعلم منهم به.

2 حروف الجر تتناوب، والفاء هنا: (في جذع النخل) بمعنى: على. قال الشاعر:
هم صلبوا العبدى في جذع نخلة
فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

(3/362)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَنْ تَزَكَّى (76)

شرح الكلمات:

لن نوثرك : أي لن نفضلك ونختارك.

والذي فطرنا: أي خلقنا ولم نكن شيئاً.

فاقض ما أنت قاض: أي اصنع ما قلت إنك تصنعه بنا.

والله خير وأبقى : أي خير منك ثواباً إذا أطيع وأبقى منك عذاباً إذا عصى.

مجراً: مجرماً أي على نفسه مفسداً لها بآثار الشرك والكفر والمعاصي.

جزاء من تزكى: أي ثواب من تتطهر من آثار الشرك والمعاصي وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

معنى الآيات:

ما زال السياق مع فرعون والسحرة المؤمنين انه لما هددهم فرعون بالقتل والصلب على جذوع النخل لإيمانهم بالله وكفرهم به وهو الطاغوت قالوا له ما أخبر تعالى به عنهم في هذه الآية (72) {قالوا لن نوثرك} {يا فرعون {على ما جاءنا من البينات} الدلائل والحجج القاطعة على أن رب 1 موسى وهارون هو الرب الحق الذي تجب عبادته وطاعته فلن نختارك على الذي خلقنا فنؤمن بك ونكفر به لن يكون هذا أبداً واقض ما أنت عازم على قضائه علينا من القتل والصلب. {إنما تقضى هذه الحياة الدنيا} في هذه الحياة الدنيا لما لك من السلطان فيها أما الآخرة فسوف يقضى عليك فيها بالخلد في العذاب المهين.

وأكدوا إيمانهم في غير خوف ولا وجل فقالوا: {إنا آما برينا} أي خالقنا ورازقنا ومدبر أمرنا {ليغفر لنا خطايانا} أي ذنوبنا، {وما أكرهتنا عليه من السحر} أي من تعلمه والعمل به، ونحن لا نريد ذلك ولا شك أن فرعون كان قد ألزمهم بتعلم السحر والعمل به من أجل محاربة موسى وهارون لما رأى من معجزة العصا واليد. وقولهم {والله خير وأبقى}

1 روي أن آسيا امرأة فرعون لما بدأت المباراة قالت لهم: أخبروني عمّن يغلب فأخبرت أن موسى وهارون غلبا فقالت: آمنت بربّ موسى وهرون. فأمر فرعون بأعظم صخرة فإذا أصرت على قولها قألقوها عليها فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فرأت منزلها في الجنة بعد أن قالت {ربّ ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين} وخرجت روحها فألقيت عليها الصخرة وهي جسد لا روح فيها استجاب الله لها عليها السلام.

(3/363)

أي خير ثواباً وجزاء حسناً لمن آمن به وعمل صالحاً، وأبقى عذاباً لمن كفر به وبآمن بغيره وعصاه. هذا ما دلت عليه الآيتان (72) و (73).

أما الآية الثالثة (74) وهي قوله تعالى: {إنه من يأت ربه مجرماً 1} أي على نفسه بإفسادها بالشرك والمعاصي {فإن له 2 جهنم لا يموت فيها 3} فيستريح من العذاب فيها، {ولا يحيى} حياة يسعد فيها. وقولهم {ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات} أي مؤمناً به كافرًا بالطاغوت قد عمل بشرائعه فأدى الفرائض واجتنب المناهي {فأولئك 4 هم} جزاء إيمانهم وعملهم الصالح {الدرجات العلى جنات عدن} أي في جنات عدن {تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} لا يموتون ولا يخرجون منها، {وذلك جزاء من تزكى} أي تتطهر بالإيمان وصالح الأعمال بعد تخليه عن الشرك والخطايا والذنوب. لا شك أن هذا العلم الذي عليه السحرة كان قد حصل لهم من طريق دعوة موسى وهارون إذ أقاموا بينهم زمناً طويلاً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا يؤثر الكفر على الإيمان والباطل على الحق والخرافة على الدين الصحيح إلا أحمق جاهل.
- 2- تقرير مبدأ أن عذاب الدنيا يتحمل ويصبر عليه بالنظر إلى عذاب الآخرة.
- 3- الإكراه نوعان: ما كان بالضرب الذي لا يطاق يغفر لصاحبه وما كان لمجرد تهديد ومطالبة فإنه لا يغفر إلا بالتوبة الصادقة وإكراه السحرة كان من النوع الآخر.
- 4- بيان جزاء كل من الكفر والمعاصي، والإيمان والعمل الصالح في الدار الآخرة.

1 المجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية، والفعل الخبيث، والمجرم في اصطلاح القرآن: الكافر غالباً.

2 اللام في: له جهنم لام الاستحقاق أي: هو صائر إليها لا محالة.

3 لا يموت فيها ولا يحيى، لأن عذابها متجدد فيها فلا هو ميّت لأنه يحس بالعذاب ولا هو حي لأنه في حالة الموت أهون منها، وهذا كقول عباس بن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تُدرٍ

فلم أعط شيئاً ولم أمنع

4 {فأولئك..} الآية أوتي باسم الإشارة إلى أنهم أحياء بهذا النعيم في جنات ويؤكد قوله {ذلك جزاء من تزكى}.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى
(77) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى
(80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ
هُوَ (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)
شرح الكلمات:

أن أسر بعبادي: أي سر ليلاً من أرض مصر.
طريقاً في البحر يبساً: طريقاً في وسط البحر يابساً لا ماء فيه.
لا تخاف دركاً: أي لا تخش أن يدركك فرعون، ولا تخشى غرقاً.
فغشيه من اليم: أي فغطاهم من ماء البحر ما غطاهم حتى غرقوا فيه.
وأضل فرعون قومه: أي بدعائهم إلى الإيمان به والكفر بالله رب العالمين.
وما هدى: أي لم يهدهم كما وعدهم بقوله: {وما أهديك إلا سبيل الرشاد}.
جانب الطور الأيمن: أي لأجل إعطاء موسى التوراة التي فيها نظام حياتهم دينا ودنيا.
المن والسلوى: المن: شيء أبيض كالثلج، والسلوى طائر يقال له السماني¹.
ولا تطغوا فيه: أي بالإسراف فيه، وعدم شكر الله تعالى عليه.

1 السمانى: بضم السين، وفتح النون ممدودة، والجمع سمانيات والواحدة سمناة كمناجاة: نوع من الطيور.

(3/365)

ثم اهتدى: أي بالاستقامة على الإيمان والتوحيد والعمل الصالح حتى الموت.
معنى الآيات:

إنه بعد الجدل الطويل والخصومة الشديدة التي دامت زمناً غير قصير وأبى فيها فرعون وقومه قبول الحق والإذعان له أوحى تعالى إلى موسى عليه السلام بما أخبر به في قوله عز وجل: {ولقد أوحينا إلى موسى} وبأي شيء أوحى إليه. بالسرى ببني إسرائيل وهو قوله تعالى {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي} قوله {فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً} 1 أي اجعل لهم طريقاً في وسط البحر، وذلك حاصل بعد ضربه البحر بالعصي فانفلق البحر فرقتين والطريق وسطه يابساً لا ماء فيه حتى اجتاز بنو إسرائيل البحر، ولما تابعهم فرعون ودخل البحر بجنوده أطبق الله تعالى عليهم البحر فأغرقهم أجمعين، بعد أن نجى موسى وبني إسرائيل، وهو معنى قوله تعالى: {فأتبعهم فرعون

بجنوده فغشيهم من اليم} أي من ماء البحر {ما غشيهم}3 أي الشيء العظيم من مياه البحر. وقوله لموسى {لا تخاف4 دركاً ولا تخشى} أي لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى غرقاً في البحر.

وقوله تعالى: {وأضل فرعون قومه وما هدى5} إخبار منه تعالى أن فرعون أضل أتباعه حيث حرمهم من الإيمان بالحق واتباع طريقه، ودعاهم إلى الكفر بالحق وتجنب طريقه فاتبعوه على ذلك فضلوا وما اهتدوا، وكان يزعم أنه ما يهديهم إلا سبيل الرشاد وكذب.

وقوله تعالى: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} أي فرعون، {وواعدناكم جانب الطور الأيمن} أي مع نبينا موسى لإنزال التوراة لهدايتكم وحكمهم بشرائعها، وأنزلنا عليكم المن والسلوى غذاء لكم في النية، {كلوا من طيبات ما رزقناكم} أي قلنا لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلال الطعام والشراب، {ولا تطغوا فيه} بترك

1 اليبس: محرّك الياء والباء، وتسكن الباء أيضاً: وصف بمعنى اليابس وأصله مصدر كالقدم، والعدم بفتح العين وضمها.

2 قرىء: {فأتبعهم} وبالياء في بجنوده للمصاحبة فهي بمعنى مع أي مع جنوده.

3 ما غشهم في هذا تهويل عظيم لما غشيهم من الماء الذي غمرهم وغطّاهم بحيث يستحيل النجاة معه.

4 {دركاً} أي: لاحقاً بك وبمن معك من بني إسرائيل.

5 {وما هدى}: توكيد لقوله: {فأضل قومه} لأن الهدى ضد الضلال فما دام قد أضلهم فإنه ما هداهم كقوله: {أموات غير أحياء} وكقول الشاعر:

إما ترينا حفاة لا نعال لنا

إنا كذلك ما نحفى وننتعل

وفي الآية: التهكم بفرعون إذ قال لهم: وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

(3/366)

الحلال إلى الحرام وبالأسراف في تناوله وبعدم شكر الله تعالى، وقوله تعالى: {فيحل عليكم غضبي} أي أن أنتم طغيتم فيه. {ومن يحلل عليه غضبي} أي ومن يجب عليه غضبي {فقد هوى} أي في قعر جهنم وهلك.

وقوله تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى}1 {يعدهم تعالى بأن يغفر لمن تاب منهم ومن غيرهم فآمن وعمل صالحاً أي أدى الفرائض واجتنب المناهي ثم استمر على ذلك

ملازماً له حتى مات.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا القصص لا يقصه إلا بوحي إليه إذ لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي الإلهي.

2- آية انفلاق البحر ووجود طريق يابس فيه لبني إسرائيل حتى اجتازوه دالة على جود الله تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته.

3- تذكير اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية بإنعام الله تعالى على سلفهم لعلهم يشكرون فينبون فيسلمون.

4- تحريم الإسراف والظلم، وكفر النعم.

5- الغضب صفة لله تعالى كما يليق ذلك بجلاله وكماله لا كصفات المحدثين.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَىي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ

1 ثم اهتدى بأن لزم طريق الهداية حتى مات على ذلك أما من تاب وعمل صالحاً ثم ضل بعد ذلك ومات على ضلالة، فلا يناله هذا الوعد ففي قوله : {ثم اهتدى} احتراس ممن يتوب ثم يعود فيموت على غير هداية.

(3/367)

الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

شرح الكلمات:

وما أعجلك: أي شيء جعلك تترك قومك وتأتي قبلهم.

هم على أثري: أي أتون بعدي وليسوا ببعيدي مني.

وعجلت إليك ربي لترضى: أي استعجلت المجيء إليك طلباً لرضاك عني.

قد فتنا قومك: أي ابتليناهم أي بعبادة العجل.

وأضلهم السامري : أي عن الهدى الذي هو الإسلام إلى الشرك وعبادة غير الرب تعالى.
غضبان أسفاً : أي شديد الغضب والحزن.
وعداً حسناً: أي بأن يعطيكم التوراة فيها نظام حياتكم وشريعة ربكم لتكملوا عليها وتسعدوا.
أفطال عليكم العهد: أي مدة الموعد وهي ثلاثون يوماً قبل أن يكملها الله تعالى أربعين يوماً.
فأخلفتم مواعيدي : بترككم المجيء بعدي.
بملكنا 1: أي بأمرنا وطاقنا، ولكن غلب علينا الهوى فلم نقدر على انجاز الوعد بالسير وراءك.

1 ميم ملكنا مثلثة تفتح وتضم وتكسر والمعنى واحد كما في التفسير أي: لم يكن ذلك بإرادتنا واختيارنا.

(3/368)

أوزاراً: أي أحمالاً من حلي نساء الأقباط وثيابهن.
فقدناها: أي القيناها في الحفرة بأمر هارون عليه السلام.
ألقى السامري : السامري هو موسى بن ظفر من قبيلة سامرة 1 الإسرائيلية، وما ألقاه هو التراب الذي أخذه من تحت حافر فرس جبريل ألقاه أي قذفه على الحلي.
عجلاً جسداً : أي ذا جثة.
له خوار: الخوار صوت البقر.
فنسي: أي موسى ربه هنا وذهب يطلبه.
ألا يرجع إليهم قولاً: أنه لا يكلمهم إذا كلموه لعدم نطقه بغير الخوار.
معنى الآيات:

بعد أن نجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وملائه حيث اجتاز بهم موسى البحر وأغرق الله فرعون وجنوده أخبرهم موسى أن ربه تعالى قد أمره أن يأتيه ببني إسرائيل وهم في طريقهم إلى أرض المعاد إلى جبل الطور ليؤتيهم التوراة فيها شريعتهم ونظام حياتهم دنيا ودينا وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، واستعجل 2 موسى في المسير إلى الموعد فاستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل ليسير بهم وراء موسى ببطء حتى يلحقوا به عند جبل الطور، وحدث أن بني إسرائيل فتنهم السامري بصنع العجل ودعوتهم إلى عبادته وترك المسير وراء موسى عليه السلام فقوله تعالى: {وما أعجلك عن قومك يا موسى} هو سؤال من الله تعالى لموسى ليخبره بما جرى لقومه بعده وهو لا يدري فلما قال تعالى لموسى: {وما أعجلك} عن المجيء وحدك دون بني إسرائيل مع ان الأمر أنك تأتي معهم أجاب موسى بقوله

1 نفي بعضهم أن تكون هناك قبيلة من بني إسرائيل تدعى السامرة وإنما السامرة أمة من سكان فلسطين في جهة نابلس قبل أن تكون فلسطين لبني إسرائيل، ثم امتزجوا ببني إسرائيل لما دخلوها واتبعوا معهم شريعة موسى، وبما أن السامري كان في مصر جائز أن يكون من قرية بمصر تسمى سامرة، والمراد من هذا أن السامري لم يكن من بني إسرائيل أصلاً ومحتدماً ثم بمرور الأيام وجدت طائفة من بني إسرائيل تدعى السامرية، وهي عبارة عن طريقة ضالة تنتمي إلى شريعة التوراة وهي منحرفة فنشأت عن فتنة السامري الأولى كالطرق المنحرفة لدى المسلمين.

2 لهذا الاستعجال لآمه ربه وعتب عليه في قوله: {لوما أعجلك من قومك يا موسى} حتى تركتهم وجئتنا وحدك، وقد ترتب على هذا الاستعجال شر كبير باتخاذ بني إسرائيل عجلًا عبوده دون الله تعالى، ولذا قيل: تأن ففي العجلة الندامة وفي التأني السلامة.

(3/369)

{هم أولاء على أثري 1} أتون بعدي، وعجلت المجيء إليك لترضى عني. هنا أخبره تعالى بما حدث لقومه فقال عز وجل: {إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري} أي بصنع العجل لهم ودعوتهم إلى عبادته بحجة انه الرب تعالى وأن موسى لم يهتد إليه. ولما انتهت المناجاة وأعطى الله تعالى موسى الألواح التي فيه التوراة {فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً} أي حزينا إلى قومه فقال لهم بما أخبر تعالى عنه بقوله: {قال يا قوم 2 ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً} فذكرهم بوعد الله تعالى لهم بإنجائهم من آل فرعون وإكرامهم بالملك والسيادة مويخاً لهم على خطيئتهم بتخلفهم عن السير وراءه وانشغالهم بعبادة العجل والخلافات الشديدة بينهم، وقوله {أفطال عليكم 3 العهد} أي لم يطل فالمدة هي ثلاثون يوماً فلم تكتمل حتى فتنتم وعبدتم غير الله تعالى، قوله {أم أردتم أن 4 يحل عليكم غضب من ربكم} أي بل أردتم بصنيعكم الفاسد أن يجب عليكم غضب من ربكم فحل بكم، {فأخلفتم موعدني 5} بعكوفكم على عبادة العجل وترككم السير على أثرى لحضور موعد الرب تعالى الذي واعدكم.

وقوله تعالى {قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} هذا ما قاله قوم موسى كالمعتزين به إليه فزعموا أنهم ما قدروا على عدم اخلاف الموعد لغلبة الهوى عليهم فلم يطبقوا السير وراءه مع وجود العجل وما ضللهم به السامري من أنه هو إلههم وأن موسى أخطأ الطريق إليه. هذا معنى قولهم: {لما أخلفنا موعدك بملكنا} أي بأمرنا وقدرتنا إذ كنا مغلوبين على أمرنا. وقولهم: {لولكنا حملنا 6 أوزاراً من زينة القوم فقذفناها} هذا بيان لوجه الفتنة وسببها وهي أنهم لما كانوا خارجين من مصر استعار نساءهم حلياً من نساء القبط بدعوى عيد لهم،

-
- 1 أثري، وإثري: لغتان، والأثر: ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف، والمعنى: هم سائرون على مواضع أقدامي وقرىء (إثري) بكسر الهمزة والجمهور قرؤا بالفتح.
 - 2 هذا ابتداء كلام يحمل اللوم والعتاب والتأديب حيث جمع موسى بني إسرائيل وفيهم هارون وخاطبهم قائلاً: يا قوم.. الخ.
 - 3 الاستفهام تابع للاستفهام الأول: ألم يعدكم، وهو للتقرير والإنكار معاً.
 - 4 {أم} بمعنى: بل والاستفهام بعدها إنكاري أي: أنكر عليهم إرادتهم حلول غضب الله عليهم بسبب شركهم بعبادة العجل.
 - 5 المراد من موعدة إياهم: هو ما عهد به إليهم بأن يلزموا طاعة هارون ويسيروا معه بدون تأخر حتى يلحقوا به في جبل الطور فأخلفوا ذلك فعصوا هارون وعكفوا على عبادة العجل وتركوا السير على إثره كما طلب منهم.
 - 6 الأوزار: جمع وزر، وهو الحمل الثقيل والمراد بها: الحلي الذي استعاره نساؤهم من جاراتهن القبطيات بمصر بقصد الفرار به للنفع الخاص، وخافوا تلاشي الحلي فرأوا أن يصوغوه في قطع كبيرة يحفظ بها من الضياع.

(3/370)

وأصبحوا خارجين مع موسى في طريقهم إلى القدس، وتم إنجاؤهم وإغراق فرعون ولما نزلوا بالساحل استعجل موسى موعد ربه وتركهم تحت إمرة هارون أخيه على أن يواصلوا سيرهم وراء موسى إلى جبل الطور غير أن موسى الملقب بالسامري استغل الفرصة وقال لنساء بني إسرائيل هذا الحلي الذي عندكن لا يحل لكن أخذته إذ هي ودائع كيف تستحلونها وحفر لهم حفرة وقال ألقوها فيها وأوقد فيها النار لتحترق ولا ينتفع بها بعد، هذا ما دل عليه قولهم {ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم} أي قوم فرعون ففدفتناها أي في الحفرة التي أمر بها السامري وقوله تعالى، {فكذلك ألقى السامري}1 هو من جملة قول بني إسرائيل لموسى فكما ألقينا الحلي في الحفرة ألقى السامري ما معه من التراب الذي أخذته من تحت حافر فرس جبريل، فصنع السامري العجل فأخرجه لهم عجلاً جسداً2 له خوار أي صوت فقال بعضهم لبعض هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب إلى موعدة فنسي3 وضل الطريق إليه فاعبدوه حتى يأتي موسى. قال تعالى موبخاً إياهم {أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً} إذا كلموه، {ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً} فكيف يعقلون أنه إله وهو لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يعطيهم إذا طلبوه، ولا ينصرهم إذا استنصروه ولكنه الجهل والضلال وإتباع الهوى. والعياذ باللته تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- ذم العجلة وبيان آثارها الضارة فاستعجال موسى الموعد وتركه قومه وراءه كان سبباً في أمر عظيم وهو عبادة العجل وما تترب عليها من آثار جسام.
- 2- مشروعية طلب رضا الله تعالى ولكن بما يجب أن يتقرب به إليه.
- 3- مشروعية الغضب لله تعالى والحزن على ترك عبادته بمخالفة أمره ونهيه.
- 4- مشروعية استعارة الحلي للنساء والزينة، وحرمة جردها وأخذها بالباطل.
- 5- وجوب استعمال العقل واستخدام الفكر للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر.

1 أي: فمثل قذفنا الزينة في النار لصوغها قذف السامري، وقالوا هذا اعتذاراً منهم لموسى عليه السلام.

- 2 الجسد: الجسم ذو الأعضاء وسواء كان حياً أو ميتاً، والتعبير بأخرج الإشارة إلى أن السامري صنع العجل بحيلة مستورة خفية حتى أتمه ثم أظهره أي: أخرجه ظاهراً لنا.
- 3 إطلاق النسيان على الضلال والغفلة والترك شائع وسائغ في اللغة.

(3/371)

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)
قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا
(92) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

شرح الكلمات:

فتنتم به: أي ابتليتم به أي بالعجل.

لن نبرح عليه عاكفين: أي لن نزال عاكفين على عبادته.

إذ رأيتهم ضلوا: أي بعبادة العجل واتخاذها إلهاً من دون الله تعالى.

لا تأخذ بلحيتي: حيث أخذ موسى من شدة غضبه بلحية أخيه وشعر رأسه يجره إليه يعذله ويلوم عليه.

ولم ترقب قولي: أي ولم تنتظر قولي فيما رأيته في ذلك.

معنى الآيات:

مازال السياق في الحوار الذي دار بين موسى وقومه بعد رجوعه إليهم من المناجاة فقوله تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾ أي من قبل رجوع موسى قال لهم أثناء عبادتهم العجل يا قوم إن

العجل ليس إلهكم ولا إله موسى وإنما هو فتنة فتنتم به ليرى الله تعالى صبركم على عبادته ولزوم طاعة رسوله، وليرى خلاف ذلك فيجزى كلاً بما يستحق وقال لهم: {وإن ركب الرحمن} الذي شاهدتم آثار رحمته في حياتكم كلها فاذكروها

(3/372)

{فاتبعوني} في عبادة الله وحده وترك عبادة غيره {وأطيعوا أمري1} فإنني خليفة موسى الرسول فيكم فأجاب القوم الضالون بما أخبر تعالى عنهم بقوله: {قالوا لن نبرح عليه عاكفين} أي لن نزول عن عبادته والعكوف حوله {حتى يرجع إلينا موسى2} ولما سمع موسى من قومه ما سمع التفت إلى هارون قائلاً معاتباً عادلاً لا تماً {يا هرون ما منعك3 إذ رأيتهم ضلوا} أي بعبادة العجل {ألا تتبغني} أي بمن معك من المسلمين وتترك المشركين، {أفصيت4 أمري} ، ومن شدة الوجد وقوة اللوم والعدل أخذ بشعر رأس أخيه بيمينه وأخذ بلحيته بيساره وجره إليه وهو يعاتبه ويلوم عليه فقال هارون: {يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي} إن لي عذراً في عدم متابعتك وهو إنني خشيت إن أنا أتيتك ببعض قومك وهم المسلمون وتركت بعضاً آخر وهم عباد العجل {أن تقول فرقت بين بني إسرائيل} وذلك لا يرضيك. {ولم ترقب قولي} أي ولم تنتظر قولي فيما رأيت في ذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- معصية الرسول تؤدي إلى فتنة العاص في دينه ودنياه.
- 2- جواز العذل والعتاب للحبيب عند تقصيره فيما عهد به إليه.
- 3- جواز الاعتذار لمن اتهم بالتقصير وان حقا.
- 4- قد يخطيء المجتهد في اجتهاده وقد يصيب.

1 أي: لا أمر السامر أو: فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل فعصوه.
2 روي أنه لما قالوا هذه المقالة اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال: هذا صوت الفتنة فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وقال: يا هارون... الآية.
3 الاستفهام إنكاري إذ أنكرك عليه عدم متابعتك لما شاهد القوم يعبدون العجل إذ كان المفروض أن يتركهم ويلحق بموسى يخبره.

4 أمره هو قوله له عند مغادرة بني إسرائيل إلى جبل الطور، {اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين} فلما أقام معهم ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره

وهذا دليل على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لاسيما إذا كان راضياً حكمه كحكمهم، وفي هذه الآية دليل على بدعة الصوفية بدعة الرقص والتواجد، وأنها موروثه عن هؤلاء السامريين عبدة العجل والعياذ بالله تعالى.

(3/373)

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

شرح الكلمات:

فما خطبك : أي ما شأنك وما هذا الأمر العظيم الذي صدر منك.
بصرت بما لم يبصروا به : أي علمت من طريق الإبصار والنظر ما لم يعلموا به لأنهم لم يروه.
قبضة من أثر الرسول : أي قبضت قبضة من تراب أثر حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام.
فنبذتها: أي ألقيتها وطرحتها على الحلى المصنوع عاجلاً.
سولت لي نفسي: أي زينت لي هذا العمل الذي هو صنع العجل.
أن تقول لا مساس: أي اذهب تائها في الأرض طول حياتك وأنت تقول لا مساس أي لا يمسنى أحد ولا أمسه لما يحصل من الضرر العظيم لمن تمسه أو يمسك.
إلهك: أي العجل.
ظلت: أي ظلت طوال الوقت عاكفاً عليه.
في اليم نسفاً: أي في البحر ننسفه بعد إحراقه وجعله كالنشارة نسفاً.
إنما إلهكم الله: أي لا معبود لكم إلا الله الذي لا إله إلا هو.

(3/374)

معنى الآيات:

مازال السياق في الحوار بين موسى وقومه فبعد لومه أخاه وعذله له التفت إلى السامري المنافق إذ هو من عبادة البقر وأظهر الإسلام في بني إسرائيل، ولما اتاحت له الفرصة عاد إلى عبادة البقر فصنع العجل وعبده ودعا إلى عبادته فقال له: في غضب {فما خطبك يا سامري} أي ما شأنك وما

الذي دعاك إلى فعلك القبيح الشنيع هذا فقال السامري كالمعتذر {بصرت بما لم يبصروا به { أي علمت ما لم يعلمه قومك {فقبضت قبضة من أثر} حافر فرس {الرسول 1 فنبتتها} في الحلي المصنوع عجلًا فخار كما تخور البقر . {وكذلك سولت لي نفسي} ذلك أي زينته لي وحسنه ففعلته، وهنا أجابه موسى عليه السلام بما أخبر تعالى به في قوله: {قال فاذهب 2 فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس 3} أي لك مدة حياتك أن تقول لمن أراد أن يقربك لا مساس أي لا تمسني ولا أمسك لتنتيه طول عمرك في البرية مع السباع والحيوان عقوبة لك على جر يمتك، ولا شك أن فراره من الناس وفرار الناس منه لا يكون مجرد أنه لا يقرب في ذلك، بل لعله قيل إنها الحمى فإذا مس أحد حُمًا معاً أي أصابتها الحمى معاً كأنه اسلاك كهربائية مكشوفة من مسها تكهرب منها. وقوله له : {وإن لك موعداً لن تخلفه} ، أي ذاك النفي والطرده عذاب الدنيا، وإن لك عذاباً آخر يوم القيامة في موعد لن تخلفه أبداً فهو آت وواقع لا محالة.

وقوله: أي موسى للسامري: {وانظر إلى إلهك} المزعوم {الذي ظلت 4 عليه عاكفاً} تعبده لا تفارقه، والله {لنحرقنه ثم لننسفنه 5 في اليم نسفاً} وفعلاً حرقه ثم جعله كالنشارة

1 الرسول هنا: جبريل عليه السلام قاله جمهور المفسرين، وقالوا: إن السامري فتنه الله تعالى فأراه جبريل راكباً فرساً فوطىء حافر الفرس مكاناً فإذا هو مخضّر بالنبات، فعلم السامري أن أثر فرس جبريل إذا ألقى على جماد صار حياً، فقبض من تراب وطئه حافر الفرس واحتفظ به إلى اليوم، ولما صنع العجل ألقاه عليه فصار له خوار كالعجل الحيوان.

2 نفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله

ألا لا تريد السامري مساسا

هذه المسألة أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

3 (لا مساس): المساس مصدر ماسه يماسه ومساسا. ولا: نافية للجنس ومساس: اسمها مبني على الفتح.

4 ظلت: أي: دمت وأقيمت عليه عاكفاً أي: ملازماً وأصل ظلت: ظلت قال الشاعر:

خلا أنّ العتاق من المطايا

أحسن به فهن إليه شوس

فأحسن أصله: أحسن حذف إحدى السينين كما حذف إحدى اللامين.

5 النفس: نقض الشيء ليذهب به الريح، وهو: التذرية، والمنسف آلة ينسف بها الشيء، والنسافة: ما يسقط منه.

وذره في البحر تدرية حتى لا يعثر له على أثر، ثم قال لأولئك الذين عبدوا العجل المغرر بهم المضللين: {إنما إلهكم} الحق الذي تجب له العبادة والطاعة {الله الذي لا إله إلا هو} وسع كل شيء علماً {أي وسع علمه كل شيء فهو عليم بكل شيء وقدير على كل شيء وما عداه فليس له ذلك وما لم يكن ذا قدرة على شيء وعلم بكل شيء فكيف يُعبد ويُطاع..!؟}

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- مشروعية الاستنطاق للمتهم والاستجواب له.

2- ما سولت النفس لأحد ولا زينت له شيئاً إلا تورط فيه إن هو عمل بما سولته له.

3- قد يجمع الله تعالى للعبد ذي الذنب العظيم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

4- مشروعية هجران المبتدع ونفيه وطرده فلا يسمح لأحد بالاتصال به والقرب منه.

5- كسر الأصنام والأوثان والصور وآلات اللهو والباطل الصارفة عن عباد الله تعالى.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)

شرح الكلمات:

كذلك : أي كما قصصنا عليك هذه القصة قصة موسى وفرعون و موسى وبني إسرائيل نقص عليك من أبناء الرسل.

من لدنا ذكراً : أي قرآناً وهو القرآن الكريم.

1 لا العجل الذهبي الذي سولت نفس السامري الخبيثة صنعه.

من أعرض عنه: أي لم يؤمن به ولم يقرأه ولم يعمل به.

وزراً: أي حملاً ثقيلاً من الآثام.

يوم ينفخ في الصور: أي النفخة الثانية وهي نفخة البعث، والصور هو القرن.

زرَقاً: أي عيونهم زرق ووجوههم سود آية أنهم أصحاب الجحيم.
يتخافتون بينهم: أي يخفضون أصواتهم يتسارون بينهم من شدة الهول.
أمتلهم طريقة: أي أعدلهم رأياً في ذلك، وهذا كله لعظم الموقف وشدة الهول والفرع.
معنى الآيات:

بعد نهاية الحديث بين موسى وفرعون، وبين موسى وبنِي إسرائيل قال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {كذلك نقص عليك} أي قصصنا عليك ما قصصنا من نبأ موسى وفرعون وخبر موسى وبنِي إسرائيل نقص عليك {من أنباء ما قد سبق} أي أحداث الأمم السابقة ليكون ذلك آية نبوتك ووحينا إليك، وعبرة وذكرى للمؤمنين. وقوله تعالى: {وقد آتيناك من لدنا ذكراً}2 أي وتد أعطيناك تقضلاً منا ذكراً وهو القرآن العظيم يذكر به العبد ربه ويهتدي به إلى سبيل النجاة والسعادة، وقوله {من أعرض عنه} أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه {فإنه يحمل يوم القيامة وزراً} أي إثماً عظيماً لأنه لم يعمل صالحاً وكل عمله كان سيئاً لكفره وعدم إيمانه، {خالدين فيه} أي في ذلك الوزر في النار، وقوله {وساء لهم يوم القيامة حملاً} أي قبح ذلك الحمل حملاً يوم القيامة إذ صاحبه لا ينجو من العذاب بل يطرح معه في جهنم يخلد فيها وقوله {يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين} أي المكذبين بالدين الحق العاملين بالشرك والمعاصي {يومئذ} أي يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية {زرَقاً}3 أي الأعين مع اسوداد الوجوه وقوله: {يتخافتون بينهم} أي يتهامسون بينهم يسأل بعضهم بعضاً كم لبثتم في الدنيا وفي القبور فيقول البعض: {إن لبثتم4 إلاّ عشراً} أي ما لبثتم إلاّ

-
- 1 الكاف من كذلك في محل نصب لأنها بمعنى مثل: نعت لمصدر محذوف تقديره: نقص عليك قصصاً من أنباء ما قد سبق مثل ما قصصنا عليك هذا القصص.
 - 2 ويطلق الذكر على الشرف أيضاً، وعلى ما يذكر به الله تعالى من قول والمراد به هنا القرآن الكريم.
 - 3 الزَّرَق: خلاف الكَحَل، والعرب تتشائم بزرق العيون وتذمه وسبب هذه الزرقة هو شدة العطش.
 - 4 أي: في الدنيا أو في القبور.

(3/377)

عشر ليال، وقوله تعالى: {نحن أعلم1 بما يقولون إذ يقول أمتلهم طريقة} أي أعد لهم رأياً {إن لبثتم إلاّ يوماً}، وهذا النقال للزمن الطويل سببه هول القيامة وعظم ما يشاهدون فيها من ألوان الفرع والعذاب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يقص تعالى عليه أنباء ما قد سبق بعد قصه عليه أنباء موسى وفرعون بالحق، وإيتائه القرآن الكريم.
 - 2- كون القرآن ذكراً للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين.
 - 3- سوء حال المجرمين يوم القيامة، الذين أعرضوا عن القرآن الكريم.
 - 4- عظم أهوال يوم القيامة حتى ينقال معها المرء مدة الحياة الدنيا التي هي آلاف الأعوام.
- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112)

1 {نحن أعلم بما يقولون}: جملة معترضة قول الأولين : { إن لبثتم إلا عسرا} نظروا فيه إلى أن تغير الأجسام يتم في عشرة أيام، والذي قال يوماً نظر إلى أن الأجسام ما تغيرت إذ قد أعيدت كما كانت.

(3/378)

شرح الكلمات:

- يسألونك عن الجبال : أي المشركون عن الجبال كيف تكون يوم القيامة.
- فقل ينسفها ربي نسفاً: أي يفتتها ثم تذررها الرياح فتكون هباء منبثاً.
- قاعا صفصفا: أي مستويًا.
- عوجا ولا أمتا: أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.
- الداعي .: أي إلى المحشر يدعوهم إليه للعرض على الرب تعالى.
- وخشعت الأصوات: أي سكنت فلا يسمع إلا الهمس وهو صوت الأقدام الخفي.
- ورضي له قولاً: بأن قال لا إله إلا الله من قلبه صادقاً.
- ولا يحيطون به علما : الله تعالى ما بين أيدي الناس وما خلفهم، وهم لا يحيطون به علما.
- وعنت الوجوه للحي القيوم: أي ذلت وخضعت للرب الحي الذي لا يموت.
- من حمل ظلماً: أي جاء يوم القيامة يحمل أوزار الظلم وهو الشرك.

ظلماً ولا هضماً : أي لا يخاف ظلماً بأن يزداد في سيئاته ولا هضماً بأن ينقص من حسناته.
معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله: {ويسألونك} أي المشركين من قومك المكذبين بالبعث والجزاء {عن الجبال} عن مصيرها يوم القيامة فقل 1 له: {ينسفها ربي نسفاً} 2 فيذرها 3 قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً { 4 أي أجبهم بأن الله تعالى يفتتها ثم ينسفها فتكون هباء منبثاً، فيترك أماكنها قاعاً صفصفاً أي أرضاً مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً أي لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً. وقوله

- 1 قال القرطبي كل سؤال في القرآن أجيب بقل إلاّ هذا فب: فقل لأن المعنى إن سألك فقل فتضمن الكلام معنى الشرط، وهو يقترب بالفاء دائماً.
- 2 قال ابن الأعرابي وغيره يقلعها قلعاً من أصولها ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا أو هكذا ثم كالهباء المنثور.
- 3 (فيذرها): أي: يذر مواضعها قاعاً صفصفاً، القاع: الأرض الملساء لا نبات فيها، ولا بناء عليها وهي مستو، وجمع القاع: أقواع وقيعان.
- 4 الأمت: المكان المرتفع كالنبتك، وهو التل الصغير، والعوج: الوهدة وهي الانخفاض كالعوج في الشيء أي: ليس في الأرض انخفاض ولا ارتفاع بل هي مستوية.

(3/379)

{يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً} أي يوم تقوم القيامة فيُنشرون يدعوهم الداعي هلموا إلى أرض المحشر فلا يميلون عن صوته يمنةً ولا يسرةً وهو معنى لا عوج له. وقوله تعالى: {وخشعت الأصوات للرحمن} أي ذلت وسكنت {فلا تسمع إلاّ همساً} وهو صوت خفي كأصوات خفاف الإبل إذا مشت وقوله تعالى: {يومئذ لا تنفع الشفاعة عنده، إلاّ من أذن له الرحمن ورضى له قولاً} أي يُخبر تعالى أنهم يوم جمعهم للمحشر لفصل القضاء لا تنفع شفاعة أحد أحداً إلاّ من أذن له الرحمن في الشفاعة، ورضى له قولاً أي وكان المشفوع فيه من أهل التوحيد أهل لا إله إلاّ الله وقوله {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون به علماً} أي يعلم ما بين أيدي أهل المحشر أي ما يسيحكم به عليهم من جنة أو نار، وما خلفهم مما تركوه من أعمال في الدنيا، وهم لا يحيطون به عز وجل علماً، فلذا سيكون الجزاء عادلاً رحيماً، وقوله: {وعنت 1 الوجوه للحي القيوم} 2 أي ذلت وخضعت كما يعنو بوجهه الأسير، والحي القيوم هو الله جل جلاله وقوله تعالى: {وقد خاب} أي خسر {من حمل ظلماً} ألا وهو الشرك والعياذ بالله وقوله تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن} والحال أنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والبعث

الآخر 3 فهذا لا يخاف ظلماً بالزيادة في سيئاته، ولا هضماً بنقص من حسناته، وهي عدالة الله تعالى تتجلى في موقف الحساب والجزاء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان جهل المشركين في سؤالهم عن الجبال.
- 2- تقرير مبدأ البعث الآخر.
- 3- لا شفاعاة لغير أهل التوحيد فلا يشفع مشرك، ولا يشفع لمشرك.
- 4- بيان خيبة المشركين وفوز الموحيدين يوم القيامة.

1 ومنه قيل للأسير عانٍ، قال أمية بن الصلت:

ملك على عرش السماء مهيم

لعزته تعنو الوجوه وتسجد

2 القيوم: أي: القائم بتدبير الخلق، والقائم على كل نفس بما كسبت.

3 والقدر خيره وشره.

(3/380)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

شرح الكلمات:

وكذلك أنزلناه: أي مثل ذلك الإنزال أنزلنا قرآناً عربياً أي بلغة العرب ليفهموه.

وصرفنا فيه من الوعيد: أي من أنواع الوعيد، وفنون العذاب الدنيوي والأخروي.

أو يحدث لهم ذكراً: أي بهلاك الأمم السابقة فيتعظون فيتوبون ويسلمون.

فتعالى الله الملك الحق. أي عما يقول المفترون ويشرك المشركون.

ولا تعجل بالقرآن: أي بقراءته.

من قبل أن يقضى إليك وحيه: أي من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته عليك.

عهدنا إلى آدم: أي وصيناها أن لا يأكل من الشجرة.

فنسي: أي عهدنا وتركه.

ولم نجد له عزمًا: أي حزمًا وصبراً عما نهيناه عنه.

معنى الآيات:

يقول تعالى {وكذلك 1 أنزلناه قرآناً عربياً} أي ومثل ما أنزلنا من تلك الآيات المشتملة

1 هذه الجملة معطوفة على جملة: كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق إذ الغرض واحد وهو التنويه بشأن القرآن وتقرير الوحي له صلى الله عليه وسلم.

(3/381)

على الوعد والوعيد أنزلنا القرآن بلغة العرب ليفهموه ويهتدوا به {وصرفنا فيه 1 من الوعيد} أي بينا فيه من أنواع الوعيد وكررنا فنون العذاب الدنيوي والأخروي لعل قومك أيها الرسول يتقون ما كان سبباً في إهلاك الأمم السابقة وهو الشرك والتكذيب والمعاصي {أو يحدث لهم 2 ذكراً} أي يوجد لهم ذكراً في أنفسهم فيتعظون فيتوبون من الشرك والتكذيب للرسول ويطيعون ربهم فيكملون ويسعدون هذا ما دلت عليه الآية الأولى (113).

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى {فتعالى الله الملك الحق} فإن الله تعالى يخبر عن علوه عن سائر خلقه وملكه لهم وتصرفه فيهم وقهره لهم، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ مَنْزَرَهُ عَنِ الشَّرِكِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ كُلِّ نَقْصٍ يَصِفُهُ بِهِ الْمُفْتَرُونَ الْكَاذِبُونَ.

وقوله: {ولا تعجل 3 بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه} يُعَلِّمُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ كَيْفِيَةَ تَلْقَى الْقُرْآنَ عَنْ جَبْرِئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُرْشِدُهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْجَلَ فِي قِرَاءَةِ الْآيَاتِ وَلَا فِي إِمْلَائِهَا عَلَى أَصْحَابِهَا وَلَا فِي الْحُكْمِ بِهَا حَتَّى يَفْرَغَ جَبْرِئِلُ مِنْ قِرَاءَتِهَا كَامِلَةً عَلَيْهِ وَبَيَانِ مَرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا فِي إِنْزَالِهَا عَلَيْهِ. وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَهُ الْمَزِيْدَ مِنَ الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: {وقل رب زدني علماً}، وفيه إشعار بأنه دائماً في حاجة إلى المزيد، ولذا فلا يستعجل ولكن يتريث ويتمهل، وهذا علماء أمته أحوج إليه منه صلى الله عليه وسلم فالاستعجال في الفُتْيَا وفي إصدار الحكم كثيراً ما يخطيء صاحبهما. وقوله تعالى: {ولقد 4 عهدنا إلى آدم من قبل فنسي 5 ولم نجد له عزماً 6} يقول تعالى مخبراً رسوله والمؤمنين ولقد وصينا آدم من قبل هذه الأمم التي أمرناها ونهيناها فلم يطع أكثرها وصيناها بأن لا يطيع عدوه إبليس وأن لا يأكل من الشجرة فترك وصيتنا ناسياً لها غير مبال بها

1 التصريف: التنويع والتفنين، والوعيد هنا للتهديد.

2 لعله يحدث لهم ذكراً: فيه بيان أنهم قبل نزول القرآن وسماعه لم يكونوا يذكرون الله في توحيده ولا في وعده ووعيده ولا في شرعه وأحكامه.

3 عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن

يفرغ من الوحي حرصاً منه صلى الله عليه وسلم على الحفظ وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه تعالى عن ذلك فأُنزل: {ولا تعجل بالقرآن} وقال الحسن نزلت هذه الآية في رجل لطم وجه امرأته فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص فنزل: {الرجال قوامون على النساء} وأبى الله ذلك. ولهذا قال له: {وقل رب زدني علماً} وفي هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أن حرصه في حفظ القرآن محمود.

4 قال ابن زيد: نسي ما عهد الله إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس.

5 العهد المنسي هو ما جاء في قوله تعالى: {فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة} من هذه السورة.

6 فسر العزم بالصبر والثبات أمام الإغراء.

(3/382)

وأطاع عدوه وأكل من الشجرة، ولم نجد له عزمًا بل ضعف أمام الإغراء والتزيين فلم يحفظ العهد ولم يصبر على الطاعة، فكيف إذاً بغير آدم من سائر ذرياته فلذا ينبغي أن لا تأسى ولا تحزن على عدم إيمان قوعك بك واستجابتهم لدعوتك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان الحكمة من إنزال القرآن باللسان العربي وتصريف الوعيد فيه.
 - 2- إثبات علو الله تعالى وقهره لعباده وملكه لهم وتنزهه عن الولد والشريك وكل نقص يصفه به المبطلون.
 - 3- استحباب التريث والتأني في قراءة القرآن وتفسيره وإصدار الحكم والفتيا منه.
 - 4- الترغيب في طلب العلم والمزيد من التحصيل العلمي وإشعار النفس بالجهل والحاجة إلى العلم.
 - 5- التسلية بنسيان آدم وضعف قلبه أمام الإغراء الشيطاني.
- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)

(3/383)

شرح الكلمات:

وإذ قلنا للملائكة: أي اذكر قولنا للعظة والاعتبار.
إلا إبليس أباي: أي امتنع من السجود لكبر في نفسه إذ هو ليس من الملائكة وإنما هو أبو الجان
كان مع الملائكة يعبد الله معهم.
عدو لك ولزوجك: أي حواء ومعنى عدو أنه لا يحب لكما الخير بل يريد لكما الشر.
فتشقى: أي بالعمل في الأرض إذ تزرع وتحصد وتطحن وتخبز حتى تتغذى.
لا تظماً فيها ولا تضحى: أي لا تعطش و لا يصيبك حر شمس الضحى المؤلم في الأرض.
شجرة الخلد: أي التي يخلد من أكل منها.
وملك لا يبلى: أي لا يفنى ولا يبيد ولازم ذلك الخلود.
فبدت لهما سوءاتهما: أي ظهر لكل منهما قُبَلٌ صاحبه ودُبُرُهُ فاستاءا لذلك.
وظفقا يخصفان: أي أخذوا وجعلا يلزقان ورق الشجر عليهما سترًا لسوءاتهما.
فغوى: أي بالأكل من الشجرة المنهي عنها.
فاجتباه ربه فتاب عليه: أي اختاره لولايته فهدها للتوبة فتاب ليكون عبداً صالحاً.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى ضعف آدم عليه السلام حيث عهد الله إليه بعدم طاعة إبليس حتى لا يخرجوه هو
وزوجه من الجنة، وأن آدم نسي العهد فأكل من الشجرة ناسب ذكر قصة آدم بتمامها ليكون هو
عظة للمتقين وهدى للمؤمنين فقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم واذكر {وإذ قلنا للملائكة
اسجدوا لآدم} وسجودهم عبادة لله تعالى وتحية لآدم لشرفه وعلمه. فامتثلت الملائكة أمر الله
{فسجدوا} كلهم أجمعون {إلا إبليس أباي} أن يسجد لما داخله من الكبر ولأنه لم يكن من الملائكة بل
كان من الجن إلا أنه كان يتعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء. هذا ما دلت عليه الآية الأولى
(116).

وقوله تعالى {فقلنا يا آدم} أي بعد أن تكبر إبليس عن السجود لآدم نصحننا آدم وقلنا له {إن هذا} أي
إبليس {عدو لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى} أي فلا تطيعانه

(3/384)

فإن طاعته تكون سبب إخراجكما من الجنة ومتى خرجتما منها شقيتما، ووجه الخطاب إلى آدم في
قوله تعالى: فتشقى لأن المراد من الشقاء هنا العمل كالزراع والحصاد وغيرهما مما هو ضروري

للعيش خارج الجنة والزوج هو المسئول عن إعاشة2 زوجته فهو الذي يشقى دونها، وقوله تعالى لآدم {إن لك ألا تجوع فيها} أي في الجنة {ولا تعرى}، {وإنك لا تضماً فيها} أي لا تعطش {ولا تضحى}3 أي لا تتعرض لحر شمس ضحى كما هي في الأرض والخطاب وإن كان لآدم فحواء تابعة له بحكم رئاسة الزوج على زوجته، ومن الأدب خطاب الرجل دون امرأته إذ هي تابعة له وقوله تعالى: {فوسوس إليه الشيطان} أي ناداه من طريق الوسوسة. {يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد4 وملك لا يبلى} فقبل منه ذلك آدم واستجاب لوسوسته فأكلت حواء أولاً ثم أكل آدم وهو قوله تعالى {فأكلا منها} فترتب على ذلك انكشاف سوءاتهما لهما بذهاب النور السائر لهما بسبب المعصية لله تعالى وقوله تعالى {فطفقا يخصفان عليهما} من ورق الشجر أي فأخذا يشدان ورق الشجر على عوراتهما سترًا لهما لأن منظر العورة يسوء الآدمي ولذلك سميت العورة سوءة وهكذا عصى آدم ربه باستجابته لوسواس عدوه وأكله من الشجرة، فبذلك5 غوى، إلا أن ربه تعالى اجتباه أي نبياً وقربه ولياً {فتاب6 عليه وهدى} وهده للعمل بطاعته ليكون من جملة أصفياؤه وصالح عباده. والحمد لله ذي الإنعام والإفضال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة المحمدية بذكر مثل هذا القصص الذي لا يعلم إلا بالوحي الإلهي.

1 هذا مبدأ: أنّ نفقة الزوجة على زوجها. وأن النفقة الواجبة محصورة في الطعام والشراب والكسوة والسكن.

2 قال الحسن: المراد بالشقاء: شقاء الدنيا لا يرى ابن آدم فيها إلا ناصبا.

3 يقال: ضحيت للشمس ضحاًء: برزت، وضحيت بفتح الحاء مثله والمضارع أضحى، والأمر إضح، ومنه قول عمر في عرفة لرجل لازم الخيمة إضح لمن جئت له.

4 روى أبو داود واحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد".

5 كان هذا قبل النبوة، ومن أذنب مرّة واحدة لا يقال له مذنب ولا غاو ولاسيما بعد التوبة.

6 ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حاجّ موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه أتولمني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحجّ آدم موسى".

-
- 2- تقرير عداوة إبليس لبني آدم.
- 3- بيان أن الجنة لا نصب فيها ولا تعب، وإنما ذلك في الأرض.
- 4- التحذير من أخطار الاستجابة لوسوسة إبليس فإنها تُردى صاحبها.
- 5- ضعف المرأة وقلة عزمها فقد أكلت قبل آدم فسهلت عليه المعصية.
- 6- كون المرأة تابعة للرجل وليس لها أن تستقل بحال من الأحوال.
- 7- حرمة كشف العورات ووجوب سترها.
- 8- إثبات نبوة آدم وتوبة الله عليه وقبولها منه وهدايته إلى العمل بمحابه وترك مكارهه.
- قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127)
- شرح الكلمات:

قال اهبطا منها جميعاً : أي آدم وحواء من الجنة وإبليس سبق أن أبلس وهبط.
بعضكم لبعض عدو : أي آدم وحواء وذريتهما عدو لإبليس وذريته، وإبليس وذريته عدو لآدم وحواء وذريتهما.

فإمّا يأتينكم مني هدى : أي فإن يأتينكم مني هدى وهو كتاب ورسول.
فمن اتبع هداي : أي الذي أرسلت به رسولي وهو القرآن.

(3/386)

فلا يضل : أي في الدنيا.
ولا يشقى : في الآخرة.
ومن أعرض عن ذكري : أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه.
معيشة ضنكاً: أي ضيقة تضيق بها نفسه ور يسعد بها ولو كانت واسعة.
أعمى : أي أعمى البصر لا يبصر.
وقد كنت بصيراً : أي ذا بصر في الدنيا وعند البعث.
قال كذلك : أي الأمر كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكما نسيتها تنسى في جهنم.
وكذلك نجزي من أسرف : أي وكذلك الجزاء الذي جازينا به من نسي آياتنا نجزي من أسرف في

المعاصي ولم يقف عند حد، و لم يؤمن بآيات ربه سبحانه وتعالى.
أشد وأبقى : أي أشد من عذاب الدنيا وأدوم فلا ينقضي ولا ينتهي.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة آدم إنه لما أكل آدم وحواء من الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وعاتبهما ربهما بقوله في آية غير هذه { ألم أنهكما 1 عن تلكم الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين } وأنزل على آدم كلمة التوبة 2 فقالها مع زوجته فتاب الله عليهما لما تم كل ذلك قال { اهبطا 3 منها } أي من الجنة { جميعاً } إذ إبليس العدو قد أبليس من قبل وطرد من الجنة فهبطوا جميعاً. وقوله: { فإمّا يأتينكم مني هدى } أي بيان عبادتي تحمله كتبي وتبينه رسلي، { فمن اتبع هداي } فآمن به وعمل بما فيه { فلا يضل } في حياته { ولا يشقى 4 } في آخرته

1 هي قوله تعالى: { قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين } من سورة الأعراف وأخبر تعالى عنها في سورة البقرة في قوله تعالى: { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم }.

2 الآية من سورة الأعراف.

3 الخطاب لآدم وإبليس وحواء تابعة لزوجها بقرينة: { بعضكم لبعض عدو }.

4 قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وتلا هذه الآية.

(3/387)

{ومن أعرض عن ذكرى} أي فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه {فإن له} أي جزاءً منا له {معيشة ضنكاً 1} أي ضيقة تضيق بها نفسه فلم يشعر بالغبطة والسعادة وإن اتسع رزقه كما يضيق عليه قبره ويشقى فيه طيلة حياة البرزخ، ويحشر يوم القيامة أعمى لا حجة له ولا بصر يبصر به. وقد يعجب لحاله ويسأل ربه {لم حشرتني أعمى وقد كنت} في الدنيا وفي البعث {بصيراً} فيجيبه ربه تعالى بقوله: {كذلك} أي الأمر كذلك كنت بصيراً وأصبحت أعمى لأنك {أنتك آياتنا} تحملها كتبنا وتبينها رسلنا {ففسيتها} أي تركتها ولم تلتفت إليها معرضاً عنها فاليوم تترك في جهنم منسياً كذلك وقوله تعالى في الآية الآخرة (127) {وكذلك نجزي من أسرف} في معاصينا فلم يقف عند حد ولم يؤمن بآيات ربه فنجعل له معيشة ضنكاً في حياته الدنيا وفي البرزخ {ولعذاب الآخرة أشد} 2 من عذاب الدنيا {وأبقى} أي أدوم حيث لا ينقضي ولا ينتهي.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عداوة الشيطان للإنسان.
 - 2- عِدَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَشْقَى فِي آخِرَتِهِ.
 - 3- بيان جزاء من أعرض عن القرآن في الدنيا والآخرة.
 - 4- التنديد بالإسراف في الذنوب والمعاصي مع الكفر بآيات الله، وبيان جزاء ذلك.
- أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى (128)
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) وَلَا

1 {ضنكا} أي: ضيقًا، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، يستوي في الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال عنتره.

إِنْ يُلْحَقُوا أَكْرَرُ وَإِنْ يَسْتَلْحَمُوا
أَشَدُّ وَإِنْ يُلْفُوا بَضْنِكَ أَنْزَلُ
2 أي: من المعيشة الضنك.

(3/388)

تَمَدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْسَتِهِمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131)
وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)
شرح الكلمات:

أفلم يهد لهم: أي أفلم يبين لهم.
من القرون: أي من أهل القرون.
لآيات لأولى النهى: أي أصحاب العقول الراجحة إذ النهية العقل.
ولو لا كلمة سبقت: أي بتأخير العذاب عنهم.
لكان لزاماً: أي العذاب لازماً لا يتأخر عنهم بحال.
ما يقولون: من كلمات الكفر، ومن مطالبتهم بالآيات.
ومن آناء الليل: أي ساعات الليل واحداً إنِّي أو إنَّو.
لعلك ترضى: أي رجاء أن تثاب الثواب الحسن الذي ترضى به.
إلى ما متعنا به أزواجاً منهم: أي رجالاً منهم 1 من الكافرين.
زهرة الحياة الدنيا: أي زينة الحياة الدنيا وقيل فيها زهرة لأنها سرعان ما تبدل وتذوى.

لنفنتهم فيه : أي لنبتليهم في ذلك أيشكرون أم يكفرون.
والعاقبة للتقوى : العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.
معنى الآيات:

بعد ذكر قصة آدم عليه السلام وما تضمنته من هداية الآيات قال تعالى {أفلم يهدى لأهل مكة
المكذبين المشركين أي أغفلوا فلم يهد لهم أي يتبين {كم أهلكنا قبلهم من القرون} أي إهلاكنا للعديد
من أهل القرون الذين هم يمشون في مساكنهم ذاهبين جاثين

1 أزواجاً: رجالاً ونساءً لأنَّ الرجل زوج والمرأة زوج والتعبير بلفظ أزواج لأجل الدلالة على العائلات
والبيوت أي: إلى ما متّعناهم به من مال وبنين.

(3/389)

كثمود وأصحاب مدين والمؤتفكات أهلكناهم بكفرهم ومعاصيهم فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا فينجوا
ويسعدوا. وقوله تعالى: {إن في ذلك} المذكور من الإهلاك للقرون الأولى {لآيات} أي دلائل واضحة
على وجوب الإيمان بالله ورسوله وطاعتها، {الأولى النهى} أي لأصحاب العقول أما الذين لا عقول
لهم لأنهم عطلوها فلم يفكروا بها فلا يكون في ذلك آيات لهم. وقوله تعالى {ولو لا كلمة سبقت 1 من
ربك} بأن لا تموت نفس حتى تستوفي أجلها، وأجل مسمن عند الله في كتاب المقادير لا يتبدل ولا
يتغير لكان عذابهم لازماً لهم لما هم عليه من الكفر والشرك والعصيان. وعليه {فاصبر} يا رسولنا
{على ما يقولون} من أنك ساحر وشاعر وكاذب وكاهن من كلمات الكفر، واستعن على ذلك
بالصلاة ذات الذكر والتسبيح {قبل طلوع الشمس} وهو صلاة الصبح {وقبل غروبها} وهو صلاة
العصر {ومن آناء الليل} أي ساعات الليل وهما صلاتا المغرب والعشاء، {وأطراف النهار} وهو
صلاة الظهر لأنها تقع بين طرفي النهار أي نصفه الأول ونصفه الثاني 2 وذلك عند زوال الشمس،
لعلك بذلك ترضى بثواب الله تعالى لك.

وقوله تعالى {ولا تمدن عينيك} أي لا تتطلع ناظراً {إلى ما متعنا به أزواجاً منهم} أشكالا في عقائدهم
وأخلاقهم وسلوكهم {زهرة 3 الحياة الدنيا} أي من زينة الحياة الدنيا {لنفنتهم فيه} أي لنختبرهم في ذلك
الذي متعناهم به من زينة الحياة الدنيا وقوله تعالى: {ورزق ربك} أي ما لك عند الله من أجر ومثوبة
خير وأبقي 4 خيراً في نوعه وأبقى في مدته، واختيار الباقي على الفاني مطلب العقلاء.
وقوله تعالى: {وأمر أهلك 5 بالصلاة واصطبر عليها} أي من أزواجك وبناتك وأتباعك

1 فيه تقديم وتأخير، الأصل: ولو لا كلمة سبقت وأجل مسبق لكان لازماً. أي لكان العذاب لازماً

لهم.

2 العنمة. واحد الأبناء: أني وإني وأني.

3 قال مجاهد: الأغنياء منهم، وبهذا يشمل النساء والرجال إذ كل منهما زوج فرجح هذا أنّ أزواجاً: مفعول به، ولا يتنافى هذا مع ما في التفسير لأن قولنا: أشكالاً في عقولهم وأخلاقهم وسلوكهم يعني: منطقاً الرجال الأزواج.

4 {زهرة} منصوب على الحال من الموصول. والزهرة: واحدة الزهور وهو نور الشجر والمراد هنا: الزينة المعجبة المبهرة في النساء والبنين والأنعام والبساتين والجنان.

5 الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وجميع أمته تابعة له في ذلك فكلّ مؤمن يجب عليه أن يقيم الصلاة وأن يأمر أهله بذلك ويصبر. روي أنه لما نزلت هذه الآية كان صلى الله عليه وسلم "يذهب إلى بنته فاطمة كل صباح وقت الصلاة" وكان عمر رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يتمثل بالآية: وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ: {ولا تمدن عينك..} الآية.

(3/390)

المؤمنين بالصلاة ففيها الملاذ وفيها الشفاء من آلام الحاجة والخصاصة واصطبر عليها واحمل نفسك على الصبر على إقامتها. وقوله {لا نسألك رزقاً} أي لا نكلفك ما لا تعطيناها ولكن تكلف صلاة فأدأها على أكمل وجوهها. {نحن نرزقك} أي رزقك علينا، {والعاقبة للتقوى} أي العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى من عبادنا وهم الذين يخشوننا فيؤدون ما أوجبنا عليهم ويجتنبون ما حرمانا عليهم رهبة منا ورغبة فينا. هؤلاء لهم أحسن العواقب ينتهون إليها نصر في الدنيا وسعادة في الآخرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ العاقل من اعتبار بغيره.
- 2- بيان فضيلة العقل وشرف صاحبه وانتفاعه به.
- 3- وجوب الصبر على دعوة الله والاستعانة على ذلك بالصلاة.
- 4- بيان أوقات الصلوات الخمس والحصول على رضى النفس بثوابها.
- 5- وجوب عدم تعلق النفس بما عند أهل الكفر من مال ومتاع لأنهم ممتحنون به.
- 6- وجوب الرضا بما قسم الله للعبد من رزق انتظاراً لرزق الآخرة الخالد الباقي.
- 7- وجوب الأمر بالصلاة بين الأهل والأولاد والمسلمين والصبر على ذلك.

8- فضل التقوى وكرامة أصحابها وفوزهم بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

9- إقام الصلاة بين أفراد الأسرة المسلمة بيسر الله تعالى به أسباب الرزق، وتوسعته عليهم.

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي (134) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الْأَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

(3/391)

شرح الكلمات:

لولا1: أي هلاً فهي أداة تحضيض وحث على وقوع ما يذكر بعدها.

بآية من ربه: أي معجزة تدل على صدقه في نبوته ورسالته.

بينة ما في الصحف الأولى : أي المشتمل عليها القرآن العظيم من أنباء الأمم الماضية وهلاكهم بتكذيبهم لرسولهم.

من قبله: من قبل إرسالنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وإنزلنا كتابنا القرآن.

من قبل أن نزل ونخزي: أي من قبل أن يصيبنا الذل والخزي يوم القيامة في جهنم.

متربص: أي منتظر ما يؤول إليه الأمر.

فستعلمون : أي يوم القيامة.

الصراط السوي : أي الدين الصحيح وهو الإسلام.

ومن اهتدى : أي ممن ضل نحن أم أنتم.

معنى الآيات:

ما زال السياق مع المشركين طلباً لهدايتهم فقال تعالى مخبراً عن أولئك المشركين الذين متع الله رجالاً منهم بزهرة الحياة الدنيا أنهم أصروا على الشرك والتكذيب {وقالوا لولا2 يأتينا بآية} أي هلا يأتينا محمد بمعجزة كالتى أتى بها صالح وموسى وعيسى بن مريم تدل على صدقه في نبوته ورسالته إلينا. فقال تعالى راداً عليهم قولتهم الباطلة: {أو لم تأتهم بينة ما في 3 الصحف الأولى؟} أيطالبون بالآيات وقد جاءتهم بينة ما في الصحف الأولى بواسطة القرآن الكريم فعرفوا ما حل بالأمم التي طالبت بالآيات ولما جاءتهم الآيات كذبوا بها فأهلكهم الله. بتكذيبهم4 فما يؤمن هؤلاء المشركين المطالبين بالآيات أنها لو جاءتهم ما آمنوا بها فأهلكوا كما

1 لولا: أداة تحضيض وجملة: {أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى} حالية أي: قالوا ذلك،

والحال أنها أنتهم بينة ما في الصحف الأولى، فالاستفهام إنكاري، والبينة: الحجة، والصحف. كتب

- الأنبياء السابقين كقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصَّحَفِ الْأُولَىٰ صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ}.
2 أي: لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضروري أو بآية ظاهرة كناقاة صالح وعصا موسى أو هلاً يأتينا بالآيات التي نقترحها كتحويل جبال مكة.
3 هذه البيّنة هي محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه القرآن الكريم، محمد أمي لا يقرأ ولا يكتب، وقد جاء بما لم يأت به غيره من العلوم والمعارف والقرآن الكريم حوى علوم الأولين وقصصهم، وكل علم نافع في الحياتين فآية آية أعظم من هذه الآية، كما قال تعالى: {أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك كتاباً يتلى عليهم}؟!
4 قال القرطبي: فما يؤمنهم إن أنتهم الآيات أن يكون حالهم كحال أولئك.

(3/392)

أهلك المكذبين من قبلهم.
وقوله تعالى في الآية الثانية (134) {ولو أنا أهلكنهم 1 بعذاب من قبله} أي من قبل إرسالنا محمد وإنزلنا الكتاب عليه لقالوا للرب تعالى إذا وقفوا بين يديه: {ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك} فيما تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان والعمل الصالح وذلك من قبل أن نذل هذا الذل ونخزي هذا الخزي في نار جهنم. فإن كان هذا قولهم لا محالة فلم لا يؤمنون ويتبعون آيات الله فيعملون بما جاء فيها من الهدى قبل حلول العذاب بهم؟ وفي الآية الأخيرة قال تعالى لرسوله بعد هذا الإرشاد الذي أرشدهم إليه {قل كل متربص 2} أي كل منا متربص أي منتظر ما يؤول إليه الأمر {فتربصوا} ، فسيعلمون في نهاية الأمر وعندما توقفون في عرصات القيامة {من} هم {أصحاب الصراط السوي 3} الذي لا اعوجاج فيه وهو الإسلام الدين الحق، {ومن اهتدى} إلى سبيل النجاة والسعادة ممن ضل ذلك فخرس وهلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- المطالبة بالآيات سنة متبعة للأمم والشعوب عندما تعرض عن الحق وتتكر للعقل وهداياته.
- 2- الذلة والخزي تصيب أهل النار يوم القيامة لما فرطوا فيه من الإيمان والعمل الصالح.
- 3- في الآية إشادة إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "يحتج به على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله لم تجعل لي عقلاً انتفع به، ويقول الهالك في الفترة لم يأتني رسول ولا نبي ولو أتاني لك رسول أو نبي لكنت أطوع خلقك إليك، وقرأ صلى الله عليه وسلم {لولا أرسلت إلينا رسولاً} ويقول الصبي الصغير كنت صغيراً لا عقل. قال فترفع لهم نار ويقال لهم: رُدُّوها قال فيردُّها من كان في علم الله أنه سعيد،

ويتلکأ عنها من كان في علم الله أنه شقي فيقول إياي عصيتم فكيف يرسلني لو أتتكم". رواه ابن جرير عند تفسير هذه الآية {رينا لو لا أرسلت إلينا رسولاً}.

- 1 هذه الآية دليل على أن الإيمان بوحداية الله تعالى مما يقتضيه العقل وتوجيه الفطرة لولا حجب الضلالات وإغواء الشياطين للناس.
- 2 هذا جواب عن قولهم: {لولا يأتينا بأية من ربّه} وما بينهما اعتراض والتريص: الانتظار.
- 3 بمعنى المُستوي وهو مأخوذ من التسوية.

(3/393)

سورة الأنبياء

...

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

مكية

وآياتها مائة واثنان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
أَفْهَمْ يُؤْمِنُونَ (6)

شرح الكلمات:

اقترب 1 للناس حسابهم : أي قرب زمن حسابهم وهو يوم القيامة.

وهم في غفلة : أي عما هم صائرون إليه

معروضون: أي عن التأهب ليوم الحساب بصالح الأعمال بعد ترك

- 1 قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادي: يريد من أول ما حفظ كالمال التليد.

الشرك والمعاصي.

من ذكر من ربهم محدث: أي من قرآن نازل من ربهم محدث جديد النزول. وهم يلعبون: أي ساخرين مستهزئين.

لاهية قلوبهم: مشغولة عنه بما لا يغني من الباطل والشر والفساد.

واسروا النجوى: أي أخفوا مناجاتهم بينهم.

أضغاث أحلام: أي أخلط رآها في المنام.

بل افتراه: أي اختلقه وكذبه ولم يوح إليه.

أفهم يؤمنون: أي لا يؤمنون فالاستفهام للنفي.

معنى الآيات:

يخبر تعالى فيقول وقوله الحق: {اقترب للناس 1 حسابهم} أي دنا وقرب وقت حسابهم على أعمالهم خيرا وشرها {وهم في 2 غفلة} عما ينتظرهم من حساب وجزاء {معرضون} عما يدعون إليه من التأهب ليوم الحساب بترك الشرك والمعاصي والتزود بالإيمان وصالح الأعمال. وقوله تعالى: {ما يأتيهم من ذكر 3 من ربهم محدث} 4 أي ما ينزل الله من قرآن يعظهم به ويذكرهم بما فيه {إلا استمعوه وهم يلعبون} أي استمعوه وهم هازئون ساخرون لاعبون غير متدبرين له ولا متفكرين فيه. وقوله تعالى: {لا هية قلوبهم} أي مشغولة عنه منصرفة عما تحمل الآيات المحدثة النزول من هدى ونور، {وأسروا النجوى الذين ظلموا} 5 وهم المشركون قالوا في تتاجيهم بينهم: {هل هذا إلا بشر مثلكم} أي ما محمد إلا إنسان مثلكم فكيف تؤمنون به وتتابعونه على ما جاء به،

1 لفظ الناس: عام وإن أريد به أهل مكة بدليل السياق في الآيات بعد.

2 الجملة حالية أي: اقترب للناس حسابهم والحال أنهم في غفلة معرضون.

3 محدث: أي: في نزوله وقراءة جبريل له على النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان ينزل آية آية وسورة سورة وجائز أن يكون الذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لقريظة الآيات كقوله: {هل هذا إلا بشر مثلكم} وقوله: {قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا..} فرسول بدلا، ق قوله: (ذكرا) وقوله (إلا

استمعوه) ي: الرسول وهم يلعبون. قاله الحسن بن الفضل.

4 لاهية: ساهية معرضة عن ذكر الله تعالى. يقال: لهيت عن الشيء إذا تركته وسهرت عنه، وهو نعت تقدم عن الاسم فنصب على الحال نحو: (خاشعة أبصارهم)، (ودانية عليهم ظلالها) وكقول كثير عزة:

لعزة موحشا ظلل

يلوح كأنه خللُ

5 {الذين ظلموا} بدل من واو الجماعة في: {وأسروا النجوى}.

(3/395)

إنه ما هو إلا ساحر {أفتأتون السحر وأنتم تبصرون} مالكم أين ذهبت عقولكم؟ قال تعالى لرسوله: {قل ربي 1 يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع...} {لأقوال عباده {العليم} بأعمالهم فهو تعالى سميع لما تقولون من الكذب عليم بصدقي وحقيقة ما أدعوكم إليه. وقوله تعالى: {بل قالوا} أي أولئك المتناجون الظالمون {أضغاث أحلام} أي قالوا في القرآن يأتيهم من ربهم محدث لهم؛ ليهتدوا به قالوا فيه أضغاث أي أخلاط رؤيا منامية وليس بكلام الله ووحيه، {بل افتراه} انتقلوا من قول إلى آخر لحيرتهم {بل هو شاعر} أي صلى الله عليه وسلم وما يقوله ليس من جنس الشعر الذي هو ذكر أشياء لا واقع لها ولا حقيقة. وقوله تعالى عنه: {فليأتنا بآية كما أرسل الأولون} أي إن كان رسولاً كما يدعي وليس بشاعر ولا ساحر فليأتنا بآية أي معجزة كآية صالح أو موسى أو عيسى كما أرسل بها الأنبياء الأولون. قال تعالى: {ما آمنت قبلهم من 2 قرية} أي أهل قرية {أهلكناها} بالعذاب لما جاءت الآيات فكذبت أفهم 3 يؤمنون أي لا يؤمنون إذ شأنهم شأن غيرهم، فلذا لا معنى لإعطائهم الآية من أجل الإيمان ونحن نعلم أنهم لا يؤمنون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- قرب الساعة.

2- بيان ما كان عليه المشركون من غفلة ولهو وإعراض، والناس اليوم أكثر منهم في ذلك.

3- بيان حيرة المشركين إزاء الوحي الإلهي والنبوي صلى الله عليه وسلم.

4- المعجزات لم تكن يوماً سبباً في هداية الناس بل كانت سبب إهلاكهم إذ هذا طبع الإنسان إذا لم يرد الإيمان والهداية فإنه لا يهتدي ولو جاءت كل آية.

1 قرأ نافع والجمهور: {قل ربي} بصيغة الأمر، وقرأ حفص ومن وافقه (قال) بصيغة الماضي.

2 {من}: زائدة لتقوية الكلام وتوكيد النفي المستفاد من حرف (ما).

3 الاستفهام للإنكار أي: إنكار إيمانهم لو جاءتهم الآية أي: فهم لا يؤمنون.

(3/396)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)

شرح الكلمات:

قبلك : يا محمد.

أهل الذكر : أي الكتاب الأول وهم أهل الكتاب.

جسداً: أي أجساداً آدمية.

الوعد: أي الذي واعدناهم.

المسرفين: أي في الظلم والشرك والمعاصي.

كتاباً: هو القرآن العظيم.

فيه ذكركم : أي ما تذكرون به ربكم وما تذكرون به من الشرف بين الناس.

معنى الآيات:

كانت مطالب قريش من اعتراضاتهم تدور حَوْلَ لِمَ يكون الرسول بشراً، وَلِمَ يكون رسولاً ويأكل الطعام لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها، لم لا يأتيها بآية كما أرسل بها الأولون، وهكذا. قال قتادة قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم "إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا" أي ينزل بهم العذاب فوراً" وإن شئت استأنيت بقومك، قال بل استأنيت بقومي فأنزل الله {ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون}.

(3/397)

وقوله تعالى: {وما أرسلنا قبلك 1} يا رسولنا {إلا رجالاً نوحى} ما نريد إبلاغه عبادنا من أمرنا ونهينا. {فاسألوا أهل الذكر 2 إن كنتم لا تعلمون} أي فليسأل قومك أهل الكتاب من قبلهم وهم أحبار اليهود ورهبان النصارى إن كانوا لا يعلمون فإنهم يعلمون أن الرسل من قبلهم لم يكونوا إلا بشراً. وقوله تعالى: {وما جعلناهم} أي الرسل {جسدا 3} أي أجساداً ملاتكية أو بشرية لا يأكل أصحابها الطعام بل جعلناهم أجساداً آدمية تفتقر في بقاء حياتها إلى الطعام والشراب 4 فلم يعترض هؤلاء المشركون على كون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ وقوله تعالى: {ثم صدقناهم} أي أولئك الرسل {الوعد 5} الذي واعدناهم وهو أنا إذا آتينا أقوامهم ما طالبوا به من المعجزات ثم كذبوا ولم

يؤمنوا أهلكناهم {فأنجيناهم ومن نشاء} أي أنجيناهم رسلنا ومن آمن بهم واتبعهم، وأهلكنا المكذبين المسرفين في الكفر والعناد والشرك والشر والباطل.
وقوله تعالى: {لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون؟} يقول تعالى لأولئك المشركين المطالبين بالآيات التي قد تكون سبب هلاكهم ودمارهم {لقد أنزلنا إليكم} لهدايتكم وإصلاحكم ثم إسعادكم {كتاباً} عظيم الشأن {فيه ذكركم} 6 أي ما تذكرون به وتتعضون فتهتدون إلى سبيل سلامتكم وسعادتكم، فيه ذكركم بين الأمم والشعوب لأنه نزل بلغتكم الناس لكم فيه تبع وهو شرف أي شرف لكم. أتشتظون في المكابدة والعناد فلا تعقلون، ما هو خير لكم مما هو شر لكم.

- 1 هذا ردّ على المشركين إذ قالوا: {هل هذا إلا بشر مثلكم} وتأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يضيق بما يقولون.
- 2 جائز أن يكون أهل الذكر أي: الكتاب الأول هم اليهود والنصارى إذ كان أهل مكة يسألون يهود المدينة وجائز أن يكون القرآن وهم المؤمنون ولذا قال عليّ وهو صادق: نحن أهل الذكر. أي: فلينظروا المؤمنين كعلي وأبي بكر الصديق وبلال. وفي الآية دليل على وجوب تقليد العامة العلماء إذ هم أهل الذكر ووجوب العمل بما يفتنونهم به ويعلمونهم به.
- 3 الجسد: الجسم لا حياة فيه كالجثة. وفي العبارة تهكم بالمشركين لسخف عقولهم إذ أنكروا على الرسول صلى الله عليه وسلم أكل الطعام فقالوا: {ما لهذا الرسول يأكل الطعام} وهل يعقل وجود أجسام بشرية تستغني عن الأكل والشرب؟
- 4 ولذا هم يموتون ولا يخلدون وهذه حقيقة الأدمي.
- 5 الوعد: منصوب على نزع الخافض أي: صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، وهو وعدهم بنصرهم وإهلاك أعدائهم.
- 6 {فيه ذكركم}: أي: فيه ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وبيان ما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب وفيه ذكر مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم.

(3/398)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ أن الرسل لا يكونون إلا بشراً ذكوراً لا إناثاً.
- 2- تعيين سؤال أهل العلم في كل ما لا يعلم إلا من طريقهم، من أمور الدين والآخرة.
- 3- ذم الإسراف في كل شيء وهو كالغلو في الشرك والظلم.

4- القرآن ذكر يذكر به الله تعالى لما فيه من دلائل التوحيد وموعظة لما فيه من قصص الأولين وشرف أي شرف لمن آمن به وعمل بما فيه من شرائع وآداب وأخلاق.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)

شرح الكلمات:

وكم قصمنا : أي وكثيراً من أهل القرى قصمناهم بإهلاكهم وتفتيت أجسامهم.

كانت ظالمة: أي كان أهلها ظالمين.

يركضون : أي فارين هارين.

إلى ما أترفتم فيه : أي من وافر الطعام والشراب والمسكن والمركب.

تسألون : أي عن شيء من دنياكم على عادتكم.

تلك دعواهم : أي دعوتهم التي يرددونها وهي: {يا ويلنا إنا كنا ظالمين}.

حصيداً خامدين : أي لم يبق منهم قائم فهم كالزرع المحصود خامدين لا حراك لهم كالنار إذا أُخمدت.

(3/399)

معنى الآيات:

يقول تعالى منذراً قريشاً أن يحل بها ما حل بغيرها ممن أصروا على التكذيب والعناد {وكم قصمنا} أي أهلكنا وأبدنا إبادة كاملة {من قرية 1} أي أهل قرية {كانت ظالمة} أي كان أهلها ظالمين بالشرك والمعاصي والمكابرة والعناد، {وأنشأنا بعدها قوماً آخرين} هم خير من أولئك الهالكين. وقوله تعالى: {فلما أحسوا 2 بأسنا إذا هم منها يركضون} أي فلما أحس أولئك الظالمون {بأسنا} أي شعروا به وأدركوه بحواسهم بأسماعهم وأبصارهم {إذ هم منها} من تلك القرية يركضون هارين فراراً من الموت. والملائكة تقول لهم توبيخاً لهم وتقريعاً: لا تركضوا هارين {وارجعوا إلى ما أترفتم فيه} نُعمتُم فيه من وافر الطعام والشراب والكساء والمسكن والمركب {لعلكم تسألون} على العادة عن شيء من أموركم وأمور دنياكم 3، فكان جوابهم ما أخبر تعالى به عنهم : {قالوا يا ويلنا} أي يا هلاكنا أحضر هذا أو أن حضورك إنا كنا ظالمين أنفسنا بالشرك والمعاصي والتكذيب والعناد. قال تعالى: {فما زالت تلك دعواهم} أي ما زال قولهم {يا ويلنا إنا كنا ظالمين} تلك دعوتهم 4 التي يرددونها {حتى جعلناهم حصيداً 5 خامدين} أي مُجتثين من أصولهم ساقطين في الأرض خامدين لا حراك لهم كالنار إذا أُخمدت فلم يبق لها لهيب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالظلم وأعلى درجاته الشرك بالله.
- 2- جواز الاستهزاء بالمشرك الظالم إذا حل به العذاب تقريعاً له وتوبيخاً.
- 3- لا تنتفع التوبة عند معاينة العذاب لو طلبها الهالكون.
- 4- شدة الهول ورؤية العذاب قد تفقد صاحبها رشده وصوابه فيَهْزِرُ ولا يدري ما يقول.

1 قيل: هذه القرى هي مدائن كانت باليمن، والعموم ظاهر في السياق ولا داعي إلى حصره في مدائن اليمن بل هو شامل عادةً وثمود وأهل مدين والمؤتفكات، والقصم: الكسر يقال: قصم ظهر فلان: إذا كسره.

2 الإحساس: الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

3 وهذا استهزاء بهم وتهكم وتقريع وتوبيخ لهم.

4 أي: الكلمة التي يكررونها وهي: يا ويلنا إنا كنا ظالمين حتى هلكوا عن آخرهم.

5 الحصد: جَزَّ الزرع والنبات بالمنجل لا باليد، وشاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود، والخامد الذي لا حراك له من خمدت النار إذا زال لهيبها.

(3/400)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

شرح الكلمات:

لاعبين: أي عابثين لا مقصد حسن لنا في ذلك.

لهوا: أي زوجة وولداً.

من لدنا. أي من عندنا من الحور العين أو الملائكة.

بل نقذف بالحق على الباطل.

فيدمغه: أي يشج رأسه حتى تبلغ الشجة دماغه فيهلك.

فإذا هو زاهق: أي ذاهب مُضْمَل.

ولكم الويل مما تصفون: أي ولكم العذاب الشديد من أجل وصفكم الكاذب للديان بأن له زوجة وولداً وللرسول بأنه ساحر ومفتريّ.

وله من في السموات والأرض: خلقاً وملكاً وتدبيراً لا شريك له في ذلك.

ولا يستحسرون: أي لا يعيون ولا يتعبون فيتركون التسييح.

لا يفترون: عن التسييح لأنه منهم كالنفس منا لا يتعب أحدنا من التنفس ولا يشغله عنه شيء.
معنى الآيات:

كونه تعالى يهلك الأمم الظالمة بالشرك والمعاصي دليل أنه لم يخلق الإنسان والحياة

(3/401)

لعباً وعبثاً بل خلق الإنسان وخلق الحياة ليذكر ويشكر فمن أعرض عن ذكره وترك شكره أذاقه بأساءه في الدنيا والآخرة وهذا ما دلت عليه الآية السابقة وقررتة الآية وهي قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾¹ أي عابثين لا قصد حسن لنا بل خلقناهما بالحق وهو وجوب عبادتنا بالذكر والشكر لنا وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ أي صاحبة أو ولداً كما يقول المبطلون من العرب القائلون بأن الله أصهر إلى الجن فأنجب الملائكة وكما يقول ضلال النصارى أن الله اتخذ مريم زوجة فولدت له عيسى الابن، تعالى الله عما يافكون فرد تعالى هذا الباطل بالمعقول من القول فقال لو أردنا أن نتخذ لهواً نتلّهي به من صاحبة وولد لأتخذنا من لدنا من الحور العين والملائكة ولكننا لم نرد ذلك ولا ينبغي لنا إنا نملك كل من في السموات ومن في الأرض عبداً لنا فكيف يعقل اتخاذ مملوك لنا ولداً ومملوكة زوجة والناس العجزة الفقراء لا يجيزون ذلك فالرجل لا يجعل مملوكته زوجة له ولا عبده ولداً بحال من الأحوال وقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾³ فإذا هو زاهق} فتلك الأباطيل والترهات تنزل حجج القرآن عليها فتدمغها فإذا هي ذاهبة مضمحلة لا يبقى منها شيء {ولكم الويل} أيها الكاذبون مما تصفون الله بالزوجة والولد والشريك والرسول بالسحر والشعر والكهانة والكذب العذاب لازم لكم من أجل كذبكم وافترائكم على ربكم ورسوله. وقوله تعالى: ﴿وله من في السموات والأرض﴾ برهان آخر على بطلان دعوى أن له تعالى زوجة وولداً فالذي يملك من في السموات ومن في الأرض غنى عن صاحبة والولد إذ الكل له ملكاً وتصرفاً. وقوله: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾⁴ برهان آخر {يسبحون الليل والنهار ولا

1 ينفي تعالى أن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما وما في السموات وما في الأرض من عجائب المخلوقات وبدائع الصناعات وما بين السماء والأرض من السحب والأمطار ورياح وأجواء

- الفضاء ينفي أن يكون هذا الخلق العظيم لعباً: أي: لهواً وعبثاً بل خلق ما خلق لأعظم حكمة وأسامها وهي أن يعبد بذكره وشكره، فلذا من كفر به تعالى فترك ذكره وشكره كان من شر خلقه واستوجب العذاب الأبدي الذي لا يخرج منه ولا يموت فيه ولا يحيى.
- 2 الآية ردّ على افتراءات المبطلين جهلة البشر الذين نسبوا لله تعالى الصاحبة والولد بغير علم من عقل ولا نقل.
- 3 الدماغ: شج الرأس حتى تبلغ الشجة الدماغ، والباطل هو الشيطان والحق؟ القرآن، في قول مجاهد إذ قال كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان.
- 4 لا يستحسرون أي: لا يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع من الإعياء والتعب يقال: حسر البعير يحسر حسوراً: أعياء وكلّ واستحسر وتحسر مثله.

(3/402)

يفترون} أي فكيف يفتقر إلى الزوجة والولد، ومن عنده من الملائكة وهم لا يحصون عدداً يعبدونه لا يستكبرون عن عبادته ولا يملون منها ولا يتعبون من القيام بها، يسبحونه الليل والنهار، والدهر كله {لا يفترون} أي لا يسأمون فيتركون التسييح فترة بعد فترة للاستراحة، إنهم في تسييحهم وعدم سأمهم منه وعدم انشغالهم عنه كالآدميين في تنفسهم وطرف أعينهم هل يشغل عن التنفس شاغل أو عن طرف العين آخر وهل يسأم الإنسان من ذلك والجواب لا، فكذلك الملائكة يسبحون الليل والنهار ولا يفترون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تنزه الرب تعالى عن اللهو واللعب والصاحبة والولد.
 - 2- حجج القرآن هي الحق متى رمى بها الباطل دمغته فذهب واضمح.
 - 3- إقامة البراهين العقلية على إبطال الباطل أمر محمود، وقد يكون لا بد منه.
 - 4- بيان غنى الله المطلق عن كل مخلوقاته.
 - 5 بيان حال الملائكة في عبادتهم وتسييحهم لله تعالى.
- أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

شرح الكلمات:

أم اتخذوا آلهة من الأرض : أي من معادنها كالذهب والفضة والنحاس والحجر .
هم ينشرون: أي يحيون الأموات إذ لا يكون إلهاً حقاً إلا من يحيي الموتى .
لو كان فيهما: أي في السموات والأرض .
لفسدتا: أي السموات والأرض لأن تعدد الآلهة يقتضى التنازع عادة وهو يقضى بفساد النظام .
فسبحان الله : أي تنزيهه لله عما لا يليق بحلاله وكمالهِ .
رب العرش : أي خالقه ومالكه والمختص به .
عما يصفون : أي الله تعالى من صفات النقص كالزوجة والولد والشريك .
لا يسأل عما يفعل : إذ هو الملك المتصرف ، وغيره يسأل عن فعله لعجزه وجهله وكونه مريباً .
قل هاتوا برهانكم : أي على ما اتخذتم من دونه من آلهة ولا برهان لهم على ذلك فهم كاذبون .
هذا ذكر من معي : أي القرآن ذكر أمتي .
وذكر من قبلي: أي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله الكل يشهد أنه لا إله إلا الله .
لا يعلمون الحق: أي توحيد الله ووجوبه على العباد فلذا هم معرضون .
فاعبدون: أي وحدوني في العبادة فلا تعبدوا معي غيري إذ لا يستحق العبادة سواي .
معنى الآيات:

يؤيخ تعالى المشركين على شركهم فيقول {أم اتخذوا آلهة من الأرض} أي من أحجارها ومعادنها
آلهة {هم ينشرون} أي يحيون الموتى والجواب كلا إنهم لا يحيون والذي لا يحيي الموتى لا يستحق
الألوهية بحال من الأحوال . هذا ما دل عليه قوله

1 الاستفهام هنا للجحد والإنكار أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء في وصف الآلهة من الأرض
تهكّم بعابديها ظاهر وتأنيب عجيب .

تعالى: {أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون} وفي الآية الثانية (21) يبطل تعالى دعواهم في
اتخاذ آلهة مع الله فيقول . {لو كان فيهما 1} أي في السموات والأرض آلهة غير الله تعالى لفسدتا
لأن تعدد الآلهة يقتضى التنازع² والتنازع هذا يريد أن يخلق كذا و هذا لا يريد هذا يريد أن يعطى

كذا وذاك لا يريده فيختل نظام الحياة وتفسد، ومن هنا كان انتظام الحياة هذه القرون العديدة دالا على وحدة الخالق الواجب الوجود الذي تجب له العبادة وحده دون من سواه، فلذا نزه تعالى نفسه عن الشرك وما يصفه به المبطلون من الزوجة والولد فقال : {فسبحان 3 الله رب العرش عما يصفون} وقرر ألوهيته وربوبيته المطلقة بقوله: {لا يسأل 4 عما يفعل وهم يُسألون} فالذي يفعل ولا يُسأل لعلمه وقدرته وملكه هو الإله الحق والذي يسأل عن عمله لم فعلت ولم تركت ويحاسب عليه ويجزى به لن يكون إلا عبداً مربوباً، وقوله في توبيخ آخر للمشركين: أم اتخذوا من 5 دونه عز وجل آلهة يعبدونها؟ قل لهم يا رسولنا هاتوا برهانكم على صدق دعواكم في أنها آلهة، ومن أين لهم البرهان على احقاق الباطل؟ وقوله تعالى: {هذا ذكر 6 من معي} أي من المؤمنين وهو القرآن الكريم به يذكرون الله ويعبدونه وبه يتعظون {وذكر من قبلي} أي التوراة والإنجيل هل في واحد منها ما يثبت وجود آلهة مع الله تعالى. والجواب لا. إذاً فما هي حجة هؤلاء المشركين على صحة دعواهم، والحقيقة أن المشركين جهلة لا يعرفون منطقاً ولا برهاناً فلذا هم مُعرضون وهذا ما دل عليه قوله تعالى: {بل أكثرهم لا يعلمون الحق 7 فهم معرضون} فليسوا أهلاً لمعرفة الأدلة والبراهين لجلهلم فلذا هم معرضون عن قبول التوحيد وتقرير أدلته وحججه وبراهينه.

- 1 هذه الجملة مقررة لما أنكره تعالى على المشركين من اتخاذهم آلهة من الأرض مبيّنة وجه الإنكار شارحة له أي: يستحيل أن يوجد آلهة حق مع الله تعالى. والبرهان المذكور في التفسير.
- 2 هذا ما يسمى بدليل أو برهان التمانع وأنه وإن كان فيه ما يردّه إلا أنه في الجملة دليل مسكت للخصم مقتنع لذى العقول.
- 3 إظهار اسم الجلالة في مكان الإضمار كان لتربية المهابة منه عزّ وجل إذ كان المفروض أن يقوله سبحانه.
- 4 قال ابن جريج : لا يسأله الخلق عن قضائه فيهم وهو يسألهم عن أعمالهم لأنهم عبده وبهذا انهّد معتقد المشركين والقديين معاً إذ لا يسأل عمال يفعل وغيره يسأل فالذي يسأل ويحاسب ويجزي لن يكون إلهاً أبداً.
- 5 (أم) بمعنى: بل والاستفهام التعبجي أي: بل اتخذوا من دون الله آلهة يا للعجب فليأتوا إذاً ببرهان عقلي على صحة دعواهم ومن أين لهم إذاً أفلا يتوبون.
- 6 زيادة على إقامة بطلان الشرك بشهادة القرآن كتاب الله وشهادة الكتب السابقة وفيها التهديد والوعيد للمشركين.
- 7 قرأ الحق بالرفع ابن محيسن والحسن على تقدير هذا هو الحق وقرأ الجمهور بالنصب مفعول أي: لا يعلمون الحق الذي هو القرآن العظيم فهم لا يتأملونه فحججه وبراهينه على إبطال الشرك ظاهرة.

وقوله تعالى: {وها أرسلنا من قبلك 1 من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} فلو كان المشركون يعلمون هذا لما أشركوا وجادلوا عن الشرك، ولكنهم جهلة مغررون.
هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- من أخص صفات الإله أن يخلق ويرزق ويحيى ويميت فإن لم يكن كذلك فليس بإله.
 - 2- وحدة النظام دالة على وحدة المنظم، ووحدة الوجود دالة على وحدة الموجد وهذا برهان التمانع الذي يقرر منطقياً وجود الله ووجوب عبادة وحده.
 - 3- لا برهان على الشرك أبداً، ولا يصح في الذهن وجود دليل على صحة عبادة غير الله تعالى.
 - 4- القرآن والتوراة وكل كتب الله متضافرة على تقرير توحيد الله تعالى.
 - 5- تقرير توحيد الله تعالى وإبطال الشرك والتثديد بالمشركين.
- وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

1 هذا برهان آخر على إبطال الشرك إذ عامة الرسل جاءت بالتوحيد بلا إله إلا الله، فكيف يصح إذاً إقرار الشرك والعمل به، والآية كآية النمل: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}.

(3/406)

شرح الكلمات

ولداً : أي من الملائكة حيث قالوا الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
سبحانه: تنزيه له تعالى عن اتخاذ الولد.
ب ل عباد ومكرمون : هم الملائكة، ومن كان عبداً لا يكون ابناً ولا بنتاً.
لا يسبقونه بالقول: أي لا يقولون حتى يقول هو وهذا شأن العبد لا يتقدم سيده بشيء.
وهم بأمره يعملون: أي فهم مطيعون متأدبون لا يعملون إلا بإذنه لهم.
ولا يشفعون إلا لمن ارتضى: أي إلا لمن رضي تعالى أن يشفع له.
مشفقون: أي خائفون.

من دونه : أي من دون الله كإبليس عليه لعائن الله.
كذلك نجزي الظالمين: أي لأنفسهم بالشرك والمعاصي.
معنى الآيات:

بعد أن أبطلت الآيات السابقة الشرك ونددت بالمشركين جاءت هذه الآيات في إبطال باطل آخر
للمشركين وهو نسبتهم الولد لله تعالى فقال تعالى عنهم و {قالوا 1 اتخذ الرحمن ولداً} وهو زعمهم أن
الملائكة بنات الله فنزه تعالى نفسه عن هذا النقص فقال {سبحانه} وأبطل دعواهم وأضرب عنها فقال
{بل عباد مكرمون 2} أي فمن نسبوهم لله بنات له هم عباد له مكرمون عنده ووصفهم تعالى قوله:
{لا يسبقونه بالقول} فهم لكامل عبوديتهم لا يقولون حتى يقول هو سبحانه وتعالى، وهم يعملون بأمره
فلا يقولون ولا يعملون إلا بعد إذنه لهم، وأخبر تعالى أنه يعلم ما بين أيديهم 3 وما خلفهم فعلمه عز
وجل محيط بهم ولا يشفعون لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى أن يشفع 4 له فقال تعالى:

1 قيل: هذه الآية نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله تعالى وكانوا يعبدونهم يرجون
شفاعتهم، وفريتهم قائمة على أن الله تعالى أصهر إلى سروات الجنّ فأنجب الملائكة. تعالى الله
علواً كبيراً.

2 {بل عباد مكرمون} أي: بل هم عباد مكرمون، فعباد: خبر لمبتدأ محذوف ومكرمون: نعت للخبر.
3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعلم ما عملوا وما هم عاملون كما يعلم ما بين أيديهم من
الآخرة وما خلفهم من الدنيا.
4 قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كل من رضي الله عنه. وهو
أعم من الأول، وأخص أيضاً باعتبار جهتين.

(3/407)

{ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} وزيادة على ذلك أنهم {من خشيته مشفقون} خائفون، وعلى فرض أن
أحداً منهم قال إني إله من 1 دون الله فإن الله تعالى يجزيه بذلك القول جهنم وكذلك الجزاء نجزي
الظالمين أي أنفسهم بالشرك والمعاصي، وبهذا بطلت فرية المشركين في جعلهم الملائكة بنات لله
وفي عبادتهم ليشفعوا لهم عنده تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إبطال نسبة الولد إلى الله تعالى من قبل المشركين وكذا اليهود والنصارى.
- 2- بيان كمال عبودية الملائكة لله تعالى وكمال أدبهم وطاعتهم لربهم سبحانه وتعالى.

3- بطلان دعوى المشركين في شفاعة الملائكة لهم، إذ الملائكة لا يشفعون إلا لمن رضى الله تعالى أن يشفعوا له.

4- تقرير وجود شفاعة يوم القيامة ولكن بشروطها وهي أن يكون الشافع قد أذن له بالشفاعة، وأن يكون المشفوع له من أهل التوحيد فأهل الشرك لا تتفعهم شفاعة الشافعين.

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (30) وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجأجا سبلا لعلمهم يهتدون (31) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون (32) وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (33)

1 في الآية دليل على أن الملائكة وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبدون وليسوا مضطرين إلى العبادة اضطراراً بل شأنهم شأن المعصومين من الرسل يعبدون تعبداً لا اضطراراً.

(3/408)

شرح الكلمات:

كانتا رتقا: أي كتلة واحدة منسدة لا انفتاح فيها.

فتقناهما: أي جعلنا السماء سبع سموات والأرض سبع أرضين.

رواسي: أي جبلاً ثابتة.

أن تميد بهم : : أي تتحرك فتميل بهم.

فجأجا سبلاً : أي طرقاً واسعة يسلكونها تصل بهم إلى حيث يريدون.

لعلمهم يهتدون : إلى مقاصدهم في أسفارهم.

وهم عن آياتها: من الشمس والقمر والليل والنهار معرضون.

كل في فلك يسبحون : الفلك كل شيء دائر.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد ووجوب تنزيه الله تعالى عن صفات النقص والعجز فقال تعالى: {أو لم ير الذين كفروا} أي الكافرون بتوحيد الله وقدرته وعلمه ووجوب عبادته إلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته في هذه المخلوقات العلوية والسفلية فالسموات والأرض كانتا كتلة واحدة من سديم فخلق الله تعالى منها السموات والأرضين كما أن السماء تتفتق بإذنه تعالى عن الأمطار، والأرض تتفتق عن النباتات المختلفة الألوان والروائح والطعوم والمنافع، وأن كل شيء حي في هذه الأرض من إنسان وحيوان ونبات هو من الماء أليست هذه كلها دالة على وجود الله ووجوب عبادته

وتوحيده فيها؟

فما للناس لا يؤمنون؟ هذا ما دل عليه قوله تعالى في الآية الأولى (30) {أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا 2 ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون؟} وقوله تعالى: {وجعلنا في الأرض رواسي} أي جبالاً 3 ثوابت كيلا تميد أي

1 قرأ الجمهور {أو لم ير} بالواو بعد همزة الاستفهام، وقرأ بعض: {ألم ير} بدون واو، بمعنى يعلم.
2 {رتقا}: الرتق: السدّ ضد الفتق، يقال: رتقت الفتق ارتقه فارتق. أي: التأم، ومنه: امرأة رتقاء أي: منضمة الفرج غير مفتوق، والمراد أن السموات والأرض كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما وما في التفسير إشارة إلى ما اختاره ابن جرير الطبري وهو: أن السماء كانت رتقا لا تمطر والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات والآية دالة على الوجهين والوجهان صحیحان.

3 {جعلنا} بمعنى: خلقنا، وهذا اللفظ صالح للدلالة على أنّ كل شيء في هذه المخلوقات من الحيوان والنبات خلق من الماء، والنار: أن حياة هذه المخلوقات تحفظ بالماء، وفي الحديث: "كل شيء خلق من الماء". ذكره القرطبي رحمه الله تعالى.

(3/409)

تتحرك وتضطرب بسكانها، {وجعلنا فيها} أي في الأرض {فجاء سبلاً} أي طرقاً سابلة للسير فيها {العلم} يهتدون {أي كي يهتدوا إلى مقاصدهم في أسفارهم، وقول: {وجعلنا السماء سقفاً 2 محفوظاً} من السقوط ومن الشياطين. وقوله: {وهم عن آياتها} من الشمس والقمر والليل والنهار إذ هذه آيات قائمة بها {معرضون} أي لا يفكرون فيها فيهتدوا إلى معرفة الحق عز وجل ومعرفة ما يجب له من العبادة والتوحيد فيها، وقوله: {وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس 3 والقمر كل في فلك يسبحون 4} أي كل من الشمس والقمر في فلك خاص به يسبح الدهر كله، والفلك عبارة عن في دائرة كفلكة المغزل يدور فيها الكوكب من شمس وقمر ونجم يسبح فيها لا يخرج عنها إذ لو خرج يحصل الدمار الشامل للعوالم كلها، سبحان العليم الحكيم، هذه كلها مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية وهي موجبة للتوحيد مقررة له، ولكن المشركين عنها معرضون لا يفكرون ولا يهتدون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده والإيمان به وطاعته.

2- بيان الحكمة من خلق الجبال الراوسي.

- 3- بيان دقة النظام الإلهي، وعظيم العلم والحكمة له سبحانه وتعالى.
4- إعراض أكثر الناس عن آيات الله في الآفاق كإعراضهم عن آياته القرآنية هو سبب جهلهم وشركهم وشرهم وفسادهم.

- 1 رجاء أن يهتدوا في سيرهم إلى ما يرومون من الديار والبلاد، ورجاء أن يهتدوا بذلك إلى الإيمان بالله وتوحيده.
2 سميت السماء سقفاً لأنها مرفوعة فوق الأرض مظلمة لها كالسقف على النار.
3 هذه كلها ممن الله تعالى على عباده وآيات قدرته وعلمه وحكمته وكلها موجبة للإيمان به وعبادته وتوحيده وإعراض الناس عن النظر والتدبر هو الذي حرمهم هداية الله تعالى.
4 {كل في فلك يسبحون}: هذه جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لمن سمع الآيات، فتساءل عن الشمس والقمر وعن باقي الأجرام السماوية قائلاً: كيف لا يقع بينها تصادم ولا يتخلف بعضها فيحدث خلل في الكون والحياة فأجيب بقوله تعالى: {كل في فلك يسبحون...}.

(3/410)

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)

شرح الكلمات:

الخلد: أي البقاء في الدنيا.

ذائقة الموت : أي مرارة مفارقة الجسد.

ونبلوكم: أي نختبركم.

بالشر والخير: فالشر كالفقر والمرض، والخير كالغنى والصحة.

فتنة: أي لأجل الفتنة لننظر أتصبرون وتشكرون أم تجزعون وتكفرون.

إن يتخذونك إلا هزواً : أي ما يتخذونك إلا هزواً أي مهزواً بك.

يذكر آلِهتكم : أي يعيبيها.

بذكر الرحمن هم كافرون : حيث أنكروا اسم الرحمن لله تعالى وقالوا: ما الرحمن؟

خلق الإنسان من عجل : حيث خلق الله آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة على عجل، فورث بنوه

طبع العجلة عنه.

سأوريكم آياتي: أي سأريكم ما حملته آياتي من وعيد لكم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

(3/411)

معنى الآيات:

كأنَّ المشركين قالوا شامتين إن محمداً سيموت، وقالوا نتريص به ريب المنون فأخبر تعالى أنه لم يجعل لبشر من قبل نبيّه ولا من بعده الخلد حتى يخلد هو صلى الله عليه وسلم كل نفس ذائقة الموت، ولكن إن مات رسوله فهل المشركون يخلدون والجواب لا، إذاً فلا وجه للشماتة بالموت لو كانوا يعقلون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (34) {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهم الخالدون} وقوله تعالى: {كل نفس ذائقة الموت} أي كل نفس منفوسة ذائقة مرارة الموت بمفارقة الروح للبدن، والحكمة في ذلك أن يتلقى العبد بعد الموت جزاء عمله خيراً كان أو شراً، دل عليه قوله بعد: {ونبلوكم بالشر والخير} من غنى وفقر ومرض وصحة وشدة ورخاء {فتنتكم أي لأجل فتنتكم أي اختباركم ليرى الصابر الشاكر والجزع الكافر. وقوله تعالى: {والينا ترجعون} أي بعد الموت للحساب والجزاء على كسبكم خيره وشره.

وقوله تعالى: {وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً} يخبر تعالى رسوله بأن المشركين إذا رأوه ما يتخذونه إلا هزواً وذلك لجهلهم بمقامه وعدم معرفتهم فضله عليهم وهو حامل الهدى لهم، وبين وجه استهزائهم به صلى الله عليه وسلم بقوله: {أهذا الذي يذكر آلتهكم} أي بعبئها وانتقاصها، قال تعالى: {وهم بذكر الرحمن 3 هم كافرون} أي عجباً لهم يتألمون لذكر ألهم بسوء وهي محط السوء فعلاً، ولا يتألمون لكفرهم بالرحمن ربهم سبحانه وتعالى حتى إنهم أنكروا أن يكون اسم الرحمن اسماً لله تعالى وقالوا لا رحمن إلا رحمن اليمامة.

وقوله تعالى: {خلق الإنسان 4 من عجل} قال تعالى هذا لما استعجل المشركون

1 الاستفهام مقدر أي: أفهم الخالدون؟ وهو للنفي والإنتكار كقول الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا تُرع

فقلت وأنكسرت الوجوه هم هم

أي: أهم؟ ومعنى رفوني سكتوني يقال رفاه إذا سكنه.

2 يروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قد استشهد بالبيتين الآتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى

تهياً لأخرى مثلها فكأن قد

3 عجباً لجهلهم وسوء فهمهم يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم يجحدون إلهية الرحمن إنَّ هذا لغاية الجهل والغرور .

4 إنَّ طبع الإنسان العجلة إنه يستعجل الأشياء وإن كان فيها مضرتة، ولفظ الإنسان جائز أن لا يكون المراد به جنس الإنسان أو آدم عليه السلام قال سعيد بن جبير لما دخل الروح في عين آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك قوله تعالى {خلق الإنسان من عجل}.

(3/412)

العذاب وقالوا للرسول والمؤمنين: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} فأخبر تعالى أن الاستعجال 1 من طبع الإنسان الذي خلق عليه، وأخبرهم أنه سيربهم آياته فيهم بإنزال العذاب بهم وأراهم ذلك في بدر الكبرى وذلك في قوله {سأريكم آياتي فلا تستعجلون} أي. فلا داعي إلى الاستعجال وقوله تعالى {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} أخبر تعالى عن قبيلهم للرسول والمؤمنين وهم يستعجلون العذاب: متى هذا الرد إن كنتم صادقين؟ وهذا عائد إلى ما فطر عليه الإنسان من العجلة من جهة، وإلى جهلهم وكفرهم من جهة أخرى وإلّا فالعاقل لا يطالب بالعذاب بل يطالب بالرحمة والخير، لا بالعذاب والشر .

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- إبطال ما شاع من أن الخضر حيي مخلد لا يموت لفيه تعالى ذلك عن كل البشر .
- 2- بيان العلة من وجود خير وشر في هذه الحياة الدنيا وهي الاختبار .
- 3 بيان ما كان عليه المشركون من الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم .
- 4- تقرير حقيقة أن الإنسان مطبوع على العجلة فلذا من غير طبعه بالتربية فأصبح ذا أناة وتؤدة كان من أكمل الناس وأشرفهم .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (40) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ

1 العجلة: السرعة، قيل: إن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة

والكراهة، فإذا فكر في شيء محبوب استعجل حصوله، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته، ومن هنا كان عجولاً.

(3/413)

الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ (43)

شرح الكلمات:

لا يكفون: أي لا يمنعون ولا يدفعون النار عن وجوههم.

بل تأتيهم بغتة: أي تأتيهم القيامة بغتة أي فجأة.

فتبتهتهم: أي تُحيرهم.

ولا هم ينظرون: أي يمهلون ليتوبوا.

وحاق بهم: أي نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

من يكلوكم: أي من يحفظكم ويحرسكم.

من الرحمن: أي من عذابه إن أراد إنزاله بكم.

بل هم عن ذكر ربهم معرضون: أي هم عن القرآن معرضون فلا يستمعون إليه ولا يفكرون فيه.

ولا هم منا يصحبون: أي لا يجدون من يجيرهم من عذابنا.

معنى الآيات:

يقول تعالى {لو يعلم الذين كفروا} المستعجلون بالعذاب المطالبون به حين أي الوقت الذي يُلقون فيه في جهنم والنار تأكل وجوههم وظهورهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم منها ولا هم ينصرون بمن يدفع العذاب عنهم لو علموا هذا وأيقنوا به لما طالبوا بالعذاب ولا استعجلوا يومه وهو يوم القيامة، هذا ما دل عليه قوله تعالى: {لو يعلم الذين كفروا حين 3 لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون} وقوله تعالى:

1 جواب لو: محذوف تقديره: لما استعجلوا أي: لو عرف هؤلاء المستعجلون وقت لا تزول فيه النار

عن وجوههم وعن ظهورهم لما استعجلوا العذاب.

2 جواب لو: محذوف كما تقدم آنفاً، والغرض من حذفه تحويل جنسه فتذهب نفس السامع كل

مذهب. وجملة: {لو يعلمون ..} الخ مستأنفة استئنافاً بيانياً.

3 {حين} اسم زمان منصرف منصوب على المفعولية لا على الظرفية أي: لو علموا وقته وأيقنوا

بحصوله لما كذبوا به.

{بل تأتيهم} بغتة فتبتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون { أي أن القيامة لا تأتيهم على علم منهم بوقتها وساعتها فيمكنهم بذلك التوبة، وإنما تأتيهم {بغتة} أي فجأة {فتبتهم} أي فتحيرهم {فلا يستطيعون ردها، ولا هم ينظرون} أي يمهلون ليتوبوا من الشرك والمعاصي فينجوا من عذاب النار، وقوله تعالى: {ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون} وهو العذاب هذا القول للرسول صلى الله عليه وسلم تعزية له وتسلية ليصبر على ما يلاقيه من استهزاء قریش به واستعجالهم العذاب، إذ حصل مثله للرسول قبله فصبروا حتى نزل العذاب بالمستهزئين بالرسول عليهم السلام. وقوله تعالى: {قل من 2 يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن} يأمر تعالى رسوله أن يقول للمطالبين بالعذاب المستعجلين له: {من يكلؤكم بالليل والنهار} أي من يجيركم من الرحمن إن أراد أن يعذبكم، إنه لا أحد يقدر على ذلك إذا فلم لا تتوبون إليه بالإيمان والتوحيد والطاعة له ولرسوله، وقوله: {بل هم عن ذكر ربهم معرضون} إن علة عدم استجابتهم للحق هي إعراضهم عن القرآن الكريم وتدبر آياته وتفهم معانيه. وقوله: {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا} ينكر تعالى أن يكون للمشركين آلهة تمنعهم من عذاب الله متى نزل بهم ويقرر أن آلهتهم لا تستطيع نصرهم {ولا 3 هم منا يصحبون} أي وليس هناك من يجيرهم من عذاب الله من آلهتهم ولا من غيرها فلا يقدر أحد على إجاتهم من عذاب الله متى حل بهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير أن الساعة لا تأتي إلا بغتة.
- 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 3- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان عليه الرسل من قبله وما لا قوه من أممهم.

1 {بل}: للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة (أي فجأة).

2 يكأكم: أي يحرسكم ويحفظكم إذ الكلاءة: الحفظ والحراسة يقال: كلاه الله كلاءة أي: حفظه

وحرسه ومنه قول الشاعر:

إنّ سليمي والله يكأها

ضنّت بشيء ما كان يرزؤها

والاستفهام في: من يكأكم: للنفي.

3 فسر يصحبون بيمنعون، ويجارون قال الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذاً
ليصحب منها والرماح دواني

(3/415)

4- بيان عجز الهة المشركين عن نصرتهم بدفع العذاب عنهم متى حل بهم.
5- بيان أن علة إصرار المشركين على الشرك والكفر هو عدم إقبالهم على تدبر القرآن الكريم وتفكرهم في آياته وما تحمله من هدى ونور.
بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْعَالِيُونَ (44) قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (45) وَلَئِن مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

شرح الكلمات:

متعنا هؤلاء وآباءهم : أي بما أنعمنا عليهم من الخيرات.
حتى طال عليهم العمر : فانغروا بذلك.
ننقصها من أطرافها : أي بالفتح على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين.
إنما أنذركم بالوحي: أي بأخبار الله تعالى التي يوحىها إلى وليس هناك شيء من عندي.
نفحة : أي وقعة من عذاب خفيفة.
يا ويلنا إنا كنا ظالمين : أي يقولون يا ويلنا أي يا هلاكنا.
إنا كنا ظالمين : أي بالشرك والتكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم.

(3/416)

الموازين القسط: أي العادلة.
فلا تظلم نفس شيئاً: لا حسنة ولا بزيادة معصية.
مِثْقَالِ حَبَّةٍ : أي زنة حبة من خردل.
وكفى بنا حاسبين: أي محصين لكل شيء.
معنى الآيات:
مازال السياق في إبطال دعاوي المشركين فقال تعالى : {بل متعنا [هؤلاء] بما أنعمنا عليهم هم

وأباؤهم فظنوا أن آلهتهم هي الحافظة لهم بل الله هو الحافظ حتى طال عليهم العمر 2 فانغروا بذلك . {أفلا يرون أنا نأتي الأرض} أرض الجزيرة بلادهم {ننقصها من أطرافها} بدخول أهلها في الإسلام بلداً بعد بلد. {أفهم 3 الغالبون}؟ الله هو الغالب حيث مكن لرسوله والمؤمنين وفتح عليهم، ثم أمر رسوله أن يقول لهم أيها المكذبون إنما أنذركم العذاب وأخوفكم من عاقبة شرككم بالوحي الإلهي لا من تلقاء نفسي، وقوله تعالى: {ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون} فالصم لحبهم الباطل الذي هم عليه لا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون وفي الخبر حبك الشيء يعمي ويصم فحبهم للشرك وآلهته جعلهم لا يسمعون فاستوى إنذارهم وعدمه وقوله تعالى: {ولئن 4 مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ} أي وقعة خفيفة من العذاب لصاحوا يدعون بالويل على أنفسهم قائلين {يا ويلنا إنا كنا ظالمين 5} فكيف بهم إذا وضعت الموازين العدل ليوم القيامة حيث لا تظلم نفس شيئاً وإن قل وإن كان مثقال حبة من حسنة أو سيئة أتينا بها ووزناها {وكفى بنا حاسبين 6} أي محصين لأعمال العباد لعلمنا المحيط بكل شيء وقدرتنا التي لا يعجزها شيء.. ألا فلننق الله أيها العقلاء!!

- 1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل مكة. أي: بسطنا لهم ولآبائهم نعيمها.
- 2 {طال عليهم العمر} أي: في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم؟ فانغروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل.
- 3 المس: اتصال بظاهر الجسم، والنفحة: المرة من النفح في العطية، يقال: نفحه بشيء إذا أعطاه. وما في التفسير مغن عن هذا.
- 4 هذا اعتراف منهم في حين لا ينفع الاعتراف.
- 5 قيل: يجوز أن يكون لكل عامل ميزان خاص به فتكثر الموازين كما قال الشاعر:
ملك تقوم الحادثات لعدله
فلكل حادثة لها ميزان
- 6 ضمير الجمع في {حاسبين}: مراعى فيه ضمير العظمة، وهو منصوب على الحال أو التمييز لكفى.

(3/417)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- طول العمر والرزق الواسع كثيراً ما يُسبب الغرور لصاحبه.

2- حب الشيء يعمي صاحبه حتى لا يرى إلا ما أحبه ويصمه بحيث لا يسمع إلا ما أحبه.

3- بيان ضعف الإنسان وأن أدنى عذاب ينزل به لا يتحملة ويصرخ داعياً يا هلاكاه.

4- تقرير البعث والحساب والجزاء.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (50)

شرح الكلمات:

الفرقان : التوراة لأنها فارقة بين الحق والباطل كالقرآن.

وضياء : أي يهدي إلى الحق في العقائد والشرائع.

وذكراً : أي موعظة.

يخشون ربهم بالغيب: أي يخافون ربهم وهم لا يرونه في الدنيا فلا يعصونه بترك واجب ولا بفعل حرام.

وهم من الساعة مشفقون: أي وهم من أهوال يوم القيامة وعذابه خائفون.

وهذا ذكر مبارك : أي القرآن الكريم تتال بركته قارئه والعامل به.

أفأنتم له منكرون: الاستفهام للتوبيخ يوبخ تعالى من أنكر أن القرآن كتاب الله.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أنه آتى موسى وهارون الفرقان¹ أي الحق الذي فرق بين حق موسى وهارون

1 وفسر الفرقان بالتوراة أيضاً وهو حق أيضاً وجائز أن يكون النصر، إذ معنى الفرقان: أنه ما يفرق به بين الحق والباطل بالقول أو العمل.

(3/418)

وبين باطل فرعون، كما فرق بين التوحيد والشرك يوم بدر يوم الفرقان وآتاها التوراة ضياء يستضاء بها في معرفة الحلال والحرام والشرائع والأحكام وذكراً أي موعظة للمتقين، ووصف المتقين بصفتين: الأولى أنهم يخشون ربهم أي يخافونه بالغيب¹ أي وهم لا يرونه والثانية: أنهم مشفقون² من الساعة أي مما يقع فيها من أهوال وعذاب وقوله تعالى: {وهذا ذكر مبارك} يشير إلى القرآن الكريم ويصفه بالبركة فبركته لا ترفع فكل من قرأه وعمل بما فيه نالته بركته قراءة الحرف الواحد منه بعشر حسنات لا تتقضى عجائبه ولا تكتنه أسراره ولا تكتشف كل حقائقه، هدى لمن استهدى، وشفاء لمن استشفى وقوله تعالى: {أفأنتم له منكرون³} يوبخ به العرب الذين آمنوا بكتاب اليهود إذ كانوا يسألونهم عما في كتابهم، وكفروا بالقرآن الذي هو كتابهم فيه ذكرهم وشرفهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إظهار منة الله تعالى على موسى وقومه ومحمد وأمه بإنزال التوراة على موسى والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.
 - 2 بيان صفات المتقين وهم الذين يخشون ربهم بالغيب فلا يعصونه بترك واجب ولا بفعل محرم: وهم دائماً في اشفاق وخوف من يوم القيامة.
 - 3- الإشادة بالقرآن الكريم حيث أنزله تعالى مباركاً.
 - 4- توبيخ وتقرير من يكفر بالقرآن وينكر ما فيه من الهدى والنور.
- وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)

- 1 قال القرطبي : {بالغيب} أي: غائبين لأنهم لم يروا الله تعالى بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنّ لهم رباً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، والباء في : {بالغيب} بمعنى الفاء أي : يخشونه تعالى في الغيب.
- 2 الإشفاق: هو رجاء حادث مخوف.
- 3 الاستفهام للتعجب والتوبيخ.

(3/419)

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

شرح الكلمات:

- رشده: أي هداه بمعرفة ربه والإيمان به ووجوب طاعته والتقرب إليه.
- التماثيل : جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه إنسان أو حيوان.
- التي أنتم لها عاكفون : أي مقبلون عليها ملازمون لها تعبداً.
- أم أنت من اللاعبين : أي الهازلين غير الجادين فيما يقولون أو يفعلون.
- ربكم رب السموات: أي المستحق للعبادة مالك السموات والأرض.
- الذي فطرهن: أي أنشأهن خلقاً وإيجاداً على غير مثال سابق.
- لأكيدن أصنامكم: أي لأحتالن على كسر أصنامكم وتحطيمها.
- جداداً: فتاتاً وقطعاً صغيرة.

إلا كبيراً لهم: إلا أكبر صنم لهم فإنه لم يكسره.

لعلهم إليه يرجعون : كي يرجعوا إليه فيؤمنوا بالله ويوحّدوه بعد أن يظهر لهم عجز آلهتهم.
معنى الآيات:

على ذكر ما منّ به تعالى على موسى وهارون ومحمد صلى الله عليه وسلم من إيتائه إياهم التوراة والقرآن ذكر أنه امتن قبل ذلك على إبراهيم فآتاه رشفه في صباه فعرّفه به وبجلاله وكماله ووجوب

(3/420)

الإيمان به تعالى وعبادته وحده، وإن عبادة من سواه باطلة، فقال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من 1 قبل﴾ وقوله: ﴿وكنّا به عالمين﴾ 2 أي بأهليته للدعوة والقيام بها لما علمناه ﴿إذ قال﴾ أي في الوقت الذي قال لأبيه أي آزر، وقومه منكراً عليهم عبادة غير الله ﴿ما هذه 3 التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ أي مقبلون عليها ملازمون لها فأجابوه بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين﴾ فأعلمنا عن جهلهم إذ لم يذكروا برهاناً على صحة أو فائدة عبادتها واكتفوا بالتقليد الأعمى وشأنهم في هذا شأن سائر من يعبد غير الله تعالى فإنه لا برهان له على صحة عبادة من يعبد إلا التقليد لمن رآه يعبده.

فرد عليهم إبراهيم بما أخبر تعالى عنه في قوله ﴿قال لقد كنتم أنتم وآبائكم﴾ أي الذين قلدتموهم في عبادة الأصنام ﴿في ضلال﴾ أي عن الهدى الذي يجب أن تكونوا عليه ﴿مبين﴾ لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، وردوا على إبراهيم قوله هذا فقالوا بما أخبر تعالى به عنهم ﴿قالوا أجتنتنا بالحق﴾ 4 أي فيما قلت لنا من أنّنا وآبائنا في ضلال مبين ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ أي في قولك الذي قلت لنا فلم تكن جاداً فيما تقول وإنما أنت لاعب لا غير ورد إبراهيم عليهم بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قال بل 5 ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي ليس ربكم تلك التماثيل بل ربكم الحق الذي يستحق عبادتكم الذي فطر السموات والأرض فأنشأهن خلقاً عجيباً من غير مثال سابق وأنا على كون ربكم رب السموات والأرض من الشاهدين إذ لا رب لكم غيره، ولا إله حق لكم سواه. ﴿وتالله﴾ قسماً به تعالى ﴿لأكيدن أصنامكم﴾ أي لأحتالن 6 عليها فأكسرهما ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ 7 أي بعد أن ترجعوا عنها وتتركوها وحدها.

1 جائر أن يكون من قبل موسى وهارون وجائر أن يكون من قبل النبوة والوحي إليه والرشد: الصلاح.

2 أي: بأهليته لإيتاء الرشد وصالح للنبوة، وجائر أن يكون عالمين به في الوقت الذي قال لأبيه وقومه: ﴿ما هذه التماثيل﴾ والظرف متعلق باذکر.

3 ظاهر السؤال أنه سؤال استعمال فلذا أجابوه بحسبه فقالوا: {وجدنا آباءنا لها عابدين}، وضمن (عاكفون) معنى العبادة فعُدِّي باللام.

4 الاستفهام للاستعلام أي: جئتنا بالحق في اعتقادك أم أنت مازح فيما تقول؟

5 أي: لست بلاعب ولا مازح {بل ربح رب السموات ..} الخ.

6 أقسم لهم بالله على أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان وإنما سيكيد أصنامهم فيكسرهما وذلك لوثوقه بربه تعالى، ولتوطينه نفسه على مفاواة المكروه في الذب عن دين الله والتاء في تالله تختص بالقسم بالله وحده، والواو تختص بكل اسم ظاهر والباء بكل مضمر ومظهر.

7 {مدبرين} حال مؤكدة لعاملها.

(3/421)

وفعلًا لما خرجوا إلى عيد لهم يقضون يوماً خارج المدينة أتى تلك التماثيل فكسرها فجعلها قطعاً متناثرة هنا وهناك إلا صنماً كبيراً لهم تركه 1 {لعلهم إليه يرجعون} أي يرجعون إلى إبراهيم فيعبدون معه ربّه سبحانه وتعالى عندما يتبين لهم بطلان عبادة الأصنام لأنها لم تستطع أن تدفع عن نفسها فكيف تدفع عن غيرها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مظاهر إتمام الله وإكرامه لمن أصطفى من عباده.

2- تقرير النبوة والتوحيد، والتنديد بالشرك والمشركين.

3- ذم التقليد وأنه ليس بدليل ولا برهان للمقلد على ما يعتقد أو يفعل.

4- مشروعية الشهادة وفضلها في مواطن تعز فيها ويحتاج إليها.

5- تغيير المنكر باليد لمن قدر عليه مقدم على تغييره باللسان والجمع بينهما أفضل.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا

فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ

فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)

ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ (65)

شرح الكلمات:

بالهتتا : أي بأصنامهم التي سموها آلهة لأنهم يعبدونها ويؤلهونها.

1 تركه لم يكسره وعلق الفأس في عنقه. وقوله: {العلم إليه يرجعون} : جائز أن يكون المراد بالرجوع إلى الصنم في تكسيرها، وما في التفسير أولى وأصوب.

(3/422)

فتى يذكرهم : أي بالعيب والانتقاص.
على أعين الناس : أي ظاهراً يروونه بأعينهم.
يشهدون : أي عليه بأنه الذي كسر الآلهة، ويشهدون العقوبة التي نزلها به.
أنت فعلت هذا: هذه صيغة الاستنطاق والاستجواب.
بل فعله كبيرهم هذا : أشار إلى إصبعه نحو الصنم الكبير الذي علق به الفأس قائلاً بل فعله كبيرهم هذا وورى بإصبعه تحاشياً للكذب.
يرجعوا إلى أنفسهم: أي بعد التفكير والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم ما لا ينطق.
نكسوا على رؤوسهم : أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى.
ما هؤلاء ينطقون: فكيف تطلب منا أن نسألهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم فيما دار بين إبراهيم الخليل وقومه من حوار حول العقيدة انه لما استغل إبراهيم فرصة خروج القوم إلى عيدهم خارج البلد ودخل البهو فكسر الآلهة فجعلها قطعاً متناثرة وعلق الفأس بكبير الآلهة المزعومة وعظيمها وخرج فلما جاء المساء وعادوا إلى البلد ذهبوا إلى الآلهة المزعومة لأخذ الطعام الموضوع بين يديها لتباركه في زعمهم واعتقادهم الباطل وجدوها مهشمة مكسرة صاحوا قائلين: {من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين} فأجاب بعضهم بعضاً قائلاً: {سمعنا 1 فتى يذكرهم} أي شاباً يذكر الآلهة بعيب وازدراء، واسمه إبراهيم، وهنا قالوا إذاً {فأتوا به على أعين 2 الناس} لنشاهده ونحقق معه فإذا ثبت أنه هو عاقبناه وتشهد الناس عقوبته فيكون ذلك نكالاً لغيره، وجاءوا به عليه السلام وأخذوا في استنطاقه فقالوا ما أخبر تعالى به عنهم: {أنت فعلت هذا}

1 جائز أن يكون إبراهيم لما قال: متوعداً أصنامهم {تالله لأكيدين أصنامكن} كان هناك من سمعه من ضعفة القوم أو سمعه من سمعه يعيب الآلهة قبل أن يتوعدها بالكسر.
2 في هذا دليل على أنه كان لا يؤخذ أحد بدعوى أحد قد لا تثبت بل لا بد من التحري حتى تثبت أو لا تثبت كما هو في شرعنا الإسلامي.

أي التكسير والتحطيم {يا إبراهيم}؟ فأجابهم بما أخبر تعالى به عنه بقوله: {قال بل فعله 1 كبيرهم هذا} يشير بإصبعه إلى كبير الآلهة تورية، {فاسألوهم إن كانوا ينطقون} تقريراً لهم وتوبيخاً وهنا رجعوا إلى أنفسهم باللائمة فقالوا: {إنكم أنتم الظالمون} أي حيث تألهون ما لا ينطق ولا يجيب ولا يدفع عن نفسه فكيف عن غيره، وقوله تعالى: {ثم نكسو على رؤوسهم 2} أي قلبهم الله رأساً على عقب فبعد أن عرفوا الحق ولاموا على أنفسهم عادوا إلى الجدل بالباطل فقالوا: {لقد علمت} أي يا إبراهيم ما {هؤلاء ينطقون} فكيف تطلب منا أن نسألهم وأنت تعلم أنهم لا ينطقون. كما أن اعترافهم بعدم نطق الآلهة المدعاة إنتكاس منهم إذ اعترفوا ببطلان تلك الآلهة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الظلم معروف لدى البشر كلهم ومنكر بينهم ولولا ظلمة النفوس لما أقروه بينهم.
- 2- إقامة البينة على الدعاوي أمر مقرر في عرف الناس وجاءت به الشرائع من قبل.
- 3- أسلوب المحاكمة يعتمد على الاستنتاج والاستجواب أولاً.
- 4- مشروعية التورية خشية القول بالكذب 3.

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

1 قوله: {بل فعله كبيرهم هذا} قاله من أجل أن يقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرّون فيقول لهم: فلم تعبدونهم إذا؟! فتقوم له الحجة عليهم من أنفسهم ولذا يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه فإنه أقطع للشبهة وأقرب في الحجة.

2 قال ابن عباس رضي الله عنهما: أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم.

3 الكذب: هو الإخبار بما يخالف الواقع، والتورية: أن يقول أو يفعل شيئاً ويوري بغيره تجنباً للكذب، وفي الحديث الصحيح: "لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث: قوله: إني سقيم، وقوله لسارة: أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم" وهي في الواقع معارضة وليست بالكذب الصريح، وكانت في ذات الله تعالى.

فَاعْلَيْنَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَزَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)

شرح الكلمات:

مالا ينفعكم شيئاً: أي آلهة لا تتفعمكم شيئاً ولا تضركم إن أرادت ضركم. أف لكم: أي قبلاً لكم ولما تعبدون من دون الله.

قالوا: حرقوه: أي أحرقوه بالنار انتصاراً لأهتكم التي كسرها.

برداً وسلاماً: أي على إبراهيم فكانت كذلك فلم يحرق منه غير وثاقه "الحبل الذي وثق به". كيداً: وهو تحريقه بالنار للتخلص منه.

فجعلناهم الأخسرين: حيث خرج من النار ولم تحرقه ونجا من قبضتهم وذهب كيدهم ولم يحصلوا على شيء.

ونجيناها ولوطاً: أي ابن أخيه هارون.

التي باركنا فيها: وهي أرض الشام.

ويعقوب نافلة: زيادة على طلبه الولد فطلب ولداً فأعطاه ما طلب وزاده آخر.

وكلاً جعلنا صالحين: أي وجعلنا كل واحد منهم صالحاً من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله كاملة وحقوق الناس كذلك.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أن إبراهيم عليه السلام قال لقومه منكراً عليهم عبادة ألهتهم {أفتعبدون 1

1 الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتفريع.

(3/425)

من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم} أي أتعبدون آلهة دون الله علمتم أنها لا تتفعمكم شيئاً ولا تضركم ولا تنطق إذا استنطقت ولا تجيب إذا سئلت {أف لكم ولما تعبدون من دون الله} أي قبلاً لكم ولتلك التماثيل التي تعبدون من دون الله الخالق الرازق الضار النافع {أفلا تعقلون 1} قبح عبادتها وباطل تأليها وير جماد لا تسمع ولا تنطق ولا تتفعم ولا تضر وهنا أجابوا 2 بما أخبر تعالى به عنهم فقالوا: {حرقوه 3} أي أحرقوا إبراهيم بالنار {وانصروا آلهتكم} التي أهانها وكسرها {إن كنتم فاعلين} أي مريدين نصرتها حقاً وصدقاً. ونفذوا ما أجمعوا عليه وجمعوا الحطب وأججوا النار في بنيان خاص وألقوه فيه بواسطة منجنيق لقوة لهبها وشدة حرها 4 وقال تعالى للنار ما أخبر به في قوله: {قلنا يا نار

كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} فكانت كما طلب منها ولم تحرق غير وثاقه الحبل الذي شددت به يده، ورجلاه ولو لم يقل وسلاماً لكان من الجائر أن تتقلب النار جبلاً من تلج ويهلك به إبراهيم عليه السلام. روى أن والد إبراهيم لما رأى إبراهيم لم تحرقه النار وهو يتقصد عرقاً قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم! وقوله تعالى: {وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين} أي أرادوا بإبراهيم مكرراً وهو إحراقه بالنار فخيَّب الله مسعاهم وأنجى عبده وخليئه من النار وأحبط عليهم ما كانوا يأملون فخسروا في كل أعمالهم التي أرادوا بها إهلاك إبراهيم، وقوله تعالى: {ونجيناه ولوطاً} 5 أي ونجيناه إبراهيم وابن أخيه هاران وهو لوط {إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} وهي أرض الشام فنزل إبراهيم

1 الاستفهام للتوبيخ والتأنيب.

2 بعد إن أعيتهم الحجة وانقطعوا ببيان اللسان لانوا إلى قوة السنان، وهذا شأن الإنسان إذا كتب عليه الخسران، والعياذ بالرحمن.

3 روي عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج: أن الذي قال حرّقه: رجل من الأكراد من بادية فارس واسمه هيزرٌ وخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة: وقيل: إن القائل: ملكهم نمرود. والله أعلم.

4 روي أنهم جمعوا الحطب في مدة شهر كامل ولما ألقوه في النار عرض له جبريل عليه السلام فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل. وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهم لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها ولم تبق دابة في المنطقة إلا أطفأت عن إبراهيم النار إلا الوزغ فإنها كانت تتفخ عليه فلذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها الفويسقة.

5 هذه النجاة ثانية. الأولى كانت من النار وهذه من ديار الكفار، إذ هاجر من أرض الكلدانيين إلى أرض فلسطين، وهي بلاد الكنعانيين يومئذٍ، وهجرة إبراهيم هذه أول هجرة في تاريخ الإسلام، إذ خرج إبراهيم وابن أخيه لوط بن هاران وزوجه وابنة عمه سارة عليهم السلام، ونصب لوط على المفعول معه، وضمّن فعل نجيناه معنى الإخراج فعدي بالي.

6 قيل لها مباركة لكثرة خصبها وأنهارها وثمارها ولأنها معادن الأنبياء والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير. إذا لزم مكانه ولم يبرحه.

(3/426)

بفلسطين ونزل لوط بالمؤتفة وهي قرى قوم لوط التي بعد دمارها استحالت إلى بحيرة غير صالحة للحياة فيها وقوله: {باركنا فيها للعالمين} أي بارك في أرزاقها بكثرة الأشجار والأنهار والثمار لكل من

ينزل بها من الناس كافرهم ومؤمنهم لقوله: { للعالمين } وقوله تعالى: { ووهبنا له } أي لإبراهيم اسحق حيث سأل الله تعالى الولد، وزاده يعقوب نافلة 1 وقوله: { وكلا جعلنا صالحين } أي وجعلنا كل واحد منهم من الصالحين الذين يعبدون الله بما شرع لهم فأدوا حقوق الربّ تعالى كاملة، وأدوا حقوق الناس كاملة وهذا نهاية الصلاح.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان قوة حجة إبراهيم عليه السلام، ومثانة أسلوبه في دعوته 2 وذلك مما آتاه ربه.
- 2- مشروعية توبيخ أهل الباطل وتأنيبهم.
- 3- آية إبطال مفعول النار فلم تحرق إبراهيم إلا وثاقه لما أراد الله تعالى ذلك.
- 4- قوة التوكل على الله كانت سبب تلك المعجزة إذ قال إبراهيم حسبي الله ونعم الوكيل.
- فقال الله تعالى للنار: {كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} فكانت، وكفاه ما أهمه بصدق توكله عليه، ويؤثر أن جبريل عرض له قبل أن يقع في النار فقال هل لك يا إبراهيم من حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل.
- 5- تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين.
- 6- خروج إبراهيم من أرض العراق إلى أرض الشام كانت أول هجرة في سبيل الله في التاريخ.
- وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلَوْ طَآءَنَّا هُكْمًا وَعَلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ

1 نافلة: منصوب على الحال وصاحبها: اسحق ويعقوب والنافلة الزيادة غير الموعودة.

2 قال تعالى : {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه} من سورة الأنعام.

(3/427)

الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصْرَانًا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِضْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

شرح الكلمات:

أمة: أي يقتدى بهم في الخير.

يهدون بأمرنا: أي يرشدون الناس ويعلمونهم ما به كمالهم ونجاتهم وسعادتهم بإذن الله تعالى لهم بذلك حيث جعلهم رسلاً مبلغين.

وكانوا لنا عابدين: أي خاشعين مطيعين قائلين بأمرنا.
ولوطاً آتيناها حكماً وعلماً: أي أعطينا لوطاً حكماً أي فصلاً بين الخصوم وفقهاً في الدين وكل هذا يدخل تحت النبوة والرسالة وقد نبأه وأرسله.
تعمل الخبائث: كاللواط وغيره من المفاسد.
فاسقين: أي عصاة متمردين عن الشرع تاركين للعمل به.
ونوحاً إذ نادى من قبل: أي واذكر نوحاً إذ دعا ربه على قومه الكفرة.
من الكرب العظيم: أي من الغرق الناتج عن الطوفان الذي عم سطح الأرض.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أفضال الله تعالى على إبراهيم وولده فقال تعالى: {وجعلناهم} أي إبراهيم واسحق ويعقوب أئمة هداة يقتدى بهم في الخير ويهدون الناس إلى

(3/428)

دين الله تعالى الحق بتكليف الله تعالى لهم بذلك حيث نبأهم وأرسلهم. وهو معنى قوله تعالى: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} 1 وقوله: {وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة} أي أوحينا إليهم بأن يفعلوا الخيرات جمع خير وهو كل نافع غير ضار فيه مرضاة الله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. وقوله تعالى: {وكانوا لنا عابدين} أي امتثلوا أمرنا فيما أمرناهم به وكانوا لنا مطيعين خاشعين وهو ثناء عليهم بأجمل الصفات وأحسن الأحوال وقوله تعالى: {ولوطاً آتيناها حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث} 3 إنهم كانوا قوم سوء فاسقين {أي وكما آتينا إبراهيم وولديه ما آتيناهم من الإفضال والإنعام الذي جاء ذكره في هذا السياق آتينا لوطاً وقد خرج مهاجراً مع عمه إبراهيم آتيناها أيضاً حكماً وعلماً ونبوة ورسالة متضمنة حسن الحكم والقضاء وأسرار الشرع والفقهاء في الدين، هذه مئة وأخرى آتينا نجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وأهلكنا أهلها لأنهم كانوا قوم سوء لا يصدر عنهم إلا ما يسوء إلى الخلق فاسقين عن أمرنا خارجين عن طاعتنا، وقوله: {وآدخناهم في رحمتنا إنه من الصالحين} وهذا إنعام آخر أعظم وهو إدخاله في سلك

المرحومين برحمة الله الخاصة لأنه من عباد الله الصالحين.
وقوله تعالى: {ونوحاً} أي واذكر يا رسولنا في سلك هؤلاء الصالحين عبدنا ورسولنا نوحاً الوقت الذي نادى ربه من قبل إبراهيم 4 فقال إني مغلوبٌ فانتصر، {فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب} 5 العظيم {حيث نجاه تعالى وأهله إلا امرأته وولده كنعان فإنهما لم يكونا من أهله لكفرهما وظلمهما فكانا من المغرقيين. وقوله: {ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا} أي ونصرناه بإنجائنا له منهم فلم يمسوه بسوء، وأغرقتناهم أجمعين لأنهم كانوا قوم سوء فاسقين ظالمين 6.

- 1 وجائز أن يكون معنى {بأمرنا}: أي: بما أنزلنا عليهم بوحينا من الأمر والنهي كأنه قال: بكتابتنا وما بينا فيه من التشريع المحقق للأخذين به سعادة الدنيا والآخرة والأئمة جمع إمام وهو الرئيس الذي يقتدى به في الخير لا في الشر.
- 2 {لولوطاً}: منصوب على الاشتغال أي: وآتينا لوطاً آتينا. والحكم: الحكمة وهو النبوة والعلم علم الشريعة.
- 3 الخبائث: جمع خبيثة وهي الفعلة الشنيعة، ومن خبائثهم: اللواط، والتضارط في الأندية وحذف الحصى، والتحريش بين الديك والكلاب. والقرية هي سدوم وعمورة، وما حولهما إذ كانت سبع مدن قلب جبريل منها ستة وأبقى واحدة للوط وعياله وهي: زغر من كورة فلسطين.
- 4 من قبل إبراهيم ولوط عليهما السلام.
- 5 الكرب: هو العَم الشديد وهو هنا: الطرفان.
- 6 السوء: بفتح السين مصدر: القبيح المكروه من القول والفعل ويضم السين اسم مصدر وهو أعم من السوء بفتح السين.

(3/429)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف القائمين بها.
 - 2- فضل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات.
 - 3- ثناء الله تعالى على أوليائه وصالحي عبادته بعبادتهم، وخشوعهم له.
 - 4- الخبث إذا كثر في الأمة استوجبت الهلاك والدمار.
 - 5- التنديد بالفسق والتحذير من عواقبه فإنها مدمرة والعياذ بالله.
 - 6- تقرير النبوة المحمدية وتأكيدتها إذ مثل هذا القصص لا يتأتى إلا لمن يوحى إليه.
- وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

شرح الكلمات:

في الحرث : أي في الكرم الذي رعته الماشية ليلاً.
نفشت فيه 1 : أي رعته ليلاً بدون راع.

1 النفس : الرعي ليلاً والهمل: الرعي بالنهار.

(3/430)

شاهدين: أي حاضرين صدور حكمهم في القضية لا يخفى علينا شيء من ذلك.
ففهمناها: أي القضية التي جرى فيها الحكم.
وكلاً آتينا حكماً وعلماً: أي كلاً من داود وولده سليمان أعطيناه حكماً أي النبوة وعلماً بأحكام الله وفقهها.

يسبحن : أي معه إذا سبح.
وكنا فاعلين: أي لما هو أغرب وأعجب من تسبيح الجبال والطير فلا تعجبوا.
صنعة لبوس لكم : هي الدروع وهي من لباس الحرب.
لتحصنكم: أي تقيكم وتحفظكم من ضرب السيوف وطعن الرماح.
فهل أنتم شاكرون: أي اشكروا فالاستفهام معناه الأمر هنا.
إلى الأرض التي باركنا: أي أرض الشام.
يغوصون : أي في أعماق البحر لاستخراج الجواهر.
ويعملون عملاً دون ذلك : أي دون الغوص كالبناء وغيره وبعض الصناعات.
وكنا لهم حافظين: أي لأعمالهم حتى لا يفسدوها.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر إفضالات الله تعالى وإنعامه على من يشاء من عباده، وفي ذلك تقرير لنبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم التي كذبت بها قريش فقال تعالى: {وداود وسليمان} أي واذكر يا نبينا داود وسليمان {إذ يحكمان في الحرث} أي اذكرهما في الوقت الذي كانا يحكمان في الحرث الذي {نفشت فيه غنم القوم} أي رعت فيه ليلاً بدون راع فأكلته وأتلفته {وكنا لحكمهم شاهدين} حاضرين لا يخفى علينا ما حكم به كل منهما، إذ حكم داود بأن يأخذ صاحب الحرث الماشية مقابل ما أتلفته لأن المتلف يعادل قيمة الغنم التي أتلفته، وحكم سليمان بأن يأخذ صاحب الماشية الزرع يقوم عليه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الماشية يستغل صوفها ولبنها وسخالها فإذا

(3/431)

ردت إليه كرومه كما كانت أخذها ورد الماشية لصاحبها لم ينقص منها شيء هذا الحكم أخبر تعالى أنه فهم فيه سليمان وهو أعدل من الأول وهو قوله تعالى: {ففهمناها 1} أي الحكومة أو القضية أو الفتيا سليمان، ولم يعاتب داود على حكمه، وقال: {وكلاً آتينا 2 حكماً وعلماً} تلافياً لما قد يظن بعضهم أن داود دون ولده في العلم والحكم.

وقوله: {وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير} هذا ذكر لبعض ما أنعم به على داود عليه السلام وهو أنه سخر الجبال والطير تسبح معه إذا سبح سواء أمرها بذلك فأطاعته أو لم يأمرها فإنه إذا صلى وسبح صلت معه وسبحت، وقوله: {وكنا فاعلين} أي لما هو أعجب من تسخير الجبال والطير تسبح مع سليمان لأننا لا يعجزنا شيء وقد كتب هذا في كتاب المقادير فأخرجه في حينه، وقوله تعالى: {وعلمناه} أي داود {صنعة لبوس 3 لكم} وهي الدرع السابغة التي تقي لابسها طعن الرماح وضرب السيوف بإذن الله تعالى فهي آلة حرب ولذا قال تعالى {لتحصنكم من بأسكم 4} {فهل أنتم 5 شاكرون؟} {أمر لعباده بالشكر على إنعامه عليهم والشكر يكون بحمد الله تعالى والاعتراف بإنعامه، وطاعته وصرف النعمة فيما من أجله أنعم بها على عبده، وقوله {ولسليمان} أي وسخرنا لسليمان {الريح عاصفة} شديدة السرعة {تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها} إذ يخرج غازياً أول النهار وفي آخره تعود به الريح تحمل بساطه الذي هو كأكبر سفينة حربية اليوم إلى الأرض التي بارك الله وهي أرض الشام. وقوله: {وكنا بكل شيء عالمين} يخبر تعالى أنه كان وما زال عليماً بكل شيء ما ظهر للناس وما غاب عنهم فكل أحداث الكون تتم حسب علم الله وإذنه وتقديره وحكمته فلذا وجبت له الطاعة واستحق الألوهة والعبادة.

1 يروى أن سليمان كان على باب المحكمة فإذا خرج الخصمان سألهما بم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقال: قضى بالغنم لصاحب الحرث فقال: لعل الحكم غير هذا انصرفا معي فأتى أباه فقال: يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع فقال وما هو؟ فقال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث إلى آخر ما هو في التفسير.

2 اختلف هل كان حكمهما بوجي أو باجتهاد فإن كان بوجي فهو نسخ للحكم الأول بالثاني، وإن كان باجتهاد وهو ما عليه الجمهور، ولم يخطئ داود ولكن الحكم الذي ألهمه سليمان كان أرفق بالطرفين.

3 هذا مع إلانة الحديد له فقال تعالى في سورة سبأ: {ولأننا له الحديد أن اعمل سابغات} واللبوس في العربية: سلاح الحرب من سيف ورمح ودرع وغيرها واللبوس أيضاً: كل ما يلبس قال الشاعر:

لبس لكل حالة لبوسها

إمّا نعيمها وإمّا بؤسها

4 قرأ حفص: {لتحصنكم} بالتاء أي: الدروع، وقرأ نافع {ليحصنكم}: أي: اللبوس وقرأ ورش
لنحصنكم بالنون، والإحصان: الوقاية والحماية وفي الآية دليل على وجوب الصناعة على الكفاية.
5 الاستفهام هنا للأمر بالشكر.

(3/432)

وقوله: {ومن الشياطين من يغوصون 1 له} أي وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في
أعماق البحار لاستخراج الجواهر، {ويعملون عملاً دون ذلك} كالبناء وصنع التماثيل والمحاريب
والجفان وغير ذلك. وقوله تعالى: {وكنا لهم حافظين} أي وكنا لأعمال أولئك العاملين من الجن
حافظين لها عالمين بها حتى لا يفسدوها بعد عملها مكرماً منهم أو خديعة فقد روى أنهم كانوا يعملون
ثم يفسدون ما عملوه حتى لا ينتفع به. هذا كله من إنعام الله تعالى على داود وسليمان وغيره كثير
فسبحان ذي الأنعام والافضال إله الحق ورب العالمين.

هداية الآيات:

من هداية الآلات:

1- وجوب نصب القضاة للحكم بين الناس.

2- بيان حكم الماشية ترعى في حرث الناس وإن كان شرعنا على خلاف شرع من سبقنا فالحكم
عندنا إن رعت الماشية لئلاً قوم المتلف على صاحب الماشية ودفعه لصاحب الزرع، وإن رعت نهراً
فلا شيء لصاحب الزرع لأن عليه أن يحفظ زرع من أن ترعى فيه مواشي الناس لحديث العجماء
جبار وحديث ناقة البراء بن عازب.

3- فضل التسبيح.

4- وجوب صنع آلة الحرب وإعدادها للجهاد في سبيل الله.

5- وجوب شكر الله تعالى على كل نعمة تستجد للعبد.

6- بيان تسخير الله تعالى الجن لسليمان يعملون له أشياء.

7- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ من أرسل هؤلاء الرسل وأنعم عليهم بما أنعم لا

يستتكر عليه إرسال محمد رسولاً وقد أرسل من قبله رسلاً.

8- كل ما يحدث في الكون من أحداث يحدث بعلم الله تعالى وتقديره ولحكمة تقضيه.

1 الغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص لاستخراج اللآليء وفعله يقال له: الغواصة
على وزن حياكة (مهنة).

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ
وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ
مِّنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ (86)

شرح الكلمات:

وأيوب: أي واذكر أيوب.

إذ نادى ربه: أي دعاه لما ابتلى بفقد ماله وولده ومرض جسده.

مسنى الضر: هو ما ضر بجسمه أو ماله أو ولده.

وذكرى للعابدين: أي عظة للعابدين، ليصبروا فيثابوا.

وأدخلناهم في رحمتنا: بأن نبأناهم فانخرطوا في سلك الأنبياء إنهم من الصالحين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر إفضالات الله تعالى وإنعامه على من شاء من عباده الصالحين فقوله
تعالى في الآية الأولى (83) {وأيوب} أي واذكر عبدنا في شكره وصبره وسرعة أوبته، وقد ابتليناه
بالعافية والمال والولد، فشكر وابتليناه بالمرض وذهاب المال والأهل والولد فصبر. أذكره {إذ نادى
ربه} أي داعياً ضارعاً بعد بلوغ البلاء متتهاه رباً

أي يا رب {إني مسني} الضر وأنت أرحم الراحمين {فاستجبنا له} دعاه {فكشفنا ما به من ضر
وأتيناه أهله} من زوجة وولد {ومثلهم معهم} أي ضاعف له ما أخذه منه بالابتلاء بعد الصبر وأما
المال فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليه رجلاً من جرّادٍ من ذهب فكان أيوب يحثو
في ثوبه حثيثاً فقال له ربه في ذلك فقال من ذا الذي يستغنى عن بركتك يا رب. وقوله تعالى: {رحمة
من عندنا} أي رحمانه رحمة خاصة، وجعلنا قصته ذكرى وموعظة للعابدين لنا لما نبئناهم بالسراء
والضراء فيشكرون ويصبرون انتساء بعبدنا أيوب {إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب}2.
وقوله تعالى: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل} أي واذكر في عداد المصطفين من أهل الصبر
والشكر إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وإدريس وهو اخنوخ وذا الكفل {كل من الصابرين} على عبادتنا
الشاكرين لنعمائنا، وأدخلناهم في رحمتنا فنبأنا منهم من نبأنا وأنعمنا عليهم وأكرمناهم بجوارنا إنهم
من الصالحين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- علو مقام الصبر ومثله الشكر فالأول على البأساء والثاني على النعماء.
- 2- فضيلة الدعاء وهو باب الاستجابة وطريقها من ألهمه ألهم الاستجابة.
- 3- في سير الصالحين مواعظ وفي قصص الماضيين عبر.
- 4- من ابتلى بفقد مال أو أهل أو ولد فصبر كان له من الله الخلف وما يقال عند المصيبة "إنا لله وإنا إليه لراجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها".

1 هل قول أيوب: {ربّ إني مسني الضرّ} يتنافى مع الصبر؟ والجواب: هذه المسألة ذكر القرطبي في تفسيره نحواً من ستة عشر قولاً، والصحيح أن هذا لا ينافي الصبر لأنه دعاء، والدليل هو قوله تعالى: {فاستجبنا له} ولم يكن شكوى لأنّ الاستجابة تأتي بعد الدعاء لا الاشتكاء، قال الجنيد: عزّفه فاقّة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال.

2 اختلف في مدة مرضه، أصح ما قيل فيها أنها ثمانى عشرة سنة وهذا مروى عن النبي صلى الله عليه وسلم.

3 اختلف في ذي الكفل من هو؟ وأرجح الأقوال ما رواه أبو موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن ذا الكفل لم يكن نبياً ولكنه كان عبداً صالحاً فتكفل بعمل رجل صالح عند موته وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه".

(3/435)

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَرَكَرِبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ رُوحَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91)

شرح الكلمات:

وذا النون : هو يونس بن متىّ عليه السلام وأضيف إلى النون الذي هو الحوت في قوله تعالى {وذا النون} تكن كصاحب الحوت} لأن حوته كبيرة ابتعلته.

إذ ذهب مغاضباً: أي لربه تعالى حيث لم يرجع إلى قومه لما بلغه أن الله رفع عنهم العذاب.

فظن أن لن نقدر عليه: أي أن لن نحبس ونضيق عليه في بطن الحوت من أجل مغاضبته.

في الظلمات : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل.
ونجيناها من الغم : أي الكرب الذي أصابه وهو في بطن الحوت.
لا تذرني فرداً: أي بلا ولد يرث عني النبوة والعلم والحكمة بقريئة ويرث

(3/436)

من آل يعقوب.
رغباً ورهباً: أي طمعاً فينا ورهباً منا أي خوفاً ورجاءاً.
أحصنت فرجها: أي صانته وحفظته من الفاحشة.
من روحنا: أي جبريل حيث نفخ في كم درعها عليها السلام.
آية للعالمين: أي علامة على قدرة الله تعالى ووجوب عبادته بذكره وشكره.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر افضال الله تعالى وإنعامه على من يشاء من عباده فقال تعالى: ﴿وذا النون﴾ أي واذكر ذا النون أي يونس بن متى ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ لربه تعالى حيث لم يصبر على بقائه مع قومه يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وطاعته وطاعة رسوله فسأل لهم العذاب، ولما تابوا ورفع عنهم العذاب بتوبتهم وعلم بذلك فلم يرجع إليهم فكان هذا منه مغاضبة لربه تعالى وقوله تعالى عنه: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أي ظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يحبسه في بطن الحوت، لا يضيق عليه وهو حسن ظن منه في ربه سبحانه وتعالى؟ ولكن لمغاضبته ربه بعدم العودة إلى قومه بعد أن رفع عنهم العذاب أصابه ربه تطهيراً له من أمر المخالفة الخفيفة بأن ألقاه في ظلمات ثلاث، ظلمة الحوت والبحر والليل ثم ألهمه الدعاء الذي به النجاة فكان يسبح في الظلمات الثلاث ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجاب الله تعالى له وهو معنى قوله: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ الذي أصابه من وجوده في ظلمات محبوساً لا أنيس ولا طعام ولا شراب مع غم نفسه من جراء عدم عودته إلى قومه وقد أنجاهم الله من العذاب. وهو سبب المصيبة، وقوله تعالى:

1 قيل: ﴿مغاضباً لربه﴾ أي: لأجل ربه تعالى حيث عصاه قومه فكان غضبه لله تعالى وهو تأويل حسن إذ يقال: فلان غضب الله. أي: لأجله. وجائز أن يكون مغاضباً لقومه إذ ردوا دعوته ولم يستجيبوا له.

2 ﴿من الظالمين﴾ حيث ترك مداومة قومه والصبر عليهم أو في الخروج من غير إذن له فنزّه ربه

عن الظلم ونسبه إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً.

3 روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "دعاء ذي النون في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له".

(3/437)

{وكذلك ننجي المؤمنين 1} مما قد يحل بهم من البلاء وقوله تعالى: {وزكريا} أي اذكر يا رسولنا زكريا في الوقت الذي نادى ربه داعياً ضارعاً قائلاً: {رب} أي يا رب {لا تنرني فرداً} أي لا تتركني فرداً لا ولد لي يرثني في نبوتي وعلمي وحكمتي ويرث ذلك من آل يعقوب حتى لا تنقطع منهم النبوة والصلاح وقوله: {وأنت خير الوارثين} ذكر هذا اللفظ توسلاً به إلى ربه ليستجيب له دعاءه واستجاب له والحمد لله. فوهبه يحيى وأصلح له زوجه بأن جعلها ولوداً بعد العقر حسنة الخلق والخلق. وقوله تعالى: {إنهم كانوا يسارعون} أي زكريا ويحيى ووالدته كانوا يسارعون في الطاعات والقربات أي في فعلها والمبادرة إليها. وقوله: {ويدعوننا رغباً 2 ورهباً 3} هذا ثناء عليهم أيضاً إذ كانوا يدعون الله رغبة في رحمته ورهبة وخوفاً من عذابه وقوله: {وكانوا لنا خاشعين} أي مطيعين ذليلين متواضعين وهم يعبدون ربه بأنواع العبادات.

وقوله تعالى: {والتي أحصنت فرجها 4 فنفخنا فيها من روحنا 5} أي واذكر يا نبينا تلك المؤمنة التي أحصنت فرجها أي منعتة مما حرم الله تعالى عليها وهي مريم بنتت عمران اذكرها في عداد من أنعمنا عليهم وأكرمناهم وفضلناهم على كثير من عبادنا الصالحين، حيث نفخنا فيها من روحنا إذ أمرنا جبريل روح القدس ينفخ في كم درعها فسرت النفخة إلى فرجها فحبلت وولدت في ساعة من نهار، وقوله تعالى: {وجعلناها وابنها} أي عيسى كلمة الله وروحه {آية} أي 6 علامة كبرى على وجودنا وقدرتنا وعلما وحكمتنا وإنعامنا وواجب عبادتنا وتوحيدينا فيها حيث لا يعبد غيرنا {للعالمين} أي للناس أجمعين

1 قرأ ابن عامر: {نجي} بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الماضي وإضمار المصدر أي: وكذلك نجى النجاء المؤمنين كما يقال: ضرب زيداً بمعنى: ضرب الضرب زيداً.

2 قيل: الرغب: الدعاء ببطون الأكف إلى السماء، والرهب: رفع ظهورهما. روى الترمذي عن عمر رضي الله عنهما. قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه" وروى الترمذي أيضاً عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سألتكم الله فأسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورهما وامسحوا بهما وجوهكم". وعن ابن عباس: إن رفع اليدين حذاء الصدر هو الدعاء ورفعهما حتى يجاوز بهما الرأس: فهو الابتهاال.

- 3 {رغباً ورهباً} يصح نصبهما على المصدرية وعلى الحال، وعلى المفعول لأجله.
- 4 {أحصنت فرجها}: أي: عفت فامتعت عن الفاحشة، وقيل: إن المراد من فرجها فرج القميص: أي لم تعلق بثيابها ربية أي: أنها طاهرة الأثواب وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، قال السهيلي: هذا من لطيف الكناية لأن القرآن أطف إشارة وأنزه عبارة.
- 5 إضافة الروح إلى الله تعالى: إضافة تشريف كبيت الله، وقيل فيه: روح الله لأنه مبعوث من قبله سبحانه وتعالى.
- 6 آية اسم جنس فمريم آية، وعيسى عليه السلام آية.

(3/438)

يستدلون بها على ما ذكرنا آنفاً من وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ووجوب عبادته وتوحيده فيها.
هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- فضيلة دعوة ذي النون: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} . إذ ورد أنه ما دعا بها مؤمن إلا استجيب له، وقوله تعالى: {وكذلك ننجي المؤمنين} يقوي هذا الخبر.
 - 2- استحباب سؤال الولد لغرض صالح لا من أجل الزينة واللهو به فقط.
 - 3- تقرير أن الزوجة الصالحة من حسنة الدنيا.
 - 4- فضيلة المسارعة في الخيرات والدعاء برغبة ورهبة والخشوع في العبادات وخاصة في الصلاة والدعاء.
 - 5- فضيلة العفة والاحصان للفرج.
 - 6- كون مريم وابنها آية لأن مريم ولدت من غير فحل، ولأن عيسى كان كذلك وكلم الناس في المهدي، وكان يحيى الموتى بإذن الله تعالى.
- إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَانِتُونَ (94) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِمَّنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ (96)

(3/439)

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ (97)

شرح الكلمات:

إن هذه أمتكم: أي ملتكم وهي الإسلام ملة واحدة من عهد آدم إلى العهد المحمدي إذ دين الأنبياء واحد وهو عبادة الله تعالى وحده بما يشرع لهم.

وأنا ربكم فاعبدون: أنا إلهكم الحق حيث خلقتم ورزقتكم فلا تتبغي العبادة إلا لي فاعبدون ولا تعبدوا معي غيري.

وتقطعوا أمرهم بينهم: أي وتفرقوا في دينهم فأصبح لكل فرقة دين كاليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنيات وما أكثرها.

كل إلينا راجعون: أي كل فرقة من تلك الفرق التي قطعت الإسلام راجعة إلينا وسوف نجزيها بكسيها.

فلا كفران لسعيه: أي لا نكران ولا جحود لعمله بل سوف يجزي به وافيًا.

وإننا له كاتبون: إذ الكرام الكاتبون يكتبون أعمال العباد خيرا وشرها.

وحرام: أي ممتنع رجوعهم إلى الدنيا.

يأجوج ومأجوج: قبيلتان موجودتان وراء سد هما الذي سيفتح عند قرب الساعة.

حذب: أي مرتفع من الأرض.

ينسلون: أي يسرعون المشي.

الوعد الحق: يوم القيامة.

في غفلة من هذا: أي من يوم القيامة وما فيه من أحداث.

(3/440)

معنى الآيات:

بعد ذكر أولئك الأنبياء وما أكرمهم الله تعالى به من افضالات وما كانوا عليه من كمالات قال تعالى

مخاطباً الناس كلهم: {إن هذه أمتكم} أي ملتكم {أمة واحدة} أي ملة واحد من عهد أول الرسل إلى

خاتمهم وهو الإسلام القائم على الإخلاص لله في العبادة والخلوص من الشرك وقوله تعالى:

{وتقطعوا أمرهم بينهم} يعني تعالى على الناس تقطيعهم الإسلام إلى ملل شتى كاليهودية

والنصرانية وغيرهما، وتمزيقه إلى طوائف ونحل، وقوله: {وكل إلينا راجعون} إخبار منه تعالى أنهم

راجعون إليه لا محالة بعد موتهم وسوف يجزيهم بما كانوا يكسبون ومن ذلك تقطيعهم للدين

الإسلامي وتمزيقهم له فذهبت كل فرقة بقطعة منه. وقوله تعالى: {فمن 3 يعمل من الصالحات}

والحال أنه مؤمن، والمراد من الصالحات ما شرعه الله تعالى من عبادات قلبية وقولية وفعلية {فلا كفران لسعيه} أي لعمله فلا يجحد ولا ينكر بل يراه ويجزى به كاملاً. وقوله تعالى: {وإننا له كاتبون} يريد أن الملائكة تكتب أعماله الصالحة بأمرنا ونجزيه بها أيضاً أحسن جزاء وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح جعلنا الله منهم وحشرنا في زمريهم.

وقوله تعالى: {وحرام 4 على قرية أهلكتناها أنهم لا يرجعون} يخبر تعالى أنه ممتنع امتناعاً كاملاً أن يهلك أمة بذنوبها في الدنيا ثم يردها إلى الحياة في الدنيا، وهذا بناء على أن {لا} مزيدة لتقوية الكلام ويحتمل الكلام معنى آخر وهي ممتنع على أهل قرية قضى الله تعالى بعذابهم في الدنيا أو في الآخرة أنهم يرجعون إلى الإيمان والطاعة بالتوبة الصادقة وذلك بعد أن كذبوا وعاندوا وظلموا وفسقوا فطبع على قلوبهم فهم لا يرجعون إلى التوبة بحال، ومعنى ثالث وهو حرام على أهل قرية أهلكتهم الله بذنوبهم فأبادهم إنهم

1 قرأ الجمهور: {إن هذه أمتكم} برفع أمتكم على الخبرية ونصب أمة واحدة على الحال، والرصف. وقرأ بعض: {أمتكم أمة واحدة} بالرفع فيهما.

2 تفرقوا في الدين واختلفوا فيه.

3 {من الصالحات} من للتبعيض إذ من غير الممكن أن يعمل العبد كل الصالحات ويأتي بكل الطاعات، وقوله {وهو مؤمن} وموحد أيضاً فإن الشرك محبط للعمل.

4 في حرام قراءات ووجوه منها: {حرام} وهي قراءة الجمهور وحرم مثل حل وحلال. وحرم كمرض، وحرم كشرف، وحرم: كضرب، وحرم كبذل، وحرم كعلم مشددة اللام وحرم كفرح وحرم كقفل تسع قراءات.

(3/441)

لا يرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة بل يرجعون للحساب والجزاء فهذه المعاني كلها صحيحة، والمعنى الأخير لا تكلف فيه بكون {لا} صلة بل هي نافية ويرجح 1 المعنى الأخير قوله تعالى: {حتى إذا فتحت يأجوج 2 ومأجوج} فهو بيان لطريق رجوعهم إلى الله تعالى وذلك يوم القيامة وبدايته بظهور علاماته الكبرى ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج وتدققهم في الأرض يخربون ويدمرون {وهم من كل حدب 3} وصوب {ينسلون} مسرعين. وقوله تعالى: {واقترب 4 الوعد الحق} وهو يوم الدين والحساب والجزاء وقوله: {فإذا هي شاخصة 5 أبصار الذين كفروا} وذلك بعد قيامهم من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر وهم يقولون في تأسف وتحسر {يا ويلنا} أي يا هلاكنا {قد كنا في غفلة} أي في دار الدنيا {بل كنا ظالمين} فاعترفوا بذنوبهم حيث لا ينفعهم الاعتراف إذ لا توبة تقبل يومئذ.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وحدة الدين وكون الإسلام هو دين البشرية كافة لأنه قائم على أساس توحيد الله تعالى في عبادته التي شرعها ليعبد بها.
- 2- بيان ما حدث للبشرية من تمزيق الدين بينها بحسب الأهواء والأطماع والأغراض.
- 3- وعد الله لأهل الإيمان والعمل الصالح بالجزاء الحسن وهو الجنة.

1 شاهد أن لا: نافية وليست بصلة، ولكون لفظ الحرام معناه الوجوب قول الخنساء:

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً

على شجوه إلا بكيت على صخر

تريد أباها صخراً.

2 في الكلام حذف تقديره: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل: وأسأل القرية. أي أهل القرية.

3 الحدب: ما انقطع من الأرض، والجمع حداب مأخوذ من حدبة الظهر، قال عنتر:

فما رعشت يداي ولا ازدهاني

تواترهم إليّ من الحداب

و (بنسلون) يخرجون مسرعين، قال امرؤ القيس: فسلي ثيابي من ثيابك تنسل.

وقال النابغة: عسلان الذئب أمسى قارباً

برد الليل عليه فنسل

أي أسرع.

4 قل: الواو زائدة مقحمة، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق. فاقترب:

جواب إذا والواو مقحمة، ومثله: وتلّه للجبين، وناديناها أي: للجبين ناديناها، وأجاز بعضهم أن يكون

جواب إذا: فإذا هي شاخصة ويكون اقترب الوعد الحق: معطوفاً.

5 هي: ضمير الأبصار، والأبصار بعدها: تفسير لها كأنه قال: فإذا أبصار الذين كفروا قد

شخصت عند مجيء الوعد.

(3/442)

4- تقرير حقيقة وهي إذا قضي بهلاك أمة تعذرت عليها التوبة، وأن أمة يهلكها الله تعالى لا تعود إلى الحياة الدنيا بحال وإن البشرية عائدة إلى ربها فممتنع عدم عودة الناس إلى ربهم، وذلك لحسابهم وجزائهم يوم القيامة.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْرُزُهُمْ أَلْفُ أَلْفٌ وَلَا تَنفَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)

شرح الكلمات:

وما تعبدون من دون الله : أي من الأوثان والأصنام.

حصب جهنم: أي ما توقد به جهنم.

لو كان هؤلاء آلهة: أي الأوثان التي يعبدها المشركون من قريش.

ما وردوها : أي لحالوا بين عابديهم ودخول النار لأنهم آلهة قادرين على ذلك ولكنهم ليسوا آلهة
حرف فلذا لا يمنعون عابديهم

(3/443)

من دخول النار .

وكل فيها خالدون : أي العابدون من الناس والمعبودون من الشياطين والأوثان.

لهم فيها زفير: أي لأهل النار فيها أنين وتنفس شديد وهو الزفير .

سبقتم لهم منا الحسنى : أي كتب الله تعالى أزلماً أنهم أهل الجنة.

حسيسها: أي حسّ صوتها.

لا يحزنهم الفزع الأكبر : أي عند النفخة الثانية نفخة البعث فإنهم يقومون من قبورهم آمنين غير خائفين.

كطي السجل للكتب : أي يطوي الجبار سبحانه وتعالى السماء طيَّ الورقة لتدخل في الظرف.

كما بدأنا أول خلق نعيده: أي يعيد الله الخلائق كما بدأهم أول مرة فيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً، كما ولدوا لم ينقص منهم شيء.

معنى الآيات:

يقول تعالى للمشركين الذين بدأت السورة الكريمة بالحديث عنهم، وهم مشركوا قريش يقول لهم مُوعداً: {إنكم وما تعبدون} من دون الله {من أصنام وأوثان} {حصب} جهنم {أي ستكونون أنتم وما تعبدون من أصنام وقوداً لجهنم التي أنتم واردوها لا محالة، وقوله تعالى: {لو كان هؤلاء آلهة} لو كان هؤلاء التماثيل من الأحجار التي يعبدها المشركون لو كانوا آلهة حقاً ما ورد النار عابدها لأنهم يخلصونهم منها ولما ورد النار المشركون ودخلوها دل ذلك على أن آلهتهم كانت آلهة باطلة لا

تستحق العبادة بحال. وقوله تعالى: {كل فيها خالدون} أي المعبودات الباطلة وعابدها الكل في جهنم

- 1 قوله {ما تعبدون} فيه دليل على وجود العموم في الألفاظ.، فإن ابن الزبيري لما نزلت هذه الآية أتت به قريش وقالت له: انظر محمداً شتم آلهتنا، فقال: لو حضرت لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبد النصارى واليهود تعبد عزيزاً، أفهما من حصب جهنم؟. فعجبت من مقالته ورأوا أن محمداً قد خُصم. فأنزل الله تعالى {إن الذين سبقتم لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون}. فدّل قوله تعالى وما تعبدون على العموم وخصه الله تعالى بهذه الآية {إن الذين سبقتم لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون}.
- 2 قرأ الجمهور حصب بالصاد، وقرأ علي وعائشة رضي الله عنهما بالطاء أي حطب. والحصب أعمّ، إذ كل ما هُيجت به النار وأوقدت به فهو حصب.

(3/444)

خالدون. وقوله: {لهم فيها زفير 1 وهم فيها لا يسمعون} يخبر تعالى أن للمشركين في النار زفيراً وهو الأنين الشديد من شدة العذاب وأنهم فيها لا يسمعون لكثرة الأنين وشدة الأصوات وفضاعة ألوان العذاب وقوله تعالى: {إن الذين سبقتم لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيبها، وهم في ما اشتبهت أنفسهم خالدون} نزلت هذه الآية رداً على ابن الزبيري عندما قال إن كان ما يقوله محمد حقاً بأننا وآلهتنا في جهنم فإن الملائكة معنا في جهنم لأننا نعبدهم، وأن عيسى والعزير في جهنم لأن اليهود عبدوا العزيز والنصارى عبدوا المسيح. فأخبر تعالى أن من عبد بغير رضاه بذلك وكان يعبدنا ويتقرب إلينا بالطاعات فهو ممن سبقتم لهم هنا الحسنى بأنهم من أهل الجنة هؤلاء عنها أي عن جهنم مبعدون {لا يسمعون حسيبها} أي حس صوتها وهم في الجنة ولهم فيها ما يشتهون خالدون، لا يحزنهم الفزع 2 الأكبر عند قيامهم من قبورهم بل هم آمنون {تنتفاهم الملائكة} عند القيام من قبورهم بالتحية والتهنئة قائلة لهم: {هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وقوله تعالى: {يوم نظوي السماء} أي يتم لهم ذلك يوم يطوي الجبار جل جلاله السماء بيمينه {كطي 3 السجل} أي الصحيفة للكتب. وذلك يوم القيامة حيث تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات. وقوله تعالى: {كما بدأنا أول خلق نعيده} أي يعيد الإنسان كما بدأ خلقه فيخرج الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً 4. وقوله: {وعداً علينا إنا كنا فاعلين} أي وعدنا بإعادة الخلق بعد فنائهم وبلاهم وعداً، إنا كنا فاعلين فأنجزنا ما وعدنا، وإنا على ذلك لقادرون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

1 الزفير نَفَسٌ يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثر بالغم، وهو هنا من أحوال المشركين لا الأصنام.

2 لا يُحزنهم بضم الياء من أحزنه، وفتحها من حزنه قراءتان سبعيتان، والفرع الأكبر: أهوال يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار.

3 السجل: الكاتب يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها. هذا المعنى أوضح مما في التفسير.

4 الغرل: جمع أغرل وهو من لم يختن فتقطع منه غلفة ذكره، وأول من يكسى إبراهيم كما في صحيح مسلم.

(3/445)

2- من عبد من دون الله بأمره أو برضاه سيكون ومن عبده وقوداً لجهنم ومن لم يأمر ولم يرض فلا يدخل النار مع من عبده بل العابد له وحده في النار.

3- بيان عظمة الله وقدرته إذ يطوي السماء بيمينه، والأرض في قبضته يوم القيامة.

4- بعث الناس حفاة عراة غرلا لم ينزع منهم شيء ولا غلفة الذكر إنجاز الله وعده في قوله: {كما بدأكم تعودون} فسبحان الواحد القهار العزيز الجبار.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا

لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ

فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آدِنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ

(109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ

(111) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (112)

شرح الكلمات:

ولقد كتبنا في الزبور: أي في الكتب التي أنزلنا كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن.

من بعد الذكر: أي من بعد أن كتبنا ذلك في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ.

(3/446)

إن الأرض 1 : أي أرض الجنة.

عبادي الصالحون: هم أهل الإيمان والعمل الصالح من سائر الأمم من أتباع الرسل عامة.
إن في هذا لبلاغاً: أي إن في القرآن لبلاغاً أي لكفاية وبلغة لدخول الجنة فكل من آمن به وعمل بما فيه دخل الجنة.

لقوم عابدين : أي مطيعين الله ورسوله.

رحمة للعالمين : أي الإنس والجن فالمؤمنون المتقون يدخلون الجنة والكافرون ينجون من عذاب الاستئصال والابادة الذي كان يصيب الأمم السابقة.
فهل أنتم مسلمون: أي أسلموا فالاستفهام للأمر.

وان أدري: أي ما أدري.

فتنة لكم : أي اختبار لكم.

على ما تصفون : من الكذب من أن النبي ساحر، وأن الله اتخذ ولداً وأن القرآن شعر.
معنى الآيات:

يخبر تعالى رسوله والمؤمنين بوعده الكريم الذي كتبه في كتبه المنزلة بعد كتابته في الذكر الذي هو كتاب المقادير المسمى باللوح المحفوظ أن أرض الجنة يرثها عباده الصالحون هذا ما دلت عليه الآية الأولى (155) وقوله تعالى: {إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين}2 أي في هذا القرآن العظيم لبلاغاً لمن كان من العابدين لله بأداء فرائضه واجتتاب نواهيه لكفاية في الوصول به إلى بغيته وهي رضوان الله والجنة وقوله تعالى {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين3

1 في الأرض: الأرض المقدسة، وقال مرة أنها أرض الكفار ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

2 العابدون قال أبو هريرة وسفيان الثوري هم أهل الصلوات الخمس.

3 قال ابن زيد: المؤمنون خاصة، والعموم أولى وأصح من الخصوص.

(3/447)

إنسهم وجنهم مؤمنهم وكافرهم فالمؤمنون بإتباعه يدخلون رحمة الله وهي الجنة والكافرون يأمنون من عذاب الإبادة والاستئصال في الدنيا ذلك العذاب الذي كان ينزل بالأمم والشعوب عندما يكذبون رسوله وقوله تعالى {قل إنما يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فهل أنتم مسلمون}1 يأمر تعالى رسوله أن يقول لقومه ولمن يبلغهم خطابه إن الذي يوحى إلي هو أن إليكم إله واحد أي معبودكم الحق واحد وهو الله تعالى ليس غيره وعليه {فهل أنتم مسلمون} أي أسلموا له قلوبكم ووجوهكم فاعبدوه ولا

تعبدوا معه سواء فبلغهم يا رسولنا هذا {فإن تولوا} أي أعرضوا عن هذا الطلب ولم يقبلوه {فقل
آذنتكم} أي اعلمتكم {على سواء} أنا وأنتم انه لا تلاقي بيننا فأنا حرب عليكم وأنتم حرب عليّ وقوله
تعالى: {وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون} أي وقل لهم يا رسولنا: إنني ما أدري أقرب ما توعدون
من العذاب أم بعيد فالعذاب كما نئن لا محالة ما لم تسلموا إلا أنني لا أعلم وقته. وفي الآية وعيد
واضح وتهديد شديد وقوله: {إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون} أي يعلم طعنكم العلني، في
الإسلام وكتابه ونبيه، كما يعلم ما تكتمونه في نفوسكم من عداوتي وبغضي وما تخفون من إحني
وفي هذا إنذار لهم وتهديد، وهم مستحقون لذلك.

وقوله: {وإن أدري} أي وما أدري {لعله}2} أي تأخير العذاب عنكم بعد استحقاقكم له يحر بكم
للإسلام ونبيه {فتنة لكم} أي اختبار لعلكم تتوبون فيرفع عنكم العذاب أو هو متاع لكم بالحياة إلى
آجالكم، ثم تعذبون بعد موتكم. فهذا علمه إلى ربي هو يعلمه، وبهذا أمرني بأن أقوله لكم. وقوله
تعالى: {قال رب احكم بالحق} وفي قراءة قل رب احكم بالحق أي قال الرسول بعد أمر الله تعالى
بذلك يا رب احكم بيني وبين قومي المكذبين لي المحاربيين لدعوتك وعبادك المؤمنين بالحق وذلك
بنصري عليهم أو بإنزال نعمتك بهم، وقوله: {ورينا الرحمان المستعان على ما تصفون}3} أي ورينا
الرحمن عز

- 1 الاستفهام معناه الأمر أي أسلموا كقوله تعالى {فهل أنتم منتهون} ؟ أي انتهوا.
- 2 لعله أي الإمهال والتأخير .
- 3 تصفون قرأ الجمهور تصفون بالتاء، وقرأ بعض يصفون بالياء.

(3/448)

وجلّ هو الذي يستعان به على إبطال باطلكم أيها المشركون حيث جعلتم الله ولداً، وشركاء، ووصفتم
رسوله بالسحر والكذب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- المؤمنون المنقون وهم الصالحون هم ورثة الجنة دار النعيم المقيم.
- 2- في القرآن الكريم البُلغة الكافية لمن آمن به وعمل بما فيه بتحقيق ما يصبو إليه من سعادة الدار
الآخرة.
- 3- بيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته على ربه حيث جعله رحمة للعالمين.

- 4- وجوب المفصلة بين أهل الشرك وأهل التوحيد.
5- طلب الاستعانة بالله على كل ما يواجه العبد من صعاب وأتعاب

(3/449)

سورة الحج

...

سورة الحج

مكية ومدنية

وآياتها 1 ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

1 ذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال: سورة الحج من أعاجيب سورة القرآن. نزلت ليلاً ونهاراً سفيراً وحصرماً مكياً ومديناً سليماً وحريباً ناسخاً ومنسوخاً محكماً ومتشابهاً.

(3/449)

(2) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4)

شرح الكلمات:

اتقوا ربكم: أي عذاب ربكم وذلك بالإيمان والتقوى.

إن زلزلة الساعة: أي زلزلة الأرض عند مجيء الساعة.

تذهل كل موضوعة: أي من شدة الهول والخوف تنسى رضيعها وتغفل عنه.

وتضع كل ذات حمل حملها: أي تسقط الحوامل ما في بطونهن من خوف والفرع.

سكارى وما هم بسكارى: أي ذاهلون فاقدون رشدهم وصوابهم كالسكارى وما هم بسكارى.

يجادل في الله بغير علم: أي يقول إن الملائكة بنات الله وإن الله لا يحيي الموتى.

شيطان مرید: أي متجرد من كل خير لا خير فيه البتة.

كتب عليه أنه من تولاه: فرض فيه أن من تولاه أي اتبعه يضلّه عن الحق.
معنى الآيات:

بعد ذلك البيان الإلهي في سورة الأنبياء وما عرض تعالى من أدلة الهداية وما بين من سبل النجاة نادى تعالى بالخطاب العام الذي يشمل العرب والعجم والكافر والمؤمن إنذاراً وتحذيراً فقال في فاتحة هذه السورة سورة الحج المكية المدنية لوجود أي كثير فيها نزل في مكة وآخر نزل بالمدينة: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي خافوا عذابه، وذلك

1 روى الترمذي وصححه عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ إلى قوله: ﴿شديد﴾ قال: أنزلت عليه في سفر: فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "ذاك يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار قال يا ربّ وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. قال: فأنشأ المسلمون يكون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاربوا وسددوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا أخذ من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا. قال: لا أدري قال الثلثين أم لا". الرقمة: الهنة الناتئة في ذراع الدابة والشامة: علامة تخالف البدن الذي هي فيه.

(3/450)

بطاعته بامثال أمره واجتتاب نهيه فأمنوا به ورسوله وأطيعوها في الأمر والنهي وبذلك تقوا أنفسكم من العذاب وقوله: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ فكيف بالعذاب الذي يقع فيها لأهل الكفر والمعاصي، إن زلزلة لها تتم قبل قيامها 1 تدهل فيها كل مرضعة عما أرضعت أي تنسى فيها الأم ولدها، ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ فتسقط من شدة الفزع لتلك الزلزلة المؤذنة بخراب الكون وفناء العوالم ويرى الناس فيها سكارى أي فاقدين لعقولهم وما هم بسكارى بشرب سكر ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ فخافوه لظهور أماراته ووجود بوادره.

هذا ما دلت عليه الآيتان (1) و (2) وأما الآية الثالثة فيعني تعالى على النضر بن الحارث وأمثاله ممن يجادلون في الله بغير علم فينسبون لله الولد والبنت ويزعمون أنه ما أرسل محمداً رسولاً، وأنه لا يحيي الموتى بعد فناء الأجسام وتفتتها فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ بجلال الله وكماله ولشرائعه وأحكامه وسننه في خلقه، ﴿ويتبع﴾ أي في جداله وما يقوله من الكذب

والباطل {كل شيطان مريد} أي متجرد من الحق والخير، {كتب2 عليه} أي على ذلك الشيطان في قضاء الله أن من تولاها بالطاعة والإتباع فإنه يضلّه عن الحق ويهديه بذلك إلى عذاب السعير في النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوالهما وأهوالهما.
- 2- حرمة الجدل بالباطل لإدحاض الحق وإبطاله.
- 3- حرمة الكلام في ذات الله وصفاته بغير علم من وحي إلهي أو كلام نبوي صحيح.
- 4- موالاة الشياطين وأتباعهم يفضى بالموالي المتابع لهم إلى جهنم وعذاب السعير.

1 الذي عليه أكثر أهل التفسير أن هذه الزلزلة تتم بنفخة الفناء بقرينة الحمل والوضع وحديث الترمذي الصحيح دال على أنها بعد البعث، والجمع بينهما: صحيح أولاً لا مانع من أن يقع هذا وذاك وهو كذلك والقرآن حمّال الوجوه، فهذا الهول العظيم سيقع حتماً في النفخة الأولى، وفي ساحة فصل القضاء، وأمّا موضوع الحمل والوضع فكائن أيضاً في عرصات القيامة إذ الناس يبعثون على ما ماتوا عليه فالحامل تبعث حاملاً والمرضع تبعث ترضع أيضاً.

2 قال قتادة ومجاهد: من تولى الشيطان فإنه يضلّه.

(3/451)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَنْوَفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7)

شرح الكلمات:

في ريب من البعث : الريب الشك مع اضطراب النفس وحيرتها، والبعث الحياة بعد الموت.

من نطفة : قطرة المني التي يفرزها الزوجان.

علقة: أي قطعة دم متجمد تتحول إليه النطفة في خلال أربعين يوماً.

مضغة : أي قطعة لحم قدر ما يمضغ المرء تتحول العلقة إليها بعد أربعين يوماً.
وغير مخلقة : أي مصورة خلقاً تاماً، مخلقة وغير مخلقة هي السقط يسقط

(3/452)

قبل تمام خلقه.
لنبيين لكم: أي قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم بابتداء خلقكم كيف يكون.
ونقر في الأرحام ما نشاء : أي ونبقي في الرحم من نريد له الحياة والبقاء إلى نهاية مدة الحمل ثم نخرجه طفلاً سوياً.
لتبلغوا أشدكم: أي كمال أبدانكم وتمام عقولكم.
إلى أرذل العمر: أي سن الشيخوخة والهرم فيخرف.
لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً: أي فيصير كالطفل في معارفه إذ ينسى كل علم علمه.
هامدة: خامدة لا حراك لها ميتة.
اهتزت وربت: أي تحركت بالنبات وارتفعت تربتها وأنبتت.
زوج بهيج: أي من كل نوع من أنواع النباتات جميل المنظر حسنه.
ذلك بأن الله هو الحق : أي الإله الحق الذي لا إله سواه، فعبادة الله حق وعبادة غير الله باطل.
وأن الساعة آتية : أي القيامة .
بعث من في القبور : أي يحييهم ويخرجهم من قبورهم أحياء كما كانوا قبل موتهم.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وأهوالها، وكان الكفر بالبعث الآخر هو العائق عن الاستجابة للطاعة وفعل الخير نادى تعالى الناس مرة أخرى ليعرض عليهم أدلة البعث العقلية لعلهم يؤمنون فقال: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث} أي في شك وحيرة وقلق نفسي من شأن بعث الناس أحياء من قبورهم بعد موتهم وفنائهم لأجل حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا فإليكم ما يزيل شككم ويقطع حيرتكم في هذه القضية العقيدية وهو أن الله تعالى قد خلقكم¹ من تراب أي خلق

1 هذا دليل قاطع وهو دليل البدأة الأولى فمن قدر على البدأة قادر عقلاً على الإعادة وهي أهون عليه.

(3/453)

أصلكم وهو أبوكم آدم من تراب وبلا شك، ثم خلقكم أنتم من نطفة 1 أي ماء الرجل وماء المرأة وبلا شك، ثم من علقه 2 بعد تحول النطفة إليها ثم من مضغته 3 بعد تحول العلقة إليها وهذا بلا شك أيضاً، ثم المضغعة إن شاء الله تحويلها إلى طفل خلقها وجعلها طفلاً، وإن لم يشأ ذلك لم يخلقها وأسقطها من الرحم 4 كما هو معروف ومشاهد، وفعل الله ذلك من أجل أن يبين لكم قدرته وعلمه وحسن تدبيره لترهبوه وتعظموه وتحبوه وتطيعوه وقوله: {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً} 5 أي ونقر تلك المضغعة المخلفة في الرحم إلى أجل مسمى وهو ميعاد ولادة الولد وانتهاء حملها ونخرجكم طفلاً أي أطفالاً صغاراً لا علم لكم ولا حلم، ثم ننميكم ونربيكم بما تعلمون من سننا في ذلك {ثم لتبغلو أشدكم} أي تمام نماء أبدانكم وعقولكم {ومنكم من يتوفى} قبل بلوغه أشده لأن الحكمة الإلهية اقتضت وفاته ومنكم من يعيش ولا يموت حتى يرد إلى أرذل العمر فيهرم ويخرف ويصبح كالطفل لا يعلم بعد علم كان له قبل هرمه شيئاً هذا دليل البعث وهو دليل عقلي منطقي وبرهان قوي على حياة الناس بعد موتهم إذ الذي خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغعة يوجب العقل قدرته على إحيائهم بعد موتهم، إذ ليست الإعادة بأصعب من البداية. ودليل عقلي آخر هو ما تضمنه قوله تعالى: {وترى الأرض} أيها الإنسان {هامة} خادمة ميتة لا حراك فيها ولا حياة فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء من السماء {اهتزت} أي تحركت {وربت} أي ارتفعت وانتفخت تربتها وأخرجت من النباتات المختلفة الألوان والطعوم والروائح {من كل زوج بهيج} جميل المنظر حسنه، أليس وجود تربة صالحة كوجود رحم صالحة وماء المطر كماء الفحل

1 النطفة: المنى، وسمي نطفة لقلته.

2 العلقة: الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط أي: الطري.

3 هذه الأطوار أربعة أشهر، قال ابن عباس: وفي العشر بعد الأربعة أشهر ينفخ فيه الروح، فذلك عدّة الوفاة منها أربعة أشهر وعشر، وفي الصحيح عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم ليُجَمَع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغعة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات.. رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

4 روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لسقط أقدّمه بين يدي أحبّ إليّ من ألف فارس أخلفه ورائي".

5 أي: فخرج كل واحد منكم طفلاً، ويطلق الطفل على الولد من يوم انفصاله إلى البلوغ وولد كل وحشية يقال له طفل ويوصف به مفرداً كالمصدر فيقال: جارية طفل وجاريتان طفل، وجوار طفل، وغلّام طفل وغلّامان طفل، ويجمع الطفل على أطفال، وأطفلت المرأة: صارت ذات طفل.

وتخلق النطفة في الرحم كتخلق البذرة في التربة وخروج الزرع حياً نامياً كخروج الولد حياً نامياً وهكذا إلى حصاد الزرع وموت الإنسان فهذان دليلان عقليان على صحة البعث الآخر وأنه كائن لا محالة وفوق ذلك كله إخبار الخالق وإعلامه خلقه بأنه سيعيدهم بعد موتهم فهل من العقل والمنطق أو الذوق أن نقول له لا فإنك لا تقدر على ذلك قولة كهذه قدرة عفنة لا يود أن يسمعها عقلاء الناس وأشرفهم. ولما ضرب تعالى هذين المثالين أو ساق هذين الدليلين على قدرته وعلمه وحكمته المقتضية لإعادة الناس أحياء بعد الموت والفناء للحساب والجزاء قال وقوله الحق {ذلك بأن الله هو الحق} 1 أي الرب الحق والإله المعبود الحق، وما عداه فباطل {وأنه يحيي} 2 الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} ومن شك فليراجع الدليلين السابقين في تدبر وتعقل فإنه يسلم لله تعالى ما أخبر به عن نفسه في قوله ذلك {بأن الله هو الحق} الخ.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الأعمال يوم القيامة.
- 2 بيان تطور خلق الإنسان ودلالته على قدرة الله وعلمه وحكمته.
- 3- الاستدلال على الغائب بالحاضر المحسوس وهذا من شأن العقلاء فإن المعادلات الحسابية والجبرية قائمة على مثل ذلك.
- 4- تقرير عقيدة التوحيد وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

1 لما ذكر تعالى افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وفق اقتداره في قوله {يا أيها الناس} إلى قوله: {بهيج} قال ذلك إشارة إلى ما تقدم من أطوار خلق الإنسان وفنائه وإحياء الأرض بعد موتها وانشقاق النبات منها أي: ذلك حصل بسبب أنّ الله هو الإله الحق دون غيره.

2 ومن براهين ألوهيته الحقّة دون من سواه أنه يحيى الموتى وأنه على كل ما يريد قدير وأنه موجد الدنيا والآخرة وسيفني هذه في ساعة آتية لا محالة، وسيبعث الناس من القبور للحياة الثانية فيخلدون فيها منهم شقي ومنهم سعيد.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (8) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسٍ الْمَوْلَى وَلِبَيْسِ الْعَشِيرِ (13)

شرح الكلمات:

يجادل في الله : أي في شأن الله تعالى فينسب إلى الله تعالى ما هو منه براء كالشريك والولد والعجز عن إحياء الموتى، وهذا المجادل هو أبو جهل.

بغير علم: أي بدون علم من الله ورسوله.

ولا كتاب منير: أي ولا كتاب من كتب الله ذي نور يكشف الحقائق ويقرر الحق ويبطل الباطل.

ثاني عطفه : أي لاوى عنقه تكبراً، لأن العطف الجانب من الإنسان.

له في الدنيا خزي: وقد أذاقه الله تعالى يوم بدر إذ ذبح هناك واحتر رأسه.

بظلام للعبيد: أي بذى ظلم للعبيد فيعذبهم بغير ظلم منهم لأنفسهم.

يعبد الله على حرف: أي على شك في الإسلام هل هو حق أو باطل وذلك لجهلهم به

(3/456)

وأغلب هؤلاء أعراب البادية.

اطمأن به: أي سكنت نفسه إلى الإسلام ورضي به.

وإن أصابته فتنة : أي ابتلاء بنقص مال أو مرض في جسم ونحوه.

انقلب على وجهه: أي رجع عن الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر الجاهلي.

مالا يضره ولا ينفعه : أي صنماً لا يضره إن لم يعبده، ولا ينفعه إن عبده..

لبئس المولى : أي قبح هذا الناصر من ناصر.

ولبئس العشير: أي المعاشر وهو صاحب الملازم.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم} هذه شخصية ثانية معطوفة على الأولى التي

تضمنها قوله تعالى: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد} وهي

شخصية النضر بن الحارث أحد رؤساء الفتنة في مكة، وهذه الشخصية هي فرعون هذه الأمة عمرو

بن هشام الملقب بأبي جهل يخبر تعالى عنه فيقول: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا

هدى ولا كتاب منير 1} بل يجادل بالجهل وما أقيح جدال الجهل والجهال ويجادل في الله عز وجل يا للعجب أفيريدي ان يثبت الله تعالى الولد والبنت والعجز والشركاء والشفعاء، ولا علم من وحي عنده، ولا من كتاب إلهي موحى به إلى أحد أنبيائه. وقوله تعالى: {ثاني عطفه} وصف له في حال مشيه وهو يجر رداءه مصعراً خده مائلاً إلى أحد جنبيه كبراً وغروراً، وجداله لا لطلب الهدى أو لمجرد حب الانتصار للنفس بل ليضل غيره عن سبيل الله تعالى الذي هو الإسلام حتى لا يدخلوا فيه فيكملوا ويسعدوا عليه في الحياتين. وقوله تعالى: {له في الدنيا خزي} أي ذل وهوان وقد ناله حيث قتل في بدر شر قتلة فقد احتز رأسه وفصل عن جثته ونال منه الذين كان يسخر منهم ويعذبهم من ضعفة المؤمنين، وقوله تعالى: {ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق} وقد أذاقه ذلك بمجرد أن قتل فروحه في النار ويوم

- 1 نير بين الحجة قوبها، والمراد من الكتاب: كتب الشرائع مثل: التوراة والإنجيل من الكتب الأولى والقرآن آخرها نزولاً.
- 2 في هذه الآية إخبار بغيب فكان كما أخبر تعالى فإن كلاً من أبي جهل والنضر بن الحارث قد أدلهما الله وأخذهما ببدر، فأبو جهل قتل وأخذ رأسه، والنضر قتل صبراً، والآية قطعاً نزلت بمكة فهي من معجزات القرآن الكريم.

(3/457)

القيامة. يدخلها بجمسه وروحه وقوله تعالى: {ذلك بما قدمت يداك} أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزي والهوان وعذاب الحريق بما قدمت يداك من الشرك والظلم والمعاصي، {وأن الله ليس بظلام للعبيد}، وأنت منهم والله ما ظلمك بل ظلمت نفسك، والله منتزه عن الظلم لكمال قدرته وغناه وقوله تعالى: {ومن الناس 1 من يعبد الله على حرف} أي على شك هذه شخصية ثالثة عطف على سابقتيها وهي شخصية بعض الأعراب كانوا يدخلون في الإسلام لا عن علم واقتناع بل عن شك وطمع وهو معنى على حرف فإن أصابهم خير من مال وصحة وعافية اطمأنوا إلى الإسلام وسكنت نفوسهم واستمروا عليه، وإن أصابهم فتنة أي اختبار في نفس أو مال أو ولد انقلبوا على وجوههم أي ارتدوا عن الإسلام ورجعوا عنه فخسروا بذلك الدنيا والآخرة فلا الدنيا حصلوا عليها ولا الآخرة فازوا فيها، قال تعالى: {ذلك هو الخسران المبين} أي البين الواضح إذ لو بقوا على الإسلام لفازوا بالآخرة، ولأخلف الله عليهم ما فقدوه من مال أو نفس، وقوله تعالى {يدعو من دون الله} أي ذلك المنقلب على وجهه المرتد يدعو {مالاً يضره} أي صنماً لا يضره لو ترك عبادته {وما لا ينفعه} إن عبده وقوله تعالى: {ذلك هو الضلال البعيد} أي دعاء وعبادة مالا يضر ولا ينفع ضلال عن الهدى

والخير والنجاح والريح وبعيداً أيضاً قد لا يرجع صاحبه ولا يهتدي. وقوله : {يدعو 3 لمن ضره أقرب من نفعه} أي يدعو ذلك المرتد عن التوحيد إلى الشرك من ضره يوم القيامة أقرب من نفعه فقد يتبرأ منه ويحشر معه في جهنم ليكونا معاً وقوداً لها. قال تعالى: {لبئس المولى ولبئس 4 العشير} المعاصر والساحب الملازم فذم تعالى وقبح ما كان المشركون يؤملون فيهم ويرجون شفاعتهم 5 يوم القيامة..

- 1 هذه الآية نزلت بالمدينة النبوية فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {ومن الناس من يعبد الله على حرف} قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ومنتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.
- 2 حرف كل شيء: طرفه وجانبه والآية تمثيل لحال المتردد في عمله.
- 3 أي: في الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ولم ير منه نفعاً أصلاً وإنما قال: (ضره أقرب من نفعه) ترفيهاً للكلام نحو: (إنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين) ومعنى الكلام: القسم والتأخير أي: يدعو والله من ضره أقرب من نفعه، والمدعو هو الوثن الذي عبده من دون الله تعالى.
- 4 هذه الجمل تحمل الذم والتقيح للأصنام التي يدعوها المركون فإنها شر الموالى وشر العشير، لأن شأن الولي جلب النفع لمولاه وشأن العشير جلب الخير لعشيرته فإذا كان العكس كانا شر الموالى والعشراء.
- 5 قال تعالى من سورة يونس: {ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله}، {وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} وهذا منهم على فرض إن بعثوا أحياء يوم القيامة أو يرجون شفاعتهم في الدنيا.

(3/458)

تنفيراً لهم من الشرك وعبادة غيره سبحانه وتعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- قبح جدال الجاهل فيما ليس له به علم.
- 2- ذم الكبر والخيلاء وسواء من كافر أو من مؤمن.
- 3- عدم جدوى عبادة صاحبها شك في نفعها غير مؤمن بوجوبها ومشروعيتها.
- 4- لا يصح دين مع الشك.
- 5- تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

شرح الكلمات:

وعملوا الصالحات : أي الفرائض والنوافل وأفعال الخير .

يفعل ما يريد : من إكرام المطيع وإهانة العاصي وغير ذلك من رحمة المؤمن وعذاب الكافر .

أن لن ينصره الله : أي محمداً صلى الله عليه وسلم .

(3/459)

فليمدد بسبب : أي بحبل .

إلى السماء: أي سقف بيته وليختنق غيظاً .

هل يذهبن كيده : أي في عدم نصرته النبي صلى الله عليه وسلم الذي يغيبه .

وكذلك أنزلناه: أي ومثل أنزلنا تلك الآيات السابقة أنزلنا القرآن .

هادوا: أي اليهود .

والصابئين: فرقة من النصارى .

والمجوس: عبدة النار والكواكب .

على كل شيء شهيد: أي عالم به حافظ له .

معنى الآيات:

بعدما ذكر تعالى جزاء الكافرين والمتريدين بين الكفر والإيمان أخبر أنه تعالى يدخل الذين آمنوا به ويرسوله ولقاء ربهم ووعدده ووعده وعملوا الصالحات وهي الفرائض التي افترضها الله عليهم والنوافل التي رغبهم فيها يدخلهم جزاء لهم على إيمانهم وصالح أعمالهم جنات تجري من تحتها الأنهار وقوله تعالى: {إن الله يفعل ما يريد}1 ومن ذلك تعذيبه من كفر به وعصاه ورحمة من آمن به وأطاعه وقوله تعالى: {من كان يظن أن لن ينصره الله} أي من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله ودينه وعباده المؤمنين فلذا هو يتردد ولم يؤمن ولم ينخرط في سلك المسلمين كبنى أسد وغطفان فإننا نرشده إلى ما يذهب عنه غيظه حيث يسوءه نصر الله تعالى لرسوله وكتابه ودينه وعباده المؤمنين وهو أن يأتي بحبل وليربطه بخشبة في سقف بيته ويشده على عنقه ثم ليقطع الحبل3، وينظر بعد هذه العملية الانتحارية هل كيده4 هذا يذهب عنه الذي يغيبه؟.

- 1 هذه الجملة الكريمة هي تذييل لكل ما تقدم لقوله: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم} ومتضمنة تعليلاً إجمالياً لاختلاف الناس في الخير والشر ولما يلقون من جزاء كذلك.
- 2 الظاهر أن هذا فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين وهما: فريق من يجادل في الله بغير علم وفريق من يعبد الله على حرف وهذا الفريق الثالث قد يكون من اليهود والمنافقين وبعض المشركين الذين كانوا يفتخرون بانتصار النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم لا يوتون ذلك ولا كانوا يرون انتصاره صلى الله عليه وسلم كائناً فكلما رأوا نصراً له ازداد غمهم واشتد كربهم لأن انتصاره يحزنهم ويخيفهم.
- 3 قرأ الجمهور: {ليقطع} بسكون اللام لوجود ثم العاطفة وقرأ بعض {ليقطع} بكسر اللام لأن ثم ليست كالفاء والواو العاطفتين لأنها مركبة من ثلاثة أحرف.
- 4 {هل يذهبن كيده ما يغيظ} الاستفهام إنكاري، وما: مصدرية أي: هل يذهبن كيده غيظه.

(3/460)

وقوله تعالى: {وكذلك أنزلناه آيات بينات} أي ومثل ذلك الإنزال للآيات التي تقدمت في بيان قدرة الله وعلمه في الخلق وإحياء الأرض وإعادة الحياة بعد الفناء أنزلنا القرآن آيات واضحات تحمل الهدى والخير لمن آمن بها وعمل بما فيها من شرائع وأحكام وقوله تعالى: {وأن الله يهدي من يريد} أي هدايته بأن يوفقه للنظر والتفكير فيعرف الحق فيطلبه ويأخذ به عقيدة وقولاً وعملاً.

وقوله تعالى: {إن الذين آمنوا} وهم المسلمون {والذين هادوا} وهم اليهود {والصابئين} وهم فرقة من النصارى يقرأون الزبور ويعبدون الكواكب {والنصارى} وهم عبدة الصليب {والمجوس} وهم عبدة النار 2 والكواكب {والذين أشركوا} وهم عبدة الأوثان هؤلاء جميعاً سيحكمهم الله بينهم يوم القيامة فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل أهل تلك الملل الباطلة النار هذا هو الفصل الحق فالأديان ستة دين واحد للرحمن وخمسة للشيطان فأهل دين الرحمن يدخلهم في رحمته، وأهل دين الشيطان يدخلهم النار مع الشيطان وقوله: {إن الله على كل شيء شهيد} أي عالم بكل شيء لا يخفى عليه شيء وسيجزى كل عامل بما عمل، ولا يهلك على الله إلا هالك فقد أنزل كتابه وبعث رسوله ورغب ورهب وواعد وأوعد والناس يختارون ما قدر لهم أو عليهم وسبحان الله العظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كل الأديان هي من وحي الشيطان وأهلها خاسرون إلا الإسلام فهو دين الله الحق وأهله هم الفائزون، أهلهم هم القائمون عليه عقيدة وعبادة وحكماً وقضاء.
- 2- إن الله ناصر دينه، ومكرم أهله، ومن غاظه ذلك ولم يرضه فليختنق.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

4- تقرير إرادة الله ومشيئته فهو تعالى يفعل ما يشاء ويهدي من يريد.

1 هذه الآية نزلت كالفذلكة لما سبق فقررت الصراع الدائر بين الحق والباطل وسمت المتصارعين بألقابهم وأعلمتهم أنّ الحكم فيهم مؤجل إلى يوم القيامة وسيكون عادلاً لعلم الله تعالى بهم وحفظه لأعمالهم.

2 لذا فهم يثبتون إلهين إلهها للخير وإلهها للشر وهم أهل فارس، وأقدم النحل المجوسية أسسها ملك فارسي قديم في التاريخ يدعى (كبومرث).

3 هذا تفسير لقوله تعالى في الآية: {إن الله يفصل بينهم} إذ الفصل هو الحكم.

(3/461)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ (18)

شرح الكلمات:

ألم تر: أي ألم تر بقلبك فتعلم.

يسجد له: أي يخضع وينذل له بوضع وجهه على الأرض بين يدي الرب تعالى.

من في السموات: من الملائكة.

والدواب: من سائر الحيوانات التي تدب على الأرض.

حق عليه العذاب: وجب عليه العذاب فلا بد هو واقع به.

ومن يهين الله: أي يُشَقِّه في عذاب مهين.

فماله من مكرم: أي ليس له من مكرم أي مسعد ليسعده، وقد أشقاه الله.

معنى الآية الكريمة:

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {ألم تر} 1 أيها الرسول بقلبك فتعلم {أن الله} 2 يسجد له من في السموات {من الملائكة} {ومن في الأرض} من الجن والدواب {والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} وهم المؤمنون المطيعون وكثير أي من الناس حق عليهم العذاب أي وجب لهم العذاب وثبت، فهو لا يسجد سجود عبادة وقربة لنا أما سجود الخضوع فظلالهم تسجد3 لنا بالصباح والمساء، وقوله تعالى: {ومن يهين الله فماله من مكرم} أي ومن أراد الله إشقاه وعذابه فما له من مكرم يكرمه برُفَع

-
- 1 قال القرطبي: هذه رؤية القلب أي: ألم تر بقلبك، وعقلك.
 - 2 قد استعمل السجود في هذه الآية. في حقيقته ومجازه.
 - 3 وكذلك خضوعهم لأحكام الله تعالى فيهم ومجاري أقداره عزّ وجلّ عليهم من صحة ومرض وغنى وفقر وحياة وموت.

(3/462)

العذاب عنه واسعاده في دار السعادة وقوله: {إن الله يفعل ما يشاء} 1 فمن شاء أهانه ومن شاء أكرمه فالخلق خلقه وهو المتصرف فيهم مطلق التصرف فمن شاء أعزه، ومن شاء أذله فعلى عباده أن يرجعوا إليه بالتوبة سائلين رحمته مشفقين من عذابه فهذا أنجى لهم من عذابه وأقرب إلى رحمته. هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

- 1- تقرير ربوبية الله وألوهيته.
- 2- سجود المخلوقات بحسب ذواتها، وما أراد الله تعالى منها.
- 3- كل شيء خاضع لله إلا الإنسان فأكثر أفراده عصاة له متمردون عليه وبذلك استوجبوا العذاب المهين.
- 4- التالي لهذه الآية والمستمع لتلاوته يسن لهم أن يسجدوا لله تعالى إذا بلغوا قوله تعالى: {إن الله يفعل ما يشاء}.

هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)

1 الجملة تعليلية لما سبق من أحكام الله تعالى بالإكرام والإهانة بحسب الطاعة والعصيان.

(3/463)

شرح الكلمات:

خصمان: خصم مؤمن وخصم كافر كل واحد يريد أن يخصم صاحبه.

اختصموا في ربهم: أي في دينه.

قطعت لهم ثياب: أي فصلت لهم ثياب على قدر أجسامهم.

يصهر به ما في بطونهم: أي يذاب بالحميم وهو الماء الحار من شحوم وغيرها.

مقامع من حديد: جمع مقمعة وهي آلة من حديد كالمجن.

وذوقوا عذاب الحريق: أي يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ذوقوا عذاب النار.

ولؤلؤاً: أي أساور من لؤلؤ محلاة بالذهب.

إلى الطيب من القول: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

إلى صراط الحميد: أي إلى الإسلام إذ هو طريق الله الموصل إلى رضاه وجنته.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {هذان خصمان} الخصم الأول المسلمون والثاني أهل الشرك والكفر {اختصموا في ربهم} أي في دينه تعالى كل خصم يدعي أنه على الدين الحق، وماتوا على ذلك وفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة {فالذين كفروا} وهم أهل الدين الباطل ادخلوا النار وفصلت 2 لهم ثياب من نار {يصب من فوق رؤوسهم الحميم} أي الماء الحار المنتهي في الحرارة، {يصهر 3 به ما في بطونهم والجلود} من لحم وشحم، {ولهم مقامع من حديد} يضربون بها و {كلما أرادوا أن يخرجوا منها} أي من النار بسبب ما ينالهم من غم عظيم {أعيدوا فيها} أي تجبرهم الزبانية على العودة إليها ولم تمكنهم من الخروج

1 روى مسلم عن قيس بن عباد رضي الله عنه قال: سمعت أبا ذرٍّ يقسم قسماً: "إن هذان خصمان اختصموا في ربهم" أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر وهم: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد ابن عتبة، وقال علي رضي الله عنه إنني لأول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة. يريد قصته في المباراة هذه، وعموم الآية يشمل الخصومة بين أهل الإسلام وأهل الكتاب، كما يشمل خصومة الجنة والنار لحديث مسلم "احتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلها الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه يدخلها الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها".

2 قطعت: فصلت أي: تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار، وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق، كما قال تعالى {وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس {..} أي: يقول الله وجائز أن يكون قد أعدت لهم تلك الثياب ليلبسوها يوم القيامة وهذا أولى.

وتلك الثياب من النحاس المذاب وهي السراويل المذكورة في سورة إبراهيم من قطران.
3 الصَّهْر: إذابة الشحم والصحارة: ما ذاب منه.

(3/464)

منها، ويقولون لهم: {وذوقوا عذاب الحريق} أي لا تخرجوا منها وذوقوا عذاب الحريق. فهذا جزء
الخصم الكافر، وأما الخصم المؤمن فهذا جزاؤه وهو في قوله تعالى: {إن الله يدخل الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} 1 أي
أساور 2 من لؤلؤ محلاة بالذهب {ولباسهم فيها} أي في الجنة {حرير 3} وقوله تعالى: {وهدوا إلى
الطيب من القول} في الدنيا وهو لا إله إلا الله وسائر الأذكار والتسابيح وكل كلام طيب، {وهدوا إلى
صراط الحميد} وهذا الطريق الموصل إلى رضا ربهم وهو الإسلام، وكل ذلك بتوفيق ربهم الذي آمنوا
له وبرسوله وأطاعوه بفعل محابه وترك مساخطه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إثبات حقيقة هي أن المؤمن خصم الكافر والكافر خصم المؤمن في كل زمان ومكان حيث إن
الآية نزلت في علي وحمزة وعبيدة بن الحارث هذا الخصم المؤمن، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة
والوليد بن عتبة وهذا الخصم الكافر وذلك أنهم تقاتلوا يوم بدر بالمبارزة ونصر الله الخصم المؤمن
على الكافر.

2- بيان جزاء كل من الكافرين والمؤمنين في الدار الآخرة.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوال الآخرة وما للناس فيها.

4- بيان الطيب من القول وهو كلمة التوحيد وذكر الله تعالى.

5- بيان صراط الحميد وهو الإسلام جعلنا الله من أهله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (25)

1 نصب على تقدير: ويحلون لؤلؤاً.

2 قالت العلماء: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة. سوار من ذهب، وسوار من لؤلؤ
وسوار من فضة.

3 روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لبس الحرير في الدنيا لم

يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو" وصحّ قوله صلى الله عليه وسلم
"من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرّمها في الآخرة".

(3/465)

شرح الكلمات:

كفروا: جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم.
ويصدون عن سبيل الله: يمتنعون الناس من الإسلام، ويصرفونهم عنه.
والمسجد الحرام: مكة المكرمة والمسجد الحرام ضمنها 1.
العاكف: المقيم بمكة للتعبّد في المسجد الحرام.
والباد: الطاريء عن مكة النازح إليها.
بالحاد بظلم: أي إحداداً أي ميلاً عن الحق مُلتبساً بظلم لنفسه أو لغيره.
معنى الآية الكريمة:

قوله تعالى: {إن الذين كفروا ويصدون 2 عن سبيل الله} هذه الآية الكريمة تحمل تهديداً ووعيداً شديداً لكل من كفر بتوحيد الله وكذب رسوله وما جاء به من الهدى والدين الحق وصدّ عن سبيل الله أي صرف الناس عن الدخول في الإسلام، وعن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت والإقامة بمكة للتعبّد في المسجد الحرام والآية وإن تناولت المشركين الذين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية فإنها عامة في كل من كفر وصدّ إلى يوم القيامة وقوله تعالى: {الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد} هو وصف للمسجد الحرام إذ جعله الله تعالى موضع تنسُّك لكل من أتاه وأقام به أو يأتيه للعبادة ثم يخرج منه، فالعاكف أي المقيم فيه كالبادي الطاريء القدوم إليه هم سواء في حق الإقامة في مكة 3 والمسجد الحرام للتعبّد. وقوله تعالى: {ومن يرد فيه بالحاد بظلم} أي يرد بمعنى يعتزم الميل عن الحق فيه بظلم يرتكبه كالشرك وسائر الذنوب والمعاصي القاصرة على الفاعل أو المتعدية إلى غيره. وقوله تعالى: {نذقه من 4 عذاب أليم} هذا جزاء من كفر وصد عن سبيل الله

1 هذا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل وهو شائع لغة شائع تعبيراً.

2 أي: وهم يصدّون، وقيل الواو مزيدة أي: إن الذين كفروا يصدّون، وهذا ضعيف والصحيح أن خبر إن محذوف تقديره: خسروا وهلكوا ولا يصح أن يكون نذقه لأنه مجزوم.

3 كان في الصدر الأول أبواب دور مكة مفتوحة لكل من يريد النزول بها حاجاً أو معتمراً حتى سرق منزل أحدهم فاتخذ له باباً فأنكر عليه عمر ذلك فقال الرجل: إنما اتخذت الباب لأحفظ لهم

متاعهم فتركه عمر فاتخذ الناس من يومئذ الأبواب.

قال مالك. دور مكة ليست كالمسجد بل لهم أن يمنعوا من النزول بها من شاعوا.

4 (نذقه) جواب مَنْ: الشرطية في قوله: {ومن يرد فيه بإلحاد}.

(3/466)

والمسجد الحرام ومن أراد فيه إلحاداً 1 بظلم لنفسه 2 أو لغيره.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

1- التنديد بالكفر والصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام والظلم فيه والوعيد الشديد لفاعل ذلك.

2- مكة بلد الله وحرمه من حق كل مسلم أن يقيم بها للتعبد والتتسك ما لم يظلم وينتهك حرمة الحرم بالذنوب والمعاصي، وخاصة الشرك والظلم والضلال.

3- عظيم شأن الحرم حيث يؤخذ فيه على مجرد العزم على الفعل ولو لم يفعل.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ (28) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

1 الباء : في إلحاد: الاجماع على أنها صلة لتقوية الكلام لشيوع مثلها في كلام العرب والأصل:

ومن يرد فيه إلحاداً قال الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

2 لا يؤخذ المؤمن بالنية السيئة في أي بلد كان إلا بمكة المكرمة لهذه الآية.

(3/467)

شرح الكلمات:

إذ بوأنا لإبراهيم: أي أذكر يا رسولنا إذ بوأنا: أي أنزلنا إبراهيم بمكة مبينين له مكان البيت.

أن لا تشرك بي 1 شيئاً: أي ووصيناها بأن لا تشرك بي شيئاً من الشرك والشركاء.

وظهر بيّتي : ونظف بيّتي من أقدار الشرك وأنجاس المشركين.
وأذن في الناس بالحج: أعلن في الناس بأعلى صوتك.
رجالاً وعلى كل ضامر : مشاة وركباناً على ضوامر الإبل.
فج عميق : طريق واسع بعيد الغور في قارات الأرض.
في أيام معلومات: هي أيام التشريق.
بهيمة الأنعام : أي الإبل والبقر والغنم إذ لا يصح الهدى إلا منها.
البائس الفقير : أي الشديد الفقر.
ليقضوا تقّتهم : أي ليزيلوا أوساخهم المترتبة على مدة الإحرام.
وليوفوا نذورهم: أي بأن يذبحوا وينحروا ما نذروه لله من هدايا وضحايا.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {وإذ بوأنا لإبراهيم} أي اذكر يا رسولنا لقومك المنتسبين إلى إبراهيم باطلاً وزوراً حيث كان موحداً وهم مشركون اذكر لهم كيف بوأه ربّه مكان البيت لِيَبْنِيَهُ ويرفع بناءه وكيف عهد الله إليه ووصاه بأن يطهره من الأقدار الحسية كالنجاسات من دماء وأوساخ والمعنوية كالشرك والمعاصي وسائر الذنوب وذلك من أجل الطائفين به والقائمين في الصلاة والراكعين والساجدين فيه إذ الرُّكع جمع راكم والسجد جمع ساجد حتى لا يتأذوا بأي أذى معنوي أو حسيّ وهم حول بيت ربهم وفي بلده وحرمه، ليذكر قومك هذا وهم قد نصبوا حول البيت التماثيل والأصنام، ويحاربون كل من يقول لا إله إلا الله وقد صدوك وأصحابك عن المسجد الحرام ومنعوك من الطواف بالبيت العتيق، فأين يذهب

- 1 {أن}: الصحيح أنها تفسيرية والقول أو ما في معناه: مقدر فيها نحو وقلنا أو وصينا أو عهدنا.
- 2 يقال: بوأه كذا وبوأ له كذا فاللام مزيدة لتقوية الكلام كما يقال مكنته من كذا، ومكنت له كذا، ومعنى بوأنا لإبراهيم أي: أربناه أصله. وكان قد درس بطول العهد وأنزلناه فيه.

(3/468)

بعقولهم عندما يدعون أنهم على دين إبراهيم وإسماعيل. هذا ما دل عليه قوله تعالى: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بني شيئاً وظهر بيّتي للطائفين والقائمين والركع السجود}. وقوله تعالى: {وأذن في الناس بالحج} أي وعهدنا إليه أمرين إياه أن يؤذن في الناس بأن ينادي معلناً معلماً: أيها الناس 2 إن راكم قد بنى لكم بيتاً فحجوه ففعل ذلك فأسمع الله صوته من شاء من عباده ممن كتب لهم أن يحجوا وسهل طريقهم وحجوا فعلاً والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: {يأتوك رجالاً} أي عليك النداء وعلينا البلاغ فناد {يأتوك رجالاً} أي مشاة {وعلى كل ضامر} من النوق المهازيل {يأتين من كل فج عميق} أي طريق بعيد في أغوار الأرض وأبعادها كالأندلس غرباً وأندونيسيا شرقاً. وقوله تعالى: {ليشهدوا منافع لهم} أي يأتوك ليشهدوا منافع لهم دينية كمغفرة ذنوبهم واستجابة دعائهم والفوز برضا ربهم، وتعلم دينهم من علمائهم، ودينوية كربح تجارة ببيع وشراء وعرض سلع وأنواع صناعات، وقوله تعالى: {ويذكروا اسم الله} شاكرين لله تعالى إنعامه عليهم وإفضاله وذلك في أيام الحج كلها من العشر الأول من ذي الحجة إلى نهاية أيام التشريق بالصلاة والذكر والدعاء، كما يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند نحر الإبل وذبح البقر والغنم بأن يقول الناحر أو الذابح بسم الله والله أكبر 3 قوله تعالى: {فكلوا منها} أي من بهيمة الأنعام التي نحرتموها أو ذبحتموها 4 تقريباً إلينا كهدي التمتع أو التطوع، {واطعموا البائس الفقير} وهو من اشتد به الفقر وقوله تعالى: {ثم ليقضوا تفثهم} بإزالة الشعث والوسخ الذي لازمهم طيلة مدة الإحرام. وقوله: {وليوفوا نذورهم} أن من كان منهم قد نذر هدياً بذبحه في الحرم فليوف بذلك إذ هذا أوان الوفاء بما نذر أن ينحره أو يذبحه

1 وقرىء: {وأذن} بمعنى: أعلم، {وأذن}: قراءة الجمهور وهي أولى، والأذان: الإعلام.

2 روي عن ابن عباس وابن جبير: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أذن في الناس بالحج قال له يا ربّ: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار فحجوا فأجابته من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك فمن أجاب يومئذ حجّ على قدر الإجابة إن أجاب مرّة فمرة وإن أجاب مرتين فمرتتين وجرت التلبية على ذلك.

3 السنة في ذبح الأضحية أن تكون بعد صلاة العيد، ومن ذبح قبل ذلك أعاد لقوله صلى الله عليه وسلم: "من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم" ويستحب في ذبح الأضحية والهدي أن يقول بعد التسمية الواجبة: اللهم منك ولك.

4 المشهور وعليه الأكثر أنّ أيام النحر ثلاثة وهي: أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد.

(3/469)

بالحرم. وقوله: {وليطوفوا بالبيت العتيق} أي وليطوفوا طواف الإفاضة وهو ركن الحج ولا يصح إلا بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة صباح العيد عيد الأضحى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب بناء البيت وإعلائه كلما سقط وتهدم ووجوب تطهيره من كل ما يؤذي الطائفين والعاكفين في المسجد الحرام من الشرك والمعاصي وسائر الذنوب ومن الأقدار كالأبول والدماء ونحوها.
 - 2- مشروعية فتح مكاتب للدعاية للحج.
 - 3- جواز الاتجار أثناء إقامته في الحج.
 - 4- وجوب شكر الله تعالى وذكره.
 - 5- جواز الأكل من الهدى ومن ذبائح التطوع بل استحبابه.
 - 6- وجوب الحلق أو التقصير بعد رمي جمرة العقبة.
 - 7- وجوب الوفاء بالنذور الشرعية 1 أما النذور للأولياء فهي شرك ولا يجوز الوفاء بها.
 - 8- تقرير طواف الإفاضة 2 وبيان زمنه وهو بعد الوقوف بعرفة وعي جمرة العقبة.
- ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

- 1 لقوله صلى الله عليه وسلم لا وفاء لنذر في معصية الله، وقال ومن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه.
- 2 أما طواف القدوم فواجب عند مالك وطواف الوداع سنة مؤكدة ويسقط بالعدر عند أكثر أهل العلم، لسقوطه عن الحائض إجماعاً، ومن أهل العلم من يرى طواف القدوم سنة ليس بواجب.

(3/470)

(32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)
شرح الكلمات:

- ذلك: أي الأمر هذا مثل قول المتكلم هذا أي ما ذكرت.. وكذا وكذا..
- حرمات الله: جمع حرمة ما حرم الله إنتهاكه من قول أو فعل.
- فهو خير له عند ربه: أي خير في الآخرة لمن يعظم حرمات الله فلا ينتهكها.
- إلا ما يتلى عليكم: أي تحريمه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.
- فاجتنبوا الرجس: أي اجتنبوا عبادة الأوان.
- واجتنبوا قول الزور: وهو الكذب وأعظم الكذب ما كان على الله تعالى 1 والشرك وشهادة الزور.
- حنفاء لله: موحدون له مائلين عن كل دين إلى الإسلام.

خَرَّ من السماء : أي سقط.

فتخطفه الطير: أي تأخذه بسرعة.

شعائر الله : أعلام دينه وهي هنا البُدن بأن تختار الحسنة السمينة منها.

فإنها من تقوى القلوب : أي تعظيمها ناشئ من تقوى قلوبهم.

لكم فيها منافع: منها ركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وشرب لبنها.

إلى أجل مسمى: أي وقت معين وهو نحرها بالحرم أيام التشريق.

ثم محلها إلى البيت العتيق : أي عند البيت العتيق وهو مكة والحرم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في مناسك الحج قوله تعالى {ذلك} أي الأمر ذلك الذي علمتم من قضاء النقت أي

إزالة شعر الرأس وقص الشارب وقلم الأظافر ولباس الثياب ونحر وذبح الهدايا والضحايا، {ومن

يعظم} منكم {حرمات الله} فلا ينتهكها {فهو خير له} أي ذلك التعظيم لها باحترامها وعدم انتهاكها

خير له عند ربّه يوم يلقاه وقوله تعالى: {وأحلت لكم

1 وكذلك الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

(3/471)

{الأنعام} أي الإبل والبقر والغنم أحل الله تعالى لكم أكلها، والانتفاع بها وقوله تعالى: {إلا ما يتلى

عليكم} تحريمه كما جاء في سورة البقرة والمائدة والأنعام، ومن ذلك قوله تعالى : {حرمت عليكم

الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتريفة والنطيحة وما أكل

السبع إلا ما ذكيتُم وما ذبح على النصب} وقوله: {فاجتنبوا الرجس 1 من الأوثان} أي اجتنبوا عبادة

الأوثان فإنها رجس فلا تقربوها بالعبادة ولا بغيرها غضبا لله وعدم رضا بها وعبادتها، وقوله:

{واجتنبوا قول الزور} وهو الكذب مطلقاً وشهادة الزور وأعظم الكذب ما كان على الله بوصفه بما هو

منزه عنه أو بنسبه شيء إليه كالولد والشريك وهو عنه منزه، أو وصفه بالعجز أو بأي نقص وقوله

{خفاء 2} الله غير مشركين} أي موحدين لله تعالى في ذاته وصفاته وعباداته مائلين عن كل الأديان

إلى دينه الإسلام، غير مشركين به أي شيء من الشرك أو الشركاء وقوله تعالى : {ومن يشرك بالله}

إلهاً آخر فعنده أو صرف له بعض العبادات التي هي لله تعالى فحاله في خسارته وهلاكه هلاك من

خَرَّ من السماء أي سقط منها بعدما رفع إليها {فتخطفه الطير} أي تأخذه بسرعة وتمزقه أشلاء كما

تفعل البازات والعقبان بصغار الطيور، أو تهوى به الريح في مكان سحيق بعيد فلا يعثر عليه أبداً

فهو بين أمرين إما اختطاف الطير له أو هوى الريح به فهو خاسر هالك هذا شأن من يشرك بالله تعالى فيعبد معه غيره بعد أن كان في سماء الطهر والصفاء الروحي بسلامة فطرته وطيب نفسه فانتكس في حمأة الشرك والعياذ بالله وقوله تعالى: {ذلك ومن يعظم 3 شعائر الله فإنها من تقوى 4 القلوب} أي الأمر ذلك من تعظيم حرمان الله واجتناب قول الزور والشرك وبيان خسران المشرك ومن يعظم شعائر الله وهي أعلام دينه من سائر المناسك وبخاصة البدن التي تهدي للحرم وتعظيمها باستحسانها واستسماتها ناشيء عن تقوى القلوب فمن عظمها طاعة لله تعالى وتقرباً إليه دل ذلك

- 1 الرجس: الشيء القذر، والوثن: التمثال من خشب أو حديد وغيرهما ومن: كونها لابتداء الغاية أولى ليعم الأمر اجتناب كل رجس في اعتقاد أو قول أو عمل إذ كل الأنجاس محرمة.
- 2 لفظ: حنفاء: من الأضداد يقع على الاستقامة والميل معاً، ومعناها مائلين عن الشرك إلى التوحيد، وعن الأديان إلى الإسلام.
- 3 الشعائر: جمع شريعة. وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر عباده به وأعلمهم، والشعار: العلامة، ومنه شعار الحرب وإشعار: البدنة لتعلم أنها مهداة للحرم، فشعائر الله: أعلام دينه لاسيما المناسك وما يتعلق بها.
- 4 أضيفت التقوى إلى القلوب لأنَّ حقيقة التقوى في القلب، والتقوى من الخوف والخوف في القلب ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "التقوى ها هنا" وأشار إلى صدره ثلاث مرات.

(3/472)

على تقوى قلبه لربه تعالى والرسول يشير إلى صدره ويقول التقوى ها هنا التقوى ها هنا ثلاث مرات وقوله تعالى: {لكم فيها منافع إلى أجل مسمى} أي أذن الله تعالى للمؤمنين أن ينتفعوا بالهدايا وهم سائقوها إلى الحرم بأن يركبوها 1 ويحملوا عليها ما لا يضرها ويشربوا من ألبانها وقوله تعالى: {ثم محلها إلى البيت 2 العتيق} أي محلها عند البيت العتيق وهو الحرم حيث تنحر إن كان مما ينحر أو تذبح إن كان مما يذبح.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- وجوب تعظيم حرمان الله لما فيها من الخير العظيم.
- 2- تقرير حليّة بهيمة الأنعام بشرط ذكر اسم الله عند ذبحها أو نحرها.
- 3- حرمة قول الزور وشهادة الزور وفي الأثر عدلت 3 شهادة الزور الشرك بالله.
- 4- وجوب ترك عبادة الأوثان ووجوب البعد عنها وترك كل ما يمت إليها بصلة.

5- بيان عقوبة الشرك وخسران المشرك.

6- تعظيم شعائر الله وخاصة البدن من تقوى قلوب أصحابها.

7- جواز الانتفاع بالبدن الهدايا بركوبها وشرب لبنها والحمل عليها إلى غاية نحرها بالحرم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَيْكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ
وَمِمَّا

- 1 في الصحيح أنّ رجلاً يسوق بدنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "اركبها فقال الرجل إنها بدنة قال: اركبها قال: إنها بدنة، وفي الثالثة قال له صلى الله عليه وسلم: اركبها ويحك"
- 2 إن كان الهدي في الحج فمحله بعد رمي جمره العقبة ولا ينحر أو يذبح قبله، وإن كان في غير الحج، وإنما هدي مهدي إلى الحرم فمحله مكة حيث يطعمه فقراؤها وفقراء الحرم كله.
- 3 وفي الصحيح: "إن أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور .. " الحديث.

(3/473)

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَبِيرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(36) لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُ النِّقْيَ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

شرح الكلمات:

منسكاً: أي ذبائح من بهيمة الأنعام يتقربون بها إلى الله تعالى، ومكان الذبح يقال له منسك.

فله أسلموا: أي انقادوا ظاهراً وباطناً لأمره ونهيه.

وبشر المخبتين: أي المطيعين المتواضعين الخاشعين.

وجلت قلوبهم: أي خافت من الله تعالى أن تكون قصرت في طاعته.

والبدن: جمع بدنة وهي ما يساق للحرم من إبل وبقر ليذبح تقرباً إلى الله تعالى.

من شعائر الله: أي من أعلام دينه، ومظاهر عبادته.

صواف: جمع صافة وهي القائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى.

فإذا وجبت جنوبها: أي بعد أن تسقط على جنوبها على الأرض لا روح فيها.

القانع والمعتر: القانع 1 السائل والمعتر الذي يتعرض للرجل ولا يسأله حياء وعفة.

1 القناع: من الأضداد يطلق على ذي القناعة وعلى من لا قناعة له فهو يسأل، إلا أن الفعل الماضي لذي القناعة مكسور العين فعل كعلم، وفعل: من لا قناعة له فهو يسأل فعل: بفتح العين كنصح ينصح.

(3/474)

كذلك سخرناها: أي مثل هذا. التسخير سخرناها لكم لتركبوا عليها وتحملوا وتحلبوا. لعلمكم تشكرون : أي لأجل أن تشكروا الله تعالى بحمده وطاعته. لن ينال الله لحومها: أي لا يرفع إلى الله لحم ولا دم، ولكن تقواه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. لتكبروا الله على ما هداكم : أي تقولون الله أكبر بعد الصلوات الخمس أيام التشريق شركاً له على هدايته إياكم. وبشر المحسنين : أي الذين يريدون بالعبادة وجه الله تعالى وحده ويؤدونها على الوجه المشروع. معنى الآيات:

ما زال السياق في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدارين فقوله تعالى: {ولكل أمة جعلنا منسكاً} أي ولكل أمة من الأمم السابقة من أهل الإيمان والإسلام جعلنا لهم مكان نسك يتعبدوننا فيه ومنسكاً 1 أي ذبح قربان ليقربوا به إلينا، وقوله: {ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} أي شرعنا لهم عبادة ذبح القربان لحكمة: وهو أن يذكروا اسمنا على ذبح ما يذبحون ونحر ما ينحرون بأن يقولوا بسم الله والله أكبر. وقوله تعالى: {فإلهكم إله واحد} أي فمعبودكم أيها الناس معبود واحد {فله أسلموا} وجوهكم وخصوه بعبادتكم ثم قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {وبشر المخبتين} برضواننا ودخول دار كرامتنا ووصف المخبتين معرفاً بهم الذين تتألمهم البشرية على لسان رسول الله فقال {الذين إذا ذكر الله} لهم أو بينهم {وجلت قلوبهم} أي خافت شعوراً بالتقصير في طاعته وعدم أداء شكره والغفلة عن ذكره {والصابرين على ما أصابهم} من البلاء فلا يجزعون ولا يتسخطون ولكن يقولون إنا لله وإنا إليه راجعون،

1 يقال: نسك ينسك نسكاً: إذا ذبح ذبح تقرب لله تعالى، والذبيحة تسمى نسيكة وجمعها: نسك، ومنها قوله تعالى: {أو صدقة أو نسك} والنسك: الطاعة لله، وهي عبادته، ومن ذلك قولهم: تتسك فلان: أي تعبد فهو ناسك ومتنسك، والمنسك بفتح السين وكسرهما موضع العبادة، ومنه مناسك الحج وهي الأماكن التي تؤدي فيها الشعائر كعرفات ومزدلفة ومنى ومكة.

(3/475)

{والمقيمي} الصلاة 1 أي بأدائها في أوقاتها في بيوت الله مع عباده المؤمنين ومع كامل شرائطها وأركانها وسننها {ومما رزقناهم ينفقون} مما قل أو كثر ينفقون في مرضاة ربهم شكر الله على ما آتاهم وتسليماً بما شرع لهم وفرض عليهم.

وقوله تعالى: {والبدن 2 جعلناها لكم من شعائر الله} أي الإبل والبقر مما يُهدى إلى الحرم جعلنا ذلك من شعائر ديننا ومظاهر عبادتنا، {لكم فيها خير} عظيم وأجر كبير عند ربكم يوم تلقوه إذ ما تقرب متقرب يوم عيد الأضحى بأفضل من دم يهرقه في سبيل الله وعليه {فاذكروا اسم الله عليها} أي قولوا بسم الله والله أكبر عند نحرها، وقوله: {صواف 3} أي قائمة على ثلاثة معقولة اليد اليسرى، فإذا نحرتموها ووجبت أي سقطت على جنوبها فوق الأرض ميتة {فكلوا منها وأطعموا القانع 4} الذي يسألكم {والمعتر} الذي يتعرض لكم ولا يسألكم حياءً، وقوله تعالى: {سخرناها لكم} أي مثل ذلك التسخير الذي سخرناها لكم فتركبوا وتحلبوا وتذبحوا وتأكلوا سخرناها لكم من أجل أن تشكرونا بالطاعة والذكر. وقوله تعالى في آخر آية في هذا السياق وهي (37) قوله: {لن 5 ينال الله لحومها ولا دماؤها} أي لن يرفع إليه لحم ولا دم ولن يبلغ الرضا منه، ولكن التقوى بالإخلاص وفعل الواجب والمندوب وترك الحرام والمكروه هذا الذي يرفع إليه ويبلغ مبلغ الرضا منه.

1 قرأ الجمهور بكسر التاء من الصلاة على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: (الصلاة) بفتحها على توهم النون، وأن حذفها كان للتخفيف لطول الاسم. وأنشد سيبويه:

الحافظو عورة العشييرة لا

يأتيهم من ورائنا نطف

النطف: التلطف بالعييب والالتهام بريية أو فجور.

2 البدن: بضم الباء والدال، والبدن: بضم الباء وإسكان الدال لغة فصيحة وقرأ الجمهور: (والبدن) بإسكان الدال واحدها بدنة كثرة وثمر، وخشبة وخشب وسميت بدنة لأنها تبدين، والبدانة: السمن، وتطلق على البقر على الصحيح فمن نذرها أجزاءه البقرة، وهي كالبعير تجزىء عن سبعة في هدي التمتع والقرآن.

3 أصل هذا اللفظ مأخوذ من صفن الفرس إذا وقف على ثلاثة أرجل، ورفع الرابعة ومنها: تنحر الإبل بعد أن توقف على ثلاثة وتعقد اليد اليسرى منها، وقرىء (صوافي) و(صواف) من الصفاء الذي هو الخلوص لله تعالى أي: خالصة له عز وجل.

4 القانع: اسم فاعل من قنع يقنع فهو قانع: إذا سأل وتذلل في السؤال: أما القانع بمعنى: ذي القناعة ففعله قنع بكسر النون قناعة: إذا اكتفى بما عنده ولم يسأل قال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، والمعتر، الزائر وهو موافق في المعنى لما تقدم، ويؤيد هذا قراءة الحسن: (والمعتر)

وهو الذي يتعرض لك ويأتك بدون علم منك.
5 قال ابن عباس رضي الله عنهما: لن يصعد إليه. أي اللحم والدم، ولكن الذي يصل إليه التقوى منكم وما أريد به وجهه.

(3/476)

وقوله تعالى: {كذلك سخرها لكم} أي كذلك التسخير الذي سخرها لكم لعلَّ أن تكبروا الله على ما هداكم إليه من الإيمان والإسلام فتكبروا الله عند نحر البدن وذبح الذبائح وعند أداء المناسك وعقب الصلوات الخمس أيام التشريق. وقوله تعالى: {ويبشر المحسنين} أمر الله تعالى رسوله والمبلغ عنه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يبشر باسمه المحسنين الذين أحسنوا الإيمان والإسلام فوجدوا الله وعبدوه بما شرع وعلى نحو ما شرع متبعين في ذلك هدى رسوله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ذبح القران مشروع في سائر الأديان الإلهية وهو دليل على أنه لا إله إلا الله إذ وحدة التشريع تدل على وحدة المشرع.
- وسر مشروعية ذبح القران هو أن يذكر الله تعالى، ولذا وجب ذكر اسم الله عند ذبح ما يذبح ونحر ما ينحر بلفظ بسم الله والله أكبر.
- 2- تعريف المخبتين أهل البشارة السارة برضوان الله وجواره الكريم.
- 3- وجوب ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام.
- 4- بيان كيفية نحر البدن، وحرمة الأخذ منها قبل موتها وخروج روحها.
- 5- الندب إلى الأكل من الهدايا ووجوب إطعام الفقراء والمساكين منها.
- 6- وجوب شكر الله على كل إنعام.
- 7- مشروعية التكبير عند أداء المناسك كرمي الجمار وذبح ما يذبح وبعد الصلوات الخمس أيام التشريق.
- 8- فضيلة الإحسان وفوز المحسنين ببشرى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

(3/477)

لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

شرح الكلمات:

يدافع: قُرئء يدفع أي غوائل المشركين وما يكيدون به المؤمنين.

خون: كثير الخيانة لأمانته وعهوده.

كفور: أي جحود لربه وكتابه ورسوله ونعمه عليه.

بأنهم ظلموا: أي بسبب ظلم المشركين لهم.

بغير حق: أي استوجب إخراجهم من ديارهم.

إلا أن يقولوا ربنا الله: أي إلا قولهم: ربنا الله والله حق، وهل قول الحق يُسوغ إخراج قائله؟

صوامع وبيع: معابد الرهبان وكنائس النصارى.

وصلوات: معابد اليهود، باللغة العبرية مفردتها صلواتا.

ومساجد: أي بيوت الصلاة للمسلمين.

من ينصره: أي ينصر في يده وعباده المؤمنين.

قوي عزيز: قادر على ما يريد عزيز لا يمانع فيما يريد.

إن مكناهم في الأرض: أي نصرناهم على عدوهم ومكنا لهم في البلاد بأن جعلنا السلطة بأيديهم.

(3/478)

ولله عاقبة الأمور: أي آخر أمور الخلق مردها إلى الله تعالى الذي يثيب ويُعاقب.

معنى الآيات:

ما زال السياق في إرشاد المؤمنين وتعليمهم وهدايتهم قوله تعالى: {إن الله يدافع عن 2 الذين آمنوا}

أي يدفع عنهم غوائل المشركين ويحميهم من كيدهم ومكرهم. وقوله: {إن الله لا يحب كل خوان

كفور 3} تليل وهم المشركين الذين صدوا رسول الله والمؤمنين عن المسجد الحرام وهم الخائنون

لأماناتهم وعهودهم الكافرون بربهم ورسوله وكتابه وبما جاء به، ولما كان لا يحبهم فهو عليهم،

وليس لهم. ومقابلته أنه يحب كل مؤمن صادق في إيمانه محافظ على أماناته وعهوده مطيع لربه،

ومن أحبه دافع عنه وحماه من أعدائه.

وقوله تعالى: {أذن للذين يقاتلون} باسم للفاعل أي القادرين على القتال ويقاثلون باسم المفعول وهما

قراءتان أي قاتلهم المشركون هؤلاء أذن 4 الله تعالى لهم في قتال أعدائهم المشركين بعدما كانوا

ممنوعين من ذلك لحكمة يعلمها ربهم، وهذه أول آية في القرآن تحمل طابع الحرب بالإذن فيه للمؤمنين، وقوله: {وإن الله على نصرهم لقدير} طمأنهم على أنه معهم بتأييده ونصره وهو القدير على ذلك وقوله تعالى: {الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق} أي بدون موجب لإخراجهم اللهم إلا قولهم5: ربنا الله وهذا حق وليس بموجب لإخراجهم من ديارهم وطردهم من منازلهم وبلادهم هذه الجملة بيان لمقتضى الإذن لهم بالقتال، ونصرة الله تعالى لهم. وقوله تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم6 ببعض} أي يدفع بأهل الحق أهل الباطل لولا هذا لتغلب أهل الباطل و{لهدمت

1 روي أن هذه الآية: {إن الله يدافع..} نزلت بسبب أن المؤمنين بمكة لما كثر اضطهاد المشركين لهم فكر بعضهم في اغتيال الكفار، والاحتيال عليهم والغدر بهم فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: {كفور}.

2 قرأ الجمهور: {يدافع} وقرأ بعضهم: {يدفع}.

3 الخَوَان: كثير الخيانة، وهي الغدر، والغدر من شر الصفات، فقد صحَّ أن الله تعالى ينصب يوم القيامة للغادر لواءً عند أسنته بقدر غدرته: يقال هذه غدرة فلان بن فلان!!

4 هذه الآية نزلت بالمدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إليها وفيها إذن بقتال المشركين بعد المنع الأول فهي أول آية بالإذن بالقتال بعدما كان غير مأذون فيه كما تقدم.

5 قوله: {إلا أن قالوا ربنا الله}. "الاستثناء منقطع أي: لكن لقولهم ربنا الله أي: وحده لا رباً لنا سواه استمرت مدة السلم ثلاث عشرة سنة، وفي السنة الأولى من الهجرة أذن الله تعالى للمؤمنين بقتال المشركين إذ قد أعذر الله تعالى إليهم.

6 في الآية دليل على أن أمر الجهاد متقدم في الأمم قبل هذه الأمة وبه صلحت الرائع وعبد الناس ربهم، واستقامت أمورهم وصلحت أحوالهم.

(3/479)

صوامع وبيع1 وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً} وهذا تعليل أيضاً وبيان لحكمة الأمر بالقتال أي لولا أن الله تعالى يدفع بأهل الإيمان أهل الكفر لتغلب أهل الكفر وهدموا المعابد ولم يسمحوا للمؤمنين أن يعبدوا الله- وفي شرح الكلمات بيان للمعابد المذكورة فليرجع إليها. وقوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي} أي قدير {عزيز} غالب فمن أراد نصرته نصره ولو اجتمع عليه من بأقطار الأرض، والذي يريد الله نصرته هو الذي يقا تل من أجل الله بأن يُعبد في الأرض ولا يُعبد معه سواه فذلك وجه نصر الله فليعلم وقوله {الذين إن مكناهم}2 أي وطأنا لهم في الأرض وملكناهم بعد قهر أعدائهم المشركين فحكموا وسادوا أقاموا الصلاة على الوجه المطلوب

منهم، وآتوا الزكاة المفروضة في أموالهم، وأمروا بالمعروف أي بالإسلام والدخول فيه وإقامته، ونهوا عن المنكر وهو الشرك والكفر ومعاصي الله ورسوله هؤلاء الأحقون بنصر الله تعالى لهم لأنهم يقاتلون لنصرة الله عز وجل، وقوله تعالى: {ولله عاقبة الأمور} يخبر تعالى بأن مرد كل أمر إليه تعالى يحكم فيه بما هو الحق والعدل فيثيب على العمل الصالح ويعاقب على العمل الفاسد، وذلك يوم القيامة، وعليه فليراقب الله وليتق في السر والعلن وليتوكل عليه، ولينب إليه، فإن مرد كل أمر إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وعد الله الصادق بالدفاع عن المؤمنين الصادقين في إيمانهم.
- 2- كره الله تعالى لأهل الكفر والخيانة.
- 3- مشروعية القتال لإعلاء كلمة الله بأن يعبد وحده ولا يضطهد أوليائه.
- 4- بيان سر الإذن بالجهاد ونصرة الله لأوليائه الذين يقاتلون من أجله.

1 في الآية دليل على أنه لا يجوز لنا هدم معابد اليهود والنصارى، وإنما يمنعون من زيادة البناء حتى لا يكون ذلك إذناً بالبقاء على الكفر وهو حرام.

2 هذه عامة في هذه الأمة وليست خاصة بالخلفاء الراشدين الأربعة ولا بالصحابة والتابعين بل هي عامة فيمن مكن الله تعالى لهم في الأرض فسودهم وحكمهم وجب عليهم أن يقوموا بفعل ما ذكر في هذه الآية من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(3/480)

5- بيان أسس الدولة التي ورث الله أهلها البلاد وملكهم فيها وهي:
إقام الصلاة - إيتاء الزكاة - الأمر بالمعروف - النهي عن المنكر.

وَأَن يَكْذِبُوا فَفَدَّ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَايِنَ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةً وَقَصِرَ مَشِيدِ (45) أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنَّا لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

شرح الكلمات:

وإن يكذبوك : أي إن يكذبك قوم فقد كذبت قلوبهم قوم نوح إذا فلا تأس إذ لست وحدك المكذب.
وأصحاب مدين: هم قوم شعيب عليه السلام.

وكذب موسى : أي كذبه فرعون وآله الأقباط.
فأمليت للكافرين: أي أمهلتهم فلم أعجل العقوبة لهم.
ثم أخذتهم : أي بالعذاب المستأصل لهم.
فكيف كان نكير: أي كيف كان إنكاري عليهم تكذيبهم وكفرهم أكان واقعاً موقعه؟ نعم إذ الاستفهام
للتقرير .
فهي خاوية على عروشها: أي ساقطة على سقوفها.

(3/481)

بئر معطلة: أي متروكة لا يستخرج منها ماء لموت أهلها.
وقصر مشيد: مرتفع مجصص بالجص.
فإنها لا تعمى الأبصار: أي فإنها أي القصة لا تعمى الأبصار فإن الخلل ليس في أبصارهم ولكن
في قلوبهم حيث أعماها الهوى وأفسدتها الشهوة والتقليد لأهل الجهل والضلال.
معنى الآيات:
ما زال السياق الكريم في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد وإن تخللته إرشادات للمؤمنين فإنه لما أذن
للمؤمنين بقتال المشركين بين مقتضيات هذا الإذن وضمن النصر لهم وأعلم أن عاقبة الأمور إليه
لا إلى غيره وسوف يقضي بالحق والعدل بين عباده يوم يلقونه. قال لرسوله صلى الله عليه وسلم
مسلياً له عن تكذيب المشركين له: {وإن يكذبوك}1 أيها الرسول فيما جئت به من التوحيد والرسالة
والبعث والجزاء يوم القيامة فلا تأس ولا تحزن {فقد كذبت قبلهم} أي قبل مُكذِّبِك من قريش والعرب
واليهود {قوم نوح وعاد} قوم هود {وثمود} قوم صالح {وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين،
وكذب موسى} أيضاً مع ما آتيناها من الآيات البيّنات، وكانت سنتي فيهم أني أمليت لهم أي مددت
لهم في الزمن وأرخيت لهم الرسن حتى إذا بلغوا غاية الكفر والعناد والظلم والاستبداد وحقت عليهم
كلمة العذاب أخذتهم أخذ العزيز المقنن {فكيف كان نكير}2 أي إنكاري عليهم؟ كان وربك واقعاً
موقعه، وليس المذكورون أخذت فقط.. {فكأين من قرية} عظيمة غانية برجالها ومالها وسلطانها
{أهلكناها وهي ظالمة} أي ضالعة في الظلم أي الشرك والتكذيب {فهي خاوية على عروشها}3 أي
ساقطة على سقوفها، وكم من بئر ماء4 عذب كانت سقيا لهم فهي الآن معطلة، وكم من قصر
مشيد أي رفيع مشيد بالجص إذ

1 الآية في تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيتته من جزاء ما يلاقي من قومه من أنواع
التكذيب والعناد والجحود.

- 2 أي: تغييرى ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك. والإنكار والنكير: تغيير المنكر.
3 العروش: جمع عرش وهو السقف. والمعنى: إن جدرانها فوق سقفا.
4 قرأ نافع: {ويبر} بدون همزة تخفيفاً.

(3/482)

مات أهله وتركوه 1 هذا ما تضمنته الآيات الأربع (42، 43، 44، 45) أما الآية الأخيرة من هذا السياق فالحق عز وجل يقول 2 {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها} حائثاً المكذبين من كفار قريش والعرب على السير في البلاد ليقفوا على آثار الهالكين فلعل ذلك يكسبهم حياة جديدة في تفكيرهم ونظرهم فتكون لهم قلوب حية واعية يعقلون بها خطابنا إليهم ونحن ندعوهم إلى نجاتهم وسعادتهم أو تكون لهم آذان يسمعون بها نداء النصيح والخير الذي نوجهه إليهم بواسطة كتابنا ورسولنا، وما لهم من عيون مبصرة بدون قلوب واعية وآذان صاغية فإن ذلك غير نافع {فإنها لا 3 تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور 4}. وهذا حاصل القول ألا فليسيروا لعلمهم يكسبون عبراً وعظات تحصي قلوبهم وسائر حواسهم المتبلدة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تكذيب الرسل والدعاة إلى الحق والخير سنة مطردة في البشر لها عواملها من أبرزها التقليد والمحافظة على المنافع المادية، وظلمات القلب الناشئة عن الشرك والمعاصي.
- 2- مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك الأمم والشعوب الظالمة بعد الإمهال لهم والإعداد.
- 3- مشروعية طلب العبر وتصيدها من آثار الهالكين.
- 4- العبرة بالبصيرة القلبية لا بالبصر فكم من أعمى هو أبصر للحقائق وطرق النجاة من ذي بصر حاد حديد. ومن هنا كان المفروض على العبد أن يحافظ على بصيرته أكثر من المحافظة على عينيه، وذلك بأن يتجنب مدمرات القلوب من الكذب والترهات والخرافات، والكبر والعجب والحب والبغض في غير الله.

1 {وقصر مشيد} أي: مبني بالشيد وهو الجص أي: مثلها معطل.

2 الاستفهام للتعجب من حالهم وهم في غيهم وجهلهم.

3 {فإنها..} أي: الحال أو القصة لا تعمى الأبصار: قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل لما نزلت: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى} سأل ابن أم مكتوم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت هذه الآية: {فإنها لا تعمى الأبصار

ولكن تعمى القلوب التي في الصدور { الآية صريحة في أن العقل في القلب، ولا منافاة بين من يرى ذلك في المخ إذ ارتباط كبير بين المخ والقلب في حصول الوعي والإدراك للإنسان.
4 ذكر الصدور ظرفاً للقلوب للتأكيد إذا القلوب لا تكون إلا في الصدور فهو كقوله تعالى : {ولا طائر يطير بجناحيه..} " وكقولهم رأيت بعيني".

(3/483)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَالْيَوْمِ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

شرح الكلمات:

يستعجلونك بالعذاب: أي يطالبونك مستعجلينك بما حذرتهم منه من عذاب الله.
كألف سنة مما تعدون: أي من أيام الدنيا ذات الأربع والعشرين ساعة.
وكأين من قرية: أي وكثير من القرى أي العواصم والحوضر الجامعة لكل أسباب الحضارة.
أمليت لها: أي أهلتها فمددت أيام حياتها ولم استعجلها بالعذاب.
نذير مبين: منذر أي مخوف عاقبة الكفر والظلم بين النذارة.
لهم مغفرة ورزق كريم: أي ستر لذنوبهم ورزق حسن في الجنة.
سعوا في آياتنا معاجزين: أي عملوا بجد واجتهاد في شأن إبعاد الناس عن الإيمان بآياتنا وما تحمله من دعوة إلى التوحيد وترك الشرك والمعاصي.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهه في دعوته إلى الصبر والتحمل فيقول له: {ويستعجلونك بالعذاب [1]} أي يستعجلك المشركون من قومك بالعذاب الذي خوفتهم به وحذرتهم منه، {ولن يخلف الله وعده} وقد وعدهم فهو واقع بهم لا بد وقد

1 قيل: نزلت في النضر بن الحارث ورفقائه إذ كانوا يستعجلون العذاب ويطالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنزاله تحدياً منهم وعناداً، وفيهم نزل: {سأل سائل بعذاب واقع}. {إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق..} الآية.

(3/484)

تم ذلك في بدر وقوله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ فلذا تعالى لا يستعجل وهم يستعجلون فيوم الله بألف سنة، وأيامهم بأربع وعشرين ساعة فإذا حدد تعالى لعذابهم يوماً معناه أن العذاب لا ينزل بهم إلا بعد ألف سنة، ونصف يوم بخمسمائة سنة، وربيع يوم بمائتين وخمسين سنة وهكذا فلذا يستعجل الإنسان ويستبطيء، والله عز وجل ينجز وعده في الوقت الذي حدده فلا يستخفه استعجال المجرمين العذاب ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ولو لا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ من سورة العنكبوت هذا ما دلت عليه الآية الأولى (47) وقوله تعالى: ﴿وكأين من قرية﴾ أي مدينة كبرى ﴿أمليت لها﴾ أي أمهلتها وزدت لها في أيام بقائها والحال أنها ظالمة بالشرك والمعاصي ثم بعد ذلك الإملاء والإمهال أخذتها ﴿والْي المصير﴾ أي مصير كل شيء ومرده إلي فلا إله غيري ولا رب سواي فلا معنى لاستعجال هؤلاء المشركين العذاب فإنهم عذبوا في الدنيا أو لم يعذبوا فإن مصيرهم إلى الله تعالى وسوف يجزيهم بما كانوا يكسبون الجزاء العادل في دار الشقاء والعذاب الأبدي وقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾، فلست بآله ولا رب بيدي عذابكم إن عصيتموني وإنعامكم إن أطعتموني، وإنما أنا عبد مأمور بأن أُنذر عصاة الرب بعذابه، وأبشر أهل طاعته برحمته، وهو معنى الآية (50) فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازمه أنهم تركوا الشرك والمعاصي لهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم عند ربهم وهو الجنة دار النعيم ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي عملوا جادين مسرعين في صرف الناس عن آيات الله حتى لا يؤمنوا بها ويعملوا بما فيها من هدي ونور معاجزين الله يظنون أنهم يعجزونه والله غالب على أمره ناصر دينه وأوليائه، أولئك البعداء في الشر والشرك أصحاب الجحيم الملازمون لها أبد الأبدية.

- 1 النداء لأهل مكة خاصة وللبشرية عامة إذ هو صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الناس كافة والنذير: المخوف. عقوبة الشرك والشر والفساد.
- 2 أي: ظانين أنهم يعجزوننا فلم نقو عليهم ولم نقدر على أخذهم لأنهم مكذبون بالبعث الآخر وما فيه من حساب وجزاء على الكسب في هذه الدنيا.
- 3 ومما يزيد تفسير هذه الآية وضوحاً قوله صلى الله عليه وسلم: "مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، وكذبت طائفة فهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلي ومثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق".

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- العجلة من طبع الإنسان ولكن استعجال الله ورسوله بالعذاب حمق وطيش وضلال وكفر.
- 2- ما عند الله في الملكوت الأعلى يختلف تماماً عما في هذا الملكوت السفلي.
- 3- عاقبة الظلم وخيمة وفي الخبر الظلم يترك الديار بلاقع أي خراباً خالية.
- 4- بيان مهمة الرسل وهي البلاغ مع الإنذار والتبشير ليس غير.
- 5- بيان مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57)

(3/486)

شرح الكلمات:

من رسول ولا نبي: الرسول ذكر من بني آدم أوحى إليه بشرع وأمر بابلاغه. والنبي مقرر لشرع من قبله.

تمنى في أمنيته: أي قرأ في أمنيته، أي في قراءته.

ثم يحكم الله آياته: أي بعد إزالة ما ألقاه الشيطان في القراءة بحكم الله آياته أي يثبتها.

فتنة للذين في قلوبهم مرض: أي اختباراً للذين في قلوبهم مرض الشرك والشك.

والقاسية قلوبهم: هم المشركون.

فتخبت له قلوبهم: أي تتطامن وتخضع له قلوبهم.

في مرية منه: أي في شك منه وريب من القرآن.

عذاب يوم عقيم: هو عذاب يوم بدر إذ كان يوماً عقيماً لا خير فيه.

في جنات النعيم: أي جنات ذات نعيم لا يبلغ الوصف مداه.

فلهم عذاب مهين: أي يهان فيه صاحبه فهو عذاب جثماني نفساني.

معنى الآيات:

بعد التسلية الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم التي تضمنها قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح.. الخ} ذكر تعالى تسلية ثانية وهي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ حول الكعبة في صلاته سورة النجم والمشركون حول الكعبة يسمعون فلما بلغ قوله تعالى: {أفأرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى} ألقى الشيطان في مسامع المشركين الكلمات التالية: "تلك الغرائيق العلاء، وإن شفاعتهن لترتجى" ففرح المشركون بما سمعوا ظناً منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها وأن الله أنزلها فلما سجد في آخر السورة سجدوا معه إلا رجلاً 1 كبيراً لم يقدر على السجود فأخذ حثية من تراب وسجد عليها وشاع أن محمداً قد اصطاح مع قومه حتى رجع المهاجرون من الحبشة فكرب لذلك رسول الله وحزن فأنزل الله تعالى هذه

1 هذا الرجل، روى البخاري أنه أمية بن خلف، وقيل هو أبو أحيحة سعيد بن العاص وقيل: هو الوليد بن المغيرة. والله أعلم بأيهم كان.

(3/487)

الآية تسلية له فقال: {وما أرسلنا من قبلك من رسول 1} ذي رسالة يبلغها ولا نبي مقرر لرسالة نبي قبله {إلا إذا تمنى} أي قرأ {ألقى للشيطان في أمنيهته 2} أي في قراءته {فينسخ الله} أي يزيل ويبطل {ما يلقي الشيطان} 3 من كلمات في قلوب الكافرين أوليائه {ثم يحكم الله آياته} بعد إزالة ما قاله الشيطان فيثبتها فلا تقبل زيادة ولا نقصاناً، والله عليم بخلقه وأحوالهم وأعمالهم لا يخفى عليه شيء من ذلك حكيم في تدبيره وشرعه هذه سنته تعالى في رسله وأنبيائه. فلا تأس يا رسول الله ولا تحزن ثم بين تعالى الحكمة في هذه السنة فقال: {ليجعل ما يلقي للشياطين} أي من كلمات في قراءة النبي أو الرسول {فتنة للذين في قلوبهم مرض} الشك والنفاق {والفاسية قلوبهم} وهم المشركون ومعنى فتنة هنا محنة يزدادون بها ضلالاً على ضلالهم ويُعداً عن الحق فوق بعدهم إذ ما يلقي الشيطان في قلوب أوليائه إلا للفتنة أي زيادة في الكفر والضلال. وقوله تعالى: {وإن الظالمين لفي شقاق بعيد} هو إخبار منه تعالى عن حال المشركين بأنهم في خلاف لله ورسوله، بعيدون فيما يعتقدونه وما يعملونه وما يقولونه، وما يتصورونه مخالف تمام المخالفة لما يأمر تعالى به ويدعوهم إليه من الاعتقاد والقول والعمل والتصور والإدراك. وقوله تعالى: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم} هذا جزء العلة التي تضمنتها سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي فالجزء الأول تضمنه قوله تعالى: {ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم

مرض والقاسية قلوبهم} وهذا هو الجزء الثاني أي {وليعلم الذين أوتوا العلم} بالله وآياته وتدبيره {أنه الحق من ربك} أي ذلك الإلقاء والنسخ وإحكام

- 1 في هذه الآية دليل على أن هناك فرقاً بين النبي والرسول لذكر الرسول في الآية ثم النبي: لوما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي} والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة: أن كل رسول نبي إذ لا يرسل حتى يوحى إليه وينبأ وليس كل نبي رسولاً إذ ينبئه الله تعالى بما شاء ولا يرسله، وجاء في حديث أبي ذر "إنَّ عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وأن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي جمّ غفير"
- 2 قال سليمان بن حرب إنَّ (في) هنا هي بمعنى عند أي: ألقى الشيطان عند قراءته ألقى في قلوب المشركين. ولـ (في) بمعنى عند نظير هو قوله تعالى {ولبثت فينا من عمرك سنين} أي: عندنا.
- 3 ما روي من خبر في قصة الغرائق كله ضعيف ولم يثبت فيها حديث صحيح قط، والذي ثبت في الصحيح هو قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم، لسورة النجم وسجوده وسجود المشركين معه والذي عصم منه صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم أن ينطق بكلمة: تلك الغرائق العلاء.. الخ وإنما نطق بها الشيطان وأسمعها المشركين للفتنة كما في التفسير المثبت فيه رأي ابن جرير إمام المفسرين رحمه الله تعالى.

(3/488)

الآيات بعده 1 {فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم} أي تطمئن وتسكن عنده وتخضع فيزدادون هدى. وقوله تعالى: {وإن الله لهادٍ للذين آمنوا إلى صراط مستقيم} هذا إخبار منه تعالى عن فعله مع أوليائه المؤمنين به المتقين له وأنه هاديهم في حياتهم وفي كل أحوالهم إلى صراط مستقيم يفضي بهم إلى رضاه وجنته، وذلك بحمايتهم من الشيطان وتوفيقهم وإعانتهم على طاعة الرحمن سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه}3 أي من القرآن هل هو كلام الله هل هو حق هل إتباعه نافع وتستمر هذه المرية والشك بأولئك القساة القلوب أصحاب الشقاق البعيد {حتى تأتيهم الساعة بغتة} أي فجأة وهي القيامة {أو يأتيهم عذاب يوم عقيم}4 أي لا خير فيه لهم وهو يوم بدر وقد تم لهم ذلك وعندها زالت ربيتهم وعلموا أنه الحق حيث لا ينفع العلم. وقوله تعالى: {الملك 5 يومئذ لله} أي يوم تأتي الساعة يتمحض الملك لله وحده فلا يملك معه أحد فهو الحاكم العدل الحق يحكم بين عباده بما ذكر في الآية وهو أن الذين آمنوا به وبرسوله وبما جاء به وعملوا الصالحات من فرائض ونوافل بعد تخليهم عن الشرك والمعاصي يدخلهم جنات النعيم، والذين كفروا به وبرسوله وبما جاء به، وكذبوا بآيات الله المتضمنة شرأعه وبيان طاعاته فلم يؤمنوا

ولم يعملوا الصالحات وعملوا العكس وهو السيئات فأولئك البعداء في الحطة والخسة لهم عذاب مهين يكسر أنوفهم ذلة لهم ومهانة لأنفسهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي للفتنة.

2- بيان أن الفتنة يهلك فيها مرضى القلوب وقساتها، ويخرج منها المؤمنون أكثر يقيناً.

1 قوله تعالى: {وليعلم الذين أوتوا العلم} جائز أن يكونوا من المؤمنين ومن أهل الكتاب.

2 ومثبتهم على الهداية.

3 ومن الدين ومن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

4 وعذاب يوم القيامة عذاب عظيم باعتبار أنه يوم لا ليلة له فهذا وجه العقم لأنّ العقيم هو الذي لا يخلف ولداً، ولما ذكر عذاب يوم القيامة تعين أن يكون هو يوم بدر ومعنى عقمه: أنه لا خير فيه للمشركين ولم يحصلوا منه على فائدة.

5 قالوا: الملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور، وقيل في الآية إشارة إلى يوم بدر وهو بعيد ولا داعي إليه، ودلالة الآية تنفيه.

(3/489)

وأعظم هدىً.

3- بيان حكم الله تعالى بين عباده يوم القيامة بإكرام أهل الإيمان والتقوى وإهانة أهل الشرك والمعاصي.

4- ظهور مصداق ما أخبر به تعالى عن مجرمي قريش فقد استمروا على ربهم حتى هلكوا في بدر.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَبِزْتُمْ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

شرح الكلمات:

والذين هاجروا: أي هجروا ديار الكفر وذهبوا إلى دار الإيمان المدينة المنورة.

في سبيل الله : أي هجروا ديارهم لا لدنيا ولكن ليعبدوا الله وينصروا دينه وأولياءه.
ليبرزقنهم رزقاً حسناً: أي في الجنة إذ أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة.

(3/490)

ليدخلنهم مدخلا يرضونه : أي الجنة يوم القيامة.
ذلك : أي الأمر ذلك المذكور فاذكروه ولا تنسوه.
ثم بغى عليه : أي ظلم بعد أن عاقب عدوه بمثل ما ظلم به.
يولج الليل في النهار: أي يدخل جزءاً من الليل في النهار والعكس بحسب فصول السنة كما أنه
يومياً يدخل الليل في النهار إذا جاء النهار ويدخل النهار في الليل إذا جاء الليل.
بأن الله هو الحق : أي الإله الحق الذي تجب عبادته دون سواه.
من دونه: أي من أصنام وأوثان وغيرها هو الباطل بعينه.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان حكم الله تعالى بين عباده فذكر تعالى ما حكم به لأهل الإيمان والعمل الصالح وما حكم به لأهل الكفر والتكذيب، وذكر هنا ما حكم به لأهل الهجرة والجهاد فقال عز وجل: ﴿والذين هاجروا¹ في سبيل الله﴾ أي خرجوا من ديارهم لأجل طاعة الله ونصرة دينه ﴿ثم قتلوا﴾ من قبل أعداء الله المشركين ﴿أو ماتوا﴾ حتف أنوفهم بدون قتل ﴿ليبرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ في الجنة إذ أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ﴿ليدخلنهم﴾ يوم القيامة ﴿مدخلاً² يرضونه﴾ وهو الجنة، وقوله تعالى: ﴿وان الله لهو خير الرازقين﴾ أي لخير من يرزق فما رزقهم به هو خير رزق وأطيبه وأوسع. وقوله: ﴿وان الله لعليم حلیم﴾ عليم بعباده وبأعمالهم الظاهرة والباطنة حلیم يعفو ويصفح عن بعض زلات عباده المؤمنين فيغفرها ويستترها عليهم إذ لا يخلو العبد من ذنب إلا من عصمهم الله من أنبيائه ورسله.

1 قيل: نزلت هذه الآية في عثمان بن مظعون وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهما إذ ماتا بالمدينة مريضين فقال بعض الناس: من مات في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه. كأنه يعني عثمان وعبدالله فنزلت هذه الآية مسوية بين المجاهد والمهاجر، ومن شواهد فضل المهاجر ما روي: أن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان برودس أميراً على الأرياع فجيء بجنازتي رجلين أحدهما قتل والآخر متوفى فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حضرته فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اقرأوا قول الله تعالى: ﴿والذين هاجروا ..﴾ الآية.

2 قرأ نافع: {مدخلا} بفتح الميم على أنه اسم مكان من دخل المجرد، وقرأ غيره مُدخلا بضم الميم: اسم مكان أيضاً من أدخله يدخله الرباعي مدخلا.

(3/491)

وقوله تعالى: {ذلك ومن عاقب1} أي الأمر ذلك الذي بينت لكم، {ومن عاقب بمثل ما عوقب به} أي ومن أخذ من ظالمه بقدر ما أخذ منه قصاصاً، ثم المعاقب ظلم بعد ذلك من عاقبه فإن المظلوم أولاً وآخرأ تعهد الله تعالى بنصره، وقوله: {إن الله لعفو غفور} فيه إشارة إلى ترغيب المؤمن في العفو عن أخيه إذا ظلمه فإن العفو خير من المعاقبة وهذا كقوله تعالى2 {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل} وقوله: {ذلك بأن الله يولج الليل والنهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير} أي أن القادر على إدخال الليل في النهار والليل في الليل بحيث إذ جاء أحدهما غاب الآخر، وإذا قصر أحدهما طال الآخر والسميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم قادر على نصرته من بُغي عليه من أوليائه. وقوله تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق} أي المعبود الحق المستحق للعبادة، وإن ما يدعون من دونه من أصنام وأوثان هو الباطل أي ذلك المذكور من قدرة الله وعلمه ونصرته أوليائه كان لأن الله هو الإله الحق وأن ما يعبدون من دونه من آلهة هو الباطل، وأن الله هو العلي على خلقه القاهر لهم المتكبر عليهم الكبير العظيم الذي ليس شيء أعظم منه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل الهجرة في سبيل الله حتى إنها تعدل3 الجهاد في سبيل الله.
- 2- جواز المعاقبة بشرط المماثلة، والعفو أولى من المعاقبة.
- 3- بيان مظاهر الربوبية من العلم والقدرة الموجبة لعبادة الله تعالى وحده وبطلان عبادة غيره.
- 4- إثبات صفات الله تعالى: العلم والحلم والمغفرة والسمع والبصر والعفو والعلو على الخلق والعظمة الموجبة لعبادته وترك عبادة من سواه.

1 ذلك: في محل رفع على الخبرية، والمبتدأ مقدر كما في التفسير. أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك والآية نزلت في حادثة خاصة قاتل فيها المسلمون في الشهر الحرام فحزنوا لذلك، وكان قتالهم اضطرارياً لأن المشركين هم البادئون.

2 الآية من سورة الشورى.

3 والرباط: كالهجرة، والجهاد، فقد روي عن سلمان الفارسي أنه مرّ برجال مرابطين على حصن

ببلاد الروم. وطال حصارهم للحصن، وإقامتهم عليه فقال لهم: سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: "من مات مرابطاً أجرى الله تعالى عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين" واقرأوا إن شئتم: {والذين هاجروا} الآية.

(3/492)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66)

شرح الكلمات:

ألم تر: أي ألم تعلم.

مخضرة: أي بالعشب والكلأ والنبات.

الغني الحميد: الغني عن كل ما سواه المحمود في أرضه وسمائه.

سخر لكم ما في الأرض: أي سهل لكم تملكه والتصرف فيه والانتفاع به.

أحياكم: أي أوجدكم أحياء بعدما كنتم عدما.

لكفور: أي كثير الكفر والجحود لربه ونعمه عليه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد بذكر مظاهر القدرة والعلم والحكمة قال تعالى: {ألم تر 1} يا رسولنا {أن الله أنزل من السماء ماء} أي مطراً فتصبح الأرض بعد

- 1 {ألم تر} الخطاب صالح لكل متأهل للرؤية من ذوي العقول، والاستفهام للحض على الرؤية فهو كالأمر والفاء للتفريع إذ يتفرع عن نزول المطر: صيرورة الأرض مخضرة بالنبات.
- 2 هذا انتقال إلى التذكير بمظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده وشكره بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان به حق الإيمان وتصديقه بكل ما جاء به ويدعو إليه.

(3/493)

نزول المطر عليها مخضرة بالعشب والنباتات والزرورع، وقوله: {إن الله لطيف} [بعباده {خبير} بما يصلحهم ويضرهم وينفعهم.

و وقوله: {له ما في السموات وما في الأرض} أي خلقاً وملكاً وتصرفاً، {وإن الله لهو الغني} عن خلقه {الحميد} أي المحمود في الأرض والسماء بجميل صنعه وعظيم إنعامه وقوله تعالى: {ألم تر أن الله سخر لكم 2 ما في الأرض} من الدواب والبهائم على اختلافها {والفلك} أي وسخر لكم الفلك أي السفن {تجري في البحر بأمره} أي بإذنه وتسخيره، {ويمسك السماء 3 أن تقع على الأرض} أي كيلا تقع على الأرض {إلا بإذنه} أي لا تقع إلا إذا أذن لها في ذلك وقوله: {إن الله بالناس لرؤوف رحيم} من مظاهر رأفته ورحمته بهم تلك الرحمة المتجلية في كل جانب من جوانب حياتهم في حملهم في ارضاعهم في غذائهم في نومهم في يقظتهم في تحصيل أرزاقهم في عفوه عن ذلاتهم في عدم تعجيل العقوبة لهم بعد استحقاقهم لها في إرسال الرسل في إنزال الكتب فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقوله تعالى: {وهو الذي أحياكم} بالإنشاء والإيجاد من العدم، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم {ثم يحييكم} ويبعثكم ليجزيكم بكسبكم كل هذه النعم يكفرها الإنسان فيترك ذكر ربه وشكره ويذكر غيره ويشكر سواه، فهذه المظاهر لقدرة الرب وعلمه وحكمته وتلك الآلاء والنعم الظاهرة والباطنة توجب الإيمان بالله وتحتم عبادته وتوحيده وذكره وشكره، وتجعل عبادة غيره سُخْفاً وضلالاً عقلياً لا يُقادر قدره ولا يُعرف مداه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بذكر مقتضياته من القدرة والنعمة.
- 2- إثبات صفات الله تعالى: اللطيف الخبير الغني الحميد الرؤوف الرحيم المحيي المميت.

1 لطيف في تدبيره للخلقة خبير في صنعه.. وهاتان الصفتان متجليتان في تدبيره تعالى للكون وصنعه فيه.

2 التسخير: معناه: التذليل للشيء حتى يصبح طوع المسخر له وهو هنا بمعناه، ويعني: تسهيل الانتفاع فيما هو خارج عن قدرة الإنسان بإرسال الرياح ونزول الأمطار.

3 وجائز أن يراد بالسماء: ماؤها أي: المطر كقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم

رعينا وإن كانوا غضابا

3- بيان إنعام الله وإفضاله على خلقه.

4- مظاهر قدرة الله تعالى في إمساك السماء أن تقع على الأرض، وفي الإحياء والأماتة والبعث.
لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67)
وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (71) وَإِذَا
تُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
قُلْ أَفَأَنْبِيئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ (72)

شرح الكلمات:

جعلنا منسكاً : أي مكاناً يتعبدون فيه بالذبايح أو غيرها.
فلا ينزعك: أي لا ينبغي أن ينزعوك.
هدى مستقيم: أي دين مستقيم هو الإسلام دين الله الحق.
في كتاب: هو اللوح المحفوظ.
ما لم ينزل به سلطاناً: أي حجة وبرهاناً.

(3/495)

المنكر : أي الإنكار الدال عليه عبوس الوجه وتقطيبيه.

يسطون : يبطشون.

بشر من ذلكم : هو النار.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان هداية الله تعالى لرسوله والمؤمنين ودعوة المشركين إلى ذلك قال تعالى : {ولكل أمة جعلنا منسكاً} أي ولكل أمة من الأمم التي مضت والحاضرة أيضاً جعلنا لهم منسكاً أي مكاناً ينتسكون فيه ويتعبدون {هم 2 ناسكوه} أي الآن، فلا تلتفت إلى ما يقوله هؤلاء المشركون، ولا تقبل منهم منازعة في أمر واضح لا يقبل الجدل، وذلك أن المشركين انتقدوا ذبايح الهدى والضحايا أيام التشريق، واعترضوا على تحريم الميتة وقالوا كيف تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله بيمينه وقوله تعالى لرسوله: {وادع إلى ربك} أي أعرض عن هذا الجدل الفارغ وادع إلى توحيد ربك وعبادته {إنك لعلی هدى مستقيم} أي طريق قاصد هاد إلى الإسعاد والإكمال وهو الإسلام وقوله: {وإن جادلوك}3 في بيان بعض المناسك والنسك فتركهم فإنهم جهلة لا يعلمون وقل: {الله أعلم بما تعملون} أي وسيجزيكم بذلك حسنة وسيئة {والله يحكم بينكم} أي يقضي بينكم

أيها المشركون فيما كنتم فيه تختلفون وعندها تعرفون المحق من المبطل منا وذلك يوم القيامة. وقوله تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض} بلى إن الله يعلم كل ما في السموات والأرض من جليل ودقيق وجلّيّ وخفي وكيف لا وهو اللطيف الخبير {إن ذلك في كتاب} وهو اللوح المحفوظ فكيف يجهل أو ينسى، و {إن ذلك} أي كتبه

1 سبق مثل هذا النزاع بين المؤمنين والمشركين في التذكية عند قول الله تعالى من سورة الأنعام: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه} وقوله تعالى: {فلا ينازعنك} معناه: أترك منازعتهم وأعرض عنهم ولا تلتفت إليهم.

2 سبق مثل هذه الآية في أول السورة وهو دال على أنه لا إله إلا الله إذ وحدة التشريع تدل على وحدة المشرع عقلاً ولا تنتقض.

3 في الآية الكريمة أسلوب المتاركة إذا لم تنفع المجادلة لعدم استعداد الخصم لقبول الحق أو تعذر معرفته له.

4 الاستفهام تقريرى بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم والجملة تحمل التسلية له صلى الله عليه وسلم والتخفيف مما يلاقي من جدال المشركين وعنادهم.

(3/496)

وحفظه في كتاب المقادير {على الله يسير 1} أي هين سهل، لأنه تعالى على كل شيء قدير. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع (67، 68، 69، 70) وقوله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً} أي ويعبد أولئك المشركون المجادلون في بعض المناسك أصناماً لم ينزل الله تعالى في جواز عبادتها حجة ولا برهاناً بل ما هو إلا إفك افتروه، ليس لهم به علم ولا لأبائهم، وسوف يحاسبون على هذا الإفك ويجزون به في ساعة لا يجدون فيها ولياً ولا نصيراً إذ هم ظالمون بشركهم بالله آلهة مفتراة ويوم القيامة ما للظالمين من نصير. هذا ما دلت عليه الآية (71) وأما قوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات} يخبر تعالى عن أولئك المشركين المجادلين بالباطل أنهم إذا قرأ عليهم أحد المؤمنين آيات الله وهى بينات في مدلوها تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم {تعرف} يا رسولنا {في وجوه الذين كفروا المنكر 2} أي تتغير وجوههم ويظهر عليها الإنكار على التالي عليهم الآيات {يكادون يسطون 3} أي يبطشون ويقعون بمن يتلون عليهم آيات الله لهدايتهم وصلاحتهم. وقوله تعالى: {قل أفأنبئكم 4 بشر من ذلكم} أي قل لهم يا رسولنا أفأنبئكم بشر من ذلك الذي تكفرون وهو من يتلون عليكم آيات الله أنه النار التي وعدنا الله الذين كفروا أي من أمثالكم، وبئس المصير تصيرون إليه النار إن لم تتوبوا من شرككم وكفركم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير حقيقة وهي أن كل أمة من الأمم بعث الله فيها رسولاً وشرع لها عبادات تعبده بها.
- 2- استحسان ترك الجدل في البدهيات والإعراض عن ما فيها.
- 3- تقرير علم الله تعالى بكل خفي وجلي وصغير وكبير في السموات والأرض.

1 أي: الفصل بين المختلفين ككتابة كل كائن في كتاب المقادير كل ذلك على الله يسير إذ هو تعالى لا يعجزه شيء، ويقول للشيء كن فيكون.

2 أي: الغضب والعبوس.

3 السطو: شدة البطش يقال: سطا به يسطو: إذا بطش وسواء كان ذلك بسبب وشتم أو ضرب، وسطا عليه: إذا علاه ضرباً وشتماً.

4 {أفأنبئكم} الهمزة داخله على محذوف أي: أتكرهون سماع القرآن ومن يقرأه فأنا أنبئكم بشر من ذلك الذي تأدبتم به وكرهتموه؟ وقوله: {النار وعدها الله الذين كفروا} الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنهم قالوا: نبئنا فقال: النار.. الخ.

(3/497)

4- تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير الكتاب الحاوي لذلك وهو اللوح المحفوظ.

5- بيان شدة بغض المشركين للموحدين إذا دعوهم إلى التوحيد وذكرهم بالآيات.

6- مشروعية إغاظة الظالم بما يغيظه من القول الحق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

شرح الكلمات:

ضرب مثل: أي جعل مثل هو ما تضمنه قوله تعالى: {إن الذين تدعون... الخ.}

لن يخلقوا ذباباً: أي لن يستطيعوا خلق ذبابة وهي أحقر الحيوانات تتخلق من العفونات.

ولو اجتمعوا: أي على خلقه فإنهم لا يقدرون، فكيف إذا لم يجتمعوا فهم أعجز.

لا يستفئوه منه: أي لا يستردوه منه وذلك لعجزهم.

ضعف الطالب والمطلوب: أي العابد والمعبود.

ما قدروا الله حق قدره: أي ما عظم المشركون الله تعالى حق قدره أي عظمته.
يصطفي من الملائكة رسلاً: أي يجتبي ويختار كجبريل.
ومن الناس: كمحمد صلى الله عليه وسلم.

(3/498)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾ أي يا أيها المشركون بالله آلهة أصناماً ضرب لآلهتكم في حقارتها وضعفها وقلة نفعها مثل رائع فاستمعوا له. وبينه بقوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ من أوثان وأصنام ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ وهو أحقر حيوان وأخبثه أي اجتمعوا واتحدوا متعاونين على خلقه، أو لم يجتمعوا له فإنهم لا يقدرّون على خلقه وشيء آخر وهو إن يسلب الذباب الحقير شيئاً من طيب آلهتكم التي تضمخونها به، لا تستطيع آلهتكم أن تسترده منه فما أضعفها إذاً وما أحقرها إذا كان الذباب أقدر منها وأعز وأمنع.

وقوله تعالى: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾3 أي ضعف الصنم والذباب معاً كما ضعف العابد المشرك والمعبود الصنم ﴿إن الله لقويّ عزيز﴾ أي قوي قادر على كل شيء عزيز غالب لا يمانع في أمر يريد فكيف ساغ للمشركين أن يؤلّوها غيره ويعبدونه معه ويجعلونه له مثلاً. هذا ما دلت عليه الآيات الأولى (73) والثانية (74) وقوله تعالى: ﴿الله يصطفي4 من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ هذا رد على المشركين عندما قالوا: ﴿أ أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ وقالوا: ﴿أبعث الله بشراً رسلاً﴾ فأخبر تعالى أنه يصطفي أي يختار من الملائكة رسلاً كما اختار جبرائيل وميكائيل، ومن الناس كما أختار نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليه وسلم، ﴿إن الله سميع5﴾ لأقوال عباده طيبها وخبيثها ﴿بصير﴾ بأعمالهم صالحها وفاسدها وعلمه بخلقهم وبصره بأحوالهم وحاجاتهم اقتضى أن

1 ضرب المثل: هو ذكره وبيانه، واستعير الضرب للقول والذكر تشبيهاً بوضع الشيء بشدة، وهو تعبير شائع في اللغة العربية، والمثل هنا تشبيه تمثيلي، إذ هو تشبيه أصنامهم في عجزها وحقارتها بالذباب في عجزه وحقارته وضمنه الإنكار الشديد عليهم في تشبيه أصنامهم بالله عز وجل إذ عبدها بعبادته وألّوها تأليهه عز وجل.

2 الذباب: اسم واحد للذكر والأنثى والجمع والقليل: أدبة والأكثر ذبان والواحدة ذبابة، ولا يقال ذبابة بالتشديد وكسر الذال، والمذبّة: آلة لذب الذبان وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

3 قيل: الطالب: الآلهة، والمطلوب: الذباب، والعكس صحيح، وجائز أن يكون الطالب: عابد

الصنم، والمطلوب: الصنم.

4 الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، والإخبار بجملة يصطفي بدل: نصطفي لإفادة الاختصاص أي: هنا الاصطفاء خاص به تعالى لعظيم علمه وحكمته.

5 الجملة تعليلية، وجملة يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، مقررة لها وتفيد الدعوة إلى مراقبة الله عزّ وجلّ.

(499/3)

يصطفي منهم رسلاً وقوله: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} أي ما بين أيدي رسله من الملائكة ومن الناس وما خلفهم ماضياً ومستقبلاً إذ علمه أحاط بكل شيء فلذا حق له أن يختار لرسالاته من يشاء فكيف يصح الاعتراض عليه لولا سفه المشركين وجهالاتهم وقوله تعالى: {والى الله ترجع الأمور} هذا تقرير لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله الحق المطلق في إرسال الرسل من الملائكة أو من الناس ولا اعتراض عليه في ذلك إذ مرد الأمور كلها إليه بدءاً ونهاية إذ هو ربّ كل شيء ومليكه لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

2- التنديد بالشرك وبطلانه وبيان سفه المشركين.

3- ما قدر الله حق قدره من سوى به أحقر مخلوقاته وجعل له من عباده جزءاً وشبهاً ومثلاً.

4- إثبات الرسالات I للملائكة وللناس معاً.

5- ذكر صفات الجلال والكمال لله تعالى المقتضية لربوبيته والموجبة لألوهيته وهي القوة والعزة، والسمع والبصر لكل شيء وبكل شيء والعلم بكل شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

1 في العبارة بعض الخفاء، والمقصود هو أنّ الله يصطفي من الملائكة مثل جبريل وميكائيل فيرسلهم إلى من يصطفي من الناس وهم الأنبياء، وفي الآية رد على المعترضين على الوحي الإلهي لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)
شرح الكلمات:

واعبدوا ربكم: أي أطيعوه في أمره ونهيه في تعظيم هو غاية التعظيم وذل له هو غاية الذل.
وافعلوا الخير: أي من كل ما انتدبكم الله لفعله ورجبكم فيه من صالح الأقوال والأعمال.
لعلكم تفلحون: أي كي تفوزوا بالنجاة من النار ودخول الجنة.
حق جهاده: أي الجهاد الحق الذي شرعه الله تعالى وأمر به وهو جهاد الكفار والشيطان والنفس والهوى.

اجتباكم: أي اختاركم لحمل دعوة الله إلى الناس كافة.
من حرج: أي من ضيق وتكليف لا يطاق.
ملة أبيكم: أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم وهي عبادة الله وحده لا شريك له.
وفي هذا: أي القرآن.

اعتصموا بالله: أي تمسكوا بدينه وثقوا في نصرته وحسن مثوبته.
ونعم النصير: أي هو تعالى نعم النصير أي الناصر لكم.
معنى الآيات:

بعد تقرير العقيدة بأقسامها الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، نادى الربّ تبارك وتعالى المسلمين بعنوان الإيمان فقال: {يا أيها الذين آمنوا} أي يا من آمنتم بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام في ديناً، {اركعوا واسجدوا}1 أمرهم بإقام الصلاة {واعبدوا ربكم} أي أطيعوه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه معظمين له غاية التعظيم خاشعين له غاية الخشوع {وافعلوا الخير} من كل ما انتدبكم الله إليه ورجبكم فيه من أنواع البر وضرور العبادات {لعلكم تفلحون} أي لتتأهلوا بذلك للفلاح الذي هو الفوز بالجنة بعد النجاة من النار.

1 خصّ الركوع والسجود من بين أركان الصلاة لأنهما أشرف أجزائها وأدل على خضوع العبد لربه وذلته له.

وقوله: ﴿وجاهدوا﴾ في الله حق جهاده² أي أمرهم أيضاً بأمر هام وهو جهاد الكفار حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ومعنى حق جهاده أي كما ينبغي الجهاد من استفرغ الجهد والطاقة كلها نفساً ومالاً ودعوة وقوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ هذه منةٌ ذكر بها تعالى المؤمنين حتى يشكروا الله بفعل ما أمرهم به أي لم يضيق عليكم فيما أمركم به بل وسع فجعل التوبة لكل ذنب، وجعل الكفارة لبعض الذنوب، ورخص للمسافر والمريض في قصر الصلاة والصيام، ولمن لم يجد الماء أو عجز عن استعماله في التيمم.

وقوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾³ أي الزموا ملة أبيكم وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين﴾ أي الله جل جلاله هو الذي سماهم المسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن وهو معنى قوله: ﴿هو سماكم﴾⁴ المسلمين من قبل وفي هذا ﴿أي القرآن وقوله: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي اجتباكم أيها المؤمنون لدينه الإسلامي وسماكم المسلمين ليكون الرسول شهيداً عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم وعليه فاشكروا هذا الإنعام والإكرام لله تعالى ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله﴾ أي تمسكوا بشرعه عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً وقضاً وحكماً، وقوله تعالى: ﴿هو مولاكم﴾ أي سيدكم ومالك أمركم ﴿فنعم المولى﴾ هو سبحانه وتعالى ﴿ونعم النصير﴾ أي الناصر لكم ما دتم أولياءه تعيشون على الإيمان والتقوى.

- 1 هذا من ذكر العام بعد الخاص، والعبادة: الطاعة ولكن مع غاية التعظيم والحب للمطاع.
- 2 الجهاد هنا: قتال الكفار المعتدين والمانعين لدعوة الله وصد الناس عنها والعلّة فيه إكمال البشر وإسعادهم بالإسلام لله تعالى و﴿في﴾ في قوله ﴿في الله﴾: تعليلية أي: لأجل الله أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، وفي الحديث الصحيح: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".
- 3 هذا كقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ فإنه مخصوص بالاستطاعة وقوله بعد: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ مخصّص له أيضاً، ويدخل في الأمر بالجهاد هنا: جهاد النفس والشيطان، وكلمة الحق عند من ينكرها لحديث "كلمة عدل عند سلطان جائر".
- 4 الملة: الدين والشريعة ونصب: ﴿ملة﴾: بالزموا ونحوه، والخطاب للعرب إذ إبراهيم أبو العرب المستعربة قاطبة، وهو أيضاً أبو أهل الكتاب وأبّ كل موحد أبوة تشریف وإتباع وتعظيم.
- 5 قوله تعالى ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ بعد ذكر المنن إشارة صريحة إلى وجوب شكر الله تعالى على نعمه، وما شكر الله تعالى من لم يقم الصلاة ويؤت الزكاة كما أن من لم يتمسك بدين الله كافر غير شاكر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضيلة الصلاة وشرف العبادة وفعل الخير.
- 2- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية {وافتلوا الخير لعلمكم تفلحون}.
- 3- فضل الجهاد في سبيل الله وهو جهاد الكفار، وان لا تأخذ المؤمن في الله لومة لائم.
- 4- فضيلة 1 هذه الأمة المسلمة حيث أعطيت ثلاثاً لم يعطها إلا نبي كان يقال للنبي عليه السلام اذهب فليس عليك حرج فقال الله لهذه الأمة: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}، وكان يقال للنبي عليه السلام أنت شهيد على قومك وقال الله: {لتكونوا شهداء على الناس} وكان يقال للنبي سل تعطه وقال الله لهذه الأمة: {ادعوني استجب لكم} دل على هذا قوله تعالى: {هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج}.
- 5- فرضية الصلاة، والزكاة، والتمسك بالشريعة.

1 ذكر هذا ابن جرير الطبري رواية عن معمر وقتادة.

(3/503)

سورة المؤمنون

...

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون

مكية

وآياتها مائة وثمانية عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

شرح الكلمات:

قد أفلح المؤمنون: أي فاز قطعاً بالنجاة من النار ودخول الجنة المؤمنون.
في صلاتهم خاشعون: أي ساكنون متطامنون لا يلتفتون بعين ولا قلب وهم بين يدي ربهم.
عن اللغو معرضون: اللغو كل ما لا رضى فيه لله من قول وعمل وتفكير، معرضون أي منصرفون عنه.

للزكاة فاعلون: أي مؤدون.

لفروجهم حافظون: أي صائنون لها عن النظر إليها لا يكشفونها وعن إتيان الفاحشة.
أو ملكت إيمانهم: من الجوارى والسراير إن وجدن.

(3/504)

فمن ابتغى وراء ذلك: أي طلب ما دون زوجته وجاريته المملوكة شرعياً.

فأولئك هم العادون: أي الظالمون المعتدون على حدود الشرع.

راعون: أي حافظون لأماناتهم وعهودهم.

الفردوس 1: أعلى درجة في الجنة في أعلى جنة.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون} 2 يخبر تعالى وهو الصادق الوعد بفلاح المؤمنين وقد بين تعالى في

آية آل عمران معنى الفلاح وهو الفوز بالنجاة من النار ودخول الجنة ووصف هؤلاء المؤمنين

المفلحين بصفات من جمعها متصفاً بها فقد ثبت له الفلاح وأصبح من الوارثين الذين يرثون

الفردوس يخلدون فيها وتلك الصفات هي:

(1) الخشوع في الصلاة بأن يسكن فيها المصلي فلا يلتفت فيها برأسه ولا بطرفه ولا بقلبه مع رقة

قلب ودموع عين وهذه أكمل حالات الخشوع في الصلاة، ودونها أن يطمئن ولا يلتفت برأسه ولا بعينه

و لا بقلبه في أكثرها. هذه الصفة تضمنها قوله تعالى: {الذين هم في صلاتهم خاشعون} 3.

(2) إعراضهم عن اللغو وهو كل قول وعمل وفكر لم يكن فيه الله تعالى إذن به ولا رضى فيه

ومعنى إعراضهم عنه: انصرافهم عنه وعدم التفاتهم إليه، وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:

{والذين هم عن اللغو معرضون}.

(3) فعلهم الزكاة أي أدأؤهم لفريضة الزكاة الواجبة من أموالهم الناطقة كالمواشي والصامته كالنقدين

والحبوب والثمار، وفعلهم لكل ما يزكي النفس من الصالحات وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:

{والذين هم للزكاة فاعلون}.

(4) حفظ فروجهم من كشفها ومن وطء غير الزوج أو الجارية المملوكة بوجه شرعي وقد تضمن هذه

الصفة قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ في إتيان أزواجهم وما ملكت أيمانهم، ولكن اللوم

1 أخرج مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة".

2 روى أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب قوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة: ﴿قد فلق المؤمنون﴾ حتى ختم العشر.

3 كان السلف الصالح إذا قام أحدهم في صلاته يهاب الرحمن أن يمدّ بصره إلى شيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا، وأبصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يعيب بلحيته في الصلاة فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه" والجمهور على أن الخشوع في الصلاة أحد فرائضها.

(3/505)

والعقوبة على من طلب هذا المطلب من غير زوجه وجاريته ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي الظالمون المعتدون حيث تجاوزوا ما أحل الله لهم إلى ما حرم عليهم.

(5) مراعاة الأمانات والعهود بمعنى محافظتهم على ما اتتمنوا عليه من قول أو عمل ومن ذلك سائر التكاليف الشرعية حتى الغسل من الجنابة فإنه من الأمانة وعلى عهدهم وسائر عقودهم الخاصة والعامة فلا خيانة ولا نكث ولا خُلف وقد تضمن هذا قوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي حافظون.

(6) المحافظة على الصلوات الخمس بأدائها في أوقاتها المحددة لها فلا يقدمونها ولا يؤخرونها مع المحافظة على شروطها من طهارة الخبث وطهارة الحدث وإتمام ركوعها وسجودها واستكمال أكثر سننها وآدابها وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

فهذه ست صفات إجمالاً وسبع صفات تفصيلاً فمن اتصف بها كمل إيمانه وصدق عليه اسم المؤمن وكان من المفلحين الوارثين للفردوس الأعلى جعلنا الله تعالى منهم.
هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- وجوب الخشوع في الصلاة.

2- تحريم نكاح المتعة لأن المتمتع منها ليست زوجة لأنها لا تترث ولا تورث بخلاف الزوجة فإنها

لها الربع والثمن، ولزوجها النصف والربع، لأن نكاح المتعة هو النكاح إلى أجل معين قد يكون شهراً أو أكثر أو أقل.

3- تحريم العادة السرية وهي نكاح اليد وسحاق المرأة لأن ذلك ليس بنكاح زوجة ولا جارية مملوكة.

4- وجوب أداء الزكاة ووجوب حفظ الأمانات ووجوب الوفاء بالعهود ووجوب المحافظة على الصلوات.

5- تقرير حكم التوارث بين أهل الجنة وأهل النار فأهل الجنة يرثون منازل أهل النار وأهل النار يرثون منازل أهل الجنة اللهم اجعلنا من الوارثين الذين يرثون الفردوس.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ

(3/506)

خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ
(16)

شرح الكلمات:

من سلالة: السلالة ما يستل من الشيء والمراد بها هنا ما استل من الطين لخلق آدم.

نطفة في قرار مكين : النطفة قطرة الماء أي المني الذي يفرزه الفحل، والقرار المكين الرحم المصون.

العلقة: الدم المتجمد الذي يعلق بالإصبع لو حاول أحد أن يرفعه بإصبعه كمش البيض 1. والمضغة : قطعة لحم قدر ما يمضغ الأكل.

خلقاً آخر : أي غير تلك المضغة إذ بعد نفخ الروح فيها صارت إنساناً.

أحسن الخالقين : أي الصانعين فإله يصنع والناس يصنعون والله أحسن الصانعين.
معنى الآيات:.

يخبر تعالى عن خلقه الإنسان آدم وذريته وفي ذلك تتجلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته والتي أوجبت عبادته وطاعته ومحبته وتعظيمه وتقديره فقال: {ولقد خلقنا الإنسان} 2 يعني آدم عليه السلام {من سلالة من طين} أي من خلاصة طين جمعه فأصبح كالحمى المسنون فاستل منه خلاصته ومنها خلق آدم ونفخ فيه من روحه فكان بشراً سوياً والله الحمد والمنة

1 هذه الجملة معطوفة على جملة: {قد أفلح} فهي من عطف جملة ابتدائية على مثلها: وهي كعطف قصة على أخرى، وهذا شروع في الاستدلال على التوحيد والبعث والجزاء بمظاهر القدرة

والعلم والحكمة، وهي مقتضية لعقيدة كل من التوحيد والبعث الآخر حيث أنكرهما وكذب بهما المشركون.

2 جائز أن يكون المراد بالإنسان آدم، وأن يكون أحد ذريته إذ السلالة: الشيء المستل أي: المنتزع من غيره فالطينة مستلة من مادة الطين.

والمنيّ مستل كذلك من مادة ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دماً، وهذه السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية، والأغذية أصلها من الأرض وقوله تعالى: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} هذا طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم، وسميت النطفة نطفة: لأنها تتطف أي: تقطر في الرحم في قناة معروفة وهي القرار المكين.

(3/507)

قوله: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} أي ثم جعلنا الإنسان الذي هو ولد آدم نطفة من صلب آدم {في قرار مكين} هو رحم حواء {ثم خلقنا النطفة} المنحدرة من صلب آدم {علقة} أي قطعة دم جامدة تعلق بالإصبع لو حاول الإنسان أن يرفعها بإصبعه، {خلقنا العلقة مضغة} وهي قطعة لحم قدر ما يمضغ الأكل، {فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام} 1 لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر 2} أي إنساناً آخر غير آدم الأب، وهكذا خلق الله عز وجل آدم وذريته، {فتبارك الله أحسن الخالقين}. وقد يصدق هذا على كون الإنسان هو خلاصة عناصر شتى استحالت إلى نطفة الفحل ثم استحالت إلى علقة فمضغة فنفخ فيها الروح فصارت إنساناً آخر بعد أن كانت جماداً لا روح فيها وقوله تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين} فأثنى الله تعالى على نفسه بما هو أهله أي تعاضم أحسن الصانعين، إذ لا خالق إلا هو ويطلق لفظ الخلق على الصناعة فحسن التعبير بلفظ أحسن الخالقين.

وقوله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون} أي بعد خلقنا لكم تعيشون المدة التي حددناها لكم ثم تموتون، {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} أحياء للحساب والجزاء لتحيا حياة أبدية لا يعقبها موت ولا فناء ولا بلاء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته.
- 2- بيان خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها.
- 3- بيان مآل الإنسان بعد خلقه.
- 4- تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها الملاحدة والمشركون.

1 وقد أثبت علم الأجنة والشريح أن النطفة في طورها الثاني تعلق بجدار الرحم طيلة طورها الثاني فهي بمعنى عاقلة ولا منافاة بين كونها عاقلة وعالقة.

2 في الحديث الصحيح: "إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح .." { الحديث فإذا نفخ فيه الروح تهيأ للحياة والنماء وإليه الإشارة بقوله تعالى: {ثم أنشأناه خلقاً آخر} وروي أن يهود يزعمون أن العزل هو الموءودة الصغرى، وأن علياً رد هذا وقال: لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع أي: الأطور التي في هذه الآية.

(3/508)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّكَلِينِ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

شرح الكلمات:

سبع طرائق : أي سبع سموات كل سماء يقال لها طريقة لأن بعضها مطروق فوق بعض.

ماء بقدر: أي بمقدار معين لا يزيد ولا ينقص.

من طور سيناء : جبل يقال له جبل طور سيناء.

تنبت بالدهن: أي تنبت بثمر فيه الدهن وهو الزيت.

وصبغ للالكليين: أي يغمس الآكل فيه اللقمة ويأكلها.

في الأنعام لعبرة: الأنعام الإبل والبقر والغنم والعبرة فيها تحصل لمن تأمل خلقها ومنافعها.

مما في بطونها: أي من اللبن.

منافع كثيرة : كالوبر والصوف واللبن والركوب.

ومنها تأكلون : أي من لحومها.

تحملون: أي تركبون الإبل في البر وتركبون السفن في البحر.

(3/509)

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر نعمه 1 تعالى على الإنسان لعل هذا الإنسان يذكر فيشكر فقال تعالى : {ولقد خلقنا فوقكم سبع 2 طرائق} أي سموات سماء فوق سماء أي طريقة فوق طريقة وطبقاً فوق طبق وقوله تعالى: {وما كنا عن الخلق غافلين} أي ولم نكن غافلين عن خلقنا وبذلك انتظم الكون والحياة، وإلا لخرب كل شيء وفسد وقوله تعالى: {وأنزّلنا من السماء ماءً بقدر} هو ماء المطر أي بكميات على قدر الحاجة وقوله {فأسكنناه في الأرض 3} وأنا على ذهاب به لقادرون، فأنشأنا لكم به جنات {أي أوجدنا لكم به بساتين من نخيل وأعناب {لكم فيها} أي في تلك البساتين {فواكه 4 كثيرة ومنها تأكلون} أي ومن تلك الفواكه تأكلون وذكر النخيل والعنب دون غيرهما لوجودهما بين العرب فهم يعرفونهما أكثر من غيرهما فالنخيل بالمدينة والعنب بالطائف.

وقوله: {وشجرة 5} تخرج من طور سيناء {أي وأنبت لكم به شجرة الزيتون وهي {تنتبت بالدهن 6 وصبغ للآكلين} فبزيتها يدهن ويؤتدّم فتصبغ اللقمة به وتؤكل. وقوله: {وان لكم في الأنعام لعبرة} فتأملوها في خلقها وحياتها ومنافعها تعبرون بها إلى الإيمان والتوحيد والطاعة. وقوله: {ونسقيكم 7} مما في بطونها {من اللبن تخرج من بين فرث ودم، وقوله: {ولكم فيها منافع كثيرة} كصوفها ووبرها ولبنها وأكل لحومها. وقوله: {وعليها وعلى الفلك تحملون} وعلى بعضها كالإبل تحملون في البر وعلى السفن في البحر. أفلا تشكرون الله هذه النعم فتذكروه وتشكروه أليست هذه النعم موجبة لشكر المنعم بها فيُعبد ويوحّد في عبادته؟.

1 وفي ذكر أدلة التوحيد إذ تقدم الاستدلال على التوحيد بخلق الإنسان وهذا استدلال بخلق العدالة العلوية.

2 الطرائق: جمع طريقة، وهي اسم للطريق تذكر وتوثق فهل المراد بها هنا طرق الملائكة أو طرق سير الكواكب وهو سمتها وما تجري فيه أو هي السبع السموات، ومعنى طرائق: أن بعضها فوق بعض من قولهم طارق بين ثوبين جعل أحدهما فوق الثاني، ويكون المعنى طباقاً وهذا هو الراجح. والله أعلم.

3 {أسكنناه في الأرض} منه ما هو ظاهر كماء الأودية، والأنهار، ومنه ما هو باطن، وهو المياه الجوفية، وإن الله تعالى على ذهابه من ظاهر الأرض كباطنها قدير، ويومها تهلك البشرية، وهذه الآية كقوله: {قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين}.

4 جمع فاكهة وهي: ما يؤكل تفكهاً بأكله أي: تلذذاً بطعمه من غير قصد القوت، وما يؤكل لأجل الطعام يقال له: طعام ولا يقال له فاكهة.

5 وشجرة: معطوفة على جنات أي: وأخرجنا لكم به شجرة.

6 الباء في {بالدهن} للمصاحبة نحو: خرج زيد بسلامة أي: مصحوباً بسلامة.

7 قرىء {ونسقيكم} بضم النون من أسقاه، وبفتحها من سقاه كذا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان قدرة الله تعالى وعظمته في خلق السموات طرائق وعدم غفلته عن سائر خلقه فسار كل شيء لما خلق له فثبت الكون وانتظمت الحياة.
 - 2- بيان افضال الله تعالى في إنزال الماء بقدر وإسكانه في الأرض وعدم إذهابه مما يوجب الشكر لله تعالى على عباده.
 - 3- بيان منافع الزيت حيث 1 هو للدهن والانتدام والاستصباح.
 - 4- فضل الله على العباد في خلق الأنعام والسفن للانتفاع بالأنعام في جوانب كثيرة منها، وفي السفن للركوب عليها وحمل السلع والبضائع من إقليم إلى إقليم.
 - 5- وجوب شكر الله تعالى على إنعامه وذلك بالإيمان به وعبادته وتوحيده فيها.
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَّقَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (26)

شرح الكلمات:

- اعبدوا الله : أي وحدوه بالعبادة إذ ليس لكم من إله غيره.
- أفلا تتقون : أي أتعبدون معه غيره فلا تخافون غضبه وعقابه.
- المأ : أي أعيان البلاد وكبراء القوم.

1 في الآية إشارة إلى أن شجر الزيتون أول ما وجد على الأرض وُجد بطور سيناء ثم تناقله الناس من إقليم إلى آخر، فقله {تخرج من طور سيناء} إعلام بأول منبت لها.

- ما هذا إلا بشر مثلكم : أي ما نوح إلا بشر مثلكم فكيف تطيعونه بقبول ما يدعوكم إليه.
- أن يتفضل عليكم : أي يسودكم ويصبح أمراً ناهياً بينكم.
- ولو شاء الله لأنزل ملائكة: أي لو شاء الله إرسال رسول لأنزل ملائكة رسلا.

رجل به جنة : أي مصاب بمس من جنون.

فتربصوا به حتى حين: أي فلا تسمعوا له ولا تطيعوه وانتظروا به هلاكه أو شفاؤه.

معنى الآيات:

هذا السياق بداية عدة قصص ذكرت على إثر قصة بدأ خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام فقال تعالى: {ولقد أرسلنا نوحاً} 1 أي قبلك يا رسولنا فكذبوه كما كذبك قومك وإليك قصته إذ قال يا قوم اعبدوا الله أي وحدوه في العبادة، ولا تعبدوا معه غيره {مالكم من إله غيره} 2 أي إذ ليس لكم من إله غيره يستحق عبادتكم. وقوله: {أفلا تتقون} أي أتعبدون معه غيره أفلا تخافون غضبه عليكم ثم عقابه لكم؟.

فأجابه قومه المشركون بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: {فقال الملاء الذين كفروا من قومه} أي فرد عليه قوله أشرافهم وأهل الحل والعقد فيهم من أغنياء وأعيان ممن كفروا من قومه {ما هذا} أي نوح {إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم} أي يسود 3 ويشرف فادعى أنه رسول الله إليكم. {ولو شاء الله} أي أن لا نعبد معه سواه {لأنزل ملائكة} تخبرنا بذلك {ما سمعنا بهذا} أي بالذي جاء به نوح ودعا إليه من ترك عبادة آلهتنا {قبي آباءنا الأولين} أي لم يقل به أحد من أجدادنا السابقين {إن هو إلا رجل به جنة} أي ما نوح إلا رجل به مس من جنون، وإلا لما قال هذا الذي يقول من تسفيها وتسفيه آباءنا {فتربصوا} 4 به حتى حين {أي انتظروا به أجله حتى يموت، ولا تتركوا دينكم لأجله وهنا وبعد قرون طويلة بلغت ألف سنة إلا خمسين شكاً نوح إلى ربه وطلب النصر منه فقال ما أخبر تعالى به عنه {قال رب انصرني} 5 بما كذبون {أي أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي وانصرني عليهم.

1 فوائد سرد القصص كثيرة منها: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر مما يلقي من قومه، ومنها: العظة والاعتبار بما جرى من أحداث، ومنها تقرير التوحيد وإثبات النبوة المحمدية واللام في: {ولقد أرسلنا} موطنة للقسم أي: وعزتنا لقد أرسلنا نوحاً.

2 قرأ الجمهور بجر {إله} ورفع {غيره} وقرأ بعضهم: بجر {غيره} لأنه نعت لإله المجرور بحرف الجر الزائد ورفع {غيره} هو على المحل إذ محل {إله} الرفع وإنما منع منه حرف الجر الزائد.

3 قولهم: هذا ناتج عن نفسياتهم المتهاكمة على حب الرئاسة والنشر الموهوم.

4 التربص: التوقف على عمل يراد عمله، والتريث فيه لما قد يغني عنه.

5 {قال رب انصرني} هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها واقعة جواباً لسؤال مقدر تقديره: لما

كذب قومه ماذا فعل؟ والجواب: دعا عليهم: {قال رب انصرني}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إثبات النبوة المحمدية بذكر أخبار الغيب التي لا تعلم إلا من طريق الوحي.
- 2- تقرير التوحيد بذكر دعوة الرسل أقوامهم إليه.
- 3- بيان سنة من سنن البشر وهي أن دعوة الحق أول من يردها الكبراء من أهل الكفر.
- 4- بيان كيف يرد الظالمون دعوة الحق بإتهام الدعاة بما هم براء منه كالجنون وغيره من الاتهامات كالعمالة لفلان والتملق لفلان.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوْيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

شرح الكلمات:

فأوحينا إليه أن اصنع : أي أعلمناه بطريق سريع خفي أي اصنع الفلك.

بأعيننا ووحينا : أي بمرأى منا ومنظر ، وتعليمنا إياك صنعها.

وفار التنور : تنور الخباز فار منه الماء آية بداية الطوفان.

فاسلك فيها : أي أدخل في السفينة.

وأهلك : أولادك ونساءك.

ولا تخاطبني في الذين ظلموا : أي لا تكلمني في شأن الظالمين فإني حكمت بإغراقهم.

وقل رب : أي وادعني قائلاً يا رب أنزلني منزلاً مباركاً من الأرض.

إن في ذلك لآيات : أي لدلائل وعبر.

(3/513)

وإن كنا لمبتلين : أي لمختبرين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه فقد جاء في الآيات السابقة أن نوحاً عليه السلام دعا ربه مستنصراً إياه لينصره على قومه الذين كذبوه قائلاً: {رب انصرنى} بما كذبون

فاستجاب الله تعالى دعاءه فأوحى إليه أي أعلمه بطريق الوحي الخاص {أن اصنع الفلك} أي السفينة {بأعيننا ووحينا} أي بمرأى منا ومنظر وتعليمنا إياك وجعل له علامة على بداية هلاك القوم أن يفور التنور تنور طبخ الخبز بالماء وأمره إذا رأى تلك العلامة أن يدخل في السفينة من كل زوج

أي ذكر وأنثى اثنين من سائر الحيوانات التي أمكنه ذلك منه وأن يركب فيها أيضاً أهله من زوجة وولد إلا من قضى الله بهلاكه ونهاه أن يكلمه في شأن الظالمين لأنهم مغرقون قطعاً. هذا ما تضمنته الآية الأولى (27) {فأوحينا إليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا} أي بإهلاك الظالمين المشركين {وفار التنور، فاسلك فيها} أي في السفينة {من كل زوجين اثنين 3، وأهلك} أي أزواجك وأولادك {إلا من سبق عليه القول منهم} أي بإهلاكهم كامراته، {ولا تخاطبني في الذين 4 ظلموا} أي لا تسألني عنهم فإنني مهلكهم. وقوله تعالى: {فإذا استويت 5 أنت ومن معك على الفلك} أي إذا ركبت واستقرت على متن السفينة أنت ومن معك من المؤمنين فاحمدنا فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين 6 وادعنا ضارعاً إلينا قائلاً {رب أنزلني منزلاً مباركاً 7} أي من الأرض، وأنن علينا

- 1 الباء سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ في فعل الدعاء، وجملة {أن اصنع} جملة مفسرة لجملة: {أوحينا} لأن الوحي فيه معنى القول دون حروفه، فإن تفسيرية قطعاً.
- 2 الزوج: اسم لكل شيء له شيء آخر متصل به بحيث يجعله شفعا في حالة ما، والمراد به هنا: أزواج الحيوانات لحفظ نوعها حتى لا تنقرض بالطوفان.
- 3 قرأ حفص {من كل} بتنوين كل، وقرأ نافع وغيره بلا تنوين أي: بإضافة اثنين إلى كل، وتنوين كل تنوين عوض أي: من كل ما أمرتك أن تحمله في السفينة.
- 4 أي: في شأنهم فإنهم قد قضى بإهلاكهم ولا راد لقضائه تعالى.
- 5 استويت: أي علوت فوقها واستقرت فيها، وحرف الجر {على} مؤذن بالاستقرار والتمكن منه.
- 6 الظالمين: أي المشركين، لأن الظلم هو الشرك، والتنجية: الإنجاء من شرهم وأذاهم وشركهم وكفرهم.
- 7 المنزل بضم الميم: وفتح الزاي: مصدر الذي هو الإنزال، وفتح الميم وكسر الزاي هو مكان النزول أي: أنزلني موضعاً مباركاً، والمنزل بفتح الميم والزاي معاً: مصدر نزل نزولاً ومنزلاً.

(3/514)

خيراً فقل {وأنت خير المنزلين} 1، وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات} أي المذكور من قصة نوح لدلائل على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته ووجوب الإيمان به وتوحيده في عبادته. وقوله: {وإن كنا لمبتلين} أي مختبرين عبادنا بالخير والشر ليرى الكافر من المؤمن، والمطيع من العاصي ويتم الجزاء حسب ذلك إظهاراً للعدالة الإلهية والرحمة الربانية. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- إثبات الوحي الإلهي وتقرير النبوة المحمدية.
 - 2- تقرير حادثة الطوفان المعروفة لدى المؤرخين.
 - 3- بيان عاقبة الظلم وأنه هلاك الظالمين.
 - 4- سنية قول بسم الله والحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون عند ركوب الدابة أو السفينة ونحوها كالسيارة والطيارة.
 - 5- استحباب الدعاء وسؤال الله تعالى ما العبد في حاجة إليه من خير الدنيا.
 - 6- بيان سر ذكر قصة نوح وهو ما فيها من العظات والعبر.
- ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآجِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَنْ أَطْعَمَهُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ

1 في الآية تعليم للمؤمنين إذا ركبوا أو نزلوا أن يدعوا بهذا الدعاء بل حتى إذا دخلوا بيوتهم وسلموا فقد كان علي رضي الله عنه إذا دخل المسجد دعا بهذا الدعاء : {ربّ أنزلي .. الخ.

(3/515)

(34) أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38)

شرح الكلمات:

ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين: أي خلقنا من بعد قوم نوح الهالكين قوماً آخرين هم عاد قوم هود. رسولا منهم: هو هود عليه السلام.

أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره: أي قولوا لا إله إلا الله فاعبدوا الله وحده.

وأترفناهم: أي أنعمنا عليهم بالمال وسعة العيش.

أنكم مخرجون: أي أحياء من قبوركم بعد موتكم.

هيهات هيهات: أي بعدُ بعداً كبيراً وقوعُ ما يعدكم.

إن هي إلا حياتنا الدنيا: أي ما هي إلا حياتنا الدنيا وليس وراءها حياة أخرى.

إن هو إلا رجل: أي ما هو إلا رجلٌ افتري على الله كذباً أي كذب على الله تعالى.

معنى الآيات:

هذه بداية قصة هود عليه السلام بعد قصة نوح عليه السلام أيضاً فقال تعالى: {ثم أنشأنا من بعدهم} أي خلقنا وأوجدنا من بعد قوم نوح الهالكين قوماً آخرين هم 1 عاد قوم هود {فأرسلنا فيهم 2 رسولاً منهم} هو هود عليه السلام بأن قال لهم: {أن اعبدوا الله ما

1 وقيل هم قوم صالح بقرينة قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة} وهي التي أهلك الله تعالى بها قوم صالح إذ قال تعالى: {فأخذتهم الصيحة مصبحين} من سورة الحجر. وشرح هذا لأن فيها العبرة أكثر لوجود آثارهم في ديارهم شمال الحجاز إلا أن ذكر عاد بعد قوم نوح هو الوارد في كل قصص القرآن وبترجيح الزمان إذ عاد أول أمة أهلكت بعد قوم نوح. والله أعلم.

2 قوله: {فيهم} بدل إليهم: لأن هوداً أو صالحاً كان المرسل من أهل البلاد وفرداً من أفرادهم فلا يحسن أن يقال: إلى إلا إذا كان خارجاً عنهم ليس من أفرادهم، وذلك كما في أهل سدوم، ونيبوي والقبط فجاء التعبير بـإلى نحو: {إلى فرعون وملئه}.

(3/516)

لكم من إله غيره} أي اعبدوا الله بطاعته وإفراده بالعبادة إذ لا يوجد لكم إله غير الله تصح عبادته إذ الخالق لكم الرازق الله وحده فغيره لا يستحق العبادة بحال من الأحوال وقوله: {أفلا تتقون} يحثهم على الخوف من الله ويأمرهم به قبل أن تنزل بهم عقوبته.

وقوله تعالى: {وقال الملائكة من قومهم الذين كفروا} أي وقال أعيان البلاد وأشرفها من قوم هود ممن كفروا بالله ورسوله وكذبوا بالبعث والجزاء في الدار الآخرة وقد أترفهم 1 الله تعالى: بالمال وسعة الرزق فأسرفوا في الملاذ والشهوات: قالوا: وماذا قالوا؟ قالوا ما أخبرنا تعالى به عنهم بقوله: {ما هذا إلا بشر مثلكم} أي ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم {يأكل مما تأكلون منه} من أنواع الطعام {ويشرب مما تشربون} من ألوان الشراب 2 أي فلا فرق بينكم وبينه فكيف ترضون بسيادته عليكم يأمركم وينهاكم. وقالوا: {ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون} أي خاسرون حياتكم ومكانتكم، وقالوا {أيعدكم 3 أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً} أي فنيتم وصرتم تراباً {أنكم مخرجون} أي أحياء من قبوركم. وقالوا: {هيهات 4 هيهات} أي بعدُ بعداً كبيراً ما يعدكم به هود إنها ما هي إلا حياتنا الدنيا {أي {نموت ونحيا} جيل 5 يموت وجيل يحيا {وما نحن بمبعوثين} وقالوا: {إن هو إلا رجل أفترى 6 على الله كذباً} أي اختلق الكذب على الله وقال عنه أنه يبعثكم ويحاسبكم ويجزيكم بكسبكم. وقالوا ما نحن بمبعوثين} هذه مقالاتهم ذكرها تعالى عنهم وهي مصرحة بكفرهم وتكذيبهم والحادهم وما سيقوله هود عليه السلام سيأتي في الآيات بعد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وما تبتدىء به دعوتهم وهولا إله إلا الله.

1 أي: وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا، وصاروا يوتون بالترفة وهي كالتحفة، يقال: أترفه المال: إذا أبطره وأفسده.

2 في قولهم: يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون. هذه الجملة وإن كانت تعليلا لبشرية الرسول فإنها دالة على أنهم حقاً مترفون منعمون في ملاذ الأكل والشرب كأنه لا هم لهم إلا ذاك، كما قيل: من أحب شيئاً أكثر من ذكره كما هي مجالس المترفين اليوم جل لأحاديثهم حول الأكل والشرب ونحوهما.

3 الاستفهام للتعجب، والكلام انتقال من تكذيبهم بكونه رسولاً إليهم إلى التكذيب بما أرسل به من الدين الحق.

4 الجمهور من النحاة واللغويين: أن هيهات اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعَدَ وهي مبنية على الفتح والكسر أيضاً ولا تُقال إلا مكررة، قال الشاعر:

هيهات هيهات العقيق وأهله

هيهات خلّ بالعقيق نواصله

5 إن قيل: كيف قالوا: نموت ونحيا وهم منكرون للبعث؟ قيل في الجواب: إما أن يكون مرادهم نكون نطفاً ميتة ثم نحيا، وإما أن يكون في الكلام تقديم وتأخير أي: نحيا فيها ونموت نحو {واسجدي واركعي} وإما بموت الآباء وحياة الأبناء.

6 الاقتراء: الكذب الذي لا شبهة فيه للمخبر، وهو الاختلاق.

(3/517)

2- أهل الكفر لا يصدر عنهم إلا ما هو شر وباطل لفساد قلوبهم.

3- الترب سبب كثيراً من المفسدات والشرور، ولهذا يجب أن يُحذَر بالاعتقاد.

4- تقرير عقيدة البعث والجزاء وإثباتها وهي ما ينكره الملاحدة هروباً من الاستقامة.

5- توكأة عامة المشركين وهي كيف يكون الرسول رجلاً من البشر، دفعاً للحق وعدم قبوله.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُنَاءَ فِئَةٍ لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ فُرُوقًا أٰخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا

وَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44)

شرح الكلمات:

عما قليل: أي عن قليل من الزمن.

ليصبحن نادمين: ليصيرن نادمين على كفرهم وتكذيبهم.

فأخذتهم الصيحة: أي صيحة العذاب والهلاك.

فجعلناهم غثاء: كغثاء السيل وهو ما يجمعه الوادي من العيدان والنبات اليابس.

فبعداً: أي هلاكاً لهم.

ثم أنشأنا: أي أوجدنا من بعدهم أهل قرون آخرين كقوم صالح وإبراهيم ولوط وشعيب.

نترا: أي يتبع بعضها بعضاً الواحدة عقب الأخرى.

وجعلناهم أحاديث: أي أهلكناهم وتركناهم قصصاً تقص وأخباراً تتناقل.

(3/518)

معنى الآيات:

هذا ما قال هود 1 عليه السلام بعد الذي ذكر تعالى من أقوال قومه الكافرين {قال رب} أي يا رب {انصرني بما كذبون} 2 أي بسبب تكذيبهم لي وردهم دعوتي وإصرارهم على الكفر بك وعبادة غيرك فأجابه الرب تبارك وتعالى بقوله: {عما قليل ليصبحن نادمين} أي بعد قليل من الوقت وعزتنا وجللنا ليصبحن نادمين أي ليصيرن نادمين على كفرهم بي وإشراكهم في عبادتي وتكذيبهم إياك ولم يمض إلا قليل زمن حتى أخذتهم الصيحة صيحة الهلاك ضمن ريح صرصر في أيام نحسات فإذا هم غثاء كغثاء السيل لا حياة فيهم ولا فائدة ترجى منهم {فبعداً للقوم الظالمين} أي هلاكاً للظالمين بالشرك والتكذيب والمعاصي وقوله تعالى: {ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين} 3 أي ثم أوجدنا بعد إهلاكنا عاداً أهل قرون آخرين كقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب. وقوله تعالى: {ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون} أي إن كل أمة حكمنا بهلاكها لا يمكنها أن تسبق أجلها أي وقتها المحدود لها فتقدمه كما لا يمكنها أن تتأخر عنه بحال.

وقوله تعالى: {ثم أرسلنا رسلنا نترا} 4 أي يتبع بعضها بعضاً {كلما جاء أمة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضاً} أي في الهلاك فكلمنا كذبت أمة رسولها ورفضت التوبة إلى الله والإنابة إليه أهلكتها، وقوله تعالى {وجعلناهم أحاديث} 5 أي لمن بعدهم يذكرون أحوالهم ويروون أخبارهم {فبعداً} أي هلاكاً منا {لقوم لا يؤمنون} في هذا تهديد قوي لقريش المصرة على الشرك والتكذيب والعناد. وقد مضت فيهم سنة الله فأهلك المجرمين منها.

1 ذرَج الجمهور من المفسرين على أن القصص المذكور هنا كما هو في سائر السور هو قصص هود عليه السلام، وذهب ابن جرير وبعض آخر إلى أنه قصة صالح لقريظة {فأخذتهم الصيحة} وقال الجمهور: يمكن أن تكون الصيحة ضمن عواصف الريح العقيم التي أرسلها تعالى على عاد قوم هود فأخذتهم فهلكوا بها والرياح عصفت بهم فمزقت وشتتت شملهم وتركتهم كأعجاز نخل خاوية ثم تفتتوا وصاروا كالغناء وهذا الجمع أحسن.

2 في الكلام حذف اقتضاه الإيجاز غير المخل وهو: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم ثم أنشأنا.

3 من في قوله {من أمة} صلة زيدة لتقوية النفي وتوكيده، والأصل ما تسبق أمة.

4 {تترى} على وزن فعلى كدعوى وسلوى، والألف فيه للتأنيث، وأصله وترى من الوتر، الذي هو الفرد أبدلت الواو تاء كما أبدلت في تراث من الورث، وتجاه من الوجه، ولا يقال: تترى إلا إذا كان هناك تعاقب وانقطاع، وقرىء منوناً تترى، وهو منصوب على الحال في القراءتين معاً.

5 جمع أحوثة وهو ما يتحدّث به كأعاجيب جمع أعجوبة، وعي ما يتعجب منه، ومثل هذا التعبير: أحاديث: لا يقال في الخير وإنما يقال في الشر لا غير لقوله تعالى: {فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق} وقد يقال في الخير إذا كان مقيداً بذكره نحو قول ابن دريد:

إنما المرء حديث بعده

فكن حديثاً حسناً لمن وعى

(3/519)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- استجابة الله دعوة المظلومين من عباده لاسيما إن كانوا عباداً صالحين.
 - 2- الأجل للأفراد أو الأمم لا تتقدم ولا تتأخر سنة من سنن الله تعالى في خلقه.
 - 3- تقرير حقيقة تاريخية علمية وهي أن الأمم السابقة كلها هلكت بتكذيبها وكفرها ولم ينج منها عند نزول العذاب بها إلا المؤمنون مع رسولهم.
 - 4- كرامة هذه الأمة المحمدية أن الله تعالى لا يهلكها هلاكاً عاماً بل تبقى بقاء الحياة تقوم بها الحجة لله تعالى على الأمم والشعوب المعاصرة لها طيلة الحياة.
- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)

شرح الكلمات:

بآياتنا وسلطان مبين : الآيات هي التسع الآيات وهي الحجة والسلطان المبين.
وكانوا قوماً عالين : أي علوا أهل تلك البلاد قهراً واستبداداً وتحكماً.
وقومهما لنا عابدون : أي مطيعون ذليلون نستخدمهم فيما نشاء وكيف نشاء.
ولقد آتينا موسى الكتاب : أي التوراة.
وجعلنا ابن مريم : أي عيسى حجة وبرهاناً على وجود الله وقدرته وعلمه ووجوب توحيده.
إلى ربوة ذات قرار ومعين : إلى مكان مرتفع ذي استقرار وفيه ماء جار عذب وفواكه وخضر.

(3/520)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر نبذ من قصص الأولين للعظة والاعتبار، ولإقامة الحجة على مشركي قريش فقال تعالى: {ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين} أي بعد تلك الأمم الخالية أرسلنا موسى بن عمران وأخاه هارون بسُلطان مبين أي بحجج وبراهين بينة دالة على صدق موسى وما يدعو إليه من عبادة الله وتوحيده فيها والخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المباركة أرض الشام إلى فرعون ملك مصر يومئذ وملئه من أشراف قومه وعليتهم فاستكبروا عن قبول دعوة الحق وكانوا عالين على أهل تلك البلاد فاهرين لها مستبدين بها وقالوا رداً على دعوة موسى وهارون ما أخبر تعالى به في قوله: {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} أي خاضعون مطيعون. هكذا أعلنوا متعجبين من دعوة موسى وهارون إلى الإيمان برسالتهما فقالوا: أنؤمن لبشر من مثلنا أي كيف يكون هذا أنتبع رجلين مثلنا فنصبح نأتمر بأمرهما وننتهي بنهيهما وكيف يتم ذلك وقومهما يعنون بني إسرائيل لنا عابدون. أي خاضعون لنا ومطيعون لأمرنا ونهينا. قال تعالى: {فكذبوهما}، فيما دعواهما إليه من الإيمان والتوحيد وإرسال بني إسرائيل معهما إلى أرض الميعاد فترتب على تكذيبهم لرسولي الله موسى وهارون هلاكهم فكانوا من المهلكين حيث أغرقهم الله أجمعين، وقوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون}، ويخبر تعالى أنه بعد إهلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل أتى موسى التوراة من أجل هداية بني إسرائيل عليها لأنها تحمل النور والهدى. هذه أيادي الله على خلقه وآياته فيهم فسبحانه من إله عزيز رحيم.

وقوله تعالى: {وجعلنا ابن مريم 2 وأمه} أي جعل عيسى ووالدته مريم {آية} حيث خلق عيسى من غير أب فهي آية دالة على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته وهذه موجبة الإيمان به وعبادته وتوحيده والتوكل عليه والإنابة والتوبة إليه. وقوله تعالى: {وأوبناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين 3} أي أنزلنا مريم وولدها بعد اضطهاد اليهود لهما ربوة 4 عالية صالحة للاستقرار عليها بها فاكهة وماء عذب

جار إكرام الله تعالى له ولوالدته فسبحان المنعم على عباده المكرم لأوليائه.

- 1 خصّ موسى بإيتائه الكتاب دون هارون لأنّ هارون يوم إعطاء موسى الكتاب {التوراة} كان مع قومه، وموسى كان وحده في الطور للمناجاة.
- 2 أدمج أمّه في الذكر لتسفيه اليهود في قولهم في مريم بهتاناً عظيماً.
- 3 الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهي مثلثة الرء تضم وتفتح وتكسر، وهي بفلسطين أو مدينة الرملة وهي من أرض فلسطين.
- 4 المعين: هو الماء الجاري على ظهر الأرض ظاهر للعيون.

(3/521)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة كل من موسى وأخيه هارون عليهما السلام.
- 2- التنديد بالاستكبار، وأنه علة مانعة من قبول الحق.
- 3- مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته في إرسال الرسل بالآيات وفي إهلاك المكذبين.
- 4- آية ولادة عيسى من غير أب مقررة قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ (55) نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)

شرح الكلمات:

- كلوا من الطيبات : أي من الحلال.
- واعلموا صالحاً : أي بأداء الفرائض وكثير من النوافل.
- وإن هذا أمتكم : أي ملتكم الإسلامية.
- فاتقون : أي بامتنال أمري واجتتاب نهبي.
- فتقطعوا أمرهم : أي اختلفوا في دينهم فأصبحوا طوائف هذه يهودية وتلك نصرانية.
- في غمرتهم : أي في ضلالتهم.
- نسارع لهم : أي نعجل.

بل لا يشعرون : أن ذلك استدراج منا لهم.

معنى الآيات :

بعد أن أكرم الله تعالى عيسى ووالدته بما أكرمهما به من إيوئهما إلى ربوة ذات قرار ومعين

(3/522)

خاطب 1 عيسى عبده ورسوله قائلاً: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات} أي الحلال فكان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه إذ كانت تغزل الصوف بأجرة فكانا يأكلان من ذلك أكلا من الطيب كما أمرهما الله تعالى وقوله: {واعملوا صالحاً} كلوا من الحلال واعملوا صالحاً بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، وقوله: {إني بما تعملون عليم} فيه وعد بأن الله تعالى سيثيبهم على ما يعلمون من الصالحات. وقوله: {وأن 2 هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} أعلمهم أن ملتهم وهي الدين الإسلامي دين واحد فلا ينبغي الاختلاف فيه وأعلمهم أيضاً أنه ربهم أي مالك أمرهم والحاكم عليهم فليبتغوه بفعل ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، لينجوا من عذابه ويظفروا برحمته ودخول جنته. وقوله تعالى: {فتقطعوا أمرهم بينهم 3} أي دينهم {زيراً كل حزب بما لديهم فرحون} أي فرقوا دينهم فرقاً فذهبت كل فرقة بقطعة منه وقسموا الكتاب إلى كتب فهذه يهودية وهذه نصرانية واليهودية فرق والنصرانية فرق والإنجيل أصبح أناجيل متعددة وصارت كل جماعة فرحة بما عندها مسرورة به لا ترى الحق إلا فيه.. {كل حزب بما لديهم فرحون} وهنا أمر الله رسوله أن يتركهم في غمرة ضلالتهم إلى حين أن ينزل بهم ما قضى به الرب تعالى على أهل الاختلاف في دينه {فذرهم في غمرتهم حتى حين} إذ قال له في سورة الأنعام {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، لست منهم في شيء} وفيه من التهديد ما فيه. وهذا الذي نعاه تعالى على تلك الأمم قد وقعت فيه أمة الإسلام فاختلّفوا في دينهم مذاهب وطرقاً عديدة، وبالأسف وقد حلت بهم المحن ونزل بهم البلاء نتيجة ذلك الخلاف. وقوله: {أيحسبون أنما نمدهم 4 به من مال

1 اختلف في هذا الخطاب هل هو لعيسى عليه السلام نظراً لسياق الحديث أو هو لمحمد صلى الله عليه وسلم أو هو عام لكل الرسل، أي: ما من رسول إلا وأمره بما في هذا السياق، وأمة كل رسول تابعة له، وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في مثل هذا فلا داعي إلى الترجيح وعدمه ويشهد للعموم قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "يا أيها الناس إن الله طيب لا يقل إلا طيباً، وإن الله أمر المرسلين بما أمر به المؤمنین فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم} ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك" والشاهد في قوله

صلى الله عليه وسلم "بما أمر به المرسلين".

2 قرىء: {وان} بكسر إن على القطع أي: الابتداء وعلى تقدير قول أو قلنا لهم: {إن هذه}.. الخ وقرىء بفتحها، وهي قراءة الأكثرين على تقدير واعلموا {أن هذه أمتكم}.. الخ.

3 كأن هذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن أهل الكتاب قبلكم افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة" الحديث أخرجه أبو داود ورواه الترمذي وزاد: "قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي" وقوله: {ملة} فيه دليل على أن الاختلاف في الفروع غير مقصود وإنما المقصود هو ما كان في أصول الدين وقواعده.

4 {إنما}: ما: موصولة بمعنى الذي أي: أيحسبون يا رسولنا إن الذي نعطيهم في الدنيا من مال وولد هو ثواب لهم على شركهم وكفرهم إنما هو استدراج وإملاء ليس إسراعاً في الخيرات واختلف في خبر إن فقل: إنه محذوف وتقدير الكلام: إنما نسارع لهم به في الخيرات، والاستفهام في أيحسبون: إنكاري.

(3/523)

وبين {مع اختلافهم وانحرافهم مسارعة لهم منا في الخيرات 1 لا بل ذلك استدراج لهم ليهلكوا ولكنهم لا يشعرون بذلك. لشدة غفلتهم واستيلاء غمرة الضلالة عليهم.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الأكل من الحلال، ووجوب الشكر بالطاعة لله ورسوله.
 - 2- الإسلام دين البشرية جمعاء ولا يحل الاختلاف فيه بل يجب التمسك به وترك ما سواه.
 - 3- حرمة الاختلاف في الدين وأنه سبب الكوارث والفتن والمحن.
 - 4- إذا انحرفت الأمة عن دين الله، ثم رزقت المال وسعة العيش كان ذلك استدراجاً لها، ولم يكن إكراماً من الله لها دالاً على رضى ربه عنها بل ما هو إلا فتنة ليس غير.
- إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَسْبِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا تَكُلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62)

شرح الكلمات:

مشفقون : أي خائفون .

لا يشركون : أي بعبادته أحداً.
يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة : أي خائفون أن لا يقبل منهم ذلك.
أنهم إلى ربهم راجعون : أي لأنهم إلى ربهم راجعون فيحاسبهم ويسألهم ويجزيهم.
وهم لها سابقون : أي بإذن الله وفي علمه.
ولا نكلف نفساً إلاّ وسعها : إلا طاقتها وما تقدر عليه.
ولدينا كتاب ينطق بالحق : وهو ما كتبه الكرام الكاتبون فإنه ناطق بالحق.
وهم لا يظلمون : أي ينقض حسنة من حسناتهم ولا بزيادة سيئة على سيئاتهم.

1 الخيرات : جمع خير وهو من الجموع النادرة مثل: سرادقات جمع سرداق.

(3/524)

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال الذين فرقوا دينهم فذهبت كل فرقة منهم بكتاب ومذهب ولقب ونعى عليهم ذلك التفرق وأمر رسوله أن يتركهم في غمرة خلافاتهم و يدعهم إلى حين يلقون جزاءهم عاجلاً أو آجلاً: أنتى تبارك وتعالى على عباده المؤمنين من أهل الخشية، فقال وقوله الحق: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون} أي من عذابه خائفون من الوقوف بين يديه فهذه صفة لهم وأخرى {والذين هم بآيات ربهم يؤمنون} أي بحجج الله تعالى التي تضمنتها آياته يؤمنون أي يوقنون وثالثة: {والذين هم بربهم لا يشركون} أي في ذاته ولا صفاته ولا عباداته فيعبدونه بما شرع لهم موحدينه في ذلك ورابعة: {والذين I يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم 2 راجعون}. أي يؤتون 3 الزكاة وسائر الحقوق والواجبات وقلوبهم خائفة من ربهم أن يكونوا قد قصرُوا فيما أوجب عليهم وخائفة أن لا يقبل منهم عملهم، وذلك ناجم لهم من قوة إيمانهم برجوعهم إلى ربهم ووقوفهم بين يديه ومساءلته لهم: لم قدمت؟ لم أشرت؟ وقوله تعالى: {أولئك يسارعون 4 في الخيرات وهم لها سابقون} في هذا بشرى لهم إذ أخبر تعالى أنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم سبق ذلك لهم في الأزل فهنيئاً لهم. وقوله تعالى: {ولا نكلف نفساً إلاّ وسعها} فيه قبول عذر من بذل جهده في المسارعة في الخيرات ولم يلحق بغيره أعره ربه فإنه لا خوف عليه ما دام قد بذل جهده إذ هو تعالى {لا يكلف نفساً إلاّ وسعها} أي طاقتها وما يتسع له جهده.

وقوله: {ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون} فيه وعدّ لأولئك المسارعين بالخيرات بأن أعمالهم مكتوبة لهم في كتاب ينطق بالحق لا يخفى حسنة من حسناتهم ويستوفونها كاملة وفيه وعيد لأهل الشرك والمعاصي بأن أعمالهم محصاة عليهم قد ضمها كتاب صادق وسوف يجزون بها وهم لا

يظلمون فلا تكتب عليهم سيئة لم يعملوها قط ولا يجزون إلا بما كانوا يكسبون.

1 روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة} أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات".

2 أي: لأنهم: أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون. وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبرة بما يختم به للعبد، وفي البخاري: "وإنما الأعمال بالخواتيم".

3 قرىء: {يأتون} من الإتيان، ولا يختلف المعنى إذ هم يأتون الأعمال الصالحة ويفعلونها، وقلوبهم خائفة. كما يعطون ما يعطون من الزكاة والنفقات وقلوبهم وجلة أو يعطون الملائكة أعمالهم التي يكتبونها وقلوبهم وجلة.

4 {يسارعون في الخيرات} أي: في الطاعات كي ينالوا بها أعلى الدرجات والغرفات ولم يقل يسارعون إلى الخيرات إذ هم في الخيرات لم يخرجوا من دائرتها أبداً فهم فيها يسارعون. في الآية إشارة إلى أن الصلاة في أول وقتها أفضل، وهكذا السبق في كل خير قبل الغير خير.

(3/525)

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- فضيلة خشية والإيمان والتوحيد والتواضع والمراقبة لله تعالى.
 - 2- بشرى الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى.
 - 3- تقرير قاعدة رفع الحرج في الدين.
 - 4- تقرير كتابة أعمال العباد وإحصاء أعمالهم ومجازاتهم العادلة.
- بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُكْمِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكُفَّرَهُمْ لَلْحَقِّ كَارِهُِونَ (70)

شرح الكلمات:

في غمرة من هذا : أي جهالة من القرآن وعمى.

ولهم أعمال من دون ذلك : أي من دون أعمال المؤمنين التي هي الخشية والإيمان بالآيات والتوحيد والمراقبة.

هم لها عاملون : أي سيعملونها لتكون سبب نهايتهم حيث يأخذهم الله تعالى بها .
إذا هم يجأرون : أي يصرخون بأعلى أصواتهم ضاجين مستغيثين ممّا حلّ بهم من العذاب .
تتكصون : أي ترجعون على أعقابكم كراهة سماع القرآن .

(3/526)

مستكبرين به : أي بالحرم أي كانوا يقولون: لا يظهر علينا فيه أحد لأننا أهل الحرم .
سامراً تهجرون: أي تسمرون بالحرم ليلاً هاجرين الحق وسماعه على قراءة فتح التاء وعلى قراءة ضمها تهجرون أي تقولوا الهجر من القول كالفحش والقبح .
رسولهم : أي محمداً صلى الله عليه وسلم .
به جنّة: أي مجنون .

معنى الآيات:

{بل قلوبهم في غمرة من هذا} أي ليس الأمر كما يحب فهؤلاء المشركون أننا نمدهم بالمال مسارعة منا لهم في الخيرات لرضانا عنهم لا بل إن قلوبهم في غمرة وعمى من القرآن، ولهم أعمال من دون ذلك 1} أي دون عمل المؤمنين . {هم لها عاملون} حتى تنتهي بمترفيهم إلى هلاكهم ودمارهم وقوله تعالى : {حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون} أي استمرت الأعمال الشركية الإجرامية حتى أخذ الله تعالى مترفيهم في بدر بعذاب القتل والأسر {إذا هم يجأرون} 2} يضجون بالصراخ مستغيثين، والله تعالى يقول لهم: {لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تتصرون} وذكر تعالى لهم ما كانوا عليه من التكذيب والاستكبار وقول الهجر موبخاً إياهم {قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تتكصون} 3} هروباً من سماعها حال كونكم {مستكبرين به} أي بالحرم زاعمين أنكم أهل الحرم، وأن أحداً لا يظهر عليكم فيه لأنكم أهله وقوله: {سامراً} 4} تهجرون بالليل تهجرون بذلك سماع الحق ودعوة الحق التي تُتلى بها عليكم آيات الله. وقد قرئ

1 عن ابن عباس رضي الله عنهما دون ذلك أي: دون الشرك من كبائر الذنوب هم عاملوها لا محالة إذ كتبت عليهم ليدخلوا بها النار، وما كان دون عمل المؤمنين قطعاً هو الشرك والمعاصي، فلا منافاة بين ما في التفسير وما روي عن ابن عباس .

2 الجؤار: كالخوار يقال: خار الثور يخأر: إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء: تضرع به، قال قتادة:
يصرخون بالتوبة فلا تقبل منهم، وجأروا كذلك يوم أصابهم القحط والجذب فجاءوا حتى كادوا يهلكون

بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

3 {تتكصون}: ترجعون وراءكم، وأصله الرجوع إلى الوراثة القهقري. قال الشاعر:

زعموا أنهم على سبيل النجا

ة وإنما نكصوا على الأعقاب

4 سامراً معناه سمّاراً أي: جماعة تتحدّثون بالليل، والسمر مأخوذ من السّم الذي هو ظل القمر، ومنه سمرة اللون وكانوا يتحدثون حول الكعبة في سمرة القمر فسمي التحدّث به، وقرى {سَمَّاراً} جمع سامر. يقال: جاء من السامر يريد: من القوم الذين يسمرون، وفي الحديث: كراهة النوم قبل العشاء، والحديث أي السمر بعدها، وروي أن عمر رضي الله عنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ويقول: أسمرأ أول الليل ونوماً آخره!!؟

(3/527)

تُهجرون بضم التاء وكسر الجيم أي تقولون أثناء سمركم في الليل الهجر من القول كالكفر وقول الفحش وما لا خير فيه من الكلام، وكانوا كذلك.

وقوله تعالى: {أفلم يدبروا 1 القول} الذي يسمعون من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيعرفوا أنه حق وخير وأنه فيه صلاحهم {أم جاءهم 2} من الدين والشرع {ما لم يأت أباؤهم الأولين} فقد جاءت رسل ونزلت كتب وهم يعرفون ذلك. أم لم يعرفوا رسولهم محمداً صلى الله عليه وسلم فهم له منكرون إنهم يعرفونه بصدقه وطهارته وكماله منذ نشأته وصباه إلى يوم أن دعاهم إلى الله {أم يقولون به جنّة} أي جنون وأين الجنون من رجل ينطق بالحكمة ويعمل بها ويدعو إليها {بل جاءهم بالحق وأكثرهم 3 للحق كارهون} ، وهذا هو سرُّ إعراضهم واستكبارهم إنه كراهيتهم للحق لطول ما ألفوا الباطل وعاشوا عليه، وهذه سنة البشر في كل زمان ومكان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- غمرة الجهل والتعصب وعمى التقليد هي سبب إعراض الناس عن الحق ومعارضتهم له.
- 2- لا تنفع التوبة عند معاينة العذاب أو نزوله.
- 3- بيان الذنوب التي أخذ بها مترفو مكة ببدر وهي هروبهم من سماع القرآن ونكوصهم عند سماعه على أعقابهم حتى لا يسمعه واستكبارهم بالحرم واعتزازهم به جهلاً وضلالاً واجتماعهم في الليالي الطوال يسمرون على اللهو وقول الباطل هاجرين سماع القرآن وما يدعو إليه من هدى وخير. وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتِنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

- 1 وقيل: القول: القرآن: وسمي قولاً لأنهم خوطبوا به، والاستفهام إنكاري يحمل التقرير والتأنيب.
- 2 {أم جاءهم} الخ .. أي: فأنكروه وأعرضوا عنه. وقيل: أم بمعنى بل الانتقالية بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به فلذا أنكروه وتركوا التدين به، والفاء في: أفلم يدبروا: للتفريع إذ هذا الكلام متفرع عما سبقه، والتدبر معناه إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله النظر في دبر الأمر أي: فيما لا يظهر منه للمتأمل باديء ذي بدء.
- 3 في قوله {بل أكثرهم} احتباس عرف في القرآن حتى لا ينقض ببعض الأفراد وهو من اعجاز القرآن وبالغ كماله في البلاغة والبيان.

(3/528)

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَلْجُورِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعُدَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

شرح الكلمات:

لو اتبع الحق أهواءهم: أي ما يهوونه ويشتهونه.
 أتيناهم بذكرهم: أي بالقرآن العظيم الذي بذكرهم فيه يذكرون ويذكرون.
 أم تسألهم خراجاً: أي مالاً مقابل إبلاغك لهم دعوة ربهم.
 فخراج ربك خير: أي ما يرزقه الله خير وهو خير الرازقين.
 إلى صراط مستقيم: أي إلى الإسلام.
 عن الصراط لناكبون: أي عن الإسلام أي متكبونه جاعلوه على منكب أي جانب عادلون عنه.
 للجرّاء في طغيانهم يعمهون: لتمادوا في طغيانهم مصرين عليه.
 فما استكانوا: أي ما ذلوا ولا خضعوا.
 إذا هم فيه مبلسون: أي آيسون قنطون.
 معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء فقولته تعالى: لو لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن} هذا كلام مستأنف لبيان حقائق أخرى منها أن هؤلاء المشركين لو اتبع الحق النازل من عند الله والذي يمثله القرآن أهواءهم أي ما يهوونه ويشتهونه فكان يوافقهم عليه لأدى ذلك إلى

1 اختلف في المراد بالحق فقيل: هو الله تعالى قاله مجاهد و غيره، وقيل معناه ولو اتبع صاحب الحق، وقيل: هو مجاز أي: لو وافق الحق أهواءهم فجعل موافقته إتباعاً، وما في التفسير أظهر، وقد استظهره ابن جرير الطبري.

(3/529)

فساد الكون كله علويه 1 وسفليه، وذلك لأنهم أهل باطل لا يرون إلا الباطل ويصبح سيرهم معاكساً للحق فيؤدي حتماً إلى خراب الكون وقوله تعالى: {بل أتيناهم بذكرهم} أي جئناهم بذكرهم الذي هو القرآن الكريم إذ به يذكرون وبه يُذكرون لأنه سبب شرفهم، وقوله: {فهم عن ذكرهم معرضون}، فهم لسوء حالهم وفساد قلوبهم معرضون عما به يذكرون ويذكرون²، وقوله تعالى: {أم تسألهم خرجاً} أي 3 أجراً ومالاً {فخراج ربك خير} أي ثواب ربك الذي يثيبك به خير وهو تعالى خير الرازقين وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم عن التبليغ أجراً وقوله تعالى: {وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم} أي إلى الإسلام طريق السعادة والكمال في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: {وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط⁴ لناكبون} أي علة تنكبهم أي ابتعادهم عن الإسلام هو عدم إيمانهم بالآخرة، وهو كذلك فالقلب الذي لا يعمره الإيمان بقاء الله والجزاء يوم القيامة صاحبه ضد كل خير ومعروف ولا يؤمل منه ذلك لعله كفره بالآخرة.

وقوله تعالى: {ولو 5 رحمانهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون} يخبر تعالى أنه لو رحم أولئك المشركين المكذبين بالآخرة، وكشف ما بهم من ضر أصابهم من قحط وجذب وجوع ومرض لا يشكرون الله، بل يتمادون في عتوهم وضلالهم وظلمهم يعمهون حيارى يترددون، وقوله تعالى: {ولقد أخذناهم 6 بالعذاب} وهي سنوات الجذب و القحط بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وما أصابهم من قتل وجراحات وهزائم في بدر. وقوله: {فما استكانوا 7 لربهم وما يتضرعون} فما ذلوا لربهم وما دعوه ولا تضرعوا إليه بل بقوا على طغيانهم في ضلالهم ومرد هذا ظلمة النفوس الناتجة عن الشرك والمعاصي.

وقوله تعالى: {حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد} وهو معركة بدر وما أصاب

1 وما في الكون العلوي من الملائكة، والسفلي من الجن والإنس، وإلى هذا الإشارة بمن في قوله: {ومن فيهن}.

2 الأولى يذكرون بفتح الياء، مبنى للفاعل، والثانية يذكرون بضم الياء مبنى للمفعول.

3 قرىء خراجاً أيضاً والمعنى واحد، والمعنى: أتسألهم رزقاً فرزق ربك خير، وقيل: الخرج: الجعل

والخراج: العطاء، والخرج: المصدر، والخراج: الاسم.

4 الصراط في اللغة: الطريق، يسمي الدين طريقاً لأنه طريق إلى الجنة والناكب: العادل عن الشيء المعرض عنه، وهو مشتق من المنكب وهو جانب الكتف.

5 {ولو رحمناهم} معطوف على جملة: {حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب} وما بينهما: اعتراض باستدلال عليهم وتنديم لهم وقطع لمعاذيرهم أي: أنهم ليسوا بحيث لو استجاب الله لجوارهم {دعاءهم} عند نزول العذاب بهم وكشفه عنهم لعادوا إلى ما كانوا فيه من الغمرة والشرك والأعمال السيئة. وهذا كقوله: {إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون}.

6 هذا استدلال على مضمون ما في قوله: {ولو رحمناهم} الخ، و{ال} في العذاب للعهد أي: بالعذاب المذكور آنفاً في قوله: {حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب}.

7 الاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع، مشتقة من السكون، لأن الذي يخضع يقطع الحركة أمام من يخضع له.

(3/530)

المشركين من القتل {إذا هم فيه ملبسون 1} أي آيسون من كل خير حزنون قنطون وذلك لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

1- خطر إبتاع الهوى وما يفضي إليه من الهلاك والخسران.

2- الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة والكمال هو الإسلام لا غير.

3- التكذيب بيوم القيامة وما يتم فيه من حساب وجزاء هو الباعث على كل شر والمانع من كل خير.

4- من آثار ظلمة النفس نتيجة الكفر اليأس والقنوط والتمادي في الشر والفساد.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَنَذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

شرح الكلمات:

أنشأ لكم السمع : أي خلق وأوجد لكم الأسماع والأبصار.

والأفئدة : جمع فؤاد وهو القلب.

قليلاً ما تشكرون : أي ما تشكرون إلا قليلاً.
ذراكم : أي خلقكم.

1 الإيلاس: شدة اليأس من النجاة، وجائز أن يكون العذاب الذي أبلسهم عذاب القحط والمجاعة التي أصابتهم، وجائز أن يكون عذاب يوم القيامة.

(3/531)

واليه تحشرون: أي تجمعون إليه بعد إحيائكم وخروجكم من قبوركم.
وله اختلاف الليل والنهار : أي إليه تعالى إيجاد الليل والنهار وظلمة الليل وضياء النهار.
أفلا تعقلون : فتعرفوا أن الله هو المعبود الحق إذ هو الرب الحق.
إلا أساطير الأولين: أي ما تقولون من البعث والحياة الثانية ما هو إلا حكايات وأساطير وأخبار الأولين، والأساطير جمع أسطورة أي حكاية مسطرة مكتوبة.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المنكرين للبعث الآخر إلى الإيمان به بعرض الأدلة العقلية عليهم لعلمهم يؤمنون فقال تعالى لهم: {وهو الذي أنشأ لكم 1 السمع 2 والأبصار والأفئدة} أي الله الذي خلق لكم أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم قادر على إحيائكم بعد موتكم وحشركم إليه تعالى ليحاسبكم ويجزيكم، وقوله: {قليلاً ما تشكرون 3} يوبخهم تعالى على كفرانهم نعمه عليهم، إذ أوجد لهم أسمعاً وأبصاراً وأفئدة ولم يحمده على ذلك ولم يشكروه بالإيمان به وبطاعته. وقوله تعالى: {وهو الذي ذرأكم في الأرض} أي خلقكم في الأرض، {واليه تحشرون} إذ الذي قدر على خلقكم في الأرض قادر على خلقكم في أرض أخرى بعد أن يميتكم ويحشركم أي يجمعكم إليه ليحاسبكم ويجزيكم. وقوله: {وهو الذي يحيى 4 ويميت} أي يحيي النطفة يجعلها مضغة لحم ثم ينفخ فيها الروح فتكون بشراً، ويميتكم بعد انقضاء آجالكم أليس هذا قادراً على إحيائكم بعد موتكم.

وقوله تعالى: {وله اختلاف 5 الليل والنهار أفلا تعقلون} أي والله تعالى اختلاف الليل والنهار بإيجادهما وتعاقبهما وإدخال أحدهما في الآخر أفلا تعقلون 6 أن من هذه قدرته وتصاريفه في خلقه قادر على بعثكم بعد إماتتكم وقوله تعالى: {بل قالوا مثل 7 ما قال الأولون} أي بدل

1 هذا الكلام الإلهي، استدلال وامتتان فقد عرفهم بكمال قدرته وعظيم مننه.
2 جائز أن يكون لهم شكر قليل، وجائز أن يكون لا شكر لهم البتة، وإنما هو من باب الاحتراس كيلا ينقض الخبر. بأدنى شكر منهم.

- 3 جمع الأبصار والأقنعة باعتبار تعدد الأفراد، ووجد السمع لأنه مصدر فجرى على الأصل.
- 4 هذه بعض مظاهر القدرة الإلهية الموجبة لعبادته وحده، والموجبة لتصديقه فيما واعد به وأوعد، من نعيم الآخرة وعذابها.
- 5 {وله اختلاف الليل والنهار} هذه اللام: لام الاختصاص إذ لا قدرة لكائن سواه على اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر، والضياء والظلام، وما يجري فيهما من تصاريف الكائنات على اختلافها وتنوعها.
- 6 الاستفهام إنكاري ينكر عليهم عدم تعقلهم وفهمهم لدلائل التوحيد والبعث والجزاء، والفاء: للتفريع إذ هذا الكلام متفرع على ما تقدم من الأدلة في السياق.
- 7 في هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة لأنّ الكلام انتقل من التقرير إلى حكاية ضلالهم، وبل: للإضراب الإبطالي أي: أبطل كونهم يعقلون مع إثبات إنكارهم للبعث مع علة الإنكار وهي: تقليدهم لأبائهم.

(3/532)

أن يؤمنوا باليوم الآخر لما دلّ عليه من هذه الأدلة التي لا يردها عاقل ولا ينكرها عقل عادوا فقالوا
قوله المنكرين من الأمم قبلهم: {قالوا} إذا متنا وكنا تراباً أعنا لمبعثون} وهو إنكار صريح منهم
للبعث الآخر. وقالوا أيضاً ما أخبر تعالى عنهم، وهم يعلنون تكذيبهم لله تعالى ورسوله: {لقد وعدنا
نحن وأباؤنا هذا من 2 قبل إن هذا إلاّ أساطير الأولين} أي لقد وعد هذا أباؤنا من قبل ولم يحصل ما
هذا الذي يقال إلاّ أساطير أي حكايات سطرها الأولون في كتبهم فهي تروى ويتناقلها الناس ولا
حقيقة لها ولا وجود.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الشكر لله تعالى بطاعته على نعمه ومن بينها نعمة السمع والبصر والقلب.
 - 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء بما تضمنت الآيات من الأدلة العديدة على ذلك.
 - 3- سوء التقليد وأثاره في السلوك الإنساني بحيث ينكر المقلد عقله.
- قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ
أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (91) عَالِمِ

1 قرأ الجمهور بهمزتين : الأولى. همزة الاستفهام، والثانية: همزة إذ الشرطية وكذلك مع {إنا لمبعوثون} إلا نافعاً وأبا عمرو فقد قرءا بهمزة واحدة اكتفاء بهمزة الاستفهام الأولى: الدالة على الشرط عن همزة الجواب. والاستفهام إنكاري.

2 من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وجملة: "إن هذه لأساطير الأولين جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لمن قال: كيف رد الأولون والآخرون على هذا القول؟

(3/533)

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

شرح الكلمات:

قل أفلا تذكرون: فتعلمون أن من له الأرض ومن فيها خلقاً وملكاً قادر على البعث وأنه لا إله إلا هو.

قل أفلا تتقون: أي كيف لا تتقونه بالإيمان به وتوحيده وتصديقه في البعث والجزاء.

من بيده ملكوت كل شيء: أي ملك كل شيء يتصرف فيه كيف يشاء.

وهو يجير ولا يجار عليه: يحفظ ويحمي من يشاء ولا يُحمى عليه ويحفظ من أَرادَه بسوء.

فأنى تسحرون: أي كيف تخذعون وتصرفون عن الحق.

بل أتيناهم بالحق: أي بما هو الحق والصدق في التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

ولعلا بعضهم على بعض: أي قهراً وسلطاناً.

عما يصفون: أي من الكذب كزعمهم أن الله ولداً وأن له شريكاً وأنه غير قادر على البعث.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء فقال تعالى لرسوله قل 1

لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث والجزاء {لمن الأرض ومن فيها} من المخلوقات {إن كنتم تعلمون}

من هي له فسموه. ولما لم يكن لهم بُدٌّ أن يقولوا {الله} أخبر تعالى أنهم سيقولون لله. إذاً قل لهم:

{أفلا تذكرون} 2 فتعلموا أن من له الأرض ومن فيها خلقاً وملكاً وتصرفاً لا يصلح أن يكون له شريك

من عباده، وهو رب كل شيء ومليكه. وقوله: {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم} أي

سلَّهُم من هو رب السموات السبع وربّ العرش العظيم. الذي أحاط بالملكوت كله، أي من هو خالق

السموات السبع، ومن فيهن ومن خالق العرش العظيم ومالك ذلك كله والمتصرف فيه، ولما لم يكن

من جواب سوى الله أخبر تعالى أنهم سيقولون لله أي خالقها وهي الله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً إذاً قل لهم

يا رسولنا {أفلا تتقون} أي الله وأنتم تتكرون عليه قدرته في إحياء الناس بعد موتهم وتجعلون له

أنداداً تعبدونها معه³، أما تخافون عقابه أما

1 قل يا رسولنا جواباً لهم عما قالوه: {لمن الأرض..} الخ.

2 أي: تتعظون فتعلموا.. الخ.

3 وتجعلون لله البنات وأنتم تكرهون ذلك لأنفسكم فكيف ترضونه لريكم؟

(3/534)

تخشون عذابه وقوله تعالى: {قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه} أي سلمهم يا رسولنا فقل لهم من بيده ملكوت كل شيء أي ملك كل شيء وخزائنه؟ وهو يجير من يشاء أي يحمي ويحفظ من يشاء فلا يستطيع أحد أن يمسه بسوء ولا يجار عليه، أي ولا يستطيع أحد أن يجير أي يحمي ويحفظ عليه أحداً أرادته بسوء وقوله: {إن كنتم تعلمون} أي إن كنتم تعلمون أحداً غي الله بيده ملكوت. كل شيء ويجير ولا يجار عليه فاذكروه، ولما لم يكن لهم أن يقولوا غير الله، أخبر تعالى أنهم سيقولون الله أي² هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهي الله خلقاً وملكاً وتصرفاً إذاً قل لهم {فأني تسحرون؟} أي كيف تخدمون فتصرفون عن الحق فتعبدون غير الخالق الرازق، وتتكرون على الخالق إحياء الأموات ويعثم وهو الذي أحياهم أولاً ثم أماتهم ثانياً فكيف ينكر عليه إحياءهم مرة أخرى وقوله تعالى: {بل أتيناكم بالحق} ³ أي ليس الأمر كما يتوهمون ويخيل إليهم بل أتيناكم بذكرهم الذي هو القرآن به يذكرون لأنه ذكرى وذكر، وبه يذكرون لأنه شرف لهم وإنهم لكاذبون في كل ما يدعون ويقولون. {ما⁴ اتخذ الله من ولد} ولا بنت، {وما كان معه من إله} ولا ينبغي ذلك، والدليل المنطقي العقلي الذي لا يرد هو أنه لو كان مع الله إله آخر لقاسمه الملك وذهب كل إله بما خلق، ولحارب بعضهم بعضاً وعلا بعضهم على بعض غلبة وقهراً وقوله تعالى: {سبحان الله} تنزيهاً لله تعالى عما يصفه به الواصفون من صفات العجز كاتخاذ الولد والشريك، والعجز عن البعث. وقوله تعالى: {عالم الغيب} ⁵ والشهادة} أي ما ظهر وما بطن، وما غاب وما حضر فلو كان معه آلهة أخرى لعرفهم وأخبر عنهم ولكن هيهات هيهات أن يكون مع الله إله آخر وهو الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء {فتعالى عما يشركون} ⁶

1 الملكوت: من صفات المبالغة كالجبروت، والرهبوت، والمراد: ملك كل شيء، وهذا كله احتجاج

على العرب لأنهم مقرّون بالله رباً، والاستفهام فيه وفي الذي قبله: تقريري لأنهم مقرّون أن الله هو ربّ السموات وأنه الذي بيده ملكوت كل شيء.

2 قرأ أبو عمرو: {سيقولون الله} في الموضعين الأخيرين، ولا خلاف في الموضع الأول لأنه سؤال بـ

لمن المَلِك؟ ومن قرأ في الأخيرين بلفظ: الله فالرَّ السَّوَال بغير اللام فجاء الجواب على لفظه. ومن أجاب بـ الله، فإنه راعى المعنى إذ رب السموات: مالکها فهي له وملکوت كل شيء لله.

3 {بل أتيناهم بالحق}: إضراب لإبطال كونهم مسحورين. أي: ليس الأمر كما يخيل إليهم، وإنما أتيناهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون، فهذه علة إعراضهم وعدم قبولهم لدعوة الحق، وقولهم فيه {إن هذا إلا أساطير الأولين}.

4 نفى عنه تعالى اتخاذ الولد كما نفى أن يكون له شريك في الألوهية بالبرهان العقلي وهو: أنه لو كان معه آلهة لاقتسموا الكون وذهب كل إله بما خلق، وقد يحارب بعضهم بعضاً ويعلو من يغلب ولم يكن من مظاهر هذا شيء البتة فثبتت النتيجة وهي المذكورة أولاً: لهما اتخذ الله من ولد وما كان معه من الهة}.

5 هذا من جملة أدلة نفي الشريك له تعالى إذ العالم بكل شيء كيف يكون له شريك ولا يعرفه، وقرأ حفص عالم بالجر على أنه نعت لاسم الجلالة في قوله {سبحان الله}، وقرأ نافع بالرفع على أنه خبر لمحذوف أي: هو عالم.

6 {عما يشركون} ما مصدرية، والمعنى: تعالى عن إشراكهم. أي: هو منزه عن أن يكون له شريك.

(3/535)

علواً كبيراً وتنزهاً تنزهاً عظيماً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية توبيخ المتغافل المتجاهل وتأنيب المتعامي عن الحق وهو قادر على رؤيته.

2- تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته.

3- تنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد وإبطال ترهات المفترين.

4- الاستدلال العقلي ومشروعيته والعمل به لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِينِي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

شرح الكلمات:

إما تريني ما يوعدون : أي إن تريني من العذاب.

ادفع بالتي هي أحسن : أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم.
من همزات الشياطين : أي من وساوسهم التي تخطر بالقلب فتكاد تفسده.
أن يحضرون : أي في أموري حتى لا يفسدوها علي.

(3/536)

جاء أحدهم الموت : أي رأى علاماته ورآه.

برزخ: أي حاجز يمنع وهو مدة الحياة الدنيا، وإن عاد بالبعث فلا عمل يقبل.
معنى الآيات:

في هذا السياق تهديد للمشركين الذين لم ينتفعوا بتلك التوجيهات التي تقدمت في الآيات قبل هذه، فأمر الله تعالى رسوله أن يدعو ويضرع إليه إن هو أبقاه حتى يحين هلاك قومه، أن لا يهلكه معهم فقال: {قل رب إما تريني 1} أي أن تريني {ما يوعدون} أي من العذاب، {رب فلا تجعلني في القوم الظالمين} أي أخرجني منهم وأبعدني عنهم حتى لا أهلك معهم. وقوله تعالى: {وإننا على أن نريك 2 ما نعدهم لقادرون} يخبر تعالى رسوله بأنه قادر على إنزال العذاب الذي وعد به المشركين إذا لم يتوبوا قبل حلوله بهم.

وقوله: {ادفع بالتي 3 في أحسن} هذا قبل أمره بقتالهم: أمره بأن يدفع ما يقولونه له في الكفر والتكذيب بالخلة والخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم وعدم الإلتفات إليهم. وقوله: {نحن أعلم بما يصفون} أي من قولهم الله شريك وله ولد، وأنه ما أرسل محمداً رسولاً، وأنه لا بعث ولا حياة ولا نشور يوم القيامة وقوله: {وقل رب أعوذ بك من همزات 4 الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون} لما علمه الاحتراز والتحصن من المشركين بالصفح والإعراض أمره أن يتحصن من الشياطين بالاستعاذة بالله تعالى فأمره أن يقول {رب} أي يا رب {أعوذ 5 بك} أي استجير بك من همزات الشياطين أي وساوسهم حتى لا يفتنوني عن ديني وأعوذ بك أن يحضروا أمري فيفسدوه علي.

وقوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدهم الموت} أي إذا حضر أحد أولئك المشركين الموت.

1 أصل إما: إن ما، إن شرطية، وما: صلة لتقوية الشرط، وجواب الشرط فلا تجعلني مع القوم الظالمين، علمه ربه هذا الدعاء ليدعو به. أي: إذا أردت بهم عقوبة فأخرجني عنهم وأبعدني عنهم. وفي الآية تهديد عظيم للمشركين.

2 الجملة تحمل وعيداً آخر مؤكداً للأول الذي تضمنته جملة {رب إما تريني ما يوعدون}.

3 هذا بالنسبة إلى الأمة فهو محكم باق، وهو الصصح وعدم المؤاخذة فيما بينهم وأما بالنسبة

للمشركين والكافرين، فهو موادة لهم لا غير إلى أن يؤمر بقتالهم، وقد أمر به فيما بعد.
4 جمع همزة، والهمزة في اللغة النخس والدفع، يقال: همزه ونخسه ودفعه، قال الليث: الهمز: كلام من وراء القفا، واللمز: مواجهة والشيطان يوسوس بوساوسه في صدر ابن آدم، الهمس لغة: الكلام الخفي يقال: همس في أذنه بكذا: أسر به إليه.

5 هذا التعوذ، وإن خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لأمنته معه معه بل هي أحوج منه إليه، وهمزات الشيطان: هي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان بها نفسه وقد شكها خالد بن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم أن كان يورق من الليل فأمره أن يقول: "أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون".

(3/537)

أي رأى ملك الموت وأعوانه وقد حضروا لقبض روحه {قال رب ارجعون1} أي أخرجوا موتي كي أعمل صالحاً فيما تركت العمل فيه بالصلاح، وفيما ضيعت من واجبات قال تعالى رداً عليه {كلا}2 أي لا رجوع أبداً، {إنها كلمة هو قائلها} لا فائدة منها ولا نفع فيها، {ومن ورائهم برزخ} أي حاجز مانع من العودة إلى الحياة وهو أيام الدنيا كلها حتى إذا انقضت عادوا إلى الحياة، ولكن ليست حياة عمل وإصلاح ولكنها حياة حساب وجزاء هذا معنى قوله: {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون}3. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الدعاء والترغيب فيه وأنه لدو جدوى للمؤمن.
- 2- استحباب دفع السيء من القول أو الفعل بالصفح والإعراض عن صاحبه.
- 3- مشروعية الاستعاذة بالله تعالى من وساوس الشياطين ومن حضورهم أمر العبد الهام حتى لا يفسدوه عليه بالخواطر السيئة.
- 4- موعظة المؤمن بحال من يتمنى العمل الصالح عند الموت فلا يمكن منه فيموت بندمه وحسرتة ويلقى جزاء تقريظه حرماناً وخسراناً في الدار الآخرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)

1 {رب ارجعون} هذا تمن للحياة الدنيا بعد ذهابها، وهيئات هيئات أن تعود !! وقوله : {ارجعون} : خاطب الرب تعالى بضمير التعظيم وتعظيم المخاطب شائع في كلام العرب.

2 كلا : ردع للسامع ليعلم يقينا إبطال ما يطلبه الكافر من الرجوع.
3 البرزخ : هو ما بين الدنيا والآخرة إذ كل ما حجز بين شيئين قيل فيه :برزخ.

(3/538)

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
(106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107)

شرح الكلمات:

في الصور: أي في القرن المعبر عنه بالبوق نفخة القيام من القبور للحساب والجزاء.

المفلحون : أي الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

تلفح وجوههم النار : أي تحرقها.

وهم فيها كالحون: الكالح من أحرقت النار جلدة وجهه وشفتيه فظهرت أسنانه.

ألم تكن آياتي تتلى عليكم : أي يوبخون ويذكرون بالماضي ليحصل لهم الندم والمراد بالآيات آيات القرآن.

غلبت علينا شقوتنا: أي الشقاوة الأزلية أي تكتب على العبد في كتاب المقادير قبل وجوده.

أخرجنا منها فإن عدنا : أي من النار فإن عدنا إلى الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والدعوة إلى ذلك وعرض الأدلة وتبيينها وتنويعها، إذ لا يمكن استقامة إنسان في تفكيره وخلقه وسلوكه على مناهج الحق والخير إلا إذا آمن إيماناً راسخاً بوجود الله تعالى ووجوب طاعته وتوحيده في عباداته، وبالواسطة في ذلك وهو الوحي والنبى الموحى إليه، وبالبعث الآخر الذي هو دور الحصاد لما زرع الإنسان في هذه الحياة من خير وشر فقوله تعالى: {فإذا نفخ1 في الصور فلا أنساب2 بينهم يومئذ ولا يتساءلون} هذا عرض لما يجرى في الآخرة فيخبر تعالى أنه إذا نفخ إسرافيل بإذن الله في الصور الذي هو القرن أي كقرن الشاة لقوله تعالى: {فإذا نقر في الناقور فذلك

1 هذه النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، والحشر والتي قبلها هي نفخة الفناء، والتي بعد نفخة الصعق، والأخيرة نفخة الحساب والجزاء.

2 قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: من أي قبيلة أنت ولا من أي نسب ولا يتعارفون لهول ما أذهلهم!!

يومئذ يوم عسير} فلشدة الهول وعظيم الفزع لم يبق نسب 1 يراعى أو يلتفت إليه بل كل واحد همه نفسه فقط، ولا يسأل حميم حميماً وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: هل تذكرون أهليكم يا رسول الله يوم القيامة فقال أما عند ثلاثة فلا: إذا تطايرت الصحف، وإذا وضع الميزان وإذا نصب الصراط ومعنى هذا الحديث واضح والشاهد منه ظاهر وهو أنهم لا يتساءلون.

وقوله تعالى: {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون} أي من رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته أفلح أي نجا من النار وأدخل الجنة ومن خفت موازينه بأن حصل العكس فقد خسر وأبعد عن الجنة وأدخل النار وهذا معنى قوله تعالى {ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تلفح 2 وجوههم النار وهم فيها كالخون 3} أي تحرق وجوههم النار فيكلحون باحتراق شفاههم وتظهر أسنانهم وهو أبشع منظر وأسوأه وقوله تعالى: {ألم تكن 4 آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون؟} هذا يقال لهم تأنيباً وتوبيخاً وهم في جهنم وهو عذاب نفساني مع العذاب الجثماني {ألم تكن آياتي تتلى عليكم} أما كان رسلنا يتلون عليكم آياتنا {فكنتم بها تكذبون} بأقوالكم وأعمالكم أو بأعمالكم دون أقوالكم فلم تحرموا ما حرم الله ولم تؤدوا ما أوجب الله، ولم تنتهوا عما نهاكم عنه. وقوله تعالى: {قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا 5} هذا جوابهم كالمعتدين بأن شقاءهم كان بقضاء وقدر فلذا حيل بينهم وبين الإيمان والعمل الصالح. وقوله تعالى: {وكننا قوماً ضالين} هذا قولهم أيضاً وهو اعتراف صريح بأنهم كانوا ضالين. ثم قالوا ما أخبر تعالى به عنهم بقوله: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} هذا دعاؤهم وهم في جهنم يسألون رجهم أن يردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويستقيموا 6 على صراط الله المستقيم الذي هو الإسلام وسوف ينتظرون جواب الله تعالى ألف سنة وهو ما تضمنته الآيات التالية

- 1 ورد ما يخص هذا العموم وهو قوله صلى الله عليه وسلم "كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي" رواه الطبراني فإنه إن صح يكون مخصصاً لعموم الآية. والله أعلم.
- 2 {تلفح} وتفتح بمعنى واحد لقوله تعالى: {ولإن مستهم نفحة من عذاب ربك} إلا أن تلفح أبلغ من تنفح وأشد.
- 3 الكلوح: تكشر في عبوس، والكالح الذي تشمرت شفتاه وبدت أسنانه قال ابن مسعود: رأيت الرأس المشتط بالنار وقد بدت أسنانه وقلصت شفتاه.
- 4 الاستفهام للتقرع والتأنيب، والتذكير بما يزيد في حسرتهم وعظيم محنتهم وبلائهم.

5 قرأ ابن مسعود وبها قرأ الكوفيون إلّا حفصاً شقوتنا وقرأ الجمهور شقوتنا.
6 وما يستقيمون لو ردوا لعلم الله تعالى بهم إذ قال عز وجل: ﴿لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون﴾.

(3/540)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء من خلال عرض أحداثها في هذه الآيات.
 - 2- تقرير أن وزن الأعمال يوم القيامة حق وإنكاره بدعة مكفرة.
 - 3- تقرير أن إسرافيل ينفخ في الصور وإنكار ذلك وتأويله بلفظ الصور كما فعل المراغي عند تفسيره هذه الآية مع الأسف بدعة من البدع المنكرة ولذا نبهت عليها هنا حتى لا يغتر بها المؤمنون.
 - 4- الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه، إذ القدر مستور فلا ينظر إليه والعبد مأمور فليؤتمر بأمر الله ورسوله ولينته بنهيهما ما دام العبد قادراً على ذلك فإن عجز فهو معذور.
- قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111)

شرح الكلمات:

إخسأوا : أي أبعدوا في النار أذلاء مخزيين.

فريق من عبادي : هم المؤمنون المتقون.

فاتخذتموهم سُخْرِيًّا : أي جعلتموهم محط سخريتكم واستهزأتمكم.

بما صبروا : أي على الإيمان والتقوى.

هم الفائزون : أي الناجون من النار المنعمون في الجنة.

(3/541)

معنى الآيات:

قوله تعالى: ﴿قال اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾1 { هذا جواب سؤالهم المتقدم حيث قالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها

فإن عدنا فإننا ظالمون﴾2 وعلل تعالى لحكمه فيهم بالإبعاد في جهنم أذلاء مخزيين يقوله: ﴿إنه كان

فريق من عبادي} وهو فريق المؤمنين المتقين 3 يقولون {ربنا آمنا فاغفر لنا} ذنوبنا {وارحمنا وأنت خير الراحمين} أي يعبدوننا ويتقربون إلينا ويتوسلون بإيمانهم وصالح أعمالهم ويسألوننا المغفرة والرحمة وكنتم أنتم تضحكون من عبادتكم ودعائهم وضراعتهم إلينا وتسخرون منهم 4 إني جزيتهم اليوم بصبرهم على طاعتنا مع ما يلاقون منكم من اضطهاد وسخرية. {أنهم 5 هم الفائزون} برضواني في جناتي لا غيرهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان مدى حسرة أهل النار لما يجابون بكلمة: {أخسأوا فيها ولا تكلمون}.
- 3- فضيلة التضرع إلى الله تعالى ودعائه والتوسل إليه بالإيمان وصالح الأعمال.
- 3- حرمة السخرية بالمسلم والاستهزاء به والضحك منه.
- 4- فضيلة الصبر ولذا ورد أن منزلة الصبر هن الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد.

- 1 أي: ابعدوا في جهنم كما يقال لكلب: أخسأ أي: أبعده، يقال: خسأ الكلب وأخسأه لازم ومتعدّ. يروي عن ابن المبارك عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم {إنكم ماكنون} والصحيح أنه يجيبهم بعد ألف سنة، وعندها ينقطع رجاؤهم ودعاؤهم ويقبل بعضهم على بعض فيتتابحون كالكلاب وقد أطبقت عليهم النار.
- 2 الظلم: وضح الشيء في غير موضعه وعابد غير الله تعالى واضع العبادة في غير موضعها فلذا هو ظالم. والشرك: ظلم عظيم.
- 3 كبلال وصهيب وعمّار وخباب من فقراء المسلمين الذين كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون بهم ويسخرون منهم.
- 4 في الآية دليل على حرمة السخرية بالمسلم والاستهزاء به.
- 5 قرىء بفتح الهمزة أي: لأنهم هم الفائزون وقرىء بكسرهما على الابتداء.

(3/542)

قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَاسَأَلُ الْعَادِيْنَ (113) قَالَ
إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ
(115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ
الرَّاحِمِينَ (118)

شرح الكلمات:

كم لبثتم في الأرض : أي كم سنة لبثتموها في الأرض أحياءً وأمواتاً في قبوركم؟.
فاسأل العادين: يريدون الملائكة التي كانت تعد، وهم الكرام الكاتبون أو من يعد أما نحن فلم نعرف.
خلفتهم عبثاً: أي لا لحكمة بل لمجرد العيش واللعب كلا.
فتعالى الله الملك الحق : أي تنزه الله عن العبث.
لا برهان له : الجملة صفة لـ "إلهاً آخر" لا مفهوم لها إذ لا يوجد برهان ولا حجة على صحة عبادة
غير الله تعالى إذ الخلق كله مربوب لله مملوك له.
حسابه عند ربه: أي مجازاته عند ربه هو الذي يجازيه بشركه به ودعاء غيره.
معنى الآيات:

مازال السياق الكريم ومع أهل النار المنكرين للبعث والتوحيد بقوله تعالى: {قال كم

(3/543)

لبثتم في الأرض عدد سنين؟} هذا سؤال طرح عليهم أي سألهم ربهم وهو أعلم بلبثهم كم لبثتم من
سنة في الدنيا مدة حياتكم فيها ومدة لبثكم أمواتاً في قبوركم؟ فأجابوا قائلين {لبثنا يوماً أو بعض 1 يوم
فاسأل 2 العادين} أي من كان يعد من الملائكة أو من غيرهم، وهذا الاضطراب منهم عائد إلى
نكرانهم للبعث وكفرهم في الدنيا به أولاً وثانياً أهوال الموقف وصعوبة الحال وآلام العذاب جعلتهم لا
يعرفون أما أهل الإيمان فقد جاء في سورة الروم أنهم يجيبون إجابة صحيحة إذ قال تعالى: {ويوم
تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان
لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون}. وقوله تعالى: {إن
لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون 3} هذا بالنظر إلى ما تقدم من عمر الدنيا، فمدة حياتهم وموتهم
إلى بعثهم ما هي إلا قليل وقوله تعالى: {أفحسبتم 4 أننا خلقناكم 5 عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}، هذا
منه تعالى توبيخ لهم وتأنيب على إنكارهم للبعث أنكر تعالى عليهم حسابهم وظنهم أنهم لم يخلقوا
للعبادة وإنما خلقوا للأكل والشرب والنكاح كما هم ظن كل الكافرين وأنهم لا يبعثون ولا يحاسبون ولا
يجزون بأعمالهم. وقوله تعالى: {فتعالى 6 الله الملك الحق} أي عن العبث وعن كل ما لا يليق
بجلاله وكماله وقوله: {لا إله إلا هو رب العرش الكريم} أي لا معبود بحق إلا هو {رب العرش
الكريم} أي مالك العرش الكريم ووصف العرش بالكرم سائغ كوصفه بالعظيم والعرش سرير الملك
وهو كريم لما فيه من الخير وعظيم إذ هو أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والأرض، ولم
لا يكون العرش كريماً وعظيماً ومالكة جل جلاله هو مصدر كل كرم وخير وعظمة.

- 1 هذا السؤال موجه للمشركين في عرصات القيامة، والسؤال عن ليثهم في قبورهم وجائز أن يكون عن مدة حياتهم في الدنيا.
- 2 قيل: أنساهم شدة العذاب مدة مكثهم في قبورهم، وقيل: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي القبور ورأوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصده.
- 3 هذا بالنظر إلى الدار الآخرة لا يعتبر شيئاً يذكر.
- 4 روي بضعف أن ابن مسعود مرّ بمصاب مبتلى فقراً في أذنه: {أفحسبتم} الآية إلى {رحيم} فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ماذا قرأت في أذنه؟ فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال".
- 5 أي: مهملين كما خلق البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها كقوله تعالى {أيحسب الإنسان أن يترك سدى}.
- 6 {فتعالى الله}: أي تنزهه وتقديسه الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سفهاً.

(3/544)

وقوله تعالى: {ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له} أي ومن يعبد مع الله إلهاً آخر بالدعاء أو الخوف أو الرجاء أو النذر والذبح، وقوله: لا برهان له أي لا حجة له ولا سلطان على جواز عبادة ما عبده، ومن أين يكون له الحجة والبرهان على عبادة غير الله والله رب كل شيء ومليكه وقوله تعالى: {فإنما حسابه عند ربه} أي الله تعالى ربه يتولى حسابه ويجزيه بحسب عمله وسيخسر خسراناً ميبيناً لأنه كافر والكافرون لا يفلحون أبداً فلا نجاة من النار ولا دخول للجنة بل حسبهم جهنم وبئس المهاد. وقوله تعالى: {وقل رب اغفر وارحم} أي أمر الله تعالى رسوله أن يدعو بهذا الدعاء: رب اغفر لي وارحمني واغفر لسائر المؤمنين وارحمهم أجمعين أنت خير الغافرين والراحمين.

هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- عظم هول يوم القيامة وشدة الفزع فيه فليتق ذلك بالإيمان وصالح الأعمال.
- 2- تنزه الله تعالى عن العبث واللهو واللعب.
- 3- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 4- كفر وشرك من يدعو مع الله إلهاً آخر.
- 5- الحكم بخسران الكافرين وعدم فلاحهم.
- 6- استحباب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين والمؤمنات.

1 نظرت إلى حذف المفعول في: اغفر وارحم فانقذح في نفسي أن لجذفه سرّاً وهو : أن يكون عاماً في المؤمنين والمؤمنات لقوله تعالى: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}.

(3/545)

سورة النور

...

سورة النور 1

مدنية

وآياتها أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

شرح الكلمات:

سورة أنزلناها: أي هذه سورة أنزلناها.

وفرضناها : أي فرضنا ما فيها من أحكام.

وأنزلنا فيها آيات بينات : أي وأنزلنا ضمنها آيات أي حججاً واضحة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

لعلكم تذكرون : أي تتعظون فتعملون بما في السورة من أحكام.

الزانية: من أفضت إلى رجل بغير نكاح شرعي وهي غير محصنة.

مائة جلدة: أي ضربة على جلد ظهره.

رأفة: شفقة ورحمة.

وليشهد عذابهما : أي إقامة الحد عليهما.

1 روي أن عمر رضي الله عنه: كتب يوماً إلى أهل الكوفة. علّموا نساءكم سورة النور. كما روي

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة

النور، والغزل.

طائفة : أي عدد لا يقل عن ثلاثة أنفار من المسلمين والأربعة أولى من الثلاثة.
الزاني لا ينكح إلا زانية : أي إلا زانية مثله أو مشركة أي لا يقع وطء إلا على مثله 1.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {سورة أنزلناها} أي هذه سورة من كتاب الله أنزلناها أي على عبدنا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم {وفرضناها} أي وفرضنا ما اشتملت عليه من أحكام على أمة الإسلام، وقوله: {لعلكم تذكرون} أي تتعظون فتعملون بما حوته هذه السورة من أوامر ونواه وآداب وأخلاق وقوله تعالى: {الزانية 2 والزاني فاجلدوا كل 3 واحد منهما مائة جلدة} أي من زنت برجل منكم أيها المسلمون وهما بكران حُرَّان غير محصنين ولا مملوكين فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة بعصا لا تشين جارحة ولا تكسر عضواً أي جلدًا غير مبرح، وزادت السنة تغريب سنة، وقوله تعالى: {ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله}، أي لا تشفقوا عليهما فتعطلوا حدَّ الله تعالى وتحرموهما من التطهير بهذا الحد لأن الحدود كفارة لأصحابها، وقوله: {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} أي فأقيموا عليهما الحد وقوله: {وليشهد عذابهما} أي إقامة الحد {طائفة من المؤمنين} أي ثلاثة أنفار فأكثر وأربعة أولى لأن شهادة الزنا تثبت بأربعة شهداء وكلما كثر العدد كان أولى وأفضل.
وقوله تعالى: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة} أي لا يطأ إلا مثله من الزواني أو مشركة لا دين لها، والزانية أيضاً لا يطأها إلا زانٍ مثلها أو مشرك {وحرّم ذلك على المؤمنين} أي حرم الله الزنا على المؤمنين والمؤمنات ولازم هذا أن لا تزوج زانياً من عفيفة إلا بعد توبتها 4، ولا تزوج زانية من عفيف إلا بعد توبتها 5.

1 أي: إلا مثل الواطء يريد الزاني بالزانية والمشرك بالمشركة.

2 قرأ الجمهور برفع الزانية وقرأ: عيسى الثقفي بالنصب وهو أوجه عند سيبويه لأنه نحو: زيداً أضربه، وتقدير الرفع: مما يتلى عليكم الزانية والزاني. على تقديم الخبر، وقدمت الزانية لأنّ الزنى في النساء أعر وأقبح وأضر للحمل، وال: في الزانية والزاني: للجنس ليعم سائر الزناة، على مرور الأعصر والأيام.

3 لا خلاف في أن الذي يقوم بإقامة هذا الحد هو الإمام أو نائبه والسادة في العبيد، وأن السوط يكون بين اللين والشدة وسطاً بينهما، ولا يتعدى هذا الحد إلا أن يجروا الناس على الجرائم ويكثر الشر والفساد فيعزرون بما يردعهم.

4 قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية: {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم} وما في

التفسير أولى وأظهر وبه العمل.

5 الجمهور على أن من زنى بامرأة يجوز له أن يتزوجها بعد استبرائها بحيضة وإذا زنت امرأة الرجل أو زنى هو لا يفسد نكاحهما.

(3/547)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان حكم الزانية والزاني البكرين الحرين وهو جلد مائة وتغريب عام وأما الثيبان فالرحم إن كانا حرين أو جلد خمسين 1 جلدة لكل واحد منهما إن كانا غير حرين.

2- وجوب إقامة هذا الحد أمام طائفة من المؤمنين.

3- لا يحل تزويج الزاني إلا بعد توبته، ولا الزانية إلا بعد توبتها.

وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

شرح الكلمات:

يرمون : أي يقذفون.

المحصنات : أي العفيفات والرجال هنا كالنساء.

فاجلدوهم: أي حداً عليهم واجباً.

ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً : لسقوط عدالتهم بالقذف للمؤمنين والمؤمنات.

إلا الذين تابوا: فإنهم بعد توبتهم يعود إليهم اعتبارهم وتصح شهادتهم.

معنى الآيتين:

بعد بيان حكم الزناة بين تعالى حكم القذف فقال: {والذين يرمون المحصنات 2} أي والذين يرمون

المؤمنين والمؤمنات بالفاحشة وهي الزنا واللواط بأن يقول فلان زان أو لائط

1 لقوله تعالى من سورة النساء {فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب}

والمراد به: الإماء والعبيد مثلهن، ولما كان الموت لا ينصف فعلم أنه الجلد خمسين جلدة.

2 قيل: خص النساء بهذا وإن كان الرجال يشاركونهن في الحكم لأن القذف فيهن أشنع وأنكر

للنفوس ومن حيث هو هوى الرجال.

(3/548)

فيفقذه بهذه الكلمة 1 الخبيثة فإن عليه أن يحضر شهوداً أربعة يشهدون أمام الحاكم على صحة ما رمى به أخاه المؤمن فإن لم يأت بالأربعة شهود أقيم عليه الحد المذكور في الآية: وهو جلد ثمانين جلدة على ظهره وتسقط عدالته حتى يتوب وهو معنى قوله تعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون} أي عن طاعة الله ورسوله {إلا الذين تابوا هن بعد ذلك وأصلحوا} بأن كذبوا أنفسهم بأنهم ما رأوا الفاحشة وقوله: {فإن الله غفور} فيغفر لهم بعد التوبة {رحيم} بهم يرحمهم ولا يعذبهم بهذا الذنب العظيم بعدما تابوا منه.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان حد القذف وهو جلد ثمانين جلدة لمن قذف مؤمناً أو مؤمنة بالفاحشة وكان المقذوف بالغاً عاقلاً مسلماً 2 عفيفاً أي لم يعرف بالفاحشة قبل رميه بها 3.
 - 2- سقوط عدالة القاذف إلا أن يتوب فإنه تعود إليه عدالته.
 - 3- قبول توبة 4 التائب إن كانت توبته صادقة نصوحاً.
- وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6)

1 اختلف في التعريض هل يوجب الحد أو لا؟ فمالك يرى إيجابه إذا حصلت المعرفة بالتعريض وإلا فلا وأخذ التعريض من آية: {إنك لأنت الحليم الرشيد} قاله قوم شعيب لنييهم شعيب عليه السلام تعريضاً به لآ مدحاً له ومن أمثلة التعريض قول الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

شبهه بالنساء.

وقال آخر:

قبيلة لا يغدرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

اتهم القبيلة بالضعف وهو من أحوال النساء.

2 للقدف شروط تسعة: العقل والبلوغ وهما للقاذف والمقذوف سواء إذ هما شرط التكليف، وشرطان في الشيء المقذوف به وهما أن يكون القذف بوطيء يوجب الحد وهو الزنى واللواط أو بنفيه من أبيه وخمسة في المقذوف وهي: العقل والبلوغ كما تقدّم والإسلام والحرية والعفة.

3 الجمهور على أنه لا حد على من قذف كتابياً ذكراً أو أنثى والإجماع على عدم إقامة الحد على من قذف كافراً لأنه لا يُحَرِّمُ الزنى فكيف يحد على من قذف به؟.

4 إن شهد أربعة وأقيم الحد على المقذوف ثم أقر أحد الشهود بأنه كان كاذباً فإن لأولياء الدم بين قتله وبين العفو عنه وبين أخذ ربع الدية منه. هذا مذهب مالك وبه قال أحمد رحمهما الله تعالى.

(3/549)

وَالْخَامِسَةُ أَنْ 1 لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ (7) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

شرح الكلمات:

يرمون أزواجهم : أي يقذفونهن بالزنا كأن يقول زنت أو الحمل الذي في بطنها ليس منه. إنه لمن الصادقين: أي فيما رماها به من الزنى.

والخامسة: أي والشهادة الخامسة.

ويدرأ عنها العذاب : أي يدفع عنها حد القذف وهو هنا الرجم حتى الموت.

أن تشهد أربع شهادات : أي شهادتها أربع شهادات.

والخامسة: هي قولها غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولولا فضل الله عليكم: أي لفضح القاذف أو المقذوف ببيان كذب أحدهما.

معنى الآيات:

بعد بيان حكم حد القذف 2 العام ذكر تعالى حكم القذف الخاص وهو قذف الرجل زوجته فقال تعالى:

{والذين يرمون 3 أزواجهم} أي بالفاحشة {ولم يكن لهم شهداء 4} أي من يشهد معهم إلا أنفسهم أي إلا

القاذف وحده فالذي يقوم مقام الأربعة شهود هو أن يشهد أربع 5 شهادات قائلاً: أشهد 6 بالله لقد رأيتها

تزني أو زنت أو هذا الولد أو الحمل ليس لي ويلتعن فيقول في الخامسة {لعنة الله عليه إن كان من

الكاذبين} أي فيما رمى به زوجته. وهنا يعرض على الزوجة أن تقر بما رماها به زوجها ويقام عليها

حد القذف وهو هنا الرجم، أو تشهد أربع شهادات بالله أنها ما زنت، والخامسة تدعو على نفسها

بغضب الله

1 قرأ الجمهور بتشديد {أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ} {وَأَنَّ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا} بلفظ المصدر في {أَنَّ غَضِبَ

الله} وتقدر باء الجر قبل أن لأنها هي التي اقتضت فتح أن، وقرأ نافع بتخفيف نون أن في

الموضعين وغضب بصيغة الماضي.

- 2 ويعرف باللعان: لأن كلا من الزوجين يلعن نفسه إن كان كذبا.
- 3 نزلت هذه الآيات في قضية عويمر العجلاني مع زوجته خولة بنت عاصم أو قيس. فقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقته فيقتلونه أم كيف يفعل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أنزل الله فيك وفي صاحبك" فذهب فأت بها فأتى بها وتلاعنا وكانت هذه الحادثة في شعبان سنة تسع عقب القبول من غزوة تبوك.
- 4 حذف متعلق شهداء لظهوره من السياق أي: شهداء على ما ادعوه مما رموا به أزواجهم.
- 5 قامت الأربع شهادات مقام أربعة شهود الذين لا بد منهم في القذف بالفاحشة خاصة فشهادة القتل والسرقة وغيرها يكتفى بشاهدين وفي القذف لا بد من أربعة شهود.
- 6 سميت الأيمان هنا شهادة لأنها أقيمت مقام الشهود وأصبحت بدلاً عنها.

(3/550)

فتقول {أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} فيما رماها به، وبذلك درأت عنها العذاب الذي هو الحد ويفرق بينهما فلا يجتمعان أبداً. وقوله تعالى: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته} جواب لولا محذوف تقديره لعاجلكم بالعقوبة ولفضح أحد الكاذبين: ولكن الله تواب رحيم فستر عليكم ليتوب من يتوب منكم ورحمكم بهذا التشريع العادل الرحيم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان حكم قذف الرجل امرأته ولم يكن له أربعة شهود يشهدون معه على ما رمى به زوجته وهو اللعان.

2- بيان كيفية اللعان، وأنه موجب لإقامة الحد، إن لم ترد الزوجة الدعوى بأربع شهادات والدعاء عليها في الخامسة وقولها {أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين}.

3- في مشروعية اللعان مظهر من مظاهر حسن التشريع الإسلامي وكماله وأن مثله لن يكون إلا بوحى إلهي وفيه إشارة إلى تقرير النبوة المحمدية.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14)

1 هذا تذييل لما مرّ من الأحكام العظيمة الدالة على تفضل الله على عباده المؤمنين بأفضل تشريع وأحسن حل لأخطر مشكلة اجتماعية.

(3/551)

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)
وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ
تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18)
شرح الكلمات:

بالإفك عصابة: الإفك الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب، والعصابة الجماعة.

شراً لكم بل هو خير: الشر ما غلب ضرره على نفعه، والخير ما غلب نفعه على ضرره.

لكم: والشر المحض النار يوم القيامة والخير المحض الجنة دار الأبرار.

والذي تولى كبره: أي معظمه وهو ابن أبي كبير المنافقين.

لولا: أداة تحضيض وحث بمعنى هلاً.

فيما أفضتم فيه: أي فيما تحدثتم بتوسع وعدم تحفظ.

إذ تلقونه: أي تتلقونه أي يتلقاه بعضكم من بعض.

وتحسبونه هيناً: أي من صغائر الذنوب و هو عند الله من كبائرهما لأنه عرض مؤمنة هي زوج

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سبحانك: كلمة تقال عند التعجب والمراد بها تنزيه الله تعالى عما لا يليق به.

بهتان عظيم: البهتان الكذب الذي يحير من قيل فيه.

يعظكم الله: أي ينهاكم نهياً مقروناً بالوعيد حتى لا تعودوا لمثله أبداً.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى حكم القذف العام والخاص ذكر حادثة الإفك التي هلك فيها خلق لا يحصون عدداً

إذ طائفة الشيعة الروافض ما زالوا يهلكون فيها جيلاً بعد جيل إلى اليوم إذ ورث فيهم رؤساء الفتنة

الذين اقتطعوا من الإسلام وأمتة جزءاً كبيراً أسمو شيعة آل البيت تضليلاً وتغريباً فأخرجوهم من

الإسلام باسم الإسلام وأوردتهم النار باسم

(3/552)

الخوف من النار فكذبوا الله ورسوله وسبوا زوج رسول الله واتهموها بالفاحشة وأهانوا أباهم ولوثوا شرف زوجها صلى الله عليه وسلم بنسبة زوجه إلى الفاحشة.

وخلاصة الحادثة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فرض الحجاب على النساء المؤمنات خرج إلى غزوة تدعى غزوة بني المصطلق أو المريسي، ولما كان عائداً منها وقارب المدينة النبوية نزل ليلاً وارتحل، ولما كان الرجال يرحلون النساء على الهودج وجدوا هودج عائشة رضي الله عنها فظنوها فيه فوضعه على البعير وساقوه ضمن الجيش ظانين أن عائشة فيه، وما هي فيه، لأنها ذكرت عقداً لها قد سقط منها في مكان تبرزت فيه فعادت تلتمس عقدها فوجدت الجيش قد رحل فجلست في مكانها لعلهم إذا افتقدوها رجعوا إليها ومازالت جالسة تنتظر حتى جاء صفوان بن معطل السلمي رضي الله عنه وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عينه في الساقة وهم جماعة يمشون وراء الجيش بعيداً عنه حتى إذا تأخر شخص أو ترك متاع أو ضاع شيء يأخذونه ويصلون به إلى المعسكر فنظر فرأها من بعيد فأخذ يسترجع أي يقول إنا لله و إنا إليه راجعون أسفاً لتخلف عائشة عن الركب قالت رضي الله عنها فتجلببت بثيابي وغطيت وجهي وجاء فأناخ راحلته فركبتها وقادها بي حتى انتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعسكر، وما إن رأني ابن أبي لعنة الله عليه حتى قال والله ما نجت منه ولا نجا منها، وروج للفتنة فاستجاب له ثلاثة أنفار فرددوا ما قال وهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش، {والذي تولى كبره} هو ابن أبي المنافق وتورط آخرون ولكن هؤلاء الأربعة هم الذين أشاعوا وراجت الفتنة في المدينة واضطربت لها نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفوس أصحابه وآل بيته فأنزل الله هذه الآيات في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبراءة صفوان رضي الله عنه، ومن خلال شرح الآيات تتضح جوانب القصة.

قال تعالى: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}2 أي إن الذين جاءوا بهذا الكذب المقلوب إذ المفروض أن يكون الطهر والعفاف لكل من أم المؤمنين وصفوان بدل الرمي بالفاحشة القبيحة فقلبوا القضية فلذا كان كذبهم إكفاً وقوله: {عصبة} أي جماعة لا يقل عادة عددهم على عشرة أنفار إلا أن الذين روجوا الفتنة وتورطوا فيها حقيقة وأقيم عليهم الحد أربعة ابن أبي وهو الذي تولى كبره منهم وتوعده الله بالعذاب العظيم لأنه منافق كافر

1 هذا كلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً، والإفك: الكذب الخال. الذي لا شبهة فيه يفاجأ به المرء فيبيته فيصير بهتاناً وهو مشتق من الأفك بفتح الهمزة وهو القلب ومن صورته أن يقال في الصادق كاذب والطاهر خبيث ونحو ذلك.

2 عصبة: خبر إن، والعصبة: الجماعة يتعصب بعضهم لبعض.

مات على كفره ونفاقه، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها وحسان بن ثابت رضي الله عنه، وقوله تعالى: {لا تحسبوه شراً لكم} لما نالكم من هم وغم وكرب من جرائه {بل هو خير لكم} لما كان له من العاقبة الحسنة وما نالكم من الأجر العظيم من أجل عظم المصاب وشدة الفتنة وقوله تعالى: {لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} على قدر ما قال وروح وسيجزي به إن لم يتب الله تعالى عليه و يعفو عنه. وقوله: {والذي تولى كبره} منهم له عذاب عظيم} وهو عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين عليه لعنة الله.

وقوله تعالى: {لولا إذ سمعتموه} ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين} هذا شروع في عتاب القوم وتأديبهم وتعليم المسلمين وتربيتهم فقال عز وجل: {لولا} أي هلا وهي للحض والحث على فعل الشيء إذ سمعتم قول الإفك ظننتم بأنفسكم خيراً إذ المؤمنون والمؤمنات كنفس واحدة، وقلتم لن يكون هذا وإنما هو إفك مبين أي ظاهر لا يقبل ولا يقر عليه هكذا كان الواجب عليكم ولكنكم ما فعلتم.

وقوله تعالى: {لولا جاءوا} عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} أي كان المفروض فيكم أيها المؤمنون أنكم تقولون هذا لمن جاء بالإفك فإنهم لا يأتون بشاهد فضلاً عن أربعة وبذلك تسجلون عليهم لعنة الكذب في حكم الله. وقوله تعالى: {لولا فضل} الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم} فيه عذاب عظيم} هذه منة من الله تحمل أيضاً عتاباً واضحاً إذ بولوغكم في عرض أم المؤمنين، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك قد استوجبتم العذاب لولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم العذاب العظيم. وقوله: {إذ تلقونه بألسنتكم} أي يتلقاه بعضكم من بعض، {وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم} وهذا عتاب وتأديب. وقوله: {وتحسبونه هينا} أي ليس بذنب كبير ولا تبعة فيه {وهو عند الله عظيم}، وكيف وهو يمس عرض رسول الله وعائشة والصدیق وآل البيت أجمعين.

1 الكير: بكسر الكاف قراءة الجمهور ومعناه: أشد الشيء ومعظمه، وقرئ كبره بضم الكاف.
2 كلام مستأنف مسوق لتوبيخ العصابة وفيه تربية للمسلمين وإرشاد لهم لما ينبغي أن يكونوا عليه من الآداب.

3 لولا: هذه مثل سابقتها حرف تحريض.

4 لولا هذه حرف امتناع لوجود، امتنع مس العذاب لوجود فضل الله ورحمته.

5 الإفاضة في القول: التوسع فيه مشتقة من إفاضة الماء على العضو.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ۙ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ إذ هذه مما لا يصح لمؤمن أن يقول فيه لخطره وعظم شأنه. وقلتم متعجبين من مثله كيف يقع ﴿سبحانك﴾ أي يا رب ﴿هذا﴾ أي الإفك ﴿بهتان عظيم﴾ بهتوا به أم المؤمنين وصفوان.

وقولي: ﴿يعظكم 2 الله﴾ أي ينهاكم الله مخوفاً لكم بذكر العقوبة الشديدة ﴿أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي طول الحياة فإياكم إياكم إن كنتم مؤمنين حقاً وصدقاً فلا تعودوا لمثله أبداً. وقوله: ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ التي تحمل الهدى والنور لترشدوا وتكملوا والله عليم بخلقهم وأعمالهم وأحوالهم حكيم فيما يشرع لهم من أمر ونهي.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- قضاء الله تعالى للمؤمن كله خير له.
 - 2- بشاعة الإفك وعظيم جرمه.
 - 3- العقوبة على قدر الجرم كبيراً وصغراً قلة وكثرة.
 - 4- واجب المؤمن أن لا يصدق من يرمي مؤمناً بفاحشة، وأن يقول له هل تستطيع أن تأتي بأربعة شهداء على قولك فإن قال لا قال له إذا أنت عند الله من الكاذبين.
 - 5- حرمة القول بدون علم والخوض في ذلك.
- إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَسْبِحَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْؤُفٌ رَحِيمٌ (20) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ

1 لولا هنا بمعنى: هلا وهي للتوبيخ.

2 قال مالك: من سبّ أبا بكر وعمر أدب ومن سبّ عائشة كفر لأن عائشة برأها الله تعالى فمن سبها بغير الفاحشة أدب ومن سبها بالفاحشة كفر لأنه كذب الله تعالى.

(3/555)

اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

شرح الكلمات:

أن تشيع الفاحشة : أي تعم المجتمع وتنتشر فيه والفاحشة هي الزنا.
ولو لا فضل الله عليكم ورحمته: جواب لولا محذوف تقديره: لعاجلكم بالعقوبة أيها العصابة.
خطوات الشيطان: نزغاته ووساوسه.
ما زكى منكم من أحد أبداً: أي ما طهر ظاهره وباطنه وهي خلو النفس من دنس الإثم.
ولا يأتل أولوا الفضل منكم: أي ولا يحلف صاحب الفضل منكم وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
والسعة : أي سعة الرزق والفضل والإحسان إلى الغير.

معنى الآيات:

ما زال السياق في عتاب المؤمنين الذين خاضوا في الإفك فقوله تعالى: {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة} أي تنتشر وتشتهر {في الذين آمنوا} أي في المؤمنين {لهم عذاب أليم في الدنيا} بإقامة حد الفذف عليهم وإسقاط عدالتهم وفي الآخرة إن لم يتوبوا بإدخالهم نار جهنم، وكفى بهذا الوعد زاجراً ورادعاً وقوله تعالى: {والله يعلم وأنتم لا تعلمون} أي ما يترتب على حب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين من الآثار السيئة فلذا توعدهم من يحبها بالعذاب الأليم في الدارين، وأوجب رد الأمور إليه تعالى وعدم الاعتراض على ما يشرع وذلك

1 روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: أئما رجل شد عضد امرىء من الناس في خصومة لا علم له بها فهو في سخط الله حتى ينزع، وأئما رجل قال شفاعة دون حد من حدود الله أن يقام فقد عائد الله وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة، وأئما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء أن يشقيه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يرميه بها في النار، ثم تلا مصداقه من كتاب الله: {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة} الآية.

(3/556)

علمه المحيط بكل شيء وجهلنا لكل شيء إلا ما علمناه فأزال به جهلنا وقوله: {ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم} لهلكتم 1 بجهلكم وسوء عملكم. ولكن لما أحاطكم الله به من فضل لم تستوجبوه إلا برأفته بكم ورحمته لكم عفا عنكم ولم يعاقبكم.
وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا 2 خطوات الشيطان} أي يا من صدقتم الله ورسوله لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه عدوكم فكيف تمشون وراءه وتتبعونه فيما يزين لكم من قبيح المعاصي وسيء الأقوال والأعمال فإن من يتبع خطوات الشيطان لا يلبث أن يصبح شيطانا يأمر بالفحشاء

والمنكر، ففصلوا هذا العدو، واتركوا الجري وراءه فإنه لا يأمر بخير قط فاحذروا وسواسه وقاوموا نزغاته بالاستعاذة بالله السميع العليم فإنه لا ينجكم منه إلا هو سبحانه وتعالى وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ وهذه منة أخرى وهي أنه لولا فضل 3 الله على المؤمنين ورحمته بحفظهم ودفع الشيطان عنهم ما كان ليظهر منهم أحد، وذلك لضعفهم واستعدادهم الفطري للاستجابة لعدوهم، فعلى الذين شعروا بكمالهم؛ لأنهم نجوا مما وقع فيه عصابة الإفك من الإثم أن يستغفروا لإخوانهم وأن يقللوا من لومهم وعتابهم، فإنه لولا فضله عليهم ورحمته بهم لوقعوا فيما وقع فيه إخوانهم، فليحمدوا الله الذي نجاهم وليتطامنوا تواضعاً لله وشكراً له. وقوله: ﴿ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ أي فمن شاء الله تزكيته زكاه وعليه فليلجأ إليه وليطلب التزكية منه، وهو تعالى يزكي من كان أهلاً للتزكية، ومن لا فلا، لأنه السميع لأقوال عباده والعليم بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم وهي حال تقتضي التصريح إليه والتذلل وقوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل 4 منكم والسعة 5 أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفو﴾ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق لما منع مسطح بن أثاثة

1 ﴿لهلكتم﴾ هو جواب لولا المحذوف والسر في حذفه أن تذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام والسياق.

2 في الآية إشارة أفصح من عبارة وهي: أن الظنون السيئة وحب الفاحشة وحب إشاعتها بين المؤمنين كل هذا من وسوس الشيطان وتزيينه للناس للفتنة والإفساد.

3 لولا هنا: حرف امتناع لوجود امتنع عدم التزكية لوجود فضل الله تعالى ورحمته، والجملة سبقت للامتنان على المؤمنين ليذكروا.

4 روي في الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر آيات، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقربته وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال في عائشة فأنزل الله تعالى ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم﴾ إلى قوله ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبداً. قال ابن المبارك. هذه أرجى آية في كتاب الله.

5 الفضل: الزيادة وهي ضد النقص. والسعة: الغنى والائتلاء: الحلف مأخوذ من الألية التي هي الحلف.

وهو ابن خالته، وكان رجلاً فقيراً من المهاجرين ووقع في الإفك فغضب عليه أبو بكر وحلف أن يمنعه ما كان يرفده به من طعام وشراب، فأنزل الذي تعالى هذه الآية ولا يأتل أي ولا يحلف أصحاب الفضل والإحسان والسعة في الرزق والمعاش أن يؤثوا أولى القربى أي أن يعطوا أصحاب القرابة، والمساكين والمهاجرين في سبيل الله كمسطح، وليعفوا أي وعليهم أن يعفوا عما صدر من أولئك الأقرباء من الفقراء والمهاجرين، وليصفحوا أي يعرضوا عما قالوه فلا يذكره لهم ولا يذكرونهم به فإنه يحزنهم و يسوءهم ولاسيما وقد تابوا وأقيم الحد عليهم وقوله تعالى: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟} فقال أبو بكر بلى والله أحب أن يغفر الله لي فعندها صفح وعفا وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه فقال كفر عن يمينك ورد الذي كنت تعطيه لمسطح. وتقرر بذلك أن من حلف يميناً على شيء فرأى غيره خيراً منه كفر عن يمينه وأتى الذي هو خير .
وقوله تعالى: {والله غفور رحيم} فهذا إخبار منه تعالى أنه ذو المغفرة والرحمة وهما من صفاته الثابتة له وفي هذا الخبر تطميع للعباد لأن يرجوا مغفرة الله ورحمته وذلك بالتوبة الصادقة والطلب الحثيث المتواصل لأن الله تعالى لا يغفر لمن لا يستغفره، ولا يرحم من لا يرجو ويطلب رحمته.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- لقبح فاحشة الزنى وضع الله تعالى لمقاومتها أموراً منها وضع حد شرعي لها، ومنع تزويج الزاني من عفيفة أو عفيفة من زانٍ إلا بعد التوبة، ومنها شهود عدد من المسلمين إقامة الحد ومنها حد القذف ومنها اللعان بين الزوجين، ومنها حرمة ظن السوء بالمؤمنين، ومنها حرمة حب ظهور الفاحشة وإشاعتها في المؤمنين. ومنها وجوب الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة، ومنها وجوب غض البصر وحرمة النظر إلى الأجنبية، ومنها احتجاب المؤمنة عن الرجال الأجانب ومنها حرمة حركة ما كضرب الأرض بالأرجل لإظهار الزينة. ومنها وجوب تزويج العزاب والمساعدة على ذلك حتى في العبيد بشروطها. ومنها وجوب استئذان الأطفال إذا بلغوا الحلم، وهذه وغيرها كلها أسباب واقية من أخطر فاحشة وهي الزنى.

1 {ألا تحبون}: الاستفهام للإنكار وهو مستعمل في التحضيض والحث على السعي تحصيلاً للمغفرة بالعفو والصفح.

(3/558)

2- حرمة إتباع الشيطان فيما يزينه من الباطل والسوء والفحشاء والمنكر .

3- متابعة الشيطان والجري وراءه في كل ما يدعو إليه يؤدي بالعبد أن يصبح شيطاناً يأمر

بالفحشاء والمنكر.

4- على من حفظهم الله من الوقوع في السوء أن يتطامنوا ولا يشعروا بالكبر فإن عصمتهم من الله تعالى لا من أنفسهم.

5- من حلف على شيء لا يفعله أو يفعله ورأى أن غيره خير منه كفر عن يمينه وفعل الذي هو خير.

6- وجوب العفو والصفح على ذوي المروءات وإقالة عثرتهن إن هم تابوا وأصلحوا.
إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

شرح الكلمات:

يرمون المحصنات: أي العفيفات بالزنى.

الغافلات: أي عن الفواحش بحيث لم يقع في قلوبهن فعلها.

المؤمنات: أي بالله ورسوله ووعده الله ووعيده.

يعملون: أي من قول أو عمل.

يوفيهم الله دينهم الحق: أي يجازيهم جزاءهم الواجب عليهم.

الخبيثات: الخبيثات من النساء والكلمات.

(3/559)

للخبِيثِينَ : للخبِيثِينَ من الرجال .

والطَّيِّبَاتِ : من النساء والكلمات .

للطَّيِّبِينَ : أي من الرجال .

أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ : أي صفوان بن المعطل وعائشة رضي الله عنهما أي مبرعون مما قاله عصابة الإفاك .

معنى الآيات:

قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات 2 الغافلات 3 المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة} هذه الآية

وإن تناولت ابتداءً عبدالله بن أبي فإنها عامة في كل من يقذف مؤمنة محصنة أي عفيفة غافلة

لسلامة صدرها من الفواحش لا تخطر ببالها {لعنوا} أي أبعدها من الرحمة الإلهية {في الدنيا

والآخرة، ولهم عذاب عظيم} في الدنيا بإقامة الحد عليهم وفي الآخرة بعذاب النار، وذلك ليوم تشهد

عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} من سوء الأفعال وقوله تعالى: {يومئذ4 يوفيههم الله دينهم الحق} أي يتم ذلك يوم يوفيههم الله دينهم الحق أي جزاءهم الواجب عليهم ويعلمون حينئذ أن الله هو الحق5 المبين أي الإله الحق الواجب الإيمان به والطاعة له والعبودية الكاملة له لا لغيره. وقوله تعالى: {الخبثات للخبثين6} أي الخبيثات من النساء7 والكلمات للخبثين من الرجال كابن أبي، {والخبثون للخبثات} أي والخبثون من الرجال للخبثات من النساء والكلمات وقوله: {والطيبات للطيبين} أي والطيبات من النساء والكلمات للطيبين من الرجال كالنبي صلى الله عليه وسلم وعائشة رضي الله عنها وقوله: {والطيبون للطيبات} أي والطيبون من الرجال للطيبات من النساء والكلمات تأكيد للخبر السابق وقوله تعالى: {أولئك مبرعون مما

- 1 هذه الجملة مستأنفة كجملة: {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا..} وكلتا الجملتين تفصيل للموعظة في قوله تعالى: {يعظكم الله أن لا تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين}.
- 2 الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال كالمحصنات من النساء في القذف بلا فرق قياساً واستدلالاً وحكماً وقضاء.
- 3 الغافلات: هن اللاتي لا علم لهن بما رمين به وذلك لسلامة صدورهن وبعدهن -بحكم إيمانهن- عن مواطن الريب.
- 4 الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً.
- 5 لوصف الله تعالى بالحق له معنيان جليان. الأول: أنه بمعنى: الثابت الحق لأن وجوده واجب فذاته حق إذ لم يسبق عليها عدم ولا انتفاء فلا يقبل إمكان العدم. والثاني: أنه تعالى ذو الحق الواجب له على عباده و هو عبادته وحده دون سواه.
- 6 الابتداء بذكر الخبيثات لأن الغرض من الكلام الاستدلال على براءة عائشة أم المؤمنين واللام في للخبثين: للاستحقاق.
- 7 المراد من الخبث والطيب: الصفات النفسية. الفواحش: صفات خبث والفضائل صفات طهر.

(3/560)

يقولون} أولئك إشارة إلى صفوان بن المعطل وعائشة رضي الله عنها، ومبرعون أي من قالة السوء التي قالها أبي ومن أذاعها معه. وقوله: {لهم مغفرة ورزق كريم} هذه بشرى لهم بالجنة مقابل ما نالهم من ألم الإفك الذي جاءت به العصابة المتقدم ذكرها إذ أخبر تعالى أن لهم مغفرة لذنوبهم التي لا يخلو منها مؤمن وهو الستر عنها ومحوها ورزقاً كريماً في الجنة. وبهذه تمت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والحمد لله أولاً وآخراً.

هداية الآيات:

هن هداية الآيات:

- 1- عظم ذنب قذف المحصنات الغافلات المؤمنات وقد عده رسول الله صلى الله عليه وسلم في السبع الموبقات، والعياذ بالله تعالى.
- 2- تقرير الحساب وما يتم فيه من استنطاق واستجواب.
- 3- تقرير التوحيد بأنه لا إله إلا الله.
- 4- استحقاق الخبث أهله. فالخبث هو الذي يناسبه القول الخبيث والفعل الخبيث.
- 5- استحقاق الطيب أهله. فالطيب هو الذي يناسبه القول الطيب والفعل الطيب.
- 6- براءة أم المؤمنين وصفوان مما رماهما به أهل الإفك.
- 7- بشارة أم المؤمنين وصفوان بالجنة بعد مغفرة ذنوبهما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29)

(3/561)

شرح الكلمات:

آمنوا : أي صدقوا الله ورسوله فيما أخبرا به من الغيب والشرع.
تستأذِنُوا: أي تستأذِنُوا إِذِ الْاِسْتِذْنَانِ مِنْ عَمَلِ الْاِنْسَانِ وَالدَّخُولِ بِدُونِهِ مِنْ عَمَلِ الْحَيَوَانَ الْوَحْشِيِّ.
وتسلموا على أهلها: أي تقولوا السلام عليكم أَدْخَلَ ثَلَاثًا.
تذكرون :أي تذكرون أنكم مؤمنون، وأن الله أمركم بالاستئذان.
أزكى لكم : أي أظهر وأبعد عن الريبة والإثم.
ليس عليكم جناح: أي إثم ولا حرج.
فيها متاع لكم: أي ما تتمتعون به كالنزول بها أو شراء حاجة منها.
ما تبدون: أي ما تظهرونه.
وما تكتُمون: أي ما تخفونه إِذَا فَرَّقَهُ تَعَالَى وَلَا تَضْمَرُوا مَا لَا يَرْضَى فَإِنَّهُ يَعْلَمُهُ.

معنى الآيات:

نظراً إلى خطر الرمي بالفاحشة وفعالها وحرمة ذلك كان المناسب هنا ذكر وسيلة من وسائل الوقاية من الوقوع في مثل ذلك ففرض الله تعالى على المؤمنين الاستئذان فقال: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تدخلوا بيوتاً¹ غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها { أي يا من آمنتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً لا تدخلوا بيوتاً على أهلها حتى تسلموا عليهم قائلين السلام² عليكم وتستأذنوا قائلين أندخل ثلاث مرات فإن أذن لكم بالدخول دخلتم وإن قيل لكم ارجعوا أي لم يأذنوا لكم لحاجة عندهم فارجعوا وعبر عن الاستئذان بالاستئناس لأمرين أولها أن لفظ الاستئناس³ وارد في لغة العرب بمعنى الاستئذان وثانيهما: أن الاستئذان من خصائص الإنسان الناطق وعدمه من خصائص الحيوان المتوحش إذ يدخل على المنزل بدون إذن إذ ذاك ليس من خصائصه.

1 ورد في سب نزول هذه الآية أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله: إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل علي وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية فقال أبو بكر يا رسول الله أفرأيت الخانات والمسكن في طرق الشام ليس فيها مساكن؟ فأنزل الله تعالى: {ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة..} الخ.

2 صح أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "ارجع فقل السلام عليكم" وقال: "من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له".

3 الاستئناس، معناه طلب الأئس لأهل البيت حتى تزول الوحشة والكراهة لك بالاستئذان.

(3/562)

وقوله {ذلكم خير لكم} أي الاستئذان خير لكم أي من عدمه لما فيه من الوقاية من الوقوع في الإثم وقوله: {لعلكم تذكرون} أي تذكرون أنكم مؤمنون وأن الله تعالى أمركم بالاستئذان حتى لا يحصل لكم ما يضركم وبذلك يزداد إيمانكم وتسموا أرواحكم. وقوله تعالى: {فإن لم تجدوا فيها أحداً} أي في البيوت يأذن لكم أي بالدخول فلا تدخلوها وقوله تعالى: {وإن قيل لكم ارجعوا} لأمرٍ اقتضى ذلك {فارجعوا} وأنتم راضون غير ساخطين. وقوله تعالى: {هو أزكى لكم} أي أظهر لنفوسكم وأكثر عائدة خير عليكم. وقوله تعالى: {والله بما تعملون¹ عليم} أي مطلع على أحوالكم فتشريعه لكم الاستئذان واقع موقعه إذا فأطيعوه فيه وفي غيره تكملوا وتسعدوا.

وقوله: {ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم} هذه رخصة منه تعالى لعباده المؤمنين بأن لا يستأذنوا عند دخولهم بيوتاً غير مسكونة أي ليس فيها نساء من زوجات وسريات يحرم النظر إليهن وذلك كالدكاكين والفنادق وما إلى ذلك فللعبد أن يدخل لقضاء حاجاته المعبر عنها بالمتاع بدون استئذان لأنها مفتوحة للعموم من أصحاب الأغراض والحاجات أما السلام فسنة على من دخل على دكان أو فندق فليقل السلام عليكم والذي يسقط هو الاستئذان أي طلب الإذن لا

غير .

وقوله تعالى: {والله يعلم ما تبون وما تكتمون} أي يعلم ما تظهرون من أقوالكم وأعمالكم وما تخفون إذا فراقبوه تعالى في أوامره ونواهيه وافعلوا المأمور واتركوا المنهي تكملوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1 مشروعية الاستئذان 2 ووجوبه على كل من أراد أن يدخل بيتاً مسكوناً غير بيته.

2- الرخصة في عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة للعبء فيها غرض.

1 ورد في الصحيح ما يجعل الاستئذان متأكداً فوق المشروعية إذ أن رجلاً اطلع في جحر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدراً يرجل به رأسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر" وفي الآية توعدهم لآهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة.

2 وإذا قيل له مَنْ؟ فلا يقل أنا بل يقول فلان ابن فلان لحديث الشيخين وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال: "استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من هذا؟ فقالت أنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أنا كأنه كره ذلك".

(3/563)

3- من آداب الاستئذان أن يقف بجانب الباب فلا يعترضه، وأن يرفع صوته بقدر الحاجة وأن يقرع الباب قرعاً خفيفاً وأن يقول السلام عليكم أدخل ثلاث مرات.

4- في كل طاعة خير وبركة وإن كانت كلمة طيبة.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30)
وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ
أَوْلِيَّائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ
التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْتِبَةِ مِنَ الرَّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

شرح الكلمات:

يغضوا من أبصارهم 1 : أي يغضوا من أبصارهم حتى لا ينظروا إلى نساء لا يحل لهم أن ينظروا إليهن .

ويحفظوا فروجهم : أي يصونونها من النظر إليها ومن إتيان الفاحشة الزنى واللواط.

1 بدأ بالأمر بغض البصر قبل الأمر بحفظ الفرج لأن البصر رائد للقلب كما أنّ الحمى رائد الموت.
أخذ هذا المعنى شاعر فقال:
ألم تر أن العين للقلب رائد
فما تألف العينان فالقلب آلف

(3/564)

أزكى لهم : أي أكثر تزكية لنفوسهم من فعل المندوبات والمستحبات.
ولا يبدين زينتهن : أي مواضع الزينة الساقين حيث يوضع الخلال، وكالكفين والذراعين حيث الأساور والخواتم والحناء والرأس حيث الشعر والأقراط في الأذنين والترجيح في الحاجبين والكحل في العينين والعنق والصدر حيث السخاب والقلائد.
إلا ما ظهر منها : أي بالضرورة دون اختيار وذلك كالكفين لتناول شيئاً والعين الواحدة أو الاثنتين للنظر بهما، والثياب الظاهرة كالخمار والعجار والعباءة.
بخمرهن على جيوبهن : أي ولتضرب المرأة المسلمة الحرة بخمارها على جيوب أي فتحات الثياب في الصدر وغيره حتى لا يبدو شيء من جسمها.
إلا لبعولتهن : البعل الزوج والجمع بعول.
أو نسائهن : أي المسلمات فيخرج الذميات فلا تتكشف المسلمة أمامهن.
أو ما ملكت أيمنهن : أي العبيد والجواري فللمسلمة أن تكشف وجهها لخدمها المملوك.
أو التابعين غير أولي الإربة : أي التابعين لأهل البيت يطعمونهم ويسكنونهم ممن لا حاجة لهم إلى النساء.
أو الطفل: أي الأطفال الصغار قبل التمييز والبلوغ.
لم يظهروا على عورات النساء : أي لم يبلغوا سناً تدعوهم إلى الإطلاع على عورات النساء للتلذذ بهن.
ليعلم ما يخفين من زينتهن : أي الخلاخل في الرجلين.
تقلحون: أي تفوزون بالنجاة من العار والنار، وبالظفر بالطهر والشرف وعالي الغرف في دار النعيم.

(3/565)

معنى الآيات:

سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا 1 فن أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ أي مُرُّ يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من 2 أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيةات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجته فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذلك أركى لهم﴾ أي أظهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ 3 إذ شأنهن شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي مُرُّهن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالتياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلاً على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترًا كاملاً وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ 4 أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وإن علا وأب الزوج وإن علا وابنها لأن سفلاً وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وأن نزلوا، وابن الأخ

1 غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية وهذا عنتره بن شداد يقول:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يوارى جارتي ماواها؟

لم يذكر الله تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيةات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.

2 {من} جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.

3 ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقال لعلي رضي الله عنه "لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى

وليست لك الثانية".

4 قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تُبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

(3/566)

وان نزل وسواء كان لأب أو لأم أو شقيق، وابن الأخت شقيقة أو لأب أو لأم. والمرأة المسلمة من نساء المؤمنات، وعبدها المملوك لها دون شريك لها فيه والتابع لأهل بيتها من شيخ هرم أصابه الخرف، وعنين ومعتوه وطفل صغير لم يميز دون البلوغ ممن لا حاجة لهم في النساء لعدم الشهوة عندهم لكبر ومرض وصغر.

وقوله تعالى: {ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن} نهى تعالى المؤمنات أن يضرين الأرض بأرجلهن التي فيها الخلاخل لكي يعلم أنها ذات زينة في رجلها، فلا يحل لها ذلك ولو لم تقصد إظهار زينتها.

وقوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} أمر تعالى المؤمنين والمؤمنات بالتوبة وهي ترك ما من شأنه أن يغضب الله تعالى، وفعل ما وجب فعله ومن ذلك غض البصر وحفظ الفرج والالتزام بالعفة والستر والتتزه عن الإثم صغيره وكبيره وبذلك يتأهل المؤمنون للفلاح الذي هو الفوز بالنجاة من المرهوب والظفر بالمحبوب المرغوب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب غض البصر وحفظ الفرج.
- 2- وجوب ستر المرأة زينتها ومواضع ذلك ما عدا ما يتعذر ستره للضرورة.
- 3- بيان المحارم الذين للمرأة المؤمنة أن تبدي زينتها عندهم بلا حرج.
- 4- الرخصة في إظهار الزينة للهرم المخرف من الرجال والمعتوه والطفل الصغير الذي لم يعرف عن عورات النساء شيئا.

5- حرمة ضرب ذات الخلاخل الأرض برجلها حتى لا يعلم ما تخفي من زينتها.

6- وجوب التوبة من كل ذنب وعلى الفور للحصول على الفلاح العاجل والآجل.

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلَيْمٌ (32)

1 وجوب غض البصر عن النظر إلى المحارم والعورات ويستحب ستر العورة عن الزوج، لحديث عائشة: "ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك مني" كما يستحب ستر العورة مطلقاً عن الله وملائكته لقوله صلى الله عليه وسلم "قاله أحق أن يستحي منه من الناس: لمن قال له: الرجل يكون خالياً".

(3/567)

وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبِّئَهُنَّ أَنْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (34)

شرح الكلمات:

وأنكحوا الأيامى منكم : أي زوجوا من لا زوجة له من رجالكم ومن لا زوج لها من نساءكم. والصالحين من عبادكم وإمائكم: أي وزوجوا أيضاً القادرين والقادرات على أعباء الزواج من عبيدكم وإمائكم.

إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله : أي إن يكن الأيامى فقراء فلا يمنعكم ذلك من تزويجهم فإن الله يغنهم.

إن الله واسع عليم : أي واسع الفضل عليم بحاجة العبد وخلته فيسدها تكراً.

وليستعفف: أي وليطلب عفة نفسه بالصبر والصيام.

يبتغون الكتاب : أي يطلبون المكاتب من المماليك.

إن علمتم فيهم خيراً: أي قدرة على السداد و الإستقلال عنكم.

وأتوهم من مال الله : أي أعينوهم بثمن نجم من نجوم المكاتب من الزكاة وغيرها.

على البغاء إن أردن تحصناً : أي الزنى تحصناً أي تعففاً و تحفظاً من فاحشة الزنا.

(3/568)

عرض الحياة الدنيا : أي المال.

ومن يكرههن : أي على البغاء "الزنى".

مبينات : للأحكام موضحة لما يطلب منكم فعله وتركه.

ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم: أي قصصاً من أخبار الأولين كقصة يوسف وقصة مريم

وهما شبيهتان بحادثة الإفك.

وموعظة: الموعظة ما يتعظ به العبد فيسلك سبيل النجاة.

معنى الآيات:

مازال السياق في ذكر الأسباب الواقية من وقوع الفاحشة فأمر تعالى في الآية الأولى من هذا السياق (32) أمر جماعة المسلمين أن يزوجوا الأيامي من رجالهم ونسائهم بالمساعدة على ذلك والإعانة عليه حتى لا يبقى في البلد أو القرية عزبٌ إلا نادراً ولا فرق بين البكر والثيب في ذلك فقال تعالى: {وَأُنكحوا1} والأمر للإرشاد {الأيامي} جمع أيم وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة بكرةً كان أو ثيباً، {منكم} أي من جماعات المسلمين لا من غيرهم كأهل الذمة من الكافرين. وقوله: {والصالحين من عبادكم2 وإمائكم} أي وزوجوا القادرين على مؤونة الزواج وتبعاته، وتكاليفه من مماليتكم وقوله: {إن يكونوا فقراء} غير موسرين لا يمنعكم ذلك من تزويجهم فقد تكفل الله بغناهم بعد تزويجهم بقوله: {يغنيهم3} الله من فضله والله واسع عليم أي واسع الفضل عليم بحاجة المحتاجين وأمر تعالى في هذه الآية من لا يجد نكاحاً لانعدام الزوج أو الزوجة مؤقتاً أو انعدام مؤونة الزواج من مهر ووليمة أن يستعفف أي يعف نفسه بالصبر والصيام والصلاة حتى لا يتطلع إلى الحرام فيهلك فقال تعالى: {وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً4 حتى يغنيهم الله من فضله والله واسع عليم} أي واسع الفضل مطلق الغنى عليم بحال عباده وحاجة المحتاجين منهم وقوله تعالى: {والذين يبتغون الكتاب} هذه مسألة ثالثة تضمنتها هذه

1 الخطاب للأولياء ولجماعة المسلمين إن عجز الأولياء أي: زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف، والطهر والتكافل الاجتماعي. والنكاح تجرى عليه الأحكام الخمسة إذ يكون واجباً على من خاف العنت وقدر على مؤونته، ويسن لمن لم يخف العنت وقدر على مؤونته ويحرم على من لم يخف العنت ولا مؤونة لديه. ويكره لمن لم يخف العنت ويشغله عن طاعة الله تعالى وبياح لمن لا رغبة له فيه وهو قادر عليه.

2 اختلف في هل للسيد أن يكره عبده أو أمته على التزوّج والذي يبدوان الإكراه يشرع مع خوف الضرر فإن لم يكن ضرر فلا إكراه.

3 في الآية دليل على تزوج الفقير بل قال عمر: عجباً لفقير لم يطلب الغنى بالزواج لقول الله تعالى: {إن يكونوا فقراء يغنيهم الله}.

4 نكاحاً: أي طوّل نكاح فحذف المضاف، وفي الحديث الذي رواه النسائي "ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونهم: المجاهد في سبيل الله والناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء".

الآية وهي إذا كان للمسلم عبد وطلب منه أن يكاتبه وكان أهلاً للتححرر بأن يقدر على تسديد مال المكاتبه. ويستطيع أن يستقل بنفسه فعلى مالكه أن يكاتبه، وأن يعينه على ذلك بإسقاط نجم من نجوم الكتابة، وهذا معنى قوله تعالى: {والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً} 2 وآتوهم من مال الله الذي آتاكم { وقوله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء} أي على الزنا وهي مسألة رابعة تضمنتها هذه الآية وهي أن جاريتين كانتا لعبد الله بن أبي بن سلول المنافق يقال لهما معاذة ومسيكة قد أسلمتا فأمرهما بالزنا لتكسبا له بفرجيهما كما هي عادة أهل الجاهلية قبل الإسلام فشكنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا} أي لأجل مال قليل يعرض لكم ويزول عنكم بسرعة. وقوله: {ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم} أي لهن رحيم بهن لأن المكره لا إثم عليه فيما يقول ولا فيما يفعل فامتنع المنافق من ذلك.

وقوله تعالى في الآية الثانية (34) {ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات} أي ولقد أنزلنا إليكم أيها المسلمون آيات أي قرآنية مبينات أي موضحات للشرائع والأحكام والآداب فاعملوا بها تكملوا في حياتكم وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم. وقوله: {ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم} أي قصصاً من أخبار الأولين كقصة يوسف ومريم عليهما السلام وهما شبيهتان بحادثة الإفك وقوله: {وموعظة للمتقين} وهي ما تضمنته الآيات من الوعيد والوعد والترغيب والترهيب وكونها للمتقين بحسب الواقع وهو أن المتقين هم الذين ينتفعون بالمواعظ دون الكافرين والفاجرين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- انتداب المسلمين حاكمين ومحكومين للمساعدة على تزويج الأياامي من المسلمين أحراراً وعبداً.
- 2- وجوب الاستعفاف على من لم يجد نكاحاً والصبر حتى يبسر الله أمره.
- 3- عدة الله للفقير إذا تزوج بالغنى.

1 لا تكون المكاتبه إلا على أنجم متعددة فلا تصح ناجزة ولا على نجم واحد.
2 {خيراً} أي: صلاحاً وتقوى وقدرة على الأداء.

4- تعين مكاتبة العبد إذا توقرت فيه شروط المكاتبة.

5- حرمة الزنا بالإكراه أو بالاختيار ومنع ذلك بإقامة الحدود.

6- صيغة المكاتبة أن يقول السيد للعبد لقد كاتبتك على ثلاثة آلاف دينار منجمة أي مقسطة على ستة نجوم تدفع في كل شهر نجماً أي قسطاً. على أنك إذا وفيتها في آجالها فأنت حر، وعليه أشهدنا وحرر بتاريخ كذا وكذا.

7- بيان فضل سورة النور لما احتوته من أحكام في غاية الأهمية.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)

شرح الكلمات

الله نور السموات: أي منورهما فلولاها لما كان نور في السموات ولا في

(3/571)

الأرض، والله تعالى نور 1 وحجابه النور.

مثل نوره: أي في قلب عبده المؤمن.

كمشكاة: أي كوة.

كوكب دري: أي مضيء اضاءة الدر الوهاج.

نور على نور: أي نور النار على نور الزيت.

يهدي الله لنوره: أي للإيمان به والعمل بطاعته من يشاء له ذلك لعلمه برغبته وصدق نيته.

ويضرب الله الأمثال: أي ويجعل الله الأمثال للناس من أجل أن يفهموا عنه ويعقلوا ما يدعوهم إليه.

في بيوت أذن الله أن ترفع: هي المساجد ورفعها إعلاء شأنها من بناء وطهارة وصيانة.

يوماً تتقلب 2 فيه القلوب والأبصار: يوم القيامة.

يرزق من يشاء بغير حساب: أي بلا عد ولا كيل ولا وزن وهذا شأن العطاء إن كان كثيراً.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {الله نور 3 السموات والأرض} يخبر تعالى أنه لولاه لما كان في الكون نور ولا هداية في

السموات ولا في الأرض فهو تعالى منورهما فكتابه نور ورسوله نور أي يهتدي بهما في ظلمات

الحياة كما يهتدي بالنور الحسي والله ذاته نور وحجابه نور فكل نور حسي أو معنوي الله خالقه وموهبه وهادٍ إليه.

وقوله تعالى: {مثل نوره كمشكاة} أي كوة في جدار {فيها مصباح المصباح في زجاجة} من بلور، {الزجاجة} في صفائها وصفالته مشرقة {كأنها كوكب دري} والكوكب الدري هو المضيء المشرق كأنه درة بيضاء صافية، وقوله: {يوقد من شجرة مباركة} أي وزيت

1 في الحديث الصحيح: "اللهم أنت نور السموات والأرض" وفي آخر صحيح وقد سئل صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال "نور أنى أراه" وفي آخر "رأيت نوراً".

2 تتقلب قلوب الكافرين من الجحد والتكذيب إلى التصديق واليقين وقلوب المؤمنين بين الخوف والرجاء، وأما تقلب الأبصار: فإنها بالنظر هنا وهناك لشدة الخوف وعظم الهول. هذه قلوب المؤمنين أما قلوب الكافرين فمن الكحل إلى الزرق والعمى بعد الإبصار.

3 قال ابن عباس: {الله نور السموات والأرض} يقول: هادي أهل السموات والأرض.

(3/572)

المصباح من شجرة مباركة وهي الزيتون والزيتونة لا شرقية ولا غربية في موقعها من البستان لا ترى الشمس إلا في الصباح، ولا غربية لا ترى الشمس إلا في المساء بل هي وسط البستان تصيبها الشمس في كامل النهار فلذا كان زيتها في غاية الجودة يكاد يشتعل لصفائه، ولو لم تمسه نار، وقوله تعالى: {نور على نور 1} أي نور النار على نور الزيت وقوله تعالى: {يهدي الله لنوره من يشاء} يخبر تعالى أنه يهدي لنوره الذي هو الإيمان والإسلام والإحسان من يشاء من عباده ممن علم أنهم يرغبون في الهداية ويطلبونها ويكملون ويسعدون عليها.

وقوله: {ويضرب 2 الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم} يخبر تعالى: أنه يضرب الأمثال للناس بهذا المثل الذي ضربه 3 للإيمان وقلب عبده المؤمن وأنه عليم بالعباد وأحوال القلوب، ومن هو أهل للهداية ومن ليس لها بأهل، إذ هو بكل شيء عليم.

وقوله: {في بيوت 4 أذن الله أن ترفع} أي المصباح في بيوت أذن الله أي أمر ووصى أن ترفع حساً ومعنى وهي المساجد فتطهر من النجاسات ومن اللغو فيها وكلام الدنيا 5 وتصان وتحفظ من كل ما يخل بمقامها الرفيع لأنها بيوت الله تعالى، وقوله: {ويذكر فيها اسمه} أي بالأذان والإقامة والصلاة والتسبيح والدعاء وقراءة القرآن. وقوله تعالى: {يسبح له فيها} أي لله في تلك البيوت {بالغدو} أي بالمصباح {والأصال 6} أي المساء {رجال} مؤمنون صادقون أبرار متقون {لا تلهيهم تجارة ولا بيع} أي لا شراء ولا بيع {عن ذكر الله} فقلوبهم ذاكرة غير غافلة وألسنتهم ذاكرة غير لاهية ولا لاغية {واقام

الصلاة وإتياء الزكاة} أي لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.
وقوله: {يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار} أي من شدة الخوف وعظم الفزع والهول وهو يوم
القيامة وقوله تعالى: {ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله}

- 1 أي: اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاج إلى ضوء الزيت فهو لذلك نور على نور، واختلطت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما تكون فكذلك براهين الله تعالى واضحة وهي: برهان بعد برهان. والجملة مستأنفة أي: هذا المذكور هو نور على نور.
- 2 قوله تعالى: {يهدي الله لنوره من يشاء} إلى قوله: {عليم} هي ثلاث جمل معترضة أو تذييل لما سبق من الكلام.
- 3 قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهده في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فان مسه النار أزداد ضوؤه كذلك قلب المؤمن، يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فإذا جاء العلم زاده هدىً على هدىً ونوراً على نور.
- 4 كون {في بيوت} متعلقاً بقول {مصباح} أولى وأوضح من تعلقه ببسبح له وإن قيل: كيف يعود إلى المصباح، وهو واحد والبيوت جمع؟ قيل: هذا كقوله: {وجعل فيهن نوراً} وهو في سماء واحدة لا في كل سماء وإنما هو تلوين للخطاب.
- 5 لقول الرسول صلى الله عليه وسلم للذي أنشد الضالة: "لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له" يريد الصلاة والذكر وقراءة القرآن وتعلم العلم.
- 6 الأصال: جمع أصيل وهو المساء.

(3/573)

أي إنهم فعلوا ما فعلوا من التسبيح وإقام الصلاة وإتياء الزكاة معرضين عن كل ما يشغلهم عن عبادة ربهم فتأهلوا بذلك للثواب العظيم ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله فوق ما استحقوه بأعمالهم وتقواهم لربهم، والله يرزق من يشاء بغير حساب وذلك لعظيم فضله وسابق رحمته فيعطي بدون عد ولا كيل ولا وزن وذلك لعظم العطاء وكثرتة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كل خير وكل نور وكل هداية مصدرها الله تعالى فهو الذي يطلب منه ذلك.
- 2- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان والفهوم.
- 3- الإشارة إلى أن ملة الإسلام لا يهودية ولا نصرانية، لا اشتراكية ولا رأسمالية. بل هي الملة

الحنيفية من دان بها هدى ومن كفرها ضل.

4- وجوب تعظيم بيوت الله تعالى "المساجد" بتطهيرها 1 ورفع بنيانها وإخلائها إلا من ذكر الله والصلاة وطلب العلم فيها.

5- ثناء الله تعالى على من لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ

1 أول من أثار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتميم الداري، إذ أتى بقناديل من الشام فعلقها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرجها فزأها الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا بقوله صلى الله عليه وسلم "تورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة".

(3/574)

عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

شرح الكلمات:

كسراب بقية: السراب شعاع أبيض يرى في نصف النهار وكأنه ماء، والقيعة جمع قاع وهو ما انبسط من الأرض.

الظمان : لعطشان.

بحر لجي: أي ذو لجاج واللجة معظم الماء وغزيره كما هي الحال في المحيطات.

يغشاه موج: يعلوه ويغطيه موج آخر.

يسبح له: ينزه ويقدم بألفاظ التسبيح والتقدیس كسبحان الله ونحوه والصلاة من التسبيح.

صافات: باسطات أجنحتها.

قد علم صلاته: أي كل من في السموات والأرض قد علم الله صلاته وتسبيحه كما أن كل مسبح ومصل قد علم صلاة وتسبيح نفسه.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب} 1 لما بين تعالى حال المؤمنين وأنه تعالى وفاهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون وزادهم من فضله ذكر هنا حال الكافرين وهو أن أعمالهم في خسرانها

وعدم الانتفاع بها كسراب وهو شعاع أبيض يرى في نصف النهار وكأنه ماء {بقية} أي بقاع من الأرض وهو الأرض المنبسطة. {يحسبه الظمان ماء} أي يظنه العطشان ماء وما هو بماء ولكنه سراب خادع {حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً} لأنه سراب لا غير. فيا للخيبة، خيبة ظمان يقتله العطش فرأى سراباً فجرى وراءه يظنه ماء فإذا به لم يجد الماء، ووجد الحق تبارك وتعالى فحاسبه على كل أعماله وهي في جملتها أعمال إجرام وشر وفساد فوفاه إياها فخرس خسراناً مبيناً، {والله سريع الحساب} فما هي إلا لحظات والكافر في سواء الجحيم. هذا مثلاً تضمنته الآية الأولى (39) ومثل آخر تضمنته الآية الثانية (40)

1 سمي السراب سراباً: لأنه يسرب كالماء في جريانه، والسراب يلتصق بالأرض، والآل كالسراب إلا أنه يكون كالماء ولكنه مرتفع بين السماء ولأرض قال الشاعر:
وكنت كمهريق الذي في سقائه
لرقرق آل فوق رابية صلد

(3/575)

وهو مثل مضروب لضلال الكافر وحيرته في حياته وما يعيش عليه من ظلمة الكفر وظلمة العمل السيء والاعتقاد الباطل وظلمة الجهل بربه وما يريد منه، وما أعده له قال تعالى: {أو كظلمات 1 في بحر 2 لجي} أي ذي لجج من الماء {يغشاه} أي يعلوه {موج من فوقه موج} أي من فوق الموج موج آخر {من فوقه سحب} والسحاب عادة مظلم فهي {ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها} لشدة الظلمة هذه حال الكافر في هذه الحياة الدنيا، وهي ناتجة عن إعراضه عن ذكر ربه وتوغله في الشر والفساد وقوله تعالى: {ومن 3 لم يجعل الله له نوراً فما له من نور} أعلم تعالى عباده أن النور له وبيده فمن لم يطلبه منه حرمه وعاش في الظلمات والعياذ بالله.

وقوله تعالى: {ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات} أي ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أن الله تعالى يسبح له من في السموات من الملائكة والأرض أي ومن 4 في الأرض بلسان القال والحال معاً والطير 5 صافات أي باسطات أجنحتها تسبح الله تعالى بمعنى تنزهه بألفاظ التنزيه كسبحان الله. فإن امتنع المشركون أهل الظلمات من الإيمان بالله وعبادته وتوحيده فيها فإن الله تعالى يسبح له الخلق كله علويه وسفليه فالكافر وإن لم يسبح بلسانه فحاله 6 تسبح فخلقه وتركيبه وأقواله وأعماله كلها تسبح الله خالقه فهي شاهدة على قدرة الله وعلمه وحكمته وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله تعالى: {كل} أي ممن في السموات والأرض والطير قد علم الله صلاته وتسبيحه كما أن كلاً منهم قد علم صلاته لله تعالى وتسبيحه له {والله عليم بما يفعلون} أي والله عليم بأفعال

عباده، ويجزيهم بها وهو على ذلك قدير إذ له ملك السموات والأرض وإليه المصير أي مصير كل شيء إليه تعالى فهو الذي يحكم فيه بحكمه العادل.

- 1 قال الجرجاني الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار، والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على الأعمال لأن الكفر أيضاً من أعمالهم.
- 2 قيل: المراد بالظلمات: أعمال الكفار، وبالبحر اللجي: قلب الكافر، وبالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الرين والختم والطبع على قلبه، ولذا قال أبي بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلمات كلامه ظلمة، وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى ظلمة النار.
- 3 قيل: هذه الآية نزلت في شيبة بن ربيعة أو في ربيعة نفسه إذ كلاهما ترهب وطلب الدين في الجاهلية ولما جاء الإسلام كفر به ولم يدخل فيه وماتا كافرين.
- 4 أي: من الجن والإنس.
- 5 قرىء {والطير} بالرفع عطفاً على من. وقرىء بالنصب على نحو: قمت وزيداً أي معه وهو أجود من الرفع ولو قلت قمت أنا وزيد لكان الرفع أجود.
- 6 تسبيح الحال هو ما يرى من علم الله تعالى وقدرته في آثار الصنعة في المخلوقات فالخالق المدبر وحده لا يكون إلا إلهاً واحداً لا شريك له.

(3/576)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني البعيدة إلى الأذهان.
 - 2- بيان خسران الكافرين في أعمالهم وحياتهم كلها.
 - 3- بيان حال الكافرين في هذه الدنيا وأنهم يعيشون في ظلمات الجهل والكفر والظلم.
 - 4- تقرير حقيقة وهي أن من لم يجعل الله له نوراً في قلبه لن يكن له نور في حياته كلها.
 - 5- بيان أن الكون كله يسبح الله كقوله تعالى: {يسبح له ما في السموات وما في الأرض} وقوله: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده}.
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ

مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

شرح الكلمات

يزجي سحاباً: أي يسوق برفق ويسر.
ثم يؤلف بينه: أي يجمع بين أجزائه وقطعه.
ثم يجعله ركاماً: أي متراكماً بعضه فوق بعض.
الودق: أي المطر.

(3/577)

يخرج من خلاله: أي من فرجه ومخارجه.
من جبال فيها من برد: أي من جبال من برد في السماء والبرد حجارة بيضاء كالثلج.
فيصيب به من يشاء: أي فيصيب بالبرد من يشاء.
سنا برقه: أي لمعانه
يذهب بالأبصار: أي النظرة إليه
لعبرة: أي دلالة على وجود الله تعالى وقدرته و علمه ووجوب توحيده.
كل دابة من ماء: أي حيوان من نطفة.
على بطنه: كالحيات والهوام.
على رجلين: كالإنسان والطير.
على أربع: أي كالأنعام والبهائم.
إلى صراط مستقيم: أي إلى الإسلام.
معنى الآيات:

مازال السياق في عرض مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية وهي الموجبة لله تعالى العبادة دون
سواه فقال تعالى: {ألم تر أن الله يزجي سحاباً} أي ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أن الله يزجي 1
سحاباً أي يسوقه برفق وسهولة {ثم يؤلف} أي يجمع بين أجزائه فيجعله ركاماً 2 أي متراكماً بعضه
على بعض {فترى الودق} 3 أي المطر {يخرج من خلاله} أي من فتوقه وشقوقه. والخلال جمع خلل
كجبال جمع جبل وهو الفتوق بين أجزاء السحاب وهو مظهر من مظاهر القدرة والعلم. وقوله:
{وينزل من السماء من جبال فيها من برد} أي ينزل برداً من جبال البرد المتراكمة في السماء
فيصيب بذلك البرد من يشاء فيهلك به زرعه أو ماشيته، ويصرفه عن يشاء من عباده فلا يصيبه

شيء من ذلك وهذا مظهر آخر من مظاهر

- 1 ذكر تعالى من حججه وبراهينه على ألوهيته شيئاً آخر وهو: سوق السحاب وتكوين المطر وإنزاله، وإزجاء السحاب، سوقه يقال: البقرة ازجت ولدها: إذا ساقته أمامها.
- 2 يقال: ركمه يركمه ركما، إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، والركام المتراكم.
- 3 الودق: إنه البرق، وكونه المطر: أولى ومنه قول الشاعر:
فلا مزنة ودقت ودقها
ولا أرض أبلق إبقالها

(3/578)

القدرة واللفظ الإلهي وقوله . {يكاد سنا برقه1} أي يقرب لمعان البرق الذي هو سناه يذهب بالأبصار التي تنظر إليه أي يخطفها بشدة لمعانه.

وقوله تعالما {يقلب الله الليل والنهار} بأن يظهر هذا ويخفي هذا فإذا ظهر النهار اختفى الليل، وإذا ظهر الليل اختفى النهار فيقلب أحدهما على الآخر فيخفيه ويستتره به وقوله: {إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار} أي إن في إنزال البرد ولمعان البرق وتقلب الليل والنهار لعظة عظيمة لأولى البصائر تهديهم إلى الإيمان بالله وجلاله وكماله فيعبودونه ويوحدونه محبين له معظمين راجعين خائفين إن هذه ثمرة الهداية هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (43) والثانية (44) أما الآية (45) فقد اشتملت على أعظم مظهر من مظاهر القدرة الإلهية فقال تعالى: {والله خالق كل دابة}2 أي من إنسان وحيوان {من ماء}3 أي نطفة من نطف الإنسان والحيوان، {فمنهم من يمشي على بطنه} كالحيات والثعابين والأسماك، {ومنهم من يمشي على رجلين} كالإنسان والطير، {ومنهم من يمشي على أربع} كالأنعام والبهائم، وقوله: {يخلق الله ما يشاء} إذ بعض الحيوانات لها أكثر من أربع وقوله: {إن الله على كل شيء قدير}4 أي على فعل وإيجاد ما يريد قدير لا يعجزه شيء فأين الله الخالق العليم الحكيم من تلك الأصنام والأوثان التي يؤلفها الجاهلون من أهل الشرك والكفر؟

وقوله تعالى: {لقد أنزلنا آيات مبينات} أي واضحات لأجل هداية العباد إلى طريق سعادتهم وكمالهم وهي هذه الآيات التي اشتملت عليها سورة النور وغيرها من آيات القرآن الكريم فمن آمن بها ونظر فيها وأخذ بما تدعو إليه من الهدى اهتدى، ومن أعرض عنها فضل وشقى فلا يلومن إلا نفسه، {والله يهدي من يشاء} هدايته ممن رغب في الهداية وطلبها وسلك لها مسالكها {إلى صراط مستقيم} ألا وهو الإسلام طريق الكمال والسعادة في الحياتين اللهم اجعلنا من أهله إنك قدير.

1 السنا مصدر: لمعان البرق والسنا، ممدود: الرّفة قال: ابن دريد:

زال السنا عن ناظري

وزال عن شرف السنا

فالسنا الأول: الرفة والثاني: ضوء البرق، وجملة: {يكاد سنا برقه} وصف ل: (سحاباً).

2 فخرج الملائكة والجن إذ الملائكة خلقوا من نور والجن من النار.

3 تتكبير ماء: لإرادة النوعية تنبيهها على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب.

4 هذه الجملة ذكرت تذييلاً وتعليلاً.

(3/579)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته وهي موجبات الإيمان والتقوى.

2- بيان كيفية نزول المطر والبرد.

3- مظاهر لطف الله بعباده في صرف البرد عن الزرع والماشية وبعض عباده.

4- مظاهر القدرة والعلم في تقليب الليل والنهار على بعضهما بعضاً.

5- بيان أصناف المخلوقات في مشيها على الأرض بعد خلقها من ماء وهو مظهر العلم والقدرة.

6- امتنان الله تعالى على العباد بإنزاله الآيات المبينات للهدى وطريق السعادة والكمال.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ

مُدْعِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ

(52)

1 قرأ حفص: {وَيَتَّقْهُ} بإسكان القاف على نية الجزم لأن من: شرطية جازمة، وكسرهما الباقيون: لأن جزم المعتل بحذف آخره وأسكن الهاء بعضً واختلفت كسرتها قالون عن نافع، وأشبع الكسرة الباقيون.

(3/580)

شرح الكلمات:

ويقولون : أي المنافقون.

آمنا بالله وبالرسول : أي صدقنا بتوحيد الله وبنبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتول فريق منهم : أي يعرض.

إذا فريق منهم معرضون: أي عن المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

مذنعين: أي مسرعين منقادين مطيعين.

في قلوبهم مرض: أي كفر ونفاق وشرك.

أم ارتابوا : أي بل شكوا في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أن يحيف الله عليهم ورسوله : أي في الحكم فيظلموا فيه.

إنما كان قول المؤمنين : هو قولهم سمعنا وأطعنا أي سمعاً و طاعة.

المفلحون : أي الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

بعد عرض تلك المظاهر لقدرة الله وعلمه وحكمته والموجبة للإيمان بالله ورسوله, وما عند الله من نعيم مقيم, وما لديه من عذاب مهين فاهتدى عليها من شاء الله هدايته وأعرض عنها من كتب الله شقاوته من المنافقين الذين أخبر تعالى عنهم بقوله: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا} أي صدقنا بالله رباً وإلهاً وبمحمد نبياً و رسولاً, وأطعناهما 1 {ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك} أي من بعد تصريحهم بالإيمان والطاعة يقولون معرضين بقلوبهم عن الإيمان بالله وآياته ورسوله, {وما أولئك بالمؤمنين} فأكذبهم الله في دعوة إيمانهم هذا ما دلت عليه الآية الأولى (47) وقوله تعالى: {وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم} أي في قضية من قضايا دنياهم, {إذا فريق منهم معرضون} أي فاجأك فريق منهم بالإعراض عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله: {وإن يكن لهم الحق} أي وإن يكن لهم في الخصومة التي بينهم وبين غيرهم {يأتوا إليه} أي إلى رسول الله {مذنعين} أي منقادين طائعين أي لعلمهم أن الرسول يقضي بينهم بالحق وسوف يأخذون حقهم وأفيأً وقوله تعالى: { أفي

- 1 قولهم , هذا قول باطل إنهم ما آمنوا ولا أطاعوا وإنما هو قول المنافقين والله شهد إنهم لكاذبون.
- 2 قيل: إن هذه الآية نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي كانت بينهما أرض فقال اليهودي: هيا نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وقال بشر المنافق لا إن محمداً يحيف علينا فلنحتكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي فنزلت.
- 3 لم يقل ليحكما لأن الذي يحكم بينهما هو الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما قدم اسم الله تعظيماً ولأن مادة الحكم من الله والرسول صلى الله عليه وسلم مبيّن ومنفذ لا غير.

قلوبهم {مرض} أي بل في قلوبهم مرض الكفر والنفاق. {أم ارتابوا} أي بل ارتابوا أي شكوا في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم {أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله} لا، لا، {بل أولئك هم الظالمون}، ولما كانوا ظالمين يخافون حكم الله ورسوله فيهم لأنه عادل فيأخذ منهم ما ليس لهم ويعطيه لمن هو لهم من خصومهم وقوله تعالى: {إنما كان قول المؤمنين {أي الصادقين في إيمانهم} إذا دعوا الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} أي لم يكن للمؤمنين الصادقين من قول يقولونه إذا دعوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكم بينهم إلا قولهم: سمعنا وأطعنا فيجيبون الدعوة ويسلمون بالحق قال تعالى في الثناء عليهم {وأولئك هم المفلحون} أي الناجحون في دنياهم وآخرتهم دون غيرهم من أهل النفاق. وقوله تعالى: في الآية الكريمة الأخيرة (52) {ومن يطع الله ورسوله} أي فيما يأمران به وينهيان عنه، {ويخش الله} أي يخافه في السر والعلن، {ويتق} أي يتق مخالفته فلا يقصر في واجب ولا يغشى محرماً، {فأولئك هم الفائزون} فقصر الفوز عليهم أي هم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة المنعمون في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اجعلنا منهم واحشرونا في زمرة منكم إنك ربنا وربهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة.
- 2- من دعي إلى الكتاب والسنة فأعرض فهو منافق معلوم النفاق.
- 3- اتخاذ قوانين وضعية للتحاكم إليها دون كتاب الله وسنة رسوله آية الكفر والنفاق.
- 4- فضل طاعة الله ورسوله وتقوى الله عز وجل وأن أهلها هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنان.

1 الاستفهام للتوبيخ والذم وهو أبلغ في التوبيخ وأشد في الذم من مجرد الإخبار كما في المدح أيضاً أبلغ وأشد فيه، وشاهده قول جرير في المدح:

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح

2حكي أنّ رجلاً من دهاقين الروم أسلم فقيل له هل لإسلامك سبب؟ قال: نعم إنني قد قرأت التوراة والزيور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما كتب في الكتب المتقدمة فعلمت أنه من عند الله فأسلمت. وقيل له ما هي؟ قال: قوله تعالى: {ومن يطع الله}

في الفرائض {ورسوله} في السنن {ويخشي الله} فيما مضى من عمره {ويثقه} فيما بقي من عمره {وأولئك هم الفائزون} والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة. فقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم".

(3/582)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)

شرح الكلمات:

وأقسموا بالله جهد أيمانهم : أي حلفوا بالله بالغين غاية الجهد في حلفهم.
لئن أمرتهم : أي بالخروج إلى الجهاد.
طاعة معروفة : أي طاعة معروفة للنبي فيما يأمركم وبينهاكم خير من إقسامكم بالله.
فإن تولوا : أي فإن تتولوا أي تعرضوا عن الطاعة.
عليه ما حمل : أي من إبلاغ الرسالة وبيانها بالقول والعمل.
وعليكم ما حملتم : أي من وجوب قبول الشرع والعمل به عقيدة وعبادة وحكما.
وإن تطيعوه تهتدوا : أي و إن تطيعوا الرسول في أمره ونهيه وإرشاده تهتدوا إلى خيركم.
ليستخلفنهم : أي يجعلهم خلفاء لغيرهم فيها بأن يُدِيلَ من أهلها فيسودون فيها ويحكمون.

(3/583)

وليمكنن لهم دينهم : أي بأن يظهر الإسلام على سائر الأديان ويحفظه من الزوال.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أحوال المنافقين فأخبر تعالى عنهم بقوله: {وأقسموا الله جهدا 1 أيمانهم} أي أقسموا للرسول مبالغين في ذلك حتى بلغوا غاية الجهد قائلين لئن أمرتنا بالخروج إلى الجهاد لنخرجن معكم. وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول لهم: {لا تقسموا2} أي ما هناك حاجة إلى الحلف وتأكيده، وإنما هي طاعة منكم معروفة لنا تغنيكم عن الأيمان وقوله تعالى: {إن الله خبير3 بما

تعملون} تأنيب لهم وتأديب حيث أخبرهم تعالى بأنه مطلع على أسرارهم وما يقولونه ويعملونه في الخفاء ضد الرسول والمؤمنين ثم أمر تعالى رسوله أن يقول لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في كل ما يأمران به وبينهين عنه، {فإن تولوا} أي تعرضوا عن الطاعة وترفضوها، فإنما على الرسول ما حمل من البلاغ والبيان، وعليكم ما حملتم من وجوب الانقياد والطاعة، ومن أخل بواجبه الذي أنيط به فسوف يلقي جزاءه وأثاماً عند ربه وقوله تعالى: {وإن تطيعوه تهتدوا} هذه الجملة عظيمة الشأن جليلة القدر للمؤمن أن يحلف بالله ولا يحنث على أن من أطاع رسول الله في أمره ونهيه لن يضل أبداً ولن يشقى فالهداية إلى كل خير كامنة في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: {وما على الرسول إلا البلاغ المبين} أي ليس على الرسول هداية القلوب، وإنما عليه البلاغ المبين لا غير فلا تلحق الرسول تبعة هن عصى فَضَلَّ وَهَلَك.

وقوله تعالى في الآية (55) {وعدى الله الذين آمنوا منكم} أي صدقوا الله والرسول {وعملوا الصالحات} فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وعدهم بأن يستخلفهم في الأرض أي يجعلهم خلفاء حاكمين في أهلها، سائدين سكانها استخلاقاً كاستخلاف الذين من قبلهم من بني إسرائيل حيث أجلي الكنعانيين والعمالقة من أرض القدس وورثها بني إسرائيل وقول: {وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} وهو الإسلام

- 1 {جهد أيمانهم} أي: طاقة ما قدروا أن يحلفوا. والجهد: بفتح الهاء: منتهى الطاقة وهو: منصوب إمّا على الحال من أقسموا. أر على المفعول المطلق أي: جهدوا أيمانهم جهداً.
- 2 هنا تم الكلام، ثم استئناف على تقدير: طاعة معروفة أولى من أيمانكم هذه المبالغين فيها.
- 3 جملة تذييلية تحمل التهديد لهم إذ هم كاذبون في أيمانهم وغير صادقين في أقوالهم وأعمالهم.
- 4 {فإن تولوا}: أصله: تتولوا حذف التاء الأولى تخفيفاً. وهو حذف شائع وسائغ.
- 5 قال مالك: هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل: هذه الآية تضمنت خلافة أبي بكر و عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وهو كذلك وصدق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "الخلافة بعدي ثلاثون سنة" وفي الآية دليل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة دينه، إذ تضمنت الآية إخباراً بالغيب فكان كما أخبر تعالى به.

(3/584)

فيظهره على الدين كله ويحفظه من التغيير والتبديل والزوال إلى قرب الساعة وقوله تعالى: {وليبذلنهم من 1 بعد خوفهم أمناً} إذ نزلت هذه الآية والمسلمون خائفون بالمدينة لا يقدر أحدهم أن ينام وسيفه بعيد عنه من شدة الخوف من الكافرين والمنافقين وتألّب الأحزاب عليهم ولقد أنجز تعالى لهم ما

وعدهم فاستخلفهم وأمكن لهم وبدلهم بعد خوفهم أماً فله الحمد والمنة.
وقوله: {يعبدونني} 2 لا يشركون بي شيئاً} هذا ثناء عليهم، وتعليل لما وهبهم وأعطاهم يعبدونه لا يشركون به شيئاً وقد فعلوا ومازال بقاياهم من الصالحين إلى اليوم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً اللهم اجعلنا منهم. وقوله تعالى: {ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} 3 وعيد وتهديد لمن كفر بعد ذلك الإنعام العظيم والعطاء الجزيل فأولئك هم الفاسقون عن أمر الله الخارجون عن طاعته المستوجبون لعذاب الله ونقمته. عياداً بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الإقسام بالله تعالى وحرمة الحلف بغيره تعالى.
- 2- عدم الثقة في المنافقين لخلوهم من موجب الصدق في القول والعمل وهو الإيمان.
- 3- طاعة رسول الله موجبة للهداية لما فيه من سعادة الدارين ومعصيته موجبة للضلال والخسران.
- 4- صدق وعد الله تعالى لأهل الإيمان وصالح الأعمال من أصحاب رسول الله.
- 5- وجوب الشكر على النعم بعبادة الله تعالى وحده بما شرع من أنواع العبادات.
- 6- الوعيد الشديد لمن أنعم الله عليه بنعمة أمن ورخاء وسيادة وكرامة فكفر تلك النعم ولم يشكرها فعرضها للزوال.

-
- 1 فان قيل: وأين الأمن وقد قتل عمر وعثمان وعلي غيلة؟ فالجواب: ليس الأمن مانعاً من الموت فالموت حتم مع الأمن ومع الخوف لأنها آجال محدودة لا تزيد ولا تنقص: ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد وأخرج مسلم قوله صلى الله عليه وسلم "والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون".
 - 2 الجملة يصح أن تكون حالاً أي: في حال عبادتهم الله تعالى بالإخلاص والعلم. وجائز أن تكون مستأنفة تحمل الثناء عليهم بعبادة ربهم تعالى وحده.
 - 3 المراد بالكفر: كفران النعم، وقد حصل هذا بعد القرون المفضلة حيث فسدت العقائد وتمزقت الروابط، وأهمل الدين، وسلب الله ما أعطى، وفي هذا دليل آخر على صحة القرون والنبوة والإسلام إذ هذه أخبار غيب تمت كما أعلنت.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

شرح الكلمات:

وأقيموا الصلاة: أي أدوها أداءً كاملاً تماماً مراعين فيها شروطها وأركانها وواجباتها وسننها حتى تثمر الزكاة والطهر في نفوسكم.

وآتوا الزكاة: أي المفروضة من المال الصامت كالذهب والفضة والحرف والناطق كالأنعام من إبل وبقر وغنم.

وأطيعوا الرسول: أي محمداً صلى الله عليه وسلم في أمره ونهيه والأخذ بإرشاده وتوجيهه.

لعلكم ترحمون: أي رجاء أن يرحمكم ربكم في دنياكم وآخرتكم فلا يعذبكم فيهما.

معجزين في الأرض: أي معجزين الله تعالى بحيث لا يدركهم ولا ينزل بهم نقمته وعذابه.

ولبئس المصير: أي النار إذ هي المأوى الذي يأوون إليه ويصيرون إليه.

معنى الآيتين:

يأمر تعالى عباده المؤمنين من أصحاب الرسول الكريم بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمره ونهيه وإرشاده وتوجيهه وذلك رجاء أن يرحموا في الدارين، ولا يعذبوا فيهما. وهذا وإن كان موجهاً ابتداءً إلى أصحاب الرسول فإنه عام بعد ذلك فيشمل كل مؤمن ومؤمنة في الحياة وقوله {لا تحسبن 1 الذين كفروا معجزين 2 في الأرض} هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ينهاه ربه تعالى أن يظن أن الذين كفروا مهما كانت قوتهم سيفوتون الله تعالى ويهربون مما أراد بهم من خزي وعذاب، لا، لا بل سيخزيهم ويذلهم ويسلط عليهم، وقد فعل {ومأواهم النار} يوم القيامة {ولبئس المصير} نار جهنم يصيرون إليها.

1 الآية تحمل تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وقرئت بالتاء: (تحسبن) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل ذي أهلية من أصحابه والمؤمنين والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وقرئت الآية: (ولا يحسبن) بالياء وهي قراءة ضعيفة إذ حسب هنا لمعنى ظن ولم يذكر لها إلا مفعولاً واحداً وهي تنصب مفعولين.

2 المعجز: الذي يعجز غيره أي: يجعله عاجزاً عن غلبه، والأرض في الآية هي أرض الدنيا هذه.

(3/586)

هداية الآيتين:

هن هداية الآيتين:

- 1- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم للحصول على رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة في الدنيا بالنصر والتمكين والأمن والسيادة وفي الآخرة بدخول الجنة.
- 2- تقرير عجز الكافرين وأنهم لن يفوتوا الله تعالى مهما كانت، قوتهم وسينزل بهم نعمته ويحل عليهم عذابه.
- 3- بيان مصير أهل الكفر وأنه النار والعياذ بالله تعالى.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

(3/587)

شرح الكلمات

- ليستأذنكم: أي ليطلب الإذن منكم في الدخول عليكم.
- ملكتم أيمانكم : من عبيد وإماء.
- لم يبلغوا الحلم منكم : أي سن التكليف وهو وقت الاحتلام خمسة عشر سنة فما فوق.
- تضعون ثيابكم: أي وقت القيلولة للاستراحة والنوم.
- ثلاث عورات لكم : العورة ما يستحي من كشفه، وهذه الأوقات الثلاثة ينكشف فيها الإنسان في فراشه فكانت بذلك ثلاث عورات.
- بعدهن: أي بعد الأوقات الثلاثة المذكورة.
- طوافون عليكم : أي للخدمة.
- بعضكم على بعض: أي بعضكم طائف على بعض.
- فليستأذنوا : أي في جميع الأوقات لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.
- والقواعد من النساء: أي اللاتي قعدن عن الحيض والولادة لكبر سنهن.
- أن يضعن ثيابهن: كالجلباب والعباءة والقناع والخمار.
- غير متبرجات بزينة : أي غير مظهرات زينة خفية كقلادة وسوار وخلخال.
- وأن يستعففن خير لهن: بأن لا يضعن ثيابهن خير لهن من الأخذ بالرخصة.
- معنى الآيات:

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}1 روى في نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب يدعوه له فوجده نائماً في وقت الظهيرة فدق الباب ودخل فاستيقظ عمر فانكشف منه شيء فقال عندها عمر وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا في هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت فخر ساجداً شكراً لله تعالى.

فقوله تعالى: {يا أيها الذي آمنوا} هو نداء لكل المؤمنين في كل عصورهم وديارهم. وقوله {ليستأذنكم الذي ملكت أيمانكم}2 والذين لم يبلغوا الحلم منكم} أي علموا أطفالكم وخدمكم الاستئذان عليكم في هذه الأوقات الثلاثة وأمروهم بذلك. وقوله: {ثلاث مرات} هي المبينة في قوله: {من قبل صلاة

1 قيل: إن الآية منسوخة وقيل: هي للندب أو هي واجبة إذ كانوا لا أبواب لغرفهم والصحيح أنها محكمة وأن الاستئذان من هؤلاء المذكورين واجب وسواء كان العبد وغداً أو ذا منظر حسن.

2 {ملكتم أيمانكم} هم العبيد والذكر والأنثى في هذا سواء.

(3/588)

{الفجر} وهي ساعات النوم من الليل، {وحيث تضعون ثيابكم من الظهيرة} وهي القيلولة، {ومن بعد صلاة العشاء}1 وهي بداية نوم الليل. وقوله: {ثلاث عورات لكم}2 أي هي منطقة انكشاف العورة فيها فأطلق عليها اسم العورة والعورة ما يستحي من كشفه وقوله: {ليس عليكم ولا عليهم} أي ولا على الأطفال والخدم {جناح بعدهن} أي بعد المرات الثلاث وقوله: {طوافون عليكم} أي يدخلون ويخرجون عليكم للخدمة.

{بعضكم على بعض} أي بعضكم يدخل على بعض للخدمة فلا غنى عنه فلذا حرج عليكم في غير الأوقات الثلاثة.

وقوله تعالى: {كذلك يبين الله لكم الآيات} أي كهذا التبيين الذي بين لكم حكم الاستئذان يبين الله لكم الآيات المتضمنة للشرائع والأحكام والآداب فله الحمد وله المنة وقوله: {والله عليم} أي بخلقه وما يحتاجون إليه في إكمالهم وإسعادهم {حكيم} فيما يشرع لهم ويفرض عليهم.

وقوله تعالى في الآية الثانية (59) {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم} أي إذا بلغ الطفل سن الاحتلام وهو البلوغ واحتلم فعليه أن لا يدخل على غير محارمه إلا بعد الاستئذان كما يفعل ذلك الرجال من قبله إذ قد أصبح بالبلوغ الذي علامته الاحتلام أو بلوغ خمس عشرة سنة فأكثر أصبح رجلاً تماماً فعليه أن لا يدخل بيت أحد إلا بعد أن يستأذن هذا معنى قوله تعالى: {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم} وهم الرجال وقوله تعالى: {كذلك يبين الله لكم آياته} أي

المتضمنة لأحكامه وشرائعه {وإن الله عليم} بخلقه وما يصلح لهم {حكيم} في شرعه وهذه حال توجب طاعته تعالى فيما يأمر به وينهى عنه وقوله تعالى: {والقواعد 3 من النساء اللاتي لا يرجون 4 نكاحاً 5} أي والتي قعدت عن الحيض والولادة لكبر سنهن بحيث لا ترجو نكاحاً ولا يرجى منها ذلك فهذه ليس عليهن إثم ولا حرج في أن تضع خمارها من فوق رأسها، أو عباءتها من فوق ثيابها التي على

- 1 يكره تسمية العشاء بالعمامة. روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ألا إنها العشاء وهم معتمون بالإبل وفي رواية فإنها في كتاب الله العشاء وإنها أي الأعراب تعتم بحلاب الإبل وفي الصحيح "من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل".
- 2 العورة: في الأصل الخلل والنقص ثم أطلقت على ما يكره انكشافه والنظر إليه.
- 3 المراد أن الأطفال إذا بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان فأصبحوا كالرجال في الاستئذان على دخول بيوت الغير كما تقدم في آية الاستئذان {يا أيها الذين آمنوا إذا دخلتم بيوتاً ..} الآية.
- 4 القواعد: جمع قاعد بدون تاء وهي: الآيسة من الحيض والحمل.
- 5 هذه الجملة متضمنة وصفاً كاشفاً للقواعد وليس قيداً.

(3/589)

جسمها حال كونها غير متبرجة 1 أي مظهره زينة لها كخضاب اليمين والأساور في المعصمين والخالخل في الرجلين، أو أحمر الشفتين، وما إلى ذلك مما هو زينة يجب ستره وقوله تعالى: {وأن يستعففن خير لهن} أي ومن لازمت خمارها وعجارها ولم تظهر للأجانب كاشفة وجهها ومحاسنها خير لها حالاً ومالاً، وحسبها أن يختار الله لها فما اختاره لها لن يكون إلا خيراً في الدنيا والآخرة فعلى المؤمنات أن يخترن ما اختار الله لهن. وقوله: {وإن الله سميع عليم} أي سميع لأقوال عباده عليم بأعمالهم وأحوالهم فليتق فيطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تعليم الآباء والسادة والأطفال والخدم الاستئذان عليهم في الأوقات الثلاثة المذكورة والمعبر عنها بالعورات.
- 2- وجوب استئذان الأولاد إذا احتلموا الاستئذان على من يريدون الدخول عليه في بيته لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.
- 3- بيان رخصة كشف الوجه لمن بلغت سنناً لا تحيض فيها ولا تلد للرجال الأجانب ولو أبقت على

سترها واحتجابها لكان خيراً لها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَنْ تَأْكُلُوا

1 ورد وعيد شديد للمتبرجات فقد روى مسلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا.. "

(3/590)

جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)
شرح الكلمات:

الحرص : الضيق والمراد به هنا الإثم أي لا إثم على المذكورين في مؤاكلة غيرهم.
أو ما ملكتم مفاتحه: أي مما هو تحت تصرفكم بالأصالة أو بالوكالة كوكالة على بستان أو ماشية.
أو صديقكم : أي من صدقكم الود وصدقتموه.
جميعاً أو أشتاتاً : أي مجتمعين من على الطعام أو متفرقين.
من عند الله: لأنه هو الذي شرعها وأمر بها، وما كان من عند الله فهو خير عظيم.
طيبة : أي تطيب بها نفس المسلم عليه.
معنى الآيات:

مازال السياق في هداية المؤمنين وبيان ما يكملهم ويسعدهم ففي هذه الآية الكريمة. رفع تعالى عنهم حرجاً عظيماً كانوا قد شعروا به فآلمهم وهو أنهم قد رأوا أن الأكل مع ذوي العاهات وهم العميان والعرجان والمرضي وأهل الزمانة قد يترتب عليه أن يأكلوا ما لا يحل لهم أكله لأن أصحاب هذه العاهات لا يأكلون كما يأكل الأصحاء كما وكيفاً والله يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ كما أن أصحاب العاهات قد تخرجوا أيضاً من مؤاكلة الأصحاء معهم خوفاً أن يكونوا ينقدرونهم فآلمهم ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية فرفع الحرج عن الجميع الأصحاء وأصحاب العاهات فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ

1 لم تذكر بيوت الأبناء لأن بيوتهم داخله في بيوت الآباء للحديث "أنت ومالك لأبيك" والحديث وإن ضعف فما هو إلا شاهد فقط وإلا فمعلوم بالضرورة أن الأولاد عادة وعرفاً يكونون في بيوت آبائهم ولذا لم يذكروا.

(3/591)

أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه {بوكالة وغيرها،} {أو صديقكم 1} وهو من صدقكم المودة وصدقتموه فيها مادام الرضا حاصلًا، وإن لم يحضروا ولا استئذنان 2 وإن حضروا. ورفع تعالى عنهم حرجاً آخر وهو أن منهم من كان يتحرج في الأكل وحده، ويرى أنه لا يأكل إلا مع غيره وقد يوجد من يتحرج أيضاً في الأكل الجماعي خشية أن يؤدي الأكل معه فرفع تعالى ذلك كله بقوله: {وليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً} أي مجتمعين 3 على قطعة واحدة 4 {أو أشتاتاً} أي متفرقين كل يأكل وحده متى بدا له ذلك وهذا كله ناجم عن تقواهم لله تعالى وخوفهم من معاصيه إذ قد حرم عليهم أكل أموالهم بينهم بالباطل في قوله: {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل}. وقوله تعالى: {فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم} فأرشدهم إلى ما يجلب محبتهم وصفاء نفوسهم ويدخل السرور عليهم وهو أن من دخل بيتاً من البيوت بيته كان أو بيت غيره عليه أن يسلم على أهل البيت قائلاً السلام عليكم، وإن كان البيت ما به أحد أو كان مسجداً قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقوله: {تحية من عند الله} إذ هو تعالى الذي أمر بها وأرشد إليها وقوله {مباركة} أي ذات بركة تعود على الجميع وكونها طيبة أن نفوس المسلم عليهم تطيب بها. وقوله تعالى: {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون} أي كذلك البيان الذي بين لكم من الأحكام والآداب يبين الله لكم الآيات الحاملة للشرائع والأحكام رجاء أن تفهموا عن الله تعالى شرائعه وأحكامه فتعملوا بها فتكملوا و تسعدوا عليها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الإذن العام في الأكل مع ذوي العاهات بلا تحرج من الفريقين.

1 روي عن ابن عباس أنه قال: الصديق أوكد من القرابة أي: أقوى صلة وقال: ألا ترى استعانة الجهنميين: {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم}.

2 قال ابن العربي رحمه الله تعالى قولاً حسناً في هذا الحكم قال: أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مذبولاً، فإذا كان محرراً دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار، ولا إلى ما ليس بمأكل إن كان غير محرر عنهم إلا بإذنهم.

3 لا ينبغي أن يفهم من كلمة مجتمعين أنهم رجال أجنب مع نساء أجنبيات بل هم محارم لبعضهم بعضاً.

4 هذا يشمل النهد ووليمة العرس وغيرها والنهد هو أن يكون القوم في سفر فيجمعون الطعام من بعضهم بعضاً ويخلطونه ويأكلونه مجتمعين فهو جائز مباح.

5 ورد كيفية الدخول إلى المنزل وهو أن يقول: "اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم يسلم على أهله " (في صحيح مسلم).

(3/592)

2- الإذن في الأكل من بيوت من ذكر في الآية من الأقارب والأصدقاء.

3- جواز الأكل الجماعي والانفرادي بلا تحرج.

4- مشروعية التحية عند الدخول على البيوت وأن فيها خيراً وفضلاً.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْأَدَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

شرح الكلمات

أمر جامع: كخطبة الجمعة ونحوها مما يجب حضوره كاجتماع لأمر هام كحرب ونحوها.

يستأذنه: أي يطلبوا منه صلى الله عليه وسلم الإذن.

لبعض شأنهم: أي لبعض أمورهم الخاصة بهم.

دعاء الرسول: أي نداءه فلا ينادي بيا محمد ولكن بيا نبي الله ورسول الله.

كدعاء بعضكم بعضاً: أي كما ينادي بعضكم بعضاً بيا عمر ويا سعيد مثلاً.

يستللون منكم لوأداً: أي ينسلون واحداً بعد واحد يستتر بعضهم بعضاً حتى يخرجوا خفية.

(3/593)

أن تصيبهم فتنة : أي زيغ في قلوبهم فيكفروا.
قد يعلم ما أنتم عليه: أي من الإيمان والنفاق، وإرادة الخير أو إرادة الشر. وقد هنا للتأكيد عوملت
معاملة رب إذ هي للتقليل وتكون للتكثير أحياناً.
معنى الآيات:

يخبر تعالى أن المؤمنين الكاملين في إيمانهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم
وإذا كانوا معه صلى الله عليه وسلم في أمر جامع يتطلب حضورهم كالجمعة واجتماعات الحروب،
لم يذهبوا حتى يستأذنه صلى الله عليه وسلم ويأذن لهم هذا معنى قوله تعالى: {إنما المؤمنون
الذين آمنوا بالله ورسوله إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه}.
وقوله تعالى: {إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنونك لبعض شأنهم
بأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم} في هذا تعليم للرسول والمؤمنين وتعرض
بالمنافقين. فقد أخبر تعالى أن الذين يستأذنون النبي هم المؤمنون بالله ورسوله، ومقابلة أن الذين لا
يستأذنون ويخرجون بدون إذن هم لا يؤمنون بالله ورسوله وهم المنافقون حقاً، وأمر رسول الله إذا
استأذنه المؤمنون لبعض شأنهم أن يأذن لمن شاء منهم ممن لا أهمية لحضوره كما أمره أن يستغفر
الله لهم لما قد يكون غير عذر شرعي يبيح لهم الاستئذان وطمعهم في المغفرة بقوله إن الله غفور
رحيم.

وقوله تعالى: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً} هذا يحتمل أموراً كلها حق
الأول أن يحاذر المؤمنون إغضاب رسول الله بمخالفته فإنه إن دعا عليهم هلكوا لأن دعاء الرسول
لا يرد فليس هو كدعاء غيره، والثاني أن لا يدعوا الرسول باسمه يا محمد يا أحمد بل عليهم أن
يقولوا يا نبي الله ويا رسول الله، والثالث أن لا يغلطوا في العبارة بل عليهم أن يلبسوا اللفظ ويرفقوا
العبارة إكباراً وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ما تضمنه قوله تعالى: {لا تجعلوا دعاء
الرسول الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً}

وقوله: {قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا} أعلمهم تعالى أنه يعلم قطعاً أولئك المنافقين الذين
يكونون في أمر جامع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتسللون واحداً بعد آخر بدون أن يستأذنوا
متلاوذين في هروبهم من المجلس يستتر بعضهم بعضاً، وفي هذا تهديد بالغ

1 إنما: أداة حصر، وهي هنا كذلك، فالمعنى أنه لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا إذا
كان من الرسول في سامعا غير معنت، فلا يناقض للرسول في قول ولا عمل أبداً.

2 يريد: لا يصيحوا به من بعيد يا أبا القاسم، بل يعظّموه، شاهده من سورة الحجرات: {إن الدين
ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون}.

الخطورة لأولئك المنافقين. وقوله: {فليحذر 1 الذين يخالفون عن أمر 2} أي أمر رسول الله وهذا عام للمؤمنين والمنافقين وإلى يوم القيامة فليحذروا أن تصيبهم فتنة وهي زيغ في قلوبهم فيموتوا كافرين، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والعذاب ألوان وصنوف.

وقوله تعالى: {ألا إن الله ما في السموات والأرض} أي خلقاً وملكماً وعبيداً يتصرف كيف يشاء ويحكم ما يريد ألا فليتق الله عز وجل في رسوله فلا يخالف أمره ولا يعصي في نهيه فإن الله لم يرسل رسولاً إلا ليطاع بإذنه.

وقوله تعالى: {قد يعلم ما انتم عليه} إخبار يحمل التهديد والوعيد أيضاً فما عليه الناس من أقوال ظاهرة وباطنة معلومة لله تعالى، ويوم يرجعون إلى الله بعد موتهم فينبئهم بما عملوا من خير وشر ويجزيهم به الجزاء الأوفى، {والله بكل شيء عليم} فليحذر أن يخالف رسوله أو يعصي ولينق في أمره ونهيه فإن نقمته صعبة وعذابه شديد.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الاستئذان من إمام المسلمين إذا كان الأمر جامعاً. ولإمام أن يأذن لمن شاء ويترك من يشاء حسب المصلحة العامة.
- 2- وجوب تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرمة إساءة الأدب معه حياً وميتاً.
- 3- وجوب طاعة رسول الله وحرمة مخالفة أمره ونهيه.
- 4- المتجرىء على الاستهانة بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم يُخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله.

1 دلت الآية على أن الأمر للوجوب، وتوجيهه أن الله تعالى قد حذر من مخالفة أمره وتوعد بالعقاب عليها بقوله: {أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}.

2 قيل: إن {عن} في قوله: {يخالفون عن أمره} زائدة، والتقدير: يخالفون أمره وقيل: ليست زائدة إذ المعنى: يخالفون بعد أمره فعن بمعنى: عند وهذا كقوله تعالى: {فسق عن أمر ربّه} أي: بعد أمر ربّه إياه بأن يسجد لأدم.

سورة الفرقان

...

سورة الفرقان

مكية

وآياتها سبع 1 وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ
يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا
يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

شرح الكلمات

تبارك: أي تكاثرت بركته وعمت الخلائق كلها.

الذي نزل الفرقان: أي الله الذي نزل القرآن فارقاً بين الحق والباطل.

على عبده: أي محمد صلى الله عليه وسلم.

ليكون للعالمين نذيراً: أي ليكون محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين من الإنس والجن أي
مخوفاً لهم من عقاب الله وعذابه إن كفروا به ولم يعبدوه ويوحده.

فقدرة تقديراً: أي سواه تسوية قائمة على أساس لا اعوجاج فيه ولا زيادة ولا نقص عما تقتضيه
الحكمة والمصلحة.

ضراً ولا نفعاً: أي لا دفع ضرر ولا جلب نفع.

موتاً ولا حياة ولا نشوراً: أي لا يقدر على إماتة أحد ولا إحيائه ولا بعثاً للأموات.

1 من الجائز أن يكون فيها بعض الآيات مدنياً إلا أن أسلوبها ومحتواها ظاهر في أنه مكّي وهو
الصحيح، وسميت بالفرقان لذكر لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات.

(3/596)

معنى الآيات:

يثني الرب تبارك 1 وتعالى على نفسه بأنه عَظُمَ خيره وعمت بركته المخلوقات كلها الذي نزل الفرقان
الكتاب العظيم الذي فرق به بين الحق والباطل والتوحيد والشرك والعدل والظلم أنزله على عبده
ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون 2 للعالمين الإنس والجن نذيراً ينذرهم عواقب الكفر والشرك
والظلم والشر والفساد وهي عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة وقوله: {الذي له ملك السموات

والأرض} خلقاً وملكاً وعبيداً وهو ثناء بعد ثناء وقوله: {ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء 3 فقدره تقديراً} وهو ثناء آخر عظيم أتى تبارك وتعالى فيه على نفسه بالملك والقدرة والخلق والعلم والحكمة وقوله: {واتخذوا من 4 دونه آلهة} أصناماً {لا يخلقون شيئاً وهو يخلقون ولا يملكون لأنفسهم} فضلاً عن غيرهم من عابديهم {ضراً ولا نفعاً} أي دفع ضرراً ولا جلب نفع، ولا يملكون موتاً لأحد ولا حياة لآخر ولا نشوراً 5 للناس يوم القيامة. أليس هذا موضع تعجب واستغراب أمع الله الذي عمت بركته الأكوان وأنزل الفرقان ملك ما في السموات والأرض تنزه عن الولد والشريك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وخلق كل شيء فقدره تقديراً يتخذون من دونه آلهة أصناماً لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا نجلب لها نفعاً ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً فسبحان الله أين يذهب بعقول الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته وهو إفاضة الخير على الخلق والملك والقدرة والعلم والحكمة.
- 2- التنديد بالشرك والمشركين.

-
- 1 للفظ تبارك دلالات كلها حق، منها: تقدس، وتعالى، ودام وثبت إنعامه. قال الثعلبي: لا يقال: متبارك ولا مبارك لأنه يوقف في أسمائه تعالى وصفاته على ما ورد عنه في كتابه وعلى لسان رسوله قال الطرمّاح:
تباركت لا معطٍ لشيء منعته
وليس لما أعطيت يا ربّ مانع 2 {ليكون} أي: من نزل عليه القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين نذيراً في الآية دليل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ولم يكن هذا لغيره إلا نوحاً بعد الطوفان، فقد عمّت رسالته الإنس.
 - 3 فيه ردّ على المجوس والثوية القائلين: هناك خالقان خالق للظلمة وخالق للنور أو خالق للخير وخالق للشر، وهو رأي عفن وجهل مظلم.
 - 4 في هذه الجملة تعجب من اتخاذ المشركين آلهة دونه تعالى وهي جمادات لا حياة فيها ولا تملك نفعاً ولا ضرراً.
 - 5 النشور: الإحياء بعد الموت قال الأعشى:
حتى يقول الناس مما رأوا
يا عجباً للميت الناشر

3 - تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ
تَتَّبَعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9)
شرح الكلمات :

إفك افتراه : أي ما القرآن إلا كذباً افتراه محمد وليس هو بكلام الله تعالى هكذا قالوا.
ظلمًا وزورًا : أي فرد الله عليهم قولهم بقوله فقد جاءوا ظلمًا حيث جعلوا الكلام المعجز الهادي إلى
الإسعاد والكمال البشري إفكا مختلقاً وزوراً بنسبة ما هو بريء منه إليه.
اكتتبها : أي طلب كتابتها له فكتبت له.

(3/598)

يعلم السر : أي ما يسره أهل السماء والأرض وها يخفونه في نفوسهم.
أو يلقي إليه كنز : أي من السماء فينفق منه ولا يحتاج معه إلى الضرب في الأسواق.
جنة يأكل منها : بستان فيه ما يغنيه من أنواع الحبوب والثمار.
رجلاً مسحوراً : مخدوعاً مغلوباً على عقله.
ضربوا لك الأمثال : أي بالسحر والجنون والشعر والكهانة والكذب وما إلى ذلك.
فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً: فضلوا الطريق الحق وهو أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلا
يهتدون.
معنى الآيات:

يخبر تعالى عن أولئك المشركين الحمقى الذين اتخذوا من دون الله رب العالمين آلهة أصناماً لا
تضر ولا تنفع أنهم زيادة على سفههم في اتخاذ الأحجار آلهة يعبدونها قالوا في القرآن الكريم
والفرقان العظيم ما هو إلا إفكٌ أي كذب اختلقه محمد وأعانه عليه قوم آخرون يعنون اليهود
ساعده على الإتيان بالقرآن. فقد جاءوا بهذا القول الكذب الممقوت ظلماً وزوراً ظلماً لأنهم جعلوا
القرآن المعجز الحامل للهدى والنور جعلوه كذباً وجعلوا البريء من الكذب والذي لم يكذب قط كاذباً
فكان قولهم فيه زوراً وباطلاً. وقوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير 2 الأولين اكتتبها فهي تملأ عليه بكرة

وأصيلاً} هذه الآية نزلت رداً على شيطان قريش النضر بن الحارث إذ كان يأتي الحيرة ويتعلم أخبار ملوك فارس وروستم. وإذا حدث محمد صلى الله عليه وسلم قومه محذراً إياهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم فإذا قام صلى الله عليه وسلم من المجلس جاء هو فجلس وقال تعالوا أقص عليكم إني أحسن حديثاً من محمد، ويقول إن ما يقوله محمد هو من أكاذيب القصاص وأساطيرهم التي سطورها في كتبهم فهو يحدث بها وهي تملأ عليه أي يملئها عليه غيره صباحاً ومساءً فرد تعالى هذه الفرية بقوله لرسوله: {قل 3 أنزله} أي القرآن

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: {قوم آخرون} هم: أبو فكيهة مولى بن الحضرمي وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب.

2 هذه الجملة ردّ على من زعم من المشركين أنّ محمداً يتلقى القرآن من أهل الكتاب وذكر السرّ دون الجهر لأنّ من علم السر فهو بالجهر أعلم وأمرّ آخر: لو كان القرآن مأخوذاً عن أهل الكتاب لما كان فيه زيادة عمّا عندهم في حين أنّ فيه من العلوم والمعارف ما لا يخطر حتى على البال ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بسورة من مثله.

3 الأساطير: جمع أسطورة كأحاديث جمع أحداث. وقال بعضهم إنها جمع أسفار كأقوال وأقوال: {تملى} أصلها: تملأ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف.

(3/599)

{الذي يعلم السر في السموات والأرض} أي سر ما يسره أهل السموات وأهل الأرض فهو علام الغيب المطلع على الضمائر العالم بالسرائر، ولولا أن رحمته سبقت غضبه لأهلك من كفر به وأشرك به سواه {إنه كان غفوراً رحيماً} يستر زلات من تاب إليه ويرحمه مهما كانت ذنوبه. وقوله تعالى: {وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً} هذه كلمات رؤوساء قريش وزعمائها لما عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته إلى ربه مقابل ما يشاء من ملك أو مال أو نساء أو جاه فرفض كل ذلك فقالوا له إذا فخذ لنفسك لماذا وأنت رسول الله تأكل الطعام وتمشي في الأسواق³ تطلب العيش مثلنا فسل ربك ينزل إليك ملكاً فيكون معك نذيراً أو يلقى إليك بكنز من ذهب وفضة تعيش بها أغنى الناس، أو يجعل لك جنة من نخيل وعنب، أو يجعل لك قصوراً من ذهب تتميز بها عن الناس وتمتاز فيعرف قدرك وتسود قومك وقوله تعالما: {وقال الظالمون⁴} أي للمؤمنين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً أي أنكم بإتباعكم محمداً فيما جاء به ويدعو إليه ما تتبعون إلا رجلاً

مسحورٌ، أي مخدوعاً مغلوباً على عقله لا يدري ما يقول ولا ما يفعل أي فاتركوه ولا تفارقوا ما عليه
آبائكم وقومكم. وقوله تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً} أي
انظر يا رسولنا إلى هؤلاء المشركين المفتونين كيف شبهوا لك الأشباه وضربوا لك الأمثال الباطلة
فقالوا فيك مرة هو ساحر، وشاعر وكاهن ومجنون فضاعوا في هذه التخرصات وضلوا طريق الحق
فلا يرجى لهم هداية بعد، وذلك لبعدهم ضلالهم فلا يقدرّون على الرجوع إلى الحق وهو معنى قوله:
{فلا يستطيعون سبيلاً}.

1 الاستفهام للتعجب، وجملة: {يأكل الطعام} جملة حالية، وقولهم: {هذا الرسول} من باب المجازة
والآ فمهم مكذبون برسالته.

2 لولا: حرف تحضيض استعملت هنا في التعجيز أي: لولا أنزل عليه ملك لاتبعناه وإنهم كاذبون.
3 {الأسواق} جمع سوق، وسميت السوق سوقاً لقيام الناس فيها على ساق للبيع والشراء وورد ذكرها
في الكتاب والسنة والعمل فيها مباح وكان الرسول يأتيها يدعو أهلها إلى الإسلام وورد أنها شرّ
البقاع والمساجد خيرها وهي مقابلة، وورد أنه من قال فيها رافعاً بها صوته: " لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير واليه المصير وهو على
كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة."

4 هذا القائل هو: عبدالله بن الزبيري أيام جاهليته إذ أسلم فيما بعد وحسن إسلامه.

5 هذه الجملة تعجبية وهي إخبار منه تعالى عن حال المشركين إذ ضلوا في تلفيق المطاعن
والبحت عن التهم لدفع الحق وإبطاله فعجزوا وتاهوا في طرق طلبهم ما يبطلون به دعوة الله تعالى.

(3/600)

هداية الآيات:

من هداية الآيات

1- بيان ما قابل به المشركون دعوة التوحيد من جلب كل قول وباطل ليصدوا عن سبيل الله ومازال
هذا دأب المشركين إزاء دعوة التوحيد إلى اليوم وإلى يوم القيامة.

2- تقرير الوحي الإلهي والنبوة المحمدية.

3- بيان حيرة المشركين إزاء دعوة الحق وضربهم الأمثال الواهية الرخيصة للصدّ عن سبيل الله،
وقد باعت كل محاولاتهم بالفشل والخيبة المرة.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ فُصُورًا (10)
بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا

وَرَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا
وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَدْلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15)
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا (16)

شرح الكلمات:

تبارك : أي تقدس وكثر خيره وعمت بركته.

خيراً من ذلك : أي الذي اقترحه المشركون عليك.

ويجعل لك قصوراً : أي كثيرة لا قصراً وحداً كما قال المشركون.

بل كذبوا بالساعة : أي لم يكن المانع لهم من الإيمان كونك تأكل الطعام وتمشي في

(3/601)

الأسواق بل تكذبيهم بالبعث والجزاء هو السبب في ذلك.

تغيظاً وزفيراً : أي صوتاً مزعجاً من. نغيظها على أصحابها المشركين بالله الكافرين به.

مقرنين: أي مقرونة أيديهم مع أعناقهم في الأصفاد.

دعوا هنالك ثبوراً : أي نادوا يا ثبورنا أي يا هلاكنا إذ الثبور الهلاك.

كانت لهم جزاءً و مصيراً : أي ثواباً على إيمانهم وتقواهم، ومصيراً صاروا إليها لا يفارقونها.

وعداً مسؤلاً : أي مطالباً به إذ المؤمنون يطالبون به قائلين ربنا وآتتا ما وعدتنا والملائكة تقول ربنا

وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الرد على مقترحات المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قالوا

لولا أنزل إليه ملك، أو يلقي إليه كنزٌ وتكون له جنة يأكل منها فقال تعالى: لرسوله صلى الله عليه

وسلم {تبارك 1 الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك} أي الذي اقترحوه وقالوا خذ لنفسك من ربك بعد

أن رفضت طلبهم بترك دعوتك والتخلي عن رسالتك {جنات تجري من تحتها الأنهار} أي من خلال

أشجارها وقصورها 2 {ويجعل لك قصوراً} لا قصراً 3 واحداً كما قالوا، ولكنه لم يشأ ذلك لك من هذه

الدار لأنها دار عمل ليست دار جزاء وراحة ونعيم فربك قادر على أن يجعل لك ذلك ولكنه لم يشأه

والخير فيما يشاءه فاصبر فإن المشركين لم يكن المانع لهم من الإيمان هو كونك بشراً تأكل الطعام

وتمشي في الأسواق، أو أن الله تعالى لم ينزل إليك ملكاً بل المانع هو تكذيبهم بالساعة فعلة كفرهم

وعنادهم هي عدم إيمانهم بالبعث والجزاء فلو آمنوا بالحياة الثانية لطلبوا كل سبب ينجي في عذابها

ويحصل نعيمها {بل كذبوا 4 بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة 5} أي القيامة {سعيراً} أي ناراً

مستعرة أو هي دركة من دركات النار تسمى سعيراً.

- 1 أي: إن شاء جعل لك خيراً من ذلك الذي اقترحه المشركون عليك وأن معنى لو الشرطية وجواب الشرط محذوف. أي: لجعل ولكن لم يشأ ذلك لأنه غير لائق بمقامك في هذه الدار وهو لك في الآخرة.
- 2 قرىء {ويجعل} بالرفع على الاستئناف، وقراءة الأكثر بالجزم على محل الشرط: إن شاء جعل لك.
- 3 القصر في اللغة: كل بناء رفيع عالٍ حصين. وأما البيت فقد يكون من لبن وطين وقد يكون من شعر.
- 4 بل: هنا للإضراب والانتقال. إضراب على جواب اقتراحهم، وانتقال إلى ذكر علة كفرهم وعنادهم واقتراحهم ما اقترحوه، وهو تكذيبهم بالبعث الآخر، إذ هو سبب عنادهم وكفرهم وفسادهم.
- 5 الساعة: اسم غلب على عالم الخلود. تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث.

(3/602)

وقوله تعالى: {إذا رأتهم 1 من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً} هذا وصف للسعير وهو أنها إذا رأت أهلها من ذوي الشرك والظلم والفساد من مكان بعيد تغيظت عليهم تغيظاً وزفرت زفيراً مزعجاً فيسمعونه فترتعد له فرائصهم. {وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين} مشدودة أيديهم إلى أعناقهم بالأصفاذ {دعوا هنالك} أي نادوا بأعلى أصواتهم يا ثوراه أي يا هلاكاه أحضر فهذا وقت حضورك: فيقال لهم: خزيًا وتبكيًا وتحسيراً: {لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً وادعوا ثوراً كثيراً}، فهذا أوآن هلاككم و خزيكم وعذابكم وهنا يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {قل} لأولئك المشركين المكذبين بالبعث والجزاء: {أذلك} أي المذكور من السعير والإلقاء فيها مقرونة الأيدي بالأعناق وهم يصرخون يدعون بالهلاك {خير أم 2 جنة الخلد التي وعد المتقون} أي التي وعد الله تعالى بها عباده الذين اتقوا عذابه بالإيمان به و برسوله وبطاعة الله ورسوله قطعاً جنة الخلد خير ولا مناسبة بينها وبين السعير، وإنما هو

التنكير لا غير وقوله: {كانت لهم} أي جنة الخلد كانت لأهل الإيمان والتقوى {جزاء} أي ثواباً، {ومصيراً} يصيرون إليه لا يفارقونه وقوله تعالى: {لهم فيها ما يشاءون} أي فيها من أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمسكن وقوله: {خالدين}. أي فيها لا يموتون ولا يخرجون، وقوله: {كان على ربك وعداً مسئلاً} أي تفضل ربك أيها الرسول بها فوعد بها عباده المتقين وعداً يسألونه إياه فينجزه لهم فهم يقولون: {ربنا وآتانا ما وعدتنا على

رسلك}، {والملائكة تقول ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم}.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان أن مرد كفر الكافرين وظلم الظالمين وفساد المفسدين إلى تكذيبهم بالبعث والجزاء

1 إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التعيظ عليهم فقد ورد مرفوعاً أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً. قيل يا رسول الله ولها عينان؟ قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: {إذا رأتهم من كان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً} يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: وكنت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر". الحديث صححه ابن العربي في القبس.

2 إن قيل: كيف قال: {أذلك خير} ولا خير في النار؟ قيل: هذا من باب قول العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة؟ وقد علم أنّ السعادة أحب إليه. قال حسان:
أتهجوه ولست له بكفىء
فشركما لخيركما الفداء
وقطعاً الرسول صلى الله عليه وسلم لا شرّ فيه البتة.

(3/603)

في الدار الآخرة فإن من آمن بالبعث الآخر سارع إلى الطاعة والاستقامة.

2- تقرير عقيدة البعث الآخر بوصف بعض ما يتم فيه من الجزاء بالنار والجنة.

3- فضل التقوى وأنها ملاك الأمر فمن آمن واتقى فقد استوجب الدرجات العلى جعلنا الله تعالى من أهل التقوى والدرجات العلى.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17)
قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مَنكُم نُنزِفْهُ
عَذَابًا كَبِيرًا (19) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)

شرح الكلمات:

يحشرهم: أي يجمعهم

وما يعبدون من دون الله: من الملائكة والأنبياء والأولياء والجن.

أم هم ضلوا السبيل : أي طريق الحق بأنفسهم بدون دعوتكم إياهم إلى ذلك.
سبحانك: أي تنزيهاً لك عما لا يليق بجلالك وكمالك.
ولكن متعتهم: أي بأن أطلت أعمارهم ووسعت عليهم أرزاقهم.
وكانوا قوماً بوراً: أي هلكى، إذ البوار الهلاك.
ومن يظلم منكم: أي ومن يشرك منكم أيها الناس.

(3/604)

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة : أي بليّة فالغني مبتلى بالفقير، والصحي بالمريض، والشريف بالوضيع
فالفقير يقول ما لي لا أكون كالغني والمريض يقول مالي لا أكون كالصحيح، والوضيع يقول ما لي
لا أكون كالشريف مثلاً.
أنصبرون : أي اصبروا على ما تسمعون ممن ابتليتم بهم، إذ الاستفهام للأمر هنا.
وكان ربك بصيراً: أي بمن يصبر وبمن يجزع ولا يصبر.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر لها في القيامة إذ إنكار هذه العقيدة
هو سبب كل شر وفساد في الأرض فقوله تعالى: {ويوم يحشرهم 1 وما يعبدون من دون الله} أي
اذكر يا رسولنا يوم يحشر الله المشركين وما كانوا يعبدونهم من دوننا كالملائكة والمسيح والأولياء
والجن. {فيقول} لمن كانوا يعبدونهم {أنتم 2 أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟} أي ما
أضللتموهم ولكنهم ضلوا طريق الحق بأنفسهم فلم يهتدوا إلى عبادتي وحدي دون سواي. فيقول
المعبودون {سبحانك} أي تنزيهاً لك وتقديساً عن كل ما لا يليق بجلالك وكمالك {ما كان ينبغي لنا
أن نتخذ من دونك من أولياء 3} أي لا يصح منا اتخاذ أولياء من دونك فندعو عبادك إلى عبادتهم
ففضلهم بذلك، {ولكن متعتهم} يا ربنا {وأبأهم} من قبلهم بطول الأعمار وسعة الأرزاق فانغمسوا في
الشهوات والملذذ {حتى نسوا الذكر 4} أي نسوا ذكرك وعبادتك وما جاءتهم به رسلك فكانوا بذلك قوماً
بوراً أي هلكى خاسرين.

وقوله تعالى: {فقد 5 كذبكم بما تقولون 6} يقول تعالى للمشركين فقد كذبكم من كنتم

1 قرأ الجمهور: {نحشرهم} بالنون للعظمة، و {يقول} بالياء وهو التقات من التكلم إلى الغيبة حسن.
وقرأ حفص وغيره بالياء في {يحشرهم} و {يقول} معاً وقرأ بعض النون فيهما معاً.

2 الاستفهام تقريرى للاستنطاق والاستشهاد.

3 الأولياء جمع ولي بمعنى التابع فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء أي: على

السيد والعبد، والناصر والمنصور والمراد هنا من الولي: التابع.
4 قيل: الذكر: القرآن، وقيل: الشكر على الإحسان، وما في التفسير أشمل.
5 الفاء الفصيحة إذ أفصحت على جواب شرط محذوف تقديره:
إن قلتُم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم بما تقولون، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في
قول عباس بن الأحنف.
قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم الققول فقد جئنا خراسانا
6 قرأ الجمهور بالباء وقرأ حفص بالتاء: {تقولون}.

(3/605)

تشركون به، فقامت الحجة عليكم فأنتم الآن لا تستطيعون صرفاً للعذاب عنكم ولا نصراً أي ولا
تجدون من ينصركم فيمنع العذاب عنكم.
وقوله تعالى: {ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً} هذا خطاب عام لسائر الناس يقول تعالى للناس
ومن يشرك منكم بي أي يعبد غيري نذقه أي يوم القيامة عذاباً كبيراً وقوله تعالى: {وما أرسلنا قبلك
أي يا رسولنا} من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق 1} إذا فلا تهتم بقول
المشركين {ما لهذا الرسول يأكل الطعام} ولا تحفل به فإنهم يعرفون ذلك ولكنهم يكابرون ويجاحدون.
وقوله تعالى: {وجعلنا بعضهم لبعض فتنة} أي هذه سنتنا في خلقنا نبتلي بعضهم ببعض فنبتلي
المؤمن بالكافر والغني بالفقير والصحيح بالمرضى والشريف بالوضيع، وننظر من يصبر ومن يجزع
ونجزي الصابرين بما يستحقون والجزعين كذلك.

وقوله تعالى: {أتصبرون} هذا الاستفهام معناه الأمر أي اصبروا إذاً ولا تجزعوا أيها المؤمنون من
أذى المشركين والكافرين لكم. وقوله تعالى: {وكان ربك بصيراً} أي وكان ربك أيها الرسول بصيراً
بمن يصبر وبمن يجزع فاصبر ولا تجزع فإنها دار الفتنة والامتحان وإنما يوفى الصابرون أجرهم
بغير حساب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 2- يا لهول الموقف إذا سئل المعبودون عن عبودهم، والمظلومون عن ظلموهم.
- 3- براءة الملائكة والأنبياء والأولياء من عبادة من عبدهم.
- 4- خطورة طول العمر وسعة الرزق إذ غالباً ما ينسى العبد بهما ربه ولقاءه.

5- تقرير أن الدنيا دار ابتلاء فعلى أولى الحزم أن يعرفوا هذا ويخلصوا منها بالصبر والتحمل في ذات الله حتى يخرجوا منها ولو كفافاً لا لهم ولا عليهم.

1 أخرج مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: "أحب البلاد إلى الله مساجدها و أبغض البلاد إلى الله أسواقها".

2 هذه الجملة تذييلية الغرض منها التسلية للرسول صلى عليه وسلم والمؤمنين من أجل ما يلاقون من عناد المشركين وأذاهم. والاستفهام في: {أتصبرون} معناه الحث على الصبر والأمر به نحو قوله: {فهل أنتم منتهون}.
أي: عما حرم من الخمر والميسر.

(3/606)

الجزء التاسع عشر

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)
شرح الكلمات:

لا يرجون لقاءنا: أي المكذبون بالبعث إذ لقاء العبد ربه يكون يوم القيامة.
لولا أنزل علينا الملائكة: أي هلاً أنزلت علينا ملائكة تشهد لك بأنك رسول الله.
أو نرى ربنا: أي فيخبرنا بأنك رسوله وأن علينا أن نؤمن بك.
استكبروا في أنفسهم: أي في شأن أنفسهم ورأوا أنهم أكبر شيء وأعظمه غروراً منهم.
وعتوا عتواً كبيراً: أي طغوا طغياناً كبيراً حتى طالبوا بنزول الملائكة ورؤية الرب تعالى.
ويقولون حجراً محجوراً: أي تقول لهم الملائكة حراماً محرماً عليكم البشري.
وقدمنا إلى ما عملوا: أي عمدنا إلى أعمالهم الفاسدة التي لم تكن على علم وإخلاص.
هباء منثوراً: الهباء ما يرى من غبار في شعاع الشمس الداخل من الكوى.
وأحسن مقيلاً: المقيل مكان الاستراحة في نصف النهار في أيام الحر.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أقوال المشركين من قريش فقال تعالى ﴿وقال الذين لا

(3/607)

يرجون لقاءنا1} وهم المكذبون بالبعث المنكرون للحياة الثانية بكل ما فيها من نعيم وعذاب {لولا أنزل علينا الملائكة} أي هلا أنزل الله علينا الملائكة تشهد لمحمد بالنبوة {أو نرى2 ربنا} فيخبرنا بأن محمداً رسوله وأن علينا أن نؤمن به وبما جاء به ودعا إليه. قال تعالى {لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً3} أي وعزتنا وجلالنا لقد استكبر هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث في شأن أنفسهم ورأوا أنهم شيء كبير وعتوا أي طغوا طغياناً كبيراً في قولهم هذا الذي لا داعي إليه إلا الشعور بالكبر، والطغيان النفسي الكبير، وقوله {يوم يرون الملائكة} أي الذين يطالبون بنزولهم عليهم، وذلك يوم القيامة. لا بشرى يومئذ للمجرمين أي الذين أجمعوا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والظلم الفساد: {ويقولون} أي ونقول لهم الملائكة {حجراً محجوراً} أي حراماً4 محرماً عليكم البشرى بل هي للمؤمنين المتقين.

وقوله تعالى {وقدمنا5 إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً} أي وعمدنا إلى أعمالهم التي لم تقم على مبدأ الإيمان والإخلاص والموافقة للشرع فصيرناها هباءً منثوراً كالغبار الذي يرى في ضوء الشمس الداخل مع كوة أو نافذة لا يقبض باليد ولا يلمس بالأصابع لدقته وتفرقه فكذلك أعمالهم لا ينتفعون منها بشيء لبطلانها وعدم الاعتراف بها. وقوله تعالى {أصحاب الجنة} أي أهلها الذين تأهلوا لها بالإيمان والتقوى يومئذ أي يوم القيامة الذي كذب به المكذبون خير مستقراً أي مكان استقرار وإقامة وأحسن مقبلاً6

1 {لقاءنا} أي: لا يخافون لقاءنا ولا يأملونه ولا يبألون به، وهذا كله ناتج عن تكذيبهم بالبعث والدار الآخرة.

2 لما كانت الحياة الدنيا حياة ابتلاء امتنع أن يعطيهم ما طلبوا إذ لو أراهم الله تعالى نفسه أو أراهم ملائكته لآمنوا وبطل حينئذ التكليف الذي أقام تعالى عليه الحساب والجزاء مع أن رؤية الله لا يقدرين عليها لكن على فرض لو أقدروهم الله عليها.

3 العتو: أشد الكفر و أفحش الظلم.

4 حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأقام شرائع الله، وكذلك الحال يوم القيامة لا بشرى يومئذ للمجرمين:

ومن شواهد أن حجراً بمعنى محرماً وحراماً قول المتلمس:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها

حجر حرام إلا تلك الدهاريس

الدهاريس: الدراهم.

5 قدمنا: عمدنا قال الشاعر:

وقدم الخوارج والضلال

إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال

6 تصغر هباء: هبِّي وواحد: هبأة، وهمز في هباء لانتقاء الساكنين وجمع هبأة: أهباء.

7 المقيل: الذي يؤوى إليه في وقت القيلولة للاستراحة فيه وفي الحديث: "قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل" وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له ما أطول هذا اليوم فقال صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلها في الدنيا".

(3/608)

أي مكان استراحة من العناء في نصف النهار أي خير وأحسن من أهل النار المشركين المكذبين وفي هذا التعبير إشارة إلى أن الحساب قد ينقضي في نصف يوم الحساب وذلك أن الله سريع الحساب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان ما كان عليه غلاة المشركين من قريش من كبير وعتو وطغيان.
- 2- إثبات رؤية الملائكة عند قبض الروح، ويوم القيامة.
- 3- نفي البشري عن المجرمين وإثباتها للمؤمنين المتقين.
- 4- حبوط عمل المشركين وبطلانه حيث لا ينتفعون بشيء منه البتة.
- 5- انتهاء حساب المؤمنين قبل نصف يوم الحساب الذي مقداره خمسون ألف سنة. وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)

شرح الكلمات:

- بالغمام : أي عن الغمام وهو سحاب أبيض رقيق كالذي كان لبني إسرائيل في التيه.
- الملك : أي الملك الحق لله ولم يبق لملوك الأرض ومالكها ملك في شيء ولا شيء.
- على الكافرين عسيرا : أي صعباً شديداً.
- يعض الظالم على يديه : أي ندماً و أسفاً على ما فرط في جنب الله.

سبيلا : أي طريقاً إلى النجاة بالإيمان والطاعة.
لم أتخذ فلاناً خليلاً: أي أبي بن خلف خليلاً صديقاً ودوداً.
لقد أضلني عن الذكر : أي عن القرآن وما يدعو إليه من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح.
وكان الشيطان: شيطان الجن وشيطان الإنس معاً.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرضي مظاهر القيامة وبيان أحوال المكذبين بها فقال تعالى {ويوم} أي اذكر {يوم تشقق السماء 2 بالغمام} أي عن الغمام وتزل الملائكة تنزيلاً وذلك لمجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. وقوله تعالى {الملك يومئذ الحق} 3 أي الثابت للرحمن عز وجل لا غيره من ملوك الدنيا ومالكيها، وكان ذلك اليوم يوماً على الكافرين 4 عسيراً لا يطاق ولا يحتمل ما فيه من العذاب والأهوال وقوله {يوم يعرض الظالم على يديه} أي المشرك الكافر بيان لعسر اليوم وشدته حيث يعرض الظالم على يديه تتدماً وتحسراً وأسفاً على تفریطه في الدنيا في الإيمان وصالح الأعمال.. يقول يا ليتني أي متمنياً: {اتخذت مع الرسول 5 سبيلاً} أي طريقاً إلى النجاة من هول هذا اليوم وذلك بالإيمان والتقوى. وينادي مرة أخرى قائلاً {يا ويلتا} أي يا هلكتي احضري فهذا وقت حضورك، ويتمنى مرة أخرى فيقول {يا ليتني لم اتخذ 6 فلاناً خليلاً} وهو شيطان من الإنس أو الجن كان قد صافاه ووالاه في الدنيا فغرر به وأضله عن الهدى. فقال في تحسر {لقد أضلني عن الذكر} أي القرآن بعد إذ جاءني من ربي بواسطة الرسول وفيه هداي

- 1 قرأ نافع {تشقق} بتشديد الشين والقاف، وقرأ حفص: {تشقق} بتخفيف الشين وأصلها تتشقق فمن حذف إحدى التائين للتخفيف قرأ بتخفيف الشين ومن أدغم التاء في الشين شدّها.
- 2 الباء: بمعنى عن نحو: رميت بالقوس وعن القوس، والغمام: سحب أبيض رقيق مثل الضباب هو الذي قال تعالى فيه: {هل أن ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام}.
- 3 الحق: نعت للملك. المبتدأ والخبر: الجار والمجرور، والجملة تتضمن إبطال أي ملك لأحد سوى الرحمن عز وجل إذ هو الملك الحق والمالك الحق.
- 4 مفهوم الخطاب انه على المؤمنين غير عسير فهو إذاً يسير وهو كذلك.
- 5 أهل التفسير على أن هذا الظالم هو عقبة بن أبي معيط وأنّ خليله أمية بن خلف، فعقبة قتله علي في أسرى بدر وأمية قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان هذا من دلائل النبوة. لأنه أخبر عنهما بهذا فقُتلا كافرين إلى النار.

6 هذا هو عقبة بن أبي معيط وفلان هو: أمية بن خلف. في الآية دليل على وجوب البعد عن قرناء السوء، وفي الحديث الصحيح: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن نجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة " رواه مسلم.

(3/610)

وبه هدايتي، قال تعالى {وكان الشيطان للإنسان خذولاً}1 أي يورطه ثم يتخلى عنه ويتركه في غير موضع وموطن.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر البعث والجزاء وبذكر أحوالها وبعض أهوالها.
 - 2- إثبات مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء يوم القيامة.
 - 3- تندم الظلمة وتحسروهم على ما فاتهم من الإيمان والطاعة لله ورسوله.
 - 4- بيان سوء عاقبة موالاة شياطين الإنس والجن وطاعتهم في معصية الله ورسوله.
 - 5- تقرير مبدأ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إذ عقبة بن أبي معيط هو الذي أطاع أبي بن خلف حيث آمن، ثم لأمه أبي بن خلف فارتد عن الإسلام فهو المنتدم المتحسر القائل ليا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر...}
- وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْسِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

1 الخذل: كثير الخذلان، وخذله: إذا ترك نصرته وهو قادر عليها فالخذل والخذلان: معناهما: ترك نصر المستنجد مع القدرة على نصره.

(3/611)

شرح الكلمات:

مهجوراً : أي شيئاً متروكاً لا يلتفت إليه.

هادياً ونصيراً: أي هادياً لك إلى طريق الفوز والنجاح وناصراً لك على كل أعدائك.

جملة واحدة: أي كما نزلت التوراة والإنجيل والزيور دفعة واحدة فلا تجزئة ولا تفريق.

لنثبت به فؤادك : أي نقوي قلبك لتتحمل أعباء الرسالة وإبلاغها.

ورتلناه ترتيلاً: أي أنزلناه شيئاً فشيئاً آيات بعد آيات وسورة بعد أخرى ليتيسر فهمه وحفظه.

شر مكاناً: أي ينزلونه وهو جهنم والعياذ بالله منها.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض أحوال البعث الآخر الذي أنكره المشركون وكذبوا فقال تعالى ﴿وقال

الرسول 1 يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ هذه شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم بقومه

إلى ربه ليأخذهم بذلك. وهجرهم للقرآن تركهم سماعه وتفهمه والعمل بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك 2 جعلنا لكلي نبي عدواً من المجرمين﴾ أي وكما جعلنا لك أيها الرسول أعداء

لك من مجرمي قومك جعلنا لكل نبي قبلك عدواً من مجرمي قومه، إذا فاصبر وتحمل حتى تبلغ

رسالتك وتؤدي أمانتك، والله هاديك إلى سبيل نجاحك وناصرك على أعدائك. وهذا معنى قوله تعالى

﴿وكفى بريك هادياً ونصيراً﴾. وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي

وقال المكذبون بالبعث المنكرون للنبوة المحمدية المشركون بالله آلهة من الأصنام هلا نزل عليه

القرآن مرة واحدة مع بعضه بعضاً لا مفرقاً آيات وسوراً أي كما نزلت التوراة جملة واحدة والإنجيل

والزيور وهذا من باب التعنت منهم والافتراحت التي لا معنى لها إذ هذا ليس من شأنهم ولا مما

يحق لهم الخوض فيه، ولكنه الكفر والعناد. ولما كان هذا مما قد يؤلم الرسول صلى الله عليه وسلم

رد تعالى عليهم

1 الرسول: هو محمد صلى الله عليه وسلم يشكو المشركين من قومه إلى ربه تعالى يوم القيامة

لتحق عليهم كلمة العذاب.

2 هذه الجملة تحمل العزاء للنبي صلى الله عليه وسلم والتسلية من جراء ما يجد من قومه المكذبين

المعادين المحاربين، ومعنى الآية: وكما جعلنا لك عدواً من قومك وهو أبو جهل جعلنا لكل نبي

عدواً.

بقوله {كذلك} 1 أي أنزلناه كذلك منجماً ومفراً لحكمة عالية وهي تقوية قلبك وتشبيته لأنه كالغيث كلما أنزل أحيا موات الأرض وازدهرت به ونزوله مرة بعد مرة أنفع من نزول المطر دفعة واحدة. وقوله تعالى: {ورتلناه ترتيلاً} أي أنزله مرتلاً أي شيئاً فشيئاً ليتيسر حفظه وفهمه والعمل به. وقوله تعالى {ولا يأتونك 2 بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن 3 تفسيراً} هذا بيان الحكمة في نزول القرآن مفراً لا جملة واحدة وهو أنهم كلما جاءوا بمثل أو عرض شبهة ينزل القرآن الكريم بإبطال دعواهم وتقنيدهم، وإلغاء شبهتهم، وإحقاق الحق في ذلك وبأحسن تفسير لما اشتبه عليهم واضطربت نفوسهم فيه وقوله تعالى {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً} 4 أي أولئك المنكرون للبعث المقترحون نزول القرآن جملة واحدة هم الذين يحشرون على وجوههم تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى جهنم لأنهم مجرمون بالشرك والتكذيب والكفر والعناد. أولئك البعداء شر مكاناً يوم القيامة، وأضل سبيلاً في الدنيا، إذ مكانهم جهنم، وسبيلهم الغواية والضلالة والعياذ بالله من ذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على من هجروا القرآن الكريم فلم يسمعه ولم يفهموه ولم يعملوا به، وشكواهم إياهم إلى الله عز وجل.
- 2- بيان سنة الله في العباد وهي أنه ما من نبي ولا هاد ولا منذر إلا وله عدو من الناس وذلك لتعارض الحق مع الباطل، فينجم عن ذلك عداة لازم من أهل الباطل لأهل الحق.
- 3- بيان الحكمة في نزول القرآن منجماً شيئاً فشيئاً مفراً.
- 4- بيان أن المجرمين يحشرون على وجوههم لا على أرجلهم إلى جهنم إهانة لهم وتعذيباً.

- 1 جائز أن يكون كذلك من كلام المشركين: أي: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك أي: كالتوراة والإنجيل فيتم الوقف على ذلك ثم بيتدى {لنثبت به فؤادك} وما في التفسير أولى.
- 2 هذا كقولهم: {إن هذا غلاً إفاك افتراه} وقولهم: {أساطير الأولين} وقولهم: {ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} وقولهم {إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً} وقولهم: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} كل هذا الذي قالوه رد عليهم وأبطله بالحجج القوية فأسكتهم وأبطل دعويهم.
- 3 أي: بما يقطع حجتهم ويلقمهم الحجر فلا يستطيعون الرد أو القول.
- 4 {سبيلاً} منصوب على التمييز المحول عن فاعل، أي: ضللت سبيلهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَا هُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

شرح الكلمات:

الكتاب : أي التوراة.

وزيراً: أي يشد أزره ويقويه ويتحمل معه أعباء الدعوة.

إلى القوم الذين كذبوا: هم فرعون وآله.

لما كذبوا الرسل : أي نوحاً عليه السلام.

و جعلناهم للناس آية : أي علامة على قدرتنا في إهلاك وتدمير الظالمين وعبرة للمعتبرين.

و عاداً و ثمود : أي اذكر قوم عاد و ثمود إلخ..

وأصحاب الرس : الرس بئر رس فيها قوم نبيهم، أي رموه فيها و دسوه في التراب.

وقرُونًا بين ذلك كثيرا : أي ودمرنا بين من ذكرنا من الأمم قرونًا كثيرًا.

تبرنا تتبيرا : أي دمرناهم تدميراً.

التي أمطرت مطر السوء : هي سدوم قرية قوم لوط.

لا يرجون نشوراً : أي لا يؤمنون بالبعث والجزاء الآخر.

(3/614)

معنى الآيات:

قوله تعالى {ولقد آتينا موسى الكتاب} هذا شروع في عرض أمم كذبت رسلها وردت دعوة الحق التي جاعوا بها فأهلكهم الله تعالى ليكون هذا عظة للمشركين لعلهم يتعظون فقال تعالى وعزتنا لقد آتينا موسى بن عمران الكتاب الذي هو التوراة {وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً} أي معيناً، فقلنا أي لهما {اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا} وهم فرعون 1 وملاه فأتوهم فكذبوهما فدمرناهم 2 تدميراً كاملاً حيث أغرقوا في البحر، وقوله تعالى: {وقوم نوح} أي اذكر قوم نوح أيضاً فإنهم لما كذبوا الرسل 3 أي كذبوا نوحاً ومن كذب رسولاً فكأنما كذب عامة الرسل أغرقناهم بالطوفان وجعلناهم للناس بعدهم آية أي عبرة للمعتبرين وقوله {وأعتدنا} أي وهياًنا 4 للظالمين في الآخرة عذاباً أليماً أي موجعاً زيادة على هلاك الدنيا، وقوله {وعاداً و ثمود وأصحاب الرس 5} أي أهلكنا الجميع ودمرناهم تدميراً لما كذبوا رسلنا وردوا دعوتنا، وقرُونًا أي وأهلكنا قرونًا بين ذلك الذي ذكرنا كثيراً.

وقوله {وكلاً ضربنا له الأمثال} أي إقامة للحجة عليهم فما أهلكناهم إلا بعد الإنذار والإعذار لهم.
وقوله {وكلاً تبرنا تبتيراً} أي أهلكناهم إهلاكاً لتكذيبهم رسلنا وردهم دعوتنا. وقوله: {ولقد أتوا على
القرية التي أمطرت مطر السوء} أي ولقد مر أي كفار قريش على القرية التي أمطرت مطر السوء
أي الحجارة وهي قرى قوم لوط سدوم وعمورة وغيرهما فأهلكهم لتكذيبهم رسولهم و إيتانهم الفاحشة
وقوله تعالى {أفلم يكونوا يرونها} في سفرهم إلى الشام وفلسطين. فيعتبروا بها فيؤمنوا وهو استفهام
تقريري وإذ كانوا يملون بها ولكنهم لم يعتبروا لعة وهي أنهم لا يؤمنون بالبعث الآخر وهو معنى
قوله تعالى {بل كانوا لا يرجون نشوراً} فالذي لا يرجو أن يبعث ويحاسب ويجزى لا يؤمن ولا
يستقيم أبداً.

1 فرعون وهامان والقبط.

2 في الآية حذف وهو: ما قدرناه في التفسير أي فكذبوهم فدمرناهم تدميراً.

3 ذكر الجنس وهو الرسل والمراد نوح وحده لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده.

4 وجائز أن يكون معنى الآية: هذه سبيلي في كل ظالم أخذه في الدنيا بالدمار والهلاك.

5 الرس: في اللغة البئر تكون غير مطوية والجمع رساس قال الشاعر:

تتأبلة يحفرون الرساسا

يريد آبار المعادن.

6 اقتران الخبر بلام القسم لإفادة معنى التعجب من عدم اعتبارهم.

7 النشور: مصدر نشر الميت: أحياء قال الشاعر:

يالبكر أنشروا لي كليباً

يالبكر أين أين الفرار

(3/615)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم بعد الإنذار والإعذار إليها.

2- بيان عاقبة المكذبين وما حل بهم من دمار وعذاب.

3- بيان علة تكذيب قريش للرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به وهي تكذيبهم بالبعث والجزاء

فلهذا لم تنتفعهم المواعظ ولم تؤثر فيهم العبر.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن

صَبْرُنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

شرح الكلمات:

إن يتخذونك: أي ما يتخذونك.

إلا هزواً: أي مهزوءاً به.

أهذا الذي بعث الله رسولاً: أي في دعواه لا أنهم معترفون برسالته والاستفهام للتهكم والاحتقار.

إن كاد ليضلنا عن آلهتنا: أي قارب أن يصرفنا عن آلهتنا.

لولا أن صبرنا عليها: أي لصرفنا عنها.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه: أي أخبرني عن جعل هواه معبوده فأطاع هواه. فهل تقدر على هدايته.

(3/616)

إن هم إلا كالأنعام: أي ما هم إلا كالأنعام في عدم الوعي والإدراك.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً} يخبر تعالى رسوله عن أولئك المشركين المكذابين
بالبعث أنهم إذا رأوه في مجلس أو طريق ما يتخذونه إلا هزواً أي مهزوءاً به احتقاراً وازدراءً له
فيقولون فيما بينهم، {أهذا الذي بعث الله رسولاً} وهو استفهام احتقار وازدراء لأنهم لا يعتقدون أنه
رسول الله ويقولون {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا} أي يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن صبرنا وثبتنا
على عبادتها. وهذا القول منهم ناتج عن ظلمة الكفر والتكذيب بالبعث وقوله تعالى {وسوف يعلمون
حين يرون العذاب} في الدنيا أو في الآخرة أي عندما يعاينون العذاب يعرفون من كان أضل سبيلاً
هم أم الرسول والمؤمنون، وفي هذا تهديد ووعيد بقرب عذابهم وقد حل بهم في بدر فذلوا وأسروا
وقتلوا وتبين لهم أنهم أضل سبيلاً من النبي وأصحابه. وقوله تعالى لرسوله وهو يسليه ويخفف عنه
آلام إعراض المشركين عن دعوته {أرأيت3 من اتخذ إلهه هواه} أخبرني عن جعل معبوده هواه فلا
يعبد غيره فكلما انتهى شيئاً فعله بلا عقل ولا روية ولا فكر فقد يكون لأحدهم حجر يعبده فإذا رأى
حجراً أحسن منه عبده وترك الأول فهذا لم يعبد إلا هواه وشهوته فهل مثل هذا الإنسان الهابط إلى
مستوى دون البهائم تقدر على هدايته يا رسولنا؟ {أفأنت تكون عليه وكَيْلًا} أي حفيظاً تتولى هدايته
أم أنك لا تقدر فاتركه لنا يمضي فيه حكمنا.

وقوله {أم تحسب} أيها الرسول أن أكثر هؤلاء المشركين يسمعون4 ما يقال لهم ويعقلون ما يطلب

منهم إن هم إلا5 كالأنعام فقط بل هم أضل6 سبيلاً من الأنعام إذ الأنعام

- 1 جواب { إذا رأوك } قوله: { إن يتخذونك إلا هزوا }.
- 2 {رسولا} منصوب على الحال، والعائد محذوف تقديره، بعثه الله حال كونه رسولا.
- 3 الاستفهام للتعجب أي: عجب الله تعالى رسوله من حال المشركين أي: من إضمارهم الشرك و إصرارهم عليه مع إصرارهم أن الله تعالى خالقهم ورازقهم ثم يعمد أحدهم إلى حجر يعبد. قال ابن عباس: الهوى إنه يعبد من دون الله ثم تلا هذه الآية : {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه} وقد كان الرجل منهم إذا هوى شيئاً عبده حتى إنه ليعبد الحجر أياماً ثم يرى غيره فيترك الأول ويعبد الثاني.
- 4 أي: سماع قبول أو يتفكرون فيما تقول فيعقلونه.
- 5 الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها في جواب سؤال لأن ما تقدمها في إنكار سمعهم يثير في النفس سؤالاً عن نفي سماعهم وفهمهم فأجيب {إن هم إلا كالأنعام}.
- 6 هم أضل من الأنعام لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك بخلاف هؤلاء المشركين.

(3/617)

تعرف طريق مرعاها وتستجيب لنداء راعيها وهم على خلاف ذلك فجهلوا ربهم الحق ولم يستجيبوا لنداء رسوله إليهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلاقي في سبيل الدعوة من سخرية به واستهزاء.
- 2- يتجاهل الإنسان الضال الحق وينكره حتى إذا عاين العذاب عرف ما كان ينكر، وآمن بما كان يكفر.

3- هداية الإنسان ممكنة حتى إذا كفر بعقله وآمن بشهوته وعبد هواه تعذرت هدايته وأصبح أضل من الحيوان وأكثر خسراناً منه.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49)

شرح الكلمات:

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل: أي ألم تنظر إلى صنيع ربك في الظل كيف بسطه.

ولو شاء الله لجعله ساكناً : أي ثابتاً على حاله في الطول والامتداد ولا يقصر ولا يطول
ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً : أي علامة على وجوده إذ لولا الشمس لما عرف الظل.

(3/618)

ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً : أي أزلناه بضوء الشمس على مهل جزءاً فجزءاً حتى ينتهي.
ثم جعلنا الليل لباساً : أي يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.
والنوم سباتاً : أي راحة لأبدانكم من عناء عمل النهار.
وجعل النهار نشوراً : أي حياة إذ النوم بالليل كالموت والانتشار بالنهار كالبعث.
بشراً بين يدي رحمته : أي مبشرة بالمطر قبل نزوله، والمطر هو الرحمة.
ماء طهوراً : أي تنتظرون به من الأحداث والأوساخ.
لنحيي به بلدة ميتاً : أي بالزروع والنباتات المختلفة.
أنعاماً وأناسي كثيراً : أي حيواناً وأناساً كثيرين.
ولقد صرفناه بينهم: أي المطر فينزل بأرض قوم ولا ينزل بأخرى لحكم عالية.
ليذكروا : أي يذكروا فضل الله عليهم فيشكروا فيؤمنوا ويوجدوا.
فأبى أكثر الناس إلا كفوراً : أي فلم يذكروا وأبى أكثرهم إلا كفوراً جحوداً للنعمة.
معنى الآيات:

قوله تعالى {ألم تر إلى 1 ريك كيف مد الظل}2 هذا شروع في ذكر مجموعة من أدلة التوحيد وهي
مظاهر لرؤية الله تعالى المقتضية لألوهيته فأولاً الظل وهو المشاهد من وقت الإسفار إلى طلوع
الشمس وقد مده الخالق عز وجل أي بسطه في الكون، ثم تطلع الشمس فتأخذ في زواله وانكماشه
شيئاً فشيئاً، ولو شاء الله لجعله ساكناً لا يبارح ولا يغادر ولكنه حسب مصلحة عباده جعله
يتقاصر ويقبض حتى تقف الشمس في كبد السماء فيستقر ثم لما تدحض الشمس مائلة إلى الغروب
يفيء أي يرجع شيئاً فشيئاً فيطول تدريجياً لتعرف به ساعات النهار و أوقات الصلوات حتى يبلغ من
الطول حداً كبيراً كما كان في أول النهار ثم يقبض قبضاً يسيراً خفياً سريعاً حين تغرب الشمس
ويغشاه ظلام الليل. هذه آية من آيات قدرة الله و علمه وحكمته ورحمته بعباده تجلت في الظل الذي

1 جائز أن تكون الرؤية هنا بصرية وعلمية، معاً إذ بالعين يشاهد الظل وزواله وبالقلب يعلم ذلك
كذلك.

2 الظل بالغداء والفيء بالعشي قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحا نستطيعه
ولا الفء من برد العشي ندوق

(3/619)

قال تعالى فيه {ألم تر} أيها الرسول أي تنظر إلى صنيع ربك جل جلاله {كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكناً} ينتقل، {ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً} إذ بضوءها يعرف، فلولا الشمس لما عرف الظل وقوله تعالى {ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً} حسب سنته ففي خفاء كامل وسرعة تامة يقبض الظل نهائياً ويحل محله الظلام الحالك.

وثانياً: في الليل والنهار قال تعالى: {وهو الذي جعل لكم الليل لباساً}1 أي ساتراً يستركم بظلامه كما تستركم الثياب {والنوم}2 سباتاً أي وجعل النوم قطعاً للعمل فتحصل به راحة الأبدان {وجعل النهار نشوراً}3 أي حياة بعد وفاة النوم فينتشر فيه الناس لطلب الرزق بالعمل بالأسباب والسنن التي وضع الله تعالى لذلك.

وثالثاً: إرسال الرياح للقاح السحب للمطار لإحياء الأرض بعد موتها بالقحط والجذب قال تعالى: {وهو الذي أرسل الرياح}4 هو لا غيره من الآلهة الباطلة {أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته} أي مبشرات بالمطر متقدمة عليه وهو الرحمة. وهي بين يديه فمن يفعل هذا غير الله؟ اللهم إنه لا أحد. ورابعاً: إنزال الماء الطهور العذب الفرات للتطهير به وشرب الحيوان والإنسان قال تعالى {وأنزلنا من السماء ماء طهوراً}5 لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً أي إبلًا وبقراً وغنماً {وأناسي كثيراً} أي أناساً كثيراً وهم الآدميون ففي خلق الماء وإنزاله وإيجاد حاجة في الحيوان والإنسان إليه ثم هدايتهم لتناوله وشربه كل هذا آيات الربوبية الموجبة لتوحيد الله تعالى. وخامساً: تصريف المطر بين الناس فيمطر في أرض ولا يمطر في أخرى حسب لحكمة الإلهية والتربية الربانية. قال تعالى: {ولقد صرفناه بينهم}6 أي بين الناس كما

- 1 قال ابن العربي ظنّ بعض الجهال أن كون الليل لباساً يجزىء من صلى فيه عارياً وهو لا يجزىء ولو أجزأ لأجزأ من أغلق باب غرفته وصلى عرياناً.
- 2 أصل السبت: القطع والتمدد فهو بانقطاع البدن عن العمل تحصل له الراحة لذا قيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة.
- 3 كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول: "الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور".
- 4 قيل: إن تكوين الرياح سببه التقاء حرارة جانب من الجر ببرودة جانب آخر تتشأ السحب.

5 أكثر الفقهاء على أن الماء الطهور غير الطاهر فالطهور: هو الذي تزال به الأحداث بخلاف الطاهر فلذا كل طهور طاهر وليس كل طاهر طهوراً.
6 وجائز أن يراد بقوله {صرفناه بينهم} القرآن الكريم إذ جرى ذكره أول السورة وفي أثنائها أيضاً.

(3/620)

هو مشاهد إقليم يسقى وآخر يحرم، وقوله تعالى: {قأبى أكثر الناس إلا كفوراً} أي جوداً لإنعام الله عليهم وربوبيته عليهم وألوهيته لهم. وهو أمر يقتضى التعجب والاستغراب. هذه مظاهر الربوبية المقتضية للألوهية، {قأبى أكثر الناس إلا كفوراً} والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عرض الأدلة الحسية على وجوب عبادة الله تعالى وتوحيده فيها ووجوب الإيمان بالبعث والجزاء الذي أنكره المشركون فضلوا ضلالاً بعيداً.
 - 2- بيان فائدة الظل إذ به تعرف ساعات النهار وبه يعرف وقت صلاة الظهر والعصر فوقت الظهر من بداية الفياء، أي زيادة الظل بعد توقفه من النقصان عند وقوف الشمس في كبد السماء، ووقت العصر من زيادة الظل مثله بمعنى إذا دخل الظهر والظل أربعة أقدام أو ثلاثة أو أقل أو أكثر فإذا زاد مثله دخل وقت العصر فإن زالت الشمس على أربعة أقدام فالعصر يدخل عندما يكون الظل ثمانية أقدام و إن زالت الشمس على ثلاثة أقدام فالعصر على ستة أقدام وهكذا.
 - 3- الماء الطهور وهو الباقي على أصل 2 خلقته فلم يخالطه شيء يغير طعمه أو لونه أو ريحه. وبه ترفع الأحداث وتغسل النجاسات، ويحرم منعه عن احتاج إليه من شرب أو طهارة.
- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لَهُمْ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)
فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

1 قال عكرمة: هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وأيدّه النحاس وقال: لا نعلم خلافاً أن الكفر هنا هو قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا روى الربيع بن صبيح قال: مُطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلما أصبحوا قال النبي صلى الله عليه وسلم "أصبح الناس فيها رجلين: شاكراً وكافراً فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغيائته. وأما الكافر فيقول مطرنا بنوء كذا وكذا".

2 أحكام المياه: 1- قليل الماء ينجسه قليل النجاسة وكثيره لا ينجسه. 2- الماء طهور ما بقي على أصل خلقته فإن خالطه ما غير أحد أوصافه: الريح واللون والطعم سلبت طهوريته. 3- الماء

المتغيّر بطول المكث طهور. 4-كره بعض أهل العلم الوضوء بسور النصراني، وقد توضأ عمر من بيت نصرانية وقال لها: اسلمي تسلمي فكشف عن رأسها وإذا به مثل الثغامة وقالت: عجز كبيرة وإنما أموت الآن فقال عمر: اللهم أشهد خرجه الدار قطني 5- سور الكلب لا يتوضأ به ويغسل الإناء سبعا. 6- ما مات في الماء مما لا دم له كالحشرات لا يسلب طهوية الماء. 7- سور الهر طاهر لحديث أبي قتادة.

(3/621)

وَجَاهِدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56)

شرح الكلمات:

لبعثنا في كل قرية نذيراً: أي رسولا يندر أهلها عواقب الشرك والكفر.
وجاهدكم به جهاداً كبيراً: أي بالقرآن جهاداً كبيراً تبلغ فيه أقصى غاية جهدك.
مرج البحرين : أي خلط بينهما وفي نفس الوقت منع الماء الملح أن يفسد الماء العذب.
وجعل بينهما برزخاً : أي حاجزاً بين الملح منهما والعذب.
وحجراً محجوراً: أي وجعل بينهما سداً مانعاً فلا يخلو الملح، ولا يملح العذب.
خلق من الماء بشراً: أي خلق من الماء الإنسان والمراد من الماء النطفة.
فجعله نسباً وصهراً: أي ذكراً وأنثى أي نسباً ينسب إليه، وصهراً يصهر إليه أي يتزوج منه.
ما لا يضرهم ولا ينفعهم : أي أصناماً لا تضر ولا تنفع.
وكان الكافر على ربه ظهيرا: أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تعداد مظاهر الربوبية المستلزمة للتوحيد قال تعالى ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي في كل مدينة نذيراً أي رسولا يندر الناس عواقب الشرك والكفر،

(3/622)

ولكننا لم نشأ لحكمة اقتضتها ربوبيتنا وهي أن تكون أيها الرسول أفضل الرسل وأعظم منزلة وأكثرهم ثواباً فحبوناك بهذا الفضل فكنت رسول كل القرى أبيضها وأسودها فأصبر وتحمل، واذكر شرف منزلتك {فلا تطع الكافرين} في أي أمر أرادوه منك {وجاهدكم} به أي بالقرآن وكله حجج وبيانات جهاداً كبيراً تبلغ فيه أقصى 1 جهديك. بعد هذه الجملة الاعتراضية من الكلام الإلهي قال تعالى مواصلاً ذكر مظاهر ربوبيته تعالى على خلقه.

{وهو الذي مرج البحرين} الملح والعذب أي أرسلهما مع بعضهما بعضاً {هذا عذب فرات} أي حلو {سائغ شرابه، وهذا ملح 2 أجاج} أي لا يشرب {وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً} أي ساتراً مانعاً من اختلاط العذب بالملح مع وجودهما في مكان واحد، فلا يبغى هذا على هذا بأن يعذب الملح أو يملح العذب. وقوله تعالى {وهو الذي خلق من الماء بشراً} أي من المني ونطقته خلق الإنسان وجعله ذكراً وأنثى وهو معنى قوله {نسباً وصهراً} 3 أي ذوي نسب ينسب إليهم وهم الذكور، وذوات صهر يصاهر بهن وهن الإناث. وقوله تعالى {وكان ريك قديراً} أي على فعل ما يريده من الخلق والإيجاد أو التحويل والتبديل، والسلب والعتاء هذه مظاهر الربوبية المقتضية لعبادته وتوحيده والمشركون يعبدون من دونه أصناماً لا تتفهم إن عبدها، ولا تضرهم إن لم يعبدوها وذلك لجهلهم وظلمة نفوسهم فيعبدون الشيطان إذ هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وبذلك كان الكافر على ربه ظهيرا إذ لعبادته للشيطان يعينه على معصية الرب تبارك وتعالى وهو معنى قوله تعالى، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وكان الكافر على ربه ظهيرا أي معيناً للشيطان على الرحمن والعياذ بالله تعالى.

وقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً} يقول تعالى لرسوله إنا لم نرسلك لغير بشارة المؤمنين بالجنة ونذارة الكافرين بالنار أما هداية القلوب فهي إلينا من شئنا هدايته

- 1 ولا يخالطه فتور، وقيل الجهاد بالسيف ويرده أن السورة مكية ولم يجر للسيف ذكر فكيف يكون المراد، وقيل: بالإسلام وهو أولى من السيف والقرآن اصح، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.
- 2 الملح يوصف به الماء، ولا يقال مالح إلا نادراً والأجاج ما كان ملحاً مرّاً والعذب. الحلو والفرات: زائد الحلاوة، والبرزخ: الحاجز المانع والحرام المحرم أن يعذب الملح أو يملح العذب.
- 3 صهر الرجل: قريب زوجته وأصهاره: أقارب زوجته. وختن الرجل من تزوج قريبته، وأختانه: أقارب من زوجته قريبته، والحم والجمع أحماء أقرباء زوج المرء، والصهر والنسب: معنيان يَعْْمَان كل قري تكون بين آدميين، قال ابن العربي النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع وما في التفسير أوضح لأنه كقوله تعالى: {إنا خلقناكم من ذكر وأنثى}.

اهتدى ومن نشأها ضل. إلا أن الله يهدي ويضل حسب سنن له قد مر ذكرها مرات 1.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الإشارة إلى الحكمة في عدم تعدد الرسل في زمن البعثة المحمدية والاكتفاء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

2- حرمة طاعة الكافرين في أمور الدين والشرع.

3- من الجهاد جهاد الكفار والملاحدة بالحجج القرآنية والآيات التنزيلية.

4- مظاهر العلم والقدرة الإلهية في عدم اختلاط البحرين مع وجودهما في مكان واحد. وفي خلق الله تعالى الإنسان من ماء وجعله ذكراً وأنثى للتناسل وحفظ النوع.

5- التنديد بالمشركين والكافرين المعينين للشيطان على الرحمن.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

1 من سنن الله تعالى في الهداية والإضلال، أن من طلب الهداية ورجب فيها وسألها من ربه تعالى ولازم الطلب هداه الله، ومن رغب عن الهداية وطلب الغواية وسلك مسالكها مفضلاً لها على الهداية وأصر على ذلك أضله الله والعياذ بالله.

(3/624)

شرح الكلمات:

عليه من أجر: أي على البلاغ من أجر انتقاضه منكم.

سبيلاً: أي طريقاً يصل به إلى مرضاته والفوز بجواره، وذلك بإنفاق ماله في سبيل الله.

وسبح بحمده: أي قل سبحان الله وبحمده.

في ستة أيام: أي من أيام الدنيا التي قدرها وهي الأحد... والجمعة.

ثم استوى على العرش: العرش سرير الملك والاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب.

فاسأل به خبيراً: أي أيها الإنسان إسأل خبيراً بعرش الرحمن ينبئك فإنه عظيم.
وزادهم نفوراً: أي القول لهم اسجدوا للرحمن زادهم نفوراً من الإيمان.
جعل في السماء بروجاً: هي اثنا عشر برجاً انظر تفصيلها في معنى الآيات.
سراجاً: أي شمساً.

خلفة: أي يخلف كل منهما الآخر كما هو مشاهد.

أن يذكر: أي ما فاتة في أحدهما فيفعله في الآخر.

أو أراد شكوراً: أي شكراً لنعم ربه عليه فيهما بالصيام والصلاة.

معنى الآيات:

بعد هذا العرض العظيم لمظاهر الربوبية الموجبة للألوهية أمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين ما أسألكم على هذا البيان الذي بينت لكم ما تعرفون به إلهكم الحق فتعبدونه وتكملون على عبادته وتسعدون أجراً أي مالاً، لكن من شاء أن ينفق من ماله في وجوه البر والخير يتقرب به إلى ربه فله ذلك ليتخذ 1 بنفقته في سبيل الله طريقاً إلى رضا ربه عنه ورحمته له.

وقوله {وتوكل 2 على الحي الذي لا يموت} يأمر تعالى رسوله أن يمضي في طريق

1 وجائز أن يكون {اتخذ إلى ربه سبيلاً} بإتباع ديني أي: الإسلام حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة

والإنفاق في سبيل الله تعالى داخل فيه، والحمد لله.

2 التوكل معناه: اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور مع إتيان الأسباب المشروعة للبلوغ إلى

المطلوب مما هو خير ومعروف و أمر إدراك المطلوب إلى الله تعالى مع الرضا بما يتم من ربح أو

خلافه ونجاح وغيره.

(3/625)

دعوته مبلغاً عن ربه داعياً إليه متوكلاً عليه أي مفوضاً أمره إليه إذ هو الحي الذي لا يموت وغيره يموت، وأمره أن يستعين على دعوته وصبره عليها بالتسبيح فقال {وسبح بحمده} أي قل سبحان الله وبحمده، وسبحانك اللهم وبحمدك وهو أمر بالذكر والصلاة وسائر العبادات فإنها العون الكبير للعبد على الثبات والصبر. وقوله تعالى {وكفى به بذنوب عباده خبيراً} أي فلا تكرب لهم ولا تحزن عليهم من أجل كفرهم وتكذيبهم وشركهم فإن ربك عالم بذنوبهم محص عليهم أعمالهم وسيجزئهم بها في عاجل أمرهم أو آجله. ثم أتى تبارك وتعالى على نفسه بقوله {الذي خلق السموات والأرض وما بينهما 1 في ستة أيام} مقدره بأيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة، ثم استوى على العرش العظيم استواء يليق بجلاله وكماله. {الرحمن} الذي عمّت رحمته العالمين {فاسأل به خبيراً} أي فاسأل يا

محمد2 بالرحمن خبيراً بخلقه فإنه خالق كل شيء والعليم بكل شيء فهو وحده العليم بعظمة عرشه وسعة ملكه وجلال وكمال نفسه لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن} أي وإذا قال لهم الرسول أيها المشركون اسجدوا للرحمن ولا تسجدوا لسواه من المخلوقات. قالوا منكبين متجاهلين {ما الرحمن؟} أنسجد لما تأمرنا أي أتريد أن تفرض علينا طاعتك {وزادهم} هذا القول {نفوراً}، أي بعداً واستنكاراً للحق والعياذ بالله تعالى. وقوله تعالى {تبارك الذي جعل في السماء بروجاً} أي تقدس وتنزه أن يكون له شريك في خلقه أو في عبادته الذي بعظمته جعل في السماء بروجاً وهي منازل الكواكب السبعة السيارة فلذا سميت بروجاً جمع برج وهو القصر الكبير وتعرف هذه البروج الاثنا عشر بالحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. والكواكب السبعة السيارة هي: المريخ، والزهرة وعطارد، والقمر، والشمس، والمشتري، وزحل. فهذه الكواكب تنزل في البروج كالقصور لها.

1 قال {بينهما} ولم يقل بينهما لأنه أراد الصنفين أو النوعين أو الشئيين وهو أخص من كلمة بينهما وأخف على اللسان والمقصود ظاهر بكل من العبارتين جمع أو تثنية.

2 رجح بعضهم أن الباء هنا بمعنى عن أي: اسأل عن الرحمن خبيراً واستشهد بقول الشاعر:

فإن سألوني بالنساء فإنني

خبير بأدواء النساء طبيب

فقوله بالنساء أي: عن النساء. ورأي ابن كثير أن المسؤول هنا هو الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أعرف الخلق بالخالق وبعزته وعظمته جل جلاله.

3 إنهم بجهلهم أنكروا اسم الرحمن لله، وقالوا: يأمر بعبادة إله واحد وهو يدعو الله ويدعو الرحمن فأنزل الله تعالى: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى} الإسراء.

(3/626)

وقوله تعالى {وجعل فيها سراجاً} هو الشمس {وقمراً منيراً}1 هو القمر أي تعاضم وتقديس الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وقوله {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً}2 أي يخلف بعضهما بعضاً فلا يجتمعان أبداً وفي ذلك من المصالح والفوائد ما لا يقدر قدره ومن ذلك أن من نسي عملاً بالنهار يذكره في الليل فيعمله، ومن نسي عملاً بالليل يذكره بالنهار فيعمله3، وهو معنى قوله {لمن أراد أن يذكر} وقوله {أو أراد شكوراً} فإن الليل والنهار ظرفان للعبادة الصيام بالنهار والقيام بالليل فمن أراد أن يشكر الله تعالى على نعصه فقد وهبنا له فرصة لذلك وهو الليل للتهجد والقيام والنهار للجهد والصيام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دعوة الله ينبغي أن لا يأخذ الداعي عليها أجراً ممن يدعوهم 4 إلى الله تعالى ومن أراد أن يتطوع من نفسه فينفق في سبيل الله فذلك له.
- 2- وجوب التوكل على الله فإنه الحي الذي لا يموت وغيره يموت.
- 3- وجوب التسبيح والذكر والعبادة وهذه هي زاد العبد وعدته وعونه.
- 4- مشروعية السجود عند قوله تعالى وزادهم نفوراً للقارىء والمستمع 5.
- 5- صفة استواء الرحمن على عرشه فيجب الإيمان بها على ما يليق بجلال الله وكماله ويحرم تأويلها بالاستيلاء والقهر ونحوهما.
- 6- الترغيب في الذكر والشكر، واغتنام الفرص للعبادة والطاعة.

- 1 قرىء فى الشاذ فُمرأ بضم القاف وإسكان الميم وصاحب القراءة هو عصمة الذي يروي القراءات قال فيه أحمد بن حنبل: لا تكتبوا عنه وقد أولع أبو حاتم بالرواية عنه مع الأسف.
- 2 الخلفة: كل شيء بعد شيء ومنه قيل لليل والنهار خلفه لأن كلا منهما يخلف الثاني إذا ذهب ومنه قيل لورق النبات الذي يخلف الورق الأول خلفه ومنه قول زهير بن أبي سلمى:
بها العين والآرام يمشين خلفه
وأطلاؤهن ينهض من كل مجثم
خلفة: هذه تذهب وتلك تأتي. والعين: جمع عينا وأعين: واسعات العيون والمراد بقر الوحش والأطلاء: جمع طلاء: ولد البقرة وولد الظبية الصغير، والمجثم: موضع الجثوم: أي المقام.
- 3 روى مسلم عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما لمن صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل".
- 4 لو أعطي الداعي إلى الله تعالى من أوقاف وقفت لهذا الغرض أو أعطي من بيت المال ما يسد به خلته ويقضي به حاجته فأخذ فلا حرج.
- 5 هذه السجدة من عزائم السجودات فلا ينبغي أن يتركها القارىء ولا المستمع.

(3/627)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ
يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
(65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

(67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)

شرح الكلمات:

يمشون على الأرض هوناً : في سكينه ووقار .
وإذا خاطبهم الجاهلون: أي بما يكرهون من الأقوال .
قالوا سلاماً: أي قولاً يسلمون به من الإثم، ويسمى هذا سلام 1 المتاركة .
سجداً وقياماً : أي يصلون بالليل سجداً جمع ساجد .
إن عذابها كان غراماً: أي عذاب جهنم كان لازماً لا يفارق صاحبه .

1 سلام المتاركة: هو أن يقول قولاً يسلم به من أذى الجاهل وذلك بأن يدفعه بالتالي هي أحسن من الكلمات .

(3/628)

إنها ساءت مستقراً ومقاماً: أي بنست مستقراً وموضع إقامة واستقرار .
لم يسرفوا ولم يقتروا: أي لم يبذروا ولم يضيقوا .
وكان بين ذلك قواماً: أي بين الإسراف والتقتير وسطاً .
التي حرم الله: وهي كل نفس آدمية إلا نفس الكافر المحارب .
إلا بالحق: وهو واحد من ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل ظلم وعدوان .
يلق أثاماً: أي عقوبة شديدة .
يبدل الله سيئاتهم حسنات: بأن يمحو بالتربة سوابق معاصيهم، ويثبت مكانها لواحق طاعتهم .
معنى الآيات:

لما أنكر المشركون الرحمن {قالوا وما الرحمن} وأبو أن يسجدوا للرحمن، وقالوا أن محمداً ينهانا عن الشرك وهو يدعو مع الله الرحمن فيقول يا الله يا رحمن، ناسب لتجاهلهم هذا الاسم الرحمن أن يذكر لهم صفات عباد الرحمن ليعرفوا الرحمن بعباده على حد "خيركم من إذا رُؤي ذكر الله" فقال تعالى {وعباد الرحمن 1} ووصفهم بثمان صفات وأخبر عنهم بما أعده لهم من كرامة يوم القيامة . الأولى في قوله {الذين يمشون على الأرض هوناً 2} أي ليسوا جبابة متكبرين، ولا عصاة مفسدين ولكن يمشون متواضعين عليهم السكينة والوقار، {وإذا خاطبهم الجاهلون} أي السفهاء بما يكرهون من القول قالوا قولاً يسلمون 3 به من الإثم فلم يردوا السيئة بالسيئة ولكن بالحسنة .

الثانية: في قوله {والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً} أي يقضون ليلهم بين السجود

1 {وعباد الرحمن} مبتدأ والخبر: إن أريد بهم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة فالخبر: {الذين يمشون} وما بعده نعوت لهم وصفات، وإن أريد بهم عامة المؤمنين فالخبر: {أولئك يجزون الغرفة} والصلوات الثمانية: صفات ونعوت لهم. وهذا الراجح.

2 الهون: اللين والرفق، والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال فهو غير مشي المتكبرين المعجبين بنفوسهم، وعباد الرحمن يمشون وعليهم السكينة والوقار وفي الحديث: "أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالايضاع وهو السير مثل الخبب" إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا زال زال ثقلاً ويخطو تكفوًا ويمشي هونا ذريع المشية كأنما ينحط من صعب، قيل: نعم هو كما وصف فالتقلع معناه رفع الرجل بقوة حتى لا يمشي مشية المتمسكن الذليل والذريع، الواسع الخطا ومعناه أنه كان يرفع رجله بسرعة ويوسع خطوه كأنما ينحط من صعب فأين هذا الهون المحمدي في المشي من الاختيال والتمايل إعجاباً بالنفس وضرب الأرض كأنما يريد أن يخرقها بنعله. والله تعالى قال: {ولا تمش في الأرض مرحاً} والمرح: هو مشي الخيلاء، والفجر، وقال: {إنك لن تخرق الأرض} أي بضربك إياها برجليك بشدة. {ولن تبلغ الجبال طولا} مهما حاولت العلو والارتفاع.

3 هذا كقوله تعالى: {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا سلام علينا لا نبتغي الجاهلين}.

(3/629)

والقيام يصفون أقدامهم ويذرفون دموعهم على خدودهم خوفاً من عذاب ربهم.
والثالثة: في قوله {والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم} إنهم لقوة يقينهم كأنهم شاعرون بلهب جهنم يدنو من وجوههم فقالوا {ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً} أي ملحاً لازماً لا يفارق صاحبه، {إنها ساءت} أي جهنم {مستقراً ومقام} أي بنست موضع إقامة واستقرار.
والرابعة: في قوله {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا} في إنفاقهم فیتجاوزوا الحد المطلوب منهم، ولم يقتروا فيقصروا في الواجب عليهم وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير قواماً أي عدلاً وسطاً.
والخامسة: {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر} أي لا يسألون غير ربهم قضاء حوائجهم كما لا يشركون بعبادة ربهم أحداً {ولا يقتلون النفس التي حرم الله} قتلها وهي كل نفس آدمية ما عدا نفس الكافر المحارب فإنها مباحة القتل غير محرمة. {إلا بالحق} وهو واحدة من ثلاث خصال بينها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة" {ولا يزنون} أي لا يرتكبون فاحشة الزنا

والزنا نكاح على غير شرط النكاح المباح وقوله تعالى {ومن يفعل ذلك} هذا كلام معترض بين صفات عباد الرحمن. أي ومن يفعل ذلك المذكور من، الشرك بدعاء غير الرب أو قتل النفس بغير حق، أو زنا {يلق أثاماً}1 أي عقاباً {يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه} أي في العذاب {مهاناً} مخزياً ذليلاً، وقوله تعالى {إلا من تاب} من الشرك وآمن بالله وبلغائه وبرسوله وما جاء به من الدين الحق {وعمل صالحاً} من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام {وأولئك} المذكورون أي التائبون {يبدل الله سيئاتهم حسنات} أي يمحو سيئاتهم بتوبتهم ويكتب لهم مكانها صالحات أعمالهم وطاعاتهم بعد توبتهم {وكان الله غفوراً رحيماً} ذا مغفرة للتائبين من عباده ذا رحمة بهم فلا يعذبهم بعد توبته عليهم، وقوله {ومن تاب} من غير هؤلاء المذكورين أي رجع إلى الله تعالى بعد غشيانه الذنوب

1 الأثام: قيل فيه إنه واد في جهنم: قال الشاعر:

لقيت المهالك في حربنا

وبعد المهالك نلقي أثاماً

وقيل الأثام: العقاب كما في التفسير وشاهده قول الشاعر:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى

عقوقاً والعقوق له أثام

أي: جزاء وعقوبة.

(3/630)

{وعمل صالحاً} بعد توبته {فإنه يتوب إلى الله متاباً} أي يرجع إليه تعالى مرجعاً مرضياً حسناً فيكرمه وينعمه في دار كرامته.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان صفات عباد الرحمن الذين بهم يعرف الرحمن عز وجل.
- 2- فضيلة التواضع والسكينة في المشيء والوقار.
- 3- فضيلة رد السيئة بالحسنة والقول السليم من الإثم.
- 4- فضيلة قيام الليل والخوف من عذاب النار.
- 5- فضيلة الاعتدال والقصد في النفقة وهي حسنة بين السيئتين.
- 6- حرمة الشرك وقتل النفس 3 والزنى وأنها أمهات الكبائر.

7- التوبة تجب 4 ما قبلها. والندب إلى التوبة وأنها مقبولة مالم يغرغر.
وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

1 أنشد بعضهم الأبيات التالية في صفة أولياء الله جعلنا الله منهم: فقال:

الله قوم أخلصوا في حبه

فرضي بهم واختصهم خداما

قوم إذا جن الظلام عليهم

باتوا هنالك سجداً وقياما

خمس البطون من التعفف ضمرا

لا يعرفون سوى الحلال طعاماً

2 روي أن عبد الملك بن مروان سأل بنته فاطمة وهي تحت ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز وقد
زارهما بالمدينة فقال لها كيف نفقتكم؟ فقالت: الحسنة بين السيئتين. تعني قول الله تعالى {والذين إذا
أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا} وقيل: المسؤول زوجها عمر وهو الذي أجاب والله أعلم وفي الحديث: {إن
من السرف أن تأكل كل ما تشتهي}.

3 روى مسلم أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أكبر عند
الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم
أي: قال: أن تزاني حليلة جارك" فأنزل الله تصديقها {الذين لا يدعون مع الله إله آخراً} إلى {ولا
يزنون}.

4 وفي الحديث الصحيح: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق
حسن" والشاهد: {إن الحسنات يذهبن السيئات}.

(3/631)

هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

شرح الكلمات:

لا يشهدون الزور: أي لا يحضرون مجالسه ولا يشهدون بالكذب والباطل.

وإذا مروا باللغو: أي بالكلام السيء القبيح وكل ما لا خير فيه.

مروا كراماً: أي معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن سماعه أو المشاركة، فيه.
و إذا ذكروا بآيات ربهم: أي إذا وعظوا بآيات القرآن.
لم يخروا عليها صمماً وعمياناً: أي لم يبطأوا رؤوسهم حال سماعها عمياً لا يبصرون ولا صمماً لا يسمعون بل يصغون يسمعون ويعون ما تدعو إليه ويبصرون ما تعرضه.
قرة أعين: أي ما تقر به أعيننا وهو أن تراهم مطيعين لك يعبدونك وحدك.
واجعلنا للمتقين إماماً: أي من عبادك الذين يتقون سخطك بطاعتك قدوة يقتدون بنا في الخير.
يجزون الغرفة: أي الدرجة العليا في الجنة.
بما صبروا: أي على طاعتك بامتنال الأمر واجتتاب النهي.
حسنت مستقراً ومقاماً: أي صلحت وطابت مستقراً لهم أي موضع استقرار.

1 أي: أعيننا.

(3/632)

واقامة.
ما يعياً بكم ربي: أي ما يكثرث ولا يعتد بكم ولا يبالي.
لولا دعاؤكم: إياه، ودعاؤه إياكم لعبادته بذكره وشكره.
فسوف يكون لازماً: أي العذاب لازماً أي لازماً لكم في بدر ويوم القيامة.
معنى الآيات:
ما زال السياق الكريم في ذكر صفات عباد الرحمن الذي تجاهله المشركون وقالوا: وما الرحمن فيها هي ذي صفات عباده دالة عليه وعلى جلاله وكماله، وقد مضى ذكر خمس صفات:
والسادسة: في قوله تعالى {والذين لا يشهدون الزور} 1 الزور هو الباطل والكذب وعباد الرحمن لا يحضرون مجالسه ولا يقولونه ولا يشهدونه ولا ينطقون به {وإذا مروا باللغو} 2 وهو كل عمل وقول لا خير فيه {مروا كراماً} أي مكرمين أنفسهم من التلوث به، بالوقوف فيه.
والسابعة: في قوله تعالى {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم} أي إذا ذكروهم أحد بآيات القرآن كتاب ربهم عز وجل لم يحنوا رؤوسهم عليها صمماً حتى لا يسمعوها مواعظها ولا عمياناً حتى لا يشاهدوا آثار آياتها بل يحنون رؤوسهم سامعين لها واعين لما تقوله وتدعو إليه مبصرين آثارها مشاهدين وقائعين متأثرين بها.

والثامنة: في قوله تعالى {والذين يقولون} أي في دعائهم {ربنا هب لنا} أي أعطنا {من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} 4 أي ما تقر به أعيننا وذلك بأن نراهم يتعلمون الهدى ويعملون به طلباً لمرضاتك

يا ربنا {واجعلنا للمتقين} من عبادك الذين يتقون سخطك

1 قيل في الزور: إنه كل باطل زور وزخرف وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد وقال ابن عباس: إنه أعياد المشركين وقال عكرمة: اللعب كان في الجاهلية يسمى الزور، وقال مجاهد: الغناء: ويطلق اليوم على التصوير والصور إذ هو الزور والكذب قطعاً. والحكم في شاهد الزور أن يجلد أربعين جلدة ويسخّم وجهه ويحلق رأسه ويطاف به في السوق بهذا حكم عمر رضي الله عنه. وتسخيم الوجه أن يسود بالفحم.

2 اللغو: كل سقط من قول أو فعل فيدخل فيه الغناء واللهو وذكر النساء وغير ذلك من المنكر، وقال بعضهم اللغو كل قول أو عمل لم يحقق لك درهما لمعاشك ولا حسنة لمعادك.

3 كراماً: أي معرضين منكرين لا يرضونه ولا يمالئون عليه ولا يجالسون أهله.

4 قرّة العين مأخوذ من القرّ وهو البرد إذ دموع الفرح باردة و دموع الحزن حارة قال الشاعر:
فكم تسخنّت بالأمس عين قريرة
وقوت عيون دمعها اليوم ساكب
ومن ثم قالوا في الدعاء: اقر الله عينك أي: أفرحك.

(3/633)

بطاعتك بفعل أمرك وأمر رسولك واجتتاب نهيك ونهي رسولك {واجعلنا للمتقين إماما} 1 أي قدوة صالحة يقتدون بنا في الخير يا ربنا. قال تعالى مخبراً عنهم بما أنعم به عليهم: {أولئك} أي السامون أنفسهم العالون أرواحاً {يجزون الغرفة} وهي الدرجة العليا في الجنة {بما صبروا} على طاعة مولاهم، وما يلحقهم من أذى في ذات ربهم {ويلقون فيها} أي تتلقاهم الملائكة بالتهاني والتحيات {تحية وسلاماً} أي بالدعاء بالحياة السعيدة والسلامة من الآفات إذ هي حياة بلا ممتات، وسعادة بلا منغصات. وقوله تعالى {خالدين فيها} أي في تلك الغرفة في أعلى الجنة {حسنت مستقرًا} أي طابت موضع إقامة واستقرار. إلى هنا انتهى الحديث عن صفات عباد الرحمن وبيان جزائهم عند ربهم. وقوله تعالى: {قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم} أي قل يا رسولنا لأولئك المشركين المنكرين للرحمن {ما يعبأ بكم ربي} أي ما يكثرث لكم أو يبالي بكم {لولا دعاؤكم} إياه أي عبادة من يعبده منكم إذ الدعاء هو العبادة ما أبالي بكم ولا أكثرث لكم. أما وقد كذبتم بي وبرسولي فلم تعبدوني ولم توحّدوني وإذاً {فسوف يكون} العذاب 3 {لزاماً} وقد أدقتموه يوم بدر، وسوف يلزمهم في قبورهم إلى نشورهم، وسوف يلاحقهم حتى مستقرهم في جهنم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة شهود الزور 4 حرمة شهادته.
- 2- فضيلة الإعراض عن اللغو فعلاً كان أو قولاً.

1 وحدّ إماما ولم يجمعه {أئمة} لأن الإمام مصدر كالقيام والصيام أم القوم يؤمهم فهو إمام لهم، والمصدر يطلق فيدل على الواحد والجمع وجائز أن يراد أئمة كقول الرجل أميرنا هؤلاء ومنه قول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي
إن العواذل لسن لي بأمر

2 إذ كانوا يدعونه تعالى في حال الشدة وعلى هذا فالمصدر مضاف إلى الفاعل و {ياها} معمول للدعاء.. المصدر، وجائز أن يكون معناه لولا دعاؤه إياكم لعبادته بذكره وشكره فيكون المصدر الذي هو الدعاء مضافاً إلى مفعوله وجواب لولا محذوف تقديره لم يعبأ بكم.

3 قال الطبري: معناه عذاباً دائماً لازماً. وقيل: فقد كذبتم فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم أي: جزاؤه وهو العذاب لهم والمعنى واحد وهو لزوم العذاب لهم من أجل تكذيبهم الذي منعهم من تركية نفوسهم بالإيمان وصالح الأعمال.

4 وفي الصحيح: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الشرك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت".

(3/634)

-
- 3- فضيلة تدبر القرآن وحسن الاستماع لتلاوته والاتعاظ بمواعظه والعمل بهديته.
 - 4- فضيلة علو الهمة وسمو الروح وطلب الكمال والقوة في الخير.
 - 5- لا قيمة للإنسان وهو أشرف الحيوانات لولا عبادته الله عز وجل فإذا لم يعبد الله كان شر الخليقة. 1

1 شاهده قوله تعالى: {أولئك هم شر البرية} وهم الكفار من أهل الكتاب والمشركون. (من سورة البينة).

(3/635)

سورة الشعراء

...

سورة الشعراء

مكية

وآياتها مائتان وسبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ
مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا
عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
(9)

شرح الكلمات:

طسم: الله أعلم بمراده بذلك.

الكتاب المبين: أي القرآن المبين للحق من الباطل

باخع نفسك: أي قاتلها من الغم.

ألا يكونوا مؤمنين: أي من أجل عدم إيمانهم بك.

آية: أي نخوفهم بها.

من ذكر: أي من قرآن.

معرضين: أي غير ملتفتين إليه.

زوج كريم: أي صنف حسن.

العزیز: الغالب على أمره و مراده.

الرحيم: بالمؤمنين من عباده.

(3/636)

معنى الآيات:

طسم هذه أحد الحروف المقطعة تكتب طسم، وتقرأ طا سين ميم بإدغام النون من سين في الميم
الأولى من ميم والله أعلم بمراده منها. وفيها إشارة إلى أن القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف وعجز
العرب عن تأليف مثله بل سورة واحدة من مثله دال قطعاً على أنه كلام الله ووحيه إلى رسوله صلى
الله عليه وسلم وقوله {تلك آيات الكتاب} أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات الكتاب

أي القرآن المبين للحق أي المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال، والشرائع والأحكام. وقوله تعالى {لعلك باخع نفسك} أي قائلها ومهلكها {ألا يكونوا مؤمنين} أي إن لم يؤمن بك وبما جئت به قومك، فأشفق على نفسك يا رسولنا ولا تعرضها للغم القاتل فإنه ليس عليك هدايتهم وإنما عليك البلاغ وقد بلغت، إنا لو أردنا هدايتهم بالقسر والقهْر لما عجزنا عن ذلك {إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم} لها خاضعين {أي إنا لقادرون على أن نزل عليهم من السماء آية كرفع جبل أو إنزال كوكب أو رؤية ملك فظلت أي فتظل طوال النهار أعناقهم خاضعة، تحتها تتوقع في كل لحظة نزولها عليهم فتهلكهما فيؤمنوا حينئذ إيمان قسر وإكراه ومثله لا ينفع صاحبه فلا يزكي نفسه ولا يظهر روحه لأنه غير إرادي له ولا اختياري.

وقوله تعالى {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن} 3 {محدث} أي وما يأتي قومك المكذبين لك من موعظة قرآنية وحجج وبراهين تنزيلية تدل على صدقك وصحة دعوتك مما يحدثه الله إليك وبوحى به إليك لتذكركم به إلا أعرضوا فلا يستمعون إليه ولا يفكرون فيه.

وقوله تعالى: {فقد كذبوا به} 4 يخبر تعالى رسوله بأن قومه قد كذبوا بما أتاهم من ربه من ذكر محدث وعليه {فسياؤتيهم أنباء} أي أخبار {ما كانوا به يستهزئون} وهو عذاب الله تعالى الذي كذبوا برسوله ووحيه وجحدوا توحيده وأنكروا طاعته وفي الآية وعيد شديد وهم عرضة له في أية لحظة إن لم يتوبوا.

1 {تلك آيات الكتاب} قال القرطبي رفع على إضمار مبتدأ أي: هذه تلك.. الخ وما في التفسير أولى أي: هي آيات الكتاب.

2 لأنهم إذا ذلت أعناقهم ذلوا ولا داعي إلى أن يقال: أعناقهم: كبارؤهم ورؤساؤهم وإن ساغ لغة، إذ المراد أن ينزل عليهم آية تخضعهم وتذلهم رؤساء ومرؤوسين، والأعناق جمع عنق بضم العين والنون وهو الرقبة ولما كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها ومقتضى ظاهر الكلام هو فضلوا لها خاضعين بأعناقهم، وعدل عنه إلى إسناد الخضوع إلى الأعناق لأنه يحمل الإشارة إلى خضوع رؤسائهم الحاملين على الكفر والعناد وهذا من بليغ الكلام وبديعه.

3 {محدث} أي: مستجد متكرر بعضه يعقب بعضاً ويؤيده.

4 {فقد كذبوا} الفاء هي الفصيحة أفصحت عن تكذيبهم الناتج عن إعراضهم والفاء في فسياؤتيهم للتعقيب والأنباء جمع نبأ وهو الخبر ذو الشأن، والجملة تحمل التهديد والوعيد الشديد.

وقوله تعالى {ولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} إن كانت علة هذا التكذيب من هؤلاء المشركين هي إنكارهم للبعث والجزاء وهو كذلك فلم لا ينظرون إلى الأرض الميتة بالقحط ينزل الله تعالى عليها ماء من السماء فتحيا به بعد موتها فثبت الله فيها من كل زوج أي صنف من أصناف النباتات كريم أي حسن. أليس في ذلك آية على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم وحشرهم للحساب والجزاء، فلم لا ينظرون؟ {إن في ذلك لآية} أي علامة واضحة للمشركين على صحة البعث والجزاء. ففي إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم. وقوله تعالى {وما كان أكثرهم مؤمنين}2 يخبر تعالى أن فيما ذكر من إنبات أصناف النباتات الحسنة آية على البعث والحياة الثانية ولكن قضى الله أولاً أن أكثر هؤلاء المشركين لا يؤمنون وقوله {وإن ربك لهو العزيز الرحيم}3 يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {وإن ربك لهو العزيز} أي الغالب على أمره المنتقم من أعدائه {الرحيم} بأوليائه فاصبر لحكمه وتوكل عليه وواصل دعوتك في غير غم ولا هم ولا حزن وإن العاقبة للمؤمنين بك المتبعين لك .

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان أن القرآن الكريم معجز لأنه مؤلف من مثل طاسين ميم ولم يستطع أحد أن يؤلف مثله.
- 2- بيان ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يناله من الغم والحزن وتكذيب قومه له.
- 3- بيان أن إيمان المكروه لا ينفعه، ولذا لم يكره الله تعالى الكفار على الإيمان بواسطة الآيات.
- 4- التحذير من عاقبة التكذيب بآيات الله وعدم الاكتراث بها.
- 5- في إحياء الأرض بالماء وإنبات النباتات المختلفة فيها دليل على البعث الآخر.

1 الاستفهام إنكاري والهمزة داخلة على محذوف والواو عاطفة عليه نحو: اعملوا ولم يروا. الرؤية: معناها النظر بالعين، ولذا عدّي الفعل بالي. والزوج: النوع، والكريم: النفيس في نوعه وكم: للتكثير ومن للتبعيض.

2 المراد ممن نفى الإيمان عن أكثرهم هم: أكابر مجرمي مكة إذ أكثرهم مات كافراً أما غيرهم فندر من لم يؤمن منهم إذ دخلوا في دين الله بعد الفتح أفواجاً.

3 الجملة تعليلية تضمنت التذكير بعزة الله تعالى ورحمته فدوا العزة قادر على أن ينزل عذابه بأعدائه وذو الرحمة قادر على رحمة أوليائه كما أن هناك إشارة إلى أن تخلف العذاب اقتضته رحمته سبحانه وتعالى.

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)

شرح الكلمات:

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ: أي اذكر لقومك يا رسولنا إذ نادى ربك موسى.

أَنْ ائْتِ: أي بأن ائت القوم الظالمين.

أَلَا يَتَّقُونَ: ألا يخافون الله ربهم ورب آبائهم الأولين ما لهم ما دهاهم؟

وَيَضِيقُ صَدْرِي: أي من تكذيبهم لي.

وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي: أي للعقدة التي به.

فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ: أي إلى أخي هرون ليكون معي في إبلاغ رسالتي.

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ: أي ذنب القبطي الذي قتله موسى قبل خروجه إلى مدين.

قَالَ كَلَّا: أي قال الله تعالى له كلاً أي لا يقتلونك.

فَادْهَبَا: أنت وهرون.

إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ: أي إليك.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى} هذا بداية سلسلة من القصص بدئت بقصه موسى وختمت بقصة شعيب وقصها على المشركين ليشاهدوا أحداثها ويعرفوا نتائجها

(3/639)

وهي دمار المكذبين وهلاكهم مهما كانت قوتهم وطالت أعمارهم قال تعالى في خطاب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى} أي اذكر إذ نادى ربك موسى في ليلة باردة شاتية بالواد الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة {أَنْ ائْتِ 1 القوم الظالمين قوم 2 فرعون} إذ ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وظلموا بني إسرائيل باضطهادهم وتعذيبهم {أَلَا يَتَّقُونَ} أي قل لهم ألا تتقون أي يأمرهم بتقوى ربهم بالإيمان به وتوحيده وترك ظلم عباده فالاستفهام معناه الأمر. وقوله تعالى {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} أي قال موسى بعد تكليفه رب إنني أخاف أن يكذبون 3 فيما أخبرهم به وأدعوهم إليه، {وَيَضِيقُ صَدْرِي} لذلك {وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي} للعقدة التي به، وعليه {فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} أي جبريل يبلغه أن يكون معي معيناً لي على إبلاغ رسالتي، وقوله {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} هذا قول موسى عليه السلام لربه تعالى شكاً إليه خوفاً من قتلهم له بالنفس 5 التي قتلها أيام

كان بمصر قبل خروجه إلى مدين فأجابه الرب تعالى {كلا6} أي لن يقتلوك. وأمرهما بالسير إلى فرعون فقال {فأذهبا بآياتنا} وهي العصا واليد {إنا معكم مستمعون} أي فبلغاه ما أمرتكما ببلاغه وإنا معكم مستمعون لما تقولان ولما يقال لكما {فأتيا فرعون فقولا له} عند وصولكما إليه {إنا رسول رب العالمين} أي نحمل رسالة منه مفادها أن ترسل معنا8 بني إسرائيل لنخرج بهم إلى أرض الشام التي وعد الله بها بني إسرائيل هذا ما قاله موسى وهرون رسولا رب العالمين أما جواب فرعون ففي الآيات التالية.

- 1 (أن) تفسيرية لأنها واقعة بعد النداء وهو قول.
- 2 قوم فرعون: بدل من الظالمين.
- 3 {أن يكذبون}: الأصل: أن يكذبوني فحذفت النون الأولى للناصب وهو أن فصارت يكذبونني ثم حذفت ياء الضمير لدلالة الكسرة عليها فصارت {يكذبون}.
- 4 قرأ الجمهور يضيق صدري ولا ينطلق لساني بالرفع للفعلين معاً على الاستئناف وقرىء بنصبهما لغير الجمهور.
- 5 المراد بالنفس: نفس القبطي واسمه فاثور.
- 6 {كلا} للردع والزجر عن هذا الظن.
- 7 لم يقل: رسولا إما لأن رسول بمعنى رسالة إنا ذو رسالة رب العالمين وإما لأن الرسول بمعنى الجمع كالمصادر نحو. هذا عدوي وهؤلاء عدوي، والعرب تقول: هذان رسولي وهؤلاء رسولي.
- 8 قيل: أقام بنو إسرائيل في مصر أربعمئة سنة وكانوا يوم خرجوا منها ستمائة ألف.

(3/640)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إثبات صفة الكلام لله تعالى بندائه موسى عليه السلام.
 - 2- لا بأس بإبداء التخوف عند الأقدام على الأمر الصعب ولا يقدر في الإيمان ولا في التوكل.
 - 3- مشروعية طلب العون والمساعدة من المسؤولين إذا كلفوا المرء بما يصعب.
- قَالَ أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيْدًا وَلَبِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكِ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

شرح الكلمات:

قال : أي قال فرعون رداً على كلام موسى في السياق السابق.
ألم نريك فينا وليداً : أي في منازلنا وليداً أي صغيراً قريباً من أيام الولادة.
ولبثت فينا من عمرك سنين : أي أقيمت بيننا قرابة ثلاثين سنة وكان موسى يدعى ابن فرعون لجهل
الناس به ورؤيتهم له في قصره يلبس ملابسه ويركب مراكبه.
وفعلت فعلتك التي فعلت : أي قتل الرجل القبطي.
و أنت من الكافرين : أي الجاحدين لنعمتي عليك بالتريبة وعدم الاستعداد.
و أنا من الضالين: إذ لم يكن عندي يومئذ من علم ربي ورسالته ما عندي الآن.
أن عبدت بني إسرائيل : أي هل تعبيدك لبني إسرائيل يعد نعمة فتمن بها علي؟

(3/641)

معنى الآيات:

ما زال السياق والحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن فرد فرعون على موسى بما أخبر تعالى به عنه في قوله {قال ألم نريك 1 فينا وليداً} أي أتذكر معترفاً أنا ربيناك وليداً أي صغيراً وأنت في حال الرضاع {ولبثت فينا} أي في قصرنا مع الأسرة المالكة {سنين} ثلاثين سنة قضيتها من عمرك في ديارنا {وفعلت فعلتك(2)} أي الشنعاء {التي فعلت} وهي قتل موسى القبطي {وأنت من الكافرين} أي لنعمنا عليك الجاحد بها، كان هذا رد فرعون فلنستمع إلى رد موسى عليه السلام كما أخبر به الله تعالى عنه في قوله: {قال فعلتها إذا} أي يومئذ {وأنا من الضالين} أي الجاهلين لأنه لم يكن قد علمني ربي ما علمني الآن وما أوحى إليّ ولا أرسلني إليكم 2 رسولاً {ففرقت 3 منكم لما خفتكم} من أجل قتلي النفس التي قتلت وأنا من الجاهلين {فوهب لي ربي حكماً} أي علماً نافعاً يحكمني دون فعل ما لا ينبغي فعله {وجعلني من المرسلين 4} أي من أنبيائه ورسله إلى خلقه ثم قال له رداً على ما امتن به فرعون بقوله : {ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين} فقال {وتلك 5 نعمة} أي أو تلك نعمة تمنها علي وهي {أن عبدت بني إسرائيل} أي استعبدتهم أي اتخذتهم عبيداً لك يخدمونك تستعملهم كما تشاء كالعبيد لك ولم تستعبدني أنا لاتخاذك إياي ولداً حسب زعمك فأين النعمة التي تمنها علي يا فرعون، نترك رد فرعون إلى الآيات التالية.

1 الاستفهام للتقرير ومعناه المنّ على موسى والاحتقار له.

2 الفعل: المرة وبالكسر: الهيئة وقرأ الجمهور {فَعَلْتُكَ} وهي المرة من الفعل، وشاهد الفعل بالكسر للهيئة قول الشاعر:

كأن مشيتها من بيت جارتها

مَرَّ السَّحَابَةُ لَا رِيثَ وَلَا عَجَلَ
يَذَكَرُهُ بِقَتْلِهِ الْقَبْطِيَّ تَخْوِيفًا لَهُ وَتَهْدِيدًا.
3 كان خروج موسى من مصر إلى أن عاد إليها أحد عشر عاماً إلا أشهراً.
4 أي فررت منكم إلى أرض مدين.
5 بناء على أنه قضى ثلاثين سنة في مصر وأحد عشر عاماً خارجها فقد نبيء على رأس الأربعين وهي سنة الله تعالى في الرسل.
6 حرف الاستفهام مقدر أي: أو تلك كما هو في التفسير والاستفهام إنكاري أي ينكر موسى على فرعون أن يكون استعباد بني إسرائيل نعمة تعدّ عليهم وهذا التقدير أولى من قول: "إن موسى اعترف لفرعون بنعمة التربية من حيث استعبد غيره وتركه هو لم يتعبده" ومن اعترض بأن همزة الاستفهام لا تحذف إذا لم يكن في الكلام أم الدالة عليها محجوج بشواهد كثيرة منها قول الشاعر:
لم أنس يوم الرحيل وقفنها
وجفنها من دموعها شرق
وقولها والركاب واقفة
تركتني هكذا وتنطلق
والشاهد في قوله: تركتني إذ الأصل: أتركتني فحذفت همزة الاستفهام مع عدم (أم).

(3/642)

هداية الآيات

من هداية الآيات

- 1- قبح جريمة القتل عند كافة الناس مؤمنهم وكافرهم وهو أمر فطري.
- 2 - جواز التنكير بالإحسان لمن أنكره ولكن لا على سبيل الامتنان فإنه محبط للعمل.
- 3 - جواز إطلاق لفظ الضلال على الجهل كما قال تعالى {ووجدك ضالاً} كما قال موسى {وأنا من الضالين} أي الجاهلين قبل أن يعلمني ربي.
- 4- مشروعية الفرار من الخوف إذا لم يكن في البلد قضاء عادل، وإلا لما جاز الهرب من وجه العدالة.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَنْ نَأْتِيَنَّكَ بِهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصادقين (31)

شرح الكلمات:

وما رب العالمين: أي الذي قلت إنك لرسوله من أي جنس هو؟
رب السموات والأرض وما بينهما: أي خالق ومالك السموات والأرض وما بينهما.
إن كنتم موقنين: بأن السموات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات مخلوقة قائمة فخالقها
ومالكها هو رب العالمين.
لمن حوله: أي من أشرف قومه ورجال دولته.
ألا تستمعون: أي جوابه الذي لم يطابق السؤال في نظره.

(3/643)

أو لو جئتك بشي مبين: أي أتسجني ولو جئتك ببرهان وحجة على رسالتي.
فأت به إن كنت من الصادقين: أي فأت بهذا الشيء المبين إن كنت من الصادقين فيما تقول.
معنى الآيات:
ما زال السياق الكريم في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن لما قال
موسى {إني في رسول رب العالمين} في أول حوار قال فرعون مستفسراً في عناد و مكابرة {وما
رب العالمين} أي أي شيء هو أو من أي جنس من أجناس المخلوقات فأجابه موسى بما أخبر
تعالى به عنه {قال رب السموات والأرض وما بينهما} أي خالق السموات والأرض وخالق ما
بينهما. ومالك ذلك كله، إن كنتم موقنين بأن كل مخلوق لا بد له من خالق خلقه، وهو أمر لا تنكره
العقول. وهنا قال فرعون في استخفاف وكبرياء لمن حوله من رجال دولته وأشراف قومه: {ألا
تستمعون} كأن ما قاله موسى أمر عجب أو مستنكر فعرف موسى ذلك فقال {ربكم ورب آبائكم
الأولين} أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الكل مربوب له خاضع لحكمه وتصرفه. وهو اغتاط
فرعون فقال {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} أراد أن ينال من موسى لأنه أغاظه بقوله {ربكم
ورب آبائكم الأولين} فرد موسى أيضاً قائلاً {رب المشرق والمغرب وما بينهما} أي رب الكون كله
{إن كنتم تعقلون} أي ما تخاطبون به ويقال لكم وفي هذا الجواب ما يتقطع له قلب فرعون فلذا رد
بما أخبر به تعالى عنه في قوله {قال لئن اتخذت إلهاً غيري} أي رباً سواي {لأجعلنك من
المسجونين} أي لأسجنتك وأجعلك في قعر تحت الأرض مع المسجونين. فرد موسى عليه السلام
قائلاً {أو لو جئتك بشي مبين} أي أتسجني ولو

1 لما غلب فرعون في جداله لموسى استفهم بقوله: {فما رب العالمين} وهو استفهام عن جنس ولم

- يستفهم عن رب العالمين تجاهلاً منه ومكابرة فقال: {وما رب العالمين} وكان المطلوب أن يقول:
ومن ربّ العالمين؟ ولكته العلو والتكبر .
- 2 لما علم موسى جهل فرعون وتجاهله أجابه بما يلقيه الحجر ويبطل دعواه في أن الربوبية تكون لبشر أو حجر فقال: {رب السموات ...} الخ.
- 3 استفهم اللعين استفهام تعجب وتهكم مستخفاً بجواب موسى قائلاً {ألا تسمعون} أي إلى قول هذا الذي زعم إبطال عقيدتكم وعقيدة آبائكم ولذا أجاب موسى بتقرير جوابه الأول وهو مفحم مبطل لدعوى ربوبية فرعون .
- 4 في جواب موسى عليه السلام هذا تُلطف بفرعون وطمع في إيمانه لما بهره به من الردود المحكمة والإجابات المفحمة.

(3/644)

جئت بحجة بينة وبرهان ساطع على صدقي فيما قلت وأدعوكم إليه؟ وهنا قال فرعون ما أخبر تعالى به {قال فأت به إن كنت من الصادقين} أي فيما تدعي وتقول.
هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- تقرير الربوبية المقتضية للألوهية من طريق هذا الحوار لسمع ذلك المشركون، وليعلموا أنهم مسبقون بالشرك والكفر وأنهم ضالون.
- 2- سنة أهل الباطل أنهم يفجرون في الخصومة وفي الحديث "إذا خاصم فجر" 1 .
- 3- أهل الكبر والعلو في الأرض إذا أعتبهم الحجج لجأوا إلى التهديد والوعيد واستخدام القوة.
فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَا ثُوَكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

1 نص الحديث الشريف كما هو في الصحيح: "أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان و إذا حدث كذب و إذا عاهد غدر و إذا خاصم فجر".

شرح الكلمات:

ثعبان مبین: أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا شك.
ونزع يده: أي أخرجها من جيبه بعد أن أدخلها فيه.
لساحر عليم: أي متفوق في علم السحر.
أرجه وأخاه: أي أخر أمرهما.
حاشرين: أي جامعين للسحرة.
سحار عليم: أي متفوق في الفن أكثر من موسى.
يوم معلوم: هو ضحى يوم الزينة عندهم.
هل أنتم مجتمعون: أي اجتمعوا كي نتبع السحرة على دينهم إن كانوا هم الغالبين.
وإنكم إذا لمن المقربين: أي لكم الأجر وهو الجعل الذي جعل لهم وزادهم مزية القرب منه.
معنى الآيات

ما زال السياق الكريم في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن لقد تقدم في السياق أن فرعون طالب موسى بالإتيان بالآية أي الحجة على صدق دعواه وهامو ذا موسى عليه السلام يلقي عصاه أمام فرعون وملائه فإذا هي ثعبان ظاهر لا شك فيه، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين لا يشك في بياضها وأنه بياض خارق للعادة هذا ما دلت عليه الآيات الأولى (32) والثانية (33) {فألقي عصاه فإذا هي ثعبان 1 مبین، ونزع يده فإذا هي 2 بيضاء للناظرين} واعترف فرعون بأن ما شاهده من العصا واليد أمر خارق للعادة ولكنه راوغ فقال {إن هذا} أي موسى {لساحر عليم} أي ذو خبرة بالسحر وتفوق فيه قال هذا للملأ حوله كما قال تعالى عنه {قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم} وقوله تعالى عنه {يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره} قال فرعون هذا تهيجاً للملأ ليثوروا ضد موسى عليه السلام وهذا من المكر السياسي إذ جعل القضية

1 الثعبان: الحية الضخمة الطويلة، و {مبین} بمعنى بَيِّن لا خفاء فيه ولا غموض {ونزع يده} أي أخرجها من قميصه بسرعة إذ هذا ما يدل عليه لفظ النزع، ولم يذكر المنزع منه لدلالة اللفظ عليه أي: من جيب قميصه.

2 إذا: هي الفجائية ومعنى: {للناظرين} أي: مما يقصده الناظرين لما فيه من العجب وكان جلد موسى أسمر وكانت اليد بيضاء فكان ذلك آية أخرى.

سياسية بحتة وأن موسى يريد الاستيلاء على الحكم والبلاد ويطرده أهلها منها بواسطة السحر، وقال لهم كالمستشير لهم {فماذا تأمرون؟} فأشاروا عليه بما أخبر تعالى به عنهم {قالوا أرجه وأخاه} أي أخر أمرهما {وابعث في المدائن} أي مدن المملكة رجالاً {حاشرين} أي جامعين {يأتوك} أيها الملك {يكل سحار 1} أي ذو خبرة في السحر متفوقة، وفعلاً أخذ بمشورة رجاله {فجمع السحرة لميقات يوم معلوم} أي لموعد معلوم وهو ضحى يوم العيد عندهم واستحثوا الناس على الحضور من كافة أنحاء البلاد وهو ما أخبر تعالى به في قوله {قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار 2} فجمع 2 السحرة لميقات يوم معلوم، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة؟ فنبقى على ديننا ولا نتبع موسى وأخاه على دينهما الجديد {إن كانوا} أي السحرة {هم الغالبيين} وهذا من باب الاستحاثات والتحريض على الالتفات حول فرعون وملائته. وقوله تعالى {فلما جاء السحرة} أي من كافة أنحاء البلاد قالوا لفرعون ما أخبر تعالى به عنهم {أئن لنا لأجراً 3} أي جعلاً {إن كنا نحن الغالبيين؟} فأجابهم فرعون قائلاً {نعم وإنكم إذا لمن 4 المقربين} أي زيادة على الأجر مكافأة أخرى وهي أن تكونوا من المقربين لدينا، وفي هذا إغراء كبير لهم على أن يبذلوا أقصى جهدهم في الانتصار على موسى عليه السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إثبات المعجزات للأنبياء كمعجزة العصا واليد لموسى عليه السلام.

2- مشروعية استشارة الأمير رجاله في الأمور ذات البال.

3- ثبوت السحر وأنه فن من فنون المعرفة وإن كان تعلمه وتعليمه محرماً.

4- إعطاء المكافأة للفائزين في المباراة وغيرها ومن ذلك السباق في الإسلام.

1 {سحار} فيه وصف ثابت دال على تعاطيه للمهنة ورسوخه فيها كنجار وخباط وبناء والوصف

بعليم: فيه الحث على الإتيان بالمهارة من السحرة لعظم الموقف.

2 دلت الفاء على الفورية واللام كذلك في الميقات أي: لأول الوقت كقوله: {الصلاة لوقتها} أي: في

أول وقتها، وقوله {للناس} المراد بالناس أهل بلاده، والاستفهام في {هل أنتم مجتمعون} للاستحاثات

على الاجتماع.

3 سؤال السحرة الأجر إيدلال بخبرتهم والتذكير بالحاجة إليهم لعلمهم بأن فرعون حريص على غلبهم

لموسى، وخافوا أيضاً أن يستخدمهم فرعون بدون أجر لأن الحال حال التعبئة العامة للدفاع عن

المعتقدات وأهلها فلذا شرطوا أجرهم قبل الشروع في العمل.

4 {إذا} أي: إذا كنتم فعلاً غالبيين إن لكم لأجراً عظيماً.

قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (43) فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (44) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (45) فألقى السحرة ساجدين (46) قالوا آمنا برب العالمين (47) رب موسى وهارون (48) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلننطقن لأفئتن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين (49)

شرح الكلمات:

ألقوا ما أنتم ملقون : أمرهم بالإلقاء توسلاً إلى ظهور الحق.
ما يأفكون: أي ما يقبلونه بتمويههم من أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى.
رب موسى وهرون : أي لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يأتي بواسطة السحر.
من خلاف: أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى.
ولأصلبنكم أجمعين : أي لأشدنكم بعد قطع أيديكم وأرجلكم من خلاف على الأخشاب.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن إنه بعد إرجاء السحرة فرعون وسؤالهم له: هل لهم من أجر على مباراتهم موسى إن هم غلبوا وبعد أن طمأنهم فرعون على الأجر والجائزة قال لهم موسى {ألقوا 1 ما أنتم ملقون} من الحبال والعصي في الميدان {فألقوا حبالهم وعصيهم} وأقسموا بعزة فرعون إنهم هم

1 جاء في سورة الأعراف أن السحرة عرضوا على موسى أن يلقى عصاه أو يلقوا حبالهم وعصيهم وهنا قال لهم موسى عليه السلام {ألقوا} بناء على عرضهم ذلك.

الغالبون وفعلاً انقلبت الساحة كلها حيات وثعابين حتى أوجس موسى في نفسه خيفة فأوحى إليه ربه تعالى أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون. هذا معنى قوله تعالى في هذا السياق {فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة 1 فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون} 2 ومعنى تلقف ما يأفكون أي تتلصق في جوفها من طريق فمها كل ما أفكه أي كذبه وافتراه السحرة بسحرهم من انقلاب الحبال والعصي حيات وثعابين، وقوله تعالى {وألقى السحرة ساجدين} أي أنهم لاندھاشهم وما بهرهم من الحق ألقوا بأنفسهم على الأرض ساجدين لله تعالى مؤمنين به،

فسئلوا عن حالهم تلك فقالوا {أما برب العالمين رب موسى وهرون} وهنا خاف فرعون تفلت الزمام من يده وأن يؤمن الناس بموسى وهرون ويكفروا به فقال للسحرة: {أمنتكم به قبل أن آذن لكم} بذلك أي كيف تؤمنون بدون إذني؟ على أنه يملك ذلك منهم وهي مجرد مناورة مكشوفة، ثم قال لهم {إنه} أي موسى {لكبيركم الذي علمكم السحر} أي انه لما كان أستاذكم تواطأتم معه على الغلب فأظهرتم أنه غلبكم، تمويهاً وتضليلاً للجماهير.. ثم تهددهم قائلاً {فلسوف تعلمون}3 {عقوبتي لكم على هذا التواطؤ وهي {لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف} أي أقطع من الواحد منكم يده اليمنى ورجله اليسرى {ولأصلبنكم أجمعين} فلا أبقى منكم أحداً إلا أشده على خشبة حتى يموت مصلوباً، هل فعل فرعون ما توعد به؟ الله أعلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- لم يبادر موسى بإلقاء عصاه أولاً لأن المسألة مسألة علم لا مسألة حرب ففي الحرب تنفع المبادرة بافتكاك زمام المعركة، وأما في العلم فيحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كر عليه بالحجج والبراهين فأبطله وظهر الحق وانتصر على الباطل، هذا الأسلوب الذي اتبع موسى بإلهام من ربه تعالى.

1 يبدو أن الباء في قولهم {بعزة فرعون} هي كالباء في بسم الله للاستعانة والتبرك لا للقسم وهذا أولى بالمقام من الحلف على شيء لا يملكه المرء وتكون جملة: {إننا لنحن الغالبون} مستأنفة استئنافاً بيانياً وليست جواب قسم إلا أنها حملت معنى القسم بما فيه من المؤكدات كأنهم قالوا إننا وربنا لغالبون.

2 قرأ نافع {تلقف} بتشديد القاف، والأصل: تتلقف فحذفت إحدى التائين تخفيفاً، وقرأ حفص {تلقف} بتخفيف القاف من: لقف الشيء يلقفه لققاً: إذ أخذه بسرعة.

3 اللام للقسم. وبم يقسم فرعون؟ يقسم بحسب عاداته في إيمانه فقد يقسم بعزته.

(3/649)

2- مظهر من مظاهر الهداية الإلهية هداية السحرة إذ هم في أول النهار سحرة كفره وفي آخره مؤمنون برة.

3- ما سلكه فرعون مع السحرة كله من باب المناورات السياسية الفاشلة.
قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (52) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

(53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَا هُمْ
مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ
(60)

شرح الكلمات:

لا ضير: أي لا ضرر علينا.

لمنقلبون: أي راجعون بعد الموت وذلك يسر ولا يضر.

أن كنا أول المؤمنين : أي رجوا أن يكفر الله عنهم سيئاتهم لأنهم سبقوا بالإيمان.

أن أسر بعبادي: السري المشي ليلاً والمراد من العباد بنو إسرائيل.

إنكم متبعون: أي من قبل فرعون وجيوشه.

لشردمة: أي طائفة من الناس.

لغائظون: أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا.

حذرون: أي متيقظون مستعدون.

ومقام كريم : أي مجلس حسن كان للأمرء والوزراء.

كذلك : أي كان إخراجنا كذلك أي على تلك الصورة.

مشرقين : أي وقت شروق الشمس.

(3/650)

معنى الآيات:

قوله تعالى {قالوا لا ضير 1} هذا قول السحرة لفرعون بعد أن هددهم وتوعدهم {قالوا لا ضير} أي لا
ضرر علينا بتقطيعك أيدينا وأرجلنا وتصليبك إيانا {إنا إلى 2} رينا منقلبون {أي راجعون إن كل الذي
تفعله معنا إنك تعجل برجعنا إلى ربنا وذلك أحب شيء إلينا.

وقالوا {إنا نطمع 3} أن يغفر لنا ربنا خطايانا {أي ذنوبنا} {إن كنا أول المؤمنين} في هذه البلاد برب
العالمين رب موسى وهرون.

بعد هذا الانتصار العظيم الذي تم لموسى وهرون أوحى تعالى إلى موسى {أن أسر 4} بعبادي {أي
امش بهم ليلاً} {إنكم متبعون} أي من قبل فرعون وجنوده. وعلم فرعون بعزم موسى على الخروج
ببني إسرائيل فأرسل في المدائن 5 وكانت به مآت المدن حاشرين من الرجال أي جامعين وكأنها

تعبئة عامة. يقولون محرضين {إن هؤلاء 6} أي موسى و بني إسرائيل {لشردمة} أي طائفة أفرادها
قليلون {إنهم لنا لغائظون} أي 7 لفاعلون ما ويغضبنا {وإننا} أي حكومة وشعباً {لجميع حذرون} أي
متيقظون مستعدون فهلم إلى ملاحقتهم وردهم إلى الطاعة. وعجل تعالى بالمسرة في هذا الخبر فقال

تعالى {فأخرجناهم} أي آل فرعون {من جنات وعيون وكنوز} أي كنوز الذهب والفضة التي كانت مدفونة تحت التراب، إذ الطمس كان على العملة فسدت وأما مخزون الذهب والفضة فما زال تحت الأرض، إذ الكنز يطلق على المدفون تحت الأرض وإن كان شرعاً هو الكنز ما لم تؤد زكاته سواء كان تحت الأرض أو فوقها.

وقوله تعالى {كذلك} أي إخراجنا لهم كان كذلك، {وأورثناها} أي تلك النعم بني إسرائيل أي بعد هلاك فرعون وجنوده أجمعين. وقوله تعالى {فأتبعوهم مشرفين} أي فاتبع آل فرعون بني إسرائيل أنفسهم في وقت شروق الشمس ليردوهم ويحولوا بينهم

- 1 الضير: مرادف الضرّ يقال: ضاره يضيّره بمعنى ضره يضره سواء.
- 2 الجملة تعليلية لنفيهم الضرر عليهم.
- 3 لفظ الطمع يطلق ويراد به الظنّ الضعيف غالباً ويراد به الظن القوي أيضاً كقول إبراهيم عليه السلام: {والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين}.
- 4 قرأ نافع {أن اسر} بهمزة وصل إذ هو من سرى يسري وحركت النون لالتقاء الساكنين. وقرأ عاصم: {أن أسر} بسكون أن وقطع همزة أسر لأنه من أسرى، وأسرى وسرى بمعنى واحد.
- 5 المدائن جمع مدينة وهي البلد العظيم.
- 6 الإشارة بهؤلاء فيه إيماء بتحقير شأن بني إسرائيل، والشردمة الطائفة القليلة العدد.
- 7 الغيظ: أشد الغضب، وغائظون: اسم فاعل من: غاظه بمعنى أغاظه أي: أغضبه أشد الغضب.
- 8 يرى بعضهم أن الله أورث بني إسرائيل نعماً نظير ما كان لفرعون وقومه بدليل آية الدخان: {وأورثناها قوماً آخرين} وبدليل أن بني إسرائيل ما رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها والله أعلم.

(3/651)

وبين الخروج من البلاد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- قوة الإيمان مصدر شجاعة خارقة للعادة بحيث يفرح المؤمن بالموت لأنه يوصله إلى ربه.
- 2- حسن الرجاء في الله والطمع في رحمته، وفضل الأسبقية في الخير.
- 3- مشروعية التعبئة العامة واستعمال أسلوب خاص في الحرب يهديء من مخاوف الأمة حكومة وشعباً.
- 4- دمار الظالمين وهلاك المسرفين في الكفر والشر والفساد.

فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)
فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

شرح الكلمات:

فلما تراءى الجمعان: أي رأى بعضهما بعضاً لتقاربهما والجمعان جمع بني إسرائيل وجمع فرعون.
إننا لمدركون: أي قال أصحاب موسى من بني إسرائيل إننا لمدركون أي سيلحقنا فرعون وجنده.
قال كلا: أي قال موسى عليه السلام كلا أي لن يدركونا ولن يلحقوا بنا.
فانفلق: أي انشق.

فكان كل فرق كالطود: أي شق أي الجزء المنفرد والطود: الجبل.
وأزلفنا ثم الآخرين: أي قربنا هنا لك الآخرين أي فرعون وجنده.

(3/652)

إن في ذلك لآية: أي عظة وعبرة توجب الإيمان برب العالمين برب موسى وهرون.
معنى الآيات:

هذا آخر قصة موسى عليه السلام مع فرعون قال تعالى في بيان نهاية الظالمين وفوز المؤمنين
{فلما تراءى1 الجمعان} جمع موسى وجمع فرعون وتقاربا بحيث رأى بعضهما بعضا {قال أصحاب
موسى} أي بنو إسرائيل {إننا لمدركون} أي خافوا لما رأوا جيوش فرعون تتقدم نحوهم صاحوا {إننا
لمدركون} فطمأنهم موسى بقوله {كلا2} أي لن تدرکوا، وعلل ذلك بقوله {إن معي ربي سيهدين} إلى
طريق نجاتي قال تعالى {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضرب امتثالاً
لأمر ربه فانفلق البحر فرقتين كل فرقة3 منه كالجبل العظيم {وأزلفنا4} أي قربنا {ثم الآخرين} أي
أدنيا هناك الآخرين وهم فرعون وجيوشه {وأنجينا موسى ومن معه} أي من بني إسرائيل {أجمعين}
{ثم أغرقنا الآخرين} المعادين لبني إسرائيل وهم فرعون وجنده. قوله تعالى {إن في ذلك} المذكور هن
إهلاك فرعون وإنجاء موسى، بني إسرائيل {لآية} أي علامة واضحة بارزة لربوبية الله وألوهيته وقدرته
وعلمه ورحمته وهي عبرة وعظة أيضاً للمعتبرين، وما كان أكثر قومك5 يا محمد مؤمنين مع موجب
الإيمان ومقتضيه لأنه سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

وقوله {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب على أمره الذي لا يمانع في
شيء يريده ولا يحال بين مراده الرحيم بعباده فاصبر على دعوته وتوكل عليه فإنه ناصرک ومذل
أعدائك.

- 1 الترائي: تفاعل إذ هو من الجانبين كل جانب رأى الثاني.
- 2 ردع موسى عليه السلام بقوله كلا الظانين أن فرعون مدرّكهم وعلل لعدم إدراك فرعون بقوله: {إن معي ربي سيهدين} أي: سيبين لي سبيل النجاة فنسلّكه فنجوا بإذن الله.
- 3 {الفرق}: القسم من الشيء المنفلق، وعليه فالفرقة: القسمة من البحر التي كانت كالجبل العظيم. ولذا قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق أي: لكل قبيلة من قبائل بني إسرائيل طريق خاص بها فالبحر انقسم قسمين كان ما بين جانبيه كالفرج العظيم، وفي ذلك الفج كانت طريق بني إسرائيل.
- 4 {أزلفنا} أي جمعنا وقرينا فرعون وملأه لإغراقهم وإهلاكهم وسميت مزدلفة ليلة جمع: لازدلافها: أي لقربها من منى أو عرفات وسميت ليلة جمع لاجتماع الحجاج فيها، قال الشاعر:
- وكل يوم مضى أو ليلة سلفت
فيها النفوس إلى الآجال تزلف
- 5 القرطبي رحمه الله تعالى رد الضمير في قوله تعالى: {وما كان أكثرهم مؤمنين} إلى فرعون وملئه فقال: لأنه مل يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسيا امرأة فرعون... الخ في حين أن أكثر المفسرين على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو وجه العبرة من السياق.

(3/653)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ظهور آثار الاستعباد في بني إسرائيل متجلية في خوفهم مع مشاهدة الآيات.
- 2- ثبوت صفة المعية الإلهية في قول موسى {إن معي ربي} إذ قال له عند إرساله {إنني معكما}.
- 3- ثبوت الوحي الإلهي.
- 4- آية انفلاق البحر من أعظم الآيات.
- 5- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقصة مثل هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بوحي خاص.
وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا

مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

شرح الكلمات :

واتل عليهم نبأ إبراهيم : أي اقرأ يا رسولنا على قومك خبر إبراهيم وشأنه العظيم.
لأبيه وقومه : أي آزر والبابليين.

(3/654)

فنظّل لها عاكفين : أي فنقيم أكثر النهار عاكفين على عبادتها.
قالوا بل وجدنا : أي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر بل وجدنا آباءنا لها عابدين فنحن تبع لهم.
فإنهم عدو لي : أي أعداء لي يوم القيامة إذا أنا عبدتهم لأنهم يتبرعون من عابديهم.
إلا رب العالمين : فإن من يعبده لا يتبرأ منه يوم القيامة بل ينجيه من النار ويكرمه بالجنة.
فهو يهدين : أي إلى ما ينجيني من العذاب ويسعدني في دنياي وأخراي.
والذي يميتني ثم يحييني : أي يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يحييني ليوم الدين.
يوم الدين : أي يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة والبعث الآخر.
معنى الآيات :

هذا بداية قصص إبراهيم عليه السلام والقصد منه عرض حياة إبراهيم الدعوية على مسامع قريش قوم محمد صلى الله عليه وسلم عليهم يتعظون بها فيؤمنوا ويوحدوا فيسلموا ويسلموا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة قال تعالى {واتل عليهم نبأ إبراهيم} أي اقرأ على قومك من قريش خبر إبراهيم في الوقت الذي قال لأبيه وقومه {ما تعبدون} مستفهماً إياهم ليرد على جوابهم وهو أسلوب حكيم في الدعوة والتعليم يسألهم ويجيبهم بناء على مقتضى سؤالهم فيكون ذلك أدعى للفهم وقبول الحق : {قالوا نعبد أصناماً} أي في صور تماثيل {فنظّل لها عاكفين} فنقيم أكثر النهار عاكفين حولها نتقرب إليها ونتبرك بها خاشعين خاضعين عندها. ولما سمع جوابهم وقد صدقوا فيه قال لهم {هل يسمعونكم إذ تدعون} أي إذ تدعونها {أو ينفعونكم} إن طلبتم منهم منفعة {أو يضررون} إن طلبتم منهم أن يضرروا أحداً تريدون ضره أنتم؟ فأجابوا قائلين في كل ذلك لا، لا، لا. وإنما وجدنا آباءنا كذلك

1 {نبأ إبراهيم} قصته مع قومه والهمزة الثانية تخفف وهو أجود من تحقيقها. نبأ إبراهيم أو نبأ إبراهيم، والمقصود من تلاوة هذه القصة طلب هداية قريش إلى الحق بإسماعهم أخبار الأولين ومشاهدة ما دار من جدال بين الرسل وأمهم.

2 {فَنظِلْ} هذا اللفظ يدل أنهم يقضون فترة طويلة من النهار عاكفين حولها لعبادتها وأما في الليل فيعبدون الكواكب لمشاهدتها والتماثيل إنما هي صور لها فإذا غابت عبدوا صورها بالنهار.

3 أراد أي إبراهيم بقوله: {هل يسمعونكم} فتح باب المجادلة ليصل إلى إقناعهم إن شاء الله ذلك، وليست هذه أول محاجة بل حاجه إبراهيم أباه على انفراد وحاجه هذه المرة مع قومه ولا شك أن الحجاج دام سنوات فما ذكر هنا غير ما ذكر في الصافات والأنبياء ومريم.

(3/655)

يفعلون ففعلنا مثلهم اقتداءً بهم واتباعاً لطريقتهم، وهنا صارحهم إبراهيم بما يريد أن يفهموه عنه فقال {أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون} الذين هم أجدادكم الذين ورث عنهم آباؤكم هذا الشرك والباطل {فإنهم عدو لي} أي أعداء لي وذلك يوم القيامة إن أنا عبدتهم معكم، لأن كل مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَتَّبِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ عِبَدَهُ وَيُعَلِّنُ عِدَاوَتَهُ لَهُ طَلِبًا لِنَجَاةِ نَفْسِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وقوله {إلا رب العالمين} فإنه لا يكون عدواً لمن عبده بل يكون ودواً له رحيماً به. ألا فاعبدوه يا قوم واتركوا عبادة من يكون عدواً لكم يوم القيامة!!

ثم أخذ إبراهيم يذكر ربه ويثني عليه ويمجده تعريفاً به وتذكيراً لأولئك الجهلة المشركين فقال {الذي خلقني فهو إلهي} أي إلى طريق نجاتي وكمالي وسعادتي وذلك ببيانه لي محابه لآتيها، ومسأخطه لأتجنبها، {والذي هو يطعمني ويسقيني} أي يغذوني بأنواع الأطعمة ويسقيني بما خلق ويسر لي من أنواع الأشربة من ماء ولبن وعسل، {وإذا مرضت} بأن اعتل جسمي وسقم فهولا غيره يشفيني، {والذي يميتني} يوم يريد إمامتي عند انتهاء ما حدد لي من أجل تنتهي به حياتي، ثم يحييني يوم البعث والنشور، {والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي} أي يسترها ويمحو أثرها من نفسي يوم الدين أي يوم الجزاء والحساب على عمل الإنسان في هذه الدار إذ هي دار عمل والآخرة دار جزاء.

وإذا قيل ما المراد من الخطيئة التي ذكر إبراهيم لنفسه؟ فالجواب إنها الكذبات الثلاث التي كانت لإبراهيم طوال حياته الأولى قوله {إني سقيم} والثانية {بل فعله كبيرهم هذا} والثالثة قولي للطاغية إنه أخي ولا تقولي إنه زوجي، هذه الكذبات التي كانت لإبراهيم فهو خائف منها ويوم القيامة لما تطلب منه البشرية الشفاعة عند ربها يذكر هذه الكذبات ويقول إنما أنا من وراء وراء فاذهبوا إلى موسى. ألا فليتعض المؤمنون الذين كذبهم لا يعد كثرة!!

1 حذف الياء في (يهدين) و (يسقين) و(يشفين) و (يحيين) لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كليهما.

2 روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

(3/656)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية بذكر هذا القصص.
 - 2- تقرير التوحيد بالحوار الذي دار بين إبراهيم إمام الموحدين وقومه المشركين.
 - 3- بيان أن كل من عبد معبود غير الله تعالى سيكون له عدواً لدوداً يوم القيامة.
 - 4- بيان أن العكوف على الأضرحة والتمرغ في تربتها وطلب الشفاء منها شرك.
 - 5- بيان الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله تعالى من طريق السؤال والجواب.
- رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93)

شرح الكلمات:

- رب هب لي حكماً : أي يا رب أعطني من فضلك حكماً أي علماً نافعاً وارزقني العمل به.
- والحقني بال صالحين : لأعمل عملهم في الدنيا وأكون معهم في الدار الآخرة.
- واجعل لي لسان صدق في الآخرين : أي اجعل لي ذكراً حسناً أذكر به فيمن يأتي بعدي.
- واعفّر لأبي : كان هذا منه قبل أن يتبين له أنه عدو لله.
- ولا تخزني يوم يبعثون : أي لا تفضحني.
- بقلب سليم : أي من الشرك والنفاق.
- وأزلفت الجنة : أي أدنيت وقربت للمتقين.

(3/657)

ويرزت الجحيم للغاوين: أي أظهرت وجلت للغاوين

هل ينصرونكم : أي يدفع العذاب عنكم.

معنى الآيات:

هذا آخر قصص إبراهيم وخاتمة لما ذكر إبراهيم قومه ووعظهم رفع يديه إلى ربه يسأله ويتضرع إليه فقال {رب هب لي حكماً} أي علماً نافعاً يمنعي من فعل ما يسخطك عني ويدفعني إلى فعل ما يرضيك عني، {وألحقتي بالصالحين} في أعمالهم الخيرية في الدنيا وبمرافقتهم في الجنة¹ {واجعل لي لسان² صدق في الآخرين} أي اجعل لي ذكراً حسناً أذكر به فيمن يأتي من عبادك المؤمنين، {واجعلني³ من ورثة جنة النعيم} الذين يرثونها بالإيمان والتقوى بعد فضلك عليهم ورحمتك بهم، {واغفر لأبي إنه كان من الضالين} أي الجاهلين بك وبمحابك ومكارهك فما عبدوك ولا تقربوا إليك. وكان هذا من إبراهيم قبل العلم بأن أباه عدو لله حيث سبق له ذلك أولاً، إذ قد تبرأ منه بعد أن علم ذلك وقوله {ولا تخزني} أي لا تذلني {يوم يبعثون} أي من قبورهم للحساب والجزاء على أعمالهم {يوم لا ينفع مال ولا بنون} وهو يوم القيامة {إلا من أتى الله بقلب سليم} أي لكن من أتى الله أي جاءه يوم القيامة وقلبه سليم من الشرك والنفاق فهذا ينفعه عمله الصالح لخلوه مما يحبطه وهو الشرك والكفر الظاهر والباطن وقوله تعالى {وأزلفت الجنة} أي قربت وأدנית للمتقين الله ربهم فلم يشركوا به في عبادته ولم يجاهروا بمعاصيه، {ويرزت الجحيم⁵} أي أظهرت وارتفعت {لغاوين} أي أهل الغواية والضلالة في الدنيا من المشركين والمسرفين في الإجمام والنشر والفساد {وقيل لهم} أي سئلوا في عرصات القيامة {أين ما كنتم تعبدون من دون الله}؟ أروناهم {هل ينصرونكم} مما أنتم فيه

1 وفي أعالي الدرجات.

2 وقد استجاب الله تعالى له حيث اجتمع أهل الأديان على الثناء عليه والانتساب إلى ملته وإن كانوا مبطلين لما خالطهم من الشرك وها هي ذي أمة الإسلام لا تُصلي صلاة إلا وتُصلي عليه وعلى آله فهذا ذكر حسن خالد وثناء عطر باق قال مالك: لا بأس أن يحب المرء أن يثني عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالى لهذه الآية وغيرها نحو: {سيجعل لهم الرحمن وداً} {وألقيت عليك محبة مني}.

3 في هذا ردّ على من زعم أنه لا يسأل الله جنة ولا يستجيره من النار.

4 السليم من الشك والشرك وأمراض الكبر والحسد والعجب والغل ولأنه إذا سلم القلب سلمت الجوارح لحديث: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" من الصحيح.

5 أي: تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن كما يستشعر أهل الجنة المسرة والفرح قبل دخولها. إذ الجنة تزلف والجحيم تبرز، وهذا في عرصات القيامة.

فيدفعون عنكم العذاب، {أو ينتصرون} لأنفسهم فيدفعون عنها العذاب إن كانوا من أهل النار لأنهم رضوا بأن يعبدوا ودعوا الناس إلى عبادتهم كالشياطين والمجرمين من الإنس والجن. هداية الآيات من هداية الآيات:

1- بيان أن الجنة تورث ويذكر تعالى سبب إرثها وهو التقوى في قوله {تلك الجنة} لتي نورث من عبادنا من كان تقياً

2- مشروعية الاستغفار للوالدين إن ماتا على التوحيد.

3- بطلان الانتفاع يوم القيامة بغير الإيمان والعمل الصالح بعد فضل الله ورحمته.

4- الترغيب في التقوى والتحذير من الغواية.

فَكَبِئُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

شرح الكلمات

فككبوا فيها :أي ألقوا على وجوههم في جهنم ودحرجوا فيها حتى انتهوا إلى قعرها.
والغاوون :جمع غاوٍ وهو الفاسد القلب المدنس الروح من الشرك والمعاصي.
وجنود إبليس :أي أتباعه وأنصاره وأعوانه من الإنس والجن.

1 لآية من سورة مريم عليها السلام.

إذ نسويكم برب العالمين : أي في العبادة فعبدناكم كما يعبد الله جل جلاله.
ولا صديق حميم : أي يهمه أمرنا وتتفعلنا صداقته نحتمى به من أن نعذب.
فلو أن لنا كرة : أي رجعة إلى الدنيا لنؤمن ونوحده ونعبد ربنا بما شرع لنا.
معنى الآيات:

قوله تعالى {فككبوا} 1 ب عد ذلك الاستفهام التوبيخي التقريعي الذي تقدم في قوله تعالى {وقيل لهم

أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ فشلوا في الجواب ولم يجيدوه إذ هو غير ممكن فأخبر تعالى عنهم بأنهم ككبوا في جهنم - أي كبوا على وجوههم ودحرجوا فيها هم والغاوون جمع غاوٍ أي فاسد العقيدة والعمل وجنود إبليس أجمعون من أتباع الشيطان وأعوانه من دعاة الشرك و المعاصي والجريمة في الأرض من الإنس والجن قوله تعالى {قالوا وهم 2 فيها يختصمون} أي وهم في جهنم يختصمون كل واحد يحمل الثاني التبعة والمسؤولية فقال المشركون لمن أشركوا بهم {تالله إن كنا لفي ضلال مبين} أي ظاهر بين لا يختلف فيه، وذلك {إذ نسويكم برب العالمين} عز وجل فنعبدكم معه، {وما أضلنا إلا المجرمون} وهم دعاة الشرك والشر والضلال الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها، وأجرموا علينا فأفسدوا نفوسنا بالشرك والمعاصي، وقوله تعالى {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم} هذا قولهم أيضاً قرروا فيه حقيقة أخرى وهي أنه ليس لهم في هذا اليوم من شافعين يشفعون لهم عند الله تعالى لا من الملائكة ولا من الإنس والجن إذ لا شفاعة تنفع من مات على الشرك والكفر، وقولهم ولا صديق حميم أي وليس لنا أي من صديق حميم تنفعنا صداقته وولايته.

وقالوا متمنين بعد اليأس من وجود شافعين {قلو أن لنا كرة4} أي رجعة إلى دار الدنيا {فنكون من المؤمنين} فنؤمن ونوحد ونتبع الرسل. وهذا آخر ما أخبر تعالى به عنهم من كلامهم في

1 {ككبوا} أي: كبوا فيها كباً بعد كب لأن ككبوا مضاعف: كبوا بالتكرير نحو: كفكف الدمع أي: كفه مرة بعد مرة.

2 من الجائر أن يكون هذا من كلام إبراهيم إلا أن كونه من كلام الله تعالى موعظة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أولى وقد استظهره ابن عطية رحمه الله تعالى وجملة {وهم فيها يختصمون} حالية، وجملة تالله الخ مقول القول.

3 {إذ} ظرفية وليست تعليلية أي: الوقت الذي كنا نسويكم برب العالمين، وهذا الكلام منهم كلام متندم حزن على ما فاتته وصدر منه كقول أبي بكر وقد أمسك بلسانه وقال له: أنت أوردتني الموارد وكقوله: يا لسان قل خيراً تغنم واسكت عن شرّ تسلّم.

4 {لو} حرف تمن وأصلها: لو الشرطية لكنها تنوسي منها معنى الشرط إذ المراد: لو رجعنا إلى الدنيا لأمنا وعملنا صالحاً ولما لم يقصد تعليق الامتناع على الامتناع تمحضت لو للتمني.

(3/660)

جهنم

وقوله تعالى {إن في 1 ذلك} أي المذكور من ككببة المشركين والغاوين وجنود إبليس أجمعين في

جهنم وخصومتهم فيها وما قالوا وتمنوه وحرمانهم من الشفاعة وخلودهم في النار {آية} أي لعبرة لمن يعتبر بغيره، {وما كان أكثرهم مؤمنين} و لم يكن أكثر قومك يا رسولنا مؤمنين وإلا لانفَعوا بهذه العبر فآمنوا ووحّدوا وأسلموا {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} أي الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد الرحيم بعباده إن أنابوا إليه وأخلصوا العبادة له يكرمهم في جواره في جنات النعيم.

هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- تقرير أن دعاة الزنى والربا والخرافة والشركيات من الناس هم من جند إبليس.
- 2- تقرير أن المجرمين هم الذين أفسدوا نفوسهم ونفوس غيرهم بدعوتهم إلى الضلال وحملهم على المعاصي.
- 3- تقرير أن الشفاعة لن تكون لمن مات على الشرك والكفر.
- 4- لا تنفع العبر والمواعظ والآيات في هداية قوم كتب الله أولاً شقاءهم وعلم منهم أنهم لا يؤمنون فكتب ذلك عليهم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114)

1 هذا تكرر ثالث لهذه الجملة تعداداً على المشركين وتسجيلاً لتصميمهم على الشرك والتكذيب بالنبوة والبعث.

(3/661)

شرح الكلمات:

كذبت قوم نوح المرسلين : قوم نوح الأمة التي بعث فيها، والمراد من المرسلين نوح عليه السلام أخوهم نوح : أي في النسب.
ألا تتقون: أي اتقوا الله ربكم فلا تعصوه بالشرك والمعاصي.
رسول أمين: أي على مما أمرني ربي بإبلاغه إليكم.
من أجر: أي لا أسألكم على إبلاغ رسالة الله أجره مقابل البلاغ.
أنؤمن لك واتبعت الأردلون: أي كيف نتبعك على ما تدعوننا إليه وقد اتبعك أراذل الناس أي سفلتهم وأهل الخسة فيهم.

إن حسابهم إلا على ربي: أي ما حسابهم إلا على ربي.
معنى الآيات:

هذه بداية قصص نوح عليه السلام فقال تعالى {كذبت قوم نوح1} أي بما جاءهم به نوح من الأمر بالتوحيد وترك الشرك {إذ قال لهم أخوهم} أي في النسب2 {نوح ألا تتقون} أي عقاب الله وأنتم تشركون به، وتكذبون رسوله {إني لكم رسول أمين} على ما أبلغكم من وحي الله تعالى فاتقوا الله بترك الشرك وأطيعوني فيما أذعوكم إليه وأمركم به {وما أسألكم عليه من أجر} أي على البلاغ من أجر أتقاضاه منكم مقابل ما أبلغكم من رسالة ربكم. {إن أجرى إلا على الله} إذ هو الذي كلفني {فاتقوا الله} أي خافوا عقابه أن يحل بكم وأنتم تكفرون به وتكذبون برسوله وأطيعون فيما أمركم به وأنهاكم عنه. بعد هذا الذي أمرهم به وكرره عليهم من تقوى الله وطاعة لرسوله كان جوابهم ما أخبر به تعالى عنهم في قوله: {قالوا أنؤمن لك} أي أنصدقك ونتابعك على ما جئت به من الدين {واتبعك الأزدلون3} أي سفلة الناس وأخسائهم؟.

فأجابهم نوح بقوله {وما علمي بما كانوا يعملون} فيما يعملونه بعيدين عني من

-
- 1 {كذبت قوم نوح} أنت الفعل إرادة جماعة قوم نوح ونظيره: {قالت الأعراب}.
 - 2 وأخوة مجانسة أو هو من باب قول العرب: يا أخا بني تميم: يريدون: يا واحداً منهم، قال الشاعر:
لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهاناً
 - 3 جمع التكسير: {أراذل} والأنثى: الرذلى والجمع: الرذل، وجملة: {واتبعك} حالية، وفيها إضمار قد أي: وقد اتبعك.

(3/662)

الباطن أو الظاهر أنا لا أعلمه ولا أسأل عنه ولا أحاسب عليه، {إن حسابهم1} إلا على ربي} هو الذي يحاسبهم ويجزيهم لو تشعرون بهذه الحقيقة لما عبتموهم لي وحملتوني مسئولية عملهم {وما أنا بطارد المؤمنين2} أي من حولي، {إن أنا إلا نذير3 مبين} فلست بجبار ولا ذي سلطان فأطرد الناس وظيفتي أنى أنذر الناس عاقبة الكفر والمعاصي ليقلعوا عن ذلك فينجوا من عذاب الله ويسلموا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان أن من كذب رسولاً فكأنما كذب كل الرسل وذلك باعتبار أن دعوتهم واحدة وهي أن يُعَبَّدَ

الله وحده بما شرع للناس من عبادات تطهرهم وتركيهم.

2- إثبات أخوة النسب، ولا تعارض بينها وبين أخوة الدين.

3- عدم جواز أخذ أجره على دعوة الله تعالى. ووجوب إبلاغها مجاناً.

4- وجوب التقوى لله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

5- لا يجوز طرد الفقراء من مجالس العلم ليجلس مجالسهم الأغنياء وأهل الجاه.

إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (115) قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

1 قيل لسفيان: إن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: "إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون".

2 ظاهر الكلام أنهم طلبوا منه طرد الضعفاء من المؤمنين كما فعلت قريش.

3 جملة: {إن أنا إلا نذير} استئناف في معنى التعليل لعدم طردهم والقصر في الجملة إضافي قصر موصوف على صفة.

(3/663)

شرح الكلمات:

لئن لم تنته: أي عن دعوتنا إلى ترك آلهتنا وعبادة إلهك وحده.

من المرجومين: أي المقتولين رجماً بالحجارة.

فأفتح بيني وبينهم فتحاً: أي أحكم بيني وبينهم حكماً بأن تهلكهم وتتجيني ومن معي من المؤمنين.

في الفلك المشحون 1: أي المملوء بالركاب وأزواج المخلوقات الأخرى.

بعد الباقين: أي بعد إنجاننا نوحاً والمؤمنين بركوبهم في السفينة أغرقنا الكافرين إذ إغراقهم كان بعد نجات المؤمنين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار الدائر بين نوح وقومه إنه لما دعاهم إلى التوحيد وكرر عليهم الدعوة وأفحمهم في مواطن كثيرة وأعيتهم الحجج لجأوا إلى التهديد والوعيد فقالوا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله {قالوا لئن لم تنته يا نوح} أي قسماً بآلهتنا لئن لم تنته يا نوح من تسفيها وسب آلهتنا ومطالبتنا بترك عبادتها {لتكونن من المرجومين} أي لنقتلنك رمياً بالحجارة. وهنا وبعد دعوة دامت ألف سنة

إلا خمسين عاماً رفع نوح شكواه إلى الله قائلاً: {رب إن قومي 3 كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً} أي أحكم بيننا وافصل في قضية وجودنا مع بعضنا بعضاً فأهلكهم {ونجني ومن معي من المؤمنين} قال تعالى {فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون} أي المملوء بأنواع الحيوانات {ثم أغرقنا 4 بعد الباقيين} أي بعد إنجائنا نوحاً ومن معه من المؤمنين بأن ركبوا في الفلك وما زال الماء يرتفع النازل من السماء والنابع من الأرض حتى غرق كل من على الأرض والجبال ولم ينج أحد إلا نوح وأصحاب السفينة، قال تعالى {إن في ذلك} أي المذكور من الصراع الذي دار بين التوحيد والشرك وفي عاقبة التوحيد وهي نجاة أهله والشرك وهي دمار أهله {آية} أي

- 1 الشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم ولم يقل: المشحونة بل قال. {المشحون} لأنه هنا واحد لا جمع.
- 2 كل لفظ {رجم} في القرآن معناه القتل رمياً بالحجارة إلا قوله: {لئن لم تنته لأرجمنك} فإنه بمعنى لأسبئك وأشتمتك.
- 3 هذه الجملة قالها تمهيداً للدعاء عليهم.
- 4 ثم: للتراخي الرتبي في الإخبار لأن إغراق أمة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من الناس.

(3/664)

عبرة 1. ولكن أهل مكة لم يعتبروا {وما كان أكثرهم مؤمنين 2} لما سبق في علم الله تعالى من عدم إيمانهم إذلاً فلا تحزن عليهم. {وإن ربك} أيها الرسول الكريم لهو لا غيره العزيز الغالب الرحيم بمن تاب من عباده فإنه لا يعذبه بل يرحمه.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان سنة أن الظلمة والطغاة إذا أعيتهم الحجج يلجأون إلى القوة.
- 2- جواز الاستنصار بالله تعالى وطلب الفتح بين المظلوم والظالمين.
- 3- سرعة استجابة الله تعالى لعبده نوح وذلك لصبره قروناً طويلة فلما انتهى صبره ورفع شكاته إلى ربه أجابه فوراً فأنجاه وأهلك أعداءه.

كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَنْتَبِئُونَ
بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ

(130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131)

شرح الكلمات:

كذبت عاد: عاد اسم أبي القبيلة وسميت القبيلة به.

أخوهم هود: أخوهم في النسب.

فاتقوا الله: أي خافوا عقابه فلا تشركوا به شيئاً.

- 1 وجه العبرة أن الله تعالى أنجى الموحدين وأهلك المشركين بعد أن أبلغ نوح رسالته بصبر واحتساب لا نظير لهما إذ دعا وبلغ وأوذي وصبر و صابر ألف سنة إلا خمسين عاماً.
- 2 سبق أن ذكرت أن المراد بمن أكثرهم لا يؤمنون هم أكابر مجرمي مكة وعلى رأسهم المستهزئون وهذا من إطلاق العام وإرادة الخاص لأن الذين آمنوا وأسلموا أكثر ممن ماتوا على الكفر أو نفي الإيمان مقيد بزمن معين لا يتعداه.

(3/665)

أتبنون بكل ريع: أي مكان عال مرتفع.

آية: أي قصراً مشيداً عالياً مرتفعاً.

تعبثون: أي بينانكم حيث تبثون ما لا تسكنون.

وتتخذون مصانع: أي حصوناً منيعة وقصوراً رفيعة.

لعلكم تخذلون: أي كأنكم تأملون الخلود في الأرض وترجونه.

و إذا بطشتم: أي أخذتم أحداً سطوتم عليه بعنف وشدة.

جبارين: أي عتاة متسلطين.

معنى الآيات:

هذه بداية قصص هود عليه السلام يقول تعالى {كذبت عاد1} أي قبيلة عاد {المرسلين} أي رسول الله هوداً، {إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون2} أي ألا تتقون عقاب الله بترككم الشرك والمعاصي بمعنى اتقوا الله ركم فلا تشركوا به، وقوله {إني لكم رسول أمين} يخبرهم بأنه رسول الله إليهم يبلغهم عن الله أمر ونهييه وأنه أمين على ذلك فلا يزيد ولا ينقص فيما أمره ربه بإبلاغه إليهم، وعليه {فاتقوا3 الله وأطيعوا} أي بوصفي رسول الله إليكم فإن طاعتي واجبة عليكم حتى أبلغكم ما أرسلت به إليكم.

وقوله {وما أسألكم عليه من أجر} أي على إبلاغ رسالتي إليكم من أجر أي من أي أجر كان. ولو قل {إن أجري} أي ما أجري إلا على رب العالمين سبحانه وتعالى إذ هو الذي أرسلني وكلفني فهو

الذي أرجو أن يثبيني على حمل رسالتي إليكم وإبلاغها إياكم. وعليه فانتقوا الله أي خافوا عقابه بترك الشرك به والمعاصي وأطيعوني بقبول ما أبلغكم به لتكملوا وتسعدوا.
وقوله: {أتبنون بكل ريع 4 آية تعبتون} ينكر هود على قومه إنهماكهم في الدنيا

- 1 جملة مستأنفة استئناف انتقال لعرض الأحداث التاريخية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وموعظة وذكرى لغيره، وعاد بمعنى القبيلة فلذا أنث الفعل معها، وكانت منازل عاد وديارهم ما بين عُمان وحضر موت شرقاً وغرباً ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي الأحقاف.
- 2 الاستفهام معناه الأمر والحض على التقوى التي هي خوف من الله تعالى يحمل على الإيمان به وعبادته وترك عبادة ما سواه.
- 3 الفاء: للتفريع فالجملة متفرعة عن جملة (إني لكم رسول أمين) أي: فينادى إني رسول أمين فاتبعوا ما أقول لكم {وانتقوا الله وأطيعون} وحذفت الياء من، {فاتقون} مراعاة لرؤوس الآي.
- 4 الرِّيع: المكان المرتفع أو الطريق الفج بين الجبيلين، والآية العلامة: الدالة على الطريق والمراد: بناء عالٍ هو آية في الفن المعماري.

(3/666)

وانشغالهم بما لا يعني وإعراضهم عما يعينهم فيقول لهم كالمنكر عليهم أتبنون بكل ريع أي مكان عال مرتفع آية أي قصراً مشيداً آية في ارتفاعه وعلوه. تعبتون حيث لا تسكنون فيما تبنون فهو لمجرد اللهو والعبث وقوله {وتتخذون مصانع} وهي مبان عالية كالحصون أو خزانات الماء أو الحصون {لعلكم تخذون} أي كيما تخذون، وما أنتم بخالدين، وإنما مقامكم فيها قليل. وقوله {وإذا بطشتم 2 بطشتم جبارين} أي إذا سطوتم على أحد تسطون عليه سطو العتاة الجبارين فتأخذون بعنف 3 وشدة بلا رحمة ولا رفق {فاتقوا الله} يا قوم فخافوا عقابه وأليم عذابه، {وأطيعون} فيما أدعوكم إليه وأبلغكموه عن ربي فإن ذلك خير لكم من الإعراض والتمادي في الباطل.

هداية الآيات

من هداية الآيات

- 1- الأمر بالتقوى من النصح للمأمور بها، لأن النجاة والفوز لا يتمان للعبد إلا عليها.
- 2- الرسل أمناء على ما يحملون وما يبلغون الناس.
- 3- حرمة أخذ الأجرة على بيان الشرع والدعوة إلى ذلك.
- 4- ينبغي للعبد أن لا يسرف فيبني ما لا يسكن ويد خرماً لا يأكل.
- 5- استنكار العنف والشدة في الأخذ وعند المؤاخظة.

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ (133) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

- 1 في الجمل الثلاثة تنبون وتتخدرون ولعلكم تلخدون توبيخ لهم على هذا السلوك وإنكار عليهم.
- 2 البطش: السطوة والأخذ بعنف، والجبار: القتال في غير حق والمتسلط العاتي.
- 3 ويدل على قوتهم وشدتهم قولهم: {من أشدّ منا قوة} من سورة فصلت وكان العرب ينسبون الشيء القوي إلى عاد فيقولون: هذا عادي.

(3/667)

شرح الكلمات:

أمدكم: أي أعطاكم منعماً عليكم.

بأنعام: هي الإبل والبقر والغنم.

عذاب يوم عظيم: هو يوم هلاكهم في الدنيا ويوم بعثهم يوم القيامة.

س واء علينا: أي مستوٍ عندنا وعظك وعدمه فأنا لا نطيعك.

إن هذا إلا خلق الأولين 1: أي ما هذا الذي تعظنا فيه من البناء وغيره إلا دأب وعادة الأولين فنحن على طريقتهم، وما نحن بمعذبين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحوار الذي دار بين نبي الله هود عليه السلام وبين قومه المشركين إذ أمرهم بالتقوى وبطاعته وأمرهم أيضاً بتقوى الله الذي أمدهم أي أنعم عليهم بما يعلمونه من أنواع النعم فإن طاعة المنعم شكر له على إنعامه ومعصيته كفر لإنعامه فقال {واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون} 2 وبين ذلك بقوله {أمدكم بأنعام} أي مواشي من إبل وبقر وغنم {وبينين} أي أولاد ذكور و إناث وجنات أي بساتين {وعيون} لسقيها وسقيكم وتطهيركم 3، ثم قال لهم في إشفاق عليهم {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} إن أنتم أصررتم على الشرك والمعاصي وقد يكون عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، وقد عذبوا في الدنيا بإهلاكهم ويعذبون في الآخرة لأنهم ماتوا كفاراً مشركين عصاة مجرمين، كان هذا ما وعظهم به نبيهم هود عليه السلام، وكان ردهم على وعظه ما أخبر تعالى به في قوله {قالوا سواء علينا أو عظمت أم لم تكن من الواعظين} أي مستوٍ عندنا وعظك أي تخويفك وتذكيرك وعدمه فما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين وقالوا {إن هذا}

الذي نحن عليه من البناء والإشادة وعبادة آلهتنا {إلا خلق الأولين 4} أي دأب وعادة من سبقنا من الناس، وما نحن بمعذبين عليه قال تعالى مخبراً عن نتيجة ذلك

- 1 قرأ الجمهور (خُلِق) بضم كل من الخاء واللام وهو بمعنى السجية المتمكنة في النفس الباعثة على عمل ما يناسبها ويقال له: القوى النفسية وقرأ غير الجمهور (خَلَق) بفتح الخاء وسكون اللام وهو بمعنى الاختلاق والكذب أي: ما تقوله لنا إنما هو كذب واختلاق.
- 2 أي: من الخيرات ثم فسرها بقوله: {أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون}.
- 3 فهو الذي يحب أن يعبد فيذكر ويُشكر ولا يكفر.
- 4 اختلف في تحديد معنى قولهم: {إن هذا إلا خلق الأولين} بفتح الخاء وإسكان اللام أي: اختلفهم وكذبهم ومن قرأ (خُلِق) بضم الخاء واللام معناه عاداتهم لأن الخلق يطلق على الدين والطبع والمروءة، وما في التفسير أولى بتوجيه الآية.

(3/668)

الحوار وتلك الدعوة التي قام بها نبي الله هود {فكذبوه} أي كذبوا هوداً فيما جاءهم به ودعاهم إليه وحذرهم منه، {فأهلكناهم 1} أي بتكذيبهم وإعراضهم {إن في ذلك} الإهلاك للمكذبين عبرة لقومك يا محمد لو كانوا يعتبرون {وما كان أكثرهم مؤمنين} لما سبق في علم الله من عدم إيمانهم فلذا لم تتفعهم المواعظ والعبر، وإن ربك لهو العزيز الرحيم فقد أخذ الجبارة العتاة فأنزل بهم نقمته وأذاقهم مر عذابه، ورحم أوليائه فأنجاهم وأهلك أعداءهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تنوع أسلوب الدعوة وتذكير الجاحدين بما هو محسوس لديهم مرأي لهم.
 - 2- التخويف من عذاب الله والتحذير من عاقبة عصيانه من أساليب الدعوة.
 - 3- بيان سنة الناس في التقليد وإتباع آبائهم وإن كانوا ضلالاً جاهلين.
 - 4- تقرير التوحيد والنبوة والبعث إذ هو المقصود من هذا القصص.
- كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)
أُتْرِكُونَ فِي مَا هَآهِنَا أَمِينٌ (146) فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148)
وَتَنْجِفُونَ مِنَ الْجِبَالِ لَبُؤًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151)
(152) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152)

1 أي : بريح صرصر سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . (من سورة الحاقة).

(3/669)

شرح الكلمات:

كذبت ثمود المرسلين: أي كذبت قبيلة ثمود نبيها صالحاً.

فيما هاهنا آمنين : أي من الخيرات والنعم غير خائفين من أحد.

طلعها هضيم : أي طلع النخلة لين ناعم ما دام في كُفْرَاهُ أي غطاؤه الذي عليه.

وتتحتون من الجبال بيوتاً: أي تتجرون بآلات النحت الصخور في الجبل وتتخذون منها بيوتاً.

فرهين: أي حذقين من جهة وبطرين متكبرين مغترين بصنيعكم من جهة أخرى.

وأطيعون: أي فيما أمرتكم به.

المسرفين : أي في الشر والفساد بالكفر والعناد.

الذين يفسدون في الأرض : أي بارتكاب الذنوب العظام فيها.

ولا يصلحون فيها: أي بفعل الطاعات والقربات.

معنى الآيات:

هذا بداية قصص نبي الله صالح عليه السلام قال تعالى {كذبت 1 ثمود المرسلين} أي جحدت قبيلة

ثمود ما جاءها به رسولها صالح، {إذ قال لهم أخوهم} في النسب لا في الدين إذ هو مؤمن وهم

كافرون {ألا تتقون 2} أي يحضهم على التقوى ويأمرهم بها لأن فيها نجاتهم والمراد من التقوى انقاء

عذاب الله بالإيمان به وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله

وقوله {إني لكم رسول أمين} يعلمهم بأنه مرسل من قبل الله تعالى إليهم أمين على رسالة الله وما

تحمله من العلم والبيان والهدى إليهم. {فاتقوا الله وأطيعون} كرر الأمر بالتقوى وبطاعته إذ هما

معظم رسالته ومَتَى حَقَّقَهَا المرسل إليهم اهتدوا وأفلحوا {وما أسألكم عليه من أجر} أبعد تهمة المادة

لما قد يقال أنه يريد مالاً فأخبرهم في صراحة أنه لا يطلب على إبلاغهم دعوة ربهم أجراً من أحد إلا

من الله رب العالمين إذ هو الذي يثيب ويجزي العاملين له وفي دائرة طاعته وقوله فيما أخبر تعالى

به عنه {أنتزكون 3 فيما ههنا} بين

1 ثمود: أمة تسكن بالحجر شمال الحجاز، وتعرف اليوم بمدائن صالح والمراد من المرسلين: نبي

الله صالح عليه السلام، وتكذيبها به معتبر تكديبا لكل الرسل، لأن دعوة الرسل واحدة.

- 2 الاستفهام للإنكار أي: ينكر عليهم عدم تقواهم ويحضهم عليها.
- 3 الاستفهام إنكاري توبيخي وفيه حضهم على الشكر إذ ما هم فيه من النعمة يقتضي ذلك.

(3/670)

أيديكم من الخيرات {آمنين} غير خائفين، وبين ما أشار إليه بقوله فيما ها هنا فقال {في جنات} أي بساتين ومزارع بمدائنهم وهي إلى الآن قائمة {وعيون وزروع، ونخل طلعتها 1 هضيم} أي لين ناعم ما دام في كفراه أي غلافه {وتتحتون من الجبال بيوتاً} لما خولكم الله من قوة ومعرفة بفن النحت حتى أصبحتم تتخذون من الجبال الصم بيوتاً تسكنونها شتاء فتقيكم البرد. وقوله {فرهين} هذا حال من قوله {وتتحتون من الجبال} ومعنى {فرهين} 2 حذقين فن النحت وبطرين متكبرين مغترين بقوتكم وصناعتكم، إذا {فاتقوا الله} يا قوم بترك الشرك والمعاصي {وأطيعون} فيما أمركم به وأنهاكم عنه وأدعوكم إليه {ولا تطيعوا أمر المسرفين} 3 أي على أنفسهم بارتكاب الكبائر وغشيان الذنوب. {الذين يفسدون في الأرض} أي بمعاصي الله ورسوله فيها {ولا يصلحون} أي جمعوا بين الفساد والإفساد، وترك الصلاح والإصلاح.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دعوة الرسل واحدة ولذا التكذيب برسول يعتبر تكذيباً بكل الرسل.
- 2- الأمانة شعار كل الرسل والدعاة الصادقين الصالحين في كل الأمم والعصور.
- 3- مشروعية التذكير بالنعم ليذكر المنعم فيُحِبُّ ويطاع.
- 4- التحذير من طاعة المسرفين في الذنوب والمعاصي لوخامة عاقبة طاعتهم.
- 5- تقرير أن الفساد في الأرض يكون بارتكاب المعاصي فيها.

- 1 الطلع: وعاء كنصل السيف بباطنه شماريخ القنو ويسمى هذا الطلع بالكم بكسر الكاف ويقال له: الطلع لأنه يطلع من قلب النخلة وبعد أيام من طلوعه ينفلق من نفسه ويؤبر وبعد قليل يصبح بلحاً فبُسرًا فُرطباً فُتمراً وذكر النخل يقال له: فحال بضم الفاء وتشديد الحاء مفتوحة والجمع فحاحيل.
- 2 {فرهين} قراءة الجمهور، وقرىء {فارهين} مشتق من الفراهة التي هي الحذق والكياسة أي: عارفين حذقين بنحت البهوت من الجبال.
- 3 يريد رؤساءهم في الضلالة ممن يحثونهم على الشرك والفساد في البلاد بارتكاب الذنوب والآثام.

(3/671)

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)
قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

شرح الكلمات:

إنما أنت من المسحورين : الذين سحروا وبُولغ في سحرهم حتى غلب عقولهم.
فأت بآية إن كنت من الصادقين : إن كنت من الصادقين في أنك رسول فأتنا بآية تدل على ذلك.
لها شرب ولكم شرب يوم معلوم : أي لها يوم تشرب فيه من العين ولكم يوم آخر معلوم.
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ : أي فلم يؤمنوا فقتلوا فأصبحوا نادمين لما شاهدوا العذاب.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار الذي دار بين صالح عليه السلام وقومه ثمود فلما ذكرهم ووعظهم ردوا عليه بما أخبر تعالى عنهم في قوله {قالوا إنما أنت من المسحورين} أي الذين سحروا وبُولغ في سحرهم حتى غلب على عقولهم فهم لا يعرفون ما يقولون {ما أنت إلا بشر مثلنا} تأكل الطعام وتشرب الشراب فلا أنت رب ولا ملك فنخضع لك

1 وقيل: {من المسحورين} أي: من المعلقين بالطعام والشراب مأخوذ من السحر وهو: الرئة يعنون أنه بشر له رئة يأكل ويشرب كسائر الناس فلا يفضلهم وشاهده قول الشاعر:
أرانا موضعين لأمر غيب
ونسحر بالطعام وبالشراب
موضعين مسرعين إلى الموت وما فلي التفسير أولى وأظهر.

(3/672)

ونطيعك {فأت بآية} 1 علامة قوية ودلالة صادقة تدل على أنك رسول الله حقاً وأنت من الرسل الصادقين، فأجابهم صالح بما أخبر تعالى به عنه في قوله: {قال هذه ناقة} أي عظمة الخلقه سأل ربه آية فأعطاه هذه الناقة فما زال قائماً يصلي ويدعو وهم يشاهدون حتى أنفلق الجبل وخرجت منه هذه الناقة الآية العظيمة فقال {هذه ناقة لها شرب} 2 أي حظ ونصيب من ماء البلد تشربه وحدها لا يرد معها أحد ولكم أنتم شرب يوم معلوم لكم تردونه وحكم. {ولا تمسوها بسوء} وحذرهم أن يمسوها

بسوء لا بضرب ولا بقتل ولا بمنع من شرب، فإنه يأخذكم عذاب يوم عظيم قال تعالى {فَعَقَرُوهَا} أي فكذبوه وعصوه وعقروها بأن ضربوها في يديها ورجلها فبركت وقتلوها. فلما عقروها قال لهم صالح {تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} فأصبحوا بذلك نادمين 3 ففي صبيحة اليوم الثالث أخذتهم الصيحة مع شروق الشمس فاهلكوا أجمعين ونجى الله تعالى صالحاً ومن معه من المؤمنين {إن في ذلك لآية} أي علامة كبرى على قدرة الله تعالى وعلمه وأنه واجب الألوهية {وما كان أكثرهم 4 مؤمنين} 5 مع وضوح الأدلة لأنه لم يسبق لهم إيمان في قضاء الله وقدره {وإن ربك} أيها الرسول لهو وحده العزيز الغالب الذي لا يغالبه الرحيم بأوليائه وصالحي عباده.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير أن السحر من عمل الناس وأنه معلوم لهم معمول به منذ القدم.
- 2- سنة الناس في المطالبة بالآيات عند دعوتهم إلى الدين الحق.
- 3- وجود الآيات لا يستلزم بالضرورة إيمان المطالبين بل أكثرهم لا يؤمنون.
- 4- الندم من التوبة ولكن لا ينفع ندم ولا توبة عند معاينة العذاب أو أماراته.

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما قالوا. إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر وترد هذا الماء فتشرب وتغدر علينا بمثله لبناً فدعا وفعل الله ذلك. فقال, {هذه ناقة ...} الخ.

2 الشرب بكسر الشين وسكون الراء: النوبة في الماء للناقة يوماً تشرب فيه لا يزاحمونها فيه بأنعامهم وأنفسهم.

3 إن قيل: لم ما ينفع الندم وهو توبة فالجواب التوبة تنفع قبل ظهور علامات الموت والعذاب أما بعد ظهور ذلك فلا توبة تقبل وفي الحديث: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر".

4 كان: مزيدة لتقوية الكلام، والعبارة جائز أن يراد بها قوم صالح إذ لم يؤمن منهم إلا القليل، وأن يراد بها كفار مكة إذ أكثر المكابرين ما آمن ومات كافراً أو ما آمن في تلك الفترة ثم آمن بعد الفتح.

5 قيل: ما آمن معه إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة وأن قومه كانوا اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو: اثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية وكان قوم عاد مثلهم ثلاث مرات. ذكر هذا القرطبي في تفسيره ولم يعزه لأحد.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
(164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ (166)

شرح الكلمات

قوم لوط: هم سكان مدن سدوم وعمورية وقرى أخرى ولوط هو نبي الله لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم.

أخوهم لوط: هذه أخوة بلد 1 وسكنى لا أخوة نسب ولا دين.

إني لكم رسول أمين: أي إني مرسل إليكم لا إلى غيركم أمين في إبلاغكم رسالتي فلا أنقص ولا أزيد.

فاتقوا الله: بالإيمان به وعبادته وحده وترك معاصيه.

وما أسألكم عليه: أي على البلاغ من أجره مقابل إرشادكم وتعليمكم.

أتأتون الذكران من العالمين: أي أتأتون الفاحشة من الرجال وتتركون النساء.

بل أنتم قوم عادون: أي معتدون ظالمون متجاوزون الحد في الإسراف في الشر.

معنى الآيات:

هذه بداية قصص لوط مع قومه أصحاب المؤتفكات قال تعالى {كذبت قوم لوط المرسلين} أي كذبوا لوطاً الرسول وتكذبه يعتبر تكذيباً لكافة الرسل لأن دعوة الله واحدة كذبه لما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك الفواحش والظلم والشر والفساد إذ قال لهم أخوهم لوط هذه أخوة الوطن لا غير إذ لوط بابلي الموطن ودينه الإسلام وأبوه هاران

1 أي: أخوة مواطنة كما يقال اليوم.

(3/674)

أخو إبراهيم عليه السلام، وإنما لما أرسل لوط إلى أهل هذه البلاد وسكن معهم قيل لهم أخوهم بحكم المعاشرة والمواطنة الحاصلة {ألا تتقون 1} يأمرهم بتقوى الله ويحضهم عليها لأنهم قائمون على عظام الذنوب فخاف عليهم الهلاك فدعاهم إلى أسباب النجاة وهي تقوى الله تعالى بطاعته وترك معاصيه. وقال لهم {إني لكم رسول أمين 2} فلا تشكوا في رسالتي وأطيعون، وإني غير سائلكم أجراً على تبليغ رسالتي إليكم إن أجري آخذه من رب العالمين الذي حملني هذه الرسالة وأمرني بإبلاغكم إياها وهنا أنكر عليهم أعظم منكر فقال موبخاً مقرعاً {أتأتون 3 الذكران من العالمين} فترتكبون

الفاحشة معهم {وتذرون} أي تتركون ما خلق الله لكم من أزواجكم {بل أنتم قوم عادون} أي متجاوزون الحدود 5 التي رسمها الشرع والعقل والآدمية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جواز إطلاق أخوة الوطن دون الدين والنسب.
 - 2- الأمانة من مستلزمات الرسالة، إذ كل رسول يقول {إني لكم رسول أمين}.
 - 3- سبيل نجاة الفرد والجماعة في تقوى الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.
 - 4- وجوب إنكار المنكر وتقبیحه على فاعله لعله يرعوي.
 - 5- أكبر فاحشة وقعت في الأرض هي فاحشة اللواط. والعياذ بالله تعالى.
- قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170)

1 الاستفهام للحض على التقوى وهو متضمن الإنكار والتوبيخ.

2 جملة: {إني لكم رسول أمين} تعليلية لأمره إياهم بالتقوى والطاعة.

3 الاستفهام للإنكار والتوبيخ إذ كانوا يعملون الفاحشة مع الغرباء إذا نزلوا ديارهم بصورة عامة ومع بعضهم بعضاً بصورة خاصة.

4 بل: للانتقال من الوعظ إلى التنديد وتسجيل أكبر العدوان عليهم إذ الجملة الاسمية {أنتم قوم عادون} مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم وفي الإخبار بالجملة: {قوم عادون} إعلام بأن العدوان أصبح سجية فيهم وطبعاً لهم.

5 العادي: من تجاوز حد الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فالقوم فد أحلّ الله لهم فروج نسائهم بالنكاح الشرعي وحرم عليهم إتيان الرجال في أدبارهم فتجاوزوا الحلال إلى الحرام فكانوا بذلك عادين.

(3/675)

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

شرح الكلمات:

لئن لم تنته: أي عن إنكارك علينا ما نأتيه من الفاحشة.

من المخرجين: أي من بلادنا وطردك من ديارنا.

لعملكم من القالين: أي المبغضين له البغض الشديد.
رب نجني وأهلي مما يعملون: أي من عقوبة وعذاب ما يعملونه من الفواحش.
فنجيناه وأهله: أي نجينا لوطاً الذي دعانا وأهله وهم امرأته المؤمنة وابنتاه.
إلا عجوزاً في الغابرين: أي فإننا لم ننجاها إذ حكمنا بإهلاكها مع الظالمين فتركناها معهم حتى هلكت
بينهم لأنها كانت كافرة وراضية بعمل القوم.
وأمطرنا عليهم مطراً: أي أنزل عليهم حجارة من السماء فأمطروا بها بعد قلب البلاد عاليها سافلها.
فساء مطر المنذرين: أي فقبح مطر المنذرين ولم يمتثلوا فما كفوا عن الشر والفساد.
معنى الآيات:

ما زال السياق فيما دار بين نبي الله لوط وقومه المجرمين فإنه لما ذكرهم ووعظهم وأمرهم ونهاهم
وسمعوا ذلك كله منه أجابوا بما أخبر تعالى به عنهم {قالوا لئن لم تنته يا لوط} أي عن إنكارك
علينا ما نأتيه من الفاحشة {لتكونن من المخرجين} أي نخرجك من بلادنا ونطردك من بيننا ولا تبقى
ساعة واحدة عندنا إنته يا رجل،. فأجابهم لوط

1 في الجملة إقسام دلت عليه اللام وشك أنهم يحلفون بالهتيم الباطلة والجملة متضمنة تهديداً
وإبعاداً بالإبعاد والإخراج من البلد.

(3/676)

الرسول عليه السلام بقوله {إني لعملكم من القالين 1} أي إني لعملكم الفاحشة من المبغضين أشد
البغض، ثم التفت إلى ربه داعياً ضارعاً فقال {رب نجني وأهلي مما يعملون} وهذا بعد أن أقام
يدعوهم ويتحمل سنين عديدة فلم يجد بداً من الفرع إلى ربه ليخلصه منهم فقال {ربي نجني وأهلي}
من عقوبة وعذاب ما يعملونه من إتيان الفاحشة من العالمين قال تعالى {فنجيناه وأهله} وهم امرأته
المسلمة وابنتاه المسلمتان طبعاً إلا عجوزاً وهي امرأته الكافرة المتواطئة مع الظلمة الراضية بالفعل
الشنعاء كانت في جملة الغابرين 2 أي المتروكين بعد خروج لوط من البلاد لتهلك مع الهالكين قال
تعالى {ثم دمرنا الآخرين} أي بعد أن أنجينا لوطاً وأهله أجمعين باستثناء العجوز الكافرة دمرنا أي
أهلكنا الآخرين {وأمطر عليهم مطراً فساء مطر المنذرين} إنه بعد قلب البلاد سافلها على عاليها
أمطر عليهم مطر حجارة من السماء لتصيب من كان خارج المدن المأفوكة المقلوبة.
قوله تعالى {إن في ذلك لآية} أي في هذا الذي ذكرنا من إهلاك المكذبين والمسرفين الظالمين آية
وعلامه كبرى لمن يسمع ويرى {وما كان أكثرهم مؤمنين 3} لما سبق في علم الله تعالى أنهم لا
يؤمنون فسبحان الله العظيم. وقوله {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وإن ربك يا رسولنا هو لا غيره

العزیز الغالب القاهر لكل الظلمة والمسرفین الرحیم بأولیائه وعباده المؤمنین.

هدایة الآیات

من هدایة الآیات:

1- التهید بالنفی سنة بشریة قدیمة.

1 القلی: البغض یقال: قلیته أقلیه قلی وقلاء قال الشاعر:

علیک السلام لا مللت قریبة

ومالك عندي أن نأیت قلاء

أی قلی.

2 فعل (عُبر) یطلق علی البقاء والذهاب كالجون: یطلق علی الأبیض والأسود قال الشاعر:

فما وني محمد منذ أن غفر

له الإله ما مضى وما غبر

أی: ما بقي.

والأغبار: بقیات الألبان. قال الشاعر:

لا تكسع السول بأغبارها

إنك لا تدري من الناتج

یقال كسع الناقة: ترك فی ضرعها بقیة من اللبن، وبعده البيت التالي:

واحلب لأضیافك ألبانها

فإن شر اللبن الوالج

3 إذ لم یؤمن إلا إحدى نسائه وابنتاه.

(3/677)

2- وجوب بغض الشر والفساد فی أي صورة من صورهما.

3- استجابة دعوة المظلوم لاسیما إن كان من الصالحین.

4- توقع العذاب إذا انتشر الشر وعظم الظلم والفساد.

5- الآیات مهما كانت عظیمة لا تستلزم الإیمان والطاعة.

6- من لم یسبق له الإیمان لا یؤمن ولو جلب علیه كل آية.

7- مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

(178) فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
(180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَانْقُوتُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ (184)
شرح الكلمات:

أصحاب الأيكة: أي الغيضة وهي الشجر الملتف.

إذ قال لهم شعيب: النبي المرسل شعيب عليه السلام.

أوفوا الكيل: أي أتموه.

ولا تكونوا من المخسرين: الذين ينقصون الكيل والوزن.

بالقسطاس المستقيم: أي الميزان السوي المعتدل.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم: أي لا تنقصوهم من حقوقهم شيئاً.

ولا تعنوا في الأرض مفسدين: أي بالقتل والسلب والنهب.

والجبلية الأولين: أي والخليقة أي الناس من قبلكم.

(3/678)

معنى الآيات:

هذه بداية قصص شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف كشجر الدوم وهذه الغيضة قريبة من مدينة مدين وشعيب أرسل لهما معاً وفي سورة هود {والى مدين أخاهم شعيباً} لأنه منهم ومن مدينتهم فقيل له أخوهم، وأما أصحاب الأيكة جماعة من بادية مدين كانت لهم أيكة من الشجر يعبدونها تحت أي عنوان كعبدة الأشجار والأحجار في كل زمان ومكان، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه فكذبوه وهو قوله تعالى {كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب 2 ألا تتقون 3} أي اتقوا الله وخافوا عقابه {إني لكم رسول أمين} فاتقوا الله بعبادته وترك عبادة ما سواه وأطيعوا أهدكم إلى ما فيه كمالكم وسعادتكم {وما أسألكم عليه} أي على بلاغ رسالة ربي إليكم أجراً أي جزاء وأجرة {إن أجري} أي ما أجري إلا على رب العالمين. وأمرهم بترك أشهر معصية كانت شائعة بينهم وهي تطفيف الكيل والوزن فقال لهم {أوفوا الكيل} أي أتموها ولا تنقصوها {ولا تكونوا من المخسرين} أي الذين ينقصون الكيل والوزن {وزنوا} أي إذا وزنتم {بالقسطاس المستقيم} أي بالميزان العادل، {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} أي لا تنقصوهم من حقوقهم شيئاً فما يساوي ديناراً لا تعطوا فيه نصف دينار وما يساوي عشرة لا تأخذوه بخمسة مثلاً ومن أجرته اليومية عشرون لا تعطوه عشرة مثلاً، {ولا تعنوا في الأرض مفسدين} أي ولا تفسدوا في البلاد بأي نوع من الفساد كالقتل والسلب ومنع الحقوق وارتكاب المعاصي والذنوب

{واتقوا الذي خلقكم} أي الله فخافوا عقابه {والجبل 5 الأولين} أي وخلق الخليفة من قبلكم

1 الأيكة و ليكة بمعنى واحد كمكة وبكة، وقيل: الأيكة: الشجر الملتف أي الغليظة وليكة: وهي قراءة نافع. اسم للبلدة ومنعها من الصرف ومن قرأ الأيكة صرفها، والراجح أنها بمعنى واحد، وعدم الصرف لانعدام ال لا غير.

2 لم يقل: أخاهم شعيباً: لأنه لا قرابة بينهم بخلاف أهل مدين فهو من أهلها فلذا قال تعالى: {والى مدين أخاهم شعيباً} وأصحاب الأيكة أي بادية وهي الشجر الملتف فلذا يقال له الغيضة وكان من شجر الدوم وهو المقل والسدر وثماره النبق.

3 الاستفهام للحض على التقوى والإنكار عليهم عبادة غير الله تعالى. وجملة {إني لكم رسول أمين} تعليلية لأمره إياهم بالتقوى وفي {لكم} إشارة إلى أن رسالته إليهم عارضة وكانت بعد رسالته إلى أهل مدين، فلعلهم أنكروا أن يكون أرسل إليهم فلذا قال: {إني لكم رسول أمين} وفي آية الحجر قال تعالى {وإنهما لبيامام مبين} والتنشئة في إنهما إشارة إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين، ولما جاء العذاب أخذ الكل لأن ذنبهم واحد وقرب المنازل والديار.

4 الظاهر من السياق أن ذنب أصحاب الأيكة وأهل مدين كان واحداً الشرك والتطيف والبخس للناس فلذا أدمج خطابهم فصاروا فيه أمة واحدة.

5 الجبل: الخلق وأريد بها المخلوقات ولذا قال: {الأولى} أي: وذوى الجبل الأولى والمعنى و خلق الأمم من قبلكم.

(3/679)

اتقوه بترك الشرك والمعاصي تتجوا من عذابه، وتظفروا برضاه وإنعامه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الأمر بالتقوى فريضة كل داع إلى الله تعالى وسنة الدعاة والهداة إذ طاعة الله واجبة.
 - 2- لا يصح لداع إلى الله أن يطلب أجره ممن يدعوهم فإن ذلك ينفهم.
 - 3- وجوب توفية الكيل والوزن وحرمة التطيف فيهما.
 - 4- حرمة بخس الناس حقوقهم ونقصها بأي حال من الأحوال.
 - 5- حرمة الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.
- قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْفُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)
شرح الكلمات:

إنما أنت من المسحرين: أي ممن يأكلون الطعام ويشربون فليست بملك تطاع.
وإن نظنك لمن الكاذبين: أي وما نحسبك إلا واحداً من الكاذبين.
فأسقط علينا كسفاً: أي قطعاً من السماء تهلكنا بها إن كنت من الصادقين فيما تقول.
عذاب يوم الظلة: أي السحابة التي أظلتهم ثم التهبت عليهم ناراً.
إن في ذلك لآية: أي لعبرة وعلامة عبرة لمن يعتبر وعلامة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

(3/680)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصص شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة وأهل مدين إنه لما ذكرهم ووعظهم وأمرهم كان جوابهم ما أخبر به تعالى عنهم في قوله {قالوا إنما أنت} أي يا شعيب {من المسحرين} الذي غلب السحر على عقولهم فلا يدرون ما يفعلون وما لا يقولون¹ كما أنك بشر مثلنا تأكل الطعام وتشرب الشراب فما أنت بملك من الملائكة حتى نطيعك، {وإن نظنك}2 أي وما نظنك إلا من الكاذبين من الناس {فأسقط علينا كسفاً}3 أي قطعاً من السماء تهلكنا بها {إن كنت من الصادقين} في دعوى أنك رسول من الله إلينا. فأجابهم قائلاً بما ذكر تعالى {قال ربي أعلم بما تعملون} ولازم ذلك أنه سيجازيكم بعملكم قال تعالى {فكذبوه} في كل ما جاءهم به واستوجبوا لذلك العذاب {فأخذهم عذاب يوم4 الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم} فقد أنزل الله تعالى عليهم حراً شديداً التهبت منه الجو أو كاد فلجأوا إلى المنازل والكهوف والسراديب تحت الأرض فلم تغن عنهم شيئاً، ثم ارتفعت في سماء بلادهم سحابة فذهب إليها بعضهم فوجدوها روحاً وبرداً وطيباً فنادى الناس أن هلموا فجاءوا فلما اجتمعوا تحتها كلهم انقلبت نارا فأحرقتهم ورجفت بهم الأرض من تحتهم فهلكوا عن آخرهم.

قال تعالى {إن في ذلك لآية}5 أي علامة لقومك يا محمد على قدرتنا وعلما ووجوب عبادتنا وتصديق رسولنا ولكن أكثرهم لا يؤمنون لما سبق في علمنا أنهم لا يؤمنون، وإن ربك يا محمد لهو العزيز أي الغالب على أمره الرحيم بمن تاب من عباده.

1 في قولنا: كما أنك... الخ دمج للقولين الذين قيلوا في تفسير: {إنك لمن المسحرين} إذ كل منهما

جائز، والقرآن حمال الوجوه.

- 2 إطلاق الظنّ على اليقين شائع كقوله تعالى: {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}.
- 3 {كسفاً} بكسر الكاف وسكون السين قراءة عامة القراء ما عدا حفصاً فقد قرأ {كسفاً} بتحريك السين جمع كِسْف بسكونها، والكسف: القطعة والجمع: كِسْف.
- 4 {الظلة} السحابة التي تظل من تحتها وهي سحابة عظيمة أظلت مساحة كبيرة لما فرّوا إليها أظلتهم ثم أرسلت عليهم الصواعق فأحرقتهم وكانت من جنس ما طلبوه وهو: الكسف من السماء.
- 5 أي: في ذلك المذكور من عذاب يوم الظلة آية لكفار قريش إذ حالهم كحال أصحاب الأيكة وأهل مدين في الشرك والتطيف في الكيل والوزن.

(3/681)

هداية الآيات

من هداية الآيات

- 1- هذا آخر سبع قصص ذكرت بإيجاز تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمشركين المكذبين.
 - 2- دعوة الرسل واحدة وأسلوبهم يكاد يكون واحداً: الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله.
 - 3- سنة تعلل الناس بأن الرسول لا ينبغي أن يكون بشراً فلذا هم لا يؤمنون.
 - 4- المطالبة بالآيات تكاد تكون سنة مطردة، وقل من يؤمن عليها.
 - 5- تقرير التوحيد والنبوة والبعث وهي ثمرة كل قصة تقص في هذا القرآن العظيم.
- وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201)

شرح الكلمات:

- 1- وإن لتنزيل رب العالمين: أي القرآن الكريم تنزّل رب العالمين.
- 2- الروح الأمين: جبريل عليه السلام أمين على وحي الله تعالى.
- 3- وإنه لفي زبر الأولين: أي كتب الأولين، واحد الزبر: زبرة وكصفحة وصفح.
- 4- أولم يكن لهم آية: أي علامة ودليلاً علم بني إسرائيل به.
- 5- على بعض الأعجمين: الأعجمي من لا يقدر على التكلم بالعربية.
- 6- كذلك سلكناه: أي التّكذيب في قلوب المجرمين من كفار مكة.

معنى الآيات:

لقد أنكر كفار مكة أن يكون القرآن وحياً أوحاه الله تعالى وبذلك أنكروا أن يكون محمد رسول الله، ومن هنا ردوا عليه كل ما جاءهم به من التوحيد وغيره، فإيراد هذا القصص يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم وهو لا يقرأ ولا يكتب دال دلالة قطعية على أنه وحي إلهي أوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بذلك رسوله. فقوله تعالى {وانه} أي القرآن الذي كذب به المشركون {تنزيل رب العالمين نزل به 1 الروح الأمين} جبريل عليه السلام {على 2 قلبك} أي الرسول لأن القلب هو الذي يتلقى الوحي إذ هو محط الإدراك والوعي والحفظ، وقوله {لتكون من المنذرين} هو علة لنزول القرآن عليه وبه كان من الرسل المنذرين. وقوله {وانه لفي زير الأولين} أي القرآن مذكور في الكتب الإلهية التي سبقته كالتوراة 3 والإنجيل. وقوله تعالى {أو لم يكن لهم} أي لكفار قريش {آية} أي علامة على أن القرآن وحي الله وكتابه وأن محمداً عبداً لله ورسوله {أن يعلمه علماء بني إسرائيل} أي علم بني إسرائيل به كعبد الله بن سلام فقد قال والله إني لأعلم أن محمداً رسول أكثر مما أعلم أن فلاناً ولدي، لأن ولدي في الإمكان أن تكون أمه قد خاننتي أما محمد فلا يمكن أن يكون غير رسول الله وفيهم قال تعالى {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} ومن عرف محمداً رسولاً عرف القرآن وحياً إلهياً. وقوله تعالى {ولو نزلناه على بعض الأعجمين 4} أي وبلسان عربي مبين فكان ذلك آية، وقرأه عليهم الأعجمي، ما كانوا به مؤمنين. أي من أجل الأنفة والحمية إذ يقولون أعجمي وعربي؟ وقوله تعالى: {كذلك سلكناه} أي التكذيب وعدم الإيمان {في قلوب

1 قرأ نافع وحفص وغيرهما {نزل} بالتخفيف، و{الروح} مرفوع على الفاعلية وقرأ بعض {نزل} بالتضعيف و {الروح} منصوب على المفعولية والفاعل هو الله جل جلاله، والباء في (به) للمصاحبة.

2 (على): حرف استعلاء وكون القرآن نزل به جبريل على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم دال على تمكن وصول الوحي واستقراره في القلب. نحو: {على هدى من ربهم} وقد روى البخاري في صفة الوحي فقال عن عائشة: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول".

3 جاء في التوراة قال لي الرب {أي لموسى} أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. فالمراد من إخوة بني إسرائيل هم العرب. وفي الإنجيل: وأنا أطلب

من الأب فيعطيك معزياً (أي رسولاً) آخر لمكث معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.

4 وكذلك لو أنزله على أعجمي بلغته لاعتذروا بأنهم لا يفهمون عنه، والمراد من الأعجمي: هو من لا يحسن اللغة العربية وإن كان عربياً، والعجمي من أصله عجمي ولو أجاد اللغة العربية.

(3/683)

المجرمين} أي كما سلكنا التكذيب في قلوب المجرمين لو قرأ القرآن عليهم أعجمي سلكناه أي التكذيب في قلوب المجرمين إن قرأه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم والعلة في ذلك هي أن الإجرام على النفس بارتكاب عظام الذنوب من شأنه أن يحول بين النفس وقبول الحق لما ران عليها من الذنوب وأحاط بها من الخطايا. وقوله {لا يؤمنون به} تأكيد لنفي الإيمان حتى يروا العذاب الأليم أي يستمر تكذبيهم بالقرآن والمنزل عليه حتى يروا العذاب الموجع، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم ولا هم ينظرون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير معتقد الوحي الإلهي والنبوة المحمدية.
 - 2- بيان أن جبريل هو الذي كان ينزل بالوحي القرآني على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
 - 3- تقرير النبوة المحمدية وأن محمداً من المنذرين.
 - 4- بيان أن القرآن مذكور في الكتب 1 السابقة بشهادة علماء هل الكتاب.
 - 5- إذا تراكمت آثار الذنوب والجرائم على النفس حجبها عن التوبة ومنعتها من الإيمان.
- فَيَأْتِيهِمْ بَعْنَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ (204)
أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ
(207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ (212)

1 ومذكور من نزل عليه وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لإقامته له فيهم كما تقدم في المثليين المذكورين أحدهما من التوراة والثاني من الإنجيل.

(3/684)

شرح الكلمات:

هل نحن منظرون : أي ممهلون لنؤمن. والجواب قطعاً: لا لا..
أفرايت: أي أخبرني.

إن متعناهم سنين: أي أبقينا على حياتهم يأكلون ويشربون وينكحون.
ما كانوا يوعدون : أي من العذاب.

ما أغنى عنهم: أي أي شيء أغنى عنهم ذلك التمتع الطويل لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه.
إلا لها منذرون : أي رسل يندرون أهلها عاقبة الكفر والشرك.
ذكرى: أي عظة.

وما تنزلت به الشياطين: أي لا يتأتى لهم ولا يصلح لهم أن ينتزلوا به.
وما يستطيعون : أي لا يقدرّون.

إنهم عن السمع : أي لكلام الملائكة لمعزولون.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير النبوة المحمدية واثبات الوحي. لقد جاء في السياق أن المجرمين لا يؤمنون بهذا القرآن حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون أي لا يعلمون به حتى يفاجئهم. فيقولون حينئذ: {هل نحن منظرون} أي يتمنون¹ به أن لو يمهلوا حتى يؤمنوا ويصلحوا ما أفسدوا.

وقوله تعالى {أفبعذابنا يستعجلون} عندما قالوا للرسول {لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كسفاً من السماء} أي قطعاً، أحمق هم أم مجانين يستعجلون عذاب الله الذي إن جاءهم كان فيه حتفهم أجمعين؟ ثم قال لرسوله: {أفرايت} يا رسولنا {إن متعناهم سنين} بأن أطلنا أعمارهم ووسعنا في أرزاقهم فعاشوا سنين عديدة ثم جاءهم عذابنا أي

1 ذكر القرطبي أن عمر بن عبدالعزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: {أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} ويقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة

وليلك نوم والردى لك لازم

فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم

ولا أنت في النوم بناج فسالم

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى

كما سرّ باللذات في النوم حالهم

وتسعى إلى ما سوف تكره غيبه

كذلك في الدنيا تعيش البهائم

أخبرني هل يغني ذلك التمتع عنهم شيئاً؟ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون أي لم يغن عنهم شيئاً لا بدفع العذاب ولا بتأخيره ولا بتخفيفه.

وقوله تعالى {وما أهلكنا من قرية1} كذلك القرى التي مر ذكرها في هذه السورة {إلا لها منذرون} أي كان لها رسل يندرون أهلها عقاب الله إن أصروا على الشرك والكفر والشر والفساد. وقوله {وذكرى2} أي عظة لعلهم يتعظون. وقوله {وما كنا ظالمين} في إهلاك من أهلكنا بعد أن أنذرنا. ونزل رداً على المشركين المجرمين الذين قالوا إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد كما يأتون للكهان بأخبار السماء. {وما تنزلت به الشياطين3} كما يزعم المكذبون {وما ينبغي لهم} أي للشياطين أي لا يصلح لهم ولا يتأتى منهم ذلك لأنهم معزولون عن السماع، أي سماع كلام الملائكة إذ أرصد الله تعالى شهباً حالت بينهم وبين السماع ومن السماع فلذا دعوى المشركين باطلة من أساسها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن المجرمين إذا شاهدوا العذاب تمنوا التوبة ولا يمكنون منها.
 - 2- بيان أن استعجال عذاب الله حمق ونزغ في الرأي وفساد في العقل.
 - 3- بيان أن طول العمر وسعة الرزق لا يغنيان عن صاحبها شيئاً من عذاب الله إذا نزل به.
 - 4- بيان سنة الله تعالى في أنه لا يهلك أمة إلا بعد الإنذار والبيان.
 - 5- إبطال مزاعم المشركين في أن القرآن من جنس ما يقوله الكهان، وأن الشياطين تنزل به
- فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي

1 {من قرية} من: صلة أي زائدة لتقوية الكلام وتأكيده لأن زيادة المبنى تزيد في المعنى كذا يقال.

2 ذكرى: يسمع إعرابها حالاً ومصدرًا وخبرًا.

3 قرأ محمد بن السميع وما تنزلت به الشياطين وردّ عليه ولم يقبل منه ولحلة نظر إلى أن الشيطان مشتق من شاط يشيط، والصواب أنه من شطن لا من شاط.

بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقْلُبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)
شرح الكلمات:

فلا تدع مع الله إلهاً آخر: أي لا تعبد مع الله إلهاً آخر، لأن الدعاء هو العبادة. وأنذر عشيرتك الأقرنين: وهم بنو هاشم وبنو عبد لمطلب. وخفض جناحك: أي ألن جانبك.

فإن عصوك: أي أبوا قبول دعوتك إلى التوحيد، ورفضوا ما تدعوهم إليه. فقل إنني بريء مما تعملون: أي من عبادة غير الله سبحانه وتعالى. الذي يراك حين تقوم: أي إلى الصلاة فتصلي متهجداً بالليل وحدك. وتقلبك في الساجدين: أي ويرى تقلبك مع المصلين راکعاً ساجداً قائماً. معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قريش قوم محمد صلى الله عليه وسلم فقله تعالى {فلا تدع مع 1 لله إلهاً آخر فتكون من المعذبين} فيه إحياء وإشارة واضحة بأنه تعريض بالمشركين الذين يدعون آلهة أصناماً وهي دعوة توقظهم من نومتهم إنه إذا كان رسول الله ينهى عن عبادة غير الله وإلا يعذب مع المعذبين فغيره من باب أولى فكأن الكلام جرى على حد إياك أعني واسمعي يا جارة!! وقوله تعالى {وأنذر عشيرتك 2 الأقرنين} أمر من الله لرسوله أن يخص أولاً بإنذاره قرابته لأنهم أولى بطلب النجاة لهم من العذاب، وقد امتثل الرسول أمر ربه فقد ورد في الصحاح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما أنزل عليه {وأنذر 3

1 إن الخطاب وإن كان في السياق ما يدل على أنه موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه صالح لكل من يسمعه.

2 الجملة معطوفة على التي قبلها وهي، {فلا تدع مع الله إلهاً آخر} إذ نهاه عن الشرك وأمره أن يُنذر أقرباءه منه لأنه لا فلاح معه.

3 في هذه الآية دليل على أن القرب في الأنساب مع البعد في الأسباب و دليل على جواز صلة المؤمن الكافر لإرشاده ونصحه. وقال صلى الله عليه وسلم "إنَّ لكم رحماً سألها ببلالها".

(3/687)

عشيرتك الأقرنين} قال "يا معشر 1 قريش اشتروا أنفسكم من الله " يعني بالإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي " فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدالمطلب لا أغني عنكم

من الله أي من عذابه شيء، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً .

وقولي تعالى {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} أمره أن يلين جانبه للمؤمنين وأن يعطف عليهم ويطأبيهم ليرسخ الإيمان في قلوبهم ويسلموا من غائلة الردة فيما لو عوملوا بالقسوة والشدة وهم في بداية الطريق إلى الله تعالى وقوله تعالى {إن عصوك} أي من أمرت بدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته وخلع الأنداد والتخلي عن عبادتها {فقل إني بريء مما تعملون} أي من عبادة غير الله تعالى وغير راض بذلك منكم ولا موافق عليه لأنه شرك حرام وباطل مذموم. وقوله تعالى {وتوكل على العزيز} أي الغالب القاهر الذي لا يمانع في شيء يريد به الرحيم بالمؤمنين من عباده، والأمر بالتوكل هنا ضروري لأنه أمره بالبراءة من الشرك والمشركين وهي حال تقتضي عداوته والكيد له بل ومحاربتة ومن هنا وجب التوكل 3 على الله والاعتماد عليه، وإلا فلا طاقة له بحرب قوم وهو فرد واحد وقوله {الذي يراك حين تقوم} أي في صلاتك وحدك {وتقلبك في الساجدين} 4 ويرى تقلبك قائماً وراكعاً وساجداً مع المصلين من المؤمنين، بمعنى أنه معك يسمع ويرى فتوكل عليه ولا تخف غيره وامض في دعوتك ومفاصلتك للمشركين. وقوله {إنه هو السميع العليم} تقرير لتلك المعية الخاصة إذ السميع لكل صوت والعليم بكل حركة وسكون يحق للعبد التوكل عليه وتفويض الأمر إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد، وحرمة دعاء غير الله تعالى من سائر مخلوقاته لأنه الشرك الحرام.

1 رواه مسلم وغيره بألفاظ فيها بعض الاختلاف.

2 قرأ نافع {فتوكل} بالفاء وقرأ غيره بالواو، وكلا الحرفين عاطف فالفاء عاطفة على قوله: {فقل إني بريء مما تعملون} وهي للتفريع أيضاً والواو عاطفة على جواب الشرط وهو {إني بريء مما تعملون}.

3 التوكل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه وما دام لا كافي إلا الله وجب إذاً التوكل عليه عز وجل.

4 في الآية دليل على مشروعية صلاة الجماعة وتأكيدها واضح.

- 2- من مات يدعو غير الله فهو معذب لا محالة مع المعذبين.
 - 3- تقرير قاعدة البدء بالأقارب في كل شيء لأنهم ألصق بقربهم من غيرهم.
 - 4- مشروعية لين الجانب والتواضع للمؤمنين لاسيما الحديثو عهد بالإسلام.
 - 5- وجوب البراءة من الشرك وأهله.
 - 6- وجوب التوكل على الله والقيام بما أوجبه الله تعالى.
 - 7- فضل قيام الليل وصلاة الجماعة لما يحصل للعب من معية الله تعالى.
- هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

شرح الكلمات

أنبئكم: أي أخبركم.

آفاك أثيم: أي كذاب يقبل الكذب فيكون إفكاً أثيم غارق في الآثام.

يلقون السمع: أي يلقون أسماعهم ويصغون أشد الإصغاء للشياطين فيتلقون منهم مما أكثره كذب وباطل.

الغاوون: جمع غاو: الضال عن الهدى الفاسد القلب والنية.

في كل واد: أي من أودية الكلام وفنونه.

يهيمون: أي يمضون في كل شعب وواد من الكلام مدحاً أو ذماً كان صدقاً أو كذباً.

يقولون ما لا يفعلون: أي يقولون فعلنا وهم لم يفعلوا.

وانتصروا من بعد ما ظلموا: أي قالوا الشعر انتصاراً للحق بأن ردوا على من هجا المسلمين.

(3/689)

أي منقلب ينقلبون: أي مرجع يرجعون بعد الموت وهو دار البوار جهنم.

معنى الآيات:

لما ادعى المبطلون من مشركي قريش أن الرسول يتلقى من الشياطين كما تتلقى الكهان منهم رد تعالى عليهم بقوله {هل أنبئكم 1 على من تنزل الشياطين؟} وأجاب عن السؤال قائلاً {تنزل على كل آفاك} كذاب يقبل الكذب قلباً فيقول في الظالم عادل، وفي الخبيث طيب، وفي الفاسد صالح، {أثيم} أي كثير الآثام إذ لم يترك جريمة إلا يقارفها ولا سيئة إلا يجترحها حتى يغرق في الإثم فهذا الذي تتحد معه الشياطين وتلفي إليه بما تسمعه من السماء لكونه مثلها في ظلمة النفس وخبث الروح،

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فهو أبعد الناس عن الكذب والإثم فلم يجرب عليه كذب قط ولم يعرف منه ذنب أبداً فكيف تتحد معه الشياطين وتخبره وتلقي إليه بخبر السماء؟ وبهذا بطلت التهمة وقوله {يلقون 2 السمع وأكثرهم 3 كاذبون} أي إن الشياطين قبل أن يحال بينهم وبين استراق السمع بإرصاد الشهب لهم كانوا يلقون أسماعهم للحصول على الخبر وأكثرهم كاذبون حيث يخلطون مع الكلمة التي سمعوها مائة كلمة كلها كذب منهم ويلقون ذلك الكذب إلى إخوانهم في الكفر والخبث من كهنة الناس.

وقوله تعالى {والشعراء يتبعهم الغاؤون} أي أهل الغواية والضلال هم الذين يتبعون الشعراء فيروون لهم وينقلون عنهم، ويصدقونهم فيما يقولون. والدليل على ذلك {أنهم} أي الشعراء {في كل واد} من أودية الكلام وفنونه {يهيمون} على وجوههم

- 1 هذا الاستفهام صوري واختير له هل لإفادتها التحقيق كقد وهو يحمل التعريض بأن المستفهم عنه مما يسوءهم فلذا استفهموا في هذا السؤال {هل أنبئكم}؟
- 2 وجائز أن يكون من يلقون السمع: الكهان، إذ هم يلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتتزل عليهم شياطينهم بالخبر وذلك من إفكهم، وعليه جملة: {يلقون السمع} صفة {لكل أفاك أنيم} وما في التفسير عليه الكثيرون وكلا المعنيين وارد وصحيح.
- 3 أي: أكثر هؤلاء الأفاكين كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقوه من الشياطين فبعضهم لا يتلقى شيئاً وإنما يدعي ذلك، والبعض يتلقى قليلاً فيزيد عليه أضعافه، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكهان فقال: "ليسوا بشيء قيل: يا رسول الله فإنهم يحدثون يكون حقاً فقال: تلك الكلمة من الحق يخطفها المجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة".

(3/690)

ماضين في قولهم فيمدحون ويذمون، يهجون، ويفخرون، ويدعون أنهم فعلوا كذا وكذا وما فعلوا فهل محمد صلى الله عليه وسلم الذي اتهمتموه بأنه شاعر وما يقوله من جنس الشعر أتباعه 1 غاؤون انظروا إليهم واسألوا عنهم فإنهم أهدى الناس وأبرهم فعلاً وأصدقهم حديثاً وأبعدهم عن الريبة، فلو كان محمد شاعراً وما لكان أتباعه الغاوين فبذا بطلت الدعوى من أساسها.

وقوله {إلا الذين 2 آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا} إنه لما نم الشعراء، استثنى منهم أمثال: عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت ممن آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا يردون هجاء المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينافحون عن الإسلام وأهله

بشعرهم الصادق النقي الطاهر الوفي.

وقوله تعالى {وسيعلم الذين ظلموا} رسول الله باتهامه بالكهانة مرة وبالشعر مرة أخرى وظلموا الوحي الإلهي بوصفه بما هو بعيد عنه من الكهانة والشعر { أي منقلب ينقلبون} أي أي مرجع يرجعون إليه، إنه النار وبئس القرار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إبطال فرية المشركين من أن القرآن من جنس ما يقوله الكهان.
- 2- إبطال أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاهن وشاعر.
- 3- بيان أن الشياطين تتحد مع ذوي الأرواح الخبيثة بالإفك والآثام.
- 4- بيان أن الشعراء المبطلين أتباعهم في كل زمان ومكان الغاؤون الضالون.
- 5- جواز نظم الشعر وقوله في تقرير علم أو تسجيل 3 حكمة، أو انتصار 4 للإسلام والمسلمين بالرد على من يهجو الإسلام والمسلمين.
- 6- التحذير من عاقبة الظلم فإنها وخيمة.

1 من كان أتباعه غاوين لا يكون هو إلا غاوياً بل أشد غواية.

2 في الآية دليل على جواز دراية الشعر الحسن فقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً لعمر بن الشريد: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قال: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت.

3 روى عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر؟ فقال: ويلك بالكع: وهل الشعر إلا كلاماً لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

4 من شعر نصره الحق قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه والرسول صلى الله عليه وسلم يمشي

بين يديه وذلك يوم الفتح:

خلو بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم عن تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقبله

ويذهل الخليل عن خليله

ومنه قول حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه

وعند الله في ذلك الجزاء

أتشتمه ولست له بكفاء

فشركما لخيركما الفداء

فإن أبي ووالدتي وعرضي
عرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه
وبحري لا تكدره الدلاء

(3/691)

المجلد الرابع

سورة النمل

...

سورة النمل

مكية

وآياتها ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (1) هدى وبشرى للمؤمنين (2) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
وهم بالآخرة هم يوقنون (3) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون (4) أولئك الذين
لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (5)

شرح الكلمات:

طس: هذا أحد الحروف المقطعة، يقرأ: طا. سين.

تلك: أي الآيات المؤلفة من هذه الحروف آيات القرآن.

هدى وبشرى: أي أعلام هداية للصرط المستقيم، وبشارة للمهتدين.

زيننا لهم أعمالهم: أي حبينها إليهم حسب سنتنا فيمن لا يؤمن بالبعث والجزاء.

فهم يعمهون: في ضلال بعيد وحيرة لا تنتهي.

لهم سوء العذاب: أي في الدنيا بالأسر والقتل.

معنى الآيات:

قوله تعالى {طس} لقد سبق أن ذكرنا أن السلف كانوا يقولون في مثل هذه الحروف المقطعة: الله
أعلم بمراده بذلك، وهذه أسلم، وذكرنا أن هناك فائدة قد تقتنص من

(4/4)

الإشارة بتلك أو بذلك، وهي أن القرآن المعجز الذي تحدى به مُنْزَلَه عز وجل الإنس والجن قد تألف من مثل هذه الحروف العربية فألفوا أيها العرب مثله سورة فأكثر فإن عجزتم فأمنوا أنه كلام الله ووحيه واعملوا بما فيه ويدعو إليه.

وقوله { تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ (1) } أي المؤلفه من مثل هذه الحروف آيات القرآن { وَكِتَابٍ مُبِينٍ (2) } أي مبين لكل ما يحتاج إلى بيانه من الحق والشرع في كل شؤون الحياة.

وقوله { هُدًى وَبُشْرَى (3) لِلْمُؤْمِنِينَ } أي هادٍ إلى الصراط المستقيم الذي يفضي بسالكة إلى السعادة والكمال في الدارين، { وَبُشْرَى } أي بشاره عظمى للمؤمنين أي بالله ولقائه والرسول وما جاء به، { الَّذِينَ (4) يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } بأدائها في أوقاتها في بيوت الله تعالى مستوفاة الشروط والأركان والواجبات والسنن والآداب { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } عند وجوبها عليهم { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ } أي بالدار الآخرة { هُمْ يُوقِنُونَ } بوجودها والمصير إليها، وبما فيها من حساب وجزاء.

وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } أي بالبعث والجزاء { زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ } أي حبيباها إليهم حتى يأتوها وهي أعمال شر وفساد، وذلك حسب سنتنا فيمن أنكر البعث وأصبح لا يرهب حسابا ولا يخاف عقابا انغمس في الرذائل والشهوات وأصبح لا يرعوي عن قبيح { فَهُمْ } لذلك { يَعْْمَهُونَ } في سلوكهم يتخبطون لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا.

وقوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ } أي في الدنيا بالأسر والقتل، وهم في الآخرة (5) هم الأكثر خساراً من سائر أهل النار أي أشد عذابا.

1- عرّف الكتاب ونكر القرآن وهما في معنى المعرفة كما يقال: فلان رجل عاقل، وفلان الرجل العاقل، والكتاب هو القرآن فجمع له صفتان تفخيما وتعظيما فهو قرآن وهو كتاب، والكتاب: علم على القرآن بالغبطة، والقرآن علم بالنقل.

2- (مبين) إن كان من أبان اللازم فهو بمعنى بان أي: فهو ظاهر واضح بيّن في نفسه وفي هذا تنويه وتشريف له، وإن كان من أبان المتعدي فهو مبين لما أريد منه من أركان العقيدة وأنواع العبادات وأحكام الشريعة وآدابها.

3- هدى وبشرى: حال، والإعراب مقدر أشار إلى القرآن حال كونه هادياً ومبشراً للمؤمنين به العاملين بما فيه من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق.

4- الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة الموصول وصلته وما عطف عليه نعت للمؤمنين وصف لهم بما تضمنه لفظ الهدى، وجملة: { وهم بالآخرة هم يوقنون } معطوفة على صلة الموصول فهي نعت ثانٍ للمؤمنين الذين هدوا بالقرآن.

5- قوله تعالى: { إن الذين لا يؤمنون بالآخرة } هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها واقعة موقع جواب عن سؤال تقديره: إذا كان القرآن هادياً ومبشراً فما للذين لا يؤمنون بالآخرة لم يهتدوا؟ فالجواب: إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زين الله لهم أعمالهم لذا فهم لا يهتدون، وتزيين الأعمال قائم

على سنة من سنن الله تعالى وهي أن من رفض الحق وآثر الباطل عليه وأصرّ على اختيار الباطل يحرم الهداية فلا يقبلها ممن جاءه بها كالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.

(4/5)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان إعجاز القرآن إذ آياته مؤلفة من مثل طس، وحم وعجز العرب عن تأليف مثله.
- 2- بيان كون القرآن، هدى وبشرى للمؤمنين الملتزمين بمتطلبات الإيمان.
- 3- إنكار البعث والدار الآخرة يجعل صاحبه شر الخليفة وأسوأ حالا من الكلاب والخنازير.
- 4- وجوب قتال الملاحدة وأخذهم أسراً وقتلاً حتى يؤمنوا بالله ولقائه لأنهم خطر على أنفسهم وعلى البشرية سواء.

وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِيكُمْ مِنْهَا بَخِيرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

شرح الكلمات:

وإنك لتلقى : أي تلقنه وتحفظه وتعلمه.

من لدن حكيم : أي من عند حكيم عليم هو الله جل جلاله.

آنست ناراً : أي أبصرت ناراً من بعد حصل لي بها بعض الأتس.

سأتيتكم منه بخبر : أي عن الطريق حيث ضلوا طريقهم إلى مصر في الصحرا.

بشهاب قيس : أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها.

(4/6)

لعلكم تصطلون : أي تستدفئون.

أن بورك من في النار : أي بارك الله جل جلاله من في النار وهو موسى عليه السلام إذ هو في

البقعة المباركة التي نادى الله تعالى موسى منها.

وسبحان الله رب العالمين : أي نزه الرب تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله وكماله من صفات المحدثين.

يا موسى إنه أنا الله : أي الحال والشأن أنا الله العزيز الحكيم الذي ناداك وباركك.

تهتز كأنه جان : أي تتحرك بسرعة كأنها حية خفيفة السرعة.

ولم يعقب : أي ولم يرجع إليها خوفاً وفزعا منها.

ثم بدل حسنا بعد سوء: أي تاب فعمل صالحا بعد الذي حصل منه من سوء.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية فقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَنُذِقِّي (1) الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } يخبر تعالى رسوله بأنه يلقن القرآن ويحفظه ويعلمه من لدن حكيم في تدبيره عليم بخلقه وهو الله جل جلاله وعظم سلطانه.

وقوله تعالى { إِذْ قَالَ مُوسَى } اذكر لمنكري الوحي والمكذبين بنبيوتك إذ قال موسى إلى آخر الحديث، هل مثل هذا يكون بغير التلقي من الله تعالى. والجواب: لا إذا فأنت رسول الله حقا وصدقاً { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ } امرأته وأولاده { إِنِّي آنستُ (2) ناراً } أي أبصرتها مستأنسا بها. { سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ (3) قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (4) } أي تستدفنون إذ كانوا في ليلة شاتية باردة وقد ضلوا طريقهم.

1- قال القرطبي: هذه الآية بسط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأفاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه وهو كما قال.

2- { إِنِّي آنستُ ناراً } أي: أبصرتها من بعد قال الشاعر:

آنست نباءة وأفرز عنها القناص عصرا وقد دنا الإمساء

3- قرأ عاصم { بشهاب قيس } بتنوين شهاب، وقرأ نافع { بشهاب } بلا تنوين مضاف إلى قيس، والإضافة للنوع كثوب خزر وخاتم فضة.

4- الاصطلاء: الاستدفاء من البرد، قال الشاعر:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل

(4/7)

وقوله تعالى: { فَلَمَّا جَاءَهَا } أي النار { نُودِيَ (1) } أي ناداه ربه تعالى قائلا: { أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } أي تقدس من في النار التي هي نور الله جل جلاله. وهو موسى عليه السلام ومن حولها من أرض القدس والشام، والله أعلم بمراده من كلامه وأنا لنستغفره ونتوب إليه إن لم نوفق

لمعرفة مراده من كلامه وخطابه فاغفر اللهم ذنبنا وارحم عجزنا وضعفنا إنك غفور رحيم، وقوله تعالى {وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} نزه تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله وكماله وقوله {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي الذي يناديك هو الله ذو الألوهية على خلقه العزيز الغالب الذي لا يحال بينه وبين مراده الحكيم في قضائه وتدبيره وتصريف ملكه. بعد أن عرفه بنفسه وأذهب عنه روع نفسه، أمره أن يلقي العصا تمرينا له على استعمالها فقال {وَأَلْقِ عَصَاكَ} فألقاها فاهترزت كأنها جان أي حية خفيفة السرعة {فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى} (2) مُدْبِرًا أي رجع القهقري فرعا وخوفا {وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يرجع إليها خوفا منها فناده ربه تعالى {يَا مُوسَى} (3) لا تَخَفْ من حية ولا من غيرها {إِنِّي لَا يَخَافُ} (4) لَدَى الْمُرْسَلُونَ {إِلَّا} (5) مَنْ ظَلَمَ أي نفسه باقتراف ذنب من الذنوب فهذا يخاف لكن إن هو تاب بعد الذنب ففعل حسنات بعد السيئات فإنه لا يخاف لأنني غفور رحيم فأغفر له وأرحمه. طمأن تعالى نفس موسى بهذا لأن موسى كان شاعراً بأنه أذنب بقتل القبطي قبل نبوته ورسالته، وإن كان القتل خطأ إلا أنه تجب فيه الكفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة المحمدية.

2- مشروعية السفر بالأهل والولد وجواز خطأ الطريق حتى على الأنبياء والأذكىاء.

3- قيومية الرجل على النساء والأطفال.

-
- 1- عن وهب بن منبه قال: فلما رأى موسى النار وقف قريبا منها فرأها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها: العُليق فعجب منها ... { ونودي أن بورك من في النار ومن حولها}
- 2- أي: خائفا على عادة البشر.
- 3- الاستثناء منقطع أي: لكن يخاف من ظلم، ومن ظلم ثم تاب فلا يخاف أيضا فإن الله غفور رحيم.

4- هذا مقول قول أي: يا موسى لا تخف.

5- الجملة تعليل للنهي في قوله: {يا موسى لا تخف}.

(4/8)

-
- 1- تجلي الرب تعالى لموسى في البعقة المباركة ومناجاته وتدريبه على العصا والسلاح الذي يقاوم به فرعون وملاه فيما بعد.

2- الظلم يسبب الخوف والعقوبة إلا من تاب منه وأصلح فإن الله غفور رحيم.
وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

شرح الكلمات:

في جيبك : أي جيب ثوبك.

من غير سوء : أي برص ونحوه بل هو (البياض) شعاع.

في تسع آيات : أي ضمن تسع آيات مرسلًا بها إلى فرعون.

مبصرة : مضيئة واضحة مشرقة.

وجحدوا بها : أي لم يقرروا ولم يعترفوا بها.

واستيقنتها أنفسهم : أي أيقنوا أنها من عند الله.

ظلمًا وعلوًا : أي ردوها لأنهم ظالمون مستكبرون.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع موسى في حضرة ربه عز وجل بجانب الطور إنه لما أمره بإلقاء العصا فألقاها فاهترت وفتح موسى لذلك فولى مدبراً ولم يعقب خائفاً فطمأنه ربه تعالى بأنه لا يخاف لديه المرسلون أمره أن يدخل يده في جيبه فقال {وَأَدْخِلْ (1) يَدَكَ فِي جَيْبِكَ} أي في جيب القميص {تَخْرُجْ (2) بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي من غير برص بل هو

1- هذا الكلام معطوف على قوله: (وَأَلْقِ عَصَاكَ) وما بينهما اعتراض.

2- هذه آية أخرى غير الأولى.

(4/9)

بياض إشراق يكاد يذهب بالأبصار {فِي تِسْعِ (1) آيَاتٍ} أي ضمن تسع آيات مرسلًا بها إلى فرعون وقومه، وبين تعالى علة ذلك الإرسال فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} أي خارجين عن الاعتدال إلى الغلو والإسراف في الشر والفساد وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ (2) آيَاتُنَا} يحملها موسى مبصرة مضيئة واضحة دالة على صدق موسى في دعوته، رفضوها فلم يؤمنوا بها، و {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، أي الذي جاء به موسى من الآيات هو سحر بين لا شك فيه قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} أي جحدوا بالآيات وكذبوا وتيقنتها أنفسهم أنها آيات من عند الله دالة على رسالة موسى وصدق دعوته في المطالبة ببني إسرائيل وقوله ظلمًا وعلوًا أي حملهم على التكذيب والإنكار مع العلم هو

ظلمهم واستكبارهم فإنهم ظالمون مستكبرون. وقوله تعالى: {فَانظُرْ كَيْفَ (3) كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} أي انظر يا رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم كيف كان عاقبة المفسدين وهي إهلاكهم ودمارهم أجمعين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- آية اليد هي إحدى الآيات التسع التي أوتي موسى عليه السلام دليلاً على وجود الآيات التي كان الله تعالى يؤيد بها رسله فمن أنكرها فقد كفر.
 - 2- التنديد بالفسق واستحقاق أهله العذاب في الدارين.
 - 3- الكبر والعلو في الأرض صاحبهما يجحد الحق ولا يقر به وهو يعلم أنه حق.
 - 4- عاقبة الفساد في الأرض بالمعاصي سوءى، والعياذ بالله تعالى.
- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

- 1- التسع آيات هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع والدم، والقحط، وانفلاق البحر، وهو من أعظمها.
- 2- {فلما جاءتهم} الخ أوجز بقية القصة وانتقل إلى العبرة بتكذيب فرعون وقومه بالآيات ليعتبر بذلك كفار قريش المكذوبين بآيات الله ورسوله.
- 3- الخطاب لغير معين ويجوز أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم تسلياً له وحماً له على الصبر من تكذيب قومه له وإصرارهم على الكفر به.

(4/10)

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّا هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

شرح الكلمات:

علمنا : هو علم ما لم يكن لغيرهم كمعرفة لغة الطير إلى جانب علم الشرع كالقضاء ونحوه.
وقالا الحمد لله : أي شكرًا له.

على كثير من عباده المؤمنين: أي بالنبوة وتسخير الجن والإنس والشياطين.

وورث سليمان داوود: أي ورث أباه بعد موته في النبوة والملك والعلم دون باقي أولاده.
علمنا منطق الطير : أي فهم أصوات الطير وما تقوله إذا صفت.
وأوتينا من كل شيء : أوتيه غيرنا من الأنبياء والملوك.
وحشر لسليمان : أي جمع له جنوده من الجن والإنس والطير في مسير له.
فهم يوزعون : أي يساقون ويرد أولهم إلى آخرهم ليسيروا في نظام.
لا يحطمنكم سليمان : أي لا يكسرنكم ويقتلنكم.
وهم لا يشعرون : أي بكم.

(4/11)

أوزعني أن أشكر : أي ألهمني ووفقني لأن أشكر نعمتك التي أنعمت علي.
معنى الآيات:

هذا بداية قصص داوود وسليمان عليهما السلام ذكر بعد أن أخبر تعالى أنه يلقي رسوله محمداً ويعلمه من لدنه وهو العليم الحكيم ودل على ذلك بموجز قصة موسى عليه السلام ثم ذكر دليلاً آخر وهو قصة داوود وسليمان، فقال تعالى {لَقَدْ آتَيْنَا} أي أعطينا داوود وسليمان {عِلْمًا} أي الوالد والولد علماً خاصاً كعرفة منطقة الطير وصنع الدروع والآلة الحديد زيادة على علم الشرع والقضاء(1)، وقوله تعالى {وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي شكرا ربهما بقولهما {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي الشكر لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين بما آتاهما من الخصائص والفواضل. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (14) وأما الآية الثانية (15) فقد أخبر تعالى فيها أن سليمان ورث أباه داوود وحده دون باقي أولاده(2) وذلك في النبوة والملك، لا في الدرهم والدينار والشاة والبعير، لأن الأنبياء لا يورثون فما يتركونه هو صدقة(3). كما أخبر أن سليمان قال في الناس(4) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ} (5) {الطَّيْرِ} فما يصفر طير إلا علم ما يقوله في صفيده، وأوتينا من كل شيء أوتيه غيرنا من النبوة والملك والعلم والحكمة {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} أي فضل الله تعالى البين الظاهر. وقوله تعالى {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ} أي جمع له جنوده {مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} هو إخبار عن مسير كان لسليمان مع جنده {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي جنوده توزع تساق بانتظام. بحيث لا يتقدم بعضها بعضاً فيرد دائماً أولها إلى آخرها محافظة على النظام في السير، وما زالوا سائرين كذلك حتى أتوا على واد النمل بالشام فقالت نملة من النمل {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} قالت هذا

1- وأتى داود الزبور وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم

- من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا على كثير من المؤمنين.
- 2- قيل: إن داود كان له تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه ولو كان وارثه مال كان جميع أولاده فيه سواء والزمن بين سليمان ونبينا كان قرابة ألف وثمانمائة سنة.
- 3- قوله صلى الله عليه وسلم "نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" حديث صحيح.
- 4- أي في بني إسرائيل قال هذا على جهة الشكر لنعم الله تعالى.
- 5- مما يؤثر عن سليمان عليه السلام في معرفة منطق الطير: (لدا للموت وابنا للخراب) "لورشان" نوع من الحمام البري أكر (ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا) "لفاخته" نوع من الحمام البري له طوق (من لا يرحم لا يرحم) "لهدهد" (استغفروا الله يا مذنبين) "لصرد" (قدموا خيرا تجدوه) "لخطافة" (اللهم العن العشار) "للغراب" (كل شيء هالك إلا وجهه) "للحدأة" (من سكت سلم) "للقطاة" (ويل لمن الدنيا همه) "للقطاة" (سبحان ربي القدس) "للضفدع" (اذكروا الله يا غافلين) "للديك".

(4/12)

رحمة وشفقة على بنات جنسها تعلم البشر الرحمة والشفقة والنصح لبني جنسهم لو كانوا يعلمون، واعتذرت لسليمان وجنده بقولها وهم لا يشعرون بكم وإلا لما داسوكم ومشوا عليكم حتى لا يحطموكم. وما إن سمعها سليمان وفهم كلامها (1) حتى تبسم ضاحكا من قولها {وَقَالَ رَبِّ يَا رَبِّ {أُورِغْنِي} (2)} {أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ} (3) {الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي يسر لي عملاً صالحاً ترضاه مني، {وَأَدْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} أي في جملتهم في دار السلام.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الشكر على النعم.
- 2- وراثه سليمان لداود لم تكن في المال لأن الأنبياء لا يورثون وإنما كانت في النبوة والملك.
- 3- آية تعليم الله تعالى سليمان منطق الطير وتسخير الجن والشياطين له.
- 4- فضل النمل على كثير من المخلوقات ظهر في نصح النملة لأخواتها وشفقتها عليهن.
- 5- ذكاء النمل وفطنته مما أضحك سليمان متعجبا منه.
- 6- وجوب الشكر عند مشاهدة النعمة ورؤية الفضل من الله عز وجل.
- 7- تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا الحديث لا يتأتى له إلا بالوحي الإلهي.
- وَتَقَفَّ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لِأَعَذَّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحَنَّهُ

- 1- قد اختلف في هل كان سليمان يعلم غير منطق الطير من سائر الحيوان، والذي عليه الأكثرون أنه كان يعلم أصوات سائر الحيوانات ومن ذلك النمل، قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم من النبات فكان الشجر يقول له: أنا شجر كذا أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان؟
- 2- الوزع: الكف عما لا يراد، والوازع: الذي يكف غيره عما لا ينبغي، وفعله: وزع يزع وزعا، فإذا زيدت فيه همزة السلب فقليل: أوزع أي: أزال الوزع الذي هو الكف، فقوله في الآية: { فهم يوزعون } أي يكفون أفراد القوات عن التقدم والتأخر حتى يكون السير منتظما . وقوله: { أوزعني أن أشكر نعمتك } أي: أبعد عني ما يمنعني من شكرك على نعمك. فصار أوزعني كألهمني وأغرني.
- 3- قال تعالى: { لئن شكرتم لأزيدنكم } وقال بعضهم: النعمة وحشية قيدها بالشكر فإنها إذا شكرت قرّت وإذا كفرت فرّت، وقال آخر: من لم يشكر النعمة فقد عرضها لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

(4/13)

أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الحَبَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ (26)

شرح الكلمات:

وتفقد الطير : أي تعهدتها ونظر فيها.

مالي لا أرى الهدد : أعرض لي ما منعني من رؤيته أم كان من الغائبين؟
لأعذبه عذابا شديدا: أي بنف ريشه ورميه في الشمس فلا يمتنع من الهوام.

بسُلطان مبین : أي بحجة واضحة على عذره في غيبته.

فمكث غير بعيد : أي قليلا من الزمن وجاء سليمان متواضعا.

أحطت بما لم تحط به : أي اطلعت على ما لم تطلع عليه.

وجئتك من سبأ : سبأ قبيلة من قبائل اليمن.

إني وجدت امرأة : هي بلقيس الملكة.

ولها عرش عظيم : أي سرير كبير.

فصدهم عن السبيل : أي طريق الحق والهدى.
ألا يسجدوا لله : أصلها أن يسجدوا أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله.
وزيدت فيها "لا" وأدغمت فيها النون فصارت ألا نظيرها لثلا
يعلم أهل الكتاب من آخر سورة الحديد.

(4/14)

يخرج الخبء في السموات والأرض: أي المخبوء في السموات من الأمطار والأرض من النبات.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصص سليمان عليه السلام قوله تعالى {وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ (1)} أي تفقد سليمان جنده من الطير طالبا الهدهد لأمر عن له أي ظهر وهو يتهيا لرحلة هامة، فلم يجده فقال ما أخبر تعالى به عنه: {مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ (2)} {أَلْعَارِضُ عَرَضَ لِي فَلَمْ أَرَهُ، {أُمُّ (3) كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ} أي بل كان من الغائبين، {لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا} بأن ينتف ريشه ويتركه للهوام تأكله فلا يمتنع منها {أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ} بقطع حلقومه، {أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي بحجة واضحة على سبب غيبته. قوله تعالى الآية (21) {فَمَكَتْ} أي الهدهد {عَيْرٌ (4) بَعِيدٌ} أي زما قليلا، وجاء فقال في تواضع رافعا عنقه مرخيا ذنبه وجناحيه {أَحْطَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} أي اطلعت على ما لم تطلع عليه {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ (5) بِنَبَأٍ يَقِينٍ} وسبأ قبيلة من قبائل اليمن، والنبأ اليقين الخبر الصادق الذي لا شك فيه. وأخذ يبين محتوى الخبر فقال {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً} هي بلقيس {تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} من أسباب القوة ومظاهر الملك، {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} أي سرير ملكها الذي تجلس عليه وصفه بالعظمة لأنه مرصع بالجواهر والذهب، وقوله {وَوَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أخبر أولا عن أحوالهم الدنيوية وأخبر ثانيا عن أحوالهم الدينية وقوله {وَوَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} أي الباطلة الشركية {فَصَدَّهُمْ} بذلك {عَنِ السَّبِيلِ} أي سبيل الهدى والحق فهم لذلك لا يهتدون لأن يسجدوا (6) لله الذي يخرج الخبء (7) أي المخبوء فهو

1- (تفقد) بمعنى بحث عن الفقد أي: عدم الوجود أو بحث عن سبب عدم الوجود.

2- من خواص الهدهد أنه يرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرق على موضع علم أن به ماء، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله مع ثلاثة وهي: (الضفدع، والنحل، والصرذ) خرج أبو داود وصححه. ونهى عن قتل النمل إلا أن يضرب ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل.

3- (أم) هي المنقطعة التي بمعنى: بل، ولا تخلو من معنى الاستفهام إذ التقدير: بل أكان من الغائبين.

- 4- أي: مكث في غيابه زمنا غير بعيد أو في مكان غير بعيد.
- 5- اسم رجل و: غبشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقب بسبأ لأنه أول من سبى في غزوه، وأطلق هنا سبأ على ديار قبيلة سبأ لأن من ابتدائية أي لابتداء الأمكنة غالبا.
- 6- { ألا يسجدوا } أصلها أن لا يسجدوا فأدغمت أن في لا النافية فصارت ألا، والمضارع منصوب بأن المدغمة في لا، ولذا تعين تقدير لام جر يتعلق بـ {فصدهم عن السبيل} أي: زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم لأجل أن لا يسجدوا. وما في التفسير من التقدير أوضح أيضا.
- 7- الخبء: مصدر خبأ الشيء: إذا أخفاه، أطلق على اسم المفعول أي: المخبوء من اجل المبالغة في الإخفاء.

(4/15)

من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول في السموات من أمطار والأرض من نباتات، ويعلم سبحانه وتعالى ما يخفون في نفوسهم، وما يعلنون عنه بألسنتهم الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. وصف الرب تعالى بالعرش العظيم ليقابل وصف بلقيس به، وأين عرش مخلوقة وإن كانت ملكة بنت ملك هو شراويل من عرش الله الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية استعراض الجيوش وتفقد أحوال الرعية.
- 2- مشروعية التعزير لمن خالف أمر السلطان بلا عذر شرعي.
- 3- مشروعية اتخاذ طائرات الاستكشاف ودراسة جغرافية العالم.
- 4- تحقيق قول الرسول صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة إذ لم يلبثوا أن غلب عليهم سليمان.
- 5- بيان أن هناك من كانوا يعبدون الشمس إذ سجودهم لها عبادة.
- 6- بيان أن الأحق بالعبادة هو الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.
- 7- مشروعية السجود لمن تلا هذه الآية أو استمع إلى تلاوتها: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}.

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُنُوتِي مُسْلِمِينَ (31)

شرح الكلمات:

سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين: أي بعد اختبارنا لك.
 فألقه إليهم: أي إلى رجال القصر وهم في مجلس الحكم.
 ثم تول عنهم: أي تتح جانبا متواريا مستترا عنهم.
 فانظر ماذا يرجعون: أي ماذا يقوله بعضهم لبعض في شأن الكتاب.
 يا أيها الملاً: أي يا أشرف البلاد وأعيانها وأهل الحل والعقد فيها.
 ألقى إلي كتاب كريم: أي ألقاه في حجرها الهدهد.
 ألا تعلوا علي: أي لا تتكبروا انقيادا للنفس والهوى.
 واثتوني مسلمين: أي منقادين خاضعين.

معنى الآيات:

{ قَالَ سَنَنْظُرُ (1) } أي قال سليمان للهدهد بعد أن أدلى الهدد بحجته (2) على غيبته سننظر باختبارنا لك { أَصَدَقْتَ } فيما ادعيت وقلت { أَمْ كُنْتَ (3) مِنَ الْكَاذِبِينَ } أي من جملتهم. وبدأ اختياره فكتب كتابا وختمه وقال له { اذْهَبْ بِكِتَابِي (4) هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } أي تتح جانبا مختفيا عنهم { فَاَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } من القول في شأن الكتاب أي ما يقول بعضهم لبعض في شأنه، وفعلاً ذهب الهدهد بالكتاب ودخل القصر من كوة فيه وألقى الكتاب في حجر الملكة بلقيس فارتاعت له وقرأته ثم قالت { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ } مخاطبة أشرف قومها { إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ } وصفته بالكرم لما حواه من عبارات كريمة، ولأنه مختوم وختم الكتاب كرمه ونصّ الكتاب كالتالي [من عبد الله سليمان بن داوود إلى

1- من الجائز أن يكون سليمان قد خشي أن يكون الكلام الذي سمعه من الهدهد ألقى به الشيطان على الهدهد ليضل سليمان ويفتنه بالبحث عن مملكة موهومة، فلذا قال عليه السلام {سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين}.

2- في الآية دليل على أن الحاكم يجب عليه أن يقبل عذر المواطن ويبدأ العقوبة عنه بظاهر حاله وباطن عذره، وفي الصحيح: "ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل" وللحاكم أن يمتحن المواطن المعتذر حتى يعرف عذره.

3- { أم كنت } بمعنى: أنت

4- في الآية دليل على وجوب إرسال الكتب إلى المشركين ودعوتهم إلى الإسلام وتبليغهم دعوة الله عز وجل، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وكسرى والمقوقس وغيرهم.

بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من ابتهع الهدى أما بعد فلا تغلوا علي وائتوني مسلمين].

ومضمونه ما ذكرته الملكة بقولها: {إِنَّهُ مِنْ (1) سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} ومعنى إنه من سليمان أي صادر منه وأنه مكتوب مرسل بسم الله الرحمن الرحيم أي بإذنه وشرعه ألا تغلوا علي أي لا تتكبروا على الحق فإنني بسم الله أطلبكم وأتتوني مسلمين أي خاضعين منقادين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الاختبار وإجراء التحقيق مع المتهم.
- 2- مشروعية استخدام السلطان أفراد رعيته لكفاية المستخدم.
- 3- مشروعية إرسال العيون للتعرف على أحوال العدو وما يدور عنده.
- 4- مشروعية كتابة بسم الله الرحمن الرحيم في الرسائل والكتب الهامة (2) ذات البال لدالاتها على توحيد الله

تعالى وأنه رحمن رحيم، وأن الكاتب يكتب بإذن الله تعالى له بذلك.
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِنَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

- 1- قال القرطبي: الأحسن اليوم بأن يقدم في الكتاب اسم المكتوب إليه قبل إسم الكاتب لأن البداية باسمه تعد استخفافاً بالمكتوب إليه وتكبراً عليه، ومراده أن يكتب الكاتب هكذا إلى حضرة فلان ... من فلان ... وتقديم اسم الكاتب هو ما عليه السلف الصالح.
- 2- روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كرد السلام ولا يسقط إلا من عذر لا سيما إذا سلم صاحب الكتاب فإن ردّ السلام واجب بلا خلاف.

شرح الكلمات:

أفتوني في أمري: بينوا لي فيه وجه الصواب، وما هو الواجب اتخاذه إزاءه.
ما كنت قاطعة أمرا : أي قاضيته.

حتى تشهدون : أي تحضروني وتبدوا رأيكم فيه.
وأولوا بأس شديد : أي أصحاب قوة هائلة مادية وأصحاب بأس شديد في الحروب.
إذا دخلوا قرية : أي مدينة وعاصمة ملك.

أفسدوها : أي خربوها إذا دخلوها عنوة بدون مصالحة.
وكذلك يفعلون : أي وكالذي ذكرت لكم يفعل مرسلو هذا الكتاب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم عن حديث قصر الملكة بلقيس وها هي ذي تقول لرجال دولتها ما حكاه تعالى عنها بقوله {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي (1) فِي أَمْرِي} أي أشيروا علي بما ترونه صالحا { مَا كُنْتُ قَاطِعَةً (2) أَمْرًا} أي قاضية باتة فيه {حَتَّى (3) تَشْهَدُون} أي تحضروني وتبدوا فيه وجهة نظرکم. فأجابها رجالها بما أخبر تعالى به عنهم { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ } عسكرية من سلاح وعتاد وخبرة { وَأَوْلُو بَأْسٍ (4) شَدِيدٍ } عند خوضنا المعارك {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي (5) مَاذَا تَأْمُرِينَ} به فأمرني ننفذ إنا طوع يديك.

فأجابتهم بما حكاه الله تعالى عنها {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً} أي مدينة عنوة بدون صلح. {أَفْسَدُوهَا} أي خربوا معالمها وبدلوا وغيروا فيها، {وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} بضربهم وإهانتهم وخلعهم من مناصبهم. {وَكَذَلِكَ} أصحاب هذا الكتاب {يَفْعَلُونَ} {وَأِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ (6) بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} أي الذين نرسلهم من

1- الإفتاء: الإخبار بالفتوى وهي: إزالة مشكل يعرض، والأمر: الحال المهم وإضافته إلى نفسها، لأنها المخاطبة في كتاب سليمان، ولأنها المضطلة بشؤون الدولة ولذا يقال للحاكم وعالم الدين: ولي الأمر.

2- { قاطعة أمرا } عاملة عملا لا تردد فيه بالعزم على أن تجيب به سليمان.

3- حذف ياء المتكلم منه تخفيفا، وحذفت نون الرفع للناصب وبقيت نون الوقاية والمراد من شهودهم: موافقتهم لها على ما تعزم عليه إزاء الكتاب.

4- البأس: الشدة على العدو، ومنه { وحين البأس } أي: في مواقع القتال في جوابهم هذا تصريح بأنهم مستعدون للحرب دفاعا عن مملكتهم.

5- فوضوا الأمر إليها لثقتهم بأصاله رأيها وخبرتها السياسية.

6- دبرت أن تنفادي الحرب بطريقة المصانعة والتزلف إلى سليمان بالهدية مصحوبة بكتاب ووفد، وعلى ضوء عودة الوفد تتصرف في الأمر.

قبول الهدية ورفضها وعلى ضوء ذلك نتصرف فإنهم إن قبلوا الهدية المالية فهم أصحاب دنيا، وإن رفضوها فهم أصحاب دين، وعندها نتخذ ما يلزم حيالهم، ولا شك أن هذه الهدية كانت فاحرة وثمينة. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير مبدأ الشورى في الحكم.

2- مشروعية إبداء الرأي بصدق ونزاهة ثم ترك الأمر لأهله.

3- مشروعية إعداد العدة وتوفير السلاح وتدريب الرجال على حمله واستعماله.

4- دخول العدو المحارب الغالب البلاد عنوة ذو خطورة فلذا يتلافى الأمر بالمصالحة.

5- بيان حسن سياسة الملكة بلقيس وفطنتها وذكائها ولذا ورثت عرش أبيها.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

شرح الكلمات:

فلما جاء سليمان : أي رسول الملكة يحمل الهدية ومعه أتباعه.

فما آتاني الله خير مما آتاكم : إنه أعطاني النبوة والملك وذلك خير مما أعطاكم من المال فقط.

بهديتكم (1) تفرحون : لحبكم للعالم ورغبتكم في زخارفها.

ارجع إليهم : أي بما أتيت به من الهدية.

بجنود لا قبل لهم بها : أي لا طاقة لهم بقتالها.

ولنخرجهم منها : أي من مدينتهم سبأ المسماة باسم رجل يقال له سبأ.

أذلة وهم صاغرون : أي إن لم يأتوني مسلمين أي منقادين خاضعين.

قبل أن يأتوني مسلمين : فإن لي أخذه قبل مجيئهم مسلمين لا بعده.

قال عفريت من الجن : أي جني قوي إذ القوي الشديد من الجن يقال له عفريت.
قبل أن تقوم من مقامك : أي من مجلس قضائك وهو من الصبح إلى الظهر.
وإني عليه لقوي أمين : أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر وغيرها.
وقال الذي عنده علم من الكتاب : أي سليمان عليه السلام.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع سليمان وملكة سبأ إنه لما بعثت بهديتها تختبر بها سليمان هل هو رجل دنيا يقبل المال أو رجل دين، لتتصرف على ضوء ما تعرف من اتجاه سليمان عليه السلام، فلما جاء سليمان، جاءه سفير الملكة ومعه رجال يحملون الهدية قال لهم ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: {قَالَ أَمْذُونٍ (2) بِمَالٍ؟ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ} آتاني النبوة والعلم والحكم والملك فهو خير مما آتاكم من المال {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ (3) تَفْرَحُونَ} وذلك لحبكم الدنيا ورغبتكم في زخارفها.
وقال لرسول الملكة {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ} أي بما أتيت به من الهدية، وعلمهم أنهم إن لم يأتوا إلي مسلمين {فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا (4)} أي لا قدرة لهم على قتالهم، {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا} أي من مدينتهم سبأ {أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي خاضعون منقادون. ثم قال سليمان عليه السلام لأشرف دولته

- 1- الهدية: منها ما هو حرام ومنها ما هو مكروه ومنها ما هو مباح أو مندوب، فالهدية الحرام: التي تُهدى للحكام والقضاة ليحكموا لصاحبها والهدية المكروهة: هدية الكافر والهدية المباحة أو المندوب إليها: هدية المؤمن لأخيه المؤمن للمودة والحب، لحديث مالك وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء" الشحناء العدواة والبغضاء.
- 2- أي: أتريدونني إلى ما تشاهدونه من أموال، والاستفهام للإنكار وقرأ الجمهور:
{أتمدونني} بنونين. وقرأ بعض بنون واحدة مشددة.
- 3- {بل} للاضراب الانتقالي من الإنكار عليهم إلى رد هديتهم إليهم.
- 4- الضمير في {بها} عائد على الجنود والضمير في {منها} عائد إلى مدينتهم وهي مأرب أو سبأ على مراحل قليلة من صنعاء.

(4/21)

وأعيان بلاده {إِيَّهَا الْمَلَأُ (1) أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فإني لا آخذه إلا قبل مجيئهم مسلمين لا بعده. فنطق عفريت من الجن قائلاً بما أخبر تعالى عنه به {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} أي مجلس قضائك والذي ينتهي عادة بنصف النهار، {وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} أي قادر على حمله والإتيان به في هذا الوقت الذي حددت لكم وأمين على ما فيه من جواهر وذهب لا

يضيع منه شيء. وهنا {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ (2)} وهو سليمان عليه السلام {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} فافتح عينيك وانظر فلا يعود إليك طرفك إلا والعرش بين يديك، وسأل ربه باسمه الأعظم الذي ما دعي به إلا أجاب وإذا العرش بين يديه {فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا} بين يديه لهج قائلاً {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي} أي علي فلم يكن لي به يد أبداً {لِيَبْلُوَنِي} بذلك {أَشْكُرُ} نعمته علي {أَمْ أَكْفُرُهَا} {وَمَنْ شَكَرَ (3)} فلنفسه أي عائد الشكر يعود عليه بحفظ النعمة ونمائها {وَمَنْ كَفَرَ} أي النعمة {فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} أي عن شكره وليس مفتقراً إليه، كريم قد يكرم الكافر للنعمة فلا يسلبها كلها منه أو يبقيها له على كفره.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- أهل الآخرة لا يفرحون بالدنيا، وأهل الدنيا لا يفرحون بالآخرة.
- 2- استعمال أسلوب الإرهاب والتخويف مع القدرة على إنفاذه مع العدو أليق.
- 3- تقرير أن سليمان كان يستخدم الجن وأنهم يخدمونه في أصعب الأمور.
- 4- استجابة الله تعالى لسليمان فأحضر له العرش من مسافة شهرين أي من اليمن إلى الشام قبل ارتداد طرف الناظر إذا فتح عينه ينظر.
- 5- وجوب رد الفضل إلى أهله فسليمان قال {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي} والجهال يقولون بثورتنا الخلافة، وأبطالنا والبواسل.
- 6- وجوب الشكر، وعائدته تعود على الشاكر فقط، ولكرم الله تعالى قد لا يسلب النعمة فور عدم شكرها وذلك لحلمه تعالى وكرمه.

- 1- هذا استئناف ابتدائي أي: كلام غير مرتبط بما سبقه بنوع من الارتباط قريب.
- 2- قال القرطبي: "جمهور المفسرين: أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخا وقيل: هو سليمان عليه السلام، بقريئة قوله: هذا من فضل ربي، قال ابن عطية وقالت فرقة وهو سليمان عليه السلام. والمخاطبة في هذا التأويل للعفريب لما قال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وكأن سليمان استنبط ذلك فقال له على وجه التحقير أنا آتيك به ... الخ. قيل: يا حي يا قيوم: هو الاسم الأعظم.
- 3- الشكر: قيد النعمة الموجودة وبه تتال النعمة المفقودة.

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا
كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ
صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

شرح الكلمات:

قال نكروا لها عرشها : أي غيروا هيأته وشكله حتى لا يعرف إلا بصعوبة.

أتهتدي: أي إلى معرفته.

أهكذا عرشك : شبهوا عليها إذ لو قالوا هذا عرشك لقلت نعم.

قالت كأنه هو : فشبهت عليه فقالت كأنه هو .

وصدها ما كانت تعبد من دون الله : أي صرفها عن عبادة الله مع علمها ونكائها ما كانت تعبد من
دون الله.

ادخلي الصرح : أي بهو الصرح إذ الصرح القصر العالي وفي بهوه بركة ماء كبيرة مغطاة بسقف
زجاجي يرى وكأنه ماء .

فكشفت عن ساقها : طانة أنها تدخل ماء تمشي عليه فرفعت ثيابها.

حسبته لجة : أي من ماء غمر يجري.

صرح ممرد من قوارير : أي مملس من زجاج.

(4/23)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم فيما دار من أحاديث بين سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ لقد خرجت
هي في موكبها الملكي بعد أن أحتاطت لعرشها أيما احتياط. إلا أن العرش وصل قبلها بدعوة الذي
عنده علم من الكتاب، وقبل وصولها أراد سليمان أن يختبر عقلها من حيث الحصافة أو الضعف (1)
فأمر رجاله أن يغيروا عرشها بزيادة ونقصان فيه حتى لا يعرف إلا بصعوبة كما قال عليه السلام
{نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي} إلى معرفته { أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ} لضعف عقولهم. فلما جاءت {قَلَمًا
جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا (2) عَرْشُكَ} فشبهوا عليها في التعبير وفي التعبير، إذ المفروض أن يقال لها هذا
عرشك ومن هنا فطنت لتشبيهم {قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ} إذ لو قالت: هو لقالوا كيف يكون هو والمسافة
مسيرة شهرين ولو قالت ليس هو لقال لها كيف تجهلين سريرك فكانت ذات ذكاء ودهاء ومن هنا

قال سليمان لما أعجب بذكائها {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ} (3) مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ { فحمد الله وأثنى عليه ضمن العبارة التي قالها. وقوله {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} اتباعاً لقومها إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله. {إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ} فهذا سبب عدم إيمانها وتوحيدها وهو ما كان عليه قومها، وجلس سليمان في بهو صرحه وكان البهو تحته بركة ماء عظيمة فيها أسماك كثيرة وللماء موج، وسقف البركة مملس من زجاج، ومع سليمان جنوده من الإنس والجن يحوطون به ويحفون من كل جانب وأمرت أن تدخل الصرح(4) لأن سليمان الملك يدعوها { فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً } ماء {وَكَشَفَتْ} (5) عَنْ سَاقِيهَا} فقال لها سليمان {إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ} أي مملس {مِنْ قَوَارِيرَ} زجاجية وهنا وقد بهرها الموقف وعرفت أنها كانت ضالة وظالمة نطقت قائلة {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وبهذا أصبحت مسلمة سالحة. ولم يذكر القرآن عنها بعد شيئاً

- 1- قيل إن الجن قالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل فلذا أمر بتكبير عرشها ليختبر عقلها، وقالوا له: إن رجلها كرجل حمار فلذا امتحنها بدخول بهو الصرح لتكشف عن ساقها فيعرف ما قالت الجن عنها.
- 2- الاستفهام للتقرير مع الاختبار وهو المقصود.
- 3- اختلف هل قول: {وأوتينا العلم} من قول سليمان أو أحد رجالته أو هو من قول بلقيس، والراجح أنه من قول سليمان عليه السلام.
- 4- (الصرح) البناء العالي: تقدم أن الجن هم الذين قالوا لسليمان إن رجل بلقيس رجل حمار وطلبوا اختبارها وهم الذين صنعوا بركة الماء في بهو الصرح.
- 5- ذكر القرطبي هنا حكايات أكثرها منقول عن أهل الكتاب منها: أن الجن أول من صنعوا النورة لإزالة شعر الجسم، وأن سليمان عليه السلام أول من صنع الحمامات، وهذا يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر قولين أحدهما أن سليمان تزوج بلقيس وآخر: لم يتزوجها.

(4/24)

فلنسكت عما سكت عنه القرآن.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جواز اختبار الأفراد إذا أريد إسناد أمر لهم لمعرفة قدرتهم العقلية والبدنية.
- 2- بيان حصافة عقل بلقيس ولذا أسلمت ظهر ذلك في قولها {كأنه هو}
- 3- مضار التقليد وما يترتب عليه من التتكير للعقل والمنطق.

- 4- حرمة كشف المرأة ساقها حتى لو كانت كافرة فكيف بها إذا كانت مسلمة.
- 5- فضيلة الانتساء بالصالحين كما اتت بلقيس بسليمان في قولها {وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين}.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا نَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)

شرح الكلمات:

أن اعبدوا الله: أي بأن اعبدوا الله.

فريقان يختصمون : أي طائفتان مؤمنة موحدة وكافرة مشركة يختصمون.

تستعجلون بالسيئة : أي تطالبون بالعذاب قبل الرحمة.

(4/25)

لولا تستغفرون الله : أي هلا تطلبون المغفرة من ربكم بتوبتكم إليه.

قالوا اطيرنا بك : أي تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين.

قال طائرکم عند الله : أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه.

بل أنتم قوم تفتنون : أي تختبرون بالخير والشر.

تسعة رهط : أي تسعة رجال ظلمة.

نقاسموا بالله : أي تحالفوا بالله أي طلب كل واحد من الثاني أن يحلف له.

لنبينته وأهله : أي لنقتلنه والمؤمنين به ليلا.

ما شهدنا مهلك أهله: أي ما حضرنا قتله ولا قتل أهله.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} هذا بداية قصص صالح عليه السلام مع قومه ثمود لما ذكر تعالى قصص

سليمان مع بلقيس ذكر قصص صالح مع ثمود وذلك تقريراً لنبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم

ووضع المشركين من قريش أمام أحداث تاريخية تمثل حالهم مع نبيهم لعلهم يذكرون فيؤمنوا قال

تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ} أي قبيلة ثمود {أَخَاهُمْ} أي في النسب {صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا} أي قال لهم

اعبدوا الله أي وحدوه {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ} موحدون ومشركون {يَخْتَصِمُونَ (1)} فريق يدعو إلى عبادة

الله وحده وفريق يدعو إلى عبادة الأوثان مع الله وشأن التعارض أن يحدث التخاصم كل فريق يريد

أن يخصم الفريق الآخر. وطالبوا صالحا بالآيات {وَقَالُوا اتَّبِعْنَا بِمَا تَعِدُنَا} أي من العذاب {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} في أنك رسول إلينا مثل الرسل فرد عليهم وقال { يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ (2) بِالسَّيِّئَةِ } أي تطالبونني بعذابكم {قَبْلَ الْحَسَنَةِ} فالمفروض أن تطالبوا بالحسنة التي هي الرحمة لا السيئة التي هي العذاب. إن كفركم ومعاصيكم هي سبيل عذابكم، كما أن إيمانكم وطاعتكم هي سبيل نجاتكم وسعادتكم فبادروا بالإيمان والطاعة طلبا لحسنة الدنيا والآخرة. إنكم بكفركم ومعاصيكم تستعجلون عذابكم {لَوْلَا (3) } أي هلا

- 1- من الخصومة ما قصه الله تعالى في سورة الأعراف في قوله: {أتعلمون أن صالحاً مرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون}.
- 2- الاستفهام إنكاري، و(السيئة كالحسنة) صفة لمحذوف، والتقدير لم تستعجلون بالحال السيئة قبل الحال الحسنة؟
- 3- (هلا) أداة تحضيض حضهم نبيهم على التوبة بالاستغفار والاقلاع عن الشرك والمعاصي رجاء أن يرحمهم الله تعالى فلا يعذبهم في الدنيا ولا في الآخرة.

(4/26)

{تَسْتَعْجِرُونَ اللَّهَ} بترككم الشرك والمعاصي {أَلَعَلَّكُمْ تُزْحَمُونَ} أي كي ترحموا. بعد هذا الوعظ والإرشاد كان جواب القوم ما أخبر تعالى به عنهم في قوله {قَالُوا اطَّيَّرْنَا (1) بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} أي تشاءمنا بك وبأتباعك المؤمنين لك، فرد عليهم بقوله {طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ} أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه وهو كائن لا محالة، وليست القضية تشاؤماً ولا تيامناً {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} وقوله تعالى {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ} أي مدينة الحجر حجر ثمود تسعة رجال {يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (2)} بالكفر والمعاصي {وَلَا يُصْلِحُونَ} وهم الذين تماؤوا على عقر الناقة ومن بينهم فُدار بن سالف الذي تولى عقر الناقة. هؤلاء التسعة نفر قالوا لبعضهم بعضاً في اجتماع خاص {نَقَّاسَمُوا بِاللَّهِ} أي ليقسم كل واحد منكم قائلاً والله {لَنُنَبِّئَنَّكَ} أي صالحاً {وَأَهْلَهُ} أي أتباعه، أي لنأتينهم ليلاً فنقتلهم، ثم في الصباح {نَنفُؤُنَّ لِوَالِيهِ} أي لولي دم صالح من أقربائه، والله {مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ} ولا مهلكه {وَأِنَّا لَصَادِقُونَ} فيما نقسم عليه من أننا لم نشهد مهلك صالح ولا مهلك أصحابه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.
- 2- تقرير حقيقة أن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي إلا بانتهاء الباطل.

- 3- حرمة التشاؤم والتيامن كذلك، ولم يجز الشارع إلا التفاؤل لا غير.
- 4- العمل بمعاصي الله تعالى هو الفساد في الأرض، والعمل بطاعته هو الإصلاح في الأرض.
- 5- تقرير أن المشركين يؤمنون بالله ولذا يحلفون به، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لشركهم في عبادة الله تعالى غيره من مخلوقاته.

- 1- كانت العرب أكثر الناس تطيرا {واطيرنا} في الآية أصلها: تطيرنا فقلبت التاء طاء لقرب مخرجها من الطاء وأدغمت في الطاء، وجيء بهمزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن، والتطير معناه: التشاؤم وهو مأخوذ من الطير تطير يمينا أو شمالا فيتيمنون بذلك أو يتشاءمون.
- 2- الأرض: أرض ثمود وأل فيها: للعهد والرهد: العدد من الثلاثة إلى العشر كالنفر ومن بين هؤلاء: قدار بن سالف: عاقر الناقة.

(4/27)

وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ (53)

شرح الكلمات:

ومكروا مكرًا : أي دبروا طريقة خفية لقتل صالح والمؤمنين.

ومكرنا مكرًا : أي ودبرنا طريقة خفية لنجاة صالح والمؤمنين وإهلاك الظالمين.

وهم لا يشعرون : بأننا ندبر لهم طريق هلاكهم.

بيوتهم خاوية : أي فارغة ليس فيها أحد.

بما ظلموا : أي بسبب ظلمهم وهو الشرك والمعاصي.

آية : أي عبرة.

وأنجينا الذين آمنوا : أي صالحا والمؤمنين.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَمَكْرُوا مَكْرًا} (1) هذا نهاية قصص صالح مع ثمود تقدم أن تسعة رهط من قوم صالح تقاسموا على تبييت صالح والمؤمنين وقتلهم ليلا ليحولوا في نظرهم دون وقوع العذاب الذي واعدهم به صالح وأنه نازل بهم بعد ثلاثة أيام، وهذا مكرهم وطريقة تنفيذه أنهم أتوا صالحا وهو يصلي في مسجد له تحت الجبل فسقطت عليهم صخرة من الجبل فأهلتهم أجمعين وهكذا مكر الله بهم وهم لا

يشعرون به، ثم أهلك الله القوم كلهم

1- أكد كل من مكر الله تعالى ومكرهم بالمصدر إشارة إلى تعظيم كل من المكربين والمكر: التبييت الخفي لإرادة السوء بالممكور به فعاملهم الله تعالى بما عزموا على فعله مع صالح وأهله.

(4/28)

بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وهو معنى قوله تعالى {فَانظُرْ (1) كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ} أي انظر يا رسولنا كيف كانت نهاية ذلك المكر وعاقبته {أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ (2) وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} {فَتَأْتِكُ بِيُونُتُهُمْ (3) خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} أي بسبب ظلمهم أنفسهم بالشرك وظلمهم صالحا والمؤمنين. وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} أي الإهلاك للرهط التسعة ولشود قاطبة {لآية} أي علامة على قدرة الله وعلمه وحسن تدبيره {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} إذ هم الذين يرون الآية ويدركونها. وقوله تعالى: {وَأُنَجِّبْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بِيَقِينٍ (4)} يريد صالحاً والمؤمنين الذين آمنوا بالله رباً وإلهاً وبصالح نبياً ورسولاً. وكانوا طوال حياتهم يتقون عقاب الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير قاعدة: { وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }.
2- تقرير أن ديار الظالمين مآلها الخراب فالظلم يذر الديار بلا قع.
3- تقرير أن الإيمان والتقوى هما سبب النجاة لأن ولاية الله للعبد تتم بهما. ولوطاً إذ قال لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)
شرح الكلمات:
ولوطاً : أي واذكر لقومك لوطاً إذ قال لقومه.

- 1- النظر هنا: قلبي ليس بصرياً لعدم وجود الهلكى بين يدي الناظر.
2- قرئ (إننا) بكسر الهمزة على الاستئناف البياني، وقرئ: (أنا) بفتح الهمزة، فمن فتح الهمزة لا يحسن له الوقف على مكرهم، ومن كسر الهمزة جاز له الوقف على مكرهم.
3- بيوتهم المنحوتة من الجبال ما زالت إلى اليوم، وقد وقفنا عليها وهي عجب في فن البناء والنحت.

4- زيادة كان في قوله: { وكانوا يتقون } للدلالة على أنهم كانوا متمكنين من التقوى التي هي فعل المأمور واجتناب الشرك المنهي عنه من اعتقاد وقول وعمل وصفة.

(4/29)

لقومه : هم سكان مدن عمورية وسدوم.

الفاحشة : أي الخصلة القبيحة الشديدة القبح وهي اللواط.

وأنتم تبصرون : أذ كانوا يأتونها في أنديةهم عيانا بلا ستر ولا حجاب.

قوم تجهلون : أي قبح ما تأتون وما يترتب عليه من خزي وعذاب.

معنى الآيتين:

هذا بداية قصص لوط عليه السلام مع قومه اللوطيين فقال تعالى {وَلُوطاً (1)} أي واذكر كما ذكرت

صالحا وقومه اذكر لوطاً {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ (2)} منكرأ عليهم موبخا مؤنبا لهم على فعلتهم الشنعاء

{ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } أي قبحها وشناعتها ببصائرهم وبأبصاركم حيث كانوا يأتونها علناً

وعياناً وهم ينظرون وقوله {أَأَنْتُمْ لِنَأْتُونَ (3) الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ} أي لا للعفة والإحصان ولا

للولد والإنجاب بل لقضاء الشهوة البهيمية فشانكم شأن البهائم لا غير . وفي نفس الوقت آذيتهم

نساءكم حيث تركتم إتيانهم فهضمت حقوقهن . وقوله تعالى {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (4)} أي قال لهم

لوط عليه السلام أي ما كان ذلك الشر والفساد منكم إلا لأنكم قوم سوء جهلة بما يجب عليكم لربكم

من الإيمان والطاعة وما يترتب على الكفر والعصيان من العقاب والعذاب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان ما كان عليه قوم لوط من الفساد والهبوط العقلي والخلقي.

2- تحريم فاحشة اللواط وأنها أقبح شيء وأن فاعلها أحط من البهائم.

3- بيان أن الجهل بالله تعالى وما يجب له من الطاعة، وبما لديه من عذاب وما عنده من نعيم

مقيم هو سبب كل

شر في الأرض وفساد. ولذا كان الطريق إلى إصلاح البشر هو

1- أي: اذكر لوطاً أو: أرسلنا لوطاً، الكل محتمل وجائز .

2- هم أهل سدوم وعمورية.

3- أعاد ذكرها لفرط قبحها وشناعتها، والاستفهام للإنكار والتوبيخ لفعلتهم الشنعاء.

4- {تجهلون}: إما أمر التحريم أو العقوبة، ووصفهم بالجهل، وهو اسم جامع لأحوال أفن الرأي وقساوة القلب وعماه، ووصفهم في الأعراف بالإسراف وذلك نظراً إلى تعدد مواقف الوعظ والإرشاد.

(4/30)

تعريفهم بالله تعالى حتى إذا عرفوه وآمنوا به أمكنهم أن يستقيموا في الحياة على منهج الإصلاح المهيب والسعادة والكمال.

(4/31)

الجزء العشرون

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمَّنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ (58)

شرح الكلمات:

فما كان جواب قومه : أي لم يكن لهم من جواب إلا قولهم أخرجوا.

آل لوط : هم لوط عليه السلام وامرأته المؤمنة وابنتاه.

من قريبتكم : أي مدينتكم سدوم.

ينتظرون : أي ينتظرون عن الأقدار والأوساخ.

قدرناها من الغابرين : أي حكمنا عليها أن تكون من الهالكين.

فساء مطر المنذرين : أي قبح مطر المنذرين من أهل الجرائم أنه حجارة من سجيل.

معنى الآيات:

هذه بقية قصص لوط عليه السلام إنه بعد أن أنكر لوط عليه السلام على قومه فاحشة اللواط وأنبهم عليها، وقبح فعلهم لها أجابوه مهددين له بالطرد والإبعاد من القرية كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله:

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} أي لم يكن لهم من جواب يردون به على لوط عليه السلام {إلا أن قالوا

أخرجوا آل لوط من قريبتكم} أي إلا قولهم {إلا أن قالوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ}. وعللوا لقولهم هذا بقولهم {إِنَّهُمْ أَنَاسٌ (1) يَنْتَهَرُونَ}. أي ينتظرون عن الفواحش. قالوا هذا تهكماً، لا إقراراً منهم على أن

الفاحشة قدر يجب التنزه عنه. ولما بلغ بهم الحد إلى تهديد نبي الله لوط عليه السلام بالطرد

والسخرية منه أهلكهم الله تعالى وأنجى لوطاً وأهله إلا إحدى امرأتيه وكانت عجوزاً كافرة وهو معنى

قوله تعالى في الآية (57) {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمَّنَ الْغَابِرِينَ (2)} {حكمنا ببقائها مع

الكافرين لتهلك معهم. وقوله تعالى في الآية (58) {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} هو بيان لكيفية إهلاك قوم لوط بأن

- 1- أي: عن أدبار الرجال استهزاءً منهم: قاله مجاهد، وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم ينظرون من أعمال السوء.
- 2- {من الغابرين} قال ابن كثير: أي من الهالكين مع قومها لأنها كانت ردةً على دينهم وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم.

(4/32)

أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود فأهلكهم. {فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ(1)} أي قبح هذا المطر من مطر المنذرين الذين كذبوا بما أنذروا به وأصروا على الكفر والمعاصي. وهذا المطر كان بعد أن جعل الله عالي بلادهم سافلها، أردف خسفها بمطرٍ من حجارة لتصيب من كان بعيداً عن المدن.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة أن الظلمة إذا أعتيمت الحجج والبراهين يفزعون إلى القوة.
 - 2- بيان سنة أن المرء إذا أذمن على قبح قول أو عمل يصبح غير قبيح عنده.
 - 3- سنة إنجاء الله أوليائه وإهلاكه أعداءه بعد إصرار المنذرين على الكفر والمعاصي.
- قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

- 1- الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

(4/33)

رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)
شرح الكلمات:

اصطفى : أي اختارهم لحمل رسالته وإبلاغ دعوته.

الله خير : أي لمن يعبده.

حدائق ذات بهجة : أي بساتين ذات منظر حسن لخضرتها وأزهارها.

يعدلون : أي بربهم غيره من الأصنام والأوثان.

جعل الأرض قراراً : أي قارة ثابتة لا تتحرك ولا تضطرب بسكانها.

وجعل خلالها أنهاراً : أي جعل الأنهار العذبة تتخللها للشرب والسقي.

وجعل لها رواسي : أي جبلاً أرساها بها حتى لا تتحرك ولا تميل.

بين البحرين حاجزا : أي فاصلاً لا يختلط أحدهما بالآخر.

ويكشف السوء : أي الضر، المرض وغيره.

قليلاً ما تذكرون : أي ما تتعظون إلا قليلاً.

بشراً بين يدي رحمته : أي مبشرة بين يدي المطر إذ الرياح تتقدم ثم باقي المطر.

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده : أي يبدؤه في الأرحام، ثم يعيده يوم القيامة.

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين : أي حجتكم إن كنتم صادقين أن مع الله إليها آخر فعل ما ذكر.

معنى الآيات:

لما أخبر الله تعالى رسوله بإهلاك المجرمين ونجاة المؤمنين أمر تعالى رسوله أن يحمده على ذلك

تعلماً له ولأمته إذا تجددت لهم نعمة أن يحمدا الله تعالى عليها ليكون ذلك من شكرها قال تعالى

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (1) } أي الوصف بالجميل لله استحقاقاً.

1- قال بعضهم: المأمور بالحمد هنا: لوط عليه السلام ورد وهو الحق أن المأمور به هو رسول الله
صلى الله عليه وسلم.

(4/34)

رُسُلًا (1) عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (2) { الله لرسالته وإبلاغ دعوته إلى عباده ليعبدوه فيكملوا

ويسعدوا على ذلك في الحياتين.

وقوله تعالى: {اللَّهُ (3) خَيْرٌ أَمَّا (4) يُشْرِكُونَ} أي آ الله الخالق الرزاق المدبر القوي المنتقم من أعدائه

المكرم لأوليائه؛ عبادته خير لمن يعبده بها أم عبادة من يشركون. فقوله {أَمَّنْ (5) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً { أي لحاجتكم إليه غسلًا وشربًا وسقيا {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ} أي بساتين محدقة بالجدران والحواجر {ذَاتَ بَهْجَةٍ} أي حسن وجمال، {مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} أي لم يكن في استطاعتكم أن تنبتوا شجرها {أَلَيْهَ (6) مَعَ اللَّهِ} لا والله {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي يشركون بربهم أصنامًا ويسوونها به في العبادات. وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (7)} أي قارة ثابتة لا تتحرك بسكانها ولا تضطرب بهم فيهلكوا. {وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا} أي فيما بينها. {وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} أي جبالاً تثبتتها، {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ} العذب والملح {حَاجِزًا} (8) حتى لا يختلط الملح بالعذب فيفسده.

{أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ؟} والجواب: لا والله {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} ولو علموا لما أشركوا

1- أصل السلام: السلامة والأمن ثابتان لمن يسلم عليه عند ملاقاته إذ قد يكون بينهما إحن فكان لفظ السلام كالعهد بالأمان، وقيل: السلام عليكم: كانت تحية البشر في عهد آدم عليه السلام.
2- قال بعضهم: الذين اصطفوا هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: هم الصحابة ورد هذا بما هو الحق وهو (أن الذين اصطفوا) هم: رسل الله عليهم السلام وفي الآية تعليم أدب رفيع وهو أن من افتتح كلامه مذكرا أو واعظا أو معلما دارسا يفتتح كلامه بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

3- (أ الله) الاستفهام تقريرى وهو إلقاء المخاطب إلى الإقرار، وخير هنا: ليست بمعنى أفضل، إذ لا خير البتة في آلهة المشركين وإنما من باب إيهام الخصم بأنه يعترف له بما يعتقد من خير في إلهه، حتى يصغي ويسمع ويتأمل عله يهتدي أو هو مثل قول الشاعر:
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

4- (أما) أصلها: أم المعادلة للهمزة وما: الموصولية أدغمت فيها أم فصارت أما والعائد محذوف تقديره: تشركونها، أي آلهتهم بالله تعالى.

5- (أم) المنقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي من الاستفهام التهكمي للاستفهام التقريرى أي:
الذي خلق السموات وما عطف عليها خير وأحق بالعبادة.

6- هذا استئناف كالنتيجة للكلام قبلها لأن إثبات الخلق والرزق لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه، والاستفهام إنكاري أي: إنكار وجود إله مع الله الخالق الرازق والجواب: لا إله مع الله.

7- القرار: مصدر قرّ يقرّ قرارا الشيء: إذا سكن وثبت، وصفت الأرض بالقرار مبالغة في سكونها وثباتها حيث لا تتحرك ولا تضطرب بأهلها على مدى الحياة في حين أنها سابحة في الفضاء متحركة في كل لحظة فسبحان الله العلي القدير العزيز الحكيم.

8- إنّ هذا الحاجز ليس جسما غير الماء إنما هو تفاوت الثقل النسبي لاختلاف أجزاء الماء

المركب منها الماء المالح والماء العذب، فالحاجز حاجز من طعميهما وليس جسماً آخر فاصلاً بينهما.

(4/35)

بالله مخلوقاته. وقوله تعالى {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ (1) إِذَا دَعَاهُ} أي ليكشف ضره {وَيَكْشِفُ السُّوءَ} أي يبيعهه والسوء هو ما يسوء المرء من مرض وجوع وعطش وقحط وجدب. {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} جعل جيلاً يخلف جيلاً وهكذا الموجود خلف لمن سلف وسيكون سلفاً لمن خلف {الْإِلَهَ (2) مَعَ اللَّهِ} والجواب لا إله مع الله {قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} أي ما تتعظون إلا قليلاً بما تسمعون وترون من آيات الله.

وقوله تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} في الليل بالنجوم وفي النهار بالعلامات الدالة والهادية إلى مقاصدكم {وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} أي من يثير الرياح ويرسلها تتقدم المطر وتبشر به؟ لا أحد غير الله إذاً .. {الْإِلَهَ مَعَ اللَّهِ}. والجواب: لا، لا .. الله وحده الإله الحق وما عداه فباطل.

وقوله تعالى: {تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} نزه تعالى نفسه عن شرك المشركين أصناماً لا تبدئ ولا تعيد ولا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع. وقوله تعالى: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ} أي نطقاً في الأرحام، ثم بعد حياته يميته، ثم يعيده وهو معنى {ثُمَّ يُعِيدُهُ}.

{وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ} بالمطر {وَالْأَرْضِ} بالنبات. والجواب: الله إذاً {الْإِلَهَ مَعَ اللَّهِ} والجواب: لا، لا وإن قلتم هناك آلهة مع الله {قُلْ هَانُوا بُرْهَانَكُمْ} أي حججكم {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أن غير الله يفعل شيئاً مما ذكر في هذا السياق الكريم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حمد الله وشكره عند تجدد الشكر، والحمد لله رأس الشكر.
- 2- مشروعية السلام عند ذكر الأنبياء عليهم السلام فمن ذكر أحدهم قال عليه السلام.
- 3- التنديد بالشرك والمشركين.
- 4- تقرير التوحيد بأدلته الباهرة العديدة.
- 5- تقرير البعث الآخر وإثباتها بالاستنباط من الأدلة المذكورة.
- 6- لا يثبت الأحكام إلا بالأدلة النقلية والعقلية.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ

- 1- قال ابن عباس: المضطر هو: ذو الضرورة المجهود، والضرورة هي: الحال المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول كالجوع والمرض والخوف ونحوهما من العزوبة وقلة ذات اليد.
- 2- الاستفهام توبيخي إنكاري أي: إنكار أن يكون مع الله إله آخر لما قام على ذلك من الأدلة والحجج المذكورة، وإله مرفوع بما تعلق به الظرف أو بإضمار يفعل ذلك أي: أ إله مع الله يفعل ذلك.

(4/36)

فِي شَكِّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ
وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

شرح الكلمات:

من في السموات والأرض : الملائكة والناس .
الغيب إلا الله : أي ما غاب عنهم ومن ذلك متى قيام الساعة إلا الله فإنه يعلمه .
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ : أي متى يبعثون .
بل أدارك علمهم في الآخرة : أي تلاحق وهو ما منهم أحد إلا يظن فقط فلا علم لهم بالآخرة بالمرة .
بل هم منها عمون : أي في عمى كامل لا يبصرون شيئاً من حقائقها .
أنا لمخرجون : أي أحياء من قبورنا .
لقد وعدنا هذا : أي البعث أحياء من القبور .
أساطير الأولين : أي أكاذيبهم التي سطروها في كتبهم .
كيف كان عاقبة المجرمين : أي المكذبين بالبعث كانت دماراً وهلاكاً وديارهم الخاوية شاهدة بذلك .
معنى الآيات :

قوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} لما سأل المشركون من قريش النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة أمره تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب {قُلْ لَا يَعْلَمُ} الخ..
والساعة من جملة الغيب بل هي أعظمه. {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ} من الملائكة {وَالْأَرْضِ} من الناس
{إِلَّا اللَّهُ} أي لكن

- 1- أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قولها: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: {قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله} وذكر القرطبي

ما خلاصته: أن منجما أتى به إلى الحجاج فاعتقله ثم أخذ حصيات فعدّها وقال للمنجم: كم من حصيات في يدي فأخبره بعددها، ثم أخذ أخرى ولم يعدّها وسأل المنجم عنها فلم يعرف عددها وكرر هذا ثلاث مرات فلم يعرف المنجم فسأله كيف عرفت في الأولى ولم تعرف في غيرها؟ قال: لأنك لما عددتها خرجت من الغيب فعلمتها أما الغيب فلا يعلمه إلا الله.

(4/37)

الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض أما غيره فلا يعلم إلا ما علمه الله علام الغيوب. وقوله تعالى: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي وما يشعر أهل السموات وأهل الأرض متى يبعث الأموات من قبورهم للحساب والجزاء وهذا كقوله تعالى في سورة الأعراف: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَيْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}. وقوله تعالى: {بَلِ ادَّارِكُ (1) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} قرئ {بَلِ ادَّارِكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} أي بلغ حقيقته يوم القيامة إذ يصبح الإيمان بها الذي كان غيبا شهادة ولكن لا ينفع صاحبه يومئذ. وقرئ {بَلِ ادَّارِكُ عِلْمُهُمْ} أي علم المشركين بالآخرة. أي تلاحق وأدرك بعضه بعضا وهو أنه لا علم لهم بها بالمرة. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: {بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (2)} أي لا يرون شيئا من دلائلها، ولا حقائقها بالمرة ويدل على هذا ما أخبر به تعالى عنهم من أنهم لا يؤمنون بالساعة بالمرة في قوله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا (3) كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ} أي من قبورنا أحياء. والاستفهام للإنكار الشديد ويؤكدون إنكارهم هذا بقولهم:

{لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} أي من قبل أن يعدنا محمد. {إِنْ هَذَا} أي الوعد بالبعث والجزاء {إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} أي أكاذيبهم وحكاياتهم التي يسطرونها في الكتب ويقرونها على الناس. وقوله تعالى في آخر آية من هذا السياق (69) {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} أي قل لهم يا رسولنا سيروا في الأرض جنوبا أو شمالا أو (4) غربا {فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} أي أهلكناهم لما كذبوا بالبعث كما كذبتم، فالقادر على خلقهم ثم إمامتهم قادر قطعا على بعثهم وإحيائهم لمحاسبتهم وجزائهم بكسبهم. فالبعث إذا ضروري لا ينكره ذو عقل راجح أبدا.

1- أصل: (ادارك) تدارك فسكنت التاء وأدغمت في الدال وجلبت همزة الوصل فصارت: ادارك.

2- (عمون) أصلها: عميون: حذف التاء وضمت الميم تخفيفا، والمفرد عم.

3- قرأ نافع: (إذا كنا) بدون همزة استفهام، وبتسهيل همزة أيئا، وقرأ حفص بهمزتين محقتين إذا وإئنا.

4- جنوبا حيث ديار عاد، وشمالا حيث ديار ثمود، وغربا حيث مدين والمؤتفات.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حصر علم الغيب في الرب تبارك وتعالى. فمن ادعى أنه يعلم ما في غد فقد كذب (1).
- 2- تساوي علم أهل السماء والأرض في الجهل بوقت الساعة.
- 3- المكذبون بيوم القيامة سيوقنون به في الآخرة ولكن لا ينفعهم ذلك.
- 4- إهلاك الله الأمم المكذبة بالبعث بعد خلقهم ورزقهم دليل على قدرته تعالى على بعثهم لحسابهم وجزائهم.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71)
قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

شرح الكلمات:

- ولا تحزن عليهم الآية : المراد به تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم.
مما يمكرون : أي بك إذ حاولوا قتله ولم يفلحوا.
متى هذا الوعد : أي بعذابنا.
بعض الذي تستعجلون : وقد حصل لهم في بدر.
إن الله لذو فضل على الناس : أي في خلقهم ورزقهم وحفظهم وعدم إنزال العذاب بهم.
ما تكن صدورهم : أي ما تخفيه وتستره صدورهم.
وما من غائبة : أي ما من حادثة غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين هو اللوح المحفوظ مدونة فيه مكتوبة.

1- شاهده حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنها وقد تقدم أنفا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة المشركين إلى التوحيد والإيمان بالنبوة والبعث الآخر ولقد تقدم تقرير كل من

عقيدة التوحيد بأدلة لا ترد، وكذا تقرير عقيدة البعث والجزاء ولكن المشركين ما زالوا يعارضون ويمانعون بل ويمكرون فلذا نهى الله تعالى رسوله عن الحزن على المشركين في عدم إيمانهم كما نهاه عن ضيق (1) صدره مما يمكرون (2) ويكيدون له ولدعوة الحق التي يدعو إليها. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (70) وأما الآية الثانية والثالثة فإنه تعالى يخبر رسوله بما يقول أعداؤه ويلقنه الجواب. فقال تعالى: (71) {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ (3) هَذَا الْوَعْدُ} - أي بالعذاب - {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} - فيما تقولون وتعدون - {قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} أي اقترب (4) منكم ودنا وهو ما حصل لهم في بدر من الأسر والقتل هذا ما دلت عليه الآيتان (71 و72). وقوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ (5)} مؤمنهم وكافرهم إذ خلقهم ورزقهم وعافاهم ولم يهلكهم بذنوبهم {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} فها هم أولاء يستعجلون العذاب وبطالبون به ومع هذا يمهلهم لعلهم يتوبون، وهذا أعظم فضل. وقوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ (6) وَمَا يُعْلِنُونَ} أي لا يخفى عليه من أمرهم شيء وسيحصي لهم أعمالهم ويجزيهم بها وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم وتهديد وقوله تعالى: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ (7) فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}. وهو اللوح المحفوظ أي إن علم ربك أحاط بكل شيء ولا يعزب عنه شيء وهذا مظهر من مظاهر العلم الإلهي المستلزم للبعث والجزاء، إذ لو قل علمه بالخلق لكان من الجائر أن يترك بعضا لا يبعثهم ولا يحاسبهم ولا يجزيهم.

- 1- الضيق: بفتح الصاد وكسرهما قرأه الجمهور بالفتح، وقرأ غيرهم بالكسر وحقيقة الضيق: عدم اتساع المكان أو الوعاء لما يراد إدخاله فيه، والمراد به هنا الحالة الحرجة التي تعرض للنفس عند كراهية شيء فيحس بضيق في صدره.
- 2- ومن أعظم مكرهم به صلى الله عليه وسلم حكمهم الجائر بقتله في مكة لولا أن الله أنجاه منهم.
- 3- الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والآية نزلت في المستهزئين الذين هلكوا ببدر.
- 4- هذا تفسير لـ (ردف لكم) يقال: ردفه وأردفه: إذا تبعه كتبعه واتبعه وردفه وردد له بمعنى قال الشاعر:

عاد السواد بياضا في مفارقه لا مرحبا ببياض الشيب إذا ردف

والشاهد في ردف وأردف: إذا تبع، وقال آخر:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

5- في إدرار الرزق وتأخير العقوبة.

- 6- قرئ: تكن من كن الشيء يكنه إذا ستره، وقرأ الجمهور (تكن) من أكن الشيء إذا ستره أيضا.
- 7- قال الحسن: الغائبة هنا: القيامة، وهو حق ولكن اللفظ عام إذ هو يشمل كل غيب وهو ما غاب عن الخلق في الأرض أو في السماء، فالله تعالى يعلمه وكيف لا، وقد كتبه في كتاب المقادير

والغائبة: اسم للشيء الغائب والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في الفاتحة، والعاقبة، والمراد ما غاب عن علم الناس، واشتقاقه من الغيب ضد الحضور.

(4/40)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه يعاني شدة من ظلم المشركين وإعراضهم.
- 2- بيان تعنت المشركين وعنادهم.
- 3- تحقق وعد الله للمشركين حيث نزل بهم بعض العذاب الذي يستعجلون.
- 4- بيان فضل الله تعالى على الناس مع ترك أكثرهم لشكره سبحانه وتعالى.
- 5- بيان إحاطة علم الله بكل شيء.
- 6- إثبات وتقرير كتاب المقادير، وهو اللوح المحفوظ.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ
الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى
عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ نَسِمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

شرح الكلمات:

يقص على بني إسرائيل : أي يذكر أثناء آياته كثيرا مما اختلف فيه بنو إسرائيل.

لهدى ورحمة للمؤمنين : أي به تتم هداية المؤمنين ورحمتهم.

يقضي بينهم بحكمه : أي يحكم بين بني إسرائيل بحكمه العادل.

وهو العزيز العليم : الغالب على أمره، العليم بخلقه.

فتوكل على الله : أي ثق فيه وفوض أمرك إليه.

إنك لا تسمع الموتى : أي لو أردت أن تسمعهم لأنهم موتى.

(4/41)

ولا تسمع الصم الدعاء : أي ولا تقدر على إسماع كلامك الصم الذين فقدوا حاسة السمع.

إذا ولوا مدبرين : أي إذا رجعوا مدبرين عنك غير ملتفتين إليك.

إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا: أي ما تسمع إلا من يؤمن بآيات الله.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {إِنَّ (1) هَذَا الْقُرْآنَ} الكريم الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم {يُقْضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} المعاصرين لنزوله {أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} كاختلافهم في عيسى عليه السلام ووالدته إذ غلا فيهما البعض وأفرطوا فألتهوهما وفرط فيهما البعض فقالوا في عيسى ساحر، وفي مريم عاهرة لعنهم الله، وكاختلافهم في صفات الله تعالى وفي حقيقة المعاد، وكاختلافهم في مسائل شرعية وأخرى تاريخية. وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَهْدَى (2) وَرَحْمَةٌ} أي وإن القرآن الكريم لهدى، أي لهادٍ لمن آمن به إلى سبيل السلام ورحمة شاملة {لِلْمُؤْمِنِينَ} (3) به، العاملين بما فيه من الشرائع والآداب والأخلاق. وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ} أي أيها الرسول {يُقْضَى بَيْنَهُمْ} أي بين الناس من وتبيين وأهل كتاب يوم القيامة بحكمه (4) العادل الرحيم، {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الغالب الذي ينفذ حكمه فيمن حكم له أو عليه {الْعَلِيمُ} بالمحقين من المبطلين من عباده فلذا يكون حكمه أعدل وأرحم ولذا {فَتَوَكَّلْ عَلَى (5) اللَّهِ} أيها الرسول بالثقة فيه وتفويض أمرك إليه فإنه كافيك. وقوله: {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} أي إنك يا رسولنا على الدين الحق الذي هو الإسلام وخصومك على الباطل فالعاقبة الحسنى لك، لا محالة. وقوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} والكفار موتى بعدم وجود روح الإيمان في أجسامهم والميت

1- هذا الكلام مستأنف استئنافاً بيانياً إذ هو جواب لكل شك في توحيد الله وفي البعث الآخر وفي نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فمن قال: كيف يكون لا إله إلا الله وكيف يكون البعث وكيف يكون محمد رسولاً؟ فالجواب: أن هذا القرآن العظيم أكبر برهان وأعظم دليل على صدق تلك القضايا الثلاث: التوحيد، والبعث، والنبوة.

2- هذا التوكيد بإن في المواطن الثلاثة: (إن هذا القرآن) و(إنه لهدى) (إن ربك يقضي) تطلبه الابتداء من جهة وشأن الاخبار من جهة أخرى. لأن عادة الإنسان إذا أخبر بخبر ذي شأن يتساءل في نفسه عن صحته وعدمها فيتعين التأكيد له.

3- خصّ المؤمنون بالذكر دون الكافرين لأنهم هم المنتفعون به.

4- جائز أن يكون المراد من الحكم: الحكمة، أي: يحكم بينهم بالحكمة التي تضع كل شيء في موضعه فلا يحدث حيف ولا جور. وإطلاق الحكم على الحكمة كثير في القرآن منه: (وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا) ويجوز أن يكون الحكم على ظاهره أو يحكم بينهم بحكمه المعروف بالعدل والنزاهة من الحيف والجور والخطأ.

5- الفاء تفريعية أي: فبناء على عزة الله وعلمه فتوكل عليه ولا تخف فإنه لعزته وعلمه لا يضيعك ولا يهمل شأنك.

لا يسمع فلذا لا تقدر على إسماع هؤلاء الكافرين الأموات (1)، كما أنك {وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ} أي الفاقدين لحاسة السمع {الدُّعَاءَ} أي دعائك {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} أي إذا رجعوا مدبرين غير ملتفتين إليك . {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن ضَلَالَتِهِمْ} التي يعيشون عليها فهون على نفسك ولا تكرب ولا تحزن {إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا} أي ما تسمع إسماع تفهم وقبول إلا المؤمنين بآيات الله، {فَهُمْ مُسْلِمُونَ} أي فهم من أجل إيمانهم مسلمون أي منقادون خاضعون لشرع الله وأحكامه.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- شرف القرآن وفضله.

2- لن ينتهي خلاف اليهود والنصارى إلا بالإسلام فإذا أسلموا اهتدوا للحق وانتهى كل خلاف بينهم.

3- كل خلاف بين الناس اليوم سيحكم الله تعالى بين أهله يوم القيامة بحكمه العادل ويوفي كلا ما له أو عليه وهو العزيز العليم.

4- الكفار أموات لخلو أبدانهم من روح الإيمان فلذا هم لا يسمعون الهدى ولا يبصرون الآيات مهما كانت واضحة.

فعلى داعيهم أن يعرف هذا فيهم وليصبر على دعوتهم ودعائهم.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

1- احتجت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على عدم إسماع النبي صلى الله عليه وسلم موتى بدر لما قيل لها في ذلك وردَّ عليها قولها إذ استعملت القياس العقلي مع وجود النص ولا قياس مع النص فقد صحَّ أنه صلى الله عليه وسلم ناداهم وهم في القليب وقال لهم (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا. فقيل: يا رسول الله: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيراً ونقمة وحسرة وندما وقد خصت هذه الآية بسماع أهل القبور . سلام من سلّم عليهم.

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

شرح الكلمات:

وقع القول عليهم : أي حق عليهم العذاب.

دابة من الأرض : حيوان يدب على الأرض لم يرد وصفها في حديث صحيح يعول عليه ويقال به(1).

تكلم الناس : بلسان يفهمونه لأنها آية من الآيات.

أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون: أي بسبب أن الناس أصبحوا لا يؤمنوا بآيات الله وشرائعه أي كفروا فيقبلون بهذه الدابة.

ويوم نحشر : أي اذكر يوم نحشر أي نجتمع.

من كل أمة فوجا: أي طائفة وهم الرؤساء المتبوعون في الدنيا.

فهم يوزعون : أي يجمعون برد أولهم على آخرهم.

حتى إذا جاءوا : أي الموقف مكان الحساب.

وقع القول عليهم: أي حق عليهم العذاب.

بما ظلموا : أي بسبب الظلم الذي هو شركهم بالله تعالى.

فهم لا ينطقون : أي لا حجة لهم.

والنهار مبصرا : أي يبصر فيه من أجل التصرف في الأعمال.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي حق العذاب على الكافرين حيث لم يبق في

1- مثل تلك الأحاديث: حديث حذافة ونصه: كما رواه أبو داود الطيالسي قال: (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - مكة- ثم تكمن زمانا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشوا ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى ومعاً وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوهم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلى فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق فتتميز الكافر من المؤمن).

الأرض من يأمر بمعروف ولا من ينهى عن منكر {أَخْرَجْنَا لَهُمْ} لفتنتهم {دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ} أي حيوان أرضي ليس بسماوي {تُكَلِّمُهُمْ} أي بلسان يفهمونه، {أَنَّ النَّاسَ (1) كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} هذه علة تكليمهم وهي بأن الناس كفروا وما أصبحوا يوقنون بآيات الله وشرائعه فيخرج الله تعالى هذه الدابة لِحَكْمٍ منها: أن بها يتميز المؤمن من الكافر. وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا} أي واذكر يا رسولنا {يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ} من الأمم البشرية {فَوْجًا} أي جماعة {مِمَّنْ يُكذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} بأن يرد أولهم على آخرهم لينتظم سيرهم {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا} الموقف موضع الحساب يقول الله تعالى لهم: {أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي} وما اشتملت عليه من أدلة وحجج وشرائع وأحكام {وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا}، وهذا تقريع لهم وتوبيخ. إذ كون الإنسان لم يحط علماً بشيء لا يجوز له أن يكذب به لمجرد أنه ما عرفه. وقوله: {أَمَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي ما الذي كنتم تعملون في آياتي من تصديق وتكذيب. قال تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي وجب العذاب {بِمَا ظَلَمُوا} أي بسبب ظلمهم (2) {فَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ}. أي بعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم لأنهم ظلمة مشركون. وقوله تعالى: {الْم (3) يَرَوْنَ} أي ألم يبصر أولئك المشركون المكذبون بالبعث والجزاء أن الله تعالى جعل {اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ} وسكونهم هو موتهم على فرشهم بالنوم فيه {وَالنَّهَارَ} أي وجعل {النَّهَارَ مُبْصِرًا} أي يبصر فيه لينصرفوا فيه بالعمل لحياتهم، فنوم الليل شبيهه بالموت وانبعث النهار شبيهه بالحياة، فهي عملية موت وحياة متكررة طوال الدهر فكيف ينكر العقلاء البعث الآخر وله صورة متكررة طوال الحياة، ولذا قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي في ذلك العمل المتكرر للموت والحياة كل يوم وليلة {آيَاتٍ} أي براهين وحجج قاطعة على وجود بعث وحياة بعد هذا الموت والحياة. وخص المؤمنون بالذكر وبالاحصول على البرهان المطلوب من عملية الليل والنهار لأن المؤمنين أحياء يسمعون ويبصرون ويفكرون والكافرين أموات والميت لا يسمع ولا يبصر ولا يعي ولا يفكر.

1- قرأ نافع بكسر إنَّ، والجملة تعليلية لما قبلها، وقرأ حفص بفتحها على تقدير حرف جرَّ قبلها بأن أو لأن للسببية أو التعليل.

2- أي: بشركهم إذ الشرك أعظم أنواع الظلم وهو الموجب لدخول النار والخلود فيها.

3- الاستفهام هنا للتعجب من حالهم كيف لا يبصرون آيات الله في الكون فتهددهم إلى توحيد الله تعالى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تأكيد آية الدابة والتي تخرج من صدع من الصفا وقد وجد الصدع الآن فيما يبدو وهي الأنفاق التي فتحت

في جبل الصفا وأصبحت طرقاً عظيمة للحجاج، واما قريب تخرج، وذلك يوم لا يبقى من يأمر بالمعروف ولا من ينهى عن المنكر فيحق العذاب على الكافرين.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر وصف لها.

3- ويل لرؤساء الضلالة والشر والشرك والباطل إذ يؤتى بهم ويسألون.

4- في آية الليل والنهار ما يدل بوضوح على عقيدة البعث الآخر والحساب والجزاء.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهُ
دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (88) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

شرح الكلمات:

ويوم ينفخ في الصور : أي يوم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة الفزع والفتاء والقيام من القبور.
وكل أتوه داخرين : أي وكل من أهل السماء والأرض أتوا الله عز وجل داخرين أي أذلاء صاغرین.
وترى الجبال تحسبها جامدة : أي تظنها في نظر العين جامدة.
وهي تمر مرّ السحاب : وذلك لسرعة تسييرها.

(4/46)

من جاء بالحسنة : وهي الإيمان والتوحيد وسائر الصالحات.

فله خير منها : أي الجنة.

ومن جاء بالسيئة : أي الشرك والمعاصي فله النار يكب وجهه فيها.

وهم من فرع يومئذ آمنون : أي أصحاب حسنات التوحيد والعمل الصالح آمنون من فزع هول يوم القيامة.

ومن جاء بالسيئة فكبت : أي جاء بالسيئة كالشرك وأكل الربا، وقتل النفس، فكبت وجوههم في النار والعياذ بالله أي ألقوا فيها على وجوههم.

هل تجزون إلا ما كنتم تعملون : أي ما تجزون إلا بعملكم، ولا تجزون بعمل غيركم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر أحداث القيامة تقريراً لعقيدة البعث والجزاء التي هي الباعث على الاستقامة في الحياة. فقال تعالى {وَيَوْمَ (1) يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} أي ونفخ إسرافيل بإذن ربه في الصور الذي هو القرن أو البوق {فَفَزَعَ (2) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} وهي نفخة الفزع فتفرع لها الخلائق إلا من استثنى الله تعالى وهم الشهداء فلا يفزعون وهي نفخة الفناء أيضاً إذ بها يفنى كل شيء، وقوله تعالى {وَكُلُّ أُنُوفٍ (3)} أي أتوا الله تعالى {ذَاخِرِينَ} أي صاغرين ذليلين أتوه إلى المحشر وساحة فصل القضاء وقوله {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً} أي لا تتحرك وهي في نفس الواقع تسير (4) سير السحاب {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} أي أوثق صنعه (5) وأحكمه {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} وسيجزيك أيها الناس بحسب علمه {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ} وهي الإيمان والعمل الصالح {فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} ألا وهي الجنة {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ} وهي الشرك والمعاصي {فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} فذلك

1- العامل في الظرف محذوف للعلم به أي: واذكر يوم ينفخ في الصور، والنافخ هو إسرافيل عليه السلام.

2- للفزع معنيان، كلاهما صالح لدلالة هذا اللفظ عليه، الأول: الفزع: بمعنى الإسراع: لنداء الداعي، والثاني الخوف والهلع.

3- قرأ حفص (وكل أتوه) بالفعل الماضي، وقرأ نافع (أتوه) باسم الفاعل أي: آتون إليه جمع آت.

4- قيل: إن قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة أطلعه الله فيه على سر من أسرار الكون ولم يبيح به لعجز الناس عن إدراكه في ذلك الزمن وحقيقته: أن الأرض تدور حول الشمس دورة في كل يوم وليلة، ودروتها هي تسير معها الجبال فيها قطعاً فيرى المرء الجبال يحسبها جامدة وهي تمر مع الأرض مر السحاب والمرور غير السير فالسير يوم الفناء أما المرور يقال: مرّ بفلان يحمله معه ولا يقال سار به. ورشح ها المعنى قوله بعد: {صنع الله الذي أنقن كل شيء}.

5- الصنع مصدر صنع الشيء يصنعه صنعا.

(4/47)

جزاء من جاء بالسيئة.

وقوله تعالى: {هَلْ تُجْزَوْنَ (1) إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي لا تجزون إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من خير وشر وقد تم الجزاء بمقتضى ذلك فقوم دخلوا الجنة وآخرون كبت وجوههم في النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيد البعث والجزاء بذكر أحداثها مفصلة.
 - 2- بيان كيفية خراب العوالم وفناء الأكوان.
 - 3- فضل الشهداء حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر وهم آمنون.
 - 4- تقرير مبدأ الجزاء وهو الحسنه والسيئة، حسنة التوحيد وسيئة الشرك.
- إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91)
وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

شرح الكلمات:

- هذه البلدة : أي مكة المكرمة والإضافة للتشريف.
- الذي حرّمها : أي الله الذي حرم مكة فلا يختلى خلاها ولا ينقّر صيدها ولا يقاتل فيها.
- من المسلمين : المؤمنين المنقادين له ظاهراً وباطناً وهم أشرف الخلق.
- وأن أتلو القرآن : أي أمرني أن أقرأ القرآن إنذاراً وتعليماً وتعبداً.

1- الاستفهام للنفي كما في التفسير.

(4/48)

سيريكم آياته : أي مدلول آيات الوعيد فيعرفون ذلك وقد أراهموه في بدر وسيرونه عند الموت.

وما ربك بغافل عما يعملون : أي وما ربك أيها الرسول بغافل عما يعمل الناس وسيجزئهم بعملهم.

معنى الآيات:

إنه بعد ذلك العرض الهائل لأحداث القيامة والذي المفروض فيه أن يؤمن كل من شاهده ولكن القوم ما آمن أكثرهم ومن هنا ناسب بيان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أنه عبد مأمور بعبادة ربه لا غير، ربه الذي هو رب هذه البلدة الذي (1) حرّمها فلا يقاتل فيها ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن يعرفها، وله كل شيء خلقاً وملكاً وتصرفاً فليس لغيره معه شيء في العوالم كلها علويها وسلفيها وقوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي وأمرني ربي أكون في جملة المسلمين أي المنقادين لله والخاضعين له وهم صالحو عباده من الأنبياء والمرسلين. وقوله: {وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ} أي وأمرني أن أتلو القرآن تلاوة إنذارٍ وتعليمٍ وتعبداً وتقرباً إليه تعالى وبعد تلاوتي فمن اهتدى عليها فعرف طريق الهدى وسلكه فنتائج الهداية وعائدها عائد عليه هو الذي ينتفع بها. ومن ضل فلم يقبل الهدى وأقام على ضلالته فليس علي هدايته لأن ربي قال لي قل لمن ضل {إِنَّمَا أَنَا

مِنَ الْمُذْرِبِينَ} لا من واهبي الإيمان والهداية إنما يهب الهداية ويمن بها الله الذي بيده كل شيء {وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ} وأمرني أن أحمده على كل ما وهبني من نعم لا تعد ولا تحصى ومن أجلها إكرامه لي
بالرسالة التي شرفني بها على سائر الناس فالحمد لله والمنة له وقوله {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ (2) فَتَعْرِفُونَهَا}
أي وأعلم هؤلاء المشركين أن الله ربي سيريك آياته في مستقبل أيامكم وقد أراهم أول آية في بدر
وثاني آية في الفتح وآخر آية عند الموت يوم تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وتقول لهم "ذوقوا
عذاب الحريق" وقوله تعالى {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (3)} أي وما ربك الذي أكرمك وفضلك أيها
الرسول {بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} أيها الناس مؤمنين وكافرين وصالحين وفاسدين وسيجزي كلاً بعمله
وذلك يوم ترجعون إليه ففي الآية وعد ووعد.

- 1- قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: { رب هذه البلدة التي حرّمها} نعتاً للبلدة. وقرأ الجمهور الذي
وهو في موضع نصب نعت لرب
- 2- أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم} من سورة
فصلت.
- 3- قرأ نافع وحفص والجمهور بتاء الخطاب، وقرأ غيرهم بياء الغيبة.

(4/49)

من هداية الآيات :

- 1- بيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها عبادة الله والإسلام له ، وتلاوة القرآن إنذاراً
وإعذاراً وتعليماً وتعبداً به وتقرباً إلى منزله عز وجل .
- 2- بيان وتقرير حرمة مكة المكرمة والحرم .
- 3- النذب إلى حمد الله تعالى على نعمة الظاهر والباطنة ولا سيما عند تجدد النعمة وعند ذكرها .
- 4- بيان أن عوائد الكسب عائد على الكاسب خيراً كانت أو شراً .
- 5- بيان معجزة القرآن الكريم إذ ما علم به المشركين أنهم سيرونها قد رأوه فعلاً وهو غيب ، فظهر
كما أخبر .

(4/50)

سورة القصص

...

سورة القصص

مكية

وآياتها ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَنْتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

(4/50)

وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

شرح الكلمات:

طسم: هذه إحدى الحروف المقطعة تكتب طسم وتقرأ: طا، سين، ميم.

تلك: أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات القرآن الكريم.

نتلو عليك: أي نقرأ عليك قاصين شيئاً من نبأ موسى وفرعون أي من خبرهما.

لقوم يؤمنون: أي لأجل المؤمنين ليزدادوا إيماناً ويوقنوا بالنصر وحسن العاقبة.

علا في الأرض: أي تكبر وظلم فادعى الربوبية وظلم بني إسرائيل ظلماً فظيماً.

شيعاً: أي طوائف بعضهم عدو لبعض من باب فرق تسد.

ويستحيي نساءهم: أي يبقي على النساء لا يذبح البنات لأنه لا يخاف منهن ويذبح الأولاد لخوفه

مستقبلاً على ملكه منهم.

ونريد أن نمن: أي ننعم على الذين استضعفوا فنجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين.

ما كانوا يحذرون: من المولود الذي يولد في بني إسرائيل ويذهب بملكهم.

معنى الآيات:

{طسم}: هذا اللفظ الله أعلم بمراده منه، وقد أفاد فائدتين عظيمتين الأولى هي إعجاز القرآن الموجب

للإيمان به وبمنزلة من أنزل عليه القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن هذا القرآن الذي

أعجز العرب أن يأتوا بسورة مثله قد تألف من مثل هذه الحروف المقطعة فدل ذلك على أنه كلام

الله ووحيه.

والثانية أنه لما خاف المشركون من تأثير القرآن على نفوس السامعين له وأمروا باجتناب سماعه واستعملوا وسائل شتى لمنع الناس في مكة من سماعه كانت هذه الحروف تضطربهم إلى السماع لغرابتها عندهم فإذا قرأ القارئ طسم وجد أحدهم نفسه مضطرباً إلى السماع، فإذا ألقى سمعه نفذ القرآن إلى قلبه فاهتدى به إن شاء الله تعالى له الهداية كما حصل لكثيرين منهم.
وقوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} أي هذه آيات الكتاب المبين أي القرآن المبين

(4/51)

للهدى من الضلال والخير من الشر والحق من الباطل، وقوله {تَنْتَلُو عَلَيْكَ مِنْ} (1) نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ} أي نقرأ قاصين عليك أيها الرسول شيئاً من نباء موسى وفرعون أي من خبر موسى (2) وفرعون وقوله {لِلْقَوْمِ} (3) يُؤْمِنُونَ} باعتبارهم أنهم هم الذين ينتفعون بما يسمعون في حياتهم ولأنهم في ظرف صعب يحتاجون معه إلى سماع مثل هذا القصص ليثبتوا على إيمانهم حتى ينصرهم الله كما نصر الذين من قبلهم بعد ضعف كان أشد من ضعفهم وقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ ..} إلى آخر الآية هذا بيان لما أخبر أنه يقصه للمؤمنين، يخبر تعالى فيقول: {إِنَّ فِرْعَوْنَ ..} إلى آخر الآية إن فرعون الحاكم المصري المسمى بالوليد بن الريان الطاغية المدعي الربوبية والألوهية {علا في الأرض} أي أرض البلاد المصرية ومعنى علا طغى وتكبر وتسلط (4) وقوله {وَجَعَلَ أَهْلَهَا} أي أهل تلك البلاد المصرية {شيعاً} أي طوائف فرق بينها إبقاء على ملكه على قاعدة فرق تسد المذهب السياسي القائم الآن في بلاد الكفر والظلم وقوله {يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ} من تلك الطوائف وهي طائفة بني إسرائيل وكيفية استضعافهم أنه يذبح أبناءهم ساعة ولادتهم {وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} أي بناتهم ليكبرن للخدمة وتذبيح الأولاد سببه أن كهانه وسياسيه أعلموه أن ملكه مهتد بوجود بني إسرائيل أقوياء كثر في البلاد فاستعمل طريقة تقلييلهم والحد من كثرتهم بذبح الأولاد الذكور منهم وإبقاء الإناث منهم وهي سياسة تشبه تحديد النسل اليوم التي يستعملها الهالكون اليوم وهم لا يشعرون.
وقوله {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} هذا تعليل لعلو فرعون وطغيانه فذكر أن سبب ذلك الذي يرتكبه من السياسة العمياء الظالمة أنه {مِنَ الْمُفْسِدِينَ} أي في الأرض بارتكاب الجرائم العظام التي لا توصف.
وقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً} أي {تَنْتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ} أي من بعض خبرهما أنا نريد أي أردنا أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض أرض مصر وهم بنو إسرائيل، نمُنُّ عليهم بإيمانهم وتخليصهم من حكم فرعون وتسلطه ونجعلهم قادة في الخير {وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} لحكم البلاد وسياستها بعد إهلاك فرعون وجنوده وهو معنى قوله:

- 2- وقارون أيضا حيث ذكر خبره في آخر هذه السورة.
- 3- اللام في (القوم) للتعليل أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون.
- 4- وحسبه أن ادعى الألوهية والربوبية وأنه ابن الشمس.

(4/52)

{ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (1) }. وقوله {وَنُرِي (2) فِرْعَوْنَ} أي من جملة ما نتلو عليك أنا أردنا أن {نُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ (3)} أي من بني إسرائيل ما كانوا يحذرونه من مولود يولد في بني إسرائيل فيذهب بملك فرعون وذلك بما سيذكر تعالى من أسباب وترتيبات هي عجب! تبتدئ من قوله تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير إعجاز القرآن الذي هو آية أنه كتاب الله حقاً.
 - 2- تقرير النبوة المحمدية بهذا الوحي الإلهي.
 - 3- التحذير من الظلم والاستطالة على الناس والفساد في الأرض.
 - 4- المؤمنون هم الذين ينتفعون بما يتلى عليهم لحياة قلوبهم.
 - 5- تقرير قاعدة لا حذر مع القدر.
 - 6- تحريم تحديد النسل بالزمام المواطن بأن لا يزيد على عدد معين من الأطفال.
- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ

- 1- المراد من الأرض أرض الشام حيث ورثهم أرض الكنعانيين وهم الذين كانوا يعرفون بالجبابرة. أما أرض مصر فإن بني إسرائيل لم يرجعوا إليها بعد أن خرجوا منها هكذا يرى بعضهم وأكثر المفسرين أن بني إسرائيل عادوا إلى أرض مصر وملكوها وسادوا أهلها، والله أعلم.
- 2- قرأ الجمهور (ونري) بنون العظمة والتكلم، وقرأ بعض (ويرى) بياء الغيبة أي: ويرى فرعون وجنوده.

- 3- الجنود: جمع جند، والجند لفظ دال على جمع ولا واحد له ومعناه: الجماعة من الناس تجتمع على أمر تتبعه.

أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْتَهِدَهُ وَوَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

شرح الكلمات:

وأوحينا إلى أم موسى : أعلمناها أن ترضع ولدها الرضعات الأولى التي لا بد منها ثم تضعه في تابوت ثم تلقيه في اليم.

في اليم: أي في البحر وهو نهر النيل.

ولا تخافي ولا تحزني: أي لا تخافي أن يهلك ولا تحزني على فراقه، إنا رادوه إليك.

فالتقطه آل فرعون : أي أعوانه ورجاله.

ليكون لهم عدواً وحزناً : أي في عاقبة الأمر، فاللام للعاقبة والصيرورة.

قرة عين لي ولك : أي تقر به عيني وعينك ففرح به ونسر.

وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً : أي من كل شيء إلا منه عليه السلام أي لا تفكر في شيء إلا فيه.

إن كادت لتبدي به : أي قاربت بأن تصرخ بأنه ولدها وتظهر ذلك.

وقالت لأختها قصيه: أي اتبعي أثره حتى تعرفي أين هو.

فبصرت به عن جنب : أي لاحظته وهي مختفية تتبعه من مكان بعيد.

معنى الآيات:

هذه بداية قصة موسى مع فرعون وهو طفل رضيع إلى نهاية هلاك فرعون في ظرف طويل بلغ عشرات السنين. بدأ تعالى بقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (1)} أي أعلمناها من طريق الإلقاء في القلب {أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ} آل فرعون الذين يقتلون مواليد بني إسرائيل الذكور في هذه السنة {فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ} أي بعد أن تجعله في تابوت أي صندوق

1- اختلف هل كان هذا الوحي إلهاما أو كان مناما أو أتاها ملك؟ والأقرب أنها أتاها ملك مع الإجماع أنها لم تكن نبية وإنما أرسل إليها الملك فكلّمها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في حديث الصحيحين، ولم يعرف لها اسم على الصحيح، وقال السهلي اسمها يارخت.

خشب مطلي بالقار، {وَلَا تَخَافِي} عليه الهلاك {وَلَا تَحْزَنِي} على فراقك له {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ (1)} لترضعيه {وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} نرسله إلى عدوكم فرعون وملائه. قال تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ} أي فعلت ما أمرها الله تعالى به بأن جعلته في تابوت وألقته في اليم أي النيل {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ} حيث وجدوه لقطه فأخذوه وأعطوه لآسية بنت مزاحم عليها السلام امرأة فرعون. وقوله تعالى: {لِيَكُونَ لَهُمْ (2) عَدُوًّا وَحَزَنًا} هذا باعتبار ما يؤول إليه الأمر فهم ما التقطوه لذلك لكن شاء الله ذلك فكان لهم {عَدُوًّا وَحَزَنًا} (3) فعاداهم وأحزنهم.

وقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} أي آثمين بالكفر والظلم ولذا يكون موسى لهم عدواً وحزناً. وقوله تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ} قالت هذا حين هم فرعون بقتله لما نتف موسى لحيته وهو رضيع تعلق به فأخذ شعرات من لحيته فتشام فرعون وأمر بقتله فاعتذرت آسية له فقالت هو {قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ} فقال فرعون قرة عين لك أما أنا فلا وقولها {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا} في حياتنا بالخدمة ونحوها {أَوْ نَنْخِذَهُ وَلَدًا} وذلك بالتبني وهذا الذي حصل، فكان موسى إلى الثلاثين من عمره يعرف بابن فرعون وقوله {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أي بما سيكون من أمره وأن هلاك فرعون وجنوده سيكون على يده. وقوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} أي من أي شيء إلا من موسى وذلك بعد أن ألقته في اليم.

وقوله {إِنَّ كَادَتْ لَتَنْبِي بِهِ} أي لتصرخ بأنه ولدها وتظهر ذلك من شدة الحزن لكن الله تعالى ربط على قلبها فصبرت لتكون بذلك من المؤمنين بوعد الله تعالى لها بأن يرده إليها ويجعله من المرسلين.

وقوله تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (4)} أي تتبعي أثره وذلك عندما ألقته في اليم وقوله

1- حكي الأصمعي أنه سمع جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كله

قبِلْتُ إنساناً بغيرِ جِلِّهِ

مثل الغزال ناعما في دَلِّهِ

فانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: {وَأَوْحِينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى} إلى {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ} أي: جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

2- هذه اللام تسمى لام العاقبة والصيرورة على حد قول الشاعر:

وللمنايا تُرْبِي كل مرصعة

ودورنا لخراب الدهر نبنينا

3- الحزن: محرّك الوسط كالحزن بإسكانها وضم الحاء مثل الرشد والرشد والعدم والعدم والسقم

والسُّقْم لغات.

4- اسمها مريم بنت عمران فاتحدت معها مريم أم عيسى في اسمها واسم أبيها عليهم السلام وقيل اسمها كندم في رواية مرفوعة ضعيفة.

(4/55)

{قَبَصْرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ (1)} أي رآته من بعد فكانت تمشي على شاطئ النهر وتلاحقه النظر من بعد حتى رآته انتهى إلى فرع الماء الذي دخل إلى قصر فرعون فعلمت أنه قد دخل القصر . وقوله تعالى: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أي لا يشعرون أنها أخته لما كانت تلاحقه النظر وتتعرف إليه من بعد. هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان تدبير الله تعالى لأولياء وصالحي عباده وتجلي ذلك في الوحي إلى أم موسى بإرضاعه وإلقائه في البحر

والتقاط آل فرعون له ليتربى في بيت الملك عزيزاً مكرماً.

2- بيان سوء الخطيئة وأثارها السيئة وعواقبها المدمرة وتجلي ذلك فيما حل بفرعون وهامان وجنودهما.

3- فضيلة الرجاء تجلت في قول آسية "قرة عين لي ولك" فقال فرعون: أما لي فلا. فكان موسى قرة عين لآسية ولم يكن لفرعون.

4- بيان عاطفة الأمومة حيث أصبح فؤاد أم موسى فارغاً إلا من موسى.

5- بيان عناية الله بأوليائه حيث ربط على قلب أم موسى فصبرت ولم تبده لهم وتقول هو ولدي ليمضي وعد الله

تعالى كما أخبرها. والحمد له رب العالمين.

وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ

1- (عن جنب) أي: من مكان جنب أي: جانب وناحية قال قتادة: تنتظر إليه بناحية كأنها لا تريده.

فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

شرح الكلمات:

وحرمانا عليه المراضع : أي منعه من قبول ثدي أية مرضعة.
من قبل : أي من قبل رده إلى أمه.
فقلت هل أدلكم على : أي قالت أخت موسى.
أهل بيت يكفلونه لكم : يضمونه إليهم، يرضعونه ويربونه لكم.
وهم له ناصحون : أي لموسى ناصحون، فلما قالوا لها إذا كنت أنت تعريفينه، قالت لا، إنما أعني أنهم ناصحون للملك لا للولد.
فرددناه إلى أمه: أي رددنا موسى إلى أمه أي قبلوا اقتراح أخته.
ولتعلم أن وعد الله حق : إذ أوحى إليها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين.
ولكن أكثرهم لا يعلمون : أي أكثر الناس لا يعلمون وعد الله لأم موسى ولا يعلمون أن الفتاة أخته وأن أمها أمه.
ولما بلغ أشده واستوى : أي ثلاثين سنة من عمره فانتهى شبابه وكمل عقله.
آتيناها حكما وعلما : أي وهبناها الحكمة من القول والعمل والعلم بالدين الإسلامي الذي كان عليه بنو إسرائيل وهذا قبل أن ينبأ ويرسل.
ودخل المدينة : مدينة فرعون وهي مُنْفُ بعد أن غاب عنها مدة.
على حين غفلة من أهلها: لأن الوقت كان وقت القيلولة.
هذا من شيعته: أي على دينه الإسلامي.
وهذا من عدوه: على دين فرعون والأقباط.
هذا من عمل الشيطان : أي هذا الفعل من عمل الشيطان لأنه المهيج غضبي.
إنه عدو مضل مبين : أي الشيطان عدو لابن آدم مضل له عن الهدى، مبين ظاهر الإضلال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص موسى مع فرعون: إنه بعد أن التقط آل فرعون موسى من النيل وهو

رضيع قدموا له المراضع فرفضهن مرضعة بعد أخرى، فاحتار آل فرعون لحبهم لموسى لأن الله تعالى ألقى عليه محبة منه فما رآه أحد إلا أحبه وهذا معنى قوله تعالى في الآية (12) {وَحَرَّمْنَا (1) عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} أي قبل رده إلى أمه. وقوله: {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} هذه أخته وقد أمرتها أمها أن تقص آثار موسى وتتبع أخباره فلما علمت أن أباها لم يقبل المراضع وأن القصر في قلق من جراء عدم رضاع موسى تقدمت وقالت ما أخبر الله تعالى به عنها في قوله: {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ} ويرضعونه ويحفظونه حتى تنتهي مدة رضاعته {وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (2)} وهنا ارتابوا في أمرها واستتطقوها واتهموها بأنها تعرفه فقالت: لا أعرفه، إنما عنيت {وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} أن أهل هذا البيت ناصحون للملك وهنا استجابوا لها فأنت به أمه فما إن رآها حتى رمى نفسه عليها وأخذ ثديها يمتصه فقالوا لها: ما سر قبوله هذه المرأة فأجابت: بأنها طيبة الريح طيبة اللبن فأذنوا لها في إرضاعه في بيتها فعادت به وهو معنى قوله تعالى {فَرَدَدْنَاهُ (3) إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} أي تفرح وتسر ولا تحزن على فراقه، {وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} إذ وعدها بأنه راده إليها. وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي لكن أكثر الناس لا يعلمون أنها أمه ولا أن الله وعدها بأن يرده إليها. وقوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ} أي موسى {أَشُدَّهُ (4)} أي اكتمال شبابه وهو ثلاثين سنة. {أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} أي حكمة وهي الإصابة في الأمور {وَعِلْمًا} فقهاً في الدين الإسلامي الذي كان عليه بنو إسرائيل. وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزينا (5) أم موسى وولدها موسى نجزي المحسنين وقوله

1- هذا التحريم ليس التحريم الشرعي وإنما هو بمعنى المنع فقط لعدم تكليف الطفل وشاهده قول امرئ القيس:

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري

إني امرؤ صرعي عليك حرام

والمراضع: جمع مرضع بدون تاء إذ ليس في الذكور من يرضع فيفارق بينهما بالتاء.

2- الجملة في محل نصب حالية.

3- الفاء للعطف التفریع، إذ قوله تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ} متفرع من قوله {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ} إلى قوله {نَاصِحُونَ}.

4- قال مالك وربيعة شيخه: الأشد: الحلم لقوله تعالى: {حتى إذا بلغوا النكاح} وهو أول الأشد وأقصاه أربع وثلاثون سنة. واستوى: أي: بلغ أربعين سنة.

5- جزاها على استسلامها لأمر ربها وصبرها على فراق ولدها إذ ألقته في اليم وعلى تصديقها بوعد ربها، ومما جزاها به رده ولدها إليها مصحوبا بالتحف والطف وهي آمنة ووهب ولدها الحكمة والعلم والنبوة.

تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ} أي موسى دخل مدينة مُنْفُ (1) التي هي مدينة فرعون وكان غائبا فترة. {عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا} لأن الوقت كان وقت القيلولة {فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يُفْتَنَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ} على دين موسى وبني إسرائيل وهو الإسلام {وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ} لأنه على دين فرعون والأقباط وهو الكفر. {فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ فَقَضَى عَلَيْهِ} أي طلب غوثه على الذي من عدوه {فَوَكَرَهُ مُوسَى} أي ضربه بجمع كفه {فَوَكَرَهُ مُوسَى} أي فقلته ودفنه في الرمال. وقوله تعالى: {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} أي هذا قول موسى عليه السلام اعترف بأن ضربه القبطي كان من تهيج الشيطان لغضبه فقال: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ لِلْإِنْسَانِ} له عن طريق الخير والهدى {مُبِينٌ} أي ظاهر العداوة للإنسان والإضلال.

وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} أي دعا موسى ربه معترفا بخطئه أولاً فقال: {رَبِّ} أي يا رب {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} أي بقتلي القبطي {فَاغْفِرْ لِي} هذا الخطأ، فاستجاب الله تعالى وغفر له، إنه تعالى هو الغفور لذنوب عباده التائبين له الرحيم بهم فلا يعذبهم بذنب تابوا منه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان حسن تدبير الله تعالى في منع موسى من سائر المرضعات حتى يرده إلى أمه.
- 2- بيان حسن رد الفتاة على التهمة التي وجهت إليها وذلك من ولاية الله لها وتوفيقيه.
- 3- تقرير أن وعد الله حق، وأنه تعالى لا يخلف الوعد ولا الميعاد.
- 4- بيان إنعام الله على موسى بالحكمة والعلم قبل النبوة والرسالة.
- 5- مشروعية إغاثة الملهوف ونصرة (2) المظلوم.
- 6- وجوب التوبة بعد الوقوع في الزلل، وأول التوبة الاعتراف بالذنب.

- 1- وقيل: منفيس: قاعدة مصر الشمالية، وقوله: (ودخل المدينة) هذا عطف جزء القصة على جزئها السابق وهو من قوله: (وأوحينا إلى أم موسى) وأين كان موسى؟ قطعاً كان غائبا عن المدينة لأمر من الأمور اقتضى غيابه.
- 2- لأن نصر المظلوم دين في الممل كلها وفرض في جميع الشرائع.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

شرح الكلمات:

بما أنعمت علي : بإنعامك علي بمغفرة ذنبي.

فلن أكون ظهيرا للمجرمين : أي معيناً لأهل الإجرام.

خائفا يترقب : ماذا يحدث من خير أو غيره بعد القتل.

استنصره بالأمس : أي طلب نصرته فنصره.

يستصرخه : أي يستغيث به علي قبطي آخر.

إنك لغوي مبني : أي لذنو غواية وضلال ظاهر.

أن يبطش بالذي هو عدو لهما : أي أن يأخذ الذي هو عدو لموسى والقبطي معاً.

إن تريد إلا أن تكون جباراً : أي ما تريد إلا أن تكون جباراً تضرب وتقتل ولا تبالى بالعواقب.

من المصلحين : أي الذين يصلحون بين الناس إذا اختلفوا أو تخاصموا.

(4/60)

وجاء رجل من أقصى المدينة : أي مؤمن آل فرعون أتى من أبعد نواحي المدينة.

إن الملاء ياتمرون بك : أي يتشاورون ويطلب بعضهم أمر بعض ليقتلوك.

فاخرج إني لك من الناصحين : أي اخرج من هذه البلاد إلى أخرى.

فخرج منها خائفاً يترقب : خائف من القتل يترقب ما يحدث له.

معنى الآيات:

لقد تقدم في الآية قبل هذه أن موسى عليه السلام قد قتل قبطياً بطريق الخطأ وأنه اعترف لربه

تعالى بخطئه واستغفره، وأن الله تعالى غفر له وأعلمه بذلك بما شاء (1) من وسائله. ولما علم موسى

بمغفرة الله تعالى له عاهده بأن لا يكون {ظهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ} مستقبلاً ومن ذلك أن يعتزل فرعون

وملائه لأنهم ظالمون مجرمون فقال:

{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} أي بمغفرتك لي خطيائي (2) وذلك بالنظر إلى إنعامك علي بالمغفرة أعاهدك أن لا أكون {ظَهِيْرًا لِلْمُجْرِمِيْنَ} (3) هذا ما دلت عليه الآية (17) أي الأولى في هذا السياق وهي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُوْنَ ظَهِيْرًا لِلْمُجْرِمِيْنَ} وقوله تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِيْنَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} أي فأصبح موسى في مدينة (منف) عاصمة المملكة الفرعونية {خَائِفًا} مما قد يترتب على قتله القبطي {يَتَرَقَّبُ} الأحداث ماذا تسفر عنه؟ {فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ} وهو الإسرائيلي الذي طلب نصرته أمس {يَسْتَنْصِرُحُهُ} أي يستغيثه بأعلى صوته فنظر إليه موسى وأقبل عليه ليخلصه قائلاً: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِيْنٌ} أي لنو غواية بينة والغواية الفساد في الخلق والدين لأنك أمس قاتلت واليوم تقاثل أيضاً. {فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ} أي موسى {بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا} وهو القبطي قال الإسرائيلي {أَتُرِيْدُ

1- يرى بعضهم أن موسى لم يعلم بمغفرة الله تعالى له لأنه لم يكن قد نُبئ بعد وجعل جملة (فغفر له) معترضة وقوله: (بما أنعمت علي) بالهداية والحكمة والعلم لا بالمغفرة لأنه لم يعلم بها. وما في التفسير أظهر وأولى بالسياق.

2- إن قتل موسى للقبطي كان قطعاً خطأ، روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة لما سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الفتنة تجيء من ها هنا و أوماً بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: (وقتلتم أنفساً فنجيناك من الغم وقتناك فتونا).

3- قال ابن عباس: لم يستثن فابنتي من ثاني يوم. هذا إن قلنا: إن كلامه كان خيراً لا دعاءً إذ الدعاء لا يجوز الاستثناء فيه لا يقال: ارحمني إن شئت.

(4/61)

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ} أي تضرب وتقبل كما تشاء ولا تخاف عقوبة ذلك {وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْمُصْلِحِيْنَ} الذين يصلحون بين المتخاصمين قال الإسرائيلي هذا لأنه جبان خاف من هجمة موسى ظاناً أنه يريد به هو لما قدم له من القول {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِيْنٌ} فلما سمع القبطي ما قال مقاتله الإسرائيلي نقلها إلى القصر وكان من عماله فاجتمع رجال القصر برئاسة فرعون يتداولون القضية وينظرون إلى ظروفها ونتائجها وما يترتب عليها وكان من جملة رجال المؤتمر مؤمن آل فرعون (1) (حزقيل) وكان مؤمناً يكتم إيمانه فأتى موسى سرّاً ليخبره بما يتم حياله وينصح له بالخروج من البلاد وهو ما جاء في قوله تعالى في الآية (20) من

هذا السياق {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ} من بعدها فإن قصر الملك كان في طرف المدينة وهي مدينة فرعون (مُنْفُ) {بِسَعَى} فمشى بسرعة وجدَّ وانتهى إلى موسى فقال {يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} قال تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا} أي من بلاد فرعون {خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} خائفاً من القتل يتربص الطلب وماذا سيحدث له من نجاة أو خلافه ودعا ربه عز وجل قائلاً:

{رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ} أي من فرعون وملائه أولاً ومن كل ظالم ثانياً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- شكر النعم، فموسى لما غفر الله له شكره بأن تعهد له أن لا يقف إلى جنب مجرم (2) أبداً.
- 2- سوء صحبة الأحمق الغوي فإن الإسرائيلي لغوايته وحمقه هو الذي سبب متاعب موسى.
- 3- لزوم إبلاغ الدولة عن أهل الفساد والشر في البلاد لحمايتها.
- 4- وجوب النصح وبذل النصيحة فمؤمن آل فرعون يعلم سلامة موسى من العيب ومن الجريمة فتعين له أن

ينصح موسى بمغادرة البلاد لينجو إن شاء الله وليس هذا من باب خيانة البلاد والدولة، لأن موسى من أهل الكمال وما حدث عنه كان من باب الخطأ فرفده ومد إليه اليد إنقاذاً من موت متعين.

1- وقيل: اسمه شمعان، وقال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين إلا مؤمن آل فرعون، قال الثعلبي: كان ابن عم فرعون.

2- روي عن عطاء، قيل له: إن أخاً لي يأخذ بقلمه وإنما يحسب ما يدخل وما يخرج وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وأدان فقال: من الرأس؟ قال: خالد بن عبد الله القسري: قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: (رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين) وقال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين، وفي الحديث: "ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم" لاق الدواة: أصلحها.

(4/62)

1- الخوف الطبيعي لا يلام عليه فموسى عليه السلام قد خاف (1) خوفاً أدى به إلى الالتجاء إلى ربه بالدعاء

فدعاه واستجاب له والله الحمد والمنة.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)
فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
شرح الكلمات:

ولما توجه تلقاء مدين : أقبل بوجهه جهة مدين التي هي مدينة شعيب.
عسى ربي أن يهديني سواء السبيل : أرجو ربي أن يهديني وسط الطريق حتى لا أضل فأهلك
فاستجاب الله له وهداه إلى سواء السبيل ووصل مدين.
ولما ورد ماء مدين : انتهى إلى بئر يسقى منها أهل مدين.
يسقون : أي مواشيهم من بقر وإبل وغنم.
تذودان : أي أغنامهما منعا لهما من الماء حتى تخلو الساحة لهما خوف الاختلاط بالرجال الأجانب
لغير ضرورة.
قال ما خطبكما : قال موسى للمرأتين اللتين تذودان ما خطبكما أي ما شأنكما.

1- من قوله: (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب).

(4/63)

حتى يصدر الرعاء : لا نسقي ماشيتنا حتى يصدر الرعاء ويبقى لنا الماء وحدنا.
ثم تولى إلى الظل : أي بعد أن سقى لهما رجع إلى ظل الشجرة التي كان جالسا تحتها.
لما أنزلت علي من خير فقير: أي من طعام(1) محتاج إليه لشدة جوعه عليه السلام.
تمشي على استحياء : أي واضعة كم درعها على وجهها حياء منه.
معنى الآيات:

ما زال السياق في شأن موسى عليه السلام بعد حادثة القتل والنصح له بمغادرة بلاد مصر إلى
بلاد(2) مدين مدينة شعيب عليه السلام قال تعالى مخبرا عنه: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ} أي ولما
توجه موسى عملا بنصيحة مؤمن آل فرعون تلقاء مدين أي نحوها وجهتها ولم يكن له علم بالطريق
الصحراوي والمسافة مسيرة ثمانية أيام قال: {عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي} (3) سَوَاءَ السَّبِيلِ} أي ترجى ربه
سبحانه وتعالى أن يهديه الطريق السوي حتى لا يضل فيهلك، واستجاب الله له فهداه الطريق حتى
وصل إلى بلاد مدين وقوله تعالى في الآية الثانية من هذا السياق (23) {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ
يَسْقُونَ} أي وحين(4) ورد ماء مدين وهو بئر يسقى منها الناس مواشيهم {وَجَدَ عَلَيْهِ} أي على الماء

{أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ} أي جماعة كبيرة يسقون أنعامهم ومواشيهم {وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ} وهما بنتا شعيب عليه السلام {تَتَدَوَّدَانِ} أي تمنعان ماشيتهما من الاختلاط بمواشي الناس. فسألتهما لا تطفلا وإنما حالهما دعاه إلى سؤالهما لأنه رأى الناس يسقون مواشيهم ويصدرون فوجاً بعد فوج والمرأتان قائمتان على ماشيتهما تنودانها عن الحوض حتى لا تختلط ولا تشرب فسألتهما لذلك قائلاً: {مَا خَطْبُكُمَا} أي ما شأنكما فأجابته قائلتين: {لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ} لضعفنا وعدم رغبتنا في الاختلاط بالرجال {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} لا يقوى على سقي هذه الماشية بنفسه فنحن نسقيها ولكن بعد ما يصدر الرعاء ويبقى في الحوض ماء

- 1- من طعام تفسير لقوله من خير، ومحتاج تفسير لقوله: (فقير).
- 2- لأن بها العبد الصالح شعيب، وقيل: لأجل النسب الذي بينه وبينهم لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى ومن ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.
- 3- روي أن الله تعالى بعث إليه ملكاً ركباً فرساً فقال: اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق وكان ملك مدين لغير فرعون.
- 4- أي: بلغها ووصل إليها ومنه قول زهير:
فلما وردن الماء زرقاً جمامه
وضعن عصي الحاضر المتخيم

(4/64)

نسقي به، فلما عذرهما سقى لهما ماشيتهما {ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَفَيْرٌ} الذي كان جالسا تحته وهو ظل شجرة وهو شجر صحراوي معروف يقال السمر، ولما تولى إلى الظل سأل ربه الطعام لشدة جوعه إذ خرج من مصر بلا زاد ولا دليل ولولا حسن (1) ظنه في ربه لما خرج هذا الخروج فقال: {رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ} أي (2) طعام {فَفَيْرٌ} أي محتاج إليه شدة الاحتياج. وفي أقرب ساعة وصلت البنتان إلى والدهما فسألتهما عن سبب عودتهما بسرعة فأخبرتهما، فقال لإحدهما اذهبي إليه وقولي له: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} وهو معنى قوله تعالى {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا} استجابة الله له {تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} واضعة كم درعها على وجهها حياء. وقد قال فيها عمر رضي الله عنه إنها ليست سلفاً (3) من النساء خراجة ولاجة، وبلغت الرسالة المختصرة وكأنها برقية ونصها ما أخبر الله تعالى به في قوله: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}!! وقد ورد أنها لما كانت تمشي أمامه تدله على الطريق هبت الريح فكشفت ساقها قال لها موسى: امشي ورائي ودليني على الطريق بحصى ترميها نحو الطريق وهذا الذي دلها على أمانته لما وصفته لأبيها بأنه

{قَوِيٌّ أَمِينٌ} كما سيأتي فيما بعد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حسن الظن بالله تعالى وقوة الرجاء فيه عز وجل والتوكل عليه.
- 2- بيان فضل الحياء وشرف المؤمنات اللاتي يتعففن عن الاختلاط بالرجال.
- 3- بيان مروءة موسى في سقيه للمرأتين.
- 4- فضل الدعاء وسؤال الله تعالى ما العبد في حاجة إليه.
- 5- ستر الوجه عن الأجانب سنة المؤمنات من عهد قديم وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبنينا

شعيب نشأتاً في دار النبوة والطهر والعفاف وغطت إحداهما وجهها عن موسى حياءً وتقوى.
فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا

1- وتوكله على ربه عز وجل.

2- لفظ الخير يطلق عدة إطلاقات فقد أطلق على الطعام كما هنا وأطلق على العبادة كما في قوله: (فعل الخيرات) وعلى القوة في قوله (أهم خير أم قوم تبع) وعلى المال في قوله (وإنه لحبب الخير لشديد).

3- السلف من النساء: الجريئة على الرجال.

(4/65)

يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

شرح الكلمات:

وقص عليه القصص : أخبره بشأنه كله من قتله القبطي وطلب السلطة له ونصح المؤمن له بمغادرة البلاد ووصوله إلى ماء مدين.

لا تخف نجوت من القوم الظالمين : أي من فرعون وملئه إذ لا سلطان لهم على بلاد مدين.

يا أبت استأجره : أي اتخذه أجيراً يرعى لنا الغنم بدلنا.

القوي الأمين : ذكرت له كفاءته وهي القوة البدنية والأمانة.

على أن تأجرني ثمانى حجج : أي ثمانى سنوات إذ الحجة عام والجمع حجج.
فإن أتممت عشراً فمن عندك : أي جعلت الثمانية عشراً فرغبت عشراً فهذا من كرمك.
قال ستجدني إن شاء الله من الصالحين: أي الذين يوفون ولا ينفذون ولا ينقصون.
ذلك بيني وبينك : أنا أفي بشرطي وأنت تفي بشرطك.
أيما الأجلين قضيت : أي الأجلين الثمانية أو العشرة أتممت.
فلا عدوان علي : وذلك بطلب الزيادة فوق الثمانية أو فوق العشرة.

(4/66)

والله على ما نقول وكيل : أي وكيل وحفيظ أي أشهد الله على العقد بشطريه أي النكاح ورعي الغنم
وبذلك تم العقد.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ما تم بين موسى وابنتي شعيب من السقي لهما ومجيء إحداهما تبليغه
رسالة والدها ومشيه معها وقوله تعالى {فَلَمَّا جَاءَهُ} أي جاء موسى شعيباً {وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ (1)}
أي أخبره بشأنه كله من قتله القبطي خطأ وطلب السلطات له ونصح مؤمن آل فرعون له بالخروج
من البلاد، ووصوله إلى ماء مدين قال له شعيب عندئذ {لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} يعني
فرعون وحكومته وهذا ما يعرف الآن باللجوء السياسي فأمنه على نفسه لأن فرعون لا سلطان له
على (2) هذه البلاد.

وقال له شعيب: اجلس تعش معنا فقال موسى أخاف أن يكون عوضاً عما سقيت لابنتيك ما شيتهما
وإني لمن أهل بيت لا يطلبون على عمل الخير عوضاً فقال له شعيب لا ليس هذا بأجر على سقيك
وإنما عادتنا أن نقري الضيف ونطعم الطعام فأكل ولم ير بذلك بأساً. وقوله تعالى {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا
أَبْتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} يروى أنها لما قالت {إِنَّ خَيْرَ (3) مَنِ اسْتَأْجَرْتَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} أثارت حفيظته بهذه الكلمة فسألها: كيف علمت ذلك فذكرت له عن القوة في سقيه (4)
لهما وعن الأمانة في عض بصره عن النظر إليها، فصدقها شعيب وقال لموسى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أُنكِحَكَ} أي أزوجك {إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ} (5) { عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي (6) حَجَجٍ } أي سنين جمع
حجة وهي (7) السنة وقوله {فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ} أي إحساناً منك وكرماً، {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْئُقَ
عَلَيْكَ} بطلب العشرة

1- التعريف في: (القصص) عوضاً عن المضاف إليه أو هي للعهد أي: القصص المذكور آنفاً.

2- إذ السلطان للكنعانيين وهم أهل بأس وشدة ونجدة.

- 3- الجملة تعليلية لجملة الإشارة عليه بالاستئجار .
- 4- قال بعض أهل العلم: وصفته بالقوة لأنه زاحم الرعاء وغلبهم وهم يزدحمون على الماء حتى سقى، وقيل كانت على البئر صخرة لا يرفعها إلا العدد من الناس فرفعها موسى وحده.
- 5- الإشارة إلى المرأتين اللتين سقى لهما سواء كانتا حاضرتين في المجلس أو ذهن موسى.
- 6- هذا جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة. والمشهور من عند الفقهاء أن الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل ويفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده ويلغى الشرط المنافي للنكاح، وأما الشرط غير المنافي للنكاح فهو جائز ولا حرج فيه لقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "أحق الشروط أن يوفى به ما استحلتم به الفروج".
- 7- مشقة من اسم الحج، لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة.

(4/67)

{سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} أي الذين يوفون بعهودهم قال موسى رداً على كلامه {ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ} أنا عليّ أن أفي بما اشترطت عليّ وأنت عليك أن تفي بما اشترطت لي على نفسك {أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ (1)} الثمانية أو العشرة {قَضَيْتُ} أي وفيت وأديت {فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ} أي بطلب الزيادة على الثمانية ولا على العشرة. فقال شعيب: نعم {وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} فأشهد الله تعالى على صحة (2) العقد وبذلك أصبح موسى زوجاً لابنة شعيب التي عينها له والغالب أنها الكبرى التي شهدت له بالأمانة والقوة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تجلى كرم شعيب ومروءة وشهامته في تطمين موسى وإكرامه وإيوائه.
 - 2- بيان أن الكفاءة شرط في العمل ولا أفضل من القوة وهي القدرة البدنية والعلمية والأمانة.
 - 3- مشروعية عرض الرجل ابنته على من يرى صدقه وأمانته ليزوجه بها.
 - 4- مشروعية إشهاد الله تعالى على العقود بمثل {وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}.
 - 5- فضيلة موسى عليه السلام بإيجار نفسه على شبع بطنه وإحصان فرجه.
- فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآها تهتَّرُ كَأَنَّهَا

- 1- (أيما) أي: اسم موصول مبهم وهو منصوب ب (قضيت) وزيدت بعده (ما) لتأكيد الكلام، ولتصير أيّ شبيهة باسم الشرط ولذا أجيب بجملة (فلا عدوان علي) وهي مقرونة بالفاء.
- 2- اكتفى شعيب وموسى بإشهاد الله تعالى فهل يصح في الإسلام بدون إشهاد؟ الجمهور على عدم صحته بل لا بد من الإشهاد عليه وهو كذلك.

(4/68)

جَانٌّ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسألكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَبْيَضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)

شرح الكلمات:

قضى موسى الأجل : أتم المدة المتفق عليها وهي ثمان أو عشر سنوات.
أنس : أبصر.

أوجدوة من النار : عود غليظ في رأسه نار.

لعلكم تصطلون : أي تستدفنون.

نودي : أي ناداه الله تعالى بقوله يا موسى إني أنا الله رب العالمين.

في البقعة المباركة : قطعة الأرض التي عليها الشجرة الكائنة بشاطئ الوادي.

تهتز كأنها جان : تضطرب وتتحرك بسرعة كأنها حية من حيات البيوت.

ولى مدبراً ولم يعقب : رجع هارباً ولم يعقب لخوفه وفرعه منها.

اسلك يدك في جيبك : أدخلها في جيب قميصك.

من غير سوء : أي عيب كبرص ونحوه.

واضمم إليك جناحك من الرهب : اضمم يدك بأن تضعها على صدرك ليذهب روعك.

فذانك برهانان : أي آيتان من ربك على صدق رسالتك.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصص موسى وهو في طريقه بتدبير الله تعالى إلى مصر، إنه لما

(4/69)

قضى الأجل الذي تعاقد عليه مع صهره شعيب وقد أتم خير الأجلين وأوفاهما وهو العشر حجج قفل(1) ماشيا بأهله زوجته وولده في طريقه إلى مصر لزيارة والدته وإخوته حدث أن ضل الطريق ليلا، وكان الفصل شتاء والبرد شديد فإذا به يأنس {مِنْ جَانِبِ الطُّورِ} أي جبل الطور {نَارًا} فقال لأهله امكثوا هنا {إِنِّي أَنَسْتُ} أي أبصرت {نَارًا} سأذهب إليها {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ} إذ قد أجد عندها من يدلنا على الطريق أو آتيكم بجذوة(2) من النار أي خشبة في رأسها نار مشتعلة {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي من أجل اصطلاتكم بها أي استفائكم بها، هذا ما دلت عليه الآية (29) وقوله تعالى في الآية الثانية {فَلَمَّا أَنَاهَا} أي أتى النار {ثُودِي} أي ناداه مناد {مِنْ} (3) شَاطِئِ الوَادِ الْأَيْمَنِ (4) فِي البُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى} أي ناداه ربه يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} فألقاها فاهتزت واضطربت وتحركت بسرعة {كَأَنَّهَا جَانٌّ} أي حية عظيمة من الحيات المعروفة بالجنان {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي فرغ منها فرجع من الفرع إلى الوراء {وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي ولم يرجع إليها من الرعب، فقال له ربه تعالى {أَقْبِلْ} أي على العصا {وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ} أي الذي آمنهم ربهم فلا يخافون شيئا.

وقال له بعد أن رجع {اسْأَلْكَ يَدَكْ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي أدخل يدك في جيب قميصك وهو الشق الذي يدخل معه الرأس في الثوب ليلبس وقوله {تَخْرُجُ} أي اليد {بَيْضَاءَ} كالنور {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي برص أو نحوه {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ} أي يدك مع العضد إلى صدرك {مِنْ الرُّهْبِ} (5) أي الخوف فإن يذهب عنك بحيث تعود يدك عادية لا نور فيها كما كانت من قبل إدخالها في جيبك أولا.

ثم قال تعالى له: {فَدَانِكَ} (6) أي العصا واليد البيضاء. {يُرْهَاتَانِ مِنْ رَبِّكَ} أي آيتان

-
- 1- يقال: قفل رجعا أي: من سفره إلى أهله: والقافلة: الجماعة العائدة من السفر: ويقال لها القافلة وهي في بدء سفرها تفاوضا بالعودة السليمة لها وموسى عليه السلام قفل من رحلته إلى بلاده.
 - 2- الجذوة مثلثة الجيم ضمًا وفتحًا وكسرًا: الجمرة الملتهبة، والجمع جذأ مثلثة الجيم أيضا.
 - 3- (من) ابتدائية وكذا من الشجرة إذ من الشجرة بدل اشتمال من قوله (من شاطئ الوادي) وشاطئ الوادي وشطه جانبه، والجمع: شطآن وشواطئ.
 - 4- (الأيمن) أي: عن يمين موسى، والبعقة والجمع بقع: المكان من الأرض وإن فتحت باؤها جمعت على بقاع كجفنة وجفان وأما بالضم فهي كغرفة وغرف، و (من الشجرة) أي: من ناحيتها، وهل الشجرة من سمر أو عليق: (عوسج) الله أعلم.
 - 5- قرأ الجمهور: (الرهب) بفتح الراء والهاء وقرأ بعض بضم الراء وسكون الهاء: (الرهب) وقرأ عاصم بفتح الراء وسكون الهاء (الرهب) .
 - 6- (فدانك) بتخفيف النون لغة قريش وبتشديدها مع مدها وتخفيفها مع مدها (فدانيك) لغة هذيل.

تدلان على رسالتك المرسل بها إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله حيث كفروا به وعبدوا غيره وظلموا عباده، لتدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وإرسال بني إسرائيل معك لتذهب بهم إلى أرض المعاد أي فلسطين وما حولها من أرض الشام.
هداية الآيات:

من هداية الآيات :

- 1- الأنبياء أوفياء فموسى قضى أوفى الأجلين وأتمها وهو العشر.
 - 2- مشروعية السفر بالأهل وقد يحصل للمرء أنه يضل الطريق أو يحتاج إلى شيء ويصبر.
 - 3- فضل تلك البقعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وهي من جبل الطور.
 - 4- مشروعية حمل العصا لا سيما للمسافر وراعي ماشية أو سائقها.
 - 5- مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله.
 - 6- لا يلام على الخوف الطبيعي.
 - 7- آية العصا واليد.
 - 8- من خاف، وضع يده على صدره زال خوفه إن شاء الله تعالى.
 - 9- التنديد بالفسق وأهله.
- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (36) وَقَالَ

مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِي وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)
شرح الكلمات:

إني قتلته منهم نفسا : أي نفس القبطي الذي قتله خطأ قبل هجرته من مصر.

أفصح مني لسان: أي أبين مني قولاً.

ردءاً : أي معيناً لي.

سنشد عضدك بأخيك : أي ندعمك به ونقويك بأخيك هارون.

ونجعل لكما سلطاناً: أي حجة قوية يكون لكما بها الغلب.

فلا يصلون إليكما : أي بسوء.

بآياتنا : أي اذهبا بآياتنا.

فلما جاءهم موسى بآياتنا: أي العصا واليد وغيرهما من الآيات التسع.

بيناتٍ : أي واضحات.

سحر مفترى : أي مختلق مكذوب.

عاقبة الدار: أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة.

إنه لا يفلح الظالمون : أي المشركون الكافرون.

معنى الآيات:

لما كلف الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون وحمله رسالته إليه قال موسى كالمشترط لنفسه
{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا} يريد نفس القبطي الذي قتله خطأ أيام كان شاباً بمصر {فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ} أي يقتلوني به إن لم أبين لهم وأفهمهم حجتي {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} أي أبين
مني قولاً وأكثر إلهاماً لفرعون وملئه {فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ رِدْءًا} (1) أي عونا {يُصَدِّقُنِي} أي (2) يلخص
قولي ويحرره لهم فيكون ذلك تصديقاً منه لي، لا مجرد أنني إذا قلت قال صدق موسى. وقوله {إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} فيما جئتهم به. فأجابه الرب تعالى قائلاً {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ

1- قرأ نافع (رداً) منونا غير مهموز. وقرأ حفص (ردءاً) مهموزاً.

2- قرأ نافع (يصدقني) بالجزم لأنه في جواب الطلب الذي هو: (فأرسله معي) وقرأ حفص بالرفع

(يصدقني) على أن الجملة حال من الهاء في (أرسله).

(72/4)

بأخيك} أي نقويك به ونعينك {وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} أي برهانا وحجة قوية يكون لكما الغلب بذلك.
وقوله {فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا} أي بسوء أبدأ وقوله {بِآيَاتِنَا} (1) أي اذهبا بآياتنا أو يكون لفظ بآياتنا
متصلاً بسلطاناً أي سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا {أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْعَالِيُونَ}
وعلى هذا فلا نحتاج إلى تقدير فاذهبا وقوله تعالى {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا} العصا واليد وغيرهما
{بَيِّنَاتٍ} أي واضحات {قَالُوا مَا هَذَا} أي الذي جاء به موسى من الآيات {إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى} (2) أي
مكذوب مختلق {وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا} أي الذي جئت به يا موسى في {فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ} أي في أيامهم
وعلى عهدهم. وهنا رد موسى على فرعون بأحسن رد وهو ما أخبر تعالى به عنه بقوله: {وَقَالَ
مُوسَى} (3) رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ} أي من عند الرب تعالى {وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

الدَّارِ} أي العاقبة المحمودة يوم القيامة(4). ولم يقل له اسكت يا ضال يا كافر إنك من أهل النار بل تلتطف معه غاية اللطف امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله {قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} وقوله {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} أي الكافرون والمشركون بربهم هذا من جملة قول موسى لفرعون الذي تلتطف فيه وألانه غاية اللين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان أن القصاص كان معروفاً معمولاً به عند أقدم الأمم، وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته فتجرأ الناس على

سفك الدماء وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية ولذلك صح أن تسمى الخسارة البشرية بدل الحضارة الغربية.

2- مشروعية طلب العون عند التكليف بما يشق ويصعب من المسؤولين المكلفين.

3- مشروعية التلطف في خطاب الجبابة والانه القول لهم، بل هو مشروع مع كل من يدعى إلى الحق من أجل

أن يتفهم القول ولا يفلق عليه بالإغلاظ له.

-
- 1- قوله تعالى : (بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) يجوز أن يكون (بآياتنا) متعلقاً بمحذوف تقديره: اذهباً بآياتنا. ويجوز أن يتعلق بنجعل لكما سلطاناً بآياتنا فتكون رهبتهم منكما آية ويجوز أن يتعلق ب (لا يصلون إليكما) أي: يصرفون عنكما صرفاً بسبب آياتنا كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ويجوز تعلقيها ب (الغالبون) أي: بآياتنا.
 - 2- هذا شأن المحجوج المغلوب إذا أعيتته الحجة يفرع إلى التلفيق والاتهامات الباطلة دفعا للمعرة.
 - 3- كان مقتضى الكلام في سياق الحوار أن يقال: قال موسى بدون واو العطف إلا أنه خولف هنا وأتى بالواو: (وقال موسى) وهي قراءة الجمهور والمقصود منها هو ذكر التوازن بين حجة فرعون وحجة موسى ليظهر للسامع التفاوت بينهما بخلاف لو حذفوا الواو كما قرأ ابن كثير فإنها مجرد حكاية قول موسى عليه السلام فليس فيها ما يلفت النظر.
 - 4- (عاقبة الدار) قد يفهم منها فرعون: ما ينتهي إليه الخصام مع موسى إذا كان لا يؤمن بالمعاد وإن كان يؤمن بالمعاد فالأمر واضح.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

شرح الكلمات:

ما علمت لكم من إله غيري : أي ربا يطاع ويذلل له ويعظم غيري لعنة الله عليه ما أكذبه.
يا هامان: أحد وزراء فرعون، لعله وزير الصناعة أو العمل والعمال.
فأوقد لي يا هامان على الطين: أي اطبخ لي الأجر وهو اللبن المشوي.
فاجعل لي صرحاً : أي بناء عالياً، قصرًا أو غيره.
لعلي أطلع إلى إله موسى : أي أقف عليه وأنظر إليه.

(4/74)

وإني لأظنه من الكاذبين : أي موسى في ادعائه أن له إلهًا غيري.
فنبذناهم في اليم : أي طرحناهم في البحر غرقى هالكين.
وجعلناهم أئمة : أي رؤساء يقتدى بهم في الباطل.
يدعون إلى النار: أي إلى الكفر والشرك والمعاصي الموجبة للنار.
في هذه الدنيا لعنة : أي خزيا وبعداً عن الخير.
هم من المقبوحين: أي المبعدين من كل خير المشوّهي الخلقه.
القرون الأولى : قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم.
بصائر للناس : أي فيه من النور ما يهدي كما تهدي الأبصار.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ} إن فرعون لما سمع كلام موسى عليه السلام المصدق بكلام هارون عليه السلام وكان الكلام في غاية اللين، مؤثراً خاف فرعون من الهزيمة، ناور وراوغ فقال في الحاضرين { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ (1) مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } أي كما ادعى موسى ولكن سأبحث وأتعرف على الحقيقة إن كان هناك إله آخر غيري، فنادى وزيره هامان وأمره أن يعد اللبن المشوي لأنه قوي ويقوم ببناء صرح عال يصل إلى عنان السماء ليبحث بنفسه عن إله موسى إن كان حسب دعواه وإني لأظن موسى كاذباً في دعوى وجود إله له ولكم غيري هذا معنى قوله تعالى في الآية الأولى (38) {وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي (2) يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي
أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (3). يعني في ادعائه أن هناك إلهاً آخر غيري.
قوله تعالى : {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ} أي أرض مصر {بِغَيْرِ الْحَقِّ} (4) الذي يحق

- 1- قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين قوله: ما علمت لكم من إله غيري وبين قوله أنا ربكم الأعلى أربعون سنة، وكذب عدو الله بل علم أن له ربا هو خالقه وخالق قومه.
- 2- كَتَى عن البناء بمقدماته، وفعلاً دارت رحي العمل على أشد ما تكون وفرعون يعلم أنه مجرد تمويه على العامة وشغل لأذهانهم عن معرفة الحق الذي دعا إليه موسى: وهل بنى الصرح؟ روي أنه قبل أن يتم سقط فقتل خلقاً كثيراً من العمال والبنائين، ولعل في قوله تعالى: (وما كيد فرعون إلا في تباب) من سورة المؤمن، إشارة إلى سقوطه وهلاك القائمين ببنائه.
- 3- نسب موسى إلى جماعة الكذب وهو يعلم أنه صادق تمويهاً على الرعية، ودفعاً للحق الذي بهره نوره فما أطاقه فهو يبحث عن المخرج.
- 4- (بغير الحق) أي: الموجب لهم الاستكبار ولا يوجد حق يوجب الاستكبار قط.

(4/75)

لهم الاستكبار {وَوَطَّنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (1)} أي كذبوا بالبعث الآخر. قال تعالى: {فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ} أي بسبب استكبارهم وكفرهم وتكذيبهم بآيات الله {فَنَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْمِ (3)} أي في البحر وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} إنها كانت وبالاً عليهم وخساراً لهم. وقوله تعالى { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} أي وجعلنا فرعون وملاه أئمة في الكفر تقتدي بهم العتاة والطغاة في كل زمان ومكان {يدعون إلى النار} بالكفر والشرك والمعاصي وهي موجبات النار. {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} بل يضاعف لهم العذاب ويخذلون ويهانون لأن من دعا إلى سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء.

وقوله تعالى: {وَأَتْبَعْنَاهُمْ} أي آل فرعون {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً} انتهت بهم إلى الغرق الكامل والخسران التام، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (4)} أي المبعدين من رحمة الله الثاوين في جهنم ولبئس مثوى المتكبرين وقوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} أي التوراة وذلك بعد إهلاك الظالمين وقوله {مَنْ بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى} أي قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوله {بِصَاوِرٍ} أي الكتاب بما يحمل من الهدى والنور {بِصَاوِرٍ} أي ضياء للناس من بني إسرائيل يبصرون على ضوئه كل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم {وَوَهَدَىٰ وَرَحْمَةً} أي وبيانا لهم ورحمة لمن يعمل به منهم. وقوله {لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي وجود الكتاب بصائر وهدى ورحمة بين

أيديهم حال تدعوهم إلى أن يتذكروا دائماً نعم الله عليهم فيشكرونه بالإيمان به وبرسله ويطاعته
وطاعة رسله عليهم السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان أن فرعون كان على علم بأنه عبد مريبوب لله وأن الله هو رب العالمين.

2- تقرير صفة العلو والاستكبار لفرعون وأنه كان من العالين.

3- بيان كيف تكون عاقبة الظلمة دماراً وفساداً.

1- يطلق الظن ويراد به اليقين ويكون على بابه وهو هنا كفر ولو كان على بابه لأن الشك في
العقائد كفر.

2- قيل من هلك مع فرعون من جند كانوا مليوناً وستمائة ألف.

3- ناحية بحر القلزم في موضع منه يقال له بطن عُريرة.

4- المشوّهي الخلقة المسودي الوجوه زرق العيون فما أقبحهم وما أقبح ما كانوا يصنعون!! يقال:
قبحه وقبحه مشدداً ومخففاً أي: نجاه من كل خير، أو جعله قبيحاً. قال الشاعر:

ألا قبح الله البراجم كلها

وقبح يربوعاً وقبح دارما

(4/76)

1- دعاة الدعارة والخنا والضلال والشرك أئمة أهل النار يدعون إليها وهم لا يشعرون.

2- بيان إفضال الله تعالى على بني إسرائيل بإنزال التوراة فيهم كتاباً كله بصائر وهدى ورحمة.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا
فَتَنَّاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ

بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّحَ

آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

شرح الكلمات:

وما كنت بجانب الغربي : أي لم تكن يا رسولنا حاضراً بالجانب الغربي من موسى.

إذا قضينا إلى موسى الأمر : أي بالرسالة إلى فرعون وقومه.

وما كنت من الشاهدين : حتى تعلمه وتخبر به.

ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر: أي غير أننا أنشأنا بعد موسى أما طالت أعمارهم فنسوا
العهود وأندرت العلوم وانقطع الوحي فجئنا بك رسولاً وأوحينا إليك خبر موسى وغيره.
وما كنت ثابوا في أهل مدين : أي ولم تكن يا رسولنا مقيماً في أهل مدين فتعرف قصتهم.

(4/77)

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا: أي لم تكن بجانب الطور أي جبل الطور إذ نادينا موسى وأوحينا
إليه ما أوحينا حتى تخبر بذلك.
ما أتاهم من نذير من قبلك : أي أهل مكة والعرب كافة.
ولولا أن تصيبهم مصيبة الخ : لعاجلناهم بالعقوبة ولما أرسلناك إليهم رسولا.
معنى الآيات:

بعد انتهاء قصص موسى مع فرعون وإنزال التوراة {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}
وكان القصص كله شاهداً على نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاطب الله تعالى رسوله
فقال: {وَمَا كُنْتَ} أي حاضراً {بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ} أي بالجبل الغربي من موسى {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى
الْأَمْرَ (1)} بإرساله رسولاً إلى فرعون وملئه {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} الحاضرين إذاً فكيف علمت هذا
وتحدثت به لولا أنك رسول حق؟!

وقوله: {وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا (2) قُرُونًا} أي أما بعد موسى {فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} أي طالت بهم الحياة
وامتدت فنسوا العهود واندرست العلوم الشرعية وانقطع الوحي فجئنا بك رسولاً وأوحينا إليك خبر
موسى وغيره وقوله: {وَمَا كُنْتَ ثَابُوا} أي مقيماً {فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} فكيف عرفت
حديثهم وعرفت إقامة موسى بينهم عشر سنين لولا أنك رسول حق يوحى إليك نبأ الأولين وهو معنى
قوله تعالى {وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} فأرسلناك رسولاً وأوحينا إليك أخبار الغابرين.

وقوله: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ} أي جبل الطور {إِذْ نَادَيْنَا} موسى وأمرناه بما أمرناه وأخبرناه بما
أخبرناه به، فكيف عرفت ذلك وأخبرت به لولا أنك رسول حق يوحى إليك. وقوله تعالى: {وَلَكِن رَحْمَةً
مِّن (3) رَبِّكَ} أي أرسلنا رحمة من ربك للعالمين {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ

1- إذ كلفناه أمرنا ونهيناه وألزماناه عهدنا.

2- (ولكننا أنشأنا) الخ وجه هذا الاستدراك أن المشركين لما تعجبوا من رسالة محمد صلى الله عليه
وسلم حين لم يسبقها رسالة إلى آباؤهم فأعلمهم أن الله تعالى أرسل موسى بعد فترة من الرسل كذلك
ولكن لطول الزمن ومضي القرون نسوا رسالة موسى عليه السلام حتى قالوا: ما سمعنا بهذا في
الملة الآخرة.

3- أي: ما كان علمك بذلك لحضورك ولكن كان علمك رحمة من ربك فرحمة: منصوب في الآية على تقدير كون محذوف أي: كان علمك رحمة. ويصح النصب على المفعول المطلق أي: ولكن رحمتك رحمة فعلمناك ذلك بواسطة إيحائنا إليك.

(4/78)

مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} وهم أهل مكة والعرب أجمعون {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي كي يتعظوا فيؤمنوا ويهتدوا فينجوا ويسعدوا.

وقوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ (1)} أي عقوبة {بِمَا قَدَّمْتَأَيْدِيهِمْ} أي من الشرك والمعاصي {فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا} أي هلا أرسلت إلينا رسولاً {فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} أي لولا قولهم هذا لعاجلناهم (2) بالعذاب ولما أرسلناك إليهم رسولاً إذا فما لهم لا يؤمنون ويشكرون!؟
هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة المحمدية بأقوى الأدلة العقلية.

2- بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جاءت في أوانها واشتداد الحاجة إليها.

3- البعثة المحمدية كانت عبارة عن رحمة إلهية رحم الله بها العالمين.

4- جواب {لولا} في قوله {وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ}. محذوف وقد ذكرناه وهو لعاجلناهم بالعقوبة ولما أرسلناك إليهم ورسولا.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

1- (لولا) هنا حرف امتناع لوجود، امتنع إنزال العذاب بهم لوجود قولهم (لولا أرسلت إلينا رسولاً

فنتبع آياتك) أما لولا الثانية فهي أداة تحضيض.

2- في الآية معنى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

(4/79)

شرح الكلمات:

فلما جاء هم الحق من عندنا : أي محمد صلى الله عليه وسلم رسولا مبينا .
قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى : أي هلا أعطي مثل ما أعطي موسى من الآيات المعجزات من العصا واليد أو كتابا جملة واحدة كالنورة .
أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل : أي كيف يطالبونك بأن تؤتي مثل ما أوتي موسى وقد كفروا بما أوتي موسى من قبل لما أخبرهم اليهود أنهم يجدون نعت محمد في التوراة كفروا بهذا الخبر ولم يقبلوه .

وقالوا سحران تظاهرا : أي التوراة والقرآن كلاهما سحر ظاهر بعضهما بعضاً أي قواه .
فإن لم يستحيبوا لك : أي بالإتيان بالكتاب الذي هو أهدى من التوراة والقرآن .
فاعلم أننا يتبعون أهواءهم : في كفرهم ليس غير ، فلا عقل ولا كتاب منير .
ومن أضل ممن اتبع هواه : أي لا أضل منه قط .
ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون : أي بأخبار الأولين وما أحلنا بهم من نعمتنا لما كذبوا رسلنا وأنكروا توحيدنا {لعلهم يتذكرون} أي يتعظون فيؤمنون ويوحدون .
معنى الآيات:

لما قرر تعالى نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأدلته التي لا أقوى منها ولا أوضح وبين حاجة العالم إليها لا سيما العرب وذكر أنه لولا كراهة وقولهم: {لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} لما أرسل (1) إليهم رسوله . ذكر هنا ما واجه به المشركون تلك الرحمة المهداة فقال عنهم {فَلَمَّا جَاءَهُمْ (2) الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا} أي محمد النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: {لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} أي من الآيات كالعصا واليد البيضاء حتى نؤمن به ونصدق رسالته قال

1- ولأخذهم بالعذاب جزاء كفرهم وشركهم وفسادهم .

2- هذه الفاء هي الفصيحة أفصحت عن جواب طلب متقدم وهو قول المشركين . لولا أرسلت إلينا رسولا أي: هلا أرسلت إلينا رسولا مطالبين بذلك بإلحاح .

(4/80)

تعالى: {وَأَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} (1). وقالوا: {إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ مِنْ ذَلِكَ أَنْ قَرِيشًا لَمَّا كَثُرَ الْمُؤْمِنُونَ وَهَالِهِمُ الْمَوْقِفُ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ الْمَدِينَةِ يَسْأَلُونَهُمْ بِوَصْفِهِمْ أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ عَنْ مَدَى صَدَقَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَقُولُهُ فَأَجَابَهُمُ الْيَهُودُ بِأَنَّهُمْ يَجِدُونَ نَعْوَتَ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ فِي التَّوْرَةِ وَأَنَّهُ رَسُولٌ حَقٌّ وَلَيْسَ بِكَذَّابٍ وَلَا دَجَالٍ فَمَا كَانَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ مِنْ

قريش إلا أن أعلنوا كفرهم بالتوراة وقالوا: التوراة والقرآن {سِحْرَانِ (2)} تعاوننا فلا نؤمن بهما ولا نصدق من جاء بهما وقرئ {سَاحِرَانِ} أي موسى ومحمد عليهما السلام فلا نؤمن بهما. هذا معنى قوله تعالى {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ} أي بكل منهما كافرون.

فكيف لا يخجلون اليوم ويطالبون محمداً أن يعطى مثل الذي أعطي موسى من الآيات يا للعجب أين يذهب بعقول المشركين!!؟

وقوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين الذين كفروا بالتوراة والقرآن {فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} أنزله بعلمه يكون أكثر هداية من التوراة والقرآن .. أتبعه! {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في دعوكم بأن الفرقان والتوراة سحران تظاهرا.

وقوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} بالإتيان بكتاب من عند الله تعالى هو أهدى من الفرقان والتوراة ومن أين لهم بذلك .. إنه المستحيل! إذا فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم فيما يقولون ويدعون فلا عقل ولا نقل عندهم {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}؟! اللهم إنه لا أضل منه. والنتيجة أنه لا أضل من هؤلاء المشركين من قريش وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ (3) الظَّالِمِينَ} هذا بيان لسنة الله تعالى في الظالمين الذين أكثروا من الظلم وتوغلوا فيه عقيدة بالشرك وعملا بالمعاصي فإنه يحرّمهم الهداية فلا يهتدون أبداً.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ (4) وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي لقد وصلنا لهؤلاء المشركين

1- أي: موسى ومحمد تعاوننا على السحر .

2- قرأ نافع (ساحران تظاهرا) وقرأ حفص: (سحران) إخبار بالمصدر.

3- المراد بالظالمين: الكاملون في الظلم وهو ظلم الأنفس وظلم الناس وظلم الشرك وهو أعظمها. (إن الشرك لظلم عظيم) وكذا إتيان الفواحش.

4- التوصيل مبالغة في الوصل وهو: ضم شيء إلى شيء وربطه به، والقول القرآن ألفاظه وصل بعضها ببعض إذ نزل منجما كلما نزل أي وصل بالآخر حتى اكتمل، ووصلت معانيه بعضها ببعض بإحكام وإتقان لم يُعهد في كتاب غيره وصل وعده بوعيده وترغيبه بترهيبه.

(4/81)

من قومك يا رسولنا أي وصلنا لهم القول بأخبار الماضين، وما أحلنا بهم من بأسنا ونقمنا وعظيم عقوباتنا لما كفروا كما كفر هؤلاء وكذبوا بما كذب به هؤلاء وصلنا لهم القول مبينا واضحا موصولا أوله بآخره رجاء أن يتذكروا فيؤمنوا ويوحّدوا فينجوا من العذاب ويرحموا بدخول الجنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان تناقض المشركين وكل من يبتغى الهوى ويترك الهدى الإلهي.
 - 2- بيان تحدي المشركين بالإتيان بكتاب من عند الله وعجزهم عن ذلك فبان بذلك أنهم يتبعون أهواءهم وأنه لا أضل منهم اليوم.
 - 3- بيان سنة الله في حرمان المتوغلين في الظلم من الهداية الإلهية.
 - 4- بيان أن الله عز وجل وصل القول لأهل مكة مفصلاً مبيناً لهدايتهم فله الحمد وله المنة وعلى الكافرين اللعنة في جهنم.
- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)

شرح الكلمات:

الذين آتيناهم الكتاب من قبله : أي التوراة والإنجيل من قبل القرآن الكريم.

وإذا يتلى عليهم: أي القرآن

إنا كنا من قبله مسلمين : أي منقادين لله مطيعين لأمره ونهيه.

(4/82)

أجرهم مرتين : أي يضاعف لهم الثواب لأنهم آمنوا بموسى وعيسى وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ويدرعون بالحسنة السيئة: أي يدفعون بالحسنة من القول أو الفعل السيئة منهما.

وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه: أي الكلام اللاغوي الذي لا يقبل ولا يقر عليه لأنه لا يحقق درهماً للمعاش ولا حسنة للمعاد.

سلام عليكم: هذا سلام المتاركة أي قالوا قولاً يسلمون به.

لا نبتغي الجاهلين : أي لا نطلب صحبة أهل الجهل لما فيها من الأذى.

معنى الآيات:

إن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ يشمل أيضاً اليهود والنصارى من أهل الكتاب إذ هم كالعرب

فيما بين لهم من أخبار الماضين وفصل من أنباء إهلاك الأمم السابقة وما أنزل من بأساء وعذاب

بالمكذبين، إذ الجميع مطالبون بالإيمان بالعمل الصالح والتخلي عن الشرك والكفر والمعاصي للنجاة

والسعادة فذكر تعالى هنا أن فريقاً من أهل الكتاب يؤمنون بالنبي محمد لأنه الحق من ربهم. فقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ} (1) الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ {وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} أي القرآن {قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ} أي من قبل نزول (2) القرآن {مُسْلِمِينَ} أي موحدين منقادين نعبد الله بما شرع على لسان موسى وعيسى عليهما السلام هذه الآية تعني مجموعة من آمن من أهل الكتاب على عهد رسول الله ونزول القرآن منهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما. وقوله تعالى: { أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ} (3) مَرَّتَيْنِ { أي مضاعفا لأنهم آمنوا برسولهم وعملوا بما جاء به من الحق وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الهدى وقوله {وَيَذُرُونَ} (4) { أي يدفعون {بِالْحَسَنَةِ} وهي الصفح والعتق {السَّيِّئَةِ} وهي الأذى من سب وشتم. وقوله {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (5) { أي

- 1- ذكر عدة أقوال في هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية منها وهو أقربها لأن السورة مكية أنها نزلت في النجاشي وأصحابه إذ وجّه باثني عشر رجلا فجلسوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهم فأمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه فقال لهم: خيبكم الله من ركب وقبحكم من وفد لم تلبثوا أن صدقتموه وما رأينا ركبا أحق منكم ولا أجهل. فقالوا: سلام عليكم لم نأل أنفسنا رشدا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.
- 2- ومن قبل محمد صلى الله عليه وسلم كذلك.
- 3- ثبت في الصحيح "أن ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم عتقها وتزوجها فله أجران" قال الشعبي: خذ هذا الحديث بغير شيء فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.
- 4- شاهده حديث معاذ: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن".
- 5- هذا الإنفاق عام في المال والعلم والجاه إذ كل ذلك من رزق الله والكل ينفق منه في سبيل الله.

(4/83)

أي يتصدقون بفضول أموالهم حيث تنبغي الصدقة.

وقوله {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} أي إذا سمع أولئك المؤمنون من أهل الكتابين اللغو من سفهاء الناس أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ولا إلى قائله وأجابوا قائلين {لَنَا أَعْمَالُنَا} أي نتائجها حيث نجزي بها {وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} حيث تجزون بها {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} أي اتركونا، إنا لا نبتغي (1) محبة الجاهلين، لما في ذلك من الأذى والضرر الناتج عن سلوك أهل الجهل بالله تعالى ومحابه ومكارهه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل أهل الكتاب إذا آمنوا بالنبى الأمي وكتابه وأسلموا لله رب العالمين.
 - 2- فضيلة من يدرء بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله.
 - 3- فضيلة من يعرض عن اللغو وأهل الجهالات، ويقول ما يسلم به من القول، وهذه إحدى صفات عباد الرحمن {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً} أي قولاً يسلمون به. وهذا السلام ليس سلام تحية وإنما هو سلام متاركة.
- إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

1- أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة والمخاصمة.

(4/84)

الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ (59)
شرح الكلمات:

إنك لاتهدي من أحببت : أي هدايته كأبي طالب بأن يسلم ويحسن إسلامه.
وقالوا : أي مشركوا قريش.

إن نتبع الهدى معك : أي إن نتبعك على ما جئت به وندعوا إليه وهو الإسلام.
نتخطف من أرضنا : أي نتجرأ علينا قبائل العرب ويأخذوننا.

يجبى إليه ثمرات كل شيء: أي يحمل ويساق إليه ثمارت كل شيء من كل ناحية.
رزقاً من لدنا : أي رزقاً لكم من عندنا يا أهل الحرم بمكة.

بطرت معيشتها : أي كفرت نعمة الله عليها فأسرفت في الذنوب وطغت في المعاصي.
يبعث في أممها رسولا: أي في أعظم مدنها. وهي العاصمة.

إلا وأهلها ظالمون: بالتكذيب للرسول والإصرار على الشرك والمعاصي.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا ... بِالْمُهْتَدِينَ} هذه الآية نزلت في شأن (1) أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يرغب في إسلامه لما له من سאלفة في الوقوف إلى

جنب النبي صلى الله عليه وسلم يحيمه ويدافع عنه فلما حضرته الوفاة زاره النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الشهادتين فكان يقول له: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة وكان حوله عواده من كفار قريش، ومشايخها فكانوا يnehونه عن ذلك حتى قالوا له: أترغب عن دين آبائك؟ أترغب عن ملة عبد المطلب أبيك حتى قال هو على ملة عبد المطلب ومات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرون لك مالم أنه عن ذلك فنهاه الله فلم يستغفر له بعد ونزلت هذه الآية كالعزاء له صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} هدايته يا نبينا {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} هدايته لعلمه أنه يطلب الهداية ولا يرغب عنها كما رغب عنها أبو طالب وأبو لهب وغيرهما،

1- روى البخاري سبب نزول هذه الآية وأنها نزلت في أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

(4/85)

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} أي بالذين سبق في علمه تعالى أنهم يهتدون. وقوله تعالى: {إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطْ مِنْ أَرْضِنَا} هذا اعتذار اعتذر به بعض رجالات (1) قريش فقالوا نحن نعرف أن ما جئت به حق ولكننا نخشى إن آمنا بك واتبعناك يتألب علينا العرب ويرموننا عن قوس واحد ونصبح نتخطف من قبل المغيرين كما هو حاصل لغيرنا، وبذلك نحرم هذا الأمن والرخاء وتسوء أحوالنا، لهذا نعتذر عن متابعتك فيما جئت به وأنت تدعوا إليه من الكفر بالهتتا وهدمها والتخلي عنها. فقال تعالى في الرد على هذا الاعتذار الساقط البارد {وَأَلَمْ نُمَكِّنْ (2) لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ (3) إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا} أي لم يوطئ لهم أرض بلد حرمانه فلا يسفك فيه دم، ولا يصاد فيه صيد، ولا يؤخذ فيه أحد بجريرة، أليس هذا كافيًا في أن يعلموا أن الذي جعل لهم حرما آمنا قادر على أن يؤمنهم إذا آمنوا وأسلموا، ومن باب أولى. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (4) فهذه علة إصرارهم على الشرك والكفر. إنها الجهل بالله تعالى وعظمته وعلمه وحكمته. ومعنى يجبى أو تجبى إليه ثمرات كل شيء أي يحمل إليه ويساق من أنحاء البلاد ثمرات كل شيء من أنواع الأرزاق وكان ذلك رزقا منه تعالى لأهل الحرم. أفلا يشكرون.

وقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ} أي وكثيرا من أهل القرى أهلكتناهم {بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا} (5) لما بطروا عيشهم فلم يشكروا نعمة الله عليهم فأسرفوا في الظلم والمعاصي فأهلكناهم {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ} أي ديارهم {لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا} (6) كديار عاد وثمود والمؤتفكات. {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} لها، فلم نورثها غيرهم وتركتها خاوية خالية لم تسكن. أما يذكرون هذا فيعلموا بذلك قدرتنا فينتقوا فينا ويتوكلوا علينا ويؤمنوا ويوحدا ويستقيموا على منهج الحق الذي جئت يا رسولنا به.

وقوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ} يا أيها الرسول {مُهْلِكَ الْقُرَى} أي أهل المدن والحوضر {حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا} كما بعثك في أم القرى مكة {يَتْلُو (7) عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} أي لم يكن

- 1- من القائلين هذا القول من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي وكان ها القول من تعللاتهم فأجاب تعالى عما اعتل به هؤلاء فقال: (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً.. الخ.
- 2- الاستفهام للإتكاف عليهم أن يكون الله تعالى لم يمکن لهم حرماً آمناً.
- 3- قرأ نافع تجبى بالتاء، وقرأ حفص بالياء، والجبي: الجمع، والجلب، ومنه جباية الزكاة أي جمع أموالها، وجابية الحوض ما يجمع فيها الماء من البئر.
- 4- هذا الاستدراك لذكر علة تجاهلهم حماية الله تعالى لهم بتمكين الحرم لهم فهم فيه آمنون مطعمون ألا وهي الجهل فهو علتهم الحاملة لهم على الإصرار على الشرك.
- 5- بطرت: جهلت شكر معيشتها.
- 6 - (إلا قليلاً) أي: كالمسافرين الذين يمرون بها وينزلون بها ساعاً ويغادرون.
- 7- الجملة في محل نصب صفة لـ (رسولاً).

(4/86)

من سنة الله تعالى هذا بل لا يهلك أمة حتى يبعث في أم بلادها رسولاً يتلو عليهم آيات الله المبينة للحق من الباطل والخير من الشر وجزاء ذلك وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا (1) ظَالِمُونَ} أي ولم يكن من سنة الله تعالى في عباده أن يهلك القرى إلا بعد ظلم أهلها. فلإهلاك شرطان:

الأول: أن يبعث الرسول يتلو آياته فيكذب ويكفر به وبما جاء به.

الثاني: أن يظلم أهل القرى ويعتدوا وذلك بإظهار الباطل والمنكر وإشاعة الشر والفساد في البلاد وهذا من عدل الله تعالى ورحمته بعباده إنه لأرحم بهم من أنفسهم، وكيف ومن أسمائه وصفاته الرحمن الرحيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ لا هادي إلا الله. الهداية المنفية هي إنارة قلب العبد وتوفيق العبد للإيمان وعمل الصالحات، وترك الشرك والمعاصي. والهداية المثبتة، يقول الله تعالى وإنك لتهدني إلى صراط مستقيم. تلك هداية الدعوة والوعظ والإرشاد، ومنه {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} أي يدعوهم إلى الهدى.
- 2- مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته فيما ألقاه في قلوب العرب المشركين الجاهليين من

تعظيم الحرم وأهله ليهيء بذلك لسكان حرمة أماناً وعيشاً كما قال تعالى ﴿قُلِّعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قريش (2-4).

3- من رحمة الله وعدله أن لا يهلك أمة من الأمم إلا إذا توفر لها كلها شرطان :

1- أن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آيات الله تحمل الهدى والنور.

2- أن يظلم أهلها بالتكذيب للرسول والكفر بما جاء به والإصرار على الكفر والمعاصي.

4- التاريخ يعيد نفسه كما يقولون فما اعتذر به المشركون عن قبول الإسلام بحجة تألب العرب عليهم وتعطيل تجارتهم يعتذر به اليوم كثير من المسؤولين فعطلوا الحدود وجاروا الغرب في فصل الدين عن الدولة وأباحوا كبائر الآثم كالربا وشرب الخمر وترك الصلاة حتى لا يقال عنهم إنهم رجعيون متزمتون فيمنعهم المعونات ويحاصرونهم اقتصادياً.

1- أي: إلا بعد أن ظلموا بالشرك والمعاصي بارتكاب عظام الذنوب وكبائر الآثام، وذلك لتنتزه الرب تبارك وتعالى عن الظلم.

(4/87)

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ
وَعَدْنَاكُمْ وَعَدَاءَ حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)
شرح الكلمات:

وما أوتيتم من شيء : أي وما أعطاكم الله من مال أو متاع.

فمتاع الحياة الدنيا وزينتها : فهو ما تتمتعون به وتترينون ثم يزول ويفنى.

وما عند الله خير وأبقى : أي وما عند الله من ثواب وهو الجنة خير وأبقى.

أفلا تعقلون : لأن من يؤثر القليل الفاني على الكثير الباقي لا عقل له.

وعداً حسناً : أي الجنة.

فهو لاقية : أي مصيبه وحاصل عليه وظافر به لا محالة.

من المحضرين : أي في نار جهنم.

معنى الآيتين:

لقد سبق في هذا السياق أن المشركين اعتذروا عن الإسلام بعذر مادي بحت وهو وجود عداوة بينهم

وبين سائر العرب. يترتب عليها حروب وتعطل التجارة إلى غير ذلك. فقوله تعالى هنا ﴿وَمَا

أُوتِيتُمْ (1) مِنْ شَيْءٍ (2) فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو خطاب لهم ولكل من يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة

فيستحل المحرمات ويعطل الأحكام ويضيع الفرائض والواجبات لتعارضها في نظره مع جمع المال

والتمتع بالحياة الدنيا. وقوله تعالى: {وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ} أي من مال ومتاع وإن كثر {فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي فهو متاع الحياة الدنيا {وَزَيَّنَّاهَا} أي تتمتعون وتترينون به أياماً أو أعواماً ثم ينفد ويزول، أو تموتون عنه وتتركونه {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ}

1 - في هذه الآية الكريمة تذكرة لقريش التي آثرت الدنيا على الآخرة فردت الإسلام مخافة أن يؤثر على حياتها الاقتصادية والأمنية في صورتها الهابط المتهالك وهي أيضاً تذكرة لكل الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

2 - (من) بيانية فقوله: (من شيء) بيان لما في قوله: (وما أوتيتم) والمتاع ما يتمتع به زماناً ثم يزول، والزينة تطلق على ما يحسن الأجسام.

(4/88)

من نعيم الجنة {خَيْرٌ وَأَبْقَى} خير في نوعه وأبقى في مدته، فالأول رديء وتصحبه المنغصات ويعقبه الكدر، والثاني جيد صالح خال من المنغصات والكدورات وباق لا يبلى ولا يفنى ولا يزول ولا يموت صاحبه ويخلفه وراءه. {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} يا من تؤثرون الفاني على الباقي والرديء على الجيد والخبِيث على الطيب. وقوله تعالى: {أَفَمَنْ (1) وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا} وهو المؤمن الصادق في إيمانه المؤكد له بصالح عمله، {وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا} وهو الجنة دار السلام {فَهُوَ (2) لَاقِيهِ} أي لاق موعده بإذن الله بمجرد أن يلفظ أنفاسه وتعرج إلى السماء روحه. {كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الدُّنْيَا} فهو يأكل ويشرب وينكح كالبهائم {ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} في جهنم في دار العذاب والهوان، والجواب: لا يستويان أبداً وشتان ما بينهما، فالأول وهو المؤمن الصالح الموعود بدار السلام لا يقارن بالكافر المتهالك على الدنيا ثم يتركها فجأة ويجد نفسه مع أهل الكفر والإجرام في عذاب وهون لا يفارقه ولا يخرج منه أبداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فائدة العقل أن يعقل صاحبه دون ما يضره، ويبعثه على ما ينفعه فإن لم يعقله دون ما يضره ولم يبعثه على ما ينفعه فلا وجود له، ووجوده كعدمه.

2- بيان فضل الآخرة على الدنيا.

3- وعد الله للمؤمن بالجنة خير مما يؤتاه من مال ومتاع وزينة في الحياة الدنيا.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63)

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا

- 1 - الاستفهام إنكاري ينكر فيه تعالى التسوية فضلا عن المفاضلة بين مؤمن وعده ربه النعيم المقيم في الآخرة وكافر متمتع اليوم بمتع زائلة فانية عما قريب تنتهي وتزول ويؤول أمره إلى دار الشقاء والعذاب الأبدي وهي دار البوار.
- 2 - جملة (فهو لاقية) معترضة بين طرفي المقابلة في المفاضلة.

(4/89)

لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

شرح الكلمات:

- ويوم يناديهم : أي الرب سبحانه وتعالى.
- كنتم تزعمون : أي أنهم شركاء لي فعبدتموهم معي.
- حق عليهم القول : أي بالعذاب في النار وهم أئمة الضلال.
- أغويناهم : أي فغوا ولم نكرهم على الغي.
- تبرأنا إليك: أي منهم ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم.
- وقيل ادعوا شركاءكم : نادوهم ليخلصوكم مما أنتم فيه.
- لو أنهم كانوا يهتدون : أي لما رأوا العذاب ودّوا لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين.
- ويوم يناديهم : أي الله تبارك وتعالى.
- فعميت عليهم الأنباء : أي فخفيت عليهم الأنباء التي يمكنهم أن يحتجوا بها.
- فهم لا يتساءلون : أي انقطعوا عن الكلام.
- فأما من تاب وآمن : أي آمن بالله ورسوله وتاب من الشرك.
- وعمل صالحا : أدى الفرائض والواجبات.
- فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ: أي الفائزين بالنجاة من النار ودخول الجنة، وعسى من الله تعالى لا تفيد مجرد الرجاء بل هي لتحقق الموعد به.
- معنى الآيات:
- يقول تعالى لرسوله واذكر يوم ينادي(1) ربك هؤلاء المشركين وقد ماتوا على شركهم فيقول لهم

1 - بعد تقرير النبوة انتقل الكلام إلى تقرير ركني العقيدة: التوحيد والبعث، فيوم معمول لمحذوف تقديره: اذكر يا رسولنا يوم ينادي الجبار أولئك المحضرين في جهنم يناديهم للتوبيخ والتقريع.

(4/90)

{أَيَّنْ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} أي أنهم شركائي هذا سؤال تقريع وتأنيب والتقريع والتأنيب ضرب من العذاب الروحي الذي هو أشد من العذاب الجثماني. وقوله تعالى {قَالَ الَّذِينَ (1) حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} أي نطق الرؤساء من أئمة الضلال وهم الذين حق عليهم العذاب في نار جهنم {رَبَّنَا (2) هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا} {أَغْوَيْنَاهُمْ} فغوا {كَمَا غَوَيْنَا (3)} أي ما أكرهناهم على الغواية، {تَبَرَأْنَا (4) إِلَيْكَ} أي منهم. {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} بل كانوا يعبدون أهواءهم لا غير. وقوله: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} يقال للمشركين تهكماً بهم واستهزاء، {ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} أي لينصروكم ويخلصوكم مما أنتم فيه من الذل والهوان.

قال تعالى: {فَدَعَوْهُمْ} بالفعل نادوا {قَلَّمَ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} إذ لا يقدر واحد من الإنس أو الجن أن يقول هذا كان يعبدني، بل كل معبود يتبرأ ممن عبده كما قالوا في الآية قبل ذي تبرأنا إليك أي منهم ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم وقوله تعالى: {وَرَأَوْا الْعَذَابَ} بأعينهم فاشتدت حسرتهم وودوا لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين. وقوله تعالى: { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } أي ربهم قائلاً: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} ؟ أخبرونا كيف كان موقفكم مع من أرسلنا إليكم؟ هل آمنتم بهم واتبعتموهم أم كذبتموهم وحررتموهم قال تعالى: {فَعَمِيَتْ (5) عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ} أي فخفيت عليهم الأخبار التي يمكنهم أن يحتجوا بها فلم يجدوا حجة واحدة ولذا {فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ} أي لا يسأل بعضهم بعضاً لأنه سقط في أيديهم وعلموا أنهم صالحوا الجحيم لا محالة. وقوله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ تَابَ (6) } من هؤلاء المشركين اليوم من الشرك وآمن بالله ولقائه ورسوله وعمل صالحاً فأدى الفرائض والواجبات {فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} أي الفائزين بالنجاة من النار ودخول الجنة، فهذه دعوة سخية لكل مشرك وكافر وفاسق أن يتخلى عن الباطل المتلبس به ويؤمن بالإيمان الصحيح ويعمل صالحاً بأداء الفرائض فإنه ينجو من النار ويدخل الجنة دار الأبرار فهل من تائب؟!.

1 - لم تعطف جملة: (قال الذين) بالواو أو بالفاء لأنها في صورة حوار.

2 - هذا النداء المراد به الاستعطاف والاسترحام.

3 - أي: أضللناهم كما كنا ضالين، وذلك أنهم دعوهم إلى عبادتهم فعبدهم، ولذا قال قتادة: هؤلاء هم الشياطين، وقيل: هم الرؤساء، والكل صحيح.

4 - (تبرأنا) أي: تبرأ الشياطين والرؤساء ممن عبدهم أو عبدوا غير الله بدعوتهم وتزنيهم، وأنكروا

أنهم كانوا يعبدونهم.

- 5 - خفيت الأنباء على جميع المسؤولين فسكتوا كلهم إذ لم يروا جوابا ينفع في هذا الموقف الرهيب.
- 6 - هذه الفاء الفصيحة كأن سائلاً قال بعد أن عرف حال المشركين في النار: وما حال غيرهم يا ترى؟ فأجيب بأن من تاب من الشرك وعمل صالحاً بأداء الفرائض ففلاحه العظيم واجب له متأكد.

(4/91)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالشرك والمشركين.
 - 2- براءة الرؤساء في الضلال من المرؤوسين.
 - 3- التحذير من الغواية وهي الضلال، والانغماس في الذنوب والآثام.
 - 4- خذلان المعبودين عابديهم يوم القيامة وتبرؤهم منهم.
 - 5- باب التوبة مفتوح لكل عبد مهما كانت ذنوبه ولا يهلك على الله إلا هالك.
- وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

شرح الكلمات:

- يخلق ما يشاء : أي من خلقه.
- ويختار : أي من يشاء لنبوته وطاعته.
- ما كان لهم: أي للمشركين.
- الخيرة : أي الاختيار في شيء.
- سبحان الله: أي تنزيها لله عن الشرك.
- يعلم ما تكن صدورهم : أي ما تسر وتخفي من الكفر وغيره.
- له الحمد في الأولى: أي في الدنيا لأنه مولى كل نعمة.
- وفي الآخرة : أي في الجنة.
- وله الحكم : أي القضاء النافذ.
- وإليه ترجعون : بعد النشور وذلك يوم القيامة.

(4/92)

معنى الآيات:

لقد تقدم في الآيات قبل هذه التتديد بالشرك وتوبيخ المشركين وتحديهم بدعاء شركائهم ليخلصوهم مما هم فيه من العذاب، وكان شركهم باختيارهم الخاص وإرادتهم الحرة إذ تبرأ منهم من اختاروهم آلهة مع الله فعبدهم معه. وفي هذه الآية يكشف تعالى عن خطئهم في الاختيار، وذلك من وجهين: الأول أنه لا حق لهم في الاختيار. إذ الاختيار لخالق المخلوقات فيختار منها ما يشاء لنبوته أو طاعته أما الذي يُخْلَقُ ولا يَخْلُقُ فكيف يصح منه اختيار. والثاني بحكم أنهم مخلوقون مريبون لله تعالى وهم يعلمون هذا إذ لو سألهم أحد: من خلقكم؟ لقالوا: الله؛ كان المفروض فيهم والمطلوب منهم أن يطلبوا من الله تعالى خالقهم أن يختار لهم ما يعبدون ويبين لهم كيف يعبدون، إذ هو مولاهم الحق ولا مولى لهم سواه أما أن يركبوا رؤوسهم ويختاروا بأنفسهم ما يعبدون فهذا ظلم منهم كبير استوجبوا به اللوم في الدنيا والعذاب في الآخرة. قال تعالى: (68) {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} .. أي وربك يا محمد يخلق ما يشاء ممن يريد خلقهم ويختار (1) من يشاء لما يشاء ممن يشاء من عباده لما يشاء من كمال أو نقصان. أما عبده فليس لهم حق الاختيار وإنما عليهم السمع والطاعة قال تعالى: {مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} (2) أي حق الاختيار بل الذي يختاره الله هو الذي يجب أن يختاره العبد. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول: "اللهم خذ لي واختر لي" وكان يعلم أصحابه دعاء الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، ويحضهم على أن يختاروا في الأمر الواحد سبع مرات. وقوله تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} نزه تعالى نفسه عن شرك المشركين وباطل المبطلين وقوله {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} وهذا برهان أن الخيرة له (3) وليس لغيره إذ الذي يعلم الظواهر والبواطن والبدائيات والنهائيات قبل البدء والمنتهى صاحب هذا العلم هو الذي يختار. أما الذي لا يعلم ما يكنه أخوه في صدره بل ولا ما يظهره آخر إلى جنبه أي لا يعلم عاقبته فكيف يصح منه الاختيار أو تكون له خيرة في شيء. وفوق ذلك أنه سبحانه وتعالى {هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي المعبود الذي لا معبود بحق سواه الذي له الحمد

- 1 - قيل نزلت رداً على الوليد بن المغيرة حين قال: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. كما هي ردة على اختيارهم الشركاء ليشفوعوا لهم يوم القيامة.
- 2 - جائز أن يكون (ما) موصولاً مفعولاً به لفعل: يختار، والعائد محذوف أي: ويختار الذي لهم فيه خير، كما أن الخلق من خصائصه، إذ قال (وربك يخلق ما يشاء) فكذلك الاختيار له دون غيره، وجائز أن يكون الوقف التام على (ويختار)، وجملة (ما كان لهم الخيرة) مستأنفة لغرض تأكيد القصر على الله تعالى هو الخالق وحده وهو الذي يختار وحده وليس لأحد من الخلق الخلق والاختيار.

3 - الخيرة: اسم مصدر الاختيار كالطيرة اسم مصدر التطير ولا نظير لهذه الصيغة في الأسماء (والطيرة والخيرة).

(4/93)

في الدنيا إذ كل ما في الدنيا هو خلقه وفضله وإنعامه، وله الحمد في الآخرة، يحمده أهل الجنة إذ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن بل الحياة الدنيا كالأخرة. تختتم بالحمد لله. قال تعالى ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ {وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي وله الحكم والقضاء في الدنيا والآخرة {وَالَّذِينَ تُرْجَعُونَ} فكما أن الحكم خاص به فكذلك الرجوع إليه، ويوم يرجعون إليه يحكم بينهم بحكمه وهو العزيز العليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ "ليس من حق العبد أن يختار إلا ما اختاره الله له".
- 2- تعيين طلب الاختيار في الأمر كله من الله تعالى بقول العبد "اللهم خر لي واختر لي".
- 3- تأكيد سنة الاستخارة وهي إذا همّ العبد بالأمر يصلي ركعتين في وقت لا تكره فيه صلاة النافلة، ثم يدعو بدعاء الاستخارة كما ورد في الصحيح وهو "اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وفي عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وفي عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به". ويسمي حاجته التي هم بها من سفر أو زواج أو بناء أو تجارة أو غراسة.
- 4- تقرير التوحيد وإبطال التنديد.

5- وجوب حمد الله وشكره على كل حال وذلك لتجدد النعمة في كل آن.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(4/94)

(73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

شرح الكلمات:

أرأيتم : أي أخبروني

سرمداً : أي دائماً، ليلاً واحداً متصلاً لا يعقبه نهار .

بضياء : أي ضوء كضوء النهار .

بليل تسكنون فيه : أي تنامون فتسكن جوارحكم فتستريح من تعب الحياة .

لتسكنوا فيه : أي في الليل .

ولتبتغوا من فضله : أي تطلبوا الرزق من فضل الله في النهار .

ولعلمكم تشكرون : أي كي تشكروا ربكم بطاعته كالصلاة والصيام والصدقة .

ونزعنا من كل أمة شهيداً : أي أحضرنا من كل أمة من يشهد عليها وهو نبيها عليه السلام .

فقلنا هاتوا برهانكم : أي حججكم على صحة الشرك الذي أنذرتكم رسلنا عواقبه فما قبلتم النذارة ولا

البشارة .

فعلموا أن الحق لله: أي تبين أن العبادة والدين الحق لله لا لسواه .

وضل عنهم ما كانوا يفترون : أي وغاب عنهم ما كانوا يكذبونه من الأقوال الباطلة التي كانوا يردون

بها على الرسل عليهم السلام .

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد وهو حول أناد الله تعالى من مخلوقاته فقال

تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قل لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أنداداً وهو

(4/95)

خالقهم ورازقهم ومدبر أمر حياتهم {أَرَأَيْتُمْ (1)} أي أخبروني {إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً} أي (2) دائماً ليلاً واحداً متصلاً لا يعقبه نهارٌ {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} أخبروني هل هناك {إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ} (3) كضياء النهار، والجواب: لا أحد وإذا فكيف تشركون به أصناماً . {أَفَلَا تَسْمَعُونَ} ما يقال لكم . وقل لهم أيضاً { أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً } أي دائماً متصلاً لا يخلفه ليل أبداً {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} إلى انقراض هذا الكون وانتهاء هذه الحياة وقيام الناس لربهم من قبورهم يوم القيامة {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ} أي إله غير الله {يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ} فتخلدون إلى الراحة بالنوم والسكون وعدم الحركة فيه، وإذا قلتم لا أحد يأتينا بليل نسكن فيه إذاً فما لكم لا تبصرون هذه الآيات ولا تسمعون ما تحمله من الأدلة والحجج القاطعة القاضية بأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق

سواه. وقوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ (4) جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} إذ ليس واجبا عليه ذلك وإنما هو فضل منه ورحمة فالليل تسكنون فيه والنهار تتحركون فتبتغون رزقكم من فضل الله، وبذلك تهَيَّؤُونَ للشكر إذا أكلتم أو شربتم أو ركبتم أو نزلتم قلتم الحمد لله، والحمد لله رأس الشكر، كما أن الليل والنهار ظرف للعبادة التي هي الشكر، فالعبادات لا تقع إلا في الليل والنهار، فالصيام في النهار والقيام بالليل والصلاة والصدقات فيهما. وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ} أي اذكر يا رسولنا لهم تنبيها وتعلima يوم يناديهم الرب تبارك وتعالى فيقول لهم: {أَيُّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} أنهم شركاء لي فعبدتموهم، وهل يرجى أن يجيبوا لا، لا، وإنما هذا السؤال ونظائره هو سؤال تبيكيت وتأييب وتوبيخ وهو نوع من العذاب النفسي الذي هو أشد من العذاب الجسمي. وقوله تعالى: {وَنَزَعْنَا (5) مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} أي واذكر لهم هذا الموقف من مواقف القيامة الصعبة {وَنَزَعْنَا} أي أحضرنا {مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} يشهد عليها وهو

1 - حقق الهمزة من (أرأيتم) حفص، وخففها ورش فقلبا ألفاً تخفيفاً (أرأيتم).

2 - (سرمداً) أي: دائماً. قال طرفة بن العبد:

لعمرك ما أمري عليّ بعمّة

نهاري ولا ليالي عليّ بسرمد

3 - أي: بنهار تبصرون فيه معاشكم ويصلح فيه ثماركم ونباتاتكم.

4 - فيه تصريح بأن الليل بما يحصل فيه من سكون وراحة للأبدان والعقول من الهم والتفكير، والنهار بما يحصل فيه من عمل ونشاط للكسب وتحصيل الزرق نعمة الله على العباد اقتضتها رحمته بهم فله الحمد وله المنّة.

5 - أعيد هذا الموقف مرة أخرى ليذكر فيه حالاً لم تذكر في الأول وهي: إسهاد الأنبياء على أممهم، وفي هذا تقرير للنبوّة المحمدية إذ هذه الآية كآية (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً).

(4/96)

نبيها، ويشهد الرسول أنه بلغ ونصح وأنذر، ويقال لهم: {هَاتُوا (1) بُرْهَانَكُمْ} على صحة ما كنتم تعبدون وتدعون. قال تعالى: {فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ} أي تبين لهم أن الحق لله أي أن الدين الحق لله فهو المستحق لتأليه المؤلهين وطاعة المطيعين وقربات المتقربين لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إشارة علمية إلى أن السماع يكون مع السكون وقلة الضجيج، وأن الإبصار يكون مع الضوء،

ولا يتم مع

الظلام بحال من الأحوال.

2- البرهنة القوية على وجوب توحيد الله إذ لا رب يدبر الكون سواه.

3- كون النهار والليل ظرفان للسكون وطلب العيش هما من رحمة الله تعالى أمر يقتضي شكر الله تعالى بحمده والاعتراف بنعمته وطاعته بصرف النعمة فيما يرضيه ولا يسخطه.

4- بيان أهوال القيامة، بذكر بعض المواقف الصعبة فيها.

5- إذا كان يوم القيامة بطل كل كذب وقول ولم يبق إلا قول الحق والصدق.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا

1 - (هاتوا) أحضروا، والأمر مستعمل هنا للتعجيز إذ هم عاجزون عن الإتيان بأدنى حجة عن صحة شركهم وكفرهم بلقاء ربهم، فعاب عليهم ما كانوا يكذبونه من الادعاءات الفارغة من أن أصنامهم تشفع لهم.

(4/97)

وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

شرح الكلمات:

إن قارون كان من قوم موسى : أي ابن عم موسى عليه السلام.

فبغى عليهم : أي ظلمهم واستطال عليهم.

ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة : أي أعطاه الله من المال ما يتقل عن الجماعة حمل مفاتيح خزائنه.

لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين : أي لا تفرح فرح البطر والأشر.

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة: أي اطلب في المال الذي أوتيته الدار الآخرة بفعل الخيرات.

على علم عندي : أي لعلم الله تعالى بأني أهل لذلك.

وأكثر جمعا: أي للمال.

ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون : أي لعلم الله تعالى بهم فيدخلون النار بدون حساب.

معنى الآيات:

هذا بداية (1) قصص قارون الباغي، وهو قارون ابن يصر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. فهو ابن عم موسى بن عمران وابن خالته أيضاً وكان يلقب المنور لحسن صورته، ووافق كما وافق السامري المطرود. قال تعالى في ذكر خبره {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى} أي إسرائيلي ابن عم موسى بن عمران الرسول. {فَبَعَى عَلَيْهِمْ} أي على بني إسرائيل أي ظلمهم وطغى عليهم، ولعل فرعون كان قد أسند إليه إمارة على بني إسرائيل فأطعته وملك أموالاً كثيرة ففرته وألتهه. وقوله تعالى: { وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ (3) بِالْعُصْبَةِ (4) أُولِي الْقُوَّةِ }. وهذا الخبر الإلهي دليل على ما كان للطاغية

1 - هذا استئناف ابتدائي لذكر قصة لها مغزاها ونتائجها من الموعظة والذكرى.

2 - ومغزى هذا القصص أولاً: تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا لا يقصه غير من يوحي إليه بحال. ثانياً: تضمن القصص الرد على المعجبين بالمال ومتاع الحياة الدنيا وبيان نهايتهم المؤلمة، وثالثاً: عرض مشابه لموقف أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم مع أغنياء مكة وهم يتناولون عليهم بالمال والجاه. كما كان قارون مع ضعفة بني إسرائيل وفي ذلك عظة للمؤمنين وذكرى للكافرين.

3 - (ما عن مفاتحه) الأكثرون على أن (ما) موصول، وصلتها جملة: (إن مفاتيحه) وأنكر بعض أن تبتدئ الصلة بحرف إن فقالوا: (ما) موصوفة وما بعدها في محل الصفة، والمفاتيح: جمع مفتاح بكسر الميم: اسم آلة الفتح.

4 - (تنوء) من ناء بالشيء ينوء ثقل عليه، والباء: في (بالعصبة) للمصاحبة، وليست للسببية، إذ هي كما في قول امرؤ القيس: وأردف أعجازا وناء بكلكل. والعصبة الجماعة من الخمسة إلى العشرة فأكثر.

(4/98)

قارون من أموال بحيث أن المفاتيح تنقل كاهل العصبة أي الجماعة من الرجال لو حملوها كلها وذلك لتقلها. وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ} أي من بني إسرائيل واعظين له مذكرين {لَا تَفْرَحْ} أي بأموالك فرح الأشر البطر. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} أي الأشرين البطرين الذين يختالون ويتفاخرون ويتكبرون. {وَأَبْتَعْ} اطلب {فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ} من أموال {الدَّارِ الْآخِرَةِ} بأن تصدق منها وأنفق في سبيل الله كبناء مسجد أو مدرسة أو ميثم أو ملجأ إلى غير ذلك من أوجه البر والإحسان. {وَلَا تَنْسَ نَصِيحَكَ (1) مِنَ الدُّنْيَا} فكل واشرب والبس واركب واسكن ولكن في غير إسراف ولا مخيلة، {وَأَحْسِنْ}

عبادة الله تعالى وطاعته وأحسن إلى عباده بالقول والعمل {كَمَا أَحْسَنَ} أي الله تعالى إليك {وَلَا تَتَّبِعِ
الْفَسَادَ فِي (2) الْأَرْضِ} بترك الفرائض وارتكاب المحرمات. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ومن لم يحبه
الله أبغضه ومن أبغضه عذبه في الدنيا والآخرة فبعد هذه الموعظة من قومه الصالحين أهل العلم
والبصيرة ردّ هذا الطاغية قارون بما أخبر به تعالى عنه في قوله في الآية (78) {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} أي لا تهددوني ولا تخوفوني بسلب مالي عني إن أنا لم أحسن فإن هذا المال قد
{أُوتِيتُهُ} أي آتانيه الله على علم منه (3) بأني أهل له ولذا أعطاني وزاد عطائي وأكثره قال تعالى في
الردّ عليه في زعمه هذا {أَوَلَمْ يَعْلَمْ} أي يقول ما يقول من الزعم الكاذب ولم {يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا} ، كعاد وثمود وقوم إبراهيم فلو كان كثرة المال
دليلاً على حب الله ورضاه عن أهله، ما أهلك عاداً وثمود وقوم نوح من قبل وكانوا أشد قوة وأكثر
مالاً ورجالاً وقوله تعالى: {وَلَا يُسْأَلُ} (4) عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} أي إذا أكثر العبد من الإجماع بالشرك
والمعاصي حق عليه كلمة العذاب وأن أوان عذابه لا يسأل عن ذنوبه بل يؤخذ فجأة كما أن هؤلاء
المجرمين سيدخلون النار بغير حساب فلا يسألون ولا يحاسبون. قال تعالى: {يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ
بِسِيمَاهُمْ} (5) فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ} أي ويرمون في جهنم ويقال لهم: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
الْمُجْرِمُونَ} (6).

- 1 - أشار ابن عمر إلى هذا القول في قوله: احرت لديناك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك
تموت غداً. ومن تأولها بالعمل للآخرة فقط شاهده قول الشاعر:
مما تجمع الدهر كله رداءان تلوى فيهما وحنوط
- 2 - الفساد في الأرض يكون بفعل المعاصي الجامعة لترك الفرائض وإتيان الكبائر.
- 3 - وقال ابن زيد: لعلم الله تعالى بفضلي ورضاه عني أي: إني أوتيتها باستحقاقي.
- 4 - أي: لا يسأل سؤال استعتاب ليتوب أما سؤال التقرير والتوبيخ فلا مانع منه، وذلك كقوله تعالى:
{وَلَا يَسْتَعْتَبُونَ} وقوله {وما هم بمعتنين}.
- 5 - {سِيمَاهُمْ} إنهم سود الوجوه زرق العيون.
- 6 - المجرمون: هم الذين أجزموا على أنفسهم أي: خبثوها بكثرة ما يرتكبون من الجرائم كالكفر
والظلم وكبائر الذنوب، كالقتل ظلماً وأكل الربا وتعاطي الخمر والزنى.

(4/99)

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- المال والمنصب العالي عرضة لإفساد المرء إلا من رحم الله عز وجل وقليل ما هم.
- 2- حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح فرح بطر وفخر واعتزاز وكبر وخيلاء.
- 3- من فضل الله على الأمة أن يوجد فيها عالمون ينصحون ويرشدون ويوجهون.
- 4- من الحزم للمرء أن يطلب من المال والجاه والمنصب أعلى الدرجات في الجنة.
- 5- حلية الأكل من الطيب والشرب من الطيب واللبس والركوب والسكن من غير إسراف ولا خيلاء ولا كبر.

6- العافية والمال وعز السلطان يصاب صاحبها بالاغترار إلا من رحم الله.
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)
 فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81)
 وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82)

(4/100)

شرح الكلمات:

في زينته: أي لباس الأعياد والحفلات الرسمية.
 يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون : أي تمنوا لو أعطوا من المال والزينة ما أعطي قارون.
 إنه لذو حظ عظيم : أي إنه لذو بخت ونصيب وهبه الله إياه في كتاب المقادير.
 وقال الذين أوتوا العلم: أي أعطوا العلم الديني بمعرفة الله والدار الآخرة وموجبات السعادة والشقاء.
 ويلكم : أي حضر ويلكم وهلاككم بتمنيكم المال وزخرف الدنيا.
 ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا : أي ما عند الله من جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات وهو الجنة خير من حطام الدنيا الفاني.
 ولا يلقاها إلا الصابرون : أي ولا يوفق لقول هذه الكلمة وهي ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً إلا الصابرون على الإيمان والتقوى.
 فخسفنا به وبداره الأرض : أي أسخنا الأرض من تحته فساخت به وبداره وكل من كان معه فيها من أهل البغي والإجرام.
 تمنوا مكانه بالأمس : أي الذين قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون فالمراد من المكان المكانة وما عليه قارون من الإمارة والزينة والمال والجاه.

ويكأن الله يبسط : أي أعجبُ عالماً أن الله يبسط الرزق لمن يشاء .
ويقدر : أي يضيق .

ويكأنه لا يفلح الكافرون : أي أعجب عالماً أنه لا يفلح الكافرون أي أنهم لا يفوزون بالنجاة من النار ودخول الجنان كما يفوز المؤمنون .

(4/101)

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص قارون الباغي قال تعالى {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ (1)} أي قارون في يوم عيد أو مناسبة خرج على قومه وهم يشاهدون موكبه {فِي زِينَتِهِ} الخاصة من الثياب والمراكب. قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي من قوم موسى وهم المفتونون بالدنيا وزخرفها من أهل الغفلة عن الآخرة وما أكثرهم اليوم وقبل وبعد اليوم قالوا ما أخبر الله به عنهم: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} تمنوا أن يكون لهم مثل الذي أوتي قارون من المال والزينة {إِنَّهُ لُدُو حَظٌّ (2) عَظِيمٌ} أي بخت ونصيب ورزق {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} أي الشرعي (3) الديني العالمون بالدنيا والآخرة، وأسباب السعادة والشقاء في كل منهما قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم في قوله: {وَيُلَكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} ويحكم هلكتم إن كنتم تؤثرون هذا الفاني على الباقي {ثَوَابَ اللَّهِ} وهو الجنة خير من هذا الزخرف الفاني {لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} ولازم ذلك أنه ترك الشرك والمعاصي، وقوله تعالى: {وَلَا يُقَالُهَا} أي (4) هذه الجملة من الكلام: {ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ} بربه {وَعَمِلَ صَالِحًا} في حياته بأداء الفرائض والنوافل وترك المحرمات والرذائل أي لا يلقى هذه الكلمة {إِلَّا الصَّابِرُونَ} من أهل الإيمان والتقوى هم الذين يلقنهم الله إياها فيقولونها الصفاء أرواحهم وزكاة أنفسهم وقوله تعالى في الآية (81) {فَحَسَبْنَا بِهِ (5) وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} يخبر تعالى أنه خسف بقارون وبداره الأرض انتقاماً منه لكفره ونفاقه وبغيه وكبريائه. وقوله تعالى {فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ} أي جماعة {يُبْصِرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} لما أراد الله خذلانه بخسف الأرض به وبداره ومن فيها من أعوانه الظلمة والمجرمين. {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} أي لنفسه فنجأها مما حل بها من الخسف في باطن الأرض التي ما زال يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ} (6) يخبر تعالى

1 - لم تؤثر فيه موعظة واعظيه ولم ينتفع منها بشيء لظلمة نفسه وقساوة قلبه لما ران عليه من الذنوب فخرج مظهر الكبرياء والتحدي.

2 - الحظ: القسم الذي يعطاه المقسوم له.

- 3 - في الآية دليل قوي على أن الجهل بالله وشرائعه ووعده ووعيده هو سبب كل شر وفساد في الأرض، وأن العلم بذلك هو سبيل الإصلاح في الأرض.
- 4 - (يلقاها) الضمير عائد على ما دل عليه قولهم: (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وهو هذه الموعظة، ولا يلهمها وتلقى في روعه وينطق بها إلا أهل الصبر على الطاعات وعن المعاصي فتصفو لذلك نفوسهم فيلهمون مثل هذه الموعظة.
- 5 - الفاء هنا: للترتيب والتعقيب فقد خسف به يوم خروجه في زينته.
- 6 - أي: تمنوا منزلته بين الناس، وهي منزلة المال والترف والجاه والرفعة ومعنى: مكانه: ما كان عليه من منزلة العلو والرفعة.

(4/102)

عن الذين قالوا يوم خرج عليهم قارون في زينته يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون يخبر تعالى عنهم أنهم لما شاهدوا الخسف الذي حل بقارون وبدره قالوا ويكأن الله (1) يبسط الرزق لمن يشاء أي نعجب عالمين، أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (2) أي على من يشاء فالبسط والقبض كله لله ويبيد الله فما لنا لا نفرع إلى الله نطلب رضاه ولا نتمنى ما تمنينا وقد أصبح ذاهباً لا يرى بعين ولا يلمس بيدين، { لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَافئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } (3) أي نعجب أيضاً عالمين بأنه لا يفلح الكافرون كقارون وهامان أي لا يفوز الكافرون لا بالنجاة من العذاب ولا بدخول الجنان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن الفتنة أسرع إلى قلوب الماديين أبناء الدنيا والعياذ بالله تعالى.
- 2- بيان موقف أهل العلم الديني وأنها رثد أي حكماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.
- 3- بيان أن البغي يؤخذ به البغاة في الدنيا ويعذبون به في الآخرة.
- 4- بيان أن وجود الإيمان خير من عدمه وإن قل وأن ذا الإيمان أقر على التوبة ممن لا إيمان له.
- تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِبِينَ (83)
- مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84)

- 1 - (ويكأن الله) قيل: ويكأن: مركبة من وي وهو اسم فعل بمعنى أعجب وكاف الخطاب وأن الناصبة، ومعنى الكلام: أعجب يا هذا من بسط الرزق لمن شاء، قال عنتره، والشاهد في قوله:

ويك، قال:

ولقد سقا نفسي وأبرأ سقمها

قبل الفوارس ويك عنتر أقدم.

وذهب بعض إلى أن أصل ويك: ويك اعلم أنه كذا فحذفت اللام والفعل، فصارت ويك.

2 - أي: يضيق الرزق ولا يوسعه.

3 - أي: لولا أن من الله فعافانا مما ابتلى قارون به من المال والظلم والطغيان لحل بنا ما حل به

من الخسف والخسران.

(4/103)

شرح الكلمات:

تلك الدار الآخرة: أي الجنة، دار الأبرار.

لا يريدون علواً في الأرض : أي بغياً ولا استطالة على الناس.

ولا فساداً : أي ولا يريدون فساداً بعمل المعاصي.

والعاقبة: أي المحمودة في الدنيا والآخرة.

للمنتقين: الذين يتقون مساخط الله فلا يعتقدون ولا يقولون ولا يعملون ما لا يرضى به الله تعالى.

من جاء بالحسنة : أي يوم القيامة والحسنة: أثر طاعة الله تعالى يجزى به المؤمن.

فله خير منها : أي تضاعف له عشرة أضعاف.

ومن جاء بالسيئة: السيئة أثر معصية الله تعالى يعاقب به العبد إذا لم يعف الله تعالى عنه.

معنى الآيات:

لقد تقدم في السياق أن ثواب الله وهو الجنة خير لمن آمن وعمل صالحاً فأشار إليه تعالى بقوله {تِلْكَ (1) الدَّارُ الْآخِرَةُ} التي هي الجنة آخر دار يسكنها المتقون فلا يخرجون منها. نجعلها، هذا هو

الخبر عن قوله تلك الدار الآخرة فأخبر تعالى أنه يجعلها مأوى ومسكناً للذين لا يريدون علواً (2) في

الأرض ولا فساداً، لا يريدون استطالة على الناس وتعالياً وتكبراً عليهم وبغياً، ولا فساداً بارتكاب

المعاصي كالقتل والزنا والسرقه وشرب الخمر، وقوله تعالى: {وَالْعَاقِبَةُ (3) لِلْمُتَّقِينَ} أي والعاقبة

المحمودة في الدارين لأهل الإيمان والتقوى وهم المؤمنون الذين يتقون مساخط الله عز وجل، وذلك

بفعل المأمورات واجتناب المنهيات. وقوله تعالى: {مَنْ جَاءَ} أي يوم القيامة {بِالْحَسَنَةِ} وهي

الطاعات لله ورسوله {فَلَهُ} جزاء مضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها وقد تضاعف إلى أكثر بشرط أن لا

تكون حسنة أعطيت له من حسنات ظالم في الدنيا فهذه لا تتضاعف. إذ تضاعف الحسنة التي

باشرها، كما

- 1 - الجملة ابتدائية وهو بدء مشوق، قرأ الفضل بن عياض هذه الآية ثم قال: ذهب الأمانى ها هنا أي: أمانى الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء وأن المؤمنين كلهم ناجون من العقاب.
- 2 - روى سفيان بن عيينة أن عليا بن الحسين وهو راكب مرَّ على مساكين يأكلون كسرا لهم فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم فتلا هذه الآية: (تلك الدار الآخرة ..) إلى (فساداً) ثم نزل وأكل معهم.
- 3 - الجملة تذييلية تقرر حقيقة أخرى وهي الإشارة بالتقوى والعاقبة المحمودة في الدارين لأهل التقوى.

(4/104)

لا تضاعف حسنة من همَّ بحسنة ولم يعملها فإنها تكتب له حسنة ولا تضاعف لعدم مباشرته إياها وقوله {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ} أي يوم القيامة. والسيئة أثر معصية الله تعالى ورسوله في نفسه {فَلَا يُجْزَى} إلا مثلها أي لا تضاعف عليه وذلك لعدالة الله تعالى ورأفته بعباده، وهو معنى قوله تعالى {فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ} من الشرك والمعاصي {إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي في الدنيا إذ هي دار العمل والآخرة دار الجزاء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة التكبر والاستطالة على الناس، والعمل بالمعاصي، وأنه الفساد في الأرض.
 - 2- بيان فضل الله ورحمته وعدله بين عباده بمضاعفة الحسنات وعدم مضاعفة السيئات.
 - 3- العاقبة الحسنى وهي الجنة لأهل الإيمان والتقوى.
- إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) (وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

شرح الكلمات:

إن الذي فرض عليك القرآن : أي الله الذي أنزل عليك القرآن وفرض عليك قراءته والعمل بما فيه وتبليغه.

لرأدك إلى معاد : أي لمرجعك إلى مكة فاتحاً إذ معاد الرجل بلده الذي يعود إليه.

(4/105)

وما كنت ترجو : أي تأمل أن ينزل عليك القرآن ويوحى به إليك.
إلا رحمة من ربك : لكن رحمة من الله وفضل أنزله عليك.
فلا تكونن ظهيراً : أي فمن شكر هذه النعمة ألا تكون معينا للكافرين.
ولا يصدنك : أي لا يصرفنك عن العمل بآيات الله بعد أن شرفك الله بإنزالها عليك.
وادع إلى ربك : أي ادع الناس إلى الإيمان بالله وعبادته وترك الشرك به.
ولا تدع مع الله إلهاً آخر : أي لا تعبد مع الله إلهاً آخر بدعائه والذبح والنذر له.
كل شيء هالك : أي فان.
إلا وجهه : أي إلا الله سبحانه وتعالى فلا يهلك كما يهلك ما عداه.
معنى الآيات:

تقدم في السياق الكريم الدعوة إلى أصول الدين الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث والجزاء وهذه خاتمة ذلك في هذه السورة الكريمة فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي (1) فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ} أي أنزله عليك وفرض عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، {لِرَادُّكَ} أي لمرجعك (2) {إِلَى مَعَادٍ (3)} وهو العودة إلى مكة بعد خروجك منها واشتياقك إلى العودة إليها وإلى الجنة بعد وفاتك لأنك دخلتها ليلة عُجْر بك إلى السماء وفي هذا تقرير لنبوته صلى الله عليه وسلم بالوحي إليه، وقوله تعالى: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} فإنه تعليم له صلى الله عليه وسلم بما يرد به على المشركين الذين اتهموه بأنه ضال في دعوته وخروجه عن دين آبائه وأجداده علمه أن يقول لهم ربي أعلم بمن جاء بالهدى وهو أنا، رسول الله، ومن هو في ضلال مبين وهو أنتم أيها المشركون. وقوله {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ} أي وما كنت يا محمد تأمل أن ينزل عليك القرآن، وذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، وقوله {إِلَّا رَحْمَةً مِنْ (4) رَبِّكَ} أي لكن رحمة ربك عليك اقتضت إنزاله عليك لتكون رسول الله للعالمين، وهي نعمة كبيرة وإفضال عظيم فاشكره بما يلي:

(1) {فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ} أي عوناً لهم بحال من الأحوال.

1 - ختمت هذه السورة المكية بخاتمة نزلت بالمدينة، وهي بشرى له صلى الله عليه وسلم بأن مرده إلى مكة فاتحاً قاهراً غالباً وحقق الله تعالى له ذلك فبعد ثمان سنوات من هجرته ظهر مصداق هذه البشرى.

2 - مرجعك: اسم فاعل من أرجعه الرباعي فهو مرجع له.

3 - وفسر المعاد بالجنة لأنه دخلها ليلة المعراج، وأخرج منها وبقيت نفسه ملتصقة بها فيشر بأن الله تعالى سيرده إليها.

4 - الاستثناء منقطع لذا فسر بلكن.

(2) {وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ} فنترك تلاوتها وإبلاغها والعمل بها. وفي هذا تقرير للنبوة المحمدية.

(3) {وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ} ادع الناس إلى توحيد ربك والعمل بشرعه.

(4) {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي فنتبرأ منهم ولا ترضى بشركهم وادعهم إلى خلافه وهو التوحيد.

(5) {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} أي لا تعبد مع الله إلهاً آخر لا بالدعاء ولا بالندى والذبح ولا بتقديم أي قربان أو طاعة لغير الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تقرير للتوحيد وقوله {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} تقرير للتوحيد بإبطال أن يكون هناك إله مع الله.

وقوله {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (1)} يخبر تعالى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل زاهب بلا مثوبة عليه. كما أن كل شيء سوى الله عز وجل فإن لم يبق إلا الله سبحانه وتعالى كقوله {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} و {لَهُ الْحُكْمُ} أي القضاء العادل بين عباده وقوله {وَأَلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي بعد الموت للحساب والجزاء يوم بعثكم وحشركم إليه عز وجل، وفي هذا تقرير للبعث والجزاء. والحمد لله أولاً وآخراً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- معجزة القرآن في وقوع الغيب بعد الإخبار به وذلك حيث عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد الخروج منها.
- 2- مشروعية الملاينة في الجدل والمناظرة أثناء الدعوة باستعمال أسلوب التشكيك.
- 3- حرمة معاونة الكفار ومناصرتهم لا سيما ضد المؤمنين.
- 4- وجوب الثبات والصبر على الدعوة حتى نجاحها ببلوغها الناس واستجابتهم لها.
- 5- تقرير التوحيد والبعث والنبوة المحمدية.
- 6- فناء كل شيء إلا الله تعالى إلا ما ورد الدليل بعدم فناءه وعدّه منه ثمانية نظّمها بعضهم بقوله:
هي العرش والكرسي نار وجنة
وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

1- قال مجاهد: معناه إلا هو، وقال سفيان، وأبو العالية: إلا ما أريد به وجهه أي: ما يفعل من الطاعات لأجله، كما قال الشاعر:

استغفر الله ذنباً لست مُحصيه
ربّ العباد إليه الوجه والعمل

(4/107)

سورة العنكبوت

...

سورة العنكبوت

مكية (1)

وآياتها تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم(1) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(4)
مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ
اللَّهَ لَعَنِيَّ عَنِ الْعَالَمِينَ(6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(7)

شرح الكلمات:

الم: هذه أحد الحروف المقطعة تكتب الم وتقرأ ألف لام ميم.

وهم لا يفتنون: أي لا يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم من التكاليف ومنها الصبر على الأذى.

ولقد فتنا الذين من قبلهم: أي اختبرنا من قبلهم إذ هي سنة جارية في الناس.

فليعلمن الذين صدقوا: أي في إيمانهم، وليعلمن الذين كذبوا فيه بما يظهر من أعمالهم.

أن يسبقونا: أي يفوتونا فلا ننتقم منهم.

1 - روي أن الآيات الأولى منها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة، وقال علي بن

أبي طال: نزلت بين مكة ومدينة.

(4/108)

ساء ما يحكمون: أي بئس الحكم هذا الذي يحكمون به، وهو حسبانهم أنهم يفوتون الله تعالى ولم يقدر على الانتقام منهم.

من كان يرجوا لقاء الله : أي من كان يؤمن ببقاء الله وينتظر وقوعه فليعلم أن أجله لآت فليستعد له بالإيمان وصالح الأعمال.

ومن جاهد : أي بذل الجهد في حرب الكفار أو النفس.

فإنما يجاهد لنفسه : أي منفعة الجهاد من الأجر عائدة على نفسه.

ولنجزينهم : أي ولنجزينهم على أعمالهم بأحسن عمل كانوا عملوه.

معنى الآيات:

الم : الله أعلم بمراده به وهذا هو مذهب السلف في هذه الحروف وهو تفويض علمها إلى منزلها عز وجل وقوله {أَحْسِبَ (1) النَّاسُ} أي أظن الناس {أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا} فيكتفى منهم بذلك {وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} أي لا يختبرون بل لا بد من اختبار بالتكاليف الشاقة كالهجرة والجهاد والصلاة والصيام والزكاة وترك الشهوات والصبر على الأذى. والآية نزلت في مثل عمار بن ياسر وبلال وعياش فإنها عامة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، واللفظ عام هنا، لأن اسم الجنس إذا دخلت عليه "أل" أفادت استغراق جميع أفرادها. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ (2) مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم السابقة فهي إذا سنة ماضية في الناس لا تتخلف. وقوله تعالى {فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} في إيمانهم أي يظهر ذلك (3) ويعلمه مشاهدة بعد أن علمه قبل إخراجه إلى الوجود حيث قدر ذلك وكتبه في كتاب المقادير وذلك بتكليفهم وقيامهم بما كلفوا به من

1 - قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مسلية للمعذبين بمكة المتخلفين عن الهجرة وهم: سلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وياسر أبوه وسمية أمه إذ كانت صدورهم تضيق بالعذاب وربما استتكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين.

2 - روى البخاري عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا له: ألا تستتصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" وروى ابن ماجة عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابةً اشتد بلاءه وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة!!".

3 - وفي الحديث: "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها" أي أظهرها عليه.

شاق الأفعال وشاق التروك، إذ الهجرة والجهاد والزكاة أفعال، وترك الربا والزنا والخمر تروك {وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ} حيث ادعوا للإيمان ولما ابتلوا بالتكاليف لم يقوموا بها، فبان بذلك عدم صدقهم وإنهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون. وقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا (1)} أي أظن {يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} من الشرك والمعاصي {أَنْ يَسْبِقُونَا} أي يفوتونا فلم نأخذهم بالعذاب. {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} به لأنفسهم أي قبح حكمهم هذا من حكم لفساده، إذ أقاموه على ظن منهم أن الله تعالى لا يقدر عليهم وهو على كل شيء قدير وأنه لا يعلمهم وهو بكل شيء عليم. وقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ (2) اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} أي {مَنْ كَانَ} يؤمن ويؤمل لقاء الله وذلك يوم القيامة فليعلم أن أجل الله المضروب لذلك لآت قطعاً وعليه فليستعد للقائه بما يناسبه وهو الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والعمل الفاسد، ومن هنا دعوى المرء أنه يرجو لقاء ربه ولم يعمل صالحاً يثاب عليه، دعوى لا تصح قال تعالى في سورة الكهف {.. فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (110) وقوله {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي هو تعالى السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأعمالهم، فدعوى الإيمان ظاهرة من العبد أو باطنة لا قيمة لها ما لم يقم صاحبها الدليل عليها وذلك بالإيمان الجهاد للعدو (3) الظاهر والباطن. وقوله تعالى: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} أي منفعة هذه العبادة عائدة على العبد نفسه أما الله عز وجل فهو في غنى عن عمل عباده غنى مطلقاً وهذا ما دل عليه قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {الملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات إذ كل ما سوى الله تعالى عالم ويجمع على عوالم وعالمين (4)}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} هذا وعد من الله تعالى لمن آمن من عباده وذلك على إيمانه وصالح عمله فعلاً وتركاً بأنه يكفر عنه سيئاته التي عملها قبل الإسلام وبعده. ومعنى يكفرها عنهم يغطيها ويسترها ولم يطالبهم بها كأنهم لم يفعلوها. وقوله {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ} أي على أعمالهم الصالحة {أَحْسَنَ} أي بأحسن عمل عملوه فتكون أعظم ما تكون مضاعفة. وهذا من تكرمه على عباده الصالحين ليجزي بالحسنة أضعافها مئات المرات.

1- قال ابن عباس: المراد بهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل والأسود بن العاص بن هشام وشيبة

وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل.

2 - قال القرطبي: أجمع أهل التفسير على أن المعنى من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه.

- 3 - المراد بجهاد العدو الظاهر الكفار والباطن النفسي.
4 - جمع ملحق بمذكر سالم نحو: الحمد لله رب العالمين.

(4/110)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة أن الإيمان يصدق بالأعمال أو يكذب.
 - 2- بيان إمكان التكليف بما يشق على النفس فعله أو تركه ولكن ليس بما لا يطاق.
 - 3- تحذير المغترين من العقوبة وإن تأخرت زمنا ما فإنها واقعة لا محالة.
 - 4- ثمره الجهاد عائدة على المجاهد نفسه. فلذا لا ينبغي أن يمنها على الله تعالى بأن يقول فعلت وفعلت.
 - 5- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكفير السيئات والجزاء الأحسن وهذا يتم يوم البعث.
- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10)
- وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

(4/111)

شرح الكلمات:

- ووصينا الإنسان: أي عهدنا إليه بطريق الوحي.
بوالديه حسنا: أي إيصاء ذا حسن، وذلك ببرهما وعدم عقوقهما.
وإن جاهداك: أي بذلا الجهد في حملك على أن تشرك.

لندخلنهم في الصالحين : أي لندخلنهم مدخلهم في الجنة.
فتنة الناس: أي أذاهم له.

كعذاب الله : أي في الخوف منه فيطيعهم فيناقق.

إنا كنا معكم: أي في الإيمان وإنما أكرهنا على ما قلنا بالسنتنا.
اتبعوا سبيلنا : أي ديننا وما نحن عليه.

ولنحمل خطاياكم : أي ليكون منكم اتباع لسبيلنا وليكن منا حمل لخطاياكم، فالكلام خبر وليس
إنشاء.

وليحملن أثقالهم : أي أوزارهم، والأوزار الذنوب.

وأثقالاً مع أثقالهم : أي من أجل قولهم للمؤمنين اتبعوا سبيلنا.

عما كانوا يفترون : أي يكذبون.

معنى الآيات:

هذه الآيات نزلت في شأن (1) سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه حمنة بنت أبي سفيان ما
هذا الدين الذي أحدثت والله لا أكل ولا أشرب حتى ترجع إلي ما كنت عليه أو أموت فتُعيّر بذلك أبد
الدهر يقال يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم

1 - روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت في أربع آيات فذكر قصته قال: قالت أم
سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال:
فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فإها فنزلت هذه الآية.

(4/112)

تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد إليها وقال: يا
أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي،
فلما أيست منه أسلمت وأكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} أي عهدنا
إليه بواسطة الرسل إيصاءً ذا حسن وهو برهما بطاعتهما في المعروف وترك أذاهما ولو قل،
وإيصال الخير بهما من كل ما هو خير قولاً كان أو فعلاً. وقوله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ} أي بذلا
جهدهما في حملك على أن تشرك بي شيئاً من الشرك أو الشركاء فلا تطعهما كما فعل سعد بن أبي
وقاص مع والدته في عدم إطاعتها. وقوله {إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ} أولاداً والدين {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}
وأجزيكم به فلذا قدموا طاعتي على طاعة الوالدين، فإني أنا الذي أحاسبكم وأجزيكم بعملكم أنتم
وإياهم على حد سواء. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا} أي بالله ورسوله {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} التي هي

العبادات التي تعبد الله تعالى بها عباده المؤمنين، فشرعها لهم وبينها رسوله صلى الله عليه وسلم كالذكر وقراءة القرآن والصلاة والصيام والصدقات والجهاد والحج وما إلى ذلك. هؤلاء الذين جمعوا بين الإيمان الحق والعمل الصالح الخالي من الشرك والرياء. يقسم الله تعالى أنه يدخلهم في مدخل الصالحين وهم الأنبياء والأولياء في الجنة دار السلام. وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ (1) مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} الآية هذه نزلت في أناس كانوا بمكة وآمنوا وأعلنوا عن إيمانهم فاضطهدهم المشركون فكانوا ينافقون فأخبر تعالى عنهم بقوله: {مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} أي آذاه المشركون نافق وارتد {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ} أي أذاهم له وتعذيبهم إياه {كَعَذَابِ اللَّهِ} يوم القيامة فوافق المشركين على الكفر. وقوله تعالى: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي على الإيمان وإنما كنا مكرهين وهذه نزلت فيمن خرجوا من مكة إلى بدر مع المشركين لما انهزم المشركون وانتصر المسلمون وأسروا قالوا {إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي على الإيمان فرد الله تعالى دعواهم بقوله {أَوَلَيْسَ (2) اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أي الناس. وقوله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} تقرير لما سبق في الآية قبل ولينترتب عليه الجزاء على الإيمان وعلى النفاق. فعلمه تعالى يستلزم الجزاء العادل فأهل الإيمان يجزيهم بالنعيم المقيم وأهل النفاق يجزيهم بالعذاب المهين. أولئك في دار السلام وهؤلاء في دار البوار. وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا} أي ديننا

1 - قال الضحاك هذه الآية نزلت في ناس من المنافقين في مكة كانوا يؤمنون فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك.

2 - الاستفهام للتقرير فلذا يجاب ببلى.

(4/113)

وما نحن عليه {وَلَنُحْمِلُ (1) خَطَايَاكُمْ} قال رؤساء قريش لبعض المؤمنين اتركوا سبيل محمد ودينه واتبعوا سبيلنا وديننا، وإن كان هناك بعث وجزاء كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم - نحن مستعدون أن نتحمل خطاياكم ونجازي بها دونكم فأكذبهم الله تعالى بقوله: {وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ} و {إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} في قولهم ولنحمل خطاياكم. وقال تعالى مقسما بعزته وجلاله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ} أي أوزارهم {وَأَنْتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} أي أوزاراً أي ذنوباً مع أوزارهم التي هي ذنوبهم وذلك من أجل ما قالوا لهم. {وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي يكذبون من أنهم يحملون خطايا المؤمنين يوم القيامة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب بر الوالدين في المعروف وعدم طاعتها فيما هو منكر كالشرك والمعاصي.
- 2- بشرى المؤمنين العاملين للصالحات بإدخالهم الجنة مع النبيين والصديقين.
- 3- ذم النفاق وكفر المنافقين وإن ادعوا للإيمان فما هم بمؤمنين.
- 4- بيان ما كان عليه غلاة الكفر في مكة من العتو والطغيان.
- 5- تقرير مبدأ من سن سنة سيئة فعلية وزررها ووزر من عمل بها كما في الحديث الصحيح (2) .
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14)
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

1 - جزم الفعل (ولنحمل) على الأمر، قال الفراء والزجاج: هو في تأويل الشرط والجزاء أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال مدثر بن شيبان الضمري:

تقول خليلتي لما اشتكتنا

سيدركنا بنو القرم الهجان

فقلت ادعي وادع فإن أئدى

لصوت أن ينادى داعيان

أي: إن دعوت دعوت.

2 - نص الحديث كما هو في الصحيح: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير ينقص من آثامهم شيئا" وفي الصحيح أيضا "ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل".

(4/114)

شرح الكلمات:

ولقد أرسلنا نوحاً : أي نوحا بن لَمَك بن مُتَوَشَلُخ بن إدريس من ولد شيث بن آدم، بينه وبين آدم ألف سنة.

فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما: أي فمكث فيهم يدعوهم إلى الله تعالى تسعمائة وخمسين سنة. فأخذهم الطوفان : أي الماء الكثير الذي طاف بهم وعلاهم فأغرقهم.

وهم ظالمون : أي مشركون.

وجعلناها آية للعالمين : أي عبرة للناس يعتبرون بها فلا يشركون ولا يعصون.

معنى الآيتين:

لما ذكر تعالى ما كان يلاقيه رسوله والمؤمنون من مشركي قريش ذكر تعالى نوحاً وإبراهيم وكلاهما قد عانى ولاقى ما لم يلاقه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليكون ذلك تسلياً لهم وتخفيفاً عنهم فقال تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (1) } وقوم نوح يومئذ هم البشرية جمعاء. إذ لم يكن غيرهم { قَلِبَتْ فِيهِمْ } أي مكث يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده فيها وترك الأصنام الخمسة التي كانت لهم وهي ود وسواع ويغووث ويعوق ونسر، وكان هؤلاء الخمسة رجالاً صالحين فلما ماتوا بنوا على قبورهم ووضعوا لهم تماثيل بحجة أنها تذكرهم بالله فيرغبوا في الطاعة والعمل الصالح ثم زين لهم الشيطان عبادتهم فعبدوهم فبعث الله تعالى إليهم نوحاً رسولاً فدعاهم إلى عبادة الله وترك عبادة هؤلاء { قَلِبَتْ فِيهِمْ أَلْفَ (2) سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا } يدعوهم فلم يستجيبوا له { قَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ } فاستجاب الله له فأنجاه وأصحاب السفينة وهم المؤمنون وهلك في الطوفان زوجته وولده كنعان وسائر البشر إلا نوحاً

- 1 - روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أول نبي أرسل واختلف في سني عمره: فروي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما بعث الله نوحاً إلى قومه وبعثه وهو ابن لخمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال: يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا؟ قال مثل رجل بنى له بيتاً له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر".
- 2 - العدول عن السنة إلى العام حتى لا يحصل تكرار في لفظ السنة وهو من بلاغة الكلام.

(4/115)

ومن معه في السفينة، وكانوا قرابة الثمانين نسمة، وخلف نوحاً ثلاثة أولاً هم سام وهو أبو العرب وفارس والروم وهم الجنس السامي وحام وهو أبو القبط والسودان والبربر ويافث وهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، هذا معنى قوله تعالى: { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ (1) ظَالِمُونَ } أي لأنفسهم بالشرك. { أَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ (2) } ومن بين ما فيها أبناؤه الثلاثة سام وحام ويافث ومنهم عمر الكون بالبشر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وقوله { وَجَعَلْنَاهَا آيَةً (3) لِلْعَالَمِينَ } أي حادثة الطوفان ومنها السفينة ومكث تلك المدة الطويلة مع قلة المستجيبين { آيَةً } أي عبرة { لِلْعَالَمِينَ } أي للناس ليعتبروا بها فلا يعصوا رسلهم ولا يشركون بربهم هذا إذا اعتبروا وقليل من يعتبر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله تعالى في إرسال الرسل لهداية الخلق.

2- بيان قلة من استجاب لنوح مع المدة الطويلة فيكون هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعد.

3- بيان إهلاك الله تعالى للظالمين وإنجائه المؤمنين وهي عبرة للمعتبرين.
وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16)
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تَكْذَبُوا

- 1 - الطوفان مأخوذ من أطاف بالشيء يطيف وهو كطاف يطوف طوفاً وطوفانا قال النحاس يقال: لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان.
- 2 - في البخاري أن قتادة قال: بقيت السفينة على الجودي حتى نظرتها أوائل هذه الأمة. وقيل: إنها دامت إلى أوائل الدولة العباسية ثم غمرتها الثلوج، وكان الجودي الذي رست فوقه قرب (باقردي) وهي قرية من جزيرة بن عمر بالموصل شرقي دجلة.
- 3 - الضمير في: (وجعلناها) عائد إلى السفينة، وما في التفسير أعم وأشمل.

(4/116)

فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

شرح الكلمات:

وإبراهيم: أي واذكر إبراهيم على قراءة النصب لإبراهيم، وعلى قراءة الرفع: ومن المرسلين إبراهيم.
اعبدوا الله واتقوه: أي آمنوا به ووجدوه في عبادته واتقوا أن تشركوا به وتعصوه.
أوثاناً: أي أصناماً وأحجاراً وصوراً وتمائيل.
وتخلفون إفكاً: أي تختلقون الكذب فتقولون في الأصنام والأوثان آلهة وتعبدونها.
فابتغوا عند الرزق: أي اطلبوا الرزق من الله الخلاق العليم لا من الأصنام والتماثيل المصنوعة المنحوتة بأيدي الرجال بالمعاول والفؤوس.
واعبدوه: أي بالإيمان به وتوحيده واشكروه بطاعته.
وإن تكذبوا: أي يا أهل مكة بعد هذا الذي عرضنا عليكم من الآيات والعبر فقد كذب أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ.
وما على الرسول: أي محمد صلى الله عليه وسلم.
إلا البلاغ المبين: وقد بلغ وبين فبرئت ذمته وأنتم المكذبون ستحل بكم نقمة الله.
معنى الآيات:

هذا القصص معطوف على قصص نوح لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولتذكير

قريش بأنها في إصرارها على الشرك والتكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم صائرة إلى ما صار إليه المكذبون من قبل إن لم تنب إلى الله وترجع إليه بالإيمان والطاعة وترك الشرك والمعاصي قال تعالى: {وَابْرَاهِيمَ} أي (1) واذكر يا رسولنا إبراهيم خليلنا {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} البابلين ومن بينهم والده آزر يا قوم {اعْبُدُوا اللَّهَ} أي بتوحيده في عبادته {وَأَنْقُوهُ} بترك الشرك والعصيان وإلا حلت بكم عقوبته ونزل بكم عذابه وقوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ} أي الإيمان والتوحيد والطاعة خير لكم من الكفر والشرك والعصيان. إذ الأول يجلب الخير والثاني يجلب الشر {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} الخير

1 - ويجوز أن يكون منصوبا بـ (أنجينا) معطوفا على الهاء.

(4/117)

والشر وتفرقون بينهما وقوله عليه السلام {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} يخبرهم معرفا لهم بخطئهم فيقول {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ} (1) مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} أي أصناماً (2) وتمائيل وعبادة الأصنام والأوثان عبادة باطلة لا تجلب لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضرراً. إن الذي يجب أن يعبد الخالق الرازق الضار النافع المحيي المميت السميع البصير. أما الأوثان فلا شيء في عبادتها إلا الضلال واتباع الهوى. وقوله لهم {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} أي وتصنعون كذبا تختلقونه اختلاقاً عندما تقولون في التماثيل والأصنام إنها آلهة. وقوله عليه السلام لقومه {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا} يخبرهم عليه السلام معرفا لهم بحقيقة هم عنها غافلون وهي أن الذين يعبدونهم من دون الله لا يملكون لهم رزقاً لأنهم لا يقدرين على ذلك فما الفائدة إذاً من عبادتهم وما الحاجة الداعية إليها لولا الغفلة والجهل، ولما أبطل لهم عبادة الأصنام أرشدهم إلى عبادة الله الواحد القهار فقال {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} إن كنتم عبدتم الأصنام لذلك فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين فاطلبوا عنده الرزق فإنه مالكه والقادر على إعطائه {وَاعْبُدُوهُ} بالإيمان به وبرسوله وبتوحيده {وَاشْكُرُوا لَهُ} (3) {يرزقكم ويحفظ أنهم إليه تعالى لا إلى غيره يرجعون. إذاً فليتعرفوا إليه ويعبدوه طلباً لرضاه وإكرامهم يوم يلقونه. وقوله تعالى {وَإِنْ تُكَذَّبُوا} أي يا أهل مكة رسولنا وتكفروا وحيناً وتكفروا بلقائنا فلستم وحدكم في ذلك {فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ} قوم نوح وعاد وفرعون وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وغيرهم {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ} (4) {أي رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم {إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} وقد بلغكم وأنتم الآن بين خيارين لا ثالث لهما: الأول أن تتعظوا بما أسمعناكم وأريناكم من آياتنا فتؤمنوا وتوحدوا وتطيعوا فتكملوا وتسعدوا وإما أن (5) تبفوا على إصراركم على الشرك والكفر العصيان فسوف يحل بكم ما حل بأمثالكم، إذ كفاركم ليسو بخير من كفار أولئك الذين انتقم الله منهم وأذاقهم سوء العذاب. هذا ما

دلت عليه الآية (18) وهي معترضة بين الآيات التي اشتملت على قصص

- 1 - إنما: ما: كافة أوثانا منصوب بـ (تعبدون).
- 2 - قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس والوثن ما اتخذ من حصى أو حجارة.
- 3 - سلك إبراهيم في دعوة قومه هذه سبيل الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان العوام، وعدى الشكر باللام لما تقيده اللام من الاختصاص أي: الاستحقاق.
- 4 - القصد من هذه الجملة: (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) إعلام المخاطبين بأن تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه نكاية به أو تشف منه، فإن كان من خطاب الله تعالى لقريش فالمراد من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان من كلام إبراهيم فالمراد به إبراهيم نفسه سلك فيه مسلك الإظهار في مقام الإضمار تنويحاً للأسلوب.
- 5 - أي: والثاني: أن تبقوا على إصراركم أعني الخيار الثاني بعد الأول.

(4/118)

إبراهيم عليه السلام. وسر الاعتراض هو وجود فرصة في سياق الكلام قد تلفت أنظار القوم وتأخذهم بقلوبهم إذ الآيات كلها مسوقة لهدايتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب عبادة الله وتقواه طلباً للنجاة من الخسران في الدارين.
 - 2- بطلان عبادة غير الله عن طريق الأدلة العقلية.
 - 3- ما عبد الناس الأوثان إلا من جهلهم وفقروهم فلذا يجب أن يعلموا أن الله هو ربهم المستحق لعبادتهم وأن الله تعالى هو الذي يسد فقرهم ويرزقهم ومن عداه لا يملك ذلك لهم
 - 4- وجوب شكر الله تعالى بحمده والثناء عليه ويطاعته وصرف النعم فيما من أجله أنعم بها على عبده.
 - 5- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتأنيب المشركين من أهل مكة.
- أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلَيْمٌ (23)

شرح الكلمات :

أو لم يروا : أي ينظروا بأبصارهم فيعلموا بقلوبهم.

(4/119)

يبدئ الله الخلق : أي كيف يخلق المخلوق ابتداء.
ثم يعيده : أي ثم هو تعالى يعيده بعد بدئه وإفناؤه يعيده لأن الإعادة أهون من البدء وقد بدأ وأفنى فهو بالضرورة قادر على الإعادة.
إن ذلك : أي أن الخلق الأول والثاني هو الإعادة.
على الله يسير : أي سهل لا صعوبة فيه، فكيف إذا ينكر المشركون البعث.
قل سيروا في الأرض: أي قل يا رسولنا لقومك المكذبين بالبعث سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق وأنشأه، تستدلون بذلك على قدرته على البعث الآخر.
ثم الله ينشئ النشأة الآخرة: أي يحيي الناس بعد موتهم وهو البعث الآخر الذي أنكره الجاهلون. وإليه تقلبون: أي ترجعون إليه لا إلى غيره أحياء كما كنتم فيحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم، الحسنه بخير منها والسيئة بمثلها جزاء عادلا.
وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء : أي بغالبيين ولا فائتين بالهروب فإن الله غالبكم. وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير : ليس لكم من ولي يتولاكم ولا نصير ينصركم من الله تعالى.
يئسوا من رحمتي : أي من دخول الجنة لأنهم كافرون أعظم كفر وهو التكذيب بالقرآن والبعث الآخر.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير أصول الدين التوحيد والنبوة البعث وقد قررت الآيات السابقة أصلي التوحيد والنبوة المحمدية وفي هذه الآيات تقرير الأصل الثالث وهو البعث والجزاء في

(4/120)

الدار الآخرة. قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا(1)} أي أولئك المنكرون للبعث، أي كذبون؟ ولم ينظروا كيف يبدئ الله الخلق أي خلق الإنسان، فإن ذلك دال على إعادته متى أراد الله الخالق ذلك، ثم هو تعالى يعيده

متى شاء، {إِنَّ ذَلِكَ} أي الخلق والإعادة بعد الفناء والبلى {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} سهل لا يتعذر عليه أبداً. وقوله تعالى: {قُلْ (2) سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} أي قل يا رسولنا للمكذابين بالبعث الآخر {سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} شرقاً وغرباً {فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} تعالى خلق تلك المخلوقات التي تشاهدونها من أرض، وسماء، وأنهار، وأشجار، وحيوان، وإنسان، إنها كلها كانت عدما فأنشأها الله تعالى ثم هو سيفنيها {ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ (3)} وذلك بأن يعيد حياة الإنسان ليحاسبه على كسبه في الدنيا ويجزيه به خيراً أو شراً، {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ (4) قَدِيرٌ} إذا فلا يستكر عليه إعادة الناس أحياء بعد نهاية هذه الحياة الدنيا ليحاسبهم ويجزيهم بما كانوا يعملون. وقوله تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} هذه فائدة وحكمة البعث الآخرة وهي المجازاة على العمل في هذه الحياة فيعذب أهل الكفر به ويرسوله والذين لم يزكوا أنفسهم بالإيمان وصالح الأعمال فيدخلهم في جهنم دار الشقاء والعذاب ويرحم أهل الإيمان والتقوى الذين زكوا أنفسهم بالإيمان والصلوات. وقوله: {وَالَّذِينَ يُقَلِّبُونَ} أي إلى الله ريكتم ترجعون بعد الموت والفناء وإنشاء النشأة الآخرة وقوله {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (5)} أي الله تعالى {فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} بل أنتم مقهورون له خاضعون لسلطانه لا يمكنكم من الهروب منه ولا الخلاص بحال من الأحوال. وليس لكم من دونه تعالى ولي يتولاكم فيدفع عنكم العذاب ولا نصير ينصركم فلا تُغلبون ولا تعذبون وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} التي جاءت بها

- 1 - الاستفهام للإنكار والتوبيخ لهم على عدم استعمال عقولهم إذ ينكرون البعث وأمامهم صور منه دالة عليه فهو يبدئ الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً ويخلق المرء ثم يميته بعد أن يخلق منه ولداً ويخلق من الولد ولداً، وهكذا تتكرر عملية البعث أمامهم فما لهم لا يرونها!؟
- 2 - هذا الأمر للإرشاد والتوجيه والنصح لو كانوا يعقلون.
- 3 - أظهر اسم الجلالة بعد تقديم ذكر ضميره في قوله: (كيف بدأ الخلق) ليحرك ضمائرهم باسم الجلالة ويدفع بنفوسهم إلى التسليم بالنشأة الآخرة بعد التسليم بالنشأة الأولى وهي بدء الخلق.
- 4 - الجملة تذييلية أعلن فيها عن قدرة الله الذي لا يعجزه شيء أراد: البدء كإعادة سواء.
- 5 - المعجزة: هو الذي يجعل غيره عاجزاً عن فعل ما وهو هنا كناية عن الغلبة والانتقال، قرر بهذه الجملة عجزهم التام في الأرض التي هم يسكنونها، وحتى في السماء لو فرض أنهم يرقونها وما هم بأهل لذلك كما قال الأعشى:
فلو كنت في جبّ ثمانين قامة
ورقيت أسباب السماء بسلم.

رساله {وَلِقَائِهِ} وهو البعث الآخر الموجب للوقوف بين يدي الله للسؤال والحساب والجزاء هذا إن كان للعبد ما يحاسب عليه من الخير، أما إن لم يكن له حسنات فإنه يلقى في جهنم بلا حساب ولا وزن إذ ليس له من الصالحات ما يوزن له ويحاسب به، ولذا قال تعالى: {أُولَئِكَ} أي المكذبون بآيات (1) الله ولقائه { أُولَئِكَ يَتَّبِعُوا مِنْ (2) رَحْمَتِي } إذ تكذيبهم بالقرآن مانع من الإيمان والعمل الصالح وتكذيبهم بيوم القيامة مانع لهم أن يتخلوا عن الشرك والمعاصي، أو يعملوا صالحاً من الصالحات لتكذيبهم بالجزاء، فهم يائسون من الجنة. {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي موجع وهو عذاب النار في جهنم والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب استعمال العقل للاستدلال على الغائب بالحاضر وعلى المعدوم بالموجود.
- 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء وذكر أدلتها التفصيلية.
- 3- تقرير عجز الإنسان التام وأنه لا مهرب له من الله تعالى ربه ومالكة وهي حال تستدعي الفرار إلى الله اليوم بالإيمان والتقوى.
- 4- إنذار المكذبين بأنهم إن ماتوا على التكذيب بالبعث لا يدخلون الجنة بحال، وسيعذبون في نار جهنم أشد العذاب.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25)

-
- 1 - المراد بآيات الله: القرآن الكريم: المشتمل على الأدلة البراهين والحجج الدالة على قدرة الله وعلمه وحكمته والمفصلة لأنواع عباداته.
 - 2 - أخبر عن يأسهم بالفعل الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه وإن كان المعنى أنهم سييأسون من رحمة الله التي هي الجنة لا محالة.

شرح الكلمات:

فما كان جواب قومه: أي قوم إبراهيم عليه السلام.

إلا أن قالوا اقتلوه: أي إلا قولهم اقتلوه أو حرقوه.

إن في ذلك لآيات : أي في كون النار لم تحرق الخليل ويخرج منها سالماً.

لقوم يؤمنون : لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالآيات لحياة قلوبهم.

أو ثانياً مودة بينكم : أي اتخذتم أوثانكم آلهة تتوادون من أجل عبادتها وتتحابون لذلك.

في الحياة الدنيا : أي هذا التوادد والتحاب على الآلهة في الحياة الدنيا فقط أما الآخرة فلا.

يكفر بعضهم ببعض : أي يكفر المتبوعون بأتباعهم ويتبرأون منهم.

ويلعن بعضهم بعضاً : يلعن الأتباع القادة الذين اتبعوهم في الباطل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص (1) إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه لما أفحمهم بالحجة وبين لهم باطلهم

وكشف لهم عن جهلهم وضلالهم لجأوا كعادة الطغاة من أهل الكفر والباطل إلى التهديد بالقوة فقالوا

ما أخبر به تعالى عنهم: أي {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} فما كان جوابهم أي عما سمعوا من الحجج

والبراهين على بطلان الشرك وصحة التوحيد {إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (2)} أي إلا قولهم اقتلوا

إبراهيم بالسيف ونحوه أو حرقوه بالنار، ونفذوا جريمتهم بالفعل وأوقدوا النار وألقوه فيها، وقال الله جل

جلاله للنار {فَلَمَّا يَأْتِ النَّارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} فكانت كما أمرت وخرج إبراهيم سالماً لم

تحرق النار سوى كتافه الذي شدّ به يداه ورجلاه. وهو ما دل عليه قوله تعالى {فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ}

وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي في كون النار لم تحرق إبراهيم فيتخلف طبعها

وتصبح برداً وسلاماً على إبراهيم فلم تحرقه، (آيات) أي دلائل قدرة الله تعالى ورحمته وحكمته ولكن

تلك الآيات لا ينتفع بها غير المؤمنين، لأنهم أموات لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون. أما

المؤمنون فهم أحياء فينتفعون بما يسمعون ويبصرون لأن الإيمان بمثابة

1 - عاد السياق الكريم إلى الحديث عن قصة إبراهيم بعد تلك الجمل الاعتراضية التي تخللت

القصة بقصد إثارة شعور قريش وتحريك ضمائرهم رجاء أن تطلب الهداية فتحصل عليها إذ هي

المقصودة من سوق القصة.

2 - ثم اتفقوا على تحريقه ونفذوا ما اتفقوا عليه فألقوه في النار ونجاه الله فله الحمد وله المنة.

الروح في البدن فإن وجد في القلب حيي الجسم وإن فارقه فالجسم ميت فلا العين تبصر الأحداث ولا الأذن تسمع الآيات. وقوله: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ (1) بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (2) هذا من جملة قول إبراهيم لقومه وهو يعظهم ويرشدهم فأخبرهم بحقيقة يتجاهلون لها وهي أنهم ما اتخذوا تلك الأوثان آلهة يعبدونها إلا لأجل التعارف عليها والتوادد والتحاب من أجلها، فيقيمون الأعياد لها ويجتمعون حولها فيأكلون ويشربون لا أنهم حقيقة يعتقدون أنها آلهة وهي أحجار نحتوها بأيديهم ونصبوها تماثيل في سوح دورهم وأمام منازلهم و {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي في الآخرة فالعكس هو الذي سيحدث لهم حيث {يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ (3) بَعْضُكُمْ بَعْضًا} أي يكفر المتبوعون وهم الرؤساء بمن اتبعوهم وهم الأتباع من الدهماء وعوام الناس، {ويلعن بعضكم بعضاً} كل من الأتباع والمتبوعين يطلب بعد الآخر عنه، وعدم الاعتراف به وذلك عند معاناة العذاب ولم تبق تلك الروابط والصلات التي كانت لهم في هذه الحياة!! وقوله: {وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ (4)} أي ومقرمك الذي يؤويكم جميعاً فتستقرون فيه هو النار {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} بعد أن أدلكم الله الذي أشركتم به أوثاناً، فجعلتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير أن الظلمة سنتهم أنهم إذا أعيتهم الحجج يلجأون إلى استعمال القوة.
- 2- في عدم إحراق النار دليل على أن الله تعالى قادر على إبطال السنن إذا شاء ذلك، ومن هنا تكون الكرامات والمعجزات إذ هي خوارق للعادات.
- 3- بيان أن الخرافيين في اجتماعهم على البدع لم يكن ذلك عن علم بنفع البدعة وإنما لعنصر التوادد والتعارف والتلاقي على الأكل والشرب كما قال إبراهيم لقومه {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

- 1 - قرأ نافع (مودة) بالتثوين منصوباً، وقرأ حفص بدون تثوين منصوباً مضافاً إلى الظرف، وقرأ ابن كثير وغيره (مودة) بالرفع مضاف إلى (ببينكم) على أنه خبر إن وما: اسمها.
- 2- قال القرطبي: معنى الآية: جعلتم الأوثان تتحابون عليها في الحياة الدنيا.
- 3 - قال القرطبي: تتبرأ الأوثان من عبادها، والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين).
- 4 - قيل: يحشرون في النار الرؤساء والأتباع والأوثان كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقوله (وقودها الناس والحجارة) وهي الأوثان كانت تعبد من دون الله عز وجل.

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

شرح الكلمات:

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ: أي آمن بإبراهيم لوط وهو ابن أخيه هاران ولم يؤمن من قومه سواه.
مهاجر إلى ربي: أي إلى حيث أعبد ربي فلا أفتن في ديني.
ووهبنا له إسحاق ويعقوب: أي هاجر لأجلنا فأكرمناه في دار هجرته فوهبنا له ذرية هم إسحاق الابن ويعقوب الحفيد.

في ذريته النبوة والكتاب: فكل الأنبياء بعده من ذريته وكل الكتب التي أنزلت بعده فهي في ذريته.
وأتيناه أجره في الدنيا: وذلك بالرزق الحسن والثناء الحسن على السنة كافة الناس من أهل الأديان الإلهية.

وإنه في الآخرة من الصالحين: أي هو أحدهم، فيكرم كما يكرمون بالدرجات العلاء، والصالحون هم أنبياء الله ورسله وأوليائه وصالحو عبادته.
معنى الآيات:

هذا آخر قصص إبراهيم الخليل في هذا السياق الكريم فأخبر تعالى أن إبراهيم بعد الجهاد الطويل في الدعوة إلى عبادة الرحمن الرحيم لم يؤمن له ولم يتابعه على الحق الذي دعا إليه إلا لوط بن هاران أخيه فقال تعالى: {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ} أي إبراهيم {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ (1) رَبِّي} فترك بلاد قومه من (2) سواد العراق وارتحل إلى أرض الشام فأكرمه الله تعالى جزاء

1 - المهاجرة: مفاعلة من الهجر الذي هو الترك لما كان ملازماً له. وحرف إلى الأصل فيه الانتهاء، وهي هنا أفادت التعليل: أي لأجل ربي إذ هو الذي أمره بها من أجل أن يعبد في دار هجرته هو وأهله.

2 - من قرية كوئا من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن تارخ، وامرأته سارة، وهو أول من هاجر في سبيل الله وأول من هاجر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في سبيل الله تعالى: عثمان بن عفان مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة.

هجرته إلى ربه عز وجل بما أخبر به في هذا السياق حيث قال: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ (1) وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} وهبه أي أعطاه ولده إسحاق بن سارة وولد إسحاق وهو يعقوب، وجعل كافة الأنبياء من ذريته وجعل الكتاب فيهم أيضاً فالتوراة أنزلت على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى وهم من ذرية إبراهيم، والقرآن الكريم أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وقول إبراهيم هو كما قال: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي} وصف ربه بالعزة والحكمة. فقال: {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ (2) الْحَكِيمُ} أي الغالب القاهر {الْحَكِيمُ} الذي وضع كل شيء في موضعه، ودلائل العزة أن أنجى إبراهيم من أيدي الظلمة الطغاة ومن مظاهر الحكمة أن نقله من أرض لا خير فيها إلى أرض كلها خير وأكرمه فيها بما ذكره في قوله {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} وقوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} حيث رزقه أطيب الأرزاق في دار هجرته ورزقه الثناء الحسن من كل أهل الأديان الإلهية كاليهودية والنصرانية، والإسلام وهو خاتم الأديان هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإنه من الصالحين ذوي الدرجات العلى والمنازل العالية في مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان حصيلة دعوة إبراهيم كذا سنة وأنها كانت إيمان واحد بها وهو لوط عليه السلام وفي هذا تسلية

للسلوة الكريم صلى الله عليه وسلم.

2- بيان إكرام الله تعالى لمن يهاجر إليه ويترك أهله وداره.

3- بيان ما أكرم الله تعالى به إبراهيم من خير الدنيا والآخرة جزاء صبره على دعوة الله تعالى.
{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ

1 - هذه الهبة كان قبلها هبة إسماعيل إذ ولد قبل إسحاق عليهم السلام.

2 - هذه الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون جملة (إني مهاجر إلى ربي) لأن من كان عزيزاً يعتز به جاره، ومن كان حكيماً لا يأمر بغير ما هو خير للمأمور الممثل لأمره.

فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

شرح الكلمات:

ولوطاً إذ قال لقومه: أي اذكر إذ قال لوط بن هاران لقومه أهل سدوم. أنكم لتأتون الفاحشة: أي الخصلة القبيحة وهي إتيان الذكران في أدبارهم. ما سبقكم بها من أحد: أي لم تعرف البشرية قبل قوم لوط إتيان الذكران في أدبارهم. وتقطعون السبيل: أي باعنائكم على المارة في السبيل فامتنع الناس من المرور خوفاً منكم. وتأتون في ناديكم المنكر: أي مجالس أحاديثكم تأتون المنكر كالضراط وحل الإزار والفاحشة أي اللواط.

فما كان جواب قومه: أي إلا قولهم ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين.

معنى الآيات:

هذا بداية قصص لوط عليه السلام مع قومه أهل سدوم وعمورية والغرض من سياقه تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذه القصص لا يتم لأحد إلا من طريق الوحي، وتسليية الرسول من أجل ما يلاقي من عناد المشركين ومطالبتهم بالآيات والعذاب قال تعالى: واذكر يا رسولنا لقومك (1) لوطاً {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} وهي الفعلة القبيحة ويزيدها قبحاً أن الناس قبل قوم لوط لم تحدث فيهم هذه الخصلة ولم يعرفها أحد من العالمين، ثم يواصل لوط إنكاره وتشنيعه عليهم فيقول: {إِنَّكُمْ (2) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ} أي في أدبارهم {وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ} وذلك أنهم كانوا يعتدون على المارة بعمل الفاحشة معهم قسراً ويسلب أموالهم وبذلك امتنع الناس من المرور فانقطعت السبيل، كما أنهم بإتيانهم الذكران عطلوا النسل

1 - (لوطاً) منصوب إمّا على تقدير اذكر كما في التفسير أو على تقدير وأرسلنا أو أنجينا كما تقدم في قوله تعالى: (وإبراهيم..)

2 - الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع على جريمتهم التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

(4/127)

بقطع سبيل الولادة، وزاد لوط في تأنيبهم والإنكار عليهم والتوبيخ لهم فقال {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ} والنادي محل اجتماعهم وتحديثهم وإتيان المنكر فيه كان بارتكاب الفاحشة مع بعضهم بعضاً، وبالتضارط فيه، وحل الإزار، والقذف بالحصى وما إلى ذلك (1) مما يؤثر عنهم من سوء وقبح. قال تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} بعد أن أتبهم ووبخهم ناهياً لهم عن مثل هذه الفواحش {إِلَّا أَنْ قَالُوا

اِثْنَتَا (2) بَعْدَابِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} أي ما كان جوابهم إلا المطالبة بعذاب الله، وهذه طريقة الغلاة المفسدين والظلمة المتكبرين، إذا أعييتهم الحجج لجأوا إلى القوة يستعملونها أو يطالبون بها. وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} (3) أي لما طالبوه بالعذاب، وقد أعياه أمرهم لجأ إلى ربه يطلب نصره على قومه الذين كانوا شر قوم وجدوا على وجه الأرض واستجاب الله تعالى له ونصره وسيأتي بيان ذلك في الآيات بعد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية بذكر قصص لا يتم إلا عن طريق الوحي.
- 2- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل ما يعاني من المشركين من كفر وعناد ومطالبة بالعذاب.
- 3- قبح الفاحشة وحرمتها وأسوأها فاحشة اللواط.
- 4- وجوب إقامة الحد على اللوطيِّ الفاعل والمفعول لأن الله تعالى سماها فاحشة وسمى الزنا فاحشة ووضع حداً للزنى فاللوطية تقاس عليه، وقد صرحت السنة بذلك فلا حاجة إلى القياس.
- 5- التحذير من العبث والباطل قولاً أو عملاً وخاصة في الأندية والمجتمعات.

- 1 - من ذلك: أنهم كانوا يناطحون بين الكباش ويناقدون بين الديوك، والصفير وتطريف الأصابع بالحناء وفرقتها، ويقذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، روى هذا الترمذي وحسنه.
- 2 - هذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم قطعاً.
- 3 - الإفساد في الأرض: هو العمل بمعاصي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكل عامل بالمعاصي فهو مفسد في الأرض، إذ فعل المعاصي يورث الفقر والخوف وهما شر ما يُتقى.

(4/128)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

شرح الكلمات:

بالبشرى : أي إسحاق ويعقوب بعده.
هذه القرية: أي قرية لوط وهي سدوم.
قالوا نحن أعلم بمن فيها : أي قالت الرسل نحن أعلم بمن فيها.
كانت من الغابرين : أي كانت في علم الله وحكمه من الباقيين في العذاب.
سيء بهم : أي حصلت لهم مساءة وغم بسبب مخافة أن يقصدهم قومه بسوء.
وضاق بهم ذرعاً: أي عجز عن احتمال الأمر لخوفه من قومه أن ينالوا ضيفه بسوء.
جزأ: أي عذاباً من السماء.
بما كانوا يفسقون: أي بسبب فسقهم وهو إتيان الفاحشة.

(4/129)

ولقد تركنا منها آية: أي تركنا من قرية سدوم التي دمرناها آية بينة وهي خرابها ودمارها وتحولها إلى بحر ميت لا حياة فيه.
لقوم يعقلون: أي يعلمون الأسباب والنتائج إذا تدبروا.
معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص لوط عليه السلام، إنه بعد أن ذكرهم وخوفهم عذاب الله قالوا كعادة المكذبين الهالكين فائتتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين وأنه عليه السلام استتصر ربه تعالى عليهم، واستجاب الله تعالى له وفي هذه الآية بيان ذلك بكيفيته، قال تعالى: {وَلَمَّا (1) جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ} الخليل عم لوط {بِالْبُشْرَى(2)} التي هي ولادة ولد له هو إسحاق ومن بعده يعقوب ولد إسحاق عليه السلام كما قال تعالى: {فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}. {قَالُوا} أي قالت الملائكة لإبراهيم {إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} يريدون قرية قوم لوط وهي سدوم وعللوا ذلك بقولهم {إِنَّ أَهْلَهَا (3) كَانُوا ظَالِمِينَ} أي لأنفسهم بغشيان الذنوب وإتيان الفواحش، ولغيرهم إذ كانوا يقطعون السبيل وهنا قال لهم إبراهيم: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا} ليس من الظالمين بل هو من عباد الله الصالحين فأجابته الملائكة فقالوا: {قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا} منك يا إبراهيم. {لَنُنَجِّيَنَّهُ(4) وَأَهْلَهُ} من الهلاك {إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} وذلك لطول عمرها فسوف تهلك معهم لكفرها وممالاتها للظالمين. وقوله تعالى: {وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا} أي ولما وصلت الملائكة لوطاً قادمين من عند إبراهيم من فلسطين {سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} أي استاء بهم وأصابه غم وهم خوفاً من قومه أن يسيئوا إليهم، وهم ضيوفه نازلون عليه ولما رأت ذلك الملائكة منه طمأنوه بما أخبر به تعالى في قوله: {وَقَالُوا لَا تَخَفْ} أي علينا {وَلَا تَحْزَنْ} على من سيهلك من أهلك مع قومك الظالمين. {إِنَّا مُنْجُواكَ} من العذاب أنت وأهلك أي زوجتك المؤمنة وبنيتك، {إِلَّا امْرَأَتَكَ} أي العجوز الظالمة فإنها {مِنْ

الْعَابِرِينَ} الذين طالت أعمارهم وستهلك مع الهالكين. وقوله تعالى في الآية (34): {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ

- 1 - (لما) حرق وجود لوجود نحو: لما جاء الحق ذهب الباطل. وهي أداة تدل على التوقيت كما هي ظرف ملازم للإضافة إلى جملة بعدها.
- 2 - البشرية: اسم للبشارة التي هي: إخبار بما يسرّ المخبر.
- 3 - الجملة تعليلية لما تقدمها من الإهلاك.
- 4 - قرأ الجمهور نافع وحفص: (المنجوك) بتشديد الجيم، وقرأ ابن كثير (منجوك) بتخفيفها من: أنجاه ينجيه، ونجي وأنجى بمعنى.

(4/130)

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أي أخبرت الملائكة لوطاً بما هم فاعلون لقومه وهو قولهم {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} أي مدينة سدوم {رِجْزًا} أي عذاباً من السماء وهي الحجارة بسبب فسقهم بإتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين. قال تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا} أي من تلك القرية {آيَةً بَيِّنَةً} (1)، أي عظة وعبرة، وعلامة واضحة على قدرتنا على إهلاك الظالمين والفاسقين. وقوله تعالى: {لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} إذ هم الذين يتدبرون في الأمور ويستخلصون أسبابها وعواملها ونتائجها وآثارها أما غير العقلاء فلا حظ لهم في ذلك ولا نصيب فهم كالبهائم التي تنساق إلى المجزرة وهي لا تدري وفي هذا تعريف بمشركي مكة وما هم عليه من حماقة والغفلة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حلم إبراهيم ورحمته تجلياً في دفاعه عن لوط وأهله.
- 2- تقرير مبدأ: من بطاً به عمله لم يسرع به نسبه، حيث العلاقة الزوجية بين لوط وامراته العجوز لم تنفعها وهلكت لأنها كانت مع الظالمين بقلبها وسلوكها.
- 3- مشروعية الضيافة وتأكدها في الإسلام لحديث الصحيح "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه".

4- التنديد بالفسق عن طاعة الله وهو سبب هلاك الأمم والشعوب.

5- فضيلة العقل إذا استعمله صاحبه في التعرف إلى الحق والباطل والخير والشر.

وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)

1 - المعنى: ولقد تركنا من القرية آثارا دالة عليها، وهي بقايا القرية المغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه، مع بقايا لون الكبريت والمعادن التي رجمت بها قريتهم.

(4/131)

شرح الكلمات:

وإلى مدين : أي وأرسلنا إلى قبيلة مَدِين، ومدين أبو القبيلة فسميت باسمه.

أخاهم شعيباً : أي أخاهم في النسب.

اعبدوا الله : أي اعبدوه ووحده ولا تشركوا به شيئاً.

وارجوا اليوم الآخر : أي آمنوا به وتوقعوا مجيئه وما يحدث فيه.

ولا تعثوا في الأرض مفسدين : أي ولا تعيثوا في الأرض فساداً بأن تنتشروا فيها الفساد وهو العمل

بالمعاصي فيها.

فأخذتهم الرجفة : الهزة العنيفة والزلزلة الشديدة.

في دارهم جاثمين : لاصقين بالأرض أمواتا لا يتحركون.

معنى الآيتين:

هذا موجز لقصة (1) شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، والعبرة منه إهلاك تلك الأمة لما كذبت رسولها واستمرت على الشرك والمعاصي لعل قريشاً تعتبر بما أصاب هذه الأمة من هلاك ودمار من أجل تكذيبها لرسولها وعصيانها لربها قال تعالى {وَالْيَ (2) مَدِينَ} أي وأرسلنا إلى مدين {أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} وهو نبيّ عربي فلما انتهى إليهم برسالته قال {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ} أي وحدوه في عبادته وأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه من التطفيف في الكيل والوزن، {وَارْجُوا (3) الْيَوْمَ الْآخِرَ}، أي آمنوا بيوم القيامة وتوقعوا دائماً مجيئه وخافوا ما فيه من أهوال وأحوال فإن ذلك يساعدكم على التقوى وقوله: {وَلَا تَعْنُوا (4) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} وذلك أنهم ينقصون الكيل والوزن ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بالمعاصي. وقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ} أي كذب أصحاب مدين نبيهم شعيباً فيما أخبرهم به ودعاهم إليه {فَأَخَذَتْهُمُ (5) الرَّجْفَةُ} أي رجفة الهلاك من تحتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين على الركب

1 - هذه القصة معطوفة على سابقتها: قصة نوح وإبراهيم ولوط عليهم السلام.

2 - إن طلبت المناسبة بين قصة لوط وقصة أصحاب مدين فإنها في كون مدين من أبناء إبراهيم

وكون لوط من الأسرة الإبراهيمية وأوضح من هذا السبب قرب الديار من بعضها، فمدین غیر بعيدة من قرى لوط.

3 - أمره إياهم برجاء اليوم الآخر دال على أنهم ما كانوا يؤمنون باليوم الآخر أو ذكروهم به لغفلتهم عنه بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.

4 - العثو: بالواو كالدنو والعتي بالياء كالعصي: أشد الفساد، وفعله: عثا يعثوا، وعتي كرضي يعثى كيرضى بمعنى واحد.

5 - الفاء للسببية، (والرجفة) الزلزال الشديد الذي ترجف منه الأرض والقلوب وكانت هذه الزلازل مصحوبة بصيحة شديدة انخلعت منها القلوب.

(4/132)

هلكى وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- تقرير التوحيد والنبوة والبعث الآخر.

2- حرمة الفساد في الأرض وذلك بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.

3- بيان نعمة الله تعالى على المكذبين والظالمين والفاسقين.

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

شرح الكلمات:

وَعَادًا وَثَمُودَ : أي وأهلكنا عَادًا القبيلة وثمود القبيلة كذلك.

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ : أي تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم الخالية منهم بالحجر شمال الحجاز والشجر جنوب اليمن.

عَنِ السَّبِيلِ : أي سبيل الهدى والحق التي بينها لهم رسلهم.

كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ : أي ذوي بصائر لما علمتهم رسلهم.

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ : أي وأهلكنا قارون بالخسف وفرعون وهامان بالغرق.

(4/133)

فاستكبروا : أي عن عبادة الله تعالى وطاعة رسله.
وما كانوا سابقين : أي فائتين عذاب الله أي فارين منه، بل أدركهم.
فكلاً أخذنا بذنبه : أي فكل واحد من المذكورين أخذناه بذنبه ولم يفلت منا.
فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا : أي ريحاً شديدة، كعاد.
ومنهم من أخذته الصيحة : أي ثمود.
ومنهم من خسفنا به الأرض : أي كقارون.
ومنهم من أغرقنا : أي كقوم نوح وفرعون.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات قبل ذي(1) إهلاكه لقوم لوط وقوم شعيب وقوم نوح من قبل لما ردوا دعوته وكذبوا رسله ذكر بقية الأقسام الذين كذبوا بآيات الله ورسله فأهلكهم، فقال عز وجل: {وَعَادًا وَثَمُودَ}(2) أي وأهلكنا كذلك عاداً قوم هود، وثمود قوم صالح! وقوله تعالى: {قَدْ تَبَيَّنَ}(3) لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ} أي وقد تبين لكم يا معشر كفار مكة ومشركي قريش من مساكنهم بالحجر(4) والشجر(5) من حضرموت ما يؤكد لكم إهلاكنا لهم، إذ مساكنهم الخاوية دالة على ذلك دلالة عين. وقوله تعالى: {وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} أي وقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الشرك والشر والظلم والفساد وصددهم بذلك التزيين عن السبيل، سبيل الإيمان والتقوى المورثة للسعادة في الدنيا والآخرة. وقوله: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}(6) أي ذوي بصائر أي معرفة بالحق والباطل والخير والشر لما علمتهم الرسل ولكن أثروا أهواءهم على عقولهم فهلكوا. وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين. وقوله تعالى: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ} أي أهلكنا قارون الإسرائيلي ابن عم موسى عليه السلام، أهلكناه ببيغيه وكفره، فخسفنا به الأرض وباداره أيضاً، وفرعون وهامان أغرقناهما في اليم بكفرهما وطغيانهما

- 1 - وجه المناسبة ظاهر بين هذه الآيات وسابقتها وهي إتمام ذكر كل من قص تعالى في كتابه قصصهم مفصلة في الأعراف وهود والشعراء والنمل والقصص، فذكر بإيجاز من لم يذكرهم في هذا العرض من هذه السورة، فذكر عاداً وثمود وقارون وفرعون هامان.
- 2 - وعاداً جائز أن يكون منصوباً بفعل مقدر، وأهلكنا عاداً أو اذكر عاداً.
- 3 - الجملة حالية.
- 4 - مدائن صالح.
- 5 - منازل عاد.
- 6 - الاستبصار: البصارة بالأمر، والسين والتاء للتأكيد كالاستحباب بمعنى الحب، والمراد أنهم

أهل بصائر ومعرفة بالأمور لما لهم من عقول صالحة للنظر والإدراك، وما في التفسير وجه أحسن من هذا.

(4/134)

وظلمهما واستعلائهما وذلك بعدما جاءهم موسى بالبينات من الآيات والحجج الواضحات التي لم تيق لهم عذراً في التخلف عن الإيمان التقوى ولكن {فَاسْتَكْبَرُوا(1) فِي الْأَرْضِ}، أرض مصر وديارها فرفضوا الإيمان والتقوى {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} ولا فائتين فأحلّ الله تعالى بهم نقمته وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم الظالمين. ثم في الآية الأربعين من هذا السياق بين تعالى أنواع العذاب الذي أهلك به هؤلاء الأقوام، فقال: {فَكُلًّا (2)} أي فكل واحد من هؤلاء المكذبين {أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ (3) مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} أي ريحاً شديدة كعاد. {وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذْتُهُ الصَّيْحَةَ} كشمود {وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} كقارون {وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا} كفرعون، وقوله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ} أي لم يكن من شأن الله تعالى الظلم فيظلمهم، {وَلَكِنْ كَانُوا} أي أولئك الأقوام {أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بالشرك والكفر والتكذيب والمعاصي فأهلكوها بذلك، فكانوا هم الظالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان أن الشيطان هو سبب هلاك الأقوام وذلك بتزيينه لهم الشر والقيح كالشرك والباطل والشر والفساد.

2- بيان أن الاستكبار كالظلم عاقبتهم الهلاك والخسران.

3- بيان أن الله تعالى ما أهلك أمة حتى يبين لها ما يجب أن تتقيه (4) من أسباب الهلاك والدمار فإذا أبت إلا ذلك

أوردها الله موارده.

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ

1 - إن فرعون وهامان وقارون شأنهم شأن أبي جهل والعاص بن وائل والنضر بن الحارث ما حملهم على الكفر والعناد إلا الاستكبار في البلاد.

2 - (فكلاً): الفاء للتفريع على ما سبق: قوله تعالى: (وعاداً) إذ التنوين عوضٌ عن كلمة أي: فكل واحد ممن ذكروا من عاد إلى قارون أخذ الله أي: أهلك بذنبه، ولم يظلمهم الله تعالى بإهلاكه إيّاهم.

3 - الفاء للتفريع إذ هذا التفصيل بعد الفاء متفرع عن ذلك الإجمال المذكور في قوله: (فكلاً أخذنا بذنبه).

4 - شاهده في قول الله تعالى من سورة التوبة: (وما كان الله ليضل قوماً حتى يبين لهم ما يتقون) والإضلال سبيل الهلاك وطريقه.

(4/135)

اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44) ائْتِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

شرح الكلمات:

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء : أي صفة وحال الذين اتخذوا أصناماً يرجون نفعها.

كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً : أي لنفسها تأوي إليه.

أوهن البيوت : أي أضعف البيوت وأقلها جدوى.

يعلم ما يدعون من دونه من شيء : أي من الأوثان والأصنام وغيرها.

وهو العزيز الحكيم : أي الغالب على أمره الحكيم في تدبير أمور خلقه.

وما يعقلها إلا العالمون : أي العالمون بالله وآياته وأحكام شرعه وأسراره.

خلق الله السموات والأرض بالحق : أي من أجل أن يعبد لا للهو ولا لباطل.

أتى ما أوحى إليك من الكتاب : اقرأ يا رسولنا ما أنزل إليك من القرآن.

وأقم الصلاة : بأدائها مقامة مراعى فيها شروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

تنهى عن الفحشاء والمنكر : أي الصلاة بما توجد من نور في قلب العبد يصبح به لا يقدر على

فعل فاحشة ولا إتيان منكر.

ولذكر الله أكبر : أي ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد ربه كما أن ذكر

(4/136)

الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة وغيرها.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى نعمته على أعدائه الذين كفروا به وأشركوا غيره في عبادته وكذبوا رسله وكان ذلك

تتبيها وتعلما للمشركين والكافرين المعاصرين لنزول القرآن لعلمهم يستجيبون للدعوة المحمدية فيؤمنوا

ويوحدها ويسلموا فيسلموا من العذاب والخسران. ذكر هنا في هذه الآيات مثلاً لعبادة الأوثان في عدم نفعها لعابديها والقصد هو تقرير التوحيد، وإبطال الشرك العائق عن كمال الإنسان وسعادته وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي شركاء وهي الأصنام والأوثان يعبدونها راجين نفعها وشفاعتها لهم عند الله تعالى {كَمَثَلِ الْعُنكَبُوتِ (1) اتَّخَذَتْ بَيْتًا} لتأوي إليه قصد وقايتها مما تخاف من جراء برد أو اعتداء حشرة عليها، {وَإِنْ أُوْهِنَ (2) الْبُيُوتُ لَبَيَّتِ الْعُنكَبُوتُ} والحال أن أوهن البيوت أي أضعفها وأحقرها شأنها وأقلها مناعة هو بيت العنكبوت فهذه حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله {أُولِيَاءَ} أي أصناماً يرجون النفع، ودفع الضرر بها فهم واهمون في ذلك غالطون، مخطئون، إنه لا ينفع ولا يضر إلا الله فليعبدوه وحده وليتركوا ما سواه. وقوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي لو كان المشركون يعلمون أن حالهم في عبادتهم غير الله في عدم الانتفاع بها كحال العنكبوت في عدم الانتفاع ببيتها الواهي لما رضوا بعبادة غير الله وتركوا عبادة الله الذي بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} فيه تهديد للمشركين المصرين على الشرك بأنه لا يخفى عليه ما هم عليه من دعاء غيره، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من قبلهم {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الغالب على أمره {الْحَكِيمُ} في تدبير خلقه ولذا يعجل العقوبة لمن يعجل لحكمة ويؤخرها عنه لحكمة فلا يغتر المشركون بتأخير العذاب، ولا يستدلون به على رضا الله تعالى بعبادتهم، وكيف يرضاها وقد أهلك أمماً بها وأنزل كتابه وبعث رسوله لإبطالها والقضاء عليها وقوله

- 1 - العنكبوت: صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة أصناف: منها صنف يسمى ليث العنكبوت، وهو الذي يفترس الذباب وكلها تتخذ لنفسها نسيجاً تتسجه من لعابها يكون خيوطاً مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانباً أغلظ وأكثر خيوطاً فتحتجب فيه ويسمى بيتاً لشده بالخيمة لأنه منسوج ومشدود من أطرافه فهو كبيت الشعر، وجملة (اتخذت بيتاً) حال من العنكبوت ويصغر على العنكبوت ويجمع على عناكب.
- 2 - (وإن أوهن البيوت ..) هذه الجملة معترضة مبيّنة لوجه الشبه وتجري هذه الجملة مجرى المثل يضرب للشيء إذا قلّت فائدته وجدواه.

(4/137)

تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ (1) نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} أي وهذه الأمثال نضربها للناس لأجل إيقاظهم وتبصيرهم وهدايتهم، {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} أي وما يدرك مغزاها وما تهدف إليه من التفسير من الشرك العائق عن كل كمال وإسعاد في الدارين {إِلَّا الْعَالِمُونَ (2)} أي بالله وشرائعه وأسرار كلامه وما تهدي إليه آياته. وقوله تعالى: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} إخبار بأنه تعالى هو الذي خلق

السموات والأرض وهي مظاهر قدرته وعلمه وحكمته موجبة لعبادته بتعظيمه وطاعته ومحبته والإنابة إليه والخوف منه. وخلقهما بالحق لا بالباطل وذلك من أجل أن يذكر فيهما ويشكر فمن كفر به فترك ذكره وشكره كان كمن عبث بالسموات والأرض وأفسدها، لذا يعذب نظراً إلى عظم جرمه عذاباً دائماً أبداً. وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} أي إن في خلق السموات (3) والأرض بالحق {لآية} أي علامة بارزة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته، وهذه موجبات ألوهيته على سائر عبادته فهو الإله الحق الذي لا رب غيره ولا إله سواه. وبعد هذا البيان والبرهان لم يبق عذر لمعتذر، وعليه ف {اتل (4)} أيها الرسول {مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} تعليماً وتذكيراً وتعبداً وتقرباً {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} طرفي النهار وزلفاً من الليل فإن في ذلك عوناً كبيراً لك على الصبر والثبات وزاداً عظيماً لرحلتك إلى الملكوت الأعلى. وقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى (5) عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} تعليل للأمر بإقام الصلاة فإن الصلاة بما توجهه من إشراقات النفس والقلب والعقل حال تحول بين العبد وبين التلوث بقاذورات الفواحش ومفاسد المنكر وذلك يفيد إقامتها لا مجرد أدائها والإتيان بها. وإقامة الصلاة تتمثل في الإخلاص فيها لله تعالى أولاً ثم بطهارة القلب من الالتفات إلى غير الرب تعالى أثناء أدائها ثانياً، ثم بأدائها في أوقاتها المحددة لها وفي المساجد بيوت الله، ومع جماعة المسلمين عباد الله وأوليائه، ثم بمراعاة أركانها من قراءة الفاتحة والركوع والطمأنينة فيه والاعتدال والطمأنينة فيه، والسجود على الجبهة والأنف والطمأنينة فيه، وآخر أركانها الخشوع وهو السكون ولين القلب وذرف الدمع. هذه هي الصلاة التي

- 1 - (وتلك الأمثال) مبتدأ والخبر: جملة (نضربها للناس).
- 2 - عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه".
- 3 - لفظ السموات والأرض: يشمل ذاتهما والموجودات المظروفة فيهما.
- 4 - المراد من: (اتل): مداومة تلاوة ما أوحى إليه وهو القرآن الكريم.
- 5 - قيل لابن عطية: إن حماداً وابن جريج والكلبي يقولون: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام العبد فيها. قال: هذه عجمة أي: نسبهم إلى قلة الفهم وهو كذلك للحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له" وقال له أحد الصحابة: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق. فقال: سينهاه ما تقول. يعني صلاته.

(4/138)

توجد طاقة النور التي تحول دون الانغماس في الشهوات والذنوب وإتيان الفاحشة وارتكاب المنكر. وقوله تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من إقامة الصلاة لأن

الصلاة أثناء أدائها مانعة عاصمة لكن إذا خرج منها، قد يضعف تأثيرها، أما ذكر الله بالقلب واللسان في كل الأحيان فهو عاصم مانع من الوقوع في الفحشاء والمنكر وفي اللفظ معنى آخر وهو أن ذكر الله للعبد في الملكوت الأعلى أكبر من ذكر العبد للرب في ملكوت الأرض ويدل عليه قوله "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه" كما في الحديث الصحيح. وقطعاً والله لذكر الرب العبد الضعيف أكبر من ذكر العبد الضعيف الرب العظيم. اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين لآلاتك. وقوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (1)} فيه وعد ووعد، فإن علمه يترتب عليه الجزاء فمن كان يصنع المعروف جزاه به، ومن كان يصنع السوء جزاه به. اللهم ارزقنا صنائع المعروف وأبعد عنا صنائع السوء آمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني للأفهام.
- 2- تقرير التوحيد وإبطال التنديد.
- 3- فضل العلماء على غيرهم، العلماء بالله، بصفاته وأسمائه وآياته، وشرائعه، وأسرارها.
- 4- وجوب تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وذكر الله، إذ هي غذاء الروح وزاد العروج إلى الملكوت الأعلى.
- 5- بيان فائدة إقام الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى بالقلب واللسان.

1 - في الآية وزاع المراقبة، وعليه فتلاوة القرآن وإقام الصلاة وذكر الله تعالى ومراقبته. هذه الأربعة تمثل سبيل السلام إلى دار السلام من سلكه نجا ومن تنكبته هلك، والعياذ بالله العليم الحكيم.

(4/139)

الجزء الحادي والعشرون

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَوَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

شرح الكلمات:

ولا تجادلوا أهل الكتاب : أي لا تحاجوا ولا تناظروا اليهود ولا النصارى.

إلا بالتّي هي أحسن : أي إلا بالمجادلة التي هي أحسن وهي الدعوة إلى الله بآياته والتّنبية على حججه.

إلا الذين ظلّموا منهم : أي الذين لم يدخلوا في ذمة المسلمين بدفع الجزية وبقوا حرباً على المسلمين. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب : أي وكإنزلنا الكتاب على من قبلك من الرسل أنزلنا إليك الكتاب. فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به: أي كعبد الله بن سلام وإخوانه الذين آمنوا بالرسول وكتابه. ومن هؤلاء من يؤمن به : أي من هؤلاء المشركين من يؤمن به وفعلاً آمن به كثيرون.

(4/140)

ولا تخطه بيمينك : أي تكتب بيدك لأنك أمي لا تقراً ولا تكتب.
لارتاب المبطلون : أي لشك اليهود في نبوتك ونزول القرآن إليك.
بل هو آيات بينات : أي محمد صلى الله عليه وسلم نوعته وصفاته آيات بينات في التوراة والإنجيل محفوظة في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب.
وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون: أي وما يجحد بآيات الله الحاملة لنوعت الرسول الأمي وصفاته إلا الذين ظلّموا أنفسهم بكتمان الحق والاستمرار على الباطل.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ} هذا تعليم للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يأخذون به مستقبلاً عندما يتصلون بأهل الكتاب ويحتكون بهم فقال عز وجل مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته {وَلَا تُجَادِلُوا (2) أَهْلَ الْكِتَابِ} الذين هم اليهود والنصارى فنهاهم عن مجادلتهم وهي خصامهم ومحاجتهم ومناظرتهم {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي إلا بالمجادلة التي هي أحسن (3) وذلك بدعوتهم إلى الله تعالى ليؤمنوا برسوله ويدخلوا في دينه الإسلام والتّنبية على حجج الله وأدلة وحيه وكتابه. وقوله {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} وهم الذين لم يدخلوا في ذمة المسلمين ولم يؤدوا الجزية وناصروا للمسلمين الحرب والعداء فهؤلاء لا يجادلون ولكن يحكم فيهم السيف فيقاتلون حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقوله تعالى: { وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَالْهُكْمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. هذا تعليم آخر للمؤمنين وهو: إن أخبرهم أهل الكتاب بشيء لا يوجد في الإسلام ما يثبتته ولا ما ينفيه وادّعوا أنه في كتابهم في هذه الحال فقولوا ما أرشدنا الله تعالى إلى قوله وهو: {آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا}

1 - ذكر القرطبي الخلاف في هل هذه الآية منسوخة أو محكمة، ورجح قول مجاهد وهي أنها محكمة، وما في التفسير على هذا وهو الصواب.

2 - الجدل والمجادلة مصدران لجادل، والمراد بالمجادلة: إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره. والجدل: شدة الخصومة وهو مأخوذ من الجدل الذي هو الفتل للحبل ونحوه إذا قواه، والمجادل يقوي رأيه بما يراه ويورده من حجج.

3 - وجه المجادلة بالحسنى لأهل الكتاب لأنهم أهل علم متأهلون للفهم وقبول الحق متى اتضح لهم بخلاف جهال المشركين فإن تهجين عبادتهم وتفضيع طريقتهم قد يكون أنجع فيهم.

(4/141)

إلى آخر الآية حتى لا نكون قد كذبنا بحق ولا آمنا بباطل، وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم(1)، وقولوا {آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون}.

وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} أي وإنزال الكتب السابقة على رسل سبقوا كموسى وداود وعيسى عليهم السلام أنزلنا إليك أنت يا محمد الكتاب أي القرآن وقوله تعالى: {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}. فهذا إخبار بغيب فكما علم الله تعالى المؤمنين كيف يكونون مع أهل الكتاب عندما يتصلون بهم ويعيشون معهم في المدينة وغيرها أخبر أن الذين آتاهم الكتاب أي التوراة والإنجيل وهم الراسخون في العلم يؤمنون أي بالقرآن وقد آمن عبد الله بن سلام وكثير من أحبار أهل الكتاب، وآمن من المشركين كثيرون فكان الأمر كما أخبر. وقوله تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} فهو كما أخبر لا يجحد بالآيات القرآنية ويكذب بها إلا كافر مظلم النفس خبيثها وقوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ} هو كما قال عز وجل لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ قبل القرآن أي كتاب، ولا كان يخط بيمينه أي كتاب لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب أي فلو كان قبل نزول القرآن عليه يقرأ ويكتب لكان

للمبطلين(2) مجال للشك في صحة دعوى النبوة المحمدية ونزول القرآن عليه، ولكن لم يكن قبل القرآن يقرأ أي كتاب، ولم يكن يخط بيمينه أي خط ولا كتاب فلم يبق إذاً للمشركين ما يحتجون به أبداً. وقوله تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ (3) الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} أي بل الرسول ونعوته وصفاته ومنها وصف الأمية آيات في التوراة والإنجيل محفوظة في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب.. وقوله تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا} في التوراة والإنجيل والقرآن {إِلَّا الظَّالِمُونَ} أنفسهم(4) من الماديين اليهود والنصارى الذين يأكلون ويتزاسون على حساب الحق والعياذ بالله تعالى.

1 - تفرد به البخاري رحمه الله تعالى.

2 - قال مجاهد: "كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ

فنزلت هذه الآية.

- 3 - أي: ليس هو كما يقول المبطلون من أنه سحر أو شعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه وكذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون به، وهذا لا ينافي مع ما في التفسير، إذ الوجهان صحيحان، وقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء.
- 4 - والمشركون كاليهود والنصارى في هذا أي: الجحود بالآيات.

(4/142)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية مجادلة أهل الكتاب من أهل الذمّة بالتّي هي أحسن.
- 2- حرمة سؤال أهل الكتاب لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تسألوا أهل الكتاب (1) عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل".
- منع تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم إذا أخبروا بشيء ووجب قول: {أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.
- 3- إخبار القرآن بالغيب قبل وقوعه فيقع كما أخبر فيكون ذلك آية على أنه من وحي الله تعالى.
- 4- تقرير صفة الأمية في النبي صلى الله عليه وسلم كما هي في الكتب السابقة.
- وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)

شرح الكلمات:

لولا أنزل عليه آيات : أي قال كفار قريش هلاً أنزل على محمد آيات من ربه كناقاة صالح، وعصا موسى.

- 1 - رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال.

قل إنما الآيات عند الله : أي قل يا رسولنا الآيات عند الله ينزلها متى شاء.
 أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب : أي أو لم يكفهم فيما طلبوا من الآيات إنزالنا الكتاب عليك.
 إن في ذلك لرحمة وذكرى : أي في القرآن رحمة وموعظة للمؤمنين فهو خير من ناقة صالح.
 والذين آمنوا بالباطل : وهو ما يعبد من دون الله.
 وكفروا بالله : وهو الإله الحق.
 أولئك هم الخاسرون : أي حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.
 معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية ففوله تعالى: {وَقَالُوا} أي أهل مكة {لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ} (1) مِنْ رَبِّهِ {أي هلاً أنزل على محمد آيات من ربه كناقاة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى إذ هذا الذي يعنون بالآيات أي معجزات خارقة للعادة. قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل يا رسولنا لقومك المطالبين بالآيات دليلاً على صدق نبوتك قل لهم: أولاً: الآيات التي تطالبون بها هي عند الله وليست عندي فهو تعالى ينزلها متى شاء وعلى من شاء. وثانياً: {وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي وظيفتي التي أقوم بها هي إنذار أهل الظلم من عاقبة ظلمهم وهي عذاب النار فلذا لا معنى بمطالبتي بالآيات. وثالثاً: أو لم يكفهم (2) آية أن الله تعالى أنزل عليّ كتابه فأنا أتلوه عليكم صباح مساء فأية أعظم من كتاب من أمي لا يقرأ ولا يكتب تتلى آياته تحمل الهدى والنور وهو في الوقت نفسه رحمة وذكرى أي موعظة لقوم يؤمنون فهي معجزة ثابتة قائمة باقية يجد فيها المؤمنون الرحمة فيتراحمون بها ويجدون فيها الموعظة فهم يتعظون بها، فأين هذا من معجزة تبقى ساعة ثم تذهب وتروح كمائدة عيسى أو عصا موسى. ورابعاً: شهادة الله برسالتي كافية لا يطلب معها دليل آخر على نبوتي ورسالتي، فقد قال لي ربي: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ}

- 1 - قرأ ابن كثير وحمزة: (آية) بالإنفراد، وقرأ الجمهور ونافع وحفص بالجمع (آيات).
- 2 - أخرج الدارمي في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بكتف فيه كتاب فقال: "كفى بقوم ثلاثة: أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم فأنزل الله تعالى هذه الآية: (أو لم يكفهم).

شَهِيداً(1)؛ ربي الذي يعلم ما في السموات والأرض من كل غيب ومن ذلك علمه بأني رسوله فشهد لي بذلك بإنزاله عليّ هذا الكتاب وأخيراً وبعد هذا البيان يقول تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا(2) بِالْبَاطِلِ} وهو تأليه المخلوقات من دون الله {وَكَفَرُوا} بألوهية الله الحق {وَأُولَئِكَ} البعداء في الفساد العقلي وسوء الفهم {هُمُ الْخَاسِرُونَ} في صفتهم حين اشتروا الكفر بالإيمان واستبدلوا الضلالة بالهدى. هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث فلتعد تلاوتها بالتأني والتدبر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية بالأدلة القاطعة التي لا تُرد، وهي أربع كما ذكر آنفا.
- 2- بيان أكبر معجزة لإثبات النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي نزول القرآن الكريم عليه وفي ذلك قال عليه الصلاة والسلام كما في البخاري(3): "ما من نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".
- 3- القرآن الكريم وكرى أي عبرة للمؤمنين به وبمن نزل عليه.
- 4- تقرير خسران المشركين في الدارين لاستبدالهم الباطل بالحق والعياذ بالله تعالى.
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(53)
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(54) يَوْمَ يَعْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ دُوَّفُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(55)

- 1 - (شهِيداً) أي: يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسول وأن هذا كتابه.
- 2 - قال يحيى بن سلام: الباطل هنا: إبليس وهو شامل لإبليس ولعبادة الأوثان وما في التفسير أعم، إذ اللفظ يشمل عبادة غير الله مطلقاً وهو الباطل.
- 3 - أخرجه ابن كثير بهذا اللفظ: "وما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" وقال: أخرجاه من حديث الليث.

(4/145)

شرح الكلمات:

ويستعجلونك بالعذاب : أي يطلبون منك تعجيل العذاب لهم.
ولولا أجل مسمى : أي وقت محدد للعذاب لا يتقدمه ولا يتأخر عنه لجاهم.

ولياتينهم بغتة : فجأة من حيث لا يخطر لهم على بال .
وإن جهنم لمحيطة بالكافرين : أي من كل جانب وهم فيها وذلك يوم يغشاهم .
يوم يغشاهم العذاب : أي من فوقهم ومن تحت أرجلهم .
ذوقوا ما كنتم تعملون : أي ويقول لهم الجبار ذوقوا ما كنتم تعملون أي من الشرك والمعاصي .
معنى الآيات :

لقد تقدم في الآيات القريبة أن المكذبين بالرسالة المحمدية طالبوا بالعذاب تحدياً منهم للرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين في أنك نبي ورسول إلينا وفي هذه الآية يعجب تعالى رسوله أي يحمله على التعجب من حمق المشركين وطيشهم وضلالهم إذ يطالبون بالعذاب فيقول له {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ (1) بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى (2)} للعذاب أي وقت محدد له لا يتقدمه ولا يتأخره {لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ} ثم أخبر تعالى رسوله مؤكداً خبره فقال: {وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ} أي العذاب {بِعَذَابٍ} لا محالة {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بوقت مجيئه، ثم كرر تعالى حمل رسوله على التعجب من سخر المشركين الذي لا يطيقون لسعة عقرب ولا نهشة أفعى يطالبون بالعذاب فقال {يَسْتَعْجِلُونَكَ (3) بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} لا محالة كقوله {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} {يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ} أي يعطيهم ويغمرهم فيكون {مَنْ فَوْقَهُمْ (4) وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} وجهنم محيطة بهم

- 1 - من بين المطالبين بالعذاب: أبو جهل، والنضر بن الحارث إذ قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وفيهم نزل: (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ...).
- 2 - المعنى: لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاهم العذاب عاجلاً لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم، ولكن الله أراد تأخيره لحكم يعلمها منها: إمهالهم ليؤمن من يؤمن منهم، ومنها ليعلموا أن الله لا يستقره استعجالهم ومنه إظهار رحمته بعباده وحلمه عليهم.
- 3 - حكى استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجب منها كما في قوله تعالى: (يجادلنا في قوم لوط).
- 4 - (من فوقهم) حال مؤكدة، إذ غشيان العذاب لا يكون إلا من فوق، وقوله (ومن تحتهم) احتراس عما قد يوهمه الغشيان من الفوقية خاصة.

(4/146)

ويقول (1) الجبار تبارك وتعالى موبخا لهم {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} من الشرك والمعاصي .
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التعجب إذا وجدت أسبابه الحاملة عليه.
- 2- بيان مدى حمق وجهل وسفه الكافرين والمشركين بخاصة.
- 3- بيان أن تأخير العذاب لم تكن عن عجز وإنما هو لنظام (2) دقيق إذ كل له أجل محدد لا يتقدم ولا يتأخر.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

شرح الكلمات:

إن أرضي واسعة : أي هاجروا من بلاد لم تتمكنوا من العبادة فيها فإن أرض الله واسعة.
فإياي فاعبدون : فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا معي غيري كما يريد منكم المشركون.
كل نفس ذائقة الموت : أي لا يمنعكم الخوف من الموت ألا تهاجروا في سبيل الله فإن الموت لا بد منه للمهاجر ولمن ترك الهجرة.

1 - قرأ بعضهم (ونقول) بنون النكلم والتعظيم.

2 - وحكم عالية تقدم بعضها إزاء رقم (2) في الصفحة السابقة.

(4/147)

ثم إلينا ترجعون : أي بعد موتكم ترجعون إلى الله فمن مات في سبيل مرضاته أكرمه وأسعده، ومن مات في معصيته أذاقه عذابه.

لنبوئناهم : أي لننزلناهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار.

الذين صبروا : أي صبروا على الإيمان والهجرة متوكلين على الله تعالى.

وكأين من دابة لا تحمل رزقها : أي لا تطيق جمعه ولا حمله لضعفها، والله يرزقها فلا عذر لمن ترك الهجرة خوفاً من الجوع والخصاصة.

وهو السميع العليم : أي السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأحوالهم وأعمالهم.

معنى الآيات:

لا شك أنه بعد ذلك التأنيب الإلهي للمشركين وتهديدهم بالعذاب وتوعددهم بعذاب جهنم وتوبيخهم فيها على شركهم وباطلهم لا شك أن رد الفعل من المشركين هو الضغط على المؤمنين المستضعفين في

مكة فأرشدهم الله تعالى إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ليتمكنوا من عبادة الله تعالى، فناداهم بقوله عز وجل: {يَا عِبَادِيَ (1) الَّذِينَ آمَنُوا} أي بي وبرسولي ولقائي {إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} فهاجروا فيها، ولا ترضوا بالبقاء مع الكفر تهانون وتلزمون بعبادة غيري من آلهة المشركين، {فَأَيَّيَ فَاغْبُدُونِ} لا تعبدوا معي غيري. وعليه فهاجروا في سبيل مرضاتي ولا تخشوا موتاً ولا فقراً فإن كل نفس ذائقة الموت هاجر صاحبها أو لم يهاجر {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} وقوله: {ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (2)} ، لا محالة فمن رجع إلينا وهو مؤمن مطيع منفذ لأوامرنا مجتنب نواهينا أسعدناه، من رجع إلينا وهو كافر بنا عاص لنا مهمل أوامرنا مرتكب نواهينا أشقينا. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا (3)} أي لننزلنهم من الجنة دار الإسعاد {غُرَفًا}

- 1 - قال القرطبي هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة وهو كذلك إلا أنها عامة في كل من منع من عبادة الله تعالى في أرض عليه أن يهاجر إلى أخرى يعبد الله تعالى فيها إذ العبادة هي علة خلقه ووجوده لقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).
- 2 - قرأ الجمهور: (ترجعون) وقرأ البعض بالياء (يرجعون).
- 3 - وروى مسلم: "أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو من المغرب لتفاضل ما بينهم، وقيل له صلى الله عليه وسلم تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم! قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين".

(4/148)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها. هذا بيان لمن مات وهو مؤمن عامل بالصلوات ومنها الهجرة في سبيل الله. وقوله {يُعْمَأَجْرُ الْعَامِلِينَ} أي ذلك الإنزال في الغرف في الجنان هو الإسعاد المترتب على الإيمان والهجرة والعمل الصالح فالإيمان والهجرة والعمل الصالح عملٌ والجنة وما فيها من النعيم أجره ذلك العمل. وأثنى الله تعالى على الجنة فقال: {يُعْمَأَجْرُ الْعَامِلِينَ} ووصفهم بقوله {الَّذِينَ صَبَرُوا} أي على الإيمان والهجرة والطاعة {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} فخرجوا من ديارهم تاركين أموالهم لا يحملون معهم زاداً كل ذلك توكلوا على ربهم وقوله تعالى: {وَكَايْنُ (1) مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رُكْعَهَا} لضعفها وعجزها أي وكثير من الدواب من الإنسان والحيوان من يعجز حتى عن حمل طعامه أو شرايه لضعفه والله عز وجل يرزقه بما يسخر له من أسباب وما يهبئ له من فرص فيطعم ويشرب كالأقوياء والقادرين، وعليه فلا يمنعنكم عن الهجرة مخافة الفاقة والفقير فالله تعالى تكفل برزقكم ورزق سائر مخلوقاته. {وَهُوَ السَّمِيعُ} لأقوالكم {الْعَلِيمُ (2)} ببواطنكم وظواهركم وأعمالكم وأحوالكم فارهبوه ولا ترهبوا سواء فإن في طاعته السعادة

والكمال وفي معصيته الشقاء والخسران.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا عذر لأحد في ترك عبادة الله وتوحيده فيها لأنه إن منع منها في بلد وجب عليه أن يهاجر إلى بلد آخر.
- 2- لا معنى للخوف من الموت إذا وجب العمل كالهجرة والجهاد لأن الموت حق ولا بد منه.
- 3- بيان جزاء أهل الصبر والتوكل من أهل الإيمان والهجرة والتقوى.
- 4- لا يمنعن المؤمن من الهجرة خوفه من الجوع في دار هجرته إذ تكفل الله برزقه.

- 1 - وكأين: أصلها أي دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم، والتقدير: أي كشيء كثير من العدد من دابة قال ابن عباس: الدواب هي كل ما دبّ من الحيوان فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر.
- 2 - وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من إخلاص لله تعالى في أعمالكم وتوكلكم ورجائكم من الرزق.

(4/149)

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)

شرح الكلمات:

ولئن سألتهم: أي المشركين.

وسخر الشمس والقمر: أي ذللها يسيران الدهر كله لا يملان ولا يفتران.

فأنى يؤفكون: أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته لهم. وهو أن الخالق المدبر هو الإله الحق الذي يجب توحيده في عبادته.

الله يبسط الرزق لمن يشاء: أي يوسع الرزق على من يشاء من عباده امتحاناً للعبد هل يشكر الله أو يكفر نعمه.

ويقدر له: أي ويضيق عليه ابتلاء ليرى هل يصبر أو يسخط.

ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله: إذا كيف يشركون به

أصناما لا تتفع ولا تضر؟

قل الحمد لله : أي قل لهم الحمد لله على ثبوت الحجة عليكم.
بل أكثرهم لا يعقلون : أي إنهم متناقضون في فهمهم وجوابهم.

(4/150)

وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب: أي بالنظر إلى العمل لها والعيش فيها فهي لهو يتلهى بها الإنسان ولعب يخرج منه بلا طائل ولا فائدة.

وإن الدار الآخرة لهي الحيوان : أي الحياة الكاملة الخالدة، ولذا العمل لها أفضل من العمل للدنيا.
لو كانوا يعلمون : أي لو علم المشركون هذا لما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والتنديد بالشرك وتذكير المشركين لعلمهم يوحدون. يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ} أي لئن سألت هؤلاء المشركين الذين يؤذون المؤمنين ويضطهدونهم من أجل توحيدهم لله تعالى لو سألتهم {مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} أي من أوجدهما من العدم، ومن سخر الشمس والقمر في فلكيهما يسيران الحياة كلها ليجيبنك قائلين الله. {فَأَنَّى (1) يُؤْفِكُونَ} أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته إنها حال تستدعي التعجب وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} هذا مظهر من مظاهر الحكمة الإلهية والتدبير الحكيم وهو موجب له الألوهية نافٍ لها عما سواه. فهذا يبسط الرزق له فيوسع عليه في طعامه وشرابه وكسائه ومركوبه ومسكنه، وهذا يضيق عليه في ذلك لماذا؟! والجواب: إنه يوسع امتحانا للعبد هل يشكر أو يكفر، ويضيق ابتلاءً للعبد هل يصبر أو يسخط. ولذا فلا حجة للمشركين في (2) غناهم وفقر المؤمنين فالغنى لا يدل على رضا الله على العبد ولا على سخطه. والفقر كذلك لا يدل على سخط ولا على رضا. وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} تقرير لحكمته ورحمته وعدله وتدبيره فهو يوسع لحكمة ويضيق لحكمة لعلمه بعباده وما يصلحهم وما يفسدهم إذ من الناس من يصلحه الغنى، ومنهم من يصلحه الفقر، والإفساد كذلك وقوله تعالى: {وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا} أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين فقلت من نزل من السماء

1 - الاستفهام للإنكار والتعجب.

2 - نزلت الآية رداً على المشركين الذين عيروا المؤمنين بالفقر وقالوا لهم: لو كنتم على الحق لم تكونوا فقراء، وهذا تمويه منهم إذ في الكافرين فقراء أيضاً.

3 - هذه الجملة تذييلية لإفادة أن ذلك كله جار على حكمة لا يُطَّلَع عليها.

ماء المطر فأحيا به الأرض بعد موتها بالقحط والجذب لأجابوك قائلين: الله إذا قل لهم: الحمد(1) لله على اعترافكم بالحق لو أنكم تعملون بمقتضاه فما دام الله هو الذي ينزل الماء ويحيي الأرض بعد موتها فالعبادة إذا لا تتبغي إلا له فلم إذا تعبدون معه آلهة أخرى لا تنزل ماء ولا تحيي أرضاً ولا غيرها، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} إذ لو عقلوا ما أشركوا بربهم أحجاراً وأصناماً ولا ما تناقضوا هذا التناقض في أقوالهم وأفعالهم يعترفون بالله ربا خالقاً رازقاً مدبراً ويعكفون على الأصنام يستغيثون بها ويدعونها ويعادون بل ويحاربون من ينهاهم عن ذلك.

وقوله تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي التي أعمت الناس عن الآخرة وصرفتهم عن التزود لها ما هي {إِلَّا لَهْوٌ وَوَعْبٌ} (2) إذ يتشاغل بها الكافر ويعمل لها الليل والنهار ثم يموت ويخرج منها صفر اليدين كالأطفال يلعبون طوال النهار ثم يعودون بلا شيء سوى ما نالهم من التعب فالواجب أن تحول إلى عمل صالح مثمر يتزود به العبد إلى آخرته إذ الآخرة هي الحيوان أي الحياة الكاملة الخالدة فلها يعمل العاملون، وفي عملها يتنافس المتنافسون. وهذا معنى قوله تعالى: {رِوَانِ الدَّارِ الآخِرَةِ} أي الدار الآخرة {لِهيِّ الحيوان} (3) أي الحياة التي يجب أن نعمل لها لبقائها وخيريتها، وقوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي نعم إذ لو علموا أن الآخرة خير لما أقبلوا على الدنيا وأعرضوا عن الآخرة، ولكن جهلهم هو سبب إعراضهم، فدواؤهم العلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التعجب من تناقض المشركين الذين يؤمنون بربوبية الله ويجحدون ألوهيته.
- 2- بيان حقيقة وهي أن الغنى والفقر لا يدلان على رضا الرب ولا على سخطه، وإنما يدلان على علم الله وحكمته وحسن تدبيره.
- 3- بيان حقارة الدنيا ونفاهتها وعظمة الآخرة وعلو قيمتها. فلذا أحق الناس وأشدهم سفاهة من يعمى عن الآخرة ويكفر بها ويبصر الدنيا ويؤمن بها.

-
- 1 - (الحمد لله) أي: على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته على كل شيء أراد.
 - 2 - اللهو: ما يلهو به الناس أي: يشتغلون به عن الأمور المكذبة أو يعمررون به أوقاتهم الخالية عن الأعمال.

3 - الحيوان: يقع على كل شيء حي، وحيوان: عين في الجنة، وقيل: أصل الحيوان حيان فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثليين.

(4/152)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (68)
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

شرح الكلمات:

في الفلك : أي في السفينة.

مخلصين له الدين : أي دعوا الله وحده فلم يذكروا معه غيره من الآلهة.

إذا هم يشركون : أي يفاجئونك بالشرك وهو دعاء غير الله تعالى.

ليكفروا بما آتيناهم : أي بنعمة الإنجاء من الغرق وغيرها من النعم.

فسوف يعلمون : أي سوف يعلمون عاقبة كفرهم إذا ألقوا في جهنم.

ويتخطف الناس من حولهم : أي يسبون ويقتلون في ديار جزيرتهم.

أفبالباطل يؤمنون : أي بالأصنام وهي الباطل، ينكر تعالى عليهم ذلك.

والذين جاهدوا فينا : أي بذلوا جهدهم في تصحيح عقائدهم وتركية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم ثم بقتال

أعداء الله من أهل الكفر المحاربين للإسلام والمسلمين.

لنهديهم سبلنا : أي لنوفقهم إلى معرفة ما يوصل إلى محبتنا ورضانا ونعينهم على تحصيله.

(4/153)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في التنديد بالمشركين وشركهم فقد تقدم في السياق أنهم يعترفون بربوبية الله

تعالى إذ لو سئلوا عن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر لقالوا الله ولو سئلوا عن نزل

من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها لقالوا الله. ومع هذا هم يشركون بالله آلهة أوثاناً، وكما

يعترفون بربوبية الله ثم يشركون به الأصنام، فإنهم إذا ركبوا في الفلك أي في سفينة من السفن

وجاءهم موج واضطربت بهم وخافوا الغرق دعوا الله تعالى {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي الدعاء فسألوه وحده دون آلهتهم أن ينجيهم من الغرق. {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ} ونزلوا سالمين من الغرق إذا هم يشركون يفاجئونك بالشرك فهذا التناقض منهم كالتناقض في اعترافهم بربوبية الله تعالى ثم بالإشراك به. ومرّد هذا إلى الجهل والتقليد والعناد والمجادة والمكابرة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى من هذا السياق وهي قوله {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (1).

وقوله تعالى في الآية (66): {لِيَكْفُرُوا} (2) بِمَا آتَيْنَاهُمْ أي عودتهم إلى الشرك بعد نجاتهم من الغرق ونزولهم في البر كان كأنه من أجل أن يكفروا بنعمة الله تعالى بإنجائهم من الغرق، إذ لو لم يكفروها لاستمروا على الإخلاص لله بدعائه وعبادته وحده دون الآلهة التي تركوها عند حلول الشدة ومعاناة البلاء. وقوله تعالى: {وَلِيَتِمَّتْ عُرْوَةُ الْقَوْمِ} قرئ بسكون اللام ورجح ابن جرير هذه القراءة فيكون المعنى: وليتمتعوا في دنياهم بما آتاهم الله من متاع الحياة الدنيا {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عاقبة ذلك بعد موتهم وهي عذاب الآخرة، والأمر حينئذ في قوله وليتمتعوا للتهديد والوعيد. أما على قراءة جر اللام وليتمتعوا فالجملة معطوفة على قوله ليكفروا أي أخلصوا في الشدة وأشركوا في الرخاء ليكفروا وليتمتعوا بما أوتوا في الحياة، ولم يكن ذلك بنافعهم ولا بمغن عنهم من الله شيئاً فسوف يعلمون ما يحل بهم من عذاب وما ينزل بهم من بلاء وشقاء.

- 1 - قال القرطبي: يدعون معه غيره وما لم ينزل به سلطانا. وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس والملاح لغرقنا، وهو كمال قال، وإنما هو عند المسلمين من الشرك الأصغر لا الأكبر كقول الرجل: لولا الطبيب لمات فلان، ولولا الكلب لسرقنا.
- 2 - (ليكفروا) هذه اللام هي لام كي، والظاهر أنها للعاقبة وما يؤول إليه الأمر، وقيل هي لام الأمر، وإن كانت كذلك فهو للتهديد والوعيد، ويقوي هذا الوجه قراءة من قرأها من القراء السبعة بسكون اللام (وليتمتعوا).

(4/154)

وقوله تعالى في الآية الثالثة (67) {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا} (1) آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ (2) النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أي ألم ير أولئك المشركون الكافرون بنعمة الله في الإنجاء من الغرق نعمة أخرى وهي أن جعل الله تعالى لهم حراماً آمناً يسكنونه آمنين من غارات الأعداء وحروب الظالمين المعتدين، لا يعتدى عليهم في حرمهم ولا يظلمون في حين أن الناس من حولهم في أطراف جزيرتهم وأوساطها يتخطفون فتشن عليهم الغارات ويقتلون ويؤسرون في كل وقت وحين، أليست هذه نعمة من أعظم

النعمة تستوجب شكرهم لله تعالى بعبادته وترك عبادة من سواه. ولذا قال تعالى عاتياً عليهم مندداً بسلوكهم {أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ (3)} أي بالشرك وعبادة الأصنام يصدقون ويعترفون {وَبِعِصْمَةِ اللَّهِ يُكْفَرُونَ} أي يجحدون إنعام ربهم عليهم فلا يشكرونه بعبادته وتوحيده فيها. وقوله تعالى في الآية الرابعة (68) {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ} وصفهم بالظلم الفظيع في حالتين الأولى في كذبهم على الله بتحريم ما أحل وتحليل ما حرم واتخاذ شركاء لله زاعمين أنها تشفع لهم عند الله عز وجل والثانية في تكذيبهم للحق الذي جاءهم به رسول الله وهو الدين الإسلامي بعقائده وشرائعه حيث كذبوا بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم. وبعد هذا التسجيل لأكبر ظلم عليهم قال تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (4) لِلْكَافِرِينَ}؟ والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مثنوى أي مسكناً للكافرين من أمثالهم وهم كفارون ظالمون وذلك جزاؤهم ولئیس الجزاء جهنم. وقوله تعالى في الآية الخامسة (69) {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (5) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ (6) الْمُحْسِنِينَ} في هذه الآية بشرى سارة ووعد صدق كريم، وذلك أن من جاهد في سبيل الله أي طلباً لمرضاة الله بالعمل على إعلاء كلمته بأن يعبد ولا يعبد معه سواه فقاتل

1 - هو مكة والحرم حولها.

2 - الخطف: الأخذ بسرعة. قال الضحاك يتخطف الناس من حولهم: أي يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً فذكرهم الله تعالى بهذه النعمة لعلمهم يذعنون له بالطاعة.

3 - الاستفهام للإنكار والتعجب أيضاً.

4 - المثنوى المستقر الدائم، والمثنوى كالمأوى وزناً ومعنى والاستفهام هنا للتقرير.

5 - جاهدوا الكفار والفساق والشيطان والنفس أمّا جهاد الكفار فلم يؤذن فيه في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية إلا أنه لا مانع أن ينزل الحكم قبل أن يشرع العمل. ولكنه منتظر، وأمّا جهاد النفس فهو لازم لا يفارق وكذا جهاد الشيطان عليه لعائن الله.

6 - المعية هنا: معية إعانة وتسيّد ونصرة على الأعداء المحاربين من الكفار والشياطين والنفس.

(4/155)

المشركين يوم يؤذن له في قتالهم يهديه الله تعالى أي يوفقه إلى سبيل النجاة من المرهوب والنفوس بالمحبوب، وكل من جاهد في ذات الله نفسه وهواه والشيطان وأولياءه فإن هذه البشرى تناله وهذا الوعد ينجز له وذلك أن الله مع المحسنين بعونه ونصره وتأييده على من جاهدهم في سبيل الله، والمراد من المحسنين الذين يحسنون نياتهم وأعمالهم وأقوالهم فتكون صالحة مثمرة لزيادة نفوسهم وطهارة أرواحهم. اللهم اجعلنا منهم وآتنا ما وعدتهم إنك جواد كريم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان أن مشركي العرب لم يكونوا ملاحدة لا يؤمنون بالله تعالى وتقرير أنهم كانوا موحدين توحيد الربوبية مشركين في توحيد الألوهية أي العبادة.
- 2- إيقاظ ضمائر المشركين بتببيهم بنعم الله تعالى عليهم لعلهم يشكرون.
- 3- لا ظلم أعظم من ظلم من افترى على الله الكذب، وكذب بالحق لما جاءه وانتهى إليه وعرفه فانصرف عنه مؤثرا دنياه متبعا لهواه.
- 4- بشرى الله لمن جاهد المشركين وجاهد نفسه والهوى والشياطين بالهداية إلى سبيل الفوز والنجاة في الحياة الدنيا والآخرة.
- 5- فضل الإحسان وهو إخلاص العبادة لله تعالى وأداؤها متقنة مجودة كما شرعها الله تعالى، وبيان هذا الفضل للإحسان بكون الله تعالى مع المحسنين بنصرهم وتأييدهم والإنعام عليهم وإكرامهم في جواره الكريم.

(4/156)

سورة الروم

...

سورة الروم

مكية

وآياتها ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (1) غَلَبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

شرح الكلمات:

الم : هذه أحد الحروف المقطعة تكتب الم، وتقرأ ألف، لام، ميم.

غلبت الروم : أي غلبت فارس الروم.

الروم : اسم رجل هو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم سميت به قبيلة لأنه جدها.

في أدنى الأرض : أي أقرب أرض الروم إلى فارس وهي أرض يقال لها الجزيرة "بين دجلة والفرات".

وهم من بعد غلبهم سيغلبون : أي وهم أي الروم من بعد غلب فارس لهم سيغلبونها.
في بضع سنين : أي في فترة ما بين الثلاث سنوات إلى تسع سنين.
لله الأمر من قبل ومن بعد : أي الأمر في ذلك أي في غلب فارس أولاً ثم في غلب الروم أخيراً لله وحده إذ ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن.

(4/157)

ويومئذ يفرح المؤمنون : أي ويوم تغلب الروم فارساً يفرح المؤمنون بنصر أهل الكتاب على المشركين عبدة النار، وينصرهم هم على المشركين في بدر.
وعد الله : أي وعدهم الله تعالى وعداً وأنجزه لهم.
لا يخلف الله وعده : أي ليس من شأن الله خلف الوعد وذلك لكمال قدرته وعلمه.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون : كمال الله في قدرته وعلمه المستلزم لإنجاز وعده.
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا : أي لا يعلمون حقائق الإيمان وأسرار الشرع وإنما يعلمون ما ظهر من الحياة الدنيا كطلب المعاش من تجارة وزراعة وصناعة.
وهم عن الآخرة هم غافلون : أي عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وجحيم وما يؤدي إلى ذلك من عقائد وأفعال وتروك.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {الم}: أحسن أوجه التفسير لمثل هذه الحروف القول بأن الله أعلم بمراده به، مع الإشارة إلى أنه أفاد فائدتين الأولى أن هذا القرآن المؤلف من مثل هذه الحروف المقطعة قد أعجز العرب على تأليف مثله فدل على أنه وحى من الله وتنزله، وأن من نزل عليه نبي الله ورسوله وأن ما يحمل من تشريع هو حاجة البشرية ولا تصلح ولا تكمل ولا تسعد إلا به وعليه، والثانية أنها لما كان المشركون يمنعون من سماع القرآن مخافة تأثيره على المستمع له جاء تعالى بمثل هذه الفواتح للعديد من سور كتابه فكانت تضطرهم إلى الاستماع إليه لأن هذه الحروف لم تكن معهودة في مخاطبتهم.
وقوله تعالى: {غُلِبَتِ الرُّومُ}(1): أي غلبت فارس الروم في {في أَدْنَى الْأَرْضِ} أي(2) أرض الشام الأقرب إلى بلاد فارس وذلك في أرض الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات

1 - هذا الخبر المقصود منه لازم الفائدة، إذ يعلم الله ذلك، وإنما المراد نحن نعلم ذلك فلا يهنتكم أيها المشركون ذلك ولا تتناولوا به على رسولنا وأوليائنا فإننا نعلم أنهم سيغلبون من غلبهم في بضع سنين لا يعد الغلب في مثله غلباً.

2 - اختلف في أدنى الأرض هل هذا الإدناء إلى أرض الروم أو إلى أرض الفرس كما في التفسير

أو أدنى الأرض إلى أرض الروم أو إلى أرض العرب، وهذا الخلاف سببه الخلاف في تحديد موقع المعركة فإن كانت بالجزيرة فأدنى الأرض هو بالنسبة إلى أرض فارس وإن كانت الواقعة بالأردن فهي أقرب إلى أرض الروم وإن كانت الواقعة بأدراعات جنوب الشام فهي أقرب إلى ديار العرب الحجاز وما حوله والراجح الأول كما في التفسير.

(4/158)

وقوله: {وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} أي وهم من بعد غلب فارس الروم ستغلب الروم فارساً وقوله: {فِي بَضْعِ سِنِينَ} أي في فترة زمنية ما بين الثلاث سنوات إلى تسع سنوات وقوله {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ (1) بَعْدُ} أي الأمر في ذلك لله تعالى من قبل الغلب ومن بعده إذ هو المتصرف في خلقه. وقوله {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ} أي (2) يوم يغلب الروم فارساً يفرح المؤمنون بانتصار الروم على فارس لأن الروم أهل كتاب وفارساً مشركون يعبدون النار، كما يفرح المؤمنون أيضاً بانتصارهم على المشركين في بدر إذ كان الوقت الذي انتصرت فيه الروم هو وقت انتصر فيه المؤمنون على المشركين في بدر. وهذا من الغيب الذي أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر فأكد بذلك أن الإسلام وكتابه ورسوله حق. وقوله تعالى: {يُنصِرُ مَنْ يُشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} أي ينصر تعالى من يشاء نصره من عباده وقد شاء نصر المؤمنين والروم فنصرهم في وقت واحد منجزاً بذلك وعده الذي واعد به منذ بضع سنين (3)، وهو العزيز أي الغالب على أمره القادر على إنجاز وعده الرحيم بأوليائه وصالحى عباده. وقوله ولكن {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (4)} كتدبير الله وقدرته وعزته وفوائده شرعه وأسرار دينه. ولكن يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا كتدبير معاشهم من زراعة وصناعة وتجارة، وفي نفس الوقت هم عن الحياة الآخرة غافلون عما يجب عليهم فعله وتركه ليسعدوا فيها بالنجاة من النار وسكان الجنان في جوار الرحمن سبحانه وتعالى.

- 1 - قبل، وبعد: مبنيان على الضم لحذف المضاف إليه ونية معناه أي: من قبل الغلب وبعده.
- 2 - قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله الله عز وجل: (الم غلبت الروم في أدنى الأرض) قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وذكر أن أبا بكر راهن قريشاً في كلام طويل، وقال الترمذي فيه حديث حسن صحيح غريب نقله القرطبي.
- 3 - وقيل كان النصر يوم صلح الحديبية لأن صلح الحديبية كان في واقع الأمر نصراً للمؤمنين، وما في التفسير أصح لحديث الترمذي وقد حسنه وصححه وقال فيه غريب.
- 4 - قال الحسن بلغ - والله - من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن

يصلي وفي هذا قال بعضهم شعراً:
ومن البلية أن ترى لك صاحباً
في صورة الرجل السميع البصير
فطن بكل مصيبة في ماله
وإذا يصاب بدينه لم يشعر

(4/159)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير صحة الإسلام وأنه الدين الحق بصدق ما يخبر به كتابه من الغيوب.
 - 2- بيان أن أهل الكتاب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة من بلاشفة شيوعيين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.
 - 3- بيان أن أكثر الناس لا يعلمون ما يسعدهم في الآخرة ويكملهم من العقائد الصحيحة والشرائع الحكيمة الرحيمة التي لا يكمل الإنسان ولا يسعد إلا عليها، ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا كتدبير المعاش من زراعة وصناعة وتجارة، أما عن سر الحياة الدنيا ولماذا كانت فهم لا يعلمون شيئاً كما هم عن الحياة الآخرة غافلون بالمرّة فلا يبحثون عما يسعد فيها ولا عما يشقى. والعياذ بالله تعالى من الغفلة عن دار البقاء في السعادة أو الشقاء.
- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

(4/160)

شرح الكلمات:

في أنفسهم : أي كيف خُلقوا ولم يكونوا شيئاً، ثم كيف أصبحوا رجالاً.
إلا بالحق : أي لم يخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق الذي هو العدل.

وأجل مسمى : وهو نهاية هذه الحياة لتكون الحياة الثانية حياة الجزاء العادل.
بلقاء ربهم لكافرون : أي بالبعث والوقوف بين يدي الله ليسألهم ويحاسبهم ويجزيهم.
وأثاروا الأرض : قلبوها للحرث والغرس والإنشاء والتعمير .
وعمروها : أي عمروا الأرض عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون.
وجاءت رسلهم بالبينات : أي بالدلائل والحجج والبراهين من المعجزات وغيرها.
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : أي بتكذيبهم وشركهم ومعاصيهم فعرضوا أنفسهم للهلاك.
أساءوا السوأى : أي بالتكذيب والشرك والمعاصي والسوءى هي الحالة الأسوأ.
أن كذبوا بآيات الله : أي بتكذيبهم آيات الله القرآنية واستهزأهم بها.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المنكرين للبعث الآخر إلى الإيمان به من طريق ذكر الأدلة العقلية التي تحملها الآيات القرآنية فقوله تعالى {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ(1)} أي أينكرون البعث ولم يتفكروا في أنفسهم كيف كانوا عدماً ثم وجدوا أطفالاً ثم شباباً ثم رجالاً كهولاً وشيوخاً ثم يموتون أليس القادر على خلقهم وتربيتهم ثم إمامتهم قادر على بعثهم وحسابهم ومجازاتهم على كسبهم في هذه الحياة الدنيا وقوله تعالى {مَا خَلَقَ اللَّهُ

1 - (في أنفسهم) ظرف للتفكر، وليس مفعولاً لفعل يتفكروا لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم بل في خلق السموات والأرض وما بينهما.

(4/161)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (1) وَأَجَلٍ مُّسَمًّى { أي لم يخلقهما عبثاً بل خلقهما ليذكر ويشكر، ثم إذا تم الأجل المحدد لهما أفناهما ثم بعث عباده ليحاسبهم هل ذكروا وشكروا أو تركوا ونسوا وكفروا ثم يجزيهم بحسب إيمانهم وطاعتهم أو كفرهم وعصيانهم.
وقوله تعالى {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} يخبر تعالى أنه مع ظهور الأدلة وقوة الحجج على صحة عقيدة البعث والجزاء فإن كثيراً من الناس كافرون بالبعث والجزاء وقوله تعالى في الآية (9) {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي أيكذب أولئك المشركون بالبعث والجزاء ولم يسيروا في الأرض شمالاً وجنوباً (2) فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم هلاكاً ودماراً، {كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ} بالإنشاء والتعمير والزراعة والفلاحة {وَعَمَرُوهَا} عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء، {وَجَاءَتْهُمْ} (3) رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}، ولما أهلكهم لم يكن ظالماً لهم بل كانوا هم الظالمين لأنفسهم. أليس في هذا دليلاً على حكمة الله وعلمه وقدرته فكيف ينكر عليه بعثه

لعباده يوم القيامة لحسابهم ومجازاتهم؟

وقوله تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا} أي الأعمال فلم يصلحوها حيث كذبوا برسول الله وشرائعه. وقوله: {السُّوْأَى(4)} أي عاقبة الذين أساءوا السُّوْأَى أي العاقبة السُّوْأَى وهو خسرانهم وهلاكهم، وقوله {أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} أي من أجل أنهم كذبوا بآيات الله {وَكَاثُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} وأصرروا على ذلك ولم يتوبوا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية المثبتة لها.

2- كفر أكثر الناس (5) بالبعث مع كثرة الأدلة وقوتها.

1 - جائز أن يكون (إلا بالحق) معناه: إلا للحق أو لإقامة الحق أو بالحكمة وما في التفسير أولى وكل ما ذكر يشمله ويدل عليه. والأجل المسمى: المراد به أن كل المخلوقات حدد لها أجل فنائها، وهذا التقرير للفناء مستلزم للحياة الآخرة.

2 - فينظروا بأبصارهم وبصائرهم فلما كذبوا أهلكهم الله وما كان ظالما لهم بل هم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصي.

3 - أي: بالمعجزات والأحكام الشرعية.

4 - السوءى: تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، والأسوأ: الأفيح من الأفعال والأقوال والمعتقدات، وجائز أن يكون المراد بالسوءى هنا جهنم كما أن المراد بالحسنى الجنة في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) أي الجنة.

5 - العلة أنهم لا يفكرون أي: لا يعملون خواطرهم في النظر والتأمل هذا هو سر عدم إيمانهم إذ لو نسب المفكرون إلى غيرهم لما كانت النسبة واحداً إلى مليون: ولم أر كالرجال تفاوتاً لدى الفكر حتى عدّ ألف بواحد

(4/162)

1- مشروعية السير في الأرض للاعتبار مع اشتراط عدم حصول إثم في ذلك بترك واجب أو بفعل محرم.

2- بيان جزاء الله العادل في أن عاقبة الإساءة السُّوْأَى(1).

3- كفر الاستهزاء بالشرع وأحكامه والقرآن وآياته.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

شرح الكلمات:

ثم إليه ترجعون : أي بعد إعادة الخلق وبعث الناس.
يبلس المجرمون : أي ييأسون من النجاة وتنقطع حجتهم فلا يتكلمون.
وكانوا بشركائهم كافرين: أي يتبرعون منهم ولا يعترفون بهم.
ينفرون : أي ينقسمون إلى سعداء أصحاب الجنة وأشقياء أصحاب النار.
في روضة يحبرون : أي في روضة من رياض الجنة يسرون ويفرحون.
في العذاب محضرون : أي مدخلون فيه لا يخرجون منه.

1 - أي: عاقبة الشرك والمعاصي وهما السوء والإساءة عاقبتهما السوءى أي: أشد العقوبات وأنها
في الدنيا والآخرة.

(4/163)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض صور حية صادقة لما يتم
بعد البعث من جزاء، فقوله تعالى {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} إعلان واضح صريح
قاطع للشك مزيل للبس بأن الله رب السموات والأرض وما بينهما هو الذي بدأ الخلق فخلق ما شاء
ثم يميتة ثم يعيده، وإليه لا إلى غيره ترجع الخليقة كلها راضية أو ساخطة محبة أو كارهة، هكذا قرر
تعالى عقيدة البعث والجزاء مدلاً عليها بأقوى دليل وهو وجوده تعالى وقدرته التي لا تحد وعلمه
الذي أحاط بكل شيء وحكمته التي لا يخلوا منها عمل، فقال {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ}.

وقوله عز وجل في الآية الثانية عشر (12) {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ (1) الْمُجْرِمُونَ} هذا عرض لما
بعد البعث فذكر أنه لما تقوم الساعة وبيعت الناس يبلس المجرمون أي ييأسون من الرحمة
وينقطعون عن الكلام لعدم وجود حجة يحتجون بها. وقوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ} أي
ولم يكن لهم من يشفع لهم من شركائهم الذين عبدوهم بحجة أنهم يشفعون لهم عند الله، فأيسوا من
شفاعتهم وكفروا بهم أيضاً أي أنكروا أنهم كانوا يعبدونهم خوفاً من زيادة العذاب. هذه حال المجرمين
الذين أجزموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي، الحامل عليها تكذيبهم بآيات الله ولقائه. وقوله تعالى

{يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ يَتَفَرَّقُونَ} هذا عرض آخر يخبر تعالى أنه إذا قامت الساعة تفرق الناس على أنفسهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وبين ذلك مقروناً بعلمه فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا (2) وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي صدّقوا بالله رباً وإلهاً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً لا دين يقبل غيره وبالبعث والجزاء حقاً. {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي عبدوا الله تعالى بما شرع لهم من العبادات إذ الصالحات هي المشروع من الطاعات القولية والفعلية فهؤلاء المؤمنون

1 - يقال أبلس بيلس إبلاسا: إذا سكت متحيراً وانقطعت حجته وأيس أن تكون له حجة، قال الشاعر:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً

قال نعم أعرفه وأبلسا

والمكرس: الذي بعرت فيه الإبل وبولت فركب بعضها بعضاً.

2 - قيل في: {فَأَمَّا} أن معناها: دع ما كنا فيه وخذ في غيره، وقيل معناها: مهما كنا في شيء فخذ في غير ما كنا فيه، والمعنى متقارب، والحقيقة أنها أداة شرط وتفصيل، تفصيل لما أجمل في الكلام السابق عليها وشرط ولذا قرن جوابها بالفاء.

(4/164)

العاملون للصالحات {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ (1)} من رياض الجنة {يُحْبَرُونَ (2)} أي يسرون ويفرحون بما لاقوه من الرضوان والنعيم المقيم، وذلك بفضل الله تعالى عليهم وبما هداهم إليه من الإيمان، وما وفقهم إليه من عمل الصالحات. وقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} فقد أخبر عن جزائهم مقروناً بعلّة ذلك الجزاء وهو كفرهم بتوحيد الله تعالى، والتكذيب بالآيات القرآنية وما تحمله من حجج وشرائع وأحكام، وبلقاء الآخرة وهو لقاء الله تعالى بعد البعث للحساب والجزاء، فجزاؤهم أن يحضروا في العذاب دائماً وأبداً لا يغيبون عنه، ولا يفتر عنهم، وهم فيه خالدون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض مشاهد القيامة.

2- تقرير عقيدة أن لا شفاعة لمشرك ولا كافر يوم القيامة، وبطلان ما يعتقده المبطلون من وجود

من يشفع

لأهل الشرك والكفر.

3- تقرير مبدأ السعادة والشقاء يوم القيامة فأهل الإيمان والتقوى في روضة يحبرون، وأهل الشرك والمعاصي في العذاب محضرون.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ

1 - الروضة: كل أرض ذات أشجار وماء وأزهار قال الأعشى:

وما روضة من رياض الحزن معشبة

خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق

مؤزر بعميم النبت مكتهل

2 - (يحبرون): ينعمون ويكرمون ويسرون بالحبور والسرور وأثر النعيم يقال: فلان حسن السبر والحبر، وفي الحديث " يخرج رجل من النار ذهب حبره وسبره".

(4/165)

تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

شرح الكلمات:

فسبحان الله : أي سبحوا الله أي صلوا.

حين تمسون : أي تدخلون في المساء وفي هذا الوقت صلاة المغرب وصلاة العشاء.

وحين تصبحون : أي تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح.

وله الحمد في السموات والأرض : أي وهو المحمود دون سواه في السموات والأرض.

وعشيًّا : أي حين تدخلون في العشي وفيه صلاة الظهر.

يخرج الحي من الميت : أي يخرج الإنسان الحي من النطفة وهي ميتة.

ويخرج الميت من الحي : أي يخرج النطفة من الإنسان الحي والبيضة الميتة من الدجاجة الحية.

ويحيى الأرض بعد موتها : أي يحييها بالمطر فتحي بالنبات بعدما كانت يابسة ميتة.

وكذلك تخرجون : أي من قبوركم أحياء بعدما كنتم ميتين.

ومن آياته : أي ومن أدلة قدرته وعلمه وحكمته المقتضية لبعثكم بعد موتكم.

أن خلقكم من تراب : أي خلقه إياكم من تراب، وذلك بخلق آدم الأب الأول.

تنتشرون : أي في الأرض بشراً تعمرونها.

لتسكنوا إليها : أي لتسكن نفوسكم إلى بعضكم بعضاً بحكم التجانس في البشرية.
وجعل بينكم مودة : أي محبة ورحمة أي شفقة إذ كل من الزوجين يحب الآخر ويرحمه.

(4/166)

معنى الآيات:

قوله سبحانه وتعالى في هذا السياق: {فَسُبْحَانَ (1) اللَّهِ} الآية. لما بين تعالى بدء الخلق ونهايته باستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وهذا عمل يستوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بجلاله وكماله كما يستلزم حمده، ولما كانت الصلوات الخمس تشتمل على ذلك أمر بإقامتها في المساء والصبح والظهرية والعشي فقال تعالى: {فَسُبْحَانَ (2) اللَّهِ} أي سبحوا الله {حِينَ تُمْسُونَ} أي تدخلون في المساء وهي صلاة المغرب والعشاء {وَحِينَ تُصْبِحُونَ} أي تدخلون في الصباح وهي صلاة الصبح. وقوله تعالى {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يخبر تعالى أن له الحمد مستحقاً لها دون سائر خلقه في السموات والأرض. وقوله {وَعَشِيًّا (3)} معطوف على قوله {حِينَ تُمْسُونَ} أي وسبحوه في العشي. وهي صلاة العصر {وَحِينَ تَطْهَرُونَ} أي وسبحوه حين تدخلون في الظهرية وهي صلاة الظهر.

وقوله تعالى {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (4)} أي ومن مظاهر الجلال والكمال الموجبة لحمده وطاعته والمقتضية لقدرته على بعث عباده ومحاسبتهم ومجازاتهم أنه يخرج الحي كالإنسان من النطفة والطيور من البيضة والمؤمن من الكافر {يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} كالنطفة من الإنسان والبيضة من الدجاجة وسائر الطيور التي تبيض. وقوله {يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي ومن مظاهر وجوده وقدرته وعلمه ورحمته أيضاً أنه يحيي الأرض بالمطر بعد موتها بالجذب والقحط فإذا هي رابية تهتز بأنواع النباتات والزرع وقوله {وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ (5)} أي وكإخراج الحي من الميت والميت من الحي وكإحيائه الأرض

1 - في هذه الآية الكريمة: (فسبحان الله) يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بعبادته في الأوقات

المذكورة في الآية، وأعظم العبادات الصلاة لأنها مشتملة على ذكره وشكره.

2 - هذه الفاء للتفريع إذ هذا الأمر متفرع عما قبله إذ بين تعالى أن الإيمان والعمل الصالح منج

لصاحبه فبناء على ذلك فأقيموا الصلاة.

3 - العشي والعشية من صلاة العصر إلى غروب الشمس حسب دلالة الآية لتدخل صلاة العصر

والإمساء: تدخل فيه صلاة المغرب والعشاء والصبح في الإصباح والظهر في الظهرية.

4 - كون النطفة تحمل حيوانات منوية لا يتنافى مع إطلاق الموت عليها إذ المراد من الموت الذي يوصف به الشيء كما وصفت الأرض بالموت إذا يبست ولم يكن بها نبات، وحبّة البر والشعير بالموت إذ الحياة تحدث للأرض بعد نزول المطر عليها والحبّة بعد تفاعلها مع التربة الثرية وكذا النطفة تحمل مادة الحياة كالأرض والحبّة ولا تظهر فيها إلا بعد تفاعلها الخاص في الرحم.

5 - في هذا دليل على مشروعية القياس وصحته، وجه القياس في الآيّة هو قياس المعاد على الخلق الأول والإيجاد.

(4/167)

بعد موتها: يحييكم ويخرجكم من قبوركم للحساب والجزاء إذ القادر على الأول قادر على الثاني. ولا فرق.

وقوله تعالى: {لَوْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} أي ومن آياته الدالة على وجوده وعلمه وقدرته المستوجبة لعبادته وحده والمقررة لقدرته على البعث والجزاء خَلَقَهُ للبشرية من تراب(1) إذ خلق أباهما الأول آدم عليه السلام من تراب، وخلق حواء زوجه من ضلعه ثم خلق باقي البشرية بطريقة التناسل. فإذا هي كما قال سبحانه وتعالى: بشر ينتشرون(2) في الأرض متفرقين في أقطارها يعمرونها بإذنه تعالى. وقوله تعالى: {لَوْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا(3) إِلَيْهَا} أي ومن آياته أي حججه وأدلتها الدالة على وجوده وعلمه ورحمته المستوجبة لعبادته وتوحيده فيها والدالة أيضا على قدرته على البعث والجزاء خلقه لكم أيها الناس من أنفسكم أي من جنسكم الآدمي أزواجاً أي زوجات لتسكنوا إليها بعامل التجانس، إذ كل جنس من المخلوقات يطمئن إلى جنسه ويسكن إليه، وقوله {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} أي جعل بين الزوجين مودة أي محبة ورحمة أي شفقة إلا إذا ظلم أحدهما الآخر فإن تلك المودة وتلك الرحمة قد ترتفع حتى يرتفع الظلم ويسود العدل والحق. وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} أي دلائل وحجج واضحة {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} باستعمال عقولهم في النظر والفكر فإنهم يجدون تلك الأدلة على قدرة الله وعلمه ورحمته وكلها مقتضية لتوحيد الله ومحبته وطاعته بفعل محابه وترك مساخطه، مع تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها المجرمون المكذبون.

1 - ووجه آخر للخلق من تراب وهو أن النطف التي هي أصل خلق الإنسان بعد الأبوين آدم وحواء قد تكونت من الغذاء، وأن الغذاء قد تكون من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتتة فهذا كان تكوين الإنسان من تراب فكان آية وأمر آخر هو أن التراب بارد يابس، وهو طبع الموت وطبع الحياة الحرارة والرطوبة، فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق

الحي الرطب فسبحان الخلاق العليم.

2 - الانتشار الظهور والتفرق هنا وهناك في البلاد والأقطار تعملون سامعين مبصرين منكم الصالح ومنكم خلفه وهو الفاسد.

3 - ضمن لتسكنوا لتميلوا لذا عدي باللام وفي الآية دليل على عدم تزوج الآدمي بغير الآدمية كالجنية إذ لا يحصل الأنس إلا بالجنس والآية تومئ إلى أن أول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة وذلك أن الختانين إذا التقيا هيجا ماء الصلب فإذا نزل حصل السكون ووقف الهيجان كما هو معروف.

(4/168)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

2- وجوب حمد الله على آلائه وإنعامه.

3- وجوب إقام الصلاة.

4- بيان أوقات الصلوات الخمس(1).

5- بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه ورحمته المقتضية لتوحيده والمقررة لعقيدة البعث والجزاء.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (22) وَمِنْ

آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ

يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ

تَخْرُجُونَ (25)

1 - روي عن ابن عباس أنه سئل هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال نعم: وقرأ هذه الآية

ومنها أخذ الإمام الشافعي أوقات الصلوات الخمس وأخذها مالك من آية الإسراء (أقم الصلاة لدلوك

الشمس) الآية.

(4/169)

شرح الكلمات:

ومن آياته : أي حججه وبراهينه الدالة على قدرته على البعث والجزاء.
واختلاف ألسنتكم : أي لغاتكم من عربية وعجمية والعجمية بينها اختلاف كثير .
وألوانكم : أي من أبيض وأصفر وأحمر وأسود والكل أبناء رجل واحد وامرأة واحدة.
للعالمين : أي للعقلاء على قراءة للعالمين (1) بفتح اللام، ولأولي العلم على قراءة كسر اللام.
وابتغواكم من فضله : أي طلبكم الرزق بإحضار أسبابه من زراعة وتجارة وصناعة وعمل.
لقوم يسمعون : أي سماع تدبير وفهم وإدراك لا مجرد سماع الأصوات.
يريكم البرق خوفاً وطمعاً : أي إرأته إياكم البرق خوفاً من الصواعق والظوفان وطمعاً في المطر.
أن تقوم السماء والأرض بأمره : أي قيام السماء والأرض على ما هما عليه منذ نشأتها بقدرته
وتدبيره.
دعوة من الأرض : أي دعوة واحدة لا تتكرر وهي نفخة إسرافيل.
إذا أنتم تخرجون : أي من قبوركم أحياء للحساب والجزاء.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء بذكر الأدلة والبراهين العقلية فقولته تعالى :
{وَمِنْ آيَاتِهِ} أي حججه الدالة على قدرته على البعث والجزاء وعلى وجوب توحيده {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ} فخلقُ بمعنى إيجاد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من أكبر الأدلة وأقواها على
وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته وكلها موجبة لتوحيده ومثبتة لقدرته على البعث والجزاء، مقررة له،
وقوله: {وَإِخْتِلَافُ} (2) أَلْسِنَتِكُمْ} أي

- 1 - بالفتح قرأ نافع وبالكسر قرأ حفص ولكل منهما متابع على ما قرأ والمعنى واحد إذ لا يكون العالم عالماً بدون عقل فكل عالم عاقل والعاقل يهديه عقله إلى أن يعلم فيعلم أيضاً.
- 2 - قال القرطبي اللسان في الفم وفيه اختلاف اللغات من العربية والعجمية والتركية والرومية واختلاف الألوان في الصورة من البياض والسواد والحمرة فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بد من فاعل فعلم أن الفاعل هو الله تعالى فهذا من أدل دليل على الباري سبحانه وتعالى.

(4/170)

لغاتكم من عربية وعجمية ولهجاتكم بحيث لكل ناطق لهجة تخصه يتميز بها إذا سمع صوته عرف بها من بين بلايين البشر، {وَأَلْوَانِكُمْ} واختلاف ألوانكم أيها البشر من أبيض إلى أسود ومن أحمر

إلى أصفر مع اختلاف الملاح والسمات بحيث لا يوجد اثنان من ملايين البشر لا يختلف بعضهما عن بعض حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر إن في هذا وذاك {لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ} أي لحجبا ظاهرة وبراهين قاطعة بعضها للعالمين(1) وذلك البياض والسواد وبعضها للعلماء كاختلاف اللهجات وملاح الوجوه والسمات المميزة الدقيقة والكل أدلة على قدرة الله وعلمه ووجوب عبادته وتوحيده في ذلك مع تقرير عقيدة البعث والجزاء.

وقوله {وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ قَضَائِهِ} أي ومن آياته الدالة على قدرته على البعث والجزاء منامكم بالليل فالنوم(2) كالموت والانتشار في النهار لطلب الرزق كالبعث بعد الموت فهذه عملية للبعث بعد الموت تتكرر كل يوم وليلة في هذه الحياة الدنيا، وقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي في ذلك المذكور من النوم والانتشار لطلب الرزق لدلائل وحجج على قدرة الله على البعث لقوم يسمعون(3) نداء الحق والعقل يدعوهم إلى الإيمان بالبعث والجزاء فيؤمنون فيصبحون يعملون للقاء ربهم ويستجيبيون لكل من يدعوهم إلى ربهم ليعبدوه ويتقربوا إليه.

وقوله تعالى في الآية الثالثة (24) {وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا(4) وَطَمَعًا} أي ومن حججه تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي مقتضيات توحيده والإيمان ببقائه إرأته(5) إياكم أيها الناس البرق خوفاً للمسافرين من الأمطار الغزيرة ومن الصواعق

1 - ذكر العالمين والعلماء في التفسير إشارة إلى القراءتين إذ قرأ نافع والجمهور للعالمين بفتح اللام وقرأ حفص بكسر العين للعالمين وهم العلماء.

2 - المنام مصدر ميمي وهو من الأعراض لا من الذوات وأمره عجيب إذ لو قيل لإنسان نم ولك مكافأة أعظم مكافأة لا يقدر على أن ينام إلا على سنة النوم وهو الاسترخاء والاضطجاع وإغماض العينين فترة حتى ينام، ولو شاء الله ما نام كما لو شاء ما هب من نومه.

3 - اختيار لفظ السماع مع آية النوم فيه إشارة إلى أن النائم يفقد السماع حال نومه بدون إرادته ولا اختياره.

4 - جائز أن يكون الخوف للمسافر والطمع للمقيم.

5 - التعبير بالمصدر "إرأته" إشارة إلى أن من أهل التفسير من يقول إن "أن" المصدرية محذوفة نحو قول الشاعر:

ألا أيها اللائمي احضر الوغى

وأن أشهد للذات هل أنت مخلدي

إذ التقدير أن احضر فحذف أن، ويصح أن يكون المعنى ومن آياته أنه يريكم فحذف أن واسمها وبقي الخبر وهو جملة يريكم والكل واسع وجائز.

الشديدة أن تصيبهم، وطمعاً في المطر الذي تحيا به مزارعكم وتنتبت به أرضكم فيتوفر لكم أسباب رزقكم، وقوله: {وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي ومن آياته تنزيله تعالى من السماء ماءً هو المطر فيحیی به الأرض بالنباتات والزرور بعد أن كانت ميتة لا حياة فيها لا زرع ولا نبت إن في ذلك المذكور من إنزال الماء وإحياء الأرض بعد إراسته عباده البرق خوفاً وطمعاً لآيات دلائل وحجج على قدرته على البعث والجزاء ولكن يرى تلك الدلائل ويعقل ويفهم تلك الحجج قوم يعقلون أي لهم عقول سليمة يستعملونها في النظر والاستدلال فيفهمون ويؤمنون.

وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} أي ومن آياته تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته والموجبة لتوحيده والمقررة لنبوة نبيه ولقائه للحساب والجزاء قيام السماء والأرض منذ خلقهما فلا السماء تسقط، ولا أرض تغور فهما قائمتان منذ خلقهما بأمره تعالى أليس في ذلك أكبر دليل على قدرة الله تعالى على بعث الناس بعد موتهم أحياء لحسابهم على كسبهم ومجازاتهم. وقوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ (1) تَخْرُجُونَ} أي أقام السماء والأرض للحياة الدنيا يحيى فيهما ويميت حتى تنتهي المدة المحددة للحياة فيهلك الكل ويفنيه {ثم إذا دعاكم دعوة} بنفخ إسرافيل في الصور {إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} من الأرض استجابة لتلك الدعوة، وذلك للحساب والجزاء العادل على العمل في هذه الحياة الدنيا.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لعبادته وحده وترك عبادة من سواه.
- 2- مشروعية طلب الرزق بالمشي في الأرض واستعمال الوسائل المشروعة لذلك.
- 3- تقرير أن الذين ينتفعون بأسماعهم وعقولهم هم أهل حياة الإيمان إذ الإيمان روح متى دخلت جسماً حيي

وأصبح صاحبه يسمع ويبصر ويفكر ويعقل.

- 4- تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الإصلاح البشري بعد عقيدة الإيمان بالله رباً وإلهاً.

1 - إذ الأولى شرطية والثانية فجائية سادة مسد فاء الجواب وصيغة الدعاء كما ذكرها القرطبي: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأوليين والآخرين إلا قامت تنتظر كقوله تعالى {فإذا هم قيام ينظرون}.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ (29)

شرح الكلمات:

وله من في السموات والأرض : أي خلقا وملكا وتصرفاً وعبيداً.
كل له قانتون (1) : أي كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن منقادون له تجري عليهم أحكامه كما أَرادها فلا يتعطل منها حكم.
وهو أهون عليه : أي أيسر وأسهل نظراً إلى أن الإعادة أسهل من البداية.
وله المثل الأعلى : أي الوصف الأعلى في كل كمال فصفاته كلها عليا ومنها الوجدانية.
وهو العزيز الحكيم : أي الغالب على أمره الحكيم في قضائه وتصرفه.
ضرب لكم مثلاً : أي جعل لكم مثلاً.
من أنفسكم : أي منتزعا من أموالكم وما تعرفونه من أنفسكم.

1 - القنوت الطاعة وهي الانقياد والخلاق كلها منقادة مطيعة لما أَراد الله منها فلا يتخلف قضاؤه تعالى وحكمه فيها بحال من الأحوال.

(4/173)

كخيفتكم أنفسكم : أي تخوفكم من بعضكم بعضاً أيها الأحرار .
نفصل الآيات : أي نبينها بتنوع الأسلوب وإيراد الحجج وضرب الأمثال .
بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم : أي ليس الأمر قصوراً في البيان حتى لم يؤمن المشركون وإنما العلة اتباع المشركين لأهوائهم وتجاهل عقولهم .
فمن يهدي من أضل الله؟ : أي لا أحد فالاستفهام للنفي .
معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير قدرة الله تعالى على البعث الذي أنكره المشركون بذكر الأدلة العقلية وتصريف الآيات فقال تعالى ﴿وَلَهُ﴾ أي لله المحيي المميت الوارث الباعث سبحانه وتعالى ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من ملائكة وجان وإنسان فهو خلقهم وهو يملكهم ويتصرف فيهم . وقوله : ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (1) أي مطيعون منقادون فالملائكة لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والجن

والإنس منقادون لما أَرَادَهُ مِنْهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَنَشُورٍ وَأَمَّا عَصِيَانُهُمْ فِي الْعِبَادَاتِ فَهُوَ غَيْرُ مَقْصُودٍ لِأَنَّهُ التَّكْلِيفُ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا وَمَعَ هَذَا فَهَمَّ مَنْفَذُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ مَا كَتَبَهُ عَلَيْهِمْ أَرْزَلًا وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَالْحَمْدُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي (2) بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَيُّهُوَ اللَّهُ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ مَا أَرَادَ خَلْقَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَسَاعَةٍ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَيُهَيِّبُهُ الْحَيَاةَ ثُمَّ يَسْلُبُهَا مِنْهُ فِي آجَالٍ سَمَاهَا ثُمَّ يُعِيدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَبُّ النَّاسِ أَمْ كَرَهُوا. وَقَوْلُهُ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ (3) عَلَيْهِ﴾ أَيُّهُوَ الْإِعَادَةُ أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ عَلَيْهِ فَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ صَعْبٌ وَلَا شَاقٌ وَلَا عَزِيزٌ مَمْتَنٌّ، وَإِنَّمَا خَرَجَ الْخَطَابُ عَلَى أَسْلُوبِ الْمُتَعَجِّبِينَ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْمُتَعَارِفَ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْإِعَادَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْبِدَاءِ لِيَفْهَمُوا وَيَقْتَنِعُوا، وَإِلَّا فَلَا شَيْءٌ صَعْبٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا شَاقٌ وَلَا عَسِيرٌ، إِذْ هُوَ يَقُولُ لِلشَّيْءِ مَتَى أَرَادَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ (4) الْأَعْلَى فِي

- 1 - ذكر القرطبي لتفسير كلمة (قانتون) تفاسير عدة عن السلف منها مطيعون طاعة انقياد، مقرون بالعبودية إما قالة وإما دلالة مصلون قائمون يوم القيامة مخلصون.
- 2 - قال القرطبي: أما بدء خلقه فبعلقه في الرحم قبل ولادته وأما إعادته فأحياؤه بعد الموت في النفخة الثانية للبعث فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته استدلالا بالشاهد على الغائب.
- 3 - أهون بمعنى هين، لقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا، والعرب تطلق أفعل على فاعل قال الشاعر:
إن الذي شمل السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول
- 4 - أي ثبت له واستحق الشأن الأتم الذي لا يقاس بشؤون الناس المتعارفة وإنما بقصد التقريب لأفهامكم والأعلى الأعظم البالغ نهاية العظمة والقوة.

(4/174)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وَلَهُ أَيُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْوَصْفُ الْأَكْمَلُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْأَلُوْهِيَّةُ وَالْوَحْدَانِيَّةُ فَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِيهِمَا وَلَا رَبَّ غَيْرَهُ لِهَمَا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَعَصَاهُ الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ لَشُؤُنِ خَلْقِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا (1) مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ جَعَلَ لَكُمْ مَثَلًا مَأْخُودًا مَمْتَنًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (2) وَهُوَ: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ مَمَالِكِكُمْ وَعَبِيدِكُمْ شَرِيكَ مِنْهُمْ يَشَارِكُكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ إِذْ لَا تَرْضُونَ بِذَلِكَ وَلَا

تقرونه أبداً، إذاً فكذلك الله تعالى لا يرضى أن يكون من عبده من هو شريك له في عبادته التي خلق كل شيء من أجلها.. وقوله {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} أي تخافون عبيدكم كما تخافون بعضكم بعضاً أيها الأحرار، أي لا يكون هذا منكم ولا ترضون به إذاً فالله - وله المثل الأعلى - كذلك لا يرضى أبداً أن يكون مخلوق من مخلوقاته ملكا كان أو نبياً أو وثناً أو صنماً شريكاً له في عباداته. وقوله: {كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ} أي نبينها بتتويج الأساليب وضرب الأمثال {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} إذ هم الذين يفهمون معاني الكلام وما يرد من أخباره وقصصه وأمثاله وأوامره ونواهييه. وقوله تعالى {لِئَلَّا تُتَّبَعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ليس الأمر قصوراً في الأدلة ولا عدم وضوح في الحجج وإنما الظالمون اتبعوا أهواءهم أي ما يهوون ويشتهوونه بغير علم من نفعه وجدواه لهم فضلوا لذلك. فمن يهديهم، وقد أضلهم الله حسب سنته في الإضلال. وهو معنى قوله تعالى: {لَقَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟} أي لا أحد وقوله {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} أي يهدونهم بعد أن أضلهم الله، والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- تقرير عقيدة البعث والتوحيد بذكر الأدلة وضرب الأمثال وتفصيل الآيات.

2- تفرّد الرب تعالى بالمثل الأعلى في كل جلال وكمال.

1 - ضرب المثل إيقاعه ووضعه، واللام في لكم للتعليل أي لأجلكم.

2 - من في قوله مثلاً من أنفسكم للابتداء وفي قوله من أنفسكم للتبويض وفي قوله من شركاء زائدة. قال قتادة هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله فإن لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء.

(4/175)

1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام.

2- عظم فائدة المثل "ضرب لكم مثلاً من أنفسكم الآية" حتى قال بعضهم (1) فهم هذا المثل أفضل من حفظ كذا مسألة فقهية.

3- علة ضلال الناس (2) اتباعهم لأهوائهم بغير علم وبانصرافهم عن الهدى بالاسترسال في اتباع الهوى.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَإِقْوَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ

فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

شرح الكلمات:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا : أي سدد وجهك يا رسولنا للدين الإسلامي بحيث لا تنظر إلا إليه.

حنيفًا : أي مائلا عن سائر الأديان إليه، وهو بمعنى مقبلا عليه.

فطرة الله : أي صنعة الله التي صنع عليها الإنسان وهي قابليته للإيمان بالله تعالى.

لا تبديل لخلق الله : أي لا تعملوا على تغيير تلك القابلية للإيمان والتوحيد فالجملة خبرية لفظاً

إنشائية معنى.

الدين القيم : أي المستقيم الذي لا يضل الآخذ به.

منيبين إليه : أي راجعين إليه تعالى بفعل محابه وترك مكارهه.

- 1 - المراد به القرطبي إذ قال عند تفسير هذه الآية: "وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك".
- 2 - لما أقام عليهم الحجة ذكر تعالى أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم وتقليد آبائهم وأسلافهم.

(4/176)

وكانوا شيعا : أي طوائف وأحزاباً كل فرقة فرحة بما هي عليه من حق وباطل.

معنى الآيات:

لما قرر تعالى عقيدة التوحيد والبعث والجزاء بالأدلة وضمن ذلك عقيدة النبوة وإثباتها للنبي صلى الله

عليه وسلم أمر رسوله والمؤمنون تبع له فقال {فَأَقِمْ (1) وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} (2) أي أنصبوا وجوهكم

أيها الرسول والمؤمنون للدين الحق دين الإسلام القائم على مبدأ التوحيد والعمل الصالح، فلا تلتفتوا

إلى غيره من الأديان المنحرفة الباطلة. وقوله {فَطَرْتِ (3) اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} أي أقيموا

وجوهكم للدين الحق الذي فطر الله الإنسان عليه تلك الفطرة التي هي خلق الإنسان قابلاً للإيمان

والتوحيد. وقوله: {لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ} أي لا تبدلوا تلك الخلقة ولا تغيروها بل نموها وأبرزوها بالتربية

حتى ينشأ الطفل على الإيمان والتوحيد. فالجملة خبرية لفظاً وإنشائية معنى نحو فهل أنتم منتهون

فهي بمعنى انتهوا وهي أبلغ من انتهوا فكذا: لا تبديل أبلغ من لا تبدلوا. وقوله: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}

(4) أي لزوم ما فطر عليه المرء من الإيمان بالله وتوحيده.. وإبراز ذلك في الواقع بالإيمان بالله وبما

أمر بالإيمان به من أركان الإيمان وعبادة الله تعالى وهي طاعته بفعل ما يأمر به وينهى عنه

مخلصاً له ذلك لا يشاركه فيه غيره من سائر مخلوقاته هو الدين القيم الذي يجب أن يكون عليه

الإنسان وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (5)} يخبر تعالى بأن ما قرره من الدين القيم كما بيّنه

في الآيات أكثر الناس لا يعلمونه ولا يعرفونه وهو كما أخبر سبحانه

- 1 - فأقم وجهك: هذا الفاء هي الفاء الفصيحة إذ هي مفضحة عن جواب سؤال مقدر تقديره هنا إذا علمت أحوال المعرضين عن الحق بعد ظهور دلائله فأقم وجهك والمراد من الأمر دوام إقامة الوجه والاستمرار عليه.
- 2 - حنيفا منصوب على الحال أي حال كونك معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المنحرفة الباطلة إلى دين الله الحق الذي لم يبدل ولم يغيّر وهو الإسلام.
- 3 - فطرة: جائز أن يكون منصوباً على المفعولية المطلقة أي فطر الله تعالى الإنسان على ذلك فطرة، وجائز أن يكون منصوباً على أنه مفعول به أي وابتع فطرة الله والتقدير: فأقم وجهك للدين حنيفاً واتبع فطرة الله.
- 4 - قيم كهيّن ولين مفيد قوة الاتصاف بمصدره أي الدين البالغ قوة القيام أي الاستقامة والبعد عن الاعوجاج. يقال عود مستقيم وقيم من تشبيه المعقول بالمحسوس.
- 5 - في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم مقراً حقيقة أن الإسلام هو دين الفطرة يقول: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .." الجمعاء أي جامعة لأعضائها لا نقص فيها والجدعاء التي يجدها أي يقطع منها عضو كالذيل أو الأذن.

(4/177)

وتعالى. وقوله {مُنْيَبِينَ (1) إِلَيْهِ} أي أقيموا وجوهكم للدين القيم حال كونكم راجعين إليه تعالى تائبين إليه من كل دين غير هذا الدين، ومن كل طاعة غير طاعته تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي. وقوله: {وَأَنْقُوهُ} أي خافوه تعالى إذ عذابه شديد فلا تتركوا دينه لأي دين ولا طاعته لأي مطاع غير الله تعالى ورسوله وقوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} أي حافظوا عليها في أوقاتها وأدوها كما شرعها كمية وكيفية فإنها سقيا الإيمان ومُنية الخشية والمحبة لله تعالى. وقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا (2) دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} ينهى تعالى المؤمنين من أهل الدين القيم الذي هو الإسلام أن يكونوا من المشركين في شيء من ضروب الشرك عقيدة وقولا وعملا. فكل ملة غير ملة الإسلام أهلها مشركون كافرون سواء كانوا مجوساً أو يهوداً أو نصارى أو بوذة أو هندوكاً أو بلاشفة شيوعيين إذ جميعهم فرقوا دينهم الذي يجب أن يكونوا عليه وهو دين الفطرة وهو الإسلام وكانوا شيعاً أي فرقا وأحزاباً كل فرقة تنتصر لما هي عليه وتتحزب له. فأصبح كل حزب منهم بما لديهم من دين

فرحين به ظنا منهم أنه الدين الحق وهو الباطل قطعاً، لأنه ليس دين الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان وهو الإسلام القائم على توحيد الله تعالى وعبادته بما شرع لعباده أن يعبدوه به ليكملوا على ذلك ويسعدوا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الإقبال على الله تعالى بعبادته والإخلاص له فيها.
- 2- الإسلام هو دين الله الذي خلق الإنسان متأهلاً له ولا يقبل منه دين غيره.
- 3- وجوب الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه في كل حال.
- 4- وجوب تقوى الله عز وجل وإقام الصلاة.
- 5- البراءة من الشرك والمشركين.
- 6- حرمة الافتراق في الدين الإسلامي ووجوب الاتحاد فيه عقيدة وعبادة وقضاء.

1 - شاهد الإنابة بمعنى التوبة في قول الشاعر:

فإن تابوا فإن بني سليم

وقومهم هوازن قد أنابوا

ومنيبين حال من أقم وجهك وجمع لأن الأمة مخاطبة معه صلى الله عليه وسلم.

2 - قرأ الجمهور فرقوا وقرأ حمزة والكسائي فارقوا، والشيع جمع شيعة وهي الجماعة التي تنتشيع أي توافق وتجمع عليه والحزب الجماعة الذين رأبهم ونزعتهم واحدة.

(4/178)

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدَّاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذَا أَدَّاهُمْ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ (36)

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

شرح الكلمات:

وإذا مس الناس ضر : أي إذا مس المشركين ضر أي شدة من مرض أو فقر أو قحط.

منيبين إليه : أي راجعين إليه بالضراعة والدعاء إليه تعالى دون غيره.

رحمة : بكشف ضر أو إنزال غيث وإصابة رخاء وسعة رزق.

يشركون : أي بربهم فيعبدون معه غيره بالذبح للآلهة والنذر وغيره.
ليكفروا بما آتيناهم : أي ليكون شكرهم لله كفاً بنعمه والعياذ بالله.
أم أنزلنا عليهم سلطاناً : أي حجة من كتاب وغيره ينطق بشركهم ويقره لهم ويأمرهم به.
بما قدمت أيديهم : أي بذنوبهم وخروجهم عن سنن الله تعالى في نظام الحياة.
إذا هم يقنطون : أي يياسون من الفرج بزوال الشدة.
يبسط الرزق لمن يشاء : أي يوسع امتحاناً له.
ويقدر : أي يضيق الرزق على من يشاء ابتلاء.

(4/179)

معنى الآيات:

لما أمر تعالى رسوله والمؤمنين بإقامة الدين ونهاهم أن يكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أخبر تعالى عن المشركين أنهم إذا مسهم الضر وهو المرض والشدة كالحط والغلاء ونحوها دعوا ربهم تعالى منيبين إليه أي راجعين إليه بالدعاء والضراعة لا يدعون غيره. وهو قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا (1) رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أصابهم برحمة من عنده وهي الصحة والرخاء والخصب ونحوه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي كثير ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فيعبدون الأصنام والأوثان بأنواع العبادات، وقوله ﴿لِيَكْفُرُوا (2) بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي أشركوا بالله بعد إنعامه عليهم ليكفروا بما آتاهم من نعمة كشف الضر عنهم إذا ﴿فَتَمَتَّعُوا (3)﴾ أيها الكافرون بما خولكم الله من نعمة فسوف تعلمون عاقبة كفركم لنعم الله وشرككم به يوم تردون عليه حفاة عراة لا ولي لكم من دونه تعالى ولا نصير.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا (4) عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي ما الذي شجعهم على الشرك وجعلهم يصرون عليه حتى إذا تركوه ساعة الشدة عادوا إليه ساعة الرخاء أنزلنا عليهم سلطاناً أي حجة من كتاب ونحوه فهو ينطق بشركهم ويقره لهم ويأمرهم به اللهم لا، لا، وإنما هو الجهل والتقليد والعناد وقوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ هذه حال أهل الشرك والكفر والجهل من الناس إذا أذاقهم الله رحمة من خصب ورخاء وصحة فرحوا بها فرح البطر والأشر ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من جدد وقحط ومرض وفقير، ﴿بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ من الذنوب والمعاصي ومنها مخالفة سنن الله في الكون ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (5)﴾ أي يياسون من الفرج وذلك لكفرهم بالله وجهلهم بأسمائه

1 - الضر بالضم الضاد سوء الحال في البدن أو العيش أو المال وهذه الجملة الخبرية تحمل السامع على التعجب من حال المشركين كيف يخلصون الله تعالى الدعاء في الشدة ويشركون به في

الرخاء يا للعجب!!

- 2 - هذه لام التعليل في ظاهرها ولكنها آلت لمعنى العاقبة في واقعها.
- 3 - الأمر للتهديد والتوعد على كفران النعم واستبدال شكرها بالكفر بالمنعم عز وجل الشرك به.
- 4 - أم أنزلنا: أم للإضراب الانتقالي فهي بمعنى بل، وحرف الاستفهام مقدر أي أنزلنا عليهم الخ. وهو إنكاري أن الله تعالى لم ينزل عليهم حجة تبيح لهم الشرك وتقرره.
- 5 - هذه الصفة وإن كان المراد بها المشركون فإنها قد يتصف بها بعض المؤمنين فتجد أحدهم يصاب بالبطر عند حلول النعم ويترك الشكر ويقنط عند حلول النقم والشدة وينسى الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فهو كما قال الشاعر:

كحمار السوء إن أعلفته

رمح الناس وإن جاع نهق

(4/180)

وصفاته.

وقوله تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي ألم يروا بأعينهم أن الله يبسط الرزق أي يوسعه لمن يشاء امتحانا له أيشكر أم يكفر، {وَيَقْدِرُ} أي يضيق الرزق على من يشاء ابتلاء أيصبر أم يضجر ويسخط. إذ لو كانت لهم عيون يبصرون بها وقلوب يفقهون بها لما أيسوا من رحمة الله وفرجه ولا ما قنطوا. وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي المذكور من تدبير الله في خلقه بالإعطاء والمنع {لآياتٍ} أي حججا ودلائل تدل المؤمنين على قدرة الله ولطفه ورحمته وحكمته في تدبير ملكه وملكوته فسبحانه من إله عظيم ورب غفور رحيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان جهل المشركين وضلال عقولهم بما ذكر تعالى من صفاتهم وأحوالهم.
 - 2-- بيان تهديد الله تعالى للمصرين على الشرك والكفر بعذاب يوم القيامة.
 - 3- بيان حال أهل الشرك والجهل في فرحهم بالنعمة فرح البطر والأشر وبأسهم وقنوطهم عند نزول البلاء بهم والشدة.
 - 4- مظهر حكمة الله وتدبيره في الرزق توسعة وتقديراً وإدراك ذلك خاص بالمؤمنين لأنهم أحياء يبصرون ويفهمون بخلاف الكافرين فهم أموات لا إبصار ولا إدراك لهم.
- قَاتِ دَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَاً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ

(4/181)

شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

شرح الكلمات:

فَاتِذَا الْقُرْبَى : أي أعط ذاك القرابة حقه من البر والصلة.
والمسكين : أي المعدوم الذي لا مال له أعطه حقه في الطعام والشراب والكساء.
وابن السبيل : أي أعط ابن السبيل أي المسافر حقه في الإيواء والطعام.
ذلك خير : أي ذلك الإنفاق خير من عدمه للذين يريدون وجه الله تعالى إذ يثيبهم ربهم أحسن ثواب.
وما آتيتم من ربا : أي من هدية أو هبة وسميت ربا لأنهم يقصدون بها زيادة أموالهم.
ليربوا في أموال الناس : أي ليكثر بسبب ما يرده عليكم من أهديتموه القليل ليرد عليكم الكثير.
فلا يربوا عند الله : أي لا يباركه الله ولا يضاعف أجره.
فأولئك هم المضعفون : أي الذين يؤتون أموالهم صدقة يريدون بها وجه الله فهؤلاء الذين يضاعف لهم الأجر أضعافاً مضاعفة.
هل من شركائكم : أي من أصنامكم التي تعبدونها.
من يفعل من ذلكم من شيء : والجواب لا أحد، إذاً بطلت ألوهيتها وحرمت عبادتها.
سبحانه وتعالى عما يشركون : أي تنزه الرب عن الشرك وتعالى عن المشركين.
معنى الآيات:

لما بين تعالى في الآية السابقة لهذه أنه يبسط الرزق لمن يشاء امتحاناً ويقدر على من يشاء ابتلاء أمر رسوله وأمه التابعة له بإيتاء ذاك القرى حقه والمسكين وابن السبيل، إذ منع

(4/182)

الحقوق الواجبة لا يزيد في سعة الرزق ولا في تضييقه، إذ توسعة الرزق وتضييقه مرده إلى تدبير الله تعالى الحكيم العليم هذا ما دل عليه قوله تعالى {فَاتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ (1)} أي من البر والصلة {وَالْمَسْكِينِ} وهو من لا يملك قوته {وَابْنِ السَّبِيلِ} وهو المسافر ينزل البلد لا يعرف فيها أحداً، وحقهما: إيوؤهما وإطعامهما وكسوتهما وقوله تعالى {ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} أي ذلك

الإيتاء من الحقوق خيراً حالاً ومالاً للذين يريدون وجه الله تعالى وما عنده من ثواب. وقوله: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي الفائزون بالنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة، وبدخول الجنة يوم القيامة وقوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ} أي وما أعطيتم من هبات وهدايا تريدون بها أن يُردَّ عليكم بأكثر مما أعطيتم فهذا العطاء لا يربو عند الله ولا يضاعف أجره بل ولا يوجر عليه وقوله: { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ } أي صدقات تريدون بها وجه الله ليرضى عنكم ويغفر لكم ويرحمكم، {فَأُولَئِكَ} هؤلاء الذين ينفقون ابتغاء وجه الله {هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي الذين يضاعف لهم الأجر والثواب.

وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (2) ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} يخبر تعالى المشركين من عباده موبخاً لهم على شركهم مقرعاً: الله لا غيره هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً ثم رزقكم بما تتموا به أجسادكم وتحفظ به حياتكم من أنواع الأغذية ثم يميتكم عند نهاية آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة للحساب والجزاء على الكسب في هذه الدنيا ثم يقول لهم {هَلْ (3) مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ} المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء {مِنْ شَيْءٍ}؟ والجواب: لا وإذا فلم تعبدونهم من دون الله، فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون. ثم نزه تعالى نفسه عن الشرك، وتعالى عن المشركين فقال {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (4)}

- 1 - الخطاب وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم فأمتة تابعة له في هذا كله وابن السبيل إن استضاف مؤمناً وجب عليه ضيافته لقوله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" في الصحيح.
- 2 - استئناف لتقرير عقيدة التوحيد وإبطال التنديد والتوبيخ والتفريع على الشرك الذي هو أعظم أنواع الظلم وصاحبه أخط الناس قدراً وأفسدهم نوقاً وعقلاً.
- 3 - الاستفهام إنكاري مشوب بالنفي لقرينة من المؤكدة لنفي الجنس والإشارة في قوله من ذلكم إلى ما ذلك من الخلق والرزق والإماتة والإحياء.
- 4 - قرأ الجمهور بالياء وقرأ غيرهم بتاء الخطاب بدون التفات من الغيبة إلى الخطاب.

(4/183)

من هداية الآيات

هداية الآيات

- 1- وجوب إعطاء ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة.
- 2- وجوب كفاية الفقراء وأبناء السبيل في المجتمع الإسلامي.

3- جواز هدية الثواب (1) الدنيوي كأن يهدي رجل شيئاً يريد أن يرد عليه أكثر منه ولكن لا ثواب فيه في الآخرة، وتسمى هذه الهدية: هدية الثواب وهي للرسول محرمة لقوله تعالى له: ﴿وَلَا تَمُنُّنَ سُنَّكَثْرُ﴾.

4- بيان مضاعفة الصدقات التي يراد بها وجه الله تعالى.

5- إبطال الشرك والتنديد بالمشركين وبيان جهلهم وضلال عقولهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

1 - الهبة ثلاثة أنواع الأول هبة يريد بها صاحبها وجه الله تعالى كأن يهب عبداً صالحاً هبة إكراماً له وإسعاداً فهذه جائزة ويثيب عليها الله تعالى والثانية هبة يريد بها صاحبها رد أكثر منها كأن يهدي فقير لغني أو مأمور لأمر فهذه ثوابها ما يعطيه له من أهداه ولا أجر له عند الله. وله أن يطالب من أهداه للثواب ولم يثيبه والثالثة الصدقات تعطى للفقراء فهي هبة لله والله يثيب عليها إن خلت من الرياء فإذا شابها رياء فلا ثواب فيها.

(4/184)

شرح الكلمات:

ظهر الفساد في البر والبحر : أي ظهرت المعاصي في البر والبحر وتبعها الشر والفساد.

بما كسبت أيدي الناس : أي بسبب ما كسبته أيدي الناس من ظلم واعتداء.

ليذيقهم بعض الذي عملوا : أي تم ذلك وحصل ليذيقهم الله العذاب ببعض ذنوبهم.

لعلهم يرجعون : كي يرجعوا عن المعاصي إلى الطاعة والاستقامة.

قل سيروا في الأرض : أي قل يا رسولنا لأهل مكة المكذبين بك والمشركين بالله سيروا.

عاقبة الذين من قبل : أي كيف كانت نهاية تكذيبهم لرسولهم وشركهم بربهم إنها هلاكهم.

فأقم وجهك للدين القيم : أي استقم على طاعة ربك عابداً له مبلغاً عنه منفذاً لأحكامه.

لا مرد له من الله : أي لا يرده الله تعالى لأنه قضى بإتيانه وهو يوم القيامة.

يصدعون : أي يتفرقون فرقتين.

يمهدون : أي يوطئون ويفرشون لأنفسهم في منازل الجنة بإيمانهم وصالح أعمالهم.

معنى الآيات:

تقدم في السياق الكريم إبطال الشرك بالدليل العقلي إلا أن المشركين مصرّون على الشرك وبذلك سيحصل فساد في الأرض لا محالة فأخبر تعالى عنه بقوله في هذه الآية الكريمة (41) فقال {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي انتشرت المعاصي في البر (1) والبحر وفي الجو اليوم فعُبد غير الله واستبيحت محارمه وأوذى الناس في أموالهم وأبدانهم وأعراضهم وذلك نتيجة الإعراض عن دين الله وإهمال شرائعه وعدم تنفيذ أحكامه. وقوله {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} أي بظلمهم وكفرهم وفسقهم وفجورهم. وقوله: ليذيقهم بعض الذي عملوا أي فما يصيبهم من جذب وقحط وغلاء وحروب وفتن إنما أصابهم الله به {لِيُذِيقَهُمْ} (2) بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} من الشرك والمعاصي لا بكل ما فعلوا إذ لو أصابهم

- 1 - ذكر للفساد في البر والبحر تأويلات وما في التفسير أصحها وأولها بفهم الآية الكريمة وأنفعها لأهل القرآن المتدبرين به العاملين بما فيه.
- 2 - قرأ الجمهور ليذيقهم بالياء وقرأ البعض بالنون.

(4/185)

بكل ذنوبهم لأنهي حياتهم على وجودهم (1)، ولكنه الرحمن الرحيم بعباده اللطيف بهم. وقوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ} قل يا رسولنا لكفار قريش المكذبين لك المشركين بربهم: سيروا في الأرض شمالاً أو جنوباً أو غرباً فانظروا بأعينكم كيف كان عاقبة الذين كذبوا رسلهم وكفروا بربهم من قبلكم إنها كانت دماراً وهلاكاً فهل ترضون أن تكونوا مثلهم. وقوله {كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} أي كان أكثر الأقسام الهالكين مشركين فالشرك والتكذيب الذي أنتم عليه هو سبب هلاكهم وخسرانهم وقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ} أي استقم يا رسولنا أنت والمؤمنون معك على الدين الإسلامي إذ لا دين يقبل سواه فاعتقدوا عقائده وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وتأدبوا بأدابه وتخلقوا بأخلاقه وأقيموا حدوده وأحلوا حلاله وحرّموا حرامه وادعوا إليه وعلموه الناس أجمعين، واصبروا على ذلك فإن العاقبة للمتقين وقوله: {مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} أي افعلوا ذلك الذي أمرتكم به قبل مجيء يوم القيامة حيث لم يكن عمل وإنما جزاء، وقوله {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} أي إنه لا يردّه الله إذا جاء ميعاده لأنه قضى بإتيانه لا محالة من أجل الجزاء على العمل في الدنيا. وقوله {يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ} أي يوم يأتي اليوم الذي لا مرد له يصدعون أي يتفرقون فرقتين (2) كما يتصدع الجدار فرقتين فريق في الجنة وفريق في النار. وقوله: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} أي من كفر اليوم فعائد كفره عليه يوم القيامة، {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا} أي اليوم {فَلَا نُفْسِهِمْ يَمَهُدُونَ} أي

يوطئون فرشهم في الجنة(3) إذ عائدة عملهم الصالح تعود عليهم لا على غيرهم، وقوله {لِيَجْزِيَ(4) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ} أي يصدعون فرقتين من أجل أن يجزي الله تعالى أولياءه المؤمنين العاملين للصلوات من فضله إذ أعمالهم حسبها أنها زكَّت نفوسهم فتأهلوا لدخول الجنة أما النعيم المقيم فيها فهو من فضل الله فقط. وقوله {إِنَّهُ(5) لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} هذه جملة علة لجملة محذوفة إذ التقدير: ويجزي الكافرين بعدله وهو سوء العذاب لأنه لا يحب الكافرين.

1 - شاهد قوله تعالى: ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً (فاطر).

2 - شاهده قول الشاعر:

وكنا كندمانى جذيمة حقة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

جذيمة الأبرشي كان ملكا ونديماه هما مالك وعقيل نادماه أربعين سنة ثم ماتوا وندمانى في البيت تنثية ندمان.

3 - شاهده قوله تعالى من سورة الشورى (وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير).

4 - اللام لام التعليل وهو واضح في التفسير.

5 - علة الحذف طلب الإيجاز مع ظهور المعنى بدلالة السياق عليه.

(4/186)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- ظهور الفساد بالجذب والغلاء أو بالحرب والأمراض يسبقه حسب سنة الله تعالى في ظهور الفساد في العقائد بالشرك، وفي الأعمال بالفسق والمعاصي.

2- وجوب الاستقامة على الدين الإسلامي عقيدة وعبادة وقضاءً وحكماً.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثه ووقائعه.

4- بيان أن الله تعالى يحب المتقين ويكره الكافرين.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْنَقْنَا مِنَ الَّذِينَ

أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47)

شرح الكلمات:

ومن آياته أن يرسل الرياح : أي ومن حججه الدالة على قدرته على البعث والجزاء والموجبة لعبادته وحده.

مبشرات : أي تبشر العباد بالمطر وقربه.

وليديقم من رحمته : أي بالغيث والخصب والرخاء وسعة الرزق.

ولتبتغوا من فضله : أي لتطلبوا الرزق من فضله الواسع بواسطة التجارة في البحر.

ولعلكم تشكرون : أي كي تشكروا هذه النعم فتؤمنوا وتوحدوا ربكم.

رسلاً إلى قومهم : أي كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام.

فجاءوهم بالبينات : أي بالحجج والمعجزات.

الذين أجرموا : أي أفسدوا نفوسهم فخبثوها بآثار الشرك والمعاصي.

(4/187)

حقا علينا نصر المؤمنين : أي ونصر المؤمنين أحققناه حقاً وأوجبناه علينا فهو كائن لا محالة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير ألوهية الله تعالى وعدله ورحمته، فقال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ} أي ومن آياتنا الدالة على ألوهيتنا وعدلنا في خلقنا ورحمتنا بعبادنا إرسالنا الرياح مبشرات (1) بعبادنا بقرع المطر الذي به حياة البلاد والعباد وإرسال الرياح أمر لا يقدر عليه إلا الله، وتدبير يقصر دونه كل تدبير ورحمة تعلوا كل رحمة. وقوله: {وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} أي بإنزال المطر المترتب عليه الخصب والرخاء، وقوله: {وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ} أي السفن في البحر إذ الرياح كانت قبل اكتشاف البخار هي المسيرة للسفن في البحر صغيرها وكبيرها. وقوله {بِأَمْرِهِ} (2) أي بإذنه وإرادته وتدبيره الحكيم، وقوله: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي لتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر من إقليم إلى آخر تحملون البضائع لبيعها وشرائها وقوله: {وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي فعل الله تعالى بكم ذلك فسخره لكم وأقدركم عليه رجاء أن تشكروا ربكم بالإيمان به وبطاعته وتوحيده في عبادته. فهل أنتم يا عباد الله شاكرون؟، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ} يا رسولنا {رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ} كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام فجاءوا أقوامهم بالبينات والحجج النيرات كما جئت أنت قومك فكذبت تلك الأقوام رسلكم {فَاتَّقِنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا} فأهلكناهم، ونجينا الذين آمنوا {وَوَكَانَ حَقًّا} (3) عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} ألا فليعتبر قريش بهذا وإلا فستحل بها نعمة الله فيهلك الله المجرمين وينجي رسوله والمؤمنين كما هي سنته في الأولين والحمد لله رب العالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير الربوبية لله المستلزمة لألوهيته بذكر مظاهر القدرة والعلم والرحمة والعدل.

1 - قيل في الرياح مبشرات لأنها تتقدم المطر فهي كالمبشرة بمجيئه.

2 - قال بأمره لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية فيتعين إرساء السفن والاحتياط على حبسها إذ ربما عصفت بها الرياح فأغرقتها فمن هنا قال بأمره وإلا فالرياح وحدها لن تغرق السفن وتعوقها عند السير.

3 - حقاً هذه الكلمة من صيغ الالتزام يقال فلان محفوف بكذا أي لازم له شاهده في قول الأعشى:
لمحفوفة أن تستجيبى لصوته

حقا خبر كان مقدم على اسمها وهو نصر المؤمنين ولا التفات إلى من رأى الوقف على (حقاً).

(4/188)

2- بيان أن الله تعالى ينعم عباده من أجل أن يشكروه بعبادته وتوحيده فيها فإذا كفروا تلك النعم ولم يشكروا الله تعالى عليها عذبهم بما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء.

3- بيان أن الله منتقم من المجرمين وإن طال الزمن، وناصر المؤمنين كذلك.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِّيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

شرح الكلمات:

فتنير سحاباً : أي تحركه وتهيجه فيسير وينتشر.

ويجعله كسفا : أي قطعاً متفرقة في السماء هنا وهناك.

فترى الودق : أي المطر يخرج من خلال السحاب.

إذا هم يستبشرون : أي فرحون بالمطر النازل لسقياهم.

لمبلسين : أي قنطين آيسين من إنزاله عليهم.

إن ذلك لمحيى الموتى : أي القادر على إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء

الموتى وهو الله تعالى.

فأروه مصفراً : أي رأوا النبات والزرع مصفراً للجائحة التي أصابته وهي ريح الدبور المحرقة.
 لظلوا من بعده يكفرون : أي أقاموا بعد هلاك زرعهم ونباتهم يكفرون نعم الله عليهم السابقة.
 إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا: أي ما تسمع إلا المؤمنين بآيات الله.
 معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر قدرة الله تعالى في الكون قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ (1)} أي ينشئها ويبعث بها من أماكن وجودها فتثير تلك الرياح سحاباً أي تزججه وتحركه فيبسطه تعالى في السماء كيف يشاء من كثافة وخفة وكثرة وقلة، {وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا (2)} أي قطعاً فتري أيها الرائي الودق أي المطر يخرج من خلاله أي من بين أجزاء السحاب. وقوله {فَإِذَا أَصَابَ بِهِ} أي بالمطر {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي المصابون بالمطر في أرضهم. {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} أي يفرحون. {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنزَلَ عَلَيْهِمْ} أي المطر {مَنْ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ (3)} أي مكتئبين حزنين قانطين وقوله تعالى {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ} أي فانظر يا رسولنا إلى آثار رحمة الله أي إلى آثار المطر كيف ترى الأرض قد اخضرت بعد بيبس وحييت بعد موت. فإذا رأيت ذلك علمت أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى من قبورهم وذلك يوم القيامة وقوله {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تعليل لعظم قدرته وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى فعل كل شيء أرادته. وقوله {وَلَوْئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا} أي وعزتنا وجلالنا لئن أرسلنا ريحاً فيه إعصارٌ فيه نار فأحرقت تلك النباتات وأبيسها فأراها أولئك الذين هم بالأمس فرحون فرح بطر بالغيث {يَكْفُرُونَ} بريهم أي يقولون: ما هو كفر من ألفاظ السخط وعدم الرضا وذلك لجهلهم

1 - استئناف مبدوء باسم الله الأعظم الدال على قدرته وواسع علمه فهو الذي يرسل الرياح وينزل من السماء ماء ويحيى به الأرض هو الله الرب القادر على إحياء الناس بعد موتهم والمستحق لعبادتهم دون سواه والرياح قرأ بها الجمهور وقرأ بعض الرياح بالإفراد ومما عرف بالعادة أن الرياح للإمطار والريح للدمار.

2 - الكِسْف: جمع كسفة أي قطعة والمراد أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير السحاب ويكون عاما مجللاً للسماء كافة ويكون منه قطعاً قطعاً لحكمة تتطلب ذلك والكسف بكسر الكاف وسكون السين كالكسف بكسر الكاف وفتح السين كلاهما جمع كسفه كسدره وسدر وقرئ من خلله وجائز أن يكون جمع خلال أيضاً.

3 - وفسر بآيسيين أي قانطين أزلين كما في الحديث أي في ضيق وشده وفسر بئسين والكل صحيح.

(4/190)

وكفرهم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ (1) إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ { أي إنك يا رسولنا لا تقدر على هداية هؤلاء الكافرين لأنهم صم لا يسمعون وعمي لا يبصرون لما ران على قلوبهم من الذنوب فعمل حواسهم وأنت بحكم بشريتك وقدرتك المحدودة لا تستطيع إسماع الموتى كلامك فيفقهوه ويعملوا به كما لا تستطيع إسماع الصم نداءك إذا هم ولّوا مدبرين إذ لو كانوا مقبلين عليك قد تفهمهم ولو بالإشارة أما إذا ولّوا مدبرين عنك فلا يمكن إسماعهم. إذاً فهون على نفسك ولا تحزن عليهم. وقوله: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ { أي إنك ما تسمع سماع قبول وانقياد وإدراك إلا من يؤمن بآياتنا أي إلا المؤمنين الذين آمنوا بآيات الله وعرفوا حججه فأمنوا به ووحده فهم مسلمون أي منقادون خاضعون مطيعون فهؤلاء في إمكانك إسماعهم وهدايتهم بإذن الله إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدارين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة والحجج العقلية.
 - 2- بيان كيفية إنشاء السحاب ونزول المطر وهو مظهر من مظاهر القدرة والعلم الإلهي.
 - 3- بيان حال الكافر في أيام الرخاء وأيام الشدة فهو في الشدة يقنط وفي الرخاء يكفر، وذلك لفساد قلبه بالجهل بالله تعالى وآياته.
 - 4- الاستدلال بالمحسوس الحاضر على المحسوس الغيبي.
 - 5- بيان أن الكفار أموات، ولذا هم لا يسمعون ولا يبصرون وأن المؤمنين أحياء لأنهم يسمعون ويبصرون، إذ الحياة لها آثارها في الجسم الحي والموت كذلك.
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

1 - قال القرطبي: أي وضحت الحجج يا محمد لكنهم لإلفهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت قلوبهم وعميت بصائرهم فلا يتنهياً لك إسماعهم وهدايتهم وقرأ الجمهور تسمع بالتاء وقرأ ابن كثير يسمع ورفع الصم على أنه فاعل وقرأ الجمهور هادي وقرأ ابن كثير تهدي.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ
لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

شرح الكلمات:

الله الذي خلقكم من ضعف : أي من نطفة وهي ماء مهين.

ثم جعل من بعد ضعف قوة : أي من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب.

ثم جعل من بعد قوة ضعفا : أي من بعد قوة الشباب والكهولة ضعف الكبر والشيب

وشيبة : أي والهزم.

كذلك كانوا يؤفكون : أي كما صرفوا عن معرفة الصدق في اللبث كانوا يصرفون في الدنيا عن
الإيمان بالبعث والجزاء في الآخرة فانصرفهم عن الحق في الدنيا سبب لهم عدم معرفتهم لمدة لبثهم
في قبورهم.

لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم : أي في إنكارهم للبعث والجزاء.

ولا هم يستعتبون : أي لا يطلب منهم العتبي أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى بالإيمان والعمل
الصالح.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (1) } وحده لمن
ضَعَفٍ (2) { أي من ماء مهين وهي النطفة ثم جعل من بعد ضعف أي ضعف الطفولة

1 - هذا الاستئناف كسابقه الاستدلال به على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وعظيم تدبيره في

خلقه وهي موجبة التوحيد له والنبوة لرسوله والبعث لعباده ليحاسبهم ويجزيهم برحمته وعدله.

2 - قرأ نافع والجمهور من ضعف بضم الضاد في الألفاظ الثلاثة في هذه الآية وهي لغة الحجاز،

وقرأ حفص بالفتح وهي لغة تميم ومن ابتدائية أي ابتداء خلقكم من ضعف وهي النطفة ولا أضعف
منها.

{قُوَّةٌ} وهي قوة الشباب {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ} أي قوة الشباب والكهولة {ضَعْفًا} أي ضعف الكبر {وَشَيْبَةً (1)} أي الهرم وقوله تعالى {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ} بخلقه {الْقَدِيرُ} على ما يشاء ويريده فهو تعالى قادر على إحياء الأموات وبعثهم، إذ القادر على إيجادهم من العدم قادر على بعثهم من الرّم. وقوله تعالى {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ} أي القيامة {يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ} أي يحلف المجرمون من أهل الشرك والمعاصي {مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (2)} أي لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من زمن. وقوله تعالى {كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (3)} أي كما صرفوا عن معرفة الصدق في اللبث في القبر كانوا يصرفون في الدنيا عن الإيمان بالله تعالى ولفائه، والصارف لهم ظلمة نفوسهم بسبب الشرك والمعاصي. وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ} أي في كتاب المقادير {إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} وهو يوم القيامة {فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} لعدم إيمانكم بالله وبآياته والكتاب الذي أنزله.

وقوله {فَيَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ يأتي يوم البعث {لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ} أي عن شركهم وكفرهم بلقاء ربهم، {وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} أي لا يطلب منهم العتبي أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى من الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية التي لا ترد بحال.
- 2- بيان أطوار خلق الإنسان من نطفة إلى شيخوخة وهرم.
- 3- فضل العلم والإيمان وأهلها.
- 4- بيان أن معذرة الظالمين لا تقبل منهم، ولا يستعْتَبُونَ فيرضون الله تعالى فيرضى عنهم.

1 - الشيبية اسم مصدر الشيب وعطف الشيبية على الضعف إشارة إلى عدم وجود قوة بعدها وإنما يأتي الفناء كما قيل الشيب نذير الموت وهو كذلك.

2 - روي أن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله تعالى لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيدك من عذاب جهنم وعذاب القبر في الصحيح.

3 - يقال أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والخير. وأرض مأفوكة ممنوعة من المطر.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

شرح الكلمات:

ولقد ضربنا للناس : أي جعلنا للناس .

من كل مثل : أي من كل صفة مستعربة تلفت الانتباه وتحرك الضمير كالأمثال لعلمهم يذكرون فيؤمنوا ويوحدا .

ولئن جئتهم بآية : أي ولئن أتيت هؤلاء المشركين بكل حجة خارقة .

إن أنتم إلا مبطلون : أي ما أنتم أيها الرسول والمؤمنون إلا مبطلون فيما تقولون وتدعون إليه من الإيمان بآيات الله ولقائه .

الذين لا يعلمون : أي ما أنزل الله على رسوله وما أوحاه إليه من الآيات البينات .

فاصبر إن وعد الله حق : أي اصبر يا رسولنا على أذاهم فإن العقاب لك إذ وعدك ربك بها ووعد الله حق .

ولا يستخفك الذين لا يوقنون: أي لا يحملنك هؤلاء المشركون المكذبون بلقاء الله على الخفة والطيش فترك دعوتك إلى ربك .

معنى الآيات:

بعد إيراد العديد من الأدلة وسوق الكثير من الحجج وعرض مشاهد القيامة في الآيات السابقة تقريراً لعقيدة البعث والجزاء التي أنكرها المشركون من قريش قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (1)﴾ أي جعلنا للناس في هذا القرآن من أساليب

1 - قال القرطبي: أي من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه وينبههم على التوحيد وصدق الرسل .

(4/194)

الكلام وضروب التشبيه، وعرض الأحداث بصورة مثيرة للدهشة موقظة للحس، ومنبهة للضمير، كل ذلك لعلمهم يذكرون فيؤمنوا فيهندوا للحق فينجوا ويسعدوا، ولكن أكثرهم لم ينتفعوا بذلك، ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ (1)﴾ أي بحجة من معجزة وغيرها تدل على صدقك وصحة دعوتك وما جئت به ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي منهم (2). ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي ما أنتم أيها الرسول والمؤمنون ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي من أهل الباطل فيما تقولون وتدعون إليه من الدين الحق والبعث الآخر. وقوله ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ} أي كذلك الطبع على قلوب الكافرين الذين لو جنتهم بكل آية لم يؤمنوا عليها لما ران على قلوبهم وما ختم به عليها، يطبع الله على قلوب الذين يعلمون (3)، إذ ظلمة الجهل كظلمة الشرك والكفر تحجب القلوب عن الفهم والإدراك فلا يحصل إيمان ولا استجابة لدعوة الحق وقوله {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} يأمر تعالى رسوله أن يلتزم بالصبر على دعوته والثبات عليها في وجه هذا الكفر العنيد، حتى ينصره الله تعالى إذ واعده بالنصر في غير ما آية ووعد الله حق فهو ناجز لا يتخلف. وقوله: {وَلَا يَسْتَحْفَتُكَ (4) الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ (5)} أي اصبر ولا يحملنك عناد المشركين وإصرارهم على الكفر والتكذيب على الخفة والطيش والاستجهاًل بترك الحلم والصبر. والمراد بالذين لا يوقنون كل من لا يؤمن بالله ولقائه إيماناً يقينياً إذ هذا الصنف من الناس هو الذي يستفز الإنسان ويحملة على أن يخرج عن اللياقة والأدب والعياذ بالله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- اعدار الله تعالى إلى الناس بما ساقه تعالى في كتابه من أدلة الإيمان وحجج الهدى.

1 - أي كآيات موسى من فلق البحر والعصا أو آيات عيسى كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

2 - أي من الناس لقوله ولقد ضربنا للناس وهو لفظ عام يشمل الكافر والمؤمن.

3 - في هذه الآية إنذار خطير للجهال وتثديد بالجهل، إذ أهله لا يفهمون عن الله ولا يهتدون إلى سبل الخير وطريق السعادة والكمال ولذا أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم طلب العلم على كل مسلم في قوله "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وما أصاب المسلمين ما أصابهم من خوف وهون ودون إلا نتيجة لجهلهم بربهم ومحابه ومكارهه وضروب عباداته وكيفيات أدائها لتزكوا بها نفوسهم وتظهر أرواحهم وقلوبهم.

4 - وفسر بيستقرنك الذين في محل رفع فاعل ويعض العرب يعربونه إعراب جمع المذكر السالم فيقولون اللذون رفعاً والذين نصباً وجرأ قال الشاعر:

نحن اللذون صبحوا الصباح

يوم النخيل غارة ملحاحاً

5 - الاستخفاف: طلب خفة الشيء بفقد ثقله ورسانته فيغضب ويترك العمل. والذين لا يؤمنون هم المشركون كالنضر بن الحارث وأبي جهل والمراد بنفي اليقين عنهم: اليقين بالأمور البديهيات اليقينية للناس لكون الله تعالى خلق كل شيء ورب كل شيء، وقدرته على كل شيء إذ هذه يقينيات لدى عامة الناس.

-
- 2- أسوأ أحوال الإنسان عندما يطبع على قلبه لكثرة ذنوبه فيصبح لا يفهم ولا يعقل شيئاً وفي الخبر
حبك الشيء يعمي ويصم.
3- وجوب الصبر والتزام الحلم والأناة مهما جهل الجاهلون.

(4/196)

سورة لقمان

...

سورة لقمان

مكية (1)

وآياتها أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ (5)

شرح الكلمات:

الم : هذا أحد الحروف المقطعة التي تكتب الم، وتقرأ ألف لام ميم.

تلك : أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات الكتاب الحكيم.

الحكيم : أي المحكم الذي لا نسخ يطرأ عليه بعد تمام نزوله، ولا خلل فيه، وهو الحكيم الذي يضع
كل شيء في موضعه فلا خلط ولا خبط فيما يحمل من هدى وتشريع.

هدى ورحمة : أي هو هدى يهتدي به ورحمة يرحم بها.

للمحسنين : أي الذين يراقبون الله تعالى في كل شؤونهم إذ هم الذين يجدون الهدى والرحمة في
القرآن الكريم أما غيرهم من أهل الشرك والمعاصي فلا يجدون ذلك.

1 - قال قتادة: غير آيتين أولهما ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام وقال ابن عباس غير ثلاث
آيات أولهن: ولو أن ما في الأرض من الخ..

(4/196)

أولئك : أي المحسنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوقنون بالآخرة.
على هدى من ربهم : أي على هداية من الله تعالى فلا يضلون ولا يجهلون معها أبداً.
المفلحون : أي الفائزون بالنجاة من كل مرهوب وبالظفر بكل مرغوب محبوب.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {الم} أحسن ما يفسر به مثل هذه الحروف المقطعة قول: الله أعلم بمراد به وقد أفادت هذه الحروف فائدة عظيمة، وذلك من جهتين الأولى أنه لما كان المشركون يمنعون من سماع القرآن خشية التأثير به فيهندي إلى الحق من يحصل له ذلك، وقالوا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} كانت هذه الحروف بنغمها الخاص ومدودها العجيبة تضطر المشرك إلى الإصغاء والاستماع فحصل ضد مقصودهم وكفى بهذه فائدة. والثانية أنهم لما ادعوا أن القرآن سحر وكهانة وشعر وأساطير الأولين كأنما قيل لهم هذا القرآن الذي ادعيتم فيه كذا وكذا قد تألف من هذه الحروف ص، ن، ق، يس، طس، الم، فألفوا سورة مثله وأتوا بها للناس فيصبح لكم ما تدعون فإن عجزتم فسلموا أنه كلام الله أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فأمنوا ووجدوا واستقيموا على ذلك تعزوا وتكرموا وتكملوا وتسعدوا.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ (1) الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} أي هذه الآيات هي آيات القرآن الكريم الموصوف بالحكمة إذ هو لا يخلط ولا يغلط ولا يخبط بل يضع كل شيء في موضعه اللائق به في كل ما قاله فيه وحكم به، وأخبر عنه أو به من سائر المعارف والعلوم التي حواها كما هو حكيم بمعنى محكم لا نسخ يطرأ عليه بعد تمامه كما طرأ على الكتب السابقة، ومحكم أيضاً بمعنى لا خلل فيه، ولا تناقض بين أخباره وأحكامه على كثرتها وتنوع أسبابها ومقتضيات نزولها، وقوله: {هُدًى (2) وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3)} أي هو بيان هداية ورحمة تتال المحسنين وهم الذين أحسنوا عبادتهم لربهم فخلصوها من الشرك والرياء وأتوا بها على

- 1 - تلك في محل رفع مبتدأ وآيات الكتاب الخبر.
- 2 - هدى ورحمة نصباً على الحال على حد هذه ناقة الله لكم آية وقرئ هدى ورحمة بالرفع على أن هدى خبر ثان ورحمة معطوف عليه وهي قراءة حمزة.
- 3 - وجائز أن يكون المحسنين الفاعلين للحسنات والمحسنين إلى غيرهم كالوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين ومن ذكروا في آية الحقوق العشرة من سورة النساء {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً} الخ...

الوجه المرضي لله تعالى وهو ما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم من كيفية العبادات وبيان فعلها وأدائها عليه. وقوله {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي المحسنين الذين يقيمون الصلاة أي يؤدون الصلوات الخمس مراعى فيها شروطها مستوفاة أركانها وسننها الواجبة منها والمستحبة، ويؤتون الزكاة أي يخرجون زكاة أموالهم الصامته كالذهب والفضة أو العمل القائمة مقامهما والحرث من تمر وزيتون، وحبوب مقتاة مدخرة والناطقة من إبل وبقرة وغنم وذلك إن حال الحول في الذهب والفضة والعمل وفي بهيمة الأنعام أما الحرث والغرس فيوم حصاده وجداده. وقوله: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي والحال هم موقنون بما أعده الله من ثواب وجزاء على الإحسان والإيمان والإسلام الذي دلت عليه صفاتهم في هذا السياق الكريم وقوله: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} يخبر تعالى عن المحسنين أصحاب الصفات الكريمة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان باليوم الآخر والإيقان بثواب الله تعالى فيه إنهم على طريق مستقيم وهو الإسلام هداهم الله تعالى إليه ومكنهم من السير عليه وبذلك أصبحوا من المفلحين الذين يفوزون بالنجاة من النار، ويدخول الجنة دار الأبرار. اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرة إنك برّ كريم تواب رحيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إعجاز القرآن حيث ألف من مثل ألم، وص، وطس، ولم يستطع خصومه تحديه.
- 2- بيان معنى الحكيم وفضل الحكمة.
- 3- بيان أن القرآن بيان للهدى المنجي المسعد ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه.
- 4- فضل الصلاة والزكاة واليقين.
- 5- بيان مبنى الدين: وهو الإيمان والإسلام والإحسان(1).

1- شاهد هذا حديث جبريل في مسلم: إذ سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان فدل ذلك على أن مبنى الدين الإسلامي هذه الثلاثة (الإيمان والإسلام والإحسان).

(4/198)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(1)(6)

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلْيَمٍ (7)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8)

خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ

رَوَاسِيٍّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

شرح الكلمات:

ومن الناس : أي ومن بعض الناس إنسان هو النضر بن الحارث بن كلدة حليف قريش.

لهو الحديث : أي الحديث الملهي عن الخير والمعروف وهو الغناء.

ليضل عن سبيل الله : أي ليصرف الناس عن الإسلام ويبعدهم عنه فيضلوا.

ويتخذها هزواً : أي ويتخذ الإسلام وشرائعه وكتابه هزواً أي مهزوعاً به مسخوراً منه.

ولَّى مستكبراً : أي رجع في كبرياء ولم يستمع إليها كفراً وعناداً وكبراً كأن لم يسمعها.

في أذنيه وقرأ : أي ثقل يمنع من السماع كالصمم.

بغير عمدٍ ترونها : أي بدون عمد مرئية لكم ترفعها حتى لا تقع على الأرض.

رواسي : أي جبال راسية في الأرض بها ترسو الأرض أي تثبت حتى لا تميل.

1 - هذا عطف على جملة (تلك آيات الكتاب الحكيم) كأنما قال كانت تلك حال الكتاب الحكيم

وهي حال تدعو إلى كل كمال وإن من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ففي الإخبار

تعجب من حال هذا الإنسان الذي يعرض عن الهدى إلى الضلال وعن الخير إلى الشر

(4/199)

وبث فيها من كل دابة : أي وخلق ونشر فيها من صنوف الدواب وهي كل ما يدب في الأرض.

من كل زوج كريم : أي من كل صنف من النباتات جميل نافع لا ضرر فيه.

هذا خلق الله : أي المذكور مخلوقة لله تعالى إذ هو الخالق لكل شيء.

من دونه : أي من الآلهة المزعومة التي يعبدها الجاهلون.

بل الظالمون : أي المشركون.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى عباده المحسنين وأثنى عليهم بخير وبشرهم بالفلاح والفوز المبين ذكر صنفاً آخر

على النقيض من الصنف الأول الكريم فقال: لَوْ مِنَ النَّاسِ (1) مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ (2) لِيُضِلَّ (3)

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ومن بعض الناس إنسان هو النضر بن الحارث الكلدي حليف قريش

يشترى لهو الحديث أي الغناء إذ كان يشترى الجواري المغنيات ويفتح نادياً للهو والمجون ويدعوا الناس إلى ذلك ليصرفهم عن الإسلام حتى لا يجلسوا إلى نبيّه ولا يقرأوا كتابه بغير علم منه بعاقبة صنيعه وما يكسبه من خزي وعار وعذاب النار. وقوله {وَيَتَّخِذَهَا (4) هُزْواً} أي يتخذ سبيل الله التي هي الإسلام هزواً أي شيئاً مهزواً به مسخوراً منه بما في ذلك الرسول والمؤمنون والآيات الكلّ يهزأ به ويسخر منه لجهله وظلمة نفسه. قال تعالى {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي أولئك البعداء وهم كل من يشترى الغناء يغني به نساء ورجال أو آلات ممن اتخذوا الإسلام وشرائعه هزواً وسخرية ليصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله الموصلة إلى رضاه ومحبته وجنته. أولئك: من تلك صفتهم لهم عذاب مهين بكسر أنوفهم وبذلهم يوم القيامة وقوله تعالى: {وَإِذَا تَنُتَلَىٰ عَلَيْهِ

- 1 - معنى الكلام من الناس - يا للعجب - من يشغله لهو الحديث والولوع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم، هذه الآية إحدى ثلاث آيات في القرآن الكريم تحرم الغناء والأولى آية بني إسرائيل وهي قوله تعالى (واستغفر من استطعت منهم بصوتك) والثانية آية النجم: (وأنتم سامدون) قال ابن عباس هو الغناء بالحميرية يقال أسمدنا أي غنّينا لنا.
- 2 - لهو الحديث هو الغناء، صح أن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن لهو الحديث فقال بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء وقال ابن جرير الطبري قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم بالسواد الأعظم، ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية.
- 3 - قرأ الجمهور ليضل بضم الياء أي ليضل غيره فهو إذا ضال مضل وقرأ ابن كثير ليضل بفتح الياء أي ليزداد ضلالاً على ضلال.
- 4 - قرأ نافع بالرفع عطفاً على يشترى وقرأ حفص بالفتح عطفاً على ليضل.

(4/200)

آيَاتُنَا وَآيَاتِ اللَّهِ لَتَذَكِّرَهُ وَهَدَايَتَهُ رَجَعُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} أي إذا قرئت على هذا الصنف من الناس آيات الله لتذكيره وهدايته رجع مستكبراً كأن لم يسمعها تتلى عليه وهي حالة من أقبح الحالات لدلالاتها على خبث هذا الصنف من الناس وكبرهم. وقوله {كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} (2) كأن به صمم لا يسمع القول وهنا عجل الله له بما يحزنه ويخزيه فقال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} والتبشير بما يضر ولا يسر يحمل معه التهمك وهذا النوع من الناس مستحق لذلك وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ نَّعِيمٍ خَالِدِينَ فِيهَا} هذا صنف آخر مقابل لما قبله وهم أهل الإيمان والعمل الصالح بشرهم ربهم بجنات النعيم والخلود فيها وقوله {وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا}

أي(3) وعدهم بذلك وعداً صادقاً لا يخلف وأحقه لهم حقاً لا يسقط. {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي الغالب الذي لا يحال بينه وبين مراده الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه.

وقوله {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا(4)} أي من مظاهر قدرته وعزته وحكمته خلقه السموات ورفعها بغير عمد مرئية لكم وفي هذا التعبير إشارة إلى أن هناك أعمدة غير مرئية وهي سنة نظام الجاذبية التي خلقها بقدرته وجعل الأجرام السماوية متماسكة بها. وقوله: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي} أي من مظاهر قدرته وحكمته إلقاء الجبال الرواسي على الأرض لتحفظ توازنها حتى لا تميل بأهلها فيفسد ويسقط ما عليها وتتعدم الحياة عليها وهو معنى {أَنْ تَمِيدَ(5) بِكُمْ} أي تميل، وإذا مالت تصدع كل ما عليها وخرب وقوله: {وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} وهذا مظهر من مظاهر القدرة والعلم والحكمة الموجبة للإيمان بالله ولقائه والمستلزمة لتوحيده تعالى في عبادته، فسائر أنواع الدواب على كثرتها واختلافها الله الذي خلقها وفرقها في الأرض تعمرها وترينها. وقوله { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } وهو ماء المطر {فَأَنْبَتَ بِهِ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ} أي صنف من أصناف الزروع والنباتات مما

- 1 - (ولى) هذا تمثّل للإعراض عن آيات الله التي تتلى عليه ومستكبراً حال مُبينة وأن إعراضه كان لا عن إهمال أو تقريط وإنما كان عن كبر كأن لم يسمعها تكرار التشبيه لفائدة الإخبار بأنه مرة لم يسمعها مع وجود حاسة السمع وأخرى مع عدم وجودها.
- 2 - قرأ نافع أذنيه بإسكان الذال تخفيفاً وقرأ الجمهور أذنيه بتحريك الذال مضمومة.
- 3 - انتصاب وعد الله على المفعول المطلق وانتصاب حقاً على الحال.
- 4 - ترونها في محل جر نعت لعمدٍ ومعنى هذا أن هناك عمداً غير مرئية ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من السموات.
- 5 - أي كراهية أن تميد بكم أي تميل أو لئلا تميد والكل جائز.

(4/201)

هو نافع وصالح للإنسان هذا المذكور مظهر من مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة الربانية الموجبة للإيمان بالله وآياته ولقائه وتوحيده في عبادته ومن هنا قال تعالى: {هَذَا(1) خَلْقُ اللَّهِ} أي كل ما ذكر من المخلوقات في الآيات هو مخلوق لله والله وحده خالقه فأروني أيها المشركون المكذبون ما ذا خلق الذين تعبدونهم من دونه من سائر المخلوقات يتحداهم بذلك. فعجزوا. وقوله تعالى {بَلِ(2) الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أي إنهم عبدوا غير الله وكذبوا بقاء الله لا عن علم لديهم أو شبهه كانت لهم بل الظالمون وهم المشركون في ضلال مبين فهم تائهون في أودية الضلال حيارى بجهلهم في حياتهم فدواؤهم العلم والإيمان فمتى آمنوا وعلموا لم يبق مجال لكفرهم وشركهم

وعنادهم فلهذا فصلّ تعالى الآيات وعرض الأدلة والحجج عرضاً عجبياً لعلهم يذكرون فيؤمنوا ويوحّدوا فيكملوا ويسعدوا فضلاً منه ورحمة. وهو العزيز الرحيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة غناء النساء للرجال الأجانب.
- 2- حرمة شراء الأغاني في الأشرطة والاسطوانات التي بها غناء العواهر والخليعين من الرجال.
- 3- حرمة حفلات الرقص والغناء الشائعة اليوم في العالم كافرهم ومسلمهم.
- 4- دعوة الله تقوم على دعامتي الترهيب والترغيب والبشارة والندارة.
- 5- بيان شتى مظاهر القدرة والعلم والعز والحكمة الموجب للإيمان والتوحيد.
- 6- لا قصور في الأدلة والحجج الإلهية وإنما ضلال العقول بالشرك والمعاصي هو المانع من الاهتداء. والعياذ بالله تعالى.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

1 - خلق الله بمعنى مخلوقه.

2 - بل للإضراب الانتقالي من المجادلة إلى تسجيل ضلالهم وهو اعتقادهم إلهية الأصنام كما يقول لمناظر دع عنك هذا وانتقل إلى كذا.

(4/202)

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

وَإِنْ جَاهِدَاكَ (1) عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

شرح الكلمات:

ولقد آتينا لقمان الحكمة : أي أعطينا لقمان (2) القاضي: أي الفقه في الدين والعقل والإصابة في الأمور.

أن اشكر الله : أي اشكر الله ما أنعم عليك بطاعته وذكره.

لابنه وهو يعظه : أي ابنه ثاران وهو يعظه أي يأمره وينهاه مرغباً له مرهياً.

ووصينا الإنسان : أي عهدنا إليه ببرهما وهو كف الأذى عنهما والإحسان إليهما وطاعتهما في

المعروف.

وهناً على وهن : أي ضعفاً على ضعف وشدة على شدة وهي الحمل والولادة والإرضاع.
وفصاله في عامين : أي مدة رضاعه تنتهي في عامين، وبذلك يفصل عن

1 - هذه الآية: {وإن جاهداك} والتي قبلها {ووصينا الإنسان} نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لما أسلم وإن أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل حتى يكفر سعدٌ أو تموت جوعاً وعطشاً حتى يعير بها مدى الحياة (يا قاتل أمه) إلا أنها لما أياسها سعد أسلمت وأكلت وشربت.

2 - هو لقمان بن باعوراء بن ناصور بن تارح وهو أزر أبو إبراهيم كذا نسبه ابن إسحاق وقال السهيلي هو لقمان بن عتقاد بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة، قال وهب كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته عاش ألف سنة وأدركه داود عليه السلام وكان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً ومن حكمه قوله إن القلب واللسان إذا طابا فليس شيء أطيب منهما وإذا خبثا فليس شيء أخبث منهما وقوله وقد قيل له أي الناس شر؟ قال الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً وقوله الصمت حكمة وقليل فاعله.

(4/203)

الرضاع

وإن جاهداك : أي بذلا جهدهما في حملك على الشرك.

وصاحبهما في الدنيا معروفا : أي واصحبهما في حياتهما بالمعروف وهو البر والإحسان وكف الأذى والطاعة في غير معصية الله.

من أناب إليّ : رجع إليّ بتوحيدي وطاعتي وطاعة رسولي محمد صلى الله عليه وسلم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين وهذه القصة اللقمانية اللطيفة مشوقة لذلك قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} أي أعطينا عبدنا لقمان الحكمة وهي الفقه في الدين والإصابة في الأمور ورأسها مخافة الله تعالى بذكره وشكره الذي هو طاعته في عبادته وتوحيده فيها. وقوله: {أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ} أي وقلنا له اشكر الله خالقك ما أنعم به عليك بصرف تلك النعم فيما يرضيه عنك ولا يسخطه عليك. وقوله تعالى {وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} أي ومن شكر الله بطاته فإن ثمرة الشكر وعائدته للشاكر نفسه بحفظ النعمة والزيادة فيها أما الله فإنه غني بذاته محمود بفعاله فلا يفتقر إلى خلقه في شيء إذ هم الفقراء إليه سبحانه وتعالى. {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ} أي واذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين قول لقمان لابنه وأخص الناس به وهو ينهاه عن الشرك الذي نهيتكم أنا عنه فغضبتكم وأصررتم عليه عناداً ومكابرة فقال له: بما أخبر به تعالى عنه في

قوله: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ (2) وَهُوَ يَعِظُهُ} أي يأمره وينهاه مرغباً له في الخير مرهباً له من الشر: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ} أي في عبادته أحداً. وعلل لنهايه ليكون أوقع في نفسه فقال: {إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ (3) عَظِيمٌ} والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ويترتب عليه الفساد والخسران الكبير، وعبادة غير الله وضع لها في غير موضعها إذ العبادة حق الله على عباده

1 - وجائز أن تكون أن التفسيرية أي مفسرة للفظ الحكمة بأنها الشكر لله تعالى وهي أقوال ألقيت إليه بالهام ففي الحكمة معنى القول دون حروفه. كما فسرت (حاجة) في قول الشاعر لأنها بمعنى القول:

إن تحملاً حاجة لي خف حملها

تستوجبا منه عندي بها وبدا

أن تقرأن على أسماء ويحكما

مني السلام وأن لا تخبرا أحدا

2 - قيل كان اسم ابنه ثاران وقيل مشكم وقيل أنعم والله أعلم.

3 - روى مسلم " أنه لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

(4/204)

مقابل خلقهم ورزقهم وكلاعتهم في حياتهم وحفظهم وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ (1) بِوَالِدَيْهِ} أي عهدنا إلى الإنسان أمرين إياه ببرّ والديه أي أمه وأبيه، وبرّهما بذل المعروف لهما وكف الأذى عنهما وطاعتهما (2) في المعروف، وقوله تعالى: {حَمَلْتُهُ} أي الإنسان {أُمُّهُ} أي والدته {وَوَهْنًا عَلَى (3) وَهْنٍ} أي ضعفاً على ضعف وشدة على أخرى وهي آلام وأتعاب الحمل والطلق والولادة والإرضاع فلهذا تأكد برّها فوق برّ الوالد مرتين لحديث الصحيح: "من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال: أبوك" وقوله {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} أي فطام الولد من الرضاع في عامين فأول الرضاع ساعة الولادة وآخره تمام الحولين ويجوز فصله عن الرضاع خلال العامين، وقوله: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} هذا الموصى به وهو أن يشكر الله تعالى وذلك بطاعته تعالى فيما يأمره به وينهاه عنه، وذكره بقلبه ولسانه وقوله {وَلِوَالِدَيْكَ} إذ هما قدما معروفاً وجميلاً فوجب شكرهما، وذلك ببرهما وصلتهما وطاعتهما في غير معصية الله ورسوله، لأن طاعة الله كشكره قبل طاعة الوالدين وشكرهما وقوله {إِلَيَّ الْمَصِيرُ} أي

الرجوع بعد الموت وهذه الجملة مؤكدة لواجب شكر الله تعالى وير الوالدين لما تحمله من الترغيب والترهيب فالمطيع إذا رجع إلى الله أكرمه والعاصي أهانه. وما دام الرجوع إليه تعالى حتمياً فطاعته بشكره وشكر الوالدين متعينة. وقوله تعالى {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} أي وإن جاهدك أيها الإنسان والداك وبذلا جهدهما في حملك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم وهو عامة الشركاء إذ ما هناك من يصح إشراكه في عبادة الله قط. فلا تطعهما في ذلك أبداً، {وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا(4)} أي في الحياة بالمعروف وهو برهما وصلتهما وطاعتها في غير معصية الله تعالى ورسوله، وقوله: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} أي اتبع طريق من أناب إلي بتوحيدي وعبادتي والدعوة إلي

- 1 - الراجح أن هاتين الآيتين وقعتا اعتراضاً بين كلام لقمان الأول والثاني وأنها نزلتا في شأن والدة سعد بن أبي وقاص وللاعتراض فائدة وهي التنويع في الأسلوب لإذهاب السامة وتجديد نشاط الذهن للحفظ والفهم وجائز أن يكون لا اعتراض والآيتان من كلام لقمان.
- 2 - روي أن الحسن قال لو منعت والدة ولدها من شهود صلاة العشاء شفقة عليه فلا يطعها.
- 3 - الوهن بإسكان الهاء مصدر وهن يهن من باب ضرب ووهن بفتح والواو والهاء من باب وجل يوجل وجلا. والمعنى أي وهناً واقعاً على وهن كقولهم (عوداً على بدء) أي رجع عوداً على بدء.
- 4 - نعت لمصدر محذوف تقديره مصاحباً معروفاً. وفي الآية دليل على جواز بر الأم الكافرة أو الأب لحديث أسماء إذ قالت يا رسول الله إن أُمِّي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال نعم، ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عبد العزى ووالدة عائشة هي أم رمان قديمة الإسلام.

(4/205)

وهو رسول(1) الله صلى الله عليه وسلم والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص حيث أمرته أمه أن يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه وذلك قبل إسلامها وبذلت جهداً كبيراً في مراودة ابنها سعد رضي الله عنهما وقوله {إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} أي جميعاً فأنبئكم بما كنتم تعملون وأجزيكم بعملكم الخير بالخير والشر بالشر فاتقوني بطاعتي وتوحيدي والإنابة إلي في كل أموركم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير التوحيد والتثني بالشر.
- 2- بيان الحكمة وهي شكر (2) الله تعالى بطاعته وذكره إذ لا يشكر إلا عاقل فقيه.
- 3- مشروعية الوعظ والإرشاد للكبير والصغير والقريب والبعيد.

- 4- التهويل في شأن الشرك وإنه لظلم عظيم.
- 5- بيان مدة الرضاع وهي في خلال العامين لا تزيد.
- 6- وجوب بر الوالدين وصلتهما.
- 7- تقرير مبدأ لا طاعة لمخلوق (3) في معصية الخالق بعدم طاعة الوالدين في غير المعروف.
- 8- وجوب اتباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة وحرمة اتباع سبيل أهل البدع والضلالة.
- يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْتَقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ
-
- 1 - الآية عامة في سائر المؤمنين فعلى كل مؤمن اتباع الصالحين في كل زمان ومكان والافتداء بهم وعليه مجانبة أهل الضلال والفسق والعصيان وعدم اتباعهم في باطلهم وضلالهم وفسقهم وعصيانهم.
- 2 - روي أن سفيان بن عيينة قال من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.
- 3 - صح الحديث بلفظ "إنما الطاعة في المعروف" ولفظ "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

(4/206)

بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

شرح الكلمات:

- إنها إن تك مثقال حبة : أي توجد زنة حبة من خردل.
- فتكن في صخرة : أي في داخل صخرة من الصخور لا يعلمها أحد.
- لطيف خبير : أي لطيف باستخراج الحبة خبير بموضعها حيث كانت.
- وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر : أي مر الناس بطاعة الله تعالى، انههم عن معصيته.
- من عزم الأمور : مما أمر الله به عزمًا لا رخصة فيه.
- ولا تصعر خدك للناس : أي ولا تعرض بوجهك عن تكلمه تكبراً.
- مرحاً : أي مختالاً تمشي خيلاً.
- مختال فخور : أي متبختر فخور كثير الفخر مما أعطاه الله ولا يشكر.
- واقصد في مشيك : أي إئتد ولا تعجل في مشيتك ولا تستكبر.

واغضض من صوتك : أي اخفض صوتك وهو الاقتصاد في الصوت.
إن أنكر الأصوات : أي أقبح الأصوات وأشدّها نكارة عند الناس لأن أوله زفير وآخره شهيق.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصص لقمان عليه السلام فقال تعالى مخبراً عن لقمان بقوله لابنه ثاران
﴿يَا بُنَيَّ (1) إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ (2) خَرْدَلٍ﴾ أي إن تك زنة حبة من خردل من

1 - تكرر النداء حكمته تجديد نشاط السامع وقرأ نافع مثقال بالرفع على أنه فاعل تك وكان التي
مضارعها تك تامة وقرأ حفص مثقال بالفتح على أن كان ناقصة ومثقال خبرها وقوله إنها أي القصة
أو الحالة المسؤول عنها.

2 - روي أن ثاران بن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يقابلها
الله؟ فقال لقمان يا بني إنها إن تك مثقال حبة الخ.. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل
رحمه الله.

(4/207)

خير أو شر من حسنة أو سيئة {فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ (1) أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ} ويحاسب عليها ويجزي بها، {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ} أي باستخراجها {خَبِيرٌ} بموضعها وعليه فاعمل
الصالحات واجتنب السيئات وثق في جزاء الله العادل الرحيم هذا ما دلت عليه الآية الأولى (16)
أما الآية الثانية (17) فقد تضمنت أمر ولده بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والصبر على الأذى في ذلك فقال له ما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي أدها
بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ} بطاعة الله تعالى فيما أوجب على عباده
{وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ} أي عما حرم الله تعالى على عباده من اعتقاد أو قول أو عمل. {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا
أَصَابَكَ} من أذى ممن تأمرهم وتنهاهم، وقوله {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} أي إن إقام الصلاة والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في ذات الله من الأمور الواجبة التي هي عزائم
وليسست برخص. وقوله تعالى {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (2)} هذا مما قاله لقمان لابنه نهاه فيه عن
خصال ذميمة محرمة وهي التكبر على الناس بأن يخاطبهم وهو معرض عنهم بوجهه لا وعنفه (3)،
وهي مشية المرح والاختيال والتبختر، والفخر بالنعم مع عدم شكرها وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ (4) فَخُورٍ} هذا مما قاله لقمان لابنه لما نهاه عن التكبر والاختيال والفخر أخبره أن الله
تعالى لا يحب من هذه حاله حتى يتجنبها ولده الذي يعظه بها وبغيرها وقوله في الآية (19)
{وَأَقْصِدْ فِي (5) مَشْيِكَ} أي امش متتداً في غير عجلة ولا إسراع إذ الاقتصاد ضد الإسراف. وقوله:

{وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ} أمره أن يقتصد في صوته أيضاً فلا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة. كالمقتصد لا يخرج درهماً إلا عند الحاجة وبقدرها وقوله {إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} ذكر هذه الجملة لينفره من رفع صوته بغير حاجة فذكر له أن أقبح الأصوات صوت الحمير (6) لأنه عالٍ مرتفع وأوله زفير وآخره

1 - قيل إن الصخرة تكون تحت الأرض السابعة لأنها ليست في السماء ولا في الأرض.

2 - الصعر الميل ومنه قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده

أقمنا له من ميله فتقوم

والصعر كالصيد داء يصيب الإبل فتلوى منه أعناقها.

3 - شاهده في الحديث الصحيح: "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال"، فقله ولا تدابروا يشمل تصغير الوجه أي ميله.

4 - المختار ذو الخيلاء قال صلى الله عليه وسلم: "من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة" والفخور هو الذي يعدد ما أعطي ولا يشكر الله تعالى (قاله مجاهد).

5 - ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا مشي أسرع فإنما أريد به السرعة المرتفعة عن ديبب المتماوت المظهر للمسكنة والذلة.

6 - بالحمار يضرب المثل في البلادة وينهى عن رفع الصوت لغير حاجة حتى لا يكون صوت المتكلم كصوت الحمار الممقوت والحمار إذا نهق فإنه رأى شيطاناً كما في الحديث، وركبه النبي صلى الله عليه وسلم تواضعاً، وقيل نهيق الحمار دعاء عن الظلمة.

(4/208)

شهيق. هذا آخر ما قص تعالى من نبأ لقمان العبد الصالح عليه السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب مراقبة الله تعالى وعدم الاستخفاف بالحسنة والسيئة مهما قلت وصغرت.

2- وجوب إقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما يلحق الأمر والناهي من أذى.

3- حرمة التكبر والاختيال في المشي ووجوب القصد في المشي والصوت فلا يسرع ولا يرفع صوته إلا على قدر الحاجة.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (21)

شرح الكلمات:

ألم تروا : أي ألم تعلموا أيها الناس.

سخر لكم ما في السموات : أي من شمس وقمر وكواكب ورياح وأمطار لمنافعكم.

وما في الأرض : أي من أشجار وأنهار وجبال وبحار وغيرها.

وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة : أي أوسع وأتم عليكم نعمه ظاهرة وهي الصحة وكمال الخلق تسوية الأعضاء.

وباطنة : أي المعرفة والعقل.

من يجادل في الله : أي يخاصم في توحيد الله منكرًا له مكذبًا به.

بغير علم : أي بدون علم عنده من وحي ولا هو مستفاد من دليل عقلي.

ولا هدى ولا كتاب منير : أي سنة من سنن الرسل، ولا كتاب إلهي منير واضح بين.

(4/209)

أو لو كان الشيطان : أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم إلى موجب عذاب السعير من الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

عاد السياق بعد نهاية قصة لقمان إلى خطاب المشركين لهديتهم فقال تعالى {أَلَمْ تَرَوْا} أيها الناس الكافرون بالله وقدرته ورحمته أي ألم تعلموا بمشاهدتكم {أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ} (1) أي من أجلكم {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} من شمس وقمر وكواكب ومطر، وسخر لكم ما في الأرض من أشجار وأنهار وجبال ووهاد وبحار وشتى الحيوانات ومختلف المعادن كل ذلك لمنافعكم في مطاعمكم ومشاريكم وكل شؤون حياتكم، {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ} (2) أي أوسعها وأتمها نعم الإيجاد ونعم الإمداد حال كونها ظاهرة كحسن (3) الصورة وتناسب الأعضاء وكمال الخلق، وباطنة كالعقل والإدراك والعلم والمعرفة وغير ذلك مما لا يحصى ولا يعد، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ومع هذا البيان والإنعام والاستدلال على الخالق بالخلق وعلى المنعم بالمنعم فإن ناسًا يجادلوا في (4) توحيد الله وأسمائه وصفاته ووجوب طاعته وطاعة رسوله بغير علم من وحي ولا استدلال من عقل، ولا كتاب منير واضح بين يحتجون به ويجادلون بأدلته.

وقوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} (5) أي لأولئك المجادلين في الله بالجهل والباطل {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}

أي على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من هدى، قالوا لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وثنية وتقاليد جاهلية، قال تعالى: {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ} أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم {إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} أي النار المستعرة الملتهبة والجواب لا، ولكن اتبعوهم فسوف يردون معهم النار ونس الورد المورود.

- 1 - ذكر نعم الله الموجبة لشكره بعبادته وحده وترك عبادة من سواه.
- 2 - قرأ نافع وحفص نعمه بالجمع وقرأ آخرون بالإفراد نعمته وهي دالة على الجمع لأنها اسم جنس دال على متعدد بدليل قوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.
- 3 - عن ابن عباس أن النعم الظاهرة للإسلام وما حسن من الخلق والباطنة ما ستر على العبد من سيء العمل وقيل النعم الظاهرة الصحة وكمال الخلق والباطنة المعرفة والعقل.
- 4 - قوله تعالى ومن الناس من يجادل في الله بغير علم أي بغير حجة نزلت في يهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو فجاءت صاعقة فأخذته قاله مجاهد.
- 5 - هذا عام في اليهودي السائل وفي المشركين الذين طالما سألوا وجادلوا النبي صلى الله عليه وسلم بجهلهم وتقليد آباءهم وهم من أجهل الناس.

(210/4)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تعيين الاستدلال بالخلق على الخالق وبالنعمة على المنعم.
- 2- وجوب ذكر النعم وشكرها لله تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- 3- حرمة الجدل بالجهل ودون علم.
- 4- حرمة التقليد في الباطل والشر والفساد كتقليد بعض المسلمين اليوم للكفار في عاداتهم وأخلاقهم ومظاهر حياتهم.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُنَعِّمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

شرح الكلمات:

ومن يسلم وجهه إلى الله : أي أقبل على طاعته مخلصاً له العبادة لا يلتفت إلى غيره من سائر خلقه.

وهو محسن : أي والحال أنه محسن في طاعته إخلاصاً واتباعاً.
فقد استمسك بالعروة الوثقى : أي تعلق بأوثق ما يتعلق به فلا يخاف انقطاعه بحال.
وإلى الله عاقبة الأمور : أي مرجع كل الأمور إلى الله سبحانه وتعالى.
نمتعهم قليلاً : أي متاعاً في هذه الدنيا قليلاً أي إلى نهاية آجالهم.
ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ : أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب النار والغليظ:

(4/211)

التقيل.

قل الحمد لله : أي احمد الله على ظهور الحجة بأن تقول الحمد لله.
لا يعلمون : أي من يستحق الحمد والشكر ومن لا يستحق لجهلهم.

معنى الآيات:

بعد إقامة الحجة على المشركين في عبادتهم غير الله وتقليدهم لأبائهم في الشرك والشر والفساد قال تعالى مرغباً في النجاة داعياً إلى الإصلاح: {وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ} (1) أي يقبل بوجهه وقلبه على ربه يعبده متذللاً له خاضعاً لأمره ونهيه. {وَهُوَ مُحْسِنٌ} أي والحال أنه محسن في عبادته إخلاصاً فيها لله، واتباعاً في أداؤها لرسول الله {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} أي قد أخذ بالطرف الأوثق فلا يخاف انقطاعاً أبداً وقوله تعالى: {وَالَى اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} يخبر تعالى أن مردّ الأمور كلها لله تعالى يقضي فيها بما يشاء فليفوض العبد أمره كلها لله إذ هي عائدة إليه فيتخذ بذلك له يداً عند ربه، وقوله لرسوله: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ} (2) أي أسلم وجهك لربك وفوض أمرك إليه متوكلاً عليه ومن كفر من الناس فلا يحزنك كفره أي فلا تكثر به ولا تحزن عليه {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} أي فإن مردهم إلينا بعد موتهم ونشورهم {فَتَنبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} في هذا الدار من سوء وشر ونجزيم به. {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (3) أي بما تكنه وتخفيه من اعتقادات ونيات وبذلك يكون الحساب دقيقاً والجزاء عادلاً. وقوله تعالى: {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ} (4) قليلاً أي نمهل هؤلاء المشركين فلا نعالجهم بالعقوبة فيتمتعون مدة آجالهم وهو متاع قليل {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ} بعد موتهم ونشرهم {إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} أي نلجئهم إلباءً إلى عذاب غليظ ثقيل لا يحتمل ولا يطاق وهو عذاب النار. نعوذ بالله منها ومن كل عمل يؤدي إليها وقوله تعالى في الآية (25) {وَلئن سألنهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله} أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين قائلًا لهم: من خلق السموات والأرض لبادروك

- 1 - أسلم وسلّم بمعنى، إلا أن التضعيف للتكثير وعدي باللام نحو قول أسلمت وجهي لله، وعدي مرة بإلى قال القرطبي معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً أي لله خالصاً له ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد التوكل عليه والتفويض إليه.
- 2 - قرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاي يُحزنك وقرأ حفص يحزنك بفتح الياء وضم الزاي يحزنك فالأولى مضارع أحزنه يحزنه كأعلم يعلمه والثاني مضارع حزنه كنصره ينصره.
- 3 - الجملة تعليلية لما سبقها من أحكام.
- 4 - جملة نمتعهم قليلاً مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً يقول ما الذي يترتب على علمه تعالى بذات الصدور فالجواب إنه يمتعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.

(4/212)

بالجواب قائلين الله إذا قل الحمد لله على إقامة الحجة عليكم باعترافكم، وما دام الله هو الخالق الرازق كيف يعبد غيره أو يعبد معه سواه أين عقول القوم؟ وقوله {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي لا يعلمون موجب الحمد ولا مقتضاه، ولا من يستحق الحمد ومن لا يستحقه لأنهم جهلة لا يعلمون شيئاً. وقوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي خلقا وملكا وعبداً ولذا فهو غني عن المشركين وعبادتهم فلا تحزن عليكم ولا تبال بهم عبدوا أو لم يعبدوا {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ} عن كل ما سواه {الْحَمِيدُ} أي المحمود بعظيم فعله وجميل صنعه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان نجاة أهل لا إله إلا الله وهم الذين عبدوا الله وحده بما شرع لهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

3- بيان أن المشركين من العرب موحدون في الربوبية مشركون في العبادة كما هو حال كثير من الناس اليوم

يعتقدون أن الله رب كل شيء ولا ربّ سواه ويذبحون وينذرون ويحلفون بغيره، ويخافون غيره ويرهبون سواه. والعياذ بالله.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

شرح الكلمات:

ولو أن ما في الأرض : أي من شجرة.

أقلام : أي يكتب بها.

والبحر : أي المحيط

يمده سبعة أبحر : أي تمده

ما نفذت كلمات الله : أي ما انتهت ولا نقصت.

(4/213)

إن الله عزيز حكيم : أي عزيز في انتقامه غالب ما أَرَادَهُ حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ.
ما خلقكم ولا بعثكم : أي ما خلقكم ابتداءً ولا بعثكم من قبوركم إعادة لكم إلا كخلق وبعث نفس واحدة.

معنى الآيتين:

قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا (1) فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ (2) أَقْلَامٌ﴾ أي لو أن شجر الأرض كله قطعت أغصانه شجرة شجرة حتى لم تبق شجرة وبريت أقلاماً، والبحر المحيط صار مدادا ومن ورائه سبعة أبحر أخرى تحولت إلى مداد وتمد البحر الأول وكتب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله لنفد البحر والأقلام ولم تنفذ كلمات الله، وذلك لأن الأقلام والبحر متناهية وكلمات الله غير متناهية فعلم الله وكلامه كذاته وصفاته لا تتناهي بحال، نزلت هذه الآية رداً على اليهود لما قيل لهم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا وكيف هذا وقد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء. كما نزل رداً على أبي بن خلف قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُمْ (3) وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ (4) وَاحِدَةً﴾ إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم كيف يخلقنا الله خلقاً جديداً في يوم واحد ليحاسبنا ويجزيينا، ونحن خلقنا أطوراً وفي قرون عديدة فأنزل الله تعالى قوله ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ﴾ إلا كخلق وبعث نفس واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (5)﴾ فما يسمع المخلوقات ولا يشغله صوت عن صوت، ويبصرهم ولا تحجبه ذات عن ذات كذلك هو يبعثهم في وقت واحد ولو أراد خلقهم جملة واحدة لخلقهم لأنه يقول للشيء كن فيكون.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- بيان سعة علم الله تعالى وأنه تعالى متكلم وكلماته لا تنفذ بحال من الأحوال.

2- بيان أن ما أوتيه الإنسان من علوم ومعارف ما هو بشيء إلى علم الله تعالى.

1 - قيل في سبب هذه الآية المدنية على رأي ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود قالوا: يا محمد كيف عنينا بهذا القول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه وعندك أنها تبيان كل شيء. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم التوراة قليل من كثير ونزلت هذه الآية.

2 - من شجرة من بيانية وفي التعبير بـ لو: دلالة على أن مضمون الكلام افتراضي، ولكن لو كان المفترض لما يخرج عما أخبر تعالى به وهو نفاذ الأقسام والمداد وبقاء كلام الله تعالى لأن المراد من الكلمات كلام الله تعالى.

3- في الآية إيجاز بالحذف إذ التقدير ما خلقكم إلا كخلق نفس واحدة ولا بعثكم إلا كبعث نفس واحدة.

4 - ما خلقكم فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

5 - جملة إن الله سميع بصير صالحة لأن تكون تعليلية أو استئنافية بيانية.

(4/214)

1- بيان قدرة الله تعالى وأنها لا تحد ولا يعجزها شيء.

2- إثبات صفات الله كالعزة والحكمة والسمع والبصر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

شرح الكلمات:

ألم تر : أي ألم تعلم أيها المخاطب.

أن الله يولج الليل في النهار : أي يدخل جزءاً منه في النهار، ويدخل جزءاً من النهار في الليل

بحسب الفصول.

وسخر الشمس والقمر : يسبحان في فلكيهما الدهر كله لا تكلان إلى يوم القيامة وهو الأجل المسمى لهما.

ذلك بأن الله هو الحق : أي ذلك المذكور من الإيلاج والتسخير بسبب أن الله هو الإله الحق.

وأن ما يدعون من دونه الباطل : أي وأن ما يدعون من دونه من آلهة هي الباطل.

بنعمت الله : أي بإفضاله على العباد وإحسانه إليهم حيث هيأ أسباب جريها.

لكل صبار شكور : أي صبار عن المعاصي شكور للنعم.
 وإذا غشيهم موج : أي علاهم وغطاهم من فوقهم.
 كالظلل : أي كالجبال التي تظل من تحتها.
 فمنهم مقتصد : أي بين الكفر والإيمان بمعنى معتدل في ذلك ما آمن ولا كفر.
 كل ختار كفور : أي غدار كفور لنعم الله تعالى.
 معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال الشرك والكفر قال تعالى {أَلَمْ تَرَ (1)} أي ألم تعلم أيها النبي أن الله ذا الألوهية على غيره {أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} بإدخال جزء منه في النهار {وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي بإدخال جزء منه في الليل وذلك بحسب الفصول السنوية {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} (2) يسبحان في فلكيهما لمنافع الناس إلى أجل مسمى أي إلى وقت محدد معين عنده سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة، وأن الله تعالى بما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم صالحها وفاسدها وسيجزيك بها وقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} أي ذلك الإيلاج لليل في النهار والنهار في الليل وتسخير الشمس والقمر، وعلم الله تعالى بأعمال العباد ومجازاتهم عليها قاطع لكل شك بأن الله هو إله الحق، وأن ما يدعون من دونه من أوثان هو الباطل (3)، وقاطع بأن الله تعالى ذا الألوهية الحقة هو العلي الكبير أي ذو العلو المطلق الكبير الذي ليس شيء أكبر منه إذ هو رب كل شيء ومالكة والقاهر له والمتحكم فيه لا إله إلا هو ولا رب سواه.
 وقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ} يا محمد {أَنَّ الْفُلْكَ} أي السفن {تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ} تعالى على خلقه حيث يسر لها أسباب سيرها وجريها في البحر وهي تحمل السلع والبضائع

- 1 - ألم تر: الاستفهام تقريرى بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إنكاري بالنسبة إلى غيره ينكر على أهل الغفلة غفلتهم وأهل الإعراض عن النظر إعراضهم إذ لو نظروا وفكروا لاهتدوا إلى توحيد الله وبعثه عباده للحساب والجزاء يوم القيامة.
- 2 - قال القرطبي: ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للأجال، وإتماماً للمنافع والآية في تقرير التوحيد بذكر مظاهر علم الله وقدرته وحكمته.
- 3 - جائز أن يكون المراد بالباطل الشيطان إذ هو الذي زين عبادة الأصنام والأوثان وأمرهم بها فلذا أطلق لفظ الباطل عليه.

والأقوات من إقليم إلى إقليم وهي نعم كثيرة. سخر ذلك لكم ليريكم (1) من آياته الدالة على ربوبيته وألوهيته وهي كثيرة تتجلى في كل جزء من هذا الكون. وقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} أي علامات ودلائل على قدرة الله ورحمته وحكمته وهي موجبات عبادته وتوحيده فيها، وقوله {لِكُلِّ صَبَّارٍ} (2) شَكُورٍ} أي فيها عبر لكل عبد صبور على الطاعات صبور عن المعاصي صبور عما تجري به الأقدار شكور لنعم الله تعالى جليلها وصغيرها أما غير الصبور الشكور فإنه لا يجد فيها عبرة ولا عظة.

وقوله تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ (3)} أي إذا غشي المشركين موج وهم على ظهر السفينة فخافوا {دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي دعوا الله وحده ولم يذكروا آلهتهم. فلما نجاهم بفضله {إِلَى الْبَرِّ} فلم يغرقوا {فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ} (4) أي في إيمانه وكفره لا يُغالي في كفره ولا يعلن عن إيمانه. وقوله {وَمَا يَجِدُ (5) بآيَاتِنَا} القرآنية والكونية وهي مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لألوهيته {إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ} (6) أي غدار بالعهود {كُفُورٍ} للنعم لا خير فيه البتة والعياذ بالله تعالى من أهل الغدر والكفر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد وإبطال الشرك بذكر الأدلة المستفادة من مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته.
- 2- فضيلة الصبر والشكر والجمع بينهما خير من افتراقهما.
- 3- بيان أن المشركين أيام نزول القرآن كانوا يوحدون في الشدة ويشركون في الرخاء.

- 1 - من آياته من للتبويض من بعض آياته ما يشاهدون به مظاهر قدرة الله ولطفه ورحمته. قال الحسن مفتاح البحار السفن ومفتاح الأرض الطرق ومفتاح السماء الدعاء.
- 2 - صبار صيغة مبالغة كثير الصبر وشكور كذلك كثير الشكر قال بعضهم صبار لقضائه، شكور على نعمائه وما في التفسير أعم وأشمل. روي أن الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.
- 3 - الظلل جمع ظلة وهو ما أظل من سحاب وجبال وغيرها.
- 4 - فسر هذا اللفظ بعدة تفسيرات منها موف بما عاهد الله عليه في البحر قال الحسن مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة، وقال مجاهد مقتصد في القول مضمحل للكفر وقيل في الكلام حذف والمعنى فمنهم مقتصد ومنهم كافر ودل على المحذوف قوله: (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور). وما في التفسير أشمل وأسلم.
- 5 - قال القرطبي جحد الآيات إنكار أعيانها والجحد بالآيات إنكار دلائلها.
- 6 - الختر الغدر وجحد الفضل وفعله ختر كضرب يختر قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير
ملأت يديك من غدر وختر
وقال الأعشى:
بالأبلق الفردي من تيماء منزلة
حصن حصين وجار غير ختار

(4/217)

4- شر الناس الختار أي الغدار الكفور.
5- ذم الختر وهو أسوأ الغدر وذم الكفر بالنعم الإلهية.
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ
الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

شرح الكلمات:

اتقوا ربكم : أي خافوه فأمنوا به واعبدوه وحده تتجوا من عذابه.
واخشوا يوما : أي خافوا يوم الحساب وما يجري فيه.
لا يجزي والد عن ولده : أي لا يغني والد فيه عن ولده شيئا.
إن وعد الله حق : أي وعد الله بالحساب والجزاء حق ثابت لا محالة هو كائن.
لا تغرنكم الحياة الدنيا : أي فلا تغتروا بالحياة الدنيا فإنها زائلة فأسلموا تسلموا.
ولا يغرنكم بالله الغرور : أي الشيطان يغتنم حلم الله عليكم وإمهاله لكم فيجسركم على المعاصي
ويسوفكم في التوبة.
وينزل الغيث : أي المطر.
ويعلم ما في الأرحام : أي من ذكر أو أنثى ولا يعلم ذلك سواه.
ماذا تكسب غداً : أي من خير أو شر والله يعلمه.

(4/218)

معنى الآيتين الكريمتين:

هذا نداء عام لكل البشر يدعوهم فيه ربهم تعالى ناصحاً لهم بأن يتقوه بالإيمان به وعبادته وحده لا شريك له وأن يخشوا يوماً عظيماً فيه من الأهوال والعظائم ما لا يقادر قدره بحيث لا يجزي فيه والد(1) عن ولده ولا مولود(2) هو جاز عن والده شيئاً إذ كل واحد لا يريد إلا نجاة نفسه فيقول نفسي نفسي وهذا لشدة الهول يوم لا يغني أحد عن أحد شيئاً ولو كان أقرب قريب، وهو يوم آت لا محالة حيث وعد الله به الناس ووعد الله حق والله لا يخلف الميعاد، ويقول لهم بناء على ذلك {قَلَّا تَعَزَّوْا حَيَاةَ الدُّنْيَا} بملاذها وزخارفها وطول العمر فيها، {وَلَا يَعْزُّوْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزَّوْرُ} ذي الحلم والكرم {الْعَزَّوْرُ(3)} أي الشيطان من الإنس أو الجن يحملكم على تأخير التوبة ومزاولة أنواع المعاصي بتزيينها لكم وترغيبكم فيها فانتهبوا فإن الموت لا بد منه وقد يأتي فجأة فالتوبة التوبة يا عباد الله هذه نصيحة الرب تبارك وتعالى لعباده فهل من مستجيب؟ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (33) أما الآية الثانية (34) فالله جل جلاله يخبر عباده بأنه استقل بعلم الساعة متى(4) تأتي والقيامة متى تقوم وليس لأحد أن يعلم ذلك كائننا من كان وهذه حال تتطلب من العبد أن يعجل التوبة ولا يؤخرها، كما استقل تعالى بعلم وقت نزول المطر في يوم أو ليلة أو ساعة من ليل أو نهار، ويعلم ما في الأرحام أرحام الإناث من ذكر أو أنثى أو أبيض أو أحمر أو أسود ومن طول وقصر ومن إيمان أو كفر ولا يعلم ذلك سواه ويعلم ما يكسب كل إنسان في غده من خير أو شر أو غنى أو فقر، ويعلم أين تموت كل نفس من بقاع الأرض وديارها ولا

- 1 - فإن قيل لقد ثبت بالسنة ما ظاهره خلاف هذا فقد قال صلى الله عليه وسلم "من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم"، وقال "من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له حجاباً من النار" فالجواب أن المراد بالآية أن الولد لا يحمل ذنب والده وأن الوالد لا يحمل ذنب ولده، وأما موت الأولاد فأجر المصيبة مع الصبر والاحتساب هو الذي منع الوالد من دخول النار كما أن تربية البنات والإحسان إليهن جعل الله تعالى جزاءه النجاة من النار فليس في الحديث أن الولد يجزي عن والده ولا الوالد يجزي عن ولده.
- 2 - ولا مولود: مبتدأ وهو ضمير فصل والخبر جاز مرفوع بضممة مقدره على حرف العلة المحذوف للتخفيف، وذكر الولد والوالد لأنهما أشد شفقة على بعضهما ورحمة وحمية من غيرهما.
- 3 - الغرور بالفتح (الفعول) من أمثلة المبالغة أي كثير التغير بالإنسان وهو الشيطان عليه لعائن الرحمن والغرور الخداع بما ظاهره حسن وباطنه ضرر.
- 4 - قال مقاتل هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث؟ ولقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غدا؟ وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى الآية.

5 - روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة الخ الآية.

(4/219)

يعلم ذلك إلا الله ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مفتاح(1) الغيب خمسة وقرأ: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } في الصحيح.

وقوله إن الله عليم أي بكل شيء وليس بهؤلاء الخمسة فقط خبير بكل شيء من دقيق أو جليل من ذوات وصفات وأحوال وبيواطن الأمور كظواهرها وبهذا وجب أن يعبد وحده بما شرع من أنواع العبادات التي هي سلم النجاح ومرقى الكمال والإسعاد في الدارين.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب تقوى الله عز وجل بالإيمان به وتوحيده في عبادته.
- 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 3- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا، والتحذير من الشيطان أي من اتباعه والاعتزاز بما يزينه ويحسنه من المعاصي.
- 4- بيان مفاتيح(2) الغيب الخمسة واختصاص الرب تعالى بمعرفتها.
- 5- كل مدع لمعرفة الغيب من الجن والإنس فهو طاغوت يجب لعنه ومعاداته.
- 6- ما ادّعي اليوم من أنه بواسطة الآلات الحديثة قد عرف ما في رحم المرأة فهذه المعرفة ليست داخلة في قوله

تعالى {ويعلم ما في الأرحام} لأنها بمثابة من فتح البطن ونظر ما فيه فقال هو كذا وذلك لوجود أشعة عاكسة أما المنفي عن كل أحد إلا الله أن يقول المرء: إن في بطن امرأة فلان ذكراً أو أنثى ولا يقرب منها ولا يجربها في ولادتها السابقة، ولا يحاول أن يعرف ما في بطنها بأية محاولة.

1 - في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مفاتيح الغيب خمس ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية وفي رواية أبي هريرة "خمس لا يعلمهن إلا الله" وعلّة تسميتها مفاتيح الغيب أنها من أمور الناس المغيبة عنهم فإذا وقعت كان وقوعها كفتح

مغلق بمفتاح فالإنسان قد يعرف متى يصلي متى يسافر متى يتزوج أما هذه الخمسة فلا علم له بها
أبدأ حتى يفتح الله بابها ويظهرها.

2 - المفاتيح جمع مفتاح آلة الفتح والمعنى أن هذه الأمور الخمسة وهي متعلقة بالإنسان لا يظهرها
إلى الوجود ولا يفتح مغلقها الغيبي إلا الله جل جلاله إذ بيده مفاتيحها.

(4/220)

سورة السجدة

...

سورة السجدة

مكية (1)

وآياتها ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَآ أَنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4)

شرح الكلمات:

الم : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب ألم، ويقرأ ألف لام ميم.

لا ريب فيه : أي لا شك في أنه نزل من رب العالمين.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ : أي بل يقولون أي المشركون اختلقه وكذبه.

قوما ما أناهم من نذير : أي من زمن بعيد وهم قريش والعرب.

لعلهم يهتدون : أي بعد ضلالهم إلى الحق الذي هو دين الإسلام.

في ستة أيام : هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

ثم استوى على العرش : استوى على عرشه يدير أمر خلقه.

1 - وتسمى سورة الم السجدة، وتنزل السجدة وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان
يصلي بها الصبح يوم الجمعة يقرأ في الركعة الأولى بالفاتحة والسجدة والثانية بالفاتحة وسورة
الإنسان كما ورد أنه كان يقرأها مع سورة الملك عند النوم وفي كل منهما ثلاثون آية.

(4/221)

من ولي ولا شفيع : أي ليس لكم أيها المشركون من دون الله ولي يتولاكم ولا شفيع يشفع لكم.
أفلا تتذكرون : أي أفلا تتعظون بما تسمعون فتؤمنوا وتوحدوا.

معنى الآيات:

قوله تعالى {الم} هذه الحروف المقطعة في فواتح عدة سور الأسم أن لا تؤول ويكتفى فيها بقول الله أعلم بمراده بها. وقد اخترنا من أقاويل المفسرين أنها أفادت فائدتين: الأولى أنه لما كان المشركون من قريش في مكة يمنعون من سماع القرآن مخافة أن يتأثر به السامع به فيؤمن ويوحد فكانت هذه الحروف تستهويهم بنغمها الخاص فيستمعون فينجذبون ويؤمن من شاء الله إيمانه وهدايته والثانية بقرينة ذكر الكتاب بعدها غالباً: أن هذا القرآن الكريم قد تألف من مثل هذه الحرف الم، طس، حم، ق، فألفوا أيها المكذبون سورة من مثله وإلا فاعلموا أنه تنزّل من الله رب العالمين فلما عجزوا قامت عليهم الحجة ولم يبق شك في أنه تنزّل الله وكتابه أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ (1)} أي القرآن الكريم {لَا رَيْبَ فِيهِ} أي لا شك (2) في أنه من رب العالمين على محمد صلى الله عليه وسلم وليس بشعر ولا بسجع كهان، ولا أساطير الأولين وقوله تعالى: {أَمْ (3) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} أي بل يقولون افتراه محمد واختلقه وأتى به من تلقاء نفسه اللهم لا إنه لم يفتراه {بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} أي جاءك من ربك وحياً أوحاه إليك، {لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ (4) مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} وهم مشركوا العرب لتذرهم بأس الله وعذابه إن بقوا على شركهم وكفرهم، وقوله {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} أي رجاء أن يؤمنوا ويوحدوا فيهدتوا إلى الحق بعد ضلالهم فينجوا ويكملوا ويسعدوا وقوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي من مخلوقات {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} من مثل أيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة ولذا كانت الجمعة من أفضل الأيام {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} عرشه (5) سبحانه

- 1 - تنزيل مرفوع بالابتداء والخبر لا ريب فيه، أو خبر على تقدير مبتدأ أي هذا تنزيل أو المتلو عليك تنزيل الكتاب، ويكون لا ريب فيه محل نصب على الحال.
- 2 - لا ريب فيه لما اشتمل من الإعجاز العلمي حيث عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله وعجز فصحاء العرب على الإتيان بسورة مثل سوره. ولما عرف به صاحبه الذي نزل عليه وجاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم من الصدق الكامل حيث لم يكذب قط وقد أخبر أنه تنزيل الله رب العالمين.
- 3 - أم هذه هي المنقطعة ولذا قدرت ببل والاستقهام في التفسير، وصيغة المضارع (يقولون) لاستحضار الحالة الماضية إثارة للتعجب في نفس السامع.
- 4 - النذير المعلم المخوف بعواقب الشرك والمعاصي والفساد والشر، والقوم الجماعة العظيمة الذين

يجمعهم أمر يكون كالقوام لهم من نسب أو وطن أو غرض تجمعوا من أجله والمراد بهم عامة العرب في كل ديارهم شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً إذ فقدوا العلم الإلهي منذ قرون عدة.
5 - سئل مالك رحمه الله تعالى عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

(4/222)

وتعالى استوى استواء يليق به يدبر أمر مخلوقاته. الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وهو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرسل وهو الإله الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه ما للعرب ولا للبشرية كلها من إله غيره، وليس لها من غيره من ولي يتولاها بالنصر والإنجاء إن أراد الله خذلانها وإهلاكها، وليس لها شفيع (1) يشفع لها عنده إذا أراد الانتقام منها لشركها وشرها وفسادها وقوله: {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} فتعلموا أيها العرب المشركون أنه لا إله لكم إلا الله فتعبده وتوحدوه فنتجوا من عذابه وتكملوا وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزل الله وحيه أوحاه إلى رسوله.
 - 2- إبطال ما كان المشركون يقولون في القرآن بأنه شعر وسجع كهان وأساطير الأولين.
 - 3- بيان الحكمة من إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو الإنذار.
 - 4- بيان الزمان الذي خلق الله فيه السموات والأرض وما بينهما.
 - 5- إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى.
 - 6- تقرير أنه ما للبشرية من إله إلا الله وأنه ليس لها من دونه من ولي ولا شفيع فما عليها إلا أن تؤمن بالله وتعبده فتكمل وتسعد على عبادته.
- يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6)
- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)
- ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ

- 1 - في نفي الشفيع رد على قول بعضهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله على تقدير أنهم يبعثون يوم القيامة إذ قالوا: هؤلاء شفاعونا عند الله أو في قضاء حوائجهم في الدنيا.

مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)

شرح الكلمات:

يدبر الأمر من السماء إلى الأرض : أي أمر المخلوقات طوال الحياة.
ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره : أي يوم القيامة حيث تنتهي هذه الحياة وسائر شؤونها.
ألف سنة مما تعدون : أي من أيام الدنيا.
عالم الغيب والشهادة : أي ما غاب عن الناس ولم يروه وما شاهدوه ورأوه.
بدأ خلق الإنسان من طين : أي بدأ خلق آدم عليه السلام من طين.
من سلالة من ماء مهين : أي ذرية آدم من علقه من ماء النطفة.
ثم سواه ونفخ فيه من روحه : أي سوى الجنين في بطن أمه ونفخ فيه الروح فكان حياً كما سوى آدم أيضاً ونفخ فيه من روحه فكان حياً.
والأفئدة : أي القلوب.

قليلاً ما تشكرون : أي ما تشكرون الله على نعمة الإيجاد والإمداد إلا شكراً قليلاً لا يوازي قدر النعمة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء بذكر مظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة الإلهية، فقوله تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} أي أمر المخلوقات {مِنَ السَّمَاءِ} حيث العرش وكتاب المقادير {إِلَى الْأَرْضِ} حيث تتم الحياة والموت والصحة والمرض والعطاء والمنع، والغنى والفقر والحرب والسلام، والعز والذل فالله تعالى من فوق عرشه يدبر أمر الخلائق كلها في عوالمها المختلفة، وقوله ثم يعرج أي الأمر إليه في يوم كان مقداره ألف (1) سنة مما يعد الناس اليوم من أيام هذه الدنيا. ومعنى {يَعْرُجُ إِلَيْهِ} في يوم

1 - ورد في سورة الحج قوله تعالى {وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون} وفي هذه الآية {ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون} وفي سورة المعارج {تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة}، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام حتى قال ابن عباس أيام سماها الله سبحانه وما أدري ما هي؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم وأحسن ما يقال فيها أن اليوم الذي ذكر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله وأن يوم سورة المعارج

هو يوم القيامة يوم الحساب وأن هذا اليوم هو آخر أيام الدنيا حيث ينتهي التدبير والتصرف لانقضاء الحياة وهو كما ذكر تعالى.

(4/224)

القيامة أي يرد إليه حيث عم الكون الفناء ولم يبق ما يدبر في هذه الأرض لفنائها وفناء كل ما كان عليها. وقوله {ذَلِكَ} (1) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي ما غاب عن الناس وما حضر فشاهدوه أي العالم بكل شيء وقوله {الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}: أي الغالب على مراده من خلقه الرحيم بالمؤمنين من عباده، وقوله {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} (2) أي أحسن خلق كل مخلوق خلقه أي جود خلقه وأتقنه وحسنه. وقوله {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} أي وبدأ خلق آدم من طين وهو الإنسان الأول، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ} أي نسل الإنسان {مِنْ سُلَالَةٍ} وهي العلقة {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} (3) وهو النطفة، وقوله {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ} أي سوى آدم ونفخ فيه من روحه، كما سوى الإنسان في رحم أمه أي سوى خلقه ثم نفخ فيه من روحه فكان إنساناً حياً، وقوله {وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} أي القلوب أي لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا لحاجتكم إلى ذلك لأن حياتكم تتطلب منكم مثل ذلك ومع هذه النعم الجليلة {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} (4) أي لا تشكرون إلا قليلاً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان جلال الله وعظمته في تدبيره أمر الخلائق.
 - 2- بيان صفات الله تعالى من العلم والعزة والرحمة.
 - 3- بيان كيفية خلق الإنسان ومادة خلقه.
 - 4- شكر العباد - إن شكروا - لا يوازي نعم الله تعالى عليهم.
 - 5- وجوب شكر النعم بالاعتراف بها وذكرها وحمد الله تعالى عليها وصرافها في مرضاته.
- وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

1 - ذلك اسم إشارة عائد إلى اسم الجلالة أي ذلك الرب العظيم والإله الحكيم الذي خلق السموات وما بينهما المدبر للملكوت المتصرف في الموجودات هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم المستحق للعبادة والمحبة والخوف دون غيره من سائر المخلوقات.

2 - قرأ نافع وحفص خلقه بصيغة الماضي وقرأ بعض خلقه بإسكان اللام على أنه مصدر خلق يخلق خلقاً وهو بدل اشتمال من كل شيء ومعنى أحسن أتقن وأحكم قال عكرمة: ليست أستاذ القرد

بحسنة ولكنها متقنة محكمة.

3 - المهين الممتن الذي لا يعبأ به.

4 - جائز أن يكون المراد عدم شكرهم مطلقاً فهو كناية عن العدم توبيخاً لهم وتأنيباً.

(4/225)

شرح الكلمات:

أثذا ضللنا في الأرض : أي غبنا فيها حيث فنينا وصرنا تراباً.

أثنا لفي خلق جديد : أي أنعود خلقاً جديداً بعد فنائنا واختلاطنا بالتراب.

بل هم بقاء ربهم كافرون : أي لم يقف الأمر عند استبعادهم للبعث بل تعداه إلى كفرهم بقاء ربهم،

وهو الذي جعلهم ينكرون البعث.

قل يتوفاكم ملك الموت : أي يقبض أرواحكم ملك الموت المكلف بقبض الأرواح.

ثم إلى ربكم ترجعون : أي بعد الموت، وما دمتم لا تمنعون أنفسكم من الموت سوف لا تمنعونها من

الحياة فرجوعكم حتمي لا محالة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في تقرير أصول العقيدة فأخبر تعالى عن منكري البعث فقال {وَقَالُوا (1)} أي منكروا

البعث الآخر {إِذَا ضَلَلْنَا (2) فِي الْأَرْضِ} أي غبنا فيها بحيث صرنا تراباً فيها {إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}

أي لعائدون في خلق جديد. وهذا منهم إنكار للبعث واستبعاد له، فقال تعالى مخبراً عن علة إنكارهم

للبعث وهي أنهم بقاء (3) ربهم كافرون إذ لو كانوا يؤمنون بقاء الله الذي وعدهم به لما أنكروا البعث

والحياة لذلك، وقوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم} أي قل يا رسولنا لهؤلاء المنكرين للبعث ولقاء الرب تعالى:

يتوفاكم عند نهاية آجالكم {مَلَكُ الْمَوْتِ (4)} الذي وكله ربه بقبض أرواحكم، {الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} بعد ذلك

وما دمتم لا تدفعون الموت عن أنفسكم فكيف تدفعون الحياة عندما يريد الله منكم؟ وهل دفعتموها

عندما كنتم عدماً فأوجدكم الله وأحياكم.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

1 - الجملة استئناف لحكاية عقيدتهم في إنكار البعث والجزاء ليعلل لها بالعلة المناسبة ثم يقرر

عقيدة البعث التي أنكروها وتعجبوا من حقيقتها بما هو لازم لها.

2 - الاستفهام للتعجب والاستبعاد، والضلال الدخول في الأرض والغياب فيها إذ كل ما غاب في

شيء ولم يظهر له وجود يقال ضل فيه كما يضل الماء في اللبن والميت في القبر قال الحارث الغساني شعرا:

فأب مضلوه بعين جلية

وغودر وبالجولان حزم ونائل

(مضلوه أي مغيبوه).

3 - بل هم بقاء رهيم كافرون، بل للإضراب عن كلامهم أي ليس إنكارهم البعث لاستبعاده واستحالاته لوجود الأدلة الواضحة على إمكانه بل وجوبه وإنما الباعث لهم على التكذيب به هو كفرهم التقليدي.

4 - لم يرد اسم ملك الموت في القرآن غير أن أهل السنة على اسمه عزرائيل بمعنى عبد الله.

(4/226)

2- الذنب الذي هو سبب كل ذنب هو الكفر بقاء الله تعالى.

3- بيان أن لقبض الأرواح ملكاً وله أعوان من الملائكة وأن الأرض جعلت لملك الموت كالطست بين يديه يتناول منها ما يشاء.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

شرح الكلمات:

إذ المجرمون : أي المشركون المكذبون بقاء رهيم.

ناكسوا رؤوسهم : أي مطأطئوها من الحياء والذل والخزي.

ربنا أبصرنا : أي ما كنا ننكر من البعث.

وسمعنا : أي تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا.

فارجعنا : أي إلى دار الدنيا.

لآتيننا كل نفس هداها : أي لو أردنا هداية الناس قسراً بدون اختيار منهم لفاعلنا.

ولكن حق القول مني : أي وجب وهو لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين.

إننا نسيناكم : أي تركناكم في العذاب.

عذاب الخلد : أي العذاب الخالد الدائم.

بما كنتم تعملون : من سيئات الكفر والتكذيب والشر والشرك.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها وما يجري للمكذابين

(4/227)

بها في الدار الآخرة قال تعالى {وَلَوْ تَرَىٰ (1)} يا رسولنا {إِذِ الْمُجْرِمُونَ} وهم الذين أجمعوا على أنفسهم فدنسوها بالشرك والمعاصي الحامل عليها التكذيب بقاء الله، {نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ} أي مطأطئوها خافضوها عند ربهم من الحياء والخزي الذي أصابهم عند البعث. لرأيت أمراً فظيماً لا نظير له. وقوله تعالى {زَيْنًا أَبْصَرْنَا (2) وَسَمِعْنَا} هذا قول الجرمين وهم عند ربهم أي يا ربنا لقد أبصرنا ما كنا نكذب به من البعث والجزاء وسمعنا منك أي تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا. {فَارْجِعْنَا} أي إلى دار الدنيا {نَعْمَلْ (3) صَالِحًا} أي عملاً صالحاً {إِنَّا مُوقِنُونَ} أي الآن ولم يبق في نفوسنا شك بأنك الإله الحق، وبأن لقاءك حق، وقوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا (4) لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} وذلك لما طالب المجرمون بالعودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فأخبر تعالى أنه ما هناك حاجة إلى ردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا الصالحات، إذ لو شاء هدايتهم لهداهم قسراً منهم بدون اختيارهم، ولكن سبق أن قضى بدخولهم جهنم فلا بد هم داخلوها وهو معنى قوله: {وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} أي وجب العذاب لهم وهو معنى قوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ} أي الجن {وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أي من كفار ومجرمي الجن والإنس معاً.

وقوله {فَدُوِّقُوا} أي العذاب الخزي {بِمَا نَسِيتُمْ (5)} أي بسبب نسيانكم {لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا} فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحاً إنا نسيناكم وتركناكم في العذاب. {وَدُوِّقُوا (6) عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} من الشرك والمعاصي هذا يقال لهم وهم في جهنم تبيكيتاً لهم وتقريعاً زيادة في عذابهم، والعياذ بالله من عذاب النار.

- 1 - الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لشرفه وأمهته تابعة له والمعنى ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب العجيب من ذلتهم وخزيهم وندامتهم.
- 2 - هذا مقول قول محذوف بعد ناكسو رؤوسهم يقولون أو قائلين ربنا الخ
- 3 - هذا كقولهم في آية: {أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك واتباع الرسل}.
- 4 - هذه الجملة اعتراضية بين قوله أبصرنا وقوله فدوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا وقوله ولو شئنا لأتينا الخ. رد عليهم حيث طلبوا العودة إلى الدنيا ليؤمنوا ويوحدوا.
- 5 - النسيان يكون بمعناه الأصلي وهو عدم ورود الشيء بالخاطر النفسي ويكون بترك الشيء وعدم الالتفات إليه مع ذكره في النفس والآخر أولى بالآية.

6 - قد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم قال الشاعر:
فَذُقْ هَجْرَهَا إِنْ كُنْتَ تَزْعَمُ أَنَّهَا
فَسَادَ أَلَا يَا رَيْمًا كَذَبَ الزَّعْمُ
فَأُطْلِقُ الذُّوقَ عَلَى الْهَجْرِ وَهُوَ غَيْرُ مَطْعُومٍ وَلَكِنَّهُ مَحْسُوسٌ بِالنَّفْسِ.

(4/228)

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- التنديد بالإجرام والمجرمين وبيان حالهم يوم القيامة.
 - 2- بيان عدم نفع الإيمان عند معاينة العذاب.
 - 3- بيان حكم الله في امتلاء جهنم من كل من مجرمي الإنس والجن.
 - 4- تقرير حكم السببية للأعمال سبب للجزاء خيراً كان أو شراً.
- إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

شرح الكلمات:

إذا ذكروا بها : أي وعظوا بما فيها من أمر ونهي ووعد ووعيد.
خروا سجداً : وقعوا على الأرض ساجدين بوضع جباههم وأنوفهم على الأرض.
وسبحوا بحمد ربهم : أي نزهوه وقدسوه وهم ساجدون يقولون سبحان ربي الأعلى.
وهم لا يستكبرون : أي عن عبادة ربهم في كل أحيائهم بل يأتونها خاشعين متذللين.
تتجافى جنوبهم : أي تتباعد عن الفرش من أجل قيامهم للصلاة في جوف الليل.
خوفاً وطعماً : أي يسألونه النجاة من النار، ودخول الجنة.

(4/229)

ما أخفي لهم من قرّة أعين : أي لا تعلم نفس ما أخفى الله تعالى لهم وادخر لهم عنده من النعيم الذي تقر به أعينهم أي تسر به وتفرح.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وهم المكذبون بآيات الله ولقائه ذكر جزاء المؤمنين وهم الذين آمنوا بآيات الله ولقائه ذكرهم بأجمل صفاتهم فقال: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ (1) بِآيَاتِنَا} حق الإيمان {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا} أي قرئت عليهم وكانت من الآيات التي فيها السجودات {خَرُّوا (2) سُجَّدًا} أي وقعوا على الأرض ساجدين بوضع جباههم وأنوفهم على التراب، {وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} أي نزهوه وقدسوه أثناء سجودهم بقولهم سبحان ربي الأعلى، والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله مطلقاً بل يأتونها متذللين خاشعين.

وقوله {تَتَجَافَى (3) جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} هذه بعض صفاتهم أيضاً وهي أنهم يباعدون جنوبهم عن فرشهم في الليل لصلاة التهجد. وقوله {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي في حال صلاتهم وفي غيرها وهو دعاء تميّز بخوفهم من عذاب ربهم وطمعهم في رحمته فهم يسألون ربهم النجاة من النار ودخول الجنة. وقوله {رَوْمًا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} هذا وصف آخر لهم وهو أنهم يتصدقون بفضول أموالهم زيادة على أداء الزكاة كتهدجهم بالليل زيادة على الصلوات الخمس.

وقوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ (4) نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ (5) لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} يخبر تعالى عن جزائهم عنده فيقول: فلا تعلم نفس ما خبأ الله تعالى لهم من النعيم المقيم الذي تقر به أعينهم أي

-
- 1 - في الآيات تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم عما يجده من إعراض المشركين المكذبين بالبعث والجزاء في الدار الآخرة والقاتلين: أم يقولون افتراه فأعلمه إنما يؤمن من ذكرهم بصفاتهم، والقصر إضافي والمراد من الآيات آيات القرآن الكريم.
 - 2 - الخور الهوي من علو إلى أسفل والسجود وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع.
 - 3 - الجملة حال من الموصول والتجافي التباعد والمشاركة، والمضاجع جمع مضجع الفراش والجنب جمع جنب، والمراد تباعدهم عن فرشهم لقيام الليل، ومن صلى العشاء في جماعة والصبح في جماعة تناوله الوصف، وشاهد التجافي قول عبد بن رواحة رضي الله عنه بمدح النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:

وفينا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشق معروف من الصبح ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إ

ذا استنقلت بالمشركين المضاجع

4 - هذا كقول الرجل: هذا لا يعلمه إلا الله، وقرّة الأعين كناية عن السرور وعظيم الفرح.

5 - قرأ الجمهور ما أخفي بصيغة الماضي المجهول، وقرأ غيرهم أخفي بالمضارع المعلوم.

تُسْر وتفرح وقوله {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي جزاهم بذلك النعيم بعملهم الخيري الإسلامي الذي كانوا في الدنيا يعملونه وقد ذكر بعضه في الآيات قبل كالصلاة والصدقات.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضيلة التسبيح في الصلاة وهو سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود.

2- ذم الاستكبار وأهله ومدح التواضع لله وأهله.

3- فضيلة قيام الليل وهو المعروف بالتهجد (1) والدعاء خوفاً وطمعاً.

4- بشرى المؤمنين الصادقين من ذوي الصفات المذكورة في الآيات وهو أنه تعالى [أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء في الحديث أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين (2) رأت] الخ.

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ

1 - روى الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير، الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطايا كما يطفى الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} الآية.

2 - في الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".

(4/231)

أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (22)

شرح الكلمات:

أفمن كان مؤمناً : أي مصدقاً بالله ورسوله ولقاء ربه.

كمن كان فاسقاً : أي كافراً لا يستترون.

جنات المأوى نزلاً : النزل ما يعد للضيف من قرى.

من العذاب الأدنى : أي عذاب الدنيا من مصاب القحط والجذب والقتل والأسر.

العذاب الأكبر : هو عذاب الآخرة في نار جهنم.

لعلهم يرجعون : أي يصيبهم بالمصائب في الدنيا رجاء أن يؤمنوا ويوحدوا.

ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها : لا أحد أظلم منه أبداً.

إننا من المجرمين منتقمون : أي من المشركين أي بتعذيبهم أشد أنواع العذاب.

معنى الآيات:

قوله تعالى {أَفَمَنْ (1) كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا} أي كافراً ينفي تعالى استواء الكافر مع المؤمن فلذا

بعد الاستفهام الإنكاري أجاب بقوله تعالى: {لَا يَسْتَوُونَ} ثم بين تعالى جزاء الفريقين وبذلك تأكد بعد

ما بينهما فقال {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله رباً وإلهاً وبمحمد نبياً ورسولاً وبالإسلام شرعاً ودينياً {وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ} بأداء الفرائض والنوافل في الغالب بعد اجتناب الشرك والمحارم {فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى

نُزُلًا (2)} أي ضيافة لهم {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وأما الذين فسقوا عن أمر الله فلم يوحدوا ولم يطيعوا

فعاشوا على الشرك والمعاصي حتى ماتوا {فَمَأْوَاهُمْ (3) النَّارُ} أي مقرهم ومحل مآلهم وإقامتهم لا

يخرجون {كُلَّمَا أَرَادُوا} أي هموا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها من قبل الزبانية تدفعهم عن أبوابها،

{وَقِيلَ لَهُمْ} إذلالاً لهم وإهانة {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} إذ كانوا مكذبين بالبعث

والجزاء وقالوا {إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

1 - الاستفهام إنكاري وفيه معنى التعجب والمراد بالفاسق هنا الكافر لمقابلة المؤمن وفسقه بترك

عبادة ربه وعبادة الأوثان والأصنام.

2 - النزل بضمين مشتق من النزول وهو ما يعد للضيف النازل بك من قرى وهو الطعام والشراب

والفراش.

3 - المأوى مكان الإيواء أي الرجوع إليه والاستقرار فيه.

(4/232)

وقوله تعالى {وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى} وهو عذاب الدنيا بالقحط والغلاء والقتل والأسر {ذُونَ

الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} وهو عذاب يوم القيامة {لَعَلَّهُمْ (1) يَرْجِعُونَ} يخبر تعالى أنه فاعل ذلك بكفار قريش

لعلهم يتوبون إلى الإيمان والتوحيد فينجوا من العذاب وينعموا في الجنة ففعلاً قد تاب منهم كثيرون

وقوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ (2) عَنْهَا } أي وعظ بها وخوف كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم القرآن وكان بعضهم يعرض عنها فلا يسمعها ويرجع وهو مستكبر والعياذ بالله فمثل هؤلاء لا أحد أشد منهم ظلماً وقوله تعالى { إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } يخبر تعالى أنه لا محالة منتقم من أهل الإجمام وهم أهل الشرك والمعاصي، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ثلاثة أصناف من أهل الإجمام الخاص وهم:

- 1) من اعتقد "عقد" لواء في غير حق أي حمل راية الحرب على المسلمين وهو مبطل غير محق.
- 2) من عق والديه أي آذاهما بالضرب ونحوه ومنعهما برهما ولم يطعهما في معروف.
- 3) من مشى مع ظالم ينصره رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان خطأ من يسوي بين المؤمن والكافر والبار والفاجر والمطيع والفاسق.
- 2- بيان جزاء كل من المؤمنين والفاسقين.
- 3- بيان أن الله تعالى كان يأخذ قريشاً بألوان من (4) المصائب لعلمهم يتوبون.
- 4- بيان أنه لا أظلم ممن ذكر آيات الله فيعرض عنها مستكبراً جاحداً معانداً.

1 - الجملة استئنافاً بياني جواباً لمن قال لم يذيقهم العذاب الأدنى وهو عذاب الدنيا! دون العذاب الأكبر؟ فكان الجواب: لعلمهم يرجعون وهو تعليل للحكم السابق.

2 - عطف الإعراض على التذكير بالآيات بتم للدلالة على التراخي بين زمن التذكير والإعراض كقول الشاعر:

لا يكشف الغماد إلا ابن حره

يرى غمرات الموت ثم يزورها

3 - الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً فهو جواب لمن تساءل عن جزاء صاحب الإعراض بعد التذكير بالآيات وهو قوله تعالى إنا من المجرمين منتقمون.

4 - من ذلك سنوات الجذب التي أكلوا فيها العهن وأصبح أحدهم يرى السماء وكأنها دخان من شدة الجوع.

(4/233)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26)

شرح الكلمات:

ولقد آتينا موسى الكتاب : أي أنزلنا عليه التوراة.

فلا تكن في مرية من لقائه : أي فلا تشك في لقاءك بموسى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج.

وجعلناه هدى لبني إسرائيل : أي جعلنا الكتاب "التوراة" هدى أي هادياً لبني إسرائيل.

وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا : أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة أي قادة هداة يهدون الناس بأمرنا لهم بذلك وإذنا به.

وكانوا بآياتنا يوقنون : أي وكان أولئك الهداة يوقنون بآيات ربهم وحججه على عباده وما تحمله الآيات من وعد ووعيد.

إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة : أي بين الأنبياء وأممهم وبين المؤمنين والكافرين والمشركين والموحدين.

فيما كانوا فيه يختلفون : من أمور الدين.

أو لم يهد لهم : أي أغفلوا ولم يتبين.

كم أهلكنا من قبلهم من القرون : أي إهلكنا لكثير من أهل القرون من قبلهم بكفرهم وشركهم وتكذيبهم لرسلمهم.

(4/234)

يمشون في مساكنهم : أي يمرون ماشين بديارهم وهي في طريقهم إلى الشام كمداين صالح وبحيرة لوط ونحوهما.

إن في ذلك لآيات : أي دلائل وعلامات على قدرة الله تعالى وأليم عقابه.

أفلا يسمعون : أي أصمّوا فلا يسمعون هذه المواعظ والحجج.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى (1) الْكِتَابَ} أي أعطينا موسى بن عمران أحد أنبياء بني إسرائيل

الكتاب الكبير وهو التوراة. إذا فلم ينكر عليك المشركون أن يؤتيك ربك القرآن كما آتى موسى

التوراة، وفي هذا تقرير لأصل من أصول العقيدة وهي الوحي والنبوة المحمدية. وقوله {فَلَا تَكُنْ فِي

مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ (2)} أي فلا تكن يا محمد في شك (3) من لقاءك موسى ليلة الإسراء والمعراج فقد لقيه

وطلب إليه أن يراجع ربه في شأن الصلاة فراجع حتى أصبح خمساً بعد أن كانت خمسين وقوله

{وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} أي الكتاب أو موسى كلاهما كان هادياً لبني إسرائيل إلى سبيل السلام

والصراط المستقيم. وقوله {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً} أي قادة هداة يهدون الناس إلى ربهم فيؤمنون به ويعبدونه وحده فيكملون على ذلك ويسعدون وذلك بأمره تعالى لهم بذلك. وقوله {لَمَّا صَبَرُوا} أي عن أذى أقوامهم(4)، {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ} الحاملة لأمرنا ونهيينا، ووعدنا ووعيدنا {يُوقِنُونَ} أي تأهلوا لحمل رسالة الدعوة بشيئين: الصبر على الأذى واليقين التام بصحة ما يدعون إليه ونفعه ونجاعته وقوله تعالى {إِنَّ رَبَّكَ (5) هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} يخبر تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه سبحانه وتعالى الذي يفصل بين المختلفين من الأنبياء وأممهم، وبين الموحدين والمشركين والسنين والبدعيين فيحكم بإسعاد أهل الحق وإشقاء أهل الباطل وفي الآية تسلية للرسول وتخفيف عليه مما يجد في نفسه من خلاف قومه له.

- 1 - هذا الإخبار استطراد المراد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والفاء في قوله فلا تكن للتفريح.
- 2 - وجائز أن يكون المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء والمعراج وقيل فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول وقيل فلا تكن في شك من أنه سيلقاك من الأذى والتكذيب ما لقيه موسى، وما في التفسير هو الحق.
- 3 - المرية: الشك والتردد والمقصود من النهي التثبيت كقوله {فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء} وليس النهي لطلب ترك الشك إذ لم يكن شك قط.
- 4 - لما صبروا لما بمعنى حين صبروا عن أذى أقوامهم، وقرأ خلاف الجمهور لما صبروا أي لأجل صبرهم جعلناهم أئمة، فما مصدرية واللام قبلها لام التعليل.
- 5 - هو ضمير فصل ومعنى يفصل يقضي ويحكم.

(4/235)

وقوله {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ} أي أعموا(1) فلم يبين لهم إهلاكنا لأمم كثيرة {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ}(2) ما زين بهم في أسفارهم إلى الشام كمداثن صالح، وبلاد مدين، وبحيرة لوط إنا قادرون على إهلاكهم إن أصروا على الشرك والتكذيب كما أهلكنا القرون من قبلهم. وقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} أي في إهلاكنا أهل القرون الأولى لما أشركوا وكذبوا دلالات وحجج وبراهين على قدرة الله وشدة انتقامه ممن كفر به وكذب رسوله وقوله {أَفَلَا يَسْمَعُونَ}(3) أي أصموا فلا يسمعون هذه المواعظ التي تتلى عليهم فيتوبوا من الشرك والتكذيب فينجوا ويسعدوا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية وتأکید قصة الإسراء والمعراج.
 - 2- الكتاب والسنة كلاهما هاد للعباد إن طلبوا الهداية فيهما.
 - 3- بيان ما تتال به الإمامة في الدين. وهو الصبر وصحة اليقين.
 - 4- كل خلاف كان في هذه الحياة سينتهي بحكم الله تعالى فيه يوم القيامة.
 - 5- في إهلاك الله تعالى للقرن السابقة أكبر واعظ لمن له قلب وسمع وبصيرة.
- أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ (30)

- 1 - هذا بناء على أن همزة الاستفهام داخله على محذوف والاستفهام للإنكار عليهم عدم رؤيتهم مصارع الهالكين من قبلهم وهي واضحة بينة ضمن يهد معنى يبين فلذا عدي باللام ومثله (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) آية الأعراف.
- 2 - جملة يمشون في محل نصب على الحال.
- 3 - الاستفهام تقريرى مشوب بالتوبيخ واختير لفظ يسمعون لأن أخبار الأمم الهالكة كانت شائعة مستفيضة بينهم فلم لا يسمعون سماع اتعاظ واعتبار.

(4/236)

شرح الكلمات:

أو لم يروا أنا نسوق الماء: أي أغفلوا ولم يروا سوقنا للماء للإنبات والإخصاب فيدلهم ذلك على قدرتنا.

إلى الأرض الجرز: أي اليابسة التي لا نبات فيها.

تأكل منه أنعامهم: أي مواشيتهم من إبل وبقر وغنم.

أفلا يبصرون: أي أعمو فلا يبصرون أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على البعث.

متى هذا الفتح: أي الفصل والحكم بيننا وبينكم يستعجلون العذاب.

ولا هم ينظرون: أي ولا هم يمهلون للتوبة أو الاعتذار.

وانتظر إنهم منتظرون: أي وانتظر يا رسولنا ما سيحل بهم من عذاب إن لم يتوبوا فإنهم منتظرون بك موتاً أو قتلاً ليستريحوا منك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الإصلاح الاجتماعي فيقول تعالى

{أَوَلَمْ يَرَوْا} أي أغفل أولئك المكذبون بالبعث والحياة الثانية ولم يروا {أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ} (1) ماء الأمطار أو الأنهار {إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ} (2) {اليابسة التي ما بها من نبات فنخرج بذلك الماء الذي سقناه إليها بتدابيرنا الخاصة {فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ} وهي إبلهم وأبقارهم وأغنامهم {وَأَنْفُسُهُمْ} فالأنعام تأكل الشعير والذرة وهم يأكلون البر والفل ونحوه {أَفَلَا يُبْصِرُونَ} أي أعموا فلا يبصرون آثار قدرة الله على إحياء الموتى بعد الفناء والبلى كإحياء الأرض الجرز فيؤمنوا بالبعث الآخر وعليه يستقيموا في عقائدهم وكل سلوكهم. وقوله {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ} (3) {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} حكى تعالى عنهم ما يقولونه للمؤمنين لما يخوفونهم بعذاب الله يقولون لهم متى هذا الفتح أي الحكم والفصل يستعجلون لخفة أحلامهم وعدم إيمانهم.

1 - الرؤية هنا بصرية واختير المضارع نسوق لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى ولطفه بعباده ورحمته بهم، وسوق الماء هو بسوق السحاب، والسوق هو إزجاج الماشي من ورائه.

2 - الجرز وصف للأرض التي انقطع نبتها، وهو مشتق من الجرز وهو انقطاع النبات والحشيش إما بسبب بيبس الأرض أو بالرعي، والجرز القطع ولذا سمي السيف القاطع جُرْزاً قال الشاعر يصف أسنان ناقته:

تتَحَّى على الشوك جُرْزاً مقضبا
والهرم تدريه إذراءً عجباً

3 - الفتح: النصر والقضاء كانوا إذا قال لهم المؤمنون سيحكم الله بيننا وبينكم يوم القيامة فيثيب المؤمن ويعاقب الكافر يقولون لهم مستهزئين ساخرين متى هذا الفتح أو الحكم.

(4/237)

وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول لهم. فقال {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ} (1) لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} أي إذا جاء يوم الفتح بيننا وبينكم لا ينفع نفساً كافرة إيمانها عند رؤية العذاب {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} أي يؤخرون ويمهلون ليؤمنوا ويستغفروا فيتاب عليهم ويغفر لهم إذ سنة الله أن من عاين العذاب لا تقبل توبته. وقوله تعالى {فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ} أي فأعرض يا رسولنا عن هؤلاء المكذبين {وَأَنْتَظِرُ} (2) ما سينزل بهم من عذاب {إِنَّهُمْ} (3) {مُنْتَظَرُونَ} ما قد يصيبك من مرض أو موت أو قتل ليستريحوا منك في نظرهم. كما هم منتظرون أيضاً عذاب الله عاجلاً أو آجلاً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة المقررة لها.
- 2- استعجال الكافرين العذاب دال على جهلهم وطيشهم.
- 3- بيان أن التوبة لا تقبل عند معاينة العذاب أو مشاهدة ملك الموت ساعة الاحتضار.

(4/238)

سورة الأحزاب

...

سورة الأحزاب

مدنية

وآياتها ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2)
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)

- 1 - هذا إجابة لهم ورد عليهم والفتح جائز أن يكون فتح مكة أو يوم بدر أو يوم القيامة إذ هو اليوم الذي يحكم الله تعالى فيه بين عباده.
- 2 - الانتظار الترقب مشتق من النظر كأنه مضارع أنظره فانتظر وحذف مفعول "انتظر" للتهويل أي انتظر أياماً يكون لك النصر فيها، ويكون الخسران لأعدائك فيها، وفي الأمر بالانتظار إيماء بالبشرى للمؤمنين والوعيد للكافرين.
- 3 - جملة إنهم منتظرون تعليل للأمر بالانتظار.

(4/238)

شرح الكلمات:

- اتق الله : أي دم على تقواه بامتنالك أوامره واجتنابك نواهيه.
- ولا تطع الكافرين : أي المشركين فيما يقترحون عليك.
- والمنافقين : أي الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بما يخوفونك به.

إن الله كان عليماً حكيماً : أي عليماً بخلقه ظاهراً وباطناً حكيماً في تدبيره وصنعه.
واتبع ما يوحى إليك من ربك : أي تقيد بما يشرع لك من ربك ولا تلتفت إلى ما يقوله خصومك لك
من اقتراحات أو تهديدات.

وتوكل على الله : أي فوض أمرك إليه وامض في ما أمرك به غير مبال بشيء.
معنى الآيات:

لقد واصل المشركون اقتراحاتهم التي بدأوها بمكة حتى المدينة وهي عروض المصالحة بينه وبينهم
بالتخلي عن بعض (1) دينه أو بطرد بعض أصحابه، والمنافقون قاموا بدورهم في المدينة بتهديده
صلى الله عليه وسلم بالقتل غيلة إن لم يكف عن ذكر آلهة المشركين في هذا الظرف بالذات نزل
قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (2)﴾ ناداه ربه تعالى بعنوان النبوة تقريراً لها وتشريفاً له ولم يناده باسمه
العلم كما نادى موسى وعيسى وغيرهما بأسمائهم فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ (3)
الْكَافِرِينَ (4) وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي اتق الله فخفه فلا تقبل اقتراح المشركين، ولا
ترهب تهديد المنافقين بقتلك إن الله كان وما يزال عليماً بكل خلقه وما يحدثون من تصرفات ظاهرة
أو باطنة حكيماً في تدبيره وتصريفه أمور

- 1 - هذا من قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا
غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾.
- 2 - نداؤه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعنوان النبوة تشريفاً له وتقدير لنبوته وناداه بعنوان
الرسالة في موضعين من كتابه وذلك في سورة المائدة. وأمره أن يخبر البشرية كلها بأنه رسول الله
إليهم وحدث عنه فوصفه بالرسالة "محمد رسول الله" ولم يناده باسمه العلم لشهرته وعدم الحاجة إليه
وحتى لا يدعي أحد أنه هو المعني بهذا الاسم وله صلى الله عليه وسلم خمسة أسماء كما جاء ذلك
في حديث الموطأ: لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا
الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب.
- 3 - الطاعة: العمل بما يأمر به الغير أو يشير به لأجل تحقيق غرض له صالحاً كان أو فاسداً.
- 4 - سبب نزول هذه الآية أن وفداً جاء من مكة بعد غزوة أحد برئاسة أبي سفيان واجتمعوا بعد أن
أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخولهم المدينة بعدد من المنافقين على رأسهم ابن أبي ومعتب
بن قشير وطعمة بن أبيرق فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك ذكر آلهة قريش كخطوة
في المصالحة فغضب المسلمون وهمّ عمر بقتلهم فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾.

خلقه وعباده فهو تعالى لعلمه وحكمته لا يخذلك ولا يتركك، ولا يمكن أعداءك وأعداءه منك بحال وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} من تشريعات خاصة وعامة ولا تترك منها صغيرة ولا كبيرة إذ هي طريق فوزك وسلّم نجاحك أنت وأمتك تابعة لك في كل ذلك، وقوله {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} هذه الجملة تعليلية تحمل الوعد والوعيد إذ علم الله بأعمال العباد صالحها وفاسدها يستلزم الجزاء عليها فمتى كانت صالحة كان الجزاء حسناً وفي هذا وعده ومتى كانت فاسدة كان الجزاء سوءاً وفي هذا الوعيد. وقوله {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} أمر تعالى رسوله وأمهته تابعة له أن يتوكل على الله في أمره ويمضي في طريقه منفذاً أحكام ربه غير مبالٍ بالكافرين ولا بالمنافقين، وأعلمه ضمناً أنه كافيته متى توكل عليه وكفى بالله كافياً ووكيلاً حافظاً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تقوى الله بفعل المأمور به وترك المنهي عنه.
 - 2- حرمة طاعة الكافرين والمنافقين فيما تقتربون أو يهددون من أجله.
 - 3- وجوب اتباع الكتاب والسنة والتوكل على الله والمضي في ذلك بلا خوف ولا وجل.
- مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5)

(4/240)

شرح الكلمات:

ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه : أي لم يخلق الله رجلاً بقلبين كما ادعى بعض المشركين. تظاهرون منهن أمهاتكم : يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وما جعل أدعياءكم أبناءكم : أي ولم يجعل الدعيّ ابناً لمن ادعاه. ذلكم قولكم بأفواهكم : أي مجرد قول باللسان لاحقيقة له في الخارج فلم تكن المرأة أمّاً ولا الدعي ابناً.

هو أقسط عند الله : أي أعدل.

فاخوانكم في الدين ومواليكم : أي أخوة الإسلام وبنو عمكم فمن لم يعرف أبوه فقولوا له: يا أخي أو ابن عمي.

ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به : أي لا حرج ولا إثم في الخطأ، فمن قال للدعي خطأ يا ابن فلان

فلا إثم عليه.

ولكن ما تعمدت قلوبكم : أي الإثم والحرص في التعمد بأن ينسب الدعي لمن ادعاه.
وكان الله غفوراً رحيماً : ولذا لم يؤاخذكم بالخطأ ولكن بالتعمد.

معنى الآيات:

لما كان القلب محط العقل والإدراك كان وجود قلبين في جوف رجل واحد يحدث تعارضاً يؤدي إلى الفساد في حياة الإنسان ذي القلبين لم يجعل الله تعالى لرجل قلبين في جوفه كما ادعى بعض أهل مكة أن أبا معمر جميل بن معمر الفهري كان له قلبان لما شاهدوا من ذكائه ولباقتة وحذقه وغيره ذلك فقال إن لي قلبين أعقل بهما أفضل من عقل محمد صلى الله عليه وسلم فكانت الآية رداً عليه قال تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ (1) مِنْ قَلْبَيْنِ (2) فِي جَوْفِهِ﴾ وفيه إشارة إلى أنه لا يجمع بين حب الله تعالى وحب أعدائه وطاعة الله وطاعة

- 1 - يروى أنه لما انهزمت قريش يوم بدر رأى أبو سفيان جميل بن معمر المدعي أن له قلبين رآه منهزماً وإحدى نعليه في رجله والآخر في يده، فسأله أبو سفيان ما حال الناس؟ قال انهزموا فقال له ما بال أحد نعليك في يدك والآخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت فانفضح في دعواه.
- 2 - القلب بضعة لحم صغيرة على هيئة (صنوبرة) خلقها الله تعالى في الآدمي وجعلها محلاً للعلم، وهو بين لمتين لمة من الملك ولمة من الشيطان، وهو محل العلم ومحل الخطرات والوساوس ومحل الصدق واليقين ومحل الشك والكذب، ومحل الانزعاج والطمأنينة فسبحان الله الخلاق العليم.

(4/241)

أعدائه، وقوله ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي لم يجعل الله تعالى المرأة المظاهر منها أما لمن ظاهر منها كأن يقول لها أنت عليّ كظهر أُمي وكان أهل الجاهلية يعدون الظاهر محرماً للزوجة كالأم فأبطل الله تعالى ذلك وبيّن حكمه في سورة المجادلة، وأن من ظاهر من امرأته يجب عليه كفارة: عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً.
وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ (1) أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي لم يجعل الله الدعيّ ابناً إذ كانوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام يطلقون على المتبنى ابناً فيترتب على ذلك كامل حقوق البنوة من حرمة التزوج بامرأته إن طلقها أو مات عنها، وقوله ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي ما هو إلا نطق بالفم ولا حقيقة في الخارج له إذ قول الرجل للدعيّ أنت ولدي لم يصيرّه ولده وقول الزوج لزوجته أنت كأمي لم تكن أما له.
قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الْحَقَّ﴾ فلا يطلق على المظاهر منها لفظ أم، ولا على الدعيّ لفظ ابن، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي الأقوم والأرشد سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى في الآية (5) من هذا السياق {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} أي ادعوا الأدياء لآبائهم أي انسبواهم لهم يا فلان بن فلان. فإن دعوتهم إلى آباءهم أفسط وأعدل في حكم الله وشرعه. {إِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} فادعواهم باسم الأخوة الإسلامية فقولوا هذا أخي في الإسلام {وَمَوَالِيكُمْ} أي بنو عمكم فادعواهم بذلك فقولوا يا ابن عمي وإن كان الدعي ممن حررتموه فقولوا له مولاي {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} أي إثم أو حرج {فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} (2) من قول أحدكم للدعي يا ابن فلان لمن ادعاه خطأ لسان بدون قصد، أو ظنا منكم أنه ابنه وهو في الواقع ليس ابنه ولكن الإثم في التعمد والقصد المعتمد، وقوله {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} أي غفورا لمن تاب رحيماً لم يعاجل بالعقوبة من عصى لعله يتوب ويرجع.

- 1 - هذه الآية نزلت في شأن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية، إذ كان عبداً رقيقاً لخديجة فأهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما جاء أبوه وعرفه طلبه فخيره رسول الله بين الذهاب مع والده والبقاء معه فاختار العبودية على الحرية فتنباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبح من يومئذ يعرف بزید بن محمد حتى نزلت هذه الآية فأبطلت التبني ففي هذا نسخ للسنة بالكتاب.
- 2 - أخذ عطاء وكثير من العلماء من السلف أخذوا من هذه الآية أنه لا مؤاخذه مع الخطأ من ذلك إذا حلف المرء ألا يسلم على فلان فسلم عليه وهو لا يظن أنه هو فإنه لا يحنث، أو حلف أن لا يفارق غريمه حتى يقضيه دينه فأعطاه دراهم فوجدها زيوفاً لا يحنث، وروى البخاري من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام، كما روي "ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم إلا كفر".

(4/242)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إبطال التحريم بالظهار الذي كان في الجاهلية.
- 2- إبطال عادة التبني، وما يترتب عليها من حرمة نكاح امرأة المتبنى.
- 3- وجوب دعاء الدعي المتبنى بأبيه إن عرف ولو كان حماراً.
- 4- إن لم يعرف للمدعى أب دعي بعنوان الأخوة الإسلامية، أو العمومة أو المولوية.
- 5- رفع الحرج والإثم في الخطأ عموماً وفيما نزلت فيه الآية الكريمة خصوصاً وهو دعاء الدعي باسم مدعيه سبق لسان بدون قصد، أو بقصد لأنه يرى أنه ابنه وهو ليس ابنه.

النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)

شرح الكلمات:

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم : أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلب منهم هو أحق به من أنفسهم.

وأزواجه أمهاتهم : في الحرمة وسواء من طلقت أو مات عنها منهن رضي الله عنهن.

(4/243)

وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض : أي في التوارث من المهاجرين والمتعاقدين المتحالفين. إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا : بأن توصوا لهم وصية جائزة وهي الثلث فأقل. كان ذلك في الكتاب مسطورًا : أي عدم التوارث بالإيمان والهجرة والحلف مكتوب في اللوح المحفوظ.

وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم : أي اذكر لقومك أخذنا من النبيين ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده ويدعوا إلى عبادته.

ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم: أي وأخذنا بخاصة منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وقدم محمد صلى الله عليه وسلم في الذكر تشريفاً وتعظيماً له. وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً : أي شديداً والميثاق: العهد المؤكد باليمين.

ليسأل الصادقين عن صدقهم : أي أخذ الميثاق من أجل أن يسأل الصادقين وهم الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة تبيكيتاً للكافرين بهم.

وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً : أي فأتاب المؤمنين وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً أي موجعا.

معنى الآيات:

لما أبطل الله تعالى عادة التبني وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبني زيد بن حارثة الكلبى فكان يعرف بزيد بن محمد صلى الله عليه وسلم وأصبح بذلك يدعى زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم تعالى كافة المؤمنين أن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم (1) في الحرمة فلا تحل امرأة النبي لأحد بعده صلى الله عليه وسلم، ومعنى أن {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ} (2) مِنْ أَنفُسِهِمْ

1 - هذه الأمة إنما هي في حرمة النكاح والبر والتعظيم والإجلال أما في الإرث فلا كما أنه لا تبيح النظر إليهن والخلوة بهن كالأمهات فلذا ضرب الله الحجاب عليهن قال: وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب.

2 - صح أنه صلى الله عليه وسلم لا يصلي على ميت ترك ديناً ولم يترك سداداً فلما فتح الله عليه، قال أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه ومن ترك ما لا فلي ورثته وقال أيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه، فأكد صلى الله عليه وسلم بالفعل والقول هذه الحقيقة.

(4/244)

أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلبه منهم هو أحق به من أنفسهم، وبذلك أعطى الله تعالى رسوله من الرفعة وعلو الشأن ما لم يعط أحداً غيره جزاء له على صبره على ما أخذ منه من بنوة زيد رضي الله عنه الذي كان يدعى يزيد بن محمد فأصبح يعرف يزيد بن حارثة. وقوله تعالى {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ (1)} يريد في الإرث فأبطل تعالى بهذه الآية التوارث بالإيمان والهجرة والحلف الذي كان في صدر الإسلام وأصبح التوارث بالنسب والمصاهرة والولاء لا غير. وقوله {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} التوارث بالأرحام أي بالقربات مكتوب في اللوح المحفوظ وقوله {إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا} أي إلا أن توصوا بوصية جائزة وهي الثلث لأحد من المؤمنين والمهاجرين ومن حالقتم فلا بأس فهي جائزة ولا حرمة (2) فيها، وقوله {كَانَ ذَلِكَ} أي المذكور من التوارث بالقربات لا غير وجواز الوصية بالثلث لمن أبطل إرثهم بالإيمان والهجرة والمؤاخاة، في اللوح المحفوظ وهو كتاب المقادير مسطوراً أي مكتوباً مسطراً فلا يحل تبديله ولا تغييره. وقوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ (3) مِيثَاقَهُمْ} أي اذكر يا رسولنا لقومك أخذنا الميثاق وهو العهد المؤكد باليمين من النبيين عامة بأن يعبدوا الله وحده ويدعوا أممهم إلى ذلك، ومن أولي العزم من الرسل خاصة وهم أنت يا محمد، ونوح (4) وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} أعيد اللفظ تكراراً لتقريره، وليرتب عليه قوله {لِيَسْأَلَ} تعالى يوم القيامة {الصَّادِقِينَ} (5) وهم الأنبياء {عَنْ صِدْقِهِمْ} في تبليغ رسالتهم تقريباً لأممهم الذين كفروا وكذبوا. فأثاب المؤمنين {وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} أي موجعاً وهو عذاب النار.

1 - أولى ببعض متعلق بالمؤمنين أي أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين وذلك في كتاب الله المتضمن لشرعه وهو القرآن والمتضمن لقضائه وقدره وهو اللوح المحفوظ فبطل التوارث بالإسلام والهجرة والمعاقدة والتحالف وثبت بالولاء والنسب والمصاهرة لا غير.

2 - اختلف في الوصية للكافر من يهودي أو نصراني والراجح أنها إن كانت مودة له ومحبة فإنها

لا تجوز إذ مودتهم محرمة وإن كانت لمعنى آخر كإحسان قدمه الكتابي لمسلم فرأى أن يكافئه عليه فأوصى له بشيء إذا مات فلا حرج.

3 - قال القرطبي: أي عهدهم على الوفاء بما حملوا وأن يبشروا بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضاً وما في التفسير شامل لهذا ولغيره مما ذكر فيه.

4 - خص هؤلاء بالذكر تعظيماً لهم وتشريفاً ولأنهم أصحاب شرائع وكتب وأولوا العزم من الرسل.

5 - جائز أن يراد بالصادقين الأنبياء عن تبليغهم ووفائهم بما عهد إليهم وهذا هو الأرجح وجائز أن يسأل الأنبياء عما أجابهم به أقوامهم من طاعة وإيمان أو كفر وعصيان، والحقيقة أن كلا من الرسل والمرسل إليهم يسألهم تعالى، فقد جاء في الأعراف قوله تعالى (فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين).

(4/245)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تقديم ما يريده الرسول من المؤمن على ما يريده المؤمن لنفسه.
 - 2- حرمة نكاح أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأنهن أمهات المؤمنين وهو صلى الله عليه وسلم كالأب لهم.
 - 3- بطلان التوارث بالمواخاة والهجرة والتحالف الذي كان في صدر الإسلام.
 - 4- جواز الوصية لغير الوارث بالتثلث فأقل.
 - 5- وجوب توحيد الله تعالى في عبادته ودعوة الناس إلى ذلك.
 - 6- تقرير التوحيد بأخذ الميثاق به على كافة الأنبياء والمرسلين.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14)

(4/246)

شرح الكلمات:

اذكروا نعمة الله عليكم : أي اذكروا نعمة الله أي دافعنا عنكم لتشكروا ذلك.

جنود : أي جنود المشركين المتحزبين.

ريحا و جنوداً لم تروها : هي جنود الملائكة والريح ريح الصبا وهي التي تهب من شرق.

بما تعملون بصيراً : أي بصيراً بأعمالكم من حفر الخندق والاستعدادات للمعركة.

إذ جاءكم من فوقكم : أي بنو أسد و غطفان أتوا من قبل نجد من شرق المدينة.

ومن أسفل منكم : أي من غرب وهم قريش وكنانة.

وإذ زاغت الأبصار : أي مالت عن كل شيء إلا عن العدو تنظر إليه من شدة الفزع.

وبلغت القلوب الحناجر : أي منتهى الحلقوم من شدة الخوف.

وتظنون بالله الظنون (1) : أي المختلفة من نصر وهزيمة، ونجاة وهلاك.

هنالك ابتلي المؤمنون : أي ثم في الخندق وساحة المعركة أختبر المؤمنون.

وزلزلوا زلزالاً شديداً : أي حركوا حراكاً قويا من شدة الفزع.

والذين في قلوبهم مرض : أي شيء من النفاق لضعف عقيدتهم.

ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا : أي ما وعدنا من النصر ما هو إلا غروراً وباطلاً.

يا أهل يثرب لا مقام لكم : أي يا أهل المدينة لا مقام لكم حول الخندق فارجعوا إلى دياركم.

إن بيوتنا عورة : أي غير حصينة.

إن يريدون إلا فرارا : أي من القتال إذ بيوتهم حصينة.

ولو دخلت عليهم : أي المدينة أي دخلها العدو الغازي.

ثم سئلوا الفتنة : أي ثم طلب إليهم الردة إلى الشرك لآتوها أي أعطوها وفعلوها.

وما تلبثوا بها إلا يسيرا : أي ما تريبثوا ولا تمهلوا بل أسرعوا الإجابة وارتدوا.

1 - قرأ الجمهور الظنونا جمع ظن بألف بعد النون زيدت هذه النون لرعاية الفواصل في الوقف لأن الفواصل مثل الأسجاع. ومن القراء من أثبتتها وفقاً وحذفها وصلاً والكل جائز ومثلها في هذه السورة وأطعنا الرسولاً، وأضلونا السبيلاً.

(4/247)

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ (1) جُنُودٌ﴾ الآيات هذه قصة

غزوة (2) الخندق أو الأحزاب قصتها تبارك وتعالى على المؤمنين في معرض التذكير بنعمه تعالى

عليهم ليشكروا بالانقياد والطاعة لله ورسوله وقبول كل ما يشرع لهم لإكمالهم وإسعادهم في الحياتين فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من آمنتم بالله ربا والهأ وبمحمد نبياً ورسولاً وبالإسلام دينياً وشرعاً ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المتمثلة في دفع أكبر خطر قد حاق بكم وهو اجتماع جيوش عدة على غزوكم في عقر داركم وهم جيوش قريش وأسد وغطفان وبنو قريظة من اليهود ألهم عليهم وحزب أحزابهم حيي بن أخطب النضري يريد الانتقام من الرسول والمؤمنين إذ أجلوهم عن المدينة وأخرجوهم منها فالتحقوا بيهود خيبر وتيما، ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم أمر (3) بحفر الخندق تحت سفح جبل سلع غربي المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه إذ كانت له خبرة حربية علمها من ديار قومه فارس.

وتم حفر الخندق في خلال شهر من الزمن وكان صلى الله عليه وسلم يعطي لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً أي عشرين متراً، وما إن فرغوا من حفره حتى نزلت جيوش المشركين وكانوا قرابة اثني عشر ألفاً ولما رأوا الرسول والمسلمين وراء الخندق تحت جبل سلع قالوا هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها فتناوشوا بالنبال ورمى عمرو عبد ود القرشي بفرسه في الخندق فقتله علي رضي الله عنه ودام الحصار والمناوشة وكانت الأيام والليالي باردة والمجاعة ضاربة أطنابها قرابة الشهر. وتفصيل الأحداث للقصة فيما ذكره تعالى فيما يلي:

فقوله تعالى ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هي جنود المشركين من قريش ومن بني أسد وغطفان ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ لما (4) جاءتكم جنود المشركين وحاصروكم في

1 - إذ ظرف للزمان الماضي متعلق (بنعمة) لما فيها من الإنعام أي اذكروا ما أنعم الله عليكم وقت مجيء جنود العدو إليكم لقتالكم فهزمهم الله جل جلاله بما شاء من وسائل.

2 - اختلف في السنة التي كان فيها غزوة الأحزاب فقال قوم كانت سنة خمس وقال آخرون كانت سنة أربع وكانت في شوال، وسميت بغزوة الأحزاب لتحزب المشركين على قتال الرسول والمؤمنين فصاروا حزياً واحداً.

3 - روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر فرأيتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة يقول:

اللهم لولا أنت ما هدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

4 - هي جنود الملائكة الذين كانوا يلقون الرعب في قلوب المشركين حتى تخاذلوا وقرروا العودة إلى بلادهم.

سفع السلع أرسلنا عليهم ريحاً وهي ريح الصبا المباركة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا (1) وأهلكت عاد بالدبور وهي الريح الغربية. وفعلت بهم الصبا الأفاعيل حيث لم تبق لهم ناراً إلا أطفأتها ولا قدراً على الأثافي إلا أراقته، ولا خيمة ولا فسطاطاً إلا أسقطته وأزالته حتى اضطروا إلى الرحيل وقوله {وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة فأصابتهم بالفرع والرعب الأمر الذي أفقدهم كل رشدهم وصوابهم ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والحمد لله وقوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} أي بكل أعمالكم من حفر الخندق والمشادات والمناورات وما قاله وعمله المنافقون لم يغب عليه تعالى شيء وسيجزىكم به المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة.

وقوله تعالى: {إِذْ جَاءَكُمْ} أي المشركون {مِنْ قَوْكُمْ} أي من الشرق وهم غطفان بقيادة عيينة بن حصن وأسد {وَمِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ} وهم قريش وكنانة أي من الجنوب الغربي وهذا تحديد لساحة المعركة، وقوله {وَإِذْ رَأَعْتِ الْأَبْصَارُ} أي مالت عن كل شيء فلم تبق تنظر إلا إلى القوات الغازية من شدة الخوف، {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} أي ارتفعت بارتفاع الرئتين فبلغت منتهى الحلقوم (2). وقوله {وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ} المختلفة من نصر وهزيمة وسلامة وعطب، وهذا تصوير للحال أبدع تصوير وهو كما ذكر تعالى حرفياً.

وقوله تعالى {هُنَالِكَ} أي في ذلك المكان والزمان الذي حدق العدو بكم {ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ} أي اختبرهم ربهم ليرى الثابت على إيمانه الذي لا تزعزعه الشدائد والفتن من السريع الانهزام والتحول لضعف عقيدته وقلة عزمه وصبره. وقوله تعالى {وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} أي أزعجوا وحركوا حراكاً شديداً لعوامل قوة العدو وكثرة جنوده، وضعف المؤمنين وقلة عددهم، وعامل المجاعة والحصار، والبرد الشديد وما أظهره المنافقون من تخاذل وما كشفت عنه الحال من نقض بني قريظة عهدهم وانضمامهم إلى الأحزاب وقوله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ (3) وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أي النفاق لضعف إيمانهم

1 - قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقني لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم وقالت الشمال إن محوة لا تسري بالليل فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا وهي الريح الشرقية، (محوة) من أسماء ريح الشمال لأنها تمحو السحاب.

2 - وقيل هذا من باب المبالغة على إضمار كادت أي ارتفعت من أماكنها لشدة الخوف حتى كادت تبلغ الحناجر جمع حجرة، قال الشاعر:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أي كادت تقطر، والحجرة والحجور حرف الحلق أي طرفه.

3 - من بين القائلين طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة قالوا يوم الخندق كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحد منا أن يتبرز.

(4/249)

{مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} أي من النصر {إِلَّا غُرُورًا} أي باطلا: وذلك أنهم لما كانوا يحفرون الخندق واستعصت عليهم صخرة فأبت أن تنكسر فدعي لها الرسول صلى الله عليه وسلم فضربها بالمعول ضربة (1) تصدعت لها وبرق منها بريق أضاء الساحة كلها فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون، ثم ضربها ثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير الفتح وكبر المسلمون وضرب الثالثة فكسرها وبرقت لها برقة كسابقتها وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد سلمان فرقى من الخندق فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئا ما رأيته قط فالتفت رسول الله إلى القوم فقال هل رأيتم ما رأى سلمان؟ قالوا نعم يا رسول الله فأعلمهم أنه على ضوء ذلك البريق رأى قصور مدائن كسرى كأنياب الكلاب وإن جبريل أخبرني أن أمتي ظاهرة عليها كما رأيت في الضربة الثانية القصور الحمراء من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ورأيت في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا أبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صدق. فلما طال الحصار واشتدت الأزمة واستبد الخوف بالرجال قال المنافقون وضعفاء الإيمان {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} إذ قال معتب (2) بن قشير يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا وخوفاً ما هذا الوعد إلا وعد غرور!! وقوله {وَأَذَّاتٌ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ} (3) أي من المنافقين؛ وهو أوبس بن قيظي أحد رؤساء المنافقين لينا أهل يثرب (4) أي المدينة قبل أن يبطل الرسول هذا الاسم لها ويسميتها بالمدينة {لَا مَقَامَ لَكُمْ} أي في سفح سلع عند الخندق {فَارْجِعُوا} إلى منازلكم داخل المدينة بحجة أنه لا فائدة في البقاء هنا دون قتال، وما قال ذلك إلا فرارا من القتال وهروبا من المواجهة، وقوله تعالى {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ} أي يطلبون الإذن بالعودة إلى منازلهم بالمدينة بدعوى أن بيوتهم عورة أي مكشوفة أمام العدو وهم لا يأمنون عليها

1 - تقدم أنه من رواية النسائي "النهر"

2 - لفظ الطائفة يطلق على الواحد فأكثر والمعنى أوس بن قيظي والد عرابة بن أوس الذي يقول

فيه لشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد

تلقاها عرابة باليمين

3 - يثرب هي المدينة وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة قال السهيلي سمي العرب في الجاهلية المدينة يثرب، لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن قهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن أم.

4 - قرأ نافع والجمهور لا مقام بفتح الميم وهو اسم لمكان القيام، وقرأ حفص بضم الميم المقام وهو اسم لمحل الإقامة.

(4/250)

وأكذبهم الله تعالى في قولهم فقال {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} أي ما يريدون بهذا الاعتذار إلا الفرار من وجه العدو، وقال تعالى فيهم ومن أصدق من الله قيلاً: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا} أي من جميع نواحيها من شرق وغرب وشمال وجنوب (1) {ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ} أي طلب منهم العدو الغازي الذي حل عليهم المدينة الردة أي العودة إلى الشرك {لَا تَوَّهَا} أعطوها فوراً {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} حتى يرتدوا عن الإسلام ويصبحوا كما كانوا مشركين والعياذ بالله من النفاق والمنافقين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التذكير بالنعم ليشكرها المذكرون بها فتزداد طاعتهم لله ورسوله.
- 2- عرض غزوة الأحزاب أو الخندق عرضاً صادقاً لا أمثل منه في عرض الأحداث للعبارة.
- 3- بيان أن غزوة الخندق كانت من أشد الغزوات وأكثرها ألماً وتعباً على المسلمين.
- 4- بيان أن حسن الظن بالله ممدوح، وأن سوء الظن به تعالى كفر ونفاق.
- 5- بيان مواقف المنافقين الداعية إلى الهزيمة ليكون ذلك درساً للمؤمنين.
- 6- تقرير النبوة المحمدية بإخبار الغيب التي أخبر بها رسول الله فكانت كما أخبر من فتح فارس والروم واليمن.

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16)
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ

1 - ثم العطف بها هنا للترتيب الرتبي، إذ كان مقتضى الظاهر أن يكون العطف بالواو، لأن المذكور بعد حرف العطف داخل في فعل الشرط ووارد عليه جوابها فعدل عن الواو إلى ثم لأجل التنبيه على أن ما بعد ثم أهم من الذي قبلها أي أنهم مع ذلك يأتون الفتنة.

(4/251)

لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19)

شرح الكلمات:

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل : أي من قبل غزوة الخندق وذلك يوم أحد قالوا: والله لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن ولا نولي الأديبار.

وكان عهد الله مسئولا : أي صاحب العهد عن الوفاء به.

وإذا لا تمتعون إلا قليلاً : أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلاً وتموتون.

من ذا الذي يعصمكم من الله : أي من يجيركم ويحفظكم من الله.

إن أراد بكم سوءاً : أي عذاباً تستاعون له وتكربون.

قد يعلم الله المعوقين منكم : أي المثبطين عن القتال المفشلين إخوانهم عنه حتى لا يقاتلوا مع رسول الله والمؤمنين.

هلم إلينا : أي تعالوا إلينا ولا تخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يأتون البأس إلا قليلاً : أي ولا يشهدون القتال إلا قليلاً دفعاً عن أنفسهم تهمة النفاق.

أشحة عليكم : أي بخلاء لا ينفقون على مشاريعكم الخيرية كنفقة الجهاد وعلى الفقراء.

تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت: أي تدور أعينهم من شدة الخوف لجنبهم كالمحتضر

الذي يغشى عليه أي يغمى عليه من آلام سكرات الموت.

سلفوكم بألسنة حداد : أي آذوكم بألسنة ذرية حادة كأنها الحديد وذلك بكثرة

(4/252)

كلامهم وتبجحهم بالأقوال دون الأفعال.

أشحة على الخير : أي بخلاء بالخير لا يعطونه ولا يفعلونه بل ولا يقولونه حتى القول.

أولئك لم يؤمنوا : أي إنهم لم يؤمنوا بالإيمان الصحيح فلذا هم جنباء عند اللقاء بخلاء عند العطاء.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا (1) اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أي لقد عاهد أولئك المنافقون الله من قبل غزوة الأحزاب وذلك يوم فروا من غزوة أحد إذ كانت قبل غزوة الأحزاب بقراءة السنتين فقالوا والله لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولا نولي (2) الأدبار، فذكرهم الله بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ثم نكثوه، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (3)﴾ أي يسأل عنه صاحبه ويؤاخذ به. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي قل لهم يا رسولنا إنه لن ينفعكم الفرار أي الهروب من الموت أو القتل لأن الآجال محددة ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فلا معنى للفرار من القتال إذا وجب وقوله ﴿وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلاً من الزمن ثم تموتون عند نهاية أعماركم وهي فترة قليلة، فالفرار لا يطيل أعماركم والقتال لا ينقصها، وقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ (4) أي قل لهم يا رسولنا تكبناً لهم وتأنيباً وتعليماً أيضاً: من (5) ذا الذي يعصمكم أي يجيركم ويحفظكم من الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي ما يسوءكم من بلاء وقتل ونحوه ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي سلامة وخيراً فليس هناك من يحول دون وصول ذلك إليكم لأن الله تعالى يجير ولا يجار عليه وقوله تعالى ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ

- 1 - ذكر بعضهم أن هؤلاء هم بنو حارثة وبنو سلمة إذ هموا بالرجوع يوم أحد، وقيل هم من فانتهم وقعة بدر فقالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن وما في التفسير أرجح لدلالة السياق عليه.
- 2 - المراد بعهد الله كل عه يعهده عليه العبد ربه فإنه يجب عليه الوفاء به وإن تركه سئل عنه وحوسب به يوم القيامة.
- 3 - الأدبار جمع دبر والمراد به الظهر فالأدبار الظهور وتولية الأدبار كناية عن الفرار.
- 4 - في الكلام محذوف تقديره أو يجرمكم إن أراد بكم رحمة وهذا يعرف بدلالة الاقتضاء إيجازاً للكلام كقول الراعي:
إذا ما الغانيات برزن يوماً
وزججن الحواجب والعيونا
أي وكحلن العيون.
- 5 - الاستفهام للنفي أي لا أحد يعصمهم مما أراد الله تعالى بهم.

دُونَ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(1) { أي ولا يجد المخالفون لأمر الله العصاة له ولرسوله من دون الله ولياً يتولاهم فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء، ولا نصيراً ينصرهم إذا أراد الله إذلالهم وخذلانهم لسوء أفعالهم، وقوله تعالى في الآية (18) في هذا السياق {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ (2) الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} أخبرهم تعالى بأنه قد علم المعوقين أي المثبطين عن القتال والمخذلين بما يقولونه سراً في صفوف المؤمنين كالطابور الخامس في الحروب وهم أناس يذكرون في الخفاء عظمة العدو وقوته وبرهبون منه ويخذلون عن قتاله. وقوله {وَالْفَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} أي تعالوا إلينا إلى المدينة واتركوا محمداً وأصحابه يموتون وحدهم فإنهم لا يزيدون عن أكلة جزور. وقوله {وَلَا يَأْتُونَ النَّبَأَ إِلَّا قَلِيلاً} أي لا يشهد القتال ويحضره أولئك المنافقون المثبطون والذين قالوا إن بيوتنا عورة إلا قليلاً إذ يتخلفون في أكثر الغزوات وإن حضروا مرة قتالاً فإنما هم يدفعون به معرة التخلف ودفعاً لتهمة النفاق التي لصقت بهم.

وقوله تعالى {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} (3) وصفهم بالبخل بعد وصفهم بالجبن وهما شر صفات المرء أي الجبن والبخل أشحة عليكم أي بخلاء لا ينفقون معكم ولا على الجهاد ولا على الفقراء والمحتاجين وقوله تعالى {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ} (4) { أي بسبب هجوم العدو {رَأَيْتَهُمْ} أيها الرسول {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} لأن الذين بك {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ} من الخوف {كَالَّذِي يُغَشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} وهو المحتضر يغمى عليه لما يعاني من سكرات الموت وهذا تصوير هائل لمدى ما عليه المنافقون من الجبن والخوف وعلة هذا هو الكفر وعدم الإيمان بالقدر والبعث والجزاء.

وقوله {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ} أي راحت أسبابه بانتهاء الحرب {سَلَفُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ} أي سلفكم أولئك الجبناء عند اللقاء أي ضربوكم بألسنة نرية حادة كالحديد بالمطالبة بالغنيمة أو بالتبجح الكاذب بأنهم فعلوا وفعلوا. وهذا حالهم إلى اليوم

- 1 - المراد بالولي من يتولى نفعهم والنصير من يتولى نصرهم في الحرب.
- 2 - قد تفيد التحقيق فهي مؤكدة لمضمون الجملة لتطلب المقام ذلك لوجود شك لدى المخاطبين، والمعوقين جمع معوق وهو من يكثر منه العوق وهو المنع من العمل والحيلولة دونه والصيغة صيغة مبالغة نحو طَوْفٌ وَغَلْفٌ وَسَمْعٌ.
- 3 - أشحة جمع شحيح والقياس أشحاء لكنهم عدلوا عنه فقالوا أشحة والضمير في عليكم يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، والشح البخل بما في الوسع اعطاؤه.
- 4 - الخوف هنا توقع القتال من الجيشين.

وقوله {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} أي بخلاء على مشاريع الخير وما ينفق في سبيل الله فلا ينفقون لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر وذلك لكفرهم بالله ولقائه. ولذا قال تعالى {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا(1)} فسجل عليهم وصف الكفر ورتب عليه نتائجه وقوله {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} أي أبطلها فلا يثابون عليها لأنها أعمال مشرك وأعمال المشرك باطلة، وقوله {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} أي إبطال أعمالهم وتخبيبتهم فيها وحرمانهم من جزائها يسير على الله ليس بالعسير. ولذ هو واقع كما أخبر تعالى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الوفاء بالعهد إذ نقض العهد من علامات النفاق.
 - 2- ترك الجهاد خوفاً من القتل عمل غير صالح إذ القتال لا ينقص العمر وتركه لا يزيد فيه.
 - 3- الشح والجبن من صفات المنافقين وهما شر الصفات في الإنسان.
 - 4- الثرثرة وكثرة الكلام والتبجح بالأقوال من صفات أهل الجبن والنفاق.
 - 5- الكفر محبط للأعمال.
- يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا(20) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22) مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

1 - أولئك أصحاب تلك الصفات الذميمة الصادرة عن قلوب لم يخالطها بشاشة الإيمان فلذا أحبط الله أعمالهم لأنها لم تكن ثمرة إيمان صحيح فلذا هي فاسدة لا تزكي النفس ولا يستحق صاحبها أجرا.

(4/255)

قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا(25)

شرح الكلمات:

يحسبون الأحزاب لم يذهبوا : أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الأحزاب وهم قريش وغطفان.

لم يذهبوا : أي لم يعودوا إلى بلادهم خائبين.

وإن يأت الأحزاب : أي مرة أخرى فرضاً.

يودوا لو أنهم بادون في الأعراب: أي من جبنهم وخوفهم يتمنون أن لو كانوا في البادية مع سكانها. يسألون عن أنبائكم : أي إذا كانوا في البادية لو عاد الأحزاب يسألون عن أنبائكم أي أخباركم هل أنهزمتم أو انتصرتم.

ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً : أي ولو كانوا بينكم في الحاضرة ما قاتلوا معكم إلا قليلاً.

أسوة حسنة : أي قدوة صالحة تقتدون به صلى الله عليه وسلم في القتال والثبات في مواضعه.

هذا ما وعدنا الله ورسوله : من الابتلاء والنصر.

وصدق الله ورسوله : في الوعد الذي وعد به.

وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً : أي تصديقاً بوعد الله وتسليماً لأمر الله.

صدقوا ما عاهدوا الله عليه : أي وفوا بوعدهم.

فمنهم من قضى نحبه : أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد.

ومنهم من ينتظر : أي مازال يخوض المعارك مع رسول الله وهو ينتظر

(4/256)

القتل في سبيل الله.

وما بدلوا تبديلاً : أي في عهدهم بخلاف المنافقين فقد نكثوا عهدهم.

ورد الله الذين كفروا بغيظهم : أي ورد الله الأحزاب خائبين لم يظفروا بالمؤمنين.

وكفى الله المؤمنين القتال : أي بالريح والملائكة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في سرد أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الذين قالوا إن بيوتنا عورة وقالوا لإخوانهم هلم إلينا أي اتركوا محمداً في الواجهة وحده إنهم لجبنهم ظنوا أن الأحزاب لم يعودوا إلى بلادهم مع أنهم قد رحلوا وهذا منتهى الجبن والخوف وقوله تعالى {وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ} أي مرة أخرى على فرض وتقدير {يُودُوا} يومئذ {لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ (1) فِي الْأَعْرَابِ} أي خارج المدينة لشدة خوفهم من الأحزاب الغزاة، وقوله تعالى {يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ (2)} أي أخباركم هل ظفر بكم الأحزاب أو لا، {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ} أي بينكم ولم يكونوا في البادية {مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} وذلك لجبنهم وعدم إيمانهم بفائدة القتال لكفرهم بقاء الله تعالى وما عنده من ثواب وعقاب هذا ما تضمنته الآية الأولى (20)

وقوله تعالى في الآية الثانية (21) {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي (3) رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا (4)}

اللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} أي: لقد كان لكم أيها المسلمون أي: من مؤمنين صادقين ومناققين كاذبين في رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة أي قدوة صالحة فاقتدوا به في جهاده وصبره وثباته، فقد جاع حتى شد بطنه بعصاة وقاتل حتى شج وجهه وكسرت ربايعته ومات عمه وحفر الخندق بيديه وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر فأتسوا به في الصبر والجهاد والثبات إن كنتم ترجون الله أي تنتظرون ما عنده من خير في مستقبل أيامكم في الدنيا والآخرة وترجون اليوم الآخر أي ترتقبونه وما فيه من سعادة

- 1 - قرئ لو أنهم بُدِّيَ جمع بادٍ كغازٍ و غزَى، يقال بدا فلان يبدوا إذا خرج إلى البادية وهي البداوة والبداوة بالكسر والفتح.
- 2 - أي هل هلك محمد وأصحابه، أم غلب أبو سفيان وأحزابه؟ أي يودون لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة قتال لفرط جبنهم.
- 3 - هذه الآية تحمل عتاباً شديداً للمتخلفين عن القتال والأسوة بضم الهمزة قراءة عاصم وبالكسر قراءة الجمهور وهي اسم لما يؤتسى به أي يقتدى: ويعمل مثل عمله وجمع الأسوة أسي وإسى.
- 4 - اختلف في الاتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو على الإيجاب أو النذب أو هو على الإيجاب. حتى يقوم الدليل على الاستحباب أو هو على العكس، والصواب أنه فيما هو واجب واجب وفيما هو مستحب مستحب.

(4/257)

وشقاء، ونعيم مقيم أو جحيم وعذاب أليم. وتذكرون الله تعالى كثيرا في كل حالاتكم وأوقاتكم، فاقتدوا بنبيكم فإن الاقتداء به واجب لا يسقط إلا عن عجز والله المستعان.

وقوله تعالى في الآية الثالثة في هذا السياق (22) {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ} أي لما رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أحاطب بهم {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ (1) وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} بخلاف ما قاله المنافقون حيث قالوا {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} وقوله {وَمَا زَادَهُمْ} أي رؤيتهم للأحزاب على كثرتهم {إِلَّا إِيْمَانًا} بصادق وعد الله {وَتَسْلِيمًا} لقضائه وحكمه، وهذا ثناء عطر على المؤمنين الصادقين من ربه عز وجل. وقوله تعالى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} هذا ثناء آخر على بعض المؤمنين الذين لما تخلفوا عن بدر فتأسفوا ولما حصل انهزام لهم في أحد عاهدوا الله لئن أشهدهم الله قتالا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقاتلن حتى الاستشهاد فأخبر تعالى عنهم بقوله فمنهم من قضى نحبه أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد ومنهم من ينتظر القتل في سبيل الله، وقوله تعالى {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (2)} أدنى تبديل في موقفهم فثبتوا على

عهدهم بخلاف المعوقين من المنافقين فإنهم بدلوا وغيروا ما عاهدوا الله عليه وقوله تعالى
﴿لِيَجْزِيَ (3) اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي أجرى تعالى تلك الأحداث فكانت كما قدرها في كتاب
المقادير، ليجزي الصادقين بصدقهم فيكرمهم وينعمهم في جواره ويعذب المنافقين بناره إن شاء ذلك
فيميتهم قبل توبتهم، أو يتوب عليهم فيؤمنوا ويوحدا ويدخلوا الجنة مع المؤمنين الصادقين وهو معنى
قوله ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ ذلك لهم قضاء وقدرًا أو يتوب عليهم فيتوبوا فلا يعذبوا، وقوله ﴿إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ إخبار منه تعالى عن نفسه بأنه كان ذا ستر على ذنوب التائبين من عباده
رحيماً بهم فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

- 1 - المراد من الوعد الذي ذكره هو ما تضمنته آية البقرة ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ الآية أي
قوله ألا إن نصر الله قريب كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بقدم الأحزاب عليهم
وأن الله ناصرهم عليهم.
- 2 - في هذه الجملة تعريض بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يولون الأعداء ثم ولوا راجعين وعادوا إلى
بيوتهم تاركين الرسول والمؤمنين في المواجهة.
- 3 - الجملة تعليلية أي ثم الذي تم من الوفاء والغدر والصبر والجزع والهزيمة والنصر لعله أن يجزي
الله الصادقين بما يناسب صدقهم وهو المغفرة ويجزي المنافقين بما يناسب نفاقهم.

(4/258)

وقوله تعالى في آخر هذا السياق (25) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا (1)﴾ وهم قريش وكنانة وأسد وغطفان
ردهم بغيظهم أي بكرههم وغمهم حيث لم يظفروا بالرسول والمؤمنين ولم يحققوا شيئاً مما أملوا
تحقيقه، وكفى الله المؤمنين القتال حيث سلط على الأحزاب الريح والملائكة فانهزموا وفروا عائدين
إلى ديارهم لم ينالوا خيراً. وكان الله قوياً على إيجاد ما يريد إيجاده عزيزاً أي غالباً على أمره لا يمتنع
منه شيء أرادته.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير أن الكفر والنفاق صاحبهما لا يفارقه الجبن والخور والشح والبخل.
- 2- وجوب الانتساء برسول الله في كل ما يطيقه العبد المسلم ويقدر عليه.
- 3- ثناء الله تعالى على المؤمنين الصادقين لمواقفهم المشرفة ووفائهم بعهودهم.
- 4- ذم الانهزاميين الناكثين لعهودهم الجبناء من المنافقين وضعاف الإيمان.
- 5- بيان الحكمة في غزوة الأحزاب، ليجزي الله الصادقين الخ.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)

شرح الكلمات:

ظاهروهم : أي ناصروهم ووقفوا وراءهم يشدون أزرهم.
من صباصيههم : أي من حصونهم والصياصي جمع صيصية وهي كل ما يمتع به.
وقذف في قلوبهم الرعب : أي ألقى الخوف في نفوسهم فخافوا.
وأرضاً لم تطأوها : أي لم تطأوها بعد وهي خبير إذ فتحت بعد غزوة الخندق.

1 - روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى {ورد الله الذين كفروا بغيظهم} قالت: أبو سفيان بن حرب وعيينة بن بدر.

(4/259)

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (1) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} هذا شروع في ذكر غزوة بني قريظة إذ كانت بعيد غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة في آخر شهر ذي القعدة وخلاصة الحديث عن هذه الغزوة أنه لما ذهب الأحزاب وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى المدينة وكان بنو قريظة قد نقضوا عهدهم وانضموا إلى الأحزاب من المشركين عونا لهم على رسول الله والمؤمنين فلما ذهب الأحزاب وانصرف الرسول والمؤمنون من الخندق إلى المدينة فما راع الناس إلا ومنادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي إلى بني قريظة فلا يصلين أحدكم العصر إلا ببني قريظة وهي على أميال من المدينة وذلك أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم ظهر ذلك اليوم فقال يا رسول الله وضعت السلاح إن يأمرك بالسير إلى بني قريظة فقام رسول الله وأمر مناديا أن ينادي بالذهاب إلى بني قريظة وذهب رسول الله والمسلمون فحاصروهم قرابة خمس وعشرين ليلة وجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فقال لهم رسول الله أنتزلون على حكمي فأبوا فقال أنتزلون على حكم سعد بن معاذ(2)؟ فقالوا نعم فحكمه فيهم فحكم بأن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم مقررًا للحكم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع السموات. فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار بنت الحارث من نساء بني النجار وخرج إلى سوق المدينة فحفر فيها خندقاً ثم جيء بهم وفيهم حيي بن أخطب الذي حزب الأحزاب وكعب بن أسيد رئيس بني قريظة، وأمر علياً والزبير بضرب أعناقهم وطرحهم في ذلك الخندق.

وبذلك انتهى الوجود اليهودي المعادي بالمدينة النبوية. والحمد لله.
فقوله تعالى {وَأَنْزَلَ} أي الله تعالى بقدرته {الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} أي ظاهروا الأحزاب
وكانوا عوناً لهم على الرسول والمؤمنين وهم يهود بني قريظة {مَنْ صَيَّاصِيهِمْ(3)} أي أنزلهم من
حصونهم الممتنعين بها، {وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} ولذا

1 - المظاهرون بفتح الهاء هم قريش وكنانة وغطفان والمظاهرون لهم هم بنو قريظة من أهل
الكتاب.

2 - كان سعد رضي الله عنه قد أصابه سهم في غزوة الخندق فوضعه رسول الله صلى الله عليه
وسلم في خيمة بالمسجد ليتمكن من زيارته وكان رضي الله عنه لما أصابه السهم دعا الله تعالى:
اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها وإن كنت أنهيت الحرب بيننا وبينهم فاجرها،
ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة فاستجاب الله تعالى له وحكمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيهم فحكم عليهم بأن يقتل مقاتليهم وتسبى نساؤهم وذريتهم.

3 - الصياصي واحداً صيصة، والمراد حصونهم التي يتمنعون بها. قال الشاعر:

فجئت إليه والرماح تنوشه

كوقع الصياصي في النسيج الممدد

والصيصة: شوكة الحائك وصياصي البقر قرونها لأنها تتمنع بها.

(4/260)

قبلوا التحكيم فحكم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه
فحكم فيهم بقتل المقاتلة من الرجال وسبي النساء والذرياري وهو معنى قوله تعالى {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ} وهم
الرجال {وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} وهم النساء والأطفال، وقوله {وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ} الزراعية {وَدِيَارَهُمْ} السكنية
{وَأَمْوَالَهُمْ} الصامتة والناطقة وقوله {وَأَرْضاً لَمْ تَطَّأُوهَا} أي أورثكم أرضاً لم تطئوها بعد وهي أرض
خيبر (1) حيث غزاهم رسول الله في السنة السادسة بعد صلح الحديبية وفتحها الله عليهم وقوله
{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} تذييل المراد به تقرير ما أخبر تعالى به (2) من نصر أوليائه
وهزيمة أعدائه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان عاقبة الغدر فإن بني قريظة لما غدرت برسول الله انتقم منها فسلط عليها رسوله والمؤمنين
فأبادوهم عن

آخروهم ولم يبق إلا الذين لا ذنب لهم وهم النساء والأطفال.

2- بيان صادق وعد الله إذ أورث المسلمين أرضاً لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس

وبلاد أخرى كبيرة وكثيرة.

3- تقرير أن قدرة الله لا تحد أبداً فهو تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّنَّهَا فَنَعَالَيْنَ أُمْتَعُكُنَّ وَأُسْرَحُكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (28) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (29)

- 1 - وقال مقاتل هي خيبر إذ لم يكونوا قد نالوها بعد فوعدهم الله إياها وقال الحسن فارس والروم، وقال عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة والكل صالح ومقبول، وما في التفسير أقرب لأنها أرض اليهود فالسياق ساعد على أنها أرض خيبر، وقال صاحب التحرير إنها أرض بني النضير لأنهم ما فتحوها عنوة فلم تطأها حوافر الخيل ولا أقدام الأبطال.
- 2 - وفيه الإيحاء ببشرى فتوحات تعقب هذا الفتح.

(4/261)

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

شرح الكلمات:

- قل لأزواجك : أي اللاتي هن تحته يومئذ وهن تسع طلبن منه التوسعة في النفقة عليهن ولم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوسع به عليهن.
- فتعالين : أي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يومئذ قد اعتزلهن شهراً.
- أمتعن : أي متعة الطلاق المشروعة على قدر حال المطلق سعة وضيقاً.
- أسرحكن سراحاً جميلاً : أي أطلقكن طلاقاً من غير إضرار بكن.
- تردن الله ورسوله والدار الآخرة : أي تردن رضا الله ورسوله والجنة.
- فإن الله أعد للمحسنات : أي عشرة النبي صلى الله عليه وسلم زيادة على الإحسان العام.
- بفاحشة مبينة : أي بنشوز وسوء خلق يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- يضاعف لها العذاب ضعفين : أي مرتين على عذاب غيرهن ممن آذين أزواجهن.
- وكان ذلك على الله يسيراً : أي مضاعفة العذاب يسيرة هينة على الله تعالى.

معنى الآيات:

شاء الله تعالى أن يجتمع نساء الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأين نساء الأنصار والمهاجرين قد وُسِّعَ عليهن في النفقة لوجود يسر وسعة رزق بين أهل المدينة، أن يطالبن بالتوسعة في النفقة عليهن أسوة بغيرهن وكن يومئذ تسعا وهن عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أمية، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجورية بنت الحارث المصطلقية، وصفية بنت حيي بن أخطب النضرية فأبلغت عائشة ذلك رسول الله صلى

(4/262)

الله عليه وسلم فتأثر لذلك، لعدم القدرة على ما طُلب منه وقعد في مشربة له واعتزلهن شهراً كاملاً حتى أنزل الله تعالى آية التخيير وهي هذه يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ (1) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} من لذيذ الطعام والشراب وجميل الثياب وحلي الزينة ووافر ذلك كله فتعالين إلى مقام الرسول الرفيع {أَمْتَعُنَّ} المتعة المشروعة في الطلاق {وَأَسْرَحْنَ} أي أطلقكن (2) {سَرَّاحاً جَمِيلاً} أي لا إضرار معه، {وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي رضاها {وَالدَّارَ الْآخِرَةَ} أي الجنة {فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ} أي هياً وأحضر {لِلْمُحْسِنَاتِ} طاعة الله ورسوله {مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً} وهو المقامات العالية في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في دار السلام.

وخيرهن صلى الله عليه وسلم امتثالاً لأمر الله في قوله {قُلْ لِأَزْوَاجِكَ} وبدأ بعائشة (3) فقال لها: إني أريد أن أذكر لك أمراً فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمرني أبويك أي تطلبين أمرهما في ذلك وقرأ عليها الآية فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، وتتابعن على ذلك فما اختارت منهن امرأة غير الله ورسوله والدار الآخرة فأكرمهن الله لذلك وأنزل على رسوله: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً} وقوله تعالى يَا نِسَاءَ (4) النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ} أي بخصلة قبيحة ظاهرة كسوء عشرة النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} لأن أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبواب الكفر والعياذ بالله تعالى {وَوَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} أي وكان تضعيف العذاب على من أتت بفاحشة (5) مبينة شيئاً يسيراً على الله لا يعجزه حتى لا يفعله وهذا لأمرين الأول لأن أذية الرسول من أبواب الكفر والثاني لعلو مقامهن وشرفهن فإن ذا الشرف والمنزلة العالية يستقبح منه القبيح أكثر مما يستقبح من غيره.

1 - عامة أهل السنة والجماعة على أن الرجل إذا خير زوجته فاخترت الطلاق كان طلاقاً أما إذا

خيرها فاخترت عدم الطلاق فليس عليها شيء ولا يقع طلاق ما دامت لم تختره واختارت عدمه وهو البقاء.

2 - معنى إرادة الحياة الدنيا إيثارك ما في الحياة الدنيا من متع وترف على الاشتغال بالطاعات والزهد في زينة الحياة الدنيا ومظاهرها الساحرة الخلابة.

3 - نص الحديث: "يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلى عليها الآية. قالت أفيك يا رسول الله أستشيرني أبوي؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة".

4 - ناداهن الله تعالى بعنوان نساء النبي إعلان عن شرفهن وكمالهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

5 - إذا أطلق لفظ الفاحشة معروفاً بأل فهو الزنى، وإذا ورد نكرة فهو المعصية كما في هذه الآية.

(4/263)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية تخيير الزوجات فإن اخترن الطلاق تطلّقن وإن لم تخترنه فلا يقع الطلاق.
- 2- كمال أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عن الدنيا وزينتها.
- 3- مشروعية المتعة بعد الطلاق وهي أن تعطى المرأة شيئاً من المال بحسب غنى المطلق وفقره لقوله تعالى {عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتِرِ قَدْرُهُ}
- 4- وجوب الإحسان العام والخاص، الخاص بالزوج والزوجة والعام في طاعة الله ورسوله.
- 5- بيان أن سيئة العالم الشريف أسوأ من سيئة الجاهل الوضيع. ولذا قالوا سيئات الأبرار حسنات المقربين كمثل من الأمثال السائرة للعظة والاعتبار.

(4/264)

الجزء الثاني والعشرون

وَمَنْ يَفْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ النَّبِيِّ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33) وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)

شرح الكلمات:

ومن يقنت منكن الله ورسوله : أي ومن يطع منكن الله ورسوله.
نوؤها أجرها مرتين : أي نضاعف لها أجر عملها الصالح حتى يكون ضعف عمل امرأة أخرى من غير نساء النبي.
وأعتدنا لها رزقاً كريماً : أي في الجنة.
يا نساء النبي لستن كأحد من النساء : أي لستن في الفضل كجماعات النساء.
إن اتقيتن : بل أنتن أشرف وأفضل بشرط تقواكن لله.
فلا تخضعن بالقول : أي نظراً لشرفكن فلا ترققن العبارة.
فيطمع الذي في قلبه مرض : أي مرض النفاق أو مرض الشهوة.
وقلن قولاً معروفاً : أي جرت العادة أن يقال بصوت خشن لا رقة فيه.
وقرن في بيوتكن : أي أقررن في بيوتكن ولا تخرجن منها إلا لحاجة.

(265/4)

ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى : أي ولا تتزين وتخرجن متبخترات متغنجات كفعل نساء الجاهلية الأولى قبل الإسلام.
إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس: أي إنما أمركن بما أمركن به من العفة والحجاب ولزوم البيوت ليظهركن من الأدناس والردائل.
واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله الحكمة : أي الكتاب والسنة لتشكرن الله على ذلك بطاعته وطاعة رسوله.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع أزواج النبي أمهات المؤمنين فبعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عن الحياة الدنيا وزينتها أصبحت نوات رفعة وشأن عند الله تعالى، وعند رسوله والمؤمنين. فأخبرهن الرب تبارك وتعالى بقوله: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} أي تطع الله بفعل الأوامر وترك النواهي وتطع رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فلا تعص له أمراً ولا تسيء إليه في عشرة، وتعمل صالحاً من النوافل والخيرات نوؤها أجرها مرتين أي نضاعف لها أجر عملها فيكون ضعف أجر عاملة أخرى من النساء غير أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم . وقوله: {وَأَعْتَدْنَا (1) لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} أي في الجنة فهذه بشارة بالحنة لنساء النبي أمهات المؤمنين التسع اللاتي نزلت هذه الآيات في شأنهن.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (31) وقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ (2) لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ (3)﴾ أي يا زوجات النبي أمهات المؤمنين إنكن لستن كجماعات النساء إن شرفكن أعظم ومقامكم أسمى وكيف وأنتن أمهات المؤمنين وزوجات خاتم النبيين فاعرفن قدركن بزيادة الطاعة لله ولرسوله، وقوله إن اتقيتن أي إن هذا الشرف حصل لكن بتقواكن لله فلازمن التقوى إنكن بدون تقوى لا شيء يذكر شأنكن شأن سائر النساء. وبناء عليه ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ (4) بِالْقَوْلِ﴾ أي لا تلين الكلمات وترققن الصوت إذا تكلمتن مع الأجانب من الرجال. وقوله تعالى: ﴿قَيْطَمَعُ الَّذِي فِي

- 1 - التاء في أعتدنا بدل عن أحد الدالين من أعد لقرب مخرجيهما وقصد التخفيف.
- 2 - أعيد خطابهن من قبل الله تعالى كما أعيد نداؤهن تشريفاً لهن وإظهاراً للاهتمام بالخبر. وأحد بمعنى واحد قلبت همزته واوا.
- 3 - هذا الشرط معتبر في التقوى، إذ بين لهن أن هذا الشرف وهذه البشرى بالجنة إنما كانت بشرط التقوى والتقوى اجتناب وامتثال.
- 4 - قال ابن عباس: المرأة تندب إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام.

(4/266)

قَلْبِهِ مَرَضٌ} نفاق مع شهوة عارمة تجعله يتلذذ بالخطاب وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو ما يؤدي المعنى المطلوب بدون زيادة ألفاظ وكلمات لا حاجة إليها. وقوله: ﴿وَقَرْنَ (1) فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي اقررن فيها بمعنى اثبتن فيها ولا تخرجن إلا لحاجة لا بد منها وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي إذا خرجتن لحاجة ﴿تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي قبل الإسلام إذ كانت المرأة تتجمل وتخرج متبخرة منكسرة متعجبة في مشيتها وصوتها تفتن الرجال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ بأدائها مستوفاة الشروط والأركان والواجبات في أوقاتها مع الخشوع فيها ﴿وَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل الأمر واجتناب النهي. أمرهن بقواعد الإسلام وأهم دعائمه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي إنما أمرناكن (2) ونهيناكن إرادة إذهاب الدنس والإثم إبقاءً على طهركن يا أهل البيت النبوي. وقوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي كاملاً تاماً من كل ما يؤثم ويدسى النفس ويدنسها. وقوله تعالى ﴿وَأذْكَرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب والسنة وهذا أمر لهن على جهة والموعظة وتعدد النعمة.

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ أي بكم يا أهل البيت خبيراً بأحوالكم فتقوا به وفوضوا الأمر إليه. والمراد

من أهل البيت هنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم (3) وفاطمة وابناها الحسن والحسين وعليّ الصهر الكريم رضي الله عن آل بيت رسول الله أجمعين وعن صحابته أكتعين (4) أتبعين أيصعين. هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- لا شرف إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

2- بيان فضل نساء النبي وشرفهن.

1 - قرأ نافع وحفص وقرن بفتح القاف من قرر كعلم يقرر والأمر اقررن فحذفت الراء الأولى تخفيفاً وألغيت حركتها على القاف، فسقطت همز الوصل لعدم الحاجة إليها عندما تحركت القاف الساكنة فصارت وقرن، وقرأ الجمهور بكسر القاف.

2 - المعنى العام للآية: ما يريد الله لئن مما أمركن به ونهاكن عنه إلا عصمتكن من النقائص وتحليتنكن بالكمالات ودوام ذلك لكن فلم يرد بكن مقتاً ولا نكايّة.

3 - من جهل الرافضة وما وضع لهم من قواعد في دينهم لإخراجهم من الإسلام وإبعادهم عن جماعة المسلمين قصرهم هذه الآية على علي وفاطمة والحسين دون أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مع أن الخطاب في الآية لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحديث الكساء لا ينافي إدخال سائر نساء النبي في أهل بيته إذ ليس فيه صيغة من صيغ القصر المعروفة في لغة القرآن ونصه في صحيح مسلم عن عائشة قالت "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرط مرحل ف جاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً".

(4/267)

1- حرمة ترقيق المرأة صوتها وتليين عباراتها إذا تكلمت مع أجنبي.

2- وجوب بقاء النساء في منازلهن ولا يخرجن إلا من حاجة لا بد منها.

3- حرمة التبرج وهي أن تنتزين المرأة وتخرج باذية المحاسن متبخترّة في مشيتها.

4- على المسلم أن يذكر ما شرفه الله به من الإيمان والإسلام ليترفع عن الدنيا والردائل.

5- بيان أن الحكمة هي السنة النبوية الصحيحة.

6- الإشارة إلى وجود جاهلية ثانية وقد ظهرت منذ نصف قرن وهي تبرج النساء بالكشف عن الرأس

والصدر

والسيقان وحتى الأفخاذ.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35) شرح الكلمات:

إن المسلمين والمسلمات : إن الذين أسلموا لله وجوههم فانقادوا لله ظاهراً وباطناً والمسلمات أيضاً. والمؤمنين والمؤمنات : أي المصدقين بالله رباً وإلهاً والنبى محمد نبياً ورسولاً والإسلام ديناً وشرعاً والمصدقات.

والقانتين والقانتات : أي المطيعين لله ورسوله من الرجال والمطيعات من النساء.

والصادقين والصادقات : أي الصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات.

والصابرين والصابرات : أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فلا يتركوها وعن المعاصي فلا يقربوها وعلى البلاء فلا يسخطوه ولا يشتكوا الله إلى عباده والحابسات.

(4/268)

الخاشعين والخاشعات : أي المتذللين لله المخبتين له والخاشعات من النساء كذلك.

والمصدقين والمتصدقات : أي المؤدين الزكاة والفضل من أموالهم عند الحاجة إليه والمؤديات كذلك.

والحافظين فروجهم : أي عن الحرام والحافظات كذلك إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمنهم بالنسبة للرجال أما النساء فالحافظات فروجهن إلا على أزواجهن فقط.

والذاكرين الله كثيراً والذاكرات: أي بالألسن والقلوب فعلى أقل التقدير يذكرون الله ثلاثمائة مرة في اليوم والليلية زيادة على ذكر الله في الصلوات الخمس.

أعد الله لهم مغفرة : أي لذنوبهم وذنوبهن.

وأجرأ عظيماً : أي الجنة دار الأبرار.

معنى الآيات:

هذه الآية وإن نزلت جواباً عن تساءل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إذ قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فأنزل (1) الله تعالى هذه الآية المباركة إن المسلمين والمسلمات، فإن مناسبتها لما قبلها ظاهرة وهي أنه لما أثنى على آل البيت بخير فإن

نفوس المسلمين والمسلمات تتشوق لخير لهم كالذي حصل لآل البيت الطاهرين فذكر تعالى أن

المسلمين (2) والمسلمات الذين انقادوا لأوامر الله ورسوله وأسلموا وجوههم لله فلا يلتفتون إلى غيره، كالمؤمنين والمؤمنات بالله رباً وإلهاً ومحمد نبياً ورسولاً والإسلام ديناً وشرعاً، كالقانتين أي المطيعين

لله رسوله والمطيعات في السراء والضراء والمنشط والمكروه في حدود الطاقة البشرية، كالصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات كالصابرين أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فعلاً، وعن المحرمات تركاً، وعلى البلاء رضاءً وتسليماً والصابرات كالخاشعين في صلاتهم وسائر طاعاتهم والخاشعات لله تعالى كالمتصدقين بأداء زكاة أموالهم وبفضولها عند الحاجة إليها والمتصدقات كالصائمين رمضان والنوافل كعاشوراء والصائمات، كالحافظين فروجهم عما حرم الله تعالى عليهم من المناكح وعن

- 1 - روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت الآية، وروى أحمد والنسائي وابن جرير عن أم سلمة أنها قالت قلت ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فنزلت.
- 2 - بدئ بذكر الإسلام لأنه علم على الملة المحمدية وهو يعم الإيمان وعمل الجوارح ثم ذكر الإيمان لأنه كالطاقة المحركة والدافعة إلى القول الحق والطاعة لله ورسوله.

(4/269)

كشفها لغير الأزواج والحافظات (1)، كالذاكرين الله كثيراً بالليل (2) والنهار ذكر القلب واللسان والذاكرات (3) الكل الجميع أعد الله تعالى لهم مغفرة لذنوبهم إذ كانت لهم ذنوب، وأجرًا عظيمًا أي جزاء عظيمًا على طاعاتهم بعد إيمانهم وهو الجنة دار السلام جعلنا الله منهم ومن أهل الجنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بشرى المسلمين والمسلمات بمغفرة ذنوبهم ودخول الجنة إن اتصفوا بتلك الصفات المذكورة في هذه الآية وهي عشر صفات أولها الإسلام وآخرها ذكر الله تعالى.
 - 2- فضل الصفات المذكورة إذ كانت سبباً في دخول الجنة بعد مغفرة الذنوب.
 - 3- تقرير مبدأ التساوي بين الرجال والنساء في العمل والجزاء في العمل الذي كلف الله تعالى به النساء والرجال معاً وأما ما خص به الرجال أو النساء فهو على خصوصيته للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن والله يقول الحق ويهدي السبيل.
- وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (36) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي

- 1 - حذف من الآخر لدلالة الأول والمحذوف فروجهن، ولأن ذكر فروج النساء غير لائق ذكره وسماعه لما عرف به أهل هذه الملة من عدم الرضا بذكر النساء لصيانتهم عن الابتذال والمهانة.
- 2 - وحذف المقابل في الذاكرات طلباً للإيجاز غير المخل لأن الذكر الآخر مع ذكر الأول مع العلم به إطناب لا داعي له قال الشاعر:
- وَكَمْتَا مَدْمَاةَ كَأَن مَتُونَهَا
جَرَى فَوْقَهَا وَاسْتَشَعَرَتْ لَوْنَ مَذْهَبِ
- 3 - قال مجاهد: لا يكون العبد ذاكرة الله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً، وقال أبو سعيد الخدري "من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كانا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

(4/270)

أَزْوَاجٌ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)

شرح الكلمات:

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة : أي لا ينبغي ولا يصلح لمؤمن ولا مؤمنة.

أن يكون لهم الخيرة من أمرهم : أي حق الاختيار فيما حكم الله ورسوله فيه بالجواز أو المنع.

فقد ضل ضلالاً مبيناً : أي أخطأ طريق النجاة والفلاح خطأً واضحاً.

أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق وهو زيد بن حارثة.

واتق الله : أي في أمر زوجتك فلا تحاول طلاقها.

وتخفي في نفسك ما الله مبديه: أي وتخفي في نفسك وهو علمك بأنك إذا طلق زيد زينب زوجكها الله إبطالاً لما عليه الناس من حرمة الزواج من امرأة المتبتى.

ما الله مبديه : أي مظهره حتماً وهو زواج الرسول من زينب بعد طلاقها.

وتخشى الناس : أي يقولون تزوج محمد مطلقاً مولاه زيد.

والله أحق أن تخشاه : وهو الذي أراد لك ذلك الزواج.

فلما قضى زيد منها وطراً : أي حاجته منها ولم يبق له رغبة فيها لتعاليتها عليه بشرف نسبها ومحتد آبائها.

(4/271)

زوجناكها : إذ تولى الله عقد نكاحها فدخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها بدون إذن من أحدٍ وذلك سنة خمس وأشبع الناس لحماً وخبزاً في وليمة عرسها.
كيلا لا يكون على المؤمنين حرج: أي إثم في تزوجهم من مطلقات أديانهم.
وكان أمر الله مفعولا : أي وما قدره الله في اللوح المحفوظ لا بد كائن.
ولا يخشون أحداً إلا الله : أي يفعلون ما أذن لهم فيه ربهم ولا يبالون بقول الناس.
وكفى بالله حسيباً : أي حافظاً لأعمال عباده ومحاسباً لهم عليها يوم الحساب.
ما كان محمد أباً أحد من رجالكم : أي لم يكن أباً لزيد ولا لغيره من الرجال إذ مات أطفاله الذكور وهم صغار.

وخاتم النبيين : أي لم يجيء نبي بعده إذ لو جاء نبي بعده لكان ولده أهلاً للنبوّة كما كان أولاد إبراهيم ويعقوب، وداود مثلاً.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ (1)} الآيات هذا شروع في قصة زواج زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش بنت عمّة النبي أميمة بنت عبد المطلب إنه لما أبطل الله التبني وحرّمه بقوله {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} وقوله {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} تبع ذلك أن لا يرث الدعي ممن ادعاه، وأن لا تحرم مطلقته على من تبناه وادعاه وهكذا بطلت الأحكام التي كانت لازمة للتبني، وكون هذا نزل به القرآن ليس من السهل على النفوس التي اعتادت هذه الأحكام في الجاهلية وصدّر الإسلام أن تتقبلها وتدعن لها بعد ليال بسهولة فأراد الله تعالى أن يخرج ذلك لحيز الوجود فألهم رسوله أن يخطب زينب لمولاه زيد، واستجابت زينب للخطبة فهما منها أنها مخطوبة لرسول الله لتكون أمّاً للمؤمنين ولكن تبين لها بعد ليال أنها مخطوبة لزيد بن حارثة مولى رسول الله وليست كما فهمت وهنا أخذتها الحمية وقالت لن يكون هذا لن تتزوج شريفة مولى من موالي الناس ونصرها أخوها على ذلك وهو عبد الله بن جحش. فنزلت هذه الآية {وَمَا

1 - روى قتادة وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد في سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته خطبها لمولاه زيد بن حارثة فظنت أن الخطبة له صلى الله عليه وسلم فلما تبين أنها لمولاه زيد كرهت وأبت وامتنعت فنزلت الآية. فأدعت وقبلت.

كَانَ لِمُؤْمِنٍ (1) وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (2) مِنْ أَمْرِهِمْ { الآيَة فما كان منها إلا أن قبلت عن رضى الزواج من زيد وتزوجها زيد وبحكم الطباع البشرية فإن زينب لم تخف شرفها على زيد وأصبحت تترفع عليه الأمر الذي شعر معه زيد بعدم الفائدة من هذا الزواج فأخذ يستشير رسول الله مولاة ويستأذنه في طلاقها والرسول يأبى عليه وذلك علماً منه أنه إذا طلقها سيزوجه الله بها إنهاءً لقضية جعل أحكام الدعي كأحكام الولد من الصلب فكان يقول له: اتق الله يا زيد لا تطلق بغير ضرورة ولا حاجة إلى الطلاق واصبر على ما تجده من امرأتك، وهنا عاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل إذ قال له: {وَأَذِّبْ (3) تَقُولُ} أي اذكر إذ تقول {لَلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} أي بنعمة الإسلام، {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} بأن عتقته {أَمْسِكْ (4) عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي (5) فِي نَفْسِكَ} وهو أمر زواجك منها، {مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} أي مظهره لا محالة من ذلك {وَتُخْفِي (6) النَّاسَ} أن يقولوا محمد تزوج امرأة ابنه زيد، {وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها وانقضاء عدتها هدماً وقضاءً على الأحكام التي جعلت الدعي كابن الصلب.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا} أي حاجته منها بالزواج بها وطلقها {زَوَّجْنَاكَهَا (7)} إذ تولينا عقد نكاحها منك دون حاجة إلى ولي ولا إلى شهود ولا إلى مهر أو صداق وذلك من أجل أن لا يكون على المؤمنين حرج أي إثم في أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطراً، وقوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} أي وما قضى به الله واقع لا محالة وقوله تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ} أي من إثم أو تضيق في قول أو فعل شيء افترضه الله تعالى عليه وألزمه به سنة الله في الذين خلوا من قبل من الأنبياء، وكان أمر الله أي مقضيه قدراً مقدوراً أي واقعاً نافذاً لا محالة. وقوله: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} أي

- 1 - هذه الصيغة هي لنفي الحال والشأن فهي أبلغ من صيغ النهي أي أن مثل هذا القول والعمل مما لا يكون ولا ينبغي أن يكون نحو قوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) وفي الآية دليل على أن الكفاءة تعتبر في الأديان لا في الأنساب بل هي نص في هذا.
- 2 - الخيرة اسم مصدر من تخير ومثلها الطيرة من تطير ولم يسمع على هذا الوزن غيرهما، ووقع لفظ مؤمن ومؤمنة نكرة في سياق النفي فأفادتا العموم.
- 3 - روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لکنتم هذه الآية (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) والآية وكذا قالت في آية عبس وتولى وهو كما قالت رضي الله عنها وأرضاها.
- 4 - جاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها فقال له: {أمسك عليك زوجك واتق الله} الآية.
- 5 - إن قيل كيف يأمر زيداً بعدم طلاق زينب وهو يعلم أنه سيطلقها ويزوجه الله تعالى بها؟ الجواب لا حرج في هذا ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان والإسلام وهو يعلم أنه لا يؤمن، لأن الأمر

لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة.

6 - ما كان يخشاه هو إرجاف المنافقين واليهود قولهم: أئنهى عن نكاح زوجة الابن ويتزوج زوجة ابنه زيد.

7 - وري أن زينب كانت تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث! ما من نسائك امرأة تدل بهن: أن جدي وجدك واحد، وأن الله أنكحك إياي من السماء، وأن السفير في ذلك جبريل.

(4/273)

هؤلاء الأنبياء السابقون طريقتهم التي سنها الله لهم هي أنهم ينفذون أمر الله ولا يلتفتون إلى الناس ويقولون ما يقولون، ويخشون ربهم فيما فرض عليهم ولا يخشون غيره، وكفى بالله حسيباً أي حافظاً لأعمال عباده ومحاسباً عليها ومجاز بها، وقوله تعالى في ختام السياق ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ لا زيد ولا غيره إذ لم يكن له ولد ذكر قد بلغ الحلم إذ مات الجميع صغاراً وهم أربعة ثلاثة من خديجة وهم القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وهو من مارية القبطية، فلذا، لا يحرم عليه أن يتزوج مطلقة زيد لأنه ليس ابنه وإن كان يدعى زيد بن محمد قبل إنهاء التبني وأحكامه ولكن رسول الله وخاتم النبيين فلا نبي بعده فلو كان له ولد ذكر رجلاً لكان يكون نبياً وسولاً كما كان أولاد إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود، ولما أراد الله أن يختم الرسالات برسالته لم يأذن ببقاء أحد من أولاد نبيه بل توفاهم صغاراً، أما البنات فكبرن فتزوجن وأنجن ومتن حال حياته إلا فاطمة فقد ماتت بعده بستة أشهر وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فما أخبر به هو الحق وما حكم به هو العدل وما شرعه هو الخير فسلموا لله في قضائه وحكمه فإن ذلك خير وأنفع.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن المؤمن الحق لا خيرة عنده في أمر يقضي فيه الله ورسوله بالجواز أو المنع.
- 2- بيان أن من يعص الله ورسوله يخرج عن طريق الهداية إلى طريق الضلالة.
- 3- جواز عتاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم.
- 4- بيان شدة حياء الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 5- بيان إكرام الله لزيد بأن جعل اسمه يقرأ على السنة المؤمنين إلى يوم الدين.
- 6- بيان إفضال الله على زينب لما سلمت أمرها لله وتركت ما اختارته لما اختاره الله ورسوله فجعلها زوجة لرسول الله وتولى عقد نكاحها في السماء فكانت تفاخر نساءها بذلك.
- 7- تقرير حديث ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه.

8- إبطال أحكام التنبى التي كانت في الجاهلية.

9- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكونه خاتم الأنبياء فلا نبي بعده.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم

(4/274)

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44) شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا : أي يا من آمنتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.
اذكروا الله ذكراً كثيراً : أي بقلوبكم وألسنتكم.

وسبحوه بكرة وأصيلاً : أي نزهوه بقول سبحان الله وبحمده صباحاً ومساءً.
هو الذي يصلي عليكم : أي يرحمكم.

و ملائكته : أي يستغفرون لكم.

ليخرجكم من الظلمات : أي يرحمكم ليديم إخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.
تحيتهم يوم يلقونه سلام : أي سلام فالملائكة تسلم عليهم.

وأعد لهم أجراً كريماً : أي وهياً لهم أجراً كريماً وهو الجنة.
معنى الآيات:

هذا النداء الكريم من رب رحيم يوجه إلى المؤمنين الصادقين ليعلمهم ما يزيد به إيمانهم ونورهم، ويحفظون به من عدوهم وهو ذكر الله فقال تعالى لهم لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ (1) آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا لا أحد له ولا حصر إذ هو الطاقة التي تساعد على الحياة الروحية، وسبحوه (2) بكرة وأصيلاً بصلاة الصبح صلاة العصر . وبقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس . وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ} وصلاته تعالى عليهم

1 - قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يعذر واحد في ترك ذكر الله إلا من غلب عليه عقله وورد في فضل الذكر قوله صلى الله عليه وسلم "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا وما هو يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل - وقوله وقد جاءه أعرابيان فقال أحدهما يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله وقال الآخر إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فمرني بأمر أتشبهت به. فقال صلى الله عليه وسلم لا يزال لسانك رطباً بذكر

الله تعالى.

- 2 - يجوز أن يراد بالتسبيح صلوات النوافل، وجائز أن يكون التسبيح نحو سبحان الله وبحمده إذ ورد عنه صلى الله عليه وسلم وصح من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له ما تقدم من ذنبه.
- 3 - الصلاة الدعاء والذكر بخير وهي من الله تعالى ثناؤه على العبد بين الملائكة قاله البخاري وقيل صلاة الله تعالى على العبد الرحمة ويكون على النبي الثناء عليه وعلى غير النبي الرحمة وهذا أولى، ولا منافاة بين القولين لقوله تعالى: (فاذكروني أذكركم). وهي من الملائكة دعاء واستغفار لقوله تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا الآية من سورة المؤمن.

(4/275)

رحمته لهم، وصلاة ملائكته الاستغفار لهم وقوله ليخرجكم من الظلمات أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الإيمان والطاعات. فصلاته تعالى وصلاة ملائكته هو سبب الإخراج من الظلمات إلى النور. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وهذه علاوة أخرى زيادة على الإكرام الأول وهو الصلاة عليهم وإنه بالمؤمنين عامة رحيم فلا يعذبهم ولا يشقيهم. وقوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ (1) سلام أي وتحييتهم يوم القيامة في دار السلام السلام إذ الملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم أي أمان وأمنة لكم فلا خوف ولا حزن. وقوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيا لهم وأحضر أجراً كريماً وهي الجنة. فسبحان الله ما أكرمه وسبحان الله ما أسعد المؤمنين. فيا لفضيلة الإيمان وطاعة الرحمن طلب منهم أن يذكروه كثيراً وأن يسبحوه بكرة وأصيلاً وأعطاهم ما لا يقادر قدره فسبحان الله ما أكرم الله. والحمد لله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب ذكر الله تعالى كثيراً ليل نهار ووجوب تسيحه صباح مساء.
 - 2- بيان فضل الله على المؤمنين بصلاته عليهم وصلاة ملائكته ورحمته لهم.
 - 3- تقرير عقيدة البعث بذكر بعض ما يتم فيها من سلام الملائكة على أهل الجنة.
 - 4- بشرى المؤمنين الصادقين بالجنة.
- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)

1 - ورد أن ملك الموت لا يقبض روح المؤمن إلا سلم عليه وروي عن البراء بن عازب في قوله تعالى: {تحتيتهم يوم يفلونه سلام} قال فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، ولا يقبض روحه حتى يسلم عليه.

(4/276)

شرح الكلمات :

شاهداً : أي على من أرسلناك إليهم .

ومبشراً : أي من آمن وعمل صالحاً بالجنة .

ونذيراً : أي لمن كفر وأشرك بالنار .

وداعياً إلى الله بإذنه : أي وداعياً إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته بأمره تعالى .

وسراجاً منيراً : أي جعلك كالسراج المنير يهتدي به من أراد الهداية إلى سبيل الفلاح.

ولا تطع الكافرين والمنافقين : أي فيما يخالف أمر ربك وما شرعه لك ولأمتك.

ودع أذاهم : أي اترك أذاهم فلا تقابله بأذى آخر حتى تأمر فيهم بأمر .

وتوكل على الله : أي فوض أمرك إليه فإنه يكفيك.

معنى الآيات:

هذا نداء خاص بعد ذلك النداء العام فالأول كان للمؤمنين والرسول إمامهم على رأسهم. وهذا نداء خاص لمزيد تكريم الرسول وتشريفه وتكليفه أيضاً فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} محمد صلى الله عليه وسلم {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ (1)} حال كونك شاهداً على (2) من أرسلناك إليهم يوم القيامة تشهد على من أجاب دعوتك ومن لم يجبها، ومبشراً لمن استجاب لك فأمن وعمل صالحاً بالجنة، ونذيراً لمن أعرض فلم يؤمن ولم يعمل خيراً بعذاب النار، وداعياً إلى الله تعالى عباده إليه ليؤمنوا به ويوحده ويطيعوه بأمره تعالى لك بذلك، وسراجاً (3) منيراً يهتدي بك من أراد الهداية إلى سبيل السعادة والكمال.

وقوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (4)} أي أنظر بعد دعوتك إياهم، وبشر المؤمنين منهم أي الذين استجابوا لك وآمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ألا وهو مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة دار النعيم المقيم والسلام والتام. وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} فيما

1 - قال القرطبي: هذه الآية فيها تأنيس للنبي صلى الله عليه وللمؤمنين وتكريم لجميعهم.

2 - قال قتادة شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم.

3 - ورد في الصحيح والموطأ ومسلم أن للرسول صلى الله عليه وسلم خمسة أسماء وهي محمد

وأحمد والماحي والحاشر والعاقب وهل شاهد ومبشر ونذير ورؤوف ورحيم أسماء؟ الظاهر أنها صفات ومن عدها أسماء فقد ذكر ابن العربي في أحكامه أن له صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسماً.

4 - عن عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت ليا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً} وقد كان أمر علياً ومعاداً رضي الله عنهما أن يسيراً إلى اليمين فقال انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا إنه قد أنزل إنه قد أنزل عليّ (يا أيها النبي) الآية.

(4/277)

يقترحون عليك من أمور تتنافى مع دعوتك ورسالتك، ودع أذاهم أي اترك أذيتهم واصبر عليهم حتى يأمرك ربك بما تقوم به نحوهم، وتوكل على الله في أمرك كله، فإنه يكفيك وكفى بالله وكياً أي حافظاً وعاصماً يعصمك من الناس.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان الكمال المحمدي الذي وهبه إياه ربه تبارك وتعالى.

2- مشروعية الدعوة إلى الله إذا كان الداعي متأهلاً بالعلم والحلم وهما الإذن.

3- حرمة طاعة الكافرين والمنافقين والفجرة والظالمين فيما يتنافى مع مرضاة الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَنْعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (49)

شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا : أي من صدقوا بالله ورسوله وكتابه وشرعه.

إذا نكحتم المؤمنات (1) : أي إذا عقدتم عليهن ولم تبنا بهن.

من قبل أن تمسوهن : أي من قبل الخلوة بهن ووطئهن.

فما لكم عليهن من عدة : أي ليس لكم مطالبتهن بالعدة إذ العدة على المدخول بها.

فمتمعهن : أي أعطوهن شيئاً من المال يتمتعن به جبراً لخطرن.

وسرّحوهن سراحاً جميلاً : أي اتركوهن يذهبن إلى أهليهن من غير إضرار بهن.

معنى الآيات:

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين المسلمين فيقول لهم معلماً مشرعاً لهم: {إِذَا نَكَحْتُمُ (2)}

1 - بمناسبة طلاق زيد لزينب أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وقد خطبها رسول الله صلى الله

عليه وسلم وزوجه ربه بها وله الحمد ناسب ذكر حكم المطلقة قبل البناء وأنها لا عدة عليها، وأنه لا مهر لها ولكن لها المتعة إن لم يكن قد سمي لها مهراً.

2 - النكاح حقيقة في الوطاء ويطلق ويراد به العقد كما في هذه الآية الكريمة ولم يرد في القرآن الكريم النكاح إلا والمراد منه العقد، لأنه في معنى الوطاء، وهذا من أدب القرآن حيث يكتفى عن الوطاء بمثل المباشرة والملامسة والقريان والتغشي والإتيان.

(4/278)

المُؤْمِنَاتِ { أَي عَقَدْتُمْ عَلَيْهِنَّ، } ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ (1) مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ { أَي مِنْ قَبْلِ الدَّخُولِ عَلَيْهِنَّ } الَّذِي يَتِمُّ بِالْخُلُوةِ فِي الْفِرَاشِ، { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا عَلَيْهِنَّ لَا بِالْإِقْرَاءِ وَلَا بِالشُّهُودِ إِذِ الْعِدَّةُ لِمَعْرِفَةِ مَا فِي الرَّحِمِ وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا مَعْلُومَةٌ أَنْ رَحِمَهَا خَالِيَةً، فَإِنْ سَمِيَتْ لِهِنَّ مَهْرًا فَلِهِنَّ نِصْفَ الْمَسْمُومَةِ وَالْمَتَعَةِ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِحْبَابِ، وَإِنْ لَمْ تَسْمُوا لِهِنَّ مَهْرًا فَلَيْسَ لِهِنَّ غَيْرُ الْمَتَعَةِ وَهِيَ هُنَا وَاجِبَةٌ لِهِنَّ بِحَسَبِ يَسَارِ الْمَطْلُوقِ وَإِعْسَارِهِ وَقَوْلِهِ: } وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا { أَي خَلَوْا سَبِيلَهُنَّ يَذْهَبْنَ إِلَى ذَوِيهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ بِهِنَّ وَلَا أَدَى تَلْحُقُونَهُ بِهِنَّ.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جواز الطلاق قبل البناء.
- 2- ليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة بل لها أن تتزوج ساعة ما تطلق.
- 3- المطلقة قبل البناء إن سمي (2) لها صداق فلها نصفه، وإن لم يسم لها صداق فلها المتعة واجبة يقدرها القاضي بحسب سعة المطلق وضيقة.
- 4- حرمة أذية المطلقة بأي أذى، ووجوب تخلية سبيلها تذهب حيث شاعت.
- 5- مشروعية المتعة لكل مطلقة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ

1 - استدل بعض العلماء بقوله تعالى {ثم طلقتموهن} لما في ثم من المهلة على أن الطلاق لا يكون إلا بعد بالنكاح أي العقد، وأن من طلق امرأة قبل البناء عليها طلاقه لاغ لا عبرة به، وإن عينها فإنه لا يلزمه هذا مذهب نحو من ثلاثين صحابيا وتابعيا وإماما سمي البخاري منهم اثنين وسبعين وفي الحديث "لا طلاق قبل النكاح" وقال الجمهور إن عينها تطلق إن لم يعينها فلا طلاق عليه.

2 - استدلت الظاهرية بهذه الآية على أن من طلق طلاقاً رجعياً ثم راجع قبل أن تنتضي العدة ثم طلقها قبل أن يمسه أنه ليس عليها أن تتم عدتها وليس عليها عدة أخرى قياساً على المطلقة قبل البناء والجمهور على أنها تستقبل عدة أخرى وعليه مالك وجمهور فقهاء مكة والكوفة الكوفة والمدينة.

(4/279)

وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50)

شرح الكلمات:

أتيت أجورهن : أي أعطيت مهورهن.

مما أفاء الله عليك : أي مما يسبى كصافية وجويرية.

اللاتي هاجرن معك : أي بخلاف من لم تهاجر وبقيت في دار الكفر.

وهبت نفسها للنبي : أي وأراد النبي أن يتزوجها بغير صداق.

خالصة لك من دون المؤمنين : أي بدون صداق.

قد علمنا ما فرضنا عليهم : أي على المؤمنين

في أزواجهم : أي من الأحكام كأن لا يزيدوا على الأربع، وأن لا يتزوجوا إلا بولي ومهر وشهود.

وما ملكت أيمانهم : أي بشراء ونحوه وأن تكون المملوكة كتابية، وأن تستبرأ قبل الوطء.

لكيلا يكون عليك حرج : أي ضيق في النكاح.

معنى الآيات:

هذا النداء الكريم لرسول رب العالمين يحمل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إجازة ربانية تخفف عنه

أتعابه التي يعانيتها صلى الله عليه وسلم لقد علم الله ما يعاني رسوله وما يعالج من أمور الدين

والدنيا فمنّ عليه بالتخفيف

(4/280)

ورفع الحرج فقال ممتناً عليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1) إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي

مهورهن وأحللنا لك ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من سبايا الجهاد كصافية بنت حبيب

وجويرية بنت الحارث، (وَيَنبَاتِ عَمَّكَ (2) وَيَنبَاتِ خَالِكَ وَيَنبَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجِرْنَ (3) مَعَكَ} من مكة إلى المدينة.

أما اللاتي لم تهاجرن فلا تحلّ لك، وامرأة مؤمنة لا كافرة إن وهبت نفسها للنبي بدون مهر وأراد النبي أن يستنكحها حال كون هذه الواهبة خالصة لك دون المؤمنين فالمؤمن لو وهبت له امرأة نفسها بدون مهر لم تحل له بل لا بد من المهر والولي والشهود. وقوله تعالى {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ} أي على المؤمنين في أزواجهم من أحكام كأن لا يزيد الرجل على الأربع، وأن لا يتزوج إلا بولي ومهر وشهود، والمملوكة لا بد أن تكون كتابية أو مسلمة، وأن لا يطأها قبل الاستبراء بحيضة قد علمنا كل هذا وأحللنا لك ما أحللنا خصوصية لك دون المؤمنين وذلك تخفيفاً عليك لكيلا يكون عليك حرج أي ضيق ومشقة وكان الله غفوراً لك ولمن تاب من المؤمنين رحيماً بك وبالمؤمنين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إكرام الله تعالى لنبيه(4) في التخفيف عليه رحمة به فأباح له أكثر من أربع، وقصر المؤمنين على أربع أباح له الواهبة نفسها أن يتزوجها بغير مهر ولا ولي ولم يبيح ذلك للمؤمنين فلا بد من مهر وولي وشهود.
- 2- تقرير أحكام النكاح للمؤمنين وأنه لم يطرأ عليها نسخ بتخفيف ولا بتشديد.
- 3- بيان سعة رحمة الله ومغفرته لعباده المؤمنين.

- 1 - هذه الآية من المتقدم في التلاوة المتأخر في النزول ونظيرها آيتي الوفاة في البقرة على رأي الجمهور. إذ مضمون هذه الآية التوسعة على الرسول صلى الله عليه وسلم أكراماً له لما تحمله من نكاح زينب ثم قصره في الآيات بعد على من تحته من النساء إكراماً لهن أيضاً وذلك في قوله لا يحل لك النساء من بعد. ثم لم يقبض حتى رفع الله عنه الحظر إكراماً وإعلاءً من شأنه إذ قالت عائشة. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء.
- 2 - واحد العم والخال وجمع العمات والخالات لأن العم والخال استعمل استعمال أسماء الأجناس الدالة على متعدد واللفظ موحد كالإنسان واللفظ واحد وهو دال على كل إنسان من بني آدم.
- 3 - المعية هنا "معك" هي الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة إذ أحل له من هاجرت سواء كانت في رفقته أو في رفقة أخرى. ولم يهاجر في رفقته امرأة قط.
- 4 - من جملة خصائصه صلى الله عليه وسلم أن فرض عليه أموراً لم تفرض على الأمة كقيام الليل مثلاً وأباح له أموراً لم تبيح للأمة كنكاح الواهبة بدون مهر، وحرّم عليه أموراً لم تحرم على الأمة كحرمة الصدقة ذكر هذه الخصائص القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية.

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ
تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51)
لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)

شرح الكلمات:

ترجي من تشاء منهن : أي تؤخر من نسائك.

وتؤوي إليك من تشاء : أي وتضم إليك من نسائك من تشاء فتأتيها.

ومن ابتغيت : أي طلبت.

ممن عزلت : أي من القسمة.

فلا جناح عليك : أي لا حرج عليك في طلبها وضمها إليك خير ربه في ذلك بعد أن كان القسم
واجباً عليه.

ذلك أدنى أن تقر أعينهن : أي ذلك التخيير لك في إيواء من تشاء وترك من تشاء أقرب إلى أن تقر
أعينهن ولا يحزن.

ويرضين بما آتيتهن : أي مما أنت مخير فيه من القسم وتركه، والعزل والإيواء.

والله يعلم ما في قلوبكم : أي من حب النساء - أيها الفحول - والميل إلى بعض دون بعض وإنما
خير الله تعالى رسوله تيسيراً عليه لعظم مهامه.

وكان الله عليماً حليماً : أي عليماً بضعف خلقه حليماً عليهم لا يعاجل بالعقوبة ويقبل التوبة.
لا يحل لك النساء من بعد: أي لا يجوز لك أن تتزوج بعد هؤلاء التسعة اللاتي اخترتك إكراماً لهن
وتخفيفاً عنك.

ولا أن تبدل بهن من أزواج : أي بأن تطلق منهن وتتزوج أخرى بدل المطلقة لا . لا .

ولو أعجبك حسنهن : ما ينبغي أن تطلق من هؤلاء التسع وتتزوج من أعجبك حسنهن .

إلا ما ملكت يمينك : أي فالأمر في ذلك واسع فلا حرج عليك في التسري بالمملوكة، وقد تسرى

صلى الله عليه وسلم بمارية المهداة إليه من قبل ملك مصر وولدت له إبراهيم ومات في سن

الرضاعة عليه السلام.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في شأن التيسير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والتخفيف فقد تقدم أنه أحل له النساء يتزوج من شاء مما ذكر له وخصه بالواهبه نفسها يتزوجها بدون مهر ولا ولي وفي هذه الآية الكريمة (51) {تُرْجِي (1) مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} الآية وسع الله تعالى عليه بأن أذن له في أن يعتزل وطء من يشاء، وأن يرجئ من يشاء، وأن يؤوي إليه ويضم من يشاء وأن يطلب من اعتزلها إن شاء فلا حرج عليه في كل ذلك، ومع هذا فكان يقسم بين نسائه، ويقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك اللهم إلا ما كان من سودة رضي الله عنها فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها. هذا ما دلت عليه قوله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ (2)} وقوله ذلك أدنى أي ذلك التخيير لك في شأن نسائك أقرب أن تقر أعينهن أي يفرحن بك، ولا يحزن عليك، ويرضين بما تتفضل به عليهن من إيواء ومباشرة.

وقوله تعالى {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} أي أيها الناس من الرغبة في المخالطة، وميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، وإنما خير الله رسوله هذا التخيير تيسيراً عليه وتخفيفاً لما له من مهام لا يطمع فيها عظماء الرجال ولو كان في القوة والتحمل كالجبال أو الجمال. وقوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا} أي بخلقه وحاجاتهم. حليماً عليهم لا يعاجل العقوبة ويقبل ممن تاب التوبة.

1 - ترجي بدون همزة وترجئ مهموز لغتان فصيحتان من أرجى وأرجأ الأمر إذا أخره والآية تحمل التوسعة والتخفيف عنه صلى الله عليه وسلم فأسقط عنه واجب القسم بين أزواجه ومع هذا فكان يقسم. لأن الآية تفيد التخيير والإذن لا غير.

2 - الجناح الميل يقال جنحت السفينة إذا مالت إلى الأرض أي لا ميل عليك بلوم أو توبيخ أو عتاب. في الآية وجوب القسمة بين الزوجات والعدل بينهما فيعطي لكل زوجة يوماً وليلة فيقيم عندها في يومها ولو كانت مريضة أو نفساء أو حائضاً وإن مرض هو فذلك إلا أن يأذن له بالتمريض عند إحداهن كما استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له في ذلك.

(4/283)

وقوله تعالى في الآية (52) {لَا يَحِلُّ لَكَ (1) النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} أي لا يحل لك يا رسولنا النساء بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترن الله واخترتك وأنت رسوله واخترن الدار الآخرة فاعترفاً بمقامهن

قصرِك الله عليهن بعد الآن فلا تطلب امرأة أخرى ببديل أو بغير بدل، ومعنى ببديل: أن يطلق منهن واحدة أو أكثر ويتزوج بدلها. وهو معنى قوله تعالى ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وقوله ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي فلا بأس بأن تتسرى بالجارية تملكها وقد تسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك مصر مع بغلة بيضاء تسمى الدُّلْدُل وهي أول بغلة تدخل الحجاز، وقد أنجبت مارية إبراهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي في أيام إرضاعه عليه وعلى والده ألف ألف سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي حفيظاً عليماً فخافوه وراقبوه ولا تطلبوا رضا غيره برضاه فإنه إلهكم الذي لا إله لكم سواه به حياتكم وإليه مرجعكم بعد مماتكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إكرام الله تعالى لرسوله بالتيسير والتسهيل عليه لكثرة مهامه.
- 2- ما خير الله فيه رسوله لا يصح لأحد من المسلمين اللهم إلا أن يقول الرجل للمرأة كبيرة السن أو المريضة أي فلانة إنني أريد أن أتزوج أحسن نفسي وأنت كما تعلمين عاجزة فإن شئت طلقتك، وإن شئت تنازلت عن ليلتك فإن اختارت البقاء مع التنازل عن حقها في الفراش فلا بأس بذلك.
- 3- في تدبير الله لرسوله وزوجاته من الفوائد والمصالح ما لا يقادر قدره.
- 4- تقرير مبدأ (ما ترك أحد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه) تجلّى هذا في اختيار نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لله ورسوله والدار الآخرة.
- 5- وجوب مراقبة الله تعالى وعدم التفكير في الخروج عن طاعته بحال من الأحوال.

[تنبیه هام]

إِنَّ الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالزواج بأكثر من أربع كان لحكم عالية، وكيف والمشرع هو الله العليم الحكيم من تلك الحكم العالية ما يلي:

- 1 - اختلف في أحكام هذه الآية ونسخها بالكتاب أو السنة والراجح أنها منسوخة بآية ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ورجح بعضهم نسخها بالسنة إذ قالت عائشة: ما مات رسول الله صلى الله عليه حتى أحل له النساء.

(4/284)

(1) اقتضاء التشريع الخاص بالنساء ومنه ما لا يطلع عليه إلا الزوجان تعدد الزوجات ليروين الأحكام الخاصة

- بالنساء، ولصحة الرواية وقبولها في الأمة تعدد الطرق وكثرة الروايات.
- (2) تطلب الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى مناصرين لها أقوياء ولا أفضل من أصهار الرجل الداعي فإنهم بحكم العرف يقفون إلى جنب صهرهم محقاً أو مبطلاً كان.
- (3) أن المؤمنين لا أحب إليهم من مصاهرة نبي الله ليظفروا بالدخول عليه في بيته والخلوة به وما أعزها. فأى المؤمنين من لا يرغب أن تكون أمه أو أخته أو بنته أما لكل المؤمنين إني والله لا أحب إلي من أن أكون أنا وزوجتي وسائر أولادي خدماً في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلذا وسع الله على رسوله ليتسع على الأقل للأرامل وربات الشرف حتى لا يدنس شرفهن.
- (4) قد يحتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكافأة بعض من أحسن إليه ولم يجد ما يكافئه به ويراه راعباً في مصاهرته فيجيبه لذلك ومن هذا زواجه بكل من عائشة بنت الصديق وحفصة بنت الفاروق رضي الله عنهم أجمعين.
- (5) قد زوجه ربه بزینب وهو كاره لذلك يتهرب منه خشية قاله الناس وما كانوا يعدونه منكراً وهو التزوج بامرأة الدعي المتبنى بعد طلاقها أو موت زوجها هذه بعض الحكم التي اقتضت الإذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في التزوج أكثر من أربع مع عامل آخر مهم وهو قدرة رسول الله صلى الله عليه وسلم على العدل والكفاية الأمر الذي لن يكون لغيره أبداً.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُرُوجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)
- إِنْ

(4/285)

تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54)

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)

شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا : أي من صدقوا بالله ووعده ووعيدته وبالرسول وما جاء به.

إلا أن يؤذن لكم : أي في الدخول بأن يدعوكم إلى طعام.
غير ناظرين إناه : أي غير منتظرين وقت نضجه أي فلا تدخلوا قبل وقت إحضار الطعام وتقدم المدعويين إليه بأن يستغل أحدكم الإذن بالدعوة إلى الطعام فيأتي قبل الوقت ويجلس في البيت فيضابق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله.
فإذا طعمتم فانتشروا : أي إذا أكلتم الطعام وفرغتم فانتشروا عائدين إلى بيوتكم أو أعمالكم ولا يبق منكم أحد.
ولا مستأنسين لحديث : أي ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً.
إن ذلكم كان يؤذي النبي : أي ذلكم المكث في بيوت النبي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم.
فيستحيي منكم : أي أن يخرجكم.
والله لا يستحيي من الحق : أن يقوله ويأمر به ولذا أمركم أن تخرجوا.
من وراء حجاب : أي ستر كباب ورداء و نحوه.
أظهر لقلوبكم وقلوبهن : أي من الخواطر الفاسدة.
إن ذلك كان عند الله عظيماً : أي إن أذاكم لرسول الله كان عند الله ذنباً عظيماً.
إن تبدوا شيئاً أو تخفوه : أي إن تظهروا رغبة في نكاح أزواج الرسول بعد وفاته أو تخفوه في نفوسكم فسيجزىكم الله به شر الجزاء.
لا جناح عليهن في آبائهن الخ : أي لا حرج على نساء الرسول في أن يظهرن لمحارمهن المذكورين في الآية.

(4/286)

ولا نسائهن : أي المؤمنات أما الكافرات فلا.
ولا ما ملكت أيماهن : أي من الإماء والعبيد في أن يروهن ويكلمونهن من دون حجاب.
واتقين الله : أي يا نساء النبي فيما أمرتن به من الحجاب وغيره.
معنى الآيات:
لما بين تعالى لرسوله ما ينبغي له مراعاته من شأن أزواجه أمهات المؤمنين بين تعالى بهذه الآية (54) ما يجب على المؤمنين مراعاته أيضاً نحو أزواج النبي أمهاتهم فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} حقاً وصدقاً {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} بالدخول إلى طعام تطعمونه غير (1) ناظرين إناه أي وقته، وذلك أن هذه الآية والمعروفة بآية الحجاب نزلت في شأن نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أكلوا طعام الوليمة التي أقامها رسول الله لما زوجه الله بزینب بنت جحش رضي الله عنها، وكان الحجاب ما فرض بعد على النساء مكثوا بعد انصراف الناس يتحدثون فقام

رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أمامهم لعلهم يخرجون فما خرجوا وتردد رسول الله على البيت فيدخل ويخرج رجاء أن يخرجوا معه فلم يخرجوا واستحى صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هيا فخرجوا. فانزل الله تعالى هذه الآية فقوله تعالى غير ناظرين إناه (2) يعني ذلك النفر ومن يريد أن يفعل فعلهم فإذا وجه إليه أخوه استدعاء لحضور وليمة بعد الظهر مثلاً أتى المنزل من قبل الظهر يضايق أهل المنزل فهذا معنى غير ناظرين إناه أي وقته لأن الإنى هو الوقت. وقوله ولكن إذا دعيتم فادخلوا أي فلا تدخلوا بدون دعوة أو إذن فإذا طعمتم أي فرغتم من الأكل فانصرفوا منتشرين في الأرض فهذا إلى بيته وهذا إلى بيت ربه وهذا إلى عمله. وقوله: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي لا تمكثوا بعد الطعام يحدث بعضكم بعضاً مستأنسين بالحديث. حرم تعالى هذا عليكم أيها المؤمنون لأنه يؤذي رسوله. وإن كان الرسول لكامل أخلاقه لا يأمركم بالخروج حياءً منكم فالله لا يستحي من الحق فلذا أمركم بالخروج بعد الطعام

1 - غير ناظرين إناه غير منصوب على الحال والآية تضمنت الأدب في حال الجلوس والطعام كما تضمنت مشروعية الحجاب.

2 - أي غير منتظرين وقت نضجه، وإناه مقصور، وفيه لغات إني بكسر الهمزة وأني بفتح الهمزة والنون وأنا بفتح الهمزة والمد قال الحطيئة:
وأخرت العشاء إلى سهيل
أو الشعري فطال بي الإناء
والفعل أنى يأنى أنى إذ حان وأدرك وفرغ.

(4/287)

مراعاة لمقام رسوله محمد الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ (1) مَتَاعًا﴾ أي طلبتم شيئاً من الأمتعة التي توجد في البيت كإناء ونحوه فاسألوهن من وراء حجاب أي باب وستر نحوهما لا مواجهة لحرمة النظر إليهن. وقوله ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أنتم أيها الرجال وقلوبهن أيتها الأمهات أظهر أي من خواطر السوء الفاسدة التي لا يخلو منها قلب الإنسان إذا خاطب فحل أنثى أو خاطبت امرأة فحلاً من الرجال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما ينبغي ولا يصح أن تؤذوا رسول الله أي أذى ولا أن تتكحوا أزواجه من بعده أي ولا أن تتزوجوا بعد وفاته نساءه فإنهن محرّمات على الرجال تحريم الأمهات تحريماً مؤبداً لا يحل بحال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ (2) ذَلِكُمْ﴾ أي المذكور من المن أذى رسول الله والزواج من بعده بنسائه كان عند الله أي في حكمه وقضائه وشرعه ذنباً عظيماً لا يقادر قدره ولا

يعرف مدى جزائه وعقوبته إلا الله.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (53) وقوله تعالى {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا} أي تظهروه {أَوْ تُخْفُوهُ} أي تستروه يريد من الرغبة في الزواج من نساء الرسول بعد موته صلى الله عليه وسلم فإن الله كان بكل شيء عليماً وسيجزىكم بتلك الرغبة التي أظهرتموها أو أخفيتموها في نفوسكم شرّ الجزاء وأسوه. فاتقوا الله وعظمو ما عظم من حرّامات رسوله صلى الله عليه وسلم. هذا ما دلت عليه الآية (54).

وقوله تعالى في الآية (55) لا جناح عليهن (3) أي لا تضيق ولا حرج ولا إثم على نساء المؤمنات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهن من نساء المؤمنين في أن يظهرن وجوههن ويكلمن بدون حجاب أي وجهها لوجه آباءهن الأب والجد وإن علا، وأبناءهن الابن وابن الابن وإن نزل وابن البنت كذلك وإن نزل. وإخوانهن وأبناء إخوانهن وإن نزلوا وأبناء أخواتهن وإن نزلوا، ومماليكهن من إماء وعبيد.

وقوله تعالى {وَأَتَّقِينَ (4) اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} أمر من الله لنساء النبي ونساء المؤمنين بتقوى الله فيما نهاهن عنه وحرمه عليهن من إبداء الوجه للأجانب غير المحارم المذكورين في

- 1 - روى أبو داود عن أنس بن مالك قال عمر: وافقت ربي في أربع الحديث وفيه قلت يا رسول الله لو ضرب الحجاب على نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله عز وجل وإذا سألتموهن الآية.
- 2 - روي أن رجلاً من المنافقين لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة قال: فما بال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فأنزل الله تعالى هذه الآية، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده وجعل لهن حكم الأمهات وقال صلى الله عليه زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة وهذه علة من علل التحريم أيضاً.
- 3 - روي أنه لما نزلت آية الحجاب تساءل الآباء والأقارب: هل نحن أيضاً لا نكلمهن إلا من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية لا جناح عليهن في آبائهن الخ.
- 4 - لما ذكر تعالى الرخصة للمحارم أمر النساء بتقواه تعالى فأمرهن بذلك حتى لا يتجاوزن من أذن لهن بالنظر إليهم في المحارم إلى غيرهم وذلك لقلّة تحفظ النساء وكثرة استرسالهن.

(4/288)

الآية وتذكيرهم بشهود الله تعالى لكل شيء وإطلاعه على كل شيء ليكون ذلك مساعداً على التقوى.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان ما ينبغي للمؤمنين أن يلتزموه من الآداب في الاستئذان والدخول على البيوت لحاجة الطعام ونحوه.
 - 2- بيان كمال الرسول صلى الله عليه وسلم في خلقه في أنه ليستحي أن يقول لضيفه أخرج من البيت فقد انتهى الطعام.
 - 3- وصف الله تعالى نفسه بأنه لا يستحي من الحق أن يقوله ويأمره به عباده.
 - 4- مشروعية مخاطبة الأجنبية من وراء حجاب ستر ونحوه.
 - 5- حرمة أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها جريمة كبرى لا تعادل بأخرى.
 - 6- بيان أن الإنسان لا يخلو من خواطر السوء إذا كلم المرأة ونظر إليها.
 - 7- حرمة نكاح أزواج الرسول بعد موته وحرمة الخاطر يخطر بذلك.
 - 8- بيان المحارم الذين للمسلمة أن تكشف وجهها أمامهم وتخطبهم بدون حجاب.
 - 9- الأمر بالتقوى ووعيد الله لمن لا يتقيه في محارمه.
- إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (58) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)

(4/289)

شرح الكلمات:

يصلون على النبي : صلاة الله على النبي هي ثناؤه ورضوانه عليه، وصلاة الملائكة دعاء واستغفار له، وصلاة العباد عليه تشريف وتعظيم لشأنه.

صلوا عليه وسلموا تسليماً : أي قولوا: اللهم صل محمد وسلم تسليماً.

يؤذون الله ورسوله : أي بسب أو شتم أو طعن أو نقد.

يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : أي يرمونهم بأمر يوجهونها تهماً باطلة لم يكتسبوا منها شيئاً.

فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً : أي تحملوا كذباً وذنوباً بيناً ظاهراً.

يدنين عليهن من جلابيبهن : أي يرخين على وجوههن الجلابيب حتى لا يبدو من المرأة إلا عين واحدة تنظر بها الطريق إذا خرجت لحاجة.

ذلك أدنى أن يعرفن : أي ذلك الإدناء من طرف الجلابيب على الوجه أقرب.

فلا يؤذنين : أي يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون بالأذى.
وكان الله غفوراً رحيماً : أي غفوراً لمن تاب من ذنبه رحيماً به بقبول توبته وعدم تعذيبه بذنب تاب منه.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة ما يجب على المؤمنين من تعظيم نبيهم واحترامه حياً وميتاً أعلن في هذه الآية (56) عن شرف نبيّه الذي لا يدانيه شرف وعن رفعة التي لا تدانيها رفعة فأخبر أنه هو سبحانه وتعالى يصلي عليه وأن ملائكته كذلك يصلون (1) عليه وأمر المؤمنين كافة أن يصلوا عليه فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} فكان واجباً على كل مؤمن ومؤمنة أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ولو مرة في العمر يقول:

1 - اختلف في الضمير في يصلون على من يعود والصحيح أنه عائد على الله تعالى والملائكة معاً ولا حرج لأنه قول الله تعالى والله أن يرفع من يشاء من عباده لجمع ضمير الملائكة مع ضميره، وليس هذا من باب ومن يعصهما الذي أنكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك من قول الخطيب وهذا قول الله تعالى وليس من حقنا أن نعترض على الله تعالى وروي أن ابن عباس قرأ الملائكة بالرفع أي يصلون وعليه فانفصل الضمير وأصبح خاصاً بالله تعالى وهو وجه وما تقدم أولى لقراءة الكافة بالنصب.

(4/290)

الله صل على محمد وسلم تسليماً. وقد بينت السنة أنواعاً من صيغ الصلاة والسلام على الرسول أعظمها أجراً الصلاة الإبراهيمية (1) وهي واجبة في التشهد الأخير من كل صلاة (2) فريضة أو نافلة، وتستحب استحباباً مؤكداً عند ذكره (3) صلى الله عليه وسلم وفي مواطن أخرى. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (56) أما الآية الثانية (57) فقد أخبر تعالى عباده أن الذين يؤذون الله بالكذب (4) عليه أو انتقاصه بوصفه بالعجز أو نسبة الولد إليه أو الشريك وما إلى ذلك من تصوير الحيوان إذ الخلق اختص به الله فلا خالق إلا هو فلا تجوز محاكاته في الخلق، ويؤذون (5) رسول الله صلى الله عليه وسلم بسب أو شتم أو انتقاص أو تعرض له أو لآل بيته أو أمته أو سنته أو دينه هؤلاء لعنهم الله في الدنيا والآخرة أي طردهم من رحمته، وأعد لهم أي هياً وأحضر لهم عذاباً مهيناً لهم يذوقونه بعد موتهم ويوم يبعثهم يوم القيامة. هذا ما دلت عليه الآية الثالثة (58) أما الآية الرابعة (59) فإنه لما كان المؤمنات يخرجن بالليل لقضاء الحاجة البشرية إذ لم يكن لهم مراحيض في البيوت وكان بعض سفهاء المنافقين يتعرضون لهن بالغمز والكلمة السفهية وهم يقصدون على

عادتهم الإمام لا الحرائر فتأذى بذلك المؤمنات وشكون إلى أزواجهن ما يلقيين من تعرض بعض المنافقين لهن فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ (6) وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ والجلباب هو الملاءة أو العباءة تكون فوق الدرع السابغ الطويل، أي مُرَهْنٌ بأن يدنين طرف الملاءة على الوجه حتى لا يبقى إلا عين واحدة ترى بها الطريق، وبذلك يعرفن أنه حرائر عفيفات فلا يؤذيهن بالتعرض لهن أولئك المنافقون السفهاء عليهم لعائن الله. وقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أخبر عباده أنه تعالى كان وما زال غفوراً لمن تاب من عباده رحيماً به فلا يعذبه بعد توبته.

- 1 - صيغة الصلاة الإبراهيمية هي: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
- 2 - غير ضار أن يقول المالكية الصلاة سنة مؤكدة في التشهد الأخير إذ السنة المؤكدة عند المالكية هي الواجب عند الشافعي وأحمد وإذاً فلا فرق.
- 3 - من هذه المواطن بدء الدعاء وختمه وافتتاح الخطبة بعد حمد الله والثناء عليه ويوم الجمعة وليلتها ورد في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث منها، حديث مسلم: "من صلى عليّ مرة صلى الله بها عشراً" وروى النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم يوماً والبشر يرى في وجهه فقالوا إنا لنرى البشر في وجهك فقال: أتاني الملك فقال: "يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً".
- 4 - روى البخاري في صحيحه قال قال الله تعالى: "كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة "يقول الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإنني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإن شئت قبضتهما".
- 5 - من أفضع أنواع الأذى الذي تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يوماً يصلى حول الكعبة فجاء عقبة بن أبي معيط بسلي جزور ووضع على ظهره بين كتفيه الشريفتين فجاءت فاطمة وهي جويرية صغيرة فألقته بعيداً عن ظهر أبيها ونالت من المشركين وانصرفت فرضي الله عنها وأرضاها.
- 6 - تقدم ذكر أزواجه صلى الله عليه وسلم وأما بناته ففاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان شرف الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب الصلاة والسلام عليه في التشهد الأخير في الصلاة.
 - 2- بيان ما يتعرض له من يؤذي الله ورسوله من غضب وعذاب.
 - 3- بيان مقدار ما يتحملة من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بالقول فينسب إليهم ما لم يقولوا أو لم يفعلوا ويؤذيهم بالفعل بضرب جسم أو أخذ مال أو انتهاك عرض.
 - 4- وجوب تغطية المؤمنة وجهها إذا خرجت لحاجتها إلا ما كان من عين ترى بها الطريق، واليوم بوجود الأقمشة الرقيقة لا حاجة إلى إبداء العين إذ تسبل قماشاً على وجهها فيستر وجهها وترى معه الطريق واضحاً والحمد لله.
- لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (60) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (61) سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (62)
- شرح الكلمات:

لئن لم ينته المنافقون : أي عن نفاقهم وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر.

والذين في قلوبهم مرض : أي مرض حب الفجور وشهوة الزنا.

والمرجفون في المدينة : أي الذين يأتون بالأخبار الكاذبة لتحريك النفوس وزعزعتها كقولهم العدو

على مقربة من المدينة أو السرية الفلانية قتل أفرادها وما إلى ذلك.

لنغرينك بهم : أي لنسلطنك عليهم ولنحرسنك بهم.

ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً : أي في المدينة إلا قليلاً من الأيام ثم يخرجوا منها أو يهلكوا.

(4/292)

ملعونين : أي مبغدين عن الرحمة.

أينما ثقفوا أخذوا : أينما أخذوا أسروا وقتلوا تقتيلاً.

سنة الله في الذين خلوا من قبل: أي سن الله هذه السنة في الأمم الماضية أينما ثقف المنافقون

والمرجفون أخذوا وقتلوا تقتيلاً.

ولن تجد لسنة الله تبديلاً : أي منه تعالى إذ هي ليست أحكاماً يطرأ عليها التبديل والتغيير بل هي

سر التشريع وحكمته.

معنى الآيات:

لقد تقدم أن بعض النسوة اشتكين ما يلقيه من تعرض المنافقين لهن عند خروجهن ليلاً لقضاء الحاجة، وأن الله تعالى أمر نساء المؤمنين أن يذنين عليهن من جلابيبهن وعلة ذلك أن يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون وكان ذلك إجراءً وقائياً لا بد منه، ثم أقسم الجبار بقوله {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ (1)} أي وعزتي وجلالي لئن لم ينته هؤلاء المنافقون من نفاقهم وأعمالهم الاستفزازية والذين في قلوبهم مرض الشهوة وحب الفجور والمرجفون الذين يكذبون الأكاذيب المرجفة أي المحركة للنفوس كقولهم: العدو زاحف على المدينة والسرية الفلانية انهزمت أو قتل أكثر أفرادها لئن لم ينته هؤلاء لنغرینك (2) بهم أي لنحرسنك بهم ثم لنسلطنك عليهم. ثم لا يجاورونك فيها أي في المدينة إلا قليلاً، ثم يخرجوا منها أو يهلكوا ملعونين أي يخرجون ملعونين أي مطرودين من الرحمة الإلهية التي تصيب سكان المدينة النبوية، وحينئذ أينما ثقوا أي وجدوا وتمكن منهم أخذوا أي أسرى وقتلوا تقتيلاً حتى لا يبقى منهم أحد.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (60) {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ..} والثانية (61) {مَلْعُونِينَ... الخ. أما الآية الثالثة (62) {سِنَّةَ اللَّهِ (3) فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أي لقد سن الله تعالى هذا سنةً في المنافقين من أنهم إذا لم ينتهوا يلعنون ثم يسلط عليهم من يأخذهم ويقتلهم تقتيلاً، وقوله: {وَلَنْ (4) تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} يخبر تعالى أن ما كان من قبل السنن كالطعام

1 - يرى الكثيرون أن الصفات الثلاث لجنس واحد وهم المنافقون قد اجتمعت فيهم هذه الصفات الثلاث والواو مقحمة وليست للعطف وشاهده قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة في المزدحم

فهو رجل واحد بثلاث صفات.

2 - لنغرینك اللام للقسم أي وعزتنا وجلالنا لنغرینك.

3 - سنة منصوب على المصدر أي سن الله تعالى ذلك سنة ثم أضيف المصدر إلى فاعله.

4 - الجملة تذييلية المراد بها تأكيد العذاب الحائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا أو لم يتوبوا والمعنى لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلاً.

(4/293)

يشبع والماء يروي والنار تحرق والحديد يقطع لا يبده تعالى بل يبقى كذلك لأنه مبني على أساس الحكم التشريعية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالمنافقين وتهديدهم بإمضاء سنة الله تعالى فيهم إذا لم يتوبوا.
- 2- مشروعية إبعاد أهل الفساد من المدن الإسلامية أو يتوبوا بترك الفساد والإفساد، وخاصة المدينة النبوية الشريفة.
- 3- بيان ما كان من الأشياء من قبل السنن لا يتبدل بتبدل الأحوال والظروف بل يبقى كما هو لا يبدله الله تعالى ولا يغيره.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (68)

شرح الكلمات:

يسألك الناس عن الساعة: أي يهود المدينة كما سأله أهل مكة فاليهود سألوه امتحاناً والمشركون سألوه تكديباً بها واستعجالاً لها.
قل إنما علمها عند الله : أي أجب السائلين قائلاً إنما علمها عند ربي خاصة فلم يعلمها غيره.
وما يدريك : أي لا أحد يدريك أيها الرسول أي يخبرك بها إذ علمها الله وحده.

(4/294)

لعل الساعة تكون قريباً : أي وما يشعرك أن الساعة قد تكون قريبة القيام.
وأعد لهم سعيراً : أي ناراً متسعة.

خالدين فيها : أي مقدرًا خلودهم فيها إذ الخلود يكون بعد دخولهم فيها.
تقلب وجوههم في النار : أي تصرف من جهة إلى جهة كاللحم عند شيه يقبل في النار.
يا ليتنا أطعنا الله : أي يتمنون بأقوالهم لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول.
وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا: هذا قول الأتباع يشكون إلى الله سادتهم ورؤساءهم.
فأضلونا السبيلا : أي طريق الهدى الموصل إلى رضا الله عز وجل بطاعته.
آتهم ضعفين من العذاب : أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا لأنهم أضلونا.
والعنهم لعنا كبيراً : أي أخزهم خزيًا متعدد المرات في عذاب جهنم.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (1)﴾ أي ميقات مجيئها السائلون مشركون وأهل الكتاب فالمشركون يسألون عنها استبعاداً لها فسؤالهم سؤال استهزاء واليهود يسألون امتحاناً للرسول صلى

الله عليه وسلم، فأمره تعالى أن يجيب السائلين بجواب واحد ألا وهو إنما علمها عند الله، أي انحصر علمها في الله تعالى إذ أخفى الله تعالى أمرها عن الملائكة والمقربين منهم والأنبياء والمرسلين منهم كذلك فضلاً عن غيرهم فلا يعلم وقت مجيئها إلا هو سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: {وَمَا يُدْرِكُ} أي لا أحد يعلمك بها أيها الرسول، وقوله {لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} أي وما يشعرك يا رسولنا لعل الساعة تكون قريبة القيام وهي كذلك قال تعالى {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} وقال {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} فأعلم بالقرب ولم يعلم بالوقت لحكم عالية منها استمرار الحياة كما (2) هي حتى آخر ساعة. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} المكذبين بالساعة المنكرين لرسالتك الجاحدين بنبوتك لعنهم فطردهم من رحمته وأعد لهم ناراً مستعرة في جهنم خالدين فيها إذا دخلوها لم

- 1 - شاهد قرب الساعة في السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى". وحذفت التاء من قريباً ذهاباً بالساعة إلى اليوم كما حذفت من قريب في قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ذهاباً بالرحمة إلى العفو.
- 2 - من الحكم العالية لإخفاء الساعة أن يكون العبد مستعداً لها بالإيمان وصالح الأعمال في كل وقت وكذلك ساعة الفرد وهي الموت.

(4/295)

يخرجوا منها أبداً {لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا} أي يتولاهم فيدفع عنهم {وَلَا نَصِيرًا} أي ينصرهم ويخلصهم من محنتهم في جهنم. وقوله {يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ} (1) تصرف من جهة إلى جهة كما يقلب اللحم عند شيه يقولون عند ذلك يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول يتحسرون متمنين لو أنهم أطعوا الله وأطعوا الرسول في الدنيا ولم يكونوا عصوا الله والرسول. وقوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا} (2) هذه شكوى منهم واعتذاراً وأنى لهم أن تقبل شكواهم وينفعهم اعتذارهم. أطعناهم فيما كانوا يأمرونا به من الكفر والشرك وفعل الشر فأضلونا السبيلاً أي طريق الهدى فعشنا ضالين ومتنا كافرين وحشرنا مع المجرمين {رَبَّنَا} أي يا ربنا آتهم ضعفين من العذاب أي ضاعف يا ربنا لسادتنا وكبرائنا الذين أضلونا ضاعف لهم العذاب فعذبهم ضعفي عذابنا، والعنهم أي واخزهم في العذاب خزيًا كبيراً يتوالى (3) عليهم دائماً وأبداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن علم الساعة استأثر الله به فلا يعلم وقت مجيئها غيره.
- 2- بيان أن الساعة قريبة القيام، ولا منافاة بين قربها وعدم علم قيامها.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوال الكافرين فيها.

4- بيان أن طاعة السادة والكبراء في معاصي الله ورسوله يعود بالوبال على فاعليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ

1 - وجائز أن تقلب الوجوه أيضا من لفح النار من الاسوداد إلى الاخضرار.

2 - قرئ ساداتنا بكسر التاء جمع سيد.

3 - الضعف بكسر الضاد العدد المماثل للمعدود فالأربعة ضعف الاثنتين وقرئ كثيرا وكبيراً وكثيراً
يناسب قولهم ضعفين.

(4/296)

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبِينَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73)

شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا : أي يا من صدقوا بالله ورسوله ولقاء الله وما جاء به رسول الله.
لا تكونوا كالذين آذوا موسى : أي لا تكونوا مع نبيكم كما كان بنو إسرائيل مع موسى إذ آذوه بقولهم
إنه ما يمنعه من الاغتسال معنا إلا أنه آدر.

فبرأه الله مما قالوا : أي أراهم أنه لم يكن به أدرة وهي انتفاخ إحدى الخصيتين.
وكان عند الله وجيها : أي ذا جاهٍ عظيم عند الله فلا يخيب له مسعى ولا يرد له مطلباً.
وقولوا قولاً سديداً : أي صدقاً صائباً.

يصلح لكم أعمالكم : أي الدينية والدنيوية إذ على الصدق والموافقة للشرع نجاح الأعمال والفوز
بشارها.

فقد فاز فوزاً عظيماً : أي نال غاية مطلوبه وهو النجاة من النار ودخول الجنة.
إننا عرضنا الأمانة : أي ما ائتمن عليه الإنسان من سائر التكاليف الشرعية وما ائتمنه عليه أخوه
من حفظ مال أو قول أو عرض أو عمل.

فأبين أن يحملنها وأشفقن منها : أي رفضن الالتزام بها وخفن عاقبة تضييعها.

وحملها الإنسان : أي آدم وذريته.
إنه كان ظلوماً جهولاً : أي لأنه كان ظلوماً أي كثير الظلم لنفسه جهولاً بالعواقب.

(4/297)

ليعذب الله المنافقين : أي وتحملها الإنسان قضاء وقدرًا ليرتب الله تعالى على ذلك عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات فيغفر لهم ويرحمهم وكان الله غفوراً رحيمًا.

معنى الآيات:

قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ينادي الله تعالى مؤمني هذه الأمة ناهياً لهم عن أذى نبيهم بأذى أذى، وأن لا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن ومن ذلك ما ذكره صلى الله عليه وسلم عنه في قوله من رواية مسلم (1) "أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده فقالوا: ما منعه أن يغتسل معنا إلا أنه أدر، فذهب يوماً يغتسل فوضع ثوبه (2) على حجر وأخذ يغتسل وإذا بالحجر يهرب بالثوب فيجري موسى وراءه حتى وقف به على جمع من بني إسرائيل فرأوا أنه ليس به أدرة ولا برص كما قالوا فهذا معنى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً أي ذا جاه عظيم.

ومما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى أذاه في اتهام زوجته بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك وقول بعضهم له وقد قسم مالا هذه قسمة ما أريد به وجه الله.

وقول بعضهم أعدل فينا يا رسول الله فقال له ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟

وكان يقول يرحم الله موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر!! هذا ما دلت عليه الآية الأولى (69) أما الآية الثانية (70) فقد نادى تعالى عباده المؤمنين الذين نهاهم عن أذية نبيهم وأن لا يكونوا في ذلك كقوم موسى بن عمران ناداهم ليأمرهم بأمرين الأول بنقواه عز وجل إذ قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي صدقوا الله ورسوله. {انقُوا اللَّهَ} أي خافوا عقابه. فأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه. والثاني بالترام القول الحق الصائب (3) السديد، ورتب على الأمرين صلاح أعمالهم ومغفرة ذنوبهم إذ قول الحق والترام الصدق مما يجعل الأقوال والأعمال مثمرة نافعة، فنثمر زكاة النفس وطهارة الروح. ثم أخبرهم مبشراً إياهم بقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} في الأمر والنهي فقد فاز فوزاً عظيماً وهي سعادة الدارين: النجاة من كل مخوف والظفر بكل محبوب مرغوب ومن

1 - رواه البخاري بمعناه أيضاً.

2 - قال أهل العلم في وضع موسى ثوبه على الحجر ودخوله الماء عرياناً دليل على جواز مثل

هذا الصنيع وهو كذلك، وهذا الجواز لا يتنافى الاستحباب إذ التستر مستحب بلا خلاف.
3 - القول السديد هو لا إله إلا الله وهو القصد الحق وهو الذي يوافق ظاهره باطنه، وهو ما أريد به وجه الله دون سواه فالقول السديد الصائب يشمل كل هذا الذي ذكر.

(4/298)

ذلك النجاة من النار ودخول الجنة. هذا ما تضمنته قوله تعالى {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} وقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (1) وهي شاملة للتكاليف الشرعية كلها ولكل ما اتتمن عليه الإنسان من شيء يحفظه لمن اتتمنه عليه حتى يرده إليه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال بعد أن خلق الله لها عقلاً ونطقاً ففهمت الخطاب وردت الجواب فأبت تحملها بثوابها وأشفقت وخافت من تبعتها، وعرضت على الإنسان آدم فحملها بتبعتها من ثواب وعقاب لأنه كان ظلوماً لنفسه يوردها موارد السوء جهولاً بعواقب الأمور. هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (72) وهي قوله تعالى {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (2) وقوله تعالى {لِيُعَذِّبَ (3) اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ (4) وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} أي بتبعية النفاق والشرك، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أي تم عرض الأمانة وقبول آدم لها ليؤول الأمر إلى أن يكفر بعض أفراد الإنسان فيعذبوا بكفرهم الذي نجم عن تضييع الأمانة، ويؤمن بعض آخر فيفرط بعض التفريط ويتوب الله عليه فيغفر له ويدخله الجنة وكان الله غفوراً رحيماً ومن آثار ذلك أن تاب الله على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم ورحمهم بإدخالهم الجنة فسبحان الله المدبر الحكيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تقوى الله عز وجل بفعل الأوامر واجتناب المناهي.
- 2- صلاح الأعمال لتثمر للعاملين الزكاة للنفس، وطيب الحياة متوقف على التزام الصدق في

1 - روى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال قالت وما فيها؟ قيل لها إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه قال وما هي؟ قال إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال فقد تحملتها يا رب. قال مجاهد فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر.
2 - فكان الإنسان فريقين فريق ظلوم وفريق راشد عالم.

3 - ليعذب اللام متعلقة بحمل أي حملها ليعذب العاصي ويثاب المطيع فهي لام التعليل وتعذيبهم نتيجة إضاعتهم الأمانة، ورحمة المؤمنين والمؤمنات نتيجة محافظتهم على الأمانة برعايتهم لها وسر ذلك أن التكاليف عملها يزكي النفس ويطهرها فتتأهل للجنة، وعدم عملها بتركها يسبب خبث النفس وهو يؤهل للنار وعذابها.

4 - ذكر المنافقات والمشركات لأن المقام كمقام الإسهاد يتطلب ذكر الشاهد إقامة للحجة وإظهاراً للعدالة ولأن الجزاء العادل يتطلب التصييص على من يقضى له أو عليه.

(4/299)

القول والعمل وهو القول السديد المنافي للكذب والانحراف في القول والعمل

3- طاعة الله ورسوله سبيل الفوز والفلاح في الدين

4- وجوب رعاية الأمانة وأدائها ، ولم يخل احد من أمانة

5- وصف الإنسان بالظلم والجهل والكفر والمهانة والضعف ف آيات أخرى يستلزم طلب علاج لهذه الصفات وعلاجها جاء مبيناً في سورة المعارج في قوله { إِلا الْمُصَلِّينَ } إلي قوله { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }

(4/300)

سورة سبأ

...

سورة سبأ(1)

مكية

وآياتها أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ (2)

شرح الكلمات:

الحمد لله : أي الوصف بالجميل واجب لله مستحق له.

الذي له ما في السموات وما في الأرض : أي خلقاً وملكاً وتصريفاً وتدبيراً.

وله الحمد في الآخرة : أي يحمده فيها أوليائه وهم في رياض الجنان، كما له الحمد في الدنيا.
وهو الحكيم الخبير : أي الحكيم في أفعاله الخبير بأحوال عباده.
يعلم ما يلج في الأرض : أي ما يدخل فيها من مطر وأموات وكنوز.
وما يخرج منها : أي من نبات وعيون ومعادن.
وما ينزل من السماء : أي من ملائكة وأمطار وأرزاق ونحوها.

1 - هذه السورة "الحمد لله" هي إحدى خمس سور مفتوحة بالحمد لله وهن كلهن مكيات أولهن الفاتحة وآخرهن فاطر.

(4/300)

وما يعرج فيها : أي وما يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد وأرواحهم بعد الموت.
وهو الرحيم الغفور : أي الرحيم بالمؤمنين الغفور للتائبين.
معنى الآيات:

يخبر تعالى عباده بأن له الحمد (1) والشكر الكاملين التامين، دون سائر خلقه، فلا يُحمد على الحقيقة إلا هو أما مخلوقاته فكل ما يحمده له هو من عطاء الله تعالى لها وإفاضته عليها فلا يستحق الحمد على الحقيقة إلا الله، كما أخبر تعالى بموجب حمده وشكره وهو أن له ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصرفاً وليس لأحد سواه من ذلك شيء هذا في الدنيا، ﴿وَلَهُ (2) الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ إذ يكرم أوليائه فينزلهم دار السلام فيحمدونه على ذلك ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ في تصرف أمور عباده وسائر مخلوقاته وتدبيرها الخبير بأحوالها العليم بصفاتنا الظاهرة والباطنة.
وقوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ﴾ أي ما يدخل (3) في الأرض من مطر وكنوز وأموات، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي من الأرض من نبات ومعادن ومياه، وما ينزل من السماء من أمطار وملائكة وأرزاق (4)، ﴿وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا﴾ أي يصعد من ملائكة وأعمال العباد. وهو مع هذه القدرة والجلال والكمال هو وحده الرحيم بعباده المؤمنين الغفور للتائبين. بهذه الصفات الثابتة للذات الإلهية وهي صفات جلال وجمال كمال استحق الرب تعالى العبادة دون سواه فكل تأليه لغيره هو باطل ومنكر وزور يجب تركه والتخلي عنه، والتتديد بفاعله حتى يتركه ويتخلى عنه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب حمد الله تعالى (5) وشكره بالقلب واللسان والجوارح والأركان.

-
- 1 - الحمد الكامل والثناء الشامل كله لله، إذ النعم كلها منه وله الحمد في الأولى لأنه المالك وله الحمد في الآخرة كذلك.
 - 2 - الجملة عطف على الصلة أي والذي له الحمد في الآخرة، وفيها إشارة إلى أنه مالك الأمر في الآخرة.
 - 3 - الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم من باب أولى ما يدب على سطحها وما يزحف فوقها والذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج فيها يعلم من باب أولى ما يجول في أرجائها ويعلم سير كواكبها.
 - 4 - وكذا من الثلوج والبرد والصواعق.
 - 5 - حمده تعالى نفسه دليل على أنه محب الحمد. ولذا كان الحمد رأس الشكر وشاهده قول الرسول صلى الله عليه وسلم ما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى حتى إنه حمد نفسه.

(4/301)

-
- 2- بيان أن الحمد لا يصح إلا مع مقتضيه من الجلال والجمال.
 - 3- لا يحمد في الآخرة إلا الله سبحانه وتعالى.
 - 4- بيان علم الله تعالى بالظواهر والبواطن في كل خلقه.
 - 5- تقرير توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته.
- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (3)
- لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)
- وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ (5)
- وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)
- شرح الكلمات:

لا تأتينا الساعة : أي القيامة.
لا يعزب عنه : أي لا يغيب عنه.
مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : أي وزن ذرة: أصغر نملة.

(4/302)

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر : أصغر من الذرة ولا أكبر منها.
إلا في كتاب مبین : أي موجود في اللوح المحفوظ مكتوب فيه.
ليجزى الذين : أي أثبته في اللوح المحفوظ ليحاسب به ويجزي صاحبه.
والذين سعوا في آياتنا : أي عملوا على إبطالها وسعوا في ذلك جهدهم.
معجزين : أي مغالبيين لنا ظانين عجزنا عنهم، وأنهم يفوتوننا فلا نبعثهم ولا نحاسبهم ولا نجزيهم.
عذاب من رجز أليم : أي عذاب من أفبح العذاب وأسوأه .
ويرى الذين أوتوا العلم : أي ويعلم الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام
وأصحابه.

الذي أنزل إليك من ربك هو الحق : أي القرآن هو الحق الموحى به من الله تعالى.
ويهدي إلى صراط العزيز الحميد : أي القرآن يهدي إلى صراط الله الموصل إلى رضاه وجواره الكريم
وهو الإسلام . والعزیز ذو العزة والحميد المحمود.
معنى الآيات :

بعد ما قررت الآيات السابقة توحيد الله في ربوبيته وألوهيته ذكر تعالى في هذه الآيات تقرير عقيدة
البعث والجزاء فقال تعالى مخبراً بما قاله منكروا البعث والجزاء : {وَقَالَ الَّذِينَ (1) كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ} (2) وهو إنكار منهم للبعث إذ الساعة هي ساعة الفناء والبعث بعدها، وأمر رسوله أن يقول
لهم: {بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} أي أقسم لهم بالله تعالى ربه ورب كل شيء لتأتينهم أحبوا أم كرهوا ثم أتى
الرب تبارك وتعالى على نفسه بصفة العلم إذ البعث يتوقف على العلم كما يتوقف على القدرة والقدرة
حاصلة، إذ خلقهم ورزقهم وبميتهم. فذكر تعالى أنه عالم الغيب وهو (3) كل ما غاب في السموات
وفي الأرض. وأخبر أنه لا يعزب أي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة أي (4) وزن ذرة في السموات ولا
في الأرض، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر أيضاً إلا في كتاب مبین أي

1 - روي أن أبا سفيان هو الذي قال هذه المقالة حيث قال لإخوانه من أهل الكفر بمكة واللات
والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليه دعواه بقوله (قل بلى وربي
لتبعثن) الآية.

2 - الساعة علم بالغلبة في القرآن على يوم القيامة وساعة النشر والحشر .

3 - قرأ نافع وعنه ورش عالم بالرفع على الابتداء وقرأ حفص بالخفض نعت لاسم الجلالة.

4 - قال القرطبي مثقال ذرة أي قدر نملة صغيرة.

بين وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل أحداث العالم فلا حركة ولا سكون وقع أو يقع في الكون إلا وله صورته ووقته في اللوح المحفوظ.

هذا ما تضمنته الآية الثالثة وقوله تعالى في الآية (4) ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أي إذ الحكمة من كتابة الأحداث صغيرها وكبيرها ومن البعث الآخر هي ليجزي تعالى الذين آمنوا أي صدقوا الله رسوله وعملوا الصالحات وهي أداء الفرائض والسنن بما ذكر من جزائهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة وقوله في الآية (5) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بين فيه جزاء الكافرين بعد أن بين جزاء المؤمنين ذلك الجزاء الذي هو حكمة وعلّة البعث وكتابة الأعمال في اللوح المحفوظ فقال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ (1) أي والذين عملوا جهدهم في إبطال آيات الله إذ قالوا فيها أنها من كلام الكهان وأنها شعر وأساطير الأولين حتى لا يؤمنوا ولا يوحّدوا أولئك البعداء في الخسة والانحطاط لهم جزاء، عذاب من رجز أليم (2) والرجز سيء العذاب وأشدّه ومعنى أليم أي ذي ألم وإيذاء شديد.

وقوله تعالى: في الآية (6) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ، أي ويعلم علماء أهل الكتاب كعبد الله (3) بن سلام وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب. الذي أنزل إليك من ربك وهو القرآن الكريم هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، وعلم أهل الكتاب بأن القرآن حقّ ناتج عن موافقته لما في كتاب الله التوراة من عقيدة القدر وكتابة الأعمال دقيقها وجليلها في اللوح المحفوظ ليجزي بها الله تعالى المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

هذا ما دلت عليه الآية (6) والأخيرة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾ أي وليعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو الإسلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعد تقرير توحيد الألوهية.
- 2- تقرير عقيدة القضاء والقدر وكتابة الأعمال والأحداث في اللوح المحفوظ.
- 3- طلب شهادة أهل الكتاب على صحة الإسلام والحصول عليها لموافقة التوراة للقرآن.
- 4- تقرير النبوة إذ القرآن فرع نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ودليلها المقرر لها.

1 - قال القرطبي أي في إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا وما في التفسير أشمل وأوضح.

2 - قرأ نافع بجر أليم نعت لرجز وقرأ حفص برفع أليم نعت لعذاب المرفوع.

3 - على هذا التفسير أن الآية مدنية كما قال بعضهم حيث استثناها من آيات السورة وجائز أن يراد بالذين أوتوا العلم أبو بكر الصديق وعلي ابن أبي طالب والأصحاب رضوان الله عليهم إذ هم من أولي العلم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلَّ مَرَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (8) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

شرح الكلمات:

وقال الذين كفروا : أي قال بعضهم لبعض على جهة التعجيب.

هل ندلكم على رجل : أي محمد صلى الله عليه وسلم.

إذا مررتم كل مرزق : أي قطعتم كل التقطيع.

إنكم لفي خلق جديد : أي تبعثون خلقاً جديداً لم ينقص منكم شيء.

أم به جنة : أي جنون تخيل له بذلك.

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد: أي ليس الأمر كما يقول المشركون من افتراء الرسول أو جنونه بل الأمر الثابت والواقع أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في الآخرة والضلال البعيد في الدنيا.

أفلم يروا : أي ينظروا.

إلى ما بين أيديهم وما خلفهم: أي من أمامهم وورائهم وفوقهم وتحتهم إذ هم محاطون من كل جهة من السماء والأرض.

أو نسقط عليهم كسفاً: أي قطعاً جمع كسفة أي قطعة.

إن في ذلك لآية : أي علامة واضحة ودليلاً قاطعاً على قدرة الله عليهم.

لكل عبد منيب: أي لكل مؤمن منيب إلى ربه رجاع إليه في أمره كله.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء إنه لما قررها تعالى في الآيات قبل أورد هنا ما يتقاوله المشركون بينهم في تهكم واستهزاء واستبعاد للحياة الآخرة. فقال تعالى حاكياً قولهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} وهم مشركو مكة أي بعضهم لبعض متعجبين {هَلْ نَدُلُّكُمْ (1) عَلَى رَجُلٍ} يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم {يُبَيِّنُكُمْ} أي يخبركم بأنكم إذا متم وتمزقت لحومكم وتكسرت عظامكم وذهبت في

الأرض تراباً تبعثون في خلق جديد بعد أن مزقتم كل ممزق (2) أي كل التمزيق فلم يبق لكم شيء متصل ببعضه بعضاً. {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} أي (3) محمد فكذب على الله هذا القول وزوره عنه وادعى أنه أخبره بوجود بعث جديد للناس بعد موتهم لحسابهم وجزائهم؟! أم به جنة أي مس من جنون فهي تخيل له صور البعث وما يجري فيه وهو يخبر به ويدعو إلى الإيمان به؟ وهنا رد الله تعالى عليهم كذبهم وباطلهم فقال {بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (4) بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ} أي ليس الأمر كما يقولون من أن النبي افتري على الله كذباً، أو به جنون فتخيل له بالبعث وإنما الأمر الثابت والواقع المقطوع به أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب يوم القيامة وفي الضلال البعيد اليوم في الدنيا وشؤمهم أتاهم من تكذيبهم بالآخرة.

ثم قال تعالى مهدياً لهم لعلهم يرتدعون عن التهجم والتهكم بالنبي صلى الله عليه وسلم {أَفَلَمْ يَرَوْا} أي أعموا فلم يروا إلى ما بين أيديهم (5) وما خلفهم من السماء والأرض أفلم ينظروا كيف هم محاطون من فوقهم ومن تحتهم ومن أمامهم ومن ورائهم أي الأرض تحتهم والسماء فوقهم {إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ} فيعودون فيها { أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ (6) كِسْفًا} أي قطعاً من السماء فتهلكهم عن آخرهم فلا يجدون مهرباً والجواب لا، لأنهم مهما جروا هاربين لا تزال السماء فوقهم والأرض تحتهم والله قاهر لهم متى شاء خسف بهم أو أسقط السماء عليهم. وقوله تعالى {إِنْ فِي ذَلِكَ

- 1 - الاستفهام مستعمل في العرض مثل: (فقل هل لك إلى أن تزكى) أي يعرض عليه ما هو صالح له. والاستفهام في الآية وإن كان للعرض فهو مكنى به عن التعجب أي هل ندلكم على أعجوبة وهي رجل ينبئكم بهذا النبأ.
- 2 - التمزق والتفرق والتشتيت.
- 3 - هذه الجملة (افتري) صفة ثابتة لرجل والصفة والصفة الأولى هي قوله ينبئكم.
- 4 - في الجملة إدماج يصف به حالهم في الآخرة مع وصف حالهم في الدنيا إذ أخبر أنهم في الآخرة في العذاب وفي الدنيا في الضلال البعيد.
- 5 - المراد بما بين أيديهم هو ما يستقبله الإنسان من الكائنات السماوية والأرضية، وبما خلفهم وهو ما وراء الإنسان من الكائنات الأرضية والسماوية.
- 6 - قرأ نافع كسفاً بسكون السين وقرأ حفص بفتحها.

(4/306)

لَايَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} أي إن في ذلك المذكور من إحاطة السماء والأرض وقدرة الله على خسف من شاء خسف الأرض بهم وإسقاط كسف من السماء على من شاء ذلك لهم آية وعلامة بارزة على قدرة

الله على إهلاك من شاء ممن كفر بالله ورسوله وكذبوا بآياته. وكون المذكور آية لكل عبد منيب دون غيره لأن المنيب هو الرجاء إلى ربه كلما أذنب آب لخشيته من ربه فالخائف الخاشي هو الذي يجد الآية واضحة أمامه في إحاطة الأرض والسماء بالإنسان وقدرة الله على خسف الأرض به وإسقاط السماء كسفا عليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان ما كان المشركون عليه من استهزاء وتكذيب وسخرية بالنبي صلى الله عليه وسلم.
- 2- تقرير البعث وأن المكذابين به محكوم عليهم بالعذاب فيه.
- 3- لفت الأنظار إلى قدرة الله تعالى المحيطة بالإنسان ليخشى الله تعالى ويهربه فيؤمن به ويعبده ويوحده.

4- فضل الإنابة إلى الله وشرف المنيب. والإنابة الرجوع إلى التوبة بعد الذنب والمعصية، والمنيب الذي رجع في كل شيء إلى ربه تعالى.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي

(4/307)

الشُّكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

شرح الكلمات:

ولقد آتينا داود منا فضلاً : أي نبوة وملكا.

يا جبال أوبي معه : أي وقلنا يا جبال أوبي معه أي رجعي بالتسبيح.

والطير : أي والطير تسبح أيضاً معه.

والنار له الحديد : أي جعلناه له في اللين كالعجينة يعجنها كما يشاء.

أن اعمل سابغات : أي دروعاً طويلة تستر المقاتل وتقيه ضربة السيف.

وقدر في السرد : أي اجعل المسمار مناسباً للحلقة، فلا يكن غليظاً ولا دقيقاً، أي اجعل المسامير

مقدرة على قدر الحلق لما يترتب على عدم المناسبة من فساد الدروع وعدم الانتفاع بها.

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر : أي وسخرنا لسليمان الريح غدوها أي سيرها من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ورواحها شهر من منتصف النهار إلى الليل شهر كذلك أي مسافة شهر .

وأسلنا له عين القطر : أي وأسلنا له عين النحاس .

ومن يزغ منهم : أي ومن يعدل عن طاعة سليمان فلم يطعه نذقه من عذاب السعير .
من محاريب : جمع محراب المقصورة تكون إلى جوار المسجد للتعبد فيها .
وجفان كالجواب : أي وقصاع في الكبر كالحياض التي حول الآبار يجبي إليها الماء .
وقدور راسيات : أي وقدور كبار على الأثافي لكبرها لا تحول .

(4/308)

إلا دابة الأرض : أي الأرضة .

تأكل منسأته : أي عصاه بلغة الحيشة .

فلما خرّ : أي سقط على الأرض ميتاً .

تبيّنت الجن : أي انكشف لها فعرفت .

في العذاب المهين: وهو خدمة سليمان في الأعمال الشاقة .

معنى الآيات:

يذكر تعالى في هذا السياق الكريم مظاهر قدرته وإنعامه على عباده المؤمنين ترغيباً لهم في طاعته وترهيباً من معصيته فيقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا مِثْلًا (1) فَضْلًا﴾ وهو النبوة والزبور "كتاب" والملك. وقلنا للجال {أُوَيْي} مع سليمان أي ارجعي صوت تسبيحه(2) والطير أمرناها كذلك فكان إذا سبح ردد تسبيحه الجبال والطير. وهذا تسخير لا يقدر عليه إلا الله. وقوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (3)﴾ وهذا امتنان آخر وهو تسخير الحديد له وتليينه حتى وكأنه عجينة يتصرف فيها كما شاء، وقلنا له اعمل دروعاً طويلة سابغات تستتر بها في الحروب، ﴿وَوَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ (4)﴾ وقوله ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا (5)﴾ أي اعملوا بطاعتي وترك معصيتي فأدوا الفرائض والواجبات واتركوا الإثم والمحرمات. وقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه وعد ووعد إذ العلم بالأعمال يستلزم الثواب عليها إن كانت صالحة والعقاب عليها إن كانت فاسدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي سخرنا لسليمان بن داود الريح {غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحها شَهْرٌ} أي تقطع مسافة شهر في الصباح، وأخرى في المساء أي من منتصف النهار إلى الليل فقطع مسيرة شهرين في يوم واحد، وذلك أنه كان لسليمان مركب من خشب يحمل فيه الرجال والعناد وترفعه الجان من الأرض فإذا ارتفعت جاءت عاصفة فتحملها ثم تتحول إلى رضاء فيوجه سليمان السفينة

حيث شاء بكل ما تحمله وينزل بها كسفينة فضاء تماماً. وقوله تعالى {وَأَسْأَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} وهو النحاس فكما ألان لداود الحديد للصناعة أجرى لسليمان عين النحاس لصناعته فيصنع ما شاء من آلات وأدوات النحاس.

- 1 - بين تعالى بهذه الآية أن إرسال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن أمراً خارقاً للعادة ولا منافياً لمقتضيات العقول إذ أرسل من قبله رسلاً وآتى داود من الإنعام ما قرر به رسالته وأثبت به نبوته وكذا ولده سليمان عليهما السلام.
- 2 - والطير منصوب بالعطف على المنادى "يا جبال" لأن المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفع والنصب أولى.
- 3 - الحديد تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلب.
- 4 - قدر الشيء جعله على قدر معين والسرد هو تركيب حلقها ومساميرها بصورة متناسبة بحيث لا يعظم المسمار فيغلق الحلقة، ولا يرق فلا تمسكه.
- 5 - لما عدد عليه نعمه أمره بشكره وهو العمل الصالح الشامل للحمد والشكر والطاعة والصبر.

(4/309)

وقوله تعالى {وَمِنَ الْجِنَّ} أي وسخرنا من الجن من يعمل بين يديه أي أمامه وتحت رقابته يعمل له ما يريد عمله من أمور الدنيا. وذلك بإذن ربه تعالى القادر على تسخير ما يشاء لمن يشاء. وقوله {وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ} أي ومن يعدل من الجن {عَنْ أَمْرِنَا} أي عما أمرناهم بعمله وكلفناهم به {نُدْفَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} وذلك يوم القيامة(1). وقوله {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ} بيان لما في قوله {مَنْ يَعْمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ} من محاريب قصور أو بيوت تكون ملاصقة للمسجد للتعبد فيها، وتمثيل أي صور من نحاس أو خشب إذ لم تكن محرمة في شريعتهم وجفان جمع جفنة وهي القصة الكبيرة تتسع لعشرة من الأكلة، كالجواب أي في الكبر والجابية(2) حوض يفرغ فيه ماء البئر ثم يسقى به الزرع أو قدور راسيات أي ويعملون له قدوراً ضخمة لا تتحول بل تبقى دائماً موضوعة على الأثافي ويطبخ فيها وهي في مكانها وذلك لكبرها ومعنى راسيات ثابتات على الأثافي.

وقوله تعالى {اعْمَلُوا} أي قلنا لهم اعملوا آل داود شكراً أي اعملوا الصالحات شكراً لله تعالى على هذا الإفضال والإنعام أي أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا ربكم في أمره ونهيه يكن ذلك منكم شكراً لله على نعمه. روي أنه لما أمروا بهذا الأمر قال داود عليه السلام لآله أيكم يكفيني النهار فإني أكفيكم الليل فصلوا لله شكراً فما شئت أن ترى في مسجدكم راعياً أو ساجداً في أية ساعة من ليل أو

نهار إلا رأيت. ويكفي شاهداً أن سليمان مات وهو قائم يصلي في المحراب. وقوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ هذا إخبار بواقع وصدق الله العظيم الشاكرون لله على نعمه قليل وفي كل زمان ومكان وذلك لاستيلاء الغفلة على القلوب من جهة ولجهل الناس بربهم وإنعامه من جهة أخرى. وقوله تعالى في الآية (14) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي توفيناها: ما دلهم على موته إلا دابة في الأرض الأرضة المعروفة تأكل منسأته فلما أكلتها خر على الأرض، وذلك أنه سأل ربه أن يعمي خبر موته عن الجن، حتى يعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب كما هم يدعون، فمات وهو متكئ على عصاه يصلي في محرابه، والجن يعملون لا يدرون بموته فلما مضت مدة من الزمن وأكلت الأرضة المنسأة وخر سليمان على الأرض علمت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان ولما أقاموا مدة طويلة في الخدمة والعمل الشاق وهم لا يدرون. هذا معنى

1 - وجائز أن يكون هناك ملك بيده سوط من نار أو شهاب يضرب به الشيطان إن عصى سليمان كما روي عن السلف.

2 - قال الشاعر:

تروح على آل المطلق جفنة

كجافية الشيخ العراقي تفهق

أي لامتلائها.

(4/310)

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ - كما يدعي بعضهم - ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي الذي كان سليمان يصبه عليهم لعصيانهم وتمردهم على الطاعة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إكرام الله تعالى لآل داود وما وهب داود وسليمان من الآيات.
- 2- فضيلة صنع السلاح وآلات الحرب لغرض الجهاد في سبيل الله.
- 3- مركبة سليمان سبقت صنع الطائرات الحالية بآلاف السنين.
- 4- شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما خصه الدليل كتحريم الصور (1) والتمثيل علينا ولم تحرم عندهم.
- 5- وجوب الشكر على النعم، وأهم ما يكون به الشكر الصلاة والإكثار منها.
- 6- تقرير أن علم الغيب لله وحده.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)

1 - لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصورين ولم يستثن فقال إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم. وفي البخاري أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون. وحديث الموطأ. إلا ما كان رقماً في الثوب فهو وإن خص جميع الصور فإن حديث عائشة رضي الله عنها دل على كراهيته إذ قال لها أخرجيه عني فهنكته والرخصة في لعب البنات لما في الصحيح على شرط أن لا تكون كأشباه التماثيل.

(4/311)

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاَهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)
شرح الكلمات:

لقد كان لسبأ في مسكنهم : أي لقد كان لقبيلة سبأ اليمانية في مسكنهم.
آية : أي علامة على قدرة الله وهي جنتان عن يمين وشمال.
بلدة طيبة ورب غفور : أي طيبة المناخ بعيدة عن الأوباء وأسبابها، والله رب غفور.
فاعرضوا : أي عن شكر الله وعبادته.
سيل العرم : أي سد السيل العرم.
ذواتي أكل خمط وأثل : أي صاحبتني أكل مرّ وبشع وشجر الأثل.
ذلك : أي التبديل جزيناهم بكفرهم.
القرى التي باركنا فيها : هي قرى الشام المبارك فيها.
قرى ظاهرة : أي متواصلة من اليمن إلى الشام.
وقدرنا فيها السير : أي المسافات بينها مقدرة بحيث يقلبون في قرية وبيبتون في أخرى.
وجعلناهم أحاديث : أي لمن جاء بعدهم أي أهلكتناهم ولم يبق منهم إلا ذكرهم متداولاً بين الناس.
ومزقناهم كل ممزق : أي فرقناهم في البلاد كل التفرق.
إن في ذلك لآيات : أي في ذلك المذكور من النعم وسلبها لعبراً.
لكل صبار شكور : أي صبار على الطاعات وعن المعاصي شكور على النعم.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى إنعامه على آل داود وشكرهم له وأخبر أنه قليل من عباده من يشكر إنعامه عليه ذكر أولاد سبأ وأنه أنعم عليهم بنعم عظيمة وأنهم ما شكروها فأنزل بهم نعمته وسلبهم نعمته

(4/312)

وذلك جزاء لكل كفور. فقال تعالى {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ (1) آيَةً جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ} أي لقد كان لأولاد سبأ وهم الأزدي والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، ومن أنمار جنم وبجيلة ومن أولاد سبأ أربعة سكنوا في الشام وهم لحم وجدام وغان، وعاملة وأبوهم سبأ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقوله تعالى {في مسكنهم} أي في مساكنهم {آية} أي علامة على قدرة الله وإفضاله على (2) عباده وهي جنتان عن يمين وشمال الوادي أي جنتان عن يمين الوادي وأخرى عن شماله كلها فواكه وخضر، تسقى بماء سد مأرب. {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ} أي قلنا لهم كلوا من رزق ربكم {وَأَشْكُرُوا لَهُ} أي هذا الإنعام بالإيمان به وبرسله وطاعته وطاعة رسله. وقوله {بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ} أي هذه بلدة طيبة وهي صنعاء اليمن مناخها طيب وتربتها طيبة لا يوجد بها وباء ولا هوام ولا حشرات كالعقارب ونحوها، {وَرَبِّ غَفُورٌ (3)} يغفر ذنوبكم متى أدببتم وتبتم واستغفرتهم. ولكن أبطرتهم هذه النعم فكفروها ولم يشكروها كما قال تعالى {فَأَعْرَضُوا} بأن كذبوا رسل الله إليهم وعصوا الله ورسله فانقم الله منهم لإعراضهم وعدم شكرهم كما هي سنته في عباده. قال تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} وذلك بأن خرب السد، وذهبت المياه وماتت الأشجار وأمطلت الأرض، وتبدلت قال تعالى {وَبَدَّلْنَا هُمْ بَجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ} أي مرّ بشع وهو شجر الأراك وأثل وهو الطرفاء، وشيء من سدر قليل. هذا جزاء من أعرض عن ذكر الله وفسق عن أمره وخرج عن طاعته. قال تعالى {ذَلِكَ} أي الجزاء {جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} بسبب كفرهم وقوله: {وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ (4)} أي وهل نجازي بمثل هذا الجزاء وهو تحويل النعمة إلى نقمة غير الكفور. وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ (5) وَبَيْنَ الْفُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} وهي مدن الشام {فُرَى ظَاهِرَةً} أي مدناً ظاهرة على المرتفعات من الأرض، وذلك من صنعاء عاصمتهم إلى الشام قرابة أربعة آلاف وسبعمئة قرية أي مدينة، وقوله {وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} أي يجعل المسافات بين كل مدينة ومدينة متقاربة بحيث يخرج المسافر بلا زاد من ماء أو طعام فلا يقبل إلا في مدينة ويخرج بعد

1 - قرأ نافع مساكنهم بالجمع وقرأ حفص بالإفراد مسكنهم وجمعه مساكن.

2 - إذ لو اجتمعت البشرية كلها على إخراج شجرة من خشبة يابسة لما استطاعت فكيف بأنواع النوار وألوانه واختلاف طعومه وروائح وأزهاره.

- 3 - في الآية إشارة إلى أن الذنب ملازم للإنسان لا يعصم منه إلا من أراد الله عصمته كأبيائه، ولذا أعلمهم أن المنعم بهذه النعم رب غفور يغفر ذنب عباده إذا تابوا إليه فدعاهم بهذا إلى التوبة وأن الذنب مع التوبة لا يسبب الهلاك العام أو سلب النعم ما دام هناك توبة تعقب الذنب.
- 4 - قرأ حفص وهل يجازي بنون العظمة والبناء للفاعل والكفور مفعول به منصوب وقرأ نافع والجمهور وهل يجازى بياء الغيبة مضمومة والفعل مبني للمفعول والكفور نائب فاعل والمعنى ما يجازى ذلك الجزاء إلا الكفور أي الشديد الكفر عظيمه.
- 5 - هذه الآية والتي بعدها ذكرنا تكميلاً للقصة.

(4/313)

القبيلة فلا ينام إلا في مدينة أخرى حتى يصل إلى الشام أو إلى المدينة التي يريد. وهذا كان لهم قبل هدم السد وتفريقهم وقولهم تعالى: {سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} أي وقلنا لهم سيروا بين تلك المدن الليلية والأيام نوات العدد آمنين من كل ما يخاف. وما كان منهم إلا أنهم بطروا النعمة وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم. أي حملهم بطر النعمة على أن سألوا ربهم بلسان حالهم وقالهم أن يباعد بين (1) مسافات أسفارهم بإزالة تلك المدن حتى يحملوا الزاد ويركبوا الخيول ويذوقوا طعم التعب هذا في الواقع هو حسد من الأغنياء للفقراء الذين لا طاقة لهم على السفر في المسافات البعيدة بدون زاد ولا راحل (2). قال تعالى {وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} إذ بإعراضهم وحسدهم وبطروا النعمة كانوا قد ظلموا أنفسهم فعرضوا لعذاب الحرمان في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقوله تعالى {فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ} أي لمن بعدهم يروون أخبارهم ويقصون قصصهم بعد أن هلكوا وبادوا. وقوله تعالى {وَمَزَقْنَا لَهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ} أي فرقناهم في البلاد كل تفريق بحيث لا يرجى لهم عود اتصال أبداً فذهب الأوس والخزرج إلى يثرب "المدينة النبوية" وهم الأنصار، وذهب غسان إلى (3) الشام، والأزد إلى عُمان، وخزاعة إلى تهامة وأصبحوا مضرب المثل يقال: ذهبوا شذر مذر. وتفرقوا أيادي سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها. وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} أي إن في إنعام الله على أبناء سبأ ثم نعمته عليهم لما بطروا النعمة وكفروا بالطاعة لعبيراً يعتبر بها كل صبور على الطاعات فعلاً وعن المعاصي تركاً، {شُكُورٍ} أي كثير الشكر على النعم. اللهم اجعلنا لك من الشاكرين.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- التحذير من الإعراض عن دين الله فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم وسلبها الله النعم. وكم هذه الحال مشاهدة هنا وهناك لا بين الأمم والشعوب فحسب بل حتى بين الأفراد.
- 2- التحذير من كفر النعم بالإسراف فيها وصرافها في غير مرضاة الله واهبها عز وجل.

- 3- خطر الحسد وأنه داء لا دواء له، والعياذ بالله يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.
4- فضيلة الصبر والشكر وعلو شأن الصبور الشكور.

- 1 - قوله تعالى وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا قرأ الجمهور باعد فعل أمر من باعد يباعد وقرأ بعض بعد فعل أمر من بعد يبعد على وزن جدد، وقرأ بعض آخر باعد فعلاً ماضياً.
2 - قيل أن المسافة التي يقطعونها بين تلك المدن آمنين من الجوع والخوف مسيرة أربعة أشهر ذهاباً وإياباً وحالهم كحال بني إسرائيل كما قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض حيث ملوا أكل اللحم والعسل.
3 - قال الشعبي فلحقت الأوس والخزرج (الأنصار) ببئرب (المدينة) وغسان وجذام ولخم بالشام والأرد بعمان وخزاعة بتهامة. فكانت العرب تضرب بهم المثل فنقول. تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ أي مذهب سبأ وطرقها.

(4/314)

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (20)
وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَتَّبِعُ الشَّقَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُرِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)
شرح الكلمات:

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه : أي صدق ظن إبليس فيهم أنه يستطيع إغواءهم.
فاتبعوه : في الكفر والضلال والإضلال.
إلا فريقاً منهم : أي من بني آدم وهم المؤمنون المسلمون فإنهم لم يتبعوه وخاب ظنه فيهم زاده الله خيبة إلى يوم القيامة.
وما كان له عليهم من سلطان: أي ولم يكن لإبليس من تسليط منا عليهم لا بعصا ولا سيف وإنما هو التنزيين والإغراء بالشهوات.
إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك : أي لكن أدنا له في إغوائهم - إن استطاع - بالتنزيين والإغراء لنعلم علم ظهور من يؤمن ويعمل صالحاً ممن يكفر ويعمل سوءاً.
وربك على كل شيء حفيظ : أي وربك يا محمد على كل شيء حفيظ وسيجزى الناس بما كسبوا.

قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله: أي أنهم شركاء الله في ألوهيته.
لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض : أي ملكاً استقلالياً لا يشاركهم الله فيه.
وما لهم فيهما من شرك : أي وليس لهم من شركة في السموات ولا في الأرض.
وما له منهم من ظهير : أي وليس لله تعالى من شركائكم الذين تدعونهم من معين على شيء.
ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له: أي ولا تنفع الشفاعة أحداً عنده حتى إذا يأذن هو له بها.
حتى إذا فزع عن قلوبهم : أي ذهب الفزع والخوف عنهم بسماع كلم الرب تعالى.
قالوا ماذا قال ربكم؟ : أي قال بعضهم لبعض استبشاراً ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق أي في الشفاعة.
وهو العلي الكبير : العلي فوق كل شيء علو ذات وقهر وهو الكبير المتعالي الذي كل شيء دونه.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى ما حدث لسبباً من تقلبات وكان عامل ذلك هو تزيين الشيطان وإغواؤه أخبر تعالى عن حال الناس كل الناس فقال {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ (1) إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} أي فيهم لما علم ضعفهم أمام الشهوات فاستعمل تزيينها كسلاح لحربهم {فَأَتَّبَعُوهُ} فيما دعاهم إليه من الشرك والإسراف والمعاصي {إِلَّا قَرِيحاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين أسلموا لله وجوههم وهم عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سبيل لإغوائهم فإنهم لم يتبعوه. هذا ما دلت عليه الآية (20) وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ} أي للشيطان {عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} أي قوة مادية ولا معنوية من حجج وبراهين، وإنما أذن له في التحريش والوسواس والتزيين وهذا الإذن لعله وهي ظهور حال الناس ليعلم من (2) يؤمن بالآخرة وما فيها من جنات ونيران، وقد حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات فالمؤمنون بالآخرة يتحملون مشاق التكليف فينهضون بها ويتجنبون الشهوات فينجون من النار ويدخلون الجنة، والذين لا يؤمنون بالآخرة لا ينهضون بواجب ولا يتجنبون حراماً فيخسرون أنفسهم

1 - قرأ نافع والجمهور صدق بتخفيف الدال وقرأ حفص صدق بالتضعيف والجملة يبدوا أنها معطوفة على قوله تعالى: {وقال الذين كفروا هل ندلكم} وهو قول كفار مكة وما بين هذه الآيات وتلك اعتراض للعظة والاعتبار والمقصود من هذه الآية تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان وسوء عاقبة من يتبعه حتى يلعنوه ولا يتبعوه. قال الحسن لما أهبط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض وهبط إبليس قال إبليس أما إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف فكان ذلك ظناً من إبليس فأنزل الله تعالى لقد صدق عليهم إبليس ظنه.

2 - أي علم الشهادة والظهور الذي يتم به الثواب والعقاب فأما علم الغيب فقد علمه تبارك وتعالى، (إلا لنعلم) الخ.. جواب لقوله وما كان له عليهم من سلطان.

(4/316)

وأهلهم يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين. وقوله تعالى {وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} فهو يحصي أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها ويجزيهم بها.

وقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا (1) الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي قل يا رسولنا بعد هذا العرض والبيان الشافي الذي تقدم في هذا السياق للمشركين من قومك ما دمت مصرين على الشرك بحجة أن شركاءكم ينفعون ويضرون وأنهم يشفعون لكم يوم تبعثون ادعوهم غير أن الحقيقة التي يجب أن تسمعوها وتعلموها - وأنتم بعد ذلك وما ترون وتهوون - هي أن الذين تدعونهم من دون الله وجعلتموهم شركاء لا يملكون مثقال ذرة أي وزن ذرة في السموات ولا في الأرض لا يملكونها استقلالاً ولا يملكونها شركة مع الله المالك الحق، وهو معنى قوله تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} {وَمَا لَهُمْ فِيهَا} أي في السموات والأرض من شرك بمعنى شركة ولو بأدنى نسبة. وشيء آخر وهو أن شركاءكم الذين تدعونهم ليس لله تعالى منهم من ظهير أي معين حتى لا يقال بحكم حاجة الرب إليه ندعوه فيشفع لنا عنده.

وشيء آخر وهو أن الشفاعة عند الله لا تتم لأحد ولا تحصل له إلا إذا رضي الله تعالى بالشفاعة لمن أريد أن الشفاعة له، وبعد أن يأذن أيضاً لمن أراد أن يشفع. فلم يبق إذاً أي طمع في شفاعة آلهتكم لكم لا في الدنيا ولا في الآخرة إذاً فكيف تصح عبادتهم وهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا يشفعون لأحد في الدنيا ولا الآخرة. وقوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} إلى آخره بيان لكيفية الشفاعة يوم القيامة وهي أن الشافع المأذون له في الشفاعة عندما يسأل الله تعالى فيجيبه الرب تعالى فيصاب بخوف وفزع شديد {حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} أي زال ذلك الفزع والخوف قالوا لبعضهم (2) البعض ماذا قال ربكم؟ فيقولون مستبشرين قالوا: الحق أي أذن لنا في الشفاعة وهو العلي الكبير أي العلي فوق خلقه بذاته وقهره وسلطانه الكبير الذي ليس كمثله شيء سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان أن إبليس صدق ظنه في بني آدم وأنهم سيبتعونه ويغويهم.

1 - هذا الأمر للتحدي والتوبيخ وهو خطاب للمشركين المؤلهين الأصنام بعد ما ساق من دلائل

التوحيد فيما عرفوا من حياة داود وسليمان وأهل سبأ أمر رسوله أن يتحداهم ويويخهم على شركهم وباطلهم.

2 - الظاهر أن من طلبوا الشفاعة لما أذن الله تعالى لهم وأصابهم الفزع والخوف فلما ذهب ذلك من قلوبهم سألو الملائكة عما قال الله تعالى فتجيبهم الملائكة قال الحق أي قبل شفاعتكم.

(4/317)

2- تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله ولا يستحق العبادة سواه.

3- بيان بطلان دعاء غير الله إذ المدعو كائنا من كان لا يملك مثقال ذرة في الكون لا بالاستقلال ولا بالشركة، وليس لله تعالى من ظهير أي ولا معينين يمكن التوسل بهم، وأخيراً والشفاعة لا تتم إلا بإذنه ولمن رضي له بها. ولذلك بطل دعاء غير الله ومن دعا غير الله من ملك أو نبي أو ولي أو غيرهم فقد ضل الطريق وأشرك بالله في أعظم عبادة وهي الدعاء، والعياذ بالله تعالى.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

شرح الكلمات:

قل من يرزقكم من السموات والأرض : من السموات بإنزال المطر ومن الأرض بإنبات الزروع.
قل الله : أي إن لم يجيبوا فأجب أنت فقل الله، إذ لا جواب عندهم سواه.
وانا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين: وأخبرهم بأنكم أنتم أيها المشركون أو إيانا لعلى هدى أو في ضلال مبين، وقطعاً فالموحدون هم الذين على هدى

(4/318)

والمشركون هم في الضلال المبين، وإنما شككم تلطفاً بهم لعلهم يفكرون فيهدتون.

قل لا تسألون عما أجرمنا : أي إنكم لا تسألون عن ذنوبنا.

ولا نسأل عما تعملون: أي ولا نسأل نحن عما تعملون. وهذا تلطفاً بهم أيضاً ليراجعوا أمرهم، ولا يحملهم الكلام على العناد.

قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق : أي قل لهم سيجمع بيننا ربنا يوم القيامة ويفصل بيننا بالحق وهذا أيضاً تُلطف بهم وهو الحق.
قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء : أي قل لهؤلاء المشركين أروني شركاءكم الذين عبدتموهم مع الله فإن أروه إياهم أصناماً لا تسمع ولا تبصر قامت الحجة عليهم. وقال لهم أتعبدون ما تتحتون وتتركون الله الذي خلقكم وما تعملون؟!.
كلا بل هو الله العزيز الحكيم: كلا: لن تكون الأصنام أهلاً للعبادة بل المعبود الحق الواجب العبادة هو الله العزيز الحكيم.
كافة للناس : أي لجميع الناس أي عريهم وعجمهم.
بشيراً ونذيراً : بشيراً للمؤمنين بالجنة، ونذيراً للكافرين بعذاب النار.
قل لكم ميعاد يوم : هو يوم القيامة.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تبيكيت المشركين وإقامة الحجج عليهم بتقرير التوحيد وإبطال التنديد فقال تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم سل قومك مبيكنا لهم: {قُلْ مَنْ (1) يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} بإنزال الأمطار وإرسال الرياح لواقح وإنبات النباتات والزرع والثمار وتوفير الحيوان للحم واللبن ومشتقاته؟ وإن تلعثوا في الجواب أو ترددوا خوف الهزيمة العقلية فأجب أنت قائلاً الله. إذ ليس من جواب عندهم سواه.
وقوله {وَأَنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى (2) أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} هذا أسلوب التشكيك وحكمته التلطف

- 1 - لما أبطل بتلك الحجج آلهة المشركين حيث دعاؤها لا يجدي نفعاً للداعين لأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا شفاعتها تنفع عابديها قرّر بهذه الآيات استحقاق الله تعالى للعبادة دون غيره، واستعمل أسلوب الجدل لإقامة الحجة على الخصم فقال: قل من يرزقكم.
- 2 - وإياكم معطوف على محل اسم إن المنصوب والجملة معطوفة على الاستفهام "قل من يرزقكم الخ" وهذا يقال له أسلوب المنصف وهو أن لا يذكر المجادل لمن يجادله ما يغيظه أو يثير حفيظته رجاء هدايته إلى الحق.

(4/319)

بالخصم المعاند حتى لا يلجج في العناد ولا يفكر في الأمر الذي يجادل فيه، وإلا فالرسول والمؤمنون هم الذين على هدى، والمشركون هم الذين في ضلال مبين وهو أمر مسلم لدى طرفي النزاع. وقوله تعالى {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} وهذا أيضاً من باب التلطف مع الخصم

المعانَد لتهدأ عاصفة عناده ويراجع نفسه عله يثوب إلى رشده ويعود إلى صوابه، فقوله: {لَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} هو حق فإنهم لا يسألون عن ذنوب الرسول والمؤمنين، ولكن الرسول والمؤمنين لا ذنب لهم وإنما هو من باب التلطف في الخطاب، وأما المشركون فإن لهم أعمالاً من الشرك والباطل سيجزون بها والرسول والمؤمنون قطعاً لا يسألون عنها ولا يؤخذون بها ما داموا قد بلغوا ونصحوا. وقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} أي يوم القيامة {ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا} أي يحكم ويفصل بيننا {بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ} أي الحاكم العليم بأحوال خلقه فأحكامه ستكون عادلة لعلمه بما يحكم فيه ظاهراً وباطناً. وفي هذا جذب لهم بلطف وبدون عنف ليقروا بالبعث الآخر الذي ينكرونه بشدة. وقوله {قُلْ أَرُونِي} (2) {الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين أروني آلهتهم التي أشركتموها بالله وألحقتموها به وقلتم في تلبيتكم: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك. إلا شريكاً تملكه وما ملك. وهكذا يتحداهم رسول الله بإذن الله أن يروه شركاء الله حقيقة يسمعون ويبصرون وينفعون ويضرون ولما كان من غير الممكن الإتيان بهم غير أصنام وتماثيل زجرهم بعنف لعلمهم يستفيقون من غفلتهم فقال: {كَلَّا، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي ليست تلك الأصنام بآلهة تعبد مع الله بل المعبود الحق الواجب العبادة هو الله رب العالمين وإله الأولين والآخرين {الْعَزِيزُ} أي الغالب على أمره ومراده الحكيم في تدبير خلقه وشؤون عباده.

وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ} (3) {إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} (4) {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي لم نرسلك يا رسولنا لمهمة غير البشارة والنذارة فلذا لا يحزنك إعراضهم وعدم استجابتهم فبشر من آمن بك واتبعك فيما جئت به، وأنذر من كفر بك ولم يتابعك على الهدى الذي تدعو إليه.

1 - هذا أيضاً من الباب الأول وهو حمل الخصم على عدم اللجاج في الخصومة ليبقى قادراً على الفهم وقبول الحق متى ظهر له ولاح.

2 - الأمر هنا للتعجيز لإقامة الحجة عند ثبوت عجز المخاصم، ولما ثبت عجزهم زجرهم بكلمة كلا وردعهم بها، وحملهم على الاعتراف ببطلان آلهتهم.

3 - ولما تقرر مبدأ التوحيد عطف عليه تقرير النبوة المحمدية فقال وما أرسلناك. وبذلك ثبتت رسالته.

4 - في الكلام تقديم وتأخير إذ الأصل وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة.

(4/320)

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (1) فيه تعزية للرسول أيضاً إذ الواقع أن أكثر الناس لا يعلمون إذ لو علموا لما ترددوا في عبادة الله وتوحيده والتقرب إليه طمعا فيما عنده وخوفاً مما لديه. وقوله:

{وَيَقُولُونَ} أي أهل مكة من منكري البعث والجزاء {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} (2) أي العذاب الذي تهددنا به وتخوفنا بنزوله بنا إن كنتم أيها المؤمنون صادقين فيما تقولون لنا وتعدونا به. وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يرد على استهزائهم وتكذيبهم بقوله: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ} (3) {يوم معين عندنا محدد لا تسأخرون عنه ساعة لو طلبتم ذلك لتتوبوا وتستغفروا ولا تستقدمون أخرى لو طلبتم تعجيله إذ الأمر مبرم محكم لا يقبل النقص ولا الزيادة ولا التبديل ولا التغيير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التلطف مع الخصم فسحاً له في مجال التفكير لعله يثوب إلى رشده.
 - 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء وتنويع الأسلوب الدعوي في ذلك.
 - 3- تقرير عقيدة النبوة المحمدية، وعموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة.
 - 4- يوم القيامة مقرر الساعة واليوم فلا يصح تقديمه ولا تأخيره بحال.
- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّنْمُ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ

- 1 - إذ كانوا يوم نزول هذه الآية أكثرية والمؤمنون أقلية وحتى اليوم أكثر الناس لا يعلمون جلال الله وجماله وأسماءه وصفاته وما عنده وما لديه، ولا محابه ولا مكارهه.
- 2 - الاستنهام للاستبعاد مشوباً بالتعجب من كثرة سؤالهم عن هذا الوعد.
- 3 - الميعاد مصدر ميمي وهو الوقت المعين لحدوث الشيء وهو هنا إما يوم القيامة أو حضور الموت وجائز أن يكون يوم هلاكهم وهو يوم بدر وإضافته بيانية.

(4/321)

اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33)

شرح الكلمات:

ولا بالذي بين يديه : أي من الكتب السابقة وهي التوراة والإنجيل.
يرجع بعضهم إلى بعض القول: أي يقول الأتباع كذا ويرد عليهم المتبوعون بكذا وهو المبيّن في الآيات.

أنحن صددناكم عن الهدى: أي ينكر المستكبرون وهم المتبوعون أن يكونوا صدوا التابعين لهم عن الهدى بعد إذ جاءهم بواسطة رسوله.

بل كنتم مجرمين: أي ظلمة فاسدين مفسدين.

بل مكر الليل والنهار : أي ليس الأمر كما ادعيتم بل مكرم بنا بالليل والنهار هو الذي جعلنا نكفر بالله.

ونجعل له أنداداً : أي شركاء نعبدهم معه فنناده بهم.

وأسروا الندامة : أي أخفوها إذ لا فائدة منها أو أظهروها أي أظهروا الندم إذ أسروا الندامة له معنيان أخفى وأظهر.

وجعلنا الأغلال في أعناق: أي وجعلنا الأغلال جمع غل حديدة تجعل في عنق المجرم.

هل يجزون إلا ما كانوا يعملون: أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والبعث والجزاء فيخبر تعالى فيقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي من مشركي مكة قالوا للرسول والمؤمنين لن نؤمن (1) بهذا القرآن الذي أنزل على محمد، ولا بالذي أنزل على من تقدمه من الأنبياء كالنوراة والإنجيل، وذلك لما احتج عليهم

1 - القائل هذا أبو جهل بن هشام وذلك أن المشركين سألوا أهل الكتاب من اليهود فلما أعلمهم بما يوافق ما يقول الرسول ويدعوا إليه من التوحيد والبعث والجزاء والرسالة قالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه أي من النوراة والإنجيل.

(4/322)

بتقرير النوراة والإنجيل للتوحيد والنبوات والبعث والجزاء قالوا لن نؤمن بالجميع عناداً ومكابرة وجحوداً وظلماً. ولازم هذا أنهم ظلمة معاندون ومن باب دعوتهم إلى الهدى ستعرض الآيات لهم حالهم يوم القيامة فيقول تعالى لرسوله وهم يستمعون {وَلَوْ تَرَىٰ} (1) يا رسولنا {إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ} أي يتحاورون متلاومين. يقول الذين استضعفوا وهم الفقراء المرعوسين الذين كانوا أتباعاً لكبرائهم وأغنيائهم، يقولون للذين استكبروا عليهم في الدنيا: لولا أنتم أي صرفتمونا عن الإيمان واتباع الرسول لكنا مؤمنين فيرد عليهم الكبراء بما أخبر تعالى عنهم في قوله: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ} (2) صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} أي ما صددناكم أبداً بل كنتم مجرمين أي أصحاب إجرام وفساد ويرد عليهم المستضعفون قائلين بما أخبر تعالى به عنهم {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ (3) اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (4)} أي بل مكرم (5) بنا في

الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً. قال تعالى {وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ(6)} أي أخفوها لما رأوا العذاب. قال تعالى: {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي شددت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال وهي جمع غل حديدية يشد بها المجرم، ثم أدخلوا الجحيم إذ كانوا في موقف خارج جهنم، وقوله تعالى: {هَلْ (7) يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون فالجزاء بحسب العمل إن كان خيراً فخييراً وإن كان شراً فشرّاً، وكانت أعمالهم كلها شراً وظلماً وباطلاً. هذا وجواب لولا في أول السياق محذوف يقدر بمثل: لرأيت أمراً فظيماً واكتفي بالعرض لوقفهم عن ذكره فإنه أتم وأشمل.

- 1 - جواب لو محذوف أي لرأيت أمراً فظيماً هائلاً مدهشاً ومحيراً.
- 2 - الاستفهام إنكاري. أنكر عليهم قولهم إنهم صدوا عن الإيمان.
- 3 - المكر في اللغة الاحتيال والخديعة يقال مكر به يمكر فهو مكر ومكار.
- 4 - مكر الليل والنهار الإضافة بمعنى في.
- 5 - مكرٌ مبتدأ والخبر محذوف تقديره ضدنا وهو جملة فعلية.
- 6 - الضمير في أسروا عائد على الجميع المستضعفين والمستكبرين والمعنى أنهم لما انكشف لهم العذاب المعد والمهيأ لهم وذلك عقب المحاورة التي دارت بينهم، فعلموا أن حوارهم لبعضهم غير نافع لهم أسروا الندامة أي أخفوها لعدم جدواها.
- 7 - الاستفهام إنكاري بقرينة الاستثناء بعده أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون أي من الشرك والظلم والشر والفساد إذ الجزاء من جنس العمل هو العدل المطلوب.

(4/323)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تشابه الظلمة والمجرمين فالعرب المشركون كانوا يركنون إلى أهل الكتاب يحتجون بما عندهم على الرسول والمؤمنين، ولما وجدوا التوراة والإنجيل يقرران عقيدة البعث والجزاء والنبوة تبرأوا منها وقالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالتوراة والإنجيل.
- واليهود كانوا يحتجون بالتوراة على المسلمين ولما وجدوا التوراة تقرر ما يقرره القرآن تركوا الاحتجاج بالتوراة وأخذوا يحتجون بالسحر كما تقدم في البقرة في قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَأَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ}.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض كامل لموقف من مواقف يوم القيامة، ومشهد من مشاهده.
3- بطلان احتجاج الناس بعمل العلماء أو الحكماء وأشراف الناس إذا كان غير موافق لشرع الله تعالى وما جاء به رسله من الحق والدين الصحيح.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

(4/324)

شرح الكلمات:

إلا قال مترفوها : أي رؤساؤها المنعمون فيها من أهل المال والجاه.

نحن أكثر أموالاً وأولاداً : أي من المؤمنين.

يبسط الرزق لمن يشاء : امتحاناً أيشكر العبد أم يكفر.

ويقدر : أي يضيق ابتلاءً أيصبر المرء أم يسخط.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون: أي الحكمة في التوسعة على البعض والتضييق على البعض.

تقربكم عندنا زلفى : أي قربى بمعنى تقريباً.

إلا من آمن وعمل صالحاً : أي لكن من آمن وعمل صالحاً هو الذي تقربه تقريباً.

وهم في الغرفات آمنون : أي من المرض والموت وكل مكروه.

والذين سعوا في آياتنا: أي عملوا على إبطال القرآن والإيمان به وتحكيمة.

معاجزين : أي مقدرين عجزنا وأنهم يفوتونا فلم نعاقبهم.

وما أنفقتم من شيء : أي من مال في الخير.

وهو خير الرازقين : أي المعطين الزرق. أما خلق الرزق فهو الله تعالى وحده.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وما أرسلنا في قرية من نذير} هذا شروع في تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان حال من سبق من الأمم وما واجهت به رسلها فقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ} أي مدينة من المدن {مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (1)} أي أهل المال والثروة المنتعمون بألوان المطاعم والمشارب والملابس والمراكب. قالوا لرسول الله {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} فردوا بذلك دعوتهم. {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

وأولاداً} فاعتزوا بقوتهم، {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ} كذبوا بالبعث والجزاء كما أن كلامهم مشعر بأنهم مغترون بأن ما أعطاهم الله من مال وولد كان لرضاه عنهم وعدم سخطه عليهم. وقوله تعالى {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ (2) الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي قل يا نبينا لأولئك المغترين بأن ما لديهم من مال وولد ناجم عن رضا الله عنهم قل لهم إن ربي جل جلاله يبسط الرزق لمن يشاء امتحاناً له لا لرضى عنه ولا لبغض له، كما أنه يضيق الرزق على من يشاء ابتلاء له لا لبغضه ولا لمحبهته، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)} ومن بينهم مشركو قريش لا يعلمون أن بسط الرزق

- 1 - المترفون الذين أعطاهم الله الترف وهو النعيم وسعة العيش في الدنيا وفي بناء المترفون للمجهول تعريض وتذكير لهم بالمنعم تعالى علمهم يذكرون فيشكرون.
- 2 - بسط الرزق تيسيره وتكثيره مأخوذ من بسط الثوب وهو نشره ليتسع لصاحبه وتقدير الرزق معناه إعطاؤه مقدراً، ويقابله ما يعطى بغير حساب.
- 3 - مفعول لا يعلمون محذوف وقد ذكر في التفسير وهو أنهم لا يعلمون الحكمة في بسط الرزق وتضييقه.

(4/325)

كتضييقه عائد إلى تربية الناس بالسراء والضراء امتحاناً وابتلاء. وقوله تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} يخبر تعالى المشركين المغترين بالمال والولد يقول لهم وما أموالكم ولا أولادكم بالحال التي تقرّبكم منا وتجعلنا نرضى عنكم وندنيكم منا زلفى أي قريبي. {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} أي لكن من فعلوا الوجبات والمندوبات {فَأُولَئِكَ} أي المذكورون لهم جزء الضعف (1)، أي جزء تضاعف لهم حسناتهم فيه، السنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة، وذلك بسبب عملهم الصالحات {وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ} أي غرفات الجنة آمنون من الموت ومن كل مكروه ومنغص لسعادتهم.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} يخبر تعالى أن الذين يعملون بجد وحرص في إبطال آياتنا وإطفاء نور هدايتنا في كتابنا وقلوب عبادنا المؤمنين ويظنون أنهم معجزون لنا أي فانتون لا ندرّكهم ولا نعاقبهم هؤلاء المغرورون في العذاب محضرون أي كأنك بهم وهم محضرون في جهنم يعذبون فيها أبداً.

فقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي} أي قل يا رسولنا مرة أخرى تقريراً لهذه الحقيقة العلمية التي خفيت على الناس وجهلها قومك وهي أن الله يبسط الرزق لمن يشاء امتحاناً لا حياً فيه ولا بغضاً له. وإنما امتحاناً له هل يشكر أو يكفر فإن شكر زدناه وأكرمناه وإن كفر سلبناه ما أعطيناه وعذبناه، {وَيَقْدِرُ

لَهُ} أي لمن يشاء من عباده ابتلاءً له لا بغضاً له ولا حباً فيه. وإنما لننظر هل يصبر على الابتلاء أو يسخط ويضجر فنزيد في بلائه وشقائه.. وقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ (2) مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} في هذا دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وتشجيع عليه بإعلام الناس أن الإنفاق لا ينقص المال والبخل به لا يزيده فإن التوسعة كالتضييق لحكمة فلا البخل يزيد في المال ولا الإنفاق في سبيل الله ينقص منه. وختم هذا بوعد الصادق وهو أن من أنفق في سبيل الله شيئاً أخلفه الله عليه وهو تعالى خير من قيل إنه يرزق ووصف به.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله في الأمم والشعوب وأنهم ما آتاهم من رسول إلا كفر به الأغنياء والكبراء.
- 2- بيان اغترار المترفين بما آتاهم الله من مال وولد طانين أن ذلك من رضا الله تعالى عليهم.

1 - الضعف بمعنى المضاعف المكرر مرة وأكثر حتى يبلغ أضعافاً مضاعفة إلى سبعمائة ضعف هي سنة الإنفاق في الجهاد.

2 - من في قوله "من شيء" بيانية وجملة فهو يخلفه جواب الشرط وجملة وهو خير الرازقين تنذيل للكلام يحمل معنى الترغيب في الإنفاق في سبيل الله وفي الحديث الصحيح "يا ابن آدم أنفق أنفق عليك"، و "ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً" في الصحيح".

(4/326)

3- بيان الحكمة في التوسعة على بعض والتضييق على بعض، وأنها الامتحان والابتلاء فلا تدل على حب الله ولا على بغضه للعبد.

4- بيان ما يقرب إلى الله ويدني منه وهو الإيمان والعمل الصالح ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله لا كثرة المال

والولد كما يظن المغرورون المفتنون بالمال والولد.

5- بيان حكم الله فيمن يحارب الإسلام ويريد إبطاله وأنه محضر في جهنم لا محالة.

6- بيان وعد الله تعالى بالخلف لكل من أنفق في سبيله مالا.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً

وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

شرح الكلمات:

ويوم يحشرهم جميعاً : أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً أي جميع المشركين.
أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ : أي يقول تعالى هذا للملائكة تقريباً للمشركين وتوبيخاً لهم.
قالوا سبحانك : أي قالت الملائكة سبحانك أي تقديساً لك عن الشرك وتنزيهاً.
أنت ولينا من دونهم : أي لا مولاة بيننا وبينهم أي يتبرأوا منهم.
بل كانوا يعبدون الجن: أي الشياطين التي كانت تتمثل لهم فيحسبونها ملائكة فيطيعونها فتلك عبادتهم لها.
فالיום لا يملك بعضكم لبعض : أي لا يملك المعبودون للعابدين.
نفعاً ولا ضرراً : أي لا يملكون نفعهم فينفعونهم ولا ضرهم فيضرونهم.
ونقول للذين ظلموا : أي أشركوا غير الله في عبادته من الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين.

(4/327)

عذاب النار التي كنتم بها تكذبون : أي كنتم في الدنيا تكذبون بالبعث والجزاء وهو الجنة أو النار.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء والتوحيد. قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم واذكر {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ(1)} أي المشركين {جَمِيعاً} فلم نبق منهم أحداً، ثم نقول للملائكة وهم أمامهم تقريباً للمشركين وتأنياً: {أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(2)} فتنبراً للملائكة من ذلك وينزهون الله تعالى عن الشرك فيقولون: {سُبْحَانَكَ} أي تنزيهاً لك عن الشرك وتقديساً {أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ} أما هم فلا ولاية بيننا وبينهم {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ(3)} أي الشياطين {أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} أي مصدقون فأطاعوهم في عبادة الأصنام وعصوك وعصوا رسلك فلم يعبدوك ولم يطيعوا رسلك.
وقوله تعالى {فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً} أي يقال لهم هذا القول تبيساً وإبلاساً أي قطعاً لرجائهم في أن يشفَعوا لهم. وقوله تعالى {وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} وهم المشركون {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} أي كنتم تكذبون بها في الدنيا فنذوقوا اليوم عذابها. والعياذ بالله من عذاب النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض أحوالها.

2- أن من كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين كانوا يعبدون الشياطين إذ هي التي زينت لهم

الشرك. أما الملائكة والأنبياء والأولياء فلم يرضوا بذلك منهم فضلاً عن أن يأمرهم به.
3- بيان توبيخ أهل النار بتكذيبهم في الدنيا بالآخرة وكفرهم بوجود نار يعذبون بها يوم القيامة.

- 1 - هذا الكلام متصل بما قبله وهو قوله تعالى ولو ترى إذ الظالمون موقوفون إذ السياق كله في تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض أحوال أهل النار وما يجري لهم من أمور.
- 2 - هذا كقوله تعالى لو إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ وهو سؤال تفرغ وتوبيخ لا للمسئول ولكن لعابديه من الإنس والجن.
- 3 - روي أن بني مَليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ويزعمون أن الجن تتراءى لهم وأنهم الملائكة وأنهم بنات الله، وهو قوله تعالى في سورة الصافات "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا".

(4/328)

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45) قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)

شرح الكلمات:

آياتنا بيِّنات : أي آيات القرآن الكريم واضحات ظاهرة المعنى بينة الدلالة.

قالوا ما هذا إلا رجل : أي ما محمد إلا رجل من الرجال.

يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم : أي يريد أن يصرفكم عن عبادتكم لآلهتكم التي كان يعبدها آباؤكم من قبل.

إلا إفك مفترى : أي إلا كذب مختلق مزور.

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم: أي قالوا للقرآن لما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم.

إن هذا إلا سحر مبين : أي ما هذا أي القرآن إلا سحر مبين أي محمد ساحر والقرآن سحر.

من كتب يدرسونها : أي يقرأونها فأباحث لهم الشرك وأذنت لهم فيه.

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير : أي ولم نرسل إليهم قبلك من رسول فدعاهم إلى الشرك.

وما بلغوا معشار ما آتيناهم : أي ولم يبلغ أولئك الأمم الذين أهلكناهم معشار ما آتينا هؤلاء من

الحجج والبيِّنات.

فكيف كان نكير : أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة إلا هلاك والجواب كان واقعا موقعه لم يخطئه بحال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في عرض مواقف المشركين المخزية والتنديد بهم والوعيد الشديد لهم. قال تعالى ﴿وَإِذَا تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي مشركي قريش وكفارها ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي يتلوها رسولنا واضحات الدلالة بينات المعاني فيما تدعو إليه من الحق وتتدد به من الباطل. كان جوابهم أن قالوا: ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم. أي ما محمد إلا رجل أي ليس بملك يريد أن يصدكم أي يصرفكم عما كان يعبد آباؤكم من الأوثان والأحجار. فسبحان الله أين يذهب بعقول المشركين أما يخجلون لما يقولون عما كان يعبد آباؤكم من الأصنام والأوثان، إنه يصدكم حقاً عن عبادة الأوثان ولكن إلى عبادة الرحمن. وقالوا أيضاً ما أخبر تعالى به عنهم في قوله ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ (1)﴾ أو كذب ﴿أَفْتَرَاهُ﴾ أي اختلقه وتخرصه من نفسه أي قالوا في القرآن وما يحمل من تشريع وهدى ونور قالوا فيه إنه كذبه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الله ما أشد سخف هؤلاء المشركين. وقالوا أيضاً ما أخبر تعالى به عنهم في قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا في الرسول وما جاءهم به من الدعوة إلى التوحيد والإصلاح ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما هذا إلا سحر مبين، وذلك لما رأوا من تأثير الرسول والقرآن في نفوسهم إذ كان يحرك نفوسهم ويهزها هزاً.

بعد هذا العرض لمواقف المشركين قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ (2)﴾ أي مشركي قريش ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي أصروا على الشرك وما أعطيناهم من كتب يقرأونها فوجدوا فيها الإذن بالشرك أو مشروعيته فتمسكوا به، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي رسول فأجاز لهم الشرك أو سنه لهم فهم على سنته، اللهم لا ذا ولا ذاك. فكيف إذا هذا الإصرار على الشرك وهو باطل لم ينزل به كتاب ولم يبعث به رسول (3).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (4)﴾ أي من الأمم البائدة ﴿وَمَا بَلَّغُوا﴾ أي ولم يبلغ

- 1 - ما هذا يعنون القرآن الكريم وكذا قولهم إن هذا إلا سحر فإنهم يعنون القرآن الكريم أيضاً وإن بمعنى ما النافية والإسناد بعدها دال عليها.
- 2 - الجملة حالية من ضمير قالوا ما هذا.
- 3 - أي أنه ليس لهم ما ينتبئون به من أقل دليل وأدنى شبهة كما هي الحال عند أهل الكتاب إذ قالوا عندنا كتابنا وجاءتنا رسلنا أما المشركون فليس لهم من ذلك شيء.

4 - في الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في تكذيبهم له صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم. التسلية في قوله "كذب الذين من قبلهم" والتهديد في "فكذبوا رسلي فكيف كان نكير" والفاء للتفريع أي في قوله فكذبوا رسلي.

(4/330)

هؤلاء من القوة معشار (1) ما كان لأولئك الأقسام الهالكين، ومع ذلك أهلكناهم، فكيف كان نكيري أي كيف كان إنكاري عليهم الشرك وتكذيب رسلي كان إبابتهم واستئصالهم. أما يخاف هؤلاء الضعفاء أن تحل بهم عقوبتنا فنهلكهم عن آخرهم كما أهلكنا من قبلهم ولما لم يرد الله إبابتهم بعد أن استوجبوها بالتكذيب لرسوله والإصرار على الشرك والكفر قال لرسوله قل لهم {إِنَّمَا (2) أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ} أي بخصلة واحدة وهي أن تقوموا لله متجردين من الهوى والتعصب {مَمْتَنِي}، أي اثنين اثنين، {وَفُرَادَى} أي واحداً واحداً، ثم تتفكروا في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ومواقفه الخيرة معكم وبعده عن كل أذى وشر وفساد فإنكم تعلمون يقينا أنه ما بصاحبكم محمد من جنّة ولا جنون {إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} ، أي ما هو صلى الله عليه وسلم إلا نذير لكم أمام عذاب شديد قد ينزل بكم وهو مشفق عليكم في ذلك خائف لا يريدكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان عناد المشركين وسخف عقولهم وهبوطهم الفكري.

2- ضعف كفار قريش وتشددهم وعتوهم إذا قيسوا بالأمم السابقة فإنهم لا يملكون من القوة نسبة

واحد إلى

ألف إذ المعشار هو عشر عشر العشر (3).

3- تقرير النبوة المحمدية وإثباتها وذلك ينفي الحجة عنه صلى الله عليه وسلم وإثبات أنه نذير.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَافُ الْغُيُوبِ (48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ

1 - المعشار العشر إذ هو الجزء العاشر كالمرباع الذي يعطى لقائد الكتيبة من الغنائم وهو ربعها.

2 - هذا انتقال من حكاية أقوال المشركين والرد عليهم إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمل في

الحقائق ليتضح لهم خطأهم وهذا من باب الإعذار لهم في المجادلة ليهلك من يهلك عن بينة ويحيى

من يحي عن بينة.

3 - قال القرطبي: وقيل المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزء من ألف جزء قال الماوردي وهو أظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل وما فسرت به الآية في التفسير أرجح وأوضح، وإن أريد به ما أتى الله هذه الأمة من العلم والبيان فهذا المعنى صحيح غير أنه لا يتلاءم مع سياق الآيات.

(4/331)

سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

شرح الكلمات:

قل إن ربي يقذف بالحق : أي يلقي بالوحي الحق إلى أنبيائه. ويقذف الباطل بالحق أيضاً فيدمغه. وما يبدي الباطل وما يعيد : أي وما يبدي الباطل الذي هو الكفر، وما يعيد أي إنه لا أثر له. فإنما أضل على نفسي : أي إنم ضلالي على نفسي لا يحاسب ولا يعاقب به غيري. إنه سميع قريب : أي سميع لما أقول لكم قريب غير بعيد فلا يتعذر عليه مجازاة أحد من خلقه. إذ فزعوا فلا قوت : أي إذ فزعوا للبعث أي خافوا ونفروا فلا قوت لهم منا بل هم في قبضتنا. وأنى لهم التناوش من مكان بعيد : أي لما شاهدوا العذاب قالوا آمنا بالقرآن وكيف لهم ذلك وهم بعيدون إنهم في الآخرة والإيمان في الدنيا. (التناوش) التناول من مكان بعيد. كما فعل بأشياءهم من قبل : أي فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم من أمم الكفر والباطل. في شك مرعب : أي في شك بالغ من نفوسهم فأصبحوا به مضطربين لا يطمئنون إلى شيء أبداً.

(4/332)

معنى الآيات:

لما لجج المشركون في الخصومة والعناد ودعاهم الله تعالى إلى أمثل حل وهو أن يقوموا لله متجردين لله تعالى من الهوى والتعصب يقوموا اثنين اثنين أو واحداً واحداً لأن الجماعة من شأنها أن تختلف مع الآراء ثم يتفكروا في حياة الرسول وما دعاهم إليه من الهدى والحق فإنكم تعلمون أنه ليس كما اتهمتموه بالجنون وإنما هو نذير لكم بين يدي عذاب شديد يخاف وقوعه بكم ونزوله عليكم هنا أمره تعالى أن يقول لهم وكوني نذيراً لكم مما أخاف عليكم لا أسألكم على إنذارني لكم أجراً (1) {إِنْ أُجْرِيَ

إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي مطلع عليّ عالم بصدقي ويجزيني على إنذاري لكم إذ كلفني به فقت به طاعة له. وقوله تعالى {قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْزِفُ (2) بِالْحَقِّ} أي قل لهم يا رسولنا إن ربي يقذف بالحق أي يلقي بالوحي على من يشاء من عباده {عَلَّامٌ (3) الْغُيُوبِ} أي وهو علام الغيوب يعلم من هو أهل للوحي إليه والإرسال فيوحي إليه ويرسله كما أوحى إليّ وأرسلني إليكم نذيراً وبشيراً. وقوله تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} أي قل لهم يا رسولنا جاء الحق وهو الإسلام الدين الحق، فلم يبق للباطل الذي هو الشرك والكفر مكان ولا مجال، وما يبدي الباطل وما يعيد؟ أي أنه كما لا يبدي لا يعيد فهو ذاهب لا أثر له أبداً وقوله: {قُلْ (4) إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي} أي أعلمهم بأنك إن ضللت فيما أنت قائم عليه تدعوا إليه فإنما عائد ضلالك عليك لا عليهم، وإن اهتديت فهدايتك بفضل ما يوحي إليك ربك من الهدى والنور {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سميع لأقوالك وأقوال غيرك غير بعيد فيتعذر عليه مجازاة عباده صاحب الإحسان بالإحسان وصاحب السوء بالسوء. وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} أي لرأيت أمراً فظيماً يقول تعالى لرسوله ولو ترى (5) إذ فرغ المشركون في ساحات فصل القضاء يوم القيامة فرعوا من شدة الهول والخوف وقد أخذوا من مكان قريب وألقوا في جهنم لرأيت أمراً فظيماً في غاية الفظاعة. وقوله {فَلَا قُوَّةَ}

1 - أي جعلاً على تبليغ الرسالة فإن سألتكموه فهو لكم.

2 - جائز أن يكون المعنى يقذف الباطل بالحق فيدمغه فإذا هو زاهق كذا روي عن ابن عباس وقال قتادة بالحق أي بالوحي وعنه أن الحق القرآن والكل صحيح وما في التفسير أقرب وأوضح.

3 - علام مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو علام الغيوب والغيوب جمع غيب وقرأ الجمهور بضم الغين وكسرها بعضهم كبيوت إذ يجوز لها الضم والكسر والآية فيها معنى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وفيها رد على المعترضين على الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

4 - لما أفحمهم في الآيات السابقة وقطع طريق الاستدلال عليهم وتركهم في غيهم حيارى أمر رسوله أن يقول لهم تاركاً جدالهم لعدم الفائدة منه بعد وضوح الحق (إن ضللت) الآية فعل هذا إنهاءً لجدل عقيم.

5 - الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل ذي أهلية وجواب لو محذوف كأن اللفظ لا يقدر على تصويره على حقيقته لفظاعته وهو كذلك.

لهم لا يفوتون الله تعالى ولا يهريون من قبضته. وقوله تعالى: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ (1)} أي قالوا بعد ما بعثوا وفزعوا من هول القيامة قالوا آمنا به أي بالله وكتابه ولقائه ورسوله، قال تعالى {وَأَنَّى لَهُمُ (2) النَّتَّائُشُ} أي التناول للإيمان من مكان بعيد إذ هم في الآخرة والإيمان كان في الدنيا فكيف يتناولونه بهذه السهولة ويقبل منهم وينجون من العذاب هذا بعيد جداً ولن يكون أبداً وقد كفروا به من قبل أي لا سيما وأنهم قد عرض عليهم الإيمان وهم قادرون عليه فرفضوه فكيف يمكنون منه الآن. وقوله {وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ (3) مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ} أي وها هم اليوم في الدنيا يقذفون بالغيب محمداً صلى الله عليه وسلم بقواصم الظهر مرة يقولون كاذب ومرة ساحر ومرة شاعر وأخرى مجنون وكل هذا رجماً بالغيب لا شبهة لهم فيه ولا أدنى ريبة تدعوهم إليه وأخيراً قال تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} وهو الإيمان الموجب للنجاة كما فعل بأشياعهم (4) أي أشباههم وأنصارهم من أهل الكفر والتكذيب لما جاءهم العذاب قالوا آمنا ولم ينفعهم إيمانهم وأهلكوا فآلقوا في الجحيم، وقوله {إِنَّهُمْ (5) كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} أي مشركو قريش وكفارها أخبر تعالى أنهم كانوا في الدنيا في شك من توحيدنا ونبينا ولقائنا مرئب أي موقع لهم في الريب والاضطراب فلم يؤمنوا فماتوا على الكفر والشرك وهذا جزء من يموت على الشرك والكفر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دعوة الله تعالى ينبغي أن لا يأخذ الداعي عليها أجراً، ويحتسب أجره على الله عز وجل.
- 2- بيان صدق الله تعالى في قوله جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد إذ ما هو إلا سنيات والإسلام ضارب

بجرانه في الجزيرة فلا دين فيها إلا الإسلام.

- 3- الإيمان الاضطرابي لا ينفع صاحبه كإيمان من رأى العذاب.

- 4- الشك كفر ولا إيمان مع رؤية العذاب.

1 - صالح أن يكون الضمير للوعيد أو ليوم البعث أو النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن إذ الكل واجب الإيمان وقد كفروا بالكل وكذبوا.

2 - أنى استفهام عن المكان وهو مستعمل هنا للإنكار والتناوش التناول السهل وأكثر وروده في شرب الإبل شرباً خفيفاً من الحوض ونحوه قال الشاعر:

باتت تتوش الحوض نوشاً من علا

نوشاً به تقطع أجواز الفلا

أي تتناول الماء من أعلاه ولا تغوص مشافرها فيه.

3 - القذف الرمي باليد من بعد ويستعار للقول بدون ترو ولا دليل وهو كقولهم في الأصنام هم شفعاؤنا عند الله وكتكذبيهم بالبعث والتوحيد والنبوة.

- 4 - الأشياع المتشابهون في النحلة وإن كانوا سالفين وأصل المشايعة المتابعة في العمل.
5 - هذه الجملة تعليلية لكل ما سبق في تكذيبهم وعنادهم وجهلهم وضلالهم إذ الشك وعد اليقين هو الذي يوقع صاحبه في أودية الضلال والباطل.

(4/334)

سورة فاطر

...

سورة فاطر

مكية

وآياتها خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

شرح الكلمات:

الحمد لله : أي قولوا الحمد لله فإنه واجب الحمد ومقتضى الحمد ما ذكر بعد.

فاطر السموات والأرض : أي خالقهما على غير مثال سابق.

جاعل الملائكة رسلا : أي جعل منهم رسلا إلى الأنبياء كجبريل عليه السلام.

أولي أجنحة : أي ذوي أجنحة جمع جناح كجناح الطير.

يزيد في الخلق ما يشاء : أي يزيد على الثلاثة ما يشاء فإن لجبريل ستمائة جناح.

وما يمسك : أي الله من الرحمة فلا أحد يرسلها غيره سبحانه وتعالى.

وهو العزيز الحكيم : أي الغالب على أمره الحكيم في تدبيره وصنعه.

اذكروا نعمة الله عليكم : أي اذكروا نعمه تعالى عليكم في خلقكم ورزقكم وتأمينكم في حرمكم.

هل من خالق غير الله : أي لا خالق لكم غير الله ولا رازق لكم يرزقكم.

من السماء والأرض : أي بإنزال المطر من السماء وإنبات الزروع في الأرض.

(4/335)

لا إله إلا هو : أي لا معبود بحق إلا هو إذا فاعبدوه ووحده.
فأنى توفكون : أي كيف تصرفون عن توحيده مع اعترافكم بأنه وحده الخالق الرزق.
معنى الآيات:

قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ (1) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي الشكر الكامل والحمد التام لله استحقاقاً،
والكلام خرج مخرج الخبر ومعناه الإنشاء أي قولوا الحمد لله. واشكروه كما هو أيضاً إخبار منه
تعالى بأن الحمد له ولا مستحقه غيره ومقتضى حمده فطره السموات والأرض أي خلقه لهما على
غير مثال سابق ولا نموذج حاكاه في خلقهما. وجعله الملائكة (2) رسلاً إلى الأنبياء وإلى من يشاء
من عباده بالإلهام والرؤيا الصالحة. وقوله {أُولِي أَلْبَانٍ} صفة للملائكة أي أصحاب أجنحة مثني
أي اثنين اثنين، وثلاث أي ثلاثة ثلاثة، ورباع أي أربعة أربعة. وقوله {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ} أي خلق
الأجنحة ما يشاء فقد خلق لجبريل عليه السلام ستمائة جناح كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم في الصحاح ويزيد في خلق (3) ما يشاء من مخلوقاته وهو على كل شيء قدير.
وقوله تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ (4) فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} يخبر تعالى أن مفاتيح كل شيء بيده
فما يفتح للناس من أرزاق وخيرات وبركات لا يمكن لأحد من خلقه أن يمسكها دونه وما يمسك من
ذلك فلا يستطيع أحد من خلقه أن يرسله، وهو وحده العزيز الغالب على أمره ومراده فلا مانع لما
أعطى ولا راد لما قضى الحكيم في صنعه وتدبير خلقه. وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ} هذا نداؤه تعالى لأهل مكة من قريش يأمرهم (5) بعده بأن يذكروا نعمته تعالى عليهم حيث
خلقهم ووسع أرزاقهم وجعل لهم حراماً آمناً والناس يتخطفون من

- 1 - يصح في فاطر الجر على النعت والرفع على القطع أي هو فاطر والنصب على المدح أي
أمدح فاطر، والاطر: الشق يقال فطرته فانططر وتقطر، وفطر ناب البعير إذا شق اللحم وطلع،
والفاطر: الخالق، قال ابن عباس كنت لا أدري ما "فاطر السموات والأرض" حتى أتاني أعرابيان
يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرته أي أنا ابتدأتها والمراد بالسموات والأرض العالم كله.
- 2 - المراد بالملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل "وملك الموت" وما شاء الله.
- 3 - جائز أن يكون في ملاحاة العين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم، وفي الصوت الحسن
والشعر الحسن والحظ الحسن كل هذا مذكور وداخل في العبارة فإنها عامة.
- 4 - لفظ الرحمة نكرة دال على الكثرة والشيوع فهو يتناول كل ما هو رحمة من النبوة والعلم إلى
المطر والرزق إلى النصر والفوز.
- 5 - أي بعد أن ناداهم أمرهم بأن يذكروا نعمته عليهم إذ نداء المأمور يلفت نظره ويحضر حواسه
لاستقبال ما يلقى إليه ويؤمر به أو يحذر منه.

حولهم خائفون يأمرهم بذكر نعمه لأنهم إذا ذكروها شكروها بالإيمان به وتوحيده. وقوله ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والجواب لا أحد إذ لا خالق إلا هو ولا رازق سواه فهو الذي خلقهم ومن السماء والأرض رزقهم. السماء تمطر والأرض تنبت بأمره. إذا فلا إله إلا هو أي لا معبود بحق إلا هو فكيف تصرفون عن الحق بعد معرفته إن حالكم لعجب. هذا ما دل عليه قوله تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ (1) اللَّهُ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَى تُؤَفَّكُونَ﴾.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حمد الله تعالى وشكره على إنعامه.
- 2- تقرير الرسالة والنبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم بإخباره أنه جاعل الملائكة رسلاً.
- 3- وجوب اللجوء إلى الله تعالى في طلب الخير ودفع الضر فإنه بيده خزائن كل شيء.
- 4- وجوب ذكر النعم ليكون ذلك حافظاً على شكرها بطاعة الله ورسوله.
- 5- تقرير التوحيد بالأدلة العقلية التي لا ترد.
- 6- العجب من حال المشركين يقرون بانفراد الله تعالى بخلقهم ورزقهم ويعبدون معه غيره. وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

1 - قرئ غير الله بالجبر وقرأ الجمهور بالرفع على محل خالق المرفوع محلاً في الآية دليل على أن الخير والشر كلاهما من خلق الله تعالى.

(4/337)

شرح الكلمات:

وإن يكذبون : أي يا رسولنا فيما جئت به من التوحيد وعقيدة البعث والجزاء ولم يؤمنوا بك. فقد كذبت رسل من قبلك : أي فلست وحدك كذبت إذا فلا تأس ولا تحزن واصبر كما صبر من قبلك.

والى الله ترجع الأمور : وسوف يجزي المكذبين بتكذيبهم والصابرين بصبرهم.
ولا يغرنكم بالله الغرور : أي ولا يغرنكم بالله أي في حلمه وإمهاله الغرور أي الشيطان.
فاتخذوه عدواً : أي فلا تطيعوه ولا تقبلوا ما يغركم به وأطيعوا ربكم عز وجل.
إنما يدعوا حزبه : أي أتباعه في الباطل والكفر والشر والفساد.
ليكونوا من أصحاب السعير : أي ليؤول أمرهم إلى أن يكونوا من أصحاب النار المستعرة.
لهم مغفرة وأجر كبير : أي لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الجنة وذلك لإيمانهم وعملهم
الصالحات.

معنى الآيات:

لما أقام تعالى الحجة على المشركين في الآيات السابقة قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنْ
يُكذَّبُوكَ (1)﴾ بعدما أقمت عليهم الحجة فليست وحدك المكذب فقد كذبت قبلك رسل كثيرون جاءوا
أقوامهم بالبينات والزرير وصبروا إذا فاصبر كما صبروا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ (2) الْأُمُورُ﴾ وسوف يقضي
بينك وبينهم بالحق فينصرك في الدنيا ويخذلهم، ويرحمك في الآخرة ويعذبهم.
وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي يا أهل مكة وكل مغرور من الناس بالحياة الدنيا اعلموا
أن وعد الله بالبعث والجزاء حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بطول أعماركم وصحة أبدانكم وسعة
أرزاقكم، فإن ذلك زائل عنكم لا محالة ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ﴾ أي حلمه وإمهاله ﴿الْغُرُورُ (3)﴾ وهو الشيطان
حيث يتخذ من حلم الله تعالى عليكم وإمهاله لكم طريقاً إلى إغوائكم وإفسادكم بما يحملكم عليه من
تأخير التوبة والإصرار على المعاصي، والاستمرار عليها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ

1 - في هذه الآية تعزية الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وتسليته له بالتأسي بمن قبله من
الرسل وتكذيب أممهم لهم.

2 - قرأ الجمهور ترجع بضم التاء وقرأ بعض بفتحها والكل صحيح ومأل المعنى واحد.

3 - الغرور بالضم مصدر غره يغره غرورا، وبالفتح الشيطان وهو المراد هنا وصيغته من صيغ
المبالغة "فعل" إذ هو كثير الغرور يأتيهم من حيث حلم الله وإمهاله فيصرفهم عن الحق مغرراً إياهم
بأنهم لو كانوا على باطل لأهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم، ويسوف آخريين بحلم الله فيصرفهم عن
التوبة.

(4/338)

لَكُمْ عَدُوٌّ (1)﴾ بالغ العداوة ظاهراً فاتخذوه أنتم عدواً كذلك فلا تطيعوه ولا تستجيبوا لندائه، ﴿إِنَّمَا
يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ أي أتباعه ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة، إنه يريد أن تكونوا معه في

الجحيم. إذ هو محكوم عليه بها أولاً وقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا} (2) لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ أي في الآخرة، والذين آمنوا وعملوا الصالحات {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي لذنوبهم {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم. هذا حكم الله في عباده وقراره فيهم: وهم فريقان مؤمن صالح وكافر فاسد ولكل جزاء عادل.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيها كل دعاء الحق إذا كذبوا وأوذوا فعليهم أن يصبروا.

2- تقرير البعث والجزاء المتضمن له وعد الله الحق.

3- التحذير من الاغترار بالدنيا أي من طول العمر وسعة الرزق سلامة البدن.

4- التحذير من الشيطان ووجوب الاعتراف بعبادته، ومعاملته معاملة العدو فلا يقبل كلامه ولا يستجاب لندائه ولا يخدع بتزيينه للقبیح والشر.

5- بيان جزاء أولياء الرحمن أعداء الشيطان، وجزاء أعداء الرحمن أولياء الشيطان.

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

1 - يكفي في إثبات عداوته أنه أخرج أبونا من الجنة، وأنه تعهد بإضلالهم وإغوائهم كقوله لأغوينهم أجمعين وقوله ولأضلنهم ولأمنينهم.

2 - الذين كفروا: الجملة مستأنفة بيانياً لأنه بعد التحذير من طاعة الشيطان يلوح في الأذهان سؤال: ما جزاء من أطاع الشيطان وما جزاء من عصاه؟ فالجواب الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ويرى بعضهم أنها ابتدائية ذكرت فذلك لما تقدم من الكلام.

(4/339)

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

شرح الكلمات:

أفمن زين له سوء عمله : أي قبيح عمله من الشرك والمعاصي.

فَرَأَهُ حَسَنًا : أي رآه حسنًا زيناً لا قبيح فيه.
فلا تذهب نفسك عليهم : أي على أولئك الذين زين لهم الشيطان قبيح أعمالهم.
حسرات : أي لا تهلك نفسك بالتحسر عليهم لكفرهم.
إن الله عليم بما يصنعون : وسيجزئهم بصنيعهم الباطل.
فتثير سحاباً : أي تزعجه وتحركه بشدة فيجتمع ويسير.
فسقناه إلى بلد ميت : أي لا نبات فيه.
فأحيينا به الأرض : أي بالنبات والعشب والكلأ والزرع.
كذلك النشور : أي البعث والحياة الثانية.
فله العزة جميعاً : أي فليطلب العزة بطاعة الله فإنها لا تتال إلا بذلك.
إليه يصعد الكلم الطيب : أي إلى الله تعالى يصعد الكلم الطيب وهو سبحانه الله والحمد لله والله أكبر.
والعمل الصالح يرفعه : أي أداء الفرائض وفعل النوافل يرفع إلى الله الكلم الطيب.
يمكرون السيئات : أي يعملونها ويكسبونها.
مكر أولئك هو يبور : أي عملهم هو الذي يفسد ويبطل.
خلفكم من تراب : أي أصلكم وهو آدم.
ثم من نطفة : أي من ماء الرجل وماء المرأة وذلك كل نرية آدم.

(4/340)

ثم جعلكم أزواجاً : أي ذكراً وأنثى.
وما تحمل من أنثى : أي ما تحمل من جنين ولا تضعه إلا بإذنه.
وما يعمر من معمر : أي وما يطول من عمر ذي عمر طويل إلا في كتاب.
ولا ينقص من عمره: أي بأن يجعل أقل وأقصر من العمر الطويل إلا في كتاب.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقوية روح الرسول صلى الله عليه وسلم والتشد من عزمه أمام تقلبات المشركين وعنادهم ومكرهم فقال تعالى: {أَفَمَنْ (1) زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا (2)} أي أفمن زين له الشيطان ونفسه وهواه قبيح عمله وهو الشرك والمعاصي فرآه حسناً كمن هداه الله فهو على نور من ربه يرى الحسنه حسنة والسيئة سيئة والجواب: لا، لا. وقوله تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} يضل بعدله وحسب سنته في الإضلال من يشاء من عباده، ويهدي بفضل من يشاء هدايته إذاً فلا تذهب (3) نفسك أيها الرسول على عدم هدايتهم حسرات فتهلك نفسك تحسراً على عدم

هدايتهم. وقوله {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فلذا لا داعي إلى الحزن والغم ما دام الله تعالى وهو ربهم قد أحصى أعمالهم وسيجزئهم بها وقوله تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} أي ترعجه وتحركه. {فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ} (4) أي لا نبات ولا زرع به {فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} أي كما أن الله تعالى ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها كذلك يحيي الموتى إذ بعد فناء العالم ينزل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت الإنسان من عظم يقال له عجبُ الذئب فيتم خلقه، ثم يرسل الله تعالى الأرواح فتدخل كل روح في جسدها فلا تخطئ روح جسدها. هكذا كما تتم عملية إحياء الأرض بالنبات تتم عملية إحياء الأموات ويساقون إلى المحشر ويجزى كل نفس بما كسبت والله سريع الحساب.

- 1 - الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للتفريع فالجملة متفرعة عما سبقها من قوله تعالى {إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} والمزين الشيطان والمزين له سوء عمله (من) الموصولية وهي من ألفاظ العموم تتناول من قيل إن الآية نزلت فيه وهو أبو جهل ثم هي صادقة على كل من زين له الشيطان الشرك والنشر والفساد فرأها حسنة، (ومن) مبتدأ والخبر محذوف قد يقدر فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقد يقدر كمن هداه الله كما في التفسير وقد يقدر بغير ما ذكر.
- 2 - ذكر القرطبي لأهل العلم أقوالاً فيمن زين له سوء عمله وفي عمله الذي زين له قيل إنهم اليهود والنصارى والمجوس، وسوء عمله معادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل إنهم الخوارج وسوء عمله تحريف التأويل وقيل الشيطان وعمله الإغراء وقيل كفار قريش وهو الظاهر.
- 3 - قرأ الجمهور فلا تذهب نفسك بفتح التاء ورفع السين من نفسك وقرئ بضم التاء ونصب نفسك على أنها مفعول به.
- 4 - الراجح من الأقوال لغة أن ميت مشددة وميت مخفف لا فرق بينهما وشاهده قول الشاعر:
ليس من مات واستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء.

(4/341)

وقوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} فليطلبها من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله فإن العزة لله جميعاً فالعزیز من أعزه الله والدليل من أدله، إنهم كانوا يطلبون العزة بالأصنام فاعلموا أن من يريد العزة فليطلبها من مالها أما الذي لا يملك العزة فكيف يعطيها لغيره إن فاقده الشيء لا يعطيه. وقوله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} أي إلى الله يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه إلى الله تعالى فإذا كان قول بدون عمل فإنه لا يرفع إلى الله تعالى ولا يثيب عليه، وقد ندد الله تعالى

بالذين يقولون ولا يعملون فقال {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}. وقوله {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ} أي يعملونها وهي الشرك والمعاصي {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} هذا جزاؤهم، {وَمَكْرٌ (1) أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ} أي ومكر الذين يعملون السيئات {هو يبور} أي يفسد ويبطل.

وقوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} أي خلق أصلنا من تراب وهو آدم، ثم خلقنا نحن ذريته من نطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة، {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} أي ذكراً وأنثى. هذه مظاهر القدرة الإلهية الموجبة لعبادته وتوحيده والمقتضية للبعث والجزاء، وقوله {وَمَا تَحْمِلُ (2) مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ} أي يزداد في عمره، ولا ينقص من عمره فلا يزداد فيه إلا في كتاب وهو كتاب المقادير. هذا مظهر من مظاهر العلم، وبالعلم والقدرة هو قادر على إحياء الموتى وبعث الناس للحساب والجزاء. ولذا قال تعالى {إِنَّ ذَلِكَ} أي المذكور من الخلق والتدبير ووجوده في كتاب المقادير على الله يسير أي سهل لا صعوبة فيه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- التحذير من اتباع الهوى والاستجابة للشيطان فإن ذلك يؤدي بالعبد إلى أن يصبح يرى الأعمال القبيحة حسنة ويومها يحرم هداية الله فلا يهتدي أبداً وهذا ينتج عن الإدمان على المعاصي والذنوب.

2- عملية إحياء الأرض بعد موتها دليل واضح على بعث الناس أحياء بعد موتهم.

1 - المكر: تدبير إحقاق الضرر بالغير في خفية. والمراد هنا أن الذين يمكرون بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مكرهم يذهب سدى ولا يفلحون فيه كما أن الآية تشير إلى أن كل من يمكر مكر السوء فإن عاقبة مكره تعود عليه وبالاً وخسراناً كقوله تعالى ولا يحق المكر السيء إلا بأهله.

2 - فما يكون حمل ولا وضع أي ولادة إلا بعلمه، فلا يخرج شيء عن تدبيره وحكمته وما يعمر سماه معمرأ باعتبار ما هو صائر إليه وفي الحديث الصحيح: "من أحب أن يسقط له في رزقه وينسأ له في أثره أي أجله فليصل رحمه."

(4/342)

1- مطلب العزة مطلب غال، وهو طاعة الله ورسوله ولا يعز أحد عزاً حقيقياً بدون طاعة الله ورسوله.

2- علم الله المتجلي في الخلق والتدبير يضاف إليه قدرته تعالى التي لا يعجزها شيء بهما يتم الخلق والبعث والجزاء.

3- تقرير البعث والجزاء وتقرير كتاب المقادير وهو اللوح المحفوظ.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

شرح الكلمات:

عذب فرات : أي شديد العذوبة.

وهذا ملح أجاج : أي شديد الملوحة.

ومن كل تأكلون : أي ومن كل منهما.

لحماً طرياً : أي السمك.

حلية تلبسونها : أي اللؤلؤ والمرجان.

(4/343)

مواخر : أي تمخر الماء وتشقه عند جريانها في البحر.

لتبتغوا من فضله : أي لتطلبوا الرزق بالتجارة من فضل الله تعالى.

ولعلكم تشكرون : أي رجاء أن تشكروا الله تعالى على ما رزقكم.

يولج الليل في النهار : أي يدخل الليل في النهار فيزيد.

ويولج النهار في الليل : أي يدخل النهار في الليل فيزيد.

وسخر الشمس والقمر : أي ذللها.

كل يجري لأجل مسمى : أي في فلكه إلى يوم القيامة.

والذين تدعون : أي تعبدون بالدعاء وغيره من العبادات وهم الأصنام.

ما يملكون من قطمير : أي من لفافة النواة التي تكون عليه وهي بيضاء رقيقة.

ولو سمعوا : أي فرضاً ما استجابوا لكم.

يكفرون بشرككم : أي يتبرأون منكم ومن عبادتكم إياهم.

ولا ينبئك مثل خبير : أي لا ينبئك أي بأحوال الدارين مثلي فإني خبير بذلك عليم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر مظاهر قدرة الله وعمله وحكمة تدبيره لخلقه وهي مظاهر موجبة لله

العبادة وحد دون غيره، ومقتضية للبعث الذي أنكره المشركون قال تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ} أي لا

يتعادلان. {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ (1) شَرَابُهُ} أي ماؤه عذب شديد العذوبة {وَهَذَا مِلْحٌ (2) أُجَاجٌ} أي ماؤه شديد الملوحة لمرارته مع ملوحته، فهل يستوي الحق والباطل هل تستوي عبادة الأصنام مع عبادة الرحمن؟ والجواب لا. وقوله: {وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ} أي ومن كل من البحرين العذب والملح تأكلون لهما طرياً وهو السمك {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} أي اللؤلؤ والمرجان. وهي حلية يتحلى بها النساء للرجال، وقوله {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ} أي وترى أيها السامع لهذا الخطاب {الْفُلْكَ} أي السفن مواخر في البحر تمخر عباب البحر وتشق ماءه غادية رائحة تحمل الرجال والأموال، سخرها وسخر البحر {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي الرزق بالتجارة، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي سخر لكم البحر لتبتغوا من فضله ورجاء أن تشكروا. لم يقل لتشكروا كما قال

1 - معنى سائغ شرابه أن شربه لا يكلف النفس كراهة وهو مشتق من الإيساعة وهو استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً
أكاد أغص بالماء الفرات

2 - المالح من الطعام والشراب: هو الذي يجعل فيه الملح والملح بكسر الميم وسكون اللام الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء الملح فيه والأجاج الشديد الملوحة.

(4/344)

لتبتغوا لأن الابتغاء حاصل من كل راكب، وأما الشكر فليس كذلك بل من الناس من يشكر ومنهم من لا يشكر، ولذا جاء بأداة الرجاء وهي لعل وقوله {يُولِجُ اللَّيْلَ (1) فِي النَّهَارِ} أي يدخل جزءاً من الليل في النهار فيطول، ويقصر الليل {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي يدخل جزءاً منه في الليل فيطول كما أنه يدخل النهار في الليل، والليل في النهار بالكلية فإنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ويشهد له قوله {وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} ولازمه والنهار نسلخ منه الليل، فإذا الليل ليل والنهار نهار. وقوله {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} أي ذللها فهما يسيران الدهر كله بلا كلل ولا ملل لصالح العباد إذ بهما كان الليل والنهار، وبهما تعرف السنون والحساب وقوله {كُلٌّ يَجْرِي} أي كل منهما يجري {لِلْأَجَلِ مُسَمًّى} أي إلى وقت محدود وهو يوم القيامة. ولما عرف تعالى نفسه بمظاهر القدرة قدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته قال للناس {ذَلِكُمْ (2) اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ} أي بعد أن أقام الحجة وأظهر الدليل لم يبق إلا الإعلان عن الحقيقة التي ينكر لها الكافرون فأعلنها بقوله {ذَلِكُمْ} ذو الصفات العظام والجلال والإكرام هو الله ربكم الذي لا رب لكم سواه له الملك، وليس لغيره فلا يصح طلب شيء من غيره، إذ الملك كله لله وحده، وأما الذين تدعون من دونه أي تعبدونهم من دونه وهي

الأصنام والأوثان وغيرها من الملائكة والأنبياء والأولياء فإنهم لا يملكون من قطمير فضلاً عن غيره
تمررة فما فوقها لأن الذي لا يملك قطميراً - وهو القشرة الرقيقة على النواة(3) - لا يملك بعيراً.
وقوله {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ} نعم لا يسمعون لأنهم جمادات وأصنام من حجارة فكيف
يسمعون وعلى فرض لو أنهم سمعوا ما استجابوا لداعيهم لعدم قدرتهم على الاستجابة. وقوله تعالى
{يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ} فهم إذاً محنة لكم في الدنيا تتحتونهم وتحمونهم وتعبدونهم ويوم
القيامة يكونون أعداء لكم وخصوماً فيتبرعون من شرككم إياهم في عبادة الله، فتقوم عليكم الحجة
بسببهم فما الحاجة إذاً إلى الإصرار على عبادتهم وحمائيتهم والدفاع عنهم. وقوله تعالى {وَلَا يُنَبِّئُكَ
أَيُّهَا السَّمِيعُ الْخَبِيرُ} (4) وهو الله تعالى فالخبير أصدق من ينبي

- 1 - هذا استدلال بمظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة بما في العالم العلوي بعد الاستدلال بما في العالم السفلي من ذلك.
- 2 - هذا استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة السابقة وهي أدلة مفصلة في غاية القوة والوضوح.
- 3 - جاء في القرآن ذكر النقيير والقطمير والفتيل واضطربت أقوال أهل اللغة في تحديدها والصحيح: أن النقيير النقرة في وسط النواة، وأن الفتيل الخيط الأبيض في وسط النواة، وأن القطمير اللفافة البيضاء على النواة.
- 4 - خبير صفة مشبهة مشتقة من خبر بضم الباء فلان الأمر إذا علمه علماً لا شك فيه وأجريت هذه الجملة مجرى المثل يقال (ولا ينبئك مثل خبير).

(4/345)

وأصح من يقول فالله هو العليم الخبير وما أخبر به عن الآلهة في الدنيا والآخرة في الدنيا عن
عجزها وعدم غناها وفي الآخرة عن براءتها وكفرها بعبادة عابديها. فهو الحق الذي لا مرية فيه.
هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- تقرير ربوبية الله المستلزمة لألوهيته.
 - 2- بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة وبها تقرر ربوبيته تعالى وألوهيته لعباده.
 - 3- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر يوم القيامة وبراءة الآلهة من عابديها.
 - 4- بيان عجز الآلهة عن نفع عابديها في الدنيا وفي الآخرة.
 - 5- تقرير صفات الكمال لله تعالى من الملك والقدرة والعلم، والخبرة التامة الكاملة وبكل شيء.
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16)

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

شرح الكلمات:

أنتم الفقراء إلى الله : أي المحتاجون إليه في كل حال.
والله هو الغني الحميد : أي الغني عنكم أيها الناس وعن سائر خلقه، المحمود بأفعاله وأقواله وحسن تدبيره فكل الخلائق تحمده لحاجتها إليه وغناه عنها.
ويأت بخلق جديد : أي بدلا عنكم.

(4/346)

وما ذلك على الله بعزير : أي بشديد ممتنع بل هو سهل جائز الوقوع.
ولا تزر وازرة وزر أخرى : أي في حكم الله وقضائه بين عباده أن النفس المذنبة الحاملة لذنبها لا تحمل وزر أي ذنب نفس أخرى بل كل وازرة تحمل وزرها وحدها.
وإن تدع مثقلة : أي بأوزارها حتى لم تقدر على المشي أو الحركة.
لا يحمل منه شيء : أي لا تجد من يستجيب لها ويحمل عنها بعض ذنبها حتى لو دعت ابنها أو أباها أو أمها فضلا عن غيرهم، بهذا حكم الله سبحانه وتعالى.
يخشون ربهم بالغيب : أي لأنهم ما رأوه بأعينهم.
ومن تزكى : أي طهر نفسه من الشرك والمعاصي.
فإنما يتزكى لنفسه : أي صلاحه واستقامته على دين الله ثمرتها عائدة عليه.
معنى الآيات:

بعد تلك الأدلة والحجج التي سبقت في الآيات السابقة وكلها مقررة ربوبية الله تعالى وألوهيته وموجبة توحيده وعبادته نادى تعالى الناس بقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ليعلمهم بأنه وإن خلقهم لعبادته وأمرهم بها وتوعد بالليم العذاب لمن تركها ولم يكن ذلك لفقر منه إليها ولا حاجة به إليهم فقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ} (1) إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} إن عبادة الناس لربهم تعود عليهم فيكملون عليها في أخلاقهم وأرواحهم ويسعدون عليها في دنياهم وآخرتهم أما الله جل جلاله فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية. وهو الغني عن كل ما سواه {الْحَمِيدُ} أي المحمود بنعمه فكل نعمة بالعباد موجبة له الحمد والشكر. وقوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ (2) بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} وهذا دليل غناه؛ وافتقارهم كما هو دليل قدرته وعلمه، وقوله: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي إذهابهم والإتيان بخلق جديد غيرهم ليس بالأمر العزيز الممتنع ولا بالصعب المتعذر بل هو اليسير السهل عليه تعالى.

- 1 - في قوله تعالى أنتم الفقراء قصر صفة على موصوف أي قصر صفة الفقر على الناس وهو قصر إضافي بالنسبة إلى الله تعالى أي أنتم المفقرتون إلى الله وليس هو بمفقر إليكم ووصفه تعالى نفسه بالحميد إشعار بأن غناه مقترن بوجوده فهو يحمد لما يسديه من المعروف إلى عباده.
- 2 - الجملة بيانية فيه مبينة لغناه وموجب حمده والثناء عليه ببيان قدرته على إهلاك الموجود من عباده والإتيان بخلق جديد غيرهم ومن كان هكذا هو الغني الحق والمحمود الحق فله الحمد وله المنة.

(4/347)

وقوله تعالى {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} (1) هذا مظهر عدالته تعالى فهو مع قدرته وقهره لعباده ذو عدل فيهم فلا يؤاخذ بغير جرم، ولا يحمل وزر نفس نفساً أخرى لم تذنّب ولم تزر بل كل نفس تؤخذ بذنبها إن كانت مذنبه هذه عدالته تتجلى لعباده يوم يعرضون عليه في يوم كله هول وفزع يدل عليه قوله {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ (2)} أي بذنوبها {إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ} (3) من تدعوه {ذَا قُرْبَى} كالولد (4) والبنيت. وقوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ (5) يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} أي إنما تنذر يا رسولنا ويقبل إنذارك وينتفع به من يخشون ربهم ويخافون عذابه بالغيّب وأقاموا الصلاة، أما غيرهم من أهل الكفر والعناد والجحود فإنهم لا يقبلون إنذارك ولا ينتفعون به لظلمة جهلهم وكفرهم وقساوة قلوبهم، ومع هذا فأنذر ولا عليك في ذلك شيء فإن من تركى بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي فإنما يتركى لنفسه لا لك ولا لنا، ومن أبى فعليه إياؤه، وإلينا مصير الكل وسنجزى كلاً بما كسب من خير وشر. هذا ما دل عليه قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَاللَّهُ الْمَصِيرُ} (6)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فقر العباد إلى ربهم وحاجتهم إليه وإزالة فقرهم وسد حاجتهم يكون باللجوء إليه والاطراح بين يديه يعبدونه ويسألونه.
- 2- بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة.
- 3- بيان صعوبة الموقف في عرصات القيامة لا سيما عند وضع الميزان ووزن الأعمال.

1 - وازرة صفة لمحنوف أي نفس وازرة وكذا وإن تدع مثقلة أي نفس مثقلة وتزر أصلها توزر فحذت الواو تخفيفاً إذ الفعل وزر يوزر فحذفت الواو كما حذفت وعد يعد ووزن يزن.

2 - وإن تدع مثقلة أي أحدا إلى حملها.

3 - أي المدعو ذا قربي.

4 - قال الفضيل بن عياض هي المرأة تلقى ولدها فتقول يا ولدي ألم يكن بطني لك وعاء، ألم يكن ندي لك سقاء ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول بلى يا أماه فتقول يا بني قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول إليك عني يا أماه فأني بذنبي عنك مشغول.

5 - الجملة مستأنفة بيانياً لأن الحال تستدعي سؤالاً وهو لم يمتأثر المشركون بالإنذار فالجواب إنما يقبل النذارة ويستجيب للمنذر أهل الإيمان والخشية لله تعالى لأنهم أحياء وأما الكافرون فهم أموات وهل يستجيب غير الحي؟ وفي الآية دليل على قوة تأثير الصلاة في تزكية النفوس وتطهير الأرواح.

6 - هذه الجملة تذييل للجملة المذيل بها قبلها وهي قوله تعالى: {ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه} وهي تفيد تقرير البعث والجزاء وهما مما ينكر المشركون كما يفيد التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والتهديد للكافرين أيضاً فإن من صار إلى الله أخذه بذنبه.

(4/348)

4- بيان أن الإنذار والتخويف من عذاب الله لا ينتفع به غير المؤمنين الصالحين.

5- تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.

6- تقرير حقيقة وهي أن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26)

شرح الكلمات:

وما يستوي الأعمى والبصير : أي لا يستويان فكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان.

ولا الظلمات ولا النور : أي لا يستويان فكذلك الكفر والإيمان لا يستويان.

ولا الظل ولا الحرور : أي لا يستويان فكذلك الجنة والنار لا يستويان.

وما يستوي الأحياء ولا الأموات : فكذلك لا يستوي المؤمنون والكافرون.

وما أنت بمسمع من في القبور : أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات.

إن أنت إلا نذير : ما أنت إلا منذر فلا تملك أكثر من الإنذار .
 إنا أرسلناك بالحق : أي بالدين الحق والهدى والكتاب .
 وإن من أمة إلا خلا فيها نذير : أي سلف فيها نبي ينذرها .
 جاءتهم رسلهم بالبينات : أي بالحجج والأدلة الواضحة .
 وبالزبر والكتاب المنير : أي وبالصحف كصحف إبراهيم وبالكتاب المنير كالتوراة والإنجيل .
 فكيف كان نكير : أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك والجواب هو واقع موقعه والحمد لله .

معنى الآيات:

لما تقدم في السياق الكريم أن إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينتفع به إلا المؤمن المقيم للصلاة وأن الكافر المكذب الجاحد لا ينتفع به ذكر تعالى هنا مثلاً للكافر والمؤمن وأنهما لا يستويان فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (1)﴾ فالأعمى الكافر والبصير المؤمن وهما لا يستويان في عقل ولا شرع ﴿وَالظُّلُمَاتُ (2) وَالنُّورُ﴾ أي ولا يستوي الظلمات ولا النور كما لا يستوي الكفر والإيمان ولا الظل ولا الحرور (3)، فبرودة الجو، لا تستوي مع حرارته فكذلك الجنة لا تستوي مع النار، وقوله ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ﴾ أي ولا المؤمنون مع الكافرين كذلك وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (4) هذا شروع في تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل ما يجد في نفسه من إعراض قومه وعدم استجابتهم لدعوته، فأخبره ربه بأنه تعالى قادر على أن يسمع من يشاء إسماعه وذلك لقدرته على خلقه أما أنت أيها الرسول فإنك لا تسمع الأموات وإنما تسمع الأحياء، والكفار شأنهم شأن الأموات في القبور فلا تقدر على إسماعهم ولا يحزنك ذلك فإنك ما أنت إلا نذير، والنذير ينذر ولا يُسأل عن أجابه ومن لم يجبه. وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بهذا الخبر يقرر تعالى رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأنه أرسله بالهدى ودين الحق بشيراً لمن آمن به واتبع هداه بالجنة، ونذيراً لمن كفر به وعصاه

1 - قال القرطبي الكافر والمؤمن والعالم والجاهل .

2 - قيل لا زائدة في كل من قوله تعالى ولا الظل ولا الحرور ولا الأموات واختلف في أيهما يكون بالليل وأيها يكون بالنهار الحرور أو السموم وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ذلك وأن كلاهما يقع في النهار كما يقع في الليل إذ قال صلى الله عليه وسلم: فما تجدون من الحر فمن

سمومها وشدة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها.

3 - قال قطرب أحد أعلام اللغة: الحرور: الحر والظل البرد.

4 - قرأ الجمهور بتنوين بمسمع بكسرة واحدة والمراد بمن في القبور الكفار حيث أمات الكفر قلوبهم أي كما لا تسمع من مات فإنك لا تسمع من مات قلبه بالجهل وظلمة الكفر.

(4/350)

بالنار. وقوله {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} (1)، يخبر تعالى أن رسوله محمداً ليس الرسول الوحيد الذي أرسل في أمة بل إنه ما من أمة من الأمم إلا مضى فيها نذير، فلا يكون إرساله عجباً لكفار قريش إذ هذه سنة الله تعالى في عباده يرسل إليهم من يهديهم إلى نجاتهم وسعادتهم ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم معزياً له مسلياً {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ} فلم (2) يكونوا أول من كذب فقد كذب الذين من قبلهم {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} أي جاءتهم رسلهم بالحجج القواطع والبراهين السواطع، والمعجزات الخوارق، وبالصحف والكتب المنيرة لسبيل الهداية وطريق النجاة والفلاح. ومنهم من آمن ومنهم من كذب وكفر بعد إمهال وإنظار دلّ عليه العطف بثم أخذ الذين كفروا بعذاب ملائم لكفر الكافرين. {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (3) أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة الشديدة والإهلاك التام إنه كان واقعاً موقعه، موافياً لطالبه بكفره وعناده.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- استحسان ضرب الأمثال للكشف عن الحال وزيادة البيان.

2- الكفار عمى لا بصيرة لهم، وأموات لا حياة فيهم، والدليل عدم انتفاعهم بحياتهم ولا بأسماعهم ولا أبصارهم.

3- تقرير نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتأكيد رسالته.

4- تسلية الدعاة ليتدبروا بالصبر ويلتزموا الثبات.

5- بيان سنة الله في المكذبين الكافرين وهي أخذهم عند حلول أجلهم.

وَمِنَ النَّاسِ وَالْذُّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

1 - أي سلف فيها نبي قال ابن جرير إلا العرب. إذا أراد أنه لم يخل فيهم نذير مطلقاً فهذا غير

صحيح إذ بعث فيهم إسماعيل وتبع وغيرهما وإن أراد في الزمن القريب فهذا صحيح.

2 - في الآيات تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة تطلبها المقام حيث أصر المشركون على

تكذيبه وعدم الإيمان بما جاءهم به من الهدى والدين الحق.

3 - استفهام مستعمل في التعجب من حالهم مفرع بالفاء على قوله أخذت الذين كفروا والنكير اسم لشدة الإنكار وهو هنا كناية عن شدة العقاب لأن الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر بالعقاب وحذفت ياء المتكلم في نكيري تخفيفاً ولرعاية الفواصل في الوقف.

(4/351)

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَاجِلِيَّةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (29) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)
شرح الكلمات:

ثمرات مختلفاً ألوانها : أي كأحمر وأخضر وأصفر وأزرق وغيره.
ومن الجبال جدد : أي طرق في الجبال إذ الجدة الطريق ومنه جادة الطريق.
بيض وحمرة مختلف ألوانه : أي طرق وخطط في الجبال ذات ألوان كالجبال أيضاً.
وغرابيب سود (1) : منها الأبيض والأصفر والأسود الغريب.
ومن الناس والدواب والأنعام : فمنها أبيض وهذا أحمر وهذا أسود.
مختلف ألوانه كذلك : أي كاختلاف الثمار والجبال والطرق فيها.
إنما يخشى الله من عباده العلماء : أي العالمين بجلاله وكماله، إذ الخشية متوقفة على معرفة المخشي.

يتلون كتاب الله : أي يقرأونه تعبدًا به.

تجارة لن تبور : أي لن تهلك ولن تضيع بدون ثواب عليها.

غفور شكور : أي غفور لذنوب عباده التائبين شكور لأعمالهم الصالحة.

معنى الآيات:

هذا السياق الكريم {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ (2) مَاءً} في بيان تفاوت المخلوقات واختلافاتها فمن مؤمن إلى كافر، ومن صالح إلى فاسد ومن أبيض إلى أحمر أو أسود وابتدأه تعالى بخطاب رسوله مقررًا له بقوله {أَلَمْ تَرَ} أي ألم تبصر بعينك أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ما بين تمر أصفر وآخر أحمر، وآخر أسود وهذا واضح في التمر

1 - الغريب: الشديد السواد ففي الكلام تقديم وتأخير إذ المعنى ومن الجبال سود غرابيب إذ العرب تقول للأسود شديد السواد كلون الغراب أسود غريب.

2 - من هداية هذه الآية الإشارة الواضحة إلى وجود اختلاف بشري جبلي فطري كما هو في سائر

الكائنات الأرضية، وفي النباتات والحيوانات وحتى الجبال والمعادن ومن عرف عليه هان عليه
اختلاف الناس ولم يحزن له ولم يهتم ويكرب.

(4/352)

والعنب والفواكه والخضر، ومن الجبال كذلك. فإن فيها جدد (1) أي خطط حمراء وصفراء وبيضاء
وسوداء والجبال نفسها كذلك، ومن الناس والدواب والأنعام ففي جميعها الأبيض والأسود والأحمر
والأصفر كما في جدد الجبال نفسها وكما في الثمار. ولما كان هذا لا يدركه إلا المفكرون ولا يجني
منه العبرة إلا العالمون قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى (2) اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} وأهل مكة جهال لا
يفكرون ولا يهتدون فلا غرابة إذا لم يخشوا الله تعالى ولم يوحده ذلك لجهلهم وعدم تفكيرهم.
وقوله تعالى في ختام هذا السياق: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (3) كشف عن حقيقة ينبغي أن يعرفها أهل
مكة المصرون على الكفر والتكذيب وهي أن الله قادر على أخذهم والبطش بهم فإنه عزيز لا يمانع
فيما يريد غفور لذنوب التائبين من عباده ومهما كانت ذنوبهم ألا فليتب أهل مكة فإن توبتهم خير
لهم من إصرارهم على الشرك والكفر والتكذيب إذ في التوبة نجاة، وفي الإصرار هلاك.
وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (4)} وهم المؤمنون {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} أداها أداء وافياً لا
نقص فيه {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} الزكاة والصدقات بحسب الأحوال والظروف سراً أحياناً
وعلانية أخرى. يخبر تعالى عنهم بعدما وصفهم بما شرفهم به من صفات أنهم يرجون تجارة لن
تبور أي لن تهلك ولن تخسر وذلك يوم القيامة وقوله {لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ (5) وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
غَفُورٌ شَكُورٌ} أي هداهم لذلك ووقفهم إليه تعالى ليوفقهم أجورهم ويزيدهم من فضله. وعلة ذلك أنه
غفور لعباده المؤمنين التائبين فيغفر ذنوبهم ويدخلهم جنته شكور لطاعاتهم وصالح أعمالهم فلذا
يضاعف لهم أجورهم ويزيدهم من فضله وله الحمد المنة.

- 1 - الجدد جمع جدّة وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه.
- 2 - في الجملة قصر صفة على موصوف أي قصر صفة الخشية على العلماء دون الجهلة وبهذا
علا شأن العلماء وعظم قدرهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فضل العالم على العابد
كفضلي على أدناكم ثم تلا إنما يخشى الله من عباده العلماء والمراد بالعلماء العالمون بالله أي
بأسماؤه وصفاته ومحابه ومكارهه وما عنده من نعيم لأوليائه وما لديه من عذاب لأعدائه، وآية
العالم الخشية لله والمحبة له تعالى فمن لم يخش الله تعالى فليس بعالم.
- 3 - الجملة تنبيلية مشعرة بغنى الله تعالى عن عباده قدير على أخذهم متى أراد بهم ذلك، ذو مغفرة
لهم متى تابوا إليه وطلبوا مرضاته ولو عرف المشركون هذا ما أصروا على الشرك ولكنهم لا

يعلمون.

- 4 - لما أثنى على العلماء بما وصفهم به من الخشية وكان في الكلام إيجاز أوضحه بهذه الجملة فقال إن الذين يتلون كتاب الله، وما تلا كتاب الله غير مؤمن عالم ولا أقام الصلاة وأنفق سراً وعلانية إلا نو خشية ومحبة بعدما وصفهم وحدهم بشرهم بقوله يرجون تجارة لن تبور.
- 5 - التوفية جعل الشيء وافياً أي تاماً لا نقيصة فيه ولا غبن.

(4/353)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان مظاهر القدرة والعلم الإلهي في اختلاف الألوان والطباع والذوات.
- 2- العلم سبيل الخشية فمن لا علم له بالله فلا خشية له إنما يخشى الله من عباده العلماء.
- 3- فضل تلاوة القرآن الكريم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقات.
- 4- في وصف الله تعالى بالغفور والشكور ترغيب للمذنبين أن يتوبوا، وللعاملين أن يزيدوا.
- وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَاءَتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّطُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

شرح الكلمات:

من الكتاب : أي القرآن الكريم.

مصدقاً لما بين يديه : أي من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

ثم أورثنا الكتاب : أي الكتب التي سبقت القرآن إذ حصلها في القرآن الكريم.

الذين اصطفينا : أي اخترنا المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

(4/354)

فمنهم ظالم لنفسه : بارتكاب الذنوب.

ومنهم مقتصد : مؤد للفرائض مجتنب للكبائر.

ومنهم سابق بالخيرات : مؤد للفرائض والنوافل مجتنب للكبائر والصغائر .

بإذن الله : أي بتوفيقه وهدايته .

ذلك : أي إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير .

ولؤلؤاً : أي أساور من لؤلؤ مرصع بالذهب .

أحلنا دار المقامة : أي الإقامة وهي جنات عدن .

لا يمسننا فيها نصب : أي تعب .

ولا يمسننا فيها لغوب: أي إعياء من التعب، وذلك لعدم التكليف فيها .

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ (1)﴾ أي القرآن الكريم هو {الحَقُّ} أي الواجب عليك وعلى أمتك العمل به لا ما سبقه من الكتب كالنوراة والإنجيل، {مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي أمامه من الكتب السابقة، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (2)﴾ فهو تعالى يعلم أن الكتب السابقة لم تصبح تحمل هداية الله لعباده لما داخلها من التحريف والتغيير فلذا مع علمه بحاجة البشرية إلى وحي سليم يقدم إليها فتكتمل وتسعد عليه متى آمنت به وأخذته نوراً تمشي به في حياتها المادية هذه أرسلك وأوحى إليك هذا الكتاب الكريم وأوجب عليك وعلى أمتك العمل به .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ (3) الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يخبر تعالى أنه أورث أمة الإسلام الكتاب السابق إذ كل ما في النوراة والإنجيل من حق وهدى قد حواه القرآن الكريم فأمة القرآن قد ورثها الله تعالى كل الكتاب الأول . وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (4)﴾ بالتقصير في العمل وارتكاب بعض الكبائر، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للفرائض المجتنب للكبائر،

1 - في الآية الإشادة بالكتاب الذي يتلوه المؤمنون فيثابون ويزادون لأنه الكتاب الحق الخالي من الزيادة والنقص المصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية السابقة وضمن هذا يقرر النبوة المحمدية وإثباتها والإشادة بصاحبها .

2 - الخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية وصاحب هذه الصفة هو الذي يجب أن يعبد ويتقى .

3 - حاول كثير من المفسرين البعد عن الحقيقة التي تضمنتها هذه الآية وهي أن الآية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذ هي التي قال الله تعالى فيها هو اجتنابكم والاجتناب كالاصطفاء والظالم لنفسه لا يكون الكافر ولا المنافق وإنما هو المؤمن يغشى بعض الكبائر وما في التفسير هو الحق فتأمله .

4 - فمنهم: هذه الفاء التفرعية التفصيلية حيث فصل بها مجمل الذين أوتوا الكتاب والبداية بالظالمين لأنفسهم إيماء إلى أنهم غير محرومين من جنات عدن دفعا لمن يتوهم أنهم لما كانوا ظالمين لا يدخلون الجنة .

{وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ} وهو المؤدي للفرائض والنوافل المجتنب للكبائر والصغائر . وقوله: {ذَلِكَ} أي الإبراث للكتاب هو الفضل الإلهي الكبير وهو {جَنَاتُ عَدْنٍ (1) يَدْخُلُونَهَا} يوم القيامة {يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ} جمع سوار ما يجعل في اليد {مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا} أي أساور من لؤلؤ، ولباسهم فيها حرير .

وقوله: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ (2) الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} أي كل الحزن فلا حزن يصيبهم إذ لا موت في الجنة ولا فراق ولا خوف ولا هم ولا كرب فمن أين يأتي الحزن . وقولهم {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} قالوا هذا لأنه تعالى غفر للظالم وشكر للمقتصد عمله فأدخل الجميع الجنة فهو الغفور الشكور حقاً حقاً . وقولهم: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ} أي الإقامة من فضله هذا ثناء منهم على الله تعالى بإفضاله عليهم، وقولهم {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ} أي تعب {وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} أي إعياء من التعب وصف لدار السلام وهي الجنة الخالية من النصب واللغوب جعلنا الله من أهلها .
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب العمل بالقرآن الكريم عقائد وعبادات وآداباً وأخلاقاً وقضاءً وحكماً .
- 2- بيان شرف هذه الأمة، وأنه المرحومة فكل من دخل الإسلام بصدق وأدى الفرائض واجتنب المحارم فهو ناج فائز ومن قصر وظلم نفسه بارتكاب الكبائر ومات ولم يشرك بالله شيئاً فهو آئيل إلى دخول الجنة راجع إليها بإذن الله .
- 3- بيان نعيم أهل الجنة وحلية أهلها وهي الأساور (3) من الذهب واللؤلؤ .
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحَقَّقُ عَنْهُمْ مِنْ

1 - جنات عدن بدل اشتمال من قوله ذلك الفضل الكبير .

2 - لما دخلوا جنات عدن حمدوا الله تعالى وأثنوا عليه وإن قيل كيف دخل الظالم لنفسه الجنة وهو ظالم قلنا هذا الظلم ليس ظلماً لربه بأن عبد غير الله ولا هو ظلم لغيره وإنما ظلم لنفسه بارتكاب بعض الذنوب وهذا غير مانع من دخول الجنة إذ هو وارث بوصفه مؤمناً والجنة تورث والورثة يستوي فيهم البار مع العاق فلا يمنع من الإرث العاق بل يرث كالبار سواء بسواء .

3 - ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء".

عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (39)

شرح الكلمات:

لا يقضى عليهم : أي بالموت فيموتوا ويستريحوا.

كذلك نجزي كل كافر : أي كذلك الجزاء نجزي كل كافر بنا وبآياتنا ولقائنا.

وهم يصطرخون فيها : أي يصيحون بأعلى أصواتهم يطلبون الخروج منها.

يقولون : أي في عويلهم وصراخهم ربنا أخرجنا أي منها نعمل صالحاً.

أو لم نعمركم ما يتذكر فيه: أي وقتاً يتذكر فيه من تذكر.

وجاءكم النذير : أي الرسول فلم تجيبوا وأصررتم على الشرك والمعاصي.

إنه عليم بذات الصدور : أي بما في القلوب من إصرار على الكفر ولو عاش الكافر طوال الحياة.

خلائف في الأرض : يخلف بعضكم بعضاً. والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره.

فعليه كفره : أي وبال كفره.

إلا مقتاً : أي إلا غضباً شديداً عليهم من الله عز وجل.

إلا خساراً : أي في الآخرة إذ يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

معنى الآيات:

بعدما ذكر تعالى جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح ذكر جزاء أهل الكفر والمعاصي فقال:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا(1)} أي بالله وآياته ولقائه {لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ} أي جزاء لهم {وَالَّذِينَ كَفَرُوا(2)} أي بالموت

فيموتوا حتى يستريحوا ولا يخفف عنهم من عذابها ولا طرفة عين. وقوله {كَذَلِكَ} أي الجزاء {نَجْزِي

كُلَّ كَافِرٍ} أي مبالغ في الكفر مكثراً منه. وقوله: {وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ(3)} أي في جهنم أي

يصرخون بأعلى أصواتهم في بكاء وعويل يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا} أي من النار ورددنا إلى الحياة الدنيا

{نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} أي من الشرك والمعاصي. فيقال لهم: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم(4)} أي

أنتظلبون الخروج من النار لتعملوا صالحاً ولم نعمركم أي نطل أعماركم بحيث يتذكر فيها من يريد

أن يتذكر وجاءكم النذير(5) فلم تجيبوه وأصررتم على الشرك والمعاصي، إذأ فذوقوا عذاب النار ﴿قَمًا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي من نصير ينصرهم فيخرجهم من النار. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كل ما غاب في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومن ذلك أنه عليم بما في قلوبكم وما كنتم مصرين عليه من الشرك والشر والفساد ولو عشتم الدهر كله.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (6) أي يخلف بعضكم بعضاً وفي ذلك ما يمكن من العظة والاعتبار إذ العاقل من اعتبر بغيره فقد هلكت قبلكم أمم بذنوبهم فلم لا تتعظون بهم وقد خلفتموهم وجئتم بعدهم إذأ فلا عذر لكم أبداً.

وبعد هذا البيان فمن كفر فعليه كفره هو الذي يتحمل جزاءه، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي بعداً عن الرحمة وبعضاً شديداً، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ﴾ أي المصرين على الكفر كفرهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي هلاكاً في الآخرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان مَرَّ العذاب وأليمه الذي هو جزاء الكافرين.

2- الإعذار لمن بلغه الله من العمر أربعين سنة.

1 - قال القرطبي لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقاتلهم ذكر أهل النار وأحوالهم ومقاتلهم.

2 - هذا كقوله تعالى: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ من سورة الأعلى.

3 - يصطرخون مبالغة في يصرخون افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد أي يصيحون من شدة ما أصابهم.

4 - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والواو عاطفة قولاً محذوفاً تقديره يقولون ربنا أخرجنا ونقول ألم نعلمكم والتعمير تطويل العمر.

5 - هل النذير القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم أو الشيب قال الشاعر:

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا

لصاحبه وحسبك من نذير.

وما في التفسير أصح.

6 - أي خلفاً بعد خلف وقرناً بعد قرن، والخلف هو التالي للمتقدم.

1- الكافر يعذب أبدا لعلم الله تعالى به وأنه لو عاش آلاف السنين ما أفلح عن كفره ولا حاول أن يتوب منه فلذا يعذب أبداً.

2- في كون البشرية أجيالا جيلا يذهب وآخر يأتي مجال للعظة والعبرة والعاقلة من اعبر بغيره.

3- الاستمرار على الكفر لا يزيد صاحبه إلا بعداً عن الرحمة ومقتاً عند الله تعالى والمقت أشد الغضب.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)

شرح الكلمات:

قل أرايتم : أي أخبروني

تدعون من دون الله : أي تعبدون من غير الله وهي الأصنام.

أروني ما ذا خلقوا : أي أخبروني ماذا خلقوا من الأرض أي جزء منها خلقوه.

أم لهم شرك : أي لهم شركة في خلق السموات.

إلا في غروراً : أي باطلاً إذ قالوا إنها آلهتنا تشفع لنا عند الله يوم القيامة وتقربنا

(4/359)

إلى الله زلفى.

يمسك السموات والأرض أن تزولا : أي يمنعها من الزوال.

إن أمسكها من أحد من بعده : أي ولو زالتا ما أمسكها أحد من بعده لعجزه عن ذلك.

إنه كان حليماً غفوراً : أي حليماً لا يعجل بالعقوبة غفوراً لمن ندم واستغفر.

لئن جاءهم نذير : أي رسول.

من إحدى الأمم : أي اليهود والنصارى.

فلما جاءهم نذير : أي محمد صلى الله عليه وسلم.

ما زادهم إلا نفوراً : أي مجيئه إلا تباعداً عن الهدى ونفرة منه.

ومكر السيء : أي الشرك والمعاصي.

ولا يحيق المكر السيء : أي ولا يحيط إلا بأهله العاملين له.

سنة الأولين : أي سنة الله فيهم وهي تعذيبهم بكفرهم وإصرارهم عليه.

ولن تجد لسنة الله تبديلاً : أي فلا يبدل العذاب بغيره.

ولن تجد لسنة الله تحويلاً: أي تحويل العذاب عن مستحقه إلى غير مستحقه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد فقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل للمشركين من قومك: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ (1) الَّذِينَ تَدْعُونَ} أي تعبدون من دون الله أخبروني: ماذا خلقوا من الأرض حتى استحقوا العبادة مع الله فعبدتموهم معه؟ أم لهم شرك (2) في السموات بأن خلقوا جزءاً وملكوه بالشركة. والجواب قطعاً لم يخلقوا شيئاً من الأرض وليس لهم في خلق السموات شركة أيضاً إذاً فكيف عبدتموهم مع الله؟ وقوله تعالى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ} أي أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً يبيح لهم الشرك ويأذن لهم فيه فهم لذلك على بينة بصحة الشرك. والجواب ومن أين لهم هذا الكتاب الذي يبيح لهم الشرك؟ بل إن يعد (3) الظالمون بعضهم بعضاً {إِلَّا غُرُوراً} أي باطلاً إذ الحقيقة أن المشركين لم يكن لهم كتاب يحتجون به على صحة الشرك،

1 - هذا شروع في بطلان الشرك وتحقيق التوحيد بالأسلوب العقلي والاستفهام تقرير في قوله أَرَأَيْتُمْ شركاءكم أروني أي أروني شيئاً خلقوه من الأرض.

2 - الشرك اسم للنصيب المشترك به في ملك الشيء، والمعنى أ لهم شرك مع الله في ملك

السموات وتصريف أحوالها كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

3 - إن نافية بمعنى "ما" بقرينة الاستثناء والغرور الأباطيل تغرو وهي قول السادة للسفلة إن هذه

الآلهة تنفعكم وتقربكم وتشفع لكم كما أن الشياطين توحى لهم بذلك من طريق الوسوسة.

(4/360)

وإنما هو أن الظالمين وهم المشركون ما يعد بعضهم بعضاً وهو أن الآلهة ستشفع لنا وتقربنا إلى الله

زلفى إلا غروراً وباطلاً فالرؤساء غرّوا المرعوسين وكذبوا عليهم بأن الآلهة تشفع لهم عند الله وتقربهم

منه زلفى فلهذا عبدوها من دون الله وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ (1) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا}

يخبر تعالى عن عظيم قدرته ولطفه بعباده، ورحمته بهم وهي أنه تعالى يمسك السموات السبع

والأرض أن تزولا أي تتحولا عن أماكنهما، إذ لو زالتا لخرب العالم في لحظات، وقوله: {وَلَوْ لِنَ زَالَتَا}

أي ولو زالتا {إِنْ (2) أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ} أي لا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه وتعالى،

وقوله إن كان حليماً غفوراً إذ حلمه هو الذي غرّ الناس فعصوه، ولم يطيعوه، وأشركوا به ولم يوحدوه

ومغفرته هي التي دعت الناس إلى التوبة إليه، والإنابة إلى توحيدته وعبادته.

وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (42) {وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيحَادَى الْأُمَمِ} يخبر تعالى عن المشركين العرب بأنهم في يوم من الأيام كانوا يحلفون بالله جهد أيمانهم أي غاية اجتهادهم فيها لئن جاءهم رسول يرشدهم ويعلمهم لكانوا أهدى أي أعظم هداية من إحدى الطائفتين اليهود والنصارى. هكذا كانوا يحلفون ولما جاءهم نذير (3) أي الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ما زادهم مجيئه {إِلَّا نُفُورًا} أي بعداً عن الدين ونفرة منه، واستكباراً في الأرض، ومكر السيء الذي هو عمل الشرك والظلم والمعاصي.

وقوله تعالى {وَلَا يَحِيقُ} (4) الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} إخبار منه تعالى بحقيقة جهلها الناس وهي أن عاقبة المكر السيء تعود على الماكرين بأسوأ العقاب وأشد العذاب وقوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ} أي ينتظرون وهم مصررون على المكر السيء وهو الشرك ومحاربة الرسول وأذية المؤمنين. إلا سنة الأولين وهي إهلاك الماكرين الظالمين {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ} أيها (5)

- 1 - لما بين لهم عجز آلهتهم وعدم قدرتها على خلق شيء في السموات والأرض بين لهم أن خالقها وممسكها هو الله فلا يوجد شيء إلا بإيجاده ولا يبقى شيء إلا بإيقائه.
- 2 - إن نافية بمعنى ما أي ما أمسكهما أحد سواه.
- 3 - هذا كان منهم قبل البعثة النبوية فقد بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فلعنوا من كذب نبيه منهم وأقسموا بالله جل اسمه لئن جاءهم نذير أي نبي ليكونن أهدى من إحدى الأمم يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب وكانوا يتمنون أن يكون منهم رسول فلما جاءهم ما تمنوه نفروا عنه ولم يؤمنوا به.
- 4 - حاق به: أحاط والحق الإحاطة روي أن كعباً قال لابن عباس إني أجد في التوراة: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. فقال ابن عباس فإني وجدت في القرآن ذلك قال وأين؟ قال اقرأ {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} ومن أمثال العرب: من حفر لأخيه جياً وقع فيه منكباً" وجملة لا يحيق المكر السيء إلا بأهله تذييل لما سبق وتحمل موعظة.
- 5 - السنة الطريقة والجمع سنن.

(4/361)

الرسول {تَبْدِيلًا} بَأَن يَتَبَدَّلَ الْعَذَابُ بِغَيْرِهِ بِالرَّحْمَةِ مِثْلًا {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} بَأَن يَتَحَوَّلَ الْعَذَابُ عَنِ مَسْتَحَقِّهِ إِلَى غَيْرِ مَسْتَحَقِّهِ إِذَا فُلِيَ عَاجِلُ قَوْمِكَ الْوَقْتِ بِالتَّوْبَةِ وَإِلَّا فَهِيَ عَرْضَةٌ لِأَن تَمْضِي فِيهِمْ سَنَةٌ اللَّهُ بِعَذَابِهِمْ.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتتديد.
- 2- بيان أن المشركين لا دليل لهم على صحة الشرك لا من عقل ولا من كتاب.
- 3- بيان قدرة الله ولطفه بعباده ورحمته بهم في إمساك السموات والأرض عن الزوال.
- 4- بيان كذب المشركين، ورجوعهم عما كانوا يتقالونه بينهم من أنه لو أرسل إليهم رسول لكانوا أهدى من اليهود أو النصارى.

5- تقرير حقيقة وهي أن المكر (1) السيء عائد على أهله لا على غيرهم وفي هذا يرى أن ثلاثة على أهلها

رواجع، وهي المكر السيء، والبغي، والنكث لقوله تعالى {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ} وقوله {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ} وقوله {وَلَا يَحْبِقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.
أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُولُؤُا خِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)

1 - المكر إخفاء الأذى وهو سيء لأنه غدر وخديعة.

(4/362)

شرح الكلمات:

وكانوا أشد منهم قوة : أي وأهلكهم الله تعالى بتكذيبهم رسلهم.
وما كان الله ليعجزه من شيء : أي ليسبقه ويفوته فلم يتمكن منه.
إنه كان عليماً قديراً : أي عليماً بالأشياء كلها قديراً عليها كلها.
بما كسبوا : أي من الذنوب والمعاصي.
ما ترك على ظهرها : أي ظهر الأرض من دابة نسمة تدب على الأرض وهي كل ذي روح.
إلى أجل مسمى : أي يوم القيامة.
فإن الله كان بعباده بصيراً : فيحاسبهم ويجزيهم بحسب كسبهم خيراً كان أو شراً.
معنى الآيات:

لما هدد الله المشركين بامضاء سنته فيهم وهي تعذيب وإهلاك المكذبين إذا أصروا على التكذيب ولم

يتوبوا. قال ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي المشركون المكذبون لرسولنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ شمالاً وجنوباً ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم صالح وقوم هود، إنها كانت دماراً وخساراً ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ (1) قُوَّةً﴾ أي من هؤلاء المشركين اليوم قوة وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ (2) مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لم يكن ليعجز الله شيء فيفوت الله ويهرب منه ولا يقدر عليه بل إنه غالب لكل شيء وقاهر له وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ تقرير لقدرته وعجز كل شيء أمامه، فإن العليم القدير لا يعجزه شيء بالاختفاء والتستر، ولا بالمقاومة والهرب.

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهي الآية (3) الأخيرة من هذا السياق (45) أي ولو كان الله يؤاخذ الناس بذنوبهم فكل من أذنب ذنباً انتقم منه فأهلكه ما ترك على ظهر الأرض من نسمة ذات روح تدب على وجه الأرض، ولكنه تعالى يؤخر الظالمين ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (4) أي معين الوقت محده إن كان في الدنيا ففي الدنيا، وإن كان يوم القيامة ففي القيامة. وقوله:

- 1 - الجملة في محل نصب حالية أي كان عاقبتهم الاضمحلال وكانوا أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب.
- 2 - أي هبكم أنكم أقوى ممن كان قبلكم وأشد حيلة وتصرفاً في الحياة فإن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وذلك لعلمه وقدرته، إذاً فلا مهرب لكم منه إذا أراد إهلاككم.
- 3 - قال ابن مسعود، يريد جميع الحيوان مما دبّ ودرج وقال قتادة وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام: قال ابن جرير هنا الناس وحدهم وهو كذلك.
- 4 - قال مقاتل الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ وقيل هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين إذ يوم القيامة مكتوب في اللوح المحفوظ.

(4/363)

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ (1) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ يخبر بأنه إذا جاء أجل الظالمين فإنه تعالى بصير بهم لا يخفي عليه منهم أحد فيهلكهم ولا يبقى منهم أحد لكامل علمه وعظيم قدرته، ألا فليتنق الله الظالمون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية السير في الأرض للعبارة لا للتنزه واللهو واللعب.
- 2- بيان أن الله لا يعجزه شيء وذلك لعلمه وقدرته وهي حال توجب الترهيب منه تعالى والإنابة

إليه.

3- حرمة استعجال العذاب فإن لكل شيء أجلاً ووقتاً معيناً لا يتم قبله فلا معنى للاستعجال بحال.

(4/364)

سورة يس

...

سورة يس (2)

مكية

وآياتها ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)
لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى

1 - قوله فإن الله كان بعباده بصيراً هو كالجواب لمن قال وكيف يهلك كل من في الأرض فيهم
الصالحون والمؤمنون فقال إنه كان بعباده بصيراً فقد ينجي من لا يستحق الهلاك ويهلك من
يستحقه.

2 - ورد في فضل هذه السورة حديث أبي داود عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: "اقرأوا يس على موتاكم" ورود عن أبي الدرداء أو أم الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم
قال: "ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هون الله عليه"، وأخرج الدارمي عن أبي هريرة عنه صلى
الله عليه وسلم: "من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة" وخرجه الحافظ أبو
نعيم أيضاً.

(4/364)

الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي

إِمَامٌ مُبِينٌ (12)

شرح الكلمات:

يس : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا يس، ويقرأ هكذا ياسين والله أعلم بمراده به.
والقرآن الحكيم : أي ذي الحكمة إذ وضع القرآن كل شيء في موضعه فهو لذلك حكيم ومحكم أيضا
بعجيب النظم وبيد المعاني.

إنك لمن المرسلين : أي يا محمد من جملة الرسل الذين أرسلناهم إلى أقوامهم.

على صراط مستقيم : أي طريق مستقيم الذي هو الإسلام.

تنزيل العزيز الرحيم : أي القرآن (1) تنزيل العزيز في انتقامه ممن كفر به الرحيم بمن تاب إليه.

ما أنذر آباؤهم : أي لم ينذر آباؤهم إذ لم يأتهم رسول من فترة طويلة.

فهم غافلون : أي لا يدرون عاقبة ما هم فيه من الكفر والضلال، ولا يعرفون ما ينجيهم من ذلك
وهو الإيمان وصالح الأعمال.

لقد حق القول على أكثرهم: أي وجب عليهم العذاب فلذا هم لا يؤمنون.

إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا : أي جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالأغلال.

فهي إلى الأذقان : أي أيديهم مجموعة إلى أذقانهم، والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين.

فهم مقمحون : أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، فلذا هم لا يكسبون بأيديهم خيرا، ولا
يذعنون برؤوسهم إلى حق.

1 - هذا على قراءة أهل المدينة وهي رفع تنزيل. أما على قراءة النصب فالتقدير أقرأ تنزيل العزيز
الرحيم أو أمدح تنزيل.

(4/365)

فأغشيناهم فهم لا يبصرون : أي جعلنا على أبصارهم غشاوة فهم لذلك لا يبصرون.

وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون: أي استوى إنذارك لهم وعدمه في عدم إيمانهم.

من اتبع الذكر : القرآن.

وأجر كريم : أي بالجنة دار النعيم والسلام.

إنا نحن نحيي الموتى : أي نحن ربّ العزة نحيي الموتى للبعث والجزاء.

ونكتب ما قدموا وآثارهم (1) : أي ما عملوه من خير وشر لنحاسبهم، وآثارهم أي خطاهم إلى

المساجد وما استنن به أحد من بعدهم.

في إمام مبین : أي في اللوح المحفوظ.

معنى الآيات:

{يس} الله أعلم (2) بمراده به {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (3)} أي المحكم نظماً ومعنى وذو الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه أقسم تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيي ورسولي فقال {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الذي هو الإسلام. وقوله {تَنْزِيلَ (4)} الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي هذا القرآن هو تنزيل الله {الْعَزِيزِ} في الانتقام ممن كفر به وكذب رسوله {الرَّحِيمِ} بأوليائه وصالحى عباده. وقوله {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ} أي أرسلناك وأنزلنا إليك الكتاب لأجل أن تنذر قوماً ما أنذر آباؤهم من فترة طويلة وهم مشركو العرب إذ لم يأتهم رسول من بعد إسماعيل عليه السلام {فَهُمْ غَافِلُونَ} أي لا يدرون عاقبة ما هم عليه من الشرك والشر والفساد، ومعنى تنذرتهم تخوفهم عذاب الله تعالى المترتب على الشرك والمعاصي.

وقوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} أي أكثر خصوم النبي صلى الله عليه وسلم من كفار قريش كأبي جهل حق عليهم القول الذي هو قوله تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} فوجب لهم العذاب فلذا هم لا يؤمنون إذ لو آمنوا لما عذبوا، وعدم إيمانهم لم يكن مفروضاً عليهم

1 - وهم بعض فقال هذه الآية نزلت بالمدينة في بني سلمة والصحيح أن السورة كلها مكي وليس فيها مدني وإنما قرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآية محتجا بها على بني سلمة لما أرادوا النزول قرب المسجد فقال لهم بني سلمة دياركم تكتب آثاركم. وقرأ هذه الآية، ونكتب ما قدموا وآثارهم.

2 - كره مالك رحمه الله تعالى التسمية ببس وهو كذلك لعدم علمنا بالمراد منه وليس هو باسم للنبي صلى الله عليه وسلم إذ ذكر أسماءه الخمسة ولم يذكر بينها يس ولا حجة في قول الرافضي:

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة

على المودة إلا آل ياسين

3 - والقرآن الواو للقسم والقرآن مقسم به وجواب القسم: إنك لمن المرسلين وعلى صراط مستقيم خبر ثان لأن.

4 - قرأ نافع والجمهور تنزيل بالرفع على أنه خبر محذوف المبتدأ أي هو تنزيل والضمير عائد على القرآن المقسم به وقرأ حفص تنزيل بالنصب على المصدرية أو على تقدير أعني أو أخص فيكون مدحاً وإشادة بشأنه وهو أليق.

(4/366)

وإنما هو باختيارهم وحرية إرادتهم إذ لو كان جبراً لما استحقوا العذاب عليه. وقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ} أي أيديهم {إِلَى الْأُنْثُقَانِ} مشدودة بالأغلال {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} أي رافعو

رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، وهذا تمثيل لحالهم في عدم مدّ أيديهم للإِنفاق في الخير، وعدم إذعان رؤوسهم لقبول الحق (1) وقوله {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} وهذا تمثيل آخر لحالهم وهي أنهم زينت لهم الحياة الدنيا فأصبحوا لا يرون غيرها فهو سد أمامهم مانع لهم من الإيمان وترك الشرك والمعاصي، وصورت لهم الآخرة بصورة باطلة مستحيلة الوقوع فكان ذلك سداً من خلفهم فهم لذلك لا يتوبون ولا يذكرون لعدم خوفهم من عذاب الآخرة وقوله تعالى {فَأَغْشَيْنَاهُمْ} هذا مبالغة في إضلالهم فجعل على أعينهم غشاوة من كره الرسول صلى الله عليه وسلم وبغض ما جاء به من فهم لذلك عمى لا يبصرون. وقوله تعالى {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ (2) أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} هذا إخبار منه تعالى بأن هذه المجموعة من خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم من أكابر مجرمي مكة استوى فيهم الإنذار النبوي وعدمه فهم لا يؤمنون فكأن الله تعالى يقول لرسوله إن هؤلاء العتاة من خصومك إنذارك لهم لا ينفعهم فأنذر الذين ينفعهم إنذارك ودع من سواهم وهو قوله تعالى {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} أي القرآن {وَوَحَّشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} أي خافه فلم يعصه وهو لا يراه، كما لم يعصه عندما يخلو بنفسه ولا يراه غيره فمثل هذا بشره بمغفرة منا لذنوبه وأجر كريم على صالح عمله وهو الجنة دار المتقين وقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} أي للبعث والجزاء {وَتُكْتَبُ مَا قَدَّمُوا} أي أولئك الأموات أيام حياتهم من خير وشر، {وَأَثَرَهُمْ} أي ونكتب آثارهم وهو ما استن به (3) من سننهم الحسنة أو السيئة. {وَكُلُّ شَيْءٍ} أي من أعمال العباد وغيرها {فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} وهو اللوح المحفوظ، وسنجزى كلاً بما عمل. وفي هذا الخطاب تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

1 - وجائز أن يكون هذا بيان لحالهم في النار يوم القيامة ولكن ما في التفسير أولى وأحق والسياق يؤكد.

2 - أنذرتهم أصل الهمزة الاستفهام ولكنها هنا للتسوية متمحضة لها.

3 - شاهده حديث مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم "من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" وكذا حديثه الآخر: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده.

(4/367)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية وتأكيد رسالته صلى الله عليه وسلم.
- 2- بيان الحكمة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب الكريم.
- 3- بيان أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بعث على فترة من الرسل.
- 4- بيان أن حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة وعدم الالتفات إليها يضعان الإنسان بين حاجزين لا يستطيع تجاوزهما والتخلص منهما.
- 5- بيان أن الذنوب تقيد صاحبها وتحول بينه وبين فعل الخير أو قبول الحق.
- 6- بيان أن من سن سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده يجزى بها كما يجزى على عمله الذي باشره بيده.

7- تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن كل شيء في كتاب المقادير المعبر عنه بالإمام. ومعنى المييين أي أن ما كتب فيه بين واضح لا يجهل منه شيء.

واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (13) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (14) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (15) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (16) وما علينا إلا البلاغ المبين (17) قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لفتنة فمن أنتم قالوا طائرتكم منا عذاب أليم (18) قالوا طائرتكم معكم أن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون (19)

شرح الكلمات :

واضرب لهم مثلاً : أي واجعل لهم مثلاً.

أصحاب القرية : أي أنطاكية عاصمة بلاد يقال لها العواصم بأرض الروم.

(4/368)

إذا جاءها المرسلون : أي رسل عيسى عليه السلام.

فززنا بثالث : أي قوينا أمر الرسولين ودعوتهما برسول ثالث وهو حبيب النجار.

وما علينا إلا البلاغ المبين : أي التبليغ الظاهر البين بالأدلة الواضحة وهي إبراء الأكمه والأبرص والمريض وإحياء الموتى.

إنا تطيرنا بكم : أي تشاءمنا بكم وذلك لانقطاع المطر عنا بسببكم.

قالوا طائرتكم معكم : أي شؤمكم معكم وهو كفركم بربكم.

أن ذكرتم : أ وعظتم وخوفتم تطيرتم وهذا توبيخ لهم.

بل أنتم قوم مسرفون : أي متجاوزون للحد في الشرك والكفر.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا (1)} أي واضرب أيها الرسول لقومك المصرين على الشرك والتكذيب لك ولما جنتهم به من الهدى ودين الحق {مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ} فإن حالهم في التكذيب والغلو في الكفر والعناد كحال هؤلاء. إذ جاءها المرسلون وهم رسل عيسى (2) عليه السلام إذ بعث برسولين ثم لما آذوهما بالضرب والسجن بعث بشمعون الصفي رأس الحواريين تعزيزاً لموقفهما كما قال تعالى {فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} (3)، فقالوا لأهل أنطاكية (4) {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} من قبل عيسى عليه السلام ندعوكم إلى عبادة الرحمن وترك عبادة الأوثان ف {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} أي ما أنتم إلا تكذبون علينا في دعوكم أنكم رسل إلينا فقال الرسل {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} فواجهوا شك القوم فيهم بما يدفع الشك من القسم وتأكيد الخبر بالجملة الاسمية ولام التوكيد فقالوا: {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} أي البين الواضح فإن قبلتم ما دعوناكم إليه فذلك حظكم من الخير والنجاة وإن أبيتم فذلك حظكم من الهلاك والخسار. ورد أهل أنطاكية على الرسل قائلين: {إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ} أي تشاءمنا (5) بكم حيث انقطع المطر بسببكم* فرد عليهم المرسلون بقولهم {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي شؤمكم في كفركم وتكذيبكم، ولذ حبس الله عنكم المطر

- 1 - اضرب أي اجعل والمثل للتشبيه والمعنى اجعل أصحاب القرية والمرسلين إليهم شبيهاً لأهل مكة وإرسالك إليهم.
 - 2 - كان هذا بعد رفع عيسى إلا أنه كان بإذن الله تعالى فلذا قال تعالى أرسلنا إليهم.
 - 3 - قرئ عززنا بالتخفيف والمعنى واحد.
 - 4 - كان أهل أنطاكية من اليهود ومن اليونان.
 - 5 - وجائز أن يكون قد حدث بينهم تشاجر وتشاحن نتيجة قبول الدعوة من أفراد منهم فحصل بينهم شجار وخلاف لم يألوه فقالوا ما قالوا متشائمين، وفي الحديث: لا عدوى ولا طيرة وإنما الطيرة على من تطير.
- * لئن لم تنتهوا من دعوكم بأنكم رسل إلينا بترك آلهتنا لنرجمنكم بالحجارة ولیمسنكم منا عذاب أليم.

(4/369)

عليكم. ثم قالوا لهم موبخين لهم: {أَلَنْ ذُكِّرْتُمُ (1)} أي وعظمتم وخوفتم بالله لعلمكم تتقون تطيرتم. بل أنتم أيها القوم {مُسْرِفُونَ} أي متجاوزون الحد في الكفر والشرك والعدوان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- استحسان ضرب المثل وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما هنا في قصة حبيب بن النجار.

2- تشابه الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.

3- لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.

4- حرمة التطير والتشاؤم في الإسلام.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذَا أَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

شرح الكلمات:

وجاء رجل : أي حبيب بن النجار صاحب يس(2).

من أقصى المدينة : أي من أقصا دور المدينة وهي أنطاكيا العاصمة.

1 - الاستفهام إنكاري وبل للإضراب الانتقالي أضرب عن دعواهم لبطلانها وانتقل بهم إلى الحقيقة وهي إسرافهم في الشرك والشر والفساد.

2 - ما جاء في التفسير من كون الرسل هم رسل عيسى عليه السلام، وأن القرية هي أنطاكية - هو ما عليه أكثر المفسرين مثل قتادة وابن جرير وغيرهما، إلا أن ابن كثير رحمه الله تعالى رجح أن الرسل رسل من الله تعالى، وأن القرية ليست أنطاكية، وحجته فيما رآه أن الله تعالى لم يهلك أمة بعد نزول التوراة، وهذه القرية أهلك أهلها. وهذه غفلة منه رحمه الله تعالى إذ أهلك الله أهل قرية كانت حاضرة البحر، ومسح أهلها قردة وخنازير على عهد داود بعد نزول التوراة بقرن وإنما رفع هلاك العامة بعد بعثة النبي محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

(4/370)

يسعى : أي يشند مسرعا لما بلغه أن أهل البلد عزموا على قتل رسل عيسى الثالثة.

قال يا قوم اتبعوا المرسلين : أي رسل عيسى عليه السلام.

اتبعوا من لا يسألكم أجراً : اتبعوا من لا يطلبكم أجراً على إبلاغ دعوة الحق.

وهم مهتدون : أي الرسل إنهم على هداية من ربهم ما هم بكذابين .
فطرنى : أي خلقتني .

إن يردن الرحمن بضر : أي بمرض ونحوه .

ولا ينقذون : أي مما أراد الله لي من ضر في جسمي وغيره .

إني إذا لفي ضلال مبين : أي إن إذا اتخذت من دون الله آلهة أعبدتها لفي ضلال مبين .

إني آمنت بربكم فاسمعون : أي صارع قومه بهذا القوم وقتلوه .

قيل ادخل الجنة : قالت له الملائكة عند الموت ادخل الجنة .

يا ليت قومي يعلمون : قال هذا لما شاهد مقعده في الجنة .

بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين : وهو الإيمان والتوحيد والصبر على ذلك .

معنى الآيات:

ما زال السياق في مثل أصحاب القرية إنه بعد أن تعزز موقف الرسل الثلاثة وأعطاهم الله من الكرامات ما أبرأوا به المرضى بل وأحبوا الموتى بإذن الله وأصبح لهم أتباع مؤمنون غضب رؤساء البلاد وأرادوا أن يبطشوا بالرسل، وبلغ ذلك حبيب بن النجار وكان شيخاً مؤمناً موحداً يسكن في طرف المدينة الأقصى فجاء يشدد سعياً على قدميه فأمر ونهى وصارح القوم بإيمانه وتوحيده فقتلوه رفساً بأرجلهم قال تعالى {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ} - أنطاكية - {رَجُلٌ يَسْعَى (1)} أي يمشي بسرعة لما بلغه من أن أهل البلاد قد عزموا على قتل الرسل الثلاثة وما إن وصل إلى الجماهير الهائجة حتى قال بأعلى صوته: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (2)} وسأل الرسل هل طلبتم على إبلاغكم

1 - هذا الرجل هو حبيب بن النجار صاحب ياسين كما في الحديث والرجل كان مصاباً بالجذام سنين وشفاه الله تعالى على يد رسل عيسى وبذلك آمن وأسلم وبقي في أرض أنطاكية يعبد الله تعالى حتى بلغه هم أهل المدينة بالبطش بالرسل جاء مسرعاً لينفذ دعوتهم ويدعوا إلى الله تعالى بما أخبر به تعالى في هذه الآيات .

2 - المراد بالمرسلين رسل عيسى الذين أرسلهم بالوصية إليهم إلى أنطاكية من بينهم شمعون الذي عزز به الرسولين قبله .

(4/371)

دعوة عيسى أجراً قالوا لا . فقال {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فاتبعوهم تهتدوا بهدايتهم . وقال له القوم وأنت تعبد الله مثلهم ولا تعبد آلهتنا؟ فقال: {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} أي وأيّ شيء يجعلني لا أعبده وهو خلقتني {وَالَّذِي تَرْجَعُونَ} أي بعد موتكم فيحاسبكم ويجزيكم بعملكم . ثم

اغتمت الفرصة ليدعوا إلى ربه فقال مستقهما ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي أصناماً وأوثاناً لا تسمع ولا تبصر ﴿إِنْ يُرِدْنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ (1) وإن قلّ ولا ينفقون مما أراده بي من ضر ونحوه ﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (2) أي إني إذا عبدت هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لفي ضلال مبين واضح لا يحتاج إلى دليل عليه. ورفع صوته مبلغاً ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي بخالقكم ورازقكم ومالك أمركم دون هذه الأصنام والأوثان ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ وهنا وثبوا عليه فقتلوه. ولما قيل له ادخل الجنة ورأى نعيمها ذكر قومه ناصحاً لهم فقال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي (3) رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (4) أي يعلمون بما غفر له وجعله من المكرمين وهو الإيمان والتوحيد حتى يؤمنوا ويوحدوا فنصح قومه حياً وميتاً وهذا شأن المسلم الحسن الإسلام والمؤمن الصادق الإيمان ينصح ولا يغش ويرشد ولا يضل ومهما قالوا له وفيه ومهما عاملوه به من شدة وقسوة حتى الموت قتلًا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان كرامة حبيب بن النجار الذي نصح قومه حياً وميتاً.
- 2- بيان ما يلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.
- 3- وجوب إبلاغ دعوة الحق والتنديد بالشرك ومهما كان العذاب قاسياً.
- 4- بشرى المؤمن عند الموت لا سيما الشهيد فإنه يرى الجنة رأي العين.

- 1 - إن يردن ولا يغن ولا ينفقون، فاسمعون حذف منها كلها ياء المتكلم مراعاة للتخفيف ولظهورها وعدم اللبس مع حذفها، وجملة إن يردن في محل نصب نعت.
- 2 - إن إذا لفي ضلال مبين الجملة جواب للاستفهام الإنكاري في قوله أأتخذ من دونه آلهة أي إن اتخذت من دون الله آلهة إني في ضلال مبين.
- 3 - بما غفر: ما مصدرية تسبك بمصدر نحو بمغفرة ربي لي.
- 4 - من المكرمين الملائكة والأنبياء والشهداء والصالحين.

(4/372)

الجزء الثالث والعشرون

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

شرح الكلمات:

وما أنزلنا على قومه : أي على قوم حبيب بن النجار وهم أهل أنطاكية.

من بعده : أي من بعد موته.

من جند من السماء : أي من الملائكة لإهلاكهم.

وما كنا منزلين : أي الملائكة لإهلاك الأمم التي استوجبت الهلاك.

إن كانت إلا صيحة واحدة : أي ما هي إلا صيحة واحدة وهي صيحة جبريل عليه السلام.

فإذا هم خامدون : أي ساكنون لا حراك لهم ميتون.

يا حسرة على العباد : أي يا حسرة العباد هذا أوان حضورك فاحضري وهذا غاية التآلم. والعباد هم المكذبون للرسول الكافرون بتوحيد الله.

ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون: هذا سبب التحسر عليهم.

ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون : أي ألم ير أهل مكة المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم.

وإن كل لما جميع لدينا محضرون : أي وإن كل الخلائق إلا لدينا محضرون يوم القيامة لحسابهم

ومجازاتهم.

(4/373)

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ} أي (1) قوم حبيب بن النجار {مِنْ بَعْدِهِ} أي بعد موته {مَنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} للانتقام من قومه الذين قتلوه لأنه أنكر عليهم الشرك ودعاهم إلى التوحيد وما كنا منزلين إذ لا حاجة تدعو إلى ذلك. إن كانت إلا صيحة واحدة من جبريل (2) عليه السلام فإذا هم خامدون أي هلكى ساكنون ميتون لا حراك لهم ولا حياة فيهم وقوله تعالى {يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ} أي يا حسرة العباد (3) على أنفسهم احضري أيتها الحسرة (4) هذا أوان حضورك {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ} (5) {يَسْتَهْزِئُونَ} هذا موجب الحسرة ومقتضاها وهو استهزاؤهم بالرسول. وقوله تعالى {أَلَمْ يَرَوْا} أي أهل مكة {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ} أي ألم يعلموا القرون الكثيرة التي أهلكناها قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب مدين، {أَنْتَهُمْ إِلَيْهِمْ} لا يَرْجِعُونَ} فيكون هذا هاديا لهم واعظاً فيؤمنوا ويوحدوا فينجوا من العذاب ويسعدوا. وقوله تعالى {وَأِنْ كُلُّ} (6) أي من الأمم الهالكة وغيرها من سائر العباد {لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} أي إلا لدينا محضرون لفصل القضاء يوم القيامة فينجو المؤمنون ويهلك الكافرون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل أنطاكية بصيحة واحدة.
- 2- إبداء التحسر على العباد من أنفسهم إذ هم الظالمون المكذبون فالحسرة منهم وعليهم.
- 3- حرمة الاستهزاء بما هو من حرمة الله تعالى التي يجب تعظيمها.
- 4- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقلة من اعتبر بغيره.
- 5- تقرير المعاد والحساب والجزاء.

- 1 - هذا تابع لقصة حبيب بن النجار صاحب ياسين والجملة معطوفة على جملة قيل ادخل الجنة.
- 2 - كون جبريل هو الذي صاح فيهم وورد عند أهل التفسير فإن ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وجب الإيمان به وإلا فلا يجب ولا يلزم الإيمان به إذ جائز أن يكون ملكاً آخر غير جبريل.
- 3 - العباد جمع عبد من عباد الله تعالى والعبيد جمع عبد مملوك للناس.
- 4 - الحسرة شدة الندم مشوباً بتلهف على نفع فائت.
- 5 - الاستثناء مفرغ من أحوال عامة من الضمير في "يأتيهم" أي لا يأتيهم رسول في حال من أحوالهم إلا استهزأوا به.
- 6 - قرأ نافع وإن كل لما بتخفيف الميم وشددها حفص فعلى تخفيفها تكون إن مخففة من الثقيلة واللام هي اللام الفارغة وما مزيدة للتوكيد. وإن قدرت ما نافية وجب تشديد لما إذ تكون بمثابة الاستثناء أي وما كلهم إلا محضرون لدينا.

(4/374)

وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

شرح الكلمات:

- وآية لهم الأرض الميتة : أي على صحة البعث ووجوده لا محالة.
- أحييناها : بإنزال المطر عليها فأصبحت حية بالنبات والزرع.
- وجعلنا فيها جنات : أي بساتين.
- وما عملته أيديهم : أي لم تصنعه أيديهم وإنما هو صنع الله وخلقه.
- أفلا يشكرون : أي أفيرون هذه النعم ولا يشكرونها إنه موقف مخز منهم.
- سبحان الذي خلق الأزواج كلها: أي تنزيهاً وتقديساً لله الذي خلق الأصناف كلها.
- ومن أنفسهم : أي الذكور والإناث.

ومما لا يعلمون : من المخلوقات كالتى في السموات وتحت الأراضين.

معنى الآيات:

لما تقدم في الآيات قبل هذه تقرير عقيدة البعث والجزاء في قوله وإن كل لما جميع لدينا محضرون ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال {وَأَيَّةٌ لَهُمْ (1)} أي على صحة البعث الأرض الميتة التي أصابها المحل فلا نبات فيها ولا زرع أحييناها بالمطر فأنبئت من كل زوج بهيج فهذه آية أي علامة كبرى وحجة واضحة على إمكان البعث إذ الخليفة تموت ولم يبق إلا الله تعالى {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ثم ينزل الله تعالى ماء

1 - آية لهم مبتدأ والخبر الأرض الميتة. قرأ نافع الميتة بتشديد الياء وسكنها حفص.

(4/375)

من تحت العرش فتحيا البشرية على طريقة الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا بالنبات. وهذه المرة تحيا البشرية إذ يركب خلقهم من عظم يقال له عجب الذنب هو في بطن الأرض لا يتحلل ومنه يركب الخلق كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح. هذا معنى قوله تعالى في الاستدلال على البعث {وَأَيَّةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا} أي حب البر فمنه أي من ذلك يأكلون الخبز: وقوله {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي في الأرض الميتة جنات أي بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون أي عيون الماء، هذه مظاهر القدرة والعلم الإلهي وكلها تشهد بصحة البعث وإمكانه وأن الله تعالى قادر عليه وعلى مثله. وقوله تعالى {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ} أي من ثمر المذكور (1) من النخل والعنب وغيره. وقوله {وَمَا (2) عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي لم تخلقه ولم تكونه أيديهم بل يد الله هي التي خلقتهم أفلا يشكرون يوبخهم على عدم شكره تعالى على ما أنعم به عليهم من نعمة الغذاء. وقوله تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ (3) كُلَّهَا} أي تنزيهاً وتقديساً لله الذي خلق الأزواج كلها {مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} يقدر الله تعالى نفسه وينزهها عن العجز عن إعادة الخلق ويذكر بآيات القدرة والعلم وهي نظام الزوجية إذ كل المخلوقات أزواج أي أصناف من ذكر وأنثى فالنباتات على سائر اختلافها ذكر وأنثى والناس كذلك وما هو غائب عنا في السموات وفي بطن الأرض أزواج كذلك ولا وتر أي لا فرد إلا الله تعالى فقد تنزه عن صفات الخلائق، ومنها كان للحياة الدنيا نوع آخر هو لها كالزوج وهي الحياة الآخرة فهذا دليل عقلي من أقوى الأدلة على الحياة الثانية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء التي هي القوة الدافعة للإنسان على فعل الخيرات وترك الشرور المنكرات.
- 2- دليل نظام الزوجية وهو آية على أن القرآن وحي الله وكلامه إذ قرر القرآن نظام الزوجية قبل معرفة الناس لهذا النظام في الذرة وغيرها في القرن العشرين.

- 1 - الثمر بمنزلة الحب للسنبل وهو ما يغله النخل والعنب، وقرأ الجمهور بفتحيتين. وقرأه خلافهم بضميتين.
- 2 - جائز أن يكون ما نافية أي ولم تعمله أيديهم وإنما الله جل جلاله هو الذي أنبته وسخره لهم وجائز أن تكون ما موصولة أي والذي عملته أيديهم من أصناف الحلوات والأطعمة وما يتخذونه كالخبز والجبن وما إلى ذلك وما في التفسير أرجح وأدل على نعم الله وقدرته وقرأ الجمهور ومما عملته بهاء الضمير وقرأ بعضٌ عملت بدونه.
- 3 - الأزواج جمع زوج ويطلق على كل من الذكر والأنثى، وعلى الأصناف المختلفة فإن أريد بالأزواج الذكر والأنثى فمن ابتدائية في المواقع الثلاثة وإن أريد بها الأصناف فمن بيانية في المواطن الثلاثة: لقوله: ومما لا يعلمون مقابل محذوف تقديره وما يعلمون وهذا من دلالة الإشارة.

(4/376)

- 1- وجوب شكر الله تعالى بالإيمان وبطاعته وطاعة رسوله على نعمه ومنها الإيجاد ونعمة الإمداد أي بالغذاء والماء والهواء.
- وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)
- شرح الكلمات:
- وآية لهم الليل نسلخ منه النهار : وآية لهم على إمكان البعث الليل نسلخ منه النهار أي نزيل النهار عن الليل فإذا هم مظلمون بالليل.
- لمستقر لها : أي مكان لها لا تتجاوز.
- ذلك تقدير العزيز العليم : أي جريها في فلکها تقدير أي تقنين العزيز في ملكه العليم بكل خلقه.
- والقمر قدرناه منازل : وآية أخرى هي تقدير منازل القمر التي هي ثمان وعشرون منزلة.

حتى عاد كالعرجون القديم: أي حتى رجع كعود العنق الذي أصله في النخلة وآخره في الشماخي وهو أصفر دقيق مقوس كالقمر لما يكون في آخر الشهر .
لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر: أي لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تترك القمر فيجتمعان في الليل .
ولا الليل سابق النهار : أي بأن يأتي قبل انقضائه .
وكل في فلك يسبحون : أي كل من الشمس والقمر والنجوم السيارة في فلك يسبحون أي يسبحون والفلك دائرة مستديرة كفلكة المغزل وهو مجرى النيرين والكواكب السيارة .

(4/377)

معنى الآيات:

ما زال السياق في البرهنة على إمكان البعث ووقوعه لا محالة فقال تعالى {وَأَيَّةٌ لَهُمْ} أي علامة لهم أخرى على قدرة الله على البعث {اللَّيْلُ نَسْلَخُ} (1) مِنْهُ النَّهَارُ} أي نفضل عنه النهار بمعنى نزيله عنه فإذا هم في الليل مظلومون أي داخلون في الظلام فهذه آية على قدرة الله على البعث وقوله {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ} (2) {لَهَا} أي تجري في فلكها منه تبتدئ سيرها وإليه ينتهي سيرها وذلك مستقرها، ولها مستقر آخر وهو نهاية الحياة الدنيا، وإنما لتسجد كل يوم تحت (3) العرش وتستأذن باستئناف دورانها فيؤذن لها كما صح بذلك الخبر عن سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم وكونها تحت العرش فلا غرابة فيه فالكون كله تحت العرش وكونها تستأذن فيؤذن لها لا غرابة فيه إذا كانت النملة تدبر أمر حياتها بإذن ربها وتقول وتفكر وتعمل فالشمس أخرى بذلك وأنها تنطق بنطقها الخاص وتستأذن ويؤذن لها وقوله تعالى {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ} أي الغالب على مراده العليم بكل خلقه، وتقدير سير الشمس في فلكها بالتأنيّة وتقطع فيه ملايين الأميال أمر عجب ونظام سيرها طوال الحياة فلا يختل بدقيقة ولا يرتفع مستواها شبراً ولا ينخفض شبراً يترتب على ذلك خراب العالم الأرضي كل ذلك لا يقدر عليه إلا الله، أليس المبدع هذا الإبداع في الخلق والتدبير قادر على إحياء من خلق وأمات؟ بلى، بلى إن الله على كل شيء قدير . وقوله تعالى {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا} (4) مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} هذه آية أخرى على إمكان البعث وحتميته والقمر كوكب منير يدور حول الأرض ينقل في منازلها الثمانية والعشرين منزلة بدقة فائقة وحساب دقيق ليعرف بذلك سكان الأرض عدد السنين والحساب إذ لولاه لما عرف يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة ولا قرن . فالقمر يبدأ هلالاً صغيراً ويأخذ في الظهور فيكبر بظهوره شيئاً فشيئاً حتى يصبح

الليل فيبقى الناس في ظلام حالك.

2 - جائز أن يكون في الكلام حذف أي وآية لهم الشمس تجري وجائز أن يكون الشمس مبتدأ وتجري الجملة خبر أي آية أخرى.

3 - لمستقر لها جائز أن يكون اللام بمعنى إلى وجائز أن يكون اللام لام الصيرورة والمآل أي يصير أمرها فتؤول إلى مستقرها، والمستقر مكان الاستقرار روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا ذر حين غربت الشمس "أتدري أين تذهب" قال قلت الله ورسوله أعلم، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تستأذن فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع في مغربها فذلك قوله تعالى ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

4 - جائز أن يكون قدرنا له منازل أو قدرناه منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة بها بمنزل وهي: السرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الخراتان، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانيان، الاكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، بطين الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها.

(4/378)

في نصف الشهر بداراً كاملاً، ثم يأخذ في الأفول والاضمحلال بنظام عجب حتى يصبح في آخر الشهر كالعرجون القديم أي كعود العرجون الأصفر دقيق مقوس كل ذلك لفائدة الإنسان الذي يعيش على سطح هذه الأرض أليس هذا آية كبرى على قدرة الله العزيز العليم على إعادة الحياة لحكمة الحساب والجزاء؟ بلى إنها لآية كبرى فقله {لَا شَمْسُ (1) يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} أي لا يسهل على الشمس ولا يصح منها أن تدرك القمر فيذهب نوره بل لكل سيره فلا يلتقيان إلا نادراً في جزء معين من الأفق فيحصل خسوف القمر وكسوف الشمس. وقوله {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} بل كل من الليل والنهار يسير في خط مرسوم لا يتعداه فلذا لا يسبق الليل النهار ولا النهار الليل فلا يختلطان إلا بدخول جزء من هذا في هذا وجزء من ذلك في ذا وهو معنى {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} وقوله {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (2)} أي كل واحد من الشمس والقمر والكواكب السيارة في فلك يسبحون فلذا لا يقع فيها خلط ولا ارتطام (3) بعضها ببعض إلى نهاية الحياة فيقع ذلك ويخرب الكون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إقامة الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على إمكان البعث ووقوعه حتماً.
 - 2- ذكر القرآن لأمر الفلك التي لم يعرف عنها الناس اليوم إلا جزء يسير آية عظمى على أنه وحي الله وأن من أوحى إليه هو رسول الله قطعاً.
 - 3- ما ذكره القرآن عن الكون العلوي من الوضوح بحيث يعرفه الفلاح والراعي كالعالم المتبحر والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وذلك لتقوم الحجة على الناس إن هم لم يؤمنوا بالله ولم يوحده في عبادته ويخلصوا له في طاعته وطاعة رسوله.
- وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ

- 1 - هذا لأن سير القمر سريع وسير الشمس دونه فلا تدركه.
- 2 - لم يقل تسبح لأنه وصفها بوصف العقلاء يسبحون، أي يجرون وحيء بضمير الجمع وهما اثنتان الشمس والقمر لا غير لإفادة تعميم هذا الحكم فيشمل الكواكب أيضاً.
- 3 - هذا لما بين بينها من أبعاد لا يقدر قدرها ولا يعرف مداها إلا الله خالقها فلذا لا يدرك بعضها بعضاً لشدة الأبعاد بين مداريها.

(4/379)

وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ (44) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

شرح الكلمات:

آية لهم : أي وعلامة لهم على قدرتنا على البعث.

أنا حملنا ذريتهم : أي ذريات قوم نوح الذين أهلكناهم بالطوفان: نجينا ذريتهم لأنهم مؤمنون موحدون وأغرقتنا آباءهم لأنهم مشركون.

في الفلك المشحون: أي في سفينة نوح المملوءة بالأزواج من كل صنف.

وخلقنا لهم من مثله : أي من مثل فلك نوح ما يركبون.

فلا صريح لهم : أي مغيث ينجيهم فيكيف صراخهم.

ومتاعاً إلى حين : أي وتمتعياً لهم بالطعام والشراب إلى نهاية آجالهم.

اتقوا ما بين أيديكم : أي من عذاب الدنيا أي بالإيمان والاستقامة.

وما خلفكم : من عذاب الآخرة إذا أصررتكم على الكفر والتكذيب.

وما تأتيتهم من آية : أي وما تأتيتهم من آية أو من حجة من حجج القرآن وبيئته من بيناته الدالة على

توحيد الله وصدق الرسول إلا كانوا عنها معرضين غير ملتفتين إليها ولا مباليين بها.
معنى الآيات:

ما زال السياق في عرض الآيات الكونية للدلالة على البعث والتوحيد والنبوة فقال تعالى {وَأَيَّةٌ لَهُمْ} أي أخرى غير ما سبق {أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (1)} أي حملنا ذرية قوم نوح

1 - قرأ نافع ذرياتهم جمع ذرية وقرأ حفص بالإفراد ذريتهم اسم جمع فهو بمعنى ذرياتهم. لفظ الذرية وإن كان أساساً يطلق على الأولاد فإنه أطلق على الآباء والأجداد إذ الكل هم ذرية لآدم عليه السلام والمشحون الموقر بما حمل فيه من سائر المخلوقات.

(4/380)

المؤمنين فأنجيناهم بإيمانهم وتوحيدهم وأغرقنا المشركين فهي آية واضحة عن رضا الله تعالى عن المؤمنين الموحدين وسخطه على الكافرين المشركين المكذبين إن في هذا الإنجاء للموحدين والإغراق للمشركين آية وعبرة لو كان مشركو قريش في مكة يفقهون. وقوله تعالى {وَوَحَلْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} وهذه آية أخرى أيضاً وهي أن الله أنجى الموحدين في فلك لم يسبق له مثل ثم خلق لهم مثله ما يركبون إلى يوم القيامة ولو شاء عدم ذلك لما كان لهم فلك إلى يوم القيامة وآية أخرى {وَأَنْ نَشَأَ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ} وهي قدرته تعالى على إغراق ركاب السفن الكافرين وإن فعلنا لم يجدوا صارخاً (1) ولا معيناً يغيثهم وينجيهم من الغرق {إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا (2)} الله إلا رحمتنا فإنها تنالهم فتنتديهم ليتمتعوا في حياتهم بما كانوا يتمتعون به إلى حين حضور آجالهم المحدودة لهم. وقوله تعالى {وَأِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (3)} أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بآيات الله المعرضين عن دينه المشركين به اتقوا ما بين أيديكم من العذاب حيث موجه قائم وهو كفركم وعنادكم، وما خلفكم من عذاب الآخرة إذ مقتضيه موجود وهو الشرك والتكذيب رجاء أن ترحموا فلا تعذبوا أعرضوا كأنهم لم يسمعوا. وقوله {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ { كَلَامِ رَبِّهِمُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَحْمَلُ الْحُجُجَ وَالْبُرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ إِلَّا كَانُوا مَعْضِينَ تَمَامَ الْإِعْرَاضِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ قُدَّتْ مِنْ حَجَرٍ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان فضل الله على البشرية في إنجاء ذرية قوم نوح الكافرين ومنهم كان البشر وإلا لو أغرق الله الجميع المؤمنين الذرية والكافرين الآباء لم يبق في الأرض أحد.

2- حماية الله تعالى للعباد ورعايته لهم وإلا لهلكوا أجمعين ولكن أين شكرهم؟

- 3- بيان إصرار كفار قريش وعنادهم الأمر الذي لم يسبق له مثيل.
4- الإشارة بالمتبعية في قوله {من مثله} إلى تنوع السفن من البوارج والغوصات والطربيدات الحربية.

- 1 - الصريخ هو الصارخ وهو المستغيث المستنجذ تقول العرب جاءهم الصريخ أي المنكوب المستنجذ لينقذوه وهو فعيل بمعنى فاعل.
2 - الاستثناء منقطع فهو بمعنى لكن لأن الرحمة ليست من جنس المستثنى منه وهو الصريخ.
3 - الجملة واقعة موقع التذيل وتحمل معنى التأكيد لما سبق من معنى وهو أنهم إذا دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء أعرضوا ولم يستجيبوا.

(4/381)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

شرح الكلمات:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا : أي وإذا قال فقراء المؤمنين في مكة للأغنياء الكافرين أنفقوا علينا.
مما رزقكم الله : أي من المال.
أنطعم من لو يشاء الله أطعمه : أي قالوا للمؤمنين استهزاءً بهم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه.
إن أنتم إلا في ضلال مبين : أي ما أنتم أيها الفقراء إلا في ضلال مبين في اعتقادكم الذي أنتم عليه.

متى هذا الوعد : أي البعث الآخر إن كنتم صادقين فيه.

ما ينتظرون إلا صيحة واحدة: أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهي نفخة إسرافيل.
تأخذهم وهم يخصمون: أي تأخذهم الصيحة وهم يتخاصمون في البيع والشراء والأكل

(4/382)

والشرب إذ تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

فلا يستطيعون توصية : أي فلا يقدر أحدهم أن يوصي وصية.

ولا إلى أهلهم يرجعون : بل يهلكون في أماكنهم من الأسواق والمزارع والمصانع أو المقاهي والملاهي.

فإذا هم من الأجداث : أي القبور إلى ربهم ينسلون أي يخرجون بسرعة.

قالوا يا ويلنا من بعثنا من مردنا : أي قال الكفار : من بعثنا من قبورنا؟

هذا ما وعد الرحمن : أي هذا ما وعد به الرحمن وصدق المرسلون أي فيما أخبروا به.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ (1)} أي وإذا قيل لأولئك المشركين المكذبين الملاحدة والقائل هم المؤمنون فقد روي أن أبا بكر الصديق كان يطعم مساكين المسلمين فلقبه أبو جهل فقال يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لا يطعمهم؟ قال ابتلى قوماً بالفقر وقوماً بالغنى وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء، فقال أبو جهل، والله يا أبا بكر إن أنت إلا في ضلال مبين. أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت فنزلت هذه الآية وبهذه الرواية اتضح معنى الآية الكريمة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} أي للكفار {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} على المساكين {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} الأمرين لهم بالإنفاق {أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ} قالوا هذا استهزاء وكفراً {إِنْ أَنْتُمْ} أي ما أنتم أيها المسلمون {إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي إلا في ذهاب عن الحق وجور عن الرشيد مبين لمن تأمله وتدبر فيه.

وقوله {وَيَقُولُونَ مَتَى (2) هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي ويقول أولئك الملاحدة المكذوبون بالبعث

استهزاء واستعجالاً: متى هذا الوعد الذي تعدوننا به أيها المسلمون إن كنتم صادقين في دعواكم.

1 - اختلف في من هذه قولته؟ وما في التفسير وأنها قولة أبي جهل لأبي بكر أرجحها وأقربها إلى واقع الحال وألصق بالسياق ولا مانع أن يقولها الزنادقة والملاحدة والمستهزئون في كل زمان ومكان.

2 - الاستهزاء للاستبعاد وهو مشوب بالسخرية والاستخفاف لأنه ناجم عن قلوب مظلمة من جراء الكفر والإلحاد قال الشاعر:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة

لنفس إلا قد قضيت قضاءها.

والشاهد في الاستخفاف.

قال تعالى {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} وهي نفخة إسرافيل في الصور وهي نفخة الفناء {تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(1)} أي يختصمون في أسواقهم يبيعون ويشترون، وفي مجالسهم العامة والخاصة إذ تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون قال تعالى {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} يوصي بها أحدهم لابنه أو أخيه، ولا إلى أهلهم أي منازلهم وأزواجهم وأولادهم يرجعون بل يصعقون في أماكنهم. وقوله تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} أي صور إسرئيل وهو قرن ويقال له البوق أيضاً نفخة البعث من القبور أحياء فإذا هم من الأجداث جمع جدث وهو القبر ينسلون(2) أي ماشين مسرعين إلى ربهم لفصل القضاء والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه في هذه الحياة الدنيا من إيمان وكفر وإحسان وإساءة وعدل وظلم. قالوا يا ويلنا أي نادوا ويلهم وهلاكهم لما شاهدوا من أهوال الموقف {مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا(3)} وأجابهم المؤمنون بقولهم {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} إذ وعدنا الله بلفائه وأخبرنا الرسل به وبتفاصيله وقوله تعالى {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} أي ما هي إلا صيحة واحدة لإسرافيل فإذا الكل واقف بين يدي الله تعالى ليحاسب ويجزي قال تعالى {قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً} أي في هذا اليوم الذي وقفت الخليفة فيه بين يدي ربها لا تظلم نفس شيئاً لا بنقص حسنة من حسناتها ولا بزيادة سيئة على سيئاتها. ولا تجزون أيها العباد إلا ما كنتم تعملون من خير وشر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان علو الكافرين وطغيانهم وسخريتهم واستهزائهم، وذلك لظلمة الكفر على قلوبهم.
- 2- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبادئها ونهاياتها.
- 3- الساعة لا تأتي إلا بغتة.
- 4- الانقلاب الكوني الذي يحدث لعظمه اختلفت آراء أهل العلم في تحديد النفخات فيه

- 1 - يخصمون بمعنى يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في أماكنهم وقد أدغمت التاء في الصاد فنتج عن ذلك قراءات أشهرها قراءة نافع يخصمون بفتح الخاء وكسر الصاد مشددة وقرأ حفص يخصمون بكسر الخاء والصاد المشددة وقرأ قالون يخصمون بسكون الخاء مع الاختلاس.
- 2 - قال ابن عباس وقتادة ينسلون يخرجون ومنه قول امرؤ القيس "فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي" ومنه قيل للولد نسل لأنه يخرج من بطن أمه وقيل يسرعون، والنسلان والقسلان الإسراع في السير ومنه مشية الذئب قال:
عسلان الذئب أمسى قارباً
برد الليل عليه فنسل
- 3 - جائز أن يكون هذا ما وعد الرحمن الخ من كلامهم لما يجدون أنفسهم واقفين أحياء قد خرجوا من قبورهم صرّحوا بالحقيقة التي كانوا يكذبون بها فاعترفوا قائلين: هذا ما وعد الرحمن وصدق

المرسلون، وجائز أن يقال لهم كما في التفسير، فإن قلنا بالقول الأول لا يصح الوقف على من مرقدنا، وإن قلنا بالقول المثبت في التفسير صح الوقف ويصبح هذا ما وعد الرحمن كلاماً مستأنفاً.

(4/384)

والظاهر أنها أربع الأولى نفخة الفناء والثانية نفخة البعث والثالثة نفخة الفزع(1) والصعق والرابعة نفخة القيام بين يدي رب العالمين.

5- تقرير العدل الإلهي يوم الحساب والجزاء ليضمن كل عامل على أنه يجزى بعمله لا غير. إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (58)

شرح الكلمات:

في شغل فاكهون : أي أهل الجنة في شغل عما فيه أهل النار من عذاب وشقاء. وشغلهم الشاغل لهم هو النعيم المقيم في دار السلام.

فاكهون: أي ناعمون بالتلذذ بالنعيم وذلك لطيب العيش.

على الأرائك : أي الأسرة ذات الحجلة.

ولهم ما يدعون : أي ما يتمنون ويطلبون.

سلام قولاً من رب رحيم: أي سلام بالقول من رب رحيم أي يسلم عليهم ربهم سبحانه وتعالى.

معنى الآيات:

ما إن حضروا بين يدي الله سبحانه وتعالى للحساب والجزاء حتى أعلن عما يلي: إن أصحاب الجنة اليوم(2) في شغل فاكهون(3) أي ناعمون بالتلذذ بألوان المطاعم والمشارب والحوار العين إنهم وأزواجهم في ظلال الجنة على الأرائك(4) أي الأسرة ذات الحجلة متكئون. لهم فيها أي في دار السلام فاكهة

1 - هذه النفخة مختلف فيها ودليلها حديث البخاري إذ فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "فأكون أول من يفيق فإذا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ولا أدري أرفع رأسه قبل أو كان ممن استثنى الله تعالى".

2- قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم افتضااض العذارى وقيل شغلهم زيارة بعضهم بعضاً، والشغل بضم الشين وسكون الغين ويجوز ضم الغين مع الشين.

3- فاكهون بالألف وفتحون بدونه كفتحين لغتان وفسر بفتحين ومعجبين وبمسرورين والكل صحيح إذ هو من جملة النعيم الذي هم فيه.

4 - الأرائك جمع أريكة كسفينة وسفائن قال الشاعر:

كأن احمرار الورد فوق غصونه

بوقت الضحى في روضه المتضاحك

خدود عذارى قد خجلن من الحياء

تهادين بالرياحن فوق الأرائك

(4/385)

من كل زوج ولون ونوع ولهم ما يدعون أي ما يتمنون ويطلبون، وأعظم من ذلك سلام الربّ تعالى عليهم(1) سلام قولاً من رب رحيم أي سلام من الله بالقول لا بغيره من أنواع السلامة والسلام. فقد روى البغوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ يسطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله تعالى {سلام قولاً من رب رحيم} فينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير المعاد.

2- بيان نعيم الجنة.

3- سلام الله تعالى على أهل الجنة ونظرهم إلى وجهه الكريم.

وَأَمْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ

1 - استئناف قطع من أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه وسلام مرفوع بالابتداء وهو نكرة وتكثيره للتعظيم ولذا صح الابتداء به وحذف الخبر لدلالة المصدر وهو قولاً عليه، والتقدير سلام يقال لهم قولاً من الله تعالى، ومن ابتدائية، وتبين رب للتعظيم.

(4/386)

عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)
شرح الكلمات:

وامتازوا اليوم أيها المجرمون : أي انفردوا عن المؤمنين وانحازوا على جهة وسيروا أيها الصالحون إلى الجنة.

ألم أعهد إليكم : أي ألم أوصكم بترك عبادة الشيطان وهي طاعته.
وأن اعبدوني : أي وبأن تعبدوني وحدي وذلك في كتبي وعلى السنة رسلي.
هذا صراط مستقيم : أي بترك عبادة الشيطان والقيام بطاعة الرحمن. هو الإسلام الموصل إلى دار السلام.

ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً : أي ولقد أضل الشيطان منكم يا بني آدم خلقاً كثيراً.
أفلم تكونوا تعقلون : أي أطعتموه فلم تكونوا تعقلون عداوته لكم.
هذه جهنم التي كنتم توعدون : أي تقول الملائكة هذه جهنم ... الخ.
اليوم نختم على أفواههم (1) : أي عندما يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين.
ولو نشاء لطمسنا على أعينهم: أي ولو أردنا طمس أعين هؤلاء المشركين المجرمين لफलنا، ولكننا لم نشأ ذلك رحمة منا.

فاستبقوا الصراط : أي فابتدروا الطريق كعادتهم فكيف يبصرون.
ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم : أي بدلنا خلقهم حجارة أو قرده أو خنازير في أمكنتهم التي هم فيها فلا يستطيعون مضياً ولا يرجعون.
ومن نعمه ننكسه في الخلق : أي ومن نطل عمره ننكسه في الخلق فيكون بعد قوته ضعيفاً عاجزاً.
أفلا يعقلون : أي أن القادر على ما ذكرنا لكم قادر على بعثكم بعد موتكم. فتؤمنون وتوحدون فتتجون من العذاب وتسعدون.

1 - روى مسلم عن أنس بن مالك قال: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال صلى الله عليه وسلم أتدرون مما أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى فيقول لا أجبر علي إلا شاهداً من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً والكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي بعمله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَأَمَّا زُورًا﴾ (1) الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} أي يأمر تعالى المجرمين وهم الذين أجزموا على أنفسهم بالشرك وارتكاب المعاصي فأسدوها يأمرهم بأن يتميزوا عن المؤمنين فينفردوا وحدهم ويسار بأهل الجنة إلى الجنة، ثم يوبخ تعالى المجرمين أهل النار بقوله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ (2) موصياً إياكم على السنة رسلي وفي كتبي بأن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وبأن تعبدوني وحدي، ولا تعبدوا الشيطان معي فتشركوه في عبادتي هذا صراط مستقيم أي ترك عبادة الشيطان والقيام بعبادة الرحمن هذا هو الإسلام الصراط المستقيم الذي لا ينتهي بالسالكين إلا إلى باب دار السلام. وقوله ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا﴾ أي خلقاً كثيراً هذا من كلام الله الموبخ به للمجرمين. وقوله ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (3) وهذا تقريع وتوبيخ أيضاً أي أطعمتموه وهو عدوكم وعصيتموني وأنا ربكم فلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، وواجب عبادتي عليكم لأنني خلقتكم ورزقتكم وكلائتكم الليل والنهار إذا فهذه جهنم (4) التي كنتم بها تكذبون اصلوها أي احترقوا بها بما كنتم تكفرون بالله وآياته ولقائه وتكذبون رسله. وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذا يحدث لما يعرضون على ربهم فيعرض عليهم أعمالهم فينكرون فعندئذ يختم الله على أفواههم فلا يستطيعون الكلام وتتطق باقي جوارحهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ فأعيناهم ﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي ابتدروا الطريق كعادتهم فأني يبصرون الطريق وقد طمس على أعينهم فلا مقلة فيها ولا حاجب، ولكن الله لم يشأ ذلك لرحمته وحلمه على عباده، وقوله ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (5) أي ولو نشاء مسخ هؤلاء المجرمين من المشركين لمسخناهم في أماكنهم من منازلهم فلا يستطيعون مضياً في الطريق ولا رجوع إلى خلف أي لا ذهاباً ولا إياباً، وقوله تعالى ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾ (6) فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} ففرد رأساً على عقب

- 1 - يقال مازه فانماز وامتاز، وميره فتميز وامتاز أمر من امتاز ويمتاز إذا انفرد عما كان مختلطاً به، والمراد بذلك سوقهم إلى النار بعد أن دخل المؤمنون الجنة.
- 2 - الاستفهام للتقرير والتوبيخ على إهمالهم وصيته تعالى إليهم بأن لا يعبدوا الشيطان.
- 3 - قوله تعالى أفلم تكونوا تعقلون الاستفهام للتقريع والتأنيب.
- 4 - قوله تعالى {هذه جهنم التي كنتم توعدون} أي على السنة رسلي فكذبتم بها وواصلتم شرككم وكفركم. {اصلوها اليوم} أي احترقوا بها {بما كنتم تكفرون} أي بسبب كفركم الذي دسّى نفوسكم وخبثها فحرمتم بذلك دار السلام.
- 5 - المكانة تأنيث المكان على تأويله بالبقعة.

6 - قرأ الجمهور نكسه بفتح النون الأولى وسكون الثانية مضارع نكس رأسه وقرأها عاصم نكسه بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة.

(4/388)

فكما كان طفلاً ينمو شيئاً فشيئاً في قواه العقلية والبدنية حتى شبّ واكتهل فكذلك نكسه في خلقه فيأخذ يضعف (1) في قواه العقلية والبدنية يوماً فيوماً حتى يصبح أضعف عقلاً وبدناً منه وهو طفل. وقوله أفلا تعقلون أيها المكذبون المجرمون أن القادر على هذا وغيره وعلى كل شيء يريد قادر على أن يحييكم بعد موتكم ويبعثكم من قبوركم ويحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير المعاد وبيان مواقف منه.
 - 2- تأكيد عداوة الشيطان للإنسان.
 - 3- عجز الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من سيء أعماله وفاسدها.
 - 4- التحذير من عقوبة الله في الدنيا بالمسخ ونحوه.
 - 5- مظاهر قدرة الله تعالى في رد الإنسان بعد القوة إلى حالة الضعف الأولى.
- وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَجْعَلَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

- 1 - قال سفيان إذا بلغ المرء ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته قال الشاعر:
من عاش أخلقت الأيام جدته
وخانه ثقناه السمع والبصر.

(4/389)

شرح الكلمات:

وما علمناه الشعر : أي وما علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الشعر فما هو بشاعر .
وما ينبغي له : أي وما يصلح له ولا يصح منه .
إن هو إلا ذكر وقرآن مبين : أي ليس كما يقول المشركون من أن القرآن شعر ما هو أي القرآن الذي يقرأه محمد صلى الله عليه وسلم إلا ذكر أي عظة وقرآن مبين لا يشك من يسمعه أنه ليس بشعر لما يظهر من الحقائق العلمية .
لينذر من كان حياً : أي يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون .
ويحق القول على الكافرين : أي ويحق القول بالعذاب على الكافرين لأنهم ميتون لا يقبلون النذارة .
أنعاماً فهم له مالكون : الأنعام هي الإبل والبقر والغنم .
وذلكناها لهم : أي سخرناها لهم وجعلناها قاهرين لها يتصرفون فيها .
فمنها ركوبهم ومنها يأكلون : أي من بعضها يركبون وهي الإبل ومنها يأكلون أي ومن جميعها يأكلون .
ولهم فيها منافع ومشارب : المنافع كالصوف والوبر والشعر ، والمشارب الألبان .
أفلا يشكرون : أي يوبخهم على عدم شكرهم الله تعالى على هذه النعم بالإيمان والطاعة .
واتخذوا من دون الله آلهة : أي أصناماً يعبدونها زعماً منهم أنها تتصرهم بشفاعتها لهم عند الله .
لا يستطيعون نصرهم : أي لا تقدر تلك الأصنام على نصرهم بدفع العذاب عنهم .
وهم لهم جند محضرون : أي لا يقدرون على نصرتهم والحال أنهم أي المشركين جند محضرون لتلك الآلهة ينصرونها من أن يمسخها أحد بسوء فبدل أن تنصرهم هم ينصرونها كجند معبثون لنصرتها .
فلا يحزنك قولهم : أي إنك لست مرسلًا إنك شاعرٌ وكاهن ومفترٍ .
إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون : أي إنهم ما يقولون ذلك إلا حسداً وهم يعلمون أنك رسول الله وما جئت به هو الحق وسوف نجزيهم بتكذيبهم لك وكفرهم بنا وبلقائنا وديننا الحق .

(4/390)

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ (1)﴾ رد على المشركين الذين قالوا في القرآن شعر وفي الرسول الله شاعر فقال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الشُّعْرَ (2)﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي لا يصح منه ولا يصلح له . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْرٌ﴾ أي ما هو الذي يتلوه إلا ذكر يذكر به الله وعظة يتعظ به المؤمنون ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ مبين للحق مظهر لمعالم الهدى أنزلناه على عبدنا ورسولنا لينذر به من

كان حياً أي القلب والضمير لإيمانه وتقواه الله ويحق أي به القول وهو العذاب على الكافرين لأنهم لا يهتدون به فيعيشون على الضلال ويموتون عليه فيجب لهم العذاب في الدار الآخرة. وقوله {أَوْلَمْ يَرَوْا} أي أعمى أولئك المشركون ولم يروا مظاهر قدرتنا وإحساننا الموجبة لعبادتنا وهي {أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ (3) أَيَدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، والمراد بالأنعام الماشية من إبل وبقر وغنم وقوله { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ } أي سخرناها لهم بحيث يركبون ويحلبون ويحملون وينحرون ويذبحون ويأكلون، ولولا هذا التسخير لما قدروا عليها أبداً. وقوله {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ} المنافع كالصوف والوبر والشعر والمشارب جمع مشرب وهي الألبان في ضروعها يطلبون منها ويشربون. وقوله {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} يوبخهم على أكل النعم وعدم الشكر عليها، وشكر الله عليها هو الإيمان به وتوحيده في عبادته. وقوله {وَإِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً} أي اتخذ أولئك المشركون آلهة هي أصنامهم التي يعبدونها لعلمهم ينصرون أي رجاء نصرتها لهم وذلك بشفاعتها لهم عند الله تعالى كما يزعمون. قال تعالى في إبطال هذا الرجاء وقطعه عليهم {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر وقوله {وَهُمْ لَهُمْ جُنُودٌ مُّحَضَّرُونَ} أي والحال أن المشركين هم جند تلك الأصنام محضرون عندها يدافعون عنها ويحمونها ويغضبون لها فكيف ينصرك من هو مفقر إلى نصرتك. وقوله تعالى {فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ (4)} أي لا تحزن لما يقول قومك من أنك لست مرسلًا، وأنتك شاعر

1 - إنه صلى الله عليه وسلم مع أصالته في الأدب الرفيع وكيف وهو قرشي مضري لا يحسن إنشاد بيت من الشعر حتى إنه أنشد يوماً بيت طرفه فقال:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك من لم تزوده بالأخبار.

فقال أبو بكر والله إنك لرسول الله إذ عجز البيت هكذا: ويأتيك بالأخبار من لم تزود.

2 - وما علمناه الشعر أي وما أوحينا إليه شعراً وما علمناه إياه.

3 - مما عملت (ما) موصولة بمعنى الذي وحذف العائد وهو الضمير لطول الاسم أي عملته. وإن قلنا "ما" مصدرية فلا حاجة إلى مراعاة العائد ولا تقديره.

4 - قرئ يحزنك بضم الياء من أحزنه يحزنه وقرئ يحزنك بفتح الياء وضم الزاي، والنهي عن الحزن نهي عن أسبابه الموجبة له، إذ الحزن لا يملك الإنسان دفعه ولكن يستطيع تجنب مثيراته والمراد من هذا النهي تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يواجهه به المشركون من أنه ساحر أو شاعر وما إلى ذلك.

وساحر وكاهن إلى غير ذلك من أقاويلهم، {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (1)} وسنجزيهم عن قولهم الباطل ونأخذهم بكذبهم وافترائهم عليك كما نحن نعلم أنهم ما قالوا الذي قالوا إلا حسداً لك، وإلا فهم يعلمون أنك رسول الله وما أنت بالساحر ولا الشاعر ولا المجنون، ولكن حملهم على ما يقولون الحسد والعناد والكبر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية وأن القرآن ذكر وليس شعر كما يقول المبطلون.
- 2- الحكمة من نزول القرآن هي أن ينذر به الرسول الأحياء من أهل الإيمان.
- 3- بيان خطأ الذين يقرأون القرآن على الأموات ويتركون الأحياء لا يقرأونه عليهم وعظماً لهم وإرشاداً وتعليماً وتذكيراً.
- 4- وجوب ذكر النعم وشكرها بالاعتراف بها، وصرافها في مرضاة واهبها وحمده عليها.
- 5- بيان سخف المشركين في عبادتهم أصناماً يرجون نصرتها وهم جند معبأ لنصرتها من أن يمسخها أحد بسوء.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)

1 - جملة إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون جملة تذييلية المراد منها أمران تطمين الرسول صلى الله عليه وسلم على كفاية الله تعالى له وأن كيدهم لا يضره وتهديد المشركين بإعلامهم أن الله مطلع على ما يمكرون وسيجزيهم به.

(4/392)

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

شرح الكلمات:

أولم ير الإنسان : أي المنكر للبعث كالعاص بن وائل السهمي، وأبي بن خلف.
أنا خلقناه من نطفة : أي من مني إلى أن صيرناه رجلاً قوياً.
فإذا هو خصيم مبين : أي شديد الخصومة بيّنها في نفي البعث.
وضرب لنا مثلاً : أي في ذلك، إذ أخذ عظماً وقته أمام رسول الله وقال أحيى ريك هذا؟
ونسى خلقه : أي وأنه مخلوق من ماء مهين وأصبح رجلاً يخاصم فالقادر على الخلق الأول قادر على الثاني.
من يحيى العظام وهو رميم : أي وقد رمّت وبلبت.
من الشجر الأخضر ناراً : أي من شجر المرخ والعفار يحك أحدهما على الآخر فتشتعل النار.
بقادر على أن يخلق مثلهم: أي مثل الأناسي.
بلى : أي قادر على ذلك إذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.
إذا أراد شيئاً : أي خلق شيء وإيجاده.
بيده ملكوت : أي ملك كل شيء، زبدت التاء للمبالغة في كبر الملك واتساعه.
واليه ترجعون : أي تردون بعد الموت وذلك في الآخرة.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء تلك العقيدة التي يتوقف عليها غالباً هداية الإنسان وإصلاحه فقال تعالى رداً على العاص بن وائل السهمي وأبي بن خلف حيث جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم ففته ونراه وقال أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا؟ فقال رسول الله

(4/393)

صلى الله عليه وسلم نعم يمينك ثم يحييك ثم يحشرك إلى جهنم ونزلت هذه الآيات {أولم ير الإنسان (1)} أي أينكر البعث وهو يعلم أنا خلقناه من نطفة أي من ماء مهين وسويناه رجلاً فإذا هو خصيم لنا أي مخاصم يرد علينا ويشرك بنا وينكر إحياءنا للأموات وبعثهم يوم القيامة فكيف يعنى هذا العمى وبجهل هذا الجهل القبيح، إذ القادر على البدء قادر عقلاً على الإعادة وهي أهون عليه.
وقوله {وَضَرَبَ لَنَا} أي هذا المنكر للبعث مثلاً أي جعل لنا مثلاً وهو إنكاره علينا قدرتنا على البعث حيث جعل إعادتنا للخلق أمراً عجباً وغريباً إذ قال {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (2)} أي قد رمّت وبلبت. ونسى خلقه من ماء حقير كيف جعله الله بشراً سوياً يجادل ويخاصم فلو ذكر أصل نشأته لخلج أن ينكر إحياء العظام وهي بالية رميم؟ ولما قال من يحيى العظام وهي رميم؟. وقوله تعالى {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} وهذا هو القياس العقلي الجلي الواضح إذ بالبدهة أن من أوجد

شيئاً من العدم قادر على إيجاد مثله. وقوله {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} أي مخلوق عليم فالعلم والقدرة إذا اجتمعا كان من السهل إيجاد ما أعدم بعد أن كان موجوداً فأعدم لا سيما أن الموجد من العدم هو المخبر بالإعادة وبقدرته عليها.

هذا برهان قطعي وثاني برهان في قوله {الَّذِي جَعَلَ لَكُم (3) مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ} أي النار تشعلونها، ووجه الاستدلال أن البعث لو كان مستحيلاً عقلاً وما هو بمستحيل بل هو واجب الوقوع لكان على الله غير مستحيل لأن الله تعالى قد أوجد من المستحيل ممكناً وهو النار من الماء، إذ الشجر الأخضر (4) ماء سار في أغصان الشجرة. ومع هذا يوجد منها النار، فكان هذا برهاناً عقلياً يسلم به العقلاء ولا ينازعون فيه أبداً، وبرهان ثالث وهو في قوله {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}؟ ووجه البرهنة فيه أننا ننظر إلى السموات السبع وما فيها من خلق عجيب وإلى الأرض وما فيها كذلك وننظر إلى الإنسان فنجد

1- روي أيضاً أن العاص بن وائل أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال يا محمد أتري أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم وبيعتك الله ويدخلك النار فنزلت هذا الآية.

2 - يقال رمّ العظم يرم فهو رميم ورمام وقال رميم ولم يقل رميمة لأنها معدولة عن فاعله نحو بغياً لم يقل بغيةً لأنه معدول عن باغية.

3 - هذا الكلام مستأنف ابتدائياً الغرض إقامة الحجة العقلية على صحة البعث وإمكانه وهو ما أنكره المشركون واستبعدوه فذكر لهم أن الذي يخرج من الماء الرطب البارد النار وهما لا يجتمعان، قادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير.

4 - قال القرطبي يعني بالآية مع في المرخ والعفرار وهي زنادة العرب التي يشعلون بها النار، ومن ذلك قولهم في كل شجر نار واستمجد الرمح والعفرار.

(4/394)

لا شيء إذا قوبل بالسموات والأرض فنحكم بأن من خلق السموات والأرض على عظمها قادر من باب أولى على خلق الإنسان مرة أخرى بعد موته وبلاه وفنائه. ولذا أجاب تعالى عن سؤاله بنفسه فقال {بَلَىٰ (1) وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} أي الخلاق لكل ما أراد خلقه العليم بكل مخلوقاته لا يخفى عليه شيء منها، وبرهان رابع في قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ووجه الاستدلال أن من كان شأنه في إيجاد ما أراد إيجاداً أن يقول له كن فهو يكون لا يستنكر عليه عقلاً أن يحيي الأموات بكلمة كونوا أحياء فيكونون كما طلب منهم.

وأخيراً ختم هذا الرد المقنع بتنزيه نفسه عن العجز فقال ﴿فَسُبْحَانَ (2) الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (3) أي ملك كل شيء ﴿وَالَّذِي تَرْجَعُونَ﴾ أحببتهم أم كرهتم أيها الآدميون منكرين كنتم للبعث أم مقرين به مؤمنين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أربعة براهين قاطعة.
- 2- مشروعية استعمال العقليات في الحجج والمجادلة.
- 3- تنزيه الله تعالى عن العجز والنقص وعن الشريك والولد وسائر النقائص.
- 4- تقرير أن الله تعالى بيده وفي تصرفه وتحت قهره كل الملكوت فلذا لا يصح طلب شيء من غيره إذ هو المالك الحق وغيره لا ملك له.

1 - بلى لنقص النفي أي بل هو قادر على أن يخلق مثلهم كقوله أليس الله بأحكم الحاكمين؟

فالجواب بلى أي هو أحكم الحاكمين إبطال لما نفته ليس إذ هي حرف نفي.

2 - فسبحان: نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشرك والعجز. والملكوت، والملكوتى: بمعنى نحو

جبروتي وجبروتي ورحموتي من الجبروت والرحموت والعرب تقول جبروتي خير من رحموتي.

3 - الملكوت مبالغة في الملك بكسر الميم من ذلك قولهم رهبوت خير من رحموت أي ليرهبك

الناس خير من يرحموك لأن مع الرهبة العزة ومع الرحمة الضعف والعجز.

(4/395)

سورة الصافات

...

سورة الصافات

مكية

وآياتها مائة واثنان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيْنًا لَدُنِّيَا بِرِيْنَةِ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7)

لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ

خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

شرح الكلمات:

الصفات صفاً : أي الملائكة تصف أنفسها في الصلاة وأجنتها في الهواء.
فالزاجرات زجراً: أي الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه حيث يأذن الله.
فالتاليات ذكراً : أي فالجماعات التاليات(1) للقرآن ذكرا.
إن إلهكم لوحد : أي إن إلهكم المعبود الحق لكم أيها الناس لوحد.
رب السموات والأرض وما بينهما: أي هو رب السموات والأرض وما بينهما أي خالقهما ومالكهما
ومدير الأمر فيهما.
ورب المشارق : أي والمغرب وهي مشارق الشمس ومغاريها إذ للشمس كل يوم مشرق ومغرب.

1 - جائز أن تكون الجماعات التالية لكلام الله تعالى من الملائكة ومن البشر روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال "فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء".

(4/396)

وحفظاً من كل شيطان مارد : أي وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد خارج عن الطاعة.
لا يسمعون إلى الملاء الأعلى : أي لا يستمعون إلى الملائكة في السموات العلا.
ويقفون من كل جانب دحوراً : أي يرمون بالشهب من كل جوانب السماء دحوراً أي إبعاداً لهم.
عذاب واصب : أي دائم لا يفارقهم.
إلا من خطف الخطفة : أي اختطف الكلمة من الملائكة بسرعة وهرب.
فأتبعه شهاب ثاقب : أي كوكب مضيء ثاقب يتقبه أو يحرقه أو يخلبه أي يفسده.
معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَالصَّافَّاتِ (1) صَفًّا﴾ هذا قسم إلهي يؤكد به تعالى إلهيته على عباده فقد أقسم بالصفات والزاجرات والتاليات ذكراً أي قرآناً، وسواء قلنا أقسم بهذه المخلوقات إذ الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وإنما الممنوع أن يقسم العبد بغير ربه تعالى. أو قلنا أقسم تعالى بنفسه أي ورب الصفات الخ فالقسم حاصل من أجل تقرير التوحيد، وهذا الإقسام جار على عرف البشر في أنهم إذا أخبروا بشيء يشكون في صحته فيؤكد لهم المخبر بالخبر باليمين ليزيل الشك من نفوسهم. وقوله ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (2) هو المقسم عليه وهو أن إله البشرية كلها واحد وهو الله خالقها ورازقها وليس من إله غيره، وما عندها من آلهة فهي آلهة باطلة ويكفي في بطلانها أنها أصنام وصور وتمائيل وصلبان لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر. وقوله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ (3) وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾

تدليل على وحدانية الله تعالى إذ هو خالق السموات والأرض وما بينهما ومالكهما ومدبر الأمر فيهما، ورب المشارق أيضاً والمغرب أي مشارق الشمس ومغاريها إذ كل يوم تشرق وتغرب في درجة معينة فالإله الحق هو الخالق للعوالم والمدبر لها لا الذي ينحته الرجل بيده ويقول هو إلهي زوراً وباطلاً. ألا فليتحرك المشركون من أسر الشيطان ويعبدوا الرحمن. وقوله تعالى {إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ (4) الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (5)} هذه مظاهر القدرة والعلم

1 - روى مسلم وغيره عنه صلى الله عليه وسلم قال "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال صلى الله عليه وسلم يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف.

2 - هذا جواب القسم وهو المقسم عليه والصفات الملائكة تصف أجنحتها في السماء أو تصف للصلاة كما يصف المؤمنون للصلاة في الدنيا، وجائز أن يراد بالصفات صفوف المؤمنين في الصلاة وفي الجهاد.

3 - رب السموات والأرض خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو رب السموات الخ.

4 - هذه الجملة بمثابة الدليل على ربوبية الله تعالى الموجبة للإلهية له سبحانه وتعالى دون سواه.

5 - قرأ الجمهور بزينة الكواكب بإضافة زينة إلى الكواكب وقرأ حفص بتوين زينة وجر الكواكب على البدلية ومنهم من نصب الكواكب على الاختصاص والكواكب جمع كوكب وهي تلك الأجرام الكرية السماوية ومنها الثابت ومنها السيارة وهي كل ما يرى في السماء ما عد الشمس والقمر وتسمى النجوم وهي تختلف في أحجامها.

(4/397)

والحكمة إنه وحده تعالى زين السماء الدنيا أي القريبة من الأرض بزينة هي الكواكب المشرقة المنيرة. وقوله {وَحِفْظًا (1) مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} أي وحفظنا السماء حفظاً تاماً من كل شيطان عادٍ متمرد عن الطاعة. وقوله {لَا يَسْمَعُونَ (2) إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى} أي لا يستمعون إلى الملائكة في السماء حتى لا ينقلوا أخبار الغيب إلى أوليائهم من الكهان في الأرض. وقوله {وَيُقْفَلُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} أي ويرمى أولئك المردة من الشياطين من قبل الملائكة من كل جهة من جهات السماء دحوراً أي لدحرهم وإبعادهم. وقوله تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (3)} لأولئك المردة من الشياطين عذاب واصل موجه دائم وقوله {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} أي اختطف الكلمة بسرعة {فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ (4) ثَاقِبٌ} أي كوكب مضيء فتقبه فقتله أو أحرقه أو خبله أي أفسده، وبهذا حُميت السماء بالملائكة من دخول الشياطين إليها واستراق السمع. والحمد لله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته إما تنويهاً بعظمتها المقرر ضمناً لعظمة خالقها وإما بياناً لفضلها وإما لفتاً لنظر العباد إلى ما فيها من الفوائد.
- 2- تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله.
- 3- بيان الحكمة من وجود النجوم في السماء الدنيا.
- 4- بيان أن الشياطين حرموا من استراق السمع، ولم يبق مجال لكذب الشياطين على الناس بعد أن منعوا من استراق السمع(5).

فَاسْتَفْتَنَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ

- 1 - قال أهل العلم النجوم لثلاثة للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر وكزينة للسماء بما فيها من أنوار وللحفظ من الشياطين أن يسترق السمع من الملائكة فمن طلبها لغيرها فقد أساء واعتدى.
- 2 - قرأ الجمهور لا يسمعون بسكون السين وتخفيف الميم وقرأ حفص عن عاصم لا يسمعون بتشديد السين والميم مفتوحتين الأصل لا يتسمعون من التسمع فقلبت التاء سينا وأدغمت في السين.
- 3 - الواصب: الدائم يقال صب صباً وصوباً إذا دام وهو عذاب الآخرة.
- 4 - يقال له في علم الهيئة النيزك وعن ابن عباس الشهاب لا يقتل ولكن يخترق ويخبل.
- 5 - صح في الحديث أن من الجائر أن ينجوا مسترق السمع من شهب الملائكة، ويلقي بالكلمة التي استرقها إلى الكاهن أو الساحر بعدما يضيف إليها تسعا وتسعين كلمة.

(4/398)

وَيَسْحَرُونَ (12) وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (15) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوِ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18)

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

شرح الكلمات:

فاستفتنهم : أي استخبر كفار مكة تقريراً وتوبيخاً.

أهم أشد خلقاً أم من خلقنا: أي خلقهم في نواتهم وإعادتهم بعد موتهم، أم من خلق تعالى من الملائكة والسموات والأرض وما فيها من سائر المخلوقات.

من طين لازب : أي يلصق باليد.

بل عجبت ويسخرون : أي عجبت يا نبي الله من إنكارهم للبعث، وهم يسخرون من دعوتك إلى الإيمان به.

وإذا ذكروا لا يذكرون: أي وإذا وعظوا لا يتعظون.

وإذا رأوا آية يستسخرون : أي إذا رأوا حجة من الحجج التي تحمل الآيات القرآنية تقرر البعث والتوحيد والنبوة يسخرون أي يستهزئون.

قل نعم وأنتم داخرون : أي قل لهم يا رسولنا نعم تبعثون وأنتم صاغرون أذلاء.

فإنما هي زجرة واحدة : أي صيحة تزجرهم وهي نفخة إسرافيل في الصور النفخة الثانية. هذا يوم الدين : أي يوم الحساب والجزاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والبعث والجزاء وقوله تعالى فاستفتهم (1) أي استخبرهم واطلب جوابهم أي بقولك أنتم أشد خلقاً أي في ذواتكم وفي إحيائكم بعد مماتكم أم من خلقه الله من الملائكة والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؟ والجواب معلوم وهو أن خلق غيرهم

1 - مأخوذ من استفتاء المفتي والفتيا هي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما والاستفهام هنا تقريرى.

(4/399)

من العوالم أشد خلقاً إذا فكيف ينكرون البعث بدعوى استحالة وجوده لصعوبته قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي خلقنا أباهم آدم من طين لازب أي لاصق يلصق باليد ثم خلقناهم بطريق التناسل أفيعجزنا إعادة خلقهم مرة أخرى والجواب لا. لا وقوله تعالى ﴿بَلْ (1) عَجِبْتَ﴾ أي من تكذيبهم بالبعث لوضوح الأدلة على إمكانه ووجوب وجوده ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يسخرون من ذلك أي يستهزئون من قولك بالبعث وإمكانه. وقوله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي بالآيات لعلهم يذكرون فيؤمنون ويوحدون لا يذكرون لقساوة قلوبهم وظلمة ذنوبهم بالشرك والمعاصي. وقوله ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (2) أي يسخرون ويستهزئون ﴿وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القول والعمل إلا سحر مبين أي بين ظاهر وهم في ذلك كاذبون قطعاً للفرق بين السحر الذي هو تخيل باطل وبين الحق الثابت عقلاً ووحياً من دقائق الشرع وأصول الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر وقوله ﴿إِذَا مِثْنَا (3) وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي لَمَبْعُوثُونَ هذا قول المكذبين من المشركين يقولونه متعجبين مستبشرين للبعث قال تعالى رداً عليهم قل يا رسولنا لهم

{نَعَمْ} تبعثون أحياء {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} أي صاغرون ذليلون وأمر إعادتكم لا يتطلب أكثر من أن ينفخ إسرافيل في الصور فإذا أنتم أحياء تخرجون من قبوركم {فَأَيُّهَا هِيَ زَجْرَةٌ} أي صحية {وَإِذَا هُمْ} قيام {يَنْظُرُونَ} ويقولوا أي عند قيامهم من قبورهم {يَا وَيْلَنَا} أي هلاكنا احضر هذا أوان حضورك أي يدعون على أنفسهم بالهلاك لشدة ما شاهدوا من هول القيامة كقول أحدهم يا ليتها كانت القاضية. وقولهم هذا يوم الدين اعتراف منهم بالبعث والجزاء ولكن في وقت ما هو بنافع لهم الاعتراف فيه أي هذا يوم الحساب والجزاء فيقال لهم {هَذَا يَوْمُ الْقُصْلِ (4)} الذي يفصل الله تعالى فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فيحكم بينهم بالعدل، وقوله تعالى {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ} فيه توبيخ لهم أي هذا يوم البعث الذي كنتم تكذبون به وتقولون مستبشرين له أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعثون أو أباؤنا الأولون أي وأباؤنا الأولون أيضاً.

- 1 - بل للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى حالهم العجب قرأ الجمهور عجبت بفتح التاء والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن مسعود بضم التاء ونسبة العجب إلى الله تعالى ليست كنسبته إلى خلقه كسائر صفاته تعالى.
- 2 - سخريتهم هذه من محاجة النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاهم بالآيات القرآنية الحاملة للأدلة العقلية وهم لجهلهم وعجزهم يدفعونها بالاستسحار والإنكار وهذا غاية الجهل والضلال.
- 3 - الاستفهام إنكاري وجملة وأنتم داخرون في محل نصب على الحال.
- 4 - جائز أن يكون { هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون } من قول الله تعالى والملائكة لهم وجائر أن يكون من قول بعضهم لبعض.

(4/400)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أصل خلق الإنسان وهو الطين اللازب أي اللاصق باليد.
 - 2- بيان موقفين متضادين الرسول يعجب من كفر المشركين وتكذيبهم والمشركون يسخرون من دعوته إياهم إلى الإيمان وعدم التكذيب بالله ولقائه.
 - 3- تقرير البعث وبيان طريقة وقوعه.
 - 4- عدم الانتفاع بالإيمان عند معانيه العذاب.
- احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)
وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ

عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29)
وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30)
شرح الكلمات:

احشروا الذين ظلموا : أي أنفسهم بالشرك والمعاصي.

وأزواجهم : أي قرنائهم من الشياطين.

من دون الله : أي من غير الله من الأوثان والأصنام.

فاهدوهم : أي دلوهم وسوقوهم. -

إلى صراط الجحيم : أي إلى طريق النار.

وقفوهم إنهم مسؤولون : أي احبسوهم عند الصراط إنه مسؤولون عن جميع أقوالهم وأفعالهم.

ما لكم لا تتاصرون : أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا توبيخاً لهم.

(4/401)

إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين : أي عن يمين أحدنا تزينون له الباطل وتحسنون له الشر فتأمرونه
بالشرك وتتهونه عن التوحيد.

قالوا بل لم تكونوا مؤمنين : أي قال قرنائهم من الجن رداً عليهم بل لم تكونوا أساساً مؤمنين.

وما كان لنا عليكم من سلطان : أي من حجة ولا قوة على حملكم على الشرك والشر والباطل.

بل كنتم قوماً طاغين : أي بل كنتم طغاة ظلمة تعبدون غير الله تعالى وتجبرون الناس على ذلك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في موقف عرصات القيامة إنهم بعد اعترافهم بأن هذا يوم الدين ورد الله تعالى عليهم

بقوله {هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون} يقول الجبار عز وجل {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم}

أي احشروا الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي (1)، وقوله {وأزواجهم} أي قرنائهم (2) من الجن

{وما كانوا يعبدون من دون الله} من الأصنام والأوثان. وقوله تعالى {فاهدوهم} (3) إلى صراط

الجحيم} يقول الله عز وجل فاهدوهم أي دلوهم إلى طريق النار. ويقول {وقفوهم إنهم مسؤولون} ثم

يسألون {ما لكم لا تتاصرون} (4) أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا. كيف ينصر

بعضهم بعضاً في مثل هذا الموقف الرهيب بل هم اليوم مستسلمون أي منقادون ذليلون وقوله تعالى

{وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} أي أقبل الأتباع على المتبوعين يتساءلون أي يتلامون كل

يلقي بالمسؤولية على الآخر. فقال الأتباع من الإنس لقرنائهم من الجن ما أخبر تعالى به عنهم

{إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين} (5) أي والشمال أي توسوسون لنا فتحسنون لنا الشرك والشر بل

تأمرونا به وتحضوننا عليه. فرد عليهم قرنائهم بما أخبر تعالى به عنهم {قالوا بل لم تكونوا مؤمنين}

أي ما كنتم مؤمنين فكفرناكم ولا

- 1 - ظلموا بمعنى أشركوا لأن الشرك أقبح أنواع الظلم شاهده قوله تعالى إن الشرك لظلم عظيم والآمر في قوله (احشروا) الله عز وجل والمأمور الملائكة والمأمور بحشرهم المشركون.
- 2 - وفسر أزواجهم أيضا بأشياءهم وقرنائهم وهم من الجن وما في التفسير أولى.
- 3 - أي سوقوهم إلى النار والمأمور الملائكة كما تقدم.
- 4 - ما لكم لا تتاصرون أي ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ولاستفهام للتقريع والتوبيخ.
- 5 - اضطرب أهل التفسير في تفسير تأتوننا عن اليمين وأقوالهم متضاربة فمنهم من قال تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها قاله قتادة، ومنهم من قال اليمين بمعنى القوة أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر وهذا ينسجم مع السياق وما في التفسير شامل لهذه الأقوال إذ معناه إنكم تأتوننا من كل جهة تحاولون إغواءنا وإضلالنا.

(4/402)

صالحين فأفسدناكم، ولا موحدين فحملناكم على الشرك. هذا أولاً وثانياً ما كان لنا عليكم من سلطان أي من حجج قوية أفتعناكم بها، ولا قدرة لنا أرهقناكم بها فأتبعتمونا، بل كنتم قوماً طاغين أي ظلمة متجاوزين الحد في الإسراف والظلم الشر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان صور لموقف من مواقف القيامة.
 - 2- بيان أن الأشباه في الكفر والفجور أو في الفسق تحشر مع بعضها بعضاً.
 - 3- عدم جدوى براءة العابدين من المعبودين واحتجاج التابعين على المتبوعين.
- فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَانِقُونَ (31) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَفُقُولُونَ إِنَّا لَأَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)

شرح الكلمات:

فحق علينا قول ربنا : أي وجب علينا العذاب.

إننا لذائقون : أي العذاب نحن وأنتم .

فأعويناكم إننا كنا غاوين: أي أضللناكم إننا كنا ضالين.

فإنهم يومئذ : أي يوم القيامة.

في العذاب مشتركون: لأنهم كانوا في الغواية مشركين.
إننا كذلك نفعل بالمجرمين: كما عذبنا هؤلاء التابعين والمتبوعين نعذب التابعين والمتبوعين في كل ضلال وكفر وفساد.
إنهم كانوا إذا قيل لهم: أي إن أولئك المشركين من عبدة الأوثان إذا قال لهم الرسول.

(4/403)

لا إله إلا الله يستكبرون: أي قولوا لا إله إلا الله ولا تعبدوا إلا الله يستكبرون ولا يقولون ولا يوحدون.
لشاعر مجنون: يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم.
بل جاء بالحق وصدق المرسلين: أي جاء بلا إله إلا الله وهو الحق الذي جاءت به الرسل وقد صدقهم فيما أخبروا به من قبله وهو التوحيد.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم فيما ذكر تعالى من تساؤلات الظالمين وما قاله الأتباع للمتبوعين وما قاله المتبوعون للأتباع فقوله تعالى {فَحَقَّ عَلَيْنَا (1) قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَانِقُونَ} هذا قول المتبوعين لأتباعهم قالوا لهم فبسبب غوايتنا وضلالنا وجب علينا العذاب إننا وأنتم لذائقوه لا محالة. وقالوا لهم أيضاً معترفين بأغوائهم لهم فأغويناكم إننا كنا غاوين هذا قول الجن للإنس قال تعالى {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} وذلك لاشتراكهم في الشرك والنشر والفساد وقوله تعالى {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} من سائر الأصناف كالزناة وأكلة الربا وسافكي الدماء فنعذب الصنف مع صنفه وهذا عائد إلى قوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم أي أشياعهم وأضرابهم وقوله تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا (2) إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} يخبر تعالى عن مشركي قريش أنهم كانوا في الدنيا إذا قال لهم رسول الله أو أحد المؤمنين قولوا لا إله إلا الله يستكبرون (3) ويشتمزون ولا يقولونها بل ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر (4) مجنون يعنون النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يصفون القرآن بالشعر ومحمداً صلى الله عليه وسلم تاليه وقارئه بالشعر ولما يدعوهم إليه من الإيمان بالبعث والجزاء بالجنون والرسول في نظرهم مجنون. فرد تعالى عليهم بقوله {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ (5)} أي لم يكن رسولنا بشاعر ولا مجنون بل جاء بالحق فأنكرتموه وكذبتم به تقليداً وعناداً فقلتم ما قلتم. وإنما هو قد جاء بالحق الذي هو لا إله إلا الله {وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ} الذين جاءوا قبله بكلمة لا إله إلا الله والدعوة إليها والحياة والموت عليها.

1 - أي وجب علينا قول ربنا فكلنا ذائقوا العذاب شاهده قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله عز وجل كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم.

- 2 - إنهم كانوا: هذه الجملة تعليلية للحكم السابق وهو بيان العلة منه وفي الكلام حذف تقديره أنهم كانوا إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله فحذف القول للعلم به.
- 3 - شاهده حديث ابن أبي حاتم قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه إلى الله " وهو في الصحيح بأوسع منه.
- 4 - أي لقول شاعر فحذف القول لظهوره.
- 5 - بل للإضراب الانتقالي عن قولهم: شاعر مجنون الباطل وقد سبق الحق المبين وهو شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله.

(4/404)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان هلاك الضال ومن أضله والغاوي ومن أعواه.
- 2- بيان ما كان يوجهه المشركون لرسول الله من التهم الباطلة ورد الله تعالى عليها.
- 3- التعظيم من شأن لا إله إلا الله وأنها دعوة كل الرسل التي سبقت النبي محمداً صلى الله عليه وسلم.
- 4- تقرير التوحيد والبعث والجزاء والنبوة المحمدية.
- إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْرَرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (40)
 أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44)
 يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (47)
 وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48)
 كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

شرح الكلمات:

وما تجزون إلا ما كنتم تعملون : أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه من الشرك والمعاصي.
 إلا عباد الله المخلصين : أي لكن عباد الله المخلصين أي العبادة لله وحده فإنهم يجزون أعمالهم إذ
 الحسنة بعشر أمثالها وأكثر.

لهم رزق معلوم : أي في الجنة بكرة وعشيا.

فواكه : أي طعامهم وشرابهم فيها للتلذذ به كما يتلذذ بالفواكه فليس هو لحفظ أجسامهم حية كما في الدنيا.

وهم فيها مكرمون : أي لا تلحقهم فيها إهانة بل يقال لم هنيئاً بخلاف أهل النار يقال لهم ذوقوا عذاب النار بما كنتم تعملون.

(4/405)

من معين : أي يجري على وجه الأرض كعيون الماء الجارية على الأرض.
لذة للشاربين : أي الخمرة موصوفة بأنها لذة للشاربين.
لا فيها غول : أي ما يغتال عقولهم وأجسامهم فيهلكهم.
ولا هم عنها ينزفون : أي لا يسكرون عنها أي بسببها كما هي خمر الدنيا.
قاصرات الطرف : أي لا ينظرون إلى غير أزواجهن لحسنهم وجمالهم عندهن.
عين : أي واسعات الأعين الواحدة عينا.
بيض مكنون : أي كأنهم بيض مكنون أي مستور لا يصله غبار ولا غيره.
معنى الآيات:

قوله تعالى {إِنَّكُمْ لَذَانِقُونَ (1) الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَمَا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} هذا يقال لأهل النار وهم موقوفون يتساءلون ومن جملة ما يقال لهم عندئذ هذا القول فيخبرون بأنهم ذائقوا العذاب الأليم الموجع، وأنهم ما يجزون إلا بما كانوا يعملون فلا يظلمون بالجزاء بل هو جزاء عادل السيئة بمثلها. وهنا استنتى تعالى جزاء المؤمنين الذي استخلصهم لعبادته فعبوده ووجدوه فإنهم يجزون بأكثر من أعمالهم فضلاً منه عليهم وإحساناً إليهم فالحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة وأكثر، فقال {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} وبين تعالى بعض جزائهم فقال {وَأُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} أي يأكلونه بكرة وعشيا(2)، وقوله {فَوَاكِهَ} (3) فيه إشارة إلى أنهم لا يأكلون ولا يشربون لحفظ أجسادهم من الموت والفناء، وإنما يأكلون ما يأكلون ويشربون ما يشربون تلذذاً بذلك لا لدفع غائلة الجوع كما في الدنيا. {وَهُمْ مُكْرَمُونَ} أي في الجنة حيث لا تلحقهم إهانة أبداً، وقوله في جنات النعيم أضاف الجنة إلى النعيم مبالغة في وصفها بالنعيم حتى جعل الجنة جنة النعيم فجعل للنعيم وهو النعيم جنة، وأخبر أنهم متكئون فيها على سرر متقابلين ينظر بعضهم إلى بعض وهم في جلسات تتعم، وأخبر عنهم أنهم في حال جلوسهم متقابلين يسقون بواسطة خدم من الملائكة خاص فقال {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُؤُوسٍ مِنْ مَعِينٍ} أي من خمر تجري بها الأنهار كأنه عيون الماء، ووصف

1 - الأصل لذائقون العذاب فحذفت النون تخفيفاً وأضيف لذائقوا إلى العذاب فخفض ولو نصب لجاز كقول الشاعر:

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلاً.

2 - إلا عباد الله المخلصين: الاستثناء منقطع في معنى الاستدراك وهو تعقيب الكلام بما يضاؤه أو يرفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه وهو الغالب في الاستدراك قرأ الجمهور المخلصين باسم المفعول وقرأها غيرهم باسم الفاعل بكسر اللام والمراد بهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما روي عن الشافعي قوله:

ومما زادني شرفاً وفخراً
وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن أرسلت أحمد لي نبيا

3 - عطف بيان من رزق معلوم والمعنى أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتقكه بها لا مما يؤكل للشبع.

(4/406)

الخمير بأنها بيضاء وأنها لذة عظيمة للشاربين لها، وأنها لا فيها غول وهو ما يغتال أبدانهم كالصداع ووجع البطن فقال {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (1)} أي لا يسكرون بها فتذهب بعقولهم. وقوله {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} يعني أن لهم نساء هن أزواج لهم ومعنى قاصرات الطرف أي على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم وذلك لحسنهم وجمالهم فلا تنظر الواحدة منهمن إلا إلى زوجها. وقوله {عِينٌ} أي واسعات الأعين {كَأَنَّهُنَّ بَيَاضٌ (2) مَكْنُونٌ} هذا وصف لنساء الجنة وأنهن بيض الأجسام بياضاً كبياض بيض النعام إذ هو أبيض مشرب بصفرة وهو من أحسن أنواع الجمال في النساء ومعنى {مَكْنُونٌ} مستور لا يناله غبار ولا أي أذى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان عدالة الحق تبارك وتعالى في أنه يجزي السيئة بمثلها ولا يؤاخذ أحداً بغير كسبه في الحياة الدنيا.

2- بيان فضل الله تعالى إذ يجزي المؤمنين الحسنة بعشر أمثالها إلى أكثر من سبعمائة.

3- تقرير البعث وبيان بعض ما يجري فيه من قول وعمل.

4- وصف نعيم أهل الجنة طعاماً وشراباً وجلوساً واستمتاعاً.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَأَتَىكَ لَمَنِ الْمُصَدِّقِينَ (52) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَأَنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتُزَيِّنَ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي

1 - ينزفون بالبناء للمجهول قراءة الجمهور من نرف الشارب فهو منزوف ونزيف شهبوا عقل الشارب بالدم يقال نرف دم الجريح أي أفرغ وأصله من نرف الرجل ماء البئر إذا نرجه ولم يبعد منه شيئاً. وقرأ البعض ينزفون من أنرف الرباعي الشارب إذا ذهب عقله بالسكر أي صار ذا نرف فالهمزة للصيرورة لا للتعدية.

2 - العرب تشبه النساء بالبيض لصفائهن وبياضهن قال امرؤ القيس الشاعر الجاهلي:
وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل
أطلق لفظ البيضة على المرأة.

(4/407)

لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)
شرح الكلمات:

فأقبل بعضهم على بعض : أي أقبل أهل الجنة.
يتساءلون : عما مرّ بهم في الدنيا وما جرى لهم فيها.
إني كان لي قرين : أي كان لي صاحب ينكر البعث الآخر.
يقول أنك لمن المصدقين : أي يقول تكيتاً لي وتوبيخاً أي بالبعث والجزاء.
أنا لمدينون : أي محاسبون ومجزيون بأعمالنا في الدنيا إنكاراً وتكذيباً.
هل أنتم مطلعون : أي معي إلى النار لننظر حاله وما هو فيه من العذاب.
فاطلع فراه في سواء الجحيم : أي في وسط النار.
تالله إن كدت لتردين : أي قال هذا تشميتاً به، ومعنى تردين تهلكني.
لكنت من المحضرين : أي المسوقين إلى جهنم المحضرين فيها.
أفما نحن بميتين : أمخلدون فما نحن بميتين، والاستفهام للتقرير أي نعم.
إلا موتنا الأولى : التي ماتوها في الدنيا.
لمثل هذا فليعمل العاملون : أي لمثل هذا النعيم من الخلود في الجنة والنعمة فيها فليعمل العاملون وذلك بكثرة الصالحات واجتناب السيئات.
معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان نعيم أهل الجنة فقد قال بعضهم لبعض بعد أن جلسوا على السرر متقابلين

يتجادبون أطراف الحديث متذكّرين ما مرّ بهم من أحداث في الحياة الدنيا فقال أحدهم إنني كان لي في الدنيا قرين أي صاحب يقول لي استهزاء وإنكاراً للبعث الآخر {أَتَيْتَكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} أي بالبعث والجزاء على الأعمال في الدنيا. ويقول أيضاً مستبعداً منكراً {إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أِنَّا لَمَدِينُونَ} أي محاسبون ومجزيون. ثم قال ذلك القائل لبعض

(4/408)

أهل مجلسه {هَلْ أَنْتُمْ (1) مُطَّلِعُونَ} أي معي على أهل النار لنرى صاحبي فيها ونسأله عن حاله فكانهم أبوا عليه ذلك وأبوا أن يطلعوا أما هو فقد اطلع فرآه في سواء الجحيم أي في وسطها (2)، وقال له ما أخبر به تعالى عنه في قوله {قَالَ تَاللَّهِ} أي والله {إِنْ كِدْتَ (3) لَتُزِدِنِي} أي تهلكني لما كنت تتكر عليّ الإيمان بالبعث وتسخر مني وتشتت بي لإيماني وعملي الصالح الذي كنت أرجو ثوابه وهو حاصل الآن وقال أيضاً {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي} عليّ بالعصمة والحفظ لكنت من المحضرين الآن في جهنم معك. ثم قال له {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى} والاستفهام تقريره فهو يقرره ليقول نعم (4) مخلدون نحن في الجنة وأنتم في النار. ثم قال إن هذا أي الخلود في دار النعيم {لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} إذ كان نجاة من النار وهي أعظم مرهوب مخوف، ودخولاً للجنة دار السلام والنعيم المقيم. قال تعالى {لِمِثْلِ هَذَا} أي هذا الفوز العظيم بالنجاة من النار والخلود في دار الأبرار {فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} أي فليواصلوا عملهم وليخلصوا فيه لله رب العالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان عظمة الله تعالى في إقدار المؤمن على أن يتكلم مع من هو في وسط الجحيم ويرى صورته ويتخاطب معه ويفهم بعضهم بعضاً، والعرض التفاضلي اليوم قد سهل إدراك هذه الحقيقة.
- 2- التحذير من قرناء السوء كالشباب الملحد وغيره.
- 3- بيان كيف كان المكذبون يسخرون من المؤمنين ويعدونهم متخلفين عقلياً.
- 4- لا موت في الآخرة (5) وإنما حياة أبدية في النعيم أو في الجحيم.
- 5- الحث على كثرة الأعمال الصالحة، والبعد عن الأعمال الفاسدة.

1 - أورد البخاري إيرادات لا حاجة إليها منها: قيل القرين هو من الشياطين. وقرئ من المصدقين بتشديد الصاد والذال من التصدق بالمال، وجعل أنتم مطلعون أنه من قول الله تعالى أو قول ملك. وما في التفسير هو الصواب ولا داعي لإيراد ما بخلافه إذ لا فائدة منه إلا تذبذب الرأي واضطراب الفكر.

- 2 - قال ابن مسعود رضي الله عنه يقال تعبت حتى انقطع سوائي أي وسطي وقال بعض العلماء، لولا أن الله عرفه إياه لما عرفه إذ تغير حبره وسبره أي اللون والهيئة.
- 3 - إن كدت إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير ثان محذوف واللام في لتردين هي الدالة على أن إن ليست نافية ولذا تسمى باللام الفارقة.
- 4 - وجائز أن يكون هذا القول موجهاً إلى أصحاب الأرائك أهل النعيم بعد أن فرغ المؤمن من الحديث مع قرينه في سواء الجحيم قال لرفاقه في النعيم مقررأً أفما نحن بميتين... الآية. والسياق يساعد على جواز هذا.
- 5 - قيل لأحد الحكماء: ما شر من الموت؟ قال الذي يتمنى فيه الموت وقال الشاعر:
- كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنيا أن يكن أمانيا
- وكون لا موت في الآخرة صح فيه الحديث إذ يؤتى بالموت في صورة كبش أملح وبذبح بين الجنة والنار وينادي مناد يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت.

(4/409)

أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسُوا مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (72) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

شرح الكلمات:

أذلك خير نزلا : أي ذلك المذكور لأهل الجنة خير نزلاً وهو ما يعد للنازل من ضيف وغيره.

أم شجرة الزقوم : المعدة لأهل النار وهي من أخبث الشجر طعماً ومرارة.

إننا جعلناها فتنة للظالمين : أي امتحاناً واختباراً لهم في الدنيا وعذاباً لهم في الآخرة.

تخرج في أصل الجحيم : أي في قعر الجحيم وأغصانها في دركاتها.

طلعها كأنه رؤوس الشياطين : أي ما يطلع من ثمرها أولاً كالحيات القبيحة المنظر.

إن لهم عليها لشوباً من حميم : أي بعد أكلها يسقون ماء حميماً فذلك الشوب أي الخلط.

إنهم ألقوا آباءهم : أي وجدوا آباءهم.

فهم على آثارهم يهرعون : أي يسرعون مندفعين إلى أتباعهم بدون فكر ولا روية.

ولقد أرسلنا فيهم منذرين : أي رسلاً منذرين لهم من العذاب.

فانظر كيف كان عاقبة المنذرين : إنها كانت عذاباً أليماً لإصرارهم على الكفر .
إلا عباد الله المخلصين : فإنهم نجوا من العذاب ولم يهلكوا .

(4/410)

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى ما أعد لأهل الإيمان به وطاعته وطاعة رسوله من النعيم المقيم في الجنة دار الأبرار قال أذلك (1) المذكور من النعيم في الجنة خير نزلاً والنزل ما يعد (2) من قرى للضيف النازل وغيره أم شجرة الزقوم، أي ثمرها وهو ثمر سمج مرّ قبيح المنظر . ثم أخبر تعالى أنه جعلها فتنة للظالمين من كفار قريش إذ قالوا لما سمعوا بها كيف تنبت الشجرة في النار والنار تحرق الشجر، فكذبوا بها فكان ذلك فتنة لهم . ثم وصفها تعالى بقوله {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} أي في قعرها تمتد فروعها في دركات النار . وقوله طلعتها أي ما يطلع من ثمرها في قبح منظره {كَأَنَّهُ رُؤُوسُ} (3) الشَّيَاطِينِ لأن العرب تضرب المثل بالشيطان في القبح كما أن هناك حيات يسمونها بالشيطان قبيحة المنظر وقوله فإنهم أي الظلمة المشركين لآكلون منها أي من شجرة (4) الزقوم لشدة جوعهم فمالئون منها البطون أي بطونهم {ثُمَّ إِنَّ لَّهُمْ عَلَيْهَا نُشُوبًا مِّنْ حَمِيمٍ} وذلك أنهم لما يأكلون يعطشون فيسقون من حميم فذلك الشوب من الحميم إذ الشوب الخلط والمزج يقال شاب اللبن بالماء أي خلطه به وقوله {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} أي مردهم إلى الجحيم بعدما يأكلون ويشربون في مجالس خاصة بالأكل والشرب يردون إلى نار الجحيم .

وقوله تعالى {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} أي وجدوا آباءهم ضالين عن طريق الهدى والرشاد {فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} (5) أي يهرولون مسرعين وراءهم يتبعونهم في الشرك والكفر والضلال وقوله تعالى {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ} أي فليس هؤلاء أول من ضل {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} أي في أولئك الضالين من الأقسام السالفين منذرين أي رسلاً ينذرونهم فلم يؤمنوا فأهلكناهم فانظر كيف كانت عاقبة المنذرين إنها كانت هلاكاً ودماراً للكافرين . وقوله تعالى {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (6) استثناء منه تعالى لعباده المؤمنين الصالحين وهم الذين استخلصهم لعبادته بذكره وشكره فأمنوا وأطاعوا فإنه تعالى نجاهم وأهلك أعداءهم الكافرين المكذبين وفي الآية تهديد ووعد لكفار قريش بما لا مزيد عليه .

1 - أذلك خير : مبتدأ وخبر ونزلاً تمييز ، والمعنى أنعيم الجنة خير نزلاً أم شجرة الزقوم خير نزلاً؟

2 - قرى الضيف هو ما يعد له من طعام وشراب وفراش ويسمى النزل بضم النون والزاي ويجوز تسكين الزاي .

- 3 - مما تعارف عليه العرب أنهم يصورون كل قبيح (بصورة الشياطين) قال امرؤ القيس:
أَيَقْتُلُونَنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةَ زُرُقِ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِي
انظر كيف صور سهامه المحددة بصورة أنياب الأغوال ولا يوجد أغوال في الواقع وإنما مجرد تصور
وتقدير لا غير.
- 4 - هذا الطعام والشراب مقابل ما لأهل الجنة من رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم.
- 5 - الإهراء الإسراع من شخص يستحثه بشيء على الإسراع والهرولة.
- 6 - الاستثناء متصل لأن المخلصين كانوا من جملة المنذرين فصدقوا المنذرين واتبعوهم وذلك
باستخلاص الله تعالى لهم لعبادته والدعوة إليه.

(4/411)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أحسن الأساليب في الدعوة وهو الترهيب والترغيب.
 - 2- تقرير البعث والجزاء بأسلوب العرض للأحداث التي تتم في القيامة.
 - 3- التنديد بالاتباع في الضلال للآباء والأجداد وأهل البلاد.
 - 4- إهلاك الله تعالى للظالمين وإنجاؤه للمؤمنين عند الأخذ بالذنوب في الدنيا والآخرة.
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ
الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79)
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (82)
- شرح الكلمات:

ولقد نادانا نوح : أي قال إني مغلوب فانتصر "من سورة القمر"

فلنعم المجيبون : أي له إذ نجيناه وأهلكنا الكافرين من قومه.

من الكرب العظيم : أي عذاب الغرق بالطوفان.

وجعلنا ذريته هم الباقين : إذ عامة الناس كانوا من ذريته سام، وحام ويافت.

وتركنا عليه في الآخريين : أي أبقينا عليه ثناء حسناً عند سائر الأمم والشعوب.

سلام على نوح في العالمين : أي سلام على نوح في العالمين أي في الناس أجمعين.

إننا كذلك نجزي المحسنين : أي كما جزينا نوحاً بالذكر الحسن والسلام في العالمين نجزي

المحسنين.

ثم أغرقنا الآخرين : أي كفار قومه المشركين بعد إنجاء المؤمنين في السفينة.

(4/412)

معنى الآيات:

على إثر ذكره تعالى إهلاك المنذرين وإنجائه المؤمنين من عباده المخلصين ذكر قصة تاريخية لذلك وهي نوح وقوه حيث أنذرنوح قومه ولما جاء العذاب أنجى الله عباده المخلصين وأهلك المكذبين المنذرين فقال تعالى في ذكر هذه القصة الموحدة {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ} أي دعانا لنصرته من قومه ف {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ} وقال {إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ الصِّرُوفُ} {فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ} نحن له {وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ} باستثناء امرأته وولده كنعان {مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ} وهو عذاب الغرق. وقوله {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} إلى يوم القيامة وهذا جزاء له على صبره في دعوته وإخلاصه وصدقه فيها إذ كل الناس اليوم من أولاده الثلاثة وهم سام(1) وهو أبو العرب والروم وفارس، وحام وهو أبو السودان ويافث وهو أبو الترك والخزر وهم التتار ضيقوا العيون ولهذا سمو الخزر من خزر العين وهو ضيقها وصغرها، ويأجوج ومأجوج، وقوله {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} (2) أي في أجيال البشرية التي أتت بعده وهو الذكر الحسن الثناء العطر المعبر عنه بقوله تعالى {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي كما جزينا نوحا لإيمانه وصبره وتقواه وصدقه ونصحه وإخلاصه نجزي المحسنين في إيمانهم وتقواهم وهذه بشرى للمؤمنين وقوله {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} ثناء عليه وبيان لعله الإكرام والإنعام عليه. ودعوة إلى الإيمان بالترغيب فيه، وقوله {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ} أي أغرقناهم بالطوفان بكفرهم وشركهم وتكذيبهم بعد أن أنجينا المؤمنين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إكرام الله لأوليائه، وإهانته لأعدائه.
- 2- إجابة دعاء الصالحين لا سيما عندما يظلمون.
- 3- فضل الإحسان وحسن عاقبة أهله.
- 4- فضل الإيمان وكرامة أهله عند الله في الدنيا والآخرة.
- 5- قول سلام على نوح في العالمين إذا قاله المؤمن حين يمسي(3) أو يصبح يحفظه الله تعالى من

1 - عن سعيد بن المسيب قال ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام وولد كل واحد من هؤلاء الثلاث ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وولد

حام القبط والسودان والبربر .

- 2 - قال ابن عباس رضي الله عنهما يُذكر بخير، قال مجاهد لسان صدق في الأنبياء .
3 - وقال سعيد بن المسيب وبلغني انه من قال حين يمسي "سلام على نوح في العالمين لم تلدغه عقرب" ذكره أبو عمرو ابن عبد البر في التمهيد ونقله عنه القرطبي .

(4/413)

لسعة العقرب. وأصح منه قول: أعود بكلمات الله التامة(1) من شر ما خلق لصحة الحديث في ذلك.

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَفُكَا
أَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَتَّقُونَ (92)
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَتَّخِثُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ (96)

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)
شرح الكلمات:

وإن من شيعته لإبراهيم : وإن من أشياع نوح على ملته ومنهاجه إبراهيم الخليل عليهما السلام .
إذ جاء ربه بقلب سليم : أي أتى ربه بقلب سليم من الشرك والشك والالتفات إلى غير الرب سبحانه وتعالى .

إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟ : أي حين قال لأبيه وقومه المشركين أي شيء تعبدون؟
أفكاً آلهة دون الله تريدون؟ : أي كذبا هو أسوأ الكذب تريدون آلهة غير الله؟
فما ظنكم برب العالمين : أي شيء هو؟ أترون أنه لا يسخط عليكم ولا يعاقبكم فتعبدون

- 1 - روى مالك في الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من نزل منزلاً فليقل: أعود بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل".

(4/414)

غيره وهو ربكم ورب العالمين.
 فنظر نظرة في النجوم : أي إيهاما لهم إذ كانوا يؤلهون النجوم.
 فقال إني سقيم : أي عليل أي ذو سقم وهو المرض والعلّة.
 فتولوا عنه مدبرين : أي رجعوا إلى ما هم فيه وتركوه قابلين عذره.
 فراغ إلى آلهتهم : أي مال إليها خفية.
 فراغ عليهم ضربا باليمين : أي بقوة يمينه فكسرها بفأس وحطمها.
 فأقبلوا إليه يزفون : أي يمشون بقوة وسرعة.
 ما تتحتون : من الحجارة والأخشاب والمعادن كالذهب والفضة.
 وما تعملون : أي وخلق ما تعبدون من أصنام وكواكب.
 فقالوا ابنوا له بنياناً: واملأوه حطباً وأضرموا فيه النار فإذا التهب فألقوه فيه.
 فجعلناهم الأسفلين: أي المقهورين الخائبين في كيدهم إذ نجى الله إبراهيم.
 معنى الآيات:

لما ذكر تعالى قصة نوح مقررًا بها نصرته وأوليائه وخذلان أعدائه ذكر قصة أخرى هي قصة إبراهيم وهي أكبر موعظة لكفار قريش لأنهم ينتمون إلى إبراهيم ويدعون أنهم على ملته وملة ولده إسماعيل فلذا أطال الحديث فيها فقال سبحانه تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ (1) لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وإن من أشياع نوح عليه الذين هم على ملته ومنهجه إبراهيم خليل الرحمن ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي إذ أتى (2) ربه بقلب سليم من الشرك والشك والالتفات إلى غير الرب تعالى في الوقت الذي قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون، منكرًا عليهم عبادة الأصنام فلو كان في قلبه أدنى التفاتة إلى غيره طمعا أو خوفا ما أمكنه أن يقول الذي قال بل كان في تلك الساعة سليم القلب ليس فيه نظر لغير الله تعالى وقوله ﴿أَفَكَا (3)﴾ آلهة دون الله تُرِيدُونَ﴾ أي أكذباً هو أسوأ الكذب تريدون آلهة غير الله حيث جعلتموها بكنبكم بألسنتكم آلهة وهي أحجار وأصنام. وقوله ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ وقد عبدتم الكذب دونه إذ آلهتكم ما هي إلا كذب بحت. أترون أن الله لا يسخط عليكم ولا

- 1 - وقيل هاء الضمير عائد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليكون المعنى وإن من شيعة محمد إبراهيم وهو حقاً من شيعته ولكن السياق يأباه بل المراد نوح عليه السلام.
- 2 - قيل في محبته ربه بقلب سليم إما أن يكون عند دعائه إلى توحيده، أو عند إلقائه في النار.
- 3 - الاستفهام إنكاري إذ هو أنكر على قومه عبادة وتأليه غير الله تعالى، وقوله ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ استفهام متفرع عما قبله وهما للإنكار الأول والثاني. فالأول أنكر عليهم اتخاذهم آلهة دونه تعالى والثاني أنكر عليهم سوء ظنهم بالله حتى عبدوا آلهة غيره.

يعاقبكم؟ وقوله {فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} هنا كلام محذوف دل عليه المقام وهو أن أهل البلد قد عزموا على الخروج إلى عيد لهم يقضونه خارج البلد، فعرضوا عليه الخروج معهم فاعتذر بقوله إني سقيم أي ذو سقم بعد أن نظر في النجوم موهماً لهم أنه رأى ما دله على أنه سيصاب بسقم وهو مرض الطاعون وكان القوم منجمين ينظرون إلى النجوم فيدعون أنهم يعرفون بذلك الخير والشر الذي ينزل إلى الأرض بواسطة الكواكب فأوهمهم بذلك فتركوه خوفاً من عدوى الطاعون، أو تركوه قبولاً لعذره (1) هذا ما دل عليه قوله تعالى {فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ} أي لذلك ورجعوا إلى أمورهم وما هم عازمون عليه من الخروج إلى العيد خارج البلد وهو معنى فتولوا عنه مدبرين وهنا وقد خلا له المكان الذي فيه الآلهة من الحراس والعباد والزوار للآلهة في بهوها الخاص فنفذ ما حلف على تنفيذه في مناظرة كانت بينه وبين بعضهم إذ قال {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} وبدأ المهمة فقال للآلهة وأنواع الأطعمة أمامها تلك الأطعمة من الحلويات وغيرها التي يتركها المشركون لتباركها الآلهة ثم يأكلونها رجاء بركتها {أَلَا تَأْكُلُونَ} عارضا عليها الأكل سخرية بها فلم تجبه ولم تأكل فقال لها {مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ} ثم انهال عليها ضرباً بفأس بيده اليمنى فكسرها وجعلها جذاذاً أي قطعاً متناثرة. فلما رجعوا من عيدهم مساءً وجاعوا بهو الآلهة ليأخذوا الأطعمة وجدوا الآلهة مكسرة {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْتَفُونَ} أي مسرعين بأن طلبوا من رجالهم إحضاره على الفور فأحضره وأخذوا يحاكمونه فقال في دفاعه {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ} أي بأيديكم من أصنام بعضها من حجر وبعض من خشب ومن فضة ومن ذهب أيضاً، {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} من كل عمل من أعمالكم فلم لا تعبده، وتعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر، ولما غلبهم في الحجة وانهمزموا أمامه أصدروا أمرهم بإحراقه بالنار فقالوا {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا} أي فرنا عظيماً واملاؤه حطباً وأضرموا فيه النار حتى إذا التهب فألقوه في جحيمه وهو معنى قوله تعالى {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} وقوله تعالى {فَأَرَادُوا} أي بإبراهيم {كَيْدًا} أي شراً وذلك بعزمهم على إحراقه وتنفيذهم ما عزموا عليه {فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ} أي المتهورين المغلوبين إذ قال تعالى للنار {كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} فكانت فرج منها إبراهيم ولم يحرق سوى كتافيه الذي في يديه ورجليه وخيب الله سعي المشركين وأذلهم أمام إبراهيم وأخزاهم

1 - شاهد هذا حديث الصحيح: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً اثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله: إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا. وبينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال هي أختي الحديث.

وهو معنى قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ (1) وقد جمع الله تعالى لهم بين الخسران في كل ما أملوه من عملهم والذل الذي ما فارقهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- أصل الدين واحد فالإسلام هو دين الله الذي تعبد به آدم فمن بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

2- كمال إبراهيم في سلامة قلبه من الالتفات إلى غير الله تعالى حتى إن جبريل قد عرض له وهو في طريقه إلى الجحيم الذي أعده له قومه فقال [هل لك حاجة يا إبراهيم فقال أما إليك فلا].

3- من أفبح الكذب ادعاء أن غير الله يعبد مع الله تبركا به أو طلباً لشفاعته.

4- وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه.

5- بيان ابتلاء إبراهيم وأنه ألقى في النار فصبر، ولذا أكرمه ربه بما سيأتي في السياق بيانه.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا آبَتِ افْعَلِي مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ

1 - هذه الجملة من سورة الأنبياء ذكرت هنا شاهداً مبيناً لغاية كيدهم وهو خسرانهم فيما دبروا وفعلوا.

(4/417)

الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

شرح الكلمات:

إني ذاهب إلى ربي سيهدين : أي إني مهاجر إلى ربي سيهدين إلى مكان أعبد فيه فلا أمتنع فيه من عبادته.

رب هب لي من الصالحين : أي ولداً من الصالحين.

بغلام حلیم : أي ذي حلم وصبر كثير يولد له.
فلما بلغ معه السعي : أي بلغ من العمر ما أصبح يقدر فيه على العمل كسبع سنين فأكثر.
فانظر ماذا ترى : أي من الرأي الرشيد.
من الصابرين : أي على الذبح الذي أمرت به.
فلما أسلما : أي خضعا لأمر الله الولد والوالد وانقادا له.
وتله للجبين : أي صرعه على جبينه بأن وضع جبينه على الأرض ولكل إنسان جبينان أيمن وأيسر
والجبهة بينهما.
قد صدقت الرؤيا : أي بما عزمتم عليه وفعلتم من الخروج بالولد إلى منى وصرعه على الأرض
وإمرار السكين على حلقه.
إن هذا لهو البلاء المبين : أي الأمر بالذبح اختبار عظيم.
وفديناه بذبح عظيم : أي كبش كبير.
وتركنا عليه في الآخرين : أي أبقينا عليه ذكرا حسنا فيمن جاء بعده من الناس.
وباركنا عليه وعلى إسحاق : أي وباركنا عليه بتكثير نريته وذرية إسحاق حتى أن عامة الأنبياء من
ذريتهما.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة إبراهيم الخليل إنه بعد أن ألقى به في النار وخرج بحمد الله سالماً

(4/418)

قرر الهجرة وترك البلاد، وقال {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ} أي إني ذاهب إلى حيث أدن لي
ربي بالهجرة إليه حيث أتمكن من عبادته فذهب إلى بلاد الشام ونزل أولاً بحران من الشام، وقوله
سيهدين أي يثبتني بدوام هدايته لي. ودعا ربه قائلاً {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} أي ارزقني أولاداً
صالحين. فاستجاب الله تعالى له وذلك أنه سافر في أرض القدس مع زوجته سارة وانتهى إلى
مصر، وحدث أن وهب طاغية مصر جارية لسارة تسمى هاجر فوهبتها سارة لزوجها إبراهيم فتسراها
فولدت له غلاماً هو إسماعيل وهو استجابة الله تعالى لإبراهيم في دعائه عند هجرته {رَبِّ هَبْ لِي
مِنَ الصَّالِحِينَ} وهو قوله تعال {فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}. وقد أخذ سارة ما يأخذ النساء من الغيرة لما
رأت جارية إبراهيم أنجبت له إسماعيل فأمر الله إبراهيم بأن يأخذها وطفلها إلى مكة إبعاداً لها عن
سارة ليقول تألمها. وهناك بمكة رأى إبراهيم رؤيته ورؤيا الأنبياء وحي وقال لإسماعيل ما أخبر تعالى
به في قوله {فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ} كإبن سبع سنين (1) فأكثر بمعنى أصبح قادراً
على العمل معه {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ} أي استشاره ليرى رأيه

في القبول أو الرفض فأجاب إسماعيل قائلاً {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} أي ما يأمر بك به ربك {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} وفعلاً خرج به إبراهيم من حول البيت إلى منى (2) وانتهى إلى مكان تجاوز به مكان الجمرات الثلاث وتله للجبين أي صرعه على جبينه بأن وضع جبينه على الأرض وأخذ المدينة ووضعها على رقبته والتفت لأمر ما وإذا بكبش أملح والهاتف يقول اترك ذاك وخذ هذا فترك الولد وذبح الكبش وكانت آية. وهو قوله تعالى {وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ}، وقوله تعالى {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} أي الاختبار البين وبذلك تأهل للخلة وأصبح خليل الرحمن، وقوله تعالى {وَفَدَيْنَاهُ} أي إسماعيل {بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} (3) أي بكبش عظيم. هو الذي

1 - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بلغ الثالثة عشرة من عمره وفي هذا أقوال ولهذا في التفسير قلنا سبع سنين فأكثر إذ بداية السعي من السابعة والبلوغ ينتهي إلى الخامسة عشر.
2 - قيل إن إبراهيم لما رأى الرؤيا كانت ليلة يوم التروية وهو ثامن ذي الحجة فسمي اليوم يوم التروية إذ تروى فيه ويوم التاسع عرف أن الرؤيا حق لذا سمي يوم عرفة ويوم العاشر خرج بإسماعيل ليذبحه فسمي يوم النحر لذلك والله أعلم.

3 - اختلف في أيهما الذبيح أهو إسماعيل أم إسحق والراجح انه إسماعيل لأن الذبح كان في مكة ولم يكن في الشام لأن إسماعيل عاش بمكة ولم يعيش بالشام ولأن هاجر كانت في مكة وسارة كانت بالشام وبلغ الخلاف حتى قال بعضهم نفوس فكان التفويض مذهباً ثالثاً والذي أثار هذا الخلاف هم أهل الكتاب يريدون سلب هذا الفضل عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الآيات الآتية إشارة إلى ذلك:

إن الذبيح هديت إسماعيل
نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شرف به خص الإله نبيا
وأتى به التفسير والتأويل
إن كنت أمتة فلا تنكر له
شرفا به قد خصه التفضيل

(4/419)

ذبحه إبراهيم وترك إسماعيل (1) وقوله {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} أي أبقينا عليه ثناء عاطراً وذكر حسناً فيمن جاء بعده من الأمم والشعوب. {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} أي سلام من الله على إبراهيم كذلك

أي كذلك الجزاء الذي جرى به الله تعالى إبراهيم على إيمانه وهجرته وصبره وطاعته يجزي المحسنين وقوله {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} وفي هذا تناء عاطر على المؤمنين، وقوله {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} وهذا يوم جاءه الضيف من الملائكة وهم في طريقهم إلى المؤتفات قرى قوم لوط، وذلك بعد أن بلغ من العمر عتياً وامرأته سارة كذلك إذ قالت ساعة البشرى {أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} وعجبا لمن يقول إن الذبيح إسحاق وليس إسماعيل، وقوله تعالى {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ} أي وباركنا عليه بتكثير ذريته وذرية إسحاق حتى إن عامة الأنبياء من بعدهما من ذريتهما. وقوله تعالى {وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا} أي إبراهيم وإسحاق {مُحْسِنٌ} أي مؤمن صالح {وَوَطَّالٌمْ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضل الهجرة في سبيل الله وأن أول هجرة كانت في الأرض هي هجرة إبراهيم من العراق إلى الشام.

2- بيان أن الذبيح هو إسماعيل وليس هو إسحاق كما يقول البعض وكما يدعي اليهود.

3- وجوب بر الوالدين وطاعتها في المعروف.

4- فضل إبراهيم وعلو مقامه وكرامته عند ربه.

5- فضل الإحسان وجزاء المحسنين.

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ (115)
وَنَصَرْنَا هُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا

1 - ضعف القرطبي رواية الرجل الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً يا ابن الذبيحين فضحك صلى الله عليه وسلم فلا أرى وجهاً صحيحاً لتضعيفها إذ صح أن الذبيح الأول هو إسماعيل والثاني عبد الله الوالد إذ كل منهما ذبحه والله فداه والله الحمد والمنة.

(4/420)

عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

شرح الكلمات:

ولقد مننا على موسى وهارون : أي بالنبوة والرسالة.

ونجيناها وقومها : أي بني إسرائيل.
من الكرب العظيم : أي استعباد فرعون إياهم واضطهاده لهم.
ونصرناهم : على فرعون وجنوده.
الكتاب المستبين : أي التوراة الموضحة الأحكام والشرائع.
وهديناهما الصراط المستقيم : أي الإسلام لله رب العالمين.
وتركنا عليهما في الآخرين : أي أبقينا عليهما في الآخرين ثناء حسنا.
سلام على موسى وهارون : أي سلام منا على موسى هارون.
إننا كذلك : أي كما جزيها نجزى المحسنين من عبادنا المؤمنين.
إنهما من عبادنا المؤمنين : أي جزيها بما جزيها به لإيمانها.
معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إفضال الله وإنعامه على من يشاء من عباده فبعد ذكر إنعامه على إبراهيم وولده إسحاق ذكر من ذريتهما المحسنين موسى وهارون فقال تعالى {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ} أي بالنبوة والرسالة (1)، {وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا} أي بني إسرائيل {مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ} الذي هو استعباد فرعون والأقباط لهم واضطهادهم زمنا طويلاً {وَنَصَرْنَاَهُمْ} أي على فرعون وملائه (2) {فَكَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ} {وَأَتَيْنَاهُمَا} (3) أي أعطيناها {الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} وهو التوراة الواضحة

- 1 - كانت النبوة والرسالة منة لأن موسى لم يكتسبها بعمل وهارون أعطيتها بدعوة أخيه موسى فلم يكتسبها بأي جهد فهي إذا منة محضة.
- 2 - إذ خرج فرعون في جيش عرمرم قوامه مائة ألف من الفرسان فقط ثم نجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون وجنده أجمعين فكان نصراً عظيماً لموسى على فرعون وملائه أجمعين.
- 3 - موسى أوتي الكتاب أصالة وهارون بالتبعية لأخيه موسى.

(4/421)

الأحكام البين الشرائع لا خفاء فيها ولا غموض. {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وهو الدين الصحيح الذي هو الإسلام دين الله الذي بعث به كافة رسله {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ} أي وأبقينا عليهما الذكر الحسن والثناء العطر فيمن بعدهما {سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ} {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (1) أي كما جزيها لإحسانها نجزى المحسنين {إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} فيه بيان لعلة ما وهبها من الإنعام والإفضال وهو الإيمان المقتضى للإسلام والإحسان.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إكرام الله تعالى لرسوله موسى وهرون عليهما السلام.
 - 2- بيان إنعام الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من آل فرعون ونصرته لهم عليهم.
 - 3- بيان أن الإسلام دين سائر الأنبياء وليس خاصاً بأمة الإسلام.
 - 4- بيان فضل الإحسان والإيمان.
- وَإِنَّ الْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

1 - { إنا كذلك نجزي المحسنين } جملة تذييلية وإن كانت تحمل معنى التعليل والتوكيد، والمحسنون من أحسنوا طاعة الله فأطاعوه بما يجب من أفعال وترك على نحو ما شرعه لهم وجملة إنهما من عبادنا المؤمنين تعليلية للإنعام السابق.

(4/422)

شرح الكلمات:

وإن إلياس لمن المرسلين : إلياس هو أحد أنبياء بني إسرائيل من سبط هرون أرسله الله تعالى إلى أهل مدينة بعلبك بالشام.
أتدعون بعلاً : أي صمنا يسمى بعلا.
وتذرون أحسن الخالقين : أي وتركون عبادة الله أحسن الخالقين.
فإنهم لمحضرون : أي في النار.
إلا عباد الله المخلصين : أي فإنهم نجوا من النار.
وتركنا عليه في الآخريين : أي أبقينا عليه في الآخريين ذكراً حسناً.
سلام على إيل ياسين : أي سلام منا على إلياس.
معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إنعام الله تعالى على بعض أنبيائه ورسله فقال تعالى {وَإِنَّ الْيَاسَ لَمِنَ (1) الْمُرْسَلِينَ} وهو من سبط هرون عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل أخبر تعالى أنه من المرسلين (2) أي اذكر إذ قال لقومه وهم أهل مدينة بعلبك وما حولها {أَلَا تَتَّقُونَ} أي (3) الله تعالى بعبادته وترك عبادة غيره، وهذا دليل على أنه رسول. وقوله عليه السلام {أَتَدْعُونَ بَعْلًا} (4) هذا إنكار منه لهم

على عبادة صنم كبير لهم يسمونه بعلا، أي كيف تعبدون أصناماً بدعائه والعكوف عليه والذبح والنذر له، وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين، {اللَّهُ رَبُّكُمْ (5) وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ}. قال تعالى {فَكَذَّبُوهُ} أي في أنه لا إله إلا الله ف {مَأْتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} فاحضرو في جهنم فهم من المحضرين فيها، وقوله تعالى {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} أي الموحدين فإنهم ليسوا في النار بل هم في الجنة. وقوله تعالى {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} أي وأبقينا له ذكراً حسناً في الذين جاءوا من بعده من الناس. وقوله تعالى {سَلَامٌ} أي منا {عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} {إِنَّا كَذَّلَكْ} أي كما جزينا إلياس لإحسانه في طاعتنا {نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ} وقوله {إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} أي

- 1 - قدم تعالى ذكر نوح وإبراهيم وموسى وكلهم رسل أصحاب شرائع وعقب عليهم بذكر ثلاثة آخرين ليست لهم شرائع مستقلة وهم إلياس ولوط ويونس ويوسف واسم إلياس في كتب بني إسرائيل "إيليا".
- 2 - عد في جملة المرسلين لأن الله تعالى أمره بتبليغ ملوك بني إسرائيل أن الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام. فإطلاق اسم الرسول عليه كإطلاقه على اسم رسل عيسى عليه السلام في سورة يس.
- 3 - ألا تتقون الهمزة للاستفهام الإنكاري ينكر عليهم عدم تقواهم لله، ولا نافية وحذف مفعول يتقون للعلم به. أي ألا تتقون الله تعالى أو عذابه ونقمه.
- 4 - قرأ نافع آل سين كآل محمد، وقرأ حفص إل بكسر الهمزة وسكون اللام. واختلف هل إل ياسين معناه إلياس، أو معناه ذوو ياسين كآل بني فلان، والراجح أن المراد بآل ياسين أنصاره. نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم آل محمد كل تقى.
- 5 - قرأ نافع والأكثر الله بالرفع على الابتداء، وقرأ حفص الله بالنصب على عطف البيان على أحسن الخالقين.

(4/423)

استحق تكريماً والجزاء الحسن لأنه من عبادنا المؤمنين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد، والتنديد بالشرك.
- 2- هلاك المشركين (1) ونجاة الموحدين يوم القيامة.
- 3- فضل الإحسان ومجازاة أهله بحسن الجزاء.

4- فضل الإيمان وأنه سبب كل خير وكمال.

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ
دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)

شرح الكلمات:

وإن لوطاً لمن المرسلين : أي وإن لوطاً وهو ابن هاران أخي إبراهيم الخليل لمن جملة الرسل أيضاً.
إذ نجيناه وأهله أجمعين : أي اذكر يا رسولنا ممن أنعمنا عليهم بالنبوة والرسالة لوطاً إذ نجيناه وأهله
أجمعين من عذاب مطر السوء.

إلا عجوزاً في الغابرين : أي إلا امرأته الكافرة هلكت في الغابرين أي الباقين في العذاب.
ثم دمرنا الآخرين : أي أهلكننا الآخرين ممن عدا لوطاً والمؤمنين معه.

وإنكم لتمرون عليهم : أي في أسفاركم إلى فلسطين وغزة ومصر بالليل والنهار.

أفلا تعقلون : أي يا أهل مكة ما حل بهم فتعتبرون وتتعتظون فتؤمنوا وتوحدوا.

1 - سياق قصة إلياس فيها تذكير للرسول صلى الله عليه وسلم ولقريش أيضاً إذ على الرسول أن يبلغ وليس عليه أن يأتي قومه بالعذاب ولو طالب به المدعوون فإن إلياس لم يعذب الله قومه في الدنيا وترك عذابهم إلى الآخرة.

(4/424)

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إنعام الله تعالى على من اصطفى من عباده فقال تعالى {وَإِنَّ لُوطًا} وهو ابن هاران أخي إبراهيم (1) عليهما السلام {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} أي لمن جملة رسلنا {إِذْ نَجَّيْنَاهُ} أي اذكر إنعامنا عليه إذ نجيناه من العذاب وأهله أجمعين {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} وهي امرأته إذ كانت مع الكافرين فبقيت معهم فهلكت بهلاكهم. وقوله تعالى {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} أي ممن عدا لوطاً ومن آمن به من قومه. وقوله {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ} (2) لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ (3) مُصْبِحِينَ} هذا خطاب لأهل مكة المشركين إذ كانوا يسافرون للتجارة إلى الشام وفلسطين ويمرون بالبحر الميت وهو مكان الهالكين من قوم لوط وأصبح بعد الخسف بحراً ميباً لا حياة فيه البتة. وقوله {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (4) {توبيخ لهم وتقريع على عدم التفكير والتدبر إذ لو فكروا لعلموا أن الله تعالى أهلكنهم لتكذيبهم برسولهم وكفرهم بما جاءهم به من الهدى والدين الحق، وقد كذب هؤلاء فأبي مانع يمنع من وقوع عذاب بهم كما وقع بقوم لوط من قبلهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة لوط ورسالته.
- 2- بيان العبرة في إنجاء لوط والمؤمنين معه وإهلاك الكافرين المكذبين به.
- 3- بيان أن لا شفاعة تنفع (5) ولو كان الشافع أقرب قريب إلا بعد أن يأذن الله للشافع وبعد رضائه (6) عن المشفوع له.
- 4- وجوب التفكير والتعقل في الأحداث الكونية للاهتداء بذلك إلى معرفة سنن الله تعالى في الكون والحياة.

- 1 - يقال مر به ومر عليه بمعنى إلا أن التمكن والمباشرة بالمرور به يعلى أكثر منه بالباء ومصباحين حال منصوب على الحالية بالياء والنون لأنه جمع سلامة للمذكر.
- 2 - جيء بالمضارع في لتمررون للإيقاظ والاعتبار لا في حقيقة الإخبار.
- 3 - خرج لوط مع عمه إبراهيم عليه السلام بعد حادثة إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها فأمن له لوط وخرج معه مهاجراً فأرسله الله تعالى إلى أصحاب المؤتفكات وهي قرى سدوم وعمورية.
- 4 - الاستفهام للإنكار والتفريع على جهالتهم وغفلتهم وعدم استعمال عقولهم للاهتداء.
- 5 - أخذنا هذا الحكم من كون لوط عليه السلام لم يشفع لزوجته في النجاة من الهلاك الذي أصاب المفسدين وذلك لكفرها وفسادها.
- 6 - الرضاء: الاسم من رضي، يرضى، رضى فهو راض.

(4/425)

وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَأَلْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَرْبِطُونَ (147) فَأَمَّا نُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)

شرح الكلمات:

- وإن يونس لمن المرسلين : أي وإن يونس بن متى الملقب بذي النون لمن جملة المرسلين.
- إذ أبق إلى الفلك المشحون : أي إذ هرب إلى السفينة المملوءة بالركاب.
- فساهم فكان من المدحضين : أي اقترع مع ركاب السفينة فكان من المغلوبين.
- فالتقمه الحوت وهو مليم : أي ابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه.
- للبيث في بطنه إلى يوم يبعثون : أي لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.
- فنبدناه بالعراء : أي فألقيناه من بطن الحوت بالعراء أي بوجه الأرض بالساحل.

وهو سقيم : أي عليل كالفرخ المنتوف الريش.

شجرة من يقطين : أي الدباء: القرع.

إلى مائة ألف أو يزيدون : أي أرسلناه إلى مائة ألف نسمة بل يزيدون بكذا ألف.

فأمّنوا فمتعناهم إلى حين : أي فأمّن قومه عند معاينة أمارات العذاب فأبقاهم الله إلى آجالهم.

(4/426)

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر من أنعم الله تعالى عليهم بما شاء من وجوه الإنعام. فقال عز وجل عطفاً عما سبق {وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} أي وإن عبدنا يونس بن متى ذا النون لمن جملة من منّا عليهم بالنبوة والرسالة. {إِذْ أَبَقَ} أي في الوقت الذي هرب من قومه لما لم يؤمنوا به وواعدهم العذاب وتأخر عنهم فاستعجل فهرب من المدينة وهي نينوى(1) من أرض الموصل بالعراق، فوصل الميناء فوجد سفينة مبحرة فركب وكانت حمولتها أكبر من طاقتها فوقفت في عرض البحر لا تتقدم ولا تتأخر فرأى ربّان السفينة أنه لا بد من تقليل الشحنة وإلا غرق الجميع، وشح كل راكب بنفسه فاقترعوا(2) فكان يونس من المدحضين أي المغلوبين في القرعة فرموه في البحر فالتقمه حوته، وهو مليم أي فاعل ما يلام عليه من فراره من دعوة قومه إلى الله لما ضاق صدورهم ولم يطق البقاء معهم. وهذا معنى قوله تعالى {إِذْ أَبَقَ} (3) إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (4) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} (5). وقوله تعالى { فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ} أي بطن الحوت {إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ} أي يوم القيامة بأن يصير بطن الحوت قبراً له أي فلولا أن يونس كان من المسبحين أي المكثرين من الصلاة والذكر والدعاء والتسبيح قبل البلاء لما كان يلهم قوله لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولما كان يستجاب له ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"، فإن صوت يونس سمع تحت العرش فعرفه بعض الملائكة فذكروا ذلك لربهم تعالى فأخبرهم أنه عبده يونس، وأنه كان من المكثرين الصلاة والذكر والدعاء قبل البلاء فلذا استجاب الله تعالى ونجاه من الغم، وهو معنى قوله تعالى {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ} أي بوجه الأرض العارية من الشجر وكل ظل وهو كالفرخ المنتوف الريش نضج لحمه من حرارة جوف الحوت وأنبت تعالى عليه شجرة من يقطين أي قرع تظله بأوراقها

1 - نينوى كانت مدينة عظيمة من مدن الآشوريين وكان بها مائة ألف أسير من بني إسرائيل أسرههم

الآشوريون فأرسل الله تعالى إليهم يونس من فلسطين.

2 - اقترعوا هو معنى قوله تعالى فساهم والمساهمة مشتقة من السهام التي واحدها سهم كانوا

يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال وتسمى الأزلام أيضاً والفاء في فساهم للتقريع.

3 - أبق يَأْبَقُ إِبَاقاً العبد إذا فر من مالكة.

4 - الاقتراع مشروع فقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة مواطن منها القرعة بين نسائه إذا أراد السفر بواحدة منهن وشرع الاقتراع فيما إذا تساوت الحقوق والمصالح لأجل دفع الضغائن كالاستهام على من يلي أمر كذا من خلافة أو أذان أو الصف الأول وما إلى ذلك من قسمة دار أو أرض.

5 - المليم اسم فاعل من ألأم يليم إذا فعل ما يلومه عليه الناس فهو جعلهم لائمين له بفعله فهو الأملهم على نفسه.

(4/427)

الحريية الناعمة والتي لا ينزل بساحتها الذباب، وسخر له أروية "غزالة" فكانت تأتيه صباح مساء فتفشح عليه أي تفتح رجليها وتدني ضرعها منه فيرضع حتى يشبع إلى أن تماثل للشفاء وعاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين لتوبة أحدثوها عند ظهور أمارات العذاب فتاب الله عليهم. وقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (1)﴾ أي أرسلناه إلى قومه وهم أهل نينوى وكان تعدادهم مائة ألف وزيادة كذا ألفاً فأمنوا أي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبيونس نبياً ورسولاً وتابوا بترك الشرك والكفر فجزيناهم على إيمانهم وتوبتهم بأن كشفنا عنهم العذاب الذي أظلمهم، ومتعناهم أي أبقينا عليهم يتمتعون بالحياة إلى نهاية آجالهم المحدودة لهم في كتاب المقادير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير نبوة يونس ورسالته وضمن ذلك تقرير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

2- مشروعية الركوب في السفن البحرية.

3- مشروعية الاقتراع لفض النزاع في قسمة الأشياء ونحوها.

4- فضل الصلاة والذكر والدعاء والتسبيح (2) وعظيم نفعها عند الوقوع في البلاء.

5- تقرير مبدأ "تعرف على الله في (3) في الرخاء يعرفك في الشدة".

6- بركة أكل اليقطين أي الدباء القرع إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكلها ويلتقطها من حافة القصعة.

7- فضل قوم يونس إذ آمنوا كلهم ولم تؤمن أمة بكاملها إلا هم.

فَاسْتَفْتَيْنَاهُمُ الرَّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

1 - أو بمعنى بل على قول الكوفيين واستشهدوا بقول جرير:

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم

لم أحص عدتهم إلا بعداد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية

لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

2 - روى أبو داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال دعاء ذي النون في بطن الحوت "ولا إله إلا

أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" لم يدع به مسلم في شيء قط إلا استجيب له.

3 - بعض حديث صحيح رواه مسلم وغيره.

(4/428)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (156) فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (159)

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (160)

شرح الكلمات:

فاستفتهم : أي استخبر كفار مكة توبيخا لهم وتقريعا.

ولهم البنون : أي فيختصون بالأفضل الأشرف.

ليقولون ولد الله : أي لقولهم الملائكة بنات الله.

أصطفى البنات : أي اختار البنات على البنين.

أفلا تذكرون : أي إن الله تعالى منزه عن الصاحبة والولد.

أم لكم سلطان مبين : أي ألكم حجة واضحة على صحة ما تدعون.

فأتوا بكتابكم : أي الذي تحتجون بما فيه، ومن أين لكم ذلك.

وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا : إذ قالوا الملائكة بنات الله.

ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون : أي في العذاب.

سبحان الله عما يصفون : أي تنزيها لله تعالى عما يصفونه به من كون الملائكة بنات له.

إلا عباد الله المخلصين : أي فإنهم ينزهون ربهم ولا يصفونه بالنقائص كهؤلاء المشركين.

معنى الآيات:

بعد تقرير البعث والتوحيد والنسبة في السياق السابق بالأدلة والحجج والبراهين القاطعة أراد تعالى

إبطال فرية من أسوأ الفرى التي عرفتها ديار الجزيرة وهي قول (1) بعضهم إن الله تعالى قد أصهر إلى الجن فأنجب الملائكة وهم بنات الله، وهذا لا شك أنه من إحاء الشيطان لإغواء الإنسان

1 - قال القرطبي في بيان من قال هذه القولة القذرة الفاسدة الباطلة قال: ذلك جهينة وخزاعة وبنو مليح وبنو سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله.

(4/429)

وإضلاله فقال تعالى لرسوله استفتهم أي استخبرهم موبخا لهم مقرعا قائلاً لهم {الرَّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} أي أما تخجلون عندما تتسبون لكم الأسنى والأشرف وهو البنون، وتجعلون لله الأخس والأدنى وهو البنات وقوله تعالى {أَمْ (1) خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ} أي حضروا يوم خلقنا الملائكة فعرفوا بذلك أنهم إناث، والجواب لا إنهم لم يشهدوا خلقهم إذاً فلم يكذبون وقوله تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي ألا إن هؤلاء المشركين الضالين من كذبهم الذي عاشوا عليه واعتادوه يقولون ولد الله وذلك بقولهم الملائكة بنات الله، وإنهم ورب العزة لكاذبون في قيلهم هذا الذي هو صورة لأفكهم الذي يعيشون عليه. وقوله تعالى {أَصْطَفَى (2) الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} هذا توبيخ لهم وتقريع أصطفى أي هل الله اختار البنات على البنين فلذا جعلهم إناثاً كما تزعمون. مالكم كيف (3) تحكمون هذا الحكم الباطل الفاسد. أفلا تذكرون (4) فتذكروا أن الله منزه عن الصاحبة والولد أم لكم سلطان مبين أي ألكم حجة قوية تثبت دعواكم والحجة القوية تكون بوحى من الله في كتاب أنزله يخبر فيه بما تقولون إذا {فَأَثُوا بِكِتَابِكُمْ} الذي فيه ما تدعون {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في زعمكم.

ومن أين لكم الكتاب، وقد كفرتم بكتابكم الذي نزل لهدايتكم وهو القرآن الكريم. وهكذا أبطل الله هذه الفرية بأقوى الحجج. وقوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ} أي بين الله تعالى {وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} (5) بقولهم أصهر الله تعالى إلى الجن فتزوج سراوات الجن إذ سألهم أبو بكر: من أمهات الملائكة فقالوا سراوات الجن وقوله تعالى {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} (6) أي في العذاب، فكيف يكون لهم نسب ويعذبهم الله بالنار. فالنسيب يكرم نسيبه لا يعذبه بالنار، وبذلك بطلت هذه الفرية الممقوتة، فنزه الله تعالى نفسه عن مثل هذه الترهات والأباطيل فقال {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}. {أَلَا (7) عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} أي فإنهم لا يصفون ربهم بمثل هذه النقائص التي هي من صفات العباد العجزة المفتقرين إلى الزوجة والولد أما رب كل شيء ومالكة وخالقه فلا يقبل

1 - الاستفهام للتوبيخ والتقريع والتأنيب.

- 2 - أصطفى. الهمزة للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع واصطفى بمعنى اختار البنات على البنين وقرأ الجمهور بهمزة القطع للاستفهام وقرأ بعض بهمزة الوصل دون همزة القطع إلا أنها منوية.
- 3 - ما لكم ما اسم استفهام عن ذات وهي مبتدأ ولكم خبر، والمعنى: أي شيء حصل لكم؟.
- 4 - أفلا تذكرون قرأ نافع تذكرون بتشديد الدال والكاف معاً إذ الأصل تتذكرون فأدغمت إحدى التائين في الذال. وقرأ حفص تذكرون بتخفيف الذال لحذف التاء الثانية والاستفهام إنكاري.
- 5 - النسب القرابة العمودية بالأباء والأمهات والأفقية كالإخوان والأعمام والمعنى ذوي النسب لله تعالى وهو نسب النبوة لزعيمهم أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
- 6 - المحضرون المجلوبون للحضور، والمراد المحضرون للعقاب والعذاب.
- 7 - الاستثناء منقطع وجائز أن يكون من الحضور للعقاب فإن عباد الله لا يحضرون للعقاب ولا يعاقبون وجائز أن يكون منقطع من سبحان الله عما يصفون فإن عباد الله لا يصفون الله بالنقائص كما في التفسير وهو أولى من الأول.

(4/430)

العقل أن ينسب إليه صاحبة والولد. فلذا عباد الله الذين استخلصهم لمعرفته والإيمان به وعبادته لا يصفون ربهم جل جلاله بصفات المحدثين من خلق الله. ولا يكون من المحضرين في النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إبطال فرية بني ملحان من العرب الذين زين لهم الشيطان فكرة الملائكة بنات الله، ووجود نسب بين الله تعالى وبين الجن.

2- مشروعية دحض الباطل بأقوى الحجج وأصح البراهين.

3- الحجة الأقوى ما كانت من وحي الله في كتاب من كتبه التي أوحى بها إلى رسوله.

فَأَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

شرح الكلمات:

وما تعبدون : أي من الأصنام.

إلا من هو صال الجحيم : أي مقدر له عذاب النار.

إلا له مقام معلوم : أي مكان في السماء يعبد الله تعالى فيه لا يتعداه.

وإنا لنحن الصافون : أي أقدامنا في الصلاة.
وإنا لنحن المسبحون : أي المنزهون الله تعالى عما لا يليق به.
لو أن عندنا ذكرا : أي كتابا من كتب الأمم السابقة.
فكفروا به : أي بالكتاب الذي جاءهم وهو القرآن.
فسوف يعلمون : أي عاقبة كفرهم إن لم يتوبوا فيؤمنوا ويوحدا.

(4/431)

معنى الآيات:

ما زال السياق في إبطال باطل المشركين فقد قال لهم تعالى {فَأْتِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (1)} من أصنام أيها المشركون. ما أنتم بمضلين أحداً إلا أحدا هو صال(2) الجحيم حيث كتبنا عليه ذلك في كتاب المقادير فهو لا بد عامل بما يوجب له النار فهذا قد يفتتن بكم وعبادتكم فيضل بضلالكم. وقوله تعالى {وَمَا مِثَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا (3) لَنَحْنُ الصَّافُونَ (4) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} هذا قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن الملائكة تصف في السماء للصلاة كما يصف المؤمنون من الناس في الصلاة، وأنهم من المسبحين لله الليل والنهار وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ما من موضع شبر في السماء إلا عليه ملك ساجد أو قائم وقوله تعالى {وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (5)} أي مشركو العرب {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ} أي كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل، لكننا عباد الله المخلصين أي لكننا عباداً لله تعالى نعبده ونوحده ولا نشرك به أحداً. فرد تعالى على قولهم هذا إذ هو مجرد تمنٍ كاذب بقوله فكفروا به أي فكفروا بالكتاب الذي جاءهم وهو القرآن الكريم. إذاً فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم إن لم يتوبوا وهو هلاكهم وخسرانهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ من كتب الله عليه النار فسوف يصلهاها.
- 2- تقرير عبودية الملائكة وطاعتهم لله وأنهم لا يتجاوزون ما حد الله تعالى لهم.
- 3- فضل الصفوف في الصلاة وفضل تسويتها.
- 4- بيان كذب المشركين إذ كانوا يدعون أنهم لو أنزل عليهم كتابٌ كما أنزل على من قبلهم لكانوا عباد الله المخلصين أي الذين يعبدونه ويخلصون له العبادة.

1- جائز أن تكون ما موصولة بمعنى الذي وجائز أن تكون مصدرية أي فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام ما تفتنون على الله عبداً من عباده بإضلاله أو إفساده إلا عبداً قضى الله بعذابه فهو صال

الجحيم، وفي الآية رد على نفاة القدر، ومن أحسن ما قيل شعراً قول لبيد بن ربيعة:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثى والعجل

أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبيل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

2 - الأصل صالي الجحيم وحذفت الياء لعدم النطق بها لوجود همزة الوصل.

3 - هذا من قول الملائكة. قال مقاتل هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم

عند سدرة المنتهى فتأخر جبريل فقال النبي صلى الله عليه وسلم أنها تفارقني؟ فقال ما أستطيع أن

أتقدم عن مكاني وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة وما منا إلا له مقام معلوم.

4 - روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم في المسجد فقال ألا تصفون

كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقالوا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال يتمون الصف

الأول ويتراصون في الصف.

5 - وإن كانوا ليقولون: إن مخففة من الثقيلة واللام للابتداء وهي الفارقة بين المخففة والنافية.

(4/432)

وَأَلْقَدَ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)
فَقَتُولَ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)
سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (182) شرح الكلمات:

سبقت كلمتنا : هي قوله تعالى لأغلبين أنا ورسولي.

وإن جندنا لهم الغالبون : أي للكافرين بالحجة والنصرة.

فقتول عنهم حتى حين : أي أعرض عنهم حتى تؤمر فيهم بالقتال.

وأبصرهم : أي أنظرهم.

فإذا نزل بساحتهم : أي العذاب.

وتولى عنهم : أي أعرض عنهم.

سبحان ربك : أي تنزيها لربك يا محمد.

عما يصفون : أي تنزيها له عما يصفه به هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد والشريك.

وسلام على المرسلين : أي أمنة من الله لهم في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين : أي الثناء بالجميل خالص لله رب الثقلين الإنس والجن على نصر أوليائه

وإهلاك أعدائه.

معنى الآيات:

لما ختم السياق الأول بتهديد الكافرين بقوله تعالى {فكفروا به فسوف يعلمون} أخبر تعالى

(4/433)

رسوله بما يطمئنه على نصر الله تعالى له فقال {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا (1) الْمُرْسَلِينَ} وهي قوله {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} أي بالحجة والبرهان، وبالرمح (2) والسنان. وقوله {قَتُولٌ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ} يأمر رسوله أن يعرض عن المشركين من قومه حتى حين يأمره فيهم بأمر (3)، أو ينزل بهم بلاء أو بأساً وقوله {وَأَبْصِرْهُمْ} أي أنظرهم فسوف يبصرون لا محالة ما ينزل بهم من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة. وقوله تعالى {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} ينكر تعالى عليهم استعجالهم العذاب الدال على سفههم وخفة أحلامهم إذ ما يستعجل العذاب إلا أحمق جاهل وعذاب من استعجلوا إنه عذاب الله!! قال تعالى {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ} أي بفناء دارهم {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ} أي بئس صباحهم من صباح إنه صباح هلاكهم ودمارهم ثم أمر تعالى مرة أخرى رسوله أن يتول عنهم وينتظر ما يحل بهم فقال {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ (4) فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} وفي الآية من التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ما لا يقادر قدره. وأخيراً نزه تعالى نفسه عما يصفه به المشركون من الولد والشريك وسلم على المرسلين، وحمد نفسه مشيراً إلى مقتضى الحمد وموجبه وهو كونه رب العالمين فقال {سُبْحَانَ (5) رَبِّكَ} يا محمد {رَبِّ الْعِزَّةِ} ومالكها يعز بها من يشاء ويذل من يشاء {عَمَّا يَصِفُونَ (6)} من صاحبة الولد والشريك، {وَسَلَامٌ} منا {عَلَى الْمُرْسَلِينَ} وأنت منهم {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} على نصره أوليائه وإهلاكه أعداءه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة المحمدية.

2- وعد الله تعالى لرسوله بالنصر وقد أنجزه ما وعده والحمد لله.

3- استحباب ختم الدعاء أو الكلام بقراءة جملة {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ (7) عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} لورود ذلك في السنة.

1 - جائز أن يكون المراد قوله تعالى {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} الآية.

2 - قال الحسن: "لم يقتل من أصحاب الشرائع أحد قط".

3 - كإذن له صلى الله عليه وسلم بجهادهم، وجائز أن يكون حتى يجيء أجلمهم أو يأتي يوم بدر أو

الفتح.

- 4 - كرر للتأكيد، وكذا وتول عنهم مكرر للتأكيد.
- 5 - سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (سبحان الله) فقال هو تنزيه الله عن كل سوء.
- 6 - يصفون الله عز وجل بأن له صاحبة وله ولداً وشريكاً.
- 7 - ذكر القرطبي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختم صلاته غير مرة بقوله: "سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين".

(4/434)

سورة ص

...

سور ص

مكية

وآياتها ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ
الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (5) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ (11)

شرح الكلمات:

ص : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب ص ويقرأ صاد الله أعلم بمراده به.

والقرآن ذي الذكر : أي أقسم بالقرآن ذي الذكر إذ به يذكر الله تعالى ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرون من أن النبي ساحر وشاعر وكاذب.

بل الذين كفروا في عزة وشقاق : أي أهل مكة في عزة نفس وشقاق مع النبي والمؤمنين وعداوة

(4/435)

فلذا قالوا في الرسول ما قالوا، وإلا فهم يعلمون براءته مما قالوا فيه.
وكم أهلكنا قبلهم من قرن : أي كثيرا من الأمم الماضية أهلكناهم.
فنادوا ولات حين مناص : أي صرخوا واستغاثوا وليس الوقت وقت مهرب ولا نجاة.
وعجبوا : أي وما اعتبر بهم أهل مكة وعجبوا أن جاءهم منذر منهم محمد صلى الله عليه وسلم.
قالوا ساحر كذاب : أي لما يظهره من الخوارق ولما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.
أجعل الآلهة إلها واحدا : أي لما قال لهم قولوا لا إله إلا الله، فقالوا كيف يسع الخلاق إله واحد؟
إن هذا لشيء عجاب : أي جعل الآلهة إلها واحداً أمر عجيب.
وانطلق الملاء منهم أن امشوا : أي خرجوا من بيت أبي طالب حيث كانوا مجتمعين بالنبى صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه قوله لهم قولوا لا إله إلا الله.
إن هذا لشيء يراد : أي إن هذا المذكور من التوحيد لأمر يراد منا تنفيذه.
في الملة الآخرة : أي ملة عيسى عليه السلام.
إن هذا إلا اختلاق : أي ما هذا إلا كذب مختلق.
أنزل عليه الذكر من بيننا : أي كيف يكون ذلك وليس هو بأكبر منا ولا أشرف.
بل هم في شك من ذكرى : أي بل هم في شك من القرآن والوحي ولذا قالوا في الرسول ما قالوا.
بل لما يذوقوا عذاب : أي بل لم يذوقوا عذابي إذ لو ذاقوه لما كذبوا بل آمنوا ولا ينفعهم إيمان.
أم عندهم خزائن رحمة ربك : أي من النبوة وغيرها فيعطوا منها من شاعوا ويحرموا من شاعوا.
أم لهم ملك السماوات والأرض : أي ليس لهم ذلك.
فليرتقوا في الأسباب : أي الموصولة إلى السماء فيأتوا بالوحي فيخصوا به من شاعوا أو يمنعوا
الوحي النازل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنى لهم ذلك.
جند ما هنالك مهزوم : أي هم جند حقير في تكذيبهم لك مهزوم أمامك وفي بدر.
من الأحزاب : أي من الأمم الماضية التي تحزبت على رسلها وأهلكها الله تعالى.
معنى الآيات:

قوله تعالى {ص(1) والقرآن ذي الذكر} أما ص فإنه أحد حروف الهجاء ومذهب السلف فيه أن

1 - قرأ الجمهور ص بالسكون وقرأ الحسن وأبي بن كعب صاد بكسر الدال وبدون تنوين، وتوجيهها أنها من صادى يصادي إذا عارض نحو {فأنت له تصدى} أي تتعرض والمصادات المعارضة، والمعنى عارض القرآن بعملك وقابله به، فأعمل بأوامره وانتته عن نواهيه أو اتله وتعرض لقراءته.

يقال الله أعلم بمراده به إذ هو من المتشابه الذي يجب الإيمان به ويوكل أمر معناه إلى من أنزله، وقد ذكرنا غير ما مرة أن هذه الحروف قد أفادت فائدتين فليطلبهما من شاء من القراء الكرام من المفتحة بمثل هذه الحروف نحو طس، ألم. وأما قوله {وَالْقُرْآنِ} هو كتاب الله هذا المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم و {ذِي الذُّكْرِ} معناه (1) التذكير إذ به يذكر الله تعالى والجملة قسم أقسم الله به فقال {وَالْقُرْآنِ ذِي الذُّكْرِ} وجواب القسم محذوف تقديره (2) ما الأمر كما يقول هؤلاء المشركون من أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر وكاذب {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} أي بل هم في عزة نفس وكبرياء وخلاف وعداوة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فحملهم ذلك على أن يقولوا في الرسول ما قالوا، وإلا فهم يعلمون يقينا أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أبعد الناس عن السحر والشعر والكذب والجنون. وقوله تعالى {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} أي كثيراً من الأمم الماضية أهلكتنا بتكذيبها لرسولها فلما جاءهم العذاب نادوا (3) صارخين مستغيثين {وَلَاتِ} (4) حِينَ مَنَاصٍ أي ليست الساعة ساعة نجاة ولا هرب، فلم لا يعتبر مشركو مكة بمثل هؤلاء. لم يعتبروا {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} ينذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة وهو محمد صلى الله عليه وسلم. {وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ} أي لم يعتبروا وعجبوا وقالوا فيه صلى الله عليه وسلم {سَاحِرٌ كَذَّابٌ}. {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ} (5) أي عجيب أي كيف يسع العباد إله واحد إن هذا لأمر يتعجب منه غاية العجب، لأنهم قاسوا الغائب وهو الله تعالى على الشاهد وهو الإنسان الضعيف فوقعوا في أفحش خطأ وأقبحه.

وقوله تعالى {وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ} وهم يقولون لبعضهم بعضاً امشوا واصبروا على آلهتكم {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} أي منا إمضاؤه وتنفيذه. قالوا هذا وما بعده من القول لما اجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم في منزل عمه أبي طالب لمفاوضة الرسول في شأن دعوته فلما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم قولوا لا إله إلا الله قاموا من المجلس وانطلقوا يمشون ويقولون ما أخبر تعالى به عنهم {أَنْ أَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} أي على عبادتها فلا تتخلوا عنها {إِنَّ هَذَا} أي الدعوة إلى لا إله إلا الله لشيء

1 - في شرح هذه الكلمة عدة أوجه منها ذي الشرف أي من آمن به وعمل بما فيه كان شرفاً له في الدارين كما أنه شريف في نفسه لإعجازه، وقيل ذي الذكر أي فيه ذكر ما يحتاج إليه وقيل الموعظة وقيل فيه أسماء الله وتمجيده.

2 - وذكر لجواب القسم أمور منها ما في التفسير وهو أمثلها وقيل الجواب بل الذين كفروا وقيل الجواب إنه لمن عند الله تعالى أي القرآن المؤلف من حروف ص وغيره.

3 - النداء رفع الصوت ومنه الحديث "ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتاً" القرن الأمة.

4 - ولات هي لا النافية زيدت فيها التاء كما زيدت في رُبْتُ وثمت وهي مشبهة بليس وهي مختصة بنفي أسماء الزمان والمناص النجاء والغوث وهو مصدر ميمي من ناصه إذا فاته والمعنى فنادوا

مبتهلين في حال ليس فيها وقت نجاه وغوث.

5 - العجاب وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً لأن وزن فعال بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل طوال أو كرام.

(4/437)

كبير يراد منا إمضاؤه وتنفيذه لصالح غيرنا. ما سمعنا بهذا أي بالتوحيد في الملة الآخرة أي الدين الأخير وهو ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام. {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} أي ما هذا الذي يدعو إليه محمد إلا كذب اختلقه لم ينزل عليه ولم يوح به إليه. وواصلوا كلامهم قائلين: {أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} أي القرآن {مَنْ بَيَّنَّا} وليس هو بأكبرنا سنا ولا بأشرفنا نسباً. فكيف يكون هذا؟ وقوله تعالى {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي} أي لم يكن بالقوم جهل بصدق محمد في قوله وسلامة عقله، وإنما حملهم على ذلك هو شكهم في القرآن وما ينزل به من الحق ويدعو إليه من الهدى، وهذا أولاً وثانياً إنهم لما يذوقوا عذابي إذ لو ذاقوا عذاب الله على تكذيبهم ما كذبوا، وسوف يذوقونه ولكن لا ينفعهم يومئذ تصديق ولا إيمان. وقوله تعالى {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} أي بل عندهم خزائن رحمة ربك يا رسولنا العزيز أي الغالب الوهاب أي الكثير العطاء من النبوة وغيرها وعندئذ لهم أن يعطوا من شاعوا ويمنعوا من شاعوا ولكن فهل لهم من خزائن ربك شيء والجواب لا إذا فلم ينكرون هبة الله لمحمد بالنبوة والوحي والرسالة.

وقوله تعالى {أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي بل لهم ملك السموات والأرض وما بينهما؟ إذا كان هذا لهم {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} سبياً بعد سبب حتى ينتهوا إلى السماء السابعة ويمنعوا الوحي النازل على محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى. ومن أين لهم ذلك وهم الضعفاء الحقيرون إنهم كما قال تعالى فيهم {جُنُودٌ مِمَّا هُنَالِكَ مَهْزُومَةٌ} (1) مِنَ الْأَحْزَابِ} أي جند حقير من جملة أحزاب الباطل والشر مهزوم هنالك ببدر ويوم الفتح بإذن الله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الله تعالى أن يقسم بما شاء بخلاف العبد لا يقسم إلا بربه تعالى.
- 2- بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبي صلى الله عليه وسلم.
- 3- بيان جهل المشركين في استنكارهم لئله إلا الله محمد رسول الله.
- 4- تحدي الرب تعالى للمشركين إظهاراً لعجزهم ودعوته لهم إلى النزول إلى الحق وقبوله.
- 5- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك.
- 6- ذم كلمة الأحزاب ومدلولها إذ لا تأتي الأحزاب بخير.

1 - جند ما هنالك (ما) مزيدة للتأكيد أي تأكيد حقارة جند إن قيل التنكير للتحقير وإن كان للتعظيم فهي لتوكيده وهنالك إشارة إلى مكان بعيد، ومهزوم مقموح ذليل قد انقطعت جنتهم وذهبت قوتهم وفي الخطاب تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بمعنى لا تحفل بهم ولا تغتم لشأنهم.

(4/438)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (20)

شرح الكلمات:

كذبت قبلهم : أي قبل هؤلاء المشركين من قريش.
وفرعون ذو الأوتاد : أي صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه.
وأصحاب الأيكة : أي الغيضة وهم قوم شعيب.
إن كل إلا كذب الرسل : أي ما كل واحد منهم إلا كذب الرسل ولم يصدقهم فيما دعوا إليه.
فحق عقاب : أي وجبت عقوبتي عليهم.
صحية واحدة : هي نفخة إسرافيل في الصور نفخة.
مالها من فواق : أي ليس لها من فتور ولا انقطاع حتى تهلك كل شيء.
عجل لنا قطنا : أي صك أعمالنا لنرى ما أعدت لنا إذ القط الكتاب.
ذا الأيد : أي القوة والشدة في طاعة الله تعالى.
إنه أواب : أي رجاع إلى الله في كل أمره.
بالعشي والإشراق : أي بالمساء بعد العصر إلى الغروب والإشراق من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى.

(4/439)

والطير محشورة : أي والطير مجموعة.

وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب: أي وأعطينا داود الحكمة. وهي الإصابة في الأمور والسداد فيها
وفصل الخطاب: الفقه (1) في القضاء ومن ذلك البينة على المدّعي واليمين على من أنكر.

معنى الآيات:

السياق الكريم في تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد المشركين عليهم يتوبون إلى الله ويرجعون
قال تعالى {كذّبت (2) قَبْلَهُمْ} أي قبل قومك يا محمد {قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} أي (3)
صاحب الأوتاد التي كان يشد إليها من أراد تعذيبه ويعذبه عليها كأعواد المشانق، {وَتُمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} أي الغيضة وهي الشجر الملتف وهم قوم شعيب {أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} أي الطوائف
الكافرة الهالكة {إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ} أي ما كل واحدة منها إلا كذبت الرسل {فَحَقَّ عِقَابُ} أي
وجب عقابي لهم فعاقبتهم، وما ينظر هؤلاء من قومك {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} (4) أي
من فتور ولا انقطاع حتى يهلك كل شيء ولا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام. وقوله تعالى
{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْنًا (5) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} قالوا هذا لما نزل {فَأَمَّا مَنْ أوتي كتابه بيمينه} الآيات
من سورة الحاقة. قال غلاة الكافرين كأبي جهل وغيره استهزاءً، ربنا عجل لنا قطناً أي كتابنا لنرى ما
فيه من حسنات وسيئات قبل يوم القيامة والحساب والجزاء وهم لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، وإنما قالوا
هذا استهزاء وعناداً أو مكابرة فلذا قال تعالى لرسوله {اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَذُكِّرْ عَبْدًا ذَاوُدَ ذَا
الْأَيْدِ (6)}

أي القوة في دين (7) الله {إِنَّهُ أَوَّابٌ} أي رجع إلى الله تعالى

1 - صورة من فصل الخطاب الذي هو الفقه والبصيرة في القضاء روي أن ابن أبي ليلي جلد امرأة
مجنونة قذفت رجلاً فقالت له يا ابن الزانيين جلدها وهي قائمة في المسجد فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال
أخطأ ابن أبي ليلي من سنة وجوه وهي: 1- المجنون لا حد عليه لأنه غير مكلف. 2- إن كان
القذف حقاً لله تعالى فلا يقام على القاذف إلا حداً واحداً كما هو مذهب أبي حنيفة. 3- أقام الحد
بدون مطالبة المقدوف به. 4- إنه والى بين الحدين والواجب أن يفرق بينهما. 5- أنه حدها قائمة
والمرأة تحد جالسة مستورة. 6- أنه أقام الحد في المسجد والإجماع أن الحدود لا تقام في المساجد.
2 - مفعول كذبت محذوف سيدل عليه ما يأتي من قوله: {إن كل إلا كذب الرسل} فالمفعول
المحذوف هو الرسل والجملة بيان لسابقتها تحمل التسلية والعزاء للرسول صلى الله عليه وسلم.
3 - جائز أن يكون المراد بالأوتاد القوة والبطش أو الأهرام لأنها بناء راسخ في الأرض كالأوتاد
جمع وتد بكسر التاء وهو عود غليظ له رأس مفلطح يدق في الأرض ليشد به ظنب الخيمة أو
حبالها قال الشاعر:

والبيت لا يبني إلا على عمد

ولا عماد إذا لم تُرْسْ أوتاد

4 - الفواق اسم للزمن الذي بين الحلبتين والرضعتين إذ الحالب يجلب الناقة ثم يترك ولدها يرضعها

حتى تدر اللبن ثم يبعده ويحلبها مرة ثانية فالفواق هو ما بين الحلبتين والرضعتين.
5 - القط: هو القسط من الشيء ويطلق كما هنا على قطعة الورق أو ما يكتب عليه العطاء لأحد يسمى بالصك.

6 - الأيد ليست جمع يد إنما المراد بها القوة والشدة وهو مصدر آد يئيد أيداً. إذا قوى واشتد ومنه التأييد الذي هو التقوية. قال تعالى {فَأَوَاكِم وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ}.

7 - شاهده قوله صلى الله عليه وسلم "أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفطر إذا لاقى وإنه كان أواباً" في الصحيحين".

(4/440)

اذكره لتتأسى به في صبره وقوته في الحق وقوله تعالى {إِنَّا سَخَّرْنَا} الآيات بيان لإنعام الله تعالى على داود لتعظم الرغبة في الاقتداء به، والرغبة إلى الله تعالى فيما لديه من إفضالات {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْأَشْرَاقِ (1)} أي إذا سبح داود في المساء من بعد العصر إلى الغروب وفي الإشراق وهو وقت الضحى سبحت الجبال معه أي رددت تسبيحه كرامة له والطير محشورة أي وسخرنا الطير محشورة أي مجموعة تردد التسبيح معه، وقوله {كُلُّ لَهْ أَوَابٍ} أي كل من الجبال والطير أواب أي رجاع يسبح لله تعالى. وقوله {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} أي وقوينا ملك داود بمنحنا إياه كل أسباب القوة المادية والروحية. {وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} وهي النبوة والإصابة في الأمور والسادد فيها قولاً كان أو فعلاً. {وَفَصَّلَ الْخُطَابِ} أي حسن القضاء والبصيرة فيه، والبيان الشافي في كلامه، فبه اقتده يا رسولنا.

هداية الآيات

من هداة الآيات:

- 1- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر على أذى قريش وتكذيبها وعنادها.
 - 2- تهديد قريش إذا أصرت على التكذيب بأشد أنواع العقوبات.
 - 3- بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه.
 - 4- مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
 - 5- بيان آية تسخير الله تعالى الجبال والطير لداود تسبح الله تعالى معه.
 - 6- حسن (2) صوت داود في قراءته وتسبيحه.
 - 7- مشروعية صلاة الإشراق والضحى.
- وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ

بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ

1 - قال ابن عباس رضي الله عنهما كنت أمر بهذه الآية بالعشي والإشراق ولا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى (الضحى) وقال: "يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق . وروى البخاري عن أبي هريرة قال أوصاني خليلي بثلاث خصال لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر .

2 - شاهده قوله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري وقد سمعه يقرأ القرآن ويرتل بحسن صوت لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود. والمزمار والمزمر الصوت الحسن وبه سميت آلة الزمر مزماراً.

(4/441)

وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

شرح الكلمات:

هل أتاك : الاستفهام هنا للتعجب أي حمل المخاطب على التعجب.

نبأ الخصم : أي خبر الخصم الغريب في بابه العجيب في واقعه.

إذ تسوروا المحراب : أي محراب مسجده إذ منعوا من الدخول من الباب فقصدوا سوره ونزلوا من أعلى السور .

بغى بعضنا على بعض : أي تعدى بعضنا على بعض .

فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط : أي احكم بالعدل ولا تجر في حكمك .

واهدنا إلى سواء الصراط : أي أرشدنا إلى العدل في قضيتنا هذه ولا تمل بنا إلى غير الحق .

إن هذا أخي : أي على ديني في الإسلام .

فقال أكفلنيها : أي اجعلني كافلها بمعنى تنازل لي عنها وملكنيها .

وعزني في الخطاب : أي غلبنى في الكلام الجدلي فأخذها مني .

لقد ظلمك بسؤال نعجتك : أي بطلبه نعجتك وضمها إلى نعاجه .

من الخطاء ليبغي بعضهم : أي الشركاء يظلم بعضهم بعضا .

وظن داود أنما فتناه : أي أيقن داود أنما فتنه ربه أي اختبره.
فاستغفر ربه وخر راکعاً وأناب : أي طلب المغفرة من ربه بقوله أستغفر الله وسقط ساجداً على الأرض وأناب أي رجع تائباً إلى ربه.
وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب : أي وحسن مرجع عندنا وهي الجنة والدرجات العلا فيها.

(4/442)

معنى الآيات:

ما زال السياق في تسليية الرسول وحمله على الصبر على ما يعاني من كفار قريش من تطاول وأذى فقال له ربه تعالى {هَلْ أَتَاكَ} إلى آخر الآيات. وذلك أن داود(1) عليه السلام ذكر مرة في نفسه ما أكرم الله تعالى به إبراهيم وإسحق ويعقوب من حسن الثناء الباقي لهم في الناس، فتمنى مثله فقيل له إنهم امتحنوا فصبروا فسأل أن يبنتلى كالذي ابتلوا به ويعطى كالذي أعطوا إن هو صبر فاختره الله تعالى بناء على رغبته فأرسل إليه ملكين(2) في صورة رجلين فتسورا عليه المحراب كما يأتي تفصيله في الآيات وهو قوله تعالى {وَهَلْ أَتَاكَ} يا رسولنا نبأ الخصم(3) وهما ملكان في صورة رجلين، ولفظ الخصم يطلق على الواحد والأكثر كالعدو فيقال هذا خصمي وهؤلاء خصمي، وهذا عدوي وهؤلاء عدوي. وقوله {إِذْ تَسَوَّرُوا(4) الْمِحْرَابِ} أي اطلعوا على سور المنزل الذي هو المحراب في عرف بني إسرائيل ولم يدخلوا من الباب لأن الحرس منعهم من ذلك، لأن لداود وقتاً ينقطع فيه للعبادة فلا يسمح بمقابلة أحد وقوله {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ} وهو في محرابه {فَفَزَعَ مِنْهُمْ} أي ارتاع واضطرب نفساً {قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ} أي نحن خصمان {يَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ} أي اعتدى بعضنا على بعض جننا نتحاكم إليك {فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ} أي ولا تجر في الحكم {وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} أي إلى وسط(5) الطريق فلا تمل بنا عن الحق. ثم عرضا عليه القضية فقال أحدهما وهو المظلوم عارضاً مظلّمته {إِنَّ هَذَا أَخِي} أي في الإسلام {لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا} أي ملكنيها أضمها إلى نعاجي، {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} أي وغلبنى في الكلام والجدال وأخذها مني. فقال داود على الفور وبدون أن يسمع من الخصم الثاني {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ} وعلل لذلك بقوله {وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُطَاءِ} أي الشركاء في زرع أو ماشية أو تجارة {لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} وهم أهل الإيمان والتقوى فإنهم يسلمون من

1 - ذكر المفسرون هنا نقلاً عن كتب بني إسرائيل عجائب وغرائب في قصة داود هذه من أبشعها أنه نظر من كوة المحراب فرأى امرأة تغتسل فأحبها وطلبها بأن أرسل زوجها إلى الجهاد ليموت قتيلاً

حتى يتزوج داود امرأته بعد موته أعرضنا عن هذه الأباطيل منزهين نبي الله عن هذه الأكاذيب
المموجة التي لا يرتكبها أقل الناس إيماناً وشأناً كما نسبوا إلى يوسف ما نسبوا، رواية عن اليهود
وهم أكذب خلق الله تعالى بعد أن لعنوا بظلمهم.

2 - لا خلاف بين المفسرين أن الخصمين كانا ملكين. انتهى.

3 - شاهده قول الشاعر:

وخصم غضاب ينفضون لحاهم

كنفض البراذين العراب المخاليا

4 - إذ ظرف للزمان الماضي متعلق بمحذوف تقديره: تحاكم الخصم إذ تسوروا الخ.

5 - سواء الصراط أي وسط الطريق وهذا كناية عن الحكم بالعدل عدم الجور عن الحق أي الميل
كمن يميل إلى جانب الطريق.

(4/443)

مثل هذه الاعتداءات، {وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ} أي وهم قليل جداً، وهنا طار الملكان من بين يدي داود عرجا
إلى السماء فلم عندئذ أنما فتنه ربه كما رغب إليه وأنه لم يصبر حيث قضى بدون أن يسمع من
الخصم الثاني فكانت زلة أرتته أن ما ناله إبراهيم وإسحق ويعقوب من الكمال كان نتيجة ابتلاء
عظيم، وهنا استغفر داود ربه {وَوَخَّرَ (1) رَاكِعاً وَأَنَابَ} يبكي ويطلب العفو وأناب إلى ربه في كل أمره
كله، وذكر تعالى أنه قبل توبته وعفا عنه فقال تعالى {فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى} أي لقربة
عندنا {وَحُسْنٌ مَّآبٍ} أي مرجع وهو الدرجات العلا في دار الأبرار، جعلنا الله تعالى من أهلها بفضله
ورحمته.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- فائدة عرض مثل هذا القصص تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده وحمله
على الصبر.

2- تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ مثل هذا القصص لا يتأتى له قصه إلا بوحى إلهي.

3- تقرير جواز تشكل الملائكة في صورة (2) بني آدم.

4- حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً إذ هذا محل
الفتنة التي كانت لداود عليه السلام.

5- وجوب التوبة عند الوقوع في الذنب.

6- مشروعية السجود (3) عند قراءة هذه الآية {وَوَخَّرَ رَاكِعاً وَأَنَابَ}.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ

1 - أطلق الركوع وأريد به السجود وهو شائع كما في قوله الشاعر:

فخر على وجهه راكعاً

وتاب إلى الله من كل ذنب

2 - وكثيراً ما كان جبريل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي.

3 - في البخاري قال ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم ليست من عزائم القرآن وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسجد فيها قال ابن العربي: والذي عندي أنها ليست موضع سجود ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالافتداء به وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سجود الشكر. ولما بشر بقتل أبي جهل قام فصلى ركعتين شكراً لله تعالى.

(4/444)

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بِاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

شرح الكلمات:

إنا جعلناك خليفة: أي خلفت من سبقك تدبر أمر الناس بإذننا.

ولا تتبع الهوى: أي هوى النفس وهو ما تميل إليه مما تشتهي.

فيضلك عن سبيل الله: أي عن الطريق الموصل إلى رضوانه.

إن الذين يضلون عن سبيل الله: يخطئون الطريق الموصل إلى رضوانه وهو الإيمان والتقوى.

بما نسوا يوم الحساب: أي بنسيانهم يوم القيامة فلم يتقوا الله تعالى.

باطلاً: أي عبثاً لغير حكمة مقصودة من ذلك الخلق.

ذلك ظن الذين كفروا: أي ظن أن السموات والأرض وما بينهما خلقت عبثاً لا لحكمة مقصودة منها
ظن الذين كفروا.

فويل للذين كفروا من النار: أي من واد في النار بعيد غوره كريحه لا يطاق.

مبارك: أي لا تفارقه البركة يجدها قارئه والعمل به والحاكم بما فيه.

وليتذكر أولوا الألباب: أي ليتعظ به أصحاب العقول الراجعة.

معنى الآيات :

ما زال السياق في ذكر قصة داود للعة والاعتبار وتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى {يَا دَاوُدُ (1)} أي

1 - افتتاح الخطاب بالنداء لاسترعاء وعي المخاطب ليهتم بما سيقال له.

(4/445)

وقلنا له أي بعد توبته وقبولها يا داود {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً (1) فِي الْأَرْضِ} خلفت من قبلك من الأنبياء تدبر أمر الناس {فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} أي بالعدل الموافق لشرع الله ورضاه، {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى} وهو ما تهواه نفسك دون ما شرع الله، {فَيُضِلَّكَ (2)} أي اتباع الهوى يضللك عن سبيل الله المفضي بالعباد إلى الإسعاد والكمال وذلك أن الأحكام إذا كانت مطابقة للشرعة الإلهية انتظمت بها مصالح العباد ونفعت العامة والخاصة أما إذا كانت على وفق الهوى وتحصيل مقاصد النفس للحاكم لا غير أفضت إلى تخريب العالم بوقوع الهرج والمرج بين الناس وفي ذلك هلاك الحاكم والمحكومين، وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} القائم على الإيمان والتقوى وإقامة الشرع والعدل هؤلاء {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} في الدنيا والآخرة {يَمَّا تَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (3)} أي بسبب نسيانهم ليوم القيامة فتركوا العمل له وهو الإيمان والتقوى، التقوى التي هي فعل الأوامر الإلهية واجتناب النواهي في العقيدة والقول والعمل. وقوله تعالى في الآية (27) {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} ينفي تعالى ما يظنه المشركون وهو أن خلق الكون لم يكن لحكمة اقتضت خلقه وإيجاده وهي أن يعبد الله تعالى بذكره وشكره المتمثل في الإيمان والتقوى. وقوله {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي ظن أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما لا لحكمة مقصودة وهي عبادة الله تعالى بما يشرع لعباده من العبادات القلبية والقولية والفعلية ظن الذين كفروا من كفار مكة وغيرهم. ثم توعدهم تعالى على كفرهم وظنهم الخاطئ الذي نتج عنه كفرهم وعصيانهم فقال {قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} أي ويل للذين كفروا من واد في جهنم بعيد الغور كرية الريح. وقوله تعالى في الآية (28) {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} هذا أولاً رد لما زعمه المشركون من أنهم يعطون في الآخرة من النعيم مثل ما يعطى المؤمنون، وثانياً ينفي تعالى أن يسوى بين من آمن به واتبع هداة فأطاعه في الأمر والنهي، وبين من أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي كما نفى أن يجعل المتقين الذين آمنوا واتقوا فتركوا الشرك والمعاصي كالفجار الذين فجرُوا أي خرجوا عن طاعة الله ورسوله فلم يؤمنوا ولم يوحدوا فعاشوا كفاراً فجاراً وماتوا على ذلك. أي

- 1 - لا يقال يا خليفة الله إلا لرسوله أما من عدا الرسل فإن الخليفة منهم هو خليفة لمن قبله وليس خليفة لله تعالى والصحابة قالوا لأبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 2 - الفاء هي السببية والمضارع بعدها منصوب وفي الآية تحريم اتباع هوى النفس المسبب الخروج عن دائرة العدل والحق. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز الحكم بعلم الحاكم بل بالبينة والشهود وقد أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال ومن يشهد لي؟ فقام خزيمة فشهد فحكم عليه.
- 3 - سمي يوم القيامة يوم الحساب لما يجري فيه من حساب الناس بما كسبوا من خير وشر وسمي يوم الدين للمجازاة التي تتم بعد الحساب، وسمي يوم الفصل للفصل بين الناس والحكم لهم فيما بينهم.

(4/446)

فحاشا لله رب العالمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين أن يسوي بين أهل الإيمان والتقوى وبين أهل الشرك والمعاصي بل ينعم الأولين في دار النعيم، ويعذب الآخرين في سواء الجحيم وقوله تعالى في الآية (29) {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ} أي هذا كتاب مبارك أنزلناه على رسولنا (1) ليدبروا آياته بمعنى يتأملوها ويترووها بعقولهم فيحصلوا على هداية القلوب والعقول فيؤمنوا بالله ويعملوا بطاعته فينجوا ويسعدوا. وليذكر أولوا (2) الألباب أي وليتعض بمواعظه وينزجر بزواجه أولو الألباب أي العقول السليمة ووصف الكتاب وهو القرآن بالبركة هو كما أخبر الله لا تفارق القرآن البركة وهي الخير الدائم فكل من قرأه متدبراً عرف الهدى ومن قرأه تقرباً حصل على القرب وفاز به ومن قرأه حاكماً عدل في حكمه.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- وجوب الحكم بالعدل على كل من حكم ولا عدل في غير الشرع الإلهي.
 - 2- حرمة اتباع الهوى لما يفضي إليه بالعبد إلى الهلاك والخسار.
 - 3- تقرير البعث والجزاء.
 - 4- إبطال ظن من يظن أن الحياة الدنيا خلقت عبثاً وباطلاً.
 - 5- تنزيه الرب تعالى عن العبث والظلم.
 - 6- فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر.
 - 7- بركة (3) القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها.
- وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي

أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ (33)

- 1 - ليدبروا أصلها ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال لقرب مخرجيهما.
- 2 - الألباب العقول والواحد لب ويجمع على ألب كما يجمع بؤس على أبؤس قال أبو طالب قلبي إليه مشرف الألب، والتذكر هو استحضار الذهن ما كان يعلمه كاستحضار ما هو منسي أيضا.
- 3 - بركة القرآن تتجلى في صرفها النفس عن السوء ودفعها إلى الخير وذلك لمن يقرأ القرآن موقناً به متدبراً له فإن له في كل حرف عشر حسنات مع ما يفيضه على روحه من نور المعرفة وحب الآخرة.

(4/447)

شرح الكلمات:

ووهبنا لداود سليمان : أي ومن جملة هباتنا لداود الأبواب أن وهبنا له سليمان ابنه.
نعم العبد إنه أواب : أي سليمان رجع إلى ربه بالتوبة والإنابة.
الصافنات الجياد : أي الخيل الصافنات أي القائمة على ثلاث الجياد أي السوابق.
حب الخير : أي حب الخيل عن ذكر ربي وهي صلاة العصر لانشغاله باستعراض الخيل للجهاد.
حتى توارت بالحجاب : أي استترت الشمس في الأفق وتغطت عن أعين الناظرين.
ردوها علي : أي ردوا الخيل التي استعرضتها آنفا فشغلنتني عن ذكر ربي.
فطفق مسحاً بالسوق : أي فأخذ يمسح بسوق تلك الخيل وأعناقها.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إفضال الله على داود (1) حيث قال {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ} فذكر تعالى أنه وهبه سليمان وأنتى على سليمان بأنه نعم العبد لله، وعلل لتلك الأفضلية بقوله {إِنَّهُ أَوَّابٌ} (2) أي كثير الأوبة إلى الله تعالى، وهي الرجوع إلى الله بذكره واستغفاره عند الغفلة والنسيان العارض للعبد، وأشار تعالى إلى ذلك بقوله {إِذْ عَرَضَ} (3) عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ (4) الْجِيَادُ} أي الخيل القوية على السير التي إذا وقفت تأبى أن تقف على أربع كالحمير بل تقف على ثلاث وترفع الرابعة، والجياد هي السريعة العدو، وهذا العرض كان استعراضاً منه لها إعداداً لغزو أرماده فاستعرض خيله فانشغل بذلك عن صلاة العصر فلم يشعر إلا وقد غربت الشمس وهو معنى قوله تعالى {حَتَّى تَوَارَتْ} أي استترت الشمس {بِالْحِجَابِ} أي بالأفق الذي حجبها عن أعين الناظرين. فندم لذلك وقال {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ} أي الخيل {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} وصلّى العصر، ثم عاد إلى

إكمال الاستعراض فردها رجاله عليه فجعل يمسح بيده(5) سوقها وأعناقها حتى أكمل استعراضها هذا وجه الأوبة التي وصف بها سليمان عليه السلام في قوله تعالى {إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

- 1 - جملة نعم العبد في محل نصب على الحال والمخصوص بالمدح محذوف أي سليمان.
- 2 - الجملة تعليلية لما سبقها.
- 3 - العارض هم سؤاس خيله. والعرض هو الإمرار والإحضار أمام الرائي والجياد جمع جواد وهو الفرس الشديد الحُضر، كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها. والجياد يجمع على أجواد وأجاود.
- 4 - الصافنات صفة لموصوف محذوف وهو الخيل أو الأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم والواحدة صافنة.
- 5 - ذكر كثير من المفسرين أن قوله فطفق مسحاً بالسوق والأعناق أنه ذبحها وأطعمها الفقراء لأنها ألهمته عن الصلاة وما في التفسير هو اختيار ابن جرير وهو الحق والصواب.

(4/448)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الولد الصالح هبة إلهية لوالده فليشكر الله تعالى من وهب ذلك.
- 2- التناء على العبد بالتوبة الفورية التي تعقب الذنب مباشرة.
- 3- جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقداً لها لما قد يحدثه فيها.
- 4- إطلاق لفظ الخير على الخيل فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسنات لمن ربطها في سبيل الله كما في الحديث الصحيح "الخيول لثلاث ...".
- 5- ربط الطائرات النفاثة في الحظائر اليوم والمدركات وإعدادها للقتال في سبيل الله حل محل ربط الجياد من الخيل في سبيل الله.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

شرح الكلمات:

ولقد فتنا سليمان : أي ابتليناه.

وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً : أي شق ولد ميت لا روح فيه.
ثم أَنَاب : أي رجع إلى ربه وتاب إليه من عدم استثنائه في يمينه.
وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي : أي أعطني ملكاً لا يكون لسواي من الناس.
فسخرنا له الريح : أي استجبنا له فسخرنا له الريح تجري بأمره.

(4/449)

رخاء حيث أصاب : أي لينة حيث أراد.
والشياطين كل بناء وغواص : أي وسخرنا له الشياطين من الجن منهم البناء ومنهم الغواص في البحر.
مقرنين في الأصفاد : أي مشدودين في الأصفاد أيديهم إلى أعناقهم في السجون المظلمة وذلك إذا تمردوا وعصوا أمراً من أوامره.
هذا عطاؤنا : أي وقلنا له هذا عطاؤنا.
فامنن أو أمسك : أي أعط من شئت وما شئت وامنع كذلك.
بغير حساب : أي منّا لك.
وإن له عندنا لزلزلى : أي وإن لسليمان عندنا لقرية يوم القيامة.
وحسن مآب : أي مرجع في الجنة في الدرجات العلاء.
معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إنعام الله على آل داود فقد أخبر تعالى هنا عما منّ به على سليمان فأخبر تعالى أنه ابتلاه كما ابتلى أباه داود وتاب سليمان كما تاب داود ولم يسقط ذلك من علو منزلتهما وشرف مقامهما قال تعالى في الآية (34) {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ (1)} أي ابتليناه، وذلك أنه كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لأطان الليلة مائة جارية (2) تلد كل جارية ولداً يصبح فارساً يقاتل ي سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله أي لم يستثن ووطئ نساءه في تلك الليلة فعوقب لعدم استثنائه فلم يلدن إلا واحدة جاءت بولد مشلول بالشلل النصفي فلما وضعته أمه أتوا به إلى سليمان ووضعوه على كرسية. وهو معنى قوله تعالى {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} سليمان إلى ربه فاستغفر وتاب فتاب الله عليه وقال {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي (3) لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} أي لا يكون مثله لسواي من الناس وتوسل إلى الله في قبول دعائه بقوله {إِنَّكَ أَنْتَ

1 - ذكر المفسرون لهذه الفتنة عدة أمور وهي قصص أشبه بالخرافات الإسرائيلية أمثلها ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان

وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم ثم قضى بينهما بالحق فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى وما في التفسير أصح وأقرب إلى تفسير الآيات.

2 - نص الحديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون.

3 - روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن عفريت من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع على صلاتي فحماني الله تبارك وتعالى منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتظنوا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام {رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب} فرددته خاسئاً.

(4/450)

{الْوَهَّابُ} فاستجاب الله تعالى له فسخر له الريح تجري بأمره حيث يريد لها لأنها تحمل بساطه أو سفينته الهوائية التي غدوها شهر ورواحها شهر رخاء أي لينة حيث أصاب أي أراد، كما سخر له شياطين الجن منهم البناء الذي يقوم بالبناء للدور والمصانع ومنهم الغواص في أعماق البحر لاستخراج اللآلي، ومنهم من إذا عصاه وتمرد عليه جمع يديه إلى عنقه بصفد ووضعته تحت الأرض. هذا ما جاء في قول الله تعالى {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرِينَ مُتَّرَبِّينَ فِي الْأَصْفَادِ (1)} وقوله تعالى {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي أعطيناها ما طلب منا وقلنا له هذا عطاؤنا لك فامنن أي أعط ما شئت لمن شئت وامنع ما شئت ممن شئت بغير حساب منا عليك. وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقرية وحسن المرجع وهو قوله تعالى {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير قول بعضهم حسنات الأبرار سيئات المقربين إذ عدم الاستثناء في قوله لأطأن الليلة مائة جارية الحديث

عوقب به فلم تلد امرأة من المائة إلا واحدة وولدت طفلاً مشلولاً، وعوقب به نبينا صلى الله عليه وسلم فانقطع عنه الوحي نصف شهر وأكربه ذلك لأنه لم يستثن عندما سئل عن ثلاث مسائل وقال غدا أجيبكم.

2- مشروعية التوبة من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً.

3- مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنی.

4- بیان إنعام الله تعالى على عبده سليمان.

5- بیان تسخير الله تعالى لسليمان الريح والجن وهذا لم يكن لأحد غيره من الناس.

وَأذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

1 - الأصفاد جمع صفة بفتح الصاد والفاء القيد من حديد.

(4/451)

شرح الكلمات:

واذكر عبدنا أيوب : أي اذكر يا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عبدنا أيوب بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم.

بنصب وعذاب : أي بضر وألم شديد نسب هذا للشيطان لكونه سببا وتأديبا مع الله تعالى.

اركض برجلك : أي اضرب برجلك الأرض تتبع عين ماء.

هذا مغتسل بارد وشراب : أي قلنا له هذا ماء بارد تغتسل منه، وتشرب فتشفي.

ضغتا : أي حزمة من حشيش يابس.

ولا تحنث : بترك ضربها.

نعمة العبد : أي أيوب عليه السلام.

إنه أواب : أي رجاع إلى الله تعالى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر قصص الأنبياء ليثبت به فؤاد نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى له

{وَأذْكَرُ عَبْدَنَا (1) أَيُّوبَ} وهو أيوب بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام {إِذْ نَادَى

رَبَّهُ} أي دعاه قائلاً {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ (2) وَعَذَابٍ (3) أَي أَلْمٌ شَدِيدٌ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَرَضٍ

شَدِيدٍ دَامَ مَدَّةَ تَزْيِيدٍ عَلَى كَذَا سَنَةٍ وَقَالَ فِي ضِرَاعَةٍ أُخْرَى ذَكَرْتُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ {أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ

وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} قَالَ تَعَالَى {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَنبَأَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} وَقَوْلُهُ

{ارْكُضْ (4) بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} أَي لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْهُ قَالَ لَهُ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ

أَي اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ يَنْبَعُ مِنْهَا مَاءٌ فَاشْرَبْ (5) مِنْهُ وَاعْتَثَلْ تَشْفِ ففعل فشفي كأن لم

- 1 - قال القرطبي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالافتداء بهم في الصبر على المكاره.
- 2 - قرأ الجمهور بنصب بضم النون وتسكين الصاد وقرئ بنصب بفتحها كحزن وحزن والنصب الشر والبلاء الشديد والنصب بالتحريك التعب والإعياء
- 3 - الباء في بنصب سببية أي مسني نصب وعذاب بسبب وسوسة الشيطان لي فنسب النصب والعذاب إلى الشيطان لأنهما كانا بسبب وسواسه.
- 4 - الركض التحريك يقال ركب الدابة إذا حركها برجليه فركضت أي تحركت بسرعة وجملة اركض مقولة لقول محذوف أي قلنا له اركض برجلك.
- 5- أي ماء فيه شفاء ومغتسل اسم مفعول أي مغتسل به هو من باب الحذف والإيصال مثل تمرّون الديار ولا تعرجوا: فكلامكم إذا عليّ حرام. أي تمرّون بالديار فحذف الباء.

(4/452)

يكن به ضر البتة. وقوله تعالى {وَوَهَبْنَا (1) لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} أي عوضه الله تعالى عما فقد من أهل وولد، وقوله {رَحْمَةً مِّنَّا} أي كان ذلك التعويض لأيوب {رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} أي عبرة لأولي القلوب الحية الواعية يعلمون بها أن الله قد يبئلي أحب عباده إليه ليرفعه بذلك درجات عالية ما كان ليصل إليها دون ابتلاء في ذات الله والصبر عليه. وقوله {وَوَحَّدَ بِيَدِكَ (2) ضِغْتًا} أي قلنا له خذ بيدك ضغتا أي حزمة من حشيش يابس واضرب به امرأتك ضربة واحدة إذ في الحزمة مائة عود وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة لما حصل منها من تقصير في يوم من أيام حياتهما، فأفتاه ربه تعال بما ذكر في هذه الآية. وقوله تعالى {إِنَّا وَجَدْنَاهُ (3) صَابِرًا} أي قد اختبرناه بالمرض وفقد الأهل والمال والولد فوجدناه صابراً، وبذلك أثنى عليه بقوله {نِعْمَ الْعَبْدُ} أي أيوب {إِنَّهُ أَوْابٌ} رجاع إلى ربه في كل أمره لا يعرف إلا الله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي.
 - 2- قد يبئلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علو مقامه ورفعته شأنه.
 - 3- فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
 - 4- مشروعية الفتيا وهي خاصة بأهل الفقه والعلم.
 - 5- وجوب الكفارة على من حنث في يمينه.
- وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى

الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (47) وَادْكُرْ

- 1 - لم تشر الآيات إلى أن أيوب رزى بموت أهله ولا بفقد ماله وسياق الآيات يدل على أن أيوب مات أهله من بنين وأحفاد وما يذكر هنا من كونه فقد أهله بموتهم ثم أحياهم الله تعالى له من أحاديث بني إسرائيل، والظاهر أن الله تعالى حفظ لأيوب أهله ووهبه مثلهم أي أعطاه أهله وزاده ضعفهم ولو أراد ما تقوله الناس لقال وأحيينا له أهله ووهبنا له مثلهم والله أعلم.
- 2 - هذه الفتيا مما خص الله تعالى بها عبده أيوب فلا تتعداه إلى غيره والنبي صلى الله عليه وسلم قال إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير وما روى أبو داود من أن رجلاً مريضاً وجب عليه حد فأفتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بضربه بعثكول نخل به مائة عود فضربوه به ضربة واحدة فإن الخبر إن صح فالعلة هي مرضه الشديد وعلته القائمة به.
- 3 - الجملة تعليلية لما تقدم من إنعام الله تعالى على أيوب أي وهبه الله ذلك الإنعام لصبره على ما ابتلاه به وكذا جملة إنه أواب.

(4/453)

إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٍ (52) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)

شرح الكلمات:

واذكر عبادنا : أي اذكر صبرهم على ما أصابهم فإن لك فيه أسوة.

أولي الأيدي : أي أصحاب القوى في العبادة.

والأبصار : أي البصائر في الدين بمعرفة الأسرار والحكم.

بخالصة : أي هي ذكر الدار الآخرة والعمل لها.

لمن المصطفين الأخيار : أي من المختارين الأخيار جمع خير.

هذا ذكر : أي لهم بالثناء الحسن الجميل هنا في الدنيا.

وإن للمتقين : أي هم وغيرهم من سائر المؤمنين والمؤمنات.

لحسن مآب : أي مرجع أي عندما يرجعون إلى ربهم بالوفاة.

متكئين فيها : أي على الأرائك.

يدعون فيها بكل فاكهة: أي يطالبون فيها بفاكهة وذكر الفاكهة دون الطعام والشراب إيذاناً بأن

طعامهم وشرابهم لمجرد التلذذ لا للتغذية كما في الدنيا.
قاصرات الطرف : أي حابسات العيون على الأزواج فلا ينظرون إلى غيرهم.
أتراب : أي أسنانهن متساوية وهي ثلاث وثلاثون سنة.
ماله من نفاذ : أي ليس له انقطاع أبداً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر الأنبياء وما أكرموا به على صبرهم ليكون ذلك مثبتاً للنبي صلى الله عليه وسلم على دعوته والصبر عليها والتحمل في سبيل الوصول بها إلى غاياتها فقال تعالى له {وَأَذْكُرْ} أي يا نبينا

(4/454)

{عِبَادَنَا} لتتأسى بهم وهم {إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ (1)} ولد و {وَيَعْقُوبَ} حفيده {أُولَى} أي أصحاب {الْأَيْدِي (2)} أي القوى في العبادة والطاعة {وَالْأَبْصَارِ} أي أبصار القلوب وذلك بالفقه في الدين ومعرفة أسرار التشريع، وقوله تعالى {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ} أي خصصناهم {بِخَالِصَةٍ (3)} أي بخاصة امتازوا بها هي ذكر الدار أي الدار الآخرة بالعمل لها والدعوة إليها بالإيمان والتقوى، وقوله {وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ} أي المختارين {الْأَخْيَارِ} جمع خَيْر (4) وهو المطبوع على الخير وقوله {وَأَذْكُرْ} أي نبينا للاتساء {وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ} وقوله {وَكُلُّ} أي من داود ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا من الأخيار، وقوله {هَذَا ذِكْرٌ} أي لهم بالثناء الحسن لهم في الدنيا، {وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ} (5) هم وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات {لِحُسْنِ مَا بَ} أي مرجع وهو الجنة حيث يرجعون إلى الله تعالى بعد الموت، وفسر ذلك المرجع بقوله تعالى {جَنَّاتٍ عَدْنٍ} أي إقامة {مُفْتَحَةً (6)} لَهُمُ الْأَبْوَابُ {مُتَّكِنِينَ فِيهَا} أي على الأرائك الأسرة بالحجلة، {يَدْعُونَ فِيهَا} أي يطالبون فيها {بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} ولم يذكر الطعام إشارة إلى أن مآكلهم ومشاربهم لمجرد التلذذ لا للتغذي بها كما في الدنيا، وقوله {وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} يخبر تعالى أن لأولئك المتقين في الجنة قاصرات الطرف أي نساء قاصرات الطرف حابسات له على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم من الأزواج وقوله {أَتْرَابٌ} أي في سن واحدة وهي ثلاث وثلاثون سنة. وقوله {هَذَا مَا تُوعَدُونَ} أي يقال لهم هذا ما توعدون {لِيَوْمِ الْحِسَابِ} أي هذا المذكور من النعيم هو ما يعدكم به ربحكم يوم القيامة. وقوله {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} أي ليس له انقطاع ولا فناء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين وفي الحديث (7) "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله

من المؤمن الضعيف وفي كل خير".

2- فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائماً لأنها تساعد (8) على الطاعة.

- 1 - أما إبراهيم فقد ذكر الله تعالى ما ابتلاه به من إلقائه في النار وكذا يعقوب من فقدته ليوسف عليهم السلام وأما إسحاق فلم يذكر له في القرآن ابتلاء ولعله ذكر بين مبتلين وهما أصله وفرعه فكان ذلك ابتلاء له أيضاً.
- 2 - جمع يد والمراد بها القوة لا الجارحة نحو والسماء بنيناها بأيدينا وأنا لموسعون.
- 3 - قرأ نافع بخالصة ذكر الدار بإضافة خالصة إلى الدار وقرأ حفص بتنوين خالصة فتكون ذكر الدار عطف بيان على خالصة.
- 4 - جائز أن يكون الأختيار جمع خير بإسكان الياء وجمع خير بتشديدها مكسورة نحو أموات جمع ميت وميت.
- 5 - اللام للاختصاص ليس للملك ولا للتعليل بل للاختصاص إذ هي مختصة بالمتقين دون غيرهم.
- 6 - مفتحة منصوبة على الحال والأبواب مرفوع بمفتحة لأنه نائب فاعل.
- 7 - أخرجه مسلم في صحيحه.
- 8 - شاهده حديث " كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة " حديث صحيح".

(4/455)

- 3- فضل التقوى وأهلها وبيان ما اعد لهم يوم الحساب.
 - 4- نعيم الآخرة لا ينفد كأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
 - 5- فضيلة الائتساء بالصالحين والافتداء في الخير بهم وهم أولوا القوة في العبادة والبصيرة في الدين.
- هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٍ وَعَسَاقٍ (57)
وَأَحْرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ (58) هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59)
قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِّدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) اتَّخَذْنَا هُمْ سِخْرِيًّا أَمْ
رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

شرح الكلمات:

هذا : المذكور للمتقين.

وإن للطاغين : أي الذين طغوا في الكفر والشر والفساد.
لشر مآب : أي جهنم يصلونها.
فبئس المهاد : أي الفراش الذي مهدوه لأنفسهم في الدنيا بالشرك والمعاصي.
هذا فليذوه : أي العذاب المفهوم مما بعده فليذوقوه.
حميم : أي ماء حار محرق.
وغساق : أي قيح وصدید يسيل من لحوم وفروج الزناة في النار.
وآخر من شكله أزواج : أي وعذاب آخر كالحميم والغساق أصناف.

(4/456)

هذا فوج مقتحم معكم: أي يقال لهم عند دخولهم النار هذا فوج مقتحم معكم.
لا مرحبا بهم : أي لا سعة عليهم ولا راحة لهم إنهم صالوا النار.
قالوا : أي الأتباع للطاغين: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا.
قالوا ربنا من قدم لنا هذا : أي الأتباع أي من كان سببا في عذابنا هذا في جهنم فزده عذابا.
وقالوا ما لنا لا نرى رجالا : أي قال الطاغون وهم في النار ما لنا لا نرى رجالا كنا نعددهم من الأشرار في الدنيا يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمار وصهيب.
أخذناهم سخريا : أي كنا نسخر منهم في الدنيا.
أم زاغت عنهم الأبصار: أي أمفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار؟ فلم نرهم.
إن ذلك لحق تخاصم أهل النار: أي إن ذلك المذكور لأهل النار لحق ثابت وهو تخاصم أهل النار.
معنى الآيات:

بعد ذكر نعيم أهل الإيمان والتقوى ناسب ذكر شقاء أهل الكفر والفجور وهو أسلوب التهيب والترغيب الذي امتاز به القرآن الكريم في هداية العباد. فقال تعالى {هَذَا (1)} أي ما تقدم ذكره من نعيم أهل السعادة {وَأَنَّ لِلطَّٰغِيْنَ} وهم المشركون الظلمة كأبي جهل وعتبة بن معيط والعاص بن وائل {لَشَرٍّ مَّآبٍ} أي لأسوأ مرجع وأقبحه وهو {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ(2)} هي يمهدا الظالمون لأنفسهم. وقوله تعالى {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} أي هذا حميم وغساق (3) فليذوقوه والحميم الماء الحار المحرق والغساق ما سال من جلود ولحوم وفروج الزناة من أهل النار كالقيح والصدید وقوله {وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ(4)} أي وعذاب آخر من شكل الأول {أَزْوَاجٌ} أي أصناف عديدة وقوله تعالى {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ} أي يقال (5) عند دخولهم النار هذا فوج أي فريق مقتحم معكم في النار، فيقول الطاغون {لَا مَرْحَبًا(6) بِهِمْ} أي لا سعة ولا راحة لهم {إِنَّهُمْ صَالُوا

- 1 - هذا مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تثنية للغرض قبله شبيهة بكلمة وبعد.
- 2 - الفاء في فبئس المهاد للترتيب والسبب.
- 3 - الغساق سائل في جهنم يقال غسق الجرح إذا سال منه ماء أصفر. قرأ الجمهور "غساق" بالتخفيف وقرأه حفص وبعض بالتشديد فهما لغتان فيه والتشديد للمبالغة في غاسق وهو أقرب.
- 4 - وآخر صفة لموصوف محذوف أي وعذاب آخر من شكله أي من مثله أزواج أي أصناف متعددة.

- 5 - يبدو أن القائل هم الزبانية يخاطبون الطغاة وهم يعذبونهم هذا فوج.
- 6 - لا مرحبا نفي للكلمة التي يقولها المزور لمن زاره وهي إنشاء دعاء للوفاء. وهي مصدر بوزن مفعل، والعامل فيه محذوف تقديره أتيت رحبا أي مكاناً ذا رحب، فإذا أرادوا نفيه قالوا لا مرحباً بكم. قال الشاعر:

لا مرحبا بغدٍ ولا أهلا به
إذا كان تفريق الأحبة في غدٍ

(4/457)

{النَّارِ} أي داخلوها محترقون بحرهما ولهيبها، فيرد الأتباع عليهم قائلين: {بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا (1) بِكُمْ} أي لا سعة ولا راحة {أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} إذ كنتم تأمروننا بالشرك والكفر والفجور قال تعالى {فَبِئْسَ الْقَرَارُ} أي الذي انتهى إليه الطاغون وأتباعهم في النار، وقالوا أيضا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا} أي العذاب {فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} أي يا ربنا ضاعف لهم العذاب مرتين لأنهم هم الذين قدموه لنا يوم كانوا يدعوننا إلى الشرك والباطل ويحضوننا عليه. وقوله تعالى {وَقَالُوا} أي الطغاة {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} (2) بيننا {أَتَّخَذْنَا هُمْ} (3) في الدنيا {سِخْرِيًّا} (4) نسخر منهم يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمار وصهيب وخبيب، أمفقودون هم {أُمَّ زَاعَتٌ عَنْهُمْ} أبصارنا فلم نرهم، قال تعالى {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} أي إن ذلك الكلام الذي دار بين أهل النار حق وصدق هو تخاصم أهل النار فاسمعوه أيها المشركون اليوم آيات تتلى وغدا يوم الحساب حقائق تشاهدوه وغصص تتجرع وحسرات تمزق الأكباد والقلوب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله ويوم القيامة.
- 2- بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعظة والاعتبار.
- 3- شكوى الأتباع ممن اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم.

4- تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشور مثلهم.

- 1 - بل للإضراب الإبطالي لرد الشتم عليهم، وأنهم هم أولى به منه، والباء في بهم للبيان فهي بمعنى اللام أي لا مرحباً لهم يستحقونه عندنا.
- 2 - جمع شر بمعنى أشر كالأخيار جمع خير بمعنى أخير.
- 3 - قرأ نافع وحفص والجمهور اتخذناهم بهمزة الاستفهام وحذفت همزة الوصل والجملة بدل من جملة "ما لنا لا نرى رجالاً... اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار، وأم بمعنى بل أي بل زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم وزاغت بمعنى مالت.
- 4 - قرأ نافع سخرياً بضم السين وقرأ حفص بكسرها كما في سورة المؤمنون والسخرية الاستهزاء.

(4/458)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِي مِنِّ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْتُمْ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74)

شرح الكلمات:

قل : أي يا رسولنا لمشركي قومك أي مخوفاً من عذاب الله.
وما من إله إلا الله الواحد القهار: أي وليس هناك من إله قط إلا الله الواحد القهار.
العزير الغفار: أي الغالب الذي لا يمانع في مراده الغفار للتائبين من عباده.
قل هو نبأ عظيم: أي قل يا رسولنا لكفار مكة القرآن نبأ عظيم وخبر جسيم.
أنتم عنه معرضون: لا ترغبون في سماعه ولا في تدبر معانيه.
بالملا الأعلى: أي بالملائكة عندما شووروا في خلق آدم.
إذ قال ربك للملائكة: أي اذكر لهم تدليلاً على أنه يوحى إليك القرآن إذ قال ربك للملائكة.
خالق بشراً من طين: أي خالق آدم من مادة الطين وقيل فيه بشر ليدو بشرته.
من روي: الروح جسم لطيف يسري في الجسم سريان النار في الفحم أو الماء في الشجر أو الكهرباء في الأسلاك.

إلا إبليس : أي لم يسجد.

استكبر : عن السجود لآدم كبراً وحسداً له.

(4/459)

معنى الآيات:

بعد كل ذلك العرض للقصص ولما في الجنة والنار وما تقرر به من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء أمر تعالى رسوله أن يقول لمشركي قريش {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ (1)} أي مخوف من عذاب الله الواجب لكل من كفر به وكذب بآياته ولقائه وترك عبادته وعبد الشيطان عدوه، كما أخبركم مقررًا أنه ليس هناك من إله قط إلا الله الواحد في ذاته وصفاته وربوبيته وعبادته القهار لكل قاهر والجبار لكل جبار رب السموات والأرض وما بينهما أي مالك لها متصرف فيها دون شريك له في ذلك. العزيز الانتقام ممن كفر به وعصاه الغفار لمن أناب إليه واتبع هداه. وقوله تعالى {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} أي يأمر تعالى رسوله أن يقول للمشركين من أهل مكة هو أي (2) القرآن وما حواه من تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وعرض القصص والأحداث ووصف الجنة والنار نبأً عظيم أي خبر نو شأن عظيم أنتم عنه معرضون تأبون سماعه والإيمان به والاهتداء بهديه. بدعوى أنني اختلفته وافتريته وهي حجة داحضة وأدلتكم في ذلك واهية. كيف يكون ما أتلوه عليكم من القرآن افتراء مني عليكم وعلى الله ربي وربكم، وإنه ما كان لي (3) من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون (4) عندما قال الله للملائكة {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} وقال {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} فقال الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} كيف عرفت أنا هذا وحدثت به لو لم يكن وحياً من الله أوحاه إلي. يا قوم إنه ما يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين أي

- 1 - في هذه الآيات الثلاث الترهيب والترغيب ببيان قدرة الله وجبروته وبيان ربوبيته الموجبة للألوهية المستلزمة لمغفرته ورحمته لمن تاب إليه بتوحيده وطاعته بعد الإيمان به وبرسوله ولقائه.
- 2 - كون النبأ هو القرآن هذا ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله تعالى، ومن فسره بما سبق ذكره من الإنذار وما عرض من أحوال أهل الجنة وأهل النار فإن ما في التفسير شامل لكل ذلك هادٍ إليه ودال عليه والحمد لله.
- 3 - قوله تعالى: ما كان لي من علم الخ استئناف لأجل الاستدلال على صدق القرآن بأنه وحي من الله تعالى ولولا أنه وحي لما كان للرسول علم به لا إجمالاً ولا تفصيلاً ولهذا الاستدلال نظائر نحو ما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم، وما كنت لديهم إذ يختصمون، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا.

4 - قال بعض المفسرين تخاصم الملائكة الأعلى هو أشراف قريش فيما بينهم سرّاً وقال آخرون هو تخاصم أهل النار وقيل والصواب ما في التفسير وهو أن الملائكة الأعلى الملائكة وما جرى بينهم في شأن السجود لآدم وامتتاع إبليس عن ذلك وفي الآية بعد تفسير هذا الاختصاص وأما حديث السنن فلم يرد به ما في هذه الآيات ونصه "إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بريي عز وجل في أحسن صورة فقال يا محمد أتدري فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت لا أدري يا رب - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال يا محمد فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت في الكفارات. قال وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات قال وما الدرجات؟ قلت إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام. قال سل قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك هذا "حديث المنام".

(4/460)

بين النذارة. فلم يوح إليّ الأمر بالتسلط عليكم وأخذكم بالشدة لأستعبدكم وتكونوا خولا لي وخداماً لا، لا. إنما يوحى إليّ لتقرير حقيقة واحدة وهي أنني نذير لكم ولغيركم من عذاب الله المعدّ لمن كفر به وأشرك في عبادته، وفسق عن طاعته. وقوله تعالى في الآية (71) {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ} هو آدم عليه السلام {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي} فحيى وصار بشراً سوياً {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} أي خروا على الأرض ساجدين له طاعة لأمرنا وتحية لعبدنا، {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} سواء من كان منهم في السموات أو في الأرض {إِلَّا إِبْلِيسَ} استكبر عن السجود لآدم لزعمه الكاذب أنه خير منه لكونه من النار وآدم من طين، ولحسده أيضاً حيث فضله وفُضِّلَ عليه، وكان بذلك الكبر والحسد من الكافرين إذ جحد معلوماً من طاعة الله بالضرورة وكيف وهو يتلقى الخطاب من الله تعالى بلا واسطة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بأدلته.
- 2- تقرير النبوة والوحي بشواهد من نبأ الملائكة الأعلى.
- 3- عداوة إبليس لآدم وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر صفات العبد.
- 4- تقرير أن من القياس ما هو شر وباطل كقياس إبليس إذ قاس النار على التراب فرأى أن النار

أفضل فهلك بذلك، إذ التراب أفضل، النار تحرق والتراب يحيي، وشتان ما بين الموت والحياة.
قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَأَخْرَجْ مِنْهَا فَايُّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ
المَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

(4/461)

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنَّ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

شرح الكلمات:

لما خلقت بيدي : أي للذي خلقته بيدي وهو آدم فدل ذلك على شرفه.
أستكبرت أم كنت من العالين : أستكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين والاستفهام
للتوبيخ والتفريع لإبليس.
فاخرج منها : أي من الجنة.
فإنك رجيم : أي مرجوم مطرود.
وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين : أي طرده من الجنة وألحقه لعنة وهي الطرد من الرحمة إلى يوم
الدين أي الجزاء وهو يوم القيامة.
قال رب فأنظرنني : أي أخر موتي وأبق عليّ حيّاً إلى يوم يبعثون أي الناس.
إلى يوم الوقت المعلوم : أي إلى النفخة الأولى وهي نفخة الموت والفناء.
إلا عبادك منهم المخلصين: أي الذين استخلصهم للإيمان بك وعبادتك ومجاورتك في الجنة.
قل ما أسألكم عليه من أجر : لا أسألكم على البلاغ أجراً تعطونه لي.
وما أنا من المتكلفين : أي المتقولين القرآن وما أندركم به من تلقاء نفسي.
إن هو إلا ذكر للعالمين : أي ما أتله من القرآن وما أقوله من الهدى إلا ذكر للعالمين.
ولتعلمن نبأه بعد حين: أي ولتعلمن أيها المكذبون نبأ القرآن الذي أنبأ به من الوعد للمؤمنين والوعيد
للكافرين بعد حين.

(4/462)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر ما دار بين الرب تعالى وعدوه إبليس من حديث في الملائكة الأعلى إذ قال تعالى بعد أن امتنع إبليس من السجود لآدم {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ (1) أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي (2)} أي أي شيء جعلك تمتنع من السجود لآدم وقد أمرتك بذلك {أَسْتَكْبَرْتَ} أي الآن {أَمْ كُنْتَ} من قبل {مِنَ الْعَالِينَ} أي المستكبرين، وهذا الاستفهام من الله تعالى توبيخ لإبليس وتقرير له. وأجابه إبليس بما أخبر تعالى به عنه في قوله {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} فاستعمل اللعين القياس الفاسد المردود عند أرباب العقول، إذ النار لم تكن أبداً خيراً من الطين، النار تحرق ونهايتها رماد، والطين لا يحرق ومنه سائر أنواع المغذيات التي بها الحياة الحبوب والثمار والفواكه والخضر واللحوم وحسبه أنه أصل الإنسان ومادة خلقته. فأى شرف للنار أعظم لو كان اللعين يعقل. وهنا قال تعالى له {فَاخْرُجْ مِنْهَا} أي من الجنة {فَأِنَّكَ رَجِيمٌ} أي مطرد مبعث لا ينبغي أن تبقى في رحمة الله، {وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي} لا تفارقك على مدى الحياة وهي بُعد من رحمتي طوال الحياة.

وهنا قال اللعين لما آيس من الرحمة {رَبِّ فَأَنْظِرْنِي} أي أبق عليّ حياً لا تمتني {إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ} حتى يتمكن من إغواء بني آدم، ولا يموت إذا ماتوا في النفخة الأولى فلا يدوق هو الموت وعلم الله ما أضمره في نفسه فرد عليه بقوله {فَأِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} أي الممهلين المبقى على حياتهم {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} وهو النفخة الأولى حتى يموت مع سائر الخلائق ولما علم اللعين أنه أنظر قال في صفاقة وجه ووقاحة قول مقسماً بعزة الله {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ} فاستثنى اللعين عباد الله المؤمنين المتقين الذين استخلصهم الله لطاعته وجواره في دار كرامته. وهنا قال تعالى رداً على اللعين {قَالَ (4) فَالْحَقُّ} أي أنا الحق {وَالْحَقُّ أَقُولُ} {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} أي من الإنس والجن أجمعين. وإلى هنا انتهى ما دار من خصومة في الملائكة الأعلى، وكيف عرف محمد صلى الله عليه وسلم هذا وأخبر به لولا أنه

- 1 - ذكر صاحب تفسير التحرير أن خطاب الله تعالى لإبليس بعد إبلاسه كان بواسطة ملك من الملائكة معللاً ذلك بعدم أهلية إبليس بعد إبلاسه لذلك لما فيه من الشرف والكمال ولم أقف على من رأى هذا الرأي غيره والله أعلم بصحته أو خطأه.
- 2 - في قوله بيدي إثبات صفة اليدين لله تعالى وقد وردت أحاديث صحيحة تقرر ذلك وثبته فوجب الإيمان بهذه الصفة الذاتية لله تعالى مع تنزيهه تعالى أن يكون يده تشبه يدي من له يدان من خلقه لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

3 - العلو الشرف فمعنى قوله تعالى من العالين أي من أهل علو المراتب وشرف المنازل فلذا امتنعت من السجود لآدم عليه السلام.

4 - قرأ الجمهور قال فالحق بنصب الحق على أنه مفعول مطلق تقديره أحق الحق، وقرأ حفص

بالرفع على تقدير فالحق قولي، أو أنا الحق أي على الابتداء، وأما الحق الثاني فهو منصوب إجماعاً لفعل أقول.

(4/463)

وحي يوحى إليه. وهنا قال تعالى لرسوله قل لقومك المكذبين برسالتك {مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي على البلاغ {مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (1)} الذين يتقولون على الله ويقولون ما لم يقل {إِنْ هُوَ} أي القرآن {إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} من الإنس والجن يذكرون به فيؤمنون ويهتدون {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} أي ولتعرفن صدق ما أخبر به من وعد ووعد وصلاحيه ما تضمنه من تشريع بعد حين، وقد عرف بعضهم ذلك يوم بدر، ويوم الفتح، ويوم مؤتة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ذم الكبر والحسد وحرمتها وبيان جزائهما.
- 2- مشروعية القياس إن كان قياساً صحيحاً، وبيان أخطار القياس الفاسد.
- 3- مشروعية القسم بالله وبصفاته وأسمائه.
- 4- بيان أن من كتب الله سعادتهم لا يقوى الشيطان على إغوائهم وإضلالهم.
- 5- لا يجوز أخذ الأجرة على بيان الحق والدين.
- 6- ذم التكلف (1) المفضي إلى الكذب والتقول على الله والرسول والمؤمنين.
- 7- ظهر مصداق ما أخبر به القرآن بعد حين قصير وطويل.

1 - التكلف: معالجة الكلفة وهو ما يشق على المرء عمله أو علمه أو قوله لعدم قدرته على ذلك روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال من سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم، ولا يتكلف فإن قوله لا أعلم علم وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين}. روي أن للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم. وروى الدارقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم مر في بعض أسفاره على رجل جالس على مقرة له وقال له عمر يا صاحب المقرة أولغت السباع الليلة في مقراتك*؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا صاحب المقرة لا تخبره، هذا متكلف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور، كما روى مالك في الموطأ أن عمر خرج في ركب معهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً فقال عمرو بن العاص يا صاحب الحوض هل ترد السباع حوضك؟ فقال عمر يا صاحب

الحوض لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا.
* المقرأة: الحوض يجمع فيه الماء.

(4/464)

سورة الزمر

...

سورة الزمر (1)

مكية

وآياتها خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2)
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
لَا صُفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4)

شرح الكلمات:

تنزيل الكتاب : أي القرآن من الله.

العزير الحكيم : أي العزيز في ملكه وانتقامه الحكيم في صنعه وتدبير خلقه.

مخلصاً له الدين : أي مفرداً إياه بالعبادة فلا تشرك بعبادته أحداً.

الله الدين الخالص : أي له وحده خالص العبادة لا يشاركه في ذلك أحد سواه.

أولياء : أي شركاء وهي الأصنام.

ليقربونا إلى الله زلفى : تقربياً وتشفع لنا عند الله.

من هو كاذب كفار : أي كاذب على الله كفار بعبادته غير الله تعالى.

سبحانه : أي تنزيهاً له عن الولد والشريك.

1- سميت بالزمر لذكر لفظ الزمر فيها ولم يذكر في غيرها قط والزمر جمع زمرة وهي الفوج المتبوع
بفوج آخر.

(4/465)

هو الله الواحد القهار: أي المعبود الحق الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه القهار لخلقه.
معنى الآيات:

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ (1) مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} يخبر تعالى أن تنزيل القرآن كان منه سبحانه وتعالى وهو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبير خلقه. ولم يكن عن غيره بحال من الأحوال وقوله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} (2) يخبر تعالى رسوله بقوله {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (3)} أي القرآن العظيم {بِالْحَقِّ} في كل ما جاء فيه ودعا إليه من العقائد والعبادات والأحكام وعليه {فَاعْبُدِ (4) اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ} أي العبادة فلا تعبد معه غيره فإن العبادة لا تصلح لغيره أبداً {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ} والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (5)} أي شركاء يعبدونهم ويقولون {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} أي تقريبا ويشفعوا لنا عند الله في قضاء حوائجنا هؤلاء يحكم الله بينهم في ما هم فيه مختلفون مع المؤمنين الموحدون وذلك يوم القيامة وسيجزى بعدله كلا بما يستحقه من إنعام وتكريم أو شقاء وتعذيب. وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} يخبر تعالى بحرمان أناس من هدايته وهم الذين توغلو في الفساد فكذبوا على الله تعالى وعلى عباده وأصبح الكذب وصفاً لازماً لهم، وكفروا وبالغوا في الكفر بالله وآياته ورسوله ولقائه فأصبح الكفر وصفاً ثابتاً لهم، إذ هذه سنته في حرمان العبد من الهداية ليمضي فيه حكم الله بإشقاؤه وتعذيبه يوم القيامة. وقوله تعالى {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا} كما يزعم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، وكما قال النصارى المسيح ابن الله، وكما قال اليهود عزيز ابن الله، ولو أراد الله أن يكون له ولد لاصطفى واختار مما يخلق ما يشاء، ولا يتركهم ينسبون إليه الولد افتراء عليه وكذباً، ولكنه تعالى منزه عن صفات المحدثين وافتقار المخلوقين إذ هو الله ذو الألوهية على سائر خلقه الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه وحكمه القهار لسائر خلقه فسبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

1 - تنزيل الكتاب، أي القرآن - جائز أن يكون تنزيل الكتاب مبتدأ والخبر من الله وجائز أن يكون تنزيل خبر والمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل.

2 - بالحق الباء للملابسة أي ملابساً للحق فلا باطل معه.

3 - فيه تقرير نبوته صلى الله عليه وسلم والإعلان عن شرفه بإنزال الكتاب عليه.

4 - الفاء للتفريع، أي فبناء على إنزالنا عليك الكتاب فاعبد الله، ومخلصاً حال، والدين العبادة، وإخلاص العبادة تجريدتها من الالتفات إلى غير الله تعالى لطلب مدح أو نفع أو دفع مكروه أو انتقاء ذم.

5 - ألا الله الدين الخالص افتتاح الجملة بألا للتبنيهي على شرف ما دخلت عليه والتبويه به. اللام في الله للملك والاستحقاق وفي الآية دليل على وجوب الإخلاص في العبادة ووجوب النية فيها ولا عبادة بدون نية صحيحة ولا يضر النية خاطر يخطر بالقلب لا يملك المرء دفعه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية.
- 2- تقرير التوحيد.
- 3- بطلان الشرك والتعدد بالمشركين.
- 4- تقرير البعث والجزاء يوم القيامة.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خُلُقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)

شرح الكلمات:

خلق السموات والأرض بالحق: أي من أجل أن يذكر ويشكر لا من أجل اللهو والعبث.
يكور الليل على النهار: أي يدخل أحدهما في الآخر فإذا جاء الليل ذهب النهار والعكس كذلك.

وسخر الشمس والقمر: أي ذللهما فلا يزالان يدوران في فلكيهما إلى نهاية الحياة وبدورتهما تتم مصالح سكان الأرض.

خلقكم من نفس واحدة: هي آدم عليه السلام.

ثم جعل منها زوجها: هي حواء خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر.

وأنزل لكم من الأنعام: أي أنزل المطر فأنبت العشب فخلق الأنعام فهذا وجه لإنزالها.

ثمانية أزواج: أي من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين.

يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق: أي أطواراً طوراً بعد طورٍ نطفة فعلة فمضغة.

في ظلمات ثلاث: أي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة.

ولا تزر وازرة وزر أخرى: أي لا تحمل نفس ذات وزر وزر نفس أخرى.

إنه عليم بذات الصدور : أي ما يخفيه المرء في صدره وما يسره في ضميره.
معنى الآيات:

هذه الآيات الكريمة في تقرير التوحيد بذكر الأدلة والبراهين التي لا تدع للشك مجالاً في نفوس العقلاء فقال تعالى في الآية (5) {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ (1) وَالْأَرْضَ} أي أوجدهما خلقاً على غير مثال سابق وخلقهما بالحق لغايات سامية شريفة وليس للباطل والعبث ومن تلك الغايات أن يعبد فيها فيذكر ويشكر. وقوله {يُكْوِّرُ (2) اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} أي يغشي هذا هذا فيغطيه به ويستتره كأنما لقه عليه وغشاه به وهذا برهان ثان فالأول برهان الخلق للسموات والأرض وبرهان ثالث في قوله {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ (3) مُّسَمًّى} يدوران في فلكيهما إلى قيام الساعة وفي ذلك من الفوائد والمصالح للعباد ما لا يقادر قدره من ذلك معرفة عدد السنين والحساب. وقوله {أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ (4)} إعلان وتنبية بأنه تعالى عزيز في بطشه وانتقامه من أعدائه غفار لعباده التائبين إليه. وقوله تعالى في الآية (6) {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} هي آدم عليه السلام فقد صح أنه

1 - هذه الجملة بيان لجملة هو الله الواحد القهار .

2 - وهذه الجملة بيان ثان أيضاً وحقيقة التكوير أنه اللف واللي يقال كور العمامة على رأسه إذا لفها ولواها وهذا تمثيل بديع لتعاقب الليل والنهار .

3 - كل التتوين للعوض أي كل واحد منهما يجري لأجل مسمى هو أجل فنائهما .

4 - استئناف ابتدائي وجملة فإنكم الخ استدلال على صفة العزة والمغفرة في العزيز الغفار .

(4/468)

لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ذريته وأشهدهم على أنفسهم، ولهذا جاء العطف بثم إذ {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي بعد أن مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته من ظهره وأشهدهم على أنفسهم خلق حواء من ضلعه الأيسر، وهذا برهان وآخر في قوله {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ} وهي الإبل والبقر والغنم ضأن وماعز وهي ذكر وأنثى فالذكر زوج والأنثى زوج فهي ثمانية أزواج وجائز أن يكون أصل هذه الأنعام قد أنزله من السماء كما أنزل آدم وحواء من السماء، (1) وجائز أن يكون أنزل الماء فنبت العشب وتكونت هذه الأنعام من ذلك فالأصل الإنزال من السماء وتدرج الخلق كان في الأرض. وبرهان رابع في قوله {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ (2) خَلْقٍ} أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم نكسوا العظام لحماً فإذا هو إنسان كامل وقوله {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} هي ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، وهي غشاء يكون للولد وفي

الحيوان يقال له السلي وقوله بعد ذكر هذه البراهين قال {ذَلِكُمُ اللَّهُ (3) رَبُّكُمْ} أي خالقكم ومعبودكم الحق {لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي لا معبود إلا هو غدا لا تصلح العبادة إلا له {فَأَنَّى} (4) تُصْرَفُونَ} أي كيف تصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال إن أمركم عجب. وقوله في الآية (7) {إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} أي بعد أن بين بالأدلة القاطعة وجوب الإيمان به ووجوب عبادته، وأنه الرب الحق وإله الحق أعلم عباده أن كفرهم به لا يضره أبداً لأنه غني عنهم وعن سائر خلقه إلا أنه لرحمته بعباده لا يرضى لهم الكفر لما يسببه لهم من شقاء وخسران، كما أنهم إن آمنوا وشكروا يرضه لهم فيثيبهم أحسن ثواب ويجزيهم أحسن جزاء. وقوله {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} هذا مظهر من مظاهر عدله بين عباده وهو أن نفسا ذات وزر أي ذنب لا تحمل وزر أي ذنب نفس أخرى بل كل نفس تحمل وزرها وتحمل تبعته ونتائجه وحدها. وقوله تعالى {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ} أي بعد الموت {فَيُنَبِّئُكُمْ

1 - ووجه ثالث وهو جائز أن يكون الإنزال بمعنى التسخير نحو وأنزلنا الحديد أي ذللناه لكم تصنعون منه السيوف والرماح وهذا كقولك نزل فلان على رأي فلان قال الشاعر:

أنزلني الدهر على حكمه

من شاهر عال إلى خفض.

2 - أي طوراً بعد طور لقوله صلى الله عليه وسلم "إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويأمر بكتب أربع كلمات رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد" الحديث (مسلم).

3 - هذه الجملة كالفلكة والنتيجة لما سبق من ذكر آيات العلم والقدرة والرحمة الموجبة للألوهية الحققة للرب الحق سبحانه وتعالى.

4 - فأنى تصرفون الاستفهام للإنكار مشوباً بالتعجب من حال انصرافهم عن الحق بعد ظهور أدلته وسطوع براهينه، عجا لك كيف صرفتم وبناء الفعل للمجهول إشارة واضحة إلى أنهم يصرفون بقوى غير قواهم وهي قوى الشياطين التي تزين لهم الباطل وتبغض لهم الحق.

(4/469)

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي فيخبركم بأعمالكم خفيها وجليها صغيرها وكبيرها {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} فضلاً عما كان عملاً ظاهراً غير باطن ويجزيكم بذلك الخير بمثله والشر بمثله. فهذا ريكم الحق وإلهكم الصدق فأمنوا به ووحده ولا تشركوا به وأطيعوه ولا تعصوه تتجوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة. ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان آيات الله في الكون وإبرادها أدلة على التوحيد.
 - 2- بيان إفضال الله تعالى على العباد في خلقهم ورزقهم.
 - 3- بيان أن الكفر أعجب من الإيمان إذ أدلة الإيمان لا تعد كثرة وأما الكفر فلا دليل عليه البتة ومع هذا أكثر الناس كافرون.
 - 4- بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
 - 5- بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
 - 6- بيان إحاطة علم الله بالخلق وعلمه بأفعالهم وأحوالهم ظاهراً وباطناً.
- وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)

شرح الكلمات:

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ : الإنسان أي المشرك.

ضُرٌّ : أي مرض أو خوف غرق ونحوه من كل مكروه لا يقدر على دفعه.

(4/470)

دعا ربه منيباً إليه : أي سأل ربه كشف ما أصابه من ضر راجعاً إليه معرضاً عن سواه.
إذا حوله نعمة منه : أي أعطاه نعمة منه بأن كشف ما به من ضر.
نسي ما كان يدعو إليه من قبل : أي ترك ما كان يتضرع إليه من قبل وهو الله سبحانه وتعالى.
وجعل لله أنداداً : أي شركاء.
ليضل عن سبيله : أي ليضل نفسه وغيره عن الإسلام.
قل تمتع بكفرك قليلاً : أي قل يا نبينا لهذا الكافر الضال المضل تهديداً تمتع بكفرك بقية أجلك.
إنك من أصحاب النار : أي أهلها المتأهلين لها بخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم.
قانت آناء (1) الليل : أي مطيع لله آناء الليل أي ساعات الليل ساجداً وقائماً في الصلاة.
إنما يتذكر أولوا الأبواب: أي يتعظ بما يسمع من الآيات أصحاب العقول النيرة.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال التنديد، فقال تعالى مخبراً عن حال المشرك بربه المتخذ له

أنداداً يعيدها معه {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ (2) ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ} أي سأل ربه راجعاً إليه رافعاً إليه يديه يا ربه يا ربه سائلاً تفريج ما به وكشف ما نزل به {ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ (3) نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} حتى إذا فرج الله كربته ونجاه، ترك دعاء الله، وأقبل على عبادة غير الله، {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً} أي شركاء {لِيُضِلَّ} (4) نفسه وغيره. وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول له نيابة عن الله تعالى قل يا رسولنا لهذا المشرك الكافر تمتع بكفرك قليلاً أي مدة بقية عمرك إنك من أصحاب النار، هكذا هدده ربه وخوفه بعاقبة أمر الشرك والتتديد لعله ينتهي فيتوب توبة صادقة ويرجع إلى الله رجوعاً حسناً

1 - الأثناء جمع أنى مثل أمعاء ومعى وأفقاء وقفى والأنى الساعة.

2 - الإنسان هو اسم جنس دال على غير معين بل هو عام في كل مشرك بالله تعالى كافر به.

3 - قوله أعطاه إذ التخويل الإعطاء والتمليك دون قصد عوض مأخوذ من الخول وهو اسم للعبد والخدم وفي الحديث "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم" (الحديث).

4 - اللام لام العاقبة، أي هو لم يقصد إضلال نفسه.

(4/471)

جميلاً. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (8) أما الآية الثانية (9) فيقول تعالى {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ (1) } أي مطيع لله ورسوله في أمرهما ونهيهما {أَنَاءَ اللَّيْلِ} أي ساعات الليل تراه ساجداً في صلاته أو قائماً يتلوا آيات الله في صلاته، وفي نفس الوقت هو يحذر عذاب الآخرة ويسأل الله تعالى أن يقيه منه، ويرجو رحمة ربه وهي الجنة أن يجعله الله من أهلها هذا خير أم ذلك الكافر الذي قيل له تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، والجواب معلوم للعقلاء (2) وقوله تعالى {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ} محاب الله ومكارهه وهم يعملون على الإتيان بمحاب الله تقرباً إليه، وعلى ترك مكارهه تحبباً إليه، هل يستوي هؤلاء العاملون مع الذين لا يعلمون ما يحب وما يكره فهم يتخبطون في الضلال تخبط الجاهلين؟ والجواب لا يستوون وإنما يتذكر بمنى هذا التوجيه الإلهي والإرشاد الرباني أصحاب الألباب أي العقول السليمة الراجحة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتتديد.

2- الكشف عن داخلية الإنسان قبل أن يؤمن ويُسلم وهو أنه إنسان متناقض لا خير فيه ولا رشد له، فلا يرشد ولا يكمل إلا بالإيمان والتوحيد.

3- بشرى الصالحين عن سبيل الله المضلين عنه بالنار .

4- مقارنة بين القانت المطيع، والعاصي المضل المبين، وبين العالم والجاهل، وتقرير أفضلية

المؤمن المطيع على الكافر العاصي. وأفضلية العالم بالله وبمحابه ومكارهه والجاهل بذلك.

5- فضل العالم على الجاهل لعمله بعلمه ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسة والانحطاط.

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

1 - قرأ نافع أمن هو قانت بتخفيف الميم - وقرأ حفص أمن بتشديدها وجائز أن تكون الهمزة همزة استفهام ومن مبتدأ والخبر مقدر نحو أمن هو قانت أفضل أم من هو كافر وعلى قراءة التشديد فالهمزة للاستفهام وأمن كلمتان أم المعادلة أدغمت في من المبتدأ وجائز أن تكون أم منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالي.

2 - وهو أنهما لا يستويان بحال من الأحوال.

(4/472)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَانْقُتُوا (16)

شرح الكلمات:

اتقوا ربكم : أي اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بالإيمان والتقوى.

للذين أحسنوا : أي أحسنوا العبادة.

حسنة : أي الجنة.

أرض الله واسعة: أي فهاجروا فيها لتتمكنوا من عبادة الله إن منعتم منها في دياركم.

أمرت : أي أمرني ربي عز وجل.

مخلصاً له الدين : أي مفرداً إياه بالعبادة.

أول المسلمين : أي أول من يسلم في هذه الأمة فينقاد لله بعبادته والإخلاص له فيها.

عذاب يوم عظيم: أي عذاب يوم القيامة.

قل : أي يا رسولنا للمشركين.

الله أعبد : أي لا أعبد معه سواه.

مخلصاً له ديني : أي مفرداً إياه بطاعتي وانقيادي.
فاعبدوا ما شئتم : أي إن أبيتم المشركون عبادة الله وحده فاعبدوا ما شئتم من الأوثان فإنكم خاسرون.
خسروا أنفسهم: أي فحرموها الجنة وخلدوها في النار.
وأهليهم : أي الحور العين اللاتي كن لهم في الجنة لو آمنوا واتقوا بفعل الطاعات وترك المنهيات.
ظل من النار : أي دخان ولهب وحر من فوقهم ومن تحتهم.

(4/473)

ذلك : أي المذكور من عذاب النار.
يا عباد فاتقون: أي يا من أنا خالقهم ورازقهم ومالكهم وما يملكون فلذلك اتقون بالإيمان والتقوى.
معنى الآيات:
لقد تضمنت هذه الآيات الخمس توجيهات وإرشادات ربانية للمؤمنين والرسول صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى (10) يأمر تعالى رسوله أن يقول للمؤمنين اتقوا ربكم أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية وذلك بطاعته وطاعة رسوله، ويعلمهم معللاً أمره إياهم بالتقوى بأن للذين أحسنوا الطاعة المطلوبة منهم الجنة، كما يعلمهم أنهم إذا لم يقدرُوا على الطاعة بين المشركين فليهاجروا إلى أرض يتمكنون فيها من طاعة الله ورسوله فيقول {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ} أي فهاجروا فيها ويشجعهم على الهجرة لأجل الطاعة فيقول {إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ} (1) أي على الاغتراب والهجرة لأجل طاعة الله والرسول {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي بلا كيل ولا وزن ولا عد لأنه فوق ذلك. وفي الآية الثانية (11) والثالثة (12) يأمر تعالى رسوله موجهاً له بأن يقول للناس {إِنِّي أُمِرْتُ} أي أمرني ربي أن أعبد الله باعتقاد وقول وفعل ما يأمرني به وترك ما ينهاني عنه من ذلك مخلصاً له الدين، فلا أشرك في دين الله أحداً أي في عبادته أحداً، كما أمرني أن أكون أول المسلمين في هذه الأمة أي أول من يسلم قلبه وجوارحه الظاهرة والباطنة لله تعالى وفي الآيات الرابعة (13) والخامسة (14) يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين إنني أخاف إن عصيت ربي، فرضيت بعبادة غيره وأقررتها عذاب (2) يوم عظيم كما يأمره أن يقول الله أعبدُ أي الله وحده لا شريك له أعبد حال كوني مخلصاً له ديني. وأما أنتم أيها المشركون إن أبيتم التوحيد فاعبدوا ما شئتم (3) من آلهة دونه تعالى ويأمره أن يقول لهم إن الخاسرين بحق ليسوا بأولئك الذين يخسرون دنياهم فيفقدون الدار والبعير أو المال والأهل والولد بل هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم (4) القيامة، وذلك

- "الصوم لي وأنا أجزي به". إلا أن الآية عامة في الصبر في مواطنه الثلاث وهي صبر على الطاعات وصبر دون المعاصي وصبر على البلاء. ومن ذلك الهجرة إلى دار الإسلام.
- 2 - ذهب بعضهم إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} ولا معنى لهذا النسخ إذ النسخ لا يكون في الأخبار. وإنما الآية من باب الفرض والتقدير إذ الرسول معصوم ولا يعصي وإذا لا خوف عليه وإنما من باب طلب الهداية للآخرين قال له قل لهذا.
- 3 - الأمر هنا للتهديد والوعيد والتوبيخ وليس للإذن بعبادة غير الله إذ القرآن كله نزل ليعبد الله تعالى وحده ولا يعبد معه سواه فكيف يأذن بعبادة ما شاعوا من آلهة.
- 4 - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ما من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. وهو كذلك لقوله تعالى { أولئك هم الوارثون } أي يرث المسلم الكافر يرثه في أهله ومكانه في الجنة وسبب الإرث الإيمان والتقوى بإذن الله تعالى.

(4/474)

بتخليدهم في النار، وبعدم وصولهم إلى الحور العين المعدة لهم في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا. ألا ذلك أي هذا هو الخسران المبين ثم يوضح ذلك الخسران بالحال التالية وهي أن لهم وهم في النار من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل أي طبقات من فوقهم طبقة ومن تحتهم أخرى وكلها دخان ولهب وحر وأخيراً قوله تعالى {ذَلِكَ} أي المذكور من الخسران وعذاب الظلل يخوف الله تعالى به عباده المؤمنين ليواصلوا طاعتهم وصبرهم عليها فينجوا من النار ويظفروا بالجنان وقوله يا عباد فاتقون أي يا عبادي المؤمنين فاتقون ولا تعصون يحذرهم تعالى نفسه، والله رعوف بالعباد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم.
 - 2- وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك.
 - 3- تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده.
 - 4- فضل الإسلام وشرف المسلمين.
 - 5- تقرير البعث والجزاء ببيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها.
 - 6- كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسراناً أبداً.
- وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ

العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُتَّقِدُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (2) (0)

(4/475)

شرح الكلمات:

والذين اجتنبوا الطاغوت (1) أن يعبدوها : أي تركوا عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله.
وأنابوا إلى الله : أي بالإيمان به وعبادته وتوحيده فيها.
لهم البشرى : بالجنة عند الموت وفي القبر وعند القيام من القبور.
فيتبعون أحسنه : أي أوفاه وأكملة وأقربه إلى مرضاة الله تعالى.
أولو الألباب : أي العقول السليمة.
أفمن حق عليه كلمة العذاب : أي وجب عليه العذاب بقول الله تعالى لأملأن جهنم.
أفأنت تتقذ من في النار : أي تخلصه منها وتخرجه من عذابها.
لكن الذين اتقوا ربهم : أي خافوه فأمنوا به وأطاعوه موحدين له في ذلك.
تجري من تحتها الأنهار : أي من خلال قصورها وأشجارها.
وعد الله : أي وعدهم الله تعالى وعداً فهو منجزه لهم.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال أهل النار من عبدة الأوثان وأن لهم من فوقهم ظلالاً من النار ومن تحتهم ظلالاً
ذكر تعالى حال الذين اجتنبوا تلك الطواغيت فلم يعبدوها، وما أعد لهم من النعيم المقيم فجمع بذلك
بين الترهيب والترغيب المطلوب لهداية البشر وإصلاحهم فقال عز وجل {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ}
أي أن يعبدوها وهي الأوثان وكل ما زين الشيطان عبادته ودعا الناس إلى عبادته وأضافوا إلى
اجتناب الطاغوت الإنابة إلى الله تعالى بعبادته وتوحيده فيها هؤلاء لهم البشرى وهي في كتاب
الله (2) وعلى لسان رسول الله وبيرونها عند نزول الموت وفي القبر وفي الحشر وكل هذا في كتاب
الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ} يأمر تعالى رسوله أن يبشر صنفاً من عباده بما بشر به الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها
وأنابوا

1 - الطاغوت مصدر أو اسم مصدر فعله طغا وهل هو واوي أو يائي خلاف والأشهر أنه واوي
نحو طغا طغواً كعلا يعلو علواً وقولهم الطغيان دال على أنه يائي وتاؤه زائدة كما زيدت في رحمت
وملكوت وقيل هو اسم أعجمي كجالوت وطالوت.

2 - شاهده قوله تعالى {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً} (البقرة) ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له في بيان قوله تعالى {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} من سورة يونس ومن القرآن {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} فهذه عند الموت.

(4/476)

إلى الله وهم الذين يستمعون القول من قائله فيتبعون أحسن ما يستمعون، ويتركون حسنه(1) وسيئه معاً فهؤلاء لهم همم عالية ونفوس تواقه للخير والكمال شريفة فاستوجبوا بذلك البشرى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء الجميل من رب العالمين إذ قال تعالى فيهم {وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} فحسبهم كمالاً أن أثنى تعالى عليهم. اللهم اجعلني منهم ومن سأل لي وله ذلك. وقوله {أَفَمَنْ (2) حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} أي وجب له العذاب قضاء وقدراً فأسرف في الكفر والظلم والإجرام والعدوان كأبي جهل والعاص بن وائل فأحاطت به خطيئاته فكان من أصحاب النار فهل تستطيع أيها الرسول إنقاذه من النار وتخليصه منها؟ والجواب لا. إذا فهون على نفسك واتركهم لشأنهم وما خلقوا له وحكم به عليهم. وقوله تعالى {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا} فأمنوا وعملوا الصالحات لهم غرف في الجنة من فوقها غرف وهي العلية تكون فوق الغرفة تجري من تحتها الأنهار من تحت القصور والأشجار أنهار الماء واللبن والعسل والخمر. وقوله {وَعَدَ اللَّهُ} أي وعدهم الله تعالى بها وعداً حقاً فهو منجزه لهم إذ هو تعالى لا يخلف الميعاد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كرامة زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي إذ هذه الآية تعنيهم فقد رفضوا عبادة الطاغوت في الجاهلية قبل الإسلام ثم أنابوا إلى ربهم فصدقته الآية عليهم.
- 2- فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه من الحسن والسيء.
- 3- إعلام من الله تعالى أن من وجبت له النار ألا لا تمكن هدايته مهما بذل الداعي في هدايته وإصلاحه ما بذل.
- 4- بيان ما أعد الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى من نعيم الجنة وكرامة الله لأهلها.

1 - جائز أن يراد بكلمة أحسن حسنه فهم يستمعون القول من قائله ويفهمونه فإن كان حقاً وهدى

أخذوا به وإن كان باطلاً وضلالاً تركوه وابتعدوا عنه. فقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص جاءوا إلى أبي بكر حين أسلم فأخبرهم بإيمانه فأمنوا.

2 - الاستفهام الأول والثاني كلاهما إنكاري ينكر تعالى على رسوله حزنه وألمه على عدم إيمان عمه أبي لهب وولده ومن لم يؤمن من قرابته ممن وجبت لهم النار في سابق علم الله فهم لا يؤمنون، ولذا فرغ عنه قوله أفأنت تتخذ من في النار؟ إنك لا تقدر على ذلك فهون على نفسك.

(4/477)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

شرح الكلمات:

فسلكه ينابيع في الأرض : أي أدخله في الأرض فصار جارياً تحتها ينبع منها فكان بذلك ينابيع.

مختلفاً ألوانه : أي ما بين أخضر وأبيض وأحمر وأصفر وأنواعه من بر وشعير وذرة.

ثم يهيج فتراه مصفراً : أي ييبس فتراه أيها الرائي بعد الخضرة مصفراً.

ثم يجعله حطاماً : أي فتاتا متكسرا.

إن في ذلك لذكرى : أي إن في ذلك المذكور من إنزال الماء إلى أن يكون حطاماً تذكيراً.

أفمن شرح الله صدره للإسلام: أي فاهتدى به كمن لم يشرح الله صدره فلم يهتد؟

فهو على نور من ربه : أي فهو يعيش في حياته على نور من ربه وهو معرفة الله وشرائعه.

(4/478)

فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله : ويل كلمة عذاب للقاسية قلوبهم عن قبول القرآن فلم تؤمن به ولم تعمل بما فيه.

أحسن الحديث كتاباً : هو القرآن الكريم.

متشابهاً : أي يشبه بعضه بعضاً في النظم والحسن وصحة المعاني.

مثنائي : أي تثنى فيه الوعد والوعيد كالقصص والأحكام.

تتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم: أي ترتعد منه جلود الذين يخشون ربهم وذلك عند ذكر وعيده. ثم تلين جلودهم وقلوبهم : أي تطمئن وتلين.

إلى ذكر الله : أي عند ذكر وعده لأهل الإيمان والتقوى بالجنة وما فيها من نعيم مقيم. معنى الآيات:

قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ} هذه الآية الكريمة تقرر التوحيد والبعث والجزاء بذكر مظاهر القدرة والعلم الإلهيين، وهما مقتضيان لوجود الله أولاً ثم وجوب الإيمان به وبلقائه فقال تعالى مخاطباً رسوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} (1) وهو المطر {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} أي أدخله فيها وأخرجه منها ينابيع بواسطة حفر وبدونه، ثم يخرج به زرعاً من قمح وشعير وذرة وغيرها مختلفاً ألوانه من أحمر وأبيض وأصفر {ثُمَّ يَهِيْجُهُ} حسب سنة الله تعالى في ذلك فيجف {فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} أي فتاتا متكسراً كالتبن كل هذا يتم بقدرة الله وعلمه وتدبيره ففيه موعظة وذكرى لأولي القلوب الحية تهديهم إلى الإيمان بالله وبآياته ولقائه، وما يستتبع ذلك من الطاعة والتوحيد وقوله تعالى {أَقْمِنُ شَرْحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ} (2) أي وسع صدره وفسحه لقبول الإسلام ديناً فاعتقد عقائده وعمل بشرائعه فامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو يعيش على نور من ربه ومقابل هذا محذوف اكتفى بالأول عنه وتقديره كمن طبع الله على قلبه وجعل صدره حرجاً ضيقاً فلم يقبل الإسلام ولم يدخل فيه، وعاش على الكفر والشرك والمعاصي فهو يعيش على ظلمة الكفر ودخن الذنوب

- 1 - تضمنت هذه الآية الكريمة مثالين زيادة على ما دلت عليه بظواهر كلماتها المثال الأول هو أن القرآن الكريم ينزل من عند الله فيحيي الله تعالى به القلوب الميتة فتحيي وتشرف وتبلغ الكمال في الطهر والإشراق. والثاني هو أن حياة الإنسان تبتدئ بنطفة المني فتستقر في الرحم ثم تخرج طفلاً ثم يكبر فيصبح شاباً فكهاً ثم يهرم ويهلك. والخطاب صالح لكل من له أهلية النظر.
- 2 - شرح الصدر عبارة عن قبول الهدى والاستتارة به، والاستفهام إنكاري ومن مبتدأ والخبر محذوف تقديره كمن ضاق صدره بالكفر وغشيته ظلمته فهو لا يعي ولا يفهم ما يقال له وما يدعى إليه من الهدى والخير هل حالهما واحدة والجواب لا.

(4/479)

وعفن الفساد والشر. وقوله تعالى {قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} (1) ذِكْرِ اللَّهِ {يتوعد الله تعالى بالعذاب أصحاب القلوب القاسية من سماع القرآن وهذه أسوأ حال العبد إذا كان يهلك بالدواء ويضل بالهدى فسماع القرآن الأصل فيه أن يلين القلوب الصالحة للحياة فإذا كانت القلوب ميتة غير قابلة للحياة

سماح القرآن زادها موتاً وقسوة، ويدل على هذا قوله {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2)} فهدايتهم متعذرة إذا كان الدواء يزيد في علتهم وآيات الهداية تزيد في ضلالتهم. وقوله تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} هذه الآية نزلت لما قال أصحاب الرسول يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى قوله {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ (3)} وهو القرآن {كِتَابًا مُتَشَابِهًا} أي يشبه بعضه بعضاً في حسن اللفظ وصحة المعاني {مَثَانِي} أي يثني فيه الوعد والوعيد والأمر والنهي والقصص، {تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي عند سماع آيات الوعيد فيه {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودَهُمْ} إذا سمعوا آيات الوعد وتطمئن قلوبهم إذا سمعوا حججه وأدلته وقوله {إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} أي القرآن وذكر الله بوعده ووعيده وأسمائه وصفاته ويشهد له قوله تعالى من سورة الرعد {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} وقوله تعالى {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي ذلك المذكور وهو القرآن الكريم هدى الله إذ هو الذي أنزله وجعله هادياً يهدي به من يشاء هدايته بمعنى يوفقه للإيمان والعمل به وترك الشرك والمعاصي. وقوله {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} لما سبق في علم الله ولوجود مانع منع من هدايته كالإصرار على العناد والتقليد. فهذا ليس له من هاد يهديه بعد الله أبداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مظاهر العلم والقدرة الإلهية الموجبة للإيمان به وبرسوله ولقائه.

1 - من بمعنى عن لتضمين المساواة في الإعراض والنفور إذ يقال أعرض عن كذا ونفر عنه وذكر الله هنا القرآن كما في التفسير.

2 - {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ هو جواب لمن سأل عن مساواة قلوب المتوعددين بالويل فليل له إنه ضلالهم الواضح المبين.

3 - روي أن سعد بن أبي وقاص قال قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لو حدثتنا فأنزل الله: {الله نزل أحسن الحديث} وهذا كما قالوا يوماً لو قصصت علينا فنزل: {نحن نقصك عليك أحسن القصص} ، وقولهم لو ذكرتنا فنزل: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق}، وفي هذا دليل على أنه لا يليق بأمة القرآن أن تلهوا بالتمثيلات والروايات وأندية اللهب واللعب.

4 - تقشعر أي تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد وتلين قلوبهم عند سماع آيات الرحمة وتطمئن إلى ذكر الله تعالى يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أنا أعلم متى يستجاب لي، وذلك إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي وفاضت عيناوي وهو مروى عن ثابت البناني وأم الدرداء أن الوجل في القلب كاحتراق السعفة.

-
- 2- بيان أن القلوب قلبان قلب قابل للهداية وآخر غير قابل لها.
- 3- بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
- 4 - فضيلة أهل الخشية من الله إذ هم الذين يفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَتَّأَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)

شرح الكلمات:

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب: أي يتلقى العذاب بوجهه لا شيء يقيه منه كمن أمن.
سوء العذاب : أقساه وأشدّه.

وقيل للظالمين : أي المشركين في جهنم.

ذوقوا ما كنتم تكسبون : أي جزاء كسبكم الشر والفساد.

كذب الذين من قبلهم : أي من قبل أهل مكة.

فمتأتهم العذاب من حيث لا يشعرون : أي من حيث لا يدرون أنه آتاهم منه. أو من حيث لا يخطر ببالهم.

فأذاقهم الله الخزي : أي المسخ والذل والإهانة.

ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون : أي لو كانوا يعلمون ذلك ما كذبوا ولا كفروا.

(4/481)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير البعث والجزاء فقوله تعالى {أَفَمَنْ يَتَّقِي (1) بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ} يوم القيامة إذ ليس له ما يتقي (2) به العذاب لأن يديه مغلولتان إلى عنقه فهو يتلقى العذاب بوجهه وهو أشرف أعضائه فهذا الذي يتلقى العذاب بل سوء العذاب كمن أمن من العذاب ودخل الجنة؟
والجواب لا يستويان. وقوله تعالى {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ (3)} أي المشركين وهم في النار يقول لهم زبانية جهنم توبيخاً لهم وتقريعاً ذوقوا ما كنتم تكسبون من أعمال الشرك والمعاصي هذا جزاؤه فذوقوه عذاباً أليماً. وقوله تعالى {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي كذب قبل أهل مكة أمم وشعوب كذبوا رسلهم فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وذلك كالذل والمسخ والقتل والأسر والسبي ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب

الدنيا وهم صائرون إليه لا محالة وقوله {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي لو كانوا يعلمون عنه علماً يقينياً ما كذبوا رسلهم ولا كفروا بريهم. فهلكوا بجهلهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة.
- 2- تهديد قريش على إصرارها على التكذيب للرسول وما جاءها به من الإسلام.
- 3- العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي، ومنه الأخروي.
- 4- لو علم الناس عذاب الآخرة علماً يقينياً ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا فالجهل هو سبب الهلاك والشقاء دائماً.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا

- 1 - قال عطاء وابن زيد يرمى مكتوباً في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه وقال مجاهد يجر في النار على وجهه كقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم والاستفهام إنكاري وفي الكلام حذف تقديره كمن هو آمن في جنات النعيم.
- 2 - الانتقاء مصدر ومعناه تكلف الوقاية وهي الصون والدفع وفعل اتقى يتعدى إلى مفعولين ويتعدى بالباء كما في قول الشاعر:
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد
- 3 - للظالمين إظهار في محل إضمار إذا المفروض أن يقال وقيل لهم والنكتة التنديد بالشرك إذ هو الظلم وبيان العلة الموجبة لإلقائهم في جهنم على وجوههم وهي الظلم الذي هو الشرك.

(4/482)

غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

شرح الكلمات:

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل : أي جعلنا للعرب في هذا القرآن من كل مثل من الأمم السابقة.

لعلهم يتذكرون : أي يتعظون فينزعجون عما هم فيه من الشرك والتكذيب إلى الإيمان والتوحيد.

قرآنا عربيا غير ذي عوج : أي حال كون المثل المجعول قرآنا عربياً لا لبس فيه ولا اختلاف فلا عذر لهم في عدم فهمه وإدراك معناه وفهم مغزاه.
متشاكسون : أي متنازعون لسوء أخلاقهم.
ورجلاً سلفاً : أي خالصاً سالماً لرجل لا شركة فيه لأحد.
هل يستويان مثلاً : الجواب لا الأول في تعب وحيرة والثاني في راحة وهدوء بال.
الحمد لله : أي على ظهور الحق وبطلان الباطل.
إنك ميت : أي مقضي عليك بالموت في وقته.
وإنهم ميتون : أي كذلك محكوم عليهم به عند انقضاء آجالهم.
عند ربكم تختصمون: أي تحتكمون إلى الله في ساحة فصل القضاء فيحكم الله بينكم.
فيما كنتم فيه تختلفون: أي من الشرك والتوحيد والإيمان والتكذيب.
معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا (1) لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى بما

1 - ضرب المثل ذكره والمثل الصفة الحسنة وللناس جنس الناس ويدخل فيه العرب أولاً لأنه بلغتهم والناس تابعون لهم في ذلك.

(4/483)

من به على العرب لهدايتهم حيث جعل لهم في القرآن الكريم من أمثال الأمم السابقة في إيمانها وتكذيبها، وصلاحها وفسادها ونجاتها وخسرتها وكل ذلك بقرآن عربي لا عوج(1) فيه أي لا لبس ولا خفاء ولا اختلاف، فعل ذلك لعلمهم يتذكرون أي يتعظون فيؤمنون ويوحدون فينجون من العذاب ويسعدون. وقوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ (2) وَرَجُلًا سَلَمًا (3) لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ (4)﴾ إلى آخر الآية، هذا مثل من جملة الأمثال التي ضرب الله للناس لعلمهم يتذكرون وهو مثل للمشرك الذي يعبد عدة آلهة. والموحد الذي لا يعبد إلا الله فالمشرك مثله رجل يملكه عدد من الرجال من ذوي الأخلاق الشرسة والطباع الجافة فهم يتنازعونه هذا يقول له تعال والآخر يقول له اجلس والثالث يقول له قم فهو في حيرة من أمره لا راحة بدن ولا راحة ضمير ونفس. والموحد مثله رجل سلم أي خالص وسالم لرجل واحد أمره ونهايه واحد هل يستويان أي الرجلان والجواب لا إذ بينهما كما بين الحرية والعبودية وأعظم وقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ (5) لِلَّهِ﴾ أي الثناء بالجميل لله والشكر العظيم له سبحانه وتعالى على أنه رب واحد وإله واحد لا إله غيره ولا رب سواه. وقوله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون عدم تساوي الرجلين، وذلك لجهلهم وفساد

عقولهم.

وقوله تعالى {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} (6) نزلت لما استتبأ المشركون موت الرسول صلى الله عليه وسلم أي لا شماتة في الموت إنك ستموت يا رسولنا ويموتون. وقوله تعالى {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} أي مؤمنكم وكافركم قويمكم وضعيفكم تقفون بين يدي الله ويحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمور الدين والدنيا معا.

1 - غير ذي عوج أي لا اختلاف فيه ولا تضاد ولا لحن فيه ولا شك قال الشاعر:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج

من الإله وقول غير مكذوب

2 - متشاكسون أي مختلفون أو متعاسرون يقال رجل شكس وشرس وضرس ويقال شاكسني فلان أي ماكسني وشاخني في حقي.

3 - قرأ الجمهور سلماً وقرأ غيرهم سالماً بمعنى خالصاً فمعنى القراءتين واحد وهو الخلوص لمالك واحد.

4 - الاستفهام إنكاري أي لا يستويان، مثلاً منصوب على التمييز لنسبة يستويان أي في أي شيء ميز لي.

5 - لما سلم الخصم بأنه لا يستوي الموحد والمشارك تعين حمد الله تعالى إذ لا يعقل أن يقول المرء باستواء الرجل الذي يشترك فيه عدة رجال والآخر الذي هو خالص لرجل واحد، فكذلك الذي يعبد إلهاً واحداً لا يستوي مع من يعبد آلهة متعددة.

6 - قرأ بعضهم إنك مائت وإنهم مائتون. والميت بالتشديد من هو صائر إلى الموت والميت بسكون الياء من فارقتة الحياة، في هذه الآية نعي لكل إنسان بالموت إذ أن رجلاً نعي لرجل أخاه ووجدته يأكل فقال له كل فقد نعي إلي أخي من قبلك فقال وكيف وأنا أول من نعاه فقال له قد نعاه الله إلي في قوله إنك ميت وإنهم ميتون.

(4/484)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية ضرب الأمثال للمبالغة في الإفهام والهداية لمن يراد هدايته.

2- بيان مثل المشرك والموحد، فالمشرك في حيرة وتعيب، والموحد في راحة وهدوء بال.

3- تقرير أن كل نفس ذائقة الموت.

4- بيان أن خصومة ستكون يوم القيامة ويقضي الله تعالى فيها بالحق لأنه هو الحق.

(4/485)

الجزء الرابع والعشرون

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

شرح الكلمات:

ومن أظلم ممن كذب على الله؟ : أي بأن نسب إليه ما هو بريء منه كالزوج والولد والشريك.

وكذب بالصدق إذ جاءه؟ : أي بالقرآن والنبي والتوحيد والبعث والجزاء.

مثنوى للكافرين : أي مأوى، ومكان إقامة ونزول.

والذي جاء بالصدق وصدق به : محمد صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به أبو بكر وكل أصحاب رسول الله.

أولئك هم المتقون : أي لعذاب الله بإيمانهم وتقواهم بترك الشرك والمعاصي.

ذلك جزاء المحسنين : أي المذكور من نعيم الجنة جزاء المحسنين في أعمالهم.

ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا : أي يبسر الله لهم ذلك ويوفقهم إليه ليكفر عنهم ذنوبهم.

معنى الآيات:

يخبر تعالى عباده منذراً محذراً بأنه لا أظلم من أحد كذب على الله. فقال عنه ما لم يقل أو حرم ولم

يحرم أو أذن ولم يأذن، أو شرع ولم يشرع، أو كذب بالصدق وهو القرآن والنبي وما جاء به من

الهدى ودين الحق أي فلا أحد أظلم ممن كان هذا حاله كذب على الله وكذب بالصدق.

وقوله تعالى: {أَلَيْسَ (1) فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} ؟ هذا بيان لجزاء الكاذبين والمكذبين وهم الكافرون

بسبب كذبهم على الله وتكذبيهم له فيخبر تعالى مقررًا أن جزاءهم الإقامة

1 - الاستفهام تقريرى والمثنوى مكان الإقامة وهو مصدر ثوى بالمكان يثوى ثواء وثويا مثل مضى يمضي مضاء ومضيا.

(4/486)

الدائمة في جهنم. وقوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ (1) بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} هذا إخبار بفريق الفائزين من عباد الله وهم الصادقون في كل ما يخبرون به، والمصدقون بما أوجب الله تعالى التصديق به ويدخل في هذا الفريق دخولاً أولاً رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق ثم سائر الصحابة والمؤمنين إلى يوم الدين.

وقوله تعالى {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (2)} يشير إليهم بأنهم اتقوا كل ما يغضب الله من الشرك والمعاصي، وبذلك استوجبوا النجاة من النار ودخول الجنة المعبر عنه بقوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} من نعيم بعضه لم يخطر على بال أحد، ولم تره عين أحد ولا تسمع به أذنه.

وقوله: {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (3)} أي ذلك المذكور في قوله لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو جزاؤهم وجزاء المحسنين كلهم والمحسنون هم الذين أحسنوا الاعتقاد والقول والعمل وقوله تعالى: {لِيُكَفِّرَ (4) اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} أي من الذنوب والآثام والخطايا والسيئات أي وفقهم للإحسان ويسره لهم، ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا وسيئه ويجزيهم أجرهم على إيمانهم وتقواهم وإحسانهم في ذلك بأحسن ما كانوا يعملون وحسنه أيضاً وإنما يضاعف لهم الأجر فتكون الحسنات الصغيرة كالكبيرة فأصبح الجزاء كله على الأحسن والذي كانوا يعملون هو كل ما شرعه الله تعالى لعباده وتعبدهم به من الإيمان وسائر الطاعات والقربات.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالكذب على الله تعالى والتكذيب به، وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من الدين.
- 2- بيان جزاء الكاذبين على الله ورسوله والمكذابين بما جاء به رسول الله عن الله من الشرع والدين.

1 - والذي جاء بالصدق مبتدأ والخبر أولئك هم المتقون. وعليه فالذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صدق به هم أبو بكر وسائر المؤمنين وفي الآية حذف الموصول وهو "من" لدلالة السياق عليه.

2 - أولئك مبتدأ وهم ضمير فصل والمتقون خبر، والجملة خبر عن المبتدأ الذي هو والذي جاء بالصدق والمعطوف عليه والموصول محذوف وهو من أو إذ لا يكون من جاء بالصدق هو المصدق به.

3 - الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة.

4 - في الآية الإشادة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أثبت لهم التصديق بما جاء به رسوله كما أثبت لهم التقوى والإحسان وواعدهم بالنعيم المقيم الذي ادخره لهم. وفي الحديث الصحيح "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ربي ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه".

1- الترغيب في الصدق في الاعتقادات والأقوال والأعمال.

2- فضل التقوى والإحسان وبيان جزائهما عند الله تعالى يوم القيامة.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40)

شرح الكلمات:

أليس الله بكاف عبده؟ : بلى هو كاف عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم كل ما يهمه.

ويخوفونك بالذين من دونه : أي بالأصنام والأوثان أن تصيبك بما يسوءك ويضرك.

أليس الله بعزيز ذي انتقام: بلى هو عزيز غالب على أمره صاحب انتقام شديد على من عاداه.

ليقولن الله : أي لوضح البرهان وقوة الدليل وانقطاع الحجة.

قل أفرايتم : أي أخبروني.

هل هن ممسكات رحمته : والجواب لا لا إذا فقل حسبي الله، ولا حاجة لي بغيره.

اعملوا على مكانتكم : أي على حالتكم التي أنتم عليه من الكفر والعناد.

إني عامل : أي على حالتي التي أنا عليها من الإيمان والانتقاد.

من يأتيه عذاب يخزيه : أي في الدنيا بالقتل والأسر والجوع والقحط.

ويحل عليه عذاب مقيم: أي وينزل عليه عذاب مقيم لا يبرح وهو عذاب النار بعد الموت.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الدفاع عن الرسول والرد على مناوئيه وخصومه الذين استنبطوا موته فرد الله

تعالى عليهم بقوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَتَّهُمْ مَيِّتُونَ} فلا شماتة إذاً في الموت وقوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ (1)}

عَبْدَهُ} دال على أن القوم حاولوا قتله صلى الله عليه وسلم لما لم يمت بأجله وفعلاً قد قرروا قتله

وأعطوا الجوائز لمن يقتله، ففي هذه الآية طمأن الله رسوله على أنهم لا يصلون إليه وأنه كافيه

مؤامراتهم وتهديداتهم فقال عز وجل أليس الله بكاف عبده؟ والجواب بلى إذ الاستفهام تقريرى كافيه

كلّ ما يهمة ويسوءه وقوله: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أي ويخوفك يا رسولنا المشركون بما يعبدون من دوننا من أصنام وأوثان بأن تصيبك (2) بقتل أو خبل فلا يهملك ذلك فإن أوثانهم لا تضر ولا تنفع ولا تجلب ولا تدفع، وقوله: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} ، وقد هداك ربك فليس لك من يضلّك أبداً، كما أن من أضله الله كقومك فليس له من هادٍ يهديه أبداً. وقوله تعالى: {الَّذِينَ اللَّهُ بَعِزُّهُمْ ذِي انْتِقَامٍ} (3) بلى فهو إذا سينتقم من أعدائه لأوليائه إن استمروا في أذاهم وكفرهم وعنادهم، وقد فعل سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} أي أوجدهما من غير مثال سابق {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} فما دام اعترافهم لازماً بأن الله تعالى هو الخالق فلم عبادة غيره والإصرار عليها مما أفضى بهم إلى أذية المؤمنين وشن الحرب عليهم وقوله: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي من الأصنام والأوثان أخبروني {إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ} ما {هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ} صحة وعافية وغنى ونصر {هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} (4) والجواب لا فإنها جماد لا تقدر

- 1 - الاستفهام للتقرير، وحذفت ياء كاف لأنه اسم منقوص وترد في الوقف جوازاً وقرأ الجمهور عبده وقرأ غيرهم عباده ليدخل المؤمنون معه صلى الله عليه وسلم.
- 2 - هذا شاهده قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام وكيف أخاف ما أشركتم فإنهم خوفوه بالهتيم فأنكر عليهم ذلك وعابهم بعدم الخوف من الله تعالى.
- 3 - الاستفهام تقريرى والجملة تحمل الوعيد الشديد للمشركين الكائدين الماكرين بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والانتقام المكافأة بالشر على الشر وهو مشتق من النقم الذي هو الغضب.
- 4 - قال مقاتل فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكتوا وقال بعضهم لا تدفع شيئاً ولكنها تشفع!!

(4/489)

على إعطاء ولا على إمساك إذا فقل حسبى الله أعبدته وأتوكل عليه إذ هو الذي يضر وينفع ويجلب الخير ويدفع السوء والشر. وقوله {عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} أي على الله وحده يتوكل المتوكلون فيثقون في كفايته لهم فيفوضون أمورهم إليه ويتعلقون به وينفضون أيديهم من غيره. وقوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} أي لما أبيتم إلا العناد مصرين على الشرك بعد ما قامت الحجج والأدلة القاطعة على بطلانه فاعملوا على مكانتكم أي حالتكم التي عليها من الشرك والعناد {إِنِّي عَامِلٌ} أنا على حالتي من الإيمان والتوحيد والانقياد. والنتيجة ستظهر فيما بعد لا محالة ويعلم المحق من المبطل، والمهتدي من الضال وهي قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ

عَذَابٌ (1) يُخْزِيهِ} أي يذله ويكسر أنفه بالقتل والأسر والجوع والقحط وقد أصاب المشركين هذا في مكة وبدر. وقوله: {وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ} وهو عذاب النار في الآخرة نعوذ بالله من العذابين عذاب الخزي في الحياة الدنيا وعذاب النار في الدار الآخرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.

2- تقرير مقتضى الولاية وهو النعمة من أعدائه تعالى لأوليائه وإن طال الزمن.

3- تقرير التوحيد وإبطال التنديد.

4- مظاهر ربوبية الله الموجبة لألوهيته.

5- وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه.

6- تقرير إنجاز الله وعده لرسوله والمؤمنين.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ (41) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

1 - (من) استفهامية علقت فعل تعلمون عن العمل في مفعوليه.

(4/490)

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا لَّا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا
يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

شرح الكلمات:

إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق : أي أنزلنا عليك يا رسولنا القرآن بالحق أي ملتبسا به.

وما أنت عليهم بوكيل : أي ليس عليك أمر هدايتهم فتجبرهم على الإيمان.

الله يتوفى الأنفس حين موتها: أي ينهي حياة العباد بقبض أرواحهم عند نهاية آجالهم.

والتي لم تمت في منامها : أي يتوفاها وقت النوم يحبسها عن التصرف كأنها شيء مقبوض.

فيمسك التي قضى عليها الموت: يقبضها لحكمة بالموت عليها حال النوم.

ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى : أي التي لم يحكم بموتها يرسلها فيعيش صاحبها إلى نهاية أجله

المعدود له.

إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون : أي في قبض الأرواح وإرسالها، والقدرة على ذلك دلائل وبراهين على قدرة الله تعالى على البعث الذي أنكره المشركون.

(4/491)

أم اتخذوا من دون الله شفعاء : أي كفار مكة لا يتفكرون ولو كانوا يتفكرون لما أنكروا البعث، ولا ما اتخذوا من دون الله شفعاء لوضوح بطلان ذلك.

قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً : أي قل لهم أيشفع لكم شركاؤكم ولو كانوا لا يملكون شيئاً ينكر عليهم دعواهم الشفاعة لهم وهي أصنام لا تملك ولا تعقل.

قل لله الشفاعة جميعاً : أي أخبرهم أن جميع الشفاعات لله وحده فشفاعة الأنبياء والشهداء والعلماء والأطفال مملوكة لله فلا يشفع أحد إلا بإذنه.

وإذا ذكر الله وحده اشمأزت : أي وإذا ذكر الله وحده كقول الرسول صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله نفرت نفوس المشركين وانقبضت وظهر الغضب والسخط في وجوههم.

وإذا ذكر الذين من دونه : أي الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون الله تعالى.

إذا هم يستبشرون : أي فرحون جذلون وذلك لافتتانهم بها ونسيانهم لحق الله تعالى وهو عبادته وحده مقابل خلقه ورزقه لهم.

معنى الآيات:

إن السياق الكريم كان في عرض الصراع الدائر بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقومه المشركين فدافع الله تعالى عن رسوله ودفع عنه كل أذى ومكروه وتوعد خصومه بالعذاب في الدنيا والآخرة وهنا يسليه ويصبره فيقول له {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ (1)} أي القرآن {لِلنَّاسِ} أي لهداية الناس وإصلاحهم {بِالْحَقِّ} أي ملتبساً بالحق، فمن اهتدى بالقرآن فأمن وعمل صالحاً فعائد ذلك له حيث ينجو من النار ويدخل الجنة، ومن ضل لعدم قبوله هداية القرآن فأصر على الشرك والمعاصي فإنما يضل على نفسه أي عائد ضلاله على نفسه إذ هو الذي يحرم الجنة ورضا الله تعالى ويُلقي في النار خالداً فيها وعليه غضب من الله لا يفارقه أبداً.

وقوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} أي لم يوكل إليك أمر هدايتهم فتجد نفسك في هم من ذلك إن عليك إلا البلاغ المبين إنك لم تكلف حفظ أعمالهم ومحاسبتهم عليها، ولا أمر هدايتهم فتجبرهم على ذلك.

1 - في الآية مزيد بيان شرفه صلى الله عليه وسلم بإنزال الكتاب عليه وتقرير رسالته، واللام في للناس للتعليل والبناء في بالحق للملابسة. وفي الكلام محذوف تقديره لنفع الناس وهدايتهم بقريته قوله بعد "فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه".

وقوله تعالى في الآية الثانية من هذا السياق (42): {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (1)} أي يقبض أرواحها {حِينَ مَوْتِهَا} أي عند نهاية أجلها فيأمر تعالى ملك الموت فيخرج الروح بإذن الله ويقبضها، {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} أي يقبضها بمعنى يحبسها عن التصرف، حال النوم، فإن أراد موتها قبضها ولم يردّها إلى جسدها، وإن لم يرد وفاتها أرسلها فتعود إلى الجسد ويعيش صاحبها إلى الأجل المسمى له وهي (2) نهاية عمره إن في ذلك القبض للروح والإرسال، والوفاة والإحياء لآيات أي دلائل وحجج كلها قاضية بأن القادر على هذا قادر على البعث والنشور الذي كذب به المشركون كما ن صاحب هذه القدرة العظيمة هو صاحب الحق المطلق في الطاعة والعبادة ولا تنبغي العبادة إلا له. وقوله {لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} وهم الأحياء بالإيمان أما الأموات وهم الكافرون فلا يجدون في ذلك آية ولا دليلاً لموتهم بالشرك والكفر.

وقوله تعالى في الآية الثالثة (43): {أَمْ اتَّخَذُوا (3) مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ} أي بل اتخذ المشركون الذين كان المفروض فيهم أن يهتدوا على الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة لو كانوا يتفكرون بدل أن يهتدوا إلى توحيد الله اتخذوا من دونه أوثاناً سموها شفعاء يرجون شفاعتها لدى الله في قضاء حوائجهم. وذلك لجهلهم وسخف عقولهم. قال تعالى لرسوله: {قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ} أي قل لهم أيشفعون لكم ولو كانوا لا يملكون شيئاً من أسباب الشفاعة ومقتضياتها ولو كانوا لا يعقلون معنى الشفاعة ولا يفهمونه لأنهم أصنام وأحجار والاستفهام للتبكيث والتفريع. لو كان القوم يشعرون. ثم أمر تعالى رسوله أن يعلن عن الحقيقة وإن كانت عند المشركين مرة {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} أي جميع أنواع الشفاعة هي ملك لله مختصة به فلا يشفع أحد إلا بإذنه، إذا فاطلبوا الشفاعة من مالكةا الذي له ملك السموات والأرض، لا ممن هو مملوك له، ولا يعقل حتى معنى الشفاعة ولا يفهمها وقوله ثم

1 - المراد بالأنفس الناس الذين يموتون إذ لفظ النفس يطلق على الذات ويطلق على الروح قال ابن عباس وغيره من المفسرين إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، قال علي رضي الله عنه فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها فلقبها الشياطين وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة.

2 - شاهد هذا من السنة حديث الصحيحين وفيه قوله صلى الله عليه وسلم إذا أوى أحدكم إلى

فراشه فلينفض بداخله إزاره فإنه لا يدري من خلفه عليه ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. والشاهد في أمساك الروح في المنام وإرسالها.

3 - أم هذه هي المنقطة وهي للإضراب الانتقالي وهو انتقال من تشييع شركهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم.

(4/493)

إليه ترجعون أي بعد الموت أحببتم أم كرهتم؟ فاتخذوا لكم يداً عنده بالإيمان به وتوحيده في عبادته. وقوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} هذا كشف عن حال المشركين، وما هم عليه من الجهل والسفه إنه إذا سمعوا لا إله إلا الله ينفرون وينقبضون ويظهر ذلك غضباً في وجوههم، يكادون يسطون على من قال لا إله إلا الله، وإذا ذكر الذين من دونه أي وإذا ذكر الأصنام التي يعبدونها من دون الله إذا هم يستبشرون فرحون مسرورون، وهذا عائد إلى افتتانهم بأصنامهم، ونسيانهم لحقوق ربهم عليهم وهي الإيمان به وعبادته وحده مقابل ما خلقهم ورزقهم ودبر حياتهم، ولكن أنى لأهل ظلمة النفس وانتكاس القلب أن يعوا ويفهموا؟.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر والثبات في أصعب الظروف.
 - 2- مظاهر قدرة الله في الموت والحياة مما يقتضي الإيمان به وبلقائه وتوحيده.
 - 3- إبطال حجة المشركين في عبادة الأوثان من أجل الشفاعة لهم إذا الشفاعة كلها لله.
 - 4- بيان خطأ من يطلب الشفاعة من غير الله، إذ لا يملك الشفاعة إلا هو (1).
 - 5- بيان سفه المشركين وضلالهم في غضبهم عند سماع التوحيد، وفرحهم عند سماع الشرك.
- قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)

1 - الشفاعة أمر معنوي فملكها معناه تحصيل إجابتها إذ الأمور المعنوية لا تملك.

(4/494)

شرح الكلمات:

قل اللهم فاطر السموات والأرض: قل يا نبينا: يا الله خالق السموات والأرض. عالم الغيب والشهادة: أي يا عالم الغيب وهو كل ما غاب عن الأبصار والحواس والشهادة خلاف الغيب.

فيما كانوا فيه يختلفون: أي من أمور الدين عقائد وعبادات.

ولو أن للذين ظلموا: أي ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي.

وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون: أي وظهر لهم من عذاب الله ما لم يكونوا يظنون.

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون: وأحاط بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ (1)} هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله أن يفزع إليه بالدعاء والضراعة إذ استحکم الخلاف بينه وبين خصومه وضاق الصدر أي قل يا رسولنا يا الله {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي خالقهما، {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي ما غاب عن الأبصار والحواس فلم يدرك، والشهادة وهو ما روي بالأبصار وأدرك بالحواس {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ} مؤمنهم وكافرهم {فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} من الإيمان بك وبلقائك وصفاتك وعبادتك ووعدك ووعدك اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط المستقيم.

وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} أي أنفسهم بالشرك وهو الظلم العظيم وبغشيان المعاصي والذنوب لو أن لهم عند معاينة العذاب يوم القيامة {مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} من أموال ونفائسها ومثله معه وقبل منهم الفداء {لَا فُتِنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ} ولما ترددوا أبدأ وهذا دال على شدة العذاب وأنه لا يطاق ولا يحتمل مع حرمانهم من الجنة ونعيمها.

وقوله تعالى: {وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (2)} أي وظهر لهم أي لأولئك الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم وإذا ذكرت الأصنام فرحوا بذلك واستبشروا وبدا لهم من ألوان العذاب ما لم يكونوا يظنون ولا يحتسبون. وقوله تعالى: {وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ (3) مَا كَسَبُوا} أي من

1 - رواه مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح به صلاته من الليل وروي عن سعيد بن جبیر أنه قال إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه قوله {قل اللهم فاطر السموات} .. الخ".

2 - روي أن محمد ابن المنذر جزع عند موته جزعا شديداً وقيل له ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون}.

3 - السيئات جمع سيئة وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو الموصول {ما كسبوا} أي مكسوباتهم السيئات وتأتيها باعتبار شهرة إطلاق السيئة على الفعلة القبيحة.

(4/495)

من الشرك والكفر والفسق والعصيان أي ظهر لهم وتجلى أمامهم فاشتد كربهم وعظم الأمر عندهم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون أي أحاط بهم وحق عليهم العذاب الذي كانوا إذا ذكر لهم وعيداً وتخويفاً استهزءوا به وسخروا منه وممن ذكرهم به ويخوفهم منه كالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية اللجوء إلى الله تعالى عند اشتداد الكرب وعظم الخلاف والدعاء بهذا الدعاء وهو "اللهم ربّ

جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" إذ ثبتت السنة به. والآية ذكرت أصله.

2- بيان عظم العذاب وشدته يوم القيامة وأن المرء لو يقبل منه فداء لافتدى منه بما في الأرض من أموال ومثله معه.

3- التحذير من الاستهزاء بأخبار الله تعالى ووعده ووعيده.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنِّي أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

(4/496)

شرح الكلمات:

فإذا مس الإنسان ضر دعانا : أي أصاب الإنسان الكافر ضر أي مرض وغيره مما يضره دعانا أي

سأل كشف ضره.

ثم إذا حولناه نعمة منا : ثم إذا حولناه أي أعطينا نعمة منا من صحة أو مال وغيرهما .
قال إنما أوتيته على علم : قال أي ذلك الكافر إنما أوتيت ذلك العطاء على علم من الله بأني أستحقه .

بل هي فتنة : أي تلك النعمة لم يعطها لأهليته لها، وإنما أعطيها فتنة واختباراً له .
ولكن أكثرهم لا يعلمون : أي أن ما أعطوه من مال وصحة وعافية هو فتنة لهم وليس لرضا الله تعالى عنهم .
قد قالها الذين من قبلهم : أي قال قولتهم من كان قبلهم كقارون فلم يلبثوا أن أخذوا فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم : أي والذين ظلموا بالشرك من هؤلاء أي من كفار قريش .
سيئات ما كسبوا(1) : أي كما أصاب من قبلهم وقد أصابهم قحط سبع سنين وقتلوا في بدر .
وما هم بمعجزين : أي فائتين الله تعالى ولا غالبين له .
أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق : أي أقالوا تلك المقالة ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق .
لمن يشاء ويقدر : أي يوسع له لمن يشاء امتحاناً، ويضيقه ابتلاء .
إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون: أي إن في ذلك المذكور من التوسعة امتحاناً والتضييق ابتلاء لآيات
أي علامات على قدرة الله وكمال تدبيره لأمر خلقه .
معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان حيرة المشركين وفساد قلوبهم نتيجة كفرهم وجهلهم فقوله تعالى:

1 - أي أصابهم سوء كسبهم وقبحه وهو ما عملوه من سيئات الشرك والمعاصي .

(4/497)

{فَإِذَا مَسَّ (1) الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا} يعني ذلك الكافر الذي إذا ذكر الله وحده اشمأزت نفسه وإذا ذكرت الأوثان سر وفرح واستبشر هذا الإنسان إذا مسّه ضرٌّ من مرض أو غيره مما يضر ولا يسر دعا ربه منيباً إليه ولم يشرك معه فيه هذه الحال أحداً لعلمه أن الأوثان لا تكشف ضرراً ولا تعطي خيراً، وإذا حولته الله تعالى نعمة من فضله ابتلاء له قال إنما أوتيت الذي أوتيت على علم من الله بأني أهل لذلك(2)، فأكذبه الله تعالى فقال بل هي فتنة، ولكن أكثرهم أي أكثر المشركين لا يعلمون أن الله تعالى إذا أعطاهم إنما أعطاهم ليفتنهم لا لحبه لهم ولا لرضا عنهم . والدليل على أن ذلك العطاء للمشركين فتنة لا غير أن قولتهم هذه قد قالها الذين من قبلهم كقارون وغيره فلم يلبثوا حتى

أخذهم الله بذنوبهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون من أموال طائلة، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فلم يؤاخذوا بدون ذنب بل أخذوا بذنوبهم وهو قوله تعالى فأصابهم سيئات (3) ما كسبوا وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي من كفار قريش سيصيبهم أيضاً سيئات ما كسبوا من الشرك والعناد والظلم، وما هم بمعجزين لله فائتيه أبداً وكيف وقد أصابهم قحط سبع سنين وقتلوا وأسروا في بدر والفتح.

وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ (4) يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي أقالوا مقاتلهم تلك ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء امتحاناً له أيشكر أم يكفر ويقدر أي يضيق على من يشاء ابتلاء له أيصبر أم يضجر ويسخط فلم يكن بسطه الرزق حياً في المبسوط له، ولا التضيق كرهاً للمضيق عليه، وإنما البسط كالتضييق لحكمة التربية والتدبير، ولكن الكافرين لا يعلمون هذا فجهلهم بالحكم جعلهم يقولون الباطل ويعتقدونه أما المؤمنون فلا يقولون مقاتلهم لعلمهم ونور قلوبهم فلذا هم يجدون الآيات في مثل هذا التدبير واضحة دالة على علم الله وحكمته وقدرته فيزدادون إيماناً ونوراً وبصيرة. هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان تناقض أهل الكفر والجهل والضلال في كل حياتهم لأنهم يعيشون على ظلمة الجهل

- 1 - في هذه الآية بيان حقيقة وهي أن كفار قريش كانوا يؤمنون بالله رباً فهم أفضل من كفار البلاشفة الشيوعيين الذين لا يؤمنون بالله تعالى كما أن كفار قريش أحسن حالا من بعض جهال المسلمين اليوم إذ يخلصون الدعاء لله في الشدة وجهال المسلمين يشركون في الرخاء والشدة معا وذلك بدعائهم الأولياء والأموات والاستغاثة بهم في كل حال.
- 2 - قال بعضهم على علم أي بوجوه الكسب وطرق تنمية المال وتكثيره حتى لا يحمد الله ولا يشكره ولا منافاة بين هذا وما في التفسير إذ بعضهم يقول هذا وبعض يقول ذلك.
- 3 - أي جزاء سيئات كسبهم من الشرك والشر والفساد.
- 4 - الاستفهام إنكاري ينكر تعالى عليهم انتفاء علمهم بذلك لأنهم تسببوا في انتفاء العلم فلذا تضمن الاستفهام توبيخاً لهم.

(4/498)

والكفر.

2- تقرير ما من (1) مصيبة إلا بذنب جلي أو خفي كبير أو صغير.

3- بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الأفراد أو الجماعات لا يعود إلى حب الله للعبد أو كرهه له،

وإنما يعود لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.

4- أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات لا يرون الآيات ولا يعقلونها.

5- تهديد الله تعالى للظالمين ووعيده الشديد بأنه سيصيبهم كما أصاب غيرهم جزاء ظلمهم وكسبهم الفاسد.

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)

1 - شاهده قوله تعالى {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} الآية من الشورى وقوله صلى الله عليه وسلم "والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر" رواه ابن أبي حاتم. قال لما نزلت هذه الآية قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(4/499)

شرح الكلمات:

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم: أي أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي.

لا تقنطوا من رحمة الله: أي لا تيأسوا من المغفرة لكم ودخول الجنة.

إن الله يغفر الذنوب جميعا: أي ذنوب من أشرك وفسق إن هو تاب توبة نصوحاً.

وأنيبوا إلى ربكم: أي ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة.

وأسلموا له: أي أخلصوا له أعمالكم.

واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم: أي القرآن الكريم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه.

أن تقول نفس يا حسرتى: أي نفس الكافر والمجرم يا حسرتى أي يا ندامتي.

على ما فرطت في جنب الله: أي في جانب حق الله فلم أطعه كما أطاعه غيري.

وإن كنت لمن الساخرين: أي المستهزئين بدين الله تعالى وعباده المؤمنين.

لو أن لي كرة فأكون من المحسنين: أي لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون إذاً من المؤمنين الذين

أحسنوا القصد والعمل.

بلى قد جاءتك آياتي : أي ليس الأمر كما تزعم أنك تتمنى الهداية بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت.

معنى الآيات:

لقد صح أن أناسا(1) كانوا قد أشركوا وقتلوا وزنوا فكبر عليهم ذلك وقالوا نبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسأله لنا هل لنا من توبة فإن قال: نعم، وإلا بقينا على ما نحن عليه وقبل أن يصل رسولهم نزلت هذه الآية {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} أي أفرطوا في ارتكاب الجرائم فكانوا بذلك مسرفين على أنفسهم {لَا تَقْنَطُوا} أي لا تياسوا {مِنْ رَحْمَةِ} في أن يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم الجنة، إن أنتم تبتتم إليه وأنبتتم {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ} (2) جميعاً لمن تاب منها فإنه تعالى لا يستعصي عليه ذنب فلا يقدر على مغفرته وعدم المؤاخذه عليه إنه هو الغفور الرحيم.

1 - لقد ذكر لسبب نزول هذه الآية عدة مناسبات وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلا حاجة إلى ذكرها وما في التفسير كافٍ وهو ما تضمنته رواية البخاري.

2 - قوله تعالى {إن الله يغفر الذنوب جميعاً} تعليل للنهي عن اليأس والقنوط من رحمة الله.

(4/500)

وقوله تعالى: {وَأَنبِئُوا (1) إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} (2) أي أيها المذنبون المسرفون أنبئوا ربكم أي ارجعوا إلى طاعته بفعل المأمور وترك المنهي وأسلموا له أي أخلصوا أعمالكم ظاهراً وباطناً له مبادرين بذلك حلول العذاب قبل أن يحل بكم ثم لا تنصرون أي لا تقدرين على منعه منكم ولا دفعه عنكم.

{وَأَنبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} في هذا القرآن العظيم فامتثلوا الأمر واجتنبوا النهي وخذوا بالعزائم واتركوا الرخص مبادرين بذلك أيضاً حلول العذاب قبل أن يحل بكم بغتة أي فجأة وأنتم لا تشعرون به، بادروا بالتوبة والإنابة والإسلام الصادق ظرفاً تقول فيه النفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله أي يا حسرتي(3) يا ندامتي الحاملة لي الغم والحزن احضري هذا وقت حضورك على تقريظي في جانب(4) حق الله تعالى حيث ما عبدته حق عبادته فلا ذكرته ولا شكرت له {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} أي المستهزئين بدينه وعباده المؤمنين يا له من اعتراف يؤدي بصاحبه في سواء الجحيم، بادروا يا عباد الله هذا وذاك {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (5) لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (6)} أي رجعة إلى الحياة الدنيا {فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي المؤمنين الذين أحسنوا النية والقصد والعمل. قال تعالى رداً على تمنياتهم الكاذبة: {بَلَىٰ} أي ليس الأمر كما زعمت أيها المتمني بقولك {لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} للشرك والمعاصي التي وقعت بها

في جهنم بل جاءتك آياتي هادية لك مرشدة فكذبت بها واستكبرت عن العمل بما جاء فيها وكنت من الكافرين بذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.
- 2- دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنبابة إليه والإسلام الخالص له.
- 3- تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال.

1 - الإنابة التوبة ولما في التوبة من معنى الرجوع عدي الفعل بالي.

2 - النصر: الإعانة على الغلبة بحيث يتخلص المغلوب من يد غالبه ولا نصير لأحد على الله تعالى.

3 - الحسرة: الندامة الشديدة والألف في (يا حسرتي) عوض عن ياء المتكلم.

4 - قال الحسن في طاعة الله وقال الضحاك في ذكر الله يعني القرآن والعمل به، وقال أبو عبيدة أي في ثواب الله وما في التفسير جامع شامل والجنب والجانب بمعنى واحد.

5 - هذه كلمة حق أريد بها باطل كما قال علي للخوارج لما قالوا لا حكم إلا لله.

6 - الكرة: الرجعة ولو للتمني فهي وليت سواء.

(4/501)

1- وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت والموت أدهى وأمر حيث لا تقبل توبة بعد الموت أبداً.

2- الترغيب في الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

3- إبطال مذهب الجبرية الذين يرون أنهم مجبورون على فعل المعاصي وغشيان الذنوب، كقول أحدهم لو أن الله هداني لفعلت كذا أو تركت كذا.

4- فضل التقوى والإحسان وفضل المتقين والمحسنين.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي

اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ

أَفَعَيِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

شرح الكلمات:

ويوم القيامة : أي بأن يبعث الناس من قبورهم.

ترى الذين كذبوا على الله: أي باتخاذ أولياء من دونه وبالقول الكاذب عليه سبحانه وتعالى.

(4/502)

وجوههم مسودة : أي سوداء من الكرب والحزن وعلامة على أنهم من أهل النار وأنهم ممن كذبوا على ربهم.

أليس في جهنم مثوى للمتكبرين : أي أليس في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين؟ بلى إن لهم فيها لمثوى بئس هو من مثوى للمتكبرين عن عبادة الله تعالى.

وينجي الله الذين اتقوا : أي ينجيهم من النار بسبب تقواهم للشرك والمعاصي.

بمفازتهم لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون : أي بفوزهم بالجنة ونزولهم فيها لا يمسهم سوء أي العذاب ولا هم يحزنون لما نالهم من النعيم.

له مقاليد السموات والأرض: أي مفاتيح خزائن السموات والأرض.

أولئك هم الخاسرون : أي الخاسرون لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

قل أفغير الله تأمروني أعبد: قل يا رسولنا للذين طلبوا منك أن تعبد معهم آلهتهم أتأمروني بعبادة

غير الله، فهل تصلح العبادة لغيره وهو رب كل شيء وإلهه فما أسوأ فهمكم أيها الجاهلون.

لئن أشركت : أي من باب الفرض لو أشركت بالله غيره في عبادته لحبط عملك ولكنك من الخاسرين.

بل الله فاعبد وكن من الشاكرين: أي بل اعبد الله وحده، إذ لا يستحق العبادة إلا هو وكن من

الشاكرين له على إنعامه عليك بالنبوة والرسالة والعصمة والهداية.

معنى الآيات:

لقد تقدم في السياق الأمر بتعجيل التوبة قبل الموت فيحصل الفوت، وذلك لأن يوم القيامة يوم أهوال

وتغير أحوال وفي الآيتين الآتيتين بيان ذلك قال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ (1)}

بأن نسبوا إليه الولد والشريك والتحليل والتحریم وهو من ذلك براء هؤلاء {وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} (2) علامة

أنهم كفروا وكذبوا وأنهم من أهل النار.

1 - هم الذين نسبوا إليه ما هو منزله عنه كالشريك والصاحبة والولد، ويدخل في هذا كل من نسب

إلى الله تعالى صفة لا دليل له فيها، وكذا من شرع شيئاً ونسبه إلى الله تعالى ليقبل منه ويروج، ولا

يدخل أهل الاجتهاد إذا أخطأوا في الأدلة والحكم المقيس الذي لا نص فيه ولا يجوز أن يقال فيه قال

الله أو أمر أو شرع تحاشياً من النسبة إلى الله تعالى بغير نص من كتاب أو سنة.
2 - جملة وجوههم مسودة مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال، لأن الرؤيا بصرية وليست قلبية.

(4/503)

وقوله تعالى: {الَّذِينَ (1) فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (2)} أي بلى في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين الذين تكبروا عن الإيمان والعبادة. وقوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللّهُ} أي تلك حال وهذه أخرى وهي أن الله تعالى ينجي يوم القيامة الذين اتقوا الشرك والمعاصي بالإيمان والطاعة هؤلاء بفوزهم بالجنة لا يمسه السوء في عرصات القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا لأن ما نالهم من نعيم الجنة أنساهم ما تركوا وراءهم وقوله تعالى: {اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} أي ما من كائن سوى الله تعالى إلا وهو مخلوق والله خالقه {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} أي قيم حافظ، فسبحانه ما أعظم قدرته وما أوسع علمه فلذا وجبت له العبادة ولم تجز فضلاً عن أن تجب لسواه.

وقوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (3)} أي له ملكاً حقاً مفاتيح خزائن الرحمات والخيرات والبركات فهو يفتح ما يشاء ويمسك ما يشاء فلا يصح الطلب إلا منه ولا تجوز الرغبة إلا فيه وما عبد الناس الأوثان والأصنام إلا رغبة ورهبة فلو علموا أن رهبتهم لا تكون إلا من الذي يقدر على كل شيء وأن رغبتهم لا تكون إلا في الذي بيده كل شيء لو علموا هذا ما عبدوا غير الله تعالى بحال.

وقوله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّهِ} الحاوية لإيمانه وصفاته وبيان محابه ومكارهه وحدوده وشرائعه ولذا من كفر بآيات الله فلم يؤمن بها ولم يعمل بما فيها خسر خسراناً مبيناً بحيث يخسر يوم القيامة نفسه وأهله، وذلك هو الخسران المبين.

وقوله تعالى: {قُلْ أَغْيِرِ اللّهِ} الآية هذا ردّ على المشركين الذين طلبوا من الرسول أن يعترف بألتهم ويرضى بها مقابل أن يعترفوا له بما جاء به ويدعو إليه فأمر تعالى أن يفاصلهم بقوله: {قُلْ أَغْيِرِ (4) اللّهِ تَأْمُرُونِي (5) أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} لن يكون هذا مني أبداً كيف أعبد غير الله وهو

1 - الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً والاستفهام للتقرير.

2 - التكبر شدة الكبر وهو إظهار المرء التعاضم على غيره لأنه يعد نفسه عظيماً وفي التنديد به من حديث مسلم "إن الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر"

3 - المقاليد جمع إقليد وجمع على غير قياس والمراد مفاتيح خزائن السماء والأرض حيث أرزاق العباد وما به تقوم حياتهم، من أمطار وزروع وضروع ومعادن وغيرها.

4 - غير منصوب بأعبد، وأعبد مرفوع لحذف أن مع حرف الجر إذ الأصل بأن أعبد فلما حذف

الناصب ارتفع الفعل. هذا على رأي كثير من النحاة والجمهور يقولون لا حذف وأعيد هو المستفهم عنه، وتأمروني اعتراض أو حال وتقدير الكلام أأعبد غير الله لكونكم تأمروني بذلك.

5 - قرأ نافع تأمرون بنون واحدة مخففة بحذف إحدى النونين، وقرأ حفص والجمهور تأمروني بتشديد النون إدغاماً لإحدى النونين في الأخرى وفي جملة أيها الجاهلون تفرغ لهم ووصف لهم بالجهل وهو وصف مذموم.

(4/504)

ربي ومالك أمري وهو الذي كرمني بالعلم به وأوحى إليّ شرائعه. فلتياسوا فإن مثل هذا لن يكون أبداً، ووصفهم بالجهل لأن جهلهم (1) بالله وعظمته هو الذي سول لهم عبادة غيره والتعصب لها. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ} أي أوحى الله إليك كما أوحى إلى الأنبياء من قبلك بالتالي وهو وعزة الله وجلاله {لَئِن أُشْرِكْتَ} بنا غيرنا في عبادتنا ليحبطن (2) عملك أي يبطل كله ولا تثاب على شيء منه وإن قل، ولتكونن بعد ذلك من جملة الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين. ثم أمر تعالى رسوله مقررًا للتوحيد مبطلًا الشرك بقوله: {بَلِ اللّٰهُ فَاعْبُدْ} (3) وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي الله وحده فاعبده وكن من الشاكرين له على إنعامه وإفضاله عليك.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- اسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم.
- 2- ابيضاض الوجه يوم القيامة علامة الإيمان (4) والخلود في الجنة.
- 3- تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه.
- 4- بيد الله كل شيء فلا يصح أن يطلب شيء من غيره أبداً، ومن طلب شيئاً من غير الله فهو من أجهل الخلق.
- 5- التنديد بالشرك وبيان خطورته إذ هو محبط للأعمال بالكلية.
- 6- وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له. فله الحمد والمنة.

1 - العرب مع أنهم أميون يعترفون بفضل العالم على الجاهل قال شاعرهم:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم

فليس سواء عالم وجهول

2 - حبوط العمل بطلانه حيث لا يثاب عليه والخسران مقيد بأن يموت على الردة أما إن راجع

- الإسلام فلا يخسر لآية {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر} فالآية مقيدة لإطلاق آية الزمر.
- 3 - بل للإبطال أي إبطال عبادة ما دعاه إليه المشركون وقصره على عبادة الله وحده وأمره أن يكون في جملة الشاكرين لله إنعامه عليهم بنعمة الإسلام.
- 4 - شاهده آية آل عمران {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} الآية.

(4/505)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

شرح الكلمات:

وما قدروا الله حق قدره : أي ما عظموا الله حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته حين أشركوا في عبادته غيره من أوثانهم.

والأرض جميعاً قبضته : أي والأرض بجميع أجزائها قبضته.

والسماوات مطويات بيمينه: أي والسماوات السبع مطويات بيمينه.

سبحانه وتعالى عما يشركون : أي تقدر وتنتزه عما يشرك به المشركون من أوثان.

ونفخ في الصور : أي نفخ إسرافيل نفخة الصعق.

ثم نفخ فيه أخرى : أي مرة أخرى وهي نفخة القيام لرب العالمين.

وأشرفت الأرض بنور ربها : أي أضاءت الأرض بنور الله تعالى حين يتجلى لفصل القضاء.

ووضع الكتاب : أي كتاب الأعمال للحساب.

وجيء بالنبيين والشهداء : أي بالنبيين ليشهدوا على أممهم، والشهداء محمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

وقضي بينهم بالحق : أي بالعدل وهم لا يظلمون لا بنقص حسناتهم ولا بزيادة سيئاتهم.

وهو أعلم بما يفعلون : أي أعلم حتى من العاملين أنفسهم.

(4/506)

معنى الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (1) إنه بعد أن قرر تعالى التوحيد وندد بالشرك والمشركين أخبر تعالى ناعيا على المشركين شركهم ودعوتهم نبيه للشرك بأنهم بفعلهم ذلك ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق عظمتهم وذلك لجهلهم به تعالى حين عبدوا معه غيره ودعوا نبيه إلى ذلك، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً﴾ (2) قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (3) فالذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته والسموات يطويها بيمينه فالسموات والأرض جميعا في يده، ويقول أنا الملك أين الملوك. فصاحب هذه القدرة العظمى كيف يعبد معه آلهة أخرى هي أصنام وتمائيل أوثنان. لذا نزه تعالى نفسه بقوله {سُبْحَانَهُ} أي تنزهه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد وعن صفات المحدثين، وتعالى عما يشركون أي ترفع عن أن يكون له شريك وهو رب كل شيء ومليكه. وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ (4) الآية هذا عرض لمظاهر القدرة التي يتنافى معها عقلاً وجود من يستحق العبادة معه سبحانه وتعالى، والنافخ في الصور أي البوق إسرافيل قطعاً إذ هو الموكل بالنفخ في الصور فإذا نفخ هذه النفخة صعق من (5) في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فهذا استثناء دال على أن بعضاً من المخلوقات لم يصعق في هذه النفخة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور نفخة ﴿أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ هذه النفخة تسمى نفخة القيام لله رب العالمين لأجل الحساب وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ (6) أي كتاب الأعمال للحساب ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ليشهدوا على أممهم وجيء بالشهداء وهم أمة

1 - حق قدره فيه إضافة الصفة إلى الموصوف فحق صفة، والقدر موصوف إذ الأصل (ما قدروا الله قدره الحق) فالحق منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.

2 - جرد جميع من التاء إذ لم يقل والأرض جميعة جريا على الغالب وقد أثبتت في قول الشاعر:
فلو أنها نفس تموت جميعة
ولكنها نفس تساقط أنفساً
ونصب جميعا على الحال.

3 - شاهده في البخاري قوله صلى الله عليه وسلم "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ وفي الترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قالت قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم، وفي رواية على الصراط يا عائشة".

4 - الصور البوق ينادى به البعيد المتفرق مثل الجيش، والمراد هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحياء للحساب والجزاء.

5 - بالتتابع للآيات القرآنية المتضمنة لأحوال الدار الآخرة نجد أن النفخات للصور أربع نفخات:

وهي نفخة الفناء، ونفخة البعث، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين. وفي هذه الآيات ذكر نفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين سميت هذه نفخة صعق لأن الخلاق يصعقون ولا يموتون بدليل حديث البخاري "أكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى" لفظ مسلم . قال القرطبي والإفاقة إنما تكون من غشية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة والله أعلم.

6 - الكتاب اسم جنس والمراد صحائف أعمال العباد الحاوي للحسنات والسيئات.

(4/507)

محمد يشهدون على الأمم السابقة بأن رسلها قد بلغتهم دعوة الله، وشهادة أمة محمد قائمة على ما أخبرهم تعالى في كتابه القرآن الكريم أن الرسل قد بلغت رسالات ربها لأممها، ويدل لهذا قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي خياراً عدولاً {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} وقوله: {وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ} أي وحكم الله تعالى بين العباد بالعدل، ووفي كل نفس ما عملت من خير أو شر، وهو تعالى أعلم بما يفعلون حتى من العاملين أنفسهم ولذا سيكون الحساب عادلاً لا حيف فيه لخلوه من الخطأ والغلط والجهل والنسيان لتنزله الباري عز وجل عن ذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان مظاهر عظمة الرب تعالى التي يتنافى معها الشرك به عز وجل في عباداته.
 - 2- تقرير البعث والجزاء ببيان أحواله وما يجري فيه.
 - 3- بيان عدالة الله في قضائه بين عباده في عرصات القيامة.
 - 4- فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها.
- وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

(4/508)

تَنْبُوًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)
شرح الكلمات:

وسيق الذين كفروا : أي وساق الملائكة بعنف الذين كفروا.
إلى جهنم زمراً : أي جماعات، جماعة المشركين وجماعة المجرمين وجماعة الظالمين.
وقال لهم خزنتها : أي الموكلون بالنار من الملائكة الواحد خازن.
ألم يأتكم رسل : هذا الاستفهام للتقرير والتوبيخ.
حققت كلمة العذاب : أي وجب العذاب للكافرين.
وسيق الذين اتقوا : أي وسافت الملائكة بلطف على النجائب الذين اتقوا ربهم أي أطاعوه ولم يشركوا به.

وفتحت أبوابها : أي والحال أن أبواب الجنة قد فتحت لاستقبالهم.
والحمد لله الذي صدقنا وعده : أي أنجز لنا وعده بالجنة.
وأورثنا الأرض : أي أرض الجنة وصورة الإرث نظراً إلى قوله تعالى في وعده لهم تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً. (1)
تنبؤاً من الجنة حيث نشاء : أي ننزل من حيث نشاء.
فنعلم أجر العاملين : أي الجنة.
حافين من حول العرش : أي محدقين بالعرش من كل جانب.
يسبحون بحمد ربهم : أي يقولون سبحان الله وبحمده.
وقضى بينهم بالحق : أي وقضى الله بمعنى حكم بين جميع الخلائق بالعدل.
وقيل الحمد لله رب العالمين : أي وقالت الملائكة والمؤمنون الحمد لله رب العالمين على استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

1- وجه الورث أن الله تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في النار وآخر في الجنة ثم هم يتوارثون فأهل الجنة يرثون منازل أهل النار في الجنة وأهل النار يرثون منازل أهل الجنة في النار.

(4/509)

معنى الآيات:

بعد الفراغ من الحكم على أهل الموقف وذلك بأن حكم الله تعالى فيهم بحسب عملهم فوقى كل عامل بعمله من كفر ومعاص، أو إيمان وطاعة قال تعالى مخبراً عن مصير الفريقين (وسيق) (1)

الَّذِينَ كَفَرُوا} أي ساقهم الملائكة بشدة وعنف لأنهم لا يريدون الذهاب {إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا} أي جماعات ولفظ الزمرة مشتق من الزمر الذي هو الصوت إذ الغالب في الجماعة أن يكون لها صوت. وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَّ أَبْوَابُهَا} إذ كانت مغلفة كأبواب السجون لا تفتح إلا عند المجيء بالسجناء، {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا (2)} قبل الوصول إليها موبخين لهم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ (3) رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} أي المبينة لكم الهدى من الضلال والحق من الباطل، وما يجب ريكم من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والنوات وما يكره من ذلك، ويدعوكم إلى فعل المحاب لتتجوا وترك المكاره لتتجوا وتسعدوا. فأجابوا قائلين بلى أي جاءتنا بالذي قلتم ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ونحن منهم فوجب لنا العذاب، وعندئذ تقول لهم الملائكة ادخلوا (4) أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين أي قبح مأوى المتكبرين في جهنم من مأوى. وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ (5) اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ} وسوقهم هو سوق النجائب التي يركبونها فهو سوق لطف وتكريم إلى الجنة دار السلام زمراً زمرة الجهاد وزمرة الصدقات وزمرة العلماء وزمرة الصلوات {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا} وقد فتحت (6) أبوابها من قبل لاستقبالهم مُعَزَّزِينَ مَكْرَمِينَ، فقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم أي طابت أرواحكم بأعمالكم الطيبة فطاب مقامكم في دار السلام فنعم التحية حيوا بها مقابل تأنيب وتوبيخ الزبانية لأهل النار. وقوله لهم فادخلوها أي الجنة حال كون خلودكم مقدراً لكم فيها. فقالوا بعد دخولهم الجنة ونزولهم في

1- هذا بيان توفية كل نفس عملها فيساق الذين كفروا إلى النار والذين آمنوا إلى الجنان والزمر جمع زمرة كظلمة وظلم وغرفة وغرف، وهي جماعة بعد جماعة قال الشاعر:

وترى الناس إلى منزله

زمراً تتنابه بعد زمرة

2- الخزنة جمع خازن كسدنة وسادن.

3- الاستفهام للتقرير مع التوبيخ والتقريع.

4- قال وهب: تستقبلهم الزبانية بمقامع من حديد فيدفعونهم بمقامعهم فإنه ليقع في الدفعة الأولى بعدد ربيعة ومضر. قال تعالى {ولهم مقامع من حديد}.

5- سوق أهل النار طردهم إلى النار بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم إلى دار السلام إنهم لا يذهب بهم إلا راكبين وشتان ما بين السوقين.

6- قرأ نافع والجمهور فتحت بتشديد التاء في الأولى والثانية وقرأ حفص بالتخفيف، والواو في قوله وفتحت واو الحال والجملة حالية في محل نصب.

قصورها الحمد لله الذي صدقنا وعده يعنون قوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}، وقوله: {وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ} أي أرض الجنة نتبوا منها حيث نشاء أي ننزل منها حيث نريد النزول، وفي قولهم أورثنا الأرض إشارة إلى أنهم ورثوها من أبويهم آدم وحواء إذ كانت لهم قبل نزولهما منها. وقولهم فنعم أجر العاملين أي الجنة والمراد من العمل بالإيمان والتقوى في الدنيا، بأداء الفرائض واجتتاب النواهي وقوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ أَيُّهَا الرَّائِي {حَاقِّينَ مِنْ (1) حَوْلِ الْعَرْشِ} أي محققين بعرش الرحمن أي سريره {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} أي قائلين: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. قال تعالى مخبراً عن نهاية الموقف: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي وقضى الله بين الخلائق بالعدل، ولما استقر أهل النار وأهل الجنة حمد الله على الاستقرار التام والحكم العادل الرحيم وقيل الحمد لله رب (2) العالمين أي حمدت الملائكة ربها وحمده معهم المؤمنون وهم في دار النعيم المقيم. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إهانة أهل النار بسوقهم على أرجلهم بعنف وتأنيبهم وتوبيخهم.
- 2- التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى، وعبادة المؤمنين به، المتقين له.
- 3- بيان إكرام الله تعالى لأوليائه إذ يحملون على نجائب رجالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلاماً. تحية احترام وإكرام، وسلام أمان من كل مكروه.
- 4- بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار، واستقرار أهل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار.
- 5- ختم كل عمل بالحمد لله فقد ابتداء الله الخالق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم بالحمد، وقيل الحمد لله رب العالمين.

1- من زائدة لتقوية الكلام نحو ما جاءني من أحد.

- 2- قال قتادة في هذه الآية افتتح الله أول الخلق بالحمد فقال: (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وختم بالحمد فقال "وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" فحسن الاقتداء به فيبدأ العبد قوله بالحمد ويختمه بالحمد.

سورة غافر

...

سورة غافر (1)

مكية

وآياتها خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ (3) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرْكَ تَقْلُدُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

1- وتسمى أيضا سورة المؤمن وسورة الطول وهي أول ال حم التي يقال لها ديباج القرآن وعرائس القرآن ويقال ذوات حم وذكر القرطبي أن رجلا من أهل الشام كان ذا بأس شديد فقبل لعمر وقد سأل عنه أنه تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ثم ختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة له بالتوبة فلما أنته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله يغفر لي وحذرتني عقابه، فلم يبرح يرددتها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته فلما بلغ ذلك عمر أمره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زل زلة فسدوده وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه.

(4/512)

شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا: حم ويقرأ هكذا: حا ميم.

تنزيل الكتاب من الله : أي تنزيل القرآن كائن من الله.

العزيز العليم : أي الغالب على مراده، العليم بعباده ظاهراً وباطناً حالاً ومآلاً.

غافر الذنب : أي ذنب من تاب إلى الله فرجع إلى طاعته بعد معصيته.

شديد العقاب ذي الطول: أي مشدد العقوبة على من كفر به، ذي الطول أي الإنعام الواسع على من

آمن به وأطاعه.

لا إله إلا هو إليه المصير : أي لا معبود بحق إلا هو إليه مرجع الخلائق كلهم.

ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا: أي في القرآن لإبطالها إلا الكافرون.

فلا يغررك تقبلهم في البلاد : أي فلا تغتر بمعاشهم سالمين فإن عاقبتهم النار.

والأحزاب من بعدهم : أي وكذبت الأحزاب من بعد قوم نوح، وهم عاد وثمود وقوم لوط.

وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه : أي ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل.

وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق : أي ليزيلوا به الحق ويبطلوه.

فكيف كان عقاب : أي كان واقعا موقعه حيث أهلكهم ولم يبق منهم أحداً.

كذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا: أي وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {حم}: الله أعلم بمراده به، وقد ذكرنا غير ما مرة أن هذه الحروف أفادت فائدتين الأولى

أن العرب المشركين في مكة كانوا قد منعوا المواطنين من سماع القرآن حتى لا يتأثروا به فيكفروا

بآلهتهم فقد أخبر تعالى عنهم في قوله من سورة فصلت فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} فكانت هذه الحروف المقطعة بنغمها الخاص تستهويهم فيسمعوا

فكانت فائدة عظيمة. والثانية أن المشركين لما أصروا على أن القرآن لم يكن وحياً وإنما هو من

جنس ما يقوله الشعراء والكهان وأصحاب الأساطير تحداهم الله تعالى بالإتيان بمثله وهو مركب

ومؤلف من هذه الحروف الم طس حم والذي قوى هذه النظرية أنه غالباً ما يذكر القرآن بعد

(4/513)

ذكر هذه الحروف مثل الم تلك آيات الكتاب، حم تنزيل الكتاب، حم والكتاب المبين فهاتان الفائدتان

من أحسن ما استنبطه ذو الشأن في تفسير القرآن، وما عدا ذلك فلا يحسن روايته لخلوه من فائدة

معقولة، ولا رواية عن الرسول وأصحابه منقولة.

وقوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} يخبر تعالى أنه عز وجل هو مصدر هذا القرآن

إذ هو الذي نزله تنزيلاً على عبده ورسوله، ووصف نفسه بالعزة والعلم فقال العزيز أي في انتقامه

من أعدائه الغالب على أمره ومراده فلا يحال بينه وبين ما يريد العليم بخلقه وحاجاتهم ومتطلباتهم،

فأنزل الكتاب لهدايتهم وإصلاحهم. وقوله: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ(1)}

أعلم أنه تعالى يغفر ذنب المستغفرين ويقبل توبة التائبين وأنه شدد العقوبة على من كفر به وعصاه.

وقوله ذي الطول أي الإنعام الواسع والفضل العظيم {لَا إِلَهَ (2) إِلَّا هُوَ} أي لا معبود بحق إلا هو

العزيز الحكيم العزيز الغالب على أمره الحكيم في تدبير خلقه.

لما أثنى تبارك وتعالى على نفسه بما هو أهله أخبر رسوله بأنه ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ (3) في آياتِ الله {القرآنية الحاوية للحجج القواطع والبراهين السواطع على توحيد الله ولقائه وعلى نبوة رسول الله ما يجادل فيها {إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} وذلك لظلمة نفوسهم وفساد قلوبهم، وعليه فاصبر ولا تغتر بظاهر ما هم عليه من سعة الرزق وسلامة البدن، وهو معنى قوله: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي (4) الْبِلَادِ﴾ أي آمنين معافين في أبدانهم وأرزاقهم فإنهم مهملون لا مهملون، والدليل فقد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب (5) من بعد قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون، وقد همت كل أمة من تلك الأمم برسولها لتأخذه فتقتله أو تتكل به. وقد جادلوا بالباطل كما جادل قومك من قريش ليدحضوا به الحق أي ليزيلوه ويبعدوه بباطلهم. فأخذتهم فكيف كان عقاب أي كان واقعاً موقعه والحمد لله إذ قطع الله دابرهم وأنهى وجودهم وخصومتهم.

- 1- يطلق الطول على سعة الفضل وسعة المال كما يطلق مطلق القدرة وهو مأخوذ من الطول ضد القصر.
- 2- لا إله إلا هو في موضع الصفة لله عز وجل فتكون الصفة السابقة في هذه الآية الكريمة.
- 3- مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن سؤال من قال ما دام هذا القرآن تنزيلاً من العزيز الحكيم وهو أمر لا ريب فيه فلم يجادل فيه هؤلاء المشركون فأجابهم بقوله "ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا" الآية .
- 4- الغرور ظن المرء شيئاً حسناً وهو بضده يقال غررك إذا جعلك تظن الشيء حسناً ويكون التغرير بالقول أو بتحسين صورة القبيح.
- 5- الأحزاب هم الأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب والعناد كعاد وثمود ومن بعدهم.

(4/514)

وقوله {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ (1) كَلِمَتُ رَبِّكَ (2) عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (3)} أي كما وجب حكمه بإهلاك تلك الأمم المكذبة لرسولها الهامة بقتلها وقد أهلكهم الله فعلاً حقت كلمة ربك على الذين كفروا لأنهم أصحاب النار والمراد من كلمة ربك قوله لأملأن جهنم الآية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير أن القرآن الكريم مصدر تنزيله هو الله تعالى إذ هو الذي أوحاه ونزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبذلك تقررت نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.
- 2- بيان عظمة الرب تعالى المتجلية في أسمائه العزيز العليم الحكيم ذي الطول غافر الذنب قابل

التوب لا إله إلا هو .

3- تقرير التوحيد والبعث والجزاء .

4- تقرير مبدأ أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وأن بطشه شديد.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

1- حقت أي وجبت ولزمت مأخوذ من الحق لأنه لازم.

2- قرأ نافع كلمات بالجمع وقرأ حفص بالإنفراد وهي اسم جنس بمعنى الجمع.

3- الإجماع على وجوب الوقف على قوله تعالى {أنهم أصحاب النار} ثم يستأنف القراءة قائلاً الذين يحملون العرش ... الخ.

(4/515)

شرح الكلمات:

الذين يحملون العرش : أي الملائكة حملة العرش .

ومن حوله : أي والملائكة الذين يحفون بالعرش من جميع جوانبه .

يسبحون بحمد ربهم : أي يقولون سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذه صلاتهم وتسبيحهم .

ويؤمنون به : كيف لا وهم عنده، ولكن هذا من باب الوصف بالكمال لهم .

ويستغفرون للذين آمنوا: أي يطلبون المغفرة للمؤمنين لرابطة الإيمان بالله التي تربطهم بهم .

ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً : أي يقولون يا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً .

فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك : أي فيما أن رحمتك وعلمك وسعا كل مخلوقاتك فاغفر للذين تابوا

إليك فعبدوك ووجدوك واتبعوا سبيلك الذي هو الإسلام .

وقهم عذاب الجحيم : أي احفظهم من النار فلا تعذبهم بها .

جنات عدن : أي بساتين فيها قصور وأنهار للإقامة الدائمة .

التي وعدتهم : أي بقوله تعالى: إن الله يدخل الذين آمنوا وعلمو الصالحات جنات تجري من تحتها

الأنهار .

ومن صلح من آبائهم: أي ومن صلح بالإيمان ولم يفسد بالشرك والكفر .

وقهم السيئات : أي احفظهم من جزاء السيئات التي عملوها فلا تؤاخذهم بها .

ومن تق السيئات يومئذ : أي ومن تقه جزاء سيئاته يوم القيامة فلم تؤاخذه.
فقد رحمته : أي حيث سترته ولم تفضحه وعفوت عنه ولم تؤاخذه.
وذلك : أي الوقاية من العذاب وإدخال الجنة هو الفوز العظيم.

(4/516)

معنى الآيات:

قوله تعالى: {الَّذِينَ (1) يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ (2)} يخبر تعالى عن عظمته وموجبات الإيمان به وبآياته وتوحيده ولقائه فيقول الذين يحملون العرش أي عرشه من الملائكة كالملائكة الذين يحفون بعرشه الجميع {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} تسبيحاً مقروناً بالحمد بأن يقولوا سبحان الله وبحمده ويؤمنون به أي يؤمنون بوحدانيته وعدم الإشراف في عبادته {وَيَسْتَغْفِرُونَ (3) لِلَّذِينَ آمَنُوا} لرابطة الإيمان التي تربطهم بهم ولعل هذا السر في ذكر إيمانهم لأن المؤمنين إخوة واستغفارهم هو طلب المغفرة من الله للمؤمنين من عباده. وهو معنى قوله: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} أي يقولون متوسلين إليه بصفاته {رَبَّنَا وَسِعْتَ (4) كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} أي يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك سائر المخلوقات فاعفر للذين تابوا أي إليك فتركوا الشرك واتبعوا سبيلك الذي هو الإسلام فانقادوا لأمرك ونهيك، وقهم عذاب الجحيم أي احفظهم يا ربنا من عذاب النار وأدخلهم جنات عدن أي إقامة من دخلها لا يخرج منها ولا يبغى عنها حولا لكمال نعيمها ووفرة السعادة فيها. ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم أي وأدخل كذلك من صلح بالإيمان والتوحيد من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فألحقهم بدرجاتهم ليكونوا معهم وإن قصرت بهم أعمالهم. وقولهم إنك أنت العزيز الحكيم توسل أيضاً إليه تعالى بصفتي العزة والغلبة والقهر لكل المخلوقات والحكمة المتجلية في سائر الكائنات. وقولهم: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ (5)} أي واحفظهم من جزاء سيئاتهم بأن تغفرها لهم وتسترها عليهم حتى يتأهلوا للحاق بأبنائهم الذين نسألك أن تلحقهم بهم، {وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ} أي يوم القيامة {فَقَدْ رَحِمْتَهُ (6)}، {وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم لقوله تعالى {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}. ومعنى ومن تق السيئات أي تقيه عذابها وذلك بأن يغفرها لهم ويعفو عنهم

1- حملة العرش أفضل الملائكة وهم أربعة ويوم القيامة يضاف إليهم أربعة فيصبحون ثمانية لقول تعالى من سورة الحاقة "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية".

2- قال مجاهد بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة.

3- قبل هذا معطوف على محذوف تقديره وينزهونه عما يقول الكافرون ويستغفرون الخ.

4- رحمة منصوب على التمييز وعلماً معطوف عليه، والتمييز محول عن فاعل إذ التقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شيء.

5- قد لا يحتاج الأمر إلى تقدير محذوف فيقال وقهم جزاء السيئات إذ السيئات جمع سيئة "فبيلة" من السوء وهو ما يضر ولا يسر فالسيئة كل ما يسوء من عذاب وخوف، وهلع فدعاء الملائكة دعاء بالنجاة مما يسوء المؤمنين يوم القيامة ولذا قالوا ومن تق السيئات أي ما يسوءه من العذاب فقد رحمته بدخول الجنة وما في التفسير هو رأي الجمهور من المفسرين.

6- قال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أعش عباد الله لعباد الله الشياطين وتلا هذه الآية الذين يحملون العرش إلى قوله فقد رحمته.

(4/517)

فلا يؤاخذهم بها، فينجوا من النار ويدخلوا الجنة وذلك أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان عظم الرب تعالى.

2- بيان فضل الإيمان وأهله (1).

3- فضل التسبيح بقول: سبحان الله وبحمده فقد صح أن من قالها مائة مرة (2) حين يصبح أو حين يمسي غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر أي في الكثرة.

4- بشرى المؤمنين بأن الله تعالى يجمعهم بأبائهم وأزواجهم وذرياتهم في الجنة، وقد استجاب الله للملائكة وقد أخبر تعالى عن ذلك بقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13)

1- في الصحيحين.

2- يكفي كرامة للمؤمن أنه نائم على فراشه والملائكة تستغفر الله له، وتدعو له بالنجاة من النار وبدخول الجنة كما في قوله {الذين يحملون العرش} الآية.

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

شرح الكلمات:

ينادون لمقت الله : أي يناديهم الملائكة لتقول لهم لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنتم لأنفسكم، والمقت أشد البغض.

إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون: أي مقت الله تعالى لكم عندما كنتم في الدنيا تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم لما رأيتم العذاب.

أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين : أي أمتنا مرتين الأولى عندما كنا عدماً فخلقنا، والثانية عندما أمتنا في الدنيا بقبض أرواحنا، وأحييتنا مرتين الأولى لما أخرجتنا من بطون أمهاتنا أحياء فهذه مرة والثانية بعد أن بعثنا من قبورنا أحياء.

فاعترفنا بذنوبنا : أي بذنوبنا التي هي التكذيب بآياتك ولقائك والشرك بك.

فهل إلى خروج من سبيل: أي فهل من طريق إلى العودة إلى الحياة الدنيا مرة ثانية لنؤمن بك ونوحدك ونطيعك ولا نعصيك.

ذلكم : أي العذاب الذي أنتم فيه.

بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم: أي بسبب أنه إذا دعي الله وحده كفرتم بالتوحيد.

يريكم آياته : أي دلائل توحيده وقدرته على بعثكم ومجازاتكم.

وما يتذكر إلا من ينيب: أي إلا من يتعظ إلا من ينيب إلى الله ويرجع إليه بتوحيده.

يلقي الروح من أمره : أي يلقي بالوحي من أمره على من يشاء من عباده.

لينذر يوم التلاق: أي لينذر من يوحي إليه من البشر وهو الرسول يوم تلاقي أهل السماء وأهل الأرض وذلك يوم القيامة.

يوم هم بارزون : أي لا يسترهم شيء لا جبل ولا شجر ولا حجر .

لمن الملك اليوم : أي لمن السلطان اليوم.

معنى الآيات:

بعد أن بين تعالى حال المؤمنين وأنهم هم وأزواجهم في دار النعيم يبين في هذه الآيات الثلاث حال الكافرين في النار جرياً على أسلوب القرآن في الترغيب والترهيب فقال تعالى مخبراً عن أهل النار: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي بربهم ولقائه وتوحيده ينادون أي تناديه الملائكة فتقول لهم - بعد أن يأخذوا في مقت أنفسهم ولعن بعضهم بعضاً- {لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ (1) مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} وذلك لأنكم كنتم تدعون إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته فتكفرون وتجدون متكبرين.

وهنا في الآية الثانية (10) يقولون وهم في جهنم {رَبَّنَا} أي يا ربنا {أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} يعنون بالموتتين الأولى وهم نطف (2) ميتة والثانية بقبض أرواحهم عند نهاية آجالهم، ويعنون بالحياتين الأولى التي كانت لهم في الدنيا قبل موتهم والثانية التي بعد البعث، وقولهم: {فَاعْتَرَفْنَا (3) بِذُنُوبِنَا} أي التي قارفناها في الحياة الدنيا وهي الكفر والشرك والمعاصي. وقولهم بعد هذا الاعتذار {فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} أي فهل من طريق إلى الخروج من النار والعودة إلى الحياة الدنيا لنصلح ما أفسدنا، ونطيع من عصينا؟ والجواب قطعاً لا سبيل إلى ذلك أبداً، ويقاؤكم وفي العذاب ليس ظلماً لكم وإنما هو جزاء وفاق لكم ثم ذكر تعالى علة عذابهم بقوله {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} بالله وتوحيد {وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} أي وإن يشرك بالله تؤمنوا كقولهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملك وما ملك وقوله فالحكم

- 1- اللام في جواب قسم أي والله لمقت الله الخ والخاطب هم الملائكة وجائز إن لم يكن راجحاً أن يكون المعنى لمقت الله إياكم لما كنتم لما كنتم تدعون إلى الإيمان في الدنيا على أيدي رسلكم فتكفرون مقت الله ذلك أشد من مقتكم أنفسكم اليوم.
- 2- جائز أن تكون الموتة الأولى لما كانوا في الرحم قبل نفخ الروح، وجائز أن يكون العدم السابق للوجود في الرحم شاهده آية البقرة {وكنتم أمواتاً فأحياكم}.
- 3- سر اعترافهم هذا أنهم يرجون من ورائه الخروج من النار ظناً منهم أنه نافع لهم شاهده قولهم مستعطفين: {فهل إلى خروج من سبيل}

(4/520)

الله العلي الكبير، وقد حكم بعذابكم فلا سبيل إلى نجاتكم. فامقتوا أنفسكم ونوحوا على أرواحكم فما ذلکم بمجديکم ولا بمخفف العذاب عنکم. وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي (1) يُرِيكُمْ آيَاتِهِ} هذا خطاب للناس في هذه الحياة الدنيا خطاب لمشركي قريش بعد أن عرض عليهم صورة صادقة حية لحالهم في جهنم يوم القيامة عاد يخاطبهم داعياً لهم إلى الإيمان فقال هو أي المعبود بحق الله الذي يريكم آياته

أي حججه ودلائل وحدانيته وقدرته على بعثكم ومجازاتكم {وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا} من المطر وغيره. ومع ذلك البيان وهذا الإفضال، {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} أي فلا يتعظ إلا من شأنه الإنابة إلى ربه تعالى في كل شأنه.

وقوله تعالى: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} هذا خطاب للموحدين يأمرهم تعالى بالاستمرار على توحيد الله في عباداته والإخلاص لله تعالى في كل أعمالهم، ولو كره الكافرون ذلك منهم فإنه غير ضائرهم.

وقوله تعالى: {رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ (2)} أي هو الله ذو الدرجات الرفيعة والعرش العظيم {يُلْقِي الرُّوحَ (3) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي يلقي بالوحي من أمره الذي يريد إنفاذه إلى خلقه على من يشاء من عباده ممن يصطفئهم وينبئهم من أجل أن يندروا عباده يوم التلاقي وهو يوم القيامة إذ يلتقي أهل الأرض بأهل السماء والمخلوقون بخالقهم وهو قوله {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ} (4) من قبورهم لا شيء يستترهم، {لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} ، وفي هذا الموقف العظيم يقول الجبار سبحانه وتعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ؟ فلا يجيبه أحد رهبة منه وخوفاً فيجيب نفسه بنفسه قائلاً: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} من خير وشر لتمام العدالة الإلهية، ويؤكد ذلك قوله: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ويأخذ في محاسبتهم فلا ينتصف النهار إلا وأهل الجنة في الجنة قائلون في أحسن مقيل اللهم اجعلني منهم ومن قال آمين.

1- جائز أن يكون الخطاب هنا موجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكونه عاماً يشمل الموحدين والمشركين أولى أو ليزداد المؤمنون إيماناً وليتوب المشركون أما قوله تعالى فادعوا الله مخلصين له الدين فظاهر في أنه خطاب للمؤمنين.

2- رفيع الدرجات خبر والمبتدأ محذوف تقديره هو عائد على الله ورفيع الدرجات خبر وهو يحتمل أمرين كلاهما حق الأول أن الله تعالى هو ذو الشأن العظيم والصفات العلاء والأسماء الحسنى والقدر الأعلى والثاني أنه تعالى رافع درجات أوليائه في دار كرامته إذ رفيع إما أن يكون صفة مشبهة عائدة إلى الذات الإلهية العلية، أو فعيل بمعنى فاعل أي رافع درجات أوليائه.

3- فيه تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي لمن يشاء من عباده فبعد تقرير البعث والتوحيد قرر النبوة المحمدية وهذه أصول الدين التي عليها مدار الحياة الإيمانية.

4- هذا عرض أيضاً لأحوال يوم القيامة المقصود منه التذكير به والدعوة إلى تقوية الإيمان به إذ هو عامل إصلاح النفوس مع بيان عظمة الله وعدله وهي موجبات توحيده وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.
 - 2- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتتديد.
 - 3- بيان إفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.
 - 4- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك المشركون.
 - 5- تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.
- وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَآظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

شرح الكلمات:

يوم الأرفة : أي يوم القيامة.

إذ القلوب لدى الحناجر: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.

كاظمين : أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدرُوا.

ما لظالمين من حميم : أي ليس للمشركين من محب قريباً كان أو بعيداً.

يعلم خائنة الأعين: أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.

والله يقضي بالحق : أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق.

والذين يدعون من دونه: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلاً كان أو

جوراً لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.

(4/522)

معنى الآيات:

بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله {وَأَنْذِرْهُمْ} يا رسولنا أي خوف قومك {يَوْمَ الْأَرْفَةِ} (1) وهي يوم القيامة القريبة والتي قد قربت فعلاً وكل ما هو آت قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسارنا مبيناً، أنذرهم يوم الأرفة

إذ القلوب(2) من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر(3) وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.

{مَا لِلظَّالِمِينَ} وهم أهل الشرك والمعاصي {مِنْ حَمِيمٍ} قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب {وَلَا شَفِيعٍ} يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفضاعة الحال وقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (4)} يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم خائنة الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم {وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (5)} أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمه من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقاً ومن نوقش الحساب عذب. {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} أي يحكم بالعدل، {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (6)} أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان {لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ (7)} لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.

وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزى السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.

1- يقال أزف فلان يأزف أزفاً قال النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا

لما تزل برحالنا وكأن قد

2- القلوب: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائماً ما دام الجسم حياً تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.

3- الحناجر جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.

4- أي الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

5- قال ابن عباس وما تخفي الصدور أي هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا.

6- قرأ نافع تدعون بالتاء وقرأ حفص بالياء يدعون.

7- من جملتي والله يقضي بالحق وجملة والذين يدعون من دونه قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي دون الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قوله الشاعر:

تسيل على حد الطبات نفوسا

وليست على غير الطبات تسيل

2- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.

3- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

4- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.

أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)

شرح الكلمات:

أو لم يسيروا في الأرض : أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض.
فينظروا : أي بأعينهم.

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : إنها كانت دماراً وخساراً ووبالاً عليهم.
كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض : ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً.
فأخذهم الله بذنوبهم : أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم.

وما كان لهم من الله من واق : أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.
ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات : أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات.
فكفروا : أي بتلك الحجج والآيات.

فأخذهم الله : أي لما كفروا أخذهم بكفرهم.

إنه قوي شديد العقاب : هذا تعليل لأخذه إياهم

(4/524)

معنى الآيات:

تقدم في السياق تخويف الله تعالى لمشركي قريش بعذاب الآخرة، ومبالغة في نصحهم وطلب هدايتهم خوفهم بعد عذاب الآخرة بعذاب الدنيا لعلمهم يتوبون فقال: {أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي (1) الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ} أي أغفل هؤلاء المجاهدون المعاندون ولم يسيروا في البلاد شمالاً وجنوباً حيث ديار عاد في الجنوب وديار ثمود في الشمال فينظروا بأعينهم كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كعاد وثمود كان أولئك أشد من هؤلاء قوة وآثاراً في الأرض من حيث البناء والعمران والقدرة على الحرب والقتال، فأخذهم الله بذنوبهم (2) أي بذنوب الشرك والتكذيب والمعاصي، ولما أخذهم لم يوجد لهم من عقاب الله وعذابه من واق يقيهم

ما أنزل الله بهم وما أحله بساحتهم. فما لهؤلاء المشركين لا يتعظون ولا يعتبرون والعاقل من اعتبر بغيره.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ} هذا تعليل لأخذ الله لأولئك الأتوم من عاد وثمود وغيرهم إذ ما أخذهم إلا بعد أن أنذرهم وأعذر إليهم فلما أصروا على الكفر والتكذيب أخذهم بذنوبهم. وقوله {إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (3) تعليل أيضاً للأخذ الكامل الذي أخذهم به لعظم قوته وشدة عقابه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير الحكمة الفائلة: العاقل من اعتبر بغيره.
 - 2- الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله في الأرض لا تتبدل (4) ولا تتحول.
 - 3- من أراد الله عقاب لا يوجد له واق يقيه، ولا حام يحميه، ومن تاب تاب الله عليه.
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24)
فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ

- 1- الاستفهام إنكاري ينكر عليهم عدم سيرهم في ديار الهالكين ليروا بأعينهم آثار الهالكين ويفكروا في سبب هلاكهم ليحصل لهم بذلك العبرة المطلوبة لهم.
- 2- الباء في بذنوبهم سببية إذ هلاكهم متسبب عن ذنوبهم وهي الشرك والمعاصي.
- 3- الجملة تعليلية لما قبلها من أخذ الله تعالى المشركين بذنوبهم في التكذيب والشرك والمعاصي.
- 4- إلا أن يشاء الله إيقافها أو تبديلها فهو على ما يشاء قدير.

(4/525)

عِنْدَنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

شرح الكلمات:

آياتنا وسلطان مبين : أي بحججنا، وبرهان بين ظاهر.

هامان وقارون: هامان وزير فرعون، وقارون رجل الملايين.

فقالوا ساحر كذاب: أي لما رأوا آية العصا واليد البيضاء قالوا: ساحر كذاب دفعاً لقومهم حتى لا يؤمنوا به.

فلما جاءهم بالحق من عندنا: أي جاءهم موسى بالصدق فيما أخبرهم به من أنه رسول الله وطالبهم بإرسال بني إسرائيل معه.
قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه: أي اقتلوا الأولاد الذكور.
واستحيوا نساءهم: أي بناتهم بمعنى اتركوهن حيات.
وما كيد الكافرين إلا في ضلال: أي وما مكرهم إلا في خسران وضياح.
ذروني أقتل موسى وليدع ربه: أي دعوني واتركوني وليدع ربه ليمنعه مني.
إني أخاف أن يبديل دينكم: أي يغير عبادتكم لألهتكم لعبادة إلهه.
أو أن يظهر في الأرض الفساد: بالقتل والتخريب ونحوه.
إني عدت بريي وريكم: أي استجرت بخالقي وخالفكم.
من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب: أي من كل إنسان متكبر لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء على الأعمال.

(4/526)

معنى الآيات:

بعد تلك الدعوة الربانية لقريش إلى الإيمان والتوحيد والتصديق بالبعث والجزاء، وما فيها من مظاهر لقدرة الله وعلمه وحكمته وعدله، وبعد ذلك العرض لأحوال القيامة، وبيان الجزاء لكل من الكافرين والمؤمنين فيها كأنه يرى رأي العين، وبعد ذلك الترغيب والترهيب مما في الدنيا والآخرة والمشركون لا يزدادون إلا عتواً وطغياناً بعد كل ذلك قص الله تعالى على رسوله قصة موسى مع فرعون ليسأيه بها ويصبره وليعلمه أن البلاء مهما اشتد يعقبه الفرج، وأن الله ناصره على قومه كما نصر موسى على فرعون وقومه فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} أي قبلك يا رسولنا موسى بن عمران بآياتنا (1) أي بأدلتنا وحججنا على صدق دعوته وصحة رسالته، وسلطان مبين أي وبرهان ظاهر بين أرسلناه إلى فرعون وهامان وقارون (2) فهامان وزير فرعون وقارون من أرباب الملايين وهو وإن لم يكن من آل فرعون لأنه من بني إسرائيل إلا أنه مالا فرعون ووقف في صفه، فلما بلغهم موسى دعوة ربه وأراهم الحجج والبراهين قالوا ساحر (3) كذاب فرموه بقاصمتين السحر والكذب حماية لمصالحهم وخوفاً من تغيير والوضع عليهم.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا} أي فلما جاءهم موسى بالصدق من عند الله كان رد الفعل منهم أن أمروا بقتل الذكور من أولاد الذين آمنوا معه، واستحياء بناتهم للخدمة والامتهان وهو ما أخبر تعالى به في قوله: {قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ} وقوله تعالى {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} عام في كل كيد كافر يبطله الله تعالى ولا يضر به أوليائه وقوله تعالى:

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى} لا شك أن هذا القول الدال على طغيان فرعون كان بعد أن انهزم في ميادين عدة أراد أن يسترد بعض ما فقد فقال ذروني أقتل موسى أي اتركوني أقتل موسى {وَلْيَذُحْ رَبُّهُ (4)} أي ليمنعه مني، وعلل لقله هذا بقوله إنني أخاف أن يبذل دينكم، أي بعد أن يغلب عليكم فتدينون بدينه أو أن يظهر في الأرض الفساد بالقتل والفتن. ورد موسى عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه في قوله: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي

1- هي الآيات التسع.

2- خص بالذكر هامان وقارون لقوة تأثيرهما في البلاد وإدارة الدولة وعز السلطان.

3- لما بهرتهم الآيات وعجزوا عن مقاومتها رموا موسى بالسحر واتهموه بالكذب كرد فعل وهروباً من المواجهة.

4- من الجائز أن يكون قد قال له بعض رجاله أما تخاف أن يدعو عليك ربه فتهلك فأجابه قائلاً وليدع ربه.

(4/527)

وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} قال موسى هذا لما سمع مقالة فرعون التي يهدده فيها بالقتل فأعلمهم أنه قد استجار بالله وتحصن به فلا يقدر أحد على قتله، وقوله من كل متكبر (1) لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من يؤمن بيوم الحساب لا يقدم على جريمة القتل وإنما يقدم عليها من لا يؤمن بحساب ولا جزاء في الدار الآخرة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تسلية الرسول وحمله على الصبر والتحمل وهو في أشد الظروف صعوبة.

2- عدم تورع الظلمة في كل زمان عن الكذب وتلفيق التهم للأبرياء.

3- التهديد بالقتل شنشنة الجبارين والطغاة في العالم.

4- أحسن ملاذ للمؤمن من كل خوف هو الله تعالى رب المستضعفين.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

شرح الكلمات:

وقال رجل مؤمن من آل فرعون: وهو شمعان بن عم فرعون.
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟ : أي لأن يقول ربي الله؟ والرجل هو موسى عليه السلام.

1- متكبر: متعظم عن الإيمان بالله وصفته أنه لا يؤمن بيوم الحساب.

(4/528)

بالبينات من ريكم : أي بالمعجزات الظاهرات.

فعلية كذبه : أي ضرر كذبه عليه لا عليكم.

يصبكم بعض الذي يعدكم : أي بعض العذاب الذي يعدكم به في الدنيا عاجلاً غير آجل.

من هو مسرف كذاب : أي مسرف في الكفر والظلم كذاب لا يقول الصدق ولا يفوه به.

ظاهرين في الأرض : أي غالبين في بلاد مصر وأراضيها.

فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا : أي من عذاب الله إن جاءنا وقد قتلنا أولياءه.

ما أريكم إلا ما أرى: أي ما أشير به عليكم إلا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى.

وما أهديكم إلا سبيل الرشاد: أي إلا طريق الرشد والصواب.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عما دار في قصر فرعون فقد أبدى فرعون رغبته في إعدام موسى معللاً

ذلك بأمرين أن يبذل دين الدولة والشعب، والثاني أن يظهر في الشغب في البلاد والتعب للدولة

والمواطنين معاً. وها هو ذا رجل مؤمن من رجالات القصر يكتم إيمانه بموسى وبما جاء به من

التوحيد خوفاً من فرعون وملئه. ولنسمع إلى ما أخبر تعالى به عنه: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ} (1) أي

بموسى {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} إذ هو ابن عم فرعون واسمه شمعان كسلمان قال: {أَتَقْتُلُونَ} (2) ينكر

عليهم قرار القتل {رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} أي لأن قال ربي الله {وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} وهي الحجج

والبراهين كالعصا واليد {مِنْ رَبِّكُمْ} الحق الذي لا رب لكم سواه. {وَإِنْ يَكُ} (3) كاذباً أي وإن فرضنا

أنه كاذب فإن ضرر كذبه عائد عليه لا عليكم {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا} وهو صادق {يُصِيبُكُمْ بَعْضُ

الَّذِي} (4) يَعِدُكُمْ} من العذاب العاجل. إن الله تعالى لا يهدي أي لا يوفق إلى النصر والفوز في أموره

{مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ} (5) متجاوز الحد في الاعتداء والظلم {كَذَابٌ} مفتر يعيش على الكذب فلا يعرف

الصدق. وبعد أن بين لهم هذه الحقيقة العلمية

1- في نص هذا الخبر تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

2- الاستفهام للإنكار ينكر على فرعون ملئه عزمهم على قتل موسى عليه السلام.

- 3- لم يكن قوله وإن يك كاذباً شكاً في صدق موسى وإنما هو من باب التلطف والتنزل مع الخصم حتى لا يلج في الجدل والخصومة وحذفت النون من وإن يك لكثرة الاستعمال.
- 4- أي إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم، وجائز أن يطلق البعض وهو يريد الكل وهو سائغ وشائع قال الشاعر:
- وقد يدرك المتأني بعض حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل
- 5- إن كان هذا الموصوف الرجل المؤمن فهو إشارة إلى موسى وإن كان من قول الله تعالى فهو إشارة إلى فرعون.

(4/529)

الثابتة أقبل عليهم يعظهم فقال: {يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ} أي غالبين في الأرض أي أرض مصر بكامل ترابها وحدودها. لكن إن نحن أسرفنا في الظلم والافتراء فقتلنا أولياء الله فجاءنا بأس الله عقوبةً لنا فمن ينصرنا؟ إنه لا ناصر لنا أبداً من الله فتفهموا ما قلت لكم جيداً، ولا يهلك على الله إلا هالك، وهنا قام فرعون يرد على كلمة الرجل المؤمن فقال ما أخبر تعالى به عنه في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} أي ما أشير عليكم بشيء إلا وقد رأيته صائباً وسديداً، يعني قتل موسى عليه السلام، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد أي إلا إلى طريق الحق والصواب، وكذب والله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل الإيمان وفضل صاحبه فقد ورد الثناء على هذا الرجل في ثلاثة رجال هم مؤمن آل فرعون هذا، وحبیب النجار مؤمن آل ياسين وأبو بكر (1) الصديق رضي الله عنه.
 - 2- فصاحة مؤمن آل فرعون هي ثمرة إيمانه وبركته العاجلة فإن لكلماته وقع كبير في النفوس.
 - 3- التنديد بالإسراف في كل شيء والكذب والافتراء في كل شيء وعلى أي شيء.
 - 4- من عجيب أمر فرعون ادعاؤه أنه يهدي إلى الرشاد والسداد والصواب في القول والعمل، حتى ضرب به المثل فقيلاً: فرعون يهدي إلى الرشاد.
- وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ (30) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)

1- روى البخاري وغيره أن المشركين تعرضوا للرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة بسوء فجاه

أبو بكر يصرخ فيهم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. فضربوه ضرباً شديداً حتى أغمي عليه فلما أفاق قال كيف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عليّ أبو بكر أفضل من مؤمن آل فرعون لأن أبا بكر ما أخفى إيمانه بل أظهره وأوذى ومؤمن آل فرعون كتم إيمانه ولم يؤذ.

(4/530)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

شرح الكلمات:

وقال الذي آمن : أي مؤمن آل فرعون.

مثل يوم الأحزاب : أي عذاباً مثل عذاب الأحزاب وهم قوم نوح وعاد وثمود.

مثل دأب قوم نوح: أي مثل جزاء عادة من كفر قبلكم وهي استمرارهم على الكفر حتى الهلاك فهذا الذي أخافه عليكم.

يوم التتاد : أي يوم القيامة وقيل فيه يوم التتادي لكثرة النداءات فيه إذ ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.

يوم تولون مدبرين: أي هارين من النار إلى الموقف.

ولقد جاءكم يوسف من قبل : أي يوسف بن يعقوب الصديق عليهما السلام من قبل مجيء موسى إليكم اليوم.

قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا: أي قلتم هذا من دون دليل فبقيتم كافرين إلى اليوم.

كذلك يضل الله من هو مسرف : أي مثل إضلالكم هذا يضل الله من هو مسرف في الشرك والظلم.

مرتاب : أي شاك فيما قامت الحجج والبيانات على صحته.

يجادلون في آيات الله بغير سلطان: أي يخاصمون في آيات الله لإبطالها بدون سلطان أي حجة وبرهان.

كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا : أي كبر جدالهم بالباطل مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا.

(4/531)

كذلك : أي مثل إضلالهم يطبع الله أي يختم بالضلال على كل قلب متكبر.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم فيما دار من كلام في مجلس الحكومة، وها هو ذا مؤمن آل فرعون يتناول الكلمة بعد فرعون الذي أعاد تقريراً ما عزم عليه من قتل موسى عليه السلام فقال ما أخبر تعالى به عنه في قوله: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ} وهنا أعلن عن إيمانه الذي كان يكتمه يا قوم إني أخاف عليكم أي إن أنتم أصررتم على قتل موسى وقتلتموه {أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} وهو اليوم الذي أخذ الله فيه قوم نوح، وعاد وتمادى أي أخاف عليكم جزاء عادتهم وهي استمرارهم على الكفر والشك والتكذيب حتى حلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه وواصل وعظه قائلاً، {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (1) يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ} أي فارين من النار هارين إلى الموقف وهو يوم القيامة الذي تكثر فيه النداءات والصرخات { مَا لَكُمْ (2) مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} يعصمكم من العذاب وينجيكم منه. وبعد هذا الوعظ البليغ قال {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} إشارة إلى أن القوم لم يتأثروا بكلامه فقال متعزياً بعلمه بتدبير الله في خلقه فقال: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} فإن من كتب الله عليه الضلال ليصل إلى الشقاوة بكسبه فلا هادي له أبداً، إذ الله لا يهدي من يضل ثم قال لهم مواصلاً كلامه {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ (3) يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ} أي من قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بالبينات والحجج الدالة على توحيد الله ووجوب طاعته، غير أنكم مع الأسف {مَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ} فلم تؤمنوا ولم توقنوا {حَتَّى إِذَا هَلَكَ (4)} أي مات عليه السلام فرحتم بموته {قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} متخرصين متقولين على الله بدون علم فأضلكم الله بكذبكم عليه {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ (5)} في الكذب مثلكم {مُرْتَابٌ} في كل شيء لا يعرف اليقين في شيء، والعياذ بالله، ثم

- 1- قراءة العامة التناد بتخفيف الدال من النداء وهو الدعاء والطلب للحضور أو الإغاثة وقرئ التناد بتشديد الدال من نداء البعير إذا هرب إذ هم فعلاً يهربون وشاهده في الآية يوم تولون مدبرين. والجمهور على حذف الياء وقفاً ووصلاً. وبعضهم أثبتتها وصلاً ووقفاً وكلا القراءتين صحيحة.
- 2- هذه الجملة في موقع الحال والعاصم المانع والحافظ.
- 3- لما تفرس فيهم عدم نفع النصح لهم آثر عتابهم ولومهم بقوله ولقد جاءكم يوسف الخ واللام في ولقد جاءكم لام القسم لأنهم كالمنكرين فلذا أكد الخبر بالقسم.
- 4- إذا اسم للزمان الماضي مجرور بحتى قبلها وليست بظرف أي حتى زمن هلاك يوسف قلتم .. والقائل أسلافهم الغابرون يوم مات يوسف عليه السلام.
- 5- المسرف: المفرط في فعل أو قول مالا خير فيه، والمرتاب الشديد الريب أي الشك.

أعلمهم أن الذين يجادلون في آيات الله يريدون إبطال الحق وإطفاء نوره بكلامهم بغير حجة لديهم ولا برهان أتاهم جدالهم ذلك أكبر مقتاً أي أشد شيء يمقته الله ويبغضه من صاحبه، وكذلك عند الذين آمنوا. وختم كلامه بقوله {كَذَلِكَ} (1) يَطْبَعُ اللَّهُ} أي كإضلال من هو مسرف مرتاب يطبع الله {عَلَى كُلِّ قَلْبٍ} (2) مُتَكَبِّرٍ} أي قلب كل إنسان متكبر على الإيمان والطاعة متجبر متعاضم يريد إجبار الناس على مراده وما يهواه. وإلى هنا انتهى كلام الرجل المؤمن والكلمة الآن إلى فرعون الطاغية وسنقرأها في الآيات التالية بعد رؤية ما في الآيات من هداية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- قوة الإيمان تفجر قلب المؤمن بأنواع من المعرفة والحكمة في قوله إذا قال.
 - 2- التذكير بالأمم الهالكة إذ العاقل من اعتبر بغيره.
 - 3- التخويف من عذاب الآخرة وأهوال القيامة.
 - 4- التنديد بالإسراف والارتياب وعدم اليقين.
 - 5- حرمة الجدل بغير علم، وأن صاحبه عرضة لمقت المؤمنين بعد مقت الله تعالى.
 - 6- عرضة المتكبر الجبار للطبع على قلبه ويومها يحرم الهداية فلا يهدى أبداً.
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ

1- جائز أن يكون هذا من كلام مؤمن آل فرعون ختم به كلامه معهم. وجائز أن يكون من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون.

2- المتكبر هو ذو الكبر والجبار الذي يكره الناس على ما لا يحبون عمله لظلمه وعتوه وقرأ الجمهور على كل قلب متكبر بإضافة قلب إلى متكبر وقرأ بعضهم بتووين قلب بدون إضافة فيكون متكبر نعتاً لقلب.

(4/533)

دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

شرح الكلمات:

يا هامان ابن لي صرحاً: هامان وزير فرعون والصرح البناء العالي.

أسباب السموات : أي طرقها الموصلة إليها.

واني لأظنه كاذباً : أي واني لأظن موسى كاذباً في زعمه أن له إلهاً غيري.

سوء عمله : أي قبيح عمله.

وصد عن السبيل : أي عن طريق الهدى.

إلا في تباب : أي خسار وضياع بلا فائدة تذكر.

إنما هذه الحياة الدنيا متاع : أي ما هذه الدنيا إلا متاع يتمتع به وقتاً ثم يزول.

دار القرار : أي الاستقرار والبقاء الأبدي.

يرزقون فيها بغير حساب: أي رزقاً واسعاً بلا تبعة ولا تعقيب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم فيما يدور من كلام بين مؤمن آل فرعون وفرعون نفسه إذ تقدم قول المؤمن وما حواه من نصح وإرشاد وها هو ذا فرعون يرد بطريق غير مباشر على (1) ما قاله المؤمن فقال: لوزيره هامان {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا} أي بناء عالياً {لَعَلِّي أَنْبُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي (2) لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} أي في دعواه أن له إلهاً غيري وهذا من فرعون مجرد مناورة كاذبة يريد أن يموه بها على غيره إبقاء على مركزه وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ} أي ومثل هذا التزيين في قول فرعون زين له سوء عمله وهو أقبح ما يكون، {وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ} (3) أي صرف عن

1- خاف فرعون أن يؤثر كلام مؤمن آل فرعون في الذين سمعوه فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يظهر صوابه ثبتهم على دينه فقال لوزيره ابن لي صرحاً الخ.

2- أسباب السموات بدل من أسباب الأول. والأسباب جمع سبب وهو ما يوصل إلى مكان بعيد فيطلق على الحبل ويطلق على الطريق والمراد هنا طرق السموات كما في قول زهير:

أومن هاب أسباب المنايا ينلنه

وإن يرق أسباب السماء بسلم

3- قرأ نافع وصد بفتح الصاد من صد اللزيم يصدُّ أو المتعدي صد نفسه وصد غيره وقرأ حفص وصد بالبناء للمجهول أي بصد الصاد أي صده الله وصرفه عقوبة له لشدة كفره وظلمه.

طريق الحق والهدى، وقوله تعالى: {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ} أي مكره وتدبيره لقتل موسى عليه السلام وقتل أبناء المؤمنين {إِلَّا فِي تَبَابٍ} أي خسار وضياع لم يتحقق منه شيء، لأن الله تعالى ولي موسى والمؤمنين فلم يمكن فرعون منهم بحال. وبعد أن أخبر تعالى عن فرعون في محاولته الفاشلة أخبر تعالى عن الرجل المؤمن (1) وما قاله للقوم من نصح وإرشاد فقال: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} أي طريق الرشد والصواب في حياتكم لتنجوا من العذاب وتفوزوا بالنعيم المقيم في الجنة. فقال: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ} أي لا تعدو كونها متاعاً قليلاً يُتَمَتَّعُ به ثم يذهب سريعاً، {وَأَنَّ الْآخِرَةَ} أي الحياة الآخرة بعد انتهاء هذه الحياة {هِيَ دَارُ} (2) {الْقَرَارِ} أي الاستقرار والإقامة الأبدية، فاعملوا لدار البقاء وتجافوا عن دار الفناء واعلموا أن الحساب سريع وأن {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} وذل لعدالة الرب تبارك وتعالى، ومن عمل صالحاً من الأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وتعبدهم بها والحال (3) أنه مؤمن أي مصدق بالله وبوعده ووعيده يوم لقائه فأولئك أي المؤمنون العاملون للصالحات (4) من الذكور والإناث يدخلون الجنة دار السلام يرزقون فيها بغير حساب أي رزقاً واسعاً لا يلحق صاحبه تبعه ولا تعب ولا نصب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها فإن من زُينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله.
- 2- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة من الآخرة إذ الأولى زائلة والآخرة باقية واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء.
- 3- مشروعية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في دار الآخرة من سعادة وشقاء.

1- هو مؤمن آل فرعون الذي أظهر إيمانه بعد كتمانته.

2- يريد بالدار دار السلام الجنة ودار البوار النار.

3- لأن جملة قوله تعالى "وهو مؤمن" حالية وإن كانت شرطاً في صحة الأعمال الصالحة وفي قبولها ولذا لما لم يذكر الإيمان قبل العمل الصالح ذكره في الجملة الحالية ليدل على تقدمه وشرطيته.

4- قرأ الجمهور يدخلون بالبناء للفاعل وقرأ بعض يدخلون بضم الياء وفتح الخاء بالبناء للمجهول والمعنى واحد إذ من دخل دخل بإذن الله ومن أدخل أدخل بإذن الله وفضله.

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَإِنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) شرح الكلمات:

أدعوكم إلى النجاة : أي من الخسران في الدنيا والآخرة، وذلك بالإيمان والعمل الصالح.
وتدعونني إلى النار : أي إلى عذاب النار وذلك بالكفر والشرك بالله تعالى.
ما ليس لي به علم : أي لا علم لي بصحة إشراكه في عبادة الله تعالى.
وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار: أي وأنا أدعوكم إلى الإيمان وعبادة الله العزيز أي الغالب على أمره الغفار لذنوب التائبين من عباده المؤمنين به.
لا جرم أن ما تدعونني إليه: أي حقاً أن ما تدعونني إلى الإيمان به وعبادته.
ليس له دعوة في الدنيا والآخرة : أي ليس له دعوة حق إلى عبادته، ولا دعوة استجابة بأن يستجيب لمن دعاه لا في الدنيا ولا في الآخرة.
وأن المسرفين هم أصحاب النار: أي وأن المسرفين في الكفر والشرك والمعاصي هم أهل النار

الواجبة لهم.
فوقاه الله سيئات ما مكروا : أي فحفظه الله من مكروهم به ليقنطروه.
وحاق بآل فرعون سوء العذاب: أي عذاب الغرق إذ غرق فرعون وجنده أجمعون.
النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا: أي أن سوء العذاب هو النار يعرضون عليها صباحاً مساءً وذلك أن أرواحهم في أجواف طير سود تعرض على النار كل يوم مرتين.
ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر نصائح وإرشاد مؤمن آل فرعون فقد قال ما أخبر به تعالى عنه في قوله: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ} أي من النار وذلك بالإيمان والعمل الصالح مع ترك

الشرك والمعاصي {وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ} وذلك بدعوتكم لي إلى الشرك والكفر {تَدْعُونِي (2) لِأَكْفَرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} أي ما علم لي بصحة إشراكه في عبادة الله تعالى. {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ (3) الْعَفَّارِ} أي لتؤمنوا به وتعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره أدعوكم إلى العزيز أي الغالب الذي لا يُغلب الغفار لذنوب التائبين من عباده مهما كانت، وأنتم تدعونني إلى أدل شيء وأحقه لا ينفع ولا يضر لأنه لا يسمع ولا يبصر. لا جرم أي حقاً أن ما تدعونني إليه لأومن به وأعبده ليس له دعوة (4) حق يدعى بها إليه، ولا دعوة استجابة فإنه لا يستجيب لي دعاء أبداً لا في الدنيا ولا في (5) الآخرة. وشيء آخر يا قوم وهو أن مردنا إلى الله أي لا محالة نرجع إليه فالواجب أن نؤمن به ونعبده ونوحده ما دام رجوعنا إليه، وآخر وهو {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ (6) هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} المسرفين الذين أسرفوا في الكفر والشرك والمعاصي فتجاوزوا الحد في ذلك هم أصحاب النار أي أهلها الذين لا يفارقونها ولا تفارقهم.

- 1- الاستفهام هنا تعجبي باعتبار تقييده بجملة الحال وهي وتدعونني إلى النار إذ هي في موضع الحال تقدير مبتدأ أي وأنتم تدعونني إلى النار.
- 2- هذه جملة بيان لجملة وتدعونني إلى النار.
- 3- العدول عن اسم الجلالة إذ لم يقل أدعوكم إلى الله إلى الصفتين العزيز والغفار لإيضاح الاستدلال على استحقاقه الإقرار بالألوهية والعبادة.
- 4- ليس له دعوة توجب له الألوهية وليس له استجابة دعوة تنفع لا هذه ولا تلك فبأي حق إذا يدعى ويعبد؟
- 5- أي ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة.
- 6- الإسراف هنا الإفراط في الكفر والظلم بسفك دماء بني إسرائيل بذبح أبنائهم وليصرف فرعون عن عزمه عن قتل موسى عليه السلام وفي الكلام تعريض بالذين يخاطبهم إذ هم مسرفون إلى أبعد حد في الظلم والكفر.

(4/537)

وقوله: {فَسَتَذْكُرُونَ (1) مَا أَقُولُ لَكُمْ} يبدو أنه قال هذا القول لما رفضوا دعوته وهموا بقتله ويدل عليه قوله: {وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}.

قوله تعالى: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا (2)} أي حفظه الله تعالى من مكرمهم به ليقتلوه فنجاه الله تعالى إذ هرب منهم فبعث فرعون رجالاً في طلبه فلم يقدروا عليه ونجا مع موسى وبني إسرائيل وقوله {وَحَاقَ (3) بِالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} وذلك بأن أغرقهم الله في البحر أجمعين.

وقوله {النَّارُ (4) يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} إخبار بأن أرواح آل فرعون تعرض في البرزخ على النار غدواً وعشياً وذلك بأن تكون في أجواف طير سود على خلاف أرواح المؤمنين فإنها تكون في أجواف طير خضر ترعى في الجنة. إلى يوم القيامة.

ويوم تقوم الساعة يقال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو عذاب جهنم والعياذ بالله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة وبين من يدعو إلى النار، بين من يدعو إلى العزيز الغفار ليؤمن به ويُعبد وبين من يدعو إلى أوثان لا تسمع ولا تبصر وهي أحقر شيء وأذله في الحياة، وبين من يدعو من لا يستجيب له في الدنيا والآخرة وبين من يدعو من يستجيب له في الدنيا والآخرة.

2- التنديد بالإسراف وفي كل شيء.

3- نعم ما ختم به مؤمن آل فرعون وعظه ونصحه لقومه وهي فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

4- إثبات عذاب القبر ونعيمه إذ آل فرعون تعرض أرواحهم على النار صباح ومساءً.

1- هذا الكلام مشاركة لهم وإنهاء لخطابهم كأنه استشعر منهم ما جعله ينهى الكلام معهم إما لاحظ في ذلك من ملامحهم أو من كلام سمعه منهم.

2- ما مكروا: ما مصدرية أي سيئات مكروهم.

3- حاق: أحاط والعذاب الغرق.

4- في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدأة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة".

(4/538)

وَإِذْ يَتَحَاوِرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

شرح الكلمات:

وإذ يتحاجون في النار : أي وأنذرهم يوم الآخرة إذ يتحاجون في النار أي يتخاصمون.
فيقول الضعفاء : أي الأتباع الضعفاء الذين اتبعوا الأغنياء والأقوياء في الشرك.
إنا كنا لكم تبعاً : أي تابعين لكم فيما كنتم تعتقدونه وتفعلونه.
فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟ : أي فهل تدفعون عنا شيئاً من النار.
إن الله قد حكم بين العباد : فلا مراجعة أبداً فقد حكم لأهل الإيمان والتقوى بالجنة فهم في الجنة
ولأهل الشرك والمعاصي بالنار فهم في النار.
لخزنة جهنم : أي جمع خازن وهو الموكل بالنار وأهلها.

(539/4)

يخفف عنا يوماً من العذاب : أي قدر يوم من أيام الدنيا إذ الآخرة يوم واحد لا ليل له.
إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا: أي بأن نظهر دينهم، أو نهلك قومهم وننجيهم من الهلاك.
في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد : أي وننصرهم يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسول
بالبلاغ.

ولهم اللعنة ولهم سوء الدار : أي ولهم اللعنة أي البعد من الرحمة ولهم سوء الدار أي الآخرة أي
شدة عذابها.

معنى الآيات:

هذا عرض آخر للنار وما يجري فيها بعد العرض الذي كان لآل فرعون في النار يعرض على كفار
قريش ليشاهدوا مصيرهم من خلاله إذا لم يتوبوا إلى الله من الكفر والتكذيب والشرك تضمنته ست
آيات قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ (1) فِي النَّارِ} أي وأنذرهم واذكر لهم إذ يتحاجون في النار أي
يتخاصمون فيها فيقول الضعفاء الأتباع الذين كانوا يتبعون أغنياء وأقوياء البلاد طمعاً فيهم وخوفاً
منهم. قالوا للذين استكبروا بقوتهم عن الإيمان ومتابعة الرسل، إنا كنا لكم تبعاً (2) أي تابعين، فهل
أنتم (3) مغنون عنا نصيباً من النار؟ أي فهل في إمكانكم أن تخففوا عنا حظاً من عذاب النار؟
فأجابوهم قائلين بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا} أي نحن وأنتم
إن الله قد حكم بين العباد ففضى بالجنة لأهل الإيمان والتقوى، وبالنار لأهل الشرك والمعاصي هذه
كانت خصومة بين الأتباع مع المتبوعين ولم تنته إلى طائل إلا زيادة الحسرة والغم والهم. وقوله
تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي (4) النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ} وهم الملائكة المكلفون بالنار وعذابها قالوا لهم {ادْعُوا
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ} أي مقدار يوم من أيام الدنيا إذ الآخرة لا ليل فيها وإنما هي يوم
واحد. فردت عليهم الملائكة قائلة بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: {قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ} أي أتقولون ادعوا لنا ربكم ليخفف عنكم العذاب أولم تك تأتكم رسلكم بالبينات أي بالحجج
الظاهرة الدالة على وجوب الإيمان والتقوى بترك الشرك والمعاصي. قالوا بلى أي اعترفوا فقالت لهم
الملائكة إذاً

- 1- التحاج: الاحتجاج من جانبين فأكثر أي إقامة كل فريق حجته للفريق المضاد المخاصم.
- 2- تبعا: اسم لمن يتبع غيره يستوي فيه الواحد وأكثر نحو خدم وحشم.
- 3- فهل أنتم مغنون الاستفهام هنا معناه الحث على طلب خلاصهم من النار واللوم على تركهم
وعدم الاهتمام بما هم فيه من العذاب.
- 4- الذين في النار هذا شامل للضعفاء والمستكبرين والخزنة جمع خازن وهم الملائكة الموكلون
بالنار وعذاب أهلها.

(4/540)

فادعوا(1) أنتم ربكم ولكن لا يستجاب لكم إذ ما دعاء الكافرين إلا في ضلال فلا يستجاب له أبداً
وقوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ (2) رُسُلَنَا} تقرير لحقيقة عظمى، وهي أن من سنة الله في رسله أنه
ينصرهم بانتصار دينهم وما يهدون ويدعون إليه، وإن طال الزمن واشتدت الفتن والمحن، أو بإهلاك
أممهم المكذبة لهم وإنجائهم والمؤمنين معهم قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا} وقوله: {وَيَوْمَ يُقَوْمُ الْأَشْهَادُ} أي(3) وينصرهم في الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة
يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكافرين بالتكذيب.

وقوله: {وَيَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ(4)} إذا أذن لهم في الاعتذار لا تقبل معذرتهم {وَأَلَهُمُ
اللَّعْنَةُ(5)} أي البعد من الرحمة والجنة {وَأَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} الآخرة وهو أشد عذابها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان تخاصم أهل النار وهو ما يتم من خصومة بين الأتباع والمتبوعين.
- 2- التنديد بالكبر والاستكبار إذ الكبر عائق عن الطاعة والاستقامة.
- 3- عدم استجابة دعاء الكافر في الدنيا والآخرة إلا ما شاء الله.
- 4- عدم قبول المعذرة يوم القيامة.
- 5- عدم استجابة الدعاء في النار.
- 6- بيان وعد الله لرسله والمؤمنين وهو أنه ينصرهم بأحد أمرين الأول أن ينصر دينهم ويظهره
ويقرره وإن طال الزمن، والثاني أن يهلك عدوهم وينجيهم.

- 1- أي تولوا أنتم أمر أنفسكم وادعوا والأمر هنا للتسوية أي سواء دعوتكم أو تركتكم لا يستجاب لكم.
- 2- هذه الآية والتي بعدها جاءت كالنتيجة لكل ما سبق في السورة من قوله تعالى ﴿لما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ فكل ذلك لتلك المواقف والمشاهد في الدنيا والآخرة عبرتها المستخلصة منها هي هذه ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ الآية وهي تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ويشرى له ولأتباعه المؤمنين.
- 3- الأَشْهاد: الملائكة والرسل ومؤمنو هذه الأمة.
- 4- هذه الجملة بدل من جملة ويوم يقوم الأَشْهاد والظالمون هم المشركون.
- 5- تقديم الجار والمجرور "لهم" في الجملتين: لهم اللعنة ولهم سوء الدار للاهتمام بالانتقام منهم.

(4/541)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَنُكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

شرح الكلمات:

ولقد آتينا موسى الهدى : أي أعطينا موسى بني إسرائيل المعجزات والتوراة.
وأورثنا بني إسرائيل : أي أبقينا فيهم التوراة كتاب الهداية الإلهية يهتدون به في ظلمات الحياة ويذكرون به الله في تراكم النسيان.
واصبر إن وعد الله حق : أي واصبر يا محمد على ما تلاقي من قومك إن وعد الله بنصرك حق.
واستغفر لذنبك : ليقنتدى بك في ذلك ولزيادة طهارة لروحك وتزكية لنفسك.
وسبح بحمد ربك : أي نزه ربك وقدسسه بالصلاة والذكر والتسبيح فيها وخارجها.
بالعشي والإبكار : بالمساء وأول النهار أي في أوقات الصلوات الخمس كلها.
إن في صدورهم إلا كبر : أي ما في صدورهم إلا كبر حملهم على الجدل في الحق، لا أن لهم علماً يجادلون به، وإنما حبهم العلو والغلبة حملهم على ذلك.
فاستعذ بالله : أي استعذ من شرهم بالله السميع لأقوالهم العليم بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم.

(4/542)

لخلق السموات والأرض : أي لخلق السموات والأرض ابتداء ولأول مرة.
أكبر من خلق الناس : أي أعظم من خلق الناس مرة أخرى بعد الأولى.
معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى (1) الْهُدَى﴾ الآية شروع ي تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلاقي من قومه فأعلمه تعالى أنه قد سبق أن أرسل موسى وآتاه الكتاب الذي هو التوراة وأورثه في بني إسرائيل هدى أي هاديا لهم في ظلمات الحياة إلى الحق والدين الصحيح الذي هو الإسلام وذكرى لأولي الألباب أي يذكر به أولوا العقول، ولاقى موسى من قومه أشد مما لاقيت إذا فاصبر على تعانيه من قريش وأن العاقبة لك فإن وعد الله حق وقد قال إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد أي يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (2) وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ (3) وَالْأُبْحَارِ﴾ أرشده إلى مقومات الصبر والموفرات له وهي ذكر الله تعالى بالاستغفار والدعاء والصلاة والتسبيح فيها وخارجها. فأعظم عون على الصبر الصلاة فلذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة من علم إلهي أتاهم بطريق الوحي إن في صدورهم أي ما في صدورهم إلا كبر ما هم بباليغيه أي لا يصلون إليه بحال وهو الرئاسة عليك والتحكم فيك وفي أصحابك. وعليه فاستعد بالله (4) من شرهم ومن مكرهم إنه تعالى هو السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم وأعمالهم، وسوف لا يمكن لهم منك أبداً لقدرتة وعلمه وعجزهم وجهلهم.

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ (5) وَالْأَرْضِ﴾ هذا رد على منكري البعث والجزاء الآخر فلما قالوا أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون. قال تعالى: وعزتنا وجلالنا لخلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق ولا مادة قائمة موجودة أكبر من خلق الناس مرة أخرى بعد خلقهم

-
- 1- الهدى الذي أوتيته موسى هو ما أوحى إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق، وما أنزل عليه من الشريعة والكتاب الذي هو التوراة.
 - 2- ذكر القرطبي عدة أقوال للسلف في الذنب المطلوب من الرسول صلى الله عليه وسلم الاستغفار منه قيل ذنبه صلى الله عليه وسلم الذي كان قبل البعثة والعصمة، وقيل ذنب أمته، وقيل الصغائر ومخالفة الأول قيل المراد هو تعبد الله رسوله بالدعاء إذ الاستغفار دعاء بطلب المغفرة وهو وجه وأوجه منه إرشاد الآية إلى الاستغفار.
 - 3- هما صلاة الصبح وصلاة العصر ومعنى بحمد ربك أي بالشكر له والثناء عليه.
 - 4- جملة إنه هو السميع العليم تعليلية، ومفعول المستعاذ منه في قوله فاستعد بالله محذوف لغرض التعميم في كل ما يخاف منه.
 - 5- اللام في جواب قسم محذوف كما في التفسير، وخلق السموات والأرض شامل لكل ما فيهما من مخلوقات وعقيدة البعث والجزاء الآخر من جملة ما يجادل فيه الذين كفروا.

المرة الأولى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (1) هذه الحقائق العلمية لجهلهم وبعدهم عن العقلية لما عليهم من طابع البداوة وإلا فإعادة الشيء أهون من بدئه عقلاً فليس الاختراع كالإصلاح للمخترع إذا فسد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان منة الله تعالى على موسى وبنو إسرائيل تتكرر لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بإنزال الكتاب وتوريثه فيهم هدى وذكرى لأولي الألباب.
- 2- وجوب الصبر والتحمل في ذات الله، والاستعانة على ذلك بالاستغفار والذكر والصلاة.
- 3- أكثر من يجادل بالباطل ليزيل به الحق إنما يجادل من كبر يريد الوصول إليه وهو التعالى والغلبة والقهر للآخرين.
- 4- تقرير عقيدة البعث بالبرهان العقلي، وهو أن البدء أصعب من الإعادة ومن أبدأ أعاد، ولا نصب ولا تعب!!

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكَ

- 1- لا يعلمون لانشغالهم بالباطل عن الحق فتركوا التفكير والتأمل لذا هم لا يعلمون أن الذي خلق السموات والأرض قادر عقلاً على خلق الناس بعد إمامته إياهم وبعثهم أحياء كما خلقهم أول مرة.

اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

شرح الكلمات:

- وما يستوي الأعمى والبصير : لا يستويان فكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان.
والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء: لا يستويان أيضاً فكذلك لا يستوي الموقن والشاك.

قليلًا ما نتذكرون : أي ما يتذكرون إلا تذكرًا قليلاً والتذكر الاعتاض.
إن الساعة لآتية : أي إن ساعة نهاية هذه الحياة وإقبال الأخرى جائية لا شك فيها.
إن الذين يستكبرون عن عبادتي : أي عن دعائي.
سيدخلون جهنم داخرين: أي صاغرين ذليلين.
لتسكنوا فيه : أي لتتقطعوا عن الحركة فتستريحوا.
والنهار مبصرًا : أي مضيئًا لتتمكنوا فيه من الحركة والعمل.
ولكن أكثر الناس لا يشكرون: أي الله تعالى بحمده والثناء عليه وطاعته.
ذلكم الله ريكم : أي ذلكم الذي أمركم بدعائه ووعدهم بالاستجابة الذي جعل لكم الليل والنهار وأنعم
عليكم بجلال نعم الله ريكم الذي لا إله لكم غيره ولا رب لكم سواه.
فأنى تؤفكون : أي كيف تصرفون عنه وهو ريكم وإلهكم الحق إلى أوثان وأصنام لا تسمع ولا تصبر.
كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجدون: أي كما صرف أولئك عن الإيمان والتوحيد يصرف الذين
يجدون بآيات الله يصرفون عن الحق.
معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد، فقوله تعالى {وَمَا يَسْتَوِي (1)} أي في حكم

1- وما يستوي الأعمى والبصير أي الكافر والمؤمن والضال والمهتدي.

(4/545)

العقل {الأعمى} الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يبصر كل شيء يقع عليه بصره فكذلك لا
يستوي المؤمن السميع البصير، والكافر الأعمى عن الدلائل والبراهين فلا يرى منها شيئًا الأصم
الذي لا يسمع نداء الحق والخير، ولا كلمات الهدى والرشاد. كما لا يستوي في حكم العقلاء المحسن
المؤمن العامل للصالحات، والمسيء الكافر والعامل للسيئات، وإذا كان الأمر كما قررنا فلم لا يتعظ
القوم به ولا يتوبون إنهم لظلمة نفوسهم {قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (1)} أي لا يتعظون إلا نادراً.
وقوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ (2) لَأْتِيَةٌ} يخبر تعالى أن الساعة التي كذب بها المكذبون ليستمروا على
الباطل والشر فعلاً واعتقاداً لآتية حتماً، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} بها لوجود صارف قوي وهو
عدم تذكرهم، وانكبابهم على قضاء شهواتهم.
وقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي (3) أَسْتَجِبْ لَكُمْ} إنه لما قرر ربوبيته تعالى وأصبح لا محالة من
الاعتراف بها قال لهم: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} أي سلوني أعطكم وأطيعوني أثبكم فأنتم
عبادي وأنا ريكم. ثم قال لهم: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} ودعائي فلا يعبدونني ولا يدعونني

سوف أذلهم وأهينهم وأعذبهم جزاء استكبارهم وكفرهم وهو معنى قوله: {سَيَذُخُونَ لَكُمْ دَابِغًا} أو صاغرين ذليلين يعذبون بها أبدا.

وفي الآية (61) عرفهم تعالى بنفسه ليعرفوه فيؤمنوا به ويعبدوه ويوحده، ويكفروا بما سواه من مخلوقات فقال: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ (4) لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ} أي جعله مظلماً لتتقطعوا فيه عن الحركة والعمل فتستريحوا {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} أي وجعل لكم النهار مبصراً أي مضيئاً يمكنكم التحرك فيه والعمل والتصرف في قضاء حاجاتكم، وليس هذا من إفضال الله عليكم بل إفضاله وإنعامه أكثر من أن يذكر وقرر ذلك بقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} الله على إفضاله وإنعامه عليهم فلا يعترفون بإنعامه ولا يحمده

1- قرأ نافع قليلاً ما يتذكرون بالياء وقرأ حفص تتذكرون بالتاء ولكل وجه بلاغي وكأن تذكرهم قليلاً لعدم علمهم فهم كالأموات لجهلهم فهم لا يتذكرون وإن تذكروا قليلاً ينقطعون فلا يحصل المراد من التذكر.

2- المراد بالساعة ساعة البعث والقيام من القبور. إنه بعد ذكر الأدلة المقررة للبعث كان هذا إعلاناً عن تحقق مجيئها وتأكيد الخبر بين ولام الابتداء لزيادة التحقيق والمراد تحقق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

3- روى الترمذي عن النعمان بن بشير وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء هو العبادة. ثم قرأ {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله.

4- (جعل) إن كانت بمعنى خلق تعدت إلى مفعول واحد كما هي هنا وإن كانت بمعنى صير تنصب مفعولين نحو جعلت الثوب سروالاً.

(4/546)

بالسنتهم ولا يطيعونه بجوارحهم، وذلك لاستيلاء الشيطان والغفلة عليهم ثم واصل تعريف نفسه لهم ليؤمنوا به بعد معرفته ويكفروا بالآلهة العمياء الصماء التي هم عاكفون عليها صباح مساء فقال جل من قائل: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ} (1) الذي عرفكم نفسه {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} لا إله إلا هو {أَيُّ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ}. وقوله: {فَأَنَّى (2) تُؤْفَكُونَ} أي كيف تصرفون عنه وهو ربكم والمنعم عليكم، إلا أوثان وأوثان وأصنام لا تتفعم ولا تضركم. فسبحان الله كيف تؤفكون كذلك يؤفك أي كانصرفكم أنتم عن الإيمان والتوحيد مع وفرة الأدلة وقوة الحجج يصرف أيضاً الذين كانوا بآيات الله يجحدون في كل زمان

ومكان لأن الآيات الإلهية حجج وبراهين فالمكذب بها سيكذب بكل شيء حتى بنفسه والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان حقيقة هي أن الضدين لا يجتمعان فالكفر والإيمان، والإحسان والإساءة والعمى والبصر والصمم والسمع هذه كلها لا تستوي بعضها ببعض فمحاولة الجمع بينها محاولة باطلة ولا تنبغي.
- 2- قرب الساعة مع تحتم مجيئها والأدلة على ذلك العقلية والنقلية كثيرة جداً.
- 3- فضل الدعاء وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع (3) نعله. وللدعاء المستجاب شروط منها: أن يكون القلب متعلقاً بالله معرضاً عما سواه وأن لا يسأل ما فيه إثم، ولا يتعدى في الدعاء فيسأل ما لم تجر سنة الله به كأن يسأل أن يرى الجنة يقظة أو أن يعود شاباً وهو شيخ كبير أو أن يرزق الولد وهو لا يتزوج.
- 4- الدعاء (4) هو العبادة ولذا من دعا غير الله فقد أشرك بالله.
- 5- بيان إنعام الله وإفضاله والمطالبة بشكر الله تعالى بحمده والثناء عليه وبطاعته بفعل محابه وترك مكارهه.

- 1- الإشارة إلى اسم الجلالة في قوله {الله الذي جعل لكم} الخ .
- 2- أنى اسم استفهام عن الكيفية وأصله استفهام عن المكان ثم نقل إلى الحالة.
- 3- تقدم تخريجه وأنه من سنن الترمذي وأنه صحيح الإسناد وشسع النعل: زمام النعل بين الإصبع الوسطى والتي تليها يضرب به المثل في الفاقة يقال لا يملك شسع نعل.
- 4- روي بإسناد لا بأس به "من لم يسأل الله يغضب عليه ومن لم يدع الله غضب عليه" أيضاً حسنهما ابن كثير في تفسيره.

(4/547)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

شرح الكلمات:

قراراً : أي قارة بكم لا تتحرك فيفسد ما عليها من إنشاء وتعمير .
بناء : أي محكمة إحكام البناء فلا تسقط عليكم ولا يسقط منها شيء يؤذيكم .
وصوركم : أي في أرحام أمهاتكم فأحسن صوركم .
من الطيبات : أي الحلال المستنذ غير المستنذر وهي كثيرة .
فتبارك الله : أي تعظم وكثرت بركاته .
فادعوا الله مخلصين له الدين : أي اعبده وحده ولا تشركوا به شيئاً في عباداته دعاء كان أو غيره .

(4/548)

قل إن نهيت : أي نهاني ربي أن أعبد الأوثان التي تعبدون .
وأمرت أن أسلم لرب العالمين: أي وأمرني ربي أن أسلم له وجهي وأخلص له عملي .
هو الذي خلقكم من تراب : أي خلق أبانا آدم من تراب وخلقنا نحن ذريته مما ذكر من نطفة ثم علقه .
ثم لتبلغوا أشدكم : أي كمال أجسامكم وعقولكم في سن ما فوق الثلاثين .
ومنك من يتوفى من قبل : أي ومنكم من يتوفاه ربه قبل سن الشيخوخة والهرم .
ولتبلغوا أجلاً مسمى : أي فعل ذلك بكم لتعيشوا ولتبلغوا أجلاً مسمى وهو نهاية العمر المحددة لكل إنسان .
ولعلمكم تعقلون : أي طوركم هذه الأطوار من نطفة إلى علقة إلى طفل إلى شاب إلى كهل إلى شيخ رجاء أن تعقلوا دلائل قدرة الله وعلمه وحكمته فتؤمنوا به وتعبده موحدين له فتكملوا وتسعدوا .
يحيي ويميت (1) : أي يخلق الإنسان وقد كان عدماً، ويميته عند نهاية أجله .
فإذا قضى أمراً : أي حكم بوجوده .
فإنما يقول له كن فيكون : أي فهو لا يحتاج إلى وسائط وإنما هي الإرادة فقط فإذا أراد شيئاً قال له كن فهو يكون .
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تعريف العباد بربهم سبحانه وتعالى حتى يؤمنوا به ويعبده ويوحده إذ كمالهم وسعادتهم في الدارين متوقفان على ذلك قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ} أي (2) قارة في مكانها ثابتة في مركز دائرتها لا تتحرك بكم ولا تتحول عليكم فتضطرب حياتكم فتهلكوا، وجعل السماء بناء محكماً وسقفاً محفوظاً من التصدع والانفطار والسقوط كلاً وبعضاً، وصوركم في أرحام أمهاتكم فأحسن صوركم (3) ورزقكم من الطيبات التي خلقها لكم وهي كل ما لذ وطاب من حلال

- 1- في قوله يحيي ويميت المحسن البديعي المسمى بالطباق.
- 2- القرار مصدر قر إذا سكن وهو هنا من صفات الأرض خير لأنه خير عن الأرض والمعنى أنه جعلها قارة "ساكنة" غير مائدة ولا مضطربة إذ لو لم تكن قارة لكان الناس في عناء شديد من اضطرابها وتزلزلها، وقد يفضي ذلك بأكثر الناس إلى الهلاك وهذا في معنى قوله: لوجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم} ومن مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته أن تدور الأرض في فلكها دورة منتظمة بدقة فائقة فلا تخرج عن مدارها مقدار شبر بل إصبع فسكنت وقرت وهي متحركة فسبحان الله العلي العظيم.
- 3- فأحسن صوركم الفاء للعطف والتعقيب ورزقكم فهاتان نعمتان عظيمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.

(4/549)

لكل ذلك الله ربكم الذي لا رب لكم سواه ولا معبود بحق لكم غيره. فتبارك الله رب العالمين أي خالق الإنس والجن ومالكهما والمدبر لأمرهما، هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون لا إله أي لا معبود للعالمين إلا هو فادعوه مخلصين له الدين أي اعبده وحده ولا تشركوا بعبادته أحداً قائلين الحمد لله رب العالمين (1) أي حامدين له بذلك، هذا ما تضمنته الآيتان (64، 65) وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي قل يا نبينا لقومك إن نهاني ربي أن أعبد الذين تدعون من دون الله من أصنام وأوثان لا تتفع ولا تضر وذلك لما (2) جاني البيئات من ربي وهي الحجج والبراهين على بطلان عبادة غير الله ووجوب عبادته سبحانه وتعالى، وأمرت أن أسلم لرب العالمين أي وأمرني ربي أن أسلم له فأنقاد وأخضع لأمره ونهيه وأطرح بين يديه وأفوض أمري إليه وقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} نظراً إلى أصلهم وهو آدم، ثم من نطفة مني ثم من علقة دم متجمد، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً، ثم لتبلغوا أشدكم أي اكتمال أبدانكم وعقولكم بتخطيكم الثلاثين من أعماركم، ثم لتكونوا شيوخاً بتجاوزكم (3) الستين. ومنكم من يتوفى أي يتوفاه الله قبل بلوغه سن الشيخوخة والهرم وما أكثرهم، وفعل بكم ذلك لتعيشوا وتبلغوا أجلاً مسمى ولعلمكم تعقلون إذا تفكرتم في خلق الله لكم على هذه الأطوار فتعرفون أن ربكم واحد وأنه إلهكم الحق الذي لا إله لكم سواه.

وقوله هو الذي يحيي ويميت يحيي النطف الميئة فإذا هي بعد أطوارها بشراً أحياء ويميت الأحياء عند نهاية آجالهم وهو حي لا يموت والإنس والجن يموتون ومن أعظم مظاهر قدرته أنه يقول

للشيء إذا أَرَادَهُ كُنَ فِيكَوْنُ وَلَا يَتَخَلَفُ أَبَدًا هَذَا هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَجِبَتْ
مَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ وَلَزِمَتْ مَعْرِفَتُهُ إِذْ بِهَا يُحَبُّ وَيُعْبَدُ وَيَطَاعُ.

1- إنشاء التثاء على الله تعالى بعد ذكر موجبات ذلك من نعمة الإيجاد والإمداد والهداية إلى الدين
الحق بعبادة الله وحده كما هي السنة في تعقيب الحمد والتثاء على الله تعالى بعد كل نعمة ينعم بها
على عباده.

2- لما هذه يقال فيها التوقيتية أي حصل نهي عن عبادة غير ربي في الوقت الذي جاءتني البيئات
وفي الآية تعريض بالمشركين إذ لم ينتهوا عن عبادة غير الله وقد جاءتهم البيئات من ربهم.

3- سن الشيخوخة هو ما بين الخمسين إلى الثمانين.

(4/550)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والإيجاد والإرزاق والإحياء والإماتة وكلها معرفة به تعالى
موجبة له العبادة والمحبة والإنابة والرغبة والرغبة ونافية لها عما سواه من سائر خلقه.

2- تقرير التوحيد ووجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

3- بيان خلق الإنسان وأطوار حياته وهي من الآيات الكونية الموجبة للإيمان بالله وتوحيده في
عبادته إذ هو الخالق الرازق المحيي المميت لا إله غيره ولا رب سواه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ

يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا
مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

شرح الكلمات:

يجادلون في آيات الله : أي في القرآن وما حواه من حجج وبراهين دالة على الحق هادية إليه.

أنى يصرفون : أي كيف يصرفون عن الحق مع وضوح الأدلة وقوة البراهين.

الذين كذبوا بالكتاب : أي بالقرآن.

(4/551)

وبما أرسلنا به رسلاً: من وجوب الإسلام لله بعبادته وحده وطاعته في أمره ونهيه والإيمان بقلائه. فسوف يعلمون : أي عقوبة تكذيبهم.
إذ الأغلال في أعناقهم: أي وقت وجود الأغلال في أعناقهم يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.
ثم في النار يسجرون : أي يوقدون.
ثم يقال لهم أين ما كنتم : أي يسألون هذا السؤال تبيكياً لهم وخزياً.
تشركون من دون الله : أي تعبدونهم مع الله.
قالوا ضلوا عنا : أي غابوا عنا فلم نرهم.
بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً: أي أنكروا عبادة الأصنام، أو لم يعتبروا عبادتها شيئاً وهو كذلك.
كذلك يضل الله الكافرين : أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله الكافرين.
بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق: أي بالشرك والمعاصي.
وبما كنتم تفرحون : أي بالتوسع في الفرح، لأن المرح شدة الفرح.
فيئس مثنوى المتكبرين : أي دخول جهنم والخلود فيها بئس ذلك مأوى للمتكبرين.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد وإلى الإيمان بالبعث والجزاء، وتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ} أي يا محمد {إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ (1) فِي آيَاتِ اللَّهِ} القرآنية لإبطالها وصرف الناس عن قبولها أو حملهم على إنكارها وتكذيبها والتكذيب بها وهذا تعجيب من حالهم. وقوله تعالى : {أَنَّى يُصْرَفُونَ} أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته. وقوله {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ} الذي هو القرآن {وَبِمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلْنَا} من التوحيد والإيمان {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عاقبة تكذيبهم وقت ما تكون الأغلال(2) في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون أي تسحبهم الزبانية في الحميم

1- وقيل هذه الآية نزلت في القدرية نفاة القدر وقيل في المشركين والعبرة بعموم اللفظ فهي عامة في المشركين والمكذبين المجادلين في آيات الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم لصرفها عن مراد الله إحقاقاً لباطلهم وإثباتاً لمذهبهم الفاسد.

2- الأغلال جمع غل بضم الغين: حلقة من قد "جلد" أو حديد محيط بالعنق. سئل ابن عرفة هل يجوز أن يقاد اليوم الأسير والجاني بالغل في عنقه؟ قال لا يجوز وإنما يقاد الجاني من يده لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحراق بالنار وقال إنما يعذب بالنار رب النار.

هو ماء حار تنتهي في الحرارة ثم في النار يسجرون (1) أي توقد بهم النار كما توقد بالحطب، هذا عذاب جسماني ووراءه عذاب روحاني إذ تقول لهم الملائكة توبيخاً وتبكيئاً وتأنيباً وتقريعاً: {أَيُّنَ (2) مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ} أي أين أوثانكم التي كنتم تعبدونها مع الله؟ فيقولون: ضلوا عنا أي غابوا فلم نرهم، بل ما كنا ندعو من قبل شيئاً هذا إنكار منهم حملهم عليه الخوف أو هو بحسب الواقع أنهم ما كانوا يعبدون شيئاً إذ عبادة الأصنام ليست شيئاً لبطانها.

وقوله {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ} (3) فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ} أي حل بكم هذا العذاب بسبب فرحكم بالباطل من شرك وتكذيب وفسق وفجور، في الدنيا، وبسبب مرحكم أيضاً وهو أشد الفرح وأخيراً يقال لهم {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} باباً بعد باب وهي أبواب الدركات {خَالِدِينَ (4) فِيهَا} لا تموتون ولا تخرجون {فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي ساء وقبح مَثْوَاكُم في جهنم من مَثْوَى أي مأوى. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- التعجب من حال المكذبين بآيات الله المجادلين فيها كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح أدلته وقوة براهينه.
- 2- إبراز صورة واضحة للمكذبين بالآيات المجادلين لإبطال الحق وهم في جهنم يقاسون العذاب بعد أن وضعت الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون.
- 3- ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته، وذم المرح وهو أشد الفرح.
- 4- ذم التكبر وسوء عاقبة المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق ويحملهم على احتقار الناس وازدراء الضعفاء منهم.

- 1- قال مجاهد يطرحون في النار فيكونون وقوداً لها: يقال سجرت التتور أي أوقدته وسجرتة ملأته أيضاً ومنه والبحر المسجور أي المملوء. شاهد آخر قوله تعالى {وقودها الناس والحجارة}.
- 2- الاستفهام بأين يكون عن المكان وأريد به هنا التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف.
- 3- ما مصدرية في الموضعين والتقدير أي ذلكم العذاب الذي وقعتم فيه مسبب على فرحكم ومرحكم الذين كانا لكم في الدنيا إذ الأرض المراد بها الدنيا.
- 4- خالدين حال مقدره أي مقدر خلودكم فيها و {فبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} متفرع على الخلود والمخصوص بالذم محذوف تقديره جهنم.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ (77) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّي بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُتَكَبَّرُونَ (81)

شرح الكلمات:

فاصبر إن وعد الله حق : أي فاصبر يا رسولنا على دعوتهم متحملاً أذاهم فإن وعد ربك بنصرتك حق.

فإما نرينك بعض الذي نعدهم : أي من العذاب في حياتك.

منهم من قصصنا عليك : أي ذكرنا قصصهم وأخبارهم وهم خمسة وعشرون.

أن يأتي بآية إلا بإذن الله: أي لأنهم عبيد مريبون لا يفعلون إلا ما يأذن لهم به سيدهم.

وخسر هنالك المبطلون : أي هلك أهل الباطل بعذاب الله فخسروا كل شيء.

جعل لكم الأنعام : أي الإبل وإن كان لفظ الأنعام يشمل البقر والغنم أيضاً.

ولكم فيها منافع : أي من اللبن والنسل والوبر .

ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم : أي حمل الأثقال وحمل أنفسكم من بلد إلى بلد، لأنها كسفن البحر.

(4/554)

فأي آيات الله تتكبرون : أي فأي آية من تلك الآيات تتكبرون فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار.
معنى الآيات:

بعد تلك الدعوة الإلهية للمشركون إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء والتي تلون فيها الأسلوب وتنوعت فيها العبارات والمعاني، والمشركون يزدادون عتواً قال تعالى لرسوله أمراً إياه بالصبر (1) على الاستمرار على دعوته متحملاً الأذى في سبيلها {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} فيخبره بأن ما وعده ربه حق وهو نصره عليهم وإظهار دعوة الحق ولو كره المشركون. وقوله: {فَأِمَّا نُرِيَنَّكَ (2) بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي من العذاب الدنيوي {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} قبل ذلك {فَأَلَيْنَا يُرْجِعُونَ} فنعذبهم بأشد أنواع العذاب في جهنم، وننعم عليك بجوارنا في دار الإنعام والتكريم أنت والمؤمنون معك. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (77) وقوله تعالى في الآية الثانية (78) {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ} يخبر تعالى رسوله مؤكداً له الخبر مسلياً له حاملاً له على الصبر بأنه أرسل من قبله رسلاً كثيرين منهم من قص خبرهم عليه ومنهم من لم يقصص (3) وهم كثير وذلك بحسب الفائدة من القصص وعدمها

وأنه لم يكن لأحدهم أن يأتي بآية كما طالب بذلك قومه، والمراد من الآية المعجزة الخارقة للعادة، إلا بإذن الله، إذ هو الوهاب لما يشاء لمن يشاء، فإذا جاء أمر الله بإهلاك المطالبين بالآيات تحدياً وعناداً ومكابرةً قضي بالحق أي حكم الله تعالى بين الرسول وقومه المكذبين له المطالبين بالعذاب تحدياً، فنجى رسوله والمؤمنين وخسر هنالك المبطلون من أهل الشرك والتكذيب.

وقوله تعالى في الآية الثالثة (79) {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ} يعرفهم تعالى بنفسه مقرأً ربوبيته الموجبة لألوهيته فيقول الله أي المعبود بحق هو الذي جعل لكم الأنعام على وضعها الحالي الذي ترون لتركبوا منها (4) وهي الإبل، ومنها تأكلون ومن بعضها تأكلون كالبقرة والغنم ولا تركبون، ولكن فيها منافع وهي الدرّ والوبر والصوف والشعر والجلود وتبلغوا عليها حاجة في

- 1- أمره تعالى رسوله بالصبر في الآية هو تسليية له صلى الله عليه وسلم إذ أخبر أنه ينتقم له من أعدائه في حياته أو في الآخرة وهذا كان لاستنباط النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين النصر.
- 2- فإما أصلها فإن حرف شرط قرنت بما الزائدة للتأكيد ولذا ألحقت نون التوكيد بفعل الشرط عطف عليه أو نتوفاً وهو فعل شرط ثان.
- 3- قال ابن كثير وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف وهو كذلك إذ لم يذكر في القرآن إلا خمسة وعشرون نبياً ورسولاً.
- 4- اللام متعلقة بجعل لكم الأنعام ومن في الموضوعين للتبعيض أي تركبون من بعضها وتأكلون من بعضها.

(4/555)

صدوركم وهي حمل أفعالكم والوصول بها إلى أماكن بعيدة لا يتأتى لكم الوصول إليها بدون الإبل سفائن البر، وقوله وعليها أي على الإبل وعلى الفلك "السفن" تحملون أي يحملكم الله تعالى حسب تسخيرها لكم.

وأخيراً يقول تعالى بعد عرض هذه الآيات القرآنية والكونية يقول لكم {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ} في أنفسكم وفي الآفاق حولكم {فَأَيَّ آيَاتِ (1) اللَّهُ تُنْكِرُونَ} وكلها واضحة في غاية الظهور والبيان والاستفهام للإنتكار عليهم عليهم يروعون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الصبر على دعوة الحق والعمل في ذلك إلى أن يحكم الله تعالى.
- 2- الآيات لا تعطى لأحد إلا بإذن الله تعالى إذ هو المعطي لها فهي تابعة لمشيئته.

3- من الرسل من لم يقصص الله تعالى أخبارهم، ومنهم من قص وهم خمسة (2) وعشرون نبياً ورسولاً. وعدم القص لأخبارهم لا ينافي بيان عددهم إجمالاً لحديث أبي ذر في مسند أحمد أن أبا ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله كم عدّة الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشرة جما غفيراً.

4- ذكر منّة الله على الناس في جعل الأنعام صالحة للانتفاع بها أكلاً وركوباً لبعضها لعلهم يشكرون بالإيمان والطاعة والتوحيد.
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أُغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

1- اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركة في ما يضاف إليه أي وهو مستعمل هنا في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات فأفاد أن جميع الآيات صالحة للدلالة على وجود الله ووحدانيته في ألوهيته.

2- جمع بعضهم من ذكروا في القرآن من الآيات الآتية فقال:

حتم على كل ذي التكليف معرفة

بأنبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة هم

إدريس هود شعيب صالح وكذا

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

الرسول المجمع على أنهم رسل خمسة عشر وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، عيسى، يونس، محمد صلى الله عليه وسلم والمختلف في رسالتهم بعد الإجماع على نبوتهم باقي الخمسة والعشرين واختلف في نبوة لقمان وذي القرنين والخضر ومريم عليهم السلام.

(4/556)

(82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا

بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

شرح الكلمات:

أفلم يسيروا في الأرض : أي أعجزوا فلم يسيروا في الأرض شمالاً وجنوباً وغرباً.
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : أي عاقبة المكذبين من قبلهم قوم عاد وثمود وأصحاب مدين.
وآثاراً في الأرض : أي وأكثر تأثيراً في الأرض من حيث الإنشاء والتعمير.
فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون : أي لم يمنع العذاب عنهم كسبهم الطائل وقوتهم المادية
فرحوا بما عندهم من العلم : أي فرح الكافرون بما عندهم من العلم الذي هو الجهل بعينه.
فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا: أي عذابنا الشديد النازل بهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية قريش بما يذكرهم به وما يعرض عليهم من صور حية لمن كذب
ولمن آمن لعلهم يهتدون قال تعالى {أَفَلَمْ (1) يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} أي أعجزوا فلم يسيروا في الأرض
أرض الجزيرة شمالاً ليروا آثار ثمود في مدائنها وجنوباً ليروا آثار عاد، وغرباً ليروا آثار أصحاب
الأيكة قوم شعيب والمؤتفكات قرى قوم لوط: فينظروا نظر تفكر واعتبار كيف كان عاقبة الذين من
قبلهم. كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض من مصانع وقصور وحدائق وجنات فما أغنى عنهم لما
جاءهم العذاب ما كانوا يكسبونه من مال ورجال وقوة مادية.

1- الفاء للتفريع وهمزة الاستفهام داخلة على محذوف أي أعجزوا فلم يسيروا والاستفهام إنكاري ينكر
عليهم عدم النظر في آثار الهالكين ليحصلوا على العبرة المطلوبة لهم يؤمنوا ويوحّدوا فينجوا من
العذاب.

(4/557)

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (82) أما الآية الثانية (83) فهي قوله تعالى {فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ} يخبر تعالى عن المكذبين الهالكين أنهم لما جاءتهم رسلهم بالحجج والأدلة الظاهرة على
توحيد الله والبعث والجزاء وصدقهم في النبوة ولرسالة {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ (1) مِنَ الْعِلْمِ} المادي
وسخروا من العلم الروحي واستهزأوا بأهله فرحاً ومرحاً، {وَحَاقَ بِهِمْ} أي أحاط بهم العذاب الذي كان
نتيجة كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم، فلما رأوا عذاب الله الشديد وقد حاق بهم أعلنوا عن توبتهم ف {قَالُوا
أَمَّا بِاللَّهِ وَحَدِّهِ وَكَفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} أي قالوا لا إله إلا الله. قال تعالى {فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ
لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} أي شديد عذابنا {سُنَّتَ (2) اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} وأخبر تعالى أن هذه سنة من
سننه في خلقه وهي أن الإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب إذ لو كان يقبل الإيمان عند رؤية العذاب
وحلوله لما كفروا كافر ولما دخل النار أحد. وقوله {وَحَسِرَ (3) هُنَالِكَ} أي عند رؤية العذاب وحلوله
{الْكَافِرُونَ} أي المكذبون المستهزئون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية السير في البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان.
- 2- القوى المادية لا تغني عن أصحابها شيئاً إذا أرادهم الله بسوء.
- 3- بيان سنة بشرية وهي أن الماديين يغترون بمعارفهم المادية ليستغنوا بها عن العلوم الروحية في نظرهم إلا أنها لا تغني عنهم شيئاً عند حلول العذاب بهم في الدنيا وفي الآخرة.

- 1- قال القرطبي فرحوا بما عندهم من العلم في معناه ثلاثة أقوال قال مجاهد إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم ولن نعذب ولن نبعث، وقيل فرحوا بما عندهم من علم الدنيا نحو يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وقيل الذين فرحوا الرسل بما عندهم من العلم بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.
- 2- سنة مصدر سنّ يسن سناً وسنة أي سن الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب وجائر أن يكون سنة منصوب والإغراء والتحذير أي احذروا أيها المشركون سنة الله.
- 3- خسر هنالك هذه الجملة كالفعل لقلوله فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا وهنالك أسم إشارة إلى مكان استعير للإشارة إلى الزمان أي خسروا وقت رؤيتهم بأسنا.

(4/558)

سورة فصلت

...

سورة فصلت(1)

مكية

وآياتها أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم(1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ(5)

شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا حم، ويقرأ هكذا حاميم.

تنزيل من الرحمن الرحيم : أي من الله إذ هو الرحمن الرحيم.

فصلت آياته : أي بينت آياته غاية البيان بلسان عربي لقوم يعلمون إذ هم الذين ينتفعون.
بشيراً ونذيراً : أي مبشراً أهل الإيمان والعمل الصالح بالفوز , ومنذراً المكذبين الكافرين بالخسران.
فأعرض أكثرهم : أي أعرض عن سماع القرآن أكثر مشركي مكة وكفار قريش.
فهم لا يسمعون : أي سماع تعقل وتدبر لينتفعوا بما يسمعون.
في أكنة : أي أغطية جمع كنان: ما فيه يكن الشيء ويستتر.

1- وتسمى سورة حم السجدة وتسمى سورة المصابيح وسورة الأموات لذكر المصابيح والأموات
والسجدة وفصلت فيها.

(4/559)

وفي آذاننا وقر : أي ثقل فلم نطق السمع.
ومن بيننا وبينك حجاب: أي مانع وفاصل بيننا فلا نسمع ما نقول ولا نرى ما تفعل.
معنى الآيات:
قوله تعالى {حم} هذا أحد الحروف المقطعة وتفسيره أن يقال فيه وفي أمثاله من الحروف المقطعة
الله أعلم بمراده به. وقد ذكرنا ما أثرنا عن أهل العلم فائدتين هامتين لمثل هذه الحروف المقطعة في
أول سورة غافر، وفي العديد من السور المفتحة بهذه الحروف فليرجع إليها ولتعرف وتحفظ وقوله
{تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)} أي هو منزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وليس
كما يقول المبطلون. وقوله {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} أي هو كتاب فخم جليل القدر فصلت آيته أي بينت
حال كون ذلك التفصيل {قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(2)} لسان العرب ويفهمون معاني الكلام وأسراره.
قوله {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وحال كونه أيضاً بشيراً لأهل الإيمان وصالح الأعمال بالفوز بالجنة والنجاة من
النار، نذيراً للمشركين المكذبين من عذاب النار، وقوله تعالى: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ(3) فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}
يخبر تعالى أنه مع بيان الكتاب ووضوح ما جاء به ودعا إليه من التوحيد والخير أعرض أكثر كفار
قريش عنه ولم يلتفتوا إليه فهم لا يسمعون ولا يريدون سماعه بحال، وقالوا معتذرين بأقبح الأعدار:
قلوبنا في أكنة أي أغطية تسترها من أجل أن لا نفهم ما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان بالبعث
والجزاء المقتضي لمتابعتك والسير وراءك، وفي آذاننا وقر أي ثقل فلا تقوى على سماع ما نقول
ومن بيننا وبينك حجاب(4) ساتر وحائل لنا عنك فلا نسمع ما نقول ولا نرى ما تعمل فاتركنا كما
تركناك، واعمل(5) على نصرة دينك فإننا عاملون كذلك على نصرة ديننا والحفاظ على معتقداتنا
وهذه نهاية المفاصلة التي أبدتها قريش للرسول صلى الله عليه وسلم.

- 1- تنزيل مبتدأ وسوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم كأن قيل تنزيل عظيم ومن الرحمن الرحيم الخبر وكتاب بدل من تنزيل وفصلت صفة لكتاب.
- 2- في إعراب قرآناً عدة وجوه أظهرها أن النصب على الحال وجائز أن يكون على الاختصاص بالمدح.
- 3- فأعرض أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا ومن البشارة فلم يعنوا بها ومن النذارة فلم يحذروها فكانوا في أشد الحمافة إذ لم يعنوا بالخير ولم يحذروا الشر فلم يأخذوا بالحيطه لأنفسهم.
- 4- روي أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً فقال يا محمد بيننا وبينك حجاب استهزاء منه.
- 5- وقيل اعمل على هلاكنا فإننا عاملون على هلاكك وقيل غير هذا وما في التفسير أولى.

(4/560)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تعين تعلم اللغة العربية على كل مسلم يريد أن يفهم (1) كلام الله القرآن العظيم.
 - 2- اشتمال القرآن على أسلوب الترغيب والترهيب وهي البشارة والنذارة.
 - 3- بيان شدة عداوة المشركين للتوحيد والداعين إليه في كل زمان ومكان.
- قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (8)

شرح الكلمات:

قل إنما أنا بشر مثلكم: أي لست ملكاً وإنما أنا بشر مثلكم من بني آدم.
يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد: أي يوحى الله إليّ بأن إلهكم أي معبودكم أيها الناس إله واحد لا ثاني له ولا أكثر.

فاستقيموا إليه: بإخلاص العبادة له دون سواه.

واستغفروه: أي اطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم (2) التي كانت قبل الاستقامة وهي الشرك والمعاصي.
وويل للمشركين: أي عذاب شديد سيحل بهم لإغصابهم الرب بمضادته بآلهة باطلة.

- 1- شاهده قول الأصوليين ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وما دام لا يفهم الشرع إلا بلغة القرآن وجب تعلم هذه اللغة.

2- ذنوبكم التي قارفتموها من الشرك والمعاصي قبل التوبة التي هي الاستقامة على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(4/561)

لا يؤتون الزكاة : أي زكاة أنفسهم بما يطهرها من أضرار الشرك والمعاصي.
لهم أجر غير ممنون : أي ثواب الآخرة وهو الجنة ونعيمها لا ينقطع بحال هو أجر غير ممنون.
معنى الآيات:

إنه بعد تلك المفاصلة التي قام بها المشركون حفاظاً على الوثنية وجهل الجاهلية أمر تعالى رسوله أن يقول لهم إنما أنا بشر مثلكم في آدميتي لم أدع يوماً غيرها فلم أقل إني ملك، إلا أني أفضلكم بشيء وهو أنه يوحى إليّ من قبل ربي، والموحى به إليّ هو أنما إلهكم الحق إله واحد لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته، وعليه فاخلعوا تلك الأوثان واستقيموا(1) إليه تعالى بإخلاص العبادة والوجه إليه، واستغفروه من آثار الذنوب السابق قبل الاستقامة على الإيمان والتوحيد وقوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} يخبر تعالى أن الويل وهو مُرُّ العذاب إذ من معاني الويل أنه صديد وقیح أهل النار وما يسيل من أبدانهم وفروجهم للمشركين بربهم الذين لا يؤتون(2) زكاة أموالهم، وهم بالآخرة هم كافرون أي لا يؤمنون بالبعث والجزاء فلذا هم لا يتركون شراً ولا يفعلون خيراً إلا ما قل وندر والنادر لا حكم له.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ (3) آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي آمنوا بالله وعده ووعيده وشرعه وعملوا الصالحات بأداء الفرائض والكثير من النوافل بعد تجنبهم الشرك والكبائر من الذنوب والمعاصي هؤلاء لهم أجر غير ممنون(4) مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم، والأجر هو الثواب والمراد به الجنة إذ نعيمها لا ينقطع على من ناله وفاز به بحال من الأحوال.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير النبوة والتوحيد.

2- وجوب الاستقامة على شرع الله.

3- وجوب الاستغفار من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً.

4- وجوب الزكاة في الأموال، ووجوب تزكية النفوس بالإيمان وصالح الأعمال.

1- استقيموا إليه أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه كما يقال للرجل استقم إلى منزلك أي لا تعرج إلى شيء غير القصد إليه.

- 2- قال ابن عباس لا يؤتون الزكاة أي لا يشهدون أن لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس لأن السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة وقال بعضهم إن قريشاً كانوا ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرموا ذلك من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية.
- 3- الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأ عن الوعيد المتقدم فكأن سائلاً يقول فإن اتعظ هؤلاء المشركون وتابوا من الشرك وترك المعاصي فما جزاؤهم؟ فالجواب أن الذين آمنوا عملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون.
- 4- المن القطع ومن من صدقته فقد قطعها قال الشاعر:
- لعمرك ما بأبي بذى غلق
على الصديق ولا خيري بممنون

(4/562)

قُلْ أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً لِلْسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

شرح الكلمات:

- بالذي خلق الأرض في يومين : أي الأحد والاثنين.
- وتجعلوا له أندادا: أي شركاء وهذا داخل في حيز الإنكار الشديد عليهم.
- ذلك رب العالمين : أي الله مالك العالمين وهم كل ما سواه عز وجل من سائر الخلائق.
- وجعل فيها رواسي : أي جبلاً ثوابت.
- وبارك فيها : أي في الأرض بكثرة المياه والزرور والضرور.
- وقدر فيها أقواتها : أي أقوات الناس والبهائم.
- في أربعة أيام : أي في تمام أربعة أيام وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء.
- سواء للسائلين : أي في أربعة أيام هي سواء لمن يسأل فإنها لا زيادة فيها ولا نقصان.
- ثم استوى إلى السماء: أي قصد بإرادته الريانية إلى السماء وهي دخان قبل أن تكون سماء.

(4/563)

فضاهن سبع سماوات في يومين : أي الخميس والجمعة ولذا سميت الجمعة جمعة لاجتماع الخلق فيها.

وأوحى في كل سماء أمرها (1) : أي ما أراد أن يكون فيها من الخلق والأعمال.

وزينا السماء الدنيا بمصابيح : أي بنجوم.

وحفظاً : أي وحفظناها من استراق الشياطين السمع بالشهب الموجودة فيها.

ذلك تقدير العزيز العليم : أي خلق العزيز في ملكه العليم بخلقه.

معنى الآيات:

إنه بعد الإصرار على التكذيب والإنكار من المشركين أمر تعالى رسوله أن يقول لهم(2) {قُلْ أَتَّكُمُ

لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} إن كفرهم عجب منكم هل تعلمون بمن تكفرون إنكم

لتكفرون بالذي خلق الأكوان كلها علويها وسفليها في ستة أيام، أين يذهب بعقولكم يا قوم أتستطيعون

جود الله تعالى وجحود آياته وهذه الأكوان كلها آيات شاهدات على وجوده وقدرته وعلمه حكمته

وموجبة له الربوبية عليها والألوهية له فيها دون غيره من سائر خلقه وأعجب من ذلك أنكم تجعلون

له أنداداً أي شركاء تسوونهم به وهم أصنام لا تسمع ولا تبصر فكيف تُسَوِّى بالذي خلق الأرض في

يومين أي الأحد والاثنين، وهو رب العالمين أجمعين أي رب كل شيء ومليكه ومالكة.

وقوله تعالى في الآية الثانية (9) {وَجَعَلَ فِيهَا} أي في الأرض رواسي أي جبلاً ثوابت ترسو في

الأرض حتى لا تميد بأهلها ولا تميل فيخرب كل شيء عليها، {وَبَارَكَ فِيهَا} بكثرة المياه والرزق

والضروع والخيرات {وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} (3) تقديراً يعجز البيان عن وصفه، والقلم عن رقمه والآلات

الحاسبة عن عدّه. وذلك كله من الخلق والتقدير {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً} (4) لمن يسأل عنها إنها الأحد

والاثنين والثلاثاء والأربعاء أي مقدره بأيامنا هذه التي تكونت نتيجة الشمس والقمر والليل والنهار فلا

تزيد يوماً ولا تنقص آخر.

1- الوحي: الكلام الخفي، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون

قول، ومنه فأوحى إليهم أي أوما إليهم بما يدل على معنى سبحوا بكرة وعشياً قال الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال وتارة

وحي الملاحظ خفية الرقباء

2- الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم أي لم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له

أنداداً؟ ومعنى الكفر به تعالى بانفراده بالألوهية. فلما أنكروا ألوهيته كان كإنكارهم صفات ذاته فصح

أنهم كفروا به.

3- قال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يومي الثلاثاء والأربعاء.

4- أي تنمة أربعة أيام.

وقوله {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ} في الآية الثالثة (10) يخبر تعالى أنه بعد خلق الأرض استوى إلى السماء أي قصد بإرادته التي تلو فوق كل إرادة {إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} أي بخار وسديم ارتفع من الماء الذي كان عرشه تعالى عليه فقال لها كما قال {وَلِلْأَرْضِ (1) اثْنَيْنِ طَوَّعاً أَوْ كَرْهًا} أي طائعتين أو مكرهتين لا بد من مجيئكما حسب ما أردت وقصدت فأجابتا بما أخبر تعالى عنهما في قوله: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} أي لم يكن لنا أن نخالف أمر ربنا، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} وهما الخميس والجمعة، {وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} أي ما أراد أن يخلقه فيها ويعمرها به من المخلوقات والطاعات. وقوله: {وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ} وهي النجوم وحفظاً أي وجعلناها أي النجوم حفظاً من الشياطين أن تسترق السمع فإن الملائكة يرجمونهم بالشهب من النجوم فيحترقون أو يخبلون. وقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ (2) الْعَلِيمِ} أي ذلك المذكور من الخلق والتقدير تقدير العزيز في ملكه أي الغالب على أمره العليم بتدبير ملكه وأعمال وأحوال خلقه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- الكفر بالله لا ذنب فوقه فما بعد الكفر ذنب، وهو عجيب وأعجب منه اتخاذ أصنام وأحجار وأوثاناً تعبد مع الله الحي القيوم مالك الملك ذي الجلال والإكرام.
- 2- بيان الأيام التي خلق الله فيها العوالم العلوية والسفلية وهي ستة أيام أي على قدر ستة أيام من أيام الدنيا هذه مبدوءة بالأحد منتهية بالجمعة، وقدرة الله صالحة لخلق السموات والأرض ويكل ما فيهما بكلمة التكوين "كن" ولكن لحكم عالية أرادها الله تعالى منها تعليم عباده الأناة والتدرج في إيجاد الأشياء شيئاً فشيئاً.
- 3- لا تعارض بين قوله تعالى في هذه الآية {ثم استوى إلى السماء} المشعر بأن خلق السموات كان بعد خلق الأرض، وبين قوله: {والأرض بعد ذلك دحاها} من سورة النازعات المفهم أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، إذ فسر تعالى دحو الأرض بإخراج مائها ومرعاها وهو ما ترعاه الحيوانات التي سيخلقها عليها، ثم قوله {خلق الأرض في يومين} على صورة يعلمها هو ولا نعلمها نحن،

1- قال ابن عباس قال الله تعالى للسماء أطلعي شمسيك وقمرتك وكواكبك وأجري سحابك ورياحك وقال للأرض شقي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

2- في الأحاديث الصحيحة أن الله خلق آدم يوم الجمعة وأنه آخر أيام الأسبوع وأنه خيرها وأفضلها وأن اليهود والنصارى قد اختلفوا فيه فهدى الله الذين آمنوا إليه.

(4/565)

وتقدير الأقوات في قوله {وقدر فيها أقواتها} لا يستلزم أن يكون فعلاً أظهر ما قدره إلى حيز الوجود، وحينئذ لا تعارض بين ما يدل من الآيات على خلق الأرض أولاً ثم خلق السموات وهو الذي صرحت به الأحاديث إذ خلق الأرض في يومين وقدر الأقوات في يومين وبعد أن خلق السموات دحا الأرض فأخرج منها ما قدره فيها من أقوات وأرزاق الحيوانات حسب سنته في ذلك.

4- بيان فائدتين عظيمتين (1) للنجوم الأولى أنها زينة السماء بها تضاء وتشرق وتذهب الوحشة منها والثانية أن ترمى الشياطين بالشهب من النجوم ذات التاجج الناري.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ (13) إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصِراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ (18)

1- والثالثة الاهتداء بها في معرفة البلاد والقبله قال تعالى "والنجوم لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر".

(4/566)

شرح الكلمات:

فإن أعرضوا : أي كفار قريش عن الإيمان والتوحيد بعد ذلك البيان المفصل.
فقل أنذرتكم صاعقة : أي خوفتكم صاعقة تنزل بكم فتهلككم إن أصررتم على هذا الكفر.
من بين أيديهم ومن خلفهم: أي أنتهم رسلهم تعرض عليهم دعوة الحق من أمامهم ومن ورائهم.
لو شاء ربنا لأنزل ملائكة : أي بدلاً عنكم أيها الرسل من البشر.

بغير الحق : أي بغير أن يأذن الله لهم بذلك العلو والاستكبار والتجبر .
ريحاً صرصراً : أي ذات صوت يسمع له صرصرة مع البرودة الشديدة.
في أيام نحسات: أي مشئومات عليهم لم يفلحوا بعدها.
ولعذاب الآخرة أذى : أي أشد خزيا من عذاب الدنيا.
فاستحبوا العمى على الهدى: أي استحبوا الكفر على الإيمان إذ الكفر ظلام والإيمان نور .
الذين آمنوا وكانوا يتقون : أي الشرك والمعاصي .
معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية قريش فقال تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا(1)} بعد ذلك البيان الذي تقدم لهم في الآيات السابقة المبين لقدرة الله وعمله وحكمته والموجب للإيمان بالله ولفائه وتوحيده فقل لهم أنذرتكم أي خوفتكم صاعقة(2) تنزل بكم إن أصررتم على إعراضكم مثل صاعقة عادٍ وثمود أي عذابا مهلكاً كالذي أهلك الله به عاداً وثمود.
وقوله: {إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ} وهم هود وصالح من بين أيديهم ومن خلفهم كناية أن الرسول بلغهم دعوة الله لهم إلى الإيمان والتوحيد بعناية فائقة فكان يأتيهم من أمامهم ومن خلفهم يدعوهم، قائلاً لهم: لا تعبدوا(3) إلا الله فإنه الإله الحق وما عداه فباطل فكان جوابهم لهم لا نؤمن لكم ولا نقبل منكم ولو شاء(4) الله ما تقولون لنا لأنزل به ملائكة يدعوننا إليه لا أن يرسل مثلكم من البشر وأخيراً قالوا لهم فإننا بما أرسلتم به كافرين فأياسوا الرسل من إجابتهم. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (12) والثانية (13) وفي الآية الثالثة (14) بين تعالى حال القوم كلاً على حدة فقال فأما عاد أي قوم(5) هود فاستكبروا في الأرض بغير الحق فحملهم الكبر الناجم عن القوة

- 1- أي استمروا على إعراضهم بعد دعوتك إياهم وإلحاحك فيها.
- 2- الصاعقة حقيقتها أنها نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتطلق على الحادثة المبيدة السريعة الإهلاك.
- 3- جملة ألا تعبدوا إلا الله تفسير لجملة وجاءتهم الرسل.
- 4- هذا قول عاد وثمود لرسولهم هود وصالح فحكى بهذا اللفظ.
- 5- لما حكى الله تعالى قولتي عاد وثمود لرسولهم وهو قولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة فصل في هذه الآيات حال كل من القبيلتين إتماماً للتذكير بحالهما والموعظة بالعذاب الذي أصابهما فقال فأما عاد .. الخ.

المادية على رفض دعوة هود عليه السلام وقالوا فيه وفي دعوته الكثير وقد مر في سورة هود ويأتي في سورة الأحقاف مفصلاً ما أجمل هنا، وقوله بغير الحق أي أن استكبارهم لا حق لهم فيه أولاً لضعفهم أمام قوة الله عز وجل، وثانياً لم يأذن الله تعالى لهم بالاستكبار فهو بغير حق إذاً. وقوله: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً﴾ وهذا منهم تحد صريح وعلو وعتو واضحان، ولذا تحداهم الله تعالى بالقوة فقال عز وجل أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة أي أعموا ولم يروا أن الله الذي خلقهم قطعاً هو أشد منهم قوة. إذ كل قوة لهم مصدرها الله هو خالقهم وواهب القوة لهم، فقوتهم ليست ذاتية ولكنها موهوبة إذ يُخلق أحدهم وهو لا يقدر على دفع أدنى شيء عن نفسه وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ هذا تسجيل عليهم أكبر ذنب وهو جحودهم بآيات الله التي جاء بها رسول الله هود عليه السلام كما جحدت قريش آيات الله، وقوله تعالى فأرسلنا عليهم أي بمجرد أن تأكد كفرهم بجحودهم بآيات الله أرسل الله تعالى عليهم ريحاً صرصراً (2) أي باردة ذات صوت مزعج دامت سبع ليال وثمانية أيام فل تبق منهم أحداً وهي أيام نحسات (3) عليهم مشئومات قال تعالى لنذيقهم أي أرسلناهم عليهم لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا. ولعذاب الآخرة أخزى أي أشد خزياً وإهانة لهم وذلة، وهم لا ينصرون أي لا ناصر لهم من الله عز وجل. هذا بيان حال عاد. وأما ثمود (4) فقد قال تعالى وأما ثمود قوم صالح فاستحبوا الضلال على الهدى والكفر على الإيمان وقتلوا الناقة وهموا بقتل صالح فأخذتهم صاعقة العذاب الهون وذلك صباح السبت فأخذتهم صيحة انخلعت لها قلوبهم فرجفت الأرض من تحتهم فهلكوا عن آخريهم، وذلك بما كانوا يكسبون من الشرك والظلم والكفر والعناد. ونجى الله تعالى صالحاً ومن معه من المؤمنين الذين آمنوا وكانوا يتقون الشرك والمعاصي وكانوا أربعة آلاف مؤمن ومؤمنة وهو معنى قوله تعالى في ختام الحديث: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

1- وهذا اغترار بقوة أجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب.

2- أصلها من صرر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الرء الوسطى فاء الفعل نحو ككبوا أصلها كببوا وتجفف الثوب أصلها تجفف والصرصر هي الشديدة البرودة قال الحطيئة:

المطعمون إذا هبت بصرصرة

الحاملون إذا استودوا على الناس

ومعنى استودوا إذا سئلوا الدية.

3- قرأ نافع بسكون الحاء ويجوز كسرهما وبه قرأ حفص على أنه صفة مشبهة من نحس إذا أصابه النحس إصابة سوء أو ضر والنحسات بسكون الحاء جمع نحس.

4- شروع في تفصيل حال ثمود بعد عاد والهداية التي كانت لهم هداية إرشاد وتكليف بواسطة

رسولهم صالح وما آتاهم الله من معجزة الناقة العظيمة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التحذير من الإعراض عن إجابة دعوة الحق، والاستمرار في التمرد والعصيان.
- 2- تقرير التوحيد وهو أن لا إله إلا الله.
- 3- دعوة الرسل واحدة وهي الأمر بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وعبادته وحده بما شرع للناس من عبادات.
- 4- التنديد بالاستكبار وأنه سبب الكفر والعصيان.
- 5- لا مصيبة إلا بذنب "بما كانوا يكسبون(1)" أي من الذنوب.
- 6- الإيمان والتقوى هما سبيل النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة وهما ركنا ولاية الله تعالى لقوله
ألا إن أولياء(2) الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون.
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(19) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(20) وَقَالُوا لِمَ لَجُّوْا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ(22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ(24)

- 1- أي لقوله تعالى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون أي بسبب كسبهم السيئات.
- 2- الآية من سورة يونس عليه السلام.

شرح الكلمات:

- فهم يوزعون : أي يحبس أولهم ليلحق آخرهم ليساقوا إلى النار مجتمعين.
حتى إذا ما جاءوها : أي حتى إذا جاءوها أي النار.
بما كانوا يعملون : من الذنوب والمعاصي.
وهو خلقكم أول مرة: أي بدأ خلقكم في الدنيا فخلقكم ثم أماتكم ثم أحياكم.
وما كنتم تستترون : أي عند ارتكابكم الفواحش والذنوب أي تستخفون من أن يشهد عليكم سمعكم

وأبصاركم ففتركو الفواحش والذنوب.

ولكن ظننتم أن الله لا يعلم : أي ولكن عند ارتكابكم الفواحش ظننتم أن الله لا يعلم ذلك منكم.
أرداكم : أي أهلككم.

فإن يصبروا فالنار مثوى لهم : أي فإن صبروا على العذاب فالنار مثوى أي مأوى لهم.
وإن يستعتبوا : أي يطلبوا العتبي وهي الرضا فلا يعتبون أي لا يرضى عنهم هذه حالهم أبدا.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة قريش إلى أصول الدين التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وفي هذا السياق عرض لمشهد من مشاهد القيامة وهو مشهد حيٍّ رائع يعرض أمامهم.
إذ يقول تعالى: {وَيَوْمَ (1) يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ} أي اذكر لهم يوم يحشر أعداء الله أي الذين كفروا به فلم يؤمنوا ولم يتقوا؛ إلى النار فهم يوزعون يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيساقون مع بعضهم بعضاً. حتى (2) إذا ما جاءوها أي انتهوا إليها، وادعوا أنهم مظلومون وأخذوا يتنصّلون من ذنوبهم، وقالوا إنه لا يقبلون شاهداً من غير أنفسهم فيأمر الله تعالى أسمعهم وأبصارهم وجلودهم فتشهد عليهم بما كانوا يعملون، وهو قوله تعالى: {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وهنا رجعوا إلى جلودهم يلومون عليهم ويعتبون وهو ما أخبر تعالى به في قوله: {وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْنَا} (3) عَلَيْنَا} فأجابتهم جلودهم بما أخبر تعالى عنهم في هذا السياق {قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ

1- يحشرون إلى النار أي يجمعون ويساقون إليها.

2- حرف ابتداء في اللفظ أي أن ما بعدها جملة مستأنفة إلا أنها تفيد معنى الغاية "وما" في ما جاءوها مزيدة للتوكيد.

3- شهادة جلودهم وجوارحهم عليهم هي شهادة تكذيب وافتضاح وإلا إدانتهم متحققة بصحائف أعمالهم وإجراء ضمائر السمع والبصر والجلود بصيغة جمع العقلاء لأن التماز معهم أنزلهم منزلة العقلاء.

(4/570)

مَرَّةٍ} أي النشأة الأولى في الدنيا ثم أماتكم ثم أحياكم {وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ} وها أنتم قد رجعتم فالقادر على هذا كله قادر على أن ينطقنا وعلى كل شيء أراد إنطاقه، وقوله {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} (1) أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} أي وما كنتم تستخفون ففتركو محارم الله بل كنتم تجاهرون بذلك لعدم إيمانكم بالبعث والجزاء {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ} وهو ظن سيء {أَرَدَاكُمْ} أي

أهلكم {فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وهذا هو الخسران المبين وقوله تعالى في الآية الأخيرة من هذا السياق (23) فإن يصبروا أي أعداء الله الذين شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم فالنار ماثوى أي مأوى لهم لا يخرجون منها أبداً. وإن يستعتبوا أي يطلبوا العتبي أي الرضا فيرضى عنهم فيدخلوا الجنة {فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} أي فما هو بحاصل لهم أبداً فهم إذا بشر التقديرين والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض مفصل بحال أهل النار فيها.
- 2- التحذير من فعل الفواحش وكبائر الذنوب فإن جوارح المرء تشهد عليه.
- 3- التحذير من سوء الظن بالله تعالى ومن ذلك أن يظن المرء أن الله لا يطلع عليه. أو لا يعلم ما يرتكبه، أو أنه لا يحاسبه أو لا يجزيه.
- 4- وجوب حسن الظن بالله تعالى وهو أن يرجو أن يغفر الله له إذا تاب من زلة زلها، وأن يرجو رحمته وعفوه إذا كان في حال العجز عن الطاعات ولا سيما عند العجز عن العمل للمرض والضعف كالكبر ونحوه فيغلب جانب الرجاء على جانب الخوف.
وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْبَاءَ قَرَيْنًا لَّهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ

1- في الصحيحين حادثة ذكرت أنها سبب نزول هذه الآية وهي أن عبد الله بن مسعود قال كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قريشيان وآخر قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم فتكلموا بكلام لم أفهمه فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا. قال عبد الله فنكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى {وما كنتم تستترون} الخ ..

(4/571)

كَانُوا خَاسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (26) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَّهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)
شرح الكلمات:

وقيضنا لهم قرناء : أي وبعثنا لكفار مكة المعرضين قرناء من الشياطين.
 فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم: أي حسنوا لهم الكفر والشرك، وإنكار البعث والجزاء.
 وحق عليهم القول في أمم قد خلت: أي وجب لهم العذاب في أمم مضت قبلهم من الجن والإنس.
 والغوا فيه لعلكم تغلبون : أي الغطوا فيه بالباطل إذا سمعتم من يقرأه.
 ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون : أي بأقبح جزاء أعمالهم التي كانوا يعملون.
 أعداء الله: أي من كفروا به ولم يتقوه.
 أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس : أي إبليس من الجن، وقابيل بن آدم.
 نجعلهما تحت أقدامنا : أي في أسفل النار ليكونا من الأسفلين.
 معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المعرضين من كفار قريش، فقال تعالى : {وَقَيَّضْنَا (1) لَهُمْ} أي بعثنا لهم قرناء من الشياطين، وذلك بعد أن أصروا على الباطل والشر فخبثوا خبثاً سهلاً لأخبار الجن الاقتران بهم فزينا لهم الكفر والمعاصي القبيحة في الدنيا لها

1- قبيضنا: أتحنا وهيننا لهم قرناء أي شياطين يلازمونهم قد يكونون من الجن ومن الإنس إذ الشياطين من الجنسين.

(4/572)

هم منغمسون فيها، كما زينوا لهم الكفر بالبعث والجزاء وإنكار الجنة والنار حتى لا يقصروا في الشر ولا يفعلوا الخير أبداً، وهو معنى قوله تعالى: {فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}.
 قوله تعالى: {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} أي بالعذاب {في أمم (1) قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} في حكم الله وقضائه بمقتضى سنة الله في الخسران. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (25) وهي قوله تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}
 وقوله تعالى في الآية الثانية (26) {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا (2) لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ} يخبر تعالى عن أولئك المعرضين عن كفار قريش وأنهم قالوا لبعضهم بعضاً لا تسمعوا لهذا القرآن الذي يقرأه محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا تتأثروا به، والغوا فيه أي الغطوا وصيحوا بكلام لهو وصفقوا وصفروا حتى لا يتأثر به من يسمعه من الناس لعلكم تغلبون رجاء أن تغلبوا محمداً على دينه فتبطلوه ويبقى دينكم. وهذا منتهى الكيد والمكر من أولئك المعرضين عن دعوة الإسلام.
 وكان رد الله تعالى على هذا المكر في الآية التالية (27) {فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً} يخبر

تعالى مؤكداً الخبر بأنه سيذيق الذين كفروا عذاباً شديداً وذلك يوم القيامة وليجزينهم أسوأ أي أقبح الذي كانوا يعملون أي يجزيهم بحسب أقبح سيئاتهم التي كانوا يعملون. ثم قال تعالى: ذلك الجزاء المتوقع به الذين كفروا هو جزاء أعداء الله الذين حاربوا رسوله ودعوته وحتى كتابه أيضاً. وذلك الجزاء هو النار لهم (3) فيها دار الخلد أي الإقامة الدائمة فيها جزاء بما كانوا بأيأتنا يجحدون فلم يؤمنوا بها ولم يعملوا بما فيها وقوله تعالى في الآية (29) {وقال الذين كفروا} الآية

1- في أمم حال من الضمير في عليهم أي حق عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم والظرفية هنا مجازية بمعنى التبويض أي هم من جملة أمم قد خلت من قبلهم قال الشاعر:
إن تك عن أحسن الصنعة مأفو

كا ففي آخرين قد أفكوا

2- قال ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لا تسمعوا له والغوا فيه فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وفي الصحيح أنهم أخرجوا أبا بكر من مكة خوفاً أن يفتن أبناءهم ونساءهم بقراءته القرآن لرقعة صوته وبكائه.

3- دار الخلد هي النار نزلت النار منزل الظرف فكانت بذلك دار الخلد والخلد البقاء المؤبد في عالم الشقاء.

(4/573)

يخبر تعالى عن الكافرين وهم في النار إذ يقولون ربنا أي يا ربنا أرنا للذين (1) أضلانا من الجن والإنس أي اللذين كانا سببا في إضلالنا بتزيينهم لنا الباطل وتقبيحهم لنا الحق أرناهم نجعلهما تحت أقدامنا في النار ليكونا من الأسفلين (2) أي في الدرك الأسفل من النار إذ النار دركات واحدة تحت الأخرى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

1- بيان سنة الله تعالى في العبد إذا عرض عن الحق الذي هو الإسلام فخبث من جراء كسبه الشر والباطل وتوغله في الظلم والفساد يبعث الله تعالى عليه شيطاناً يكون قرينا له فيزين له كل قبيح، ويقبح له كل حسن.

2- بيان ما كان المشركون يكيّدون به الإسلام ويحاربونه به حتى باللغو عند قراءة القرآن حتى لا يسمع ولا يهتدى به.

3- تقرير البعث والجزاء.

4- بيان نعمة أهل النار على من كان سبباً في إضلالهم وإغوائهم، ومن سن لهم سنة شر يعملون بها كإبليس، وقابيل بن آدم عليه السلام إذ الأول سن كل شر والثاني سن سنة القتل ظلماً وعدواناً. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

- 1- أرنا أي عين لنا الذين أضلنا من الجن والإنس كناية عن إرادة الانتقام منهم بأن يطوهم بأقدامهم انتقاماً منهم وتعذيباً لهم لأنهم كانوا السبب في شقوتهم قرأ الجمهور أرنا بكسر الراء وقرأ غيرهم بسكون الراء أرنا كما خففوا فخذ إلى فخذ بسكون الخاء.
- 2- هذا التعليل أرادوا به التوطئة لاستجابة الله تعالى لما علموا من غضب الله تعالى فأرادوا أن يتوسلوا إليه تعالى بذلك.

(4/574)

شرح الكلمات:

قالوا ربنا الله : قالوا ذلك معلنين عن إيمانهم بأن الله هو ربهم الذي لا رب لهم غيره وألهمهم الذي لا إله لهم سواه.

ثم استقاموا : أي ثبتوا على ذلك فلم يبدلوا ولم يغيروا ولم يتركوا عبادة الله بفعل الأوامر وترك النواهي.

تتنزل عليهم الملائكة: أي عند الموت وعند الخروج من القبر بحيث تتلقاهم هناك. أن لا تخافوا ولا تحزنوا : أي بأن لا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه فإنه رضوان الله وحمته ولا تحزنوا عما خلفتم رواعكم.

نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة: أي فبحكم ولايتنا لكم في الدنيا والآخرة فلا تخافوا ولا تحزنوا.

ولكم فيها ما تدعون: أي ولكم فيها ما تطلبون من سائر المشتبهات لكم. نزلا من غفور رحيم: أي رزقاً مهياً لكم من فضل رب غفور رحيم.

معنى الآيات:

لما بين تعالى حال الكافرين في الدار الآخرة وهي أسوأ حال بين حال المؤمنين في الآخرة وهي أحسن حال وأطيب مآل فقال {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا (1) اللَّهُ} أي لا رب لنا غيره ولا إله لنا سواه، ثم

استقاموا(2) فلم يشركوا به في عبادته أحداً فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي وماتوا على ذلك هؤلاء تنتزل عليهم الملائكة أي تهبط عليهم وذلك عند الموت بأن تقول لهم لا تخافوا على ما أنتم مقدمون عليه من البرزخ والدار الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم وأبشروا(3) بالجنة دار السلام التي كنتم توعدها في الكتاب وعلى لسان الرسول. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا إذ

- 1- في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم وزاد الترمذي قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ قال فأخذ بلسان نفسه وقال هذا.
- 2- ذكر القرطبي في تفسير الاستقامة أكثر من عشرة أقوال للصحابية والسلف، ثم قال وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها "اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً وداوموا على ذلك".
- 3- قال وكيع وابن أبي زيد البشري في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث وشاهد هذا قوله صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قلنا يا رسول الله قلنا نكره الموت: قال صلى الله عليه وسلم ليس ذلك كراهة الموت ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون لقي الله تعالى فأحب لقاءه قال وإن الفاجر والكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله فكره لقاءه قال ابن كثير وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

(4/575)

كنا نسددكم ونحفظكم من الوقوع في المعاصي، وفي الآخرة نستقبلكم عند الخروج من قبوركم حتى تدخلوا جنة ربكم. ولكم فيها أي في الجنة ما تشتهي أنفسكم من الملاذ ولكم فيها ما تدعون أي تطلبون مما ترغبون فيه وتشتهون. نزل أي قرئ وضيافة من لدن ربّ غفور لكم رحيم بكم لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

- 1- فضل الإيمان والاستقامة عليه بأداء الفرائض واجتناب النواهي.
- 2- بشرى أهل الإيمان والاستقامة عند الموت بالجنة وهؤلاء هم أولياء الله المؤمنون المتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وهي هذه وفي الآخرة عند خروجهم من قبورهم.
- 3- في الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولأحدهم كل ما يطلبه ويدعيه وفوق ذلك النظر إلى

وجه الله الكريم وتلقي التحية منه والتسليم.

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا
السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ
صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (36)

شرح الكلمات:

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله : أي لا أحد أحسن قولاً منه أي ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته.
وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين: وعمل صالحاً وهي شرط أيضاً وقال إنني من المسلمين
شرط ثالث.

(4/576)

ولا تستوي الحسنة ولا السيئة : أي لا تكون الحسنة كالسيئة ولا السيئة كالحسنة.

ادفع بالتي هي أحسن : أي ادفع أيها المؤمن السيئة بالخصلة التي هي أحسن كالغضب بالرضى،
والقطيعة بالصلة.

كأنه ولي حميم : أي كأنه صديق قريب في محبته لك إذا فعلت ذلك.

وما يلقاها إلا الذين صبروا: أي وما يعطى هذه الخصلة التي هي أحسن.

إلا ذو حظ عظيم: أي ثواب عظيم وأجر جليل هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالخلق الحسن
والكمال.

وإمّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ : أي وإن يوسوس لك الشيطان بترك خير أو فعل شر .

فاستعذ بالله : أي فاستجر بالله قائلاً أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

إنه هو السميع العليم : أي هو تعالى السميع لأقوال عباده العليم بما يصيبهم وينزل بهم.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى بشرى أهل الإيمان وصالح الأعمال ذكر هنا بشرى ثانية لهم أيضاً فقال: ﴿وَمَنْ (1)
أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذه ثلاثة شروط الأول دعوته
إلى الله تعالى بأن يعبد فيطاع ولا يعص ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر والثاني وعمل صالحاً
فأدى الفرائض واجتنب المحارم، والثالث وفاخر بالإسلام معتزاً به وقال إنني من المسلمين، فلا أحد
أحسن قولاً من هذا الذي ذكرت شروط كماله، ويدخل في هذا أولاً الرسل، وثانياً العلماء، وثالثاً
المجاهدون ورابعاً المؤذنون وخامساً الدعاة الهداة المهديون هذا ما دلت عليه الآية الأولى (23).
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ هذا تقرير إلهي يجب أن يعلم وهو أن الحسنة لا

تستوي(2) مع السيئة وأن السيئة لا تستوي مع الحسنة فالإيمان لا يساوى بالكفر ، والتقوى لا يساوى بالفجور ، والعدل لا يساوى بالظلم.

كما أن جنس الحسنات لا يتساوى، وجنس السيئات لا يتساوى بل يتفاضل فصيام رمضان لا يساوى بصيام رجب أو محرم تطوعاً، وسيئة قتل المؤمن لا تستوي مع شتمه أو ضربه وقوله

1- يدخل في هذه الآية دخولاً أولياً رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هو أحق وأجدر وهي نازلة فيه رداً على الذين يلغون في القرآن عند سماعه وهي تتناول كل مؤمن متصف بهذه الصفات المعبر عنها في التفسير بالشروط.

2- لا في قوله ولا السيئة صلة زيدت للتأكيد إذ الأصل ولا تستوي الحسنة والسيئة وشاهدها قول الشاعر:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم
والطيبان أبو بكر ولا عمر

(4/577)

تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(1)} أي بعد أن عرفت يا رسولنا عدم تساوي الحسنة مع السيئة إذا فادع السيئة بالخصلة التي هي أحسن من غيرها فإذا الذي(2) بينك وبينه عداوة قد انقلب في بره بك واحترامه لك واحتفائه بك كأنه ابن عم لك يحبك ويحترمك ولما كانت هذه الخصلة وهي الدفع بالتي هي أحسن لا تتأتى إلا لذوي الأخلاق الفاضلة والنفوس الكاملة الشريفة قال تعالى: {وَمَا يُلْقَاهَا} أي وما يعطى هذه الخصلة {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} فكان الصبر خلقاً من أخلاقهم {وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونَ حَظِّ عَظِيمٍ} في الأخلاق والكمال النفسي، في الدنيا، والآخرة والأجر العظيم وهو الجنة في الآخرة.

وقوله تعالى: {وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ(3) بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} يرشد الرب تعالى عبده ورسوله وكل فرد من أفراد أمته إن نزغته من الشيطان نزغ بأن وسوس له بفعل شر أو ترك خير، أو خطر له خاطر سوء أن يفزع إلى الله تعالى يستجير به فإن الله تعالى هو السميع العليم فالاستجارة به من الشيطان تحمي العبد وتقيه من وسواس الشيطان وما يلقيه في النفس من خواطر سيئة، والله الحمد والمنة على هذا الإرشاد الرباني الذي لا يستغني عنه أحد من عباده.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف الدعاة العاملين.

- 2- فضل الإسلام والاعتزاز به والتفاخر الصادق به.
- 3- تقرير أن الحسنة لا تتساوى مع السيئة. كما أن الحسنات تتفاوت والسيئات تتفاوت.
- 4- وجوب دفع السيئة من الأخ المسلم بالحسنة من القول والفعل.
- 5- فضل العبد الذي يكمل في نفسه وخلقه فيصبح يدفع السيئة بالحسنة.

- 1- قال ابن عباس ادفع بحملك جهل من يجعل عليك. وقيل أيضا هو الرجل يسب الرجل فيقول المسبوب إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر لك وقال مجاهد أن يسلم المرء على من يعاديه إذا لقيه فهو معنى (بالتى هي أحسن).
- 2- قال ابن عباس في هذه الآية ادفع بالتى هي أحسن إلى قوله ولي حميم أمره الله تعالى بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وهو كما قال رضي الله عنه.
- 3- فائدة الاستعاذة بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تجديد داعيه العصمة المركوزة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للنعمة وصقل النفس مما يغان على القلب كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة".

(4/578)

- 1- وجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم إذا وسوس أو ألقى بخاطر سوء إذ لا يقي منه ولا يحفظ إلا الله السميع العليم.
- وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)
- شرح الكلمات:

ومن آياته : أي من جملة آياته الدالة على ألوهية الرب تعالى وحده.

الليل والنهار : أي وجود الليل والنهار والشمس والقمر.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر : أي لا تعبدوا الشمس ولا القمر فإنهما من جملة مخلوقاته الدالة عليه.

إن كنتم إياه تعبدون : أي إن كنتم حقاً تريدون عبادته فاعبدوه وحده فإن العبادة لا تصلح لغيره.

فالذين عند ربك : أي الملائكة.

وهم لا يسأمون : أي لا يملون من عبادته ولا يكلون.

ترى الأرض خاشعة : يابسة جامدة لا نبات فيها ولا حياة.
اهتزت وربت : أي تحركت، وانتفخت وظهر النبات فيها.
إن الذي أحيها لمحبي الموتى: أي إن الذي أحيأ الأرض قادر على إحياء الموتى يوم القيامة.

(4/579)

معنى الآيات:

قوله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ} أي ومن جملة آياته العديدة الدالة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته والموجبة للإيمان به وعبادته وتوحيده، الليل والنهار وتعاقبهما وانتظام ذلك بينهما فليس الليل سابق النهار، وكذا الشمس والقمر خلقهما وسيرهما في فلكيهما بانتظام ودقة فائقة وحساب دقيق وعليه فلا تسجدوا(1) للشمس ولا القمر أيها الناس فإنهما مخلوقان من جملة المخلوقات، ولكن اسجدوا لخالقهما إن كنتم إياه تعبدون(2) كما تزعمون. ثم قال تعالى لرسوله: فإن أبوا أن يستجيبوا لك ويسمعوا منك ما قلت لهم مستكبرين فاعلم أن الذين عند ربك وهم الملائكة يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون من ذلك ولا يملون.

وقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ} أي علامات قدرته على إحياء الموتى(3) للبعث والجزاء إنك أيها الإنسان ترى الأرض أيام المحل والجذب هامة جامدة لا حركة لها فإذا أنزل الله تعالى عليها ماء المطر اهتزت وربت أي تحركت تربتها وانتفخت وعلاها النبات وظهرت فيها الحياة كذلك إذا أراد الله إحياء الموتى أنزل عليهم ماء من السماء وذلك بين النفختين نفخة الفناء ونفخة البعث فينبتون كما ينبت البقل وقوله: {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمُحِبِّي الْمَوْتَى إِنَّهُ} تعالى على فعل كل شيء وأراده قدير لا يمتنع عنه ولا يعجزه، وكيف لا، وهو إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بالأدلة القطعية الموجبة لله العبادة دون غيره من خلقه.
- 2- بيان أن هناك من الناس من يعبدون الشمس ويسجدون لها من العرب والعجم وأن ذلك شرك باطل فالعبادة لا تكون للمخلوقات الخاضعة في حياتها للخالق وإنما تكون لخالقها ومسخرها لمنافع خلقه.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر دليل من أظهر الأدلة وهو موت الأرض بالجذب ثم حياتها

1- لا شك أن هناك من كان يسجد للشمس في بلاد العرب ففي اليمن كانوا يعبدون الشمس على عهد ملكة سبأ لقوله تعالى على لسان الهدهد {وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله} ووجد

في أصنام قريش صنم يقال له شمس ولذا سموا عبد شمس.

- 2- لا شك أن هنا سجدة من عزائم السجديات إلا أنهم اختلفوا في موضع السجود فمالك يرى أنه يسجد عند قوله {إن كنتم إياه تعبدون} والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم يرى السجود عند {وهم لا يسأمون} والأمر واسع ففي أي الموضعين سجد أجزأ والحمد لله.
- 3- في الآية تقرير عقيدة البعث والجزاء بعد تقرير عقيدة الألوهية وسيأتي في الآيات بعد تقرير النبوة المحمدية وهذه أعظم أركان العقيدة الإسلامية. التوحيد البعث والجزاء والنبوة وباقي أركان العقيدة تابعة لهذه الأركان العظيمة.

(4/580)

بالغيث، إذ لا فرق بين حياة النبات والأشجار في الأرض بالماء وبين حياة الإنسان بالماء كذلك في الأرض بعد تهيئة الفرصة لذلك بعد نفخة الفناء ومضي أربعين عاماً عليها ينزل من السماء ماء فيحيا الناس وينبتون من عجب الذنب كما ينبت النبات، بالبذرة الكامنة في التربة.

1- تقرير قدرة الله على كل شيء أراده، وهذه الصفة خاصة به تعالى موجبة لعبادته وطاعته. بعد الإيمان به وتأليهه.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ مِّمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)
لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

شرح الكلمات:

يلحدون في آيات الله : أي يجادلون فيها ويميلون بها فيؤولونها على غير تأويلها لإبطال حق أو إحقاق باطل.

لا يخفون علينا : أي إنهم مكشوفون أمامنا وسوف نبطش بهم جزاء إلحادهم.

أم من يأتي آمنا يوم القيامة: أي نعم الذي يأتي آمنا يوم القيامة خير ممن يلقي في النار.

اعملوا ما شئتم : هذا تهديد لهم على إلحادهم وليس إذناً لهم في العمل كما شاءوا.

إن الذين كفروا بالذکر: أي جحدوا بالقرآن أو ألدوا فيه فكفروا بذلك.

وإنه لكتاب عزيز: أي القرآن لكتاب عزيز أي منيع لا يقدر على الزيادة فيه ولا النقص منه.

لا يأتيه الباطل من بين يديه: أي لا يقدر شيطان من الجن والإنس أن يزيد فيه شيئاً وهذا معنى من بين يديه.

ولا من خلفه : أي ولا يقدر شيطان من الجن والإنس أن ينقص منه شيئاً

وهذا معنى من خلفه، كما أنه ليس قبله كتاب ينتقصه، ولا بعده كتاب ينسخه، فهو كله حق وصدق ليس فيه ما لا يطابق الواقع.

معنى الآيات:

يتوعد الجبار عز وجل الذين يلحدون في آيات كتابه بالتحريف والتبديل والتغيير بأنهم لا يخفون عليه، وأنه سينزل بهم نقمته إن لم يكفوا عن إلحادهم.

وقوله: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ مِمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} إذا كان لا يوجد عاقل يقول الذي يلقي النار خير ممن يأتي آمناً يوم القيامة فالإلقاء في النار سببه الكفر والإلحاد والباطل فليترك هذه من أراد النجاة من النار، والأمن يوم القيامة من كل خوف من النار وغيرها سببه الإيمان والتوحيد فليؤمن ويوحده الله تعالى في عبادته ولا يلحد في آياته من أراد الأمن يوم القيامة بعلمه أنه خير من الإلقاء في النار. هذا أسلوب في الدعوة عجيب انفرد به القرآن الكريم.

وقوله تعالى: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} (1) إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ (2) بَصِيرٌ} هذا الكلام يقال للمستهزئين بالأحكام الشرعية المستخفين بها فهو تهديد لهم وليس إذناً وإباحةً لهم أن يفعلوا ما شاعوا من الباطل والشرك والشر، ويدل على التهديد قوله بعد إنه بما تعملون بصير.

ومثله قوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ} أي القرآن، {وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} (4) أي منيع بعيد المنال لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه بالزيادة والنقصان أو التبديل والتغيير.

ولما كان المراد من هذا الكلام التهديد سكت عن الخبر إذ هو أظهر من أن يذكر والعبارة قد تقصر عن أدائه بالصورة الواقعة له. وقد يقدر لنفعلن بهم كذا كذا...

وقوله {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} أي القرآن المنيع كماله وشرفه ومناعته أنته أنه تنزيل من حكيم في أفعاله وسائر تصرفاته حميد بذلك وبغيره من فواضله وآلائه ونعمه.

1- الأمر هنا ليس للإباحة وإنما هو للتهديد كما في التفسير.

2- قوله {إنه بما تعملون بصير} الجملة تعليلية متضمنة الوعيد والتهديد فهي مؤكدة لما تضمنه قوله تعالى {اعملوا ما شئتم} من التهديد.

3- الخبر مقدر تقديره: هالكون أو معذبون وما ذكر في التفسير في تقدير الخبر حسن.

4- معنى عزيز ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الإلحاد في آيات الله بالميل بها عن القصد والخروج بها إلى الباطل.
- 2- التهديد الشديد لكل من يحرف آيات الله أو يؤولها على غير مراد الله منها.
- 3- تقرير مناعة القرآن وحفظ الله تعالى له، وأنه لا يدخله النقص (1) ولا الزيادة إلى أن يرفعه الله إليه إذ منه بدأ وإليه يعود.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلَّعَجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ قُلٌ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

- 1- تضمنت الآية ست صفات للقرآن العظيم هي كالتالي: أنه ذكرٌ يذكر الناس بما يغفلون عنه. أنه ذكرٌ للعرب أي شرف لهم كقوله {وانه لذكر لك ولقومك} أنه كتاب عزيز والعزيز النفيس والمنيع أيضا إذ عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله أنه لا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه بحال أنه مشتمل على الحكمة وهو حكيم ونو حكمة وحاكم أيضا وأنه تنزيل من حميد والحميد المحمود حمداً كثيراً.

(4/583)

شرح الكلمات:

- ما يقال لك : أي من التكذيب أيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.
- إلا ما قد قيل للرسول من قبلك : أي من التكذيب لهم والكذب عليهم.
- إن ربك لذو مغفرة : أي ذو مغفرة واسعة تشمل كل تائب إليه صادق في توبته.
- وذو عقاب أليم : أي معاقبة شديدة ذات ألم موجع للمصرين على الكفر والباطل.
- ولو جعلناه قرآنا أعجمياً : أي القرآن كما اقترحوا إذ قالوا: هلا أنزل القرآن بلغة العجم.
- لقالوا: لولا فصلت آياته: أي بينت حتى نفهمها.
- أعجمي وعربي : أي قرآن أعجمي والمنزل عليه وهو النبي عربي يستكبرون ذلك تعنتاً منهم وعناداً ومجادة.

هدى وشفاء : أي هدى من الضلالة، وشفاء من داء الجهل وما يسببه من أمراض.
والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر : أي ثقل فهم لا يسمعون وهو عليهم عمى فلا يفهمونه.
أولئك ينادون من مكان بعيد : والمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى له.
ولقد آتينا موسى الكتاب : أي التوراة.
فاختلف فيه : أي بالتصديق والتكذيب في العمل ببعض ما فيه وترك البعض الآخر كما هي الحال في القرآن الكريم.
ولولا كلمة سبقت من ربك : أي ولولا الوعد بجمع الناس ليوم القيامة وحسابهم ومجازاتهم هناك.
لقضي بينهم : أي لحكم بين المختلفين اليوم وأكرم الصادقون وأهين الكاذبون.
وما ربك بظلام للعبيد: أي وليس ربك يا رسولنا بذئ ظلم للعبيد.
معنى الآيات:

بعد توالي الآيات الهادية من الضلالة الموجبة للإيمان كفار قريش لا يزيدهم ذلك إلا عناداً وإصراراً على تكذيب الرسول والكفر به وبما جاء به من عند ربه، ولما كان الرسول بشراً يحتاج إلى عون حتى يصبر أنزل تعالى هذه الآيات في تسليته صلى الله عليه وسلم وحمله على الثبات والصبر فقال

(4/584)

تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ} (1) يا رسولنا من الكذب عليك والتكذيب لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك.
وقوله تعالى: إن ربك لذو مغفرة أي لمن تاب فلذا لا يتعجل بإهلاك المكذبين رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا ويوحدوا، وذو عقاب أليم أي موجع شديد لمن مات على كفره.
وقوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا} أي كما اقترح بعض المشركين، لقالوا: {لَوْلَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ} أي هلاً بينت آياته لنا حتى نفهمها، ثم قالوا: {أَعْجَمِيٌّ} (2) وَعَرَبِيٌّ} أي أقرآن أعجمي (3) ونبي عربي مستكرين ذلك متعجبين منه وكل هذا من أجل الإصرار على عدم الإيمان بالقرآن الكريم والنبي الكريم وتوحيد الرب الكريم.
ولما علم تعالى ذلك منهم أمر رسوله أن يقول لهم قل هو أي القرآن الكريم هدى وشفاء (4) هدى يهتدى به إلى سبيل السعادة الكمال والنجاح، وشفاء من أمراض الشك والشرك والنفاق والعجب والرياء والحسد والكبر، والذين لا يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً هو أي القرآن في آذانهم وقر أي حمل ثقيل أولئك ينادون من مكان بعيد ولذا فهم لا يسمعون ولا يفهمون.
هذه تسليية وأخرى في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} أي التوراة فاختلّفوا فيه فمنهم المصدق ومنهم المكذب، ومنهم العامل بما فيه المطبق ومنهم المعرض عنه المتبع لهواه وشيطانه الذي أغواه وقوله تعالى {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ} (5) مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ} فيما اختلفوا فيه لحكم لأهل الصدق بالنجاة

وأهل الكذب بالهلاك والخسران وقوله: إنهم لفي شك منه أي من القرآن مريب أي موقع في الريبة وذلك من جراء محادثته والمعاندة والمجاددة، وقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} وهذه تسليية أعظم فإن من عمل صالحاً في حياته بعد الإيمان فإن جزاءه قاصر عليه ينتفع به دون سواه، ومن أساء أي عمل السوء وهو ما يسوء النفس من الذنوب والآثام فعلى نفسه عائد سوءه الذي عمله ولا يعود على غيره، وأخرى في قوله تعالى وما ربك بظالم للعبيد(6) أي ليس هو تعالى بذى ظلم لعباده. فقوله تعالى من عمل صالحاً فلنفسه عائد ذلك ومن أساء فعليها أي عائد الإساءة إن فيه لتسليية لكل من أراد أن يتسلى ويصبر.

1- الجملة مستأنفة استئنافية بيانياً فهي جواب لسؤال يثيره قوله تعالى {إن الذي يلحدون في آياتنا} الخ.

2- في الآية إشارة واضحة إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم.

3- معنى قرآناً كتاباً مقروءاً إذ ورد في الحديث الصحيح تسمية الزبور قرآناً بمعنى يقرأ ويكتب إذ قال صلى الله عليه وسلم "إن داود يسر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله "الزبور" في حين يسر له فرسه".

4- حقيقة الشفاء زوال المرض وهو هنا مستعار للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء.

5- فيه تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنه ليس بأوحد في ذلك فقد أوتي الكتاب فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب والعمل والترك

6- المراد بنفي الظلم من الله للعبيد أنه لا يعاقب من ليس منهم بمجرم، لأنه تعالى لما وضع الشرائع وأرسل الرسل صار وذلك قانوناً فمن تعداه مهملاً له معرضاً عنه فقد استوجب العذاب وتعذيبه عدل وليس بظلم.

(4/585)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تسليية الرسول أي حمله على الصبر والسلوان ليواصل دعوته إلى نهايتها.
- 2- بيان مدى ما كان عليه المشركون من التكذيب للرسول والمعاندة والمجاددة.
- 3- القرآن دواء وشفاء لأهل الإيمان، وأهل الكفر فهم على العكس من أهل الإيمان.
- 4- بيان سنة الله في الأمم السابقة في اختلافها على أنبيائها وما جاءت بها من الهدى والنور.

- 5- قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ﴾ { أجري مجرى المثل عند العالمين.
6- نفي الظلم عن الله مطلقاً(1).

1- فقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. وأيضاً فالله هو الملك وهل ما يفعله الملك العليم الرحيم العادل في ملكه وعبيده يقال له ظلم؟ والجواب لا.

(4/586)

الجزء الخامس والعشرون

إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

إليه يرد علم الساعة(1) : أي إلى الله يرد علم الساعة أي متى تقوم إذ لا يعلمها إلا هو.
شرح الكلمات

وما تخرج من ثمرات من أكمامها : أي من أوعيتها واحد الأكمام كم وكم الثوب مخرج اليد.
وما تحمل من أنثى : أي من أي جنس كان إنساناً أو حيواناً.
ولا تضع إلا بعلمه : أي ولا تضع حملها إلا ملابساً بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء.
قالوا أدناك : أي أعلمناك الآن.

ما منا من شهيد : أي ليس منا من يشهد بأن لك شريكاً أبداً.
وظنوا ما لهم من محيص : أي أيقنوا أنه مالهم من مهرب من العذاب.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أن علم الغيب انحصر فيه فليس لأحد من خلقه علم الغيب وخاصة علم الساعة أي علم قيامها متى تقوم؟ كما أخبر عن واسع علمه وأنه محيط بكل الكائنات فما تخرج من ثمرة من كمها(2) وعائنها وتظهر منه إلا يعلمها على كثرة الثمار والأشجار ذات الأكمام، وما تحمل(3) من أنثى بجنين ولا تضعه يوم ولادته أو إسقاطه إلا يعلمه أي يتم ذلك بحسب علمه تعالى وإذنه، وهذه مظاهر الربوبية المستلزمة للألوهية فلا إله غيره ولا رب سواه، ومع هذا فالجاهلون يتخذون له شركاء أنداداً من أحجار وأوثان يعبدونها معه ظلماً وسفهاً. ﴿وَيَوْمَ (4) يُنَادِيهِمْ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ؟﴾ أي الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي، فيتبرعون منهم ويقولون: أدناك

- 1- روي أن المشركين قالوا يا محمد إن كنت نبياً فأخبرنا متى قيام الساعة فنزلت {إليه يرد علم الساعة} والرد الإرجاع.
- 2- الأكمام جمع كم بكسر الكاف وتشديد الميم والكمة بضم الكاف والتأنيث مثله وهو الجف وكفرى الطلع يقال له كفه.
- 3- فهذه ثلاثة أمور وجب رد علمها إلى الله تعالى الأول علم ما تخرجه أكمام النخل من الثمر بقدره وجودته وثباته وسقوطه والثاني حمل الأنثى من الناس والحيوان والتي تلقح والتي لا تلقح، والثالث وقت وضع الأجنة فهذه وجب رد علمها إلى الله تعالى إذ لا يعلمها إلا هو كسائر الغيوب.
- 4- ويوم يناديهم: متعلق بمحذوف تقديره اذكر يوم يناديهم، لما سألوا عن الساعة أعلمهم أن أمر علم وقتها مرده إلى الله وحده فناسب ذكر بعض أحداثها فذكر لهم ذلك.

(4/587)

أعلمناك الآن أنه ما منا من شهيد يشهد بأن لك شريكاً إنه لا شريك لك وضل عنهم أي غاب عنهم ما كانوا يدعون من قبل في الدنيا، وظنوا أيقنوا ما لهم من محيص أي مهرب من عذاب الله. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- استئنأ الله تعالى بعلم الغيب وخاصة علم متى تقوم الساعة.
 - 2- إحاطة علم الله تعالى بكل شيء فما تخرج من ثمرة من أوعيتها ولا تحمل من أنثى ولا تضع حملها إلا بعلم الله تعالى وإذنه.
 - 3- براءة المشركين يوم القيامة من شركهم، وغياب شركائهم عنهم.
- لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَدْفَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا وَلَنُدْفِقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)

شرح الكلمات:

لا يسأل الإنسان من دعاء الخير: أي لا يمل ولا يكل من سؤال طلب المال والصحة والعافية. وإن مسه الشر فيؤوس قنوط: أي المرض والفقر وغيرهما فيؤوس من رحمة الله قنوط ظاهر عليه اليأس.

من بعد ضراء مسته: أي من بعد شدة أصابته وبلاء نزل به.

ليقولن هذا لي: أي استحقفته بعلمي ومما لي من مكانة.

وما أظن الساعة قائمة : أي ينكر البعث ويقول: ما أظن الساعة قائمة.
إن لي عنده للحسنى : أي وعلى فرض صحة ما قالت الرسل من البعث إن لي عند الله الجنة.

(4/588)

أعرض ونأى بجانبه : أي أعرض عن الشكر ونأى بجانبه متبختراً مختالاً في مشيته.
فدو دعاء عريض : أي فهو ذو دعاء لربه طويل عريض يا ربا يا ربا.
معنى الآيات:

يخبر تعالى عن الإنسان (1) الكافر الذي لم تترك نفسه ولم تطهر روحه بالإيمان وصالح الأعمال إنه لا يسأم ولا يمل من دعاء الخير (2) أي المال والولد والصحة والعافية فلا يشبع من ذلك بحال. ولئن مسه الشر من ضر وفقر ونحوهما فهو يئوس (3) فنوط يئوس من الفرج وتبدل الحال من عسر إلى يسر فنوط ظاهر عليه آثار اليأس في منطق وفي حاله كله هذا ما تضمنته الآية الأولى (49) { لا يَسْأَمُ (4) الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ } وأما الآية (50) فإن الله تعالى يخبر أيضاً عن الإنسان الكافر إذا أذاقه الله رحمة منه من مال وصحة واجتماع شمل مثلاً، وذلك من بعد ضراء مسته من مرض وفقر ونحوهما ليقولن لجهله وسفهه: هذا لي أي استحققتَه بمالي من جهد ومكانة وعلم وإذا ذكر بالساعة من أجل أن يرفق أو يتصدق يقول ما أظن الساعة قائمة كما تقولون وإن قامت على فرض صحة قولكم إن لي عنده أي عند الله للحسنى أي للحالة الحسنى من غنى وغيره (5) وجنة إن كانت كما تقولون.

وقوله تعالى {فَلْيُنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا} أي يوم القيامة عند عرضهم علينا، ولنديقنهم من عذاب غليظ يخلدون فيه لا يخرجون منه أبداً.

وقوله تعالى في الآية الأخيرة (51) {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ} بنعمة المال والولد والصحة أعرض عن ذكرنا وشكرنا وتخلي عن طاعتنا ونأى (6) بجانبه متباعداً متبختراً مختالاً يكاد يضاهاى الطاووس في مشيته. وإذا سلبناه ذلك ومسّه الشر من مرض وفقر وجهد وبلاء فهو ذو دعاء عريض لنا يا رب يا رب يا رب. هذا ليس الرجل الأول الذي يبأس ويقنط، ذاك كافر، وهذا مؤمن ضعيف الإيمان جاهل لا أدب عنده ولا خلق. وما أكثر هذا النوع من الرجال في المسلمين اليوم والعياذ

1- قيل المراد بالإنسان الكافر هنا الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأميرة بن خلف.

والآية تحمل وصفاً للإنسان الكافر أي كان والمراد من الدعاء الطلب والرغبة الملحة.

2- شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح " لو أن لابن آدم واديين من ذهب

لتمنى الثالث ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب".

3- اليأس كالقنوط من رحمة الله كفر بالمؤمن لقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

4- اشتملت الآية على خلقين عجبين الأول خلق البطر بالنعمة والغفلة عن الشكر لله تعالى والثاني اليأس والقنوط من رجوع النعمة بعد فقدها.

5- يروى عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم للكافر أمينتان أما في الدنيا فيقول لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى، وأما في الآخرة فيقول يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.

6- النأي البعد وهو كناية عن عدم التفكير في المنعم عليه ليشكره فعير عن هذا بالبعد.

(4/589)

بالله تعالى فالأول عائد إلى ظلمة نفسه بالكفر، وهذا عائد إلى سوء تربيته وسوء خلقه وظلمة جهله. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان حال الإنسان قبل الإيمان فإنه يكون أخط المخلوقات قدراً وأضعفها شأناً.

2- تقرير عقيد البعث والجزاء بذكر بعض الأحداث فيها.

3- ذم اليأس والقنوط والكبر والاختيال، والكفر للنعم ونسيان المنعم وعدم شكره.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

شرح الكلمات:

قل أرايتم إن كان من عند الله: أي أخبروني إن كان القرآن من عند الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم كفرتم به : أي ثم كفرتم به بعد العلم أنه من عند الله.

من أضل ممن هو في شقاق بعيد : أي من يكون أضل منكم وأنتم في شقاق بعيد؟ لا أحد.

في الآفاق وفي أنفسهم : أي في أقطار السموات والأرض من المخلوقات وأسرار خلقها وفي أنفسهم من لطائف الصنعة وعجائب وبدائع الحكمة.

حتى يتبين لهم أنه الحق : أي أن القرآن كلام الله ووحيه إلى رسوله حقاً، وأن الإسلام حق.

ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم : أي في شك من البعث الآخر حيث يعرضون على الله تعالى.

ألا إنه بكل شيء محيط : أي علما وقدرة وعزة وسلطاناً.

معنى الآيات:

يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكذبين بالوحي الإلهي الذي يمثله القرآن الكريم حيث قالوا فيه شعر وسحر وأساطير الأولين يأمره أن يقول لهم مستفهماً لهم أريتم أي أخبروني إن كان أي القرآن الذي كذبت به من عند الله وكفرت به أي كذبتكم؟ من يكون أضل منكم وأنتم تعيشون في

(4/590)

شقاق بعيد(1) اللهم لا أحد يكون أضل منكم عن طريق الهدى إذا فلم لا تتوبون إلى رشدكم وتؤمنون بآيات ربكم فتكملوا عليها وتسعدوا.

ثم قال تعالى: {سُنِّيهِمْ} (2) آيَاتِنَا} على صدقنا وصدق رسولنا فيما أخبرناهم به ودعوناهم إليه من الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء وذلك في(3) الآفاق أي من أقطار السموات والأرض مما ستكشف عنه الأيام من عجائب تدبير الله ولطائف صنعه. وفي أنفسهم(4) أيضاً أي في ذاتهم حتى يتبين لهم أنه الحق، من ذلك فتح القرى والأمصار وانتصار الإسلام كما أخبر به القرآن، ووقعة بدر وفتح مكة من ذلك وما ظهر لحد الآن من كشوفات في الآفاق وفي الأنفس مما أشار إليه القرآن ما هو أعجب من ذلك قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} فنظام الزوجية الساري في كل جزئيات الكون شاهد قوي على صدق القرآن وأنه الحق من عند الله، وأن الله حق وأن الساعة حق وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِ} (5) بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟} هذا توبيخ لهؤلاء المكذبين بإعلامهم أن شهادة الله كافية في صدق محمد وما جاء به إن الله هو المخبر بذلك والأمر بالإيمان به فكيف يطالبون بالآيات على صدق القرآن ومن نزل عليه والله المرسل للرسول والمنزل للكتاب وقوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ} إعلام منه تعالى بما عليه القوم من الشك في البعث والجزاء وهو الذي سبب لهم كثيراً من أنواع الشر والفساد. وقوله: {أَلَا إِنَّهُ} (6) بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} علماً وقدرة وعزة وسلطاناً فما أخبر به عنهم من علمه وما سيجزيهم به من عذاب إن أصروا على كفرهم من قدرته وعزته. ألا فليتنق الله امرؤ مصاب بالشك في البعث وكل الظواهر دالة على حتميته ووقوعه في وقته المحدد له.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالكفر بالقرآن والتكذيب بما جاء فيه من الهدى والنور.
- 2- لا أضل ممن يكذب بالقرآن لأنه يعيش في خلاف وشقاق لا أبعد منه.
- 3- صدق وعد الله تعالى حيث أرى المشركين وغيرهم آياته في الدالة على وحدانيته وصحة دينه

وصدق أخباره ما آمن عليه البشر الذين لا يعدون كثرة.

- 1- الشقاق العداء والمراد به العداء لله والرسول والمؤمنين الناجم عن ردهم القرآن وتكذيبهم بالوحي المثبت للنبوّة المحمدية.
- 2- الآيات تشمل آيات القرآن والآيات الخارجة عن القرآن.
- 3- الآفاق جمع أفق الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها والناحية من قبة السماء.
- 4- قال القرطبي "وفي أنفسهم" من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هم قطرة ماء ينظر بهما، وفي أذنيه وكيف يفرق بين الأصوات المختلفة إلى غير ذلك.
- 5- المعنى: تكفيك شهادة ربك بصدقك فلا تلتفت إلى تكذيبهم.
- 6- وصف الله بالمحيط هو كذلك محيط بعلمه وقدرته وقهره لكل خلقه.

(4/591)

- 1- ما من اكتشاف ظهر ويظهر إلا والقرآن أدخله في هذه الآية سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم.
- 2- الإشارة إلى أن الإسلام سيعلم صحته وسيدين به البشر أجمعون في يوم ما من الأيام.
- 3- تقرير البعث والجزاء ومظاهر قدرة الله تعالى المقررة له.

(4/592)

سورة الشورى

...

سورة الشورى

مكية

وآياتها ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيَسْتَعْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

شرح الكلمات:

حم عسق (1) : هذه أحد الحروف المقطعة تكتب هكذا: حم عسق وتقرأ هكذا: حا ميم عَيْن سَيْن قَافٌ.

كذلك يوحى (2) إليك وإلى الذين من قبلك : أي مثل ذلك الإيحاء يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الذي يوحى إليك.

له ما في السموات وما في الأرض : أي خلقاً وملكاً وتصرفاً.

وهو العزيز الحكيم: أي العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبيره لأوليائه.

يتفطرن من فوقهن : أي يتشفقن من عظمة الرحمن وجلاله.

والذين اتخذوا من دونه أولياء : أي آلهة يعبدونها.

1- إن قيل لم ما وصلت حم عسق ببعضهما كما وصلت في المص، المر فالجواب أن عسق ثلاثة

أحرف فلم توصل بـ حم بخلاف المص المر فإن الموصول حرف واحد وهو الصاد والراء.

2- العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع إيذان بأن إيحاء الرسول متجدد لا ينقطع مدة حياة

النبي صلى الله عليه وسلم.

(4/592)

الله حفيظ عليهم : أي يحصي لهم أعمالهم ويجزيهم بها.

وما أنت عليهم بوكيل : أي ولست موكلاً بحفظ أعمالهم وإنما عليك البلاغ.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {حم عسق} الله أعلم بمراده به وقد تقدم التنبيه إلى أن هذا من المتشابه الذي يجب

الإيمان به وتفويض أمر فهم معناه إلى منزله وهو الله سبحانه وتعالى وقد ذكرنا أن له فائدتين

جليلتين تقدمتا في كثير من فواتح السور المبدوءة بمثل هذه الحروف المقطعة فليرجع إليها.

وقوله {كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ (1)} أي مثل ذلك الإيحاء بأصول الدين الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والبعث

يوحى إليك بمعنى أوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل الله العزيز (2) في انتقامه من أعدائه

الحكيم في تدبيره لأوليائه وقوله {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ (3) وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي خلقاً وملكاً وهو العلي

أي ذو العلو المطلق على خلقه العظيم في ذاته وشأنه وحكمه وتدبيره سبحانه لا إله إلا هو ولا رب

سواه.

وقوله تعالى {تَكَادُ (4) السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ} أي يتصدعن وينشققن من فوقهن من عظمة الرب تبارك وتعالى والملائكة يسبحون بحمد (5) ربهم أي يصلون له ويستغفرون لمن في الأرض أي يطلبون المغفرة للمؤمنين فهذا من العام الخاص بما في سورة المؤمن إذ فيها ويستغفرون للذين آمنوا وقوله تعالى {أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} إخبار بعظيم صفاته عز وجل وهما المغفرة والرحمة يغفر لمن تاب من عباده ويرحم بالرحمة العامة سائر مخلوقاته في هذه الحياة ويرحم بالرحمة الخاصة عباده الرحماء وسائر عباده المؤمنين في دار السلام وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا (6) مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} أي شركاء آلهة يعبدونهم هؤلاء الله حفيظ عليهم فيحصى عليهم أعمالهم ويجزيهم بها يوم القيامة، وليس على الرسول من ذلك شيء إن عليه إلا البلاغ وقد بلغ وهو معنى قوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} تحفظ عليهم أعمالهم وتجزئهم بها وفي الآية تسليية للرسول وتخفيف عليه لأنه كان يشق عليه إعراض المشركين وإصرارهم على الشرك بالله تعالى.

- 1- المعنى الإجمالي لهذه الجملة هو كما في قوله {إِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} فهو تشبيهه إحياء بإحياء.
- 2- العزيز الحكيم: وصفان لاسم الجلالة هما مقتضى الوحي الإلهي إذ الوحي يكون من عزيز لا يحال بين إرادته وحكيم يضع الأمور في مواضعها فلا يعاب عليه اختياره للوحي إليك.
- 3- هذه الجملة مقررة لما تقدم من جلال الله وكماله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده ولقائه وبعثه رسوله.
- 4- قرأ نافع وحده يكاد بالياء وقرأ باقي القراء حفص وغيره بالتاء وسبب تظهرن هو الخوف من عظمة الرب قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما "قرقا" أي خوفا.
- 5- أي ينزهه عما لا يجوز وصفه به وعمّا لا يليق بجلاله، وقيل يتعجبون من جرأة المشركين فيسبحون.
- 6- لما أقام تعالى الحجج والبراهين على توحيده ونبوة رسوله فسبحت له الملائكة واستغفرت للمؤمنين الموحدين وبقي المشركين على اتخاذهم أولياء كأنما قال لرسوله لا يهملك أمرهم فإن الله يحصى أعمالهم ويحفظها لهم ويجزيهم بها.

(4/593)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وحدة الوحي بين سائر الأنبياء إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والترغيب في

العمل الصالح، والترهيب من العمل الفاسد.

2- بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين (1).

3- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه بأنه غير موكل بحفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها إنما هو الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

شرح الكلمات:

وكذلك أوحينا إليك : أي ومثل ذلك الإيحاء إليك وإلى من قبلك أوحينا إليك.

قرآنا عربياً : أي بلسان عربي.

لتنذر أم القرى ومن حولها : أي علة الإيحاء هي إنذارك أهل أم القرى مكة ومن حولها من القرى أي تخوفهم عذاب الله إن بقوا على الشرك.

وتنذر يوم الجمع : أي وتنذر الناس من يوم القيامة إذ هو يوم يجمع الله فيه الخلائق.

لا ريب فيه : أي لا شك في مجيئه وجمع الناس فيه.

1- جائز أن يكون المستغفرين للمؤمنين حملة العرش وقد ورد هذا في السنة وأن يكون غيرهم يستغفرون لمن في الأرض عندما يرون كفرهم وباطلهم وجرأتهم على ربهم يطلبون لهم عدم المؤاخظة إذ لو آخذهم بذنوبهم لأهلكهم.

(4/594)

فريق في الجنة : أي المؤمنون المتقون.

وفريق في السعير : أي الكافرون.

ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة : أي على دين الإسلام وبذلك يكون الجميع في الجنة.

ولكن يدخل من يشاء في رحمته : أي في الإسلام أولاً ثم في الجنة ثانياً.

والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير : أي المشركون ليس لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينصرهم فهم في النار.

أم اتخذوا من دون الله أولياء : أي بل اتخذوا من دونه تعالى شركاء ألَّهُوهم من دون الله.

فإنه هو الولي : أي الولي الحق ومن عداه فلا تتفع ولايته ولا تضر.
معنى الآيات:

قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا(1)} أي ومثل ذلك الإيحاء الذي أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا بلسان عربي يفهمه قومك لأنه بلسانهم لتتذر به أي تخوف أم القرى(2) ومن حولها من الناس عاقبة الشرك والكفر والظلم والفساد وتتذر أيضا الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة فإنه يوم هول عظيم وشر مستطير ليتوقوه بالإيمان والتقوى. إنه يوم يكون فيه الناس والجن فريقين لا ثالث لهما: فريق في الجنة(3) بإيمانه وتقواه الله بفعل أوامره وترك نواهيه، وفريق في السعير بشركه وكفره بالله وعدم تقواه فلا امتثل أمراً ولا اجتنب نهياً.
وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ(4) أُمَّةً وَاحِدَةً} أي في الدنيا على دين الإسلام الذي هو دين آدم فنوح وإبراهيم فسائر الأنبياء موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. إذ هو عبارة عن الإيمان بالله وبما أمر الله بالإيمان به، والانقياد لله ظاهراً وباطناً بفعل محابه تعالى وترك مكارهه ولو كانوا في الدنيا على ملة الإسلام لكانوا في الآخرة فريقاً واحداً وهو فريق الجنة ولكن لم يشأ ذلك لحكم عالية فهو تعالى يدخل من يشاء في رحمته في الدنيا وهي الإسلام وفي الآخرة هي الجنة، والظالمون أي المشركون الذين رفضوا التوحيد والإسلام لله ما لهم من ولي ولا نصير فهم إذا في عذاب السعير. وقوله تعالى: {أَمْ اتَّخَذُوا(5)} أي الظالمون من دون الله أولياء من دون الله ليشفَعوا

- 1- القرآن مصدر نحو غفران وأطلق على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون لحسنه وفوائده وعظيم مثوبته.
- 2- كنييت مكة بأمة القرى لأنها أقدم المدن العربية وقيل لأن الأرض دحييت من تحتها.
- 3- جملة فريق الخ ابتدائية لأنها جواب لمن سأل عن حال الناس وهم مجتمعون في عرصات القيامة فأجيب بأنهم فريقان فريق في الجنة وفريق في السعير.
- 4- سبق هذا الكلام مستأنفاً استئنفاً ابتدائياً لغرض تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما ينالهم من هم وكرب من عدم إيمان من يدعونهم إلى الإيمان ولم يؤمنوا.
- 5- أم للإضراب الانتقالي والاستفهام إنكاري ينكر على المشركين اتخاذهم أولياء من دون الله لا تنتفعهم أي نفع ويتركون الله الولي الحميد فهو أحق بأن يتخذ ولياً في الدنيا والآخرة.

(4/595)

لهم جهلاً منهم بأنه لا يشفع أحد إلا بإذن الله ورضاه فعلوا ذلك وما كان لهم ذلك لأن الولي الحق هو الله فلم لا يتخذونه ولياً، وهو الولي الحميد وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير فمن أحق

بأن يُتَوَلَّى من يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير أم من لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع،
والجواب معلوم، ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي.
 - 2- شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحوضر.
 - 3- مشروعية التعليل للأفعال والأحكام.
 - 4- انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي لا غير.
 - 5- لم يشأ الله أن يجعل الناس أمة واحدة لحكم عالية علمها إليه سبحانه وتعالى.
 - 6- من طلب ولاية غير الله هلك؟ ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه.
- وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10) فَاطِرُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ (12)

شرح الكلمات:

وما اختلفتم فيه من شيء : أي من أمور الدين والدنيا مع الكفار أو مع المؤمنين.
فحكمه إلى الله : هو الذي يقضي فيه في الدنيا بما ينزل من وحي على رسوله وفي الآخرة إذ الحكم
له دون غيره.

ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه : أي قل لهم يا رسولنا ذلكم الحاكم العدل العظيم الله ربي عليه

(4/596)

أنيب توكلت أي فوضت أمري إليه، وإليه لا إلى غيره أرجع في أموري كلها.
فاطر السموات والأرض : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق.
جعل لكم من أنفسكم أزواجاً : أي بأن جعلكم ذكراً وأنثى، ومن الأنعام كذلك.
يذركم فيه : أي يخلقكم في هذا التدبير وهو من الذكر والأنثى يخرجكم.
ليس كمثلته شيء : أي ليس مثل الله شيء إذ هو الخالق لكل شيء فلا يكون مخلوق مثله بحال من
الأحوال.

وهو السميع البصير : أي السميع لأقوال عباده العليم بأعمالهم وأحوالهم.

معنى الآيات:

يقول تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ (1) فِيهِ مِنْ شَيْءٍ} من أمور الدين والدنيا أيها الناس فحكمه إلى الله تعالى هو الذي يحكم فيه بالعدل فردوه إليه سبحانه وتعالى فإنه يقضي بينكم بالحق. وهنا أمر رسوله أن يقول للمشركين ذلك المذكور بصفات الجلال والكمال الحكم العدل الذي يقضي ولا يقضى عليه الله ربي الذي ليس لي رب سواه عليه توكلت ففوضت أمري إليه واثقاً في كفايته وإليه وحده أنيب أي أرجع في أموري كلها، ثم واصل ذكر صفاته الفعلية فقال {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي خالق السموات السبع والأرض مبدعهما من غير مثال سابق {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (2) أَزْوَاجًا} إذ خلق حواء من ضلع آدم ثم جعلكم تتناسلون من ذكر وأنثى ومن الأنعام أزواجاً أيضاً وهما الذكر والأنثى وقوله {يَذُرُّكُمْ فِيهِ} أي (3) يخلقكم فيه أي في هذا النظام نظام الذكر والأنثى كأن الذكورة والأنوثة معمل من المعامل يتم فيه خلق الإنسان والحيوان فسبحان الخلاق العليم.

وقوله: {لَيْسَ (4) كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (5)} هذا تعريف عرف تعالى به نفسه ليعرف بين عباده وهو أنه عز وجل ليس كمثلته شيء أي فلا شيء مثله فعرف بالنفرد بالوحدانية فالذي ليس له

- 1- قول القرطبي هذا حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ما هو بظاهر، بل هو إرشاد الله لرسوله والمؤمنين أن يقولوا لمن خالفهم من المشركين وأهل الكتاب إن الله قد حكم بصحة الإسلام فهو الدين الذي يجب أن يدين به الإنسان لربه عز وجل لا غيره من الأديان الباطلة.
- 2- الجملة في موضع نصب على الحال من ضمير فاطر.
- 3- الذرة: بث الخلق وتكثيره والمضارع يذروكم لإفادة الحدوث والتجدد المستمرين.
- 4- ومعنى ليس كمثلته شيء: ليس مثله شيء فالكاف مقحمة لا غير، ولما كانت للتشبيه ومثله كذلك فهي إذا لتأكيد نفي الشبيه لله تعالى.
- 5- لما كانت جملة ليس كمثلته شيء صفة سلبية أعقب عليها بصفات إيجابية وهي كونه تعالى سميعاً بصيراً، وهكذا الحكم في صفات الله تعالى فيثبت له ما أثبتته هو لنفسه وأثبتته له رسوله من الصفات العلى وينفى عنه من صفات النقص كالمثلية والتشبيه وما نفاه تعالى هو عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

(4/597)

مثل ولا مثله شيء هو الله ذو الأسماء الحسنى والصفات العليا وهو السميع لكل الأصوات العليم بكل الكائنات.

وقوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (1)} أي له مفاتيح خزائن السموات والأرض، وله مغاليقها فهو تعالى يبسط الرزق لمن يشاء امتحاناً ويضيق ابتلاءً، لأنه بكل شيء عليم فلا يطلب الرزق إلا

منه، ولا يلجأ فيه إلا إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب ردّ ما اختلف فيه إلى الله تعالى ليحكم(2) فيه وهو الرد إلى الكتاب والسنة.
 - 2- وجوب التوكل عليه والإنابة إليه في كل الأمور .
 - 3- تنزيه الرب تعالى عن مشابهته لخلقه مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا.
 - 4- وجوب الإيمان بأن الله هو الرزاق بيده مفاتيح خزائن الأرزاق فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق، وأنه يوسع لحكمة وبضيق لأخرى.
- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ(14)

- 1- المقاليد جمع إقليد أو مقلاد على غير قياس وهو المفتاح، والمقاليد للخزائن وهي ما أودع الله تعالى من أرزاق السموات والأرض لعباده، فلذا هو يبسط الرزق ويقدر حسب علمه وحكمته.
- 2- شاهده قوله تعالى: {وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول} "الآية من سورة النساء"

(4/598)

شرح الكلمات:

- ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك : أي شرع لكم من الدين الذي وصى به نوحاً والذي أوحينا به إليك.
- وما وصينا به إبراهيم وموسى : أي والذي وصينا باقي أولى العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى وهو أن يعبدوا الله وحده بما شرع من العبادات.
- أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه: أي بأن أقيموا الدين الذي شرع لكم ولا تضيعوه ولا تختلفوا فيه.
- كبر على المشركين ما تدعوهم إليه : أي عظم على كفار قريش ما تدعوهم إليه وهو لا إله إلا الله محمد رسول الله.
- الله يجتبي إليه من يشاء : أي يختار إلى الإيمان به والعمل بطاعته من يريده لذلك.
- ويهدي إليه من ينيب : أي ويوفق لطاعته من ينيب إليه في أموره ويرجع إليه في جميع شأنه، بخلاف المعرضين المستكبرين.

بغياً بينهم : أي حملهم البغي على التفرق في دين الله.
ولولا كلمة سبقت من ربك : أي ولولا ما قضى الله به من تأخير العذاب على هذه الأمة إلى يوم
القيامة.

لقضي بينهم: أي لحكم الله بينهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين.
وإن الذين أورثوا الكتاب من: أي وإن الذين أورثوا الكتاب من بعد الأولين وهم اليهود والنصارى
ومشركو العرب.

لفي شك منه مريب : أي لفي شك مما جنتهم به من الدين الحق وهو الإسلام.
معنى الآيات:

يخاطب تعالى رسوله المؤمنين فيقول وقوله الحق: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا (1)} إذ هو
أول حامل شريعة من الرسل والذي أوحينا إليك يا محمد {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} من
أولي العزم من الرسل {أَنْ أَقِيمُوا (2) الدِّينَ} وهو دين واحد قائم على الإيمان والتوحيد والطاعة لله في
أمره ونهيه وإقامة ذلك بعدم التفريط فيه أو في شيء منه، وعدم التفرق فيه، لأن التفرق فيه يسبب
تضييعه كلاً أو بعضاً.

1- المراد مما شرع لنا هو الإيمان به تعالى رباً وإلهاً وعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، أما
الأحكام فتختلف بحسب الأمم والأزمان فهذه الآية هي كقوله تعالى {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن
اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}.

2- أن أقيموا الدين في محل رفع خبر. أي هو إقامة الدين وعدم التفرق فيه أي الموصى به هو
إقامة الدين، وإقامته جعله قائماً تعتقد عقائده وتؤدي عبادته وتقام أحكامه لا يسقط منه شيء.

(4/599)

وقوله تعالى: {كَبُرَ عَلَى (1) الْمُشْرِكِينَ} من كفار قريش {مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} أي عظم عليهم ولم يطيقوا
حملة ما تدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام، إذا فادعهم واصبر على أذاهم
والله يجتبي إليه أي يختار للإيمان به وعبادته من يشاء ممن لا يصرون على الباطل، ولا يستكبرون
عن الحق إذ عرفوه، ويهدى إليه أي ويوفق لطاعته مَنْ مِنْ شَأْنِهِ الإِنَابَةُ وَالرُّجُوعُ إِلَى رَبِّهِ فِي أُمُورِهِ
كلها.

وقوله تعالى: {وَمَا نَقَرُّوا (2)} أي وما تفرق العرب واليهود والنصارى في دين الله فأمن بعض وكفر
بعض إلا من بعد ما جاءهم العلم الصحيح يحمله القرآن الكريم ونبيه محمد عليه أفضل الصلاة
وأزكى التسليم. والحامل لهم على ذلك هو البغي والحسد. وقوله ولولا كلمة سبقت من ربك وهو عدم

معالجة هذه الأمة المحمدية بعذاب الإبادة والاستئصال، وترك عذابهم إلى يوم القيامة لولا هذا لعجل لهم العذاب من أجل اختلافهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين. وهو معنى قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ (3) مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فرغ منهم بالفصل بينهم بإهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ (4) أي من بعد اليهود والنصارى وهم العرب إذ أنزل الله فيهم كتابه القرآن الكريم لفي شك منه أي من القرآن والنبي والدين الإسلامي مريب أي بالغ الغاية في الريبة والاضطراب النفسي، كما أن اللفظ يشمل اليهود والنصارى إذ هم أيضاً ورثوا الكتابين عن سبقهم وأنهم فعلاً في شك من القرآن ونبيه والإسلام وشرائعه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دين الله واحد وهو الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- 2- حرمة الاختلاف في دين الله المسبب تضييع الدين كلا أو بعضاً.
- 3- مرد التفرق في الدين إلى الحسد والبغي بين الناس، فلو لم يحسد بعضهم بعضاً ولم يبيع بعضهم على بعض لما تفرقوا في دين الله ولأقاموه مجتمعين فيه.

- 1- قال قتادة كبر على المشركين فاشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها على من ناوأها.
- 2- قال ابن عباس يعني قريشاً وهو صحيح إذ كانوا يقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين. وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم إلا أن دخول أهل الكتاب في هذا الخطاب وارد وله شواهد إذ الآية مبينة لسنة من سنن الله تعالى وهي كون الأمة متحدة على الباطل فإذا جاءها الحق قبله أناس ورفضه آخرون فيكون التفرق.
- 3- أي في تأخير العذاب على مستحقه إلى الموعد الذي حدده لهم في الدنيا أو في الآخرة لكان عز وجل حكم بينهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين.
- 4- أل في الكتاب للجنس ليشمل التوراة والإنجيل.

(4/600)

فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدٌ (16)

شرح الكلمات:

فلذلك فادع : أي فإلى ذلك الدين الذي شرع الله لكم ووصى به نوحاً وأوحاه إليك يا محمد فادع عباد الله.

واستقم كما أمرت: أي استقم على العمل به ولا تزغ عنه واثبت عليه كما أمرك الله. ولا تتبع أهواءهم : أي ولا تتبع أهواء المشركين وأهل الكتاب فنترك الحنيفية التي بعثت بها فإنها الحق.

وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب : أي ولست كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. وأمرت لأعدل بينكم : أي أمرني ربي أن أحكم بينكم بالعدل الذي هو خلاف الجور.

الله ربنا وربكم : أي خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم وإلهنا وإلهكم.

لنا أعمالنا ولكم أعمالكم : وسيجزى كل منا بعمله خيراً كان أو شراً.

لا حجة بيننا وبينكم : أي ما هناك حاجة إلى المحاجة الآن بعد ظهور الحق.

الله يجمع بيننا : أي يوم القيامة.

والذين يحاجون في الله : أي يجادلون في دين الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم.

من بعد ما استجيب له : أي بالإيمان لظهور معجزته وهم اليهود.

(4/601)

حجتهم داحضة : أي باطلة عند ربهم.

وعليهم غضب : أي من الله ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ (1)} أي فإلى ذلك الدين الحق الذي هو الإسلام الذي شرعه الله لكم ووصى به نوحاً وأوحاه إليك فادع جميع الناس عربهم وعجمهم فإنه دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه، ولا يكمل الإنسان في أخلاقه ومعارفه وآدابه ولا يسعد في الدارين إلا عليه واستقم (2) عليه (3) كما أمرك ربك، فلا تزغ عنه ولا تعدل به غيره فإنه الصراط المستقيم الذي لا يزيغ عنه إلا هالك ولا تتبع أهواء المشركين ولا أهواء أهل الكتاب. وقل في صراحة ووضوح آمنتم بما أنزل من كتاب فلا أومن ببعض وأكفر ببعض كما أنتم عليه معشر اليهود والنصارى، وقل لهم أمرني ربي أن أعدل (4) بينكم في الحكم إذا تحاكمتم إليّ، كما أنني لا أفرق بينكم إذ أعتبركم على الكفر سواء فكل من لم يكن على الإسلام الذي كان عليه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والذي عليه أنا وأصحابي اليوم فهو كافر من أهل النار.

وقوله تعالى {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} أي أمرني أن أقول لكم هذا الله ربنا وربكم إذ لا رب سواه فهو رب كل شيء ومليكه، {لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ} (5) وسيُجزى كل منا بعلمه السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها، إلا أن الكافر لا تكون له حسنة ما دام قد كفر بأصل الدين فلم يؤمن بالله ولقائه، ولا بوحيه ولا برسوله وقوله {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي اليوم إذ ظهر الحق ولاح الصبح لذي عينين فلا داعي إلى الجدل والخصومة معكم يا أهل الكتابيين من يهود ونصارى الله يجمع بيننا يوم القيامة إذ المصير في النهاية إليه لا إلى غيره وسوف يحكم بيننا فيما اختلفنا فيه فيقضي لأهل الحق بالنجاة من النار ودخول الجنة ويقضي لأهل الباطل بالنار والخلود فيها.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ (6) فِي اللَّهِ} أي في دين الله النبي والمؤمنين يريدون أن يردوهم

- 1- قال القرطبي اللام هنا بمعنى إلى وله نظائر مثل بأن ربك أوحى لها أي إليها وأولى أن تكون اللام للتعليل أي لأجل ما ذكر من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فادع.
- 2- الاستقامة الاعتدال والسين والتاء فيها للمبالغة مثل أجاب استجاب والمراد هنا الاستقامة المعنوية وهي ملازمة الآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة والتمسك بأهداف الشريعة.
- 3- كما أمرت هذه الكاف كالتي في قوله تعالى واذكروه كما هداكم أعطيت معنى التقليل مثل كما صليت على إبراهيم وما في التفسير أولى من هذا فإن المراد على نحو ما أمرك لا تخالفه.
- 4- هذا من الغيب الذي أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر فقد نصر الله رسوله وحكم اليهود وعدل بينهم وذلك في المدينة وخيبر وتيماء والآية نزلت بمكة.
- 5- هذه صور من صور الإنصاف والعدل.
- 6- قال مجاهد في قوله تعالى والذين يحاجون في الله الآية قال هؤلاء رجال طمعوا أن تعود الجاهلية بعد ما دخل الناس في الإسلام. وقيل إنهم اليهود والنصارى والكل جائز ويقع وواقع وما في التفسير أوضح وأصح.

(4/602)

إلى باطلهم من بعد ما استجيب للرسول ودخل الناس في دين الله أفواجا، هؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم أي باطلة، وعليهم غضب أي من ربهم ولهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة هذه الآية نزلت في يهود بالمدينة نصبوا أنفسهم خصوماً لأصحاب رسول الله يجادلونهم يريدون تشكيكهم في الإسلام والعودة بهم إلى وثنية الجاهلية وكان هذا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فرد تعالى عليهم وأسكتهم بهذه الآية متوعداً إياهم بالغضب والعذاب الشديد.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
 - 2- حرمة اتباع أهواء أهل الأهواء والسير معهم (1) وموافقتهم في باطلهم.
 - 3- وجوب الاستقامة على الإسلام عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
 - 4- تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وكذا أهل الأهواء والبدع لأننا على الحق وهم على الباطل، فكيف نحاجهم إذ الواجب أن يسلموا وكفى.
- اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ

1- الأهواء جمع هوى وهو الحب وغلب على حب ما لا نفع فيه إذ هو تابع عن ميل نفساني مناف للخير والعدل ويغلب إطلاق لفظ العشق عليه.

(4/603)

مَا لَمْ يَأْتِنِ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21)
شرح الكلمات:

الله الذي أنزل الكتاب بالحق : أي أنزل القرآن متلبساً بالحق والصدق لا يفارقه أبداً.
والميزان: : أي وأنزل الميزان وهو العدل ليحق الحق.
وما يدريك لعل الساعة قريب: أي أي شيء يجعلك تدري قرب الساعة إلا أن يكون الوحي الإلهي.
يستعجل بها الذين لا يؤمنون : أي يطالب المكذبون بها لأنهم لا يخافون ما فيها لعدم إيمانهم به.
والذين آمنوا مشفقون منها : أي خائفون وذلك لإيمانهم فهم لا يدرون ما يكون لهم فيها من سعادة أو شقاء ولذا هم مشفقون.

ويعلمون أنها الحق : أي أن الساعة حق واجبة الإتيان لا محالة.
إن الذين يمارون في الساعة: أي إن الذين يجادلون في الساعة شاكين في وقوعها.
الله لطيف بعباده : أي برهم وفاجرهم بدليل أنهم يعصونه وهو يرزقهم ولا يعاقبهم.
من كان يريد حرث الآخرة : أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة.
نزد له في حرثه : أي نضاعف له ثوابه الحسنه بعشر أمثالها وأكثر.

ومن كان يريد حرث الدنيا : أي من كان يريد بعمله متاع لحياة الدنيا من طيباتها. نؤتة منها وماله في الآخرة من نصيب : أي نعطه منها ما قدر له وليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب.

أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين : أي بل لهم شركاء من الشياطين شرعوا لهم من الدين. ما لم يأذن به الله : أي ما لم يشرعه الله تعالى وهو الشرك. ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم : أي ولولا كلمة الفصل التي حكم الله بها بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لأهلكهم اليوم على شركهم وأنجى المؤمنين. معنى الآيات:

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ (1)} يخبر تعالى رسوله والمؤمنين بأنه هو

1- جائز أن يكون الكتاب اسم جنس يشمل الكتب الإلهية إذ الله تعالى هو منزلها وجائز أن يكون المراد به القرآن. وأل فيه للتفخيم من شأنه كأنه الكتاب الفذ في بابه.

(4/604)

الذي أنزل الكتاب أي القرآن بالحق والصدق وأنزل الميزان (1) وذلك من أجل إحقاق الحق في الأرض وإبطال الباطل فيها، فلا يعبد إلا الله ولا يحكم إلا شرع الله وفي ذلك كمال الإنسانية وسعادتها، وقوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ (2) لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} أي شيء جعلك تدري قرب الساعة إنه الوحي الإلهي لا غير وقوله {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} أي الذين لا يؤمنون بالبعث الآخر والجزاء فيه هم الذين يطالبون بإتيانها في غير وقتها ويستعجلون الرسول بها بقولهم متى الساعة؟ أما المؤمنون بالبعث والجزاء فإنهم مشفقون أي خائفون من وقوعها لأنهم لا يدرون مصيرهم فيها ولا يعلمون ما هم صائرون إليه من سعادة أو شقاء وقوله {وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} أي والمؤمنون يعلمون أن الساعة حق واجبة الوقوع ليحكم الله فيها بين عباده ويجزي كل واحد بعمله، ويقتص فيها من الظالم للمظلوم فلذا هي واقعة حتماً لا تتخلف أبداً.

وقوله تعالى: {أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} يخبر تعالى مؤكداً الخبر بأن الذين يشككون في الساعة ويجادلون في صحة وقوعها في ضلال عن الهدى والصواب والرشد، بعيد لا يرجي لهم معه العودة إلى الصواب والهدى في هذه المسألة من مسائل العقيدة. وقوله تعالى {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} يخبر تعالى بأنه ذو لطف بعباده مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم يكفر به الكافرون ويعصيه العاصون وهو يطعمهم ويسقيهم ويعفو عنهم ولا يهلكهم بذنوبهم فهذا من دلائل لطفه بهم. يرزق من يشاء أي يوسع الرزق على من يشاء ويقدر على من

يشاء حسب ما تقتضيه تربيتهم فلا يدل على الغنى على الرضاء ولا الفقر على السخط. وهو تعالى القوي القادر الذي لا يعجزه شيء العزيز في انتقامه ممن أراد الانتقام منه وقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ (3) الْأَخْرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} ، وهذا من مظاهر لطفه بعباده وهو أن من أراد منهم بعمله ثواب الآخرة وما أعد الله فيها للمؤمنين المتقين نزل له في حرثه أي يضاعف له أجر عمله الحسنة بعشر إلى سبعمائة ويضاعف لمن يشاء ومن كان يريد بعمله حرث الدنيا أي متاع الحياة الدنيا يؤثته على قدر عمله للدنيا وهو ما قدره له أولاً وجعله مقدوراً له لا بد نائله، وماله في الآخرة من نصيب لأنه لم يعمل لها فلا حظ له ولا نصيب له فيها إلا النار وبئس القرار .

وقوله تعالى في الآية (21) {أَمْ (4) لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} يقول

1- هل المراد من الميزان العدل أو هو الآلة التي يوزن بها والظاهر أنه الآلة التي يوزن بها إذ بها يتم العدل ولقوله تعالى {وأنزلنا معهم الكتاب الميزان ليقوم الناس بالقسط} وإنزاله إلهام وضعه والعمل به.

2- ما استفهامية أي من جعلك تدري قرب الساعة. قال ابن عباس ما قال تعالى فيه وما أدراك فقد أدراه، وما قال فيه وما يدريك فإنه لم يدركه به.

3- المراد بالحرث العمل والكسب قال الشاعر:

كلنا إذا ما نال شيئاً أفاته

ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

بهذه الآية رد على من زعم أن المرء لو دخل ماء للتبرد فيه أن له أن يصلي به لأن الآية نص في إرادة العمل والثواب بحسب الإرادة التي هي النية.

4- أم للإضراب الانتقالي والاستفهام للتفريع والتوبيخ.

(4/605)

للمشركين من كفار قريش شركاء من الشياطين شرعوا لهم ديناً وهو الشرك لم يأذن به الله، وهذا إنكار عليهم، وإعلان غضب شديد أجل شركهم الذي زينته لهم الشياطين فصرفتهم عن الدين الحق إلى الدين الباطل، ولذا قال: {وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي ولولا أنه تعالى قضى بأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة لعذبهم في الدنيا وأهلكهم فيها قبل الآخرة، وذلك لاتخاذهم ديناً لم يشرعه الله لهم. وقوله تعالى وإن الظالمين أي المشركين لهم عذاب أليم أي موجه وذلك يوم القيامة وهذا وعيد للمشركين الذين اتخذوا الجاهلية والشرك وعبادة الأوثان ديناً وأعرضوا عن دين الله الذي أوصى به نوحاً وأوحاه إلى محمد خاتم رسله، كما أوصى به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب أي القرآن والميزان وهو أن يحكم الناس بالقسط.
 - 2- بيان قرب الساعة وأن معرفة قريبا كان بالوحي الإلهي مثل اقترب للناس حسابهم.
 - 3- المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها.
 - 4- بيان لطف الله بعباده فله الحمد وله المنة والشكر.
 - 5- بيان وجوب إصلاح النيات فإن مدار العمل قبولاً ورفضاً بحسبها.
 - 6- حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
- تَرَى الظَّالِمِينَ مُشَفِّقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

(4/606)

كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)

شرح الكلمات:

ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا : أي ترى أيها المرء الظالمين يوم القيامة خائفين من جزاء ما عملوا.

وهو واقع بهم: أي وهو أي جزاء ما كسبوا من الباطل والشرك نازل بهم معذبون به لا محالة. والذين آمنوا وعملوا الصالحات : آمنوا بالله ولقائه وآياته ورسوله وأدوا الفرائض واجتنبوا المحارم. في روضات الجنات : أي هم في روضات الجنات، والروضة في الجنة أنزه مكان فيها. لهم ما يشاءون عند ربهم : أي لهم ما تشتهيهم أنفسهم وتلذه أعينهم في جوار ربهم. قل لا أسألكم عليه أجراً : أي قل يا رسولنا لقومك لا أسألكم على التبليغ أجراً أي ثواباً. إلا المودة في القربى : أي لكن أسألكم أن تودوا قرابتي فتمنعوني حتى أبلغ رسالتي. ومن يقترب حسنة : أي ومن يكسب حسنة بقول أو عمل صالح. نزد له فيها حسناً : أي نضاعفها له أضعافاً.

أم يقولون افتري على الله كذباً: أي أيقول هؤلاء المشركون إن محمداً افتري على الله كذباً فنسب إليه

القرآن وهو ليس بكلامه ولا بوجبه.
فإن يشأ الله يختم على قلبك: أي إن يشأ الله تعالى يطبع على قلبك وينسيك القرآن أي أن الله قادر
على أن يمنعك من الافتراء عليه كما زعم المشركون.
ويمحو الله الباطل ويحق الحق: أي إن من شأن الله تعالى أنه يمحو الباطل.

(4/607)

بكلماته : أي بالآيات القرآنية وقد محا الباطل وأحق الحق بالقرآن.
وهو الذي يقبل التوبة عن عباده : أي هو تعالى الذي يقبل توبة التائبين من عباده.
ويعفو عن السيئات : أي لا يؤاخذ بها من تاب منها فهذا هو الإله الحق لا الأصنام التي ليس لها
شيء مما هو الله ألبتة.
ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات : أي ويجيب تعالى عباده الذين آمنوا به وعملوا الصالحات
إلى ما دعوه فيه فيعطيهم سؤلهم.
ويزيدهم من فضله : أي يعطيهم ما سألوا ويعطيهم ما لم يسألوه من الخير.
والكافرون لهم عذاب شديد : أي والكافرون بالله ورسوله ولقاء الله وآياته لهم عذاب شديد.
معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله {تَرَى الظَّالِمِينَ} (1) يوم القيامة مشفقين أي خائفين مما كسبوا أي من جزاء ما
كسبوا من الشرك والمعاصي، وهو أي العذاب واقع بهم نازل عليهم لا محالة وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} أي في
الوقت الذي يكون فيه الظالمون مشفقين مما كسبوا يكون الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد
رسولاً وعملوا الصالحات من الفرائض والنوافل بعد اجتناب الشرك والكبائر في روضات الجنات وهي
أنزهها وأحسنها لهم ما يشاءون من النعيم مما تشتهيهِ الأنفس وتلذه الأعين كل ذلك في جوار رب
كريم وقوله تعالى {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (2) أي ذاك الذي أخبر تعالى به أنهم فيه من روضات
الجنات وغيره هو الفضل الكبير الذي تفضل الله تعالى عليهم به.
وقوله في الآية الثانية (23) {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي ذلك
المذكور من روضات الجنات وغيره هو الذي يبشر الله تعالى به عباده الذين آمنوا وعملوا
الصالحات في كتابه وعلى لسان رسوله.

وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ} (3) عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} يأمر تعالى رسوله أن يقول لقومه
من المشركين لا أسألكم على إبلاغي إياكم دعوة ربي إلى الإيمان به وتوحيده لتكملوا وتسعدوا أجراً
أي مالا لكن أسألكم أن تودوا قرابتي منكم فلا تؤذوني وتمنعوني من الناس حتى

1- هذا عرض لما يجري من أحوال في عرصات القيامة وما ينتهي إليه الموقف من إسعاد أهل الإيمان والعمل الصالح وإشقاء أهل الشرك والمعاصي.

2- لا يوصف ولا يهتدي العقول إلى معرفة كنه صفته لأن الله تعالى إذا قال كبير كان مما لا يقادر قدره.

3- هذا الخطاب خاص بقريش قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والاستثناء منقطع فهو بمعنى لكن ومعنى الآية قل لا أسألكم عليه أي على البلاغ أجراً أي ثواباً وجزاءً إلا أن تودوني من قرابتي منكم أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني وتتصروني حتى أبلغ رسالتي وذلك أنه ما من بطن من بطون قريش إلا وفيه للرسول صلى الله عليه وسلم قرابة رحم وأما توجيه الآية على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تحمل واضح إلا أن حب آل البيت وتعظيمهم واجب وأكد ووردت فيه أحاديث كثيرة صالحة للاحتجاج بها.

(4/608)

أبلغ دعوة ربي.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَفْتَرِ حَسَنَةً} أي من يعمل حسنة نزد له فيها حسناً بأن نضاعفها له إذ الله غفور للثائبين من عباده شكور للعاملين منهم فلا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ (1) افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} أي بل يقولون أفترى على الله كذباً أي يقول المشركون إن محمداً افترى على الله كذباً فادعى أن القرآن كلام الله ووحيه وما هو إلا افتراء افتراه على الله.

فأبطل الله تعالى هذه الدعوة وقال: {فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} أي يطبع على قلبك فتتسى القرآن ولا تقدر على قوله والنطق به، فكيف إذا يقال إنه يفترى على الله كذباً والله قادرٌ على منعه والإحالة بينه وبين ما يقوله. وقوله: {وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} هذا شأنه تعالى يمحو الباطل ويحق الحق بالقرآن وقد فعل فمحا الباطل وأحق الحق فما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الجزيرة من يعبد غير الله تعالى. وقوله {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} فلواسع علمه وعظيم قدرته محا الباطل وأحق الحق بالقرآن ولو كان القرآن مفترى ما محا باطلاً ولا أحق حقاً

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} أي إن تابوا إليه وأنابوا، ويعفوا عن سيئاتهم فلا يؤاخذهم بها، ويعلم ما يفعلون في السر والعلن ويجزي كلاً بما عمل وهو على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ (2) آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي يجيب دعاءهم فيما طلبوه ويزيدهم من فضله فيعطيهم ما لم يطلبوه فما أعظم كرمه وما أوسع رحمته!! هذا للذين آمنوا وعملوا الصالحات. وأما الكافرون فلهم عذاب شديد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير حق القرابة ووجوب المودة فيها. واحترام قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقديرها.
- 2- تبرئة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الافتراء على الله عز وجل.
- 3- مضاعفة الحسنات، وشكر الله للصالحات من أعمال عباده المؤمنين.
- 4- وجوب التوبة وقبول الله تعالى لها، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة. وللتوبة ثلاثة شروط: الإقلاع الفوري عن المعصية، والاستغفار، والندم على ما فعل من

- 1- أم للإضراب الانتقالي والاستفهام إنكاري ينكر تعالى على المشركين الذين قالوا إن محمداً يفترى على الله الكذب فيقول أرسلني الله وما أرسله ويقول القرآن من وحي الله، والله ما أوحى إليه فأنكر تعالى هذا على قائله ووضح لهم أن دعواهم لا تمت إلى الواقع بصلة.
- 2- فاعل يستجيب هو الله عز وجل والذين مفعول به في محل نصب والسين والتاء للتأكيد إذ استجاب هو بمعنى أجاب.

(4/609)

المعصية بترك الواجب أو بفعل المحرم. وإن كان الذنب يتعلق بحق آدمي زاد شرط رابع وهو التحلل من الآدمي بأداء الحق أو بطلب العفو منه.

- 5- وعد الله تعالى باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات وهم أولياء الله تعالى الذين إن سألوا أعطاهم وإن استعذوه أعادهم وإن استصروه نصرهم. اللهم اجعلنا منهم واحشرونا في زميرهم.
- وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)
- وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31)

شرح الكلمات:

ولو بسط الله الرزق لعباده: أي لو وسع الرزق لجميع عباده.

لبغوا في الأرض: أي لطمغوا في الأرض جميعاً.

ولكن ينزل بقدر ما يشاء: أي ينزل من الأرزاق بقدر ما يشاء فيبسط ويضيّق.

إنه بعباده خبير بصير : أي إنه بأحوال عباده خبير إذ منهم من يفسده الغنى ومنهم من يصلحه ومنهم من يصلحه الفقر ومنهم من يفسده.
وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا : أي المطر من بعد يأسهم من نزوله.
وينشر رحمته : أي بركات المطر ومنافعه في كل سهل وجبل ونبات وحيوان.
وهو الولي الحميد : أي المتولي لعباده المؤمنين المحسنين إليهم المحمود عندهم.

(4/610)

وما بث فيهما من دابة : أي فرق ونشر من كل ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم.
وهو على جمعهم إذا يشاء قدير : أي للحشر والحساب والجزاء يوم القيامة قدير .
وما أصابكم من مصيبة : أي بلية وشدة من الشدائد كالمرض والفقر .
فيما كسبت أيديكم : أي من الذنوب والآثام.
ويعفو عن كثير : أي منها فلا يؤاخذ به، وما عفا عنه في الدنيا لا يؤاخذ به في الآخرة.
وما أنتم بمعجزين في الأرض : أي ولستم بفائتي الله ولا سابقيه هرباً منه إذا أراد مؤاخذتكم بذنوبكم.
معنى الآيات:

قوله تعالى: ﴿لَوْلَوْ بَسَطَ (1) اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا شروع في عرض مظاهر القدرة والعلم والحكمة الموجبة لربوبية الله تعالى المستلزمة لألوهيته على عبادته فقال تعالى: ﴿لَوْلَوْ بَسَطَ اللَّهُ﴾ أي رب العباد الرزق فوسعه عليه لبغوا في الأرض فطغا بعضهم على بعضهم وظلم بعضهم بعضاً ولزم ذلك فساد كبير (2) في الأرض قد تتعطل معه الحياة بكاملها.
ولكن ينزل بقدر ما يشاء أي ينزل من الأرزاق بمقادير محددة حسب تدبيره لحياة عباده ويدل على هذا قوله إنه بعباده خبير (3) بصير أي إنه بما تتطلبه حياة عباده ذات الآجال المحدودة، والأعمال المقدرّة الموزونة، والنتائج المعلومة أزلاً. هذا مظهر من مظاهر العلم والقدرة والحكمة ومظهر آخر في قوله، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ، فإنزال المطر بكميات ومقادير محددة وفي أماكن محددة، وفي ظروف محددة هذا التصرف ما قام إلا على القدرة القاهرة والخبرة التامة، إنه يمنع عن عباده المطر فيمحلوا ويجذبوا حتى ييأسوا ويظهر عجزهم وعجز آلهتهم التي يعبدونها ظلماً فاضحاً إذ لا تستحق العبادة بحال من الأحوال ثم ينزل الغيث (4) وينشر الرحمة فتعم الأرزاق والخيرات والبركات، وهو الولي الذي لا تصلح والولاية لغيره الحميد أي المحمود بصنائع بره وعوائد خيره ومظاهر رحمته. هو الولي بحق والمحمود

فتمنيناها فنزلت {ولو بسط الله} الآية والآية تضمنت رداً على من يقول ما دام الله يستجيب للذين آمنوا الخ لم لا يسألونه سعة الرزق فيغنيهم ويثريهم بالأموال فكان الجواب ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض.

2- وشاهده من السنة هو قوله صلى الله عليه وسلم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم.

3- القدر بفتحيتين: المقدار والتعيين والجمع بين صفتي "خبير" و "بصير" لأن وصف خبير دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها أي العلم بما سيكون ووصف بصير دال على العلم المتعلقة بأحوالهم التي حصلت.

4- الغيث المطر وسمي غيثاً لأن به غيث الناس المضطرين.

(4/611)

بحق، ومظهر آخر في قوله تعالى ومن آياته الدالة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لربوبيته لسائر خلقه المستلزمة لألوهيته على سائر عباده: {خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إيجادهما بما هما عليه من عجائب الصفة، وما بث أي فرق ونشر فيهما من دابة تدب على الأرض، أو ملك يسبح في السماء. فهذا الخلق والإبداع ناطق بربوبيته تعالى صارخ بألوهيته لعباده فلم إذا يعبد غيره من مخلوقاته وتترك عبادته وفوق هذا المظهر للخلق والرزق التدبير مظهر آخر وهو قدرته تعالى على جمع سائر خلقه في صعيد واحد ومتى؟ وإنه بعد إفنائهم وتصييرهم عظاما ورفاتا، وهو معنى قوله: وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (1).

وقوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ (2) أُنذِرْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (3)، وهذا مظهر آخر للقدرة والعلم يتجلى فيما يصيب الإنسان من مصيبة في نفسه وولده وماله إن كل مصاب ينزل بالإنسان في هذه الحياة ناتج عن مخالفة الله تعالى فيما وضع من القوانين والشرائع والسنن. وأعظم دلالة أن يعطل القانون الماضي ويوقف مفعوله فيكسب العبد الذنب ولا يؤاخذ به عفواً من الله تعالى عليه، وهو معنى قوله تعالى {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} فله الحمد وله المنة. ومظهر آخر من مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته هو أن الناس مهما أوتوا من قوة وتدبير وعلم ومعرفة لم ولن يعجزوا الله تعالى {أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} فالسماوات فوقهم والأرض تحتهم إن يشأ يخسف الأرض من تحتهم أو يسقط عليهم السماء كسفاً من فوقهم. فإلى أين المهرب والجواب إلى الله فقط بالاستسلام له والانقياد بالطاعة وفي ذلك نجاتهم وعزهم وكرامتهم وزيادة على سعادتهم وكمالهم في الحياتين وقوله: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} أي وليس لكم أيها الناس مع عزركم من ولي يتولاكم ولا ناصر

ينصركم. إذا ففروا إلى الله بالإيمان والإسلام له تتجوا وتسعدوا.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
- 2- من مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته على عباده إنزال الغيث بعد اليأس والقنوط وخلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة.
- 3- بيان حقيقة علمية ثابتة وهي أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف.
- 4- بيان أنه ما من مصيبة تصيب المرء في نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه.

1- تقرير لعقيدة البعث والجزاء أثناء تقرير عقيدة التوحيد والنبوة المحمدية.

2- قرأ نافع بما كسبت وقرأ حفص فيما كسبت بزيادة الفاء.

3- قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفوا الله عنه أكثر. وشاهد آخر من كتاب الله تعالى قوله تعالى {من يعمل سوء يجز به}.

(4/612)

1- بيان أن من الذنوب ما يعفو (1) الله تعالى عنه ولا يؤاخذ به تكراً وإحساناً. وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبُوْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

شرح الكلمات:

ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام: أي ومن علامات ربوبيته للخلق إيجاد السفن كالجبال في البحار وتسخير البحار للسير فيها لمنافع العباد.

إن يشأ يسكن الريح: أي يوقف هبوب الريح فلا نسيم ولا عواصف.

فيظللن رواكد على ظهره: أي تقف السفن وتظل راكد حابسة على ظهر البحر.

إن في ذلك لآيات: أي في هذه المظاهر من خلق السفن والبحار وتسخير البحار وسير السفن

وركودها عند سكون الرياح لدلالات واضحة على وجود الله وقدرته وعمله وحكمته.

لكل صبار شكور: أي إن هذه الآيات لا يراها ولا ينتفع بها إلا من كان صباراً عند الشدائد والمحن

شكوراً عند الآلاء والنعم.

أو يوبقهن بما كسبوا : أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيهلك تلك السفن ويغرقها بمن فيها بسبب ذنوب أصحابها، وهو على ذلك قدير .

ويعفو عن كثير : أي إنه تعالى ليعفو عن كثير من الذنوب والخطايا فلا يؤاخذ بها إذ لو أخذ بكل ذنب ما بقي أحد على وجه الأرض لقلّة من لا يذنب فيها .

ويعلم الذين يجادلون في آياتنا : أي ويعلم المكذبون بآيات الله من المشركين عندما تعصف العواصف وتضطرب السفن ويخاف الغرق .

ما لهم من محيص : أي ليس لهم من مهرب إلا إلى الله فيجأرون بدعائه وحده ناسين آلهتهم الباطلة .

1- ولذا قال علي رضي الله عنه أرجى آية في كتاب الله تعالى هي هذه الآية وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟.

(4/613)

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر مظاهر الربوبية المستلزمة لألوهية الله تعالى ووجوب عبادته وحده دون سواه فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ (1) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} أي ومن حججه عليكم يا عباد الله الدالة على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته أيضاً هذه السفن الجوار في البحر كأنها جبال عالية تسير من إقليم إلى إقليم بتسخير الله تعالى البحار وإرسال الرياح وهي تجري بمنافعكم حيث تنقل الركاب والبضائع من إقليم إلى آخر . فهذا مظهر قدرة الله ورحمته، وإن يشأ تعالى إسكان الريح فإنها تسكن فلا تهب ولا تتسم بنسيم ألبيّة فتقف السفن وتركد على سطح(2) الماء فلا تتحرك، وإن يشأ أيضاً يرسل عليها عواصف من الريح فتضطرب وتغرق بما فيها ومن فيها وذلك بذنوب أصحابها إن القاعدة الثابتة المقررة أنه ما من مصيبة إلا بذنوب . وهذا معنى قوله {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ}.

وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} أي إن في هذه المظاهر من خلق السفن والبحار وتسخير البحار وسير السفن عليها وركودها عند سكون الريح لحجج واضحة قوية على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ولكن لا يراها ولا ينتفع بها أمثال البهائم، ولكن هي من نصيب كل عبد صبار على طاعة الله وبلائه شكور لآلائه ونعمه عليه .

وقوله {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا(3)}. وقوله {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ(4)} أي ولا يؤاخذ بكل ذنب فقد يعفو عن كثير من الذنوب . إذ لو عاقب على كل ذنب وأخذ بكل خطيئة لما بقي على وجه الأرض أحد إذ ما

من أحد إلا ويذنب اللهم إلا ما كان من المعصومين من الأنبياء والمرسلين فإنهم لا يذنبون، ولكن قد يذنب أصولهم وفروعهم فيهلكون ومن أين يوجدون!!

- 1- الجوار جمع جارية والأعلام جمع علم والعلم الجبل والآيات جمع آية وهي العلامة الدالة على الشيء الهادية إليه المعروفة به. وسميت السفينة جارية لأنها تجري في البحر وسميت الشابة من النساء جارية لأنها يجري فيها ماء الشباب.
- قال الخليل كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم واستشهد بقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخرًا: وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
- 2- يقال راكد الماء ركوداً سكن وكذلك الريح والسفن والشمس إذا قام قائم الظهيرة وكل ثابت في مكان فهو راكد والرواكد جمع راكدة مؤنث راكدة.
- 3- أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن أي يغرقهن بذنوب أهلها إذ الباء سببية.
- 4- ويعفو عن كثير أي من أهلها فلا يغرقهم معها، كما يتجاوز عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ بها. ويعف مجزوم بحذف آخره لأنه معطوف على إن يشأ يسكن الريح أي وإن يشأ يعف.

(4/614)

وقوله تعالى: {وَيَعْلَمَ (1) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (2)} أي وعندما تكون الريح عاصفة وتضطرب السفن وتشرف على الغرق هنا يعلم المشركون الذين يخاصمون رسول الله ويجادلونه في الوحي الإلهي ويكذبون به يعلمون أنهم في هذه الحال ما لهم من محيص أي من ملجأ ولا مهرب من الله إلا إليه فيجأرون بدعاء الله وحده كما قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر ربوبية الله وألوهيته على خلقه.
 - 2- فضل الصبر والشكر وفضيلة الصابرين الشاكرين.
 - 3- تقرير قاعدة ما من مصيبة إلا بذنب مع عفو الله عن كثير.
 - 4- عند معاينة العذاب يعرف الإنسان ربه ولا يعرف غيره.
- فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنْ انْتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

- 1- قرأ نافع ويعلم بالرفع على أنه كلام مستأنف وقرأ حفص ويعلم بالنصب عطفاً على فعل مدخول
للام التعليل تضمن (أن) بعده، والتقدير لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون الخ..
- 2- المحيص مصدر ميمي من حاص يحيص حيصاً إذا أخذ في الفرار والهرب مائلاً في سيره وفي
حديث أبي سفيان: فحاصوا حيصة حمر الوحش. والمعنى ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله
تعالى.

(4/615)

شرح الكلمات:

فما أوتيتم من شيء: أي فما أعطيتم من شيء من متاع الدنيا كالجمال والولد والمطعم والمشرب
والملبس والمسكن والمنكح والمركب.
فمتاع الحياة الدنيا: أي يتمتع به زمناً ثم يزول ولا يبقى.
وما عند الله خير وأبقى: أي وما عند الله من ثواب الآخرة فهو خير في نوعه وأبقى في مدته.
للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: أي ما عند الله خير وأبقى لأصحاب الصفات التالية:
الإيمان، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتجاوز عن أساء إليهم، والاستجابة
لربهم في كل ما دعاهم إليه فعلاً أو تركاً، وإقام الصلاة والمشورة (1) بينهم والإنفاق مما رزقهم الله،
والانتصار عند البغي عليهم هذه عشرة صفات أصحابها ما أعده الله تعالى لهم يوم يلقونه خير من
متاع الدنيا بكامله.

وجزاء سيئة سيئة مثلها: أي جزاء سيئة المسيء عقوبته بما أوجبه الله عليه.
فمن عفا وأصلح فأجره على الله: أي فمن عفا عن أساء إليه وأصلح ما بينه وبينه فأجره على الله
ثابت له.

إنه لا يحب الظالمين: أي لا يحب البادئين بالظلم، ومن لم يحبه الله أذن في عقوبته.
ولمن انتصر بعد ظلمه: أي ومن ظلمه ظالم فأخذ منه بحقه.
فأولئك ما عليهم من سبيل: أي لمؤاخذتهم، لأنهم ما بدأوا بالظلم.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ} (2) مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} هذا شروع في بيان صفات الكمال في
المسلم التي يستوجب بها نعيم الآخرة ضمن التعريض بزينة الحياة الدنيا الفانية فقال تعالى {فَمَا

أوتيتهم} أيها الناس من مؤمن وكافر من شيء في هذه الحياة الدنيا من لذيذ الطعام والشراب وجميل اللباس، وفاخر المساكن وأجمل المناكح وأفره المراكب كل ذلك متاع الحياة الدنيا يزول ويفنى. أما ما عند الله أي ما أعدده الله لأوليائه في الدار الآخرة فهو خير وأبقى لكن لمن أعدده؟

1- ومما يقال في المشورة نظماً قول بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن

برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

فإن الخوافي قوة للقوادم

الخوافي ريشات إذا ضم الطير جناحيه خفيت، والقوادم عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش.

2- قال القرطبي في قوله تعالى: {فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا} يريد من الغنى والسعة في الدنيا

(4/616)

والجواب للذين آمنوا أي بالله وآياته ولقائه ورسوله وبكل ما جاء به والذين على ربهم لا على سواه يتوكلون ثقة في كفايته واعتماداً عليه، والذين يجتنبون أي يتركون كبائر (1) الإثم كالشرك والقتل والظلم وشرب الخمر وأكل الحرام والفواحش كالزنى واللواط. والذين إذا غضبوا يتجاوزون (2) عن غضبهم ويغفرون له زلته أو إساءته إليهم والذين استجابوا لربهم (3) عندما ناداهم ودعاهم لكل ما طلبه منهم، والذين أقاموا الصلاة فأدوها على وجهها المطلوب لها من خشوع مراعين شرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها، والذين أمرهم شورى بينهم أي أمرهم الذي يهمهم في حياتهم أفراداً وجماعات وأماً وشعوباً يجتمعون عليه ويتشاورون (4) فيه ويأخذون بما يلهمهم ربهم بوجه الصواب فيه. والذين مما رزقهم الله من مال وعلم وجاه وصحة بدن ينفقون شكراً لله على ما رزقهم واستزادة للثواب يوم الحساب. والذين إذا أصابهم البغي أي إذا بغى عليهم البغاة الظلمة من الكافرين ينتصرون لأنفسهم إذاراً لها وإكراماً لأنها أنفس الله وليها فالعزة واجبة لها. هذه عشر صفات متى اتصف بها العبد لا يضره شيء لو عاش الدهر كله فقيراً نقياً محروماً من لذيذ الطعام والشراب ومن جميل اللباس، والسكن والمركب إذ ما عند الله تعالى له خير أبقى مع العلم أن أهل تلك الصفات سوف لا يحرمون من طيبات الحياة الدنيا بل هم أولى بها من غيرهم إلا أنها ليست شيئاً يذكر إلى جانب ما عند الله يوم يلقونه ويعيشون في جواره.

وقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} هذا هو الحكم الشرعي جزاء المسيء العقوبة بما أوجب الله تعالى له في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعال فمن عفا عن أساء إليه، أصلح ما بينه وبينه فعادت المودة وعاد الإخاء فأجره على الله وهو خير له وأبقى من شفاء صدره بعقوبة أخيه الذي أساء إليه. وقوله تعالى {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} تعليل لعظم الأجر لمن عفا أي كونه تعالى لا يحب الظالمين ضاعف الأجر وأجزل المثوبة للمظلوم إذا عفا وأصلح. وقوله: {وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (5)} أي وللذي ظلم فانتصر لنفسه وردَّ الظلم عنها فهؤلاء لا سبيل لكم إلى أذيتهم وعقوبتهم. هذا حكم الله وشرعه.

- 1- روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الفواحش الزنا وأن كبير الإثم الشرك وهو كذلك.
- 2- وإذا ما غضبوا هم يغفرون أي يتجاوزون ويحملون عن ظلمهم، قيل نزلت في عمر حين شتم بمكة وقيل في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاقه ماله كله وحين شتم فحلّم.
- 3- قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة.
- 4- قال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب وما تشاور قوم قط إلا هدوا وفي الحديث "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وما عال من اقتصد". والشورى والمشورة بمعنى واحد.
- 5- لقد مدح الله تعالى المنتصر من الظلم ومدح العفو عن الجرم، فالانتصار يكون من الظالم المعن الفجور الوقح في الجمهور المؤذي للصغير والكبير فهذا الانتقام منه أفضل، والعفو يكون في الفتنة، وفيمن يعترف بالزلة ويطلب العفو.

(4/617)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- متاع الحياة الدنيا إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين لا يعد شيئاً يذكر أبداً.
- 2- بيان أكمل الشخصيات الإسلامية وهي الشخصية التي تتصف بالصفات العشر التي تضمنتها الآيات الأربع ذات الرقم (36-37-38-39).
- 3- مشروعية القصاص وعقوبة الظالم.
- 4- عدم مؤاخذه من ظلم فأخذ بحقه بلا زيادة عنه ما لم يكن حداً فإن الحدود يقيمها الإمام.
- 5- فضيلة العفو على الإخوة المسلمين والإصلاح بينهم.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)
وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ (44) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ
الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

شرح الكلمات:

إنما السبيل : أي بالعقوبة والأذية.

على الذين يظلمون الناس : أي يعتدون عليهم في أعراضهم وأبدانهم وأموالهم.

(4/618)

ويبغون في الأرض بغير الحق : أي ويطلبون في الأرض الفساد فيها بالشرك والظلم والإجرام.
ولمن صبر وغفر : أي ولمن صبر فلم ينتصر لنفسه وغفر وتجاوز عن أساء إليه.
إن ذلك: أي ذلك الصبر والتجاوز عن المسيء.
لمن عزم الأمور : أي لمن معزومات الأمور المطلوبة شرعا.
ومن يضلل الله : أي حسب سنته في الإضلال.
فما له من ولي من بعده: أي فليس له من أحد يتولى هدايته ويقدر عليها.
هل إلى مرد من سبيل: أي هل إلى مرد إلى الحياة الدنيا من سبيل نسلكتها لنعود إلى الدنيا.
وتراهم يعرضون عليها : أي على النار خاشعين خائفين متواضعين.
ينظرون من طرف خفي : أي من عين ضعيفة النظر كما ينظر المقتول إلى السيف لا يملأ عينه
منه.

يوم القيامة : أي لخلودهم في النار، وعدم وصولهم إلى الحور العين في دار السلام.

ألا إن الظالمين : أي المشركين.

في عذاب مقيم : أي دائم لا يخرجون منه وهو عذاب الجحيم.

ومن يضلل الله فما له من سبيل: أي طريق الهداية في الدنيا، وإلى الجنة يوم القيامة.

معنى الآيات:

لقد تقدم في قوله تعالى في الآية قبل هذه: {وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} فلما

نفى عن المنتصرين السبيل إلى عقوبتهم أثبت هنا أن السبيل إلى العقوبة والمواخذة هو على

الذين (1) يظلمون الناس بالاعتداء عليهم في أبدانهم أو أعراضهم أو أموالهم يبغون في الأرض بغير

الحق أي ويطلبون الفساد فيها بالشرك والظلم والمعاصي، وليس في الشرك والظلم والمعاصي من حق يبيحها، وقوله {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي للذين يبيغون في الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم أي موجع وهو عذاب الدنيا بعقوبتهم الصارمة ويوم القيامة إن لم يتوبوا من الظلم والفساد في الأرض.

وقوله تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (2)} يخبر تعالى مؤكداً الخبر بلام الابتداء أن من صبر فلم ينتصر لنفسه من أخيه المسلم وغفر لأخيه زلته فتجاوز له عنها فإن ذلك المذكور من الصبر والتجاوز من معزومات الأمور المطلوبة شرعاً.

1- هذه الآية تقابل آية التوبة {ما على المحسنين من سبيل} حيث نفت السبيل على المحسنين وهو لومهم وعتابهم وهذه أثبتته على المسيئين الظالمين.

2- قال العلماء هذا فيمن ظلمه مسلم فإنه مندوب إلى الصبر وعدم المؤاخذة وهو العفو روي أن رجلاً سب آخر في مجلس الحسن البصري فكان المسبوب يكظم ويعرق ويمسح العرق ثم قام فتلا هذه الآية فقال الحسن عقلمها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون، والعزم عقد النية على العمل والثبات عليه.

(4/619)

وقوله تعالى: {وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ (1) مِنْ بَعْدِهِ} أي ومن يضلله الله تعالى حسب سنته في الإضلال فليس له من أحد من بعد الله يهديه. وقوله تعالى: {وَتَرَى الظَّالِمِينَ} أي المشركين لما رأوا العذاب أي عذاب النار يقولون: متمنين الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويوحدا حتى ينجوا من عذاب النار ويدخلوا الجنة مع الأبرار: هل إلى مرد من سبيل؟ أي هل إلى مرد إلى الدنيا من طريق؟ قال تعالى {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} أي على النار خاشعين خاضعين متواضعين من الذل ينظرون من طرف خفي (2) يسترقون النظر لا يملأون أعينهم من النظر إلى النار لشدة خوفهم منها. وهنا يقول الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وذلك لخلودهم في النار وحرمانهم من الوصول إلى الحور العين في الجنة دار الأبرار، ويعلن معلن فيقول: ألا إن الظالمين لأنفسهم بالشرك والمعاصي في عذاب مقيم لا يبرح ولا يزول وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} يخبر تعالى بأنه لم يكن لأولئك الظالمين من أهل النار من أولياء من دون الله ينصرونهم بتخليصهم من العذاب. وقوله: {وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} أي فما له طريق إلى هدايته في الدنيا وإلى الجنة يوم القيامة.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه.
 - 2- وجوب معاقبة الظالم والضرب على يديه.
 - 3- فضيلة الصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل.
 - 4- لا أعظم خسرانا ممن يخلد في النار ويحرم الجنة وما فيها من نعيم مقيم.
- اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47)
فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا

- 1- من ولي (من) زائدة للتوكيد إذ الكلام فما له ولي من بعده وكذلك في قوله الآتي (وما كان لهم من أولياء) فمن زائدة للتوكيد.
- 2- الطرف مصدر طرف يطرف طرفاً إذا حرك جفنه ولذا هو لا يثنى ولا يجمع قال تعالى {لا يرتد إليهم طرفهم} ويطلق الطرف على العين كما في هذه الآية قال الشاعر:
فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

(4/620)

أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ
ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)
شرح الكلمات:

- استجيبوا لربكم : أي أجيئوه لما دعاكم إليه من التوحيد والعبادة.
من قبل أن يأتي يوم : أي يوم القيامة.
لا مرد له من الله : أي إذا أتى لا يرد بحال.
ما لكم من ملجأ يومئذ : أي تلجأون إليه وتتحصنون فيه.
وما لكم من نكير : أي وليس لكم ما تنكرون به ذنوبكم لأنها في كتاب الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.
فإن أعرضوا : أي لم يجيبوا ربهم لما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة.
إن عليك إلا البلاغ : وقد بلغت فلا مسئولية تخشاها بعد البلاغ.
وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة : أي نعمة كالغنى والصحة والعافية.

وإن تصبهم سيئة : أي بلاء كالمرض والفقر وغير ذلك.
بما قدمت أيديهم: أي من الذنوب الخطايا.
فإن الإنسان كفور : أي للنعمة والمنعم والإنسان هو غير المؤمن التقى.
الله ملك السموات والأرض : أي خلقاً وملكاً وتصرفاً.
يهب لمن يشاء إناثاً: أي يرزق من يشاء من الناس بنات.
ويهب لمن يشاء الذكور: أي ويعطي من يشاء الأولاد الذكور.
أو يزوجهم ذكراً وإناثاً: أي يجعلهم ذكوراً وإناثاً.
ويجعل من يشاء عقيماً: أي لا يلد ولا يولد له.

(4/621)

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض الهائل لأحوال الظالمين في عرصات القيامة طلب الرب تعالى من عباده أن يجيبوه لما طلبه منهم إنقاذاً لأنفسهم من النار فقال: { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (1) } بمعنى أجيبوه لما دعاكم إليه من التوحيد والطاعات قبل فوات الفرصة وذلك قبل الموت وقبل يوم القيامة اليوم الذي إذا جاء لا مرد له من الله، إذ لا يقدر على رده إلا الله والله أخبر أنه لا يرده فمن يرده إذا؟ فبادروا بالتوبة إلى ربكم قبل مجيئه حيث لا يكون لكم يومئذ ملجأ تلجأون إليه هارين من العذاب ولا يكون لكم نكير يمكنكم أن تتكروا به ذنوبكم إذ قد جمعت لكم في كتاب واحد لم يترك صغيرة من الذنوب ولا كبيرة إلا أحصاها عدا. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (47) وهي قوله تعالى: { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (2) }. وقوله تعالى في الآية الثانية (48) { فَإِنْ أَعْرَضُوا } أي لم يجيبوا ربهم لما دعاهم إليه من التوحيد والطاعة { فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا } رقيقاً تحصي أعمالهم وتحفظها لهم وتجازيهم بها. { إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا النَّبَاحُ } أي ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت وبرئت ذمتك فلا يهملك أمرهم ولا تحزن على إعراضهم .. وقوله تعالى: { وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ (3) مِنَّا رَحْمَةً } أي نعمة كسعة رزق وصحة بدن وكثرة مال وولد فرح بها فرح البطر والأشر، وهذا الإنسان الكافر أو الجاهل الضعيف الإيمان. وإن تصبهم سيئة أي ضيق عيش ومرض وفقر بما قدمت أيديهم من الذنوب فإن الإنسان كفور سرعان ما ينسى النعمة والمنعم ويقع في اليأس والقنوط هذا الإنسان قبل أن يؤمن ويسلم ويحسن فإذا آمن وأسلم وأحسن تغير طبعه وطهر نبعه وأصبح يشكر عند النعمة ويصبر عند النعمة. وقوله تعالى: { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ (4) وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } إن بحكم سلطانه على الأرض والسماء فإنه يتصرف كيف يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم له ذكراً وإناثاً، ويجعل من يشاء من

الناس عقيماً لا يلد ولا يولد له، وهذا ناتج عن علم أحاط بكل شيء، وقدرة أخضعت لها كل شيء وهذا معنى قوله {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} (5) فالواجب أن يسلم العبد لربه فيما وهبه وأعطاه إذ الله يعطي الحكمة ويمنع لحكمة، من السفه الاعتراض على حكم الله.

- 1- السين والتاء للتوكيد واللام لريكم لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول نحو شكرت له وحمدت له وتسمى هذه اللام لام التبليغ ولام التبيين إذ الأصل أجابه واستجابه.
- 2- النكير: اسم مصدر أنكر ينكر إنكاراً والنكير اسم المصدر إذ نقصت حروفه والمعنى ما لكم إنكار لما جوزيتم به إذ لا يسعكم إلا الاعتراف.
- 3- الإذاقة كناية عن الإصابة والمراد بالرحمة أثرها وهي النعمة والتقدير وإنا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة.
- 4- الجملة مستأنفة بيانياً إذ لسائل أن يقول لم لا يفرط الله الإنسان على خلق الشكر فكان الجواب لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء.
- 5- الجملة تعليلية فصفتا العلم والقدرة بهما يكون الولد ولا يكون فليسلم الأمر لله في العقم والولادة.

(622/4)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها.
 - 2- على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
 - 3- بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات.
 - 4- الله مطلق التصرف في الملكوت كله فلا يصح الاعتراض عليه في شيء فهو يهب ويمنع لحكم عالية لا تتركها عقول العباد.
 - 5- وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع عند الشعور بالعقم أو العقر. أما ما ظهر الآن من بنوك المنى، والإنجاب بطريق صبّ ماء فحل في فرج امرأة عاقر وما إلى ذلك فهذه من أعمال الملاحدة الذين لا يدينون الله بالطاعة له والتسلم لقضائه، وإن صاموا وصلوا وادعوا أنهم مؤمنون إذ لا حياء لهم ولا إيمان لمن لا حياء له، وحسبهم قبحا في سلوكهم هذا الكشف عن السوءات بدون إنقاذ حياة ولا طلب رضا الله رب الأرض والسموات.
- وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه إِنَّهُ

عَلِيٍّ حَكِيمٍ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

(4/623)

شرح الكلمات:

إلا وحياً أو من وراء حجاب: أي إعلاماً خفياً سريعاً في يقظة أو منام، أو يكلمه من وراء حجاب فيسمع الكلام ولا يرى الذات.

أو يرسل رسولاً: أي يرسل ملكاً في صورة إنسان فيكلمه مبلغاً عن الله تعالى.

إنه علي حكيم: أي الله تعالى ذو علو على سائر خلقه حكيم في تدبير خلقه.

وكذلك أوحينا إليك: أي كما كنا نوحى إلى سائر رسلنا أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن.

روحاً من أمرنا: أي وحياً ورحمة من أمرنا الذي نوحيه إليك.

ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان: أي لم تكن قبل تدري أي شيء هو الكتاب، ولا الإيمان الذي هو قول وعمل واعتقاد.

ولكن جعلناه نوراً نهدي به: أي جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا إلى صراطنا.

وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم: أي الإسلام.

ألا إلى الله تصير الأمور: أي ترجع أمور جميع العباد في يوم القيامة إلى الله تعالى.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {لَوْ مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً (1)} يخبر تعالى أنه ليس من شأن البشر كائناً

من كان أن يكلمه الله تعالى إلا وحياً بأن يعلمه بطريق سريع خفي إلهاماً أو مناماً فيفهم عن الله

تعالى ما ألقاه في روعه (2) جازماً أنه كلام الله ألقاه إليه، هذه طريقة وثانية أن يكلمه الله تعالى

فيسمعه كلامه بدون أن يرى ذاته كما كلم موسى عليه السلام غيره مرة. وثالثة أن يرسل إليه رسولاً

كجبريل عليه السلام فيبلغه كلام ربه تعالى هذا معنى قوله تعالى {لَوْ مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا

وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ (3) رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ} أي ذو علو على خلقه

{حَكِيمٌ} في تدبيره لخلقته.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا} أي كما كنا نوحى إلى سائر رسلنا أوحينا إليك يا محمد

روحاً وهو القرآن وسمي روحاً لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأجسام بالأرواح، وقوله

1- روى غير واحد أن الآية نزلت رداً على قول من قال للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله

- وتتظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فإننا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك وجائز أن يكون اليهود الذين أشاروا بهذا على كفار قريش وجائز أن يكون اليهود هم القائلون له.
- 2- الروح بضم الراء القلب أو العقل، والفتح الفرع. وفي الحديث "إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فانتقوا الله وأجملوا في الطلب" والحديث صحيح. وأرج بعضهم خذوا ما حل ودعوا ما حرم.
- 3- اختلف الفقهاء فيمن حلف ألا يكلم فلاناً فكتب إليه أو أرسل إليه رسولاً فهل يحنث؟ أوجه الأقوال أنه إذا اشترط المشافهة في حلفه أنه لا يحنث وإن لم يشترطها يحنث ولا يحنث إن سلم عليه في الصلاة أما في خارجها فإنه يحنث.

(4/624)

{مِنْ أَمْرِنَا (1)} أي الذي نوحيه إليك الشامل للأمر والنهي والوعد والوعيد وقوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ} أي القرآن {وَلَا الْإِيمَانُ (2)} الذي هو عقيدة وقول وعمل. وقوله {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا} أي جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا إلى الإيمان بنا وتوحيدنا وطلب مرضاتنا بفعل محابنا وترك مساخطنا.

وقوله: {وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي وإنك يا رسولنا لتهدي إلى صراط مستقيم الذي هو الدين الإسلامي وقوله {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي خلقا وملكاً وعبداً {أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} أي وإليه تعالى مصير كل شيء، ومرد كل شيء إذ هو المالك الحق والمدبر لأمر المخلوقات كلها، ولذا وجب تفويض الأمر إليه والرضا بحكمه وقضائه ثقة فيه وفي كفايته.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان طرق الوحي وهي ثلاثة الأولى الإلقاء في الروح يقظة أو مناماً والثانية أن يكلم الله النبي بدون أن يرى ذاته عز وجل كما كلم موسى في الطور وكلم محمداً صلى الله عليه وسلم في الملكوت الأعلى والثالث أن يرسل إليه الملك إما في صورته الملائكية أو في صورة رجل من بني آدم فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه من أمره.
- 2- القرآن الكريم روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.
- 3- القرآن نور يستضاء به في الحياة فتعرف به طرق السعادة وسبل النجاة.

1- أي من شأننا العظيم المقتضي الإيحاء إليك بالقرآن الحاوي للشرائع والأحكام وأنواع الهدايات

المكاملة للإنسان الآخذ بها المسعدة له في الحياتين.

2- المنفي من الإيمان هو التفصيلي أما الإجمالي فقد ولد صلى الله عليه وسلم مؤمناً موحداً، ولذا لم يقل وما كنت مؤمناً فالمنفي شرائع الإيمان وتفاصيله.

(4/625)

سورة الزخرف

...

سورة الزخرف

مكية وآياتها تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)
شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب حم ويقرأ: حا ميم.

والكتاب المبين : أي القرآن الموضح لطريق الهدى وسبيل السلام.

إنا جعلناه قرآناً عربياً: أي جعلناه قرآناً بلسان العرب يقرأ بلسانهم ويفهم به.

لعلكم تعقلون: أي رجاء أن تعقلوا أيها العرب، ما تؤمرون به وما تنهون عنه.

وإنه في أم الكتاب لدينا: أي في اللوح المحفوظ كتاب المقادير كلها عندنا.

لعلي حكيم : أي لذو علو وشأن على الكتب قبله لا يوصل إلى مستواه في علوه ورفعته حكيم أي ذو حكمة بالغة عالية لا يرام مثلها.

أفنضرب عنكم الذكر صفحاً : أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً أي لا ينزل القرآن بأمركم ونهيكم ووعدكم ووعيدكم.

أن كنتم قوماً مسرفين: لأن كنتم قوماً مسرفين متجاوزين الحد في الشرك والكفر كلا لا نفعل.

وكم أرسلنا من نبي في الأولين: أي وكثيراً من الأنبياء أرسلناهم في القرون الأولى من الأمم الماضية.

فأهلكنا أشد منهم بطشاً : أي فأنزلنا عذابنا بأشدهم قوة وبطشاً من قومك فأهلكناهم.

(4/626)

ومضى مثل الأولين: أي ومضى في الآيات القرآنية صفة هلاك الأولين.

معنى الآيات:

حم الله أعلم بمراده به، {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} (1) أي والقرآن الموضح لكل ما ينجي من عذاب الله ويكسب جنته ورضاه وهذا قسم أقسم الله به، والمقسم عليه قوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي جعلنا الكتاب المبين الذي هو القرآن عربياً أي بلسان العرب ولغتهم. وقوله {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} بيان للحكمة في جعل القرآن عربياً أي كي تعقلوا معانيه وتفهموا مراد الله منزله منه فيما يدعوكم إليه فيسهل عليكم العمل به فتكملوا وتسعدوا وقوله {وَإِنَّهُ} أي القرآن {فِي أُمَّ الْكِتَابِ} أي اللوح المحفوظ لدينا عندنا {لَعَلِّي} أي ذو علو وشأن على سائر الكتب قبله حكيم ذو حكمة بالغة عالية لا يرام مثلها.

وقوله تعالى: {أَفَنَضْرِبُ} (2) عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ (3) قَوْمًا مُسْرِفِينَ} أي أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً فلا ننزل القرآن حتى لا تؤمروا ولا تنهوا من أجل أنكم قوم مسرفون في الشرك والكفر والتكذيب كلا لا نفعل إذ الاستفهام للإنكار عليهم وقوله {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ (4) نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ} أي وكثيراً من الأنبياء أرسلنا في الأمم السابقة {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي ما أتى أمة من تلك الأمم رسول منا إلا سخروا منه واستهزأوا به، وبما جاءهم به من الإيمان والتوحيد ودعاهم إليه من فعل الصالحات وترك المحرمات إذا فاصبر على قومك فإنهم سالكون سبيل من سبقهم في الكفر والتكذيب والسخرية والاستهزاء. وقوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا} أي أهلكتنا من هم أشد بطشاً في تلك الأمم الماضية لما كذبوا رسلنا واستهزأوا بهم فكيف بهؤلاء الذين هم أضعف منهم وأقل قوة وقدرة فأحرى بهم أن لا يمتنعوا من عذابنا متى أردنا إنزاله بهم. وقوله {وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} أي مضى في الآيات القرآنية صفة هلاك الأولين كقوم عاد وثمود وأصحاب مدين والمؤتفكات ألم يكن لقومك في ذلك عبرة لو كانوا يعتبرون؟

1- الكتاب هو القرآن أقسم به تعالى للإعلان عن مكانته وعلو شأنه وجعله قرآناً يقرأ بلسان العرب مكتوباً في سطورهم، ومحفوظاً في صدورهم للعللة الحكيمة التي تضمنها قوله {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

2- الفاء للتفريع والاستفهام إنكاري أي أتحيسون أن إعراضكم عما نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن؟ كما لا يجوز أن نضرب عنكم صفحاً فلا ننزل القرآن من أجل إسرافكم في الشرك والتكذيب، الصفح: الإعراض بصفح الوجه أي جانبه وهو أشد الإعراض.

3- قرأ نافع {إن كنتم} بكسر الهمزة وقرأ حفص {أن كنتم} بأن المصدرية. وإقحام "قوماً" إشارة إلى أن الإسراف صار طبعاً لهم لا يفارقهم.

4- كم أرسلنا إلى قوله في الأولين تضمن الكلام الإلهي أمرين الأول تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والثاني تهديد المشركين المسرفين بأنهم يتعرضون للهلاك الذي تعرضت له أمم قبلهم أشد منهم بطشاً وأكثر منهم قوة فأهلكوا وبقوا أثراً بعد عين.

(4/627)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الإقسام بالله تعالى.
 - 2- بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.
 - 3- كون الناس مسرفين في الشرك والفساد لا يمنع وعظهم ونصحهم وإرشادهم.
 - 4- بيان سنة بشرية وهي أنهم ما يأتيهم من رسول إلا استهزأوا به.
 - 5- في إهلاك الأقوى دليل على أن إهلاك من هو دونه أحرى وأولى لا سيما مع شدة الكفر.
- وَلِئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

شرح الكلمات:

ولئن سألتهم : أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من قومك يا رسولنا.
من خلق السموات والأرض: أي من بدأ خلقهن وأوجدهن ليقولن خلقهن الله ذو العزة والعلم.
الذي جعل لكم الأرض مهذا (1) : أي الله الذي جعل لكم الأرض فراشاً كالمهد للصبي.

1- قرأ نافع مهاداً وقرأ عاصم مهداً. والمهاد اسم للشيء يمهد أي يوطأ ويسهل لما يحل فيه. والمهد مراد به هنا المهاد.

(4/628)

وجعل لكم فيها سبلا : أي طرقاً.

لعلكم تهتدون : أي إلى مقاصدكم في أسفاركم.

ماء بقدر : أي على قدر الحاجة ولم يجعله طوفاناً مغرقاً ومهلكاً.

فأنشأنا به بلدة ميثاً: أي فأحيينا به بلدة ميثاً أي لا نبات فيها ولا زرع.

كذلك تخرجون : أي مثل هذا الإحياء للأرض الميئة بالماء تحيون أنتم وتخرجون من قبوركم.

والذي خلق الأزواج كلها : أي خلق كل شيء إذ الأشياء كلها زوج ولم يعرف فرد إلا الله.

وجعل لكم من الفلك والأنعام : أي السفن، والإبل.

لتستووا على ظهوره : أي تستقروا على ظهور ما تركبون.

وما كنا له مقرنين : أي مطيقين ولا ضابطين.

وإنا إلى ربنا لمنقلبون: أي لصائرون إليه راجعون.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد بقوله تعالى: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ} أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين من قومك قائلاً من خلق السموات والأرض أي من أنشأهن وأوجدهن بعد عدم لبادروك بالجواب قائلين الله ثم هم مع اعترافهم بربوبيته تعالى لكل شيء يشركون في عبادته أصناماً وأوثاناً. في آيات أخرى صرحوا باسم الجلالة الله وفي هذه الآية قالوا: العزيز العليم (1) أي الله ذو العزة التي لا ترام والعلم الذي لا يحاط به. وقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} أي فراشاً (2) وبساطاً كمهد الطفل وهذا من كلام الله تعالى لا من كلام المشركين إذ انتهى كلامهم عند العزيز العليم فلما وصفوه تعالى بصفتي العزة والعلم ناسب ذلك ذكر صفات جليلة أخرى تعريفاً لهم بالله سبحانه وتعالى فقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} أي بساطاً وفراشاً، وجعل لكم فيها سبلاً أي طرقاً لعلكم تهتدون إلى مقاصدكم لنيل حاجاتكم في البلاد هنا وهناك، والذي نزل من السماء ماء بقدر هو المطر بقدر أي بكميات موزونة على قدر الحاجة منها فلم تكن ضحلة قليلة لا تنفع ولا طوفاناً مغرقاً مهلكاً، وقوله

- 1- من الجائز أن يكون العزيز العليم من قول المشركين إذ هم لا ينكرون عزة الله وعلمه وقدرته كما درجنا عليه في التفسير إذ هو الظاهر من اللفظ والسياق وجائز أن يكون من قول الله تعالى وهما صفتان لاسم الجلالة (الله) الذي أجابوا به في غير آية من القرآن ثم ذكر من صفاته الموجبة لعبادته وحده دون من سواه فذكر ست صفات من صفات الجلال والكمال وهي متضمنة إنعامه وإفضاله على عباده بخلقهم ورزقهم
- 2- كون الأرض مهدياً لا ينافي كون جسمها كروياً.

{فَأَنْشَرْنَا (1)} أي أحيينا بذلك المطر بلدة ميتا أي أرضا يابسة لا نبات فيها ولا زرع. وقوله {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (2)} أي مثل ذلك الإحياء للأرض الميتة يحييكم تعالى ويخرجكم من قبوركم أحياء. وقوله {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} هذا وصف آخر له تعالى بأنه خلق الأزواج كلها من الذكر والأنثى، والخير والشر والصحة والمرض، والعدل والجور، إذ لا فرد إلا هو سبحانه وتعالى وفي الحديث الصحيح الله وتر يحب الوتر، قل هو الله أحد وقوله {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} هذا وصف آخر بصفاته الفعلية الدالة على وجوده وقدرته وعلمه والموجبة لألوهيته إذ جعل للناس من الفلك أي السفن ما يركبون ومن الأنعام كالإبل ومن البهائم كالخيل والبعال والحمير كذلك وقوله {لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} أي تستقروا على ظهوره أي ظهور ما تركبون، ثم تذكروا نعمة ربحكم بقلوبكم إذا استويتم عليه وتقولوا بألسنتكم سبحان الذي سخر لنا هذا أي الله لنا وأقدرنا على التحكم فيه، وما كنا له أي لذلك الحيوان المركوب بمقرنين أي بمطيقين ولا ضابطين لعجزنا وقوته، {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} أي لصائرون إليه بعد موتنا راجعون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

3- معجزة القرآن في الإخبار بالزوجية وقد قرر العلم الحديث نظام الزوجية وحتى في الذرة فهي زوج موجب وسالب.

4- مشروعية التسمية والذكر عند ركوب ما يركب فإن كان سفينة أو سيارة قال العبد باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم، وإن كان حيواناً قال عند الشروع باسم الله وإذا استوى قاعدا: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. (3)

1- أصل النشر البسط لما كان مطويا وأريد به هنا إحياء الأرض بالنبات بعد محلها وبيسها وحسن إطلاق لفظ النشر لانتشار الحياة فيها بالنباتات.

2- {وكذلك تخرجون} إن إحياءكم بعد موتكم وخروجكم من الأرض منتثرين فيها كإحياء الأرض بالمطر وانتشار النباتات والزرع فيها فبأي حق تتكرون البعث وتكذبون به؟.

3- روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي أن علياً رضي الله عنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلما استوى عليها قال الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ثم حمد الله ثلاثاً وكبر الله ثلاثاً ثم قال سبحانك لا إله إلا الله ظلمت نفسي فاغفر لي ثم ضحك فقيل له مما ضحكت؟ فقال رأيت رسول الله فعل مثل ما فعلت ثم ضحك فقلت مما ضحكت يا رسول الله

فقال صلى الله عليه وسلم يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال ربي اغفر لي ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري.

(4/630)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ مُبِينٌ (15) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاتًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)

شرح الكلمات:

وجعلوا له من عباده جزءا : أي جعل أولئك المشركون المقرون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض من عباده جزءاً إذ قالوا الملائكة بنات الله.
إن الإنسان لكفور مبين : أي إن الإنسان المعترف بأن الله خلق السموات وجعل من عباده جزءاً هذا الإنسان لكفور مبين أي لكثير الكفر بينه.
وأصفاكم بالبنيين : أي خصكم بالبنيين وأخلصهم لكم.
بما ضرب للرحمن مثلاً (1): أي بما جعل للرحمن شبيهاً وهو الولد.

1- المراد من المثل: الأنثى بدليل قوله تعالى في سورة النحل {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم}. ونفسيره بالولد أعم وأولى لأن النصارى كاليهود قبلهم قالوا: عزيز ابن الله، وعيسى ابن الله؛ وكذبوا، وقال بعض العرب: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن الولد - ذكرا أو أنثى - علواً كبيراً.

(4/631)

ظل وجهه مسوداً وهو كظيم: أي أقام طوال نهاره مسود الوجه من الحزن وهو ممتلئ غيظاً.
أو من ينشأ في الحلية : أي أيجترئون على الله ويجعلون له جزءاً هو البنت التي تربي في الزينة.

وهو في الخصام غير مبين : أي غير مظهر للحجة لضعفه بالأنوثة.
 عباد الرحمن إناثاً : أي لأنهم قالوا بنات الله.
 أشهدوا خلقهم: أي حضروا خلقهم عندما كان الرحمن يخلقهم.
 ستكتب شهادتهم: أي سيكتب قولهم إن الملائكة إناثاً.
 ويسألون : أي يوم القيامة عن شهادتهم الباطلة ويعاقبون عليها.
 ما لهم بذلك من علم : أي دعواهم أن الله راض عنهم بعبادة الملائكة لا دليل لهم عليه ولا علم.
 إن هم إلا يخرصون : أي ما هم إلا يكذبون يتوارثون الجهل عن بعضهم بعضاً.
 أم آتيناهم كتاباً من قبله : أي أم أنزلنا عليهم كتاب قبل القرآن.
 فهم به مستمسكون: أي متمسكون بما جاء فيه، والجواب لم يقع ذلك أبداً.
 بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة : أي إنهم لا حجة لهم إلا التقليد الأعمى لأبائهم.
 وإنا على آثارهم مهتدون : أي على طريقتهم وملتهم ماشون وهي عبادة غير الله من الملائكة وغيرهم
 من الأصنام والأوثان.
 إلا قال مترفوها : أي متنعموها.
 إنا وجدنا آباءنا على أمة : أي ملة ودين.
 وإنا على آثارهم مقتدون : أي على طريقتهم متبعون لهم فيها.
 معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد، والمكذبين إلى التصديق فقال تعالى منكرًا
 عليهم باطلهم موبخاً لهم على اعتقاده والقول به، فقال: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} أي وجعل أولئك
 المشركون الجاهلون لله جزءاً أي نصيباً من خلقه حيث قالوا الملائكة بنات الله، وهذا من أكذب
 الكذب وأكفر الكفر إذ كيف عرفوا أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، وأنهم يستحقون العبادة مع الله
 فعبدوهم؟ حقاً إن الإنسان لكفور (1) مبين أي كثير الكفر وكبيره وبينه لا يحتاج فيه إلى دليل وقوله
 تعالى: {أَمْ اتَّخَذَ (2) مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ (3) بِالْبَنِينَ} أي أتقولون أيها المشركون المفتررون اتخذ
 الله مما يخلق من

-
- 1- قال الحسن يعد المصائب وينسى النعم ومبين معناه مظهر للكفر.
 - 2- أم اتخذ الميم صلة أي زائدة لتقوية الكلام والاستفهام للتوبيخ والتأنيب.
 - 3- {أصفاكم} قال القرطبي: اختصم وأخلصكم بالبنين يقال أصفيته بكذا أي أثرته به وأصفيته الود
 أخلصته له.

المخلوقات بنات، وخصمك بالبنيين، بمعنى أنه فضلكم على نفسه بالذكور الذين تحبون ورضي لنفسه الإناث اللاتي تبغضون. عجباً منكم هذا الفهم السقيم. وقوله تعالى وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً أي بما جعل الله شبيهاً وهو الولد ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، أي إن هؤلاء الذين يجعلون لله البنات كذباً وافتراءً، إذا ولد لأحدهم بنت فشر بها أي أخبر بأن امرأته جاءت ببنت ظل وجهه طوال النهار مسوداً من الكآبة والغم وهو كظيم أي ممتلئ غماً وحرزاً.

وقوله تعالى: {أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ (1) غَيْرُ مُبِينٍ} ينكر تعالى عليهم ويوبخهم على كذبهم وسوء فهمهم فيقول: أيجترئون ويبلغون الغاية في سوء الأدب ويجعلون الله من يرى في الزينة لنقصانه وهو البنات، وهو في الخصام غير مبين لخفة عقله حتى قيل ما أدلت امرأة بحجة إلا كانت عليها لا لها. فقوله {غَيْرُ مُبِينٍ} أي غير مظهر للحجة لضعفه بالخلقة وهي الأنثى والضمير عائد على من في قوله {أَوْ مَن يُنْشَأُ (2) فِي الْحُلِيِّ} أي في الزينة.

وقوله تعالى {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ (3) الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} أي حيث قالوا الملائكة بنات الله وعبدوهم لذلك طلباً لشفاعتهم والانتفاع بعبادتهم. قال تعالى موبخاً لهم مقيماً الحجة على كذبهم: أشهدوا خلقهم أي أحضروا خلقهم عندما كان الله يخلقهم، والجواب لا، ومن أين لهم ذلك وهم ما زالوا لم يخلقوا بعد ولا آباؤهم بل ولا آدم أصلهم عليه السلام وقوله تعالى {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ} هذه وهي قولهم إن الملائكة بنات الله ويسألون عنها ويحاسبون ويعاقبون عليها بأشد أنواع العقاب، لأنها الكذب والافتراء، وعلى؟ إنه على الله، والعياذ بالله وقوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ (4) مَا عَبَدْنَاهُمْ}. أي قال أولئك المشركون المفتررون لمن أنكر عليه عبادة الملائكة وغيرها من الأصنام قالوا: لو شاء الرحمن منا عدم عبادتهم ما عبدناهم. قال تعالى في الرد عليهم {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} أي ليس لهم أي علم برضا الله تعالى بعبادتهم لهم، ما هم في قولهم ذلك إلا يخرصون أي يقولون بالخرص والكذب إذ العلم يأتي من طريق الكتاب أو النبي ولا كتاب عندهم ولا نبي فيهم قال بقولتهم. ولذا قال تعالى منكرًا

- 1- أي في المجادلة والإدلاء بالحجة قال قتادة ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا وجعلتها على نفسها.
- 2- في الآية دليل على جواز لبس الذهب والحريز للنساء وهو إجماع إلا أن بعض السلف كان ينزه بناته عنه لقول أبي هريرة إياك يا بنية والتحلي بالذهب فإني أخاف عليك اللهم، وقرأ نافع {ينشأ} وقرأ حفص {ينشأ} فالأول بتخفيف الشين والثاني بتشديدها الأول من: أنشأ والثاني من نشأ.
- 3- قرأ نافع عند الرحمن وقرأ حفص عباد الرحمن ولا منافاة والملائكة عند الرحمن في الملكوت الأعلى في حضرة القدس يتلقون خطاب الله مباشرة بلا واسطة وهم في واقع الأمر عباد الرحمن وجملة (الذين هم عند الرحمن إناثا) صفة للملائكة فهي في محل نصب.

4- قولهم منظور فيه إلى أن مشيئة الله وهي إرادته قسماً إرادة كونية وإرادة تكليفية شرعية فالإرادة الكونية القدرية هذه لا تتخلف أبداً فما شاء الله كان والإرادة الشرعية التكليفية هي التي قد تتخلف لأن الله تعالى وهب عبده إرادة واختياراً وبحسب ما يختاره يكون جزاؤه والمشركون لا علم لهم بهذا فلذا نفى عنهم العلم راداً باطلهم بجهلهم.

(4/633)

عليهم قولتهم الفاجرة {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}؟ لا لا، ما آتاهم الله من كتاب ولا جاءهم قبل محمد من نذير إذا فلا حجة لهم إلا التقليد الأعمى للأباء والأجداد الجهال الضلال وهو ما حكاه تعالى عنهم في قوله: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أي ملة (1) {وَأَنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} أي ماشون مقتفون آثارهم وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ} أي رسول إلا قال مترفوها أي متنعموها بنضارة العيش وغضارته {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أي ملة ودين {وَأَنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} أي متبعون لهم فيها. فهذه سنة الأمم قبل أمك يا رسولنا فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق بما يقولون ويعتقدون ويفعلون أيضاً. وهو معنى قوله تعالى {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ} إلى آخر الآية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير صفة من صفات الإنسان قبل شفاؤه بالإيمان والعبادة وهي الكفر والواضح المبين.
- 2- وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإنسان.
- 3- بيان حال المشركين العرب في الجاهلية من كراهيتهم البنات خوف العار وذلك لشدة غيرتهم.
- 4- بيان ضعف المرأة ونقصانها ولذا تكمل بالزينة، وإن النقص فيها فطري في البدن والعقل معا.
- 5- بيان أن من قال قولاً وشهد شهادة باطلة سوف يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب عليها.
- 6- حرمة القول على الله بدون علم فلا يحل أن ينسب إلى الله تعالى شيء لم ينسبه هو تعالى لنفسه.

7- حرمة التقليد للأباء وأهل البلاد والمشايخ فلا يقبل قول إلا بدليل من الشرع.
قَالَ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (25) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ (28) بَلْ

1- لفظ الأمة هنا يراد به الدين والملة والطريقة أيضاً ومن شواهد ذلك:

كنا على أمة آبائنا
ويقتدي الآخر بالأول.
وهل يستوي ذو أمة وكفور؟.

(4/634)

مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ
كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32)

شرح الكلمات:

قال أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم : قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم ولو جئتمكم
بأهدى أي خير مما وجدتم عليه آباءكم هداية إلى الحق والسعادة والكمال.
قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون: أي قال المشركون لرسولهم ردًا عليهم إنا بما أرسلتم به كافرون أي
جاحدون منكرون غير معترفين به.
فانظر كيف كان عاقبة المكذبين : أي كانت دماراً وهلاكاً إذا فلا تكثر بتكذيب قومك يا رسولنا.
وإذ قال إبراهيم : أي واذكر إذ قال إبراهيم أبو الأنبياء خليل الرحمن.
إنني براء مما تعبدون : أي بريء مما تعبدون من أصنام لا أعبدها
إلا الذي فطرني فإنه سيهدين : أي لكن الذي خلقني فإني أعبده وأعترف به فإنه سيهديني أي
يرشدني إلى ما يكملني ويسعدني في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
وجعلها كلمة باقية في عقبه (1): أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" باقية دائمة في
ذريته إذ وصاهم بها كما قال تعالى ووصى بها إبراهيم بنبيه.
لعلهم يرجعون : أي رجاء أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إلى توحيده كلما ذكروها وهي لا إله إلا الله.

1- لفظ العقب الوارد في الآية وفي الحديث الصحيح من أمر عمرى فهي له ولعقبه فإنها للذي
أعطياها لا ترجع إلى الذي أعطاهما لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث قال ابن العربي ترد هذه
اللفظة على أحد عشر لفظاً وهي الولد والبنون والذرية والعقب والنسل والآل والقرابة والعشيرة والقوم
والموالي.

(4/635)

بل تمتعت هؤلاء وآباءهم: أي هؤلاء المشركين وآباءهم بالحياة فلم أعاجلهم بالعقوبة. حتى جاءهم الحق ورسول مبين: أي إلى أن جاء القرآن يحمل الدين الحق، ورسول مبين لا شك في رسالته وهو محمد صلى الله عليه وسلم يبين لهم طريق الهدى والأحكام الشرعية. وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم: أي وقال هؤلاء المشركون الذين متعناهم بالحياة فلم نعاجلهم، هلاً نزل هذا القرآن على أحد رجلين من قريتي مكة أو الطائف أي الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

أهم يقسمون رحمة ربك: أي ينكر تعالى عليهم هذا التحكم والافتراح الفاسد فقال أهم يقسمون رحمة ربك إذ النبوة رحمة من أعظم الرحمات. وليس لهم حق في تنبئة أحد إذ هذا من حق الله وحده. نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا: أي إذا كنا نحن نقسم بينهم معيشتهم فنغني هذا ونفقر هذا ونملك هذا ونعزل هذا، فكيف بالنبوة وهي أجل وأعلى من الطعام والشراب فنحن أحق بها منهم فننبئ من نشاء.

ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً: أي جعلنا هذا غنياً وذاك فقيراً ليتخذ الغني الفقير خادماً يسخره في خدمته بأجرة مقابل عمله.

ورحمة ربك خير مما يجمعون: أي والجنة التي أعدها الله لك ولأتباعك خير من المال الذي يجمع هؤلاء المشركون الكافرون.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى قول المشركين لرسولهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} "ملة" {وَأَنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} ، قال مخبراً عن قول الرسول لأمتة المكذبة المقلدة للآباء الظالمين {قَالَ أَوْلُو (1) جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} أي أتبعون آباءكم ولا تتبعوني ولو جئتمكم بأهدى إلى الخير والسعادة مما وجدتم عليه آباءكم، وهذا إنكار من الرسول عليهم في صورة استفهام وهو (2) توبيخ أيضاً إذ العاقل يتبع الهدى جاء به من جاء قريباً كان أو بعيداً. وقوله تعالى {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ (3) بِهِ كَافِرُونَ} هذا قول الأمم المكذبة المشركة لرسولهم أي كل أمة قالت هذا لرسولها: إننا بما أرسلتم به من التوحيد وعقيدة البعث والجزاء والشرع وأحكامه كافرون أي منكرون

1- قرأ نافع والجمهور قل بصيغة الأمر وقرأ حفص قال بصيغة الماضي فيعود الضمير إلى نذير الذين قالوا {إنا وجدنا آباءنا}.. الخ . وأما على قراءة نافع فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ليقول للمشركين ما أمره أن يقوله لهم.

2- هذا الاستفهام تقريرى إلا أنه مشوب بالإنكار والتوبيخ.

3- في قولهم هذا معنى التهكم برسلمهم إذ أثبتوا لهم الرسالة وهم مكذبون بها كقول قريش مال هذا الرسول يأكل الطعام.

(4/636)

مكذبون غير مصدقين، قال تعالى: {فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ (1)} أي لتكذيبهم فأهلكناهم فانظر يا رسولنا كيف كان عاقبتهم وهم المكذبون إنها دمار شامل وهلاك تام. وليذكر هذا قومك لعلمهم يذكرون. وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ (2) وَقَوْمِهِ إِنَّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} أي واذكر يا رسولنا لقومك قول إبراهيم الذي ينتسبون إليه باطلا لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون أي إنني بريء من آلهتكم التي تعبدونها فلا أعبدها ولا أعترف بعبادتها. وقوله {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} أي لكن أعبد الله الذي خلقني فهو أحق بعبادتي مما لم يخلقني ولم يخلق شيئاً وهو مخلوق أيضاً. وقوله {فَأَنَّهُ سَيُهْدِيَنِي} أي يرشدني دائماً إلى ما فيه سعادتي وكمالي. وقوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي وجعل براءته من الشرك والمشركين، وعبادته خاصة بالله رب العالمين جعلها كلمة باقية في ذريته حيث وصاهم بها كما جاء ذلك في سورة البقرة إذ قال تعالى: {وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ} أي بأن لا يعبدوا إلا الله وهي إذا كلمة لا إله إلا الله ورثها إبراهيم في بنيه لعلمهم يرجعون إليها كلما غفلوا ونسوا وتركوا عبادة الله تعالى والإنابة إليه بعوامل الشر والفساد من شياطين الإنس والجن فيذكرون ويتوبون إلى الله تعالى فيوحدونه ويعبدونه فجزى الله إبراهيم عن المؤمنين خيراً. وقوله تعالى: {بَلْ مَنَّتُ (3) هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ} أي بل لم يتحقق ما ترجاه إبراهيم كاملاً إذا أشرك من بنيه من أشرك ومنهم هؤلاء المشركون المعاصرون لك أيها الرسول وآباءهم، ومتعمم بالحياة حتى جاءهم الحق الذي هو هذا القرآن يتلوه هذا الرسول المبين أي الموضح لكل الأحكام والمبين لكل الشرائع. {وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} هكذا قالت قريش لما جاءها الحق الذي هو القرآن الحامل للشرائع والأحكام والرسول المبين لذلك الموضح له قالوا هذا سحر يسحرنا به، وإنما به أي بالقرآن والرسول كافرون أي جاحدون منكرون مكذبون وقالوا أبعد من ذلك في الشطط والغلط وهو ما حكاه تعالى عنهم في قوله: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ} أي هلاً نزل هذا القرآن على رجل شريف ذي مكانة مثل الوليد بن المغيرة (4) في مكة أو عروة بن مسعود في الطائف

1- الفاء للتفريع وفي الآية تهديد ووعيد لكفار قريش بأن يحل بهم ما حل بالمكذابين قبلهم.

2- لما ادعى المشركون أنهم مقلدون آباءهم في الدين ذكر لهم ما ينبغي أن يقلدوه من آباءهم هو إبراهيم وإسماعيل وإلا فليس الأمر كما يدعون وإنما هم متبعون أهواءهم.

3- بل للإضراب الإبطالي أي لم يحصل ما رجاه إبراهيم كاملاً بل هناك من لم يرجع إلى التوحيد من ذرية إبراهيم إذ جاء عمرو بن لحي بالأصنام وعبدها آباء هؤلاء وهم لها عابدون حتى مجيء الحق ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

4- هذا المشهور من الأقوال في الرجلين ومنهم من قال هما عمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف وعتبة بن ربيعة من مكة وهو قول مجاهد، وقيل عظيم الطائف هو حبيب بن عمرو أما القرينان فلا خلاف في أنهما مكة والطائف لكونهما أكبر مدن تهامة.

(4/637)

وهذه نظرة مادية بحتة إذ رأوا أن الشرف بالمال، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم لا مال له ولا ثراء رأوا أنه ليس أهلاً للرسالة ولا للمتابعة عليها، فرد تعالى عليهم نظريتهم المادية الهابطة هذه بقوله: {أَهُمْ (1) يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}؟ أما يخلون عندما قالوا أنهم يقسمون رحمة ربك فيعطون منها من شاعوا ويمنعون من شاعوا أم نحن القاسمون؟ إنا قسمنا بينهم معيشتهم: طعامهم وشرابهم وكساهم وسكنهم ومركوبهم في الحياة الدنيا فالعاجز حتى عن إطعام نفسه وسقيها وكسوتها كيف لا يستحي أن يعترض على الله في اختياره من هو أهل لنبوته ورسالته؟ وقوله تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} أي في الرزق فهذا غني وذاك فقير من أجل أن يخدم الفقير الغني وهو معنى قوله تعالى: {لِيَتَّخِذَ (2) بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}، إذ لو كانوا كلهم أغنياء لما خدم أحد أحداً وتعطلت الحياة وقوله تعالى: {وَرَحِمْتُ رَبِّكَ} أي الجنة دار السلام خير مما يجمعون من المال الذي فضلوا أهله وإن كانوا من أخط الناس قدراً أدناهم شرفاً. ورأوا أنهم أولى بالنبوته منك لمرض نفوسهم بحب المال والشهوات.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- من الكمال العقلي أن يبتع المرء الهدى ولو خالفه قومه وأهل بلاده.
 - 2- وجوب البراءة من الشرك والمشركين وهذا معنى لا إله إلا الله.
 - 3- فضيلة من يورث أولاده هدى وصلاً.
 - 4- لا يعترض على الله أحد في شرعه وتدبيره إلا كفر والعياذ بالله تعالى.
 - 5- بيان الحكمة في الغنى والفقر، والصحة والمرض والذكاء والغباء.
- وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبُوبَاءً وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (34) وَزُخْرَفًا وَإِنْ

1- الاستفهام إنكاري متضمن التوبيخ لهؤلاء الزاعمين اختيار من شاءوا للاصطفاء والرسالة فعلموا أنه لا حق لهم في هذا الاختيار إذ هم لا خيار لهم حتى في طعامهم وشرابهم فضلاً عن اختيار من يرسل ومن لا يرسل.

2- الجملة تعليلية للتفاضل في الرزق أي فاضل بينهم في الغنى والفقر ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً أي يستخدم الغني الفقير في قضاء حاجته وليأخذ الفقير منه ما يسد به حاجته والسخري هنا بمعنى التسخير للعمل وليس بمعنى السخرية والاستهزاء إذ أجمع السبعة على قراءة ضم السين وعدم كسرها.

(4/638)

كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

شرح الكلمات:

أمة واحدة : أي على الكفر.

ومعارج : أي كالسلم والمصعد الحديث والمعارج جمع معرج وهو المصعد.

عليها يظهرون: أي يعلنون عليها إلى السطح.

زخرفاً : أي ذهباً أي لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة وذهب وكذلك الأبواب والمصاعد والسرر بعضها من فضة وبعضها من ذهب.

وإن كل ذلك : أي وما كل ذلك المذكور.

لما متاع الحياة الدنيا : أي وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يتمتع به فيها ثم يزول.

والآخرة : أي الجنة ونعيمها خير لأهل الإيمان والتقوى من متاع الدنيا.

معنى الآيات:

لما فضل تعالى الجنة على المال والمتاع الدنيوي في الآيات السابقة قال هنا: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن (يعني نفسه عز وجل) لبيوتهم سقفاً من فضة،

ومعارج (1) عليها يظهرون (2) أي مراقي ومصاعد عليها يعلنون إلى الغرف والسطوح من فضة

ولجعلنا كذلك لبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون من فضة أيضاً، وزخرفاً أي وذهباً أي بعض

المذكور من فضة وبعضه من ذهب ليكون أجمل وأبهى من الفضة وحدها، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا أي وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يتمتع به الناس ثم يزول ويذهب بزوالهم وذهابهم.

والآخرة عند ربك أي الجنة وما فيها من نعيم مقيم للمتقين الذين آمنوا واتقوا الشرك والمعاصي وما عند الله خير مما عند الناس، وما يبقى خير مما ينفى، ولذا قال الحكماء لو كانت الدنيا من ذهب

والآخرة من خزف "طين" لاختار العاقل الآخرة على الدنيا، وهو اختيار ما يبقى على ما ينفى.

1- المعارج السلم وجمع السلم سلايم وواحد المعارج معرج ومعرج بكسر الميم وفتحها وهي المرقاة والجمع مراقي.

2- روي أن نابغة بن جعدة أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:
علونا السماء عزة ومهابة
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا.

فغضب الرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إلى أين؟ قال إلى الجنة قال "أجل إن شاء الله" وهنا قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك فكيف لو فعل؟!!

(4/639)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر.

2- هوان الدنيا على الله وعدم الاكتراث بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء رواه الترمذي وصححه وفي صحيح مسلم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. (1)

3- بيان أن الآخرة خير للمتقين.

وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (40)

شرح الكلمات:

ومن يعش عن ذكر الرحمن: أي يعرض متعامياً متغافلاً عن ذكر الرحمن الذي هو القرآن متجاهلاً له.

نقيض له شيطاناً: أي نجعل له شيطاناً يلازمه لإضلاله وإغوائه.

فهو له قرين: أي فهو أي من عشا عن ذكر الرحمن قرين للشيطان.

وإنهم ليصدونهم عن السبيل: أي وإن الشياطين المقارنين لهم ليصدون عن طريق الهدى.

ويحسبون أنهم مهتدون: أي ويحسب العاشون عن القرآن وحججه وعن ذكر الرحمن

1- أُنشد بعهم في ذم الدنيا فقال:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن
إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة
وقد شبع فيها بطون البهائم

(4/640)

وطاعته أنهم مهتدون أي أنهم على الحق والصواب وذلك بتزيين القرين لهم.
بُعد المشرقين : أي كما بين المشرق والمغرب من البعد قال هذا تبرؤاً منه.
ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم: أي ولن ينفعكم اليوم أيها العاشون إذ ظلمتم أنفسكم بالشرك والمعاصي.
أنكم في العذاب مشتركون: اشترككم في العذاب غير نافع لكم.
أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي: أي إنك يا رسولنا لا تسمع الصم، ولا تهدي العمي والقوم قد
أصمهم الله وأعمى أبصارهم لأنهم عشوا عن ذكره.
ومن كان في ضلال مبين: أي كما أنك لا تقدر على هداية من كان في ضلال مبين عن الحق
والهدى.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض الهداية على الضالين بالكشف عن أحوالهم وإضاءة الطريق لهم قال
تعالى: {وَمَنْ يَعِشْ (1) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ} أي يعرض متعامياً متغافلاً عن ذكر الرحمن الذي هو
القرآن وعبادة الرحمن متجاهلاً ذلك نقيض (2) له شيطاناً أي نسب له نتيجة إعراضه شيطاناً
ونجعله له قريناً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة. فهو له قرين دائماً. وقوله تعالى: {وَأَنَّهُمْ لَيَصْذُوثُهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} أي وإن القرآن الذين جعلهم تعالى حسب سنته في الأسباب
والمسببات للعاشين عن ذكره يصدونهم بالتزيين والتحسين لكل المعاصي حتى انغمسوا في كل اثم
وولغوا في كل باطل وشر، وضلوا عن سبيل الهدى والرشد ومع هذا يحسبون أنهم مهتدون وغيرهم
هم الظالمون.

وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا} (3) أي يوم القيامة قال العاشي عن ذكر الرحمن يا ليت متمنياً ببني
وبينك بعد المشرقين أي يتمنى لو أن بينه وبين قرينه من الشياطين من البعد كما بين المشرق
والمغرب. قال تعالى لأولئك العاشين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم بالشرك والمعاصي في الدنيا
أنكم في العذاب مشتركون أي إن اشتراككم في العذاب غير نافع لكم ولا مجد أبداً. وقوله تعالى

لرسوله: {أَفَأَنْتَ} (4) تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ

- 1- هذا مضارع عشا يعيشو عشواً كغزا (يغزو) غزواً إذا نظر إلى الشيء نظراً غير ثابت يشبهه نظر الأعشى والعشا بفتح العين والشين اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء. وعشى كرضى إذا كان في بصره آفة العشا.
- 2- قيض يقيض تقييضاً فالتقييض: الإيتاحة وتهئية شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه وهو مشتق من اسم جامد وهو قيض البيضة أي القشر المحيط بالمح، وهو لا يفارقه حتى يخرج منها الفرخ فيتم ما أتيح له القيض.
- 3- قرأ نافع جاءنا أي من يعيش عن ذكر الرحمن والشيطان المقيض له وقرأ حفص بالإفراد جاءنا أي العاشي عن ذكر الرحمن.
- 4- الاستفهام إنكاري وفي الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسجيل أن الكافر أصم وأعمى ويقابله المؤمن يسمع ويبصر.

(4/641)

مُبينٍ} ينكر تعالى على رسوله ظنه أنه يقدر على هدايتهم وحده بدون إرادة الله تعالى ذلك لهم إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد في دعائهم، وهم لا يزدادون إلا تعامياً وتجاهلاً وكفراً فقال تعالى يخاطب رسوله {أَفَأَنْتَ} والاستفهام للإنكار تسمع الصم الذين ذهب الله بأسماعهم، أو تهدي العمي الذين ذهب الله بأبصارهم، ومن كان في ضلال مبين عن الحق وسبيل الرشده والهدى إنك لا تقدر على ذلك فهون على نفسك وترفق في دعوتك فإنك لا تكلف غير البلاغ وقد بلغت.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله تعالى فيمن يعرض عن ذكر الله فإنه يسبب له شيطاناً يضله ويحرمه الهداية أبداً فيقيم على الذنوب والآثام ضالاً الطريق المنجي المسعد وهو يحسب أنه مهتدي، وهذا يتعرض له المعرضون عن الكتاب والسنة كالمبتدعة وأصحاب الأهواء والشهوات والعياذ بالله تعالى.
 - 2- الاشتراك في العذاب يوم القيامة لا يخففه.
 - 3- بيان أن من أعماه الله وأصمه حسب سنته في ذلك لا هادي له ولا مسمع له ولا مبصر.
- فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

شرح الكلمات:

فإنما نذهبن بك : أي فإن نذهبن بك أي نميتك (1) قبل تعذيبهم، وما زائدة أدغمت فيها إن الشرطية فصارت إمّا.

فإننا منهم منتقمون : أي معذبوهم في الدنيا وفي الآخرة.

وإنما نرينك الذي وعدناهم: أي وإن نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب.

1- أو بالخروج من مكة مكرهاً عليه من قبل أعدائك، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ما كانت إلا بإرادته الحرة ولم يكن فيها مكرهاً ولا ملجأً ولذا لم ينتقم الله من أهل مكة كما هو في التفسير.

(4/642)

فإننا عليهم مقتدرون : أي لا يعوقنا عائق لأننا عليهم قادرون.

فاستمسك بالذي أوحى إليك : أي دم على استمسائك بالقرآن سواء عجلنا لك بالموعود به أو أخرناه.

إنك على صراط مستقيم : أي إنك على طريق الحق والهدى فواصل سيرك.

وإنه لذكر لك ولقومك : أي وإن القرآن لشرف لك وشرف لقومك.

وسوف تسألون : أي عن القرآن أي عن العمل به بتطبيق شرائعه وإبلاغه لغيركم.

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أي اسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل.

أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون: أي هل جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون والجواب لم نجعل

أبداً فليفهم هذا مشركو مكة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة كفار قريش إلى الإيمان والتوحيد فقله تعالى {فإنما (1) نذھبن بك} أي

إن نذهب بك أي نخرجك من بين أظهرهم فإننا منهم منتقمون أي فنعذبهم كما عذبنا الأمم من قبلهم

عندما يخرجون رسولهم أو نرينك الذي وعدناهم من نصرك عليهم وغلبتك لهم فإننا عليهم مقتدرون

أي قادرين على أن نفعل بهم ذلك.

وقوله تعالى: {فاستمسك(2) بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم} أي فتمسك يا رسولنا بما

يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك إنك على صراط مستقيم وهو الإسلام الذي لا يشقى من

تمسك به فعاش عليه ومات عليه. وقوله تعالى: {وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون} أي وأن

القرآن الذي أوحى إليك وأمرت بالتمسك به هو ذكر لك أي شرف لك وأي شرف (3) ولقومك من

قريش كذلك إذا آمنوا به وعملوا بما جاء فيه وسوف تسألون (4) عن العمل به وتطبيق أحكامه

والالتزام بشرائعه.

- 1- الفاء تفرعية فالجملة متفرعة عما تقدم من قوله أفأنت تسمع الصم الخ والذهاب هنا قابل للموت والإخراج كرهاً بقرينة الوعيد المترتب عليه.
- 2- فاستمسك الفاء تفرعية عما قبلها والآية تحض على التمسك بالإسلام تشريعاً وعملاً.
- 3- هذه الآية كآية الأنبياء وهي: {لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم} ومنشأ هذا الشرف هو أن قريشا نزل القرآن بلغتها فكل الناس محتاجون إلى معرفة لغتهم ليعرفوا ما طلب منهم من عقائد وعبادات وآداب فبهذا شرفت قريش.
- 4- من فسر السؤال بالعمل هو حق وكذا من فسره بالشكر فهو حق لأن شكر العلم العمل به وتعليمه.

(4/643)

وقوله {وَأَسْأَلُ (1) مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} ؟ أي وأسأل يا رسولنا مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل إذ سؤالهما سؤال رسلهم الذين ماتوا من قبلك هل جعل الله تعالى من دونه آلهة يعبدون؟ وسوف يجيبونك بقولهم حاشا لله أن يأذن بعبادة غيره من خلقه وهو الله لا إله إلا هو، وهذا من أجل تنبيه أذهان قريش إلى خطأها الفاحش في إصرارهم على عبادة الأصنام إن القرآن نزل لهدايتهم وهداية غيرهم من بني آدم على الإطلاق إلا أنهم هم أولاً وغيرهم ثانياً.

هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- من سنة الله في الأمم إذا أخرج الرسول قومه مكرها انتقم الله تعالى له منهم فأهلكهم.
 - 2- صدق وعد الله تعالى لرسوله فإنه ما توفاه حتى أقر عينه بنصره على أعدائه.
 - 3- وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.
 - 4- شرف هذه الأمة بالقرآن فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها وقد فعل.
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَا لَهُمُ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (50)

1- جائز أن يكون الكلام على ظاهره وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع الله تعالى له العديد

من الرسل والأنبياء في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج وسألهم فأجابوا بالحق وهو أن الله تعالى لم يأذن أبداً في عبادة غيره وجائز أن يكون في الكلام حذف دل عليه واقع الحياة إذ لا يسأل الأموات وإنما يسأل الأحياء وتقدير المحذوف واسأل أتباع من أرسلنا من قبلك وهم مؤمنو أهل الكتابين من أتباع موسى وعيسى كما هو في التفسير.

(4/644)

شرح الكلمات:

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا: أي أرسلناه بالمعجزات الدالة على صدق رسالته.

إلى فرعون وملأه: أي وقومه من القبط.

إذا هم منها يضحكون: أي سخرية واستهزاء.

وما نريهم من آية: أي آيات العذاب كالطوفان.

إلا هي أكبر من أختها: أي من قرينتها التي قبلها من الآيات.

وقالوا يا أيها الساحر: أي أيها العالم بالسحر المتبحر فيه.

بما عهد عندك: أي من كشف العذاب عنا إن آمنا.

إننا لمهتدون: أي إن كشفت عنا العذاب إننا مؤمنون.

إذا هم ينكثون: أي ينقضون عهدهم فلم يؤمنوا.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} إيراد هذا القصص هنا كان لمشابهة حال قريش بحال فرعون من جهة إذ

قال رجال قريش لم لا يكون الرسول من ذوي المال والجاه كالوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود

وقال فرعون: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين أي حقير يعني موسى عليه السلام.

ومن جهة أخرى كان لتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر كما صبر موسى وهو

أحد أولي العزم الخمسة فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} أي بحججنا الدالة على صدق

موسى في رسالته إلى فرعون وقومه بأن يعبدوا الله ويتركوا عبادة غيره، وإن يرسلوا مع موسى بني

إسرائيل ليذهب بهم إلى أرض المعاد "فلسطين" فلما جاءهم قال إني رسول رب العالمين جئتكم

لأمركم بعبادة الله وحده وترك عبادة من سواه، إذ لا يستحق العبادة إلا الله. فطالبوه بالآيات على

صدق دعواه فلما جاءهم بالآيات العظام فاجأوه بالضحك منها والسخرية والاستهزاء بها وهو معنى

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ} (1).

وقوله تعالى: {وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا} (2) أي وما نري فرعون وملأه من آية إلا

هي أكبر دلالة على صدق موسى من الآيات التي سبقها. قال تعالى {وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ

1- أي استهزاء وسخرية يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخيل وأنهم قادرون على الإتيان بمثلها.

2- الأخت هنا بمعنى المشاكلة والمجانسة النوعية كما يقال هذه صاحبة تلك أي قريبة منها في المعنى والكبر والمراد به الكبر في الدلالة على صدق موسى وصحة دعوته إذ المعجزات تتفاوت في العظمة كما قال الشاعر:

من تلق منهم نقل لاقبت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

(4/645)

يَرَجِعُونَ} إلى الحق فيؤمنون ويوحدون. وقالوا لموسى يا أيها الساحر (1) أي العليم بالسحر المتبحر فيه ظناً منهم أن المعجزات كانت عمل ساحر. ادع لنا ربك (2) بما عهد عندك إنا لمهتدون أي سل ربك يرفع عنا هذا العذاب كالطوفان والجراد والقمل والضفادع إنا مؤمنون وكانوا كلما نزل بهم العذاب سألوا موسى ووعدوه بالإيمان به إن رفع الله عنهم العذاب وفي كل مرة ينكثون عهدهم وهو قوله تعالى {قَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} أي ينقضون العهد ولا يؤمنون كما واعدوا. هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الآيات دليل على صدق من جاء بها، ولكن لا تستلزم الإيمان ممن شاهدها.

2- قد يؤاخذ الله الأفراد أو الجماعات بالذنب المرة بعد المرة لعلمهم يتوبون إليه.

3- حرمة خلف الوعد ونكث العهد، وأنهما من آيات النفاق وعلاماته.

وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)

1- هذا النداء في هذا الموقف كان نداء تكريم وتعظيم كعادتهم في توقيير وتعظيم علمائهم السحرة لأنهم لما أصابهم من البلاء اعترفوا بمكانة موسى وسيادته وأبته تكتب بدون ألف اتباعاً للمصحف وحذفت الألف نظراً إلى سقوطها في النطق للوصل والهاء حرف تنبيه أتى بها للفصل بين أي وبين نعتها في النداء.

2- هذا جرياً على اعتقاد الأقباط وهو أن لكل أمة أو قبيلة رباً خاصاً بها لذا قالوا لموسى ادع لنا ربك.

(4/646)

شرح الكلمات:

ونادى فرعون في قومه: أي نادى فيهم افتخاراً وتبجحا بما عنده.
وهذه الأنهار تجري من تحتي: أي من النيل تجري من تحت قصوري.
أفلا تبصرون: أي عظمتي وما أنا عليه من الجلال والكمال.
أم أنا خير: أي من موسى الذي هو مهين ولا يكاد يبين أي يفصح للثُغَّة التي في لسانه.
فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب: أي هلاً ألقى عليه أسورة من ذهب من قبل الذي أرسله.
أو جاء معه الملائكة مقترنين: أي أو جاءت الملائكة يتبع بعضها بعضاً تشهد له بالرسالة.
فاستخف قومه فأطاعوه: أي استغفر فرعون قومه أي قال لهم ما حركهم به فخفوا لطاعته.
إنهم كانوا قوماً فاسقين: أي أطاعوه لكونهم قوماً فاسقين ففسقهم هو علة طاعتهم.
فلما آسفونا انتقمنا منهم: أي فلما أغضبونا انتقمنا منهم.
فجعلناهم سلفاً: أي فرعون وقومه سلفاً أي سابقين ليكونوا عبرة لمن بعدهم.
ومثلاً للآخرين: أي يتمثلون بحالهم فلا يقدمون على مثل فعلهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة موسى مع فرعون قال تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ (1) فِي قَوْمِهِ} لأجل الافتخار والتطاول إرهاباً للناس قال يا قوم أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار أي أنهار النيل (2) تجري من تحتي (3) أي من تحت قصوره، أفلا يبصرون فإذا أبصرتم فقولوا أنا خير (4) من هذا الذي هو مهين أي حقير يتولى الخدمة بنفسه، ولا يكاد يبين أي يفصح بلسانه لعله به وهي اللثغة أم هو؟. فلولا ألقى عليه أسورة (5) من ذهب أي هلاً ألقى عليه من أرسله أسورة من ذهب أو بعث معه الملائكة مقترنين يشهدون له بالرسالة. قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ} استغفروهم بقوله هذا وحركهم فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين، والفاسق جبان خواف يستجيب بسرعة للباطل إن كان ممن يخاف عادة كالحاكم الظالم.

1- قيل لما كشف الله عنهم العذاب بدعوة موسى أضمر فرعون وملؤه نكتة العهد الذي أعطاه لموسى وهو أنهم يهتدون فخاف فرعون أن يتبع قومه موسى فقام بهذه المناورة الرخيصة فنادى في قومه فجمعهم وقال فيهم ما ذكر تعالى.

- 2- هذه الأنهار هي فروع النيل وهي أربعة هي نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس.
- 3- جائز أن تكون الأنهار له تسلط على مصابها فلذا هدد قومه بذلك.
- 4- أم أنا خير (أم) المنقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي والتقدير بل أنا خير والاستفهام تقريري أراد تفضيل نفسه على موسى عليه السلام والمهين: الذليل الذي لم يكن من بيوت الشرف والجاه.
- 5- قرأ نافع والجمهور أساورة جمع أسوار لغة في سوار، وقرأ حفص أسورة جمع سوار والمراد من قوله ألقى عليه أساورة يريد إن كان ملكاً أو رسولا كما يزعم لم لا يلقى إليه من السماء أساورة كالتي يلبسها ملوك فارس ومصر، أو تأتي معه الملائكة يشهدون له بالرسالة بما يدعي وكل هذا من باب دفع معرة الهزيمة التي لحقته.

(4/647)

وقوله تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا} أي أغضبونا بنكثهم وكفرهم وكبريائهم وظلمهم أغرقناهم أجمعين أي فلم نبق منهم أحداً والمراد فرعون وجنوده. وقوله تعالى {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا} (1) وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} أي جعلنا فرعون، ومن أغرقنا معه من ملائه وجيوشه سلفاً أي سابقين ليكونوا عبرة لمن بعدهم، ومثلاً يتمثل به من بعدهم فلا يقدمون على ما أقدموا عليه من الكفر والظلم والعلو والفساد، وأولى من يعتبر بهذا قریش التي نزل لينبئها ويحرك كامن نفسها لتنتبه من غفلتها فتؤمن وتوحد فتنجوا وتكمل وتسعد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ذم الفخر والمباهاة إذ هما من صفات المتكبرين والظالمين.
- 2- الاحتقار للفقراء والازدياء بهم من صفات الجبارين الظلمة المتكبرين.
- 3- الفسق يجعل صاحبه مطية لكل ظالم أداة يسخره كما يشاء.
- 4- التحذير من غضب الرب تبارك وتعالى فإنه متى غضب انتقم فبطش.
- وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (57) وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ فَلَا تَمَنَّزْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)
- شرح الكلمات:

ولما ضرب ابن مريم مثلاً: أي ولما جعل عيسى بن مريم مثلاً، والضارب ابن الزبيري.

إذا قومك منه يصدون: أي إذ المشركون من قومك يصدون أي يضحكون فرحاً بما سمعوا.

1- السلف: جمع سالف كخدم جمع خادم وحرس جمع لحارس والسالف: من يسبق غيره في الوجود.

(4/648)

وقالوا آللهتنا خير أم هو؟ : أي آللهتنا التي نعبدها خير أم هو أي عيسى ابن مريم فنرضى أن تكون آللهتنا معه.

ما ضربه لك إلا جدلاً : أي ما جعلوه أي المثل لك إلا خصومة بالباطل لعلمهم أن ما لغير العاقل فلا يتناول اللفظ عيسى عليه السلام.

بل هم قوم خصمون : أي شديدي الخصومة.

إن هو إلا عبد أنعمنا عليه : أي ما هو أي عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة. وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل : أي لوجوده من غير أب كان مثلاً لبني إسرائيل لغرابته يستدل به على قدرة الله على ما يشاء.

ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة : أي ولو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلکم ملائكة.

في الأرض يخلفون : أي يعمرّون الأرض ويبعدون الله فيها يخلفونكم فيها بعد إهلاككم.

وإنه لعلم للساعة : أي وإن عيسى عليه السلام لعلم للساعة تُعلم بنزوله إذا نزل.

فلا تمترن بها : أي لا تشكن فيها أي في إثباتها ولا في قريها.

واتبعون هذا صراط مستقيم : أي وقل لهم اتبعون على التوحيد هذا صراط مستقيم وهو الإسلام.

ولا يصدنكم الشيطان: أي ولا يصرفنكم الشيطان عن الإسلام.

إنه لكم عدو مبين : أي إن الشيطان لكم عدو بين العدو فلا تتبعوه.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ} روي أن ابنَ الزبيري قال لرسول الله

صلى الله عليه وسلم: لما نزلت آية الأنبياء إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها

ورادون قال: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لكم ولآلهتكم

ولجميع الأمم، فقال ابن الزبيري خصمتك ورب الكعبة، أليست النصرى يعبدون المسيح واليهود

يعبدون العزيز وبنو مليح يعبدون الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا

معهم، وفرح بها المشركون وضحكوا وضجوا بالضحك مرتفعة أصواتهم بذلك ونزلت في هذه الحادثة

الآية: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ (1) مَثَلًا} أي ولما جعل ابن الزبيري عيسى بن مريم مثلاً إذ جعله

مشابهاً للأصنام من حيث أن النصرى اتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله، وقال فإذا كان عيسى

والعزيز

1- المراد بالمثل هنا الممثل به والمشبه به لأن ابن الزبيري شبه آلهتهم بعيسى في أنها عبتت من دون الله مثله فإذا كانوا في النار فعيسى كذلك.

(4/649)

والملائكة في النار فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم ففرح بها المشركون وصدوا(1) وضجوا بالضحك. وقالوا آلهتنا خير أم هو أي المسيح؟ قال تعالى لرسوله: ما ضربه لك إلا جدلاً أي ما ضرب لك ابن الزبيري هذا المثل طلباً للحق وبحثاً عنه وإنما ضربه لك لأجل الجدل والخصومة بل هم قوم خصمون مجبولون على الجدل والخصام.

وقوله {إِنْ هُوَ} أي عيسى {إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} بالنبوة والرسالة، {وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} يستدلون به على قدرة الله وأنه عز وجل على كل ما يشاء قدير إذ خلقه من غير أب كما خلق آدم من تراب ثم قال له كن فكان.

وقوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ} أي ولو نشاء لأهلكناكم يا بني آدم ولم نبق منكم أحداً. وجعلنا بدلاً في الأرض ملائكة يخلقونكم فيها فيعمرونها ويعبدون الله تعالى فيها ويوحدونه ولا يشركون به سواه.

وقوله {وَإِنَّهُ (2) لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ} أي إن عيسى عليه السلام لعلامة للساعة أي إن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان علامة على قرب الساعة. فلا تمترن بها أي فلا تشككن في إتيانها فإنها آتية وقريبة. وقوله واتبعون أي وقل لهم يا رسولنا واتبعون على التوحيد وما جئتمكم به من الهدى هذا صراط مستقيم أي الإسلام القائم على التوحيد الذي نزل به القرآن وجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يصدنكم الشيطان عن الإسلام بوساوسه وإغوائه فيصرفكم عن التوحيد والإسلام إنه لكم عدو مبين وليس أدل على عدوانه من أنه أخرج آدم بإغوائه من الجنة حسداً له وبغياً عليه. فمثل هذا العدو لا يصح أبداً الاستماع إليه والمشى وراءه واتباع خطواته. ومن يتبع خطواته يهلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن قريشا أوتيت الجدل والقوة في الخصومة.
- 2- ذم الجدل لغير إحقاق حق أو إبطال باطل وفي الحديث ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل.
- 3- شرف عيسى وعلو مكانته وأن نزوله إلى الأرض علامة كبرى من علامات قرب الساعة.
- 4- تقرير البعث والجزاء.

5- حرمة اتباع الشيطان لأنه يضل ولا يهدي.

- 1- قرأ نافع يصدون من صد يصد عن كذا إذا أعرض فيصدون بمعنى يعرضون عن القرآن ويقولون إن فيه تناقضاً من أجل فرية ابن الزبيري، وقرأ حفص يصدون بكسر الصاد من الصد بمعنى الصخب والضجيج
- 2- وجائز أن يكون الضمير في (وإنه) عائد إلى القرآن أو إلى المنزل عليه محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال صلى الله عليه وسلم "بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين السبابة والوسطى مشيراً إليهما". وما في التفسير مروى عن كبار التابعين مجاهد وقتادة وابن عباس صاحب الجليل رضي الله عنهما ولذا قدمته في التفسير.

(4/650)

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)

شرح الكلمات :

ولما جاء عيسى بالبينات : أي ولما جاء عيسى بن مريم إلى بني إسرائيل بالمعجزات والسرائع.
قال قد جئتكم بالحكمة : أي قال لبني إسرائيل قد جئتكم بالنبوة وسرائع الإنجيل .
ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه : أي وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أحكام التوراة من أمر الدين وغيره.

فاتقوا الله وأطيعوا الله : أي خافوا الله وأطيعوا فيما أبلغكموه عن الله من الأمر والنهي .
إن الله ربي وربكم فاعبدوه: أي إن الله إلهي وإلهكم فاعبدوه بحبه وتعظيمه والذلة له.
هذا صراط مستقيم: أي تقوى الله وطاعة الرسول وعبادة الله بما شرع هو الإسلام المعبر عنه بالصراط المستقيم.

فاختلف الأحزاب من بينهم: أي في شأن عيسى وهو الله: أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.
فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم : أي فويل للذين كفروا بما قالوا في عيسى من الكذب والباطل.
هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون : أي ما ينتظر هؤلاء الأحزاب مع إصرارهم على ما قالوه في عيسى إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فجأة وهم لا يشعرون.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى جدل المشركين في مكة وفرحهم بالباطل الذي قاله ابن الزبيري في شأن

(4/651)

الملائكة والعزير وعيسى عليهم السلام من أنهم في النار مع من عبدوهم، ويرأى تعالى الملائكة والعزير وعيسى لأنهم ما أمروا الناس بعبادتهم حتى يؤاخذوا بها، وإنما أمر بعبادتهم الشيطان فالشيطان ومن عبدوهم هم الذين في النار. وذكر تعالى شرف عيسى ومكانته وأنه عبد أنعم عليه بالنبوة وجعله مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على قدرة الله تعالى إذ خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وإنما خلقه من تراب ذكر رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ليكون ذلك موعظة لكفار مكة فقال تعالى ولما جاء عيسى بالبينات (1) أي جاء بني إسرائيل مصحوباً بالبينات هي الإنجيل والمعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وما إلى ذلك، قال لهم قد جئتم بالحكمة أي النبوة من عند الله، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة وأمور الدين إذا فاتقوا الله (2) يا بني إسرائيل أي خافوا عقابه المترتب على معاصيه وأطيعون فيما أبلغكموه من أمر ونهي عن الله تعالى، إن الله ربي وربكم أي إلهي وأهكم لا إله إلا هو فاعبدوه بفعل محابه وترك مساخطه حبا فيه وتعظيماً له ورهبة ورغبة. وقوله {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أي هذا الذي دعوتكم إليه من انقاء الله، وطاعة رسوله وعبادته وحده هو الطريق المستقيم الذي يفضي بسالكة إلى سعادة الدارين. قال تعالى: {فَاخْتَلَفَ (3) الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} أي من بين بني إسرائيل من يهود ونصارى فقالت طائفة من اليهود افتراء أن عيسى ابن مريم ابن زنا وأمه بغي وقالوا ساحر. وقال النصارى: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

قال تعالى {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَهِمْ} أي مؤلم فتوعدهم الرب تعالى بالويل الذي هو واد يسيل في جهنم بما يتجمع من صديد فروج أهل النار وأبدانهم من دماء وقروح وأوساخ وهو عذاب يوم القيامة الأليم توعدهم هؤلاء الظالمين بما قالوا في عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام وقال تعالى: {هَلْ (4) يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ} أي ما ينظرون إلا الساعة لأنهم ما تابوا إلى الله ولا راجعوا الحق فيما قالوه في عيسى بل أصروا: اليهود يصفونه بأخس الصفات والنصارى يصفونه بالألوهية التي هي حق الله رب عيسى ورب العالمين أن تأتيهم بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون لأنهم مشغولون بالذرة والهدرجين والاستعمار والتجارة والانغماس في الشهوات كما هو واقع ومشاهد اليوم. وصدق الله العظيم.

1- قال ابن عباس يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير والمائدة وغيرها والإخبار بكثير من

الغيوب.

2- أي اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ومن قال هذا فكيف يكون إلهاً يُعبد وهو عبد يعبد ويوحده؟.

3- ومن اختلافاتهم التي نعت عليهم اختلاف فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعقوبية اختلفوا في عيسى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله وقالت الملكية ثالث ثلاثة أحدهم الله قاله الكلبى وغيره.

4- الجملة مستأنفة بيانياً لما تقدم مما يثير في النفس تساؤلاً فكان الجواب أن العذاب آت وأهله ما ينظرون إلا الساعة وأهل العذاب هم المختلفون من أهل الكتاب والمشركين إذ الجميع ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب والآية تدعوهم إلى التوبة لينجوا من العذاب الأليم.

(4/652)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان رسالة عيسى إلى بني إسرائيل.

2- وجوب التقوى لله وطاعة الرسول، وتوحيد الله في عبادته.

3- بيان شؤم الخلاف، وما يجره من التوغل في الكفر والفساد.

4- وعيد الله لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في الإسلام بالويل وهو عذاب يوم أليم.

الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

شرح الكلمات:

الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ : أي الأحباء يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة.

إلا المتقين : فإن محبتهم تدوم لهم لأنها كانت في الله وطاعته.

يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون: أي ينادون فيقال لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون بل تحبرون أي تسرون وتكرمون.

يطاف عليهم بصحاف من ذهب: أي يطوف عليهم الملائكة بقصاع من ذهب وفيها الطعام وأكواب من ذهب فيها الشراب اللذيذ.

وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين: أي في الجنة ما تشتهيه الأنفس تلذذاً وتلذ الأعين نظراً إليه.

وتلك الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون : أي يقال لهم وهذه هي الجنة التي أورتكموها الله بأعمالكم

(4/653)

الصالحة التي هي ثمرة إيمانكم الصادق وإخلاصكم الكامل.
معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر أحداث الساعة قال تعالى: {الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ (1) بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} أي إذا جاءت الساعة الأخلاء أي الأبناء في الدنيا يوم إذ تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو فتقطع تلك الخلقة والمودة وتصبح عداً لأنها كانت على معصية الله تعالى وقوله إلا المتقين أي الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه فإن مودتهم وخلتهم لا تنقطع لأنها كانت محبة في الله وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل يناديهم ربهم بقوله {يَا عِبَادِ (2) لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ (3) وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}، ويصفهم بقوله {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا} أي بالقرآن {وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} أي منقادين لله ظاهراً وباطناً، ويقول لهم {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} أي أنتم وزوجاتكم المؤمنات تفرحون وتسرون وقوله تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ} بيان لنعيم الجنة الذي ينعمون به وهو أنه يطاف عليهم بصحاف من ذهب (4) وهي قصاع، فيها ألد الطعام وأشهاه، وأكواب من ذهب أيضاً فيها ألد الشراب والأكواب جمع كوب وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم حتى يمكن الشرب منه من أي جهة من جهاته وفيها أي في الجنة ما تشتهيه الأنفس من سائر المستلذات، وتلذ الأعين من سائر المرئيات ويقال لهم لكم ما تشتهون وأنتم فيها خالدون لا تخرجون منها ولا تموتون فيها.
وقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ (5) } أي وهذه هي الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون من الصالحات والخيرات، وجه الوراثة أن الله تعالى خلق لكل إنسان منزلين أحدهما في الجنة والثاني في النار فكل من دخل الجنة ورث منزل أحد دخل النار فهذا أوجه التوارث والباء في بما

1- ذكر القرطبي رواية عن النقاش أن هذه الآيات نزلت في أمية بن خلف الجمحي وعقبة بن أبي معيط كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قريش قد صبا عقبة فقال أمية له وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتقل في وجهه ففعل عقبة عليهما لعائن الله ذلك فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بدر صبراً وقتل أمية في المعركة ففيهم نزلت هذه الآية والآية عامة في كل كافر وظالم.

2- قرأ نافع والجمهور يا عبادي بالياء بعد الدال وهي ياء المتكلم وقرأ حفص بحذفها تخفيفاً لدلالة اللفظ والسياق عليها.

- 3- روي أن المنادي لما يقول يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون يرفع أهل العرصة رؤوسهم فيقول المنادي الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فينكس أهل الأديان رؤوسهم إلا المسلمين .
- 4- في الصحيحين عن حذيفة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة". وفي صحيح مسلم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتقلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون. قالوا فماذا الطعام؟ قال جشاً ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير.
- 5- أشار إليها بلام البعد لعلوها وعظيم منازلها وسمو درجاتها.

(4/654)

كنتم تعملون سببية أي بسبب أعمالكم الصالحة التي زكت نفوسكم وطهرت أرواحكم فاستوجبتم دخول الجنة وإرث منازلها.

وقوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ} (1) مِنْهَا تَأْكُلُونَ} أي يقال لهم هذا إكراماً لهم وإسعاداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله والله سبحانه وتعالى، ولذا ينبغي أن تكون المودة في الدنيا لله لا لغيره تعالى.
- 2- بيان فضل التقوى وشرف المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.
- 3- بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة.
- 4- بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات.
- 5- الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة كما أن الشرك والمعاصي سبب في دخول النار. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَاِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

شرح الكلمات:

إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون : أي إن الذين أجزموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي في جهنم خالدون لا يخرجون ولا يموتون.

لا يفترون عنهم وهم فيه مبلسون : أي لا يخفف عنهم العذاب وهم فيه ساكتون سكوت يأس.

1- الفاكهة قال ابن عباس رضي الله عنهما هي الثمار كلها رطبها ويابسها، وبائعها يقال له الفاكهي.

(4/655)

ونادوا يا ملك ليقض علينا ربك : أي نادوا مالكاً خازن النار قائلين له ليمتنا ربك.
قال إنكم ماكنون: أي أجابهم بعد ألف سنة مضت على دعوتهم بقوله إنكم ما كنون أي مقيمون في عذاب جهنم دائماً.
لقد جنناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون : أي علة بقائكم أنا جنناكم بالحق على لسان رسولنا والحق التوحيد وعبادة الله بما شرع فكره أكثركم الحق.
أم أبرموا أمراً فإننا مبرمون: أي أحكموا في الكيد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم فإننا محكمون كيدنا في إهلاكهم.
ورسلنا لديهم يكتبون: أي وملائكتنا من الحفظة يكتبون ما يسرون وما يعلنون.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الجنة ونعيمها ذكر في هذه الآيات النار وعذابها وهذا هو الترغيب والترهيب الذي امتاز به أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى وهداية الخلق إلى الإصلاح قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ (1)﴾ أي الذين أجزموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والمعاصي هؤلاء في عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم العذاب أي لا يخفف وهم فيه أي في العذاب ملبسون أي ساكنون آيسون قانطون. وقال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ في تعذيبنا لهم بهذا العذاب ولكن كانوا هم الظالمين، حيث داسوا أنفسهم بالشرك والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا (2) رَبُّكَ﴾ يخبر تعالى أن أصحاب ذلك العذاب الدائم الذي لا يفتر فيخفف نادوا مالكاً خازن النار وقالوا له ليمتنا ربك فنستريح من العذاب فأجابهم مالك بعد ألف (3) سنة قائلاً قال أي ربي إنكم ماكنون أي في عذاب جهنم، وعلل لهذا الحكم بالمكث أبداً فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي أرسلنا إليكم رسولنا بالحق يدعوكم إليه وهو الإيمان والعمل الصالح المزكي للنفوس فكره أكثركم (4) ذلك فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحاً مؤثرين شهوات الدنيا على الآخرة فمتم على الشرك والكفر فهذا جزاء الكافرين.

1- الجملة مستأنفة بيانياً لأن سائلاً بعد أن علم بحال أهل الإيمان والتقوى يسأل عن حال أهل الإجمام فأجيب بأن المجرمين الخ.

2- قال ابن مسعود وأبو الدرداء قرأ النبي صلى الله عليه وسلم: ونادوا يا مال أي رخم الاسم

المنادى بحذف الحرف الأخير منه وهو شائع في كلام العرب فيقال في مالك مال وفي حارث يا حار وفي فاطمة فاطم قال الشاعر:

يا حار لا أرثين منكم بداهية
لم يلحقها سوقة قبلي ولا ملك

وقال آخر:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

3- روى هذا الترمذي وهناك رواية أخرى في ذكر المدة التي يجابون بعدها.

4- الذين كرهوا الحق هم الرؤساء حفاظاً على مراكزهم وأما الأتباع فلم يكرهوا الحق ولكن اتبعوا الرؤساء فماتوا على الشرك والكفر فدخلوا النار معهم.

(4/656)

وقوله تعالى: {أَمْ أُنذِرُكُمْ (1) أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} أي بل أبرم هؤلاء المشركون أمراً يكيدون فيه للرسول ودعوته فإن فعلوا ذلك فإننا مبرمون أي محكمون أمراً مضاف لهم بتعذيبهم وإبطال ما أحكموه من الكيد للرسول ودعوته. وقوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى} نسمع ذلك ورسلنا وهم الحفظة لديهم يكتبون ما يقولون سراً وجهراً. روي أن ثلاثة نفر قالوا وهم تحت أستار الكعبة فقال أحدهم أترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال أحدهم إذا جهرتهم سمع، وإذا أسررتهم لم يسمع وقال الثاني إن كان يسمع إذا أعلنتم فإنه يسمع إذا أسررتهم فنزلت {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ (2) وَنَجْوَاهُمْ} أي نسمع سرهم ونجواهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان عقوبة الإجماع على النفس بالشرك والمعاصي.
 - 2- عذاب الآخرة لا يطاق ولا يقادر قدره يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وما هم بميتين.
 - 3- أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا والشهوات البهيمية في الأكل والشرب والنكاح هذه التي تكره إلى صاحبها الدين وشرائعه التي قد تقيد من الإسراف في ذلك.
- قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

- 1- أم المنقطعة تفسر ببل للإضراب الانتقالي والاستفهام محذوف الأداة تخفيفاً أي أأبرموا أمراً والاستفهام تقريرى والمراد بالأمر ما يبيتونه من مكر بالرسول صلى الله عليه وسلم وأجمعوا عليه وهو قتله صلى الله عليه وسلم وذلك في دار الندوة فأبرم الله أمراً فأهلكهم في بدر.
- 2- السر: ما يسرونه في أنفسهم من وسائل المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالنجوى ما يحتاجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

(4/657)

شرح الكلمات:

قل إن كان للرحمن ولد : أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الملائكة بنات الله إن كان للرحمن ولد فرضاً.

فأنا أول العابدين: أي فأنا أول من يعبده تعظيماً لله وإجلالاً ولكن لا ولد له فلا عبادة إذاً لغيره. سبحان رب السموات : أي تنزهه وتقدس.

عما يصفون : أي عما يصفون به الله تعالى من أن له ولداً وشركاء.

فذرهم يخوضوا ويلعبوا: أي اتركهم يا رسولنا يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم. وهو الذي في السماء إله : أي معبود في السماء.

وفي الأرض إله : أي ومعبود في الأرض.

وتبارك الذي له ملك السموات : أي تعظم وجل جلال الذي له ملك السموات.

وعنده علم الساعة : أي عنده علم وقت مجيئها.

معنى الآيات:

سبق أن بكتت تعالى المشركين في دعواهم أن الملائكة بنات الله وتوعدهم بالعذاب على قولهم الباطل وهنا قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل لهم إن كان للرحمن (1) ولد كما تفترون فرضاً وتقديراً فأنا أول العابدين له (2)، ولكن لم يكن للرحمن ولد. فلم أكن لأعبد غير الله تعالى، هذا ما دل عليه قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}. وقوله: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} نزه تعالى نفسه وقدها وهو رب السموات والأرض ورب العرش أي مالك ذلك كله وسلطانه عليه جميعه عما يصفه المشركون به من أن له ولداً وشركاء. وهنا قال تعالى لرسوله إذا أصروا على باطلهم من الشرك والكذب على الله والافتراء عليه فذرهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو يوم عذابهم المعد لهم وذلك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي معبود في السماء ومعبود في الأرض أي معظم غاية التعظيم، ومحبوب غاية الحب ومتدلل له غاية الدل في الأرض والسماء وهو الحكيم في صنعه وتدبيره العليم بأحوال خلقه فهل مثله تعالى يفتقر إلى زوجة وولد تعالى

1- يروى عن ابن عباس والحسن والسدي أن: إن ليست شرطية وهي نافية بمعنى ما وتقدير الكلام ما كان للرحمن ولد. وهنا تم الكلام ثم قال فأنا أول العابدين وهذا الرأي ضعيف ويتنافى مع السياق وما في التفسير هو الصواب.

2- له أي لذلك الولد لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد إلا أنه لا ولد له ولا ينبغي له لغناه المطلق.

(4/658)

الله عن ذلك علواً كبيراً. وقوله ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ (1) مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعظم وجل جلاله وعظم سلطانه الذي له ﴿مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والدنيا والآخرة، وعنده علم الساعة وإليه ترجعون أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية التلطف في الخطاب والتنزل مع المخاطب لإقامة الحجة عليه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وكما هنا قل إن كان للرحمن ولد من باب الفرض والتقدير فأنا أول العابدين له ولكن لا ولد له فلا أعبد غيره سبحانه وتعالى.

2- تهديد المشركين بعذاب يوم القيامة.

3- إقامة البراهين على بطلان نسبة الولد إلى الله تعالى.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

شرح الكلمات:

ولا يملك الذين يدعون : أي يعبدونهم.

من دونه : أي من دون الله.

الشفاعة : أي لأحدٍ.

إلا من شهد بالحق : أي لكن الذي شهد بالحق فوجد الله تعالى على علم هذا الذي تتاله شفاعته

الملائكة والأنبياء.

فَأَنى يُؤفكون : أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته.

وقيله : أي قول النبي يا رب إن هؤلاء.

1- تعاضم وتسامى عما يصفه المشركون من الشريك والصاحبة والولد وتبارك هو خبر لفظاً وإنشاء معنى إذ هو لفظ أريد به المدح العظيم لذي الخير العظيم.

(4/659)

فاصفح عنهم : أي أعرض عنهم.

وقل سلام فسوف : أي أمري سلام منكم، فسوف تعلمون عاقبة كفركم.

معنى الآيات:

لما أعلم تعالى في الآية السابقة أن رجوع الناس إليه يوم القيامة، وكان المشركون يزعمون أن آلهتهم من الملائكة وغيرها تشفع لهم يوم القيامة واتخذوا هذا ذريعة لعبادتهم فأعلمهم تعالى في هذه الآية (86) أن من يدعونهم بمعنى يعبدونهم من الأصنام والملائكة وغيرهم (1) من دون الله لا يملكون الشفاعة لأحد، فإله وحده هو الذي يملك الشفاعة ويعطيها لمن يشاء هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي استثنى الله تعالى أن من شهد بالحق أي بأنه لا إله إلا الله، وهو يعلم ذلك علماً يقيناً فهذا قد يشفع له الملائكة أو الأنبياء فقال عز وجل ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (2) بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم فالموحدون تنالهم الشفاعة بإذن الله تعالى. وقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلقهم لأجابوك قائلين الله. فسبحان الله كيف يقرون بتوحيد الربوبية وينكرون توحيد العبادة فلذا قال تعالى: ﴿فَأَنى يُؤفكون﴾ (3) أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته يعرفون أن الله هو الخالق لهم ويعبدون غيره ويتركون عبادته.

وقوله ﴿وقيله﴾ (4) يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ويعلم تعالى قيل رسوله وشكواه وهي يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لما شاهد من عنادهم وتصلبهم شكاهم إلى ربه تعالى فأمره ربه عز وجل أن يصفح (5) عنهم أي يتجاوز عما يلقاه منهم من شدة وعنق وأن يقول لهم سلام وهو سلام متاركة لا سلام تحية وتعظيم أي قل لهم أمري سلام. فسوف تعلمون (6) عاقبة هذا الإصرار على الكفر والتكذيب فكان هذا منه تهديداً لهم بذكر ما ينتظرهم من أليم العذاب إن ماتوا على كفرهم.

1- مثل عيسى والعزير.

- 2- وهم يعلمون الجملة الحالية وفي هذا دليل على أن من لم يفهم معنى لا إله إلا الله ويقولها لا تنفعه ولا ينال بها الشفاعة يوم القيامة إذ لا بد من فهمه ماذا نفى وماذا أثبت ولذا إيمان المقلد اختلف في صحته أهل العلم.
- 3- أنى اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية أي إلى أي مكان يصرفون؟ وماضي يؤفكون أفك يَأفك أفكاً على وزن ضرب يضرب ضرباً وأفكه كضربه.
- 4- هذا على قراءة نافع وهي نصب قبيله أما على قراءة حفص فقبيله مجرور عطفاً على قوله وعنده علم الساعة وعلم قبيل رسوله كذا. وهو (قبيل) مصدر قال كالقول، وأصله قول فعل بمعنى مفعول كذب بمعنى مذبح والضمير في قبيله يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو القائل يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لطول ما دعاهم وهم معرضون عن الحق مصرون على الكفر.
- 5- مثل هذا (فاصفح وقل سلام) منسوخ بآيات القتال التي نزلت بالمدينة النبوية بعد الهجرة.
- 6- قرأ نافع تعلمون بالتاء وقرأ حفص والجمهور يعلمون بالياء فالأول مما أمر الله تعالى رسوله أن يقوله للمشركين، والثاني على أنه وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه ينتقم من المكذبين.

(4/660)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا يملك الشفاعة يوم القيامة أحدٌ إلا الله تعالى فمن أذن له شفع ومن لم يأذن له لا يشفع، ولا يشفعُ إلا لأهل التوحيد خاصة أما أهل الشرك والكفر فلا شفاعة لهم.
- 2- مشركو العرب على عهد النبوة موحدون في الربوبية مشركون في العبادة.
- 3- مشروعية الصفح والتجاوز عند العجز عن إقامة الحدود وإعلاء كلمة الله تعالى.

(4/661)

المجلد الخامس

سورة الدخان

...

سورة الدخان

مكية وآياتها تسع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف المقطعة تكتب هكذا حم وتقرأ هكذا حاميم.

والكتاب المبين : أي القرآن المظهر للحلال والحرام في الأقوال والأعمال والاعتقادات.

إنا أنزلناه في ليلة مباركة : أي في ليلة القدر من رمضان.

(5/5)

فيها يفرق كل أمر حكيم : أي يفصل كل أمر محكم من الآجال والأرزاق وسائر الأحداث. أمراً من عندنا : أي فيها في ليلة القدر يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا أي أمرنا بذلك أمراً من عندنا.

إنا كنا مرسلين رحمة من ربك : أي إنا كنا مرسلين الرسل محمداً ومن قبله رحمة من ربك بالمرسل إليهم من الأمم والشعوب.

إنه هو السميع العليم : أي السميع لأصوات مخلوقاته العليم بحاجاتهم.

إن كنتم موقنين : أي بأنه رب السماوات والأرض فآمنوا برسوله وابعده وحده.

بل هم في شك يلعبون : أي فليسوا بموقنين بل هم في شك من ربوبية الله تعالى لخلقه وإلا لعبده وأطاعوه

بل هم في شك يلعبون بالأقوال والأفعال لا يقين لهم في ربوبية الله تعالى وإنما هم مقلدون لأبائهم في ذلك.

معنى الآيات :

قوله تعالى {حم} 1 هذا أحد الحروف المقطعة وهو من المتشابه الذي يفوض فهم معناه الى منزله فيقول: المؤمن: الله أعلم بمراده به، وقد ذكرنا له فائدتين جليلتين تقدمتا غير مأمرة الأولى: أنه لما كان المشركون يمنعون سماع القرآن خشية التأثر به جاءت هذا الفواتح بصيغة لم تعهدا العرب في لغتها فكان إذا قرأ القارئ رافعا صوته ماداً به هذه الحروف يستوقف السامع ويضطره إلى أن يسمع فإذا سمع تأثر واهتدى غالباً وأعظم بهذه الفائدة من فائدة والثانية: أنه لما ادعى العرب أن القرآن

ليس وحياً إلهياً وإنما هو شعر أو سحر أو قول الكهان أو أساطير تحداهم الله تعالى بالإتيان بمثله فعجزوا فتحداهم بعشر سور فعجزوا فتحداهم بسورة فعجزوا فأعلمهم ان هذا المعجز انما هو مؤلف من مثل هذه الحروف حم طسم ألم فألفوا نظيره فعجزوا فقامت عليهم الحجة لعجزهم وتقرر أن القرآن الكريم كلام الله ووحيه أوحاه إلى رسوله ويؤكد هذه الفائدة أنه غالباً إذا ذكرت هذه الحروف في فواتح السور يذكر القرآن بعدها نحو طس تلك آيات القرآن، حم والكتاب المبين، ألم تلك آيات الكتاب الحكيم.

قوله تعالى {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} هذا قسم أقسم الله تعالى بالقرآن تنويهاً بشأنه والله أن يقسم بما يشاء فلا حرج عليه وإنما الحجر على الإنسان أن يحلف بغير ربه عز وجل، والمراد من الكتاب المبين المقسم

1 ورد في فضل هذه السورة عدة أحاديث ضعيفة ولكنها قد ترتفع إلى درجة الحسن منها: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنة".

(5/6)

به القرآن العظيم، وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} أي القرآن { فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } أي كثيرة البركة والخير وهي ليلة القدر 1 والتي هي خير من الف شهر. وقوله {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، ولذلك أرسلنا الرسول وأنزلنا القرآن لننذر الناس عذاب يوم القيامة حيث لا ينجي منه إلا الإيمان والعمل الصالح، ولا يعرفان إلا بالوحي فكان لأبد من الرسول الذي يوحي إليه ولا بد من الوحي الحامل لبیان الإيمان وأنواع العمل الصالح. وقوله فيها يفرق كل أمر حكيم أي في تلك الليلة المباركة يفصل كل أمر محكم مما قضى الله أن يتم في تلك السنة من أحداث في الكون يؤخذ ذلك من كتاب المقادير فيفصل عنه وينفذ خلال السنة من الموت والحياة والغنى والفقر والصحة والمرض والتولية والعزل فكل أحداث تلك السنة تفصل من اللوح المحفوظ ليتم أحداثها في تلك السنة حتى إن الرجل ليتزوج ويولد له وهو في عداد من يموت فلا تنتهي السنة إلا وقد مات وقوله: {أَمْرًا مِنْ 2 عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} أي كان ذلك أمراً من عندنا أمرنا به.

وقوله: {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} أي الرسل محمداً فمن قبله من الرسل رحمة من ربك بالناس المرسل إليهم إنه هو السميع لأقوالهم وأصواتهم العليم بحاجاتهم، فكان إرسال الرسل رحمة من ربك أيها الرسول فاحمدوه واشكروه فإنه أهل الحمد والثناء وقوله: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي خالق ومالك السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، أي بأنه رب السموات والأرض وما بينهما فاعبدوه

وحده فانه لا إله إلا هو يحي ويميت ريكم ورب آبائكم الأولين. قوله تعالى: {لَيْلٌ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ} دال على أن إقرارهم بأن الله رب السموات ورب الخلق عندما يسألون لم يكن عن يقين إذ لو كان على يقين لما أنكروا توحيد الله وكفروا به إذا فهم في شك يلعبون بالأقوال فقط كما يلعبون بالأفعال، لا يقين لهم في ربوبيته تعالى وإنما هم مقلدون لأبائهم في ذلك.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان فضل ليلة القدر 3 وأنها في رمضان.

1 شاهده قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقوله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن حيث ابتدأ نزوله في غار حراء في شهر رمضان وجائز أن يكون نزل كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل منجماً فتم نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة.

2 نصب أمراً من عندنا على الحال، والأمر الحكيم المشتمل على الحكمة ورحمة مفعول لأجله من إنا كنا مرسلين.

3 رويت آثار وأحاديث يزعم أصحابها أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وردها أهل العلم قال ابن العربي: ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان هو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن فنص على أنه ميقات نزوله في رمضان ثم عين زمانه من الليل ها هنا بقوله في ليلة مباركة فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله. وليس في ليلة النصف من شعبان حديث واحد يعول عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها.

(5/7)

2- تقرير عقيدة القضاء والقدر وإثبات اللوح المحفوظ.

3- إرسال الرسل رحمة من الله بعباده، فلم يكن زمن الفترة وأهلها أفضل من زمن الوحي.

4- لم يكن أفراد المشركين بربرية الله تعالى لخلقه عن علم يقيني بل هم مقلدون فيه فلذا لم يحملهم على توحيد الله في عبادته، وهذا شأن كل علم أو معتقد ضعيف.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ

(16)

شرح الكلمات:

فارتقب: أي انتظر.

بدخان مبين: أي هو ما كان يراه الرجل من قريش لشدة الجوع بين السماء والأرض من دخان.

يغشى الناس: أي يغشى أبصارهم من شدة الجهد الناتج عن الجوع الشديد.

ربنا اكشف عنا العذاب: أي يا ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا بك وبرسولك.

أنى لهم الذكرى: أي من أي وجه يكون لهم التذكير والحال أنه قد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وقالوا معلم مجنون.

معلم مجنون: أي أنه يعلمهم القرآن بشر مجنون أي مختلط عليه أمره غير مدرك لما يقول.

إنكم عائدون: أي إلى الكفر والجود.

البطشة الكبرى: أي الأخذة القوية التي أخذناهم بها يوم بدر حيث قتلوا وأسروا.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ} الآية نزلت بعد أن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش يوم كثر

استهزأؤهم به

وسخريتهم منه وبما جاء به من الدين الحق فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف أي

1 ارتقب معناه انتظر يا رسولنا يوم تأتي السماء الخ. وقيل ارتقب معناه أحفظ لأن الرقيب يطلق

على الحافظ.

(5/8)

أي سبع سنين من القحط والجذب فأمره ربه أن ينتظر ذلك فقال له فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى

الناس هذا عذاب أليم، واستجاب تعالى لرسوله وأصحاب قريشاً بقحط وجذب ماتت فيه مواشيهم وأصابهم جوع

أكلوا فيه العهن¹ وشربوا فيه الدم، وكان الرجل يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا دخاناً² يغشى بصره من شدة الجوع، حتى ضرعوا إلى الله وبعثوا إلى الرسول يطلبون منه أن يدعو الله تعالى أن

يرفع عنهم هذا العذاب وهو معنى قوله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} أي برسولك وبما جاء به من الهدى والدين

الحق.

وقوله تعالى: {أَنَّى لَهُمْ 3 الذُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ} أي ومن أين يأتيهم التذکر فینیبوا إلى ربهم ویسلموا له، والحال أنه قد جاء رسول مبین للحق مظهر له فعرّفوه أنه رسول حق وصدق ثم تولوا عنه أي أعرضوا عنه واما جاء به وقالوا معلم أي 4 هو رجل یعلمه غیره الذی یقوله ولم یکن رسولا وقالوا مجنون فلذا تذکرهم وتوبتهم مستبعدة جداً. وقوله تعالى: إنا کاشفوا العذاب قليلاً إنکم عائدون وفعلاً کشف الله عنهم عذاب المخصصة ونزل الغیث بديارهم وسعدت بلادهم بعد شقاء دام سبع سنوات، وعادوا إلى الشریک وحرب الإسلام والمسلمین.

وقوله تعالى: {يَوْمَ نَبُطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} 5 أي وارتقب یا رسولنا یوم نبطش البطشة الکبری إنا منتقمون، وكان ذلك ببدر حیث انتقم الله منهم فقتل رجالهم بل صناديدهم وأسر من أسر منهم، وكان بطشة لم تعرفها قریش قط.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- صدق وعد الله لرسوله واستجابة دعائه صلى الله عليه وسلم.

2- الإيمان عند معاينة العذاب لا يجدي ولا ينفع.

1 العهن الصوف یصبغ بالدم ویشوی ویؤکل لشدة الجوع الذی أصابهم.
2 لا منافاة بین هذا الدخان الثابت بالقرآن والسنة، وبین الدخان الذی هو من أشرط الساعة والثابت بالسنة الصحیحة فی حدیث مسلم وهو أنها لن تقوم حتی تروا قبلها عشر آیات فذکر - الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عیسی بن مریم وبأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزیره العرب وآخر ذلك نار تخرج من الیمن تطرد الناس إلى محشرهم.

3 أنى اسم استفهام الأصل أنه یستفهم به عن المكان ویتوسع فیہ فیستفهم به عن الحال كما هی هنا والاستفهام هنا إنکاری أي کیف یتذكرون وهم فی شك یلعبون وجملة قد جاءهم رسول حالیه فهی فی محل نصب.

4 أي لم یکنفوا بالأعراض بل زادوا علیه الافتراء والسب إذ قالوا معلم مجنون.

5 یقال انتقم منه أي عاقبه والنقمة بالكسر والفتح والجمع نقم کعنب ونقمت ککلمات والظرف (یوم) متعلق بجملة (إنا منتقمون) أي منتقمون یوم البطش.

3- بيان ما قابلت به قريش دعوة الإسلام من جحود وكفران.

4- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك آية أنه وحي الله وكلامه تعالى.

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدَّوْا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبُّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ
(20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرَ بَعِبَادِي لَيْلًا
إِنِّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ (24)

شرح الكلمات:

ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون: أي ولقد اخترنا قبلهم أي قبل كفار قريش قوم فرعون من الأقباط.

وجاءهم رسول كريم: أي موسى بن عمران صلوات الله عليه وسلامه.

أن أدوا إلي عباد الله: أي ادفعوا إلي عباد الله بني إسرائيل وأرسلوهم معي.

إني لكم رسول أمين: أي إني رسول الله إليكم أمين على وحيه ورسالته.

وأن لا تعلوا على الله: أي وبأن لا تطغوا على الله فتكفروا به وتعصوه.

إني آتيتكم بسُلطان مبین: أي بحجة واضحة تدل على صدقي في رسالتي وما أطلبكم به.

وإني عذت بربي وربكم أن: أي وأني قد اعتصمت بربي وربكم واستجرت به أن ترجموني.

ترجمون

وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون: أي إن لم تصدقوني في ما جئتكم به فخلوا سبيلي واتركوني.

فدعا ربه: أي فلما كذبه فرعون وقومه وهموا بقتله نادى ربه يا رب.

إن هؤلاء قوم مجرمون: أي إن هؤلاء قوم مجرمون بالكفر والظلم.

فأسري بعبادي ليلاً إنكم: أي فأجابه ربه بأن قال له فأسري بعبادي أي بني إسرائيل ليلاً إن

متبعون

(5/10)

فرعون وجنده متبعوكم ليردوكم.

وأترك البحر رهواً: أي وإذا اجتزت أن وقومك البحر فتركه رهواً ساكناً كما هو حين دخلته مع بني إسرائيل.

إنهم جند مغرقون: أي إن فرعون وقومه جند والله مغرقهم في البحر.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا} 1 هذا شروع في قصة موسى مع فرعون لوجود تشابه بين أكابر مجرمي

قريش وبين فرعون في ظلمه وعلوه، والقصد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتخفيف ألمه

النفسي من جراء ما يلاقي من أكابر مجرمي قريش في مكة فقال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ} أي قيل كفار قريش قوم فرعون من القبط وجاءهم رسول كريم أي على ربه وعلى قومه من بني إسرائيل هو موسى بن عمران عليه السلام، أن أدوا أي بأن أدوا أي ادفعوا إلى عباد الله بني إسرائيل وأرسلوهم معي إني لكم رسول أمين على رسالتي صادق في قلبي، وبأن لا تعلموا على الله أي بأن لا تطغوا على الله فتكفروا به وتعصوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه. إني آتيتكم بسطان مبين أي بحجة بينة واضحة على صحة ما أطالبكم به. وإني عدت 2 بربي وربكم أي استجرت و تحصنت أن ترجمون بأقوالكم 3 أو أعمالكم، وإن لم تؤمنوا أي لم تصدقوا بما جئتكم به فاعتزلون ولما أبوا إلا أذاه وأرادوا قتله دعا ربه قائلاً رب إن هؤلاء قوم مجرمون كفرة ظلمة يعني فرعون وملاه فأوحى إليه ربه تعالى فأسري 4 بعبادي أي بني إسرائيل إذ هم المؤمنون وغيرهم من القبط كافرين ليلاً في آخر الليل وأعلمه أن فرعون وجنوده متبعون لهم ليردوهم وينكلوا بهم. وقوله تعالى: {وَأَتَزَكَّ الْبَحْرَ 5 رَهْوَ 6 إِنَّهُمْ 6 جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ}. إنه لما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فلققتين ودخل بنو إسرائيل البحر فاجتازوه أراد موسى أن يضرب البحر ليلتئم كما كان حتى لا يدخله فرعون وجنده فيدركوهم فقال له ربه تعالى أترك البحر رهواً أي ساكناً كما كان حين دخلتموه حتى إذا دخل فرعون وجنوده أطبقناه عليهم إنهم جند مغرقون وهذا الذي حصل فنجى 7 الله موسى وبني إسرائيل وأغرق فرعون وجنوده أجمعين.

- 1 فتنا بمعنى ابتلينا وهو الأمر بالإيمان والطاعة أي عاملتهم معاملة المختبر لهم وذلك ببعث موسى وأخيه هارون عليهما السلام.
- 2 كأنهم هددوه بالقتل فلذا استجار بالله تعالى.
- 3 الرجم بالقول الكذب على الشخص والافتراء عليه كذباً والرجم بالأعمال معناه القتل بالحجارة.
- 4 قرأ نافع وغيره بهمزة وصل وقرأ حفص وغيره بهمزة قطع لأن الفعل ثلاثياً نحو سرى يسري سرياً وأسرى يسري إسراء.
- 5 المراد بالبحر هنا بحر القلزم المعروف اليوم بالبحر الأحمر ورهوا منصوب على الحال والرهوة الفجوة الواسعة مأخوذ من (رها) إذا فتح بين رجليه ومعناه: اترك البحر مفتوحاً ساكناً حتى يدخل فرعون وجنده فيهلكون.
- 6 جملة إنهم جند مغرقون تعليلية ومغرقون مقضياً ومحكوم بإغراقهم.
- 7 وكانت هذه النجاة يوم عاشوراء وهو عاشر شهر المحرم بحديث صيام اليهود فيه لأن الله أنجا فيه موسى وبني إسرائيل فصامه الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه وقال نحن أولى بموسى منهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجود تشابه كبير بين فرعون وكفار قريش في العلو والصلف والكفر والظلم.
 - 2- مشروعية الاعتبار بما سلف من أحداث في الكون والانتساء بالصالحين.
 - 3- وجوب الاستعاذة بالله تعالى والاستجارة به إذ لا مجبر على الحقيقة إلا هو ولا واقى سواه.
 - 4- مشروعية دعاء الله تعالى على الظالمين وسؤاله النصر عليهم والنجاة منهم.
- كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33)
- شرح الكلمات:

كم تركوا من جنات: أي بساتين وحدائق غناء.

ومقام كريم: أي مجلس حسن ومحافل مزينة ومنازل حسنة.

ونعمة كانوا فيها فاكهين: أي نضرة عيش ولدانته كانوا فيها ناعمين.

وأورثناها قوماً آخرين: أي بني إسرائيل.

فما بكت عليهم السماء: أي لهوانهم على الله بسبب كفرهم وظلمهم.

والأرض

وما كانوا منظرين: أي ممهلين حتى يتوبوا.

من العذاب المهين: أي قتل أبنائهم واستخدام نسائهم.

ولقد اخترناهم على علم على: أي اخترناهم على علم منا على عالمي زمانهم من الإنس والجن.

وذلك لكثرة

العالمين الأنبياء منهم وفيهم.

(5/12)

وأتيناها من الآيات ما فيه بلاء: أعطيناهاهم من النعم ما فيه بلاء مبين أي واضح كانفلاق البحر والمن والسلوى.

مبين

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة موسى عليه السلام مع عدو الله فرعون عليه لعائن الرحمن قال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ} أي كم ترك فرعون وجنوده اللذين هلكوا معه في البحر أي تركوا كثيراً من الجنات أي البساتين والعيون الجارية فيها سقي الزروع، ومقام كريم أي منازل حسنة ومحافل مزينة بأنواع الزينة والمحفل مكان الاحتفال، ونعمه 2 أي متعة عظيمة كانوا فيها فاكهين أي ناعمين مترفين وقوله تعالى: كذلك 3 هكذا كانت نعمتهم فسلبناهما منهم لكفرهم بنا وتعاليمهم على شرائعنا وأوليائنا، {وَأُورِثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} 4 هم بنو إسرائيل إذ رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون. وقوله تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} ، لأنهم كانوا كافرين لم يعملوا على الأرض خيراً ولم يعرج إلى السماء من عملهم خيراً فلم يبكون إنما يبكي المسلم تبكيه الأرض التي كان يسجد عليها ويعبد الله تعالى فوقها وتبكيه السماء التي كان كل يوم وليلة يصعد إليها عمله الصالح، وقوله وما كانوا منظرين أي ممهلين بل عاجلهم الرب بالعقوبة، ولم يمهلهم علمهم يتوبون لعلم الله تعالى بطبع قلوبهم وكم واعدوا موسى إن رفع عنهم العذاب يؤمنون، وما آمنوا. وقوله تعالى ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين هذه بعض أياديه على بني إسرائيل وهي أنه نجاهم من العذاب المهين الذي كان فرعون وقومه يصبونه عليهم إذ كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم للخدمة والامتهان وأي عذاب مهين أكبر من هذا؟ من فرعون أي من عذاب فرعون الذي كان ينزله بهم إنه كان عالياً من المسرفين أي كان فرعون جباراً طاغياً من المسرفين في الكفر والظلم. وقوله تعالى {وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ} أي بني إسرائيل على علم أي منا على العالمين أي عالمي زمانهم من الثقلين الإنس والجن، وقوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُمْ} أي أعطيناهاهم من الآيات {مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ} 5 أي اختبار عظيم ومن تلك الآيات انفلاق البحر،

1 كم للتكثير كرب للتقليل غالباً.

2 النعمة بفتح النون التتعيم يقال نعمه فنتعم، والنعمة بالكسر اليد والصنيعة والمنة وما أنعم به على المرء ومثلها النعماء والنعمة.

3 كذلك قيل الأمر كذلك فيوقف على كذلك وقيل كذلك أفعل بمن عصاني أو كذلك كان أمرهم.

4 يرى بعضهم أن المراد بقوم آخرين أنهم غير بني إسرائيل وإنما هم من الأقباط أهل مصر أنفسهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مستدلاً بأن الله تعالى قال {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} ولم يقل (ولقد نجيناهم) فيعود الضمير على بني إسرائيل لكن في آية الشعراء قال تعالى {كَذَلِكَ وَأُورِثْنَاَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} فهذا نص صريح وطريق الجمع أن يقال أن بني إسرائيل بعد موت موسى وانتصارهم على الكنعانيين والعمالقة وإقامة دولة في فلسطين دخلوا مصر وحكموها أما على عهد سليمان فإنهم حكموا غالب المعمورة وهذا وجه الجمع والله أعلم.

5 في هذا البلاء المبين أربعة أوجه ذكرها القرطبي وهي نعمة ظاهرة -عذابه شديد- اختبار يتميز به الكافر من المؤمن - ابتلاء بالشدة والرخاء.

(5/13)

وتظليل الغمام لهم والمن والسلوى في التيه إلى غير ذلك مما هو اختبار عظيم لهم أيشكرون أم يكفرون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

1- بيان سنة الله في سلب النعم وإنزال النقم بمن كفر نعم الله ولم يشكرها فعصى ربه وأطاع هواه ونفسه فترك الصلاة واتبع الشهوات وترك القرآن واشتغل بالأغاني، وأعرض عن ذكر الله واقبل على ذكر الدنيا ومفاتها.

2- بيان هوان أهل الكفر والفسق على الله وعلى الكون كله، وكرامة أهل الإيمان والتقوى على الله وعلى الكون كله حتى أن السماء والأرض تبيحهم إذا ماتوا.

3- ذم العلو في الأرض وهو التكبر والإسراف في كل شيء.

4- بيان أن الله يبغض أي يختبر عباده بالخير والشر.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (35) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

شرح الكلمات:

إن هؤلاء: أي المشركين من قريش.

إن هي إلا موتتنا الأولى: أي لا حياة بعدها ولا موت وهذا تكذيب بالبعث الآخر.

(5/14)

وما نحن بمنشرين: أي بمبعوثين أحياء من قبورنا بعد موتنا.

فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين: أي فأت يا محمد بآبائنا الذين ماتوا إن كنت صادقاً في أننا بعد موتنا

وبلانا نبعث أحياء من قبورنا .
أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم :أي هؤلاء المشركون خير في القوة والمناعة أم قوم تبع والذين من قبلهم كعاد .
أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين :أي أنزلنا بهم عقوبتنا فأهلكناهم إنهم كانوا قوما مجرمين .
لاعبين :أي عابثين بخلقهما لا لغرض صالح .
ما خلقناهما إلا بالحق :أي إلا لأمر اقتضى خلقهما وهو أن أذكر فيهما وأشكر .
إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين :أي إن يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الخلاق ويحكم ميعادهم أجمعين حيث يجمعهم الله فيه .
يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً :أي يوم لا يكفي قريب قريبه بدفع شيء من العذاب عنه .
ولا هم ينصرون :أي لا ينصر بعضهم بعضاً .
إلا من رحم الله :أي لكن من رحمه الله فإنه يدفع عنه العذاب وينصر .
إنه هو العزيز الرحيم :أي الغالب المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه .
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم فما ذكر قصص موسى وفرعون إلا تنبيهاً وتذكيراً لعلمهم يتذكرون فقال تعالى: {إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَدْنُونَ الْهَابِطِينَ بِعُقُولِهِمْ إِلَىٰ سُوءِ الْمَسْتَوِيَاتِ مَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَخْلُجُونَ فَيَقُولُونَ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ مَنْكِرِينَ لِلْبُعْثِ وَالْجِزَاءِ لِيُؤْصَلُوا كُفْرَهُمْ وَفِسْقَهُمْ، فَلَذَا قَالُوا وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ أَي بِمَبْعُوثِينَ أَحْيَاءَ مِنْ قُبُورِنَا كَمَا تَعْدُنَا يَا مُحَمَّد، وَإِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ قَوْلِكُمْ بِالْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ فَأَتُوا بِآبَائِنَا الَّذِينَ مَاتُوا {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 2 فِي ذَلِكَ وَقَوْلِهِمْ فَأَتُوا وَإِنْ كُنْتُمْ لَيْسَ مِنْ بَابِ تَعْظِيمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا شَعُورٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ بَلْ وَرَاءَهُ مِنْهُ دَافِعٌ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ. 3

1 إن هي إلا موتتنا الأولى مبتدأ وخبر نحو إن هي إلا حياتنا الدنيا فإن نافية بمعنى ما والضمير مبتدأ وما بعد إلا الخبر .

2 قيل في هذا القائل أنه أبو جهل قال للرسول صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما كان بعد الموت .

3 جائز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وجائز أن يكون مع المؤمنين وهذا هو الظاهر لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان معه أصحابه يدعون بدعوته وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ومن آمن معه من أعيان مكة وأشرفها كعثمان وعلي وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ۚ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} ؟ انهم ليسوا بخير منهم بأي حال لا في المال ولا في الرجال فكما أهلكناهم نهلك هؤلاء، وأهلكنا الأولين لأنهم كانوا مجرمين أي على أنفسهم بالشرك والمعاصي، وهؤلاء مجرمون أيضاً فهم مستوجبون للهلاك وسوف يهلكون إن لم يتوبوا فيؤمنوا ويوحداو ويطيعوا الله ورسوله.

وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} ما خلقناهما إلا بالحق {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} هذا دليل على البعث والجزاء إذ ليس من الحكمة أن يخلق الله الكون لا لشيء ثم يعدمه ولا شيء وراء ذلك هذا من اللعب والعبث الذي ينزعه عنه العقلاء فكيف بواهب العقول جل وعز إنه ما خلق الكون إلا ليذكر فيه ويشكر فمن ذكره فيه وشكره أكرمه وجزاه بأحسن الجزاء، ومن تركه وكفره أهانه وجزاه بأسوء الجزاء وذلك يتم بعد نهاية هذه الحياة ووجود الحياة الثانية وهو يوم القيامة. ولذا قال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} أي إن يوم القيامة لفصل القضاء والحكم بين الناس فيما اختلفوا من التوحيد والشرك، والبرور والفجور هو ميعادهم الذي يحضرون فيه أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون أي يوم لا يكفي أحد قريب كابن العم عن أحد بدفع شيء من العذاب عنه، ولا ينصر بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وقوله تعالى إلا من رحم الله أي لكن من رحم الله في الدنيا بالإيمان والتوحيد فإنه يرحمه في الآخرة فيشفع فيه ولياً من أوليائه إنه تعالى هو العزيز أي الانتقام من أعدائه الرحيم بأوليائه. والناس بين ولي الله وعدوه فأوليائه هم المؤمنون المتقون وأعداؤه هم الكافرون الفاجرون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

2- الإجماع هو سبب الهلاك والدمار كيفما كان فاعله.

3- تبع الحميري كان عبداً صالحاً ملكاً حاكماً وكان قومه كافرين فأهلكهم الله وأنجاه ومن معه

- 1 الاستفهام إنكاري أي ليسوا خيراً من قوم تبع والذين من قبلهم كعاد وثمود وقد أهلكهم الله والمراد من قوم تبع أقوام ملوك التبابعة إذ تبع لقب لمن يملك بلاد اليمن كلها ككسرى للفرس وقيصر للروم.
- 2 في مسند أحمد رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم" ولذا ذكر تعالى هلاك قومه ولم يذكره معهم ويقال له أسعد ويكنى أبا كرب وكان قبل البعثة المحمدية بألف سنة أو ما يقارب ذلك وقصة حياته مشهورة في كتب السيرة وفي كتابنا هذا الحبيب بيان ذلك.
- 3 إنه غزا المدينة بعد عودته من غزو العراق وأراد خرابها ثم ترك لما علم من قبل اليهود أنها مهاجر نبي اسمه أحمد فقال شعراً تركه عند أهلها فتوارثوه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى

الله عليه وسلم فأدوه إليه ومر بالكعبة فكساها وهذا شعره:
شهدت على أحمد أنه
رسول من الله باري النسم
قلو مد عمري إلى عمره
لكنك وزيراً له وابن عم

(5/16)

من المؤمنين الصالحين ففي هذا الملك الصالح عبرة لمن يعتبر.
4- تنزه الرب تعالى عن اللعب والعبث فيما يخلق ويهب، ويأخذ ويعطي ويمنع.
5- يوم القيامة وهو يوم الفصل ميعاد الخليقة كلها حيث تجمع لفصل القضاء.
6- لا تنفع قرابة ولا خلة ولا صداقة يوم القيامة، ولكن الإيمان والعمل الصالح.
إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ
فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)
شرح الكلمات:

إن شجرت الزقوم: أي الشجرة التي تثمر الزقوم وهي من اخبت الشجر ثمرًا مرارة وقبحًا.
طعام الأثيم: أي ثمرها طعام الأثيم أبي جهل وأصحابه من نوي الآثام الكبيرة.
كالمهل: أي كدردي الزيت الأسود.
يغلي في البطنون كغلي الحميم: أي الماء الشديد الحرارة.
خذه فاعتلوه: أي يقال للزبانية خذه فاعتلوه أي جروه بغلظة وشدة.
إلى سواء الجحيم: أي إلى وسطها.

ذق إنك أنت العزيز الحكيم: أي ذق العذاب إنك كنت تقول ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني.
ما كنتم به تمترون: أي إن هذا العذاب الذي كنتم تمترون به أي تشكون فيه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر النار وما فيها من ضروب العذاب قال تعالى: {إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ
طَعَامُ الْأَثِيمِ} كأبي جهل وأضرابه من نوي الآثام، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم طلعتها كأنه
رؤوس الشياطين في القبح وثمرها الذي هو الزقوم مر أشد المرارة جعلها الله تعالى

(5/17)

طعام الأثيم أبي جهل وذوي الآثام الكبيرة. وقوله تعالى في الإخبار عنها {كَأَلْمُهْلِ يَغْلِي فِي 1 الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ} أي كدردي الزيت يغلي في بطون الأثمين كغلي الحميم أي الماء الحار الشديد الحرارة. وقوله تعالى: {خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى 2 سَوَاءِ الْجَحِيمِ} ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم أي يقال للزبانية وهم الملائكة الموكلون بالنار وعذابها خذوه فاعتلوه أي ادفعوه واجذبوه بعنف إلى وسط الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم أي صبوا فوق رأسه الماء الحار الشديد الحرارة ويقال له: تهكما به ذق إنك أنت 3 العزيز الكريم أي كما كنت تقول في الدنيا إذ كان أبو جهل يقول: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، وكان يجمع أولاده ويضع بين أيديهم الزبدة وتمر العجوة ويقول لهم ترقموا هذا هو الزقوم الذي يهددنا به محمد اللهم صلي وسلم على نبينا محمد وقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} أي يقال لهم إن هذا أي العذاب الذي كنتم تشكون في أنه كائن يوم القيامة، وذلك لتكذيبهم بالبعث والجزاء يوم القيامة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

2- عظم عذاب النار وفضاعة ما يلاقيه ذوو الآثام الكبيرة فيها.

3- يوجد شجرة بأريحا من الغور لها ثمر كالتمر حلو عفيص، لنواه دهن عظيم المنافع عجيب الفعل في تحليل الرياح الباردة وأمراض البلغم وأوجاع المفاصل والنقرس وعرق النسا والريح اللاحجة في حق الورك، يشرب منه زنة سبعة دراهم ثلاثة أيام، وربما أقام الزمنى، والمقعدين. ذكر هذا صاحب حاشية الجمل على الجلالين عند تفسير هذه الآية. ولو أمكن أخذ هذا الثمر واستخراج زيتته وتداوي به لكان خيرا.

4- من أشد أنواع العذاب في النار العذاب النفسي بالتهكم والسخرية من المعذبين وهو العذاب المهين الذي يهين المعذبين ويدوس كرامتهم.

1 قرأ نافع تغلي بالتاء وقرأ حفص بالياء على رجوع الضمير إلى الطعام لا إلى المهل.

2 العتل القود بعنف وشدة. وقرأ نافع فاعتلوه بضم التاء وقرأ حفص فاعتلوه بجر التاء.

3 هذا مقول قول محذوف تقديره: قولوا له ذق.. والذوق مستعار للإحساس وصيغة الأمر هنا مستعملة في الإهانة وجملة. إنك أنت العزيز الكريم جملة تعليلية للأمر قبله ذق إنك. والمراد بها التهكم والإزدراء إذ المراد أن أنت الذليل المهان.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53)
كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (55) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا
الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ
بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)
شرح الكلمات:

إن المتقين في مقام أمين: أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا فآمنوا وعملوا الصالحات بعد اجتناب
الشرك والمعاصي في مجلس أمين لا يلحقهم فيه خوف بحال.
في جنات وعيون: هذا هو المقام الأمين.

من سندس وإستبرق: أي مارق من الديباج، وما غلظ منه.
متقابلين: أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لأن الأسرة تدور بهم.
كذلك، وزوجناهم: أي الأمر كذلك وزوجناهم.
بحور عين: أي بنساء بيض وأسعات الأعين.
يدعون فيها: أي يطلبون الخدم فيها أن يأتوهم بكل فاكهة.
آمنين: أي من انقطاعها ومن مضراتها ومن كل مخوف.
لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة: أي لكن الموتة الأولى فقد ذاقوها.
الأولى

فإنما يسرناه بلسانك: أي سهلنا القرآن بلغتك.

لعلهم يتذكرون: أي يتعظون فيؤمنون ويوحدون لكنهم لا يؤمنون.
فارتقب إنهم مرتقبون: أي فانتظر هلاكهم فإنهم منتظرون هلاكك.

(5/19)

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال أهل النار عقب عليه بذكر حال أهل الجنة وهذا هو أسلوب الترغيب والترهيب
الذي تميز به القرآن

الكريم لأنه كتاب دعوة وهداية زيادة على أنه كتاب تشريع وأحكام فقال عز قائل: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي 1
مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} فأخبر تعالى أن الذين اتقوه في الدنيا فآمنوا به وأطاعوه في أمره و نهيه
ولم يشركوا به هؤلاء في مقام أمين أي في مجلس آمن لا يلحقهم فيه خوف، وبين ذلك المقام الآمن

بقوله {فِي جَنَّاتٍ} أي بساتين وعيون. يلبسون أي ثيابهم من 2 سندس واستبرق، والسندس مارق من الحرير والاستبرق ما غلظ منه، وقوله متقابلين أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لأن الأسرة التي هم عليها تدور. وقوله تعالى: {كَذَلِكَ} أي الأمر كذلك أي كما وصفنا وزوجناهم بحور 3 عين، الحوراء من النساء البيضاء ومن في عينيها حور وهو كبير بياض العين على سوادها والعين جمع عيناء وهو واسعة العينين. وقوله {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ} أي يطلبون الخدمة أن يوافوهم بكل فاكهة حال كونهم آمنين من انقطاعها ومن ضررها ومن كل مخوف يلحق بسببها أو بسبب غيرها. وقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} 4 أي لا يذوقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا فإن أهلها لا يمرضون ولا يهرمون ولا يموتون وقوله تعالى: {وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}، وهذا دال على أن غير المتقين من الموحدين قد يذوقون عذاب الجحيم قبل دخولهم الجنة بخلاف المتقين فإنهم لا يدخلون النار البتة وقوله تعالى: {فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ} أي كان ذلك الإِنعام و التكريم فضلاً من ربك إذ لم يستوجبه لمجرد تقواهم وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم "سدوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله" قالوا ولا أنت يا سول الله قال "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل". وقوله ذلك هو الفوز العظيم. أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم وهو كما في قوله من سورة آل عمران: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}.

وقوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِلسَّانِكِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 5 أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك العربية

1 المقام بضم الميم مكان الإقامة، والمقام بالفتح مكان القيام ويتناول السكن وما يتبعه. وقرأه نافع بضم الميم وقرأه حفص بفتح الميم.

2 من سندس من لبيان الجنس والمبين محذوف دل عليه يلبسون أي ثياباً.

3 عن ابن مسعود أن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم. وقال مجاهد إنما سميت الحور حوراً لأنهن يحار الطرف في حسنهن وبياضهن وصفاء لونهن ولا منافاة بين هذه الصفات. وروى أن خراج القمامة من المسجد مهور الحور العين في أثرين أحدهما عن أنس ونصه كنس المساجد مهور الحور العين.

4 الاستثناء منقطع أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا.

5 الباء سببية أي يسرناه للحفاظ والفهم بسبب لغتك العربية إذ المراد باللسان اللغة لا الجارحة المعروفة.

لعلهم يتذكرون فيتعضون فيؤمنون ويتقون. لكن أكثرهم لم يتعظ فارتقب ما يحل بهم فإنهم منتظرون ما يكون لك من نجاح أو إخفاق.
هداية الآيات:

من هداية الآيات :

1- فضل التقوى وكرامة أهلها والتقوى هي خشية من الله تحمل على طاعة الله بفعل محابه وترك مكارهه.

2- بيان شيء من نعيم أهل الجنة ترغيباً في العمل لها.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

4- بيان الحكمة من تسهيل فهم القرآن الكريم وهو الاتعاض المقتضي للتقوى.

(5/21)

سورة الجاثية

...

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)
شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف الهجائية يكتب هكذا: حم ويقرأ هكذا: حاميم

تنزيل الكتاب : أي القرآن.

من الله العزيز الحكيم : أي من عند الله العزيز الانتقام من أعدائه الحكيم في تدبيره.

(5/21)

إن في السموات والأرض : أي إن في خلق السموات والأرض.

آيات : أي لدلالات واضحات على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته وهي موجبات الربوبية و

الألوهية له وحده دون سواه.

للمؤمنين: أي لأنهم بالإيمان أعياء يبصرون ويسمعون فيرون الآيات.
وفي خلقكم: أي وفي خلقكم أيها الناس وتركيب أعضائكم وسلامة بنايتكم.
وما بث من دابة: أي وما خلق ونشر من أنواع الدواب من بهائم وغيرها.
آيات لقوم يوقنون: أي علامات على قدرة الله تعالى على البعث الآخر إذ الخالق لهذه العوالم قادر على إعادتها بعد موتها، ولكن هذه الآيات لا يراها إلا القوم الموقنون في إيمانهم بربوبية الله وألوهيته وصفات الجلال والكمال له.

واختلاف الليل والنهار: أي بمجيء هذا وذهاب ذلك وطول هذا وقصر ذلك على مدى الحياة.
وما أنزل الله من السماء من رزق: أي من مطر، وسمي المطر رزقاً لأنه يسببه.
فأحيا به الأرض بعد موتها: أحيا بالمطر الأرض بعد موت نباتها بالجذب.
وتصريف الرياح: أي من صبا إلى دبور، ومن شمال إلى جنوب، ومن سموم إلى باردة ومن نسيم إلى عاصفة.

آيات لقوم يعقلون: أي في اختلاف الليل والنهار وإنزال المطر وإحياء الأرض وتصريف الرياح دلالات واضحة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته واقتضاء ذلك ربوبية الله وألوهيته، لقوم يعقلون أي يستعملون عقولهم في إدراك الأشياء واستنتاج النتائج من مقدماتها.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {حم}: الله أعلم بمراده به إذ هو من المتشابه الذي أمرنا أن نؤمن به ونفوض أمر معناه إلى من أنزله سبحانه وتعالى. وقد ذكرنا مرات فائدتين لهذه الحروف المقطعة فلتراجع في أكثر السور المفتحة بالحروف المقطعة كحم الدخان السورة التي قبل هذه السورة. وقوله

(5/22)

تعالى تنزيل I الكتاب من الله العزيز الحكيم أي تنزيل القرآن كان من عند الله العزيز أي الانتقام من أعدائه الحكيم في تدبير أموره خلقه وقوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي في خلقهما وإيجادهما وما فيها من عجائب الصنعة كآيات للمؤمنين 2 تدلهم على استحقاق ربهم للعبادة دون سواه من سائر خلقه، وخص المؤمنون بهذه الآيات لأنهم أحياء يسمعون ويبصرون ويعقلون فهم إذا نظروا في السموات والأرض تجلت لهم حقائق أن الخالق لهذه العوالم لن يكون إلا قادراً عليمًا حكيمًا عزيزاً ومن ثم وجب أن لا يعبد إلا هو، وكل عبادة لغيره باطلة.
وقوله: وفي خلقكم أيها الناس أي في أطوار خلقكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر سوى الخلقة معتدل المزاج والتركيب له سمع وبصر ونطق وفكر.

وما يبث من دابة أي وما يخلق وما يفرق وينشر في الأرض من أنواع الدواب والبهائم والحيوانات على اختلافها من برية وبحرية آيات لقوم³ يوقنون أي يوقنون في إيمانهم بالله تعالى وآياته، كما يوقنون بحقائق الأشياء، الثابتة لها فالواحد مع الواحد اثنان والموجود ضد المعدوم، والأبيض خلاف الأسود، والابن لآب له من أب، والعذب خلاف المر فأصحاب هذا اليقين يرون في خلق الإنسان والحيوان آيات دالة على وجود الله وعلمه وعزته وحكمته وقدرته على البعث والجزاء الذي أنكره عادمو العقول من المشركين والكافرين. وقوله: {وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي بتعاقبهما بمجيء الليل وذهاب النهار، والعكس كذلك وبطول أحدهما وقصر الآخر تارة والعكس كذلك وما أنزل الله من السماء من رزق أي من مطر هو سبب الرزق فأحيا به الأرض بعد موتها بييس النباتات وموته عليها، وتصري الرياح من صبا إلى دبور، ومن شمال إلى جنوب ومن رخاء لينة إلى عاصفة ذات برد أو سموم إن في المذكورات آيات حججاً ودلائل دالة على وجود عبادة الله وتوحيده في ذلك، ولكن لقوم⁴ يعقلون أي لذوي العقول النيرة السليمة. أم الذين لا عقول لهم فلا يرون ولا في غيرها آية فضلا عن آيات.

- 1 تنزيل الكتاب مبتدأ خبره من الله وإيثار وصفي العزيز الحكيم من بين أسماء الله وصفاته الإيماء إلى أن هذا الكتاب ذو نبا عظيم فهو عزيز بعزة منزله لا يقدر على مثله وذو حكم لا يخلو منها.
- 2 كون الآيات للمؤمنين دون الكافرين باعتبار أنهم هم المنتفعون بها لأنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون والكافرون فاقدون لذلك فلم تكن الآيات لهم لعدم انتفاعهم بها.
- 3 اليقين لا يكون إلا بعد الإيمان فالإيمان يثمر اليقين فالمؤمن يرى في خلق السموات والأرض أي في إيجادهما على ما هما عليه آيات على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته فيرتفع إيمانهم إلى مرتبة اليقين فيرون في أدق الأشياء كالأجنة في الأرحام وما هو أخفى يرون فيه آيات تزيد في يقينهم وتحملهم على حبهم لله وطاعتهم له والتقرب إليه.
- 4 والعقل مرتبة ثالثة بعد الإيمان واليقين في باب الاهتداء فالذي يرى اختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وما ينجم عنها من نباتات وزروع ولم يهتد إلى الإيمان فيؤمن فهو غير عاقل ولا يصح نسبته إلى العقلاء.

(5/23)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- عظم شأن القرآن الكريم لأنه تنزيل الله العزيز الحكيم.

2- الإيمان أعم من اليقين ومقدم عليه في الترتيب واليقين أعلى في الرتبة.

3- فضل العقل السليم إن استخدم في الخير وما ينفع.

4- تقرير ألوهية الله تعالى بتقرير ربوبيته في الخلق والتدبير والعلم والحكمة.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7)
يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ
آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ
عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (11)

شرح الكلمات:

تلك آيات الله : أي تلك الآيات المذكورة آيات الله أي حججه الدالة على وحدانيته.

نتلوا عليك بالحق :أي نخبرك عنها بالحق لا بالباطل كما يخبر المشركون عن آلهتهم أنها تقرهم إلى الله زلفى كذبا وباطلا.

فبأي حديث بعد الله وآياته :أي فبأي حديث أيها المشركون بعد حديث الله هذا الذي يتلوه عليكم وبعد حججه هذه.

تؤمنون :أي تصدقون والجواب أنكم لا تؤمنون.

ويل لكل أفَّاكٍ أَثِيمٍ :أي عذاب الويل لكل كذاب ذي آثام كبيرة وكثيرة.

1 من شروط التكليف العقل بلا خلاف بين أئمة الإسلام والكافر غير مكلف بفروع الشريعة أيضاً لأنه لو عقل لآمن ولو آمن لكلف فالكافر لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل فكيف يكلف؟

(5/24)

يُسمع آيات الله تتلى عليه :أي يسمع آيات القرآن كتاب الله تقرأ عليه.

ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها :أي ثم يصير على الكفر حال كونه مستكبراً عم الإيمان والتوحيد كأن لم يسمعها.

وإذا علم من آياتنا شيئاً :أي إذا بلغه شيء من القرآن وعلم أنه من القرآن.

اتخذها هزواً :أي اتخذ تلك الآية أو الآيات مهزواً بها متهمها ساخرها منها.

له عذاب مهين :أي ذو إهانة لهم يهانون به وتكسر أنوفهم.

من ورائهم جهنم :أي أمامهم جهنم وذلك يوم القيامة، والوراء يطلق على الأمام كذلك.

ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً :أي لا يكفى عنهم ما كسبوه من المال والأفعال التي كانوا يعتزون بها

شيئاً من الإغناء.

ولا ما اتخذوا من دون الله من: أي ولا يغني عنهم كذلك ما اتخذوه من أصنام آلهة عبدها دون الله تعالى.

أولياء

هذا هدى: أي هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هدىً أي كله حجج وبراهين ودلالات هادية.

والذين كفروا بآيات ربهم: أي والذين كفروا بالقرآن فلم يهتدوا به وبقوا على ضلالهم من الشرك والمعاصي.

لهم عذاب من رجز أليم: أي لهم عذاب موجه من نوع الرجز وهو أشد أنواع العذاب. معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قريش فبعد أن بين تعالى آياته في الآفاق وفي الأنفس قال لرسوله صلى الله عليه وسلم 1 تلك آيات الله أي تلك الآيات المذكورة أي آيات الله أي حججه الدالة على وجوده وعلمه وقدرته وموجبة لربوبيته على خلقه و ألوهيته فهو الإله الحق الذي لا إله إلا هو حق سواه.

وقوله فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون أي إن لم يؤمن هؤلاء المشركون بالله رباً وإلهاً ولا رب غيره ولا إله سواه، وبآياته القرآنية الحاملة للهدى والخير والنور فبأي شيء يؤمنون أي يصدقون لا شيء يؤمنون لأن الاستفهام إنكاري والإنكار كالنفي في معناه. وقوله {وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} 2 يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها هذا

1 أشار إليها بلام البعد للدلالة على علو شأنها وعزة مرامها ولولا هذا لقال هذه آيات الله لقرب ذكرها.

2 صاحب هاتين الصفتين كثرة الإفك وكثرة الإثم هو في خبث نفسه كالشياطين سواء بسواء إذ مثله هو الذي تنزل عليه الشياطين ويتحد معها على الخبث والكفر والشر والإفساد.

(5/25)

وعيد من الله تعالى شديد لكل كذاب يقلب الكذب فيصف الطاهر بالخبيث والخبيث بالطيب والكاذب بالصادق، والصادق بالكاذب أثيم منغمس في كبائر الإثم والفواحش. يسمع هذا الأفاك الأثيم آيات الله تتلى عليه وهي القرآن الكريم، ثم يصير على الكفر مستكبراً عن الإيمان وبما يدعوا إليه من التوحيد كأن لم يسمع تلك الآيات. قال تعالى لرسوله فبشره 1 بعذاب أليم وقوله تعالى وإذا علم أي

ذلك الأفك الأثيم من آياتنا شيئاً كأن تبلغه الآية أو الآيات من القرآن اتخذها هزواً أي أخذ يهزأ بها ويسخر منها، ويواصل ذلك فيجعلها هزواً بها، قال تعالى: أولئك أي الأفاكون الآثمون وما أكثرهم لهم عذاب مهين أي فيه إهانة زائدة تنكسر منها أنوفهم التي كانت تأنف الحق وتستكبر عنه. وقوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ} هذا وعيد لهم تابع للأول إذ أخبر تعالى أن من ورائهم جهنم وذلك يوم القيامة ولفظ وراء يطلق ويراد به الأمان فهو من الألفاظ المشتركة في معنيين فأكثر وقوله {وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا} أي ولا يكفي عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جاههم ولا كل ما كسبوا في هذه الدنيا أي لا يدفع ذلك عنهم شيئاً من العذاب، وكذلك لا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله شيئاً من دفع العذاب. ولهم عذاب عظيم لا يقادر قدره، وكيف والعظيم جل جلاله وصفه بأنه عظيم.

وقوله تعالى: {هَذَا هُدًى} أي هذا القرآن هدى أي يخرج من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد لما فيه من الهدى والنور، ولما يدعو إليه من الحق والعدل والخير والذين كفروا به وأعرضوا عنه وهو آيات الله وحججه على خلقه هؤلاء لهم عذاب من رجز أليم أي عذاب هو من أشد أنواع العذاب لأنهم بالكفر بالآيات لم يذكروا أنفسهم ولم يطهروها فماتوا على أخبث النفوس وشرها فلا جزاء لهم إلا رجز العذاب.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- القرآن نور و أعظم نور فمن لم يهتد عليه لا يرجى له الهداية أبداً.
- 2- الوعيد الشديد لأهل الإفك و الآثام، و الإفك الكذب المقلوب.
- 3- شر الناس من إذا سمع آيات الله استهزأ وسخر منها أو ممن يتلوها.

1 البشارة تكون بالخبر السار الذي تتهلل به البشرية بالبشر والطلاق و التبشير بالعذاب يورث اسوداد الوجه وكلوحه فالبشارة هنا من باب التهكم به أو لكون البشرية تتغير للخبر فصح إطلاق البشارة عليه.

2 في الآية إشارة إلى أن أصحاب هذه الصفات يكونون من أرباب الأموال لأنهم يكتسبونها بكل وسيلة ولو ببيع عقولهم وضمايرهم وأموالهم والمحافظة عليها من عوامل ردهم لدعوة الإسلام ومحاربتها كما هو مشاهد.

3 هذا هدى أي هذا القرآن هدى في ذاته وما يدعوا إليه ومن كفر به فحرم الهداية فلم يهتد فلا جزاء له إلا جزاء العذاب الأليم.

- 4- لم يغن عن مات على الكفر شيء من كسب في هذه الحياة الدنيا من مال وولد وجاه وسلطان.
5- لم يغن عن المشرك ما كان يعبد من دون الله أو مع الله من أصنام وأوثان وملائكة أو أنبياء أو أولياء.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ فِيهِ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

شرح الكلمات:

الله الذي سخر لكم البحر : أي الله المعبود بحق لا الآلهة الباطلة سخر لكم أي لأجلكم البحر بأن جعله أملس تطفو فوقه الأخشاب ونحوها.

لتجري الفلك فيه بأمره : أي جعله كذلك لتجري السفن فيه بإذن الله تعالى.

ولتبتغوا من فضله : أي لتسافروا إلى طلب الرزق من إقليم إلى إقليم.

ولعلكم تشكرون : أي رجاء أن تشكروا نعم الله عليكم.

وسخر لكم ما في السموات : أي من شمس وقمر ونجوم ورياح وماء أمطار.

وما في الأرض جميعاً : أي وما في الأرض من جبال وأنهار وأشجار ومعادن منه تعالى.

إن في ذلك لآيات : أي علامات ودلائل وحجج على وجود الله وألوهيته.

لقوم يتفكرون : أي لقوم يستخدمون عقولهم فيفكرون في وجود هذه المخلوقات ومن أوجدها ولماذا

أوجدها فتتجلى لهم حقائق وجود الله وعلمه وقدرته ورحمته فيؤمنوا ويوحدوا.

قل للذين آمنوا يغفروا : أي قل يا رسولنا للمؤمنين من عبادنا يغفروا أي يتجاوزوا

(5/27)

ولا يؤخذوا.

الذين لا يرجون أيام الله : أي لا يتوقعون أيام الله أي بالإدالة منهم للمؤمنين فيذلهم الله وينصر

المؤمنين عليهم وهم الرسول وأصحابه وهذا قبل الأمر بجهادهم.

ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون : أي ليجزي تعالى يوم القيامة قوماً منهم وهم الذين علم تعالى أنهم لا

يؤمنون بما كسبوه من أذى الرسول والمؤمنين.

من عمل صالحاً فلنفسه : أي فهو الذي يرحم ويسعد به.

ومن أساء فعليها: أي ومن عمل سوءاً فالعقوبة تحل به لا بغيره.
ثم إلى ربكم ترجعون: أي يعد الموت ويحكم بينكم في ما كان بينكم من خلاف وأذى.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هداية قوم النبي صلى الله عليه وسلم فقله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ} 1
تذكير لأولئك المعرضين بالحجج والآيات الدالة على وجوب الإيمان بالله وتوحيده وطاعته فهو
تعالى يعرفهم أن ما بهم من نعم هي من الله لا من غيره من تلك الآلهة الباطلة. الله لا غيره هو
الذي سخر لكم أي ذلل ويسر وسهل ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وسحب وأمطار ورياح
لمنافعكم، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وأنهار وبحار ومعادن وحيوانات على
اختلافها كل ذلك منه 2 وهو وهبه لكم، إن في ذلك المذكور من إنعام الله عليكم بكل ما سخر لكم
لآيات لقوم 3 يتفكرون فيهداهم تفكيرهم إلى وجوب حمد الله تعالى وشكره بعد أن آمنوا به ووجدوه في
ربوبيته وألوهيته. وقوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا 4 يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ 5 لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ}. يأمر الله تعالى رسوله أن يقول لصحابته أيام الخوف في مكة قبل الهجرة اصفحوا
وتجاوزوا عن يؤذيك من كفار قريش، ولا تردوا الأذى بأذى مثله بل اغفروا لهم ذلك وتجاوزوا عنه،
وقد نسخ هذا بالأمر بالجهاد.

وقوله تعالى {لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} تعليل للأمر بالصفح والتجاوز أي ليؤخر لهم

- 1 ذكر تعالى في هذه الآيات كمال قدرته وتمايم نعمته على عباده وبين أمه خلق ما خلق لمنافعهم.
- 2 منه من ابتدائية أي جميع ذلك المذكور المسخر من عند الله تعالى ليس لغيره فيه أدنى شركة
وموقع (منه) موقع الحال أي سخر لكم ما سخر حال كونه منه.
- 3 التفكير هو منبع الإيمان واليقين والعقل إذا من فكر عقل ومن عقل آمن ومن آمن أيقن ومن أيقن
طلب النجاة من النار والفوز بالجنان بالإيمان وصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي.
- 4 يغفروا مجزوم لأنه في جواب الأمر (قل) وجائز أن يكون مجزوماً بتقدير لام الأمر محذوفة أي
ليغفروا.
- 5 جائز أن يراد بأيام الله ثوابه وعقابه أو نصره لأولياته وإيقاعه بأعدائه. أو البعث الآخر ولقائه.

(5/28)

ذلك إلى يوم القيامة ويجزيهم به أسوأ الجزاء لأنه كسب من شر المكاسب إنه أذية النبي والمؤمنين
أولياء الله، وفي تنكير قوما يدل على أن بعضهم سيؤمن ولا يعذب يوم القيامة فلا يعذب إلا من
مات على الكفر والشرك منهم.

قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [1] أي من عمل صالحاً في هذه الحياة الدنيا من إيمان و طاعة لله ولرسوله في أوامرهما ونواهيهما فزكت بذلك نفسه وتأهل لدخول الجنة فإن الله يدخله الجنة ويكون عمله الصالح قد عاد عليه ولم يعد على غيره إن الله غني عن عمل عباده، وغير العامل لا تطهر نفسه ولا تزكو بعمل لم يباشره بنفسه، وقوله من أساء أي في حياته فلم يؤمن و لم يعمل صالحاً يركي به نفسه، فجزاء كسبه السيء من الشرك والمعاصي عائد على نفسه عذاباً في النار وخلقوا فيها. 2.

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} أي إنكم أيها الناس بعد هذه الحياة وما عملتم فيها من صالح وسيء ترجعون إلى الله يوم القيامة ويجزيكم كلاً بحسب عمله الخير بالخير والشر بمثله. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد والبعث 3 والجزاء والنبوة.
- 2- بيان علة الإنعام الإلهي على العبد وهي أن يشكر الله تعالى بحمده والثناء عليه و صرف تلك النعم في مرضاته تعالى لا في معاصيه الموجبة لسخطه.
- 3- مشروعية التسامح مع الكفار والتجاوز عن أذاهم في حال ضعف المسلمين.
- 4- تقرير قاعدة أن المرء لا يؤخذ بجريرة غيره.
- 5- تقرير أن الكسب يؤثر في النفس ويكون صفة لها و به يتم الجزاء في الدار الآخرة من خير وغيره قال تعالى سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم (الأنعام).

- 1 العمل الصالح شرطه الإيمان ولذا ما ذكر العمل الصالح في القرآن إلا والإيمان مقرباً به إلا ما ندر كهذه الآية.
- 2 الخلود في النار خاص بالمشركين والكافرين أما أهل الإيمان والتوحيد فلا يخلدون في النار لحسنة الإيمان والتوحيد.
- 3 هذه الأصول الثلاثة عليها مدار استقامة العبد وجل السور المكية تعالجها فلا تكاد توجد سورة تخلو من تحقيقها والدعوة إليها.

(5/29)

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (16)
وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِمَّن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ

لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيٌّ
الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)
شرح الكلمات:

الكتاب: أي التوراة لأنها الحاوية للأحكام الشرعية بخلاف الزبور والإنجيل.
والحكم: أي الفصل في القضايا بين المتنازعين على الوجه الذي يحقق العدل.
والنبوة ورزقناهم من الطيبات: أي جعلنا فيهم النبوة كنبوة موسى وهارون وداود وسليمان، ورزقهم من
الطيبات كالمن والسلوى وغيرهما.
وفضلناهم على العالمين: أي على عالمي زمانهم من الأمم المعاصرة لهم.
إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا: أي لم يخلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ببعثة النبي محمد صلى
الله عليه وسلم بغياً بينهم أي حسداً للعرب أولاد إسماعيل أن تكون النبوة فيهم.
ثم جعلناك على شريعة¹ من الأمر: أي ثم جعلناك يا رسولنا على شريعة من أمر الدين الحق الذي
ارتضاه الله لعباده.

1 الشريعة لغة المذهب و الملة و يقال لمشركة الماء أي مشرعة الشاربة شريعة ومنه الشارع لأنه
طريق إلى المقصد فالشريعة ما شرع الله لعباده من الدين و الجمع شرائع.

(5/30)

فأتبعها: أي ألزم الأخذ بها والسير على طريقها فأنها تفضي بك إلى سعادة الدارين.
ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون: من مشركي العرب ومن ضلال أهل الكتاب.
إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً: أي إن أنت تركت ما شرع لك واتبعت ما يقترحون عليك أن تفعله
مما يوافق أهواءهم إنك إن اتبعتهم لن يدفعوا عنك من العذاب الدنيوي والأخروي شيئاً.
وإن الظالمين بعضهم أولياء: أي ينصر بعضهم بعضاً في الدنيا أما في الآخرة فإنهم لا ينصرون.
بعض

والله ولي المتقين: أي متوليهم في أمورهم كلها وناصرهم على أعدائهم.
هذا بصائر للناس وهدى: أي هذا القرآن أي أنوار هداية يهتدون به إلى ما يكملهم ويسعدهم، وهدى
ورحمة، ولكن لأهل اليقين في إيمانهم فهم الذين يهتدون به ويرحمون عليه أما غير الموقنين فلا
يرون هداة ولا يجدون رحمته لأن شكهم وعدم إيقانهم يتعذر معهما أن يعملوا به في جد وصدق
وإخلاص.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم حالاً شبيهة بحالهم لعلهم يجدون فيها ما يذكرهم ويعظهم فيؤمنوا ويوحدوا قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي أعطينا بني إسرائيل وهم أولاد يعقوب الملقب بإسرائيل وهو ابن اسحق بن إبراهيم خليل الرحمن آتيناهم { الْكِتَابَ } التوراة { وَالْحُكْمَ } وهو الفقه بأحكام الشرع والإصابة في العمل والحق فيها ثمرة إيمانهم وتقواهم { وَالنُّبُوَّةَ } فجعلنا منهم أنبياء ورسلاً كموسى وهارون ويوسف وداود وسليمان وعيسى، وفضلناهم 2 على العالمين أي على فرعون وقومه من الأقباط، وعلى من جاور بلادهم من الناس، وذلك أيام إيمانهم واستقامتهم، وآتيناهم بينات 3 من الأمر أمر الدين تحملها التوراة والإنجيل { فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } الإلهي يحمله القرآن ونبيه فاختلّفوا فيما كان عندهم من الأنبياء عن نبي آخر الزمان ونعوته وما سيورثه الله وأمته من الكمال الدنيوي والأخروي فحملهم بغي حدث

- 1 ذكر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ما أعطى بني إسرائيل من إفضالات ثم ذكر ما أعطاه هو صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك جارياً على سنته في إكرام من يشاء من عباده فلا يكون ذلك داعياً إلى إنكار المشركين ولا أهل الكتاب نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لو كانوا يعقلون.
- 2 بأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق وبين حكم أنفسهم بأنفسهم وبين أصول العدل فيهم مع حسن العيش وشمول الأمن والرخاء لهم.
- 3 أي علمناهم حججا وعلوما في أمر دينهم ونظام حياتهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم وعلى سلامته من الشرور والمفاسد.

(5/31)

بينهم وهو الحسد على الكفر فكفروا به وكذبوه فهذه الآية نظيرها آية البقرة: { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } وكقوله في سورة البينة { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً } وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة، ومن جهة أخرى إعلام منه تعالى بأنه سيحكم بينهم ويفصل ويؤدي كل واحد ثمرة كسبه من خير وشر في هذه الحياة وذلك يوم القيامة.

وقوله: { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ 1 مِنَ الْأَمْرِ } أي من أمر ديننا الإسلام الذي هو دين الأنبياء من قبلك فلم تختلف شريعتك في أصولها على شرائعهم، وعليه فاتبعها ولا تحد عنها متبعا أهواء الذين لا يعلمون من زعماء قريش الذين يقدمون لك اقتراحاتهم من الوقت إلى الوقت ولا أهواء ضلال أهل

الكتابين من اليهود والنصارى إنهم جهال لا يعلمون هدى الله، ولا ما هو سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة، ولا هو سبيل العزة والكرامة والدولة والقوة في الدنيا. وقوله: {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} أي إنك إن اتبعت أهوائهم واستوجبت العذاب لن يدفعوا عنك ولن يكفوك شيئاً منه، وقوله: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} أي في الدنيا فيتعاونون على الباطل والشر أما في الآخرة فلا ينصر بعضهم بعضاً ولا هم ينصرون من قبل أحد والله ولي المتقين، أما المتقون فإله وليهم في الدنيا والآخرة، فعليك بولاية الله، ودع ولاية أعدائه، فإنها لن تغني عنك شيئاً.

وقوله تعالى: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ} يريد القرآن الكريم إنه عيون القلوب بها تبصر النافع من الضار والحق من الباطل فمن آمن به وعمل بما فيه اهتدى إلى سعادته وكماله ومن لم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ضل وشقي. وقوله {وَهُدًى وَرَحْمَةً} لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي أن القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة عليه يهتدي المهتدون، ويرحم المرحومون وهم الذين أيقنوا بهدايته ورحمته فعملوا به عقائد وعبادات وأحكاماً وأداباً وأخلاقاً فحصل لهم ذلك كما حصل للسلف الصالح من هذه الأمة، وما زال القرآن كتاب هداية ورحمة لكل من آمن به وأيقن فعله وطبق بجد وصدق أحكامه وشرائعه وآدابه وأخلاقه التي جاء بها وقد كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن لقول عائشة رضي الله عنها في الصحيح كان خلقه القرآن.

- 1 على للاستعلاء أي التمكن والثبات والشريعة الدين والملة المتبعة والأمر الشأن العظيم والأمر هو أمر الله تعالى الذي أراده لك ولأمتك من الدين المنجي المسعد في الدارين.
- 2 البصائر جميع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقيقتها شبهت ببصر العين.
- 3 القرآن هدى ورحمة لكل من يهتدي بهداه ويتعرض لرحمته العمل به وخص به لذلك أهل اليقين لأنهم القادرون على الأخذ بهدايته والتعرض لرحمته والعمل به.

(5/32)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن كفر أهل الكتاب كان حسداً للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه من العرب.
- 2- بيان إفضال الله تعالى على بني إسرائيل حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة.
- 3- مع هذا اختلفوا في الحق حسداً وطمعاً في الرئاسة وإقامة مملكة بني إسرائيل من النيل إلى الفرات.
- 3- تقرير البعث والجزاء والنبوة والتوحيد.

4- وجوب لزوم تطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التنازل عن شيء منها.

5- تقرير ولاية الله تعالى لأهل الإيمان به وتقواه بفعل محابه وترك مساخطه.

6- بيان أن القرآن كتاب هداية وإصلاح، ولا يتم شيء من هداية الناس وإصلاحهم إلا عليه.
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى
بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (23)

شرح الكلمات:

اجترحوا السيئات: أي اكتسبوا بجوارحهم الشرك والمعاصي.

سواء محياهم ومماتهم: أي محياهم ومماتهم سواء، لا لا المؤمنون في الجنة والمشركون في النار.

سواء ما يحكمون: أي ساء حكماً حكمهم بالتساوي مع المؤمنين.

ولتجزى كل نفس بما كسبت: أي وليجزى الله كل نفس ما كسبت من خير وشر.

أفرايت من اتخذ إلهه هواه: أي أخبرني عن من اتخذ أي جعل إلهه أي معبوده هواه.

(5/33)

وأضله الله على علم: أي على علم من الله تعالى بأنه أهل للإضلال وعدم الهداية.

وجعل على بصره غشاوة: أي ظلمة على عينيه فلا يبصر الآيات والدلائل.

أفلا تتذكرون: أي أفلا تتذكرون أيها الناس فتتعظون.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات قبل هذه الظالمين والمتقين وجزاء كل منهم وأنه كان مختلفاً باختلاف

نفوس الظالمين والمتقين خبثاً وطهراً ذكر هنا ما يقرر ذلك الحكم وهو اختلاف جزاء الظالمين

والمتقين فقال: أم حسب 1 الذين اجترحوا السيئات أي اكتسبوا بجوارحهم، والمراد بها الشرك

والمعاصي أن نجعلهم كالذين آمنوا بالله ربا وإلهاً وبكل ما أمر تعالى بالإيمان به، وعمل الصالحات

من إقام الصلاة وآيتاه الزكاة وصيام رمضان والجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وما إلى ذلك من الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون 2 أي ساء حكماً حكمهم هذا

ومعنى هذا أن الله تعالى أنكر على من يحسب هذا الحسبان ويظن هذا الظن الفاسد وهو أن يعيش

الكافر والمؤمن في هذه الحياة الكافر يعيش على المعاصي والذنوب والمؤمن على الطاعة والحسنات

ثم يموتون ولا يجزي الكافر على كفره والمؤمن على إيمانه، وأسوأ من هذا الظن ظن آخر كان

ليعضهم وهو أنهم إذا ماتوا يكرمون وينعم عليهم بخير ما يكرم به المؤمن وينعم به عليهم. وهذا

غرور عجيب، فأنكر تعالى عليهم هذا الظن الباطل وحكم أنه لا يسوى بين بر وفاجر، ولا بين مؤمن وكافر لأن ذلك مناف للعدل والحق والله خلق السموات والأرض بالحق، وأنزل الشرائع وأرسل الرسل ليعمل الناس في هذه الحياة الدنيا فمن آمن وعمل صالحا كانت الحسنى له جزاء، ومن كفر وعمل سوءاً كانت جهنم جزاءه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَوَخَّلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾³ أي من خير وشر، وهم لا يظلمون لأن العدالة الإلهية هي التي تسود يوم القيامة وتحكم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ 4 مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي جعل معبوده ما تهواه نفسه فما هويت قولاً إلا قاله، ولا عملاً إلا عمله ولا اعتقاداً إلا اعتقده ضارباً بالعقل والشرع عرض الحائط فلا يلتفت

- 1 أم للإضراب الانتقالي والاستفهام المقدر بعد أم استفهام إنكاري أي لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. والآية نزلت كما قال البغوي في نفر من المشركين في مكة قالوا للمؤمنين إن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.
- 2 ساء ما يحكمون هذه الجملة تذييل لما قبلها من إنكار حسبانها وما اتصل به من المعاني، والحياة والممات مصدران ميميان من الحياة والموت.
- 3 الباء للتعويض لأن ما كسبته النفس لا تجزى به وإنما تجزى بمثله وما يناسبه من خير وشر.
- 4 الاستفهام للتعجب من حال هذا الذي اتخذ إلهه هواه والمخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ذي أهلية لأن يفهم عن الله تعالى من المؤمنين.

(5/34)

إليهما ولا يستمع الى ندائهما. وقوله تعالى ﴿وَأُضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾¹ أي منه تعالى حيث سبق في علمه أن هذا الإنسان لا يهتدي ولو جاءت كل آية فكتب ذلك عليه فهو كائن لا محالة، وقوله ﴿وَوَخَّلَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي وختم تعالى على سمعه حسب سنته في ذلك فأصبح لا يسمع الهدى ولا الحق كأنه أصم ولا يسمع، وأصبح لا يعقل معاني ما يسمع وما يقال له كأنه لا قلب له، وأصبح لما على بصره من ظلمة لا يرى الأدلة ولا العلامات الهادية الى الحق والى الطريق المستقيم المفضي بسالكة إلى النجاة من النار ودخول الجنة. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ وقد أضله الله والجواب لا أحد. كقوله تعالى من سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي من أضله الله تعالى حسب سنته في الإضلال وهي أن يدعى العبد إلى الحق والمعروف والخير فيتكبر ويسخر ويحارب فترة يصبح بعدها غير قابل لهداية فهذا لا يهدي أحد بعد أن أضله الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾² أي أفلا تذكرون فتتعظون أيها الناس فتؤمنوا وتوحدوا وتعملوا

الصالحات فتكملوا وتسعدوا في الدنيا وتتجو من النار وتدخلوا الجنة في الآخرة.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بطلان اعتقاد الكافرين في أن الناس يحيون ويموتون بلا جزاء على الكسب صالحه وفاسده.
- 2- تقرير البعث والجزاء.
- 3- موعظة كبيرة في هذه الآية أم حسب الذين اجترحوا السيئات إلى آخرها حتى إن أحد رجال السلف الصالح قام يتهدج من الليل فقراً حتى انتهى الى هذه الآية فأخذ يرددّها ويبيكي حتى طلع الفجر.
- 4- التنديد بالهوى والتحذير 3 من اتباعه فقد يفضي بالعبد إلى ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فيصبح معبوده هواه لا الرب تعالى مولاه.
- 5- التحذير من ارتكاب سنن الضلال المفضي بالعبد إلى الضلال الذي لا هداية معه.

- 1 على علم أي أضله الله مع ما عنده من العلم الذي لو خلع عن نفسه الكبر والعناد والميل إلى الهوى لاهتدى ونجا وسعد ولكن أو على علم من الله تعالى بأنه ليس أهلاً للهداية كما في التفسير.
- 2 قرأ نافع تذكرون بتشديد الذال وقرأه حفص بتخفيفها الأولى على إدغام إحدى التائين في الذال فشدت والثانية على حذف إحدى التائين فخفت.
- 3 من الكلمات المأثورة في هذا قولهم ثلاث من المهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

(5/35)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوَابَاؤُنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26)

شرح الكلمات:

وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا: أي قال منكرو البعث ما هي إلا هذه الحياة، وليس ورائها حياة أخرى. نموت ونحيا: أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا فيحيا ويموتوا. وما يهلكنا إلا الدهر: أي وما يميتنا إلا مرور الزمان علينا. وما لهم بذلك من علم: أي وليس لهم أدنى علم على قولهم لا من وحي وكتاب إلهي ولا من عقل

صحيح.

إن هم إلا يظنون: أي ما هم إلا يظنون فقط والظن لا قيمة له ولا يبنى عليه حكم. وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات: أي وإذا قرئت عليهم الآيات الدالة على البعث والجزاء الأخرى بوضوح. ما كان حجتهم: أي لم تكن لهم من حجة إلا قولهم. إلا أن قالوا أتتوا بأبائنا: إلا قولهم احبوا لنا آباءنا الذين ماتوا وأتوا بهم إلينا. إن كنتم صادقين: إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من البعث والجزاء. قل الله يحييكم ثم يميتكم: أي قل لهم يا رسولنا الله الذي يحييكم حين كنتم نطفاً ميتة، ثم يميتكم. ثم يجمعكم إلى يوم القيامة: أي ثم بعد الموت يجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء. لا ريب فيه: أي يوم القيامة الذي لا ريب ولا شك في مجيئه في وقته المحدد له. ولكن أكثر الناس لا يعلمون: أي لا يعلمون تلقيهم العلم عن الوحي الإلهي لكفرهم بالرسول والكتب.

(5/36)

معنى الآيات:

تقدم في الآيات بيان اعتقاد بعض المشركين في استواء حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة وأن الله تعالى أبطل ذلك الاعتقاد منكرًا له عليهم، وهنا حكى قول منكري البعث بالكلية ليرد عليهم وفي ذلك دعوة لعامة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح للإسعاد والكمال في الحياتين والله الحمد والمنة فقال عز وجل: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ۗ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۗ} 2 أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس ورائها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيى أبناؤنا من بعدنا وهكذا تستمر الحياة أبدأ يموت الكبار ويحيى الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفيننا إلا مرور الزمان وطول الأعمار وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل وهو تناقض منهم لأنهم إذا سألوا من خلقهم يقولون فينسبون إليه الخلق وهو أصعب ولا ينسبوا إليه الإمامة وهي أهون من الخلق فرد تعالى عليهم مذهبهم "الدهري" بقوله: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} أي ليس لهم على معتقدتهم هذا أدنى علم نقلياً كان ولا عقلياً أي يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه كالواحد مع الواحد اثنان والأبيض خلاف الأسود وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك ما لهم إلا الظن والخرص وقضايا العقيدة لا تكون بالظن. والظن أكذب الحديث.

وقوله تعالى: {وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيَّمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} أي وإذا قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات القرآن الدالة على البعث والجزاء تدعوهم إلى الإيمان به واعتقاده {مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ} 4 أي لم تكن لهم

من حجة يردون بها ما دعوا إليه إلا قولهم5: أئتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أي أحيوا لنا آبائنا الذين ماتوا وأحضروهم عندنا إن كنتم صادقين في ما تخبروننا من البعث والجزاء. فقال تعالى في رد هذه الشبهة وبيان للحق في المسألة قل الله يحيكم ثم يميتكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب6 فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون أي قل يا رسولنا لهؤلاء الدهرين المنكرين للبعث الله يحيكم إذ كنتم نطفاً ميتة

- 1 هي ضمير القصة والشأن والجملة نموت ونحيا مبينة لجملة ما هي إلا حياتنا الدنيا أي ليس بعد هذا العالم عالم آخر فالحياة هي هذه لا غير.
- 2 روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحينا فيسبون الدهر". قال الله تعالى "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار".
- 3 قال القرطبي كان المشركون أصنافاً منهم هؤلاء ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ومنهم من يشك بالبعث ولا يقطع بإنكاره.
- 4 فإن قيل لم سمى قولهم حجة وليس هو بحجة؟ قيل لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهم.
- 5 أي أحيوا لنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون.
- 6 جملة لا ريب فيه حال يوم القيامة أي لا ريب في وجوده وكونه لا ريب فيه لأنه علة الحياة كلها فلولاها ما كانت هذه الحياة فمن هنا لاعمى للشك فيه بالكلية.

(5/37)

فأحياكم، ثم يميتكم بدون اختياركم فالقادر على الإحياء والإماتة وفعلا هو يحي ويميت لا يحيل العقل أن يحيى أن من أحياهم ثم أماتهم وإنما لم يحيهم اليوم كما طلبتم لأنه لا فائدة من إحيائهم بعد أن أحياهم ثم أماتهم هذا أولاً وثانياً إحيائهم لكم اليوم يتنافى مع الحكمة العالية في خلق هذه الحياة الدنيا والآخرة إذ خلقوا ليعلموا، ثم يجازوا بأعمالهم خيرها وشرها. ولهذا قال ثم يجمعكم أي أحياء في يوم القيامة للحساب والجزاء وقوله لا ريب فيه أي لا شك في وقوعه ومجيئه إذ مجيئه حتمى لقيام الحياة الدنيا كلها عليه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا لأمرين الأول أنهم لا يفكرون ولا يتعقلون والثاني أنهم لتكذيبهم بالوحي الإلهي سدوا في وجوههم طريق العلم الصحيح فهم لا يعلمون، ولا يعلمون حتى يؤمنوا بالوحي ويسمعوه ويتفهموه.

هدية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير البعث والجزاء.
 - 2- الرد على الدهريين وهم الذين ينسبون الحياة والموت للدهر وينفون وجود الخالق عز وجل.
 - 3- بيان أن الكفار لا دليل لهم عقلي ولا نقلي على صحة الكفر عقيدة كان أو عملا.
 - 4- عدم إحياء الله تعالى للمطالبيين بحياة من مات حتى يؤمنوا لم يكن عن عجز بل لأنه يتنافى مع الحكمة التي دار عليها الكون كله.
 - 5- بيان أن أكثر الناس لا يعلمون وذلك لأنهم كذبوا بالوحي الإلهي في الكتاب والسنة.
 - 6- بيان أنه لا علم صحيح إلا من طريق الوحي الإلهي.
- وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدِ يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا

(5/38)

مُجْرِمِينَ (31) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْنَا مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَسْقِينَ (32)

شرح الكلمات:

ولله ملك السموات والأرض: أي خلقا وملكا وتصرفا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.
يخسر المبطلون: أي ويوم تقوم الساعة التي أنكرها الكافرون يخسر أصحاب الباطل بصيورتهم إلى النار.

وترى كل أمة جائية: أي كل أمة ذات دين جائية على ركبها تنتظر حكم الله فيها.
تدعى إلى كتابها: أي إلى كتاب أعمالها فهو الحكم فيها إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر.
اليوم تجزون ما كنتم تعملون: أي يقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشر.
هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق: أي ديوان الحفظ الذي دونه من أعمال العقلاء من الناس شاهد عليكم بالحق.

إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون: أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون.

فيدخلهم ربهم في رحمته: أي فيدخلهم في جنته.

ذلك هو الفوز المبين: أي الفوز البين الظاهر وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

أفلم تكن آياتي تتلى عليكم: أي يقال لهم ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم.

فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين: أي عن آيات الله فلم تؤمنوا بها وكنتم بذلك قوما كافرين.
إن وعد الله حق: أي بالبعث والجزاء العادل يوم القيامة حق ثابت.
إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين: أي ما كنا مستيقنين بالبعث وإنما كنا نظنه لا غير ولا نجزم به.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} خلقا وإيجاداً وملكاً وتصرفاً ومن كان هذا وصفه من القدرة والعلم والحكمة لا ينكر عليه بعث العباد بعد موتهم وجمعهم للحساب والجزاء. وقوله ويوم 1 تقوم الساعة التي ينكرها المنكرون يومئذ يخسر المبطلون يخسرون كل شيء حتى أنفسهم يخسرون منازلهم في الجنة يرثها عنهم المؤمنون و يرثون هم المؤمنون منازلهم في النار ذلك هو الخسران المبين و قوله تعالى:

1 ويوم تقوم الساعة: هو ظرف متعلق بيخسر قدم عليه للاهتمام به ويومئذ توكيد ليوم تقوم الساعة.

(5/39)

{وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً} أي وترى أيها الرسول يوم القيامة كل أهل دين وملة وقد جثوا على ركبهم خوفاً وذللاً مستوفزين للعمل بما يؤمرون به. و قوله {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} أي الذي أنزل على نبيها لتعمل بما جاء فيه من عقائد وشرائع ويقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون أي في الدنيا من خير وشر. فإذا حاولوا الإنكار قيل لهم: هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، وهو كتاب الأعمال الذي دونته الحفظة وقوله {إِنَّا كُنَّا نَسْنَسُخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالهم أي بإثباتها وحفظها وهاهي ذي بين أيديكم ناطقة صارخة بما كنتم تعملون.

قال تعالى مفصلاً للحكم الناتج عن شهادة الكتاب {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي وتركوا الشرك والمعاصي فيدخلهم ربهم جزاء لهم في رحمته وهي الجنة دار المتقين ذلك هو الفوز المبين أي إدخاله الجنة بعد إنجائهم من النار هو الفوز المبين إذا الفوز معناه، النجاة من المرهوب والظفر بالمرغوب المحبوب. هذا جزاء أهل الإيمان والتقوى وأما الذين كفروا وهم أهل الشرك والمعاصي فيقال لهم: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم؟ بل كانت تتلى عليكم فاستكبرتم عنها فلم تتعرفوا إلى ما فيها وإلى ما تدعوا إليه، وكنتم باستكباركم عنها قوما مجرمين 3 على أنفسكم إذا أفسدتموها بالشرك والمعاصي.

وقوله تعالى: {وَأِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي وعده تعالى بالبعث والجزاء حق لا بد واقع والساعة آتية لا ريب فيها أي جائية لا محالة ولا ريب في وقوعها بحال من الأحوال قلتم ما ندري ما الساعة

متجاهلين لها متعجبين من وقوعها. و قلمت إن نظن إلا مجرد ظن فقط و ما نحن بمستيقنين⁴ بمجيئها، وهذا بالنسبة إلى بعض الناس، وإلا فقد تقدم أن بعضهم كان ينكر البعث بالكلية وهذا ظاهر في كثير من الناس الذين يؤمنون بالله وبلقائه وهم لا يفترون من المعاصي ولا يقصرون عن فعل الشر والفساد.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض ما يقع يوم القيامة.

2- تقرير عقيدة كتابة أعمال العباد وتقديمها لهم يوم القيامة في كتاب خاص.

1 الأمة الجماعة العظيمة أمرها واحد يجمعهم دين والجنث البروك على الركب في استنفار وهي هيئة الخضوع.

2 فأما.. الخ هذه الفاء عاطفة لمفصل من الكلام على مجمل منه وهو قوله تعالى وترى كل أمة جاثية والبدأ بتفصيل المؤمنين تعجيلاً للمسرة لهم وتنوياً لشأن الإيمان والعمل الصالح.

3 إقحام لفظ (قوما) للدلالة على أن الإجراء صار خلقاً لهم مخالطاً لنفوسهم حتى صار مما يفتنون به ولولا هذا لقال بل كنتم مجرمين، دون ذكر (قوم) والاستفهام في قوله أفلم تكن آياتي للتقرير والتوبيخ.

4 هذه الجملة تأكيد لجملة إن نظن إلا ظناً، والسين والتاء في بمستيقنين للمبالغة في عدم حصول الفعل.

(5/40)

3- تقرير أن الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز، وأن الشرك والمعاصي سبب الخسران المبين.

4- الظن في العقائد كالكفر بها، والعياذ بالله تعالى.

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَزْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

شرح الكلمات:

وبدا لهم سيئات ما عملوا: أي ظهر لهم في يوم القيامة جزاء سيئات ما عملوه في الدنيا من الشرك والمعاصي.

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون :أي نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به إذا ذكروا به وخوفوا منه في الدنيا.

وقيل اليوم ننساكم :أي وقال الله تعالى لهم اليوم ننساكم أي نترككم في النار .

كما نسيتم لقاء يومكم هذا :أي مثل ما نسيتم يومكم هذا فلم تعملوا له بما ينجي فيه وهو الإيمان والعمل الصالح، وترك الشرك والمعاصي.

ومأواكم النار :أي ومحل إقامتكم النار .

ومالكم من ناصرين :أي من ناصرين ينصرونكم بإخراجكم من النار .

ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله :أي ذلكم العذاب كان لكم بسبب كفركم واتخاذكم آيات الله هزواً . هزواً :أي شيئاً مهزواً به .

وغرتكم الحياة الدنيا :أي طول العمر والتمتع بالشهوات والمستلذات.

ولا هم يستعتبون :أي لا يؤذّن لهم في الاستعتاب ليعتوبوا فيتوبوا.

(5/41)

فله الحمد رب السموات ورب :أي فله وحده الوصف بالجميل لإنجاز وعيده لأعدائه.
الأرض

وله الكبرياء في السموات والأرض :أي العظمة والحكم النافذ الناجز على من شاء.

وهو العزيز الحكيم :أي وهو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبير خلقه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في عرض مشاهد القيامة وبعض ما يتم فيها من عظام الأمور لعل السامعين لها يتعظون بها فقال تعالى ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ [يَسْتَهْزِئُونَ]﴾ أي وظهر للمشركين المكذبين بالبعث والجزاء ظهر لهم وشاهدوا العذاب الذي كانوا إذا ذكروا به أو خوفوا منه استهزأوا به وسخروا منه. وقد حل بهم ونزل بساحتهم وأحاط بهم وقال لهم الرب تعالى اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا أي نترككم في عذاب النار كما تركتم العمل المنجي من هذا العذاب وهو الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي. ومأواكم2 النار أي هي مأواكم ودار إقامتكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي وليس لكم من ينصركم فيخلصكم من النار، وعلّة هذا الحكم عليهم بينها تعالى بقوله ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا3 وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي حكم عليكم بالعذاب والخذلان بسبب اتخاذكم آيات الله الحاملة للحجج والبراهين الدالة على وجود الله ووجوب توحيده وطاعته هزواً أي شيئاً مهزواً به، ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها وزينتها، وطول أعماركم فيها فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحاً ينجيكم من هذا العذاب الذي حاق بكم اليوم. قال تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لَا

يُخْرِجُونَ مِنْهَا} وترك مخاطبتهم إشعاراً لهم بأنهم لا كرامة لله لهم اليوم فلم يقل فاليوم لا تخرجون منها، بل عدل عنها إلى قوله {قَالِيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} أي لن يطلب منهم أن يعتبوا ربهم بالتوبة إليه، إذ لا توبة بعد الموت والرجوع إلى الدنيا غير ممكن في حكم الله وقضائه وهنا تعظم حسرتهم وبشتد العذاب عليهم ويعظم كربهم.

وقوله تعالى: {قُلِّلِ الْحَمْدُ رَبِّ 4 السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي رب كل شيء ومليكه حمد نفسه، وقصر الحمد عليه بعد أن أنجز ما أوعده به الكافرين، وذكر موجب الحمد وهو سلطانه القاهر في السموات وفي الأرض، وقوله {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ 5} أي العظمة والسلطان {في

- 1 من أنواع الاستهزاء ما روي أن العاص بن وائل قال لخباب بن الأرت وقد طالبه بدين له عليه لئن بعثت كما تقول لأوتين مالاً وولداً في الآخرة فاقض منه دينك.
- 2 التعبير بالمأوى إشارة إلى تأييد الخلود فيها إذ المأوى مكان الإيواء والاستقرار ولا مكان غيره.
- 3 الهزه مصدر كالخلق أطلق أريد به اسم المفعول أي مهزواً به.
- 4 الفاء للتفريع فهذه الجملة (الحمد لله) والثناء عليه متفرع عما ورد في هذه السورة من مظاهر ربوبيته تعالى وأطافه إحسانه بإحقاق الحق وإبطال الباطل وعدله في قضائه بين عباده.
- 5 تقديم الجار والمجرور في قوله قلله الحمد، وقوله وله الكبرياء مؤذن بالحصص والاختصاص والكبرياء هي الكبر الحق العظيم وهما الكمال في الذات والكمال في الصفات والوجود.

(5/42)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي لا يمانع ولا يغالب، الشديد الانتقام، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه الحكيم في تدبير خلقه ويتجلى ذلك في إكرام أوليائه برحمتهم، وإهانة أعدائهم بتعذيبهم في دار العذاب النار و بسئ المصير.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن الاستهزاء بآيات الله وشرائعه كفر موجب للعذاب.
- 2- تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل، وكما يدين الفتى يدان.
- 3- مشروعية الحمد عند الفراغ من أي عمل صالح أو مباح.

(43/5)

سورة الأحقاف

...

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف 1

مكية

وآياتها خمسة وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتُّنَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6)

شرح الكلمات:

حم : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا: حم ويقرأ هكذا: حاميم.

تنزيل الكتاب : أي تنزيل القرآن.

من الله العزيز الحكيم : أي من لدن الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

إلا بالحق وأجل مسمى : أي ما خلقنا السماوات والأرض إلا خلقا متلبسا بالحق وأجل مسمى لفنائهما.

1 وجه تسميتها بالأحقاف لذكر لفظ الأحقاف فيها ولم يكن لها اسم غيره والأحقاف جمع حقف بكسر الحاء وسكون القاف الرمل المستطيل الكبير.

(5/44)

عما أنذروا معرضون : أي عن ما خوفوا به من العذاب معرضون عنه غير ملتفتين إليه.

ما تدعون من دون الله : أي من الأصنام والأوثان.

أروني ماذا خلقوا من الأرض : أي أشيروا إلى شيء خلقوه من الأرض.

أم لهم شرك في السموات : أي أم لهم شركة.

أتونني بكتاب من قبل هذا : أي منزل من قبل القرآن.

أو أثارة من علم : أي بقية من علم يؤثر عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام.

إن كنتم صادقين: أي في دعوكم أن عبادة الأصنام والأوثان تقريكم من الله تعالى.
من لا يستجيب له إلى يوم القيامة: أي لا أحد أضل ممن يدعو من لا يستجيب له في شيء يطلبه
منه أبداً.

وهم عن دعائهم غافلون: أي وهم الأصنام أي عن دعاء المشركين إياهم غافلون لا يعرفون عنهم
شيئاً.

وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء: أي في يوم القيامة كانت الأصنام أعداء لعابديها.
وكانوا بعبادتهم كافرين: أي وكانت الأصنام بعبادة المشركين لها جاحدة غير معترفة.
معنى الآيات:

قوله تعالى {حم} الله أعلم بمراده به إذ هذه من المتشابه الذي يجب الإيمان به وتقويض أمر معناه
إلى الله منزله. وقوله {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} أي تنزيل القرآن الكريم من لدن الله
العزیز الحكيم العزيز في ملكه الحكيم في صنعه وتدبيره. وقوله تعالى {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا} من العوالم والمخلوقات {إِلَّا بِالْحَقِّ} أي إلا لحكم عالية وليس من باب العبث واللعب،
والأجل مسمى عنده وهو وقت إفنائهما وإنهاء وجودهما لاستكمال الحكمة من وجودهما. وقوله
تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ} 2 يخبر تعالى بأن الذين كفروا بتوحيد الله ولقائه وآياته
ورسوله عما خوفوا به من عذاب الله المترتب على كفرهم وشركهم معرضون غير مباليين به، وذلك
لظلمة نفوسهم، وقساوة قلوبهم. وقوله تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ 3 مَا

1 هذه الجملة حالية فهي في موضع نصب حال من الضمير المقدر في متعلق الجار و المجرور
في قوله: (بالحق) و المقصود من الإخبار هو التعجب من إعراض الكافرين عن دعوة الحق التي
يدعون إليها وهي: الإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك، والمعاصي لنجاتهم وسعادتهم.

2 (عما أنذروا) جائز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف أي: أنذروه وجائز أن تكون مصدرية
أي: عن إنذارهم معرضون.

3 (قل أرايتم): الاستفهام تقريرى هو بمعنى: أخبروني، وفعل أروني للتعجيز لإبطال دعوى الشرك
بالله تعالى، والعاجز عن خلق شيء كيف يستحق العبادة، والتأليه، و (ماذا خلقوا) هو بمعنى ماذا
الذي خلقوا أي: أي شيء خلقوه.

(5/45)

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ { أي من الأصنام والأوثان } { أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ } أي من شيء { أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ } ولو أدنى شرك وأقله، وقوله { أَرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ } أي

بقية من علم تشهد 1 بصحة عبادة ودعاء آلهة لم تخلق شيئاً من الأرض وليس لها أدنى شرك في السموات { إِنَّ كُنُتُمْ صَادِقِينَ } في دعوكم أنها آلهة تستحق أن تعبد. وقوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ينفي تعالى على علم تام أنه لا أضل من أحد يدعو من غير الله تعالى معبوداً لا يستجيب له في قضاء حاجة أو قضاء وطر مهما كان صغيراً أبداً وحقا لا أحد أضل ممن يقف أمام جماد لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق يدعوه ويسأله حاجته وقوله { وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ } أي وأولئك الأصنام المدعون غافلون تماما عن داعيهم لا يعلمون عنه شيئاً لعدم الحياة فيهم، ولو كانوا يوم القيامة ينطقهم الله و يتبرعون ممن عبدوهم ويخبرون أنهم ما عبدوهم ولكن عبدوا الشيطان الذي زين لهم عبادتهم، وهو ما دل عليه قوله تعالى { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ } أي ليوم القيامة كانوا لهم 4 أعداء وخصوماً وكانوا بعبادتهم من دعاء وذبح ونذر وغيره كافرين أي جاحدين غير معترفين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- إثبات النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزيل الله على رسوله المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم.
- 2- انتفاء العبث عن الله تعالى في خلقه السموات والأرض وما بينهما وفي كل أفعاله وأقواله.
- 3- تقرير حقيقة علمية وهي من لا يخلق لا يُعبد.
- 4- بيان أنه لا أضل في الحياة من أحد يدعو من لا يستجيب له أبداً كمن يدعون الأصنام والقبور والأشجار بعنوان التوسل والاستشفاء و التبرك.

1 (من علم) أي: من أهل العلم السابقين غير ومكتوبة في الكتب، وهذا التوسيع عليهم في أنواع الحجج ليكون عجزهم بعد ذلك أقطع لحجتهم وإبطال دعوهم في الشرك. ذكر القرطبي عند تفسير: (أو أثاره من علم) أن بعضهم فسّر الأثارة: بالخط، وإن نبيا كان يخط، والمراد التعرف إلى علم الغيب، وختم القول بكلمة لابن العربي أنهى بها الموضوع، إذ قال: إن الله تعالى لم يبق في الأسباب الدالة على الغيب إلا الرؤية إذ هي جزء من النبوة، والفأل الحسن لا غير وأنشد لبعضهم:

الفال والزجر والكهان كلهم

مضللون ودون الغيب أقفال

2 الاستفهام للإنكار والتعجب معاً، والمعنى: لا أحد أشد ضللاً وأعجب حالاً ممن يدعون ... الخ

3 الجملة حالية، وجملة: (وإذا حشر الناس) معطوفة عليها.

4 فالعابدون كالمعبودين سواء في التبرؤ من بعضهم بعضاً يوم القيامة وإعلان العداء لبعضهم

بعضاً.

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
 قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ
 الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ
 إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (9)

شرح الكلمات:

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ : أي أهل مكة من كفار قريش، والآيات آيات القرآن والبيانات
 الواضحات.

قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : أي من كفار قريش للحق أي القرآن لما قرأه عليهم رسول الله
 صلى الله عليه وسلم.

هذا سحر مبين : أي قالوا في القرآن سحر مبين أي ظاهر لما رأوا من تأثيره على النفوس.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ : أي بل يقولون افتراه أي اختلقه من نفسه.

قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ : أي قل لهم يا نبينا إن اختلقته من نفسي.

فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً : أي فأنتم لا تملكون لي من الله شيئاً إن أراد أن يعذبني.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ : أي هو تعالى أعلم بما تخوضون فيه من القدر والطمع في وفي القرآن.

كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ : أي كفى به تعالى شهيداً بيني وبينكم.

مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ : أي لم أكن أول رسول فأكون بدعا من الرسل بل سبقني رسل كثيرون.

وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ : أي في هذه الحياة هل أخرج من بلدي، أو أقتل، وهل

ترجمون بالحجارة أو يخسف بكم.

إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ : أي ما أتبع إلا ما يوحى إلي ربي فأقول وأفعل ما يأمرني به.

وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ : أي وما أنا إلا نذير لكم بين الانذار.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة العرب عامة وقريش خاصة إلى الإيمان والتوحيد فإذا قرأ عليهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم القرآن دعوة لهم إلى الإيمان والتوحيد قالوا رداً عليه ما أخبر به تعالى في

قوله {وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ} أي على كفار قريش {آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} أي ظاهرات الدلالة واضحات المعاني

{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ويرسوله ولقائه وتوحيده قالوا {الْحَقُّ 1} وهو القرآن {لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} بل قالوا ما هو أشنع في الكذب وأبشع في النظر إذ قالوا ما أخبر به تعالى عنهم في قوله {أَمْ يَقُولُونَ 2} افتراءه {أي بل أيقولون افتراءه أي اختلقه وتخرصه من نفسه وليس هو بكلام الله ووحيه إليه. وقوله تعالى {قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي على فرض أنني افتريته على الله وقلت أوحى إلي ولم يوح إلي وأراد الانتقام مني بتعديبي، فهل أنتم أو غيركم يستطيع دفع العذاب عني، وعليه فكيف أعرض نفسي للعذاب بالافتراء على الله تعالى، فهذا لن يكون مني أبداً. وقوله تعالى {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ 3} فيه {أي الله جل جلاله هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه مندفعين في الكلام تطعنون في وفي القرآن فتقولون في ساحر وفي القرآن سحر مبين وتقولون في مفترٍ وفي القرآن افتراء إلى غير ذلك من المطاعن والنقائص. {كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ 4} أي كفى بالله شهيدا علي وعليكم فيما أقول وفيما تقولون وسيجزى كلا بما عمل {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} لمن تاب فتوبوا إليه يغفر كفركم وخوضكم في الباطل ويرحمكم فإنه تعالى غفور لمن تاب رحيم بمن آمن وأناب. وقوله تعالى في الآية (9) {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا 6} مِنَ الرُّسُلِ {يَأْمُرُ تَعَالَىٰ رَسُولُهُ أَنْ

- 1 (للحق) اللام تعليلية. وليست للتعدية، أي: قال الكافرون بعضهم لبعض لأجل رد الحق وإبطاله، هذا سحر مبين، والحق: القرآن، يصفونه بالسحر حتى لا يؤمنوا به.
- 2 (أم) هي المنقطعة المقدره بيل، والاستفهام أي: أيقولون افتراءه والاستفهام بيل للإضراب الانتقالي من نوع إلى آخر من أنواع ضلالهم، والاستفهام للنفي والإنكار معاً.
- 3 (تفيضون فيه) أي: من قول الباطل والخوض في تكذيب الحق، إذ الإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع، ومنه: أفاضوا في الحديث: إذا اندفعوا يقولون، وأفاض الناس من عرفات إلى مزدلفة، أي اندفعوا.
- 4 إذ هو يعلم صدقي ويعلم أنكم مبطلون.
- 5 الغفور لمن تاب من عباده الرحيم بالمؤمنين.
- 6 البدع: الأول: والبدع كالبدع بكسر الباء مثل: نصف ونصيف، وأبدع في كذا أتى بالبدع فيه أي بما لم يأت به غيره، والبدع: صفة مشبهة، وهو من أسماء الله تعالى، ومعناه: خالق الأشياء ومخترعها.

(5/48)

يقول لأولئك المشركين المفيضين في الطعن في القرآن والرسول في أغلب أوقاتهم وأكثر مجالسهم {مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} أي ما أنا بأول عبد نبي وأرسل فأكون بدعاً في هذا الشأن فينكر علي أو

يستغرب مني بل سبقتي رسل كثيرة. وقوله { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِكُمْ } أي وقل لهم أيضاً أني لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي مستقبلاً فهل أخرج من هذه البلاد أو أقتل أو تقبل دعوتي وأنصر ولا ما يفعل بكم من تعذيبكم بحجر أو مسخ أو هدايتكم ونجاتكم. وقوله { إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } أي ما أتبع إلا الذي أوحى إلي ربي باعتقاده أو قوله أو عمله، فلا أحدث و لا أبتدع شيئاً لم يوح الله به أبداً { إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } أي ما أنا بالذي يملك شيئاً لنفسه أو لغيره من خير أو ضير وإنما أنا نذير من عواقب الكفر و التكذيب و الشرك و المعاصي فمن قبل إنذاري فكف عما يسبب العذاب نجا، ومن رفض إنذاري فأمره إلى ربي إن شاء عذبه و إن شاء تاب عليه و هداه و رحمه.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ (12) إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (14) }

1 هذا رد على المتعنتين من المشركين الذين يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بما لم يكن في وسعه من أمور الغيب، وليس معناه كما قيل: إنه لا يدري هل يكون بعد موته في الجنة أو في النار، و لا يدري هل يكون المشركون في النار أو الجنة، إذ هذا قول باطل. وأما حديث عثمان بن مظعون في البخاري " فإنه لما قالت المرأة رحمة الله عليك يا أبا السائب إن الله أكرمك فقال لها: و ما يدريك أن الله أكرمه فإني و أنا رسول الله لا أدري ما يفعل بي " فإن المراد منه عدم الجزم بمصير من مات من المسلمين ووجوب تفويض الأمر إلى الله تعالى.

(5/49)

شرح الكلمات:

قل أرايتم: أي أخبروني ماذا تكون حالكم.

إن كان من عند الله: أي إن كان القرآن من عند الله.

وكفرتهم به: أي وكذبتم به أي بالقرآن.

وشهد شاهد من بني إسرائيل: أي و شهد عبد الله بن سلام.

على مثله فأمن: أي عليه إنه من عند الله فأمن.

و استكبرتم: أي واستكبرتم أنتم فلم تؤمنوا أستم ظالمين.

لو كان خيراً ما سبقونا إليه: أي لو كان ما جاء به محمد من القرآن و الدين خيراً ما سبقنا إليه المؤمنون.

و إذ لم يهتدوا به: أي بالقرآن العظيم.

فسيقولون هذا إفك قديم: أي هذا القرآن إفك قديم أي هو من كذب الأوليين.

وهذا كتاب مصدق: أي القرآن مصدق للكتب التي سبقته.

لسانا عربياً لينذر الذين ظلموا: أي حال كونه بلسان عربي لينذر به الظالمين المشركين.

وبشرى للمحسنين: وهو أي القرآن بشرى لأهل الإحسان في عقائدهم و أقوالهم و أعمالهم.

ثم استقاموا: أي فلم يرتدوا و استمروا على فعل الواجبات وترك المحرمات.

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون: أي في الدنيا و في البرزخ و في عرصات القيامة.

بما كانوا يعملون: أي جزاهم الله بما جزاهم به ينفي الخوف والحزن عليهم بأعمالهم الصالحة

وتركهما لأعمال الفاسدة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي صلى الله عليه وسلم من قريش الذين ردوا الدعوة و

قالوا في كتابها سحر مبین و في صاحبها مفتر فقال تعالى لرسوله قل يا محمد لأولئك المشركين

الذين قالوا في القرآن سحر مبین {أَرَأَيْتُمْ} 1 أي أخبروني ماذا تكون حالكم إن كان القرآن من عند

الله. وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام على 2 مثله أي على التوراة أنها

نزلت من

1 الاستفهام تقريرى للتوبيخ، ومفعولاً (رأيتم) محذوفاً ن تقديرهما: أنفسكم ظالمين.

2 المثل: المماثل أي: المشابه في فعل أو صفة، وضمير مثله: عائد على القرآن، وجائز أن يكون

المراد بالمثل: التوراة، و الشاهد هو موسى عليه السلام أو عبد الله بن سلام كما في التفسير، و

جائز أن يكون لفظ (مثل) مقحماً زائداً نحو: (ليس كمثل شيء) أي: ليس مثله شيء، ويكون المعنى.

وشهد شاهد- وهو عبد الله بن سلام- على صدق القرآن وكونه وحى الله أوحاه إلى رسوله صلى الله

عليه وسلم.

(5/50)

عند الله وهي مثل القرآن فلا يستتكر أن يكون القرآن نزل من عند الله لا سيما والكتابان التوراة و

القرآن يصدق بعضهما بعضاً، بدلالتهما معاً على أصول الدين كالتوحيد و البعث والجزاء بالثواب

والعقاب ومكارم الأخلاق والعدل والوفاء بالعهد. { قَامَنَّ } هذا الشاهد 1 { وَاسْتَكْبَرْتُمْ } أي وكفرتم أنتم

مستكبرين عن الإيمان بالحق ألم تكونوا شر الناس وأظلمهم وتحرمون الهداية إن الله لا يهدي القوم 2
الظالمين أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فحرموها الهداية الإلهية وقوله تعالى في الآية
(11) {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} هذا القول جائز أن يقوله يهود
المدينة للمؤمنين بها، وجائز أن يقوله المشركون في مكة و في غيرها من العرب إذ المقصود هو
الاعتذار عن عدم قبول الإسلام بحجة انه لا فائدة منه تعود عليهم في دنياهم ولا خير يرجونه منه
إن دخلوا فيه إذ لو كان فيه ما يرجون من الفوائد المادية لا اعتنقوه ودخلوا فيه ولم يسبقهم إليه الفقراء
والمساكين. وهو معنى ما أخبر تعالى به عنهم في قول {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي في
شأن الذين قالوا لو كان الإسلام خيراً ما 4 سبقونا إليه فآمنوا وكفرنا. وقوله تعالى {وَأَذِّمُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} أي وإن ظهر عنادهم وعظم عتوهم واستكبارهم فعموا فلم يهتدوا بالقرآن 5
فسيقولون { هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} وقد قالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ومعنى إفك
قديم كذب أفكه غير محمد و عثر عليه فهو يقول به ما أفسد هذا القول وما أقبحه وأقبح قائله.
وقوله تعالى {وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً} أي ومن قبل القرآن الذي أنكر المشركون نزوله
كتاب موسى التوراة وقد أنزلناه عليه إماما يؤتم به فيقود المؤمنين به العاملين بهدايته إلى السعادة
والكمال وأنزلنا اليوم القرآن هدى ورحمة وبشرى للمحسنين. وهو ما دل عليه قوله هذا كتاب مصدق
لما قبله من الكتب لسانا 6 عربيا أي أنزلناه لسانا عربيا لينذر به رسولنا المنزل عليه.

1 لا حاجة إلى أن نقول الشاهد هو موسى عليه السلام بحجة أن السورة مكية، وعبد الله بن سلام
أسلم بعد الهجرة، إذ من الجائز أن تكون السورة مكية والآيات مدنية، وهو الحق في هذا والله أعلم.
2 الجملة تعليلية لما هو محذوف في الكلام وهو: ضللتهم ضلالا لا يرجى لكم هداية بعده، لأن الله
لا يهدي القوم الظالمين.

3 اللام تعليلية أي: قالوا ما قالوه لأجل الذين آمنوا حتى يردوا دعوتهم ولا يقبلوا الإسلام.

4 ضمير (سبقونا) عائد إلى غير مذكور وأرادوا به المستضعفين مثل بلال وعمار ووالده وشمية
وزنيرة على وزن شريرة، وسكيرة: أمة رومية كانت من السابقين إلى الإسلام.

5 المضارع هنا مراد به سيديمون قولهم هذا كلما أرادوا رد القرآن: قالوا هذا إفك قديم.

6 كلمة (لساناً) فيها إيماء إلى أنه عربي اللغة لا الأخلاق والعادات العربية والأحكام القبلية لأنها
فدست بالشرك وانقطاع الوحي وموت العلماء قروناً عديدة.

وهو محمد صلى الله عليه وسلم لينذر 1 به الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي عذاب الله المترتب على تفسية النفوس بأوضار الشرك والمعاصي وهو بشرى للمحسنين من المؤمنين الذين احسنوا النية والعمل بالفوز العظيم يوم القيامة وهو النجاة من النار ودخول الجنة وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾² بعد أن ذكر تعالى المبطلين وباطلهم عقب على ذلك بذكر المحسنين وأعمالهم على نهج الترهيب والترغيب فأخبر تعالى أن الذين قالوا ربنا الله أي آمنوا وصرحوا بإيمانهم وجأهروا به ثم استقاموا على منهج لا إله إلا الله فعبدوا الله بما شرع وتركوا عبادة غيره حتى ماتوا على ذلك هؤلاء يخبر تعالى عنهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة فهم آمنون في الحيات الثلاث، وبشرهم بالجنة فأخبر أنهم أصحابها الخالدون فيها، وأشار إلى أن ذلك الفوز والبشرى كانا نتيجة أعمالهم في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح الذين دل عليها قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- اعتبار الشهادة وانها أداة يتوصل بها إلى احقاق الحق و ابطال الباطل فلذا يشترط عدالة صاحبها والعدالة هي إجتنب الكبائر واتقاء الصغائر غالبا.
 - 2- تقرير قاعدة من جهل شيئا عاداه، إذ المشركون لما لم يهتدوا بالقرآن قالوا هذا إفك قديم.
 - 3- بيان تأخي وتلاقي الكتابين التوراة والقرآن فشهادة أحدهما للآخر أثبتت صحته.
 - 4- وجوب تعلم العربية لمن أراد أن يحمل رسالة الدعوة المحمدية فينذر ويبشر.
 - 5- فضل الإستقامة³ حتى قيل أنها خير من ألف كرامة، والإستقامة هي التمسك بالإيمان والعبادة كما جاء بذلك القرآن وبينت السنة.
- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ

1 قرأ نافع (لتنذر) بالتاء الفوقية حطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقرأ حفص (لينذر) بالياء أي القرآن.

2 ثم للتراخي الرتبي، إذ الإيمان يحصل بالنظر و التأمل دفعة واحدة وأما الإستقامة فتحتاج إلى مراقبة النفس وذكر الوعد والوعيد في كل طاعة من فعل أو ترك..

3 روى مسلم والترمذي وغيرهما عن عبد الله النقي قال: "قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال صلى الله عليه وسلم" قل آمنتم بالله ثم استقم".

أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16){

شرح الكلمات:

ووصينا الإنسان بوالديه :أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإيضاء.

إحسانا 1 : أي أن يحسن بهما إحسانا وهو المعاملة بالحسنى.

حملته أمه كرها ووضعته كرها :أي حملته أثناء حمله في بطنها على مشقة وولده كذلك على مشقة.

وحمله وفصاله ثلاثون شهرا :أي مدة حمله في بطنها و فطامه من الرضاع ثلاثون شهرا.

حتى إذا بلغ أشده :أي اكتمال قوته البدنية و العقلية وهي من الثلاث والثلاثين فما فوق.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك :أي ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك بصرفها فيما تحب.

وأن أعمل صالحا ترضاه :أي وبأن أعمل صالحا ترضاه مني أي تتقبله عني.

وتجاوز عن سيئاتهم : أي فلا نؤاخذهم بها بل نغفرها.

في أصحاب الجنة :أي في جملة أصحاب الجنة وعدادهم.

وعد الصادق الذي كانوا يوعدون :أي في مثل قوله تعالى وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار الآية.

معنى الآيات:

إن الفرد كالجماعة فقد أوصى تعالى الإنسان بالإحسان بوالديه وببرهما في جميع كتبه وعلى السنة كافة رسله, و الإنسان بعد ذلك قد يحسن ويبر وقد يسيء ويعق, فكذلك الجماعة و الأمة من الناس يرسل إليهم الرسول فمنهم من يؤمن ومنهم من يكذب, ومنهم من يتابع ومنهم من يخالف فلما ذكر تعالى اختلاف قوم النبي صلى الله عليه وسلم في الإيمان بما جاء به, والكفر به ذكر أن هذه الحال

1 قرأ نافع(حسناً) و(كرهاً) بفتح الكاف, وقرأ حفص(إحساناً) و(كرهاً) بضم الكاف.

(5/53)

الإنسان فقال تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [أي جنس الإنسان أي أمرناه بما هو أكد من الأمر وهو الوصية بوالديه أي أمه وأبيه إحسانا بهما وذلك بكف الأذى عنهما وإيصال الخير بهما وطاعتها

في المعروف وببرهما أيضا بعد موتهما. فمن الناس من ينفذ هذه الوصية ومنهم من يهملها ولا ينفذها وقوله، حملته أمه كرها ووضعته كرها بيان لوجوب الإحسان بهما وبرهما إذ معاناة الأم وتحملها مشقة الحمل تسعة أشهر ومشقة الوضع وهي مشقة لا يعرفها إلا من قاسى آلامها كالأمهات. وقوله {وَحَمْلُهُ 2 وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} بيان لمدة تحمل المشقة إنها ثلاثون شهرا بعضها للحمل وبعضها للإرضاع والتربية وقوله تعالى حتى إذ بلغ أي عاش حتى إذا بلغ أشده أي اكتمال قواه البدنية والعقلية وذلك من ثلاث وثلاثين سنة إلى الأربعين وبلغ أربعين 3 سنة قال أي الإنسان البار بوالديه المنفذ للوصية الإلهية كأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغ الأربعين من عمره بعد البعثة المحمدية بسنتين. {قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} 4 وهي نعمة الإيمان والتوحيد والإسلام علي وعلى والدي إذ آمن وآمن أبواه أبو قحافة عثمان بن عامر التيمي وآمنت أمه أم الخير سلمى، وأولاده عامة من بنين وبنات ولم يحصل لأحد من الصحابة أن سأل ربه أن يدفعه دفعا إلهاميا وتوفيقا ربانيا لأن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه بالإسلام، وأن يدفعه كذلك إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله ويتقبله عن صاحبه، وقد استجاب له ربه فأعتق تسعة أعبد مؤمنين من استرقاق الكافرين لهم منهم بلال رضي الله عنه، وقوله {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي} أي اجعل الصلاح ساريا في ذريتي حتى يشملهم جميعا وقد استجاب الله تعالى له فأمن أولاده أجمعون ذكورا وإناثا، وقوله {إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} هذا توسل منه رضي الله عنه لقبول دعائه فقد توسل إلى ربه بالتوبة من الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد، وبالإسلام إلى الله وهو الخضوع لله والانقياد لأمره ونهيه. وقوله تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ 5 مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ} فلا يؤاخذهم بها بعد توبتهم منها في جملة أصحاب الجنة إذ لا يدخل الجنة أحد إلا بعد مغفرة ذنبيه، وقوله {وَعَدَّ الصَّدُوقُ 6}

- 1 روي من عدة طرق أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- 2 وحمله وفساله ثلاثون شهرا هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى من سورة البقرة: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} دلنا على أن أقل مدة الحمل: ستة أشهر، فلا يثبت الحمل بأقل من ستة أشهر ويثبت بالستة والسبعة والثمانية والتسعة، فمن بنى بامرأة وولدت قبل ستة أشهر من البناء بها فالولد لا يلحق الزوج.
- 3 لم خص الدعاء للوالدين في هذا الوقت بالذات؟ لأنه وقت يصبح فيه الولد مشغولا بزوجة وأولاد وتكاليف فهو في هذه الحال أحوج ما يكون إلى عون الله تعالى على بر والديه.
- 4 من بركة صلاح الذرية أن يدعو الولد لوالده بعد موته ففي صحيح الحديث: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له).
- 5 قرأ نافع: (يتقبل) و(يتجاوز) بالبناء للمفعول، و(أحسن) مرفوع نائب فاعل، وقرأ حفص بنون

المتكلم فيهما ونصب (أحسن) على أنه مفعول به.
6 الوعد: مصدر بمعنى المفعول كالرد بمعنى المردود.

(5/54)

أي أنجز لهم هذا لأنه وعد صدق وعدهم فأنجزه لهم، وقوله {الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} أي في الكتاب مثل قوله تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} الآية.
هداية الآيات:
من هداية الآيات:

- 1- وجوب البر بالوالدين بطاعتها في المعروف والإحسان بهما بعد كف الأذى عنهما.
- 2- الإشارة إلى أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر فأكثر، وأن الرضاع قد يكون حولين فأقل.
- 3- جواز التوسل بالتوبة إلى الله والانقياد له بالطاعة.
- 4- فضيلة آل أبي بكر الصديق على غيرهم من سائر الصحابة ما عدا آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

5- بشارة الصديق وأسرته بالجنة، إذ آمنوا كلهم وأسلموا أجمعين وماتوا على ذلك.
وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دِيهِ أَفٌّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعِينَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

شرح الكلمات:

والذي قال لوالديه: الذي اسم موصول استعمل استعمال الجنس فدل على متعدد بدليل الخبر عنه وهو أولئك الذين حق عليهم القول.

(5/55)

أفٍ لكما: أي نتناً وقبحاً لكما.
أن اخرج: أي من القبر حيا بعد موتي.

وقد خلت القرون :أي مضت الأمم قبلي ولم يخرج منها أحد من قبره.
وهما يستغيثان الله :أي يطلبان الغوث يرجوع ولدهما إلى الإيمان بعد الإلحاد والكفر.
ويلك آمن :أي يقولان له إن لم ترجع ويلك أي هلاكك أي هلكت آمن بالبعث.
إن وعد الله حق : وقد وعد العباد بالرجوع إليه ومحاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم بها.
فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين :أي ما القول بوجود بعث للناس أحياء بعد الموت إلا أكاذيب الأولين.

أولئك الذين حق عليهم القول :أي وجب عليهم القول بالعذاب يوم القيامة.
في أمم قد خلت من قبلهم :أي في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس.
ولكل درجات مما عملوا :أي ولكل من المؤمنين البارين، والكافرين الفاجرين درجات مما عملوا
درجات المؤمنين في الجنة ودرجات الكفار في النار.
أذهبت طبيباتكم في حياتكم الدنيا :أي يقال لهم أذهبت طبيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا.
واستمعتم بها :أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا.
فاللهم تجزون عذاب الهون :أي جزاؤكم عذاب الهوان.
بما كنتم تستكبرون في الأرض :أي تتكبرون في الأرض.
بغير الحق :أي إذ لا حق لكم في الكبر والكبرياء لله، ولم يأذن لكم فيه.
وبما كنتم تفسقون :أي تخرجون عن طاعة الله ورسوله.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الرجل المؤمن وأعماله الصالحة ومواقفه المشرفة ذكر هنا الرجل الكافر وأعماله
الباطلة ومواقفه السيئة وذلك من باب الدعوة إليه تعالى للترغيب والترهيب فقال تعالى ﴿وَالَّذِي 1

1 قيل: إن هذه الآية نزلت في أحد ابني أبي بكر الصديق عبد الرحمن أو عبد الله وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، ومن قال به رد اسم الإشارة (أولئك الذين حق عليهم القول..) إلى من طالب الولد بإحيائهم ممن ماتوا على الشرك لأن كلا من عبد الله وعبد الرحمن قد أسلم وحسن إسلامه استجابة الله دعوة أبي بكر.

(5/56)

قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أْتَعِدَانِي 1 أَنْ أُخْرَجَ 2 وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي { يخبر الله تعالى عن أخبث إنسان هو ذاك الملحد العاق لوالديه المنكر للبعث والجزاء إذ قال لوالديه أمه وأبيه أف لكم أي نتناً وقبحاً لكم أأتعدانني بأن أخرج من قبري حياً بعد ما مت، وقد مضت أمم وشعوب قبلي، وما خرج

منها أحد من قبره فكيف تعدانني أنتما ذلك إن هذا لتخلف عقلي وتأخر حضاري وقوله تعالى ﴿وَهُمَا﴾
 ﴿يَسْتَعِينَانِ اللَّهَ﴾ أي ووالداه يستعينان الله ويستصرخاناه طلباً إغاثتهما بهداية ولدتهما الملحد الشيوعي،
 ويقولان للولد ويلك أي هلاكك حضر يا ولد هلكت آمن بالبعث والجزاء وصل وصم واترك الزنا
 والخمر ويلك إن وعد الله حق أي إن ما وعد الله به عبادته من إحيائهم للحشر والحساب والجزاء حق
 فلا يتخلف أبداً فيرد عليهما الولد الملحد الدهري بما أخبر تعالى به عنه في قوله فيقول ﴿مَا هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾4 أي أكاذيبهم التي كانوا يعيشون عليها ويقصونها في مجالسهم، وبما أن الذي قال
 لوالديه لفظه مفرد ولكنه دال على جنس كان الخبر جمعا فقال تعالى في الإخبار عنهم ﴿أُولَئِكَ
 الَّذِينَ 5 حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي القول بالعذاب الدال عليه قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ﴾ ، وفي قوله ﴿فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي في جملة أمم سبقتهم في
 الإلحاد والكفر من العالمين عالم الجن وعالم الإنس وقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾6 وأي خسران أعظم
 من عبد يخسر نفسه وأهله ويعش في جهنم خالداً فيها أبداً. وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ 7 مِمَّا عَمِلُوا﴾
 أي ولكل من المؤمنين البارين والكافرين العاقين درجات مما عملوا من خير أو شر إلا أن درجات
 المؤمنين في الجنة تذهب في علو متزايد ودرجات الكافرين في النار تذهب في سفلى متزايد إلى أسفل
 سافلين. وقوله تعالى ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ 8 أَعْمَالَهُمْ﴾ كاملة غير منقوصة الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها
 وهم لا يظلمون بنقص حسنة ولا بزيادة سيئة. وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي
 انكسر يا رسولنا لهؤلاء المشركين يوم يعرضون على النار ويقال لهم في توبيخ وتقريع ﴿أَذْهَبْتُمْ

1 (أتعدانني) الاستفهام للإنكار والتعجب.

2 (أن أخرج) أي: من قبوري حياً بعد موتي و فنائي، إنكاراً منه للبعث الآخر.

3 وقد أجاب الله دعاء أبي بكر وزوجه أم الرمان حيث أسلم ابنهما رضي الله عنهم أجمعين.

4 (أساطير الأولين) أي: أحاديثهم وما سطره مما لا أصل له.

5 الإشارة هنا إلى أولئك الذين ذكرهم ابن أبي بكر كعبد الله بن جدعان وعثمان بن عمرو ومشايخ
 قريش فقال أين فلان و أين فلان إنكاراً منه للحياة بعد الموت.

6 خسروا أعمالهم حيث ضاع سعيهم في الحياة الدنيا وخسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة.

7 (ولكل) التنوين عوض أي: لكل من الفريقين المؤمنين و الكافرين الأبرار والفجار درجات مما
 عملوا، وهي مراتبهم التي لهم في الجنة أو في النار.

8 قرأ الجمهور (ولنوفيههم) بالنون وقرأ حفص (ولنوفيههم) بالياء.

طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} أي بإقبالكم على الشهوات والملاذ ناسين الدار الآخرة فاستمتعتم بكل الطيبات ولم تبقوا للآخرة شيئاً {قَالِيَوْمَ تَجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ} أي الهوان {بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} إذ لاحق لكم في الكبر لضعفكم وعجزكم إنما الكبرياء لله الملك الحق أما أنتم فقد ظلمتم باستكباركم عن الإيمان بربكم ولقائه وعن طاعته {وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} أي وبفسقكم عن طاعة ربكم وطاعة رسوله. إذا فادخلوا جهنم داخرين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- حرمة عقوق الوالدين وأنها من الكبائر.
- 2- بيان حنان الوالدين وحبهما لولدهما و بذل كل ما يقدران عليه من أجل إبعاده وهدايته.
- 3- التحذير من الانغماس في الملاذ و الشهوات و الاستمتاع.
- 4- التحذير من الكبر و الفسق وأن الكبر من أعمال القلوب و الفسق من أعمال الجوارح.
- 5- مدى فهم السلف الصالح لهذه الآية { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}.
(1) قرأ يزيد حتى بلغ { وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} ثم قال تعلمون والله إن أقواما يستترطون حسناتهم استبقى رجل طيباته إن استطاع ولا قوة إلا بالله.
- (2) روي أن عمر بن الخطاب كان يقول لو شئت لكنت أطيبكم طعاما و أليكم لباسا، ولكن استبقى طيباتي.

وذكر أنه لما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال له خالد بن الوليد لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر رضي الله عنه وقال لئن كان حظنا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا.

وَأَذْكُرُ أَحَا عَادِ إِذْ أَنْدَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأُتِنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

(5/58)

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرٌ نَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

شرح الكلمات:

واذكر أبا عاد :أي نبي الله هودا عليه السلام.
إذ أنذر قومه بالأحقاف :أي خوف قومه عذاب الله بوادي الأحقاف.
وقد خلت النذر : أي مضت الرسل.
من بين يديه ومن خلفه : أي من قبله ومن بعده إلى أممهم.
ألا تعبدوا إلا الله :أي أنذروهم بأن لا يعبدوا إلا الله.
إني أخاف عليكم : أي إن عبدتم غير الله.
عذاب يوم عظيم :أي هائل بسبب شرككم بالله وكفركم برسالتي.
أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا :أي لتصرفنا عن عبادتها.
فأتنا بما تعدنا :أي من العذاب على عبادتها.
إن كنتم من الصادقين :أي في أنه يأتينا قطعا كما تقول.
قل إنما العلم عند الله :أي علم مجيء العذاب ليس لي وإنما هو الله وحده.
وأبلغكم ما أرسلت به إليكم :أي وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلني به ربي إليكم.
ولكني أراكم قوما تجهلون :أي حظوظ أنفسكم وما ينبغي لها من الإسعاد والكمال وإلا كيف تستعجلون العذاب مطالبين به.
فلما رأوه عارضا :أي رأوا العذاب سحابا يعرض في الأفق.
مستقبل أوديتهم :أي متجها نحو أوديتهم التي فيها مزارعهم.
قالوا هذا عارض ممطرنا :أي قالوا مشيرين إلى السحاب هذا عارض ممطرنا.
بل هو ما استعجلتم به :أي ليس هو بالعارض الممطر بل العذاب الذي استعجلتموه.
ريح تدمر كل شيء : أي ريح عاتية تهلك كل شيء تمر به.
بأمر ربها :أي بإذن ربها تعالى.

(5/59)

فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم :أي أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق إلا مساكنهم.
كذلك نجزي القوم المجرمين : أي كذلك الجزاء الذي جازينا به عاداً قوم هود وهو الهلاك الشامل
نجزي المجرمين من سائر الأمم.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى {وَأذْكُرْ أَي لِقَوْمِكَ لَعِبْرَةً وَاتَّقِ اللَّهَ} وهو هود عليه السلام والأخوة هنا أخوة نسب لا دين. إذ كره {إذ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} إذ خوفهم عذاب الله إن لم يتوبوا إلى الله ويوحده، والأحقاف وادي القوم

الذي به مزارعهم ومنازلهم وهو ما بين حضرموت ومهرة وعمان جنوب الجزيرة العربية. وقوله ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ 2 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده في أممهم. أي لم يكن هود أول نذير، ولا أمته أول أمة أنذرت العذاب وقوله ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي كل رسول أنذر أمته عاقبة الشرك فأمرهم أن لا يعبدوا إلا الله، وهو بمعنى لا إله إلا الله التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم أمته فهي أمر بعبادة الله وترك الشرك فيها، وقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم هائل عظيم وهو يوم القيامة، فكان رد القوم ما أخبر تعالى به في قوله ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا 3﴾ أي تصرفنا عن عبادة آلهتنا. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما 4 توعدنا به وتهددنا، فأجابهم هود عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه بقوله ﴿قَالَ﴾ أي هود ﴿إِنَّمَا 5 الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي علم مجيء العذاب وتحديد وقته هذا ليس لي وإنما هو لله منزله، فمهمتي أن أنذركم العذاب قبل حلوله بكم وأبلغكم ما أرسلت به إليكم من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والمعاصي، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ 6﴾ أي بما يضركم وما ينفعكم في الدنيا والآخرة وإلا كيف تستعجلون العذاب وتطالبون به إذ المفروض أن تطلبوا الرحمة والسعادة لا العذاب والشقاء قوله تعالى 7 ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي فلما رأى قوم هود العذاب متجها

- 1 الأحقاف: جمع حقف بكسر وسكون: الرمل العظيم المستطيل.
- 2 جائز أن تكون (النذر) جمع نذارة، وكونها الرسل هو الذي عليه المفسرون.
- 3 الاستفهام إنكاري والإفك، بفتح الهمزة الصرف، وبالكسر الكذب أو أسوأه.
- 4 جواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدمه وهو: (فأتنا بما تعدن) ولفظ الصادقين، أبلغ في الوصف مما لو قالوا، إن كنت صادقاً.
- 5 (ال) في (العلم) للاستغراق العرفي أي: علم كل شيء، ومنه علم وقت مجيء العذاب.
- 6 أي: تجهلون صفات الله تعالى وحكمة إرسال الرسل، وتجهلون حتى ما ينفعكم وما يضركم وإلا فكيف تطلبون بالعذاب، كما في التفسير.
- 7 الفاء هنا: للتفريع فما ذكر بعدها متفرع عما تقدمها من قصة هود مع قومه.

(5/60)

نحو أوديتهم التي بها مزارعهم ومنازلهم { قَالُوا هَذَا عَارِضٌ 1 مُمَطَّرْنَا } أي هذا سحاب يعرض في السماء ذاهباً صوب وادينا ليسقينا، وهو معنى قوله ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا﴾ أي ممطر أراضينا المصابة بالجفاف الشديد. قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي ليس بالسحاب الممطر بل هو العذاب الذي طالبتم به لجهلكم وخفة أحلامكم، وبينه بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي تحمل في

ثأياها العذاب الموجع، تدمر كل شيء تمر به فتهلكه {يَأْمُرُ رَبُّهَا} أي بإذنه وقد أتت عليهم عن آخرهم ولم ينج إلا هود والذين آمنوا معه برحمة من الله خاصة، {فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ} أي لا يرى الرائي إذا نظر إليهم إلا مساكنهم خالية ما بها أحد. قال تعالى {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}3 أي كهذا الجزاء بالدمار والهلاك نجزي المجرمين أي المفسدين أنفسهم بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله في الأمم في إرسال الرسل إليهم.
- 2- وبيان مهمة الرسل وهي النذارة والبلاغ.
- 3- بيان سفة وجهل الأمم التي تطالب بالعذاب وتستعجل به.
- 4- بيان أن عاداً أهلكت بالريح الدبور، وأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نصر بريح الصبا كما في الحديث الصحيح.
- 5- بيان سنة الله تعالى في إهلاك المجرمين وهم الذين يصرون على الشرك والمعاصي. وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ

- 1 العارض: السحاب الذي يعترض جو السماء، والاستقبال التوجه نحو الشيء ليكون قبالته.
- 2 قرأ الجمهور ومنهم نافع: (لا ترى) بالتاء المفتوحة، وقرأ حفص وغيره (لا يرى) بالياء والبناء للمجهول، والمراد بالمساكن: آثارها وبعض الجدران الشاخصة منها.
- 3 في الآية دليل على إفساد الإجماع وأنه سبب كل هلاك، وحقيقته: أنه إفساد الروح بالشرك والمعاصي فعلا وتركاً.

(5/61)

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)

شرح الكلمات:

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه : أي ولقد مكننا قوم عاد من القوة التي لم نمكنكم أنتم من مثلها. وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً: وجعلنا لهم أسماعاً وأبصاراً. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء: أي من الإغناء

إذ كانوا يجحدون بآيات الله: أي لعة هي أنهم كانوا يجحدون بآيات الله وهي حججه البينة.
وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون: أي نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.
ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى: أي من أهل القرى كعاد وشمود وقوم لوط وأصحاب مدين.
وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون: أي كررنا الحجج وضررنا الأمثال ونوعنا الأساليب لعلهم يرجعون
إلى الحق فيؤمنون ويوحدون.

فلولا نصر الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة: أي فهلا نصرهم بدفع العذاب عنهم الذين اتخذوهم
من دون الله آلهة يتقربون بهم إلى الله في زعمهم.
بل ضلوا عنهم: أي غابوا عنهم عند نزول العذاب.
وذلك إفكهم وما كانوا يفترون: أي خذلان آلهتهم لهم وعدم نصرتهم لهم بل غيابهم عنهم هو إفكهم
وافتراؤهم الذي كانوا يفترونه.
معنى الآيات:

ما زال السياق في مطلب هداية قريش أنه لما قص تعالى عليهم قصة عاد وتجلت فيها عظات كثيرة
وعبرة كبيرة قال لهم {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ¹} أي قوم عاد مكناهم في الأرض فأعطيناهم من مظاهر

1 الجملة في محل نصب على الحال من واو الجماعة في قوله: (قالوا أجننتا) والكلام مستعمل من
عدم انتفاعه بما مواهب عقولهم.

(5/62)

القوة المادية {فِيمَا إِنَّ 1 مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ²} أنتم يا معشر كفار قريش وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة أي
قلوباً فيما أغنى عنهم سمعهم أي أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء من الإغناء إذ كانوا
يجحدون بآيات الله أي بحججه وبياناته الدالة على وجوب توحيدهم وحاق أي نزل بهم العذاب الذي
كانوا إذا خوفوا به وأندروا استهزأوا وسخروا وقوله تعالى {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ} كعاد
وئمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوله {وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ} أي وكررنا الحجج وضررنا الأمثال ونوعنا
العظات والعبر لعلهم يرجعون إلى الحق الذي انصرفوا عنه وهو التوحيد والاستقامة فأبوا إلا
الإصرار على الشرك والباطل فأهلكناهم. 3 فلولا أي فهلا نصرهم الذين 4 اتخذوهم من دون الله قرباناً
آلهة يتقربون بها إلى الله في زعمهم والجواب ما نصرهم بل ضلوا عنهم أي غابوا فلم يعثروا عليهم
بالكلية. قال تعالى {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ⁵ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي ذلك الذي تم لهم من الخذلان والعذاب هو
إفكهم أي كذبهم وافتراؤهم الذي كانوا يعيشون عليه قبل هلاكهم.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان أن الإعراض عن دين الله والإصرار على الفسق عن أمر الله، والاستمرار على الخروج على طاعته إذا استوجب صاحبه العذاب ونزل به لم يغن عنه ذكاؤه ولا دهاؤه ولا علمه وحضارته ولا علوه وتطاوله.

2- بيان أن الآيات والحجج وضرب الأمثال وسوق العبر والعظات لا تنفع في هداية العبد، إذا لم يرد الله هدايته {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} ويحقيق به العذاب ويهلكه جزاء تكذيبه وكفره وإعراضه وفسقه.

1 {فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} (ما) موصولة و(إن) نافية عدولا عن النفي بما حتى لا تجتمع ميمان، الموصولة والنافية ارتقاء في الأسلوب.

2 التمكين: إعطاء المكنة: بفتح الميم وكسر الكاف وهي: القدرة والقوة، يقال: مكن من كذا وتمكن إذا قدر عليه، وكنه أقره عليه.

3 أصل لولا إذا دخلت على الجملة الفعلية كانت للتحضيض على تحصيل ذلك الفعل فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت للتوبيخ، إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره، والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبية على الخطأ والغلط في عبادة الأصنام التي لم تغن عنهم شيئا كقول الشاعر:

إن الذين ترونهم إخوانكم

يشقي غليل صدورهم أن تصرعوا

4الكلام تضمن التوبيخ للأمم الهالكة على شركهم وعنادهم لرسلمهم تعريضا بقريش المصرية على الخطأ نفسه الذي هلكت به الأمم المجاورة لها لعلمهم يتذكرون فيتوبون.

5 (وذلك إفكهم) هذه فذلقة قوله تعالى: {قُلُوبًا نَّصَّرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا} الخ والإشارة إلى ما تضمنه قوله: اتخذوا من دون الله قربانا آلهة والافتراء نوع من الكذب كابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق.

(5/63)

3- بيان غياب الشركاء من الأنداد التي كانت تعبد عن عابديها فضلا عن نصرتها لهم وذلك الخذلان هو جزاء كذبهم وافتراءهم في الحياة الدنيا.

وَأَذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّ يَاسْمَعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبْنَا لَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29)

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32)

شرح الكلمات:

وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن: أي واذكر إذ أملنا إليك نفراً من الجن جن نصيبين أو نينوي.
فلما حضروه قالوا أنصتوا: أي حضروا سماع القرآن قالوا أي بعضهم لبعض أصغوا لاستماع القرآن.
فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين: أي فرغ من قراءته رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من العذاب.
مصدقاً لما بين يديه: أي من الكتب السابقة كالنوراة والإنجيل والزيور وغيرها.
يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم: أي من العقائد في الشرائع والاسلام.
ويجركم من عذاب أليم: أي ويحفظكم هو عذاب يوم القيامة.
فليس بمعجز في الأرض: أي فليس بمعجز الله هرباً منه فيفوته.
أولئك في ضلال مبين: أي الذين لم يجيبوا داعي الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان.: أي في ضلال عن طريق الإسعاد والكمال ظاهر بين.

(5/64)

معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية قوم النبي صلى الله عليه وسلم إنه بعد أن ذكرهم بعاد وما أصابها من دمار وهلاك نتيجة شركها وكفرها وإصرارها على ذلك فقال تعالى {وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ} إلى آخر الآيات ذكرهم هنا بما هو تقرع لهم وتوبيخ إذا أراهم أن الجن خير منهم لسرعة استجابتهم للدعوة والقيام بتبليغها فقال تعالى {وَأذْ 1 صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّةِ 2} أي اذكر لقومك من كفار مكة وغيرها إذ صرفنا إليك نفراً من الجن وهم عدد ما بين السبعة إلى التسعة من جن نصيبين وكانوا من أشرف الجن وسادتهم صرفناهم إليك أي أملناهم إليك وأنت تقرأ في صلاة الصبح ببطن نخلة بين مكة والطائف صرفناهم إليك يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا 3 أي أصغوا واستمعوا ولا تشوشوا، قاله بعضهم لبعض، فلما قضي أي القرآن فرغ منه، ولوا إلى قومهم أي رجعوا إلى قومهم من الجن بنصيبين ونينوي منذرين إياهم أي مخوفينهم من عذاب الله إذا استمروا على الشرك والمعاصي فماذا قالوا لهم قالوا ما أخبر تعالى به عنهم قالوا يا قومنا 4 إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى 5 وهو القرآن مصدقاً لما بين يديه أي من الكتب الإلهية التي سبق نزولها كصحف إبراهيم والنوراة والزيور والإنجيل، ووصفوا القرآن بما يلي يهدي إلى الحق والصواب في كل شيء اختلف فيه

الناس من العقائد والديانات والأحكام، ويهدي إلى صراط مستقيم أي طريق قاصد غير جور ألا وهو الإسلام دين الأنبياء عامة.

وقالوا مبلغين منذرين ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ 6 وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأْمِنُوا بِهِ﴾ أجيبوه إلى ما يدعو إليه من توحيد الله وطاعته وأمنوا بعموم رسالته بكل ما جاء به من الهدى ودين الحق ويكون جزاؤكم على ذلك أن ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبين الله تعالى بسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها، وأما الذنوب التي بينكم وبين بعضكم بعضاً فإنها لا تغفر إلا من قبل المظلوم نفسه باستسماعه أو رد الحق إليه، وقوله

1 الجملة معطوفة على قوله (واذكر أبا عاد) وإن طلبت المناسبة بين هذه الآيات وما تقدمها في السور فهي قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

2 النفر: العدد دون العشرين.

3 (أنصتوا) أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماماً به لئلا يفوت منه شيء وفي الحديث: " (أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر جابراً في حجة الوداع فقال له: استتصت الناس " قبل أن يبدأ خطبته صلى الله عليه وسلم.

4 جملة: (قالوا يا قومنا) الخ مبنية لقوله تعالى: (منذرين).

5 ظاهر الآية أنهم كانوا يهوداً مؤمنين بموسى ولم يكونوا على دين عيسى عليه السلام.

6 قال ابن عباس رضي الله عنهما: استجاب لهم سبعون رجلاً من قومهم فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء "مكة" فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

(5/65)

ويجركم من 1 عذاب أليم ويحفظكم منفذاً لكم من عذاب أليم أي ذي ألم موجع وهو عذاب النار، ثم قالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي لم يستجب لنداء محمد فيؤمن به ويوحده الله تعالى فليس بمعجز في الأرض أي لله بل الله غالب على أمره ومهما حاول الهرب فإن الله مدركه لا محالة ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يتولون أمره ولا أنصار ينصرونه. قال تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المذكورون في هذا السياق ممن لم يجيبوا داعي الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في عمى وغواية بين أمرهم واضح لا يستتره شيء.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- إثبات عالم الجن وتقديره في هذا السياق ولذا كان إنكار الجن كإنكار الملائكة كقراً.

2- وجوب التأدب عند تلاوة القرآن بالإصغاء التام.

3- وجوب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث بلغوا عني ولو آية.

4- الإعراض عن دين الله يوجب الخذلان والحرمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (35)

1 اختلف في: هل مؤمنو الجن يدخلون الجنة أو لا؟ فذهب أبو حنيفة والحسن البصري قبله إلى أن ثوابهم أن ينجوا من النار فقط ثم يكونون ترابا كسائر الحيوان، وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنهم يدخلون الجنة، وحجة المانعين من دخولهم الجنة هذه الآية { يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } ودليل من قال بدخولهم الجنة قوله تعالى في هذه السورة { لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا }.

(5/66)

شرح الكلمات:

ولم يعي بخلقهن :أي لم يتعب ولم ينصب لخلق السموات والأرض.

بقادر على أن يحيي الموتى بلى :أي إنه قادر على إحياء الموتى وإخراجهم أحياء من قبورهم للحشر.

ويوم يعرض الذين كفروا على النار :أي ليعذبوا فيها.

أليس هذا بالحق :أي يقال لهم تقريبا: أليس هذا أي العذاب بحق؟.

قالوا بلى وربنا :أي إنه لحق وربنا حلفوا بالله تأكيدا لخبرهم.

فاصبر :أي يا رسولنا محمد على أذى قومك.

أولوا العزم :أي أصحاب الحزم والصبر والعزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع.

ولا تستعجل لهم :أي ولا تستعجل نزول العذاب لأجلهم.

كأنهم يوم يرون العذاب : أي في الآخرة.

لم يلبثوا إلا ساعة :أي لم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من النهار وذلك لطول العذاب.

بلاغ :أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغهم لهم.

هل يهلك إلا القوم الفاسقون: أي ما يهلك إلا القوم التاركون لأمر الله المعرضون عنه الخارجون عن طاعته.

معنى الآيات:

ما زال السياق في مطلب هداية قريش الكافرة بالتوحيد المكذبة بالبعث والنبوة فقال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا} أي أعموا {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} إنشاءً وإبداعاً من غير مثال سابق {وَلَمْ يَعِيَ} أي ينصب ويتعب {بِخَلْقِهِنَّ} أي السموات والأرض بقادر على أن يحيي الموتى لحشرهم إليه ومحاسبتهم ومجازاتهم بحسب أعمالهم في الدنيا الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها {بَلَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله تعالى {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ} لما أثبت البعث وقرره ذكر بعض ما يكون فيه فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار أي تعرضهم الزبانية على النار فيقولون لهم

1 الاستفهام إنكاري، وجوابه قوله تعالى: {بَلَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

2 عيي كرضي وويعي كيرضى وهو: العجز في الحيلة والرأي وأما الإعياء بمعنى التعب ففعله: أعياء يعيي إعياء إذا تعب، وجائز أن يكون عيي بمعنى نصب وتعب.

3 أظهر في موضع الإضمار للإشارة إلى علة الحكم وهي: الكفر تحذيراً منه.

(5/67)

تقريباً وتوبيخاً {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟}1 أي أليس هذا التعذيب بحق؟ فيقولون مقسمين على ثبوته بما أخبر تعالى عنهم في قوله: {قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا} فلما اعترفوا قيل لهم {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} أي بسبب كفركم أي جودكم لتوحيد الله ولفائه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتدرع بالصبر وأن يتمثل صبر أولي2 العزم ليكون أقوى منهم صبراً كما هو أعلى منهم درجة فقال له فاصبر يا رسولنا على ما تلاقي من أذى قومك من تكذيب وأذى فأثبت لذلك كما ثبت أولوا العزم من قبلك، والظاهر أنهم المذكورون في قوله تعالى من سورة الأحزاب {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ} ، ومن الجائز أن يكون عدد أولي العزم أكثر مما ذكر وقوله تعالى {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} لما أمره بالصبر نهاه عن استعجال العذاب لقومه فقال فاصبر ولا تستعجل العذاب لهم. {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ}3 تعليل لعدم استعجال العذاب لأنه قريب جداً حتى إنهم يوم ينزل بهم ويرونه كأنهم لم يلبثوا في الدنيا على طول الحياة فيها إلا ساعة من نهار وقوله تعالى {بِإِلَاحٍ} أي هذا القرآن وما حواه من تعليم وبيان للهدى لتبليغ للناس وقوله {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}4 ينفي تعالى هلاك غير الفاسقين عن أوامره الخارجين عن طاعته وطاعة

رسوله صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

2- الكفر هو الموجب للنار والكفر هو تكذيب بوجود الله تعالى وهو الإلحاد أو تكذيب بلفظه تعالى أو بآياته أو رسله، أو شرائعه بعضاً أو كلاً.

3- وجوب الصبر على الطاعات فعلاً، وعن المعاصي تركاً، وعلى البلاء بعدم التضجر والسخط.

4- إطلاق الفسق على الكفر باعتباره خروجاً عن طاعة الله فيما يأمر به من العقائد والعبادات وينهى عنه من الشرك والمعاصي.

1 الاستفهام تقريرى وتنديم على ما كانوا يزعمونه من الباطل، وإقسامهم بقولهم: (ورينا) من باب التحنن والتخضع تلمساً للعفو وعدم المؤاخذه.

2 العزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد، والمحمود منه ما كان في امتثال أوامر الله ورسوله واجتناب نواهيها، ودونه ما كان فيما يجلب خيراً ويدفع شراً.

3 (من نهار) وصف لساعة، وكونها من إشارة إلى قلتها وعدم طولها بخلاف ساعة الليل فإنها ترى طويلة. و(بلاغ) خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ.

4 (فهل يهلك) الاستفهام للنفي ولذا صح الاستثناء منه، و(ال) في (القوم) للجنس ليشمل كل من فسق، والفسق: الخروج عن طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم بالإصرار على الشرك والكفر.

(5/68)

سورة محمد

...

سورة محمد صلى الله عليه وسلم 1

أو القتال

مدنية

وآياتها ثمان وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا

الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

شرح الكلمات:

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: أي كفروا بتوحيد الله ولقائه وبآياته ورسوله وصدوا غيرهم عن الدخول في الإسلام.

أضل أعمالهم: أي أحبط أعمالهم الخيرية كإطعام الطعام وصلة الأرحام فلا يرى لها أثر يوم القيامة.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات: أي آمنوا بالله وآياته ورسوله ولقائه وأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي. وآمنوا بما أنزل على محمد: أي بالقرآن الكريم.

كفر عن سيئاتهم: أي محاه عنهم ذنوبهم وغفرها لهم.

وأصلح بهم: أي شأنهم وحالهم فهم لا يعصون الله تعالى.

ذلك: أي إضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين.

1 تسميتها بسورة محمد أكثر وأشهر في كتب التفسير والحديث معاً.

(5/69)

بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل: أي الشيطان في كل ما يمليه عليهم ويزينه لهم من الكفر والشرك والمعاصي.

وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم: أي التوحيد والعمل الصالح.

كذلك يضرب الله للناس أمثالهم: أي كما بين تعالى حال الكافرين، وحال المؤمنين في هذه الآية يبين للناس أمثالهم ليعتبروا.

معنى الآيات:

قوله تعالى { الَّذِينَ 1 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ 2 } هذه جملة خبرية أخبر تعالى فيها

عن حال من كفر بالله ورسوله وصد عن سبيل الله أي الإسلام غيره من الناس أضل الله عمله 3

فأحبطه فلم يحصل له ثواب في الآخرة، ولازمه أنه هالك في النار، و تكون هذه الجملة كأنها جواب

لسؤال نشأ عن قوله تعالى في خاتمة سورة الأحقاف قبل هذه السورة وهي فهل يهلك إلا القوم

الفاسقون أي ما يهلك إلا القوم الفاسقون فقال قائل من هم القوم الفاسقون؟ فكان الجواب الذين كفروا

وصدوا عن سبيل الله وهو وجه ارتباط بين السورتين حسن. هذا وقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا 4

بالله ورسوله وآياته ولقائه وعملوا الصالحات أي أقاموا الصلاة و أتوا الزكاة و صاموا رمضان وحجوا

بيت الله الحرام ووصلوا الأرحام و أمرو بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولو بالاستعداد للقيام بذلك إذ

بعض هذه الصالحات لم يشرع بعد وآمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة لأنها وحي إلهي يتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي صحيح الحديث "ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه" وقوله تعالى: { وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } أي القرآن لأنه ناسخ للكتب قبله ولا ينسخ بكتاب بعده. فهو الحق الثابت الباقي إلى نهاية الحياة. وقوله: { كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } أي محاسبهم ذنوبهم وأصلح بهم 5 أي شأنهم وحالهم فلم يفسدوا بعد بشرك ولا كفر

- 1 الكفر الإشراك بالله والصد عن سبيل الله، هو صرف الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، والدخول في الإسلام، ويدخل فيه الصد عن المسجد الحرام للاعتمار والحج.
- 2 قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في المطعمين ببدر وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل والحارث بن هشام وذكرهم، وهم الذين أطعموا الناس يوم بدر ليثبتوا على القتال ولا يفرّوا، أبطل أعمالهم لعله شركهم وكفرهم والآية عامة في كل كافر وما بعدها في كل مؤمن.
- 3 أصل الإضلال: الخطأ عن الطريق، ولما كان المطعمون عملوا عملاً ظنوا أنه خير لهم ونافع فلما أبطله الله تعالى عليهم فلم ينتفعوا به كانوا كمن ضل طريقه فشقى وهلك.
- 4 هذه فئة المؤمنين المقابلة لفئة الكافرين ذكر لها ثلاث صفات كما لتلك ثلاث صفات وهي: الإيمان المقابل للكفر، والإيمان بما نزل على محمد المقابلة للصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات المقابلة لما فعله المطعمون من الطعام.
- 5 البال: يطلق على القلب والعقل، وعلى ما يخطر للمرء من التفكير وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه، ومجاز في غيره، ويطلق أيضاً على الحال والشأن، والقدر لحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتّر".

(5/70)

هذا جزأؤهم على إيمانهم وصالح أعمالهم. وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا 1 اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } وهو الشيطان وما يزينه من أعمال الشرك والشر والفساد، {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ } وهو القرآن وما جاء به ودعا إليه من العقائد الصحيحة والعبادات المزكية للنفس المهذبة للأرواح. أي ذلك الجزاء للذين كفروا والذين آمنوا بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. وقوله تعالى {كَذَلِكَ يَضْرِبُ 2 اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } أي مثل هذا التبيين لحال الكافرين وحال المؤمنين في هذه الآيات يبين الله للناس أمثالهم أي أحوالهم بالخسران والنجاح ليعتبروا فيسلوكوا سبيل النجاح، ويتجنبوا سبيل الخسران، فضلاً منه تعالى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان طريقي الفلاح والخسران فطريق الفلاح الإيمان والعمل الصالح وطريق الخسران الشرك والمعاصي.
- 2- بيان أعمال البر مع الكفر والشرك لا تنفع صاحبها يوم القيامة ولا تشفع له وقد يثاب عليها في الدنيا فيبارك له في ماله وولده.
- 3- بيان الحكمة في ضرب الأمثال وهي هداية الناس إلى ما يفلحون به، فينجون من النار ويدخلون الجنة.

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّصَرُّوا اللَّهَ تَتَّصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا

- 1 هذا تبيين للسبب الأصلي في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين والباء: بأن: سببية، واسم الإشارة مبتدأ والخبر: قوله (بأن الذين..) الخ والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين (أضل أعمالهم) و (كفر عنهم سيئاتهم).
- 2 هذه الجملة تذييل لما سبق من بيان حال كل من الكافرين والمؤمنين و (يضرب) بمعنى يلقي مبيئاً، والأمثال: جمع مثل وهو: الحال التي تمثل صاحبها أي: تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره.

(5/71)

فَتَنَعَسَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)
شرح الكلمات:

- فإذا لقيتم الذين كفروا: أي إذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتم الذين كفروا في ساحة المعركة فاضربوا رقابهم ضرباً شديداً تفصلون فيه الرقاب عن الأبدان.
- حتى إذا أثخنتموهم: أي أكثرتم فيه القتل و لم يصبح لهم أمل في الانتصار عليكم.
- فشدوا الوثاق: أي فأسروهم بدل قتلهم وشدوا الوثاق أي ما يوثق به الأسير من إسار قدأ كان أو حبلا حتى لا يتفلقوا ويهربوا.
- فإما منأ بعد وإما فداء 1: أي بعد أسركم لهم وشد وثاقهم فإما أن تمنوا منأ أي تفكوهم من الأسر مجاناً،

وإما تفادونهم بمال أو أسير مسلم, وهذا بعد نهاية المعركة.
حتى تضع الحرب أوزارها: أي واصلوا القتال والأخذ و الأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها وهي
آلاتها وذلك

عند إسلام الكفار أو دخولهم في عهدكم فهذه غاية انتهاء الحرب حتى لا تكون
فتنة ويكون الدين كله لله.

ذلك: أي الأمر ذلك الذي علمتم من استمرار القتال إلى غاية إسلام الكفار أو دخولهم
في عهدكم وذمتكم.

ولو يشاء الله لانتصر منهم: أي بغير قتال منكم كأن يخسف بهم الأرض أو يصيبهم بوباء ونحوه.
ولكن ليبلوا بعضكم ببعض: ولكن أمركم بالقتال وشرعه لكم لحكمة هي أن يبلوا بعضكم ببعض أي
يختبركم

من يقاتل منكم ومن لا يقاتل, والمؤمن يقتل فيدخل الجنة والكافر يقتل فيدخل
النار

والذين قتلوا في سبيل الله 2: أي قتلهم العدو, وقرئ قاتلوا في سبيل الله.

1 (منا) و (فداء): منصوبان على المفعولية المطلقة أي: تمنون مناً وإما تفدون فداء.

2 قرأ نافع (قاتلوا) بالبناء للفاعل, وقرأ حفص: (قوتلوا) بالبناء للمفعول.

(5/72)

فلن يضل أعمالهم: أي لا يحبطها ولا يبطلها.

سيهديهم ويصلح بالهم: أي سيوفقهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ويصلح شأنهم.

ويدخلهم الجنة عرفها لهم: أي ويدخلهم يوم القيامة الجنة بينها لهم فعرفوها بما وصفها لهم في كتابه
وعلى

لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن تتصروا الله: أي في دينه ورسوله وعباده المؤمنين.

ينصركم ويثبت أقدامكم: أي على عدوكم ويثبت أقدامكم في المعارك.

والذين كفروا فتعسا لهم: أي تعسوا تعسا أي هلكا.

وأضل أعمالهم: أي أحبطها وأبطلها فلم يحصلوا بها على طائل.

ذلك: أي الضلال والتعس.

بأنهم كرهوا ما أنزل الله: أي من القرآن المشتمل على أنواع الهدايات و الإصلاحات.

فأحبط أعمالهم :أي أبطلها و أضلها فلا ينتفعون بها لا في الدنيا و لا في الآخرة.
معنى الآيات:

لقد تقدم أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد أضل أعمالهم وذلك لكفرهم وصددهم عن سبيل الله إذا كان الأمر كذلك فليقاتلوا لإنهاء كل من المفسدتين كفرهم وصددهم غيرهم عن الإسلام وهذا ما دل عليه قوله تعالى فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب أي2 فاضربوا رقابهم ضرباً يفصل الرأس عن الجسد وواصلوا قتالهم حتى إذا أئخنتموهم أي أكثرتم فيهم القتل، فشدوا الوثاق أي3 احكموا ربط الأسرى بوضع الوثاق وهو الحبل في أيديهم وأرجلهم حتى لا يتمكنوا من قتلكم ولا الهرب منكم وبعد ذلك أنتم وما يراه إمامكم من المصلحة العليا فإن رأى المن فمنوا عليهم مجاناً بلا مقابل، وإما تقادونهم فداء بمال، أو برجال، وستظل تلك حالكم قتل وأخذ وأسر ثم من عفو مجاني، أو فداء بعوض ومقابل إلى أن تضع الحرب أوزارها أي أقالها من عدد وعتاد حربي، وذلك لوصولكم إلى الغاية من الحرب وهي أن يسلم الكافر، أو يدخل في ذمة المسلمين، وهو معنى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةً

-
- 1 الفاء للتفريع أي: تفريع هذا الكلام على ما قبله، والمقصود تهوين شأن الكافرين في قلوب المسلمين، وإغراء المسلمين بقطع دابر الكافرين و(إذا): ظرفية شرطية، وجوابها: (فضرب الرقاب) واللقاء معناه المواجهة في ساحة الحرب.
 - 2 (فضرب): نصب ضرب على المفعولية المطلقة أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، والجملة كناية عن قتل المشركين في ساحة المعركة سواء كان الضرب بالسيف أو الرمح أو السهام، فصارت هذه الجملة لما تحمله من معاني الأخذ بالشدّة كأنها مثل سائر.
 - 3 (الوثاق) بفتح الواو، ويجوز كسرهما الشيء الذي يوثق به وهو كناية عن الأسر إذ الأسر يستلزم وضع الأسير في يد الأسير ليقاد به.

(5/73)

وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ}. وقوله تعالى { ذَلِكَ } أي الأمر الذي علمتم من استمرار القتل والأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها 1 بالدخول في 2 الإسلام أو في ذمة المسلمين وقوله ولو شاء الله لانتصر منهم أي بدون قتال منكم ولكن بخسف أو وباء أو صواعق من السماء و لكن لم يفعل ذلك من أجل أن يبلاوا بعضكم ببعض أي ليختبركم بهم. فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم فيعاقب من شاء منهم بأيديكم، ويتوب على من يشاء منهم كذلك، إذ انتصارهم عليكم ووقوعهم تحت سلطانكم يساعدهم على التوبة إلى الله و الرجوع إلى الحق فيسلموا فيفلحوا بالنجاة من النار ودخول الجنة،

وقوله تعالى { وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } وفي قراءة 3 والذين قتلوا في سبيل الله وهذه عامة في شهداء أحد وغيرهم وإن نزلت الآية فيهم فإن الله تعالى يخبر عن أنعامه عليهم بقوله فلن يضل أعمالهم سيهدهم في الدنيا ويوفقهم إلى كل خير و يصلح شأنهم، ويدخلهم في الآخرة الجنة عرفها لهم أي بينها لهم في كتابه ولسان رسوله وطيبها لهم أيضاً، 4 وفي الآخرة يهديهم إلى منازلهم في الجنة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم " فالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من منزله الذي كان بالدنيا" (البخاري)، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } أي يا من آمنتم بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً أن تنصروا الله بنصر دينه ونبيه وأوليائه بقتال أعدائه ينصركم الله ويجعل الغلبة لكم، ويثبت أقدامكم في كل معترك لقيتم فيه المشركين والكافرين. وهذا وعد من الله تعالى كم أنجزه لعباده المؤمنين في تاريخ الجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى والذين كفروا فتعسأ 5 لهم أي تعسوا تعسأ 6 وهلكوا هلاكاً وخابوا وخسروا، وأضل أعمالهم فلم يعثروا عليها ولم يروا لها أدنى فائدة ذلك الجزاء وتلك العقوبة بأنهم أي بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله أي من القرآن من آيات التوحيد والشرائع والأحكام فأحبط أي لذلك أعمالهم ففسروا في الحياتين.

1 الأوزار: جمع وزر كحمل وأحمال، والمراد بها الأثقال من العتاد الحربي وهي كناية عن انتهاء الحرب بنصر الإسلام والمسلمين.

2 اختلف في: هل هذه الآية منسوخة أو محكمة والصحيح أنها محكمة وأن الإمام مخير بين القتل والأسر والفداء والمن ولكن لا بد من النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين فنظر الحاكم يكون محققاً للمصلحة العامة.

3 (قاتلوا) قراءة نافع و(قتلوا) قراءة حفص كما تقدم في النهر قريباً.

4 قال ابن عباس (عرفها لهم) أي طيبها لهم بأنواع الملاذ مأخوذ من العرف بفتح العين: الرائحة الطيبة.

5 التعس: الشقاء، ويطلق على الهلاك والخيبة والسقوط والانحطاط.

6 (تعسأ): منصوب على المفعولية المطلقة كما في التفسير ويجوز أن يكون مستعملاً في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفضيع لشأنهم وهو مثل سقياً ورعياً له وتباً له وويحاً له، وإن كان هذا فإنه يتعين تقدير قول محذوف أي: فقال الله: تعسأ لهم. كقول أم مسطح: تعس مسطح دعاء عليه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وجوب الجهاد على أمة الإسلام ومواصلته كما بين تعالى في هذه الآيات إلى أن لا يبقى كافر يحارب بأن يدخلوا في الإسلام أو يعاهدوا ويدخلوا في ذمة المسلمين ويقبلوا على إصلاح أنفسهم وإعدادها للخير والفلاح.

2- إمام المسلمين مخير في الأسرى بين المن والقداء، والقتل أيضا لأدلة من السنة.

3- بشرى المجاهدين في سبيل الله بإكرام الله لهم وإنعامه عليهم في الدنيا والآخرة.

4- يظفر بالنصر الحقيقي من نصر الله تعالى في دينه وأوليائه.

5- إنذار الكافرين بالتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)

شرح الكلمات:

أفلم يسيروا في الأرض: أي أغفل هؤلاء المشركون فلم يسيروا في البلاد.

فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: أي كيف كانت نهاية الذين من قبلهم كعاد وشمود.

دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها: أي دمر عليهم مساكنهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم وللكافرين أمثال تلك العاقبة السيئة.

(5/75)

وأن الكافرين لا مولى لهم: أي لا ناصر لهم.

والذين كفروا يتمتعون ويأكلون: أي بمتع الدنيا من مطاعم ومشارب وملابس ويأكلون.

كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم: أي كأكل الأنعام بنهم وازدرداد والنار مأواهم.

وكأين من قرية: أي وكثير من أهل قرية هي أشد قوة. هي أشد قوة

من قريتك التي أخرجتك: أي مكة إذ أخرج أهلها النبي صلى الله عليه وسلم.

أفمن كان على بينة من ربه: أي على حجة وبرهان من أمر دينه فهو يعبد الله على علم.

كمن زين له سوء عمله: أي كمن زين الشيطان له سوء عمله.

واتبعوا أهواءهم: أي واتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام والجواب ليسوا سواء ولا مماثلة بينهما أبدا.

معنى الآيات:

قوله تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ 1} يوبخ تعالى المشركين المصيرين على الشرك والكفر على إصرارهم على الشرك والعناد فيقول أغفلوا {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} كعاد وثمود وقوم لوط إذ دمر تعالى عليهم بلادهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم فاعتبروا بذلك، وقوله تعالى {وَاللَّكَافِرِينَ} أمثال تلك العاقبة المدمرة، وعيد لكفار مكة بأن ينزل عليهم عقوبة كعقوبة الأولين إن لم يتوبوا من شركهم وإصرارهم عليه، وعنادهم فيه. وقوله {ذَلِكَ 2} أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب أن الله مولى الذين آمنوا أي وليهم ومتولي أمرهم وناصرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله تعالى خادلهم ومن يخذله الله فلا ناصر له. قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ 3} يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} هذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بأن يدخلهم يوم القيامة جنات أي بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وقوله {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ} في الدنيا بملذاتها وشهواتها، {وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ} إذ ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم، ولذا هم لا

1 الفاء للتفريع، تفريع هذه الجملة الكلامية على الجملة السابقة وهي: (والذين كفروا فتعسأ لهم) والاستفهام للتقرير التوبيخي.

2 جائز أن يكون اسم الإشارة منصرفاً إلى مضمون قوله تعالى (وللكافرين أمثالها) فيفيد أن ما أصاب المشركين من الدمار والخزي والعار بسبب أن الله ناصر الذين آمنوا وما في التفسير في غاية الوضوح.

3 كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، إذ هو بمثابة جواب لمن سأل عن حال المؤمنين في الآخرة وحال الكافرين في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر معلوم وهو أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون إذ بين تعالى حال المؤمنين في الآخرة، وحال الكافرين في الدنيا.

(5/76)

يلتفتون إلى الآخرة. {وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ 1} أي مقام ومنزل ومصير، وهذا وعيد شديد للكافرين. وهذا هو الترغيب والترهيب الذي هو سمة بارزة في أسلوب القرآن في الهداية البشرية وقوله تعالى {وَكَايُنْ 2} مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ 3 أَهْلَكْنَا هُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} هذه الآية نزلت ساعة خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من بيته إلى غار ثور مهاجراً فقد التفت إلى مكة وقال أنت أحب البلاد إلى الله وأحب بلاد الله إلي ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك. ومعنى الآية الكريمة وكثير من القرى أهلها أشد قوة من أهل قريتك "مكة" التي أخرجك أهلها حيث حكموا بإعدامه

صلى الله عليه وسلم أهلكتناهم أي أهل تلك القرى فلا ناصر وجد لهم عند إهلاكنا لهم. فكانت هذه الآية تحمل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأي تسلية!! وقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي على علم وبرهان من صحة معتقده وعبادته لله تعالى راجياً ثوابه خائفاً من عقابه وهؤلاء هم المؤمنون، كمن زين له سوء أي قبيح عمله من الشرك والكفر فهو يعبد الأصنام، واتبعوا أهواءهم هم في ذلك فلم يتبعوا وحياً إلهياً ولا عقلاً إنسانياً فهل حالهم كحال من ذكروا قبلهم والجواب لا يتمثلان إذا بينهما من الفوارق كما بين الحياة والموت، والجنة والنار.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير قاعدة: العاقل من اعتبر بغيره.
- 2- تقرير ولاية الله لأهل الإيمان والتقوى.
- 3- بيان الفرق بين الماديين وأهل الإيمان والاستقامة على منهج الإسلام.
- 4- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم تخفيفاً من آلامه التي يعانيتها من إعراض المشركين وصوفهم عن الإسلام.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ

1 المثنوى: مكان الثواء، الذي هو الاستقرار، وشاهده قول الشاعر:

أذنتنا ببينها أسماء

رب ثاوٍ يمل منه الثواء

2(كأين) تدل بوضعها على كثرة العدد مثل كم والمراد بالقرية أهلها بدليل أهلكتناهم إذ لم يقل: أهلكتناها، والمراد بالقرية هنا: مكة أم القرى وأضيفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشريفاً لها زيادة على شرفها إذ هي بلد الله الأمين.

3 أطلق الإخراج على ما عامل به المشركون الرسول صلى الله عليه وسلم من الجفاء والأذى ومحاربة نشر الدعوة فكان ذلك سبب خروجه منها، فأطلق الإخراج على مسيئته، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم خرج باختياره ولم يكرهه المشركون على الخروج بل كانوا يحاولون منعه من الخروج.

(5/77)

يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)

شرح الكلمات:

مثل الجنة التي وعد المتقون: أي صفة الجنة دار السلام التي وعد الله بها عباده المتقين له.

من ماء غير آسن: أي غير متغير الريح والطعم لطول مكثه.

وأنهار من عسل مصفى: أي من الشمع وفضلات النحل.

وسقوا ماء حميماً: أي حاراً شديداً الحرارة.

فقطع أمعاءهم: أي مصارينهم فخرجت من أديبارهم.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي 1 وَوَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تضمنت شرح وافية لأنهار الجنة، وشراب أهل النار، كما اشتملت على مقارنة بين حال أهل الإيمان والتقوى وما وعدوا به من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة، وبين حال أهل النار وهم خالدون فيها وما وعدوا فيها من ألوان العذاب الشديد فقوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي صفتها الممثلة لها الشارحة لحالها التي وعد المتقون أي التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين له وهم أولياؤه الذين عبدوه ووحده فأتاعوه في الأمر والنهي فاقوا بذلك الشرك والمعاصي. فيها أنهار من ماء غير آسن 2 أي غير متغير الطعم ولا الريح بطول المكث وأنهار من لبن لم يتغير طعمه أي بحموضة ولم يصر قارصاً ولذلك لم يتغير ريحه أيضاً وأنهار من خمر لذة للشاربين 3 أي وفيها أنهار من خمر هي لذة لمن يشربها وسبب لذاتها أنها غير كدرة ولا مسكرة ولا ريح غير طيبة لها، وأنهار من عسل مصفى أي وفيها أنهار من عسل مصفى أي من الشمع وفضلات النحل وقوله ولهم فيها من كل الثمرات أي من سائر أنواع

1 هذه الآية مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ فيها بيان لما قد يسأل عنه السائل. (ومثل الجنة) مبتدأ والخبر محذوف يقدر بمثل مما سيوصف لكم أو ما سينتلى عليكم أو مما يتلى عليكم مثل الجنة وجملة: (فيها أنهار) بدل مفصل من مجمل.

2 أسن الماء: كضرب يأسن، وكنصر وفرح أيضاً فهو آسن: إذا تغير لونه.

3 اللذة: وصف وليست اسماً وهي تأنيث اللذ أي اللذيذ قال الشاعر:

ذكرت شباب اللذ غير قريب

ومجلس له طاب بين شروب

اللذاعة انفعال نفساني.

الثمار من فواكه وغيرها. ومع ذلك مغفرة من ربهم لسائر ذنوبهم فهل يستوي من هذه حالهم بحال من هو خالد في النار لا يخرج منها وسقوا ماء حميما حارا شديد الحرارة فلما سقوه وشربوه قطع أمعاءهم 1 أي مصارينهم فخرجت من أديبارهم والعياذ بالله من النار وحال أهل النار اللهم أجرنا من النار اللهم أجرنا من النار.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- التقوى هي السبب المورث للجنة هكذا جعلها الله عز وجل، والتقوى هي بعد الإيمان فعل

المأمورات وترك المنهيات من سائر أنواع الشرك والمعاصي.

2- بيان بعض نعيم الجنة من الشراب والفواكه.

3- بيان بعض عذاب النار وهو الخلود فيها وشرب الحميم.

4- تقرير عقيدة البعث والجزاء، وأن لا مماثلة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعْفِفَ لِذُنُوبِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

شرح الكلمات:

ومنهم من يستمع إليك: أي ومن الكفار المنافقين من يستمع إليك في خطبة الجمعة.

ماذا قال آنفا: أي الساعة أي استهزاء منهم وسخرية يعنون أنه شيء لا يرجع إليه ولا يعتد به لعدم فائدته.

1 الأمعاء: جمع معي بكسر الميم وقد تفتح وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد نزوله من المعدة، ويسمى عفج بوزن كتف.

(5/79)

طبع الله على قلوبهم: أي بالكفر فلذا هم لا يعون.

واتبعوا أهواءهم: أي في الكفر والنفاق.

والذين اهتدوا: أي المؤمنون.

زادهم هدى: أي زادهم الله هدى.

وآتاهم تقواهم: أي ألهمهم ما يتقون به عذاب الله تعالى.

فهل ينظرون إلا الساعة: أي ما ينتظر أهل مكة إلا الساعة.
أن تأتيهم بغتة: أي فجأة.

فقد جاء أشراتها: أي علاماتها كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر والدخان.
فأنى لهم إذ جاءتهم ذكراهم: أي أنى لهم إذا جاءتهم التذكرة الذي ينفعهم إذ قد أغلق باب التوبة.
فاعلم أنه لا إله إلا الله: أي فبناء على ما تقدم لك يا نبينا فاعلم أنه لا يستحق العبودية إلا الله
فاعبده وتوكل عليه.

واستغفر لذنبك: أي قل استغفر الله أو اللهم اغفر لي.
وللمؤمنين والمؤمنات: أي واستغفر للمؤمنين والمؤمنات.
والله يعلم متقلبكم: أي متصرفكم في النهار وأنتم تتصرفون في أمور دنياكم.
ومثواكم: أي مكان ثواكم وإقامتكم ونومك بالليل.
معنى الآيات:

قوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ} إلى هذه الآية (16) والآية التي بعدها مدنيان لا شك لأنهما نزلت
في شأن المنافقين قال تعالى مخبراً رسوله عن بعض المنافقين {وَمِنْهُمْ} أي ومن بعض المنافقين {مَنْ
يَسْتَمِعُ} 1 {إِلَيْكَ} أي إلى حديثك يوم الجمعة وأنت تخطب الناس على المنبر {حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ
عِنْدِكَ} أي من المسجد {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} 2 من أصحابك كعبد الله بن مسعود {مَاذَا قَالَ أَنْفًا} 3،
وقولهم هذا ظاهر عليه الخبث إذا لو كانوا مؤمنين محبين لقالوا

1 روي عن مقاتل أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول ورفاعة بن التابوت والحارث بن عمرو وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم من المنافقين بالمدينة إلا أن مالك بن الدخشم قد أسلم وحسن إسلامه والاستماع السماع ولكن بعناية واهتمام يتظاهرون بذلك نفاقاً لا غير.
2 هم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن مسعود، وأبوا الدرداء وابن عباس وإن كان يومها صغيراً فإنه لا مانع أن يسأل ويجيب لما هو مؤهل له من طلب العلم والكمال فيه.

3 (أنفًا): أي الآن وهو أقرب الأوقات، وسؤالهم هذا سؤال استهزاء، وأنفًا لم يسمع إلا ظرفاً هكذا،
وقيل هو مشتق من الأنف لأنه أول ما يظهر من البعير فأطلق على أقرب الوقت، ومنه أمر أنف،
ورقة أنف لم ترع بعد قال الشاعر:

ويحرم سر جارتهم عليهم
ويأكل جارهم أنف القصاع

ماذا قال رسول الله أنفاً، ولكن قالوا ماذا قال أنفاً، وهم يعنون أن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشيء مفيد يرجع إليه. قال تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي البعداء في الشر والنفاق الذين طبع الله على قلوبهم أي بالكفر والنفاق وذلك لكثرة تلوثهم بأوضار الكفر والنفاق حتى ران على قلوبهم ذلك فكان ختما وطابعا على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم فهما علتان الأولى الطبع المانع من طلب الهداية والثانية اتباع الهوى وهو يعمي ويصم، فلذا هم لا يهتدون، وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى الإيمان الصحيح والعمل الصالح زادهم الله هدى حسب سنته في نماء الأشياء وزكاتها وزيادتها، وآتاهم تقواهم¹ أي ألهمهم ما يتقون وأعانهم على ذلك فهم يتقون مسأخط الله تعالى ومن أعظمها الشرك والمعاصي. وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (18) فهل ينظرون أي كفار قريش² من زعماء الكفر في مكة إلا الساعة أي ما ينظرون إلا الساعة أي القيامة أن تأتيهم بغتة أي فجأة إن كانوا ما ينظرون بإيمانهم إلا الساعة فالساعة قد جاء أشراتها وأول أشراتها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وثانيها الدخان، وثالثها انشقاق القمر. وقوله تعالى ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾³ أي أنى لهم التذكر الذي ينفعم إذا جاءت الساعة بل شروطها أي بظهور علاماتها الكبرى⁴ لا تقبل التوبة من أحد لم يكن مؤمناً لقوله تعالى من سورة الأنعام ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾. على كل حال فالآية تستبطن إيمان كفار مكة وتتكبر عليهم تأخر إيمانهم الذي لا داعي له مع ظهور أدلة العقل والنقل ووضوح الحجج والبراهين الدالة على توحيد الله ووجوب عبادته وحده دون سواه ولذا قال تعالى فاعلم⁵ أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين⁶ والمؤمنات أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي له العبادة وتصلح له إلا الله الذي هو خالق كل شيء ومالكة واستغفر أي اطلب من ربك المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات، وهذا الكلام وإن وجه للرسول صلى الله عليه وسلم فالمراد منه على الحقيقة أو بالأصالة غيره صلى الله عليه وسلم فكأنما قالب تعالى يا عباد الله أيها الناس والرسول على

- 1 مما ذكر في هذه الزيادة أنه آتاهم تقواهم في الآخرة وأنه بين لهم ما يتقون وأنه وفقهم للأخذ بالعزائم وترك الرخص وما في التفسير أشمل وأوضح.
- 2 يبدو أنه ما هناك حاجة إلى تخصيص كفار قريش بهذا الخطب وإن كانوا داخلين فيه لأن السورة مدنية.
- 3 أي: من أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة.
- 4 في صحيح مسلم عن حذيفة والبراء قالوا: كنا نتذاكر الساعة إذا أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "بما تتذاكرون؟ قلنا نتذاكر الساعة. قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، :الدخان ودابة الأرض وخسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال وطلوع

الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى وناراً تخرج من عدن".
5 هذه الآية من أدلة وجوب العلم قبل القول والعمل، وهو ما بوب به البخاري رحمه الله تعالى.
6 لا ذنب للرسول صلى الله عليه وسلم لعصمته، وإنما هو من باب قوله صلى الله عليه وسلم "إنه ليغان على قلبي وإني استغفر الله في اليوم مائة مرة".

(5/81)

رأسكم اعلّموا أنه لا إله إلا الله واستغفروا لذنوبكم مؤمنين ومؤمنات والله يعلم متقلبكم أي تصرفكم في النهار في مصالح معاشكم ومعادكم ويعلم مثواكم¹ في فرشكم نائمين فهو يعلمكم على ما أنتم عليه في كل ساعة من ليل أو نهار فاخشوه واتقوه حتى تفوزوا برضاه في جنات النعيم.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- من الجائز أن تكون السورة مكية وبها آية أو أكثر مدنية.
- 2- التحذير من اتباع الهوى فإنه يعمي ويصم والعياذ بالله.
- 3- بيان أن لقيام الساعة أشراطاً أي² علامات تظهر قبلها فتدل على قربها.
- 4- وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، وذلك يتم على الطريقة التالية:
الاعتراف بأن الإنسان مخلوق كسائر المخلوقات حوله، وكل مخلوق لا بد له من خالق فمن خالق الإنسان والكون إذاً؟ والجواب قطعاً: الله. فما دام الله هو الخالق فمن عداه مخلوق مفتقر إلى الله خالقه في حفظ حياته، ومن يؤله ويعبد إذاً الخالق أم المخلوق؟ والجواب: الخالق. إذا تعين أنه لا معبود إلا الله وهو بمعنى لا إله إلا الله ولما كانت العبادة لا تعرف إلا بالوحي وجب الإيمان برسول الله فكان لا بد من زيادة محمد رسول الله فنقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (23)

1 المثوى: المال والمرجع.

2 روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بعثة أنا والساعة كهاتين وضم السبابة والوسطى".

شرح الكلمات:

لولا نزلت سورة : أي هلا نزلت سورة يقول هذا المؤمنون طلباً للجهاد.
سورة محكمة : أي لم ينسخ منها شيء من أوامرها ونواهيها.
وذكر فيها القتال : أي طلب القتال بالدعوة إليه والترغيب فيه.
في قلوبهم مرض : أي شك وهم المنافقون.
نظر المغشي عليه من الموت : أي خوفاً من القتال وكراهية لهم فتراهم ينظرون إلى الرسول مثل
نظر المغشي عليه من سكرات الموت.
فأولى لهم طاعة وقول معروف : أي فأجدر بهم طاعة لرسول الله وقول معروف حسن له.
فإذا عزم الأمر : أي فرض القتال وجد أمر الخروج إليه.
فلوا صدقوا الله : أي وفوا له ما تعهدوا به من أنهم يقاتلون.
لكان خيراً لهم : أي الوفاء بما تعهدوا به خيراً في دنياهم وآخرتهم.
فهل عسيتم أن توليتم : أي عرضتم عن الإيمان الصوري الذي أنتم عليه وأعلنتم عن كفركم.
أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم : أي تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي ولا تصلوا
أرحامكم.
فأصمهم وأعمى أبصارهم : أي فعل تعالى ذلك بهم فلذا هم لا يسمعون الحق ولا يبصرون الخير
والمعروف.
معنى الآيات:

قوله تعالى ويقول الذين آمنوا إلى آخر السورة ظاهرة أنه مدني وليس بمكي وهو كذلك فأغلب آي
السورة مدني إذاً، ولا حرج: لأن القتال لم يفرض إلا بعد الهجرة النبوية والنفاق لم يظهر إلا بعد
الهجرة كذلك السياق الآن في علاج النفاق وأمور الجهاد قال تعالى ويقول الذين آمنوا من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم متمنين الجهاد لولا نزلت 1 سورة أي هلا أنزل الله سورة قرآنية تأمر
بالجهاد قال تعالى فإذا أنزلت سورة محكمة ليس فيها نسخ وذكر فيها القتال أي الأمر به والترغيب
فيه. رأيت يا محمد الذين في قلوبهم مرض أي مرض الشك والنفاق ينظرون إليك يا رسولنا 2 نظر
أي مثل نظر المغشي أي المغمي عليه من الموت أي من سياقات الموت وسكراته. قال تعالى

1 شوقاً إلى الجهاد وما أعد الله من ثواب لأهله، كما هو اشتياق للوحي ونزوله.

2 نظر مغمومين مغتاضين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره عند الموت.

{فَأُولَى لَهُمْ} هذا اللفظ صالح لأن يكون دعاء عليهم بالهلاك 1 أي هلاك لهم لجبنهم ونفاقهم وصالح أن يكون بمعنى الأجدار بمثلهم طاعة لله ورسوله وقول معروف أي حسن لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى فإذا عزم أي جد الأمر للجهاد فلو صدقوا الله ما عاهدوا عليه من أنهم يقاتلون مع رسوله لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة. ثم قال لهم مخاطباً إياهم توبيخاً وتقريعاً فهل عسيتم بكسر السين 2 وفتحها قراءتان إن توليتم أي عن الإيمان الصوري إلى الكفر الظاهر فأعلنتم عن ردتكم أن تفسدوا في الأرض بفعل الشرك وارتكاب المعاصي وتقطعوا أرحامكم بإعلان الحرب على أقربائكم المؤمنين الصادقين. هذا إذا كان التولي بمعنى الرجوع إلى الكفر العلني وإن كان بمعنى الحكم فالأمر كذلك إذا حكموا ليفعلون ما هو أعظم من الشرك والفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وأخيراً سجلت الآية (22) لعنة الله فقال تعالى أولئك أي البعداء في الخسة والحطة الذين لعنهم الله فأبعدهم من رحمته فأصمهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية الهدى والطريق المستقيم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- جواز تمني الخير والأولى أن يسأل الله تعالى ولا يتمنى بلفظ ليت كذا.
 - 2- في القرآن محكم ومنسوخ من الآيات وكله كلام الله يتلى ويتقرب به إلى الله تعالى ويعمل بالمحكم دون المنسوخ وهو قليل جداً.
 - 3- ذم الجبن والخور والهزيمة الروحية.
 - 4- شر الخلق من إذا تولى أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي.
- أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ

1 أولى: قال الأصمعي معناه قاربه ما يهلكه.

2 قرأ نافع وحده بكسر السين وفتحها ما عداه حفص وغيره.

(26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ
وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

شرح الكلمات:

أفلا يتدبرون القرآن: أي يتفكرون فيه فيعرفون الحق من الباطل.
أم على قلوب أفعالها: أي بل على قلوب لهم أفعالها فهم لا يفهمون إن تدبروا.
إن الذين ارتدوا على أدبارهم: أي رجعوا كافرين بنفاقهم.
من بعد ما تبين لهم الهدى: أو من بعد ما تبين له صدق الرسول وصحة دينه بالحجج والبراهين.
الشیطان سول لهم وأملي لهم: أي زين لهم الشيطان نفاقهم وأملى لهم أي واعداهم بطول العمر
ومناهم.

ذلك بأنهم قالوا الذين كرهوا ما أنزل الله: أي ذلك الإضلال بسبب قولهم للذين كرهوا ما أنزل الله وهم
المشركون.

سنطيعكم في بعض الأمر: أي بأن نتعاون معكم على عداوة الرسول وبتثيبت المؤمنين عن الجهاد
وكان ذلك سرا منهم لا جهره فأظهره الله لرسوله.

يضربون وجوههم وأدبارهم: أي بمقامع من حديد يضربون وجوههم وظهورهم.
ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله: أي التوفي على الحالة المذكورة من الضرب على الوجوه والظهور
بسبب إتباعهم ما أسقط الله من الشرك والمعاصي.

وكرهوا رضوانه: أي ما يرضيه تعالى من التوحيد والعمل الصالح.
فأحبط أعمالهم: أي أبطلها فلم يحصلوا منها على ثواب حسن.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تأديب المنافقين بعيبيهم والإنكار عليهم وتهديدهم لعلمهم يرجعون إذ حالهم كحال
المشركين في مكة فقال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ 1 الْقُرْآنَ} أي مالهم؟ أغفلوا فلم يتدبروا

1 الاستفهام للتعجب من سوء عملهم بالقرآن وإعراضهم عن سماعه و(بل) للإضراب الانتقالي أي:
بل على قلوبهم أفعال، والتدبر: التفهم مشتق من دبر الشيء أي: خلقه.

(5/85)

القرآن أي يتفكروا فيه فيعرفوا الحق من الباطل والهدى من 1 الضلال لأن القرآن نزل لبيان ذلك. أم
على قلوب أفعالها أي بل على قلوب 2 لهم أفعالها أي اقبل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله
في كتابه من المواعظ والعبير والحجج والأدلة والبراهين حتى يكون الله هو الذي يفتح تلك الأفعال،

والله تعالى يقفل ويفتح حسب سنن له في ذلك وقد ذكرنا هذا المعنى مرات في بيان الهداية والإضلال، وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ 3 ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ} أي رجعوا إلى الكفر بقلوبهم دون ألسنتهم وهم المنافقون من بعد ما تبين لهم الهدى أي صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة دينه الإسلام هؤلاء المرتدون الشيطان سول لهم أي زين له ذلك الارتداد وأملى لهم أي واعداهم ممناً لهم بطول العمر والبقاء الطويل في الحياة والعيش الطيب الواسع فيها وقوله تعالى ذلك أي الإضلال الذي حصل لهم بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله من القرآن والشرائع وإبطال الشرك والشر والفساد وهم المشركون قالوا لهم سرا وخفية سنطيعكم في بعض الأمر، وذلك كعدم قتالكم وتثبيط الناس عن القتال إلى غير ذلك مما أسروه لإخوانهم المشركين. وقوله تعالى والله يعلم إسرارهم⁴ يخبر تعالى أنهم لما كانوا يسرون كلمات الكفر للمشركين كان تعالى مطلعاً عليهم فهو يعلم إسرارهم وأسرارهم وها هو ذا قد أطلع عليهم رسوله والمؤمنين. وقوله تعالى فكيف أي حالهم إذا توفتهم الملائكة ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب وهم يضربون بمقامع من حديد وجوههم وأدبارهم أي ظهورهم. وقوله تعالى ذلك أي العذاب النازل بهم بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من الكفر به وبرسوله. وكرهوا رضوانه أي ما يرضيه عنهم وهو الجهاد في سبيله فأحبط الله أعمالهم أي أبطلها فلم يثبهم عليها لأنهم مشركون كافرون وعمل المشرك والكافر باطل وهو خاسر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وجوب تدبر القرآن الكريم عند تلاوته أو سماعه وهو تفهم معانيه في حدود قدرة المسلم على الفهم.

1 ويعرفوا كذلك ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام من عزة ونصر في الدنيا، ومن نعيم مقيم في الآخرة.

2 لم يقل على قلوبهم فنكر القلوب وقال: (على قلوب) لتدخل قلوب غيرهم فلا يكون خاصاً بهم، والقفل: حديده يغلق بها الباب.

3 اختلف في هؤلاء المرتدين فقال قتادة هم كفار أهل الكتاب وقال ابن عباس وغيره: هم المنافقون، وكونهم المنافقين أعم إذ من اليهود منافقون.

4 قرأ نافع والجمهور (أسرارهم) بفتح الهمزة، وقرأ حفص (إسرارهم) بكسر الهمزة وبالفتح جمع سر. أسر إسراراً وبالفتح جمع سر.

2- الارتداد عن الإسلام كالرجوع عن الطاعة إلى المعصية سببها تزيين الشيطان للعبد ذلك وإملاؤه له بالتمني والوعد الكاذب.

3- من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأي شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين.

4- تقرير عقيدة عذاب القبر وأنه حق ثابت أعادنا الله منه أمين.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

شرح الكلمات:

في قلوبهم مرض: أي مرض النفاق.

أن لن يخرج الله أضغانهم: أي أن لن يظهر أحقادهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

ولو نشاء لأريناكمهم: أي لعرفناك بهم فلعرفتهم.

سيماهم: أي بعلاماتهم.

ولتعرفنهم في لحن القول: أي إذا تكلموا عند في لحن القول أي معناه وذلك بأن يعرضوا فيه بتهجين

أمر المسلمين أي تقبيح أمرهم.

والله يعلم أعمالكم: أي أيها المؤمنون إن الله يعلم أعمالكم وسيجزيك بها خيراً.

ولنبلونكم: ولنختبرنكم بالجهاد وغيره من التكليف.

حتى نعلم: أي نعلم علم ظهور لكم ولغيركم إذ الله يعلم ذلك قبل ظهوره لما حواه كتاب المقادير.

(5/87)

المجاهدين منكم والصابرين: أي الذين جاهدوا وصبروا من غيرهم.

ونبلوا أخباركم: أي ونظهر أخباركم للناس من طاعة وعصيان في الجهاد وفي غيره.

إن الذين كفروا: أي بالله ولقائه ورسوله وما جاء به من الدين الحق.

وصدوا عن سبيل الله: أي عن الإسلام.

وشاقوا الرسول: أي خالفوه وعادوه وحاربوه.

من بعد ما تبين لهم الهدى: أي عرفوا أن الرسول حق والإسلام حق كاليهود وغيرهم.

لن يضرروا الله شيئاً: أي من الضرر لأنه متعال أن يناله خلقه بضرر.

وسيحبط أعمالهم: أي يبطلها فلا تثمر لهم ما يرجونه منها في الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين بكشف عوارهم وإزاحة الستار عما في قلوبهم من الشك والنفاق فقال تعالى {أم}1 أي أحسب الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والمرض هو مرض النفاق الناجم عن الشك في الإسلام وشرائعه أن لن يخرج الله أضغانهم2 أي أحقادهم فيظهرها لرسوله والمؤمنين فحسبانهم هذا باطل وقوله تعالى لرسوله {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} أي بعلامات النفاق فيهم وقوله {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}3 أي وعزتي وجلالي لتعرفنهم في لحن القول أي في معاني كلامهم إذا تكلموا عندك وبين يديك فإن كلامهم ل يخلو من التعريض بالمؤمنين بانتقاصهم والقدح في أعمالهم، كما قيل (من أضمر سريرة ألبسه الله رداءها) وقوله تعالى في خطابه المؤمنين {وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} ولزم أنه سيجزيكم بها فاصبروا على الإيمان والتقوى. {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}4 أي ولنختبرنكم بالجهاد والإنفاق والتكاليف {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} أي حتى نظهر ذلك لكم فتعرفوا المجاهد من القاعد والصابر من الضاجر منكم وبينكم، {وَنَبْلُوَنَّكُمْ} أي ما تجربون به عن أنفسكم وتتحدثون به فنظهر الصدق من خلاقه فيه، ولذا كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى إذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهنتك أستارنا، وقوله جل ذكره {إِنَّ

1 (أم) هي المنقطعة المقدره بيل وهمزة الاستفهام: قبل: للإضراب الانتقالي، والاستفهام إنكاري.

2 الأضغان: جمع ضغن كحمل وأحمال، وهو الحقد والعداوة ومحلها القلب: قال الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مخدم

والطاعنين مجامع الأضغان

3 (لحن القول) هو ما يفهم من الكلام بالتعريض والإشارة ل بصريح القول.

4 بلا بيلوا بلوا المرء اختبره، فالبلو: الاختبار والتعرف على حال الشيء، ويكون في الشرع بالأمر

والنهي.

(5/88)

الَّذِينَ كَفَرُوا}1 أي كذبوا الله ورسوله {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي الإسلام فصرفوا الناس عنه بأي سبب من الأسباب، {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ} أي خالفوه وعادوه وحاربوه {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} أي ظهر لهم الحق وأن الرسول حق والإسلام حق بالحجج والبراهين هؤلاء الكفرة لن يضرروا الله شيئاً من الضرر لتنزّهه عن صفات المحدثين من خلقه ولا امتناعه تعالى وعزته، {وَسَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ} أي يبطلها عليهم فلا ينالون بها ما يؤملون في الدنيا بذهاب كيدهم وخيبة أملهم إذ ينصر الله رسوله

ويعلي كلمته، وفي الآخرة لأن الأعمال المشرك والكافر باطلة حابطة لا ثواب عليها سوى ثواب
الجزاء المهين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان حقيقة وهي من أسر سريرة ألبسه الله رداءها فكشفه للناس.
- 2- ومن أحب شيئاً ظهر على وجهه وقلبات لسانه.
- 3- تقرير قاعدة وهي أنه لبد من الابتلاء لمن دخل في الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته لا إيماناً
صورياً أدنى فتنه تصيب صاحبه يريد بها عن الإسلام.
- 4- أعمال المشرك والكافر باطلة لا ثواب خير عليها لأن الشرك محبط للأعمال الصالحة.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ
مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا
يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا وَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ

1 يدخل في هذا اللفظ كفار قريش وكفار اليهود والمنافقون.

(5/89)

لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

شرح الكلمات:

ولا تبطلوا أعمالكم: أي بالرياء والشرك والمعاصي.

وصدوا عن سبيل الله: أي عن الإسلام.

فلن يغفر الله لهم: أي لأنهم ماتوا على الكفر والكفر محبط للعمل.

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم: أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى الصلح مع الكفار.

وأنتم الأعلىون: أي الغالبون القاهرون.

ولن يترككم أعمالكم: أي ولن ينقصكم أجر أعمالكم وثوابها.

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو: أي الاشتغال بالدنيا والتفرغ لها ما هو إلا لهو ولعب لعدم الفائدة منه.

ولا يسألكم أموالكم: أي ولا يكلفكم بإنفاق أموالكم كلها بل الزكاة فقط.

فيحفكم تبخلوا: أي بالمبالغة في طلبكم المال تبخلوا.

ويخرج أضغانكم: أي أحقادكم وبغضكم لدين الإسلام.

فإنما يبخل عن نفسه: أي عائد ذلك على نفسه لا على غيره فهو الذي يحرم الثواب.

وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم: أي عن طاعة الله وطاعة رسوله يأت بأخرين غيركم.

ثم لا يكونوا أمثالكم: أي في الطاعة أي يكونوا أطوع منكم لله ورسوله.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الكفار ومشاققتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم نادى المؤمنين¹ وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله فقال يا أيها الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أي فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه من المعتقدات والأقوال والأعمال ولا تبطلوا² أعمالكم أي وينهاهم أن

1 بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) وجملة النداء معترضة بين جملة (إن الذين كفروا وصدوا) الخ وبين (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار).

2 إبطال العمل: أي جعله باطلاً أي: لا فائدة منه لا ثواب، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة، وكان الحسن البصري يقول: لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي، وما يبطل العمل على الحقيقة هو أمور ثلاثة: الشرك والرياء، وأداء العمل على غير الوجه المشروع عليه.

(5/90)

يبطلوا أعمالهم بالشرك والرياء والمعاصي والمراد من إبطال الأعمال أي حرمانهم من ثوابها، ثم أعلمهم مذكراً واعظاً لهم فقال إن الذين كفروا أي بالله ورسوله وصدوا عن سبيل الله أي عن الإسلام بأي سبب من الأسباب ثم ماتوا وهم كفار قبل أن يتوبوا. فهؤلاء لن يغفر الله لهم ويعذبهم العذاب المعد لأمثالهم وقوله تعالى فلا تهنوا وتدعوا¹ إلى السلم وأنتم² الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ينهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يضعفوا عن قتال أعدائهم من الكافرين ويدعوا الكافرين إلى الصلح والمهادنة وهم أقوياء قادرون وهو معنى قوله وأنتم الأعلون أي الغالبون القاهرون. ولن يتركم أعمالكم أي لا ينقصكم أجر أعمالكم بل يجزيكم بها ويزدكم من فضله وقوله {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} هذه حقيقة وهي أن الحياة الدنيا إن أقبل عليها العبد ناسياً الدار الآخرة مقبلاً على الدنيا لن تكون في حقه إلا لهواً ولعباً باعتبار أنه لم يظفر منها على طائل ولم تعد عليه بعائد خير وإسعاد كاللاعب اللاهي بشيء يلعب ويلهو فترة ثم لا يعود عليه ذلك اللعب بشيء كلعب الصبيان ولهوهم فإنهم يلهون ويلعبون بجد ثم يعودون إلى والديهم يطلبون الطعام والشراب. وقوله وإن تؤمنوا أي الإيمان الصحيح وتتقوا ما يغضب ربكم ويسخطه عليكم من الشرك والمعاصي يؤتكم أجوركم

المرتبة على الإيمان والتقوى. وقوله ولا يسألكم أموالكم أي ولا يطلب منكم أموالكم كلها أي كراهة إحناتكم بذلك إن يسألكمها فيحنكم4 أي بكثرة الإلحاح عليكم تبخلوا إذ هذا معروف من طباع البشر أن الإنسان إذا ألع وألع عليه في الطلب يبخل بالمال ولم يعطه وقد يترك الإسلام لذلك، وقوله ويخرج أضغانكم أي أحنادكم وبغضكم للدين وكراهيتكم له ولذا لم يسألكم أموالكم وقوله تعالى: 5 {ها أنتم هؤلاء تدعون 6 لئن نفقوا في سبيل الله} أي جزءاً من أموالكم في الزكاة أو الجهاد لا كل أموالكم لما يعلم تعالى من شح النفس بالمال وقوله {فمنكم من يبخل} أي يمنع ومن يبخل فإنما يبخل عن 7 نفسه إذ هي التي حرمها أجر النفقة في سبيل الله ذات الأجر العظيم وقوله {والله الغني وأنتم

1 الفاء للتفريع.

2 و (الألون) معناه الغالبون المنتصرون.

3 أي: لا ينقصكم، ومنه الموتور: الذي قتل له قتل، وفي الحديث الصحيح: "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله".

4 يقال: أحنى في المسألة وألع بمعنى واحد.

5 (ها): حرف تنبيه، وفي إعراب الجملة وجهان الأول: وهو أن يكون (أنتم) مبتدأ و (هؤلاء) منادى معترض، و (تدعون) الخبر، والثاني: أن يكون (أنتم) مبتدأ و (هؤلاء) خبره، وجملة: (تدعون) مستأنفة مؤكدة ومقررة لما سبق.

6 أي: في الحال وجائز أن يدعو في المستقبل، إذ الجهاد مستمر والحاجة إلى الإنفاق لا تنقطع، سبيل الله: والمراد بها الجهاد وهي كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى.

7 يجوز في (يبخل) أن يعدى بعن ويعلى يقال: بخل عليه بكذا أو بخل عنه بكذا أو يضمن معنى أمسك، وحينئذ فتعديته بعلى نحو: أمسك عليك لسانك.

(5/91)

الْفُقَرَاءُ} إلى الله تعالى فهو غني عنكم لا يحضكم على النفقة لحاجته إليها ولكن لحاجتكم أنتم إليها إذ بها تزكوا نفوسكم وتقوم أموركم وتتنصروا على عدوكم وقوله وإن تنولوا أي ترجعوا عن الإسلام إلى الكفر والعياذ بالله يستبدل الله بكم قوما غيركم أي يذهبكم ويأت بأخرين ثم لا يكونوا أمثالكم بل يكونون أطوع إلى الله تعالى منكم وأسرع امتثالاً لما يطلب منهم. وحاشاهم أن يتولوا وما تولوا ولا استبدل الله تعالى بهم غيرهم. وإنما هذا من باب حثهم على معالي الأمور والأخذ بعزائمها نظراً لمكانتهم من هذه الأمة فهم أشرفها وأكملها وأطوعها لله وأحبها له ولرسوله صلى الله عليه وسلم. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب طاعة الله وطاعة رسوله.
- 2- وجوب إتمام العمل الصالح من صلاة وغيرها بالشروع فيه.
- 3- بطلان العمل الصالح بالرياء أو إفساده عند أدائه أو بالردة عن الإسلام.
- 4- حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.
- 5- التفتير من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.
- 6- حرمة البخل مع الجدة والسعة.

(5/92)

سورة الفتح

...

سورة الفتح 1

مدنية

وآياتها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2)

1 نزلت ليلا بعد صلح الحديبية بين مكة والمدينة قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد
أنزلت علي اللسلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس". البخاري

(5/92)

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا

حَكِيمًا (7)

شرح الكلمات:

إنا فتحنا لك فتحا مبينا :أي قضينا لك بفتح مكة وغيرها عنوة بجاهدك فتحا ظاهرا بيناً .
ليغفر لك الله :أي بسبب شركك له وجهادك في سبيله .
ما تقدم من ذنبك وما تأخر : أي ما تقدم الفتح وما تأخر عنه .
ويتم نعمته عليك :أي ينصرك على أعدائك وإظهار دينك ورفع ذكرك .
ويهديك صراطا مستقيما :ويرشدك طريقا من الدين لا اعوجاج فيه يفضي بك إلى رضوان ربك .
وينصرك الله نصراً عزيزاً :أي وينصرك الله على أعدائك ومن ناوأك نصر عزيزا لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع .
أنزل السكينة في قلوب المؤمنين :أي الطمأنينة بعد ما أصابهم من الاضطراب والقلق من جراء الصلح .
وكان الله عليما حكيما :أي عليما بخلقه حكيما في تدبيره لأولياته .
ليدخل المؤمنين والمؤمنات :أي قضى بالفتح ليشكروه ويجاهدوا في سبيله ليدخلهم جنات .

(5/93)

وكان ذلك عند الله فوزا عظيما :أي وكان ذلك الإدخال والتكفير للسيئات فوزا عظيما .
ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات أي يعذبهم بالهم والحزن لما يرون من نصره الإسلام وعزة أهله .
الظانين بالله ظن السوء :أي أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه .
عليهم دائرة السوء :أي بالذل والعذاب والهوان .
وكان الله عزيزا حكيما :أي كان وما زال تعالى غالبا لا يغلب حكيما في الانتقام من أعدائه .
معنى الآيات:

قوله تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} الآيات هذه فاتحة سورة الفتح التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد أنزلت علي سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}" وذلك بعد صلح الحديبية سنة ست من الهجرة وفي منصرفه منه وهو في طريقه عائد مع أصحابه إلى المدينة النبوية. وقد خالط أصحابه حزن وكآبة حيث صدوا عن المسجد الحرام فعادوا ولم يؤدوا مناسك العمرة التي خرجوا لها، وتمت أحداث جسام تحمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر عليه من أولي العزم غيره فجزاه الله وأصحابه وكافاهم على صبرهم وجهادهم بما تضمنته هذه الآيات إلى قوله {وَوَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا} فقوله تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} يا رسولنا

{فَتَحْنَا مُبِينًا} أي قضينا لك بفتح مكة وخيبر وغيرهما ثمرة من ثمرات جهادك وصبرك وهو أمر واقع لا محالة وهذا الصلح بادية الفتح فاحمد ربك واشكره ليغفر لك بذلك وبجهادك وصبرك ما تقدم من 2 ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك بنصرك على أعدائك وعلى كل من ناوأك، ويهديك صراطاً مستقيماً أي ويرشدك إلى طرق لا اعوجاج فيه يفضي بك وبكل من يسلكه إلى الفوز في الدنيا والآخرة وهو الإسلام دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه. وينصرك الله نصراً عزيزاً أي وينصرك ربك على أعدائك وخصوم دعوتك نصراً عزيزاً إي ذا عز لا ذل معه هذه أربع عطايا

1 الماضي هنا بمعنى المستقبل إذ فتح مكة المومى إليه كان سنة ثمانٍ وأطلق الماضي مع إرادة المضارع لتحقق الوقوع وتأكده نحو: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) واللام في (لك): لام الأجل أي: فتحننا لأجلك.

2 اضطرب المفسرون في تعليق لام (ليغفر لك) فالسيوطي علقه بكلمة (بجهادك) زادها بعد جملة ليغفر لك أي بجهادك يوم فتحك مكة، وفي التفسير قدرنا جملتي: فاحمده على الفتح واشكره عليه ليغفر لك. وأما الذنب مع إجماعهم أن لا ذنب كبير لعصمته صلى الله عليه وسلم فإن أحسن ما قيل فيه هو ما يلي: أما الذنب المتقدم فهو قوله صلى الله عليه وسلم في بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبداً" فأوحى إليه: من أين تعلم هذا؟ فكان هذا الذنب المتقدم، والثاني: أنه لما انهزم المسلمون: يوم حنين قال لعنه ناولني كفاً من حصباء فناوله فرمى به المشركين فانهمزوا فقال لأصحابه: "لولا أني رميتهم ما انهزموا" فهذا الذنب المتأخر. والحقيقة أن هذا لو عد ذنباً لكان من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

(5/94)

كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرح بها وهي مغفرة الذنب السابق واللاحق، الفتح للبلاد، الهداية إلى أقوم طريق يفضي إلى سعادة الدارين، والنصر المؤزر العزيز، فلذا قال أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً. وقوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} أي هو الله المنعم عليك بما ذكر لك الذي أنزل السكينة أي الطمأنينة على قلوب المؤمنين من أصحابك وكان عددهم ألفاً وأربعمائة صاحب أنزل السكينة عليهم بعد اضطراب شديد أصاب نفوسهم دل عليه قول عمر رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم ألسنت نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت فلما نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال بلى، قلت: ألسنا على

الحق وعدونا على الباطل؟ قال بلى، قلت: فلما الدنية في ديننا؟ قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بقرنيه أي سر على نهجه ولا تخالفه. فوالله إنه لعلى الحق، قلت ليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال بلى. قال فهل أخبرك أنه العام؟ قلت: لا قال فإنك تأتيه وتطوف به . وقوله {لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ} أي بشرائع الإسلام كلما نزل حكم آمنوا به وعملوا به ومن ذلك الجهاد وبذلك يكون إيمانهم في ازدياد. وقوله تعالى والله جنود2 السموات والأرض أي ملائكة السماء وملائكة الأرض وكل ذي شوكه وقوة من الكائنات هو لله كغيره ويسخره كما شاء ومتى شاء فقد يسلط جيشاً كافراً على جيش كافر نصرته للجيش مؤمن والمراد من هذا أنه تعالى قادر على نصرته نبيه ودينه بغيركم أيها المؤمنون وكان الله وما زال أزلاً وأبداً عليهما بخلقه حكيماً في تدبير أمور خلقه. وقوله تعالى {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ 3 وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ} أي الإدخال للجنة وتكفير السيئات فوزاً عظيماً أي فتح على رسوله والمؤمنين ليشكروا بالطاعة والجهاد والصبر أي تم كل ذلك ليدخل المؤمنون والمؤمنات الآية. وقوله {وَيُعَذِّبُ 4 الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

1 (السكينة) السكون والطمأنينة، قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن فهي بمعنى الطمأنينة إلا في البقرة. يريد قوله تعالى: { فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ}.

2 هذه الجملة ترتيبية مذيّل بها الكلام السابق، والجنود: جمع جند، والجند: اسم للجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه وجمع باعتبار الجماعات التي يتكون منها وهي المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقا.

3 اللام: لام التعليل متعلقه بفعل، {لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ} وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع ما يتوهم أن هذا الوعد خاص بالمؤمنين دون المؤمنات في حين أن موقف أم المؤمنين أم سلمة كان عظيماً وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع ما يتوهم أن هذا الوعد خاص بالمؤمنين دون المؤمنات في حين أن موقف أم المؤمنين أم سلمة كان عظيماً إذ استشارها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبي أصحابه أن يتحللوا فأشارت عليه بما جعلهم يتحللون.

4 هذا معطوف على قوله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ} وهذا التعذيب المذكور في الآية تعذيب خاص زائداً على عذاب الكفر والنفاق وفي قوله: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} إشارة إلى ذلك.

(5/95)

والمشركين والمشركات} أي فتح على رسوله والمؤمنين ونصرهم ووجههم ما وهبهم من الكمال ليكون ذلك غما وهما وحزنا يعذب الله به المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في الدنيا والآخرة

وقوله {الظَّالِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} 1 هذا وصف للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات حيث إنهم كانوا ظانين أن الله 2 لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يعلي كلمته ولا يظهر دينه وقوله تعالى {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} إخباراً منه عز وجل بأن دائرة السوء تكون على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات كما أخبر عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ومعنى أعد هياً وأحضر لهم، وساءت جهنم مصيراً يصير إليه الإنسان والجان. بعد نهاية الحياة الدنيا، فقوله تعالى {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ينصر بها من يشاء ويهزم بها من يشاء {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا} أي غالباً لا يمانع في مراده {حَكِيمًا} في تدبيره وصنعه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

- 1- الذنب الذي غفر لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المعلوم بالضرورة أنه ليس من الكبائر في شيء وهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.
 - 2- إنعام الله على العبد بوجوب الشكر والشكر يوجب المغفرة وزيادة الإنعام.
 - 3- بيان مكافئة الله لرسوله والمؤمنين على صبرهم وجهادهم.
 - 4- بيان أن الكافرين يحزنون ويغمون بنصر المؤمنين وعزمهم فيكون ذلك عذاب لهم في الدنيا.
- إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

- 1 (ظن السوء) بفتح السين: قراءة العشرة في قوله: { ظَنَّ السَّوْءِ } وفي {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} الجمهور على الفتح، وقرأ بعض بضم السين. وهما لغتان كالكره والكره، والضعف والضعف بالفتح والضم.
- 2 ومعنى ظنهم بالله ظن السوء: أن الله ما وعد الرسول بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولم ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم.

(5/96)

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

شرح الكلمات:

شاهدا ومبشرا ونذيرا: أي شاهدا على أمتك أمة الدعوة يوم القيامة ومبشراً من آمن منهم وعمل صالحاً بالجنة ونذيراً من كفر أو عصى وفسق بالنار.

ليؤمنوا بالله ورسوله: أي هذه علة للإرسال.

وتعزروه وتوقروه: أي ينصروه ويعظموه وهذا لله وللرسول.

وتسبحوه بكرة وأصيلاً: أي الله تعالى بالصلاة والذكر والتسبيح.

إن الذين يبائعونك: أي بيعة الرضوان بالحديبية.

إنما يبائعون الله: لأن طاعة الرسول طاعة الله تعالى

يد الله فوق أيديهم: أي لأنهم كانوا يبائعون الله إذ هو الذي يجاهدون من أجله ويتلقون الجزاء من عنده.

فمن نكث: أي نقض عهده فلم يقاتل مع الرسول والمؤمنين.

فإنما ينكث على نفسه: أي وبال نقضه عهده عائد عليه إذ هو الذي يجزي به.

فسيؤتيه أجراً عظيماً: أي الجنة إذ هي الأجر العظيم الذي لا أعظم منه إلا رضوان الله عز وجل. معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان ما أنعم الله تعالى به على رسوله فقال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} 1 الله تعالى بالوحدانية والكمال المطلق له عز وجل وشاهداً على هذه الأمة التي أرسلت فيها وإليها عريها وعجمها ومبشراً لأهل الإيمان والتقوى بالجنة ونذيراً لأهل الكفر والمعاصي أي مخوفاً لهم من عذاب الله يوم القيامة. وقوله تعالى {لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي أرسلناه كذلك لتؤمنوا بالله ورسوله {وَتُعَزَّرُوهُ} بمعنى تنصروا {وَتُوقَرُّوهُ} بمعنى تجلوه وتعظموه وهذه واجبة لله ولرسوله الإيمان والتعزير والتوقير، وأما التسبيح والتقديس فهو لله تعالى وحده ويكون بكلمة سبحان الله وبالصلاة وبالذكر لا إله إلا الله، ويدعاء الله وحده

1 بيان لحكمة الإرسال وما يترتب عليه و (شاهداً) إنه بالنظر إلى شهادته يوم القيامة فهي حال مقدرة، وبالنظر إلى شهادته في الدنيا مع تبشيره ونذارته فهي حال مقارنة. و (إن أرسلناك) الخ .. كلا مستأنف ابتدائي.

(5/97)

وقوله {بُكْرَةً وَأَصِيلًا} 1 أي تسبحون الله {بُكْرَةً} أي صباحاً {وَأَصِيلًا} أي عشية وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} يخبر تعالى رسوله بأن الذين يبائعونه على قتال أهل مكة وألا يفروا عند اللقاء {إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} 2 إذ هو تعالى الذي أمرهم بالجهاد وواعدهم الأجر فالعقد وإن كانت صورته مع رسول الله فإنه في الحقيقة مع الله عز وجل، ولذا قال {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} وقوله تعالى {فَمَنْ نَكَثَ} أي نقض عهده فلم يقاتل {فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} {وَمَنْ أَوْفَى} بمعنى وفا {بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ} 3 الله {ومن نصره الرسول والقتال تحت رايته حتى النصر} {فَسَيُؤْتِيهِ} 4 الله {أَجْرًا عَظِيمًا} الذي هو الجنة دار السلام.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والإعلان عن شرفه وعلو مقامه.
 - 2- وجوب الإيمان بالله ورسوله ووجوب نصرته الرسول وتعظيمه صلى الله عليه وسلم.
 - 3- وجوب تسييح الله وهو تنزيهه عن كل ملا يليق بجلاله وكماله مع الصلاة ليلا ونهارا.
 - 4- وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقض العهد ونكثه.
- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى

1 البكرة: أول النهار، والأصيل: آخره أي: غدوة وعشيا. قال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله

وأجلس في أفيائه بالأصائل

جمع أصيل: العشي.

2 هذه هي البيعة التي بايعها المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت الشجرة (السمرة) وكانوا ألفاً وأربعمائة، وأول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة: أبو سنان الأسدي، وتسمى بيعة الرضوان لقوله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }.

3 قرأ نافع وورش (عليه) بكسر هاء الضمير، وقرأ حفص بضمها (عليه الله) فمن كسر رقق اسم الجلالة، ومن ضم فخمه.

(5/98)

أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14)

شرح الكلمات:

المخلفون من الأعراب: أي الذين حول المدينة وقد خلفهم الله عن صحبتك لما طلبتهم ليخرجوا معك إلى مكة خوفا من تعرض قريش لك عام الحديبية وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع.

شغلنا أموالنا وأهلونا: أي عن الخروج معك.

استغفر لنا :أي الله من ترك الخروج معك .
يقولون بألسنتهم :أي كل ما قالوه وهو من أسنتهم وليس في قلوبهم منه شيء .
قل فمن يملك لكم من الله شيئاً :أي لا أحد لأن الاستفهام هنا للنفي .
إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم :ويخهم على تركهم صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً من قريش .
نفعاً
بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون :أي حسبتم أن قريشا تقتل الرسول والمؤمنين فلم يرجع أحد منهم إلى المدينة .
وظننتم ظن السوء : هو هذا الظن الذي زينه الشيطان في قلوبهم .
وكنتم قوماً بوراً : أي هالكين عند الله بهذا الظن السيء ، وواحد بور بائر . هالك .
فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً : أي ناراً شديدة الاستعار والالتهاب .
يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء : يغفر لمن يشاء وهو عبد تاب وطلب المغفرة بنفسه ، ويعذب من يشاء وهو عبد ظن السوء وقال غير ما يعتقد وأصر على ذلك الكفر والنفاق .
وكان الله غفوراً رحيماً : كان وما زال متصفاً بالمغفرة والرحمة فمن تاب غفر الله له ورحمه .

(5/99)

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين في الحضر والبادية وذلك بتأنيبهم وتوبيخهم وذكر معائبهم إرادة إصلاحهم فقال تعالى لرسوله {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع وكانوا أهل بادية وأعرابا حول المدينة استتفروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة تحسبا لما قد تقدم عليه قريش من قتاله صلى الله عليه وسلم إلا أن هؤلاء المخلفين من الأعراب أصابهم خوف وجبن من ملاقاتة قريش وزين لهم الشيطان فكرة أن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى المدينة فإن قريشا ستقضي عليهم وتنتهي وجودهم فلذلك خلفهم الله وحرّمهم صحبة نبيه والمؤمنين فحرموا من مكرمة بيعة الرضوان وأخبر رسوله عنهم وهو عائد من الحديبية بما يلي {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} معتردين لك عن تخلفهم {شَعَلْنَا أَمْوَالَنَا} فتخلفنا لأجل إصلاحها ، {وَأَهْلُونَا} كذلك {فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} أي اطلب لنا من الله المغفرة . ولم يكن هذا منهم حقا وصدقا بل كان باطلا وكذبا فقال تعالى فاضحاً لهم {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} فهم إذاً كاذبون . وهنا أمر رسوله أن يقول لهم أخبروني إن أنتم عصيتم الله ورسوله وتركتم الخروج مع المؤمنين جبنا وخوفاً من القتل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أي شراً لكم أو أراد بكم نفعاً أي خيراً لكم؟ والجواب قطعاً لا أحد إذاً فإنكم كنتم مخطئين في تخلفكم وظنكم معاً ، وقوله {بَلْ

كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} اضرب تعالى عن كذبهم واعتذارهم ليهدهم على ذلك بقوله {بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} وسيجزيك به وما كان عملهم إلا الباطل والسوء، ثم أضرب عن هذا أيضا إلى آخر فقال {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} إذ تقتلهم قريش فتستأصلهم بالكلية. وزين ذلك الشيطان في قلوبكم فرأيتموه واقعا، وظننتم ظن السوء وهو أن الرسول والمؤمنين لن ينجوا من قتال قريش لهم، وكنت أي بذلك الظن قوما يورا لا خير فيكم هلكى لا وجود لكم. وقوله تعالى {وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا} وهو إخبار أريد به تخويفهم لعلمهم يرجعون من باطلهم في اعتقادهم وأعمالهم إلى الحق قولا وعملا، ومعنى اعتدنا أي هيئنا وأحضرنا وسعيراً بمعنى نار مستعرة شديدة الالتهاب وقوله في الآية الأخيرة من هذا السياق (15) {وَلِلَّهِ مُلْكُ

- 1 والديل كذلك، وخرج من أسلم مائة رجل من بينهم مرداس بن مالك الأسلمي والدعباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفى وزاهر بن الأسود، وأهبان ابن أوس وسلمة بن الأكوع الأسلمي، ومن غفار: خفاف بن أيما ومن مزينة: عائز بن عمرو، وتخلف عن الخروج أكثرهم.
- 2 هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: (بل كان الله بما تعملون خبيراً) و(إن) مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن و(لن) لإفادة استمرار النفي، وأكد أيضاً ب(أبداً) لأن ظنهم كان قوياً.
- 3 هذا الكلام معطوف على قوله تعالى {فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} وهو انتقال من التخويف الشديد إلى الأطماع في المغفرة والرحمة ليكون سبباً في هدايتهم، وتقديم الرحمة على العذاب مشعر بذلك.

(5/100)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي بيده كل شيء {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} من عباده ويعذب من يشاء فاللائق بهم التوبة والإنابة إليه لا الإصرار على الكفر والنفاق فإنه غير مجد لهم ولا نافع بحال وقد تاب بهذا أكثرهم وصاروا من خيرة الناس، وكان الله غفورا رحيمًا فغفر لكل من تاب منهم ورحمه. والله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك دال على أنه كلام الله أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.
- 2- لا يملك النفع ولا الضر على الحقيقة إلا الله ولذا يجب أن لا يطمع إلا فيه، ولا يهرب إلا منه.
- 3- حرمة ظن السوء في الله عز وجل، ووجوب حسن الظن به تعالى.

4- الكفر موجب لعذاب النار، ومن تاب تاب الله عليه، ومن طلب المغفرة بصدق غفر له.

5- ذم التخلف عن المسابقة في الخيرات والمنافسة في الصالحات.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)

شرح الكلمات:

المخلفون من الأعراب: أي المذكورون في الآيات قبل هذه وهم غفار وجهينة ومزينة وأشجع.

إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها: أي مغانم خيبر إذ وعدهم الله بها عند رجوعهم من الحديبية.

ذرونا نتبعكم: أي دعونا نخرج معكم لنصيب من الغنائم.

يريدون أن يبدلوا كلام الله: أي أنهم بطلبهم الخروج إلى خيبر لأخذ الغنائم يريدون أن يغيروا وعد الله

لأهل الحديبية خاصة بغنائم خيبر.

(5/101)

كذلك قال الله من قبل: أي قاله تعالى لنا قبل عودتنا إلى المدينة فلن نتبعونا ولن تخرجوا معنا. فسيقولون بل تحسدوننا: أي فسيقولون بل تحسدوننا وفعلا فقد قالوا ذلك وزعموا أنه ليس أمراً من الله هذا المنع، وإنما هو من الرسول والمؤمنين حسداً لهم، وهذا دال على نفاقهم وكفرهم والعياذ بالله. بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً: أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر إلا قليلاً وفي أمور الدنيا لا غير. معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين من الحضر والبادية وذلك بالحديث عنهم وكشف عوارهم ودعوتهم إلى التوبة والرجوع إلى الحق عند ظهور انحرافهم وسوء أحوالهم فقال تعالى لرسوله. سيقول المخلفون الذين تقدم الحديث عنهم وأنهم تخلفوا عن الحديبية من الأعراب الذين هم مزينة وجهينة وغفار وأشجع. أي سيقولون لكم إذا انطلقتم إلى مغانم 1 لتأخذوها ذرونا نتبعكم، وذلك أن الله تعالى بعد صلح الحديبية وما نال أهلها من آلام نفسية أكرمهم بنعم كثيرة منها أنه واعدتهم بغنائم خيبر بأن يتم لهم فتحها ويغنمهم أموالها وكانت أموالاً عظيمة، فلما عادوا إلى المدينة وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخروج إلى خيبر جاء هؤلاء المخلفون يطالبون بالسير 2 معهم لأجل الغنيمة لا غير، قال تعالى {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} وهو وعده لأهل الحديبية بأن يغنمهم غنائم خيبر، ولذا أمر رسوله أن يقول لهم لن نتبعونا كذلك قال الله من قبل أي فقد أخبرنا تعالى بحالكم ومقالكم هذا قبل أن تقولوه وتكونوا عليه. وقوله {فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا} هذا من جملة ما أخبر تعالى به رسوله والمؤمنين قبل قولهم له وقد قالوه أي ما منعتمونا من الخروج إلى خيبر إلا حسداً لنا أن ننال من الغنائم أي لم يكن الله أمركم بمنعنا ولكن الحسد هو الذي أمركم وقوله تعالى

بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً أي وصمهم بوصمة الجهل وجعلها هي علة تخبطهم وحيرتهم وضلالهم، أنهم قليلو الفهم والإدراك فليسوا على مستوى الرجل الحاذق الماهر البصير الذي يحسن القول والعمل.

1 هي مغنم خيبر لأن الله تعالى وعد أهل الحديبية فتح خيبر وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر سواء، ولم يغب منهم عنها إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر.

2 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم" وقالوا هذا حسد.

3 (يريدون أن يبدلوا كلام الله) أي: يريدون أن يغيروه يعني يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد به أهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة.

(5/102)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وعد الله رسوله والمؤمنين بغنائم خيبر وهم في طريقهم من الحديبية إلى المدينة وإنجازه لهم دال على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته وكلها موجبة للإيمان والتوحيد وحب الله والرغبة إليه والرغبة منه.

2- بيان حيرة الكافر واضطراب نفسه وتخبط قوله وعمله.

3- ذم الجهل وتقبيحه إنه بئس الوصف يوصف به المرء، ولذا لا يرضاه حتى الجاهل بنفسه فلو قلت لجاهل يا جاهل لا تفعل كذا أو لا تقل كذا لغضب عليك.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)

شرح الكلمات:

قل للمخلفين من الأعراب: أي الذين تخلفوا عن الحديبية وطالبوا بالخروج إلى خيبر لأجل الغنائم اختصاراً بهم.

ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد: أي ستدعون في يوم ما من الأيام إلى قتال قوم أولي بأس وشدة

في الحرب.

تقاتلونهم أو يسلمون: أي تقاتلونهم. أو هم يسلمون فلا حاجة إلى قتالهم.
فإن تطيعوا: أي أمر الداعي لكم إلى قتال القوم أصحاب البأس الشديد.
يؤتكم الله أجرا حسنا: أي عودة اعتباركم مؤمنين صالحين في الدنيا والجنة في الآخرة.

(5/103)

وإن تولوا: أي تعرضوا عن الجهاد كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا للحديبية.

يعذبكم عذابا أليما: في الدنيا بالقتل والإذلال وفي الآخرة بعذاب النار.

حرج: أي إثم.

ومن يتول: أي يعرض عن طاعة الله ورسوله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين من الأعراب إذ قال تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم قل للمخلفين الذين أصبح وصف التخلف شعاراً لهم يعرفون به وفي ذلك من الذم واللوم والعتاب ما فيه قل لهم مختبراً إياهم استدعون في يوم من الأيام إلى قتال قوم أولي بأس شديد في الحروب تقاتلونهم، أو يسلمون¹ فلا تقاتلوهم وذلك بأن يرضوا بدفع الجزية وهؤلاء لا يكونون إلا نصارى أو مجوساً فهم إما فارس وإما الروم وقد اختلف في تحديدهم² فإن تطيعوا الأمر لكم بالخروج الداعي للجهاد فتخرجوا وتجاهدوا يؤتكم الله أجراً حسناً غنائم في الدنيا وحسن الصيت والأحذوثة والجنة فوق ذلك، وإن تتولوا أي تعرضوا عن طاعة من يدعوكم ولا تخرجوا معه كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا مع رسول الله إلى مكة للعمرة خوفاً من قريش ورجاء أن يهلك الرسول والمؤمنون ويخلو لكم الجو يعذبكم عذاباً أليماً أي في الدنيا بأن يسلط عليكم من يعذبكم وفي الآخرة بعذاب النار وقوله تعالى ليس³ على الأعمى حرج الآية إنه لما نزلت آية المنافقين قل للمخلفين من الأعراب وكان ختامها وإن تتولوا عن الجهاد يعذبكم عذاباً أليماً خاف أصحاب الأعداء من مرض وغيره وبكوا فأنزل الله تعالى قوله ليس على الأعمى حرج أي إثم إذا لم يخرج للجهاد ولا على الأعرج⁴ حرج وهو الذي به عرج في رجليه لا يقدر على المشي والجري والكر والفر ولا على المريض حرج وهو المريض بالطحال أو الكبد أو السعال من الأمراض

1 في هذه الآية دليل على خلافة أبي بكر إذ هو الذي دعا إلى قتال أصحاب مسيلمة الكذاب، إذ هم الذين لا تقبل منهم الجزية وإنما الإسلام أو القتل، لقوله تعالى: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ} أما فارس أو الروم فهم مجوس ونصارى قد تؤخذ منهم الجزية.

2 وقيل: إنهم أصحاب مسيلمة الكذاب، وقال رافع بن خديج. والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فقلنا: إنهم هم.

3 قال ابن عباس لما نزلت: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً} قال أهل الزمانه: كيف بنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت {ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج} أي: لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد.

4 العرج: آفة تعرض لرجل واحدة، قال مقاتل: هم أهل الزمانه الذين تخلفوا عن الحديبية، وقد عذرهم. وفي هذه الآية بيان من يجوز لهم التخلف عن الجهاد، ولا إثم عليهم وهم العميان والمرضى والعرج.

(5/104)

المزمنة التي لا يقدر صاحبها على القتال وكان يعتمد على الفر والكر ولا بد كذلك من سلامة البدن وقدرته على القتال.

وقوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي في أوامرهما ونواهيهما {يُدْخِلْهُ} جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} وهذا وعد صادق من رب كريم رحيم، ومن يتول عن طاعة الله ورسوله يعذبه عذاباً أليماً وهذا وعيد شديد قوي عزيز ألا فليتق الله امرؤ فإن الله شديد العقاب.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الاختبار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات.
 - 2- بيان أن غزوا الإسلام ينتهي إلى أحد أمرين إسلام الأمة المغزوة أو دخولها في الذمة بإعطائها الجزية بالحكم الإسلامي وسياسته.
 - 3- دفع الإثم والحرج في التخلف عن الجهاد لعذر العمى أو العرج أو المرض.
 - 4- بيان وعد الله ووعيده لمن أطاعه ولمن عصاه، الوعد بالجنة. والوعيد بالنار.
- لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19)

شرح الكلمات:

لقد رضي الله عن المؤمنين: أي الراسخين في الإيمان الأقوياء فيه وهم أهل بيعة الرضوان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذ يبايعونك: أي بالحديبية أيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

تحت الشجرة: أي سمرة وهم ألف وأربعمائة بايعوا على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا.

1 قرأ نافع (ندخله) و (نعذبه) بالنون، وقرأ حفص: (يدخله) و (يعذبه) بالياء.

(5/105)

فعلم ما في قلوبهم فأنزل: أي علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء فأنزل الطمأنينة والثبات على ما هم السكينة عليهم عليه. وأثابهم فتحاً قريباً: أي هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية في ذي الحجة. وفي آخر المحرم من سنة سبع غزوا خيبر ففتحها الله تعالى عليهم. ومغانم كثيرة يأخذونها: أي من خيبر. وكان الله عزيزاً حكيماً: أي كان وما زال تعالى عزيزاً غالباً حكيماً في تصرفه شؤون عباده. معنى الآيتين:

قوله تعالى لقد رضي 1 الله عن المؤمنين 2 هذا إخبار منه تعالى برضاه عن المؤمنين الكاملين في إيمانهم وهو ألف وأربعمائة الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم تحت شجرة سمرة إلا الجد بن قيس الأنصاري فإنه لم يبايع حيث كان لاصفاً يابط ناقته مختبئاً عن أعين الأصحاب وكان منافقاً ومات على ذلك لا قرت له عين. وسبب هذه البيعة كما ذكره غير واحد أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له (وهو الاعتمار) وذلك حين نزل الحديبية. فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش (فرق من شتى القبائل يقال لهم الأحابيش واحدهم أحبوش يقال لهم اليوم: اللفيف الأجنبي عبارة عن جيش أفراده من شتى البلاد والدول. فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهنا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليهم، ولكنني أدلك على رجل وهو أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة فراح عثمان إلى مكة فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته فحمله بين يديه ثم ردفه وأجاره

1 هذا رجوع إلى تفصيل ما جرى به الله تعالى أهل بيعة الرضوان الذي تقدم إجماله في قوله تعالى
{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} الآية.

2 في قوله تعالى عن المؤمنين {إِذْ يُبَايِعُونَكَ} إعلام بأن من لم يبايع ممن خرج مع الرسول صلى
الله عليه وسلم كالجد بن قيس لم يفز برضى الله تعالى وأنه غير مؤمن.

(5/106)

حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماة قريش
فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله
صلى الله عليه وسلم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به قال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قتل. فقال
الرسول صلى الله عليه وسلم عندئذ لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة
الرضوان تحت الشجرة، هذا معنى قوله تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ} 1 تَحْتَ
الشَّجَرَةِ 2 فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي من الصدق والوفاء فأنزل السكينة أي الطمأنينة والثبات عليهم
وأثابهم أي جزاهم على صدقهم ووفائهم فتحا قريبا وهو صلح الحديبية وفتح خيبر، 3 ومغانم كثيرة
يأخذونها وهي غنائم خيبر، وكان الله 4 عزيزا أي غالبا على أمره، حكيمًا في تدبيره لأولياؤه.
هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- بيان فضل أهل بيعة الرضوان وكرامة الله لهم برضاه عنهم.
- 2- ذكاء عمر وقوة فراسته إذ أمر بقطع الشجرة خشية أن تعبد، وكم عبدت من أشجار في أمة
الإسلام في غيبة العلماء وأهل القرآن.
- 3- مكافأة الله تعالى للصادقين الصابرين المجاهدين من عباده المؤمنين بخير الدنيا والآخرة.
وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا

1 (إذ يبايعونك) ظرف متعلق ب(رضي) والمضارع بمعنى الماضي وإنما جيء بالمضارع
لاستحضار حالة المبايعة الجليلة وصورتها العظيمة. وكون الرضى حصل قبل انتهاء البيعة إيذان
بفضلها وفضل أهلها.

2 (تحت الشجرة) التعريف للشجرة للعهد الذي عرفه أهلها حين كان النبي صلى الله عليه وسلم
جالسًا في ظلها فبايع أصحابه كلهم إلا الجد بن قيس وكان منافقًا غير مؤمن فلم يبايع كما في

التفسير، حين كان لاصفاً بإبط ناقتة.

3 المغانم الكثيرة: هي مغانم بلاد خيبر من أرض وأنعام ومتاع وحوايط وبساتين، ووصف الغنائم بجملة يأخذونها دال على تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة وبشارة لهم بأنه لم يهلك منهم أحداً قبل وصولهم على هذه الغنائم وكذلك كان والحمد لله.

4 هذه الجملة معترضة ذيل بها قوله تعالى: {وَأْتَابَهُمْ فَفُتِحَتْ قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} لأن ما حصل لهم من نصر وخير كان من مظاهر عزة الله وعظيم حكمته.

(5/107)

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24)

شرح الكلمات:

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها: أي من الفتوحات الإسلامية التي وصلت الأندلس غربا. فعجل لكم هذه: أي غنيمة خيبر.

وكف أيدي الناس عنكم: أي أيدي اليهود حيث هموا بالغاارة على بيوت الصحابة وفيها أزواجهم وأولادهم وأموالهم فصرفهم الله عنهم.

ولتكون آية للمؤمنين: أي تلك الصرفة التي صرف لليهود المتأمرين عن الاعتداء على عيال الصحابة وهم غيب في الحديبية أو خيبر آية يستدلون بها على كلاءة الله وحمايته لهم في حضورهم ومغيبهم.

ويهديك صراطا مستقيما: أي طريقا في التوكل على الله والتفويض إليه في الحضور والغيبة لا اعوجاج فيه.

وأخرى لم تقدروا عليها: أي ومغانم أخرى لم تقدروا عليها وهي غنائم فارس والروم.

قد أحاط بها: أي فهي محروسة لكم إلى حين تغزون فارس والروم فتأخذونها.

ولو قاتلكم الذين كفروا: أي المشركون في الحديبية.

لولوا الأدبار: أي لانهمزوا أمامكم وأعطوكم أدبارهم تضربونها.

سنة الله قد خلت من قبل: أي هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين الصابرين سنة ماضية في كل زمان ومكان.

وهو الذي كف أيديهم عنكم: حيث جاء ثمانون من المشركين يريدون رسول الله والمؤمنين ليصيبوهم بسوء.

وأيديكم عنهم ببطن مكة: فأخذهم أصحاب رسول الله أسرى وأتوا بها إلى رسول الله فعفا عنهم.
من بعد أن أظفركم عليهم: وذلك بالحديبية التي هي بطن مكة.
معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إفضال الله تعالى وإنعامه على المؤمنين المبايعين الله ورسوله على مناخزة المشركين وقتالهم وأن لا يفروا فقد ذكر أنه أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم خبير الكثيرة فعطف على السابق خبراً عظيماً آخر فقال ﴿وَعَدَكُمْ 1 اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي غنيمة خبير، ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ 2 عَنْكُمْ﴾ وذلك أن يهود المدينة تما لأوا مع يهود خبير وبعض العرب على أن يغيروا على دور الأنصار والمهاجرين بالمدينة ليقتلوا من بها وينهبوا ما فيها فكف تعالى أيديهم وصرفهم عما هموا به كرامة للمؤمنين، وقوله ﴿وَلَتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ 3 أي تلك الصرفة التي صرف فيها قلوب من هموا بالغارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة وهم غيب بالحديبية آية تهديهم إلى زيادة التوكل على الله والتفويض إليه والاعتماد عليه. ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي ويسددكم طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه وهو أن تنقوا في أموركم كلها بربكم فنتوكلوا عليه في جميعها فيكيفكم كل ما يهمكم، ويدفع عنكم ما يضركم في مغيبكم وحضوركم. وقوله تعالى ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي وغانم أخرى لم تقدرها وهي غنائم الروم وفارس. وقد أحاط الله بها فلم يفلت منها شيء حتى تغزوا تلك البلاد وتأخذوها كاملة، ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ومن مظاهر قدرته أن يغنمكم وأنتم أقل عدداً وعدداً غنائم أكبر دولتين في عالم ذلك الوقت فارس والروم. وقوله ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ومن جملة إنعامه عليكم أنه لو قاتلكم أهل مكة وأنتم ببطنها لنصركم الله عليهم ولا انهزموا أمامكم مولينكم ظهورهم ولا يجدون ولياً يتولاهم بالدفاع عنهم ولا ناصراً ينصرهم لأننا سلطانكم عليهم. وقوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الأمم السابقة وهي لأن الله ينصر أوليائه على أعدائه لا بد فكان هذا كالسنن الكونية التي

1 هذه الجملة مستأنفة بيانياً إذ قوله تعالى ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يثير في نفس أحدهم سؤالاً وهو: هل من بعد هذا الفتح والغانم من غنائم أخرى فكان الجواب: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ..﴾ الخ فقولي في التفسير فعطف ليس هو من باب العطف النحوي وإنما هو من باب الإرداف والإلحاق.

2 هذه منة أخرى عظيمة حيث صرف عنهم قتال قريش لهم وإلا كانوا يتعرضون لأتعاب فد تحول

بينهم وبين ما أوتوه من فتح خيبر والفوز بغنائمها.
3 (ولتكون) هذه الجملة علة لأخرى مقدره وهي ولتشكروه (ولتكون آية) الخ أي: كف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية.

(5/109)

لا تتبدل، وهو معنى قوله {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}، وقوله تعالى في الآية الأخيرة من هذا السياق (24) {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ¹ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} هذه منة أخرى وكرامة عظيمة وهي أن قريش بعثت بثمانين شابا إلى معسكر رسول الله في الحديبية لعلهم يصيبون غرة من الرسول وأصحابه فينالونهم بسوء فأوقعهم تعالى أسرى في أيدي المسلمين فمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمو فكان ذلك سبب صلح الحديبية. وقوله {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} أي مطلقا عالما بكل ما يجري بينكم فهو معكم لولايته لكم.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- صدق وعد الله لأصحاب رسوله في الغنائم التي وعدوا بها فتحققت كلماته بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي غنائم فارس والروم.
- 2- كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين الأولى ما هم به اليهود من غارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة النبوية، والثانية ما هم به رجال من المشركين للفتك بالمؤمنين ليلا بالحديبية إذ مكن الله منهم رسوله والمؤمنين، ثم عفا عنهم رسول الله وأطلق سراحهم فكان ذلك مساعدا قويا على تحقيق صلح الحديبية.
- 3- بيان سنة الله في أنه ما تقاثل أولياء الله مع أعدائه إلا نصر الله أولياءه على أعدائه.
هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّأُوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا

1 روي عن أنس أنه قال: إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التتعيم متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذناهم سلماً فأسحيناهاهم فأنزل الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ} الآية.

(5/110)

فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26)

شرح الكلمات:

هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام: أي بالله ورسوله ومنعوكم من الوصول إلى المسجد الحرام.

والهدي معكوفاً أن يبلغ 1 محله 2: أي ومنعوا الهدي محبوساً حال بلوغ محله من الحرم.

ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات: أي موجودون في مكة.

لم تعلموهم: أي لم تعرفوهم مؤمنين ومؤمنات.

أن تطأوهم: أي قتلا عند قتالكم المشركين بمكة.

فتصيبكم منهم معرفة بغير علم: أي إثم وديات قتل الخطأ وعتق أو صيام لأذن لكم الله تعالى في دخول مكة.

ليدخل الله في رحمته من يشاء: أي لم يؤذن لكم في دخول مكة فاتحين ليدخل الله في الإسلام من يشاء.

لو تذيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً: أي لو تميزوا فكان المؤمنون على حدة والكافرون على حدة لأدنا لكم في الفتح وعذبنا الذين كفروا بأيديكم عذاباً أليماً وذلك بضربهم وقتلهم.

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم: أي لعذبناهم إذ جعل الذين كفروا غي قلوبهم الحمية حمية الجاهلية وهي الأنفة

الحمية المانعة من قبول الحق ولذا منعوا الرسول وأصحابه من دخول مكة وقالوا كيف يقتلون أبناءنا ويدخلون بلادنا واللات والعزى ما دخلوها.

1 جائز أن يكون: (أن يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدي، وجائز أن يكون معمولاً لحرف جر محذوف وهو (عن) أي عن أن يبلغ محله.

2 المحل: بكسر الحاء: محل الحل مشتق من فعل حل ضد حرم أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وذلك بمكة عند المروة بالنسبة للعمرة، ومنى بالنسبة للحج.

فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين :أي فهم الصحابة أن يخالفوا أمر رسول الله بالصلح
فأنزل الله سكينته عليهم فرضوا ووافقوا فتم الصلح.

وألزمهم كلمة التقوى :أي ألزمهم كلمة لا إله إلا الله إذ هي الواقية من الشرك.

وكانوا أحق بها وأهلها :أي أجدر بكلمة التوحيد وأهلا للتقوى.

وكان الله بكل شيء عليما :أي من أمور عبادة وغيرها ومن ذلك علمه بأهلية المؤمنين وأحقيتهم
بكلمة التقوى (لا إله إلا الله).

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن صلح الحديبية فقال تعالى في المشركين ذاماً لهم عائبا عليهم
صنيعهم {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي بالله ورسوله وصدوكم عن المسجد الحرام أن تدخلوه وأنت محرمون
والهدى معكوفاً أي وصدوا الهدى¹ والحال أنه محبوس ينتظر به دخول مكة لينحر وقوله تعالى
{وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ} بمكة لم تعلموهم لأنهم كانوا يخفون إسلامهم غالباً، كراهة أن
تطأوهم أثناء قتالكم المشركين فتصيبكم منهم معرفة بغير علم³ منكم بهم والمعرفة العيب والمراد به هنا
التبعة وما يلزم من قتل المسلم خطأ من الكفارة والدية لولا هذا لأذن لكم بدخول مكة غازين فاتحين
لها وقوله تعالى {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي لم يأذن لكم في القتال ورضي لكم بالصلح
ليدخل في رحمته من يشاء فالمؤمنون نالتهم رحمة الله إذ لم يؤذوا بدخولكم مكة فاتحين والمشركون
قد يكون تأخر الفتح سبباً في إسلام من شاء الله تعالى له الإسلام لا سيما عندما رأوا رحمة الإسلام
وتتجلى في ترك القتال رحمة بالمؤمنين والمؤمنات حتى لا يتعرضوا للأذى فدين يراعي هذه الأخوة
دين لا يحرم منه عاقل. وقوله تعالى {لَوْ تَزَيَّلُوا} أي⁴ لو تميز المؤمنون والمؤمنات على المشركين
بوجودهم في مكان خاص بهم لأدنا لكم في دخول مكة وقاتل المشركين وعذبناهم بأيديكم عذاباً أليماً
وقوله { إِنْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ

1 الهدي، والهدي بكسر الدال وتشديد الياء، لغتان والواحدة هدية.

2 كسلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل. وأشباههم، وجواب لولا محذوف
تقديره: لأذن الله لكم في دخول مكة ولسلطانكم عليهم.

3 (بغير علم) فيه تفضيل للصحابة وإخبار عن كمالهم في الخلق والدين، وهذا قول النملة في
سليمان وجنوده: (لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)؛

4 (لو تذيّلوا) أي: تميزوا وتفرقوا. و(لو) حرف امتناع لامتناع الشرط وهو التفرق، فامتنع
التسلط، والقتل بالإذن للمسلمين بقتالهم وقتلهم. وفي هذا دليل على أنه لا يجوز إغراق باخرة
للكافرين بها مسلمون، ولا ضرب حصن بالفدائف داخله مسلمون وهو ما رآه مالك.

5 يجوز أن يكون الظرف، (إذا) متعلقاً بقوله تعالى: {لَا تَعْدُبْنَا} وجائز أن يعلق بمحذوف تقديره:
واذكروا إذ جعل الخ.

الْحَمِيَّةُ 1 حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ} هذا تعليل للإذن بقتال المشركين في مكة وتعذيبهم العذاب الأليم لولا وجود مؤمنين ومؤمنات بها يؤذيهم ذلك والمراد من الحمية الأنفة والتعاضم وما يمنع من قبول الحق والتسليم به وهذه من صفات أهل الجاهلية فقد قالوا، كيف نسمح لهم بدخول بلادنا وقد قتلوا أبناءنا واللات والعزى ما دخلوا علينا أبداً، وقوله تعالى {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} وذلك بما هم المؤمنون بعدم قبول الصلح لما فيه من التنازل الكبير للمشركين وهم على الباطل والمؤمنون على الحق فلما حصل هذا في نفوس المؤمنين أنزل الله سكينته عليهم وهي الطمأنينة والوقار والحلم فرفضوا بالمصالحة وتمت وكان فيها خير كثير حتى قيل فيها إنها فتح أولي أو فاتحة فتوحات لا حد لها. وقوله تعالى {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى 2 وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} أي وشرف الله وأكرم المؤمنين بإلزامهم التشريعي بكلمة لا إله إلا الله. إذ هي كلمة التقوى أي الواقية من الشرك والعذاب في الدارين وجعلهم أحق بها وأهلها. أي أجدر من غيرهم بكلمة التوحيد وأكثر أهلية للتقوى وكان الله بكل شيء عليماً ومن ذلك علمه بأهلية أصحاب رسول الله بما جعلهم أهلاً له من الإيمان والتقوى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان حكم المحصر وهو من منع من دخول المسجد الحرام وهو محرم بحج أو بعمره فإنه يتحلل بذبح هدي ويعود إلى بلاده، ويذبح الهدي حيث أحصر، وليس واجبا إدخاله إلى الحرم.
- 2- الأخذ بالحيطه في معاملة المسلمين حتى لا يؤذى مؤمن أو مؤمنة بغير علم.
- 3- بيان أن كلمة التقوى هي لا إله إلا الله.
- 4- الإشارة إلى ما أصاب المسلمين من ألم نفسي من جراء الشروط القاسية التي اشترطها ممثل قريش ووثيقة الصلح. وهذا نص الوثيقة وما تحمله من شروط لم يقدر عليها إلا رسول الله بما آتاه الله من العلم والحكمة والحلم والصبر والوقار، ولما أنزل الله ذلك على المؤمنين من السكينة فحملوها وارتاحت نفوسهم لها نص الوثيقة: (ورد أن قريشا لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم الحديبية بعثت إليه ثلاثة

1 قال الزهري، حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح بسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة.

2 ورد في (كلمة التقوى) آثار منها أنها لا إله إلا الله، ومنها أنها لا إله إلا الله محمد رسول الله،

ومنها أنها: لا إله إلا الله والله أكبر ومنها أنها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والكل حق لا باطل فيه.

(5/113)

رجال هم سهيل بن عمرو القرشي، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن يخلي له قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام فقبل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا: ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم، فكتب ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا وتم الصلح على ثلاثة أشياء هي:

1- أن من أتاهم من المشركين مسلماً ردوه إليهم.

2- أن من أتاهم من المسلمين لم يردوه إليهم.

3- أن يدخل الرسول والمؤمنون مكة من عام قابل ويقيمون بها ثلاثة أيام لا غير ولا يدخلها

بسلاح. فلما فرغ من الكتاب قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا فنحروا ثم احلقوا.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)

شرح الكلمات:

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: أي جعل الله رؤيا رسوله التي رآها في النوم عام الحديبية حقاً. لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين: هذا مضمون الرؤيا أي لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين.

محلّقين رؤوسكم و مقصرين: أي حالقين جميع شعوركم أو مقصرينها.

(5/114)

لا تخافون :أي أبداً حال الإحرام وبعده.

فعلم ما لم تعلموا :أي في الصلح الذي تم، أي لم تعلموا من ذلك المعرفة التي كانت تلتحق بالمسلمين بقتالهم إخوانهم المؤمنين وهم لا يشعرون.

فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً :هو فتح خيبر وتحققت الرؤية في العام القابل.

هو الذي أرسل رسوله بالهدى تدين الحق :فلذا لا يخلفه رؤياه بل يصدقه فيها.

ليظهره على الدين كله :أي ليعليه على سائر الأديان بنسخ الحق فيها، وإبطال الباطل فيها، أو بتسليط المسلمين على أهلها فيحكمونهم.

وكفى بالله شهيدا :أي أنك مرسل بما ذكر أي بالهدى ودين الحق.

معنى الآيات:

ما زال السياق في صلح الحديبية وما تم فيه من أحداث فقال تعالى {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ} أي محمداً صلى الله عليه وسلم {الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ} 1 أي 2 الرؤية التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر بها أصحابه عند خروجهم من المدينة إلى مكة فقد أخبر بها أصحابه فسروا بذلك وفرحوا ولما تم الصلح بعد جهاد سياسي وعسكري مرير، وأمرهم الرسول أن ينحروا ويحلقوا اندهشوا لذلك وقال بعضهم أين الرؤيا التي رأيت؟ ونزلت سورة الفتح عند منصرفهم من الحديبية وفيها قوله تعالى {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ 3 اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ 4 رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} ، وقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق فلما جاء العام القابل وفي نفس الأيام من شهر القعدة خرج رسول الله والمسلمون محرمين يلبون وأخلت لهم قريش المسجد الحرام فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة وتحلوا من عمرتهم فمنهم المحلق ومنهم المقصر.

1 روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إن المنام لم يكن موقتا بوقت أي: فقد تتأخر الرؤية سنوات أو شهوراً أو أياماً فكان ما بين رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهور مصداقها في الواقع سنة كاملة.

2 (بالحق) الباء للملابسة، وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف تقديره أي: صدقاً وملابساً للحق.

3 (إن شاء الله) هل هذا الإستثناء من جملة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه فأعاده كما سمعه في الرؤية ويكون هذا تعليماً من الله عز وجل للمؤمنين أن يقولوا مثله في كل ما هو مستقبل من الأقوال والأعمال أو قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عملاً بقول الله تعالى: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

4 (آمنين) و(محلقيين) و(مقصرين): منصوبة على الحال، وجملة (لا تخافون) في موضع الحال أيضاً مؤكدة ل(آمنين) الحال.

وقوله تعالى فعلم ما لم تعلموا فأثبت الصلح وقرره لأنه لو كان قتال ولم يكن صلح لهلك المؤمنون بمكة والمؤمنات بالحرب وتحصل لذلك معرة كبرى للمسلمين الذين قتلوا إخوانهم في الإسلام هذا من بعض الأمور التي اقتضت الصلح وترك القتال وقوله وجعل من دون ذلك فتحا قريبا الصلح 1 فتح، وفتح خيبر فتح، وفتح مكة فتح، وكلها من الفتح القريب. وقوله هو الذي أرسل رسوله أي محمد بالهدى ودين الحق أي الإسلام فكيف إذا لا يصدق رؤياه كما ظن البعض وكفا بالله شهيداً على أنك يا محمد مرسل بما ذكر تعالى من الهدى والدين الحق وإظهاره على الدين كله بنسخ الحق الذي فيه وإبطال الباطل الذي أصق به. أو بتسليط المسلمين على قهر وحكم أهل تلك الأديان الباطلة وقد حصل من هذا شيء كبير.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1-تقرير أن رؤيا الأنبياء حق.

2- تعبير الرؤيا قد يتأخر سنة أو أكثر.

3- مشروعية الحلق والتقصير للتحلل من الحج أو العمرة وإن الحلق أفضل لتقدمه.

4- مشروعية قول إن شاء الله في كل قول أو عمل يراد به المستقبل.

5- الإسلام هو الدين الحق وما عداه فباطل.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)

1 ومن أنواع الفتح القريب ما تم بالهدنة من دخول الناس في الإسلام إذ أصبح الناس آمنين فيتصلون بالمؤمنين ويتعرفون إلى الإسلام ويدخلون فيه، فدخل في الإسلام أعداد هائلة في هذه الهدنة.

شرح الكلمات:

محمد رسول الله والذين معه :أي أصحابه رضوان الله عليهم.
أشداء على الكفار :أي غلاظ لا يرحمونهم.
رحماء بينهم :أي متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد.
تراهم ركعاً سجداً :أي تبصرهم ركعاً سجداً أي راكعين ساجدين.
يبتغون فضلا من الله ورضوانا :أي يطلبون بالركوع والسجود ثواب من ربهم هو الجنة ورضوانا هو رضاه عز وجل.
سيماهم في وجوههم :أي نور وبياض يعرفون به يوم القيامة أنهم سجدوا في الدنيا.
ذلك : أي الوصف المذكور.
مثلهم في التوراة :أي صفتهم في التوراة كتاب موسى عليه السلام.
أخرج شطأه :أي فراخه.
فأزره : أي قواه وأعانه.
فاستغظ فاستوى :أي غلظ واستوى أي قوي.
على سوقه : جمع ساق أي على أصوله.
يعجب الزراع :أي زارعيه لحسنه.
ليغيظ بهم الكفار :هذا تعليل أي قواهم وكثرهم ليغيظ بهم الكفار.
معنى الآيات:

لما أخبر تعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله شهادة منه بذلك أخبر أيضاً عنه بما يؤكد تلك الشهادة فقال تعالى {مُحَمَّدٌ ۙ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ} من أصحابه {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} أي غلاظ قساة عليهم، وذلك لأمرين الأول أنهم كفروا بالله وعادوه ولم يؤمنوا به ولم يجيبوه، والله يبغضهم لذلك فهم إذاً غلاظ عليهم لذلك والثاني أن الغلظة والشدة قد تكون سببا في هدايتهم لأنهم يتألمون بها، ويرون خلافا مع المسلمين فيسلمون فيرحمون ويفوزون. وقوله تعالى {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} أي فيما بينهم يتعاطفون يتراحمون فترى أحدهم يكره أن يمس جسمه أو ثوبه جسم الكافر أو ثوبه، وتره مع المسلم إذا رآه صافحه وعانقه ولاطفه

1 جازئ الوقف على (رسول الله) مبتدأ وخبر، ويبدأ الكلام: (والذين معه أشداء.. الخ وهو الأشبه، وجزائز أن يكون: (والذين معه) عطف على (محمد رسول الله) والخبر: (أشداء.. الخ).

وأعانه وأظهر له الحب والود. وقوله تعالى {تَرَاهُمْ} أي تبصرهم أيها المخاطب {رُكْعًا سُجَّدًا} 1} أي راكعين ساجدين في صلواتهم {يَبْتَغُونَ} أي يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحاببهم وتعاطفهم مع بعضهم، يطلبون بذلك {فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} أي الجنة ورضا الله. وهذا أسمى ما يطلب المؤمن أن يدخله الله الجنة بعد أن ينقذه من النار ويرضى عنه. وقوله {سَيِّمَاهُمْ} 2} في وجوههم من أثر السجود أي علامات إيمانهم وصفائهم في وجوههم من أثر السجود إذ يبعثون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} وفي الدنيا عليهم سيما التقوى والصلاح والتواضع واللين والرحمة. وقوله تعالى {ذَلِكَ} أي المذكور {مَثَلُهُمْ فِي 3} النُّورَةِ {مَثَلُهُمْ فِي} الأُنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} أي فراخه {فَأَرَزَهُ} أي قواه وأعانه {فَأَسْتَعْلَظُ} أي غلظ {فَأَسْتَوَى} أي قوي {عَلَى سَوْفِهِ} جمع ساق ما يحمل السنبله من أصل لها {يُعْجِبُ الزَّرْعُ} أي الزراعين له وذلك لحسنه وسلامة ثمرته وقوله تعالى {لِيَغِيظَ بِهِمْ 5} الْكُفَّارُ {أي قواهم وكثرهم من أجل أن يغيب بهم الكفار ولذا ورد عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى أن من يغيبه أصحاب رسول الله فهو كافر وقوله {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً} أي لذنوبهم {وَأَجْرًا عَظِيمًا} هو الجنة. هذا وعد خاص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم وهناك وعد عام لسائر المؤمنين والمؤمنات وذلك في آيات أخرى مثل آية المائدة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية الكريمة:

1- تقرير نبوة رسول الله وتأكيده رسالته.

2- بيان ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الشدة والغلظة على الكفار والعطف والرحمة على أهل الإيمان وهذا مما يجب الأتساء بهم فيه والافتداء.

3- بيان فضل الصلاة ذات الركوع والسجود والطمأنينة والخشوع.

1 إخبار بكثرة ركوعهم وسجودهم وهو كذلك، إذ لم تر الدنيا أكثر من المسلمين ركوعاً وسجوداً من سائر الأمم التي دانت لله بالإسلام.

2 السيماء: (العلامة ولها ثلاثة مظاهر، الأول: هو ببوسة في الجبهة ولا يتعمدون لها ولكنها تحدث من كثرة السجود على الأرض، والثاني: الأثر النفسي من التواضع والخشوع ونور الصلاح. والثالث: نور يوم القيامة يعلو وجوههم ويشهد له قوله تعالى {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} الآية.

3 موجود في التوراة قبل تحريفها إذ فيها نعوت هذه الأمة ونعوت نبيها محمد صلى الله عليه وسلم وهي إلى الآن واليهود يتأولونها هروباً من الحق حتى لا يلزموا به.

4 فراخ الزرع فروع الحبة منه.

5 الجملة تعليلية لما سبقها من صفات أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أي: وهبهم ذلك الكمال ليغيب بهم الكفار.

(5/118)

-
- 4- صفة أصحاب رسول الله في كل من التوراة والإنجيل ترفع من درجتهم وتعلي من شأنهم.
- 5- بيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأوا قليلين ثم اخذوا يكثرون حتى كثروا كثرة أغاظت الكفار.
- 6- بغض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتنافى مع الإيمان منافاة كاملة لا سيما خيارهم وكبارهم كالخلفاء الراشدين الأربعة والمبشرين بالجنة العشرة وأصحاب بيعة الرضوان، وأهل بدر قبلهم. ولذا روي عن مالك رحمه الله تعالى: أن من 1 يغيبه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر.

1 الرواية كما رواها القرطبي هي: روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير قال كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية: (محمد رسول الله والذين معه..) حتى بلغ: (يعجب الزراع ليغيب به الكفار) فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيب على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية. يريد ألزمته بالكفر.

(5/119)

سورة الحجرات

...

سورة الحجرات

وآياتها ثماني عشرة آية

وهي بداية المفصل 1

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ

أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

1 أشهر الأقوال أن أول المفصل (الحجرات) وأول وسط المفصل (عبس) وأول قصار المفصل: (والضحى) هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة ففي الصباح يستحب القراءة بطوال المفصل وفي الظهر والعشاء بمتوسطه وفي المغرب بقصاره.

(5/119)

شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا: أي لا تتقدموا بقول ولا فعل إذ هو من قدم بمعنى تقدم.
بين يدي الله ورسوله: كمن ذبح يوم العيد قبل أن يذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكإرادة أحد الشيخين تأمير رجل على قوم قبل استشارة الرسول صلى الله عليه وسلم.
واتقوا الله إن الله سميع عليم: أي خافوا الله إنه سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم.
لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي: أي إذا نطقتم فوق صوت النبي إذا نطق.
ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض: أي إذا ناجيتموه فلا تجهروا في محادثتكم معه كما تجهرون في ما بينكم إجلالا له صلى الله عليه وسلم وتوقيرا وتقديرا.
أن تحبط أعمالكم: أي كراهة أن تبطل أعمالكم فلا تتأبون عليها.
وأنتم لا تشعرون: بحبوطها وبطلانها. إذ قد يصحب ذلك استخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم لا سيما إذا صاحب ذلك إهانة وعدم مبالاة فهو الكفر والعياذ بالله.
يغضون أصواتهم عند رسول الله: أي يخفضونها حتى لكأنهم يسارونه ومنهم أبو بكر رضي الله عنه.
امتحن الله قلوبهم للتقوى: أي شرحها ووسعها لتتحمل تقوى الله. مأخوذ من محن الأديم إذا وسعه.
لهم مغفرة وأجر عظيم: أي مغفرة لذنوبهم وأجر عظيم وهو الجنة.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾¹ لو بحثنا عن المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها لتجلت لنا واضحة إذا رجعنا بالذاكرة إلى موقف عمر رضي الله عنه وهو يريد أن لا يتم صلح بين المؤمنين والمشركين، وإلى موقف الصحابة كافة من عدم التحلل من إحرامهم ونحر هداياهم والرسول يأمر وهم لا يستجيبون حتى تقدم صلى الله عليه وسلم فنحر هديه ثم نحروا بعده وتحللوا، إذ تلك المواقف التي أشرنا إليها فيها معنى تقديم الرأي والقول بين يدي الله ورسوله وفي ذلك مضررة لا يعلم مداها إلا

الله، ولما انتهت تلك الحال وذلك الظرف الصعب أنزل الله تعالى قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}

1 ذكر لسبب نزول هذه السورة عدة روايات منها ما ذكره الواحدي ورواه البخاري وهو أن ركبا من بني تميم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي فقال عمر ما أردت خلافا فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..} الخ

(5/120)

أي بالله رباً وإلهاً وبالإسلام شرعة وديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ناداهم بعنوان الإيمان ليقول لهم ناهياً {لَا تَقْدَمُوا إِبْرِينَ يَدِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي قولاً ولا عملاً ولا رأياً ولا فكراً أي لا تقولوا ولا تعملوا إلا تبعاً لما قال الله ورسوله، وشرع الله ورسوله {وَأَتَّقُوا اللَّهَ} في ذلك فإن التقدم بالشيء قبل أن يشرع الله ورسوله فيه معنى أنكم أعلم وأحكم من الله ورسوله وهذه زلة كبرى وعاقبتها سوءاً. ولذا قال {وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي لأقولكم {عَلَيْكُمْ} بأعمالكم وأحوالكم. ومن هنا فواجب المسلم أن لا يقول ولا يعمل 2 ولا يقضي ولا يفتي برأيه إلا إذا علم قول الله ورسوله وحكمهما وبعد أن يكون قد علم أكثر أقوال الله والرسول وأحكامهما، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً اجتهد 3 فقال أو عمل بما يراه أقرب إلى رضا الله تعالى فإذا لاح له بعد ذلك نص من كتاب أو سنة عدل عن رأيه وقال بالكتاب والسنة وهذا ما دلت عليه الآية الأولى (1) أما الآية الثانية (2) وهي قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} فإنها تطالب المسلم بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأولاً نهاهم رضي الله عنهم عن رفع أصواتهم فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هم تحدثوا معه وأوجب عليهم إجلال النبي وتعظيمه وتوقيره بحيث يكون صوت أحدهم إذا تكلم مع رسول الله أخفض من صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا كلم رسول الله يساره الكلام مسارة وثانياً نهاهم إذا هم ناجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض بل يجب عليهم توقيره وتعظيمه. وأعلمهم أنه يخشى عليهم إذ هم لم يوقروا رسول الله ولم يجلوه أن تحبط أعمالهم كما تحبط بالشرك والكفر وهم لا يشعرون. إذ رفع الصوت للرسول ونداؤه بأعلى الصوت يا محمد يا محمد أو يا نبي الله ويا رسول الله وبأعلى الأصوات إذا صاحبه استخفاف أو إهانة وعدم مبالاة صار كفراً محبطاً للعمل قطعاً. وفي الآية الثالثة (3) يثني الله تعالى على أقوام يغضون أصواتهم أي يخفضونها عند رسول الله أي في حضرته وبين يديه كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما هؤلاء يخبر تعالى أنه امتحن قلوبهم بالتقوى أي وسعها وشرحها

1 هذه السورة نزلت في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب زيادة على ما تضمنت من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

2 ومن هنا قال العلماء: لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

3 شاهده حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن "بما تحكم؟ قال بكتاب الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد؟ قال رضي الله عنه: اجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم".

4 روى البخاري (أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال شر، كان: يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله فهو من أهل النار فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة.

(5/121)

لتحمل تقوى الله والرسول صلى الله عليه وسلم يقول "التقوى 1 ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثاً"، ويذكر لهم بشرى نعم البشرية وهي أن لهم منه تعالى مغفرة لذنوبهم، وأجرًا عظيمًا يوم يلقونه وهو الجنة دار المتقين جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- لا يجوز للمسلم أن يقدم رأيه أو اجتهاده على الكتاب والسنة فلا رأي ولا اجتهاد إلا عند عدم وجود نص من كتاب أو سنة وعليه إذا اجتهد أن يكون ما اجتهد فيه أقرب إلى مراد الله ورسوله، أي ألصق بالشرع، وإن ظهر له بعد الاجتهاد نص من كتاب أو سنة عاد إلى الكتاب والسنة وترك رأيه أو اجتهاده فوراً وبلا تردد.

2- بما أن الله تعالى قد قبض إليه نبيه ولم يبق بيننا رسول الله نتكلم معه أو نناجيه فنخفض أصواتنا عند ذلك فإن علينا إذا ذكر رسول الله بيننا أو ذكر حديثه أن نتأدب عند ذلك فلا نضحك ولا نرفع الصوت، ولا نظهر أي استخفاف أو عدم مبالاة وإلا يخشى علينا أن تحبط أعمالنا ونحن لا نشعر.

3- على الذين يغشون مسجد رسول اله صلى الله عليه وسلم أن لا يرفعوا أصواتهم فيه إلا لضرورة درس أو خطبة أو أذان أو إقامة.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ وَرَبَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ

1 هذا بعض حديث صحيح أخرجه واحد من أصحاب السنن.

(5/122)

الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)
شرح الكلمات:

إن الذين ينادونك من وراء الحجرات :أي حجرات نساءه والذين نادوه من أعراب بني تميم منهم الزبيرقان بن بدر والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن.
أكثرهم لا يعقلون :أي فيما فعلوه بمحلك الرفيع ومقامك السامي الشريف.
ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم :أي ولو أنهم انتظروك حتى تخرج بعد قيامك من قيلولتك.
لكان خيراً لهم :أي من ذلك النداء بأعلى أصواتهم من كل أبواب الحجرات.
والله غفور رحيم :أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذا أساءوا مرتين الأولى برفع أصواتهم والثانية كانوا ينادونه أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين.
واسق نبأ :أي ذو فسق وهو المرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب والنبأ الخير ذو الشأن.
فتبينوا :أي تثبتوا قبل أن تقولوا أو تفعلوا أو تحكموا.
أن تصيبوا قوماً بجهالة :أي خشية إصابة قوم بجهالة منكم.
فتصبحوا على ما فعلتم نادمين :أي فتصيروا على فعلكم الخاطئ نادمين.
واعلموا أن فيكم رسول الله :أي فاحذروا أن تكذبوا أو تقولوا الباطل فإن الوحي ينزل وتفضحون بكذبكم وباطلكم.
لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم :أي لوقعتم في المشقة الشديدة والإثم أحياناً.
وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان :أي بغض إلى قلوبكم الكفر والفسوق والكذب والعصيان بترك واجب أو فعل محرم.

أولئك هم الراشدون :أي الذين فعل بهم ما فعل من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر وما ذكر معه هم الراشدون أي السالكون سبيل الرشاد.

(5/123)

فضلا من الله ونعمة :أي أفضل بذلك عليهم فضلا وأنعم إنعاما ونعمة.
والله عليم حكيم :أي عليم بخلقه وما يعملون حكيم في تدبيره لعباده هذا بعامة وبخاصة عليم بأولئك الراشدين حكيم في إنعامه عليهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تأديب المؤمنين إزاء نبيهم صلى الله عليه وسلم فقد عاب تعالى أقواما معهم جفاء وغلظة قيل أنهم وفد من أعراب بني تميم منهم الزبيرقان بن بدر، والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن جاؤا والرسول قائل وقت القيلولة ووقفوا على أبواب الحجرات¹ ينادون بأعلى أصواتهم يا محمد يا محمد صلى الله عليه وسلم أن اخرج إلينا فإنما مدحنا زين وإن ذمنا شين فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية الكريمة تأديبا لهم {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ نساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت أبواب الحجرات إلى المسجد. {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} أي فيما فعلوه بمقام الرسول الشريف ومكانته الرفيعة. {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ} بعد هبوبك من قيلولتك {لَكَانَ خَيْرًا} أي من ذلك النداء بتعالى الأصوات من وراء الحجرات وقوله تعالى {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذ لم يعجل لهم العقوبة وفتح لهم باب التوبة وأدبهم ولم يعنف ولم يغلظ، وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (6) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ⁴ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا⁵ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} هذه الآية وإن كان لها سبب في نزولها وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أموالهم، وكان بينهم وبين أسرة الوليد عداة في الجاهلية فذكره الوليد وهاب أن يدخل عليهم دارهم وهذا من وسواس الشيطان فرجع وستر على نفسه الخوف الذي أصابه فذكر أنهم منعه الزكاة وهموا بقتله فهرب منهم فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بغزوهم. وما زال كذلك حتى أتى وفد منهم يسترضي رسول الله ويستعتب عنده خوفا من أن يكون قد بلغه عنهم سوء فأخبروه بأنهم على العهد وأن الوليد رجع من الطريق ولم يصل إليهم وبعث الرسول خالد بن الوليد من جهة فوصل

1 الحجرات: جمع حجرة وهي تسع تدخل ضمن البيت النبوي.

2 هذا الاحتراس دال على أن من الوفد من كان متأدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يناد

- نداءهم بصوت عال وألفاظ نابية لا تليق بمقام الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 3 أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.
- 4 فسر الفاسق. بالكاذب وبالمعلن بالذنب، وبالذي لا يستحي من الله وهو قابل لكل ما ذكر.
- 5 أن تصيبوا: أي: لئلا تصيبوا.

(5/124)

إليهم قبل المغرب فإذا بهم يؤذنون و يصلون المغرب والعشاء فعلم أنهم لم يرتدوا وأنهم على خير والحمد لله. وجاء بالزكوات وأنزل الله تعالى هذه الآية قلت إن هذه الآية وإن نزلت في سبب معين فإنها عامة وقاعدة أساسية هامة فعلى الفرد والجماعة والدولة أن لا يقبلوا من الأخبار التي تنقل إليهم ولا يعملوا بمقتضاها إلا بعد الثبوت والتبين الصحيح كراهية أن يصيبوا فردا أو جماعة بسوء بدون موجب لذلك ولا مقتضى الإقالة سوء وفرية قد يريد بها صاحبها منفعة لنفسه بجلب مصلحة أو دفع مضرة عنه. فالأخذ بمبدأ الثبوت والتبين عند سماع خبر من شخص لم يعرف بالتقوى والاستقامة الكاملة والعدالة التامة واجب صونا لكرامة الأفراد وحماية لأرواحهم وأموالهم. والحمد لله على شرع عادل رحيم كهذا. فقلوه {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ} المراد بالفاسق من يرتكب كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب مثلا، والنبا الخبر ذو الشأن والتبين الثبوت وقوله {أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} أن تصيبوهم في أبدانهم وأموالهم بعدم علم منكم وهي الجهالة وقوله {فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} أي من جراء ما اتخذتم من إجراء خاطئ، وقوله تعالى في الآية (7) {وَأَعْلَمُوا} يلفت الرب تعالى نظر المسلمين إلى حقيقة هم غافلون عنها وهو وجود الرسول صلى الله عليه وسلم حيا بينهم ينزل عليه الوحي فإن هذه حال تتطلب منهم التزام الصدق في القول والعمل وإلا يفضحهم الوحي فوراً إن هم كذبوا في قول أو عمل كما فضح الوليد لما أخبر بغير الحق. هذا أولا وثانيا لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطيعهم في كل ما يروونه ويقترحونه لوقعوا في مشاكل تعرضهم لمشاق لا تطاق، بل وفي آثام عظام. هذا معنى قوله تعالى {وَأَعْلَمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ 1 فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} وقوله {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ 2 إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ وَرَبِّيَنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} فواقم كثيرا من أن تكذبوا على رسولكم أو تقترحوا عليه أو تفرضوا آراءكم. وقوله {وَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ 3} أي أولئك أصحاب رسول الله هم السالكون سبيل الرشاد فلا يتهوكون ولا يضلون وقوله {فَضْلًا 4 مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً} أي هدايتهم كانت فضلا من الله ونعمة، والله عليم بهم وبنياتهم وبواعث نفوسهم حكيم 5 في تدبيره فأهل أصحاب رسول الله

1 لو: حرف امتناع لامتناع، امتنعت طاعته صلى الله عليه وسلم لهم فامتنع عنهم الذي هو: الوقوع في المشقة والشدة.

2 (لكن) هذه الاستدراكية العاطفة، وهذا الاستدراك ناشيء عن كون بعضهم يحب أن يطيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلموا أن الله حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين، فكفاهم خواطر السوء، ورغبات الباطل، فلم يبق مجال للاقتراحات التي تسيء إليهم وإلى جانب نبيهم صلى الله عليه وسلم.

3 الرشاد، والرشد: ما كان خلاف الغي، والباطل والسيء.

4 نصب: (فضلا ونعمه) على المفعولية المطلقة.

5 جملة: (والله عليم حكيم) تذييلية لما تقدم من قوله: (واعلموا أن فيكم رسول الله) إلى قوله: (ونعمة).

(5/125)

للخير وأضفاه عليهم فهم أفضل هذه الأمة على الإطلاق ولا مطمع لأحد أتى بعدهم أن يفوقهم في الفضل والكمال في الدنيا ولا في الآخرة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وعنا معهم آمين. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان سمو المقام المحمدي وشرف منزلته صلى الله عليه وسلم.

2- وجوب التثبت في الأخبار ذات الشأن التي قد يترتب عليها أذى أو ضرر بمن قيلت فيه، وحرمة التسرع المفضي بالأخذ بالظنة فيندم الفاعل بعد ذلك في الدنيا والآخرة.

3- من أكبر النعم على المؤمنين تحبيب الله تعالى الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر إليه والفسوق والعصيان وبذلك أصبح المؤمن أرشد الخلق بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ

وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

شرح الكلمات:

وإن طائفتان من المؤمنين: أي جماعتان قل أفرادهما أو كثروا من المسلمين.
اقتتلوا فأصلحوا بينهما: أي هموا بالاعتتال أو باشروه فعلا فأصلحوا ما فسد بينهما.
فإن بغت إحداهما على الأخرى: أي تعدت بعد المصالحة بأن رفضت ذلك ولم ترض بحكم الله.
فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ الأمر الله: أي قاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين الطائفة التي بغت حتى ترجع إلى الحق.
فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل: أي رجعت إلى الحق بعد مقاتلتها فأصلحوا بينهما بالعدل أي بالحق.

وأقسطوا إن الله يحب المقسطين: أي وأعدلوا في حكمكم إن الله يحب أهل العدل.
إنما المؤمنون إخوة: أي في الدين الإسلامي.
فأصلحوا بين أخويكم: أي إذا تنازعا شيئا وتخاصما فيه.
واتقوا الله لعلكم ترحمون: أي خافوا عقابه رجاء أن ترحموا إن أنتم اتقيتموه.
لا يسخر قوم من قوم: أي لا يزدري قوم منكم قوما آخرين ويحتقرونهم.
عسى أن يكونوا خيرا منهم: أي عند الله تعالى والعبارة بما عند الله لا ما عند الناس.
ولا تلمزوا أنفسكم: أي لا تعيبوا بعضكم بعضا فإنكم كفر واحد.
ولا تتابزوا بالألقاب: أي لا يدعو بعضكم بعضا بلقب يكرهه نحو يا فاسق يا جاهل.

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان: أي قبح اسم الفسوق يكون للمرء بعد إيمانه وإسلامه.
ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون: أي من لمز ونبز المؤمنين فأولئك البعداء هم الظالمون.
اجتنبوا كثيرا من الظن: أي التهم التي ليس لها ما يوجبها من الأسباب والقرائن.
إن بعض الظن إثم: أي كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين.
ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا: أي لا تتبعوا عورات المسلمين وما بهم بالبحث عنها.

أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ: أَي لَا يَحْسُنُ بِهِ حَبَّ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا وَلَا حَيًّا مَعًا.
أَخِيهِ مَيْتًا

فَكَرِهْتُمُوهُ: أَي وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ الْأَوَّلَ فَكَرِهْتُمُوهُ فَكَرِهُوا أَي كَمَا كَرِهْتُمْ أَكْلَ لَحْمِهِ مَيْتًا فَكَرِهُوا حَيًّا
وَهُوَ الْغَيْبَةُ.

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ: أَي جَمَعَ شُعْبًا وَالْقَبِيلَةَ دُونَ الشُّعْبِ.

لَتَعَارَفُوا: أَي لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَتَعَارَفُوا لَا لِلتَّفَاخُرِ بَعْلُو الْأَنْسَابِ.

إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ: أَي أَشَدَّكُمْ تَقْوَى اللَّهِ بِفِعْلٍ وَأَمْرِهِ وَتَرَكَ نَوَاهِيَهُ هُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ: أَي عَلِيمٌ بِكُمْ وَيَأْخُذُ بِالْحَوَالِكِ خَبِيرٌ بِمَا تَكُونُونَ عَلَيْهِ مِنْ كَمَالٍ وَنَقْصٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ مِنْ أَشْيَاءِ الْعِبَادِ.

مَعْنَى الْآيَاتِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}1 الْآيَاتُ مَا زَالَ السِّيَاقُ الْكَرِيمُ فِي طَلَبِ تَأْدِيبِ
الْمُسْلِمِينَ وَتَرْبِيَّتِهِمْ وَإِعْدَادِهِمْ لِلْكَمَالِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ فِي الْآيَتَيْنِ (9) وَ (10) مِنْ هَذَا السِّيَاقِ
يُرْشِدُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى كَيْفِيَّةِ عِلَاجِ مَشْكَالَةِ النِّزَاعِ الْمَسْلُوحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي قَدْ يَحْدُثُ فِي
الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ بِحُكْمِ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ مِنَ الْوَقْتِ إِلَى الْوَقْتِ وَهُوَ مِمَّا يَكَادُ يَكُونُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ
الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ وَعَوَامِلُهُ كَثِيرَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا فَقَالَ تَعَالَى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ} أَي جَمَاعَتَانِ {مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَطْ {فَأَصْلِحُوا} أَيهَا الْمُسْلِمُونَ {بَيْنَهُمَا}2 بِالْقَضَاءِ عَلَى
أَسْبَابِ الْخِلَافِ وَتَرْضِيَّةِ الطَّرْفَيْنِ بِمَا هُوَ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَلَيْسَ هَذَا

- 1 قال مجاهد: نزلت هذه الآية في الأوس والخزرج حيث تقاتل حيان من الأنصار بالعصي والنعال.
- 2 قال القرطبي: بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما وقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كما قال معاذ: أحكم بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(5/128)

بصعب مع وجود قلوب مؤمنة وهداية ربانية وقوله {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا} أَي اعْتَدَتْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
بَعْدَ الصَّلْحِ

{عَلَى الْآخَرَى} بَأَنْ رَفَضَتْ حُكْمَ اللَّهِ الَّذِي قَامَتْ الْمَصَالِحَةُ بِمُوجِبِهِ {فَقَاتِلُوا} 1 مَجْتَمِعِينَ {الَّتِي تَبْغِي}
أَي تَعْتَدِي { حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} أَي إِلَى الْحَقِّ {فَإِنْ قَاعَتْ} أَي أَدْعَنْتِ لِلْحَقِّ وَرَضِيَتْ بِهِ
{فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا} فِي حُكْمِكُمْ دَائِمًا وَأَبْدًا {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} 2 . وَقَوْلُهُ تَعَالَى
فِي الْآيَةِ (10) {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} 3 وَانْقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} يَقْرُرُ تَعَالَى

الأخوة الإسلامية ويقصر المؤمنين عليها قصراً فليس المؤمنون إلا أخوة لبعضهم بعضاً ولذا وجب رَأْب كل صدع وإصلاح كل فاسد يظهر بين أفرادهم وعدم التساهل في ذلك { وَأَتَّقُوا اللَّهَ } في ذلك فلا تتوانوا أو تتساهلوا حتى تسفك الدماء المؤمنة ويتصدع بنيان الإيمان والإسلام في دياره وقوله {لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ} فلا يتصدع بنيانكم ولا تنتشتت أمتكم وتصبح جماعات وطوائف متعادية يقتل بعضها بعضاً. ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق. وقوله في الآية (11) لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ} إذ من عوامل النزاع والتقاتل وأسبابهما سخرية المؤمن بأخيه واحتقاره لضعف حاله وراثته ثيابه وقلة ذات يده فحرم تعالى بهذه الآية على المسلم أن يحتقر أخاه المسلم ويزدريه منبهاً إلى أن من احتقر وازدرى به وسخر منه قد يكون غالباً خيراً عند الله من المحتقر له والعبرة بما عند الله لا بما عند الناس والرجال في هذا والنساء سواء فلا يحل لمؤمنة أن تزدرى وتحتقر أختها المؤمنة عسى أن تكون عند الله خيراً منها والعبرة بالمنزلة عند الله لا عند الناس وكما حرم السخرية بالمؤمنين والمؤمنات لإفضائها إلى العداوة والشحناء ثم التقاتل حرم كذلك اللمز والتنازير بالألقاب فقال تعالى {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} ومعنى لا تلمزوا أنفسكم أي لا يعيب بعضكم بعضاً بأي عيب من العيوب فإنكم كشخص واحد فمن عاب

1 هذه الآية نص صريح في وجوب قتال أهل البغي، وهم الذين يخرجون عن إمام المسلمين ظلاماً وعدواناً بعد دعوتهم إلى الطاعة لله ورسوله وإمام المسلمين، ولا التفات إلى من يرى غير هذا، ومن أحكام قتال أهل البغي أنه لا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم أي لا يجهز عليه قتلاً ولا تسبى ذراريهم ولا نساؤهم ولا أموالهم.

2 روى مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا".

3 الآية دليل على أن اسم الإيمان لا يزول بالبغي فإن الله تعالى قال (بين أخويكم) فأثبت أخوة الإيمان ولم يسقطها بالبغي. روى أن علياً سئل عن قتال أهل البغي من أهل الجمل، وصفين، أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فروا فقل: أمناقون؟ قال لا لأن المنافقين لا يذكرهم الله إلا قليلاً، فقل له فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

4 قال عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً.

أخاه المسلم كأنما عاب نفسه كما أن المعاب قد يرد العيب بعيب من عابه وهذا معنى ولا تلمزوا أنفسكم وقوله ولا تتابزوا بالألقاب أي لا يلقب المسلم أخاه بلقب يكرهه فإن ذلك يفضي إلى العداوة والمقاتلة وقوله {بئس الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ} أي قبح أشد القبح أن يلقب المسلم بلقب الفسق بعد أن أصبح مؤمناً عدلاً كاملاً في أخلاقه وآدابه فلا يحل لمؤمن أن يقول لأخيه يا فاسق أو يا كافر أو يا عاهر أو يا فاسد، إِبْسِ الاسمِ اسم الفسوق كما أن الملقب للمسلم بالألقاب السوء يعد فاسقاً وبئس الاسم له أن يكون فاسقاً بعد إيمانه بالله ولقائه والرسول وما جاء به، وقوله تعالى {وَمَنْ لَمْ يَنْبُ} أي من احتقار المسلمين وازدرائهم وتلقيبهم بالألقاب يكرهونها {أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} المتعرضون لغضب الله وعقابه. وقوله في الآية (12) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا} ينادي الله تعالى المسلمين بعنوان الإيمان إذ به أصبحوا أحياء يسمعون ويبصرون ويقدررون على الفعل والترك إذ الإيمان بمثابة الروح إذا أخلت الجسم تحرك فأبصرت العين وسمعت الأذن ونطق اللسان وفهم القلب.

فيقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ} 1 وهو كل ظن ليس له ما يوجبه من القرائن و الأحوال والملابسات المقتضية له، ويعلل هذا النهي المقتضي للتحريم فيقول {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} وذلك كظن السوء بأهل الخير والصلاح فالأمة فإن ظن السوء فيهم قد يترتب عليه قول باطل أو فعل سوء أو تعطيل معروف، فيكون إثماً كبيراً، وقوله {وَلَا تَجَسَّسُوا} أي لا تتبعوا عورات المسلمين ومعاييبهم بالحث عنها والاطلاع عليها أمل في ذلك من الضرر الكبير، وقوله {وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا} أي لا يذكر أحدكم أخاه في غيبته بما يكره وهنا يروى في الصحيح من الأحاديث ما معناه أن رجلاً سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال له ذكرك أخاك بما يكره فقال الرجل فإن كان فيه ما يكره قال فإن كان فيه ما يكره فقد اغتبتته وإن لم يكن فيه فقد بهته والبهتان أسوأ الغيبة. وقوله أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ والجواب لا قطعاً إذاً فكما عرض عليكم لحم أخيك ميتاً فكرهتموه فاكرهوا إذاً أكل لحمه حياً وهو 3 عرضه والعرض أعز

1 قالت العلماء: الظن هو هنا التهمة بدون قرينة حال تدل عليها أو تدعو إليها وقد صح الحديث بتحريم الظن السيء بقوله صلى الله عليه وسلم
في رواية الصحيح "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً".

2 الغيبة عامة في الدين والخلق والحسب والنسب ولا وجه لتخصيصها بواحد مما ذكر، وكيف وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله "ذكرك أخاك بما يكره".

3 قال قتادة كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب جارية بذلك قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

(5/130)

وأغلى من الجسم وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ} في غيبة بعضكم بعضا فإن الغيبة من عوامل الدمار والفساد بين المسلمين، وقوله {إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} جملة تعليلية للأمر بالتوبة فأخبر تعالى أنه يقبل توبة التائبين وأنه رحيم بالمؤمنين ومن مظاهر ذلك أنه حرم الغيبة للمؤمن لما يحصل له من بها من ضرر وأذى. وقوله تعالى في الآية (13) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} هذا نداء هو آخر نداءات الله تعالى عباده في هذه السورة وهو أعم من النداء بعنوان الإيمان فقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ} من آدم وحواء باعتبار الأصل كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ} وبطونا وأفخاذا وفصائل كل هذا لحكمة التعارف فلم يجعلكم كجنس الحيوان لا يعرف الحيوان الآخر ولكن جعلكم شعوبا وقبائل وعائلات وأسر لحكمة التعارف المقتضي للتعاون إذ التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا لأجل التفاخر بالأنساب فإنه لا قيمة للحسب ولا للنسب إذا كان المرء هابطا في نفسه وخلقه وفسادا في سلوكه إن أكرمكم عند الله أتقاكم 1. إن الشرف والكمال فيما عليه الإنسان من زكاة روحه وسلامة خلقه وإصابة رأيه وكثرة معارفه وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} جملة تعليلية يبين فيها تعالى أنه عليم بالناس عليم بظواهرهم وبواطنهم وبما يكملهم ويسعدهم خبير بكل شيء في حياتهم فليسلم له التشريع بالتحليل والتحريم والأمر والنهي فإنه على علم بالحال والمآل وبما يسعد الإنسان وبما يشقيه فآمنوا به وأطيعوه تكملوا وتسعدوا.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب مبادرة المسلمين إلى إصلاح ذات البين بينهم كلما حصل فساد أو خلل فيها.
- 2- وجوب تعاون المسلمين على تأديب أية جماعة تبغي وتعتدي حتى تقيء إلى الحق.
- 3- وجوب الحكم بالعدل في أية قضية من قضايا المسلمين وغيرهم.
- 4- تقرير الأخوة الإسلامية ووجوب تحقيقها بالقول والعمل.
- 5- حرمة السخرية واللمز والتنازير بين المسلمين.
- 6- وجوب إجتناب كل ظن لا قرينة ولا حال قوية تدعو إلى ذلك.
- 7- حرمة التجسس أي تتبع عورات المسلمين وكشفها وإطلاع الناس عليها.

1 روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم "خطب بمكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاضمها بآبائها فالناس رجالان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله".

(5/131)

1- حرمة الغيبة والنميمة. والنميمة هي نقل الحديث على وجه الإفساد ولذا يجوز ذكر الشخص وهو غائب في مواطن هي التظلم بأن يذكر المسلم من ظلمه لإزالة ظلمه، الاستعانة على تغيير المنكر بذكر صاحب المنكر. الاستفتاء نحو قول المستفتي ظلمي فلان بكذا فهل يجوز له ذلك، تحذير المسلمين من الشر بذكر فاعله قصد أن يحذروه، المجاهر بالفسق لا غيبة له، التعريف بلقب لا يعرف الرجل إلا به.

2- حرمة التفاخر بالأنساب ووجوب التعارف للتعاون.

3- لا شرف ولا كرم إلا بشرف التقوى وكرامتها {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ} وفي الحديث "لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى" رواه الطبراني.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَنْتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

(5/132)

شرح الكلمات:

قالت الأعراب آمنا: هم نفر من بني أسد قدموا على الرسول وقالوا له آمنا وهم غير مؤمنين. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا: أي قل لهم إنكم ما آمنتم بعد ولكن قولوا أسلمنا أي استسلمنا وانقدنا. ولما يدخل الإيمان في قلوبكم: أي ولما يدخل الإيمان بعد في قلوبكم ولكنه يتوقع له الدخول. وإن تطيعوا الله ورسوله: أي في الإيمان والقيام بالفرائض واجتتاب المحارم. لا يليتكم من أعمالكم شيئا: أي لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا.

إن الله غفور رحيم: أي غفور للمؤمنين رحيم بهم إن هم صدقوا في إيمانهم.
إنما المؤمنون: أي حقا وصدقا لا إدعاء ونطقا هم.
الذين آمنوا بالله ورسوله: أي بالله ربا وإلها وبالرسول محمد نبيا ورسولا.
ثم لم يرتابوا: أي لم يشكوا فيما آمنوا به.
وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: أي جاهدوا مع رسول الله أعداء الله وهم الكافرون بأموالهم
وأنفسهم.
أولئك هم الصادقون: أي في إيمانهم لا الذين قالوا آمنا بألسنتهم واستسلموا ظاهراً ولم يسلموا باطناً.
قل أتعلمون الله بدينكم: أي قل لهم يا رسولنا أي لهؤلاء الأعراب أتشعرون الله بدينكم.
يمنون عليك أن أسلموا: أي كونهم أسلموا بدون قتال وغيرهم أسلم بعد قتال.
قل لا تمنوا علي إسلامكم: أي لا حق لكم في ذلك بل الحق لله الذي هداكم للإيمان إن كنتم
صادقين في دعوكم أنكم مؤمنون.
إن الله يعلم غيب السماوات والأرض: أي أن الله يعلم ما غاب في السماوات وما غاب في الأرض
فلا يخفى عليه أمر من صدق في إيمانه وأمر من كذب، ومن أسلم رغبةً ومن أسلم رهبةً.
معنى الآيات:
قوله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} [1] هؤلاء جماعة من أعراب بني أسد وفدوا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم

1 هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد، وليست عامة في كل الأعراب لأن منهم من يؤمن بالله واليوم
الآخر كبعض أعراب أسلم و غفار وجهينة ومزينة.

(5/133)

بالمدينة بأولادهم ونسائهم في سنة مجدية فأظهروا له الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في نفوسهم، فكانوا
يغدون على الرسول صلى الله عليه وسلم ويروحون ويقولون: أتتكَ العرب بأنفسها على ظهور
رواحها، ونحن قد جنناك بالأطفال والعيال والزرارى ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون
على رسول الله وهم يريدون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى هذه الآية تربية لهم وتعلما
إتماما لما اشتملت عليه سورة الحجرات من أنواع الهداية والتربية الإسلامية فقال تعالى {قَالَتِ
الْأَعْرَابُ} أعراب بني أسد آمنا أي صدقنا بتوحيد الله وبنبوتك. قل لهم ردا عليهم لم تؤمنوا بعد،
ولكن الصواب أن تقولوا أسلمنا أي أذعنا للإسلام وانقدنا لقبوله وهو الإسلام الظاهري، ولما يدخل
الإيمان في قلوبكم بعد وسيدخل إن شاء الله. وإن تطيعوا الله ورسوله أيها الأعراب في الإيمان الحق

وفي غيره من سائر التكاليف لا يلتكم 1 أي لا ينقصكم الله تعالى من أجور أعمالكم الصالحة التي تعملونها طاعة لله ورسوله شيئاً وإن قل. وقوله إن الله غفور رحيم في هذه الجملة ترغيب لهم في الإيمان الصالح والإسلام الصحيح فأعلمهم أن الله تعالى غفور للتائبين رحيم بهم وبالمؤمنين فتوبوا إليه وصدقوه يغفر لكم ويرحمكم وقوله تعالى في الآية (15) إنما المؤمنون الآية يعرفهم تعالى بالإيمان الصحيح دعوة منه لهم لعلهم يؤمنون فقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} 2 أي حقاً وصدقاً الذين آمنوا بالله رباً وإلهاً ورسوله نبياً مطاعاً، ثم لم يرتابوا، أي لم يشكوا أبداً في صحة ما آمنوا به، وجاهدوا أي أنفسهم وأزموها الاستعداد للنهوض بالتكاليف الشرعية في المنشط والمكروه، كما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعداء الإسلام من المشركين والكافرين وذلك الجهاد بالنفس والمال لا هدف له إلا طلب رضا الله سبحانه وتعالى أي لم يكن لأي غرض مادي دنيوي وإنما لرضا الله وإعلاء كلمة الله وهؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان وقوله تعالى في الآية (16) {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} أي قل يا رسولنا لأولئك الأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم أتعلمون الله بدينكم أي بإيمانكم وطاعتكم وتشعرونه بهما والحال أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم إنه لا معنى لتعليمكم الله بدينكم وهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض وهو بكل شيء عليم إنه مظهر من مظاهر جهلكم بالله تعالى، إذ لو علمتم أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض من دقيق

1 (لا يلتكم) أي لا ينقصكم يقال: لاته يلاته، ويلوته إذا نقصه وقرأ أبو عمرو (لا يأتاكم) مهموزاً من ألت يأت ألتاً نحو قوله تعالى: {وَمَا أَلْتَأَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} وشاهد الأول:

وليلة ذات ندى سرية

ولم يلتني عن سراها لبيت

2 لما نزلت هذه الآية: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية فأكذبهم الله تعالى في دعواهم الكاذبة فأنزل عز وجل {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} أي: الذي أنتم عليه؟

(5/134)

وجليل لما فهمتم بما فهمتم به من إشعاركم الله بإيمانكم وطاعتكم له. قوله تعالى في الآية (17) {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} 2 أي من أولئك الأعراب عليك يا رسولنا إيمانهم إذ قالوا آمنا بك ولم نقاقلك كما فعل غيرنا قل لهم لا تمنوا علي إسلامكم واضرب عن هذا وقل لهم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان، فالمنة لله عليكم لا أن تمنوا أنتم على رسوله. وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي كل ما غاب في السماوات وما غاب في

الأرض من سانح في السماء وسابح في الماء وسارح في الغبراء فليس في حاجة أن تعلموه بدينكم وتمنونه على رسوله صلى الله عليه وسلم بما تعملون من عمل قل أو كثر خفي أو ظهر فاعلموا هذا وتأدبوا مع الله وأحسنوا الظن فيه تتجوا من هلاك لازم لنا أساء الظن بالله وأساء الأدب مع رسول الله.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان طبيعة أهل البادية وهي الغلظة والجفاء والبعد عن الكياسة والأدب.
- 2- بيان الفرق بين الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان من أعمال القلوب والإسلام من أعمال الجوارح. وإذا افترقا فالإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان والحقيقة هي أنه لا يوجد إيمان صحيح بدون إسلام صحيح، ولا إسلام صحيح بدون إيمان صحيح، ولكن يوجد إسلام صوري بدون إيمان، وتوجد دعوى إيمان كاذبة غير صادقة.
- 3- بيان المؤمنين حقا وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.
- 4- بيان حكم المن وأنه مذموم من الإنسان ومحمود من الرحمن عز وجل وحقيقة المن هي عد النعمة وذكرها للمنع عليه وتعدادها المرة بعد المرة.
- 5- بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.

1 (يمنون) إشارة إلى قولهم جنناك بالأتقال والعيال كما تقدم في التفسير.

2 (أن أسلموا) حرف الجر محذوف الأصل، بأن أسلموا أي: إسلامهم.

3 ذيل الكلام بهذه الجملة (إن الله يعلم) الخ ليعلموا أن الله لا يكتف وأنه لا يكذب عليه لعلمه بالغيوب كلها، وفي هذا تقويم لأخلاقهم وتربية وتأديب لهم.

(5/135)

سورة ق

...

سورة ق 1

مكية

وآياتها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) إِذَا مِتْنَا

وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ (5)

شرح الكلمات:

ق : هذا أحد الحروف المقطعة التي تكتب هكذا ق ونقرأ هكذا قاف.

والقرآن المجيد : أي والقرآن المجيد أي الكريم قسماً لقد أرسلنا محمداً مبلغاً عنا.

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم : أي بل عجب أهل مكة من مجيء منذر أي رسول منهم ينذرهم عذاب الله يوم القيامة.

فقال الكافرون هذا شيء عجيب : أي فقال المكذبون بالبعث هذا أي البعث بعد الموت والبلوى شيء عجيب.

أنذا متنا وكنا تراباً : أنذا متنا وصرنا تراباً أي رفاة وعظاماً نخرة نرجع أحياء.

ذلك رجوع بعيد : أي بعيد بالإمكان في غاية البعد.

قد علمنا ما تنقص الأرض منهم : أي قد أحاط علمنا بكل شيء فعلمنا ما تنقص الأرض من

1 صح في الموطأ وفي مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بهذه السورة في صلاة الصبح وفي عيدي الأضحى والفطر أيضاً مع سورة القمر.

(5/136)

أجساد الموتى وما تأكل من لحومهم وعظامهم فكيف يستبعد منا إحيائهم بعد موتهم.

وعندنا كتاب حفيظ : أي كتاب المقادير الذي قد كتب فيه كل شيء ومن بين ذلك أعداد الموتى

وأسمائهم وصورهم وأجسامهم ويوم إعادتهم.

بل كذبوا بالحق لما جاءهم : بل كذب المشركون بما هو أفتح من تكذيبهم بالبعث وهو تكذيبهم بالنبوة المحمدية وبالقرآن ومن نزل عليه.

فهم في أمر مريح : أي مختلط عليهم فهم فيه مضطربون لا يثبتون على شيء إذ قالوا مرة سحر

ومرة قالوا شعر ومرة كهانة وأخرى أساطير.

معنى الآيات:

قوله تعالى {ق} الله أعلم بمراده به إذ هو من الحروف المقطعة الأحادية نحو ص. ون وقوله تعالى

{وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ 1} أي الكريم فالقرآن مجيد كريم بما فيه من الخير والبركة إذ قراءة الحرف الواحد منه

بعشر حسنة. وقوله والقرآن المجيد قسم والجواب محذوف تقديره إن محمداً لرسول أمين. وقوله

تعالى {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم وإنما أنكروا كون

المرسل بشراً مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله {فَقَالَ الْكَافِرُونَ} أي بالبعث {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار تراباً لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم {إِذَا مِتْنَا 3 وَكُنَّا تُرَابًا} ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق. قال تعالى {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ 4 الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ 5 حَفِيفٌ} هذه برهنة واضحة على إبطال دعواهم وتحقيق عقيدة البعث أي قد علمنا ما تنقص الأرض منهم بعد الموت من لحم وعظم، وعندنا كتاب حفيظ قد حوى كل شيء وحفظه مادة وكمية وكيفية بمقتضاه يعود

1 المجيد: المتصف بقوة المجد، والمجد والمجادة: الشرف الكامل، وكرم النوع ولذا فالقرآن يفوق في مجده كل كلام على الإطلاق حتى الكلام الموحى به إلى رسل الله عليهم السلام.
2 (بل) للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من تقرير النبوة المحمدية التي أثبتها بالقسم إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء إذ أورد قول الكافرين المنكرين لها ثم أثبتها بالأدلة القاطعة من عدة آيات كأنما قال: دع ذا واسمع ما أقول. و(أن جاءهم) مجرور بمن محذوف أي من أن جاء وبعد السبك من مجيئهم.
3 الاستفهام للإبطال والتعجب والمتعجب منه محذوف تقديره أترجع إلى الحياة بعد انعدامنا بالموت وصيرورتنا تراباً؟

4 قوله (ما تنقص الأرض) إشارة إلى أن هناك أجساداً لا تبدي كلها بل يبقى أعضائها، وإلى أن عجب الذنب لا يفنى ولا يبدي بل يبقى كما هو ليعاد الخلق به يوم القيامة.
5 التذكير في (كتاب) للتعظيم وبدل عليه قوله (حفيظ).

(5/137)

الخلق كما بدأ لا ينقص منه شيء وقوله، {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} أي إن هناك ما هو أشنع من إنكارهم وأقبح عقلاً وهو تكذيبهم بالقرآن ومن أنزل عليه وهو الحق من الله فلذا هم فيه في أمر مريج أي مختلط فمرة قالوا في الرسول إنه ساحر وقالوا شاعر وقالوا مفتر كذاب وقالوا في القرآن أساطير الأولين فهم حقا في أمر مريج مختلط عليهم لا يدرون ما يقولون ويثبتون عليه.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان شرف القرآن ومجده وكرمه.
- 2- تقرير البعث والوحي الإلهي.
- 3- البرهنة الصحيحة الواضحة على صحة البعث والجزاء وإمكانهما.

4- تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير كتاب المقادير.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

شرح الكلمات:

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم: أي أعملوا فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى السماء كائنة فوقهم فيعلموا أن استبعادهم للبعث غير صحيح.
كيف بنيناها وزيناها: أي كيف بنيناها بلا عمد. وزيناها بالكواكب.
وما لها من فروج: أي وليس لها من شقوق تعيبها.
والأرض مددناها 1: أي بسطناها

1 (الأرض) منصوب على الاشتغال أي: مددنا الأرض مددناها.

(5/138)

وألقينا فيها رواسي: أي جبالا رواسي ثوابت لا تسير ولا تتحرك مثبتة للأرض كي لا تميد بأهلها.
وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج 1: أي وأنبتنا في الأرض من كل صنف من أنواع النباتات حسن.
تبصرة وذكرى لكل عبد منيب: أي جعلنا ذلك تبصرة وذكرى منا لكل عبد منيب إلى طاعتنا رجاء إلينا.

ونزلنا من السماء ماء مباركا: أي ماء المطر كثير البركة.
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد: أي أنبتنا بماء السماء بساتين وحب الحصيد أي المحصول من البر والشعير.

والنخل باسقات 2: أي وأنبتنا بالماء النخيل الطوال العاليات.
لها طلع نضيد: أي لها طلع منضد متراكب بعضه فوق بعض.
رزقا للعباد: أي أنبتنا ما أنبتنا من الجنات والحب الحصيد والنخل الباسقات قوتا للعباد ورزقا لهم مؤمنهم وكافرهم.

وأحيينا به بلدة ميتة: وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة ميتة لا نبات فيها من الجذب الذي أصابها والقحط.

كذلك الخروج: أي كما أخرجنا النبات من الأرض الميتة بالماء نخرجكم أحياء من قبوركم يوم القيامة

بماء نزله من السماء على الأرض فتبتون كما ينبت البقل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث وهي العقيدة التي بني عليها كل إصلاح يراد للإنسان بعد عقيدة الإيمان بالله تعالى ربا وإلهاً قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا 3 إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ 4 بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي أعني أولئك المنكرون للبعث المكذبون بقاء ربهم يوم القيامة فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى حجم السماء الواسع العالي الرفيع الكائن فوقهم وقد رفع بلا عمد ولا سند. وقد زينه خالقه بكواكب نيرة وأقمار منيرة وشموس مضيئة ولم ير في السماء

1 (من) ليست للتبعيض بل هي للتأكيد إلا أن زيادتها مع الإثبات نادرة كما هنا.

2 لا يقال للتبويض: باسق إلا إذا كان طوله في علو وارتفاع أما ما يكون طوله في امتداد وانبساط فلا يقال له باسق.

3 الاستفهام للإنكار عليهم عدم النظر لتقرر به عقيدة البعث والجزاء، والفاء تفرعية على إنكارهم السابق للبعث الآخر.

4 (فوقهم) ظرف في محل الحال، وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع والاستمساك وعدم السقوط والانهيار.

(5/139)

من تصدع ولا شقوق 1 ولا تفطر الحياة كلها أليس على خلق السماء قادر على إحياء موتى خلقهم وأماتهم بقدرته أليس القادر على الخلق ابتداء وعلى الإمامة ثانية بقادر على إحياء من خلق وأمات؟ 2 وقوله ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي مالهم لا ينظرون إلى الأرض أي بسطها وألقى فيها الجبال لتثبيتها حتى لا تميد بهم، وقوله ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ أي صنف من النباتات والزرع بهيج المنظر حسنه، وقوله ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عِيدٍ مُنِيبٍ﴾ وقوله ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ 3﴾ أي أليس الذي أنزل من السماء ماء مباركاً لما يكثر به من الخيرات والبركات من النبات والحيوان فأنبت به جنات أي بساتين من أشجار ونخيل وأعناب، وأنبت به حب الحصيد وهو كل حب يحصد عند طيبه من قمح وشعير وذرّة وغيرها وأنبت به النخل الباسقات العاليات المرتفعات في السماء لها طلوعها النضيد المتركب بعضه فوق بعض ليتحول إلى رطب شهى يأكله الإنسان وقوله رزقا للعباد أي قوتا لهم يقتاتون به مؤمنين وكافرين إلا أن المؤمن إذا أكل شكر والكافر إذا أكل كفر، وقوله ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ 4﴾ أي بالماء الذي أنزلناه من السماء مباركاً بلدة ميتا لا نبات بها ولا عشب ولا كلاً فأصبحت تهتز رابية

كذلك الخروج أي هكذا يكون خروجكم من قبوركم أيها المنكرون للبعث ينزل الله من السماء ماء فتنبتون وتخرجون من قبوركم كما يخرج الشجر والزرع من الأرض بواسطة الماء المبارك فبأي عقل تتكرون البعث أيها المنكرون. إنها كما قال تعالى {لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث بمظاهر القدرة الإلهية في الكون.
 - 2- مشروعية النظر والاعتبار فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون والحياة للعبارة طلباً لزيادة الإيمان والوصول به إلى مستوى اليقين.
 - 3- فضل العبد المنيب وفضيلة الإنابة إلى الله تعالى والمنيب هو الذي يرجع إلى ربه في كل ما يهمله والإنابة التوبة إلى الله والرجوع إلى طاعته بعد معصيته.
- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

- 1 من آيات القدرة والعلم الإلهيين: كون السماء على شكل قبة مرفوعة في قالب لا تشقق فيها ولا تصدع مزينة بأنواع النجوم والكواكب.
- 2 بلى إنه لقادر بلا مرية ولا شك.
- 3 (رزقا) منصوب على أنه مفعول لأجله.

(5/140)

لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيَّبْنَا بِالْأَوَّلِ بَلٌ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

شرح الكلمات:

كذبت قبلهم قوم نوح: أي قبل قومك يا رسولنا بالبعث والتوحيد والنبوة قوم نوح.
وأصحاب الرس وثمود: أي وكذب أصحاب الرس وهي بئر كانوا مقيمين حولها يعبدون الأصنام وثمود وهم أصحاب الحجر قوم صالح.
وعاد وفرعون: وكذبت عاد قوم هود، وكذب فرعون موسى عليه السلام.
وإخوان لوط وأصحاب الأيكة: أي وكذب قوم لوط أخاهم لوطاً، وكذب أصحاب الأيكة شعيباً.
وقوم تبع: أي وكذب قوم تبع الحميري اليمني.
كل قد كذب الرسل: أي كل من ذكر قد كذب الرسل فلست وحدك المكذب يا محمد صلى الله عليه

وسلم.

فحق وعيد :أي فوجب وعيدي لهم بنزول العذاب عليهم فنزل فهلكوا.
أفعيينا بالخلق الأول 1 :أي أفعيينا بخلق الناس أولاً والجواب لا إذا فكيف نعي بخلقهم ثانية وإعادتهم
كما كانوا؟.

بل هم في لبس من خلق جديد :أي هم غير منكرين لقدرة الله عن الخلق الأول بل هم في خلط
وشك من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة وهي أن كل من مات منهم يروونه يفنى ولا يعود حياً.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء وإثبات النبوة للرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى
{كذَّبَتْ 2 قَبْلَهُمْ} أي قبل قريش المكذبين بالبعث والجزاء وبالنبوة المحمدية كذبت قبلهم قوم نوح وهي
أول أمة كذبت وعاش نوح نبيها ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوها إلى الله فلم يؤمن منهم أكثر من
نيف وثمانين نسمة، وأصحاب الرس أيضاً قد أخذوا نبيهم ورسوه في بئر فقتلوه فأهلكهم الله

1 أي: (أفعيينا) به فنعني بالبعث وهو توبيخ لمنكري البعث وجواب على قولهم ذلك رجع بعيد يقال:
عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه هذا في المعاني أما في الذوات فعيي بمعنى عجز ولم يقدر عليه.
2 هذا استئناف ابتدائي الغرض منه تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم بإعلامه أن أمماً كثيرة قد
كذبت رسلها قبل تكذيب قومه له صلى الله عليه وسلم.

(5/141)

تعالى في بئر كانوا يقيمون على أصنام حولها يعبدونها فأهلكهم في تلك البئر وأهلك ثموداً وهم قوم
صالح، وعاداً وهم قوم هود وفرعون موسى وقوم لوط 1، وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف إذ كانوا
يعبدون أشجار تلك الأيكة، وقوم تبع وهو تبع الحميري اليمني. وقوله تعالى {كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ} أي
كل تلك الأمم التي ذكرنا كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ولا بما جاءهم به من التوحيد والشرع {فَحَقَّ
وَعِيدِ} 2 أي فوجب لذلك عذابهم الذي وعدتهم به على السنة رسلي إن لم يؤمنوا فأهلكناهم أجمعين
وقومك يا محمد هم موعودون أيضاً بالعذاب إن لم يبادروا بالإيمان والطاعة. قوله تعالى {أَفَعَيَّبْنَا 3
بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} والجواب لا إذ الاستفهام للنفي أي لم يعي الله تعالى بخلق كل ما خلق من الملائكة
والإنس والجن فكيف إذا يعيى بالإعادة وهي أهون من البدء والبدائية، وقوله تعالى {يَلِ هُمْ 4 فِي لَبْسٍ
مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي أنهم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول بل هم في لبس أي خلط وشك من
خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة حيث هم يرون الناس يموتون ولا يحيون.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم وتسليته بإعلامه بأن قومه ليسوا أول من كذب الرسل.
- 2- تهديد المصريين على التكذيب من كفار قريش بالعذاب إذ ليسوا بأفضل من غيرهم وقد أهلكوا لما كذبوا.

3- تقرير البعث والجزاء وإثبات عقيدتهما بالأدلة العقلية كبدء الخلق.

4- ضعف إدراك المنكرين للبعث لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ

1 قوله تعالى: {وَأَخْوَانُ لُوطٍ} عبر بالإخوان دون القوم تنويع للأسلوب والمراد بهم قوم لوط، والأخوة هنا أخوة تلازم ومواطنه وما هي بأخوة دين ولا نسب وأصحاب الأيكة: هم قوم شعيب عليه السلام.

2 أي: صدق وعده فيهم ووجب وقوعه عليهم.

3 الاستفهام للإنكار والتغليظ إذ لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله تعالى الذي خلق كل شيء في الأرض والسماء ومن جملة ذلك خلقهم هم المنكرون للبعث فكيف يعجز عن إعادة خلقهم مرة أخرى للجزاء والحساب.

4 (بل) للإضراب الإبطالي أي: ما عيينا بالخلق الأول.

(5/142)

(17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ
(19) وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) فَذُكِّرْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَّرْنَاكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

شرح الكلمات:

ولقد خلقنا الإنسان: أي خلقناه بقدرتنا وعلما لحكمة اقتضت خلقه فلم نخلقه عبثا.

ونعلم ما توسوس به نفسه: أي ونعلم ما تحدث به نفسه أي نعلم ما في نفسه من خواطر وإرادات.

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد: أي نحن بقدرتنا على الأخذ منه والعطاء والعلم بما يسر ويظهر أقرب إليه من حبل الوريد الذي هو في حلقه.

إذ يتلقى المتلقيان: أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عمله فيكتبانه.

عن اليمين وعن الشمال قعيد: أي أحدهما عن يمينه قعيد والثاني عن شماله قعيد أيضا.

ما يلفظ من قول: أي ما يقول من قول.

إلا لديه رقيب عتيد :أي إلا عنده ملك رقيب حافظ عتيد حاضر معد للكتابة.
وجاءت سكرة الموت بالحق :أي غمرة الموت وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر لها
عيانا.

ذلك ما كنت منه تحيد :أي ذلك الموت الذي كنت تهرب منه وتفزع.
ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد :أي ونفخ إسرافيل في الصور الذي هو القرن ذلك يوم الوعيد
للكفار بالعذاب.

معها سائق وشهيد :أي معها سائق يسوقها إلى المحشر وشهيد يشهد عليها.

1 هذه الحكمة هي ذكره تعالى وشكره بأنواع العبادات بقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وسائر المخلوقات هي لأجل الناس فعاد الأمر إلى أن المخلوقات كلها مخلوقة لعة
العبادة.

2 القعيد معنى القاعد كالجليس بمعنى الجالس.

(5/143)

لقد كنت في غفلة من هذا :أي من هذا العذاب النازل بك الآن.
فكشفتنا عنك غطاءك :أي أزلنا عنك غفلك بما تشاهده اليوم.
فبصرك اليوم حديد :أي حاد تدرك به ما كنت تتكره في الدنيا من البعث والجزاء.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ حسب سنتنا
في الخلق خلقناه بقدرتنا وعلما لحكمة 1 اقتضت خلقه منا ولم نخلقه عبثا ونحن نعلم ما توسوس به
نفسه أي ما تتحدث به نفسه من إرادات أو خواطر ، ونحن أي رب العزة والجلال أقرب إليه من حبل
الوريد2 فلو أردنا أن نأخذ منه أو نعطيه أو نسمع منه أو نعلم به لكننا على ذلك قادرين وقرينا في
ذلك منه أقرب من حبل عنقه إلى نفسه وذلك في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان المتلقيان سائر أقواله
وأعماله يثبتانها ويحفظانها وقوله عن اليمين وعن الشمال قعيد أي أحد الملكين وهو المتلقيان عن
يمينه قاعد والثاني عن شماله قاعد هذا يكتب الحسنات وذاك يكتب السيئات.

ولفظ قعيد معناه قاعد كجليس بمعنى مجالس أو جالس، وقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي ما يقول
الإنسان إلا لديه رقيب عتيد أي إلا عنده ملك رقيب حافظ، وعتيد حاضر لا يفارقانه مدى الحياة إلا
أنهما يتناوبان ملكان بالنهار وملكان بالليل ويجتمعون في صلاتي الصبح والعصر وقوله تعالى
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ 3 بِالْحَقِّ﴾ أي وإن طال العمر فلا بد من الموت وهاهي ذي قد جاءت سكرة

الموت أي غمرته وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر للبعث والدار الآخرة المكذب به يراه عياناً. {ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ} أي قال له هذا الموت الذي كنت منه تحيد أي تهرب وتفزع. قوله تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} أي نفخ إسرافيل في الصور أي القرن الذي قد التقمه وجعله في فيه من يوم بعث النبي الخاتم نبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم وهو ينتظر متى يؤمر فينفخ نفخة الفناء ذلك أي يوم ينفخ في الصور هو يوم الوعيد4 بالعذاب للكافرين، وفعلاً نفخ في الصور نفخة البعث بعد نفخة الفناء {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} أي ملك يسوقها إلى

1 تقدم بيان الحكمة للخلق تحت رقم واحد من هذا السياق في شرح الكلمات.

2 الوريد: واحد الشرايين، وهو ثاني شريائين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدميهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، والحبل: العرق والجمع عروق ويختلف اسمه باختلاف موضعه من الجسم.

3 السكره: اسم لما يعتري الإنسان من ألم واختلال في المزاج يحد من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة وهو مشتق من السكر وهو الغلق لأنه يغلق العقل، ومنه جاء وصف السكران. 4 يوم وعيد للكافرين ويم وعد صادق للمؤمنين، ولما كان السياق في دعوة الكافرين إلى الإيمان ذكر الوعيد دون الوعد.

(5/144)

المحشر وملك شاهد يشهد عليها. ويقال لذلك الذي جاء به سائق يسوقه وشاهد يشهد عليه لقد كنت في غفلة من هذا أي كنت في الدنيا في غفلة عن الآخرة وما فيها وغفلتكم من شهواتكم ولذاتكم وغرورك بالحياة الدنيا من هذا العذاب النازل بك الآن فكشفنا عنك غفلتك بما تشاهده اليوم عياناً بياناً من ألوان العذاب فبصرك اليوم حديد أي حاد تدرك به وتبصر ما كنت تكفر به في الدنيا وتتكبره.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان قدرة الله وعلمه وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ألا فليتيق الله امرؤ.
- 2- تقرير عقيدة أن لكل إنسان مكلف ملكين يكتبان حسناته وسيئاته.
- 3- بيان أن للموت سكرات قطعاً اللهم هون علينا سكرات الموت.
- 4- ساعة الاحتضار يؤمن كل إنسان بالدار الآخرة إذ يرى ما كان ينكره يراه بعينه.
- 5- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض بعض أحوال وأهوال الآخرة.

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) 1يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

شرح الكلمات:

وقال قرينه: أي الملك الموكل به.

هذا ما لدي عتيد: أي هذا عمله حاضر لدي.

1 قرأ نافع: (يوم يقول) بالياء, وقرأ حفص (نقول) بالنون.

(5/145)

كل كفار عنيد: أي كثير الكفر والحدود لتوحيد الله وللقائه ولسوله معاند كثير العناد.
مناع للخير معتد مريرب: أي مناع للحقوق والواجبات من مال وغيره.
الذي جعل مع الله إلهاً آخر: أي أشرك بالله فجعل معه آلهة أخرى يعبدها.
ربنا ما أطغيتته: أي يقول قرينه من الشياطين يا ربنا ما أطغيتته أي ما حملته على الطغيان.
ولكن كان في ضلال بعيد: أي ولكن الرجل كان في ضلال بعيد عن كل هدى متوغلا في الشرك والشر.

وقد قدمت إليكم بالوعيد: أي قدمت إليكم وعيدي بالعذاب في كتبي وعلى لسان رسلي.
ما يبدل القول لدي: أي ما يغير القول عندي وهو قوله لأملأن جهنم منكم أجمعين.
يوم نقول لجهنم هل امتلأت: أي وما الله بظلام للعبيد يوم يقول لجهنم هل امتلأت.
وتقول هل من مزيد: أي لم أمتليء هل من زيادة فيضع الجبار عليها قدمه فتقول قط قط.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مشاهد القيامة وأحوال الناس فيها فقال تعالى {وَقَالَ قَرِينُهُ}1 أي قال قرين2 ذلك الكافر الذي جيئ به إلى ساحة فصل القضاء ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه. قال قرينه وهو الملك الموكل به هذا ما لدي أي من أعمال هذا الرجل الذي وكلت بحفظ أعماله وكتابتها عتيد أي حاضر. وهنا يقال لمن استحق النار {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ} وهو الخطاب لمن3 جاء به وهما السائق والشهيد {كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ} فهذه خمس صفات قد اجتمعت في شخص واحد فأوبقته الأولى {كَفَّارٍ} أي كثير الكفر الذي هو الجحود لما يجب الإيمان به والتصديق من سائر أركان الإيمان الستة، والثانية عنيد والعنيد التارك لكل ما يوجب

عليه المعاند في الحق المعاكس في المعروف وهي شر صفة، الثالثة مناع للخير أي كثير المنع للخير ما لا كان أو غيره لا يبذل معروفاً قط؛ الرابعة معتد أي على حدود

1 الواو واو الحال، والجملة الحالية، وصاحب الحال تاء الخطاب في قوله تعالى {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} والقرين، بمعنى مقرون وهو مأخوذ من القرن بفتح القاف والراء وهو الحبل إذ كانوا يقرنون البعير بمثله بحبل سموه القرن.

2 اختلف في تحديد القرين على ثلاثة أقوال وما ذكر في التفسير هو أرجحها.

3 وجائز أن يكون خطاباً لواحد بصيغة التثنية على حد قول الشاعر: قفا بنك من ذكرى حبيب ومنزل.

(5/146)

الشرع معتد على الناس ظالم لهم بأكل حقوقهم وأذيتهم في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم الخامسة مريب أي شاك لا يعرف التصديق بشيء من أمور الدين فهو جامع لكل أنواع الكفر وقوله {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا} وهذا وصف سادس وهو أسوأ تلك الصفات وهو اتخاذها آخر يعبده دون الله تعالى وقوله تعالى {فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} هذا أمر آخر أكد به الأمر الأول وهو ألقيا في جهنم كل كفار عنيد. وقوله تعالى {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} قال هذا القول القرين لما قال المشرك معتذراً رب إن قريني من الشياطين أطعاني فرد عليه القرين بما أخبر تعالى به عنه في قوله قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد فقال الرب تعالى {لَا تَخْصِمُوهُمَا 1 لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} فرد الله حجة كل من الكافر والقرين من الشياطين وأعلمهما أنه قد قدم إليهما بالوعد في كتبه وعلى ألسن رسله من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالداً فيها أبداً.

وقوله تعالى {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} أخبر 2 تعالى أن حكمه نافذ فيمن كفر به وعصى رسله إذ سبق قوله لإبليس عندما أخرج آدم من الجنة بوسواسه وهو لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين. فهذا القول الإلهي لا يبدل ولا يقدر أحد على تبديله وتعويره وقوله {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} نفى تعالى الظلم عن نفسه والظلم هو أن يعذب مطيعاً، أو يدخل الجنة كافراً عاصياً. وقوله تعالى {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} أي اذكر يا نبينا لقومك المنهمكين في الشرك والمعاصي ما ينتظر أمثالهم من عذاب جهنم اذكر لهم يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد بعدما يدخل فيها كل كافر وكافرة من الإنس والجن وتقول طالبة الزيادة هل من مزيد؟ ولما لم يبق أحد يستحق عذاب النار يضع الجبار فيها قدمه فينزوي بعضها في

بعض وتقول قط قط والحديث معناه في الصحيحين وغيرهما.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

2- التحذير من الصفات الست التي جاءت في الآية وهي الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء

1 النهي عن المخاصمة دال على أن النفوس الكافرة ادعت أن قرناءها أطغوها، وأن القرناء تتصلوا من ذلك، وأن النفوس أعادت القول فكانت بذلك خصومة فأسكتهم الحق عز وجل بقوله: {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ}.

2 المبالغة في وصف (ظلام) راجعة إلى تأكيد النفي المطلق إذ المراد لا أظلم شيئاً من الظلم، وليس المعنى ما أنا بكثير الظلم أو شديده إذ الأمر في أمثلة المبالغة أن يقصد بها المبالغة في النفي. قال طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد

إذ لم يرد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي إذ هو لم يحل في تلة بالمرّة جبناً وخوفاً.

(5/147)

والشك والشرك.

3- بيان خصومة أهل النار من إنسان وشیطان.

4- نفي الظلم عن الله تعالى وهو كذلك فلا يظلم الله أحداً من خلقه.

5- إثبات 1 صفة القدم للرب تعالى كما يليق هذا الوصف بذاته التي لا تشبه الذوات سبحانه وتعالى عن صفات المحدثين من خلقه.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوَعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

شرح الكلمات:

وأزلفت الجنة للمتقين: أي قربت الجنة للمتقين الذي اتقوا الشرك والمعاصي.

غير بعيد 2 : أي مكانا غير بعيد منهم بحيث يرونها.

لكل أوّاب حفيظ: أي رجاع إلى طاعة الله كلما ترك طاعة عاد إليها حافظ لحدود الله.

من خشي الرحمن بالغيب: أي خاف الله تعالى فلم يعصه وإن عصاه تاب إليه وهو لم يره.
وجاء بقلب منيب: أي مقبل على طاعته تعالى.
ادخلوها بسلام: أي ويقال لهم وهم المتقون ادخلوها أي الجنة بسلام أي مع سلام وحال كونكم
سالمة من كل مخوف.
ولدينا مزيد: أي مزيد من الإنعام والتكريم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

1 أخرج مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة" نزع هنا بعض أهل العلم كالقرطبي إلى تأويل القدم ففسرها بما يقدم للنار من أقوام وأولوا كذلك لفظ الرجل في حديث "حتى يضع الله عليها رجله" وقال الرجل بمعنى العدد الكثير من الناس كالرجل من الجراد، ولا داعي لهذا التأويل الذي لم يؤوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث به أصحابه فالأسلم للمؤمن أن يؤمن بصفات الله ويمررها كما جاءت فالقدم، والرجل كاليد والعين صفات ذات لله يؤمن العبد بها وهو يعتقد أنها لا تشبه صفات العباد وهي كذلك والحمد لله.

2 (غير بعيد) نعت لمحذوف تقديره مكانا غير بعيد من المتقين والإزلاف للتقريب.

(5/148)

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير البعث والجزاء بذكر بعض مظاهره قال تعالى بعدما ذكر ما لأهل النار من عذاب {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ} أي 1 أدنيت وقربت {لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} وهم الذين اتقوا الله بترك الشرك والمعاصي فلا تركوا فريضة ولا غشوا كبيرة. 2 وقوله تعالى هذا ما توعدون أي يقال لهم هذا ما توعدون أي من النعيم المقيم، لكل أبواب حفيظ أي رجاء إلى طاعة الله تعالى حفيظ أي حافظ لحدود الله. حفيظ أيضا بذنوبه لا ينساها كلما ذكرها استغفر الله تعالى منها. وقوله من خشي الرحمن بالغيب هذا بيان للأبواب الحفيظ وهو من خاف الرحمن تعالى بالغيب أي وهو غائب عنه لا يراه ولم يعصه بترك واجب ولا بفعل حرام، وقوله وجاء بقلب منيب 3 أي إلى ربه أي مقبل على طاعته بذكر الله فلا ينساه ويطيعه فلا يعصيه، وقوله تعالى ادخلوها أي يقال لهم أي للمتقين ادخلوها أي الجنة 4 بسلام أي مسلما عليكم مسالمين من كل مخوف كالموت والمرض والألم والحزن وذلك يوم الخلود أي في الجنة وفي النار فأهل الجنة خالدون فيها وأهل النار خالدون 5 فيها وقوله لهم ما يشاءون فيها أي لأهل الجنة ما يشاءون أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذذه أعينهم وقوله ولدينا مزيد أي وعندنا لكم

مزيد من النعيم وهو النظر إلى وجهه الكريم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- فضل التقوى وكرامة المتقين على رب العالمين.

2- فضل الأواب الحفيظ وهو الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربه.

3- بيان أكبر نعيم في الجنة وهو رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ

1 عطف على (يوم نقول لجهنم هل امتلأت).

2 أ، تركوا وغشوا ولكن تابوا وصحت توبتهم فقبلت منهم فهم كمن لم يترك لم يترك فريضة ولم يغش كبيرة إذ التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

3 أي: حضر يوم القيامة مصاحباً قلبه المنيب إلى الله، وفي الحديث: "من مات على شيء بعث عليه" فهذا العبد عاش ومات على قلب منيب فبعثه به شاهد عليه بالإجابة إلى ربه.

4 هذا كقوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ}.

5 هذا المطلق من الأخبار مقيد قطعاً بمن مات على الشرك والكفر أما من مات على الإيمان والتوحيد فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها إلى الجنة ومن ينكر هذا كالخوارج فقد كذب الله ورسوله ومن كذب الله ورسوله عامداً فقد كفر.

(5/149)

لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَاللَّيْلَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٍ (4 5)

شرح الكلمات:

وكم أهلكننا قبلهم من قرن: أي كثيرا من أهل القرون قبل كفار قريش وأهلكناهم.

هم أشد منهم بطشا: أي أهل القرون الذين أهلكناهم قبل كفار قريش هم أشد قوة وأعظم أخذا من

كفار قريش ومع هذا أهلكتناهم.

فنتقّبوا في البلاد هل من محيص : أي بحثوا وفتشوا في البلاد عليهم يجدون مهرياً من الهلاك فلم يجدوا.

إن في ذلك لذكرى : أي إن في المذكور من إهلاك الأمم القوية موعظة.

لمن كان له قلب أو ألقى السمع: أي موعظة تحصل للذي له قلب حي وألقى سمعه يستمع.

وهو شهيد: وهو شهيد أي حاضر أثناء استماعه حاضر القلب والحواس.

وما مسنا من لغوب: أي من نصب ولا تعب.

فاصبر على ما يقولون: أي فاصبر يا رسولنا على ما يقوله اليهود وغيرهم من التشبيه لله والتكذيب بصفاته.

(5/150)

وسبح بحمد ربك قبل طلوع: أي صل حامداً لربك قبل طلوع الشمس وهي صلاة الفجر.

الشمس

وقبل الغروب: أي صل صلاة الظهر والعصر.

ومن الليل فسبحه : أي صل صلاتي المغرب والعشاء.

وأدبار السجود: أي بعد أداء الفرائض فسبح بألفاظ الذكر والتسبيح.

واستمع : أي أيها المخاطب إلى ما أقول لك.

يوم ينادي المناد من مكان قريب : أي يوم ينادي إسرئيل من مكان قريب من السماء وهو صخرة

بيت المقدس فيقول أيتها العظام البالغة والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن

الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

يوم يسمعون الصيحة بالحق : أي نفخة إسرئيل الثانية وهي نفخة البعث يعلمون عاقبة تكذيبهم.

ذلك يوم الخروج: أي من القبور.

يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً: أي يخرجون من قبورهم مسرعين بعد تشقق القبور عنهم.

ذلك حشر علينا يسير : أي ذلك حشر للناس وجمع لهم في موقف الحساب يسير سهل علينا.

نحن أعلم بما يقولون: أي من الكفر والباطل فلا تياأس لذلك سننتقم منهم.

وما أنت عليهم بجبار: أي بحيث تجبرهم على الإيمان والتقوى.

فذكر بالقرآن: أي عظ مرغباً مرهباً بالقرآن فقراه على المؤمنين فهم الذين يخافون وعيد الله تعالى

ويطمعون في وعده.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض العظيم لأحوال القيامة وأهوالها على كفار قريش المكذبين بالتوحيد والنبوة والبعث ولم يؤمنوا فكانوا بذلك متعرضين للعذاب فأخبر تعالى رسوله أن هلاكهم يسير فكم 1 أهلك تعالى ﴿قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي قوة وأخذاً ولما جاءهم العذاب فروا يبحثون

1 قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ هذا تعريض بالتهديد للمشركين وتسليية للنبي صلى الله عليه وسلم. و(كم) خبرية.

(5/151)

عن مكان يحيصون إليه أي يلجأون فلم يجدوا وهو معنى قوله تعالى ﴿فَنَقَّبُوا فِي 1 الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ 2 وقوله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ 3 أي الذي ذكرنا من قوله وكم أهلكنا قبلهم من قرن لذكرى أي موعظة يتعظ بها عبد كان له قلب حي وألقى سمعه يستمع وهو شهيد أي حاضر بكل مشاعره وأحاسيسه. وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي نصب أو تعب، هذا الخبر رد الله تعالى به على اليهود الذين قالوا أتم الله خلق السماوات والأرض في يوم الجمعة واستراح يوم السبت فلذا هم يسبتون أي يستريحون يوم السبت فرد تعالى عليهم بقوله ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي تعب، إذ التعب يلحق العامل من الممارسة والمباشرة لما يقوم بعمله والله تعالى يخلق بكلمة التكوين فلذا لا معنى لأن يصيبه تعب أو نصب أو لغوب وقوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ﴾ أي فاصبر يا رسولنا على ما يقوله يهود وغيرهم من الكفر والباطل واستعن على ذلك أي على الصبر وهو صعب بالصلاة والتسبيح قبل طلوع الشمس 4 وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم فشمّل هذا الإرشاد والتعليم الإلهي الصلوات الخمس 5، إذ قبل طلوع الشمس فيه صلاة الصبح وقبل الغروب فيه صلاة الظهر والعصر ومن الليل فيه صلاة المغرب والعشاء، ولنعم العون على الصبر الصلاة، ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذ حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقوله أدبار السجود 6 أي بعد الصلوات الخمس سبح ربك متلبساً بحمده. نحو سبحان الله والحمد لله والله أكبر. وقوله ﴿وَاسْتَمِعْ 7 يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع أيها الخاطب يوم ينادي إسرافيل من مكان

1 (النقب) الثقب فالتنقيب مأخوذ منه، ومعنى الآية أي: ذلّلوا وأخضعوا وتصرفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء ونحت الجبال وإقامة السدود والحصون وما إلى ذلك من مظاهر القوة في الأرض ولم يغني ذلك عنهم من الله شيئاً وجاءهم الموت من حيث لا مهرب منه ولا محيص.

2 المحيص: مصدر ميمي من: حاص: إذا عدل عن الطريق وهرب فالمحيص: المهرب، والاستفهام

إنكاري وهو بمعنى النفي.

3 الإشارة إلى كل ما ذكر من الاستدلال والتهديد في الآيات السابقة والذكرى: التذكرة العقلية لمن توفر له ثلاثة شروط: القلب الحي وإلقاء السمع للإصغاء وحضور البال.

4 في الصحيح عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" ثم قرأ جرير (وسبح بحمد ربك..)

5 وجائز أن يراد بها نوافل الصلاة فيكون الذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر ولكن ما في التفسير أولى وأصح وأنها الصلوات الخمس إذ السورة مكية ونزلت بعد فرض الصلوات الخمس.

6 قرأ نافع: (وإدبار) بكسر الهمزة، وقرأ حفص (وأدبار) بفتحها.

7 التعبير بالاستماع فيه معنى التشويق لما يسمع، والمعنى، أقم الصلاة وهي زادك إلى الدار الآخرة وانتظر موعد الجزاء فإنه كائن يوم ينادي المنادي للقيام للجزاء على الصبر والصلاة كما هو على الشرك والعصيان، والآية تحمل التسلية وتدعو إلى الصبر والصلاة.

(5/152)

قريب وهو صخرة بيت المقدس وهو مكان قريب من السماء فيقول المنادي وهو إسرئيل أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المنفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقوله {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} وهي نفخة إسرئيل الثانية نفخة البعث {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} من القبور ويوم يرى المكذبون عاقبة تكذيبهم. وقوله {يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ 1 عَنْهُمْ سِرَاعًا} أي يخرجون مسرعين ذلك المذكور من تشقق الأرض وخروجهم مسرعين حشر علينا لهم يسير أي سهل لا صعوبة فيه، وقوله {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وفيه تهديد لكفار قريش. وقوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} أي بذي قوة وقدرة فائقة تجبرهم بها على الإيمان والاستقامة وعليه فمهمتك ليست بالإجبار وأنت عاجز عنه وإنما هي التذكير {فَذَكَّرْنَا بِالْقُرْآنِ} إذا {مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} وهم المؤمنون الصادقون والمسلمون الصالحون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- مشروعية تخويف العصاة والمكذابين بالعذاب الإلهي وقربه وعدم بعده.

2- للانتفاع بالمواعظ شروط أن يكون السامع ذا قلب حي واعٍ وأن يلقي بسمعه كاملاً وأن يكون حاضر الحواس شهيداً.

3- وجوب الصبر والاستعانة على تحقيقه بالصلاة.

4- مشروعية الذكر والدعاء بعد الصلاة فرادى لا جماعات.

5- تقرير البعث وتفصيل مبادئه.

6- المواعظ ينتفع بها أهل القلوب الحية.

1 قرأ نافع (تشقق) بفتح التاء وتشديد الشين بتأين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شيناً، و قرأ حفص بتخفيف الشين على حذف إحدى التائين.

(5/153)

سورة الذريات

...

سورة الذريات

مكية

وآياتها ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (5)

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكًا (9) قَتِيلَ الْخَرَاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

شرح الكلمات:

والذريات ذروا: أي الرياح تذرروا التراب وغيره ذروا.

فالحاملات وقرا: أي السحب تحمل الماء.

فالجاريات يسرا: أي السفن تجري على سطح الماء بسهولة.

فالمقسمات أمرا: أي الملائكة تقسم بأمر ربها الأرزاق والأمطار وغيرها بين العباد.

إن ما توعدون لصادق: أي إن ما وعدكم به ربكم لصادق سواء كان خيراً أو شراً.

وإن الدين لواقع: أي وأن الجزاء بعد الحساب لواقع لا محالة.

والسما ذوات الحبك: أي ذات الطرق كالطرق التي تكون على الرمل والحبك جمع حبيكة.

إنكم لفي قول مختلف: أي يا أهل مكة لفي قول مختلف أي في شأن القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من يقول القرآن سحر وشعر وكهانة ومنهم من يقول النبي كاذب أو ساحر أو شاعر.

(5/154)

يؤفك عنه من أفك: أي يصرف عن النبي والقرآن من صرف.
قتل الخراصون: أي لعن الكذابين الذين يقولون بالخرص والكذب.
الذين هم في غمرة ساهون: أي في غمرة جهل تغمرهم ساهون أي غافلون عن أمر الآخرة.
يوم هم على النار يفتنون: أي يعذبون فيها.
معنى الآيات:

قوله تعالى {وَالذَّارِيَاتِ} 1 هذا شروع في قسم ضخم أقسم الله تعالى به وهو الذاريات ذروا أي الرياح تذروا التراب وغيره من الأشياء الخفيفة {فَالْحَامِلَاتِ} 2 وقرأ {أي السحب تحمل الماء {فَالْجَارِيَاتِ} 3 يُسْرًا} أي السفن تجري على سطح الماء {فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا} أي الملائكة تقسم الأرزاق والأمطار وغيرها بأمر ربها كل هذا قسم أقسم الله به وجوابه {إِنَّمَا تُوعَدُونَ} أيها الناس من البعث والجزاء بالنعيم المقيم أو بعذاب الجحيم لصادق وإن الدين أي الجزاء العادل لواقع أي كائن لا محالة. وقوله {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} 4 هذا قسم آخر أي ذات الطرق كالتي على الرمل جمع حبيكة بمعنى طريقة {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} هذا جواب القسم فمنكم من يقول محمد ساحر ومنكم من يقول كاذب أو كاهن. ومنكم من يقول في القرآن سحر وشعر كهانة وقوله تعالى {يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ} أي يصرف عن القرآن ومن نزل عليه من أفك أي صرف بقضاء الله وقدره. وقوله تعالى: {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} أي لعن الكذابين الذين يقولون بالخرص والكذب والظن الذين هم في غمرة جهل تغمرهم ساهون أي غافلون عن أمر الآخرة وما لهم فيه من عذاب لو شاهدوه ما ذاقوا طعاماً ولا شرباً لذيذاً.

1 هنا ذكر القرطبي موعظة عجباً وهي أن رجلاً يقال له: صبيغ بلغ عمر عنه أن يسأل عن يسأل عن تفسير مشكل القرآن فقال: اللهم أمكني منه فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن فلما فرغ قام إليه الرجل وقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروا؟ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ثم قال: ألبسوه ثيابه واجعلوه على قتب وأبلغوا به أهله ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صبيغاً طلب العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم. وأخرى وهو أن ابن الكواء سأل علياً رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين ما (الذاريات) قال: وبلك سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً.

2 {فَالْحَامِلَاتِ} وقرأ) السحب تحمل الماء كما تحمل نوات الأربع الوقر: أي الحمل الثقيل.

- 3 جازر أن يراد ب(الجاريات) السفن، وأن يراد بها الرياح تجري بالسحب بعد تراكمها، واليسر: اللين والهون، أي الجاريات جريانا لينا هينا شأن السير بالشيء الثقيل كما قال الأعشى.
- كان مشيتها من بيت جارتها
مشي السحابة لا ريث ولا عجل
- 4 (الحبك) بفتح فسكون: إجادة النسج وإتقان الصنع، وجازر أن يكون المراد بالحبك حبك السماء أي: نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب. وعن الحسن أنها طرائق المجرة أو طرائق السحاب، والكل جازر.

(5/155)

وقوله تعالى يسألون أيا ن يوم الدين أي متى قيام الساعة ومجيئها وهم في هذا مستهزون ساخرون وجوابهم في قوله تعالى {يوم هم على النار يفتنون} أي يعذبون ويقال لهم نوقوا فنتكم أي عذابكم هذا الذي كنتم به تستعجلون أي تطالبون به رسولنا بتعجيله لكم استخفافا وتكديبا منكم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والجزاء حيث أقسم تعالى على ذلك.
- 2- تقرير عقيدة القضاء والقدر في قوله يؤفك عنه من أفك.
- 3- لعن الله الخراصين الذين يقولون بالخرص والكذب ويسألون استهزاء وسخرية لا طلبا للعلم والمعرفة للعمل.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ (23)

شرح الكلمات:

إن المتقين في حنات وعيون: أي إن الذين 1 انقوا ربهم في بساتين وعيون تجري خلال تلك البساتين والقصور التي فيها كقوله تجري من تحتها الأنهار.

آخذين ما آتاهم ربهم: أي آخذين ما أعطاهم ربهم من الثواب.

- 1 لما ذكر تعالى مآل الكافرين وهو أنهم على النار يفتنون أي: يعذبون كما قال الشاعر:
كل امرئ من عباد الله مضطهد

ببطن مكة مقهور ومفتون

ذكر مآل المؤمنين المتقين فقال: (إن المتقين) فذكر ما هم فيه من النعيم المقيم.

(5/156)

إنهم كانوا قبل ذلك محسنين: أي كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا أي في عبادة ربهم وإلى عباده.

كانوا قليلا من الليل ما يهجعون: أي كانوا في الدنيا يحيون الليل ولا ينامون فيه إلا قليلا. وبالأسحار هم يستغفرون: أي وفي وقت السحور وهو السدس الأخير من الليل يستغفرون يقولون ربنا اغفر لنا.

وفي أموالهم حق للسائل والمحروم: أي للذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لتعففه وهذا الحق أوجبوه على أنفسهم زيادة على الزكاة الواجبة.

وفي الأرض آيات للموقنين: أي من الجبال والأنهار والأشجار والبحار والإنسان والحيوان دلالات على قدرة الله مقتضية للبعث والموجبة للتوحيد للموقنين أما غير المؤمنين فلا يرون شيئا.

وفي أنفسكم أفلا تبصرون: أي آيات من الخلق والتركيب والأسماع والأبصار والتعقل والتحريك أفلا تبصرون ذلك فتستدلون به على وجود الله وعلمه وقدرته.

وفي السماء رزقكم وما توعدون: أي من الأمطار التي بها الزرع والنبات وسائر الأقوات وما توعدون من ثواب وعقاب إن كل ذلك عند الله في السماء مكتوب في اللوح المحفوظ.

فورب السماء والأرض إنه لحق: إنه لحق أي ما توعدون لحق ثابت.

مثل ما أنكم تنطقون: أي إن البعث لحق مثل نطقكم فهل يشك أحد في نطقه إذا نطق والجواب لا يشك فكذاك ما توعدون من ثواب وعقاب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي كذب بها المشركون في مكة فقال تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} أي إن الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء يوم القيامة في بساتين وعيون تجري في تلك البساتين وقوله {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ

رَبُّهُمْ} أي ما أعطاهم ربهم من ثواب هو نعيم مقيم في دار السلام. ثم ذكر تعالى مقتضيات هذا

العطاء العظيم والثواب الجزيل فقال {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ} دخولهم الجنة {مُحْسِنِينَ} في الدنيا فأحسنوا

نياتهم وأعمالهم أخلصوها لله ربهم وأتوا بها وفق ما ارتضاه وشرعه لعباده بلا زيادة ولا نقصان كما

أحسنوا إلى عباده ولم يسيئوا إليهم بقول ولا عمل هذا موجب وآخر أنهم {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا

يَهْجَعُونَ} 1 أي لا ينامون من الليل إلا قليلاً إذ أكثر الليل يقضونه في الصلاة وهو التهجد وقيام الليل وبالأسحار أي وفي السدس الأخير من الليل هم يستغفرون أي يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار وثالث {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ} والمحروم أي وزيادة على الزكاة المفروضة في كل مال بلغ النصاب فإنهم أوجبوا على أنفسهم في أموالهم حقاً يبذلونه للسائل الذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لحيائه وعفته. هذه موجبات العطاء الكريم الذي أعطاهم ربهم من النعيم المقيم في جنات وعيون. وقوله تعالى {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} أي وفي ما خلق في الأرض من مخلوقات من جبال وأنهار و زروع وضروع وأنواع الثمار، وإنسان وحيوان آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وكلها موجبة له التوحيد ومقررة لقدرته على البعث الآخر والجزاء وكون هذه الآيات للموقنين مبني على أن الموقنين ذووا بصائر وإدراك لما يشاهدون في الكون فكلما نظروا إلى آية في الكون ازداد إيمانهم وقوى فبلغوا اليقين فيه فأصبحوا أكثر من غيرهم في الاهتمام والانتفاع بكل ما يسمعون ويشاهدون. وقوله تعالى {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} أي وفي أنفسكم 3 أيها الناس من الدلائل والبراهين المتمثلة في خلق الإنسان وأطواره التي يمر بها من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى طفل إلى شاب فكهل وفي إدراكه وسمعه وبصره ونطقه إنها آيات أخرى دالة على وجود الله وتوحيده وقدرته على البعث والجزاء وقوله {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} توبيخ لأهل الغفلة والإعراض عن التفكير والنظر إذ لو نظروا بأبصارهم متفكرين ببصائرهم لاهتدوا إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء. وقوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون أي 4 يخبر تعالى عباده أن رزقهم في السماء يريد تدبير الأمر في السماء والأمطار التي هي سبب كل الثمار والحبوب وسائر الخضر والفواكه التي هي غذاء الإنسان في السماء وقوله وما توعدون من خير وشر من رحمة وعذاب الكل في السماء إذ الأمر لله وهو يحكم بالرحمة والعذاب على من يشاء وكتاب المقادير التي كتب فيه كل شيء هو في السماء. وقوله تعالى {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}

1 الهجوع: النوم ليلاً، والتهجاع: النومة الخفيفة قال الشاعر:

قد حصت البيضة رأسي فما

أطعم نوماً غير تهجاع

والفعل يهجع هجوعاً، و (ما) زائدة لتقوية الكلام أي: كانوا ينامون قليلاً من الليل، والجملة: (وكانوا

قليلاً) الخ بدل من جملة: (كانوا قبل ذلك محسنين) بدل بعض من كل.

2 هذا متصل بالقسم في قوله: {وَالذَّارِيَاتِ} إنه بعد أن حقق عقيدة البعث بالاقسام عليها عطف

شواهد من الأدلة على ذلك.

3 مما هو آية في النفس أن المرء يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية في النفس.

4 يروى أن الحسن رحمه الله تعالى كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم.

(5/158)

إِنَّهُ لَحَقُّ 1 مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ 2} هذا قسم منه تعالى أقسم فيه بنفسه على أن البعث والجزاء يوم القيامة حق ثابت واجب الوقوع كائن لا محالة إذا كنا لا نشك في نطقنا إذا نطقنا أن ما نقوله ونسمعه لا يمكن أن يكون غير ما نطقنا به وسمعناه فكذلك البعث الآخر واقع لا محالة.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.

2- بيان صفات المتقين من التهجد بالليل والاستغفار في آخره والإنفاق في سبيل الله.

3- بيان أن في الأرض كما في الأنفس آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله على البعث والجزاء.

4- بيان أن في السماء رزق العباد 3 فلا يطلب إلا من الله تعالى وأن ما نوعه من خير وشر أمره في السماء ومنها ينزل بأمره تعالى فليكن طلبنا الخير من الله دائماً وتعوذنا من الشر بالله وحده.
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعَلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

1 (ما) في {مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ} مزيدة للتوكيد، والمضارع { تَنْطِقُونَ } جيء به بدلا عن المصدر نطقكم لإفادته التشبيه بنطقهم المتجدد المحسوس لهم وتقدير الكلام أن ما توعودونه من البعث والجزاء لحق مثل نطقكم الذي لا تتكرونه إذ لا يوجد من ينكر نطقه أبداً..

1 (ما) في (مثل ما أنكم تنطقون) مزيدة للتوكيد، والمضارع (تنطقون) جيء به بدلا عن المصدر نطقكم الذي لا تتكرونه إذ لا يوجد من ينكر نطقه أبداً.

2 قيل: خص النطق من بين سائر الحواس: لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، والنطق سبب

من ذلك.

3 ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قصة مأثورة عن الأصمعي خلاصتها: أن أعرابيا قال له: اقرأ علي من كلام الرحمن شيئا فقرأ عليه: (وفي السماء رزقكم و ما توعدون) ففهما الأعرابي علققتها فكسر قوسه ونحر بعيره فتصدق به وتاب إلى ربه ولقيه بعد سنة فطلب منه أن يسمعه من كلام الرحمن فقرأ عليه فورب السماء والأرض إنه لحق... الآية فأخذ الأعرابي رداءه وهو يقول: من يغضب الرحمن. وما زال يرددتها حتى مات.

(5/159)

شرح الكلمات:

هل أتاك حديث: أي قد أتاك يا نبيينا حديث أي كلام.
ضيف إبراهيم المكرمين: أي جبريل وميكائيل وإسرافيل أكرمهم إبراهيم الخليل.
وقالوا سلاما: أي نسلم عليك سلاما.
قال سلام قوم منكرون: أي عليكم سلام أنتم قوم منكرون أي غير معروفين.
فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين: أي عدل ومال إلى أهله فجاء بعجل سمين حنيذ.
فقال ألا تأكلون: أي فأمسكوا عن الأكل فقال لهم ألا تأكلون.
فأوجس منهم خيفة: أي فأضمر في نفسه خوفا منهم.
بغلام عليم: أي بولد يكون ذا علم كبير عزيز.
فأقبلت امرأته في صرة: أي في رنة وصيحة.
فصكت وجهها: أي لطمت وجهها أي ضربت بأصابعها جبينها متعجبة.
وقالت عجوز عقيم: أي كبيرة السن وعقيم لم يولد لها قط.
قالوا كذلك قال ربك: أي قالت الملائكة لها كالذي قلنا لك قال ربك.
إنه هو الحكيم العليم: أي إنه هو الحكيم في تدبيره وتصريف شؤون عباده. العليم بما يصلح للعبد وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه.
معنى الآيات:

قوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ 1 ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} 2 هذا الحديث يشتمل على موجز قصة قد ذكرت في سورة هود والحجر والمقصود منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إن مثل هذا القصص لا يتم لأمي لا يقرأ ولا يكتب إلا من طريق الوحي كما أنه يحمل في نهايته التهديد بالوعيد لمشركي قريش المصرين على الكفر والتكذيب والإجرام الكبير إذ في نهاية القصة يسأل إبراهيم الملائكة قائلاً فما خطبكم أيها المرسلون فيجيبون قائلين إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم

حجارة من طين أي لتدميرهم وإهلاكهم من أجل إجرامهم، وقريش في هذا الوقت مجرمة مستحقة للعذاب كما استحقه إخوان لوط. فقوله تعالى في خطاب رسوله هل أتاك حديث ضيف إبراهيم

1 هذا الكلام مستأنف ابتدائي سيق لتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرير نبوته وإنذار قومه المكذبين المصرين على الشرك والظلم، ولفظ الضيف، يطلق على الواحد فأكثر وافتتاح الكلام بهل للتفخيم للحدث الذي يخبر عنه والتهويل من شأنه.

2 قال فيهم المكرمين: لخدمة إبراهيم إياهم وإكرامه لهم بتقديم العجل الحنيد، وقيل هم مكرمون من قبل الله تعالى .

(5/160)

الخليل وهم ملائكة في صورة رجال من بينهم 1 جبريل وميكائيل وإسرافيل إذ دخلوا عليه أي على إبراهيم وهو في منزله فسلموا عليه 2 فرد السلام ثم قال أنتم قوم منكرون أي لا نعرفكم بمعنى أنكم غرباء لستم من أهل هذا البلد فلذا سارع في إكرامهم فراغ إلى أهله أي عدل ومال إلى أهله فعمد إلى عجل سمين من أبقاره وكان ماله يومئذ البقر فشواه بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه. فقربه إليهم وكأنهم أمسكوا عن تناوله فعرض عليهم الأكل عرضا بقوله ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاما إلا بحقه. فقال إذا كلوه بحقه، فقالوا وما حقه؟ قال أن تذكروا اسم الله في أوله وتحمدوا الله في آخره أي تقولون بسم الله في البدء والحمد لله في الختم فالتفت جبريل إلى ميكائيل وقال له حق للرجل أن يتخذه ربه خليلا ولما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة أي خوفا أي شعر بالخوف في نفسه منهم لعدم أكلهم لأن العادة البشرية وهي مستمرة إلى اليوم إذا أراد المرء بأخيه سوءاً لا يسلم عليه ولا يرد عليه السلام، ولا يأكل طعامه هذا حكم غالبي وليس عاما. قالوا لا تخف وبشروه بسلام وأعلموه أنهم مرسلون من ربه إلى قوم لوط لإهلاكهم من أجل إجرامهم وبشروه بسلام يولد له ويكبر ويولد له فالأول إسحق والثاني يعقوب كما جاء في سورة هود فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب وقوله ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَءٍ﴾ 3 أخذت في رنة لما سمعت البشرية فصكت أي لطمت وجهها بأصابع يدها متعجبة وهي تقول ألد وأنا عجوز 4 وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب إذ كان عمرها تجاوز التسعين وعمر إبراهيم تجاوز المئة وكانت عقيما لا تلد فلذا قالت عجوز 5 عقيم كيف ألد يا للعجب؟ فأجابها الملائكة قائلين كذلك أي هكذا قال ربك فاقبلي البشرية واحمديه واشكره. إنه تعالى هو الحكيم في تصرفاته في شؤون عباده العليم بما يصلح لهم وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه.

- 1 قيل إنهم كانوا تسعا وسما منهم غير الثلاثة رفائيل عليه السلام.
- 2 في الآية مشروعية السلام إلقاء ورداً إلا أن الإلقاء سنة والرد واجب لآية النساء: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}.
3 الصرة: الصيحة والضجة، والصرة، الجماعة، والصرة: الشدة من كرب وغيره قال الشاعر:
فألحقه بالهاديات ودونه
جواحرها في صرة لم تزين
الهاديات: أوائل بقر الوحش وجواحرها: متخلفاتها ولم تزين لم تتفرق الشاهد في الصرة هنا فإنها
بمعنى الضجة والجماعة والشدة. وهو يمدح فرسه الذي ألحقه بأوائل بقر الوحش الذي يصيد.
4 نص آية هود: { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ }.
5 أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم ف(عجوز) خبر، و(عقيم) بدل منه والمبتدأ محذوف أي: أنا
والعجوز يشترك فيه المذكر والمؤنث يقال رجل عجوز وامرأة عجوز فهو فعول بمعنى فاعل مشتق
من العجز والعقيم كذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث وهو فعيل بمعنى مفعول مأخوذ من عقمها الله:
إذا خلقها لم تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.

(5/161)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة المحمدية.
- 2- فضيلة إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين.
- 3- وجوب إكرام الضيف.
- 4- الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدر في العقيدة ولا يعد شركا.

(5/162)

الجزء السابع والعشرون

قَالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

شرح الكلمات:

قال فما خطبكم أيها المرسلون: أي ما شأنكم أيها المرسلون.
إلى قوم مجرمين: أي إلى قوم كافرين فاعلين لأكبر الجرائم وهي إتيان الفاحشة.
حجارة من طين: أي مطبوخ بالنار.
مسومة: أي معلمة على كل حجر اسم من يرمى به.
للمسرفين: أي المبالغين في الكفر والعصيان كإتيان الذكران.
غير بيت من المسلمين: وهو بيت لوط وابنتيه ومن معهم من المؤمنين.
وتركنا فيها آية: أي بعد إهلاكهم: تركنا فيها علامة على إهلاكهم وهي ماء أسود منتن.
للذين يخافون العذاب الأليم: أي عذاب الآخرة فلا يفعلون فعلهم الشنيع.
معنى الآيات:

ما زال السياق في قصة إبراهيم مع ضيفه من الملائكة إنه لاحظ بعد أن عرف أنهم سادات الملائكة أن مهمتهم لم تكن مقصورة على بشارته فقط بل هي أعظم فلذا سألهم قائلًا: فما 1 خطبكم أيها المرسلون؟ فأجابوه قائلين: إنا أرسلنا أي أرسلنا ربنا عز وجل إلى قوم مجرمين 2 أي

1 الفاء: هي الفاء الفصيحة إذ أفصحت أي: دلت على كلام محذوف تقديره: لما كنتم مرسلين من قبل الله تعالى فما خطبكم أي ما شأنكم وما مهمتكم العظيمة التي جنتم لها؟.
2 هم أهل سدوم وعمورية.

(5/163)

على أنفسهم بالكفر، وفعل الفاحشة، والعلة من إرسالنا إليهم هي لنرسل عليهم حجارة من طين 1 مطبوخ بالنار، وتلك الحجارة مسومة أي معلمة عن ربك للمسرفين أي قد كتب على كل حجر اسم من يرمى به، وذلك في السماء قبل أن تنزل إلى الأرض. وقوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا} أي من تلك القرية وهي سدوم من كان فيها من 2 المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط عليه السلام وما به سوى لوط وابنتيه ومن الجائر أن يكون معهم بعض المؤمنين إذ قيل كانوا ثلاثة عشر نسمة وقوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً} 3 أي علامة على إهلاكهم وهي ماء أسود منتن كالبخيرة وتعرف الآن بالبحر الميت. وقوله {لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} وهم المؤمنون الذين يخافون عذاب الآخرة حتى لا يفعلوا فعل قوم لوط من الكفر وإتيان الفاحشة.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- جواز تشكل الملائكة بصورة رجال من البشر.
 - 2- التنديد بالإجرام وفاعليه.
 - 3- جواز الإهلاك بالعذاب الخاص الذي لم يعرف له نظير.
 - 4- تقرير حقيقة علمية وهي أن كل مؤمن صادق الإيمان مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً حتى يحسن إسلامه بانبيائه على أركان الإيمان الستة.4
- وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

- 1 (من طين) فيه احتراس من أن تكون من البرد الذي ينزل مع المطر من السماء, وجائز أن تكون من بركان قذفته الأرض فارتفع بقوة الضغط فسقط عليهم فدمرهم بأمر الله تعالى وتدبيره فيهم.
- 2 قوله:(من المؤمنين): إشارة إلى أن سبب نجاتهم هو إيمانهم وفي قوله:(من المسلمين) كذلك أي: سبب النجاة الإسلام كما هو التنويه بشأن كل من الإيمان والإسلام إذ الدعوة النبوية تدور عليهما.
- 3 (الضمير)فيها) عائد إلى القرية التي أصبحت خربة تدل على قدرة الله تعالى ونقمته من أعدائه.
- 4 هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله, واليوم الآخر, والقدر خيره وشره, كما في آية البقرة, (ليس البر) وفي حديث جبريل عند مسلم.

(5/164)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

شرح الكلمات:

- وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون: أي فكذبه وكفر, فأغرقناه ومن معه آية كآية سدوم.
- بسلطان مبين: أي بحجة ظاهرة قوية وهي اليد والعصا.
- فتولى بركنه: أي أعرض عن الإيمان مع رجال قومه.
- وقال ساحر أو مجنون: أي وقال فرعون في شأن موسى ساحر أو مجنون.
- فنبذناهم في اليم: أي طرحناهم في البحر فغرقوا أجمعين.
- وهو مليم: أي آت بما يلام عليه إذ هو الذي عرض جيشاً كاملاً للهلاك زيادة على ادعائه الربوبية

وتكذبيته لموسى وهرون وهما رسولان.
وفي عاد: أي وفي إهلاك عاد آية علامة على قدرتنا وتدبيرنا.
الريح العقيم: أي التي لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهي الدبور، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "تصرت بالصبا" وهي الريح الشرقية "وأهلكت عاد بالدبور" وهي الريح الغربية بالحجاز.
ما تذر من شيء أتت عليه: من نفس أو مال.
إلا جعلته كالرميم: أي البالي المتفتت.
وفي ثمود: أي وفي إهلاك ثمود آية دالة على قدرة الله وكرهه تعالى للكفر والإجرام.
إذ قيل لهم: أي بعد عقر الناقة تمتعوا إلى انقضاء آجالكم بعد ثلاثة أيام.
فأخذتهم الصاعقة: أي بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة.
فما استطاعوا من قيام: أي ما قدروا على النهوض عند نزول العذب بهم.
وقوم نوح من قبل: أي وفي إهلاك قوم نوح بالطوفان آية وأعظم آية.

(5/165)

قوله تعالى {وَفِي مُوسَىٰ} الآية إنه تعالى لما ذكر إهلاك قوم لوط وجعل في ذلك آية دالة على قدرته وعلامة تدل العاقل على نقمه تعالى ممن كفر به وعصاه ذكر هنا في هذه الآيات التسع من هذا السياق أربع آيات
أخرى، يهتدي بها أهل الإيمان الذين يخافون يوم الحساب فقال عز من قائل: وفي موسى بن عمران نبي بني إسرائيل إذ أرسلناه إلى فرعون ملك القبط بمصر {سُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي بحجة قوية ظاهرة قوة السلطان وظهوره وهي العصا 2 فلم يستجب لدعوة الحق فتولى بركته أي 3 بجنده الذي يركن إليه ويعتمد عليه، وقال في موسى رسول الله إليه: هو ساحر أو 4 مجنون فانتقمنا منه بعد الإصرار على الكفر والظلم فنبذناهم أي طرحناهم في اليم البحر فهلكوا بالغرق. في هذا الصنيع الذي صنعناه بفرعون لما كذب آية من أظهر الآيات. وقوله تعالى: {وَفِي عَادٍ} حيث أرسلنا إليهم أخاهم هوداً فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه فكذبوه {إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ} التي لا تحمل مطراً ولا تلقح شجراً 6 ما تذر من شيء أتت عليه أي مرت به من أنفس أو أموال إلا جعلته كالرميم 7 البالي المتفتت في هذه الإهلاك آية من أعظم الآيات الدالة على قدرة الله الموجبة لربوبيته وعبادته والمستلزمة لقدرة تعالى على البعث والجزاء يوم القيامة.
وقوله تعالى {وَفِي ثَمُودَ} 8 إذ أرسلنا إليهم أخاهم صالحاً فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك فكذبوه وطالبوه بآية تدل على صدقه فأعطاهم الله الناقة آية فعقروها استخفافاً منهم وتكذيباً {إِذْ قِيلَ

لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ { أي إلى إنقضاء الأجل الذي حدد لهلاكهم. فبذل أن يؤمنوا ويسلموا

1 (وفي موسى) أي: وتركنا أيضاً في قصة موسى آية، والعطف على قوله: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ}.

2 وجائز أن يكون غير العصا من الآيات التسع.

3 وجائز أن يكون بقوته كما قال عنتره:

فما أوهى مراس الحرب ركني

ولكن ما تقادم من زمني

أراد بركنه: قوته، وركن الشيء: جانبه الأقوى.

4 (أو) بمعنى الواو أي: قال مرة في موسى ساحر وقال مرة أخرى مجنون وشاهده قول الشاعر:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً

عدلت بهم طهية والخشايا

أي: ورياحاً فأو بمعنى الواو العاطفة لا غير وطهية كسمية: حي من تميم والخشاب: بطون من تميم أيضاً.

5 (وفي عاد) أي: وتركنا في عاد آية كالتي في موسى.

6 ولا خير فيها ولا بركة ولا منفعة البتة مأخوذة من: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد، وهي الدبور لقول

الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور".

7 (الرميم) الشيء الهاك البالي. قال مجاهد، ومنه قول الشاعر:

تركتني حين كف الدهر من بصري

وإذ بقيت كعظم الرمة البالي

مأخوذ من رم العظم: إذا بلى يقال: رم العظم يرم بالكسر رمة فهو رميم.

8 (وفي ثمود) أي: وتركنا في ثمود آية للموقنين دالة على قدرة الله وعلمه وحكمته وهي موجبات

ألوهيته.

(5/166)

فيعبدوا الله ويوحده عتوا عن أمر ربهم وترفعوا متكبرين {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ} صاعقة العذاب وهم ينظرون بأعينهم الموت يتخطفهم {فَمَا اسْتَبَاطُوا مِنْ قِيَامٍ} من مجالسهم وهم جائمون على الركب {وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} في إهلاك ثمود أصحاب الحجر آية للذين يخافون العذاب الأليم فلا يفعلوا فعلهم حتى لا يهلكوا هلاكهم.

وقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ ۖ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} أي وفي إرسالنا نوحاً إلى قومه وتكذيبهم إياه وإصرارهم على الشرك والكفر والتكذيب ثم إهلاكنا لهم بالطوفان وانجائنا المؤمنين آية من أعظم الآيات الدالة على وجود الله تعالى وربوبيته و ألوهيته للعالمين، والمستلزمة لقدرته على البعث والجزاء الذي يصر الملاحدة على إنكاره ليواصلوا فسقهم وفجورهم بلا تأنيب ضمير ولا حياء ولا خوف أو وجل.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير كل من التوحيد والنبوة والبعث لما في الآيات من دلائل على ذلك.
- 2- قوة الله تعالى فوق كل قوة إذ كل قوة في الأرض هو الذي خلقها ووهبها.
- 3- اتهام المبطلين لأهل الحق دفعاً للحق وعدم قبول له يكاد يكون سنة بشرية في كل زمان ومكان.
- 4- من عوامل الهلاك العتو عن أمر الله أي عدم الإذعان لقبوله، والفسق عن طاعته وطاعة رسله. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

1 قرأ حمزة والكسائي (وقوم) بالكسر أي: وفي قوم نوح آية، وقرأ الجمهور بالنصب أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ومدين.

(5/167)

شرح الكلمات:

والسمااء بنيناها بأيدٍ: أي وبنيينا السماء بقوة ظاهرة في رفع السماء وإحكام البناء. وإنا لموسعون: أي لقادرون على البناء والتوسعة. والأرض فرشناها: أي مهدناها فجعلناها كالمهاد أي الفراش الذي يوضع على المهد. فنعم الماهدون: أي نحن أثنى الله تعالى على نفسه بفعله الخيري الحسن الكبير. ومن كل شيء خلقنا زوجين: أي وخلقنا من كل شيء صنفين أي ذكراً وأنثى، خيراً وشرّاً، علواً وسفلاً. لعلكم تذكرون: أي تذكرون أن خالق الأزواج كلها هو إله فرد فلا يعبد معه غيره. ففرروا إلى الله: أي إلى التوبة بطاعته وعدم معصيته. إني لكم منه نذير مبين: أي إني وأنا رسول الله إليكم منه تعالى نذير مبين بين النذارة أي أخوفكم

عذابه.

ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر: أي لا تعبدوا مع الله إلهاً أي معبوداً آخر إذ لا معبود بحق إلا هو. إنني لكم منه نذير مبين: إنني لكم منه تعالى نذير بين النذارة أخوفكم عذابه إن عبدتم معه غيره. معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض مظاهر القدرة الإلهية الموجبة له تعالى الربوبية لكل شيء والألوهية على عباده. فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ 1 بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فهذا أكبر مظهر من مظاهر القدرة الإلهية إنه بناء السماء وإحكام ذلك البناء وارتفاعه وما تعلق به من كواكب ونجوم وشمس وقمر تم هذا الخلق بقوة الله التي لا توازيها قوة. وقوله ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون على توسعته أكثر مما هو عليه، وذلك لسعة قدرتنا.

1 هذا عرض آخر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته الدالة على قدرته على البعث الآخر (والسماء): منصوب على الاشتغال، والأيد جمع يدٍ وكثر إطلاقه على القوة نحو: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) أي: القوة، والموسع: القادر على توسعة ما يريد توسعته من رزق وغيره.

(5/168)

ومظهر ثانٍ هو في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ 1 فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ والأرض فرشها بساطاً ومهدداً مهاداً فنعم الماهدون نحن نعم الماهد الله تعالى لها إذ غيره لا يقدر على ذلك ولا يتأتى له، وثالث مظاهر القدرة في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ 2 خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فهذا لفظ عام يعم سائر المخلوقات وأنها كلها أزواج وليس فيها فرد قط. والذوات كالصفات فالسماء يقابلها الأرض، والحر يقابله البرد، والذكر يقابله الأنثى، والبر يقابله البحر، والخير يقابله الشر، والمعروف يقابله المنكر، فهي أزواج بمعنى أصناف كما أن سائر الحيوانات هي أزواج من ذكر وأنثى. وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي خلقنا من كل شيء زوجين رجاء أن تذكروا فتعلموا أن خالق هذه الأزواج هو الله الفرد الصمد الواحد الأحد لا إله غيره ولا رب سواه فتعبدوه وحده ولا تشركوا به سواه من سائر خلقه.

وقوله تعالى ﴿فَقَرُّوا إِلَى 3 اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بعد أن تبين لكم أيها الناس أنه لا إله غير الله ففروا إليه تعالى أي بالإيمان به وبطاعته وبفعل فرائضه وترك نواهيه اهربوا إلى الله يا عباد الله بالإسلام إليه والانقياد لطاعته إنني لكم منه تعالى نذير من عقاب شديد، ونذارتي بينة لا شك فيها وأنصح لكم أن لا تجعلوا مع الله إلهاً آخر أي معبوداً غيره تعالى تعبدونه إن الشرك به يحبط أعمالكم ويحرم عليكم الجنة فلا تدخلوها أبداً واعلموا أنني لكم منه عز وجل نذير مبين. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد والبعث بمظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء ومظاهر العلم والحكمة المتجلية في كل شيء.
- 2- ظاهرة الزوجية في الكون في الذرة انبهر لها العقل الإنساني وهي مما سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن

- 1 نصب الأرض على الاشتغال، والفرش: البسط يقال: فرش البساط: إذا نشره وقوله: (فنعم الماهدون) أثنى تعالى على نفسه بهذه المنة على خلقه وهي: بسط الأرض وتمهيدها للحياة عليها وفي هذا تعليم للعباد أن يحمدا الله ويشكروه: فله الحمد تعالى وله المنة.
- 2 في خلق الله تعالى للذكر والأنثى والتناسل منهما دليل ظاهر على البعث الذي ينكره الكافرون فمن فكر في إيجاد الحياة من جماد النطفة سهل عليه الإيمان بالحياة الثانية بعد انتهاء هذه ولذا عقب على ذلك بجملة (لعلكم تذكرون) وهي جملة تعليلية.
- 3 الفاء للتفريع إنه بعد أن بين للمشركين ضلالهم وخطأهم في الشرك والكفر وإنكار البعث بما ساق من الأدلة وأبرز عن البراهين القطعية قال لرسوله: قل لهم أيها الناس ففروا إلى الله أي: اهربوا إليه لينجيكم من الخسران فإنه ليس لكم إلا هو فآمنوا به واعبدوه ووحده وعلل ذلك بقوله لهم { إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }.

(5/169)

- أنفسهم ومما لا يعلمون. فدل هذا قطعاً على أن القرآن وحي الله وأن من أوحى به إليه وهو محمد بن عبد الله لن يكون إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 3- التحذير من الشرك فإنه ذنب عظيم لا يغفر إلا بالتوبة الصحيحة النصوح.
- كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَصَّوْا بِهِ بِلُ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكَرَ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (59) قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

شرح الكلمات:

- كذلك ما أتى الذين من قبلهم من قبلهم: أي الأمر كذلك ما أتى الذين من قبل قومك يا محمد من رسول. إلا قالوا ساحر أو مجنون: أي هو ساحر أو مجنون.

أتواصوا به بل هم قوم طاغون :أي أتواصت الأمم كل أمة توصي التي بعدها بقولهم للرسول هو ساحر أو مجنون، والجواب، لا أي لم يتواصوا بل هم قوم طاغون يجمعهم على قولهم هذا الطغيان. فتول عنهم فما أنت بملوم: أي أعرض عنهم يا رسولنا فما أنت بملوم لأنك بلغتهم فأبرأت ذمتك. وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين :أي عظ بالقرآن يا رسولنا فإن الذكرى بمعنى التذكير ينفع المؤمنين أي من علم الله أنه يؤمن. وما خلقت الجن والإنس :أي خلقتهم لأجل أن يعبدوني فمن عبدني أكرمه ومن ترك عبادتي أهنته.

(5/170)

ما أريد منهم من رزق :أي لا لي ولا لأنفسهم ولا لغيرهم. وما أريد أم يطعمون :أي لا أريد منهم ما يريد أرباب العبيد من عبيدهم هذا يجمع المال وهذا يعد الطعام، والله هو الذي يرزقهم. ذو القوة المتين: أي صاحب القوة المتين الشديد الذي لا يعجزه شيء. ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم :أي نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين ماتوا على الكفر. فلا يستعجلون :أي فلا يطالبوني بالعذاب فإن له موعداً لا يخلفونه. من يومهم الذي يوعدون :أي يوم القيامة. معنى الآيات:

بعد عرض تلك الأدلة المقررة للتوحيد والبعث والمستلزمة للرسالة المحمدية والمشركون ما زالوا في إصرارهم على الكفر والتكذيب قال تعالى مسلياً رسوله مخففاً عنه ما يجده من إعراضٍ وتكذيب: {كَذَلِكَ} أي الأمر والشأن كذلك وهو أنه ما أتى الذين من قبلهم أي من قبل قومك للرسول إلا قالوا فيه هو ساحر 1 أو مجنون كما قال قومك لك اليوم. ثم قال تعالى: {أَتَوَاصَوْا بِهِ} أي بهذا القول كل أمة توصي التي بعدها بأن تقول لرسولها: ساحر أو مجنون. بل هم قوم طاغون أي لم يتواصوا به وإنما جمعهم على هذا القول الطغيان الذي هو وصف عام لهم فإن الطاعي من شأنه أن ينكر ويكذب ويتهم بأبعد أنواع التهم والحامل له على ذلك طغيانه. وما دام الأمر هكذا فتول عنهم يا رسولنا أي أعرض عنهم ولا تلتفت إلى أقوالهم وأعمالهم فما أنت بملوم في هذا القول لأنك قد بلغت رسالتك وأديت أمانتك ولا يمنعك هذا التولي عنهم أن تذكر أي عظ بالقرآن بل عظ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين الذين علم الله تعالى أنه يؤمنون ممن هم غير مؤمنين الآن كما تنفع المؤمنين حالياً بزيادة إيمانهم وصبرهم على طاعة الله ربهم.

وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 3 أي لم يخلقهما للهو ولا للعب ولا

- 1 أو: بمعنى الواو إذ هم مرة يقولون ساحر ومرة يقولون مجنون وليس معنى ساحر أو مجنون أن يكون إما ساحراً أو مجنوناً فتكون أو بأحد الشئيين.
- 2 الاستفهام للتعجب، و(بل) للإضراب الإبطالي، أي لم يتواصوا بهذا القول الفاسد، وإنما جمعهم الطغيان فقالوا ما قالوا ولم يتخلف قوم منهم في ذلك.
- 3 قوله: {وَمَا خَلَقْتُ...} الخ فيه تعريض للمشركين والكافرين التاركين لعبادته تعالى، والإنس واحده إنسي، والاستثناء مفرغ من علل لم تذكر، والإرادة هنا؛ هي الإرادة الشرعية التكليفية ليست الإرادة الكونية التي لا تتخلف، ولذا فلا معنى لمن قال: المراد بالناس هنا المؤمنون فقط، أو هو على تقدير لآمرهم وأنهاهم أو أن المراد من العبادة: ظهور قدرة الله تعالى فيهم من الخلق والإحياء والإماتة.

(5/171)

لشيء وإنهما خلقهما ليعبده بالإذعان له والتسليم لأمره ونهيه. وقوله تعالى {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا} أي إن شأني معهم ليس كشأن السادة مالكي العبيد الذين يتعبدونهم بالقيام بحاجاتهم. هذا يجمع المال وهذا يعد الطعام بل خلقتهم ليعبدوني أي يوحدوني في عبادتي، إذ عبادتهم لي مع عبادة غيري لا أقبلها منهم ولا أثيبهم عليها بل أعذبهم على الطاعة حيث عبدوا من لا يستحق العبادة من سائر المخلوقات.

قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}1} قرر به غناه عن خلقه، وأعلم أنه ليس في حاجة إلى أحدٍ وذلك لغناه المطلق، وقدرته التي لا يعجزها في الأرض ولا في السماء شيء. وقوله فإن للذين ظلموا2 ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم أي إذا عرفت حال من تقدم من قوم عاد وثمود وغيرهم فإن لهؤلاء المشركين ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم أي نصيباً من العذاب وعبر بالذنوب التي هي الدلو المملأ بالماء عن العذاب لأن العذاب يصب عليهم كما يصب الماء من الدلو ولأن الدلاء تأتي واحداً بعد واحد فكذلك. الهلاك يتم لأمة بعد أمة حتى يسقوا كلهم مر العذاب، وقوله {فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} أي ما هناك حاجة بهم إلى استعجال العذاب فإنه أت في إبانته ووقته المحدد له لا محالة. وقوله تعالى {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي بالله ولقائه والنبي وما جاء به ويل لهم من يومهم الذي يوعدون أي العذاب الشديد لهم من يومهم الذي أوعدهم الله تعالى به وهو يوم القيامة والويل وإد في جهنم يسيل بصديد أهل النار والعياذ بالله.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة بشرية وهي التكذيب والاتهام بالباطل وقلب الحقائق لكل من جاءهم يدعوهم إلى خلاف مألوفهم وما اعتادوه من باطلٍ وشرٍ فيدفعون بالقول فإذا أعياهم ذلك دفعوا بالفعل وهي

الحرب والقتال.

2- بيان أن طغيان النفس يتولد عنه كل شر والعياذ بالله.

3- مشروعية التذكير، وأنه ينتفع به من أراد الله إيمانه ممن لم يؤمن، ويزداد به إيمان المؤمنين الحاليين.

4- بيان علة خلق الإنس والجن وهي عبادة الله وحده.

1 الجملة تعليلية لما سبقها من قوله: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ} و(الرزاق): كثير الإرزاق و (ذو القوة): صاحبها ومن خصائص (ذو) أنها لا تضاف إلا إلى أمر مهم،(والمتين): الكامل في قوته الذي لا يعارض ولا يدانى.

2 في قوله تعالى (ذنوباً) إشارة إلى مل حصل لصناديد قريش إذ بعد قتلهم ألقوا في قليب ببدر فكان ذلك مصداق قوله {فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ذُنُوبًا} وهي الدلو المملأى فعجباً لهذا القرآن العظيم.

(5/172)

5- بيان غنى الله تعالى عن خلقه، وعدم احتياجه إليهم بحال من الأحوال.

6- توعدهم الرب تبارك وتعالى الكافرين وأن نصيبهم من العذاب نازل بهم لا محالة.

(5/173)

سورة الطور

...

سورة الطور

مكية

وآياتها تسع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي زَفٍّ مَنشُورٍ (3) وَالنَّبِيِّتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ (5)
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9)
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) فَوَيْلٌ لِلْمُكَدِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يَدْعُونَ
إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ

(15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

شرح الكلمات

والطور : أي والجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام.

وكتاب مسطور : أي وقرآن مكتوب.

في رق منشور : أي في جلد رقيق أو ورق منشور.

والبيت المعمور : أي بالملائكة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون أبداً.

والسقف المرفوع : أي السماء التي هي كالسقف المرفوع للأرض.

والبحر المسجور : أي المملوء المجموع مأؤه بعضه في بعض.

(5/173)

يوم تمور السماء موراً : أي تتحرك وتدور .

في خوض يلعبون : أي في باطل يلعبون أي يتشاغلون بكفرهم.

يدعون إلى نار جهنم دعا : أي يدفعون بعنف دفعاً.

أفسح هذا : أي العذاب الذي ترون كما كنتم تقولون في القرآن .

أم أنتم لا تبصرون : أي أم عدمتم الأبصار فأنتم لا تبصرون .

اصلوها : أي اصطلوا بحرها .

فاصبروا أو لا تصبروا : أي صبركم وعدمه عليكم سواء .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿وَالطُّورِ 1 وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ هذه خمسة أشياء عظام أقسم الله تعالى بها، وبالتتابع لما يقسم الله تعالى به يرى أنه إذا أقسم بشيء إنما يقسم به إما لكونه مظهراً من مظاهر القدرة الإلهية، كالسماء مثلاً، وإما لكونه معظماً نحو لعمرك إذ هو إقسام بحياة النبي صلى الله عليه وسلم. وإما لكونه ذا فائدة للإنسان ونفع خاص به كالتين والزيتون وقوله تعالى ﴿وَالطُّورِ﴾ وهو جبل الطور الذي كلم تعالى عليه موسى وهو مكان مقدس، وقوله ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ أي منشور في ورق أو جلد رقيق وهو التوراة أو القرآن و الإقسام به لما فيه من حرمة وقديسية عند الله تعالى، والبيت المعمور 3 وهو بيت في السماء تغشاه الملائكة كل يوم وتعمره بالعبادة وهو بحيال الكعبة بحيث لو وقع لوقع فوقها والسقف المرفوع وهو السماء وهي كالسقف للأرض وهي مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه ومثلها البحر المسجور 4 أي المملوء بكميات المياه الهائلة فإنه مظهر من مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية هذا القسم الضخم جوابه أو المقسم عليه هو قوله إن عذاب ربك يا رسولنا لواقع ماله من

دافع ليس له من 5 دافع يدفعه أبداً، وإن له وقتاً محدداً يقع فيه، وعلامات تدل عليه وهي

- 1 (الطور): الجبل باللغة السريانية ونقل إلى العربية بهذا اللفظ بمعنى الجبل وأصبح علماً بالغلبة على جبل طور سيناء الذي ناجى الله تعالى فيه نبيه موسى عليه السلام.
- 2 الرق: بفتح الراء، ما رق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور: المبسوط وجائز أن يكون المراد به التوراة أو القرآن، إذ القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف وتقرأ الملائكة من اللوح المحفوظ والرق بكسر الراء الملك.
- 3 جائز أن يكون المراد بالبيت المعمور الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، وجائز أن يكون بيتاً في السماء كما في التفسير، ويقال له: الضراح بضم الضاد وفي الطبري: أن علياً سئل عن البيت المعمور فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبداً.
- 4 جائز أن يكون المراد بالبحر: البحر الأحمر، (القلزم) الذي أغرق الله تعالى فيه فرعون وملائه. لمناسبة ذكر الطور، وجائز أن يكون المحيط ووصف بالمسجور وهو المملوء: حتى لا يدخل فيه الأنهار التي تملأ بالأمطار والأودية والسيول.
- 5 زبدت (من) في قوله تعالى (ما له من دافع) لتأكيد النفي.

(5/174)

قوله تعالى {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ [مَوْرًا] أي تتحرك بشدة وتدور وتسير الجبال سيراً فتكون كالهباء المنبث هنا وهناك فويل يومئذ للمكذابين والويل واد في جهنم مملوء بقيح وصيد أهل النار، والمكذبون هم الكافرون بالله وبما جاءت به رسله عنه من أركان الإيمان وقواعد الإسلام وقوله: {الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ} أي في باطلهم وكفرهم يتشاغلون به عن الإيمان الحق والعمل الصالح المزكى للنفس المطهر لها. وقوله {يَوْمَ 2 يُدْعُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً} أي يوم يدفعون بشدة وعنف إلى جهنم ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون. أخبرونا: أفسح 3 هذا أي العذاب الذي أنتم فيه الآن تعذبون أم أنتم لا تبصرون فلا تعابونوه. ويقال لهم أيضاً تنكبياً وتقريعاً فاصبروا على عذاب النار أو لا تصبروا سواء عليكم أي صبركم وعدمه عليكم سواء. إنما 4 تجزون ما كنتم تعلمون أي في الدنيا من الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير البعث والجزاء.

2- الله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وليس للعبد أن يقسم بغير الله تعالى.

3- عرض سريع لأهوال القيامة وأحوال المكذبين فيها.

4- تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)
شرح الكلمات:

إن المتقين: أي الذين اتقوا ربهم فعبدوه وحده بما شرع لهم فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي.

1 المور: التحرك باضطراب, ومور السماء: اضطراب أجسامها من الكواكب, واختلال نظامها عند نهاية الحياة.

2 (يوم يدعون) بدل اشتغال من {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا}.

3 (أم) هي المنقطعة التي تقدر ببل والاستفهام, والاستفهام هنا للتهكم والتوبيخ والتقدير: بل أنتم لا تبصرون أي المرثيات.

4 (إنما تجزون): جملة تعليلية وإن حرف توكيد وما الموصولة بها هي الكافة وإنما المركبة من إن المشددة وما: الكافة لها عن العمل أفادت التعليل.

(5/175)

فاكهين: أي متلذذين بأكل الفواكه الكثيرة التي آتاهم ربهم.

ووقاهم عذاب الجحيم: أي وحفظهم من عذاب الجحيم عذاب النار.

على سرر مصفوفة: أي بعضها إلى جانب بعض.

وزوجناهم بحور عين: أي قرناهم بنساء عظام الأعين حسانها.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة وهذا أسلوب الترغيب والترهيب الذي أمتاز به

القرآن الكريم فقال تعالى مخبراً عن حال أهل الجنة: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ} أي الذين اتقوا في الدنيا الشرك

والمعاصي {فِي جَنَّاتٍ} أي بساتين ونعيم مقيم يحوي كل ما لذ وطاب مما تشتهيهِ الأنفس وتلذه

الأعين. فاكهين 1 بما آتاهم ربهم أي متلذذين بأكل الفواكه الكثيرة الموصوفة بقول الله تعالى: لا

مقطوعة ولا ممنوعة. {وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} أي حفظهم من عذاب النار. ويقال لهم: {كُلُوا وَاشْرَبُوا

هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي بسبب ما كنتم تعملونه من أعمال البر والإصلاح بعد الفرائض واجتتاب

الشرك والمعاصي. وقوله {مُتَّكِنِينَ} أي حال كونهم وهم في نعيمهم متكئين على سرر 3 مصفوفة قد

صف بعضها إلى جنب بعض. وقوله تعالى {وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} أي قرناهم بزوجات من الحور العين والحور جمع حوراء وهي التي يغلب بياض عينهم على سوادها والعين جمع عيناء وهي الواسعة العينين. جعلنا الله ممن يزوجون بهن إنه كريم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- فضل التقوى وكرامة أهلها.

2- بيان منة الله وفضله على أهل الإيمان والتقوى وهم أولياء الله تعالى.

3- مشروعية الدعاء بكلمة هنيئاً لمن أكل أو شرب انتساء بأهل الجنة.

4- الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة وليست ثمنها لأن الجنة أعلى من عمل

1 (فاكهين): أي: ذوي فاكهة كثيرة، يقال: رجل فاكه: أي ذو فاكهة كما يقال: لابن وتامر أي: ذو لابن وتامر، قال الشاعر:

وغررتني وزعمت أنك لابن بالصيف تامر

وفعله فكه كفرح فهو فاكه وفكه، وقرأ الجمهور بالأول وقرأ أبو جعفر بالثاني، والفاكه: من طابت نفيه وسرت بما به من نعيم.

2 الهنيئ: ما لا تتغيص فيه ولا نكد ولا كدر يقال لهم: ليهنأكم ما صرتم إليه (هنيئاً).

3 (سرر) جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متكئين على نمارق سرر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير كما بين مكة وأيلة.

(5/176)

الإنسان، وإنما العمل الصالح يزكى النفس فيؤهل صاحبها لدخول الجنة فالباء في قوله {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} سببية وليست للعرض كما في قولك بعثك الدار بألف مثلاً. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ (21) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

شرح الكلمات:

والذين آمنوا: أي حق الإيمان المستلزم للإسلام والإحسان.

واتبعتم ذريتهم بإيمان : أي كامل مستوفٍ لشرائطه ومنها الإسلام.
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ : أي وإن لم يعملوا عملهم بل قصرُوا في ذلك.
وما أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ : أي وما نقصناهم من أجور أعمالهم شيئاً.
كل امرئ بما كسب رهين : أي كل إنسان مرهون أي محبوس بكسبه الباطل.
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً : أي يتعاطون بينهم فيها أي في الجنة كأساً من خمر.
لا لغو فيها ولا تأثيم : أي لا يقع لهم بسبب شربها لغو وهو كل كلام لا خير فيه ولا إثم.
ويطوف عليهم غلمان : أي ويدور بهم خدم لهم.
كأنهم لؤلؤٌ مكنون : أي مصون.
وأقبل بعضهم على بعض : أي يسأل بعضهم بعضاً عما كانوا عليه في الدنيا وما وصلوا إليه في الآخرة.

(5/177)

قالوا إنا كنا قبل : أي قالوا مشيرين إلى علة سعادتهم إنا كنا قبل أي في الدنيا.
في أهلنا مشفقين : أي بين أهلنا وأولادنا مشفقين أي خائفين من عذاب الله تعالى.
فمن الله علينا : أي بالمغفرة.
ووقانا عذاب السموم : أي وحفظنا من عذاب النار التي يدخل حرها في مسام الجسم.
إنا كنا ندعوه : أي في الدنيا نعبدُه موحدين له.
إنه هو البر الرحيم : أي المحسن الصادق في وعده الرحيم العظيم الرحمة.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر افضال الله تعالى وإنعامه على أوليائه في الجنة إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي حق الإيمان الذي هو عقد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان واتبعتمهم 1 ذريتهم بإيمان كامل صحيح إلا أنهم لم يبلغوا من الأعمال الصالحة ما بلغه آباؤهم أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ لِنَقَرُ بِذَلِكَ أَعْيُنَهُمْ وَتَعْظُمَ مَسْرَتَهُمْ وَتُكْمَلُ سَعَادَتُهُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ مَعَ ذُرِّيَّتِهِمْ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من عملهم الصالح من شيء بل وفيناهموه كاملاً غير منقوص ورفعنا إليهم أبناءهم بفضلٍ منا ورحمة. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ 3 رَهِيْنٌ﴾ إخبار منه تعالى أن كل نفس عنده يوم القيامة مرتبهة بعملها تجزى به إلا أنه تعالى تفضل على أولئك الآباء فرفع إلى درجاتهم أبناءهم تفضلاً وإحساناً. وقوله عز وجل: ﴿وَأُمَدَدْنَاهُمْ﴾ أي الآباء والأبناء من سكان الجنة بفاكهة ولحم مما يشتهون من اللحمان. هذا طعامهم أما الشراب فإنهم 4 يتنازعون أي يتعاطون في الجنة كأساً من خمر لا لغو فيها. أي لا تسبب هذياناً من الكلام إذ اللغو الكلام الذي

لا فائدة منه. وقوله: {وَلَا تَأْتِيكُمْ} 5 أي وليس في شربها إثم وقوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ} أي خدم لهم كأنهم في جمالهم وحسن منظرهم لؤلؤ مكنون في أصدافه.

1 قرأ الجمهور {وَأَتَّبَعْتَهُمْ} وقرأ أبو عمرو وحده {وَأَتَّبَعْنَاهُمْ} وقرأ الجمهور {ذرياتهم} بالإفراد، وقرأ ابن عامر بالجمع: {ذرياتهم} مفعول لأتبعناهم، وقرأ نافع {ذرياتهم} الأخيرة بالجمع وقرأ حفص بالإفراد {ذرياتهم} كالأولى.

2 {وما ألتناهم} قرأ الجمهور بفتح اللام، وق {وقراه ابن كثير بكسر اللام، والواو للحال، فالجملة حالية، والمعنى: أن الله تعالى ألحق بهم ذرياتهم في الدرجة من دون أن ينقص من حسناتهم شيئاً.

3 الجملة معترضة بين جملة: {وما ألتناهم} وجملة {وأمددناهم} والجملة تقرير لعدالة الرب تعالى في الحكم بين عباده فيجزي كل نفس بما كسبت، وله أن يتفضل ويرفع من يشاء درجات.

4 أطلق التنازع على التداول والتعاطي والمعنى: أن بعضهم يصب للبعض ويناوله إيثاراً له وكرامة.

5 اللغو: سقط الكلام وهذيانه الصادر عن الخلل في العقل. والتأثيم: ما يؤثم به فاعله من ضرب أو شتم أو تمزيق ثوب.

(5/178)

وقوله تعالى: {وَأُقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} أي عما كان لهم في الدنيا، وما انتهوا إليه في الآخرة من هذا النعيم المقيم. وقالوا مشيرين إلى سبب نعيمهم في الآخرة إنا كنا أي في الدنيا في أهلنا مشفقين أي خائفين من عذب ربنا فترتب على ذلك أن من الله علينا بدخول الجنة ووقانا عذاب السموم الذي هو عذاب النار الذي ينفذ إلى المسام والعياذ بالله تعالى. إنا 1 كنا من قبل أي في الدنيا قبل الآخرة ندعوه ونتضرع إليه أن يجيرنا من النار ويدخلنا الجنة إنه هو تعالى البر بأوليائه الرحيم بعباده المؤمنين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وصف كامل لأهل الجنة وهو تقرير في نفس الوقت للبعث والجزاء بذكر ما يكون فيه.
- 2- فضل الإيمان وكرامة أهله عند الله بإلحاق الأبناء قليل العمل الصالح بأبائهم الكثيري العمل الصالح.
- 3- تقرير قاعدة أن المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يفكه إلا الله عز وجل فمن استطاع أن يفك رقبتة فليفعل وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.
- 4- فضيلة الإشفاق في الدنيا من عذاب الآخرة.

5- فضل الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (30)
قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ
يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فُلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)

1 قرأ نافع بفتح همزة أنه على تقدير حرف جر لأنه للتعليل، وقرأ حفص بالكسر. والجملة تعليلية.

(5/179)

شرح الكلمات:

فذكر فما أنت بنعمة ربك: أي فذكر بالقرآن وعظ من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم فليست بنعمت ربك عليك بالعقل وكمال الخلق والوحي إليك.

بكاهن ولا مجنون: أي بمتعاطٍ للكهانة فتخبر عن الغيب بواسطة رأي من الجن ولا أنت بمجنون. نترصد به ريب المنون: أي تنتظر به حوادث الدهر من موت وغيره.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا: أي تأمرهم أحلامهم أي عقولهم بهذا وهو قولهم إنك كاهن ومجنون لم تأمرهم عقولهم به.

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ: أي بل هم قوم طاغون متجاوزون لكل حد تقف عنده العقول.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ؟: أي أخلق القرآن وكذبه من تلقاء نفسه.

فليأتوا بحديث مثله: أي فليأتوا بقرآن مثله يختلفونه بأنفسهم.

إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ: أي في أن محمداً صلى الله عليه وسلم اختلف القرآن.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض لأحوال أهل النار وأهل الجنة فلم يبق إلا التذكير يا رسولنا فذكر أي قومك ومن تصل إليهم كلمتك من سائر الناس بالقرآن وما يحمل من وعد ووعد، وما يدعوا إليه من هدى وطريق مستقيم، فما أنت بنعمة ربك أي بما أولاك ربك من رجاحة العقل وكمال الخلق وكرم الفعال وشرف النبوة بكاهن تقول الغيب بواسطة رأي من الجن، ولا مجنون تخط القول وتقول بما لا يفهم عنك ولا يعقل. وقوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ} 2 أي بل يقولون هو شاعر كالنابغة وزهير نترصد به حوادث الدهر حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء ولا ندخل معه في خصومة وجدل قد يغلبنا. وقوله تعالى قل تريبصوا 3 أي ما دمت قد رأيتم التريبص بي فتريبصوا فإني معكم من المتربصين، وقوله تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا} والاستفهام للنفي والتوبيخ والجواب لم تأمرهم عقولهم بهذا بل هم قوم طاغون أي إن طغيانهم هو الذي يأمرهم بما يقولون

1 أم: هي المنقطعة المفسرة ببل والاستفهام قيل للإضراب الإنتقالي من قول إلى آخر والاستفهام إنكاري.

2 روى الطبراني عن قتادة: أنهم كانوا يقولون: تریصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان، (والمنون) من أسماء الموت، والريب: أحداث الدهر. والمعنى: ينتظرون به أحداث الدهر المفضية به إلى الموت.

3 أمر الله رسوله أن يقول لهم (تريصوا) بي ريب المنون فإني متريص بكم ما سيحدث لكم من أحداث تهلكون فيها وبهذا: معنى المفاصلة وإنهاء الجدل والمخاصمة.

(5/180)

ويفعلون من الباطل والنشر والفساد وقوله أم يقولون تقوله والجواب وإن قالوا تقوله فإن قولهم لم ينبع من عقولهم ولم يصدر من أحلامهم بل عن كفرهم وتكذيبهم بل لا يؤمنون، والدليل على صحة ذلك تحدي الله تعالى لهم بالإتيان بحديث مثله وعجزهم عن ذلك فلذا هم لا يعتقدون ولا يرون أن الرسول تقول القرآن من عنده، وإنما لما لم يؤمنوا به لا بد أن يقولوا كلمة يدفعون بها عن أنفسهم فقالوا تقوله فقال تعالى {بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} فليأتوا بحديث مثله {أي مثل القرآن {إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} في قولهم إن الرسول تقوله.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وجوب التذكير والوعظ والإرشاد على أهل العلم بالكتاب والسنة لأنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته.

2- ذم الكهانة بل حرمتها لأنها من أعمال الشياطين، والكاهن من يقول بالغيب.

3- ذم الطغيان فإنه منبع كل شر ومصدر كل فتنة وضلال.

4- حرمة الكذب مطلقا وعلى الله ورسوله وبخاصة لما ينشأ عنه من فساد الدين والدنيا.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

1 (بل لا يؤمنون) أي: علة لقولهم (تقوله). إذ هم يعرفون تمام المعرفة أنه ليس من قول الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما مما يوحى إليه من الله تعالى وإنما قالوا: تقوله لعدم إيمانهم، ثم تحداهم الحق تعالى بقوله {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} في دعواهم أنه تقوله أي: فليتقولوا مثله!!

(5/181)

شرح الكلمات

أم خلقوا من غير شيء؟ أي من غير خالقٍ خلقهم وهذا باطل.
أم هم الخالقون؟ أي لأنفسهم وهذا محال إذ الشيء لا يسبق وجوده.
أم خلقوا السماوات والأرض؟ أي لم يخلقوهما لأن العجز عن خلق أنفسهم دال على عجزهم عن خلق غيرهم.
بل لا يوقنون: أي أن الله خلقهم وخلق السماوات والأرض كما يقولون إذ لو كانوا موقنين لما عبدوا غير الله ولآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم.
أم عنهم خزائن ربك: أي من الرزق والنبوة وغيرهما فيخصوا من شاعوا بذلك من الناس.
أم هم المسيطرون: أي المتسلطون الغالبون فيتصرفون كيف شاعوا.
أم لهم سلم يستمعون فيه: أي ألهم مرقى إلى السماء يرقون فيه فيسمعون كلام الملائكة فيأتون به ويعارضون الرسول في كلامه.
فليأتوا بسultan مبين: أي بحجة بينة تدل على صدقه 1 وليس لهم في ذلك كله شيء.
أم له البنات ولكم البنون؟ أي أله تعالى البنات ولكم البنون إن أقوالكم كلها من هذا النوع لا واقع لها أبداً إنها افتراءات.
أم تسألهم أيها الرسول أجراً: أي على إيلاغ دعوتك.
فهم من مغرم منقلون: أي فهم من فداحة الغرم مغتمون ومتعبون فكرهوا ما تقول لذلك.
أم عندهم الغيب فهم يكتبون: أي علم الغيب فهم يكتبون منه لينازعوك ويجادلوك به.
أم يريدون كيداً: أي مكرراً وخديعة بك وبالدين.
فالذين كفروا هم المكيدون: أي الكافرون هم المكيدون المغلوبون.
أم لهم إله غير الله: أي ألهم معبود غير الله والجواب: لا.
سبحان الله عما يشركون: أي تنزه الله عما يشركون به من أصنام وأوثان.

(5/182)

معنى الآيات:

بعد أن أمر تعالى رسوله بالتذكير وأنه أهل لذلك لما أفاض عليه من الكمالات وما وهبه من المؤهلات. أخذ تعالى يلقن رسوله الحجج فيذكر له باطلهم موبخاً إياهم به ثم يدمغه بالحق في أسلوب قرآني عجيب لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. ومنه قوله: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} أي أخلقوا من غير خالق {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} والجواب لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم خلقوا أنفسهم إذ الأول باطل فما هناك شيء موجود وجد بغير موجد؟! والثاني محال، إن المخلوق لا يوجد قبل أن يخلق فيكف يخلقون أنفسهم وهم لم يخلقوا بعد؟! ويدل على جهلهم وعمي قلوبهم ما رواه البخاري عن جبير بن مطعم أنه ذكر أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في شأن فداء الأسرى سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور قال فلما بلغ في القراءة عند هذه الآية {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} كاد قلبي يطير. سمعها وهو مشرك فكانت سبباً في إسلامه فلو فتح القوم قلوبهم للقرآن لأنارها وأسلموا في أقصر مدة. وقوله تعالى: {أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} والجواب: لا، إذ العاجز عن خلق ذبابة فما دون عن خلق السماوات والأرض وما فيهما أعجز. وقوله تعالى {بَلْ لَا يُوقِنُونَ} أن الله هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض فقولهم عند سؤال من خلقهم: الله، وعن خلق السماوات والأرض: الله لم يكن عن يقين إذ لو كان عن يقين منهم لما عبدوا الأصنام ولما أنكروا البعث ولما كذبوا بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ} أي من الأرزاق والخيرات والفواضل والفضائل فيخصوا من شاءوا منها ويحرموا من شاءوا والجواب ليس لهم ذلك فلما إذاً ينكرون على الله ما أتى رسوله من الكمال والإفضال؟ أم هم المسيطرون أي الغالبون القاهرون المتسلطون فيصرفون كيف شاءوا في الملك؟ والجواب: لا، إذاً فلما هذا التحكم الفاسد. وقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ} فيه فليأت مسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ { أي ألهم مرقى

1 هذا إضراب إنتقالي إلى إبطال نوع آخر من شبهتهم في إنكار البعث إذ السورة مكية، والغالب على هذه السورة معالجة عقيدة البعث الآخر والاستفهام المقدر بعد (أم) تقريرية.

2 الاستفهام المقدر هنا إنكاري.

3 الاستفهام تقريرية، وبإل المقدرة قبل الاستفهام للانتقال وهكذا يورد. قولهم مقراً لهم ثم يكر عليه فيبطله في جميع هذه الجمل المبدوءة بأم المنقطعة.

4 السلم: المصعد، وجمعه سلالم قال الشاعر:

ومن هاب أسباب المنية يلحقها

ولو رام أسباب السماء بسلم

وقال آخر:

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا

يبنى له في السماوات السلايم
أحجاء البلاد: أرجاؤها ونواحيها.

(5/183)

يرقون فيه إلى السماء فيستمعون إلى الملائكة فيسمعون منهم ما يمكنهم أن ينازعوا فيه رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم فليأت مستمعهم بحجة واضحة ظاهرة على دعواه ومن أين له ذلك وقد حجت الشياطين والجن عن ذلك فكيف بغير الجن والشياطين.

وقوله: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ} أي الله تعالى البنات ولكم البنون إن جميع ما تقولونه من هذا النوع هو كذب ساقط بارد، وافتراء ممقوت ممجوج إن نسبتهم البنات لله كافية في رد كل ما يقولون ومبطللة لكل ما يدعون فإنهم كذبة مفترون لا يتورعون عن قول ما تحيله العقول، وتتنزه عنه الفهوم. وقوله: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُنْقَلُونَ} أي أتسألهم يا رسولنا عما تبلغهم عنا أجراً فهم لذلك مغتمون ومتعبون فلا يستطيعون الإيمان بك ولا يقدر على الأخذ عنك. وقوله: {أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ لَا يَكْتُوبُونَ} أي أعندهم علم الغيب فهم منهمكون في كتابته لينازعوك في ما عندك ويحاجوك بما عندهم، والجواب من أين لهم ذلك، وقوله: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا} أي يريدون بك وبدينك كيداً؛ ليقتلوك ويبطلوا دينك فالذين كفروا² هم المكيدون ولست أنت ولا دينك. ولم يمض عن نزول هذه الآيات طويل زمن حتى هلك أولئك الكائدون ونصر الله رسوله وأعز دينه والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ} أي ألهم³ إله أي معبود غير الله يعبدونه والحال أنه لا إله إلا الله {فَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تنزه الله وتقديسه عما يشركونه به من أصنام وأوثان لا تسمع ولا تبصر فضلاً عن أن تضر أو تنفع.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بذكر دلائله.
- 2- تقرير النبوة المحمدية.
- 3- تسفيه أحلام المشركين.
- 4- عدم مشروعية أخذ أجرٍ على إبلاغ الدعوة.
- 5- لا يعلم الغيب إلا الله.

1 حاصل معنى هذا: أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه من البعث والوعيد والنبوة ولا بإثبات ما أثبتوه من الشرك وما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات مستحيلة الوقوع.

2 لم يمض يسير زمن حتى هلك رؤساء الشرك في بدر مصداق قوله تعالى: {هُمُ الْمَكِيدُونَ} كقوله:
{وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.

3 الاستفهام إنكاري.

4 نزه تعالى نفسه أن يكون له شريك كما زعم المشركون وادعوا باطلا فأبطل بذلك كل دعاويهم في تأليه غيره تعالى من الأصنام والشياطين.

(5/184)

6- صدق القرآن في أخباره آية أنه وحي الله وكلامه صدقاً وحقاً إنه لم يمض إلا قليل من الوقت أي خمسة عشر عاماً حتى ظهر مصداق قول الله تعالى فالذين كفروا هم المكيدون.
وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)
شرح الكلمات:

وإن يروا كسفا من السماء ساقطا: أي وإن ير هؤلاء المشركون قطعة من السماء تسقط عليهم.
يقولوا سحاب مركوم: أي يقولوا في القطعة سحاب متراكم يمطرنا ولا يؤمنوا.
فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون: أي فاتركهم إذا يجاحدون ويعاندون حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون وهو يوم موتهم.

يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون: أي اتركهم إلى ما ينتظرهم من العذاب ما داموا مصرين على الكفر وذلك يوم لا يغني عنهم مكرهم بك شيئا من الإغناء.
وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك: أي وإن لهؤلاء المشركين الظلمة عذاباً في الدنيا دون

(5/185)

عذاب يوم القيامة وهو عذاب القحط سبع سنين وعذاب القتل في بدر.
ولكن أكثرهم لا يعلمون: أي أن العذاب نازل بهم في الدنيا قبل يوم القيامة.
واصبر لحكم ربك: أي بإمهالهم ولا يضق صدرك بكفرهم وعنادهم وعدم تعجيل العذاب لهم.

فإنك بأعيننا :أي بمرأى منا نراك ونحفظك من كيدهم لك ومكرهم بك.
وسبح بحمد ربك حين تقوم :أي واستعن على الصبر بالتسبيح الذي هو الصلوات الخمس والذكر
بعدها والضراعة والدعاء صباح مساء.

معنى الآيات:

يذكر تعالى من عناد المشركين أنهم لو رأوا العذاب نازلاً من السماء في صورة قطعة كبيرة من
السماء ككوكب مثلاً لما أذعنوا ولا آمنوا بل قالوا في ذلك العذاب سحب مركوم الآن يسقى ديارنا
فترتوي وترتوي أراضينا وبهائمنا. إذاً فلما كان الأمر هكذا فذرهم¹ يا رسولنا في عنادهم وكفرهم حتى
يلاقوا وجهاً لوجه يومهم الذي فيه يصعقون أي يموتون يوم لا يغني عنهم كيدهم² شيئاً ولا هم
ينصرون، فيذهب كيدهم ولا يجدون له أي أثر بحيث لا يغني عنهم أدنى إغناء من العذاب النازل
بهم ولا يجدون من ينصرهم، وذلك يوم القيامة. وقوله تعالى: {وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} أي أنفسهم أي
بالكفر والتكذيب والشرك والمعاصي عذاباً دون³ ذلك المذكور من عذاب يوم القيامة وهو ما أصابهم
به من سني القحط والمجاعة وما أنزله بهم من هزيمة في بدر حيث قتل صناديدهم وذلوا وأهينوا
ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لما أصروا على العناد والكفر. وقوله تعالى: واصبر لحكم
ربك وقضائه بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين، ولا تخف ولا تحزن فإنك بأعيننا أي بمرأى منا
نراك ونحفظك، وجمع لفظ العين على أعين مراعاة للنون العظمة وهو المضاف إليه (بأعيننا) وقوله
{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي قل سبحان الله وبحمده حين تقوم⁴ من نومك ومن مجلسك

1 يقال في مثل هذا: هو منسوخ بآية السيف.

2 هو ما كانوا يكيدون للرسول صلى الله عليه وسلم وما يمكرون به.

3 جائز أن يكون عذاب القبر.

4 شاهده ما رواه الترمذي بإسناد حسن قوله صلى الله عليه وسلم "من جلس في مجلس فكثر فيه
لغظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذاك".

(5/186)

ومن الليل أيضاً فسبحه بصلاة المغرب والعشاء والتهجد وكذا إدبار النجوم أي بعد طلوع الفجر
فسبح بصلاة الصبح وغيرها.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان عناد كفار قريش ومكابرتهم في الحق ومجادحتهم فيه.
- 2- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وهي للدعاة بعده أيضا.
- 3- تقرير وخامة عاقبة الظلم في الدنيا قبل الآخرة.
- 4- وجوب الصبر على قضاء الرب وعدم الجزع.
- 5- مشروعية التسبيح عند القيام من النوم بنحو: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير والحمد لله الذي أحيانى بعدما أماتنى وإليه النشور.

1 يرى ابن مسعود رضي الله عنه أن قوله: (حين تقوم) شامل لكل قيام يقومه من أي مكان.

(5/187)

سورة النجم

...

سورة النجم

مكية

وآياتها اثنتان وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأُوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ

(5/187)

نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (15) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (17) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (18)

شرح الكلمات:

والنجم إذا هوى: أي والثريا إذا غابت بعد طلوعها.

ما ضل صاحبكم: أي ما ضل محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الهدى.

و ما غوى :أي وما لابس الغى وهو جهل من اعتقاد فاسد.
وما ينطق عن الهوى :أي عن هوى نفسه أي ما يقوله عن الله تعالى لم يصدر فيه عن هوى نفسه.
إن هو إلا وحي يوحى :أي ما هو إلا وحي إلهي يوحى إليه.
علمه شديد القوى : أي علمه ملك شديد القوى وهو جبريل عليه السلام.
ذو مرة : أي لسلامة في جسمه وعقله فكان بذلك ذا قوة شديدة.
فاستوى وهو بالأفق الأعلى :أي استقر وهو بأفق الشمس عند مطلعها على صورته التي خلقه الله
عليها فرآه النبي صلى الله عليه وسلم وكان بجياد قد سد الأفق إلى المغرب وكان النبي صلى الله
عليه وسلم هو الذي طلب من جبريل أن يريه نفسه في صورته التي خلقه الله عليها .
ثم دنا فتدنى :أي وقرب منه فتدلى أي زاد في القرب.
فكان قاب قوسين أو أدنى :أي فكان في القرب قاب قوسين أي مقدار قوسين.
فأوحى إلى عبده ما أوحى :أي فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ما أوحاه جبريل إلى النبي صلى الله
عليه وسلم.
ما كذب الفؤاد ما رأى :أي ما كذب فؤاد النبي ما رأى ببصره من صورة جبريل عليه السلام:
أفتمارونه على ما يرى :أي أفاتجادلونه أيها المشركون على ما يرى من صورة جبريل.

(5/188)

ولقد رآه نزلة أخرى :أي على صورته مرة أخرى وذلك في السماء ليلة أسري به.
عند سدرة المنتهى :وهي شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من الملائكة.
عندها جنة المأوى :أي تأوى إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمنقين أولياء الله.
إذ يغطى السدرة ما يغطى :أي من نور الله تعالى ما يغطى.
ما زاغ البصر وما طغى :أي ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً، ولا ارتفع عن الحد الذي حدد له.
لقد رأى من آيات ربه الكبرى :أي رأى جبريل في صورته ورأى رفقاً أخضر سد أفق السماء.
معنى الآيات:

قوله تعالى {وَالنَّجْمِ} [1] إلى قوله {مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} يقرر به تعالى نبوة محمد عبده ورسوله صلى
الله عليه وسلم وقد أقسم بالنجم إذا هوى وهو نجم الثريا إذا غاب في الأفق على أنه ما ضل محمد
صاحب قريش الذي صاحبتة منذ ولادته ولم يغب عنها ولم تغب عنه مدة تزيد على الأربعين سنة
فهي صحبة كاملة ما ضل عن طريق الهدى وهم يعرفون هذا، وما غوى² أيضا أية رواية وما لابسه
جهل في قول ولا عمل فغوى به. وما ينطق بالقرآن وغيره مما يقوله ويدعوا إليه عن هوى³ نفسه كما
قد يقع من غيره من البشر إن هو إلا وحي يوحى أي ما هو أي الذي ينطق به ويدعوا إليه ويعمله

إلا وحي يوحى إليه. علمه إياه ملك شديد القوى⁴ ذو مرة أي سلامة عقل وبدن وكان بذلك قوياً روحياً وعقلياً وذاتياً وهو جبريل عليه والسلام وقوله: {فَاسْتَوَى} أي جبريل {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى} ومعنى استوى استقر {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} أي تدلى فدنا أي قرب شيئاً فشيئاً حتى كان من الرسول صلى الله عليه وسلم قاب قوسين أي قدر قوسين والقوس معروف آلة للرمي {أَوْ أَدْنَى} أي من قاب قوسين⁵.

- 1 أصل النجم: الطلوع والظهور يقال: نجم السن: إذا طلع، ونجم السر إذا ظهر وأطلق النجم بالغلبة على الثريا. الهوى: السسقوط يقال: هوى يهوي هويًا كمضى يمضي مضيًا. وهوى يهوي هويًا: إذا خسر للسجود، ومن الحب يقال: هوى يهوي هوى كرضي يرضى رضًا: إذا أحب.
- 2 الغي: ضد الرشده، والغواية مثله: وهو فساد الرأي وتعاطي الإنسان الباطل من الأقوال والأفعال مما لا خير فيه البتة.
- 3 الهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون اقتضاء العقل السليم الحكيم له وفعله: هوى يهوي كرضي يرضى هوىً.
- 4 (شديد القوى) صفة لموصوف محذوف أي: علمه ملك شديد القوى وهو جبريل إجماعاً، والمرة: تطلق على قوة الذات وعلى متانة العقل معاً، وعليهما كان جبريل عليه السلام.
- 5 أي: مقدار قوسين.

(5/189)

وقوله تعالى {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} [1] أي فأوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه محمد ببصره وهو جبريل في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ذات الستمائة جناح طول الجناح ما بين المشرق والمغرب. وقوله تعالى: {أَفْتَمَارُوتُهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ} هذا خطاب للمشركين المنكرين لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم ينكر تعالى ذلك عليهم بقوله {أَفْتَمَارُوتُهُ} أي تجادلونه وتغالبنه أيها المشركون على ما يرى ببصره. {وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ} [2] أي مرة أخرى {عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ} [3] وذلك ليلة أسرى به صلى الله عليه وسلم، ووصفت هذه السدرة⁴ وهي شجرة النبق بأن أوراقها كآذان الفيلة وأن ثمرها كغلال هجر قال فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يقدر أن ينعتها من حسناتها، وسميت سدرة المنتهى لانتهاها علم كل عالم من الخلق إليها أو لكونها عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من الملائكة. وقوله {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ} أي الجنة التي تأوى إليها الملائكة وأرواح الشهداء، والمتيقن أولياء الله تعالى.

وقوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى} 5 {أي من نور الله تعالى، والملائكة من حب الله مثل الغربان حين تففز على الشجر كذا روى ابن جرير الطبري. وقوله {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} أي ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له. {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} أي رأى جبريل في خلقه الذي يكون فيه في السماء ورأى رفقاً أخضر قد سد الأفق ورأى من عجائب خلق الله ومظاهر قدرته وعلمه ما لا سبيل إلى إدراكه والحديث عنه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير النبوة لمحمد وإثباتها بما لا مجال للشك والجدال فيه.
- 2- تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن القول بالهوى أو صدور شيء من أفعاله أو أقواله من اتباع الهوى.
- 3- وصف جبريل عليه السلام.
- 4- إثبات رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل وعلى صورته التي يكون في السماء عليها مرتين.
- 5- تقرير حادثة الإسراء والمعراج وإثباتها للنبي صلى الله عليه وسلم.
- 6- بيان حقيقة سدره المنتهى.

- 1 (ما أوحى) إبهام من أجل التفخيم أي: أوحى إليه شيئاً عظيماً.
- 2 (نزلة) على وزن فعلة من النزول دال على المرة أي: رآه إذ نزل إليه مرة أخرى.
- 3 السدر شجر معروف صحراوي فيه ثلاث ميزات: ظل ظليل وثمر لذيذ ورائحة ذكية.
- 4 هذا الوصف رواه مسلم في صحيحه.
- 5 في قوله (ما يغشى) من التفخيم ما فيه.
- 6 جملة: (لقد رأى من آيات ربه) تنذيل أي: رأى آيات أخرى غير سدره المنتهى وجنة المأوى وما غشي السدر من البهجة والجلال والآيات: دلائل عظمة الله تعالى.

(5/190)

أَفْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (23) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25) وَكَمْ

مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26)
شرح الكلمات:

أفرايتم اللات والعزى: أي أخبروني عن أصنامكم التي اشتققت لها أسماء من أسماء الله وأنتموها.
ومناة الثالثة الأخرى 1: وجعلتموها بناتٍ لله، افتراء على الله وكذباً عليه.

ألكم الذكر وله الأنثى: أي أتزعمون أن لكم الذكر الذي ترضونه لأنفسكم والله الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم.

تلك إذاً قسمة ضيزى: أي قسمتكم هذه إذاً قسمة ضيزى أي جائزة غير عادلة ناقصة غير تامة.
إن هي إلا أسماء سميتوها: أي ما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلا أسماء لا حقيقة لها.
أنتم وآباؤكم: أي سميتوها بها أنتم وآباؤكم.

ما أنزل الله بها من سلطان: أي لم ينزل الله تعالى وحياً يأذن في عبادتها.

إن يتبعون إلا الظن: أي ما يتبع المشركون في عبادة أصنامهم إلا الظن والخرص والكذب.

1 هدمها خالد بن الوليد بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما شرع في هدمها قال لها:

يا عز كفرانك لا سبحانك

إني رأيت الله قد أهانك

(5/191)

وما تهوى الأنفس: أي وما يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم وما تميل إليه شهواتهم.

أم للإنسان ما تمنى: أي بل للإنسان ما تمنى والجواب لا ليس له كل ما يتمنى.

فله الآخرة والأولى: أي إن الآخرة والأولى كلاهما لله يهب منهما ما يشاء لمن يشاء.

وكم من ملك في السماوات: أي وكثير من الملائكة في السماوات.

لا تغني شفاعتهم شيئاً: أي لو أرادوا أن يشفعوا لأحد حتى يكون الله قد أذن لهم ورضي للمسموح له بالشفاعة.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى مظاهر قدرته وعظمته وعلمه وحكمته في الملكوت الأعلى جبريل وسدرة المنتهى

وما غشاها من نور الله وما أرى رسوله من الآيات الكبرى، خاطب المشركين بقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ 1

وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي أعميتم فرأيتم هذه الأصنام أهلاً لأن تسوى بمن له ملكوت السماوات

والأرض وعبدتموها معه على حقارتها ودناءتها، وأزدتكم عمى فاشتققت لها من أسماء الله تعالى

أسماء فمن العزيز اشتققت العزى ومن الله اشتققت اللات، وجعلتموها بنات لله افتراء على الله بزعمكم

أنها تشفع لكم عند الله. أخبروني ألكم الذكر 2 لأنكم تحبون الذكران وترضون بهم لأنفسكم، وله الأنتى لأنكم تكرهونها ولا ترضون بها لأنفسكم، إذا كان الأمر على ما رأيتم فإنها قسمة ضيزى 3 أي جائزة غير عادلة وناقصة غير تامة فكيف ترضونها لمن عبدتم الأصنام من أجل التوسل بها إليه ليقضي حوائجكم؟ إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم. إن أصنامكم أيها المشركون لا تعدو كونها أسماء لآلهة لا وجود لها ولا حقيقة في عالم الواقع إذ لا إله إلا الله، أما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فلم تكن آلهة تحيي وتميت وتعطي وتمنع وتضر وتنفع. إن هي أي ما هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من

1 انتقل الكلام من تقرير النبوة المحمدية إلى تقرير الإلهية الربانية، واللات أصله: لات فأدخلوا عليه ال فصار اللات، وهي صنم لتقيف كانت قريش والعرب يعبدونه، وقيل: هو وصف لرجل كان يلت السوق للحجاج ثم صنع له صنم تمثالاً وألتهه تقيف وقريش وجمهور العرب والعزى اسم مشتق من العز وهي فعلى ككبرى: صنم عليه بناء كان بوادي نخلة فوق (ذات عرق) ميقات أهل العراق قريباً من الطائف ومناة: صنم كان لخزاعة كان بالمشلل حذو قديد بين مكة والمدينة وكان الأوس والخزرج يهلون منه ويطوفون به كالسعي بين الصفا والمروة.

2 تقديم الجار والمجرور في (ألكم الذكر) للاهتمام بالاختصاص.

3 (ضيزى) اسم كدفلي وشعري، وهو مشتق من ضاز يضيض ضيزاً: إذا ظلم وتعدى وبخس وانقص. قال الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم
إذ يجعلون الرأس كالذنب

(5/192)

سلطان أي لم ينزل بها وحياً يأذن بعبادتها. وهنا التفت الجبار جل جلاله في الخطاب عنهم وقال {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} أي إن هؤلاء المشركين ما يتبعون في عبادة هذه الأصنام إلا الظن، فلا يقين لهم في صحة عبادتها. كما يتبعون في عبادتها {وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} أي هوى أنفسهم {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى} فبين لهم الصراط السوي فأعرضوا عنه وهو الحق من ربهم. وتعلقوا بالأمانى الكاذبة وأن أصنامهم تشفع لهم، أم للإنسان ما تمنى 1 والجواب ليس له تمنى، إذ الله الآخرة والأولى يعطي منها ما يشاء ويمنع ما يشاء وكم من 2 ملك في السموات لا يعدون كثرة لا تغني شفاعتهم شيئاً من الإغناء ولو قل إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء أن يشفع من الملائكة وغيرهم، ويرضى عن المشفوع له، وإلا فلا شافع ولا شفاعاة تنفع عند الله الملك الحق المبين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالشرك والمشركين وتسفيه أحلامهم لعبادتهم أسماء لا مسميات لها في الخارج إذ تسمية حجراً لها لن تجعله إلهاً.
- 2- بيان أن المشركين في كل زمان ومكان ما يتبعون في عبادة غير الله إلا أهواءهم.
- 3- بيان أن الإنسان لا يعطى بأمانيه، ولكن بعمله وصدقه وجده فيه.
- 4- بيان أن الدنيا كالأخرة لله فلا ينبغي أن يطلب شيء منها إلا من الله مالكها.
- 5- كل شفاعاة ترجى فهي لا تحقق شيئاً إلا بتوفر شرطين الأول أن يأذن الله للشافع في الشفاعاة والثاني أن يكون الله قد رضي للمشفوع له بالشفاعة والخلصة هي: الإذن للشافع والرضا عن المشفوع.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (30)

- 1 الاستفهام المقدر بعد أم إنكاري المقصود منه إبطال حصول الإنسان على ما يتمناه.
- 2 هذه الجملة تأكيد لإبطال حصول الإنسان على ما يتمناه وإبطال الاعتقاد المشركين في أن آهتهم تشفع لهم عند الله عز وجل.

(5/193)

شرح الكلمات:

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أي إن الذين لا يؤمنون بالبعث والحياة الآخرة.
ليسمون الملائكة تسمية الأنثى: أي ليطلقون على الملائكة أسماء الإناث إذ قالوا بنات الله.
وما لهم به من علم: أي وليس لهم بذلك علم من كتاب ولا هدى من نبي ولا عقل سوي.
إن يتبعون إلا الظن 1: أي في تسميتهم الملائكة إناثاً إلا مجرد الظن، والظن لا تقوم به حجة ولا يعطى به حق.

فأعرض عن تولى عن ذكرنا: أي القرآن وعبادتنا.

ولم يرد إلا الحياة الدنيا: ولم يرد من قوله ولا عمله إلا ما يحقق رغائبه من الدنيا.
ذلك مبلغهم من العلم: أي ذلك الطلب للدنيا نهاية علمهم إذ أثروا الدنيا على الآخرة.

معنى الآيات:

لما ندد تعالى بالمشركين الذين جعلوا من الأصنام والأوهام والأمانى آلهة وجادلوا دونها وجادلوا ذكر ما هو علة ذلك التخبط والضلال فقال: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} دار السعادة الحقة أو الشقاء {لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى} فلو آمنوا بالآخرة لما سمو الملائكة بنات الله لأن المؤمن بالآخرة يحاسب نفسه على كل قول وعمل له تبعه يخشى أن يؤخذ بها بخلاف الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يقول ويفعل ما يشاء لعدم شعوره بالمسؤولية والتبعة التي قد يؤخذ بها فيهلك ويخشى كل شيء وهو تعليل سليم حكيم.

وقوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} أي ليس لهم في ادعائهم أن الملائكة بنات الله أي علم يعتد به إن يتبعون فيه إلا الظن والظن أكذب الحديث، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً وبناء على هذا أمر تعالى رسوله أن يعرض عن تولى منهم عن الحق بعد معرفته وعن الهدى بعد مشاهدته فقال تعالى {فَأَعْرِضْ 3 عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا} أي القرآن والإيمان والتوحيد والطاعة، ولم يرد بقوله وعمله واعتقاده إلا الحياة الدنيا إذ هو لا يؤمن بالآخرة فلذا هو قد كيف حياته بحسب

1 حذر النبي صلى الله عليه وسلم من القول بالظن وكذا العمل به ففي الصحيحين قال "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث!!"

2 نفي العلم عنهم حجة قاطعة على ادعائهم لأن ما لا يثبت بالعلم النقلى أو العقلي لا تقوم به حجة ولا يثبت به شيء وقد وبخهم تعالى في قوله: { أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ }؟
3 قيل نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والآية نزلت قبل الأمر بالجهاد.

(5/194)

الدنيا فكل تفكيره في الدنيا، وكل عمله لها فيصبح بذلك أشبه بالآلة منه بالحيوان. وتصبح الحياة معه عميقة الفائدة فلذا يجب الإعراض عنه وتركه إلى أن يأذن الله فيه بشيء.
وقوله تعالى {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ 1 مِنَ الْعِلْمِ} أي هذا الطلب للدنيا هو ما انتهى إليه علمهم فلذا هم آثروها عن الآخرة التي لم يعلموا عنها شيئاً.
وقوله تعالى في خطاب رسوله {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ 2 عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} أي إن ربك أيها الرسول هو أعلم منك ومن غيرك بمن ضل عن سبيله قدراً وأزلاً فضل في الحياة الدنيا أيضاً، وهو أعلم بمن اهتدى، قضاء وقدراً وواقعاً في الحياة الدنيا وسيجزى كلاً بما عمل من خير أو شر فلا تأس يا رسولنا ولا تحزن وفوض الأمر إلينا فإننا عالمون ومجازون كل عامل بما عمل في دار الجزاء.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- أكثر الأمراض مردها إلى قلب لا يؤمن بالآخرة.
 - 2- أكثر الفساد في الأرض هو نتيجة الجهل وعدم العلم اليقيني.
 - 3- التحذير من الماديين فإنهم شر وخطر وواجب الإعراض عنهم لأنهم شر الخليفة.
- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى
(31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفُورَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)

1 قال الفراء: صغرهم وازدرى بهم أي: ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة.
2 هذه الجملة تعليل لجملة: (فأعرض عن تولى) والجملة متضمنة زيادة على التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الوعد والوعيد فالوعد للمهتدين من الرسول والمؤمنين والوعيد للمشركين الضالين عن سبيل الهدى فإن جزاءهم الشقاء في دار الشقاء.

(5/195)

شرح الكلمات:

ولله ما في السموات وما في الأرض: أي خلقاً وملكاً وتصرفاً.
ليجزى الذين أساءوا بما عملوا: ليعاقب الذي أساءوا بما عملوا من الشرك والمعاصي.
ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى: ويثيب الذين أحسنوا في إيمانهم وعملهم الصالح بالجنة.
الذين يجتنبون كبائر الإثم: أي يتجنبون كبائر الذنوب وهو كل ذنب وضع له حد أو لعن فاعله أو توعد عليه بالعذاب في الآخرة.
والفواحش إلا اللمم: أي الذنوب القبيحة كالزنا واللواط وقذف المحصنات والبخل واللمم صغائر الذنوب التي تكفر باجتناب كبائرهما.
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض: أي خلق أباكم آدم من تراب الأرض.
وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم: أي وأنتم في أرحام أمهاتكم لم تولدوا بعد.
فلا تزكوا أنفسكم: أي فلا تمدحوها على سبيل الفخر والإعجاب.
هو أعلم بمن اتقى: أي منكم بمن اتقى منكم وبمن فجر فلا حاجة إلى ذكر ذلك منكم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير ربوبيته تعالى المطلقة لكل شيء إذ تقدم في السياق قوله تعالى: {قُلِّلِ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى} وهنا قال عز من قائل {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} خلقاً وملكاً

وتصرفاً وتديبياً فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء هداية تابعة لحكمة وإضلال كذلك يدل عليه قوله تعالى {لِيَجْزِيَ 1 الَّذِينَ أَسَاءُوا} أي إلى أنفسهم بما عملوا من الشرك والمعاصي يجزيهم بالسوء وهي جهنم {وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا} إلى أنفسهم فزكوها وطهروها بالإيمان والعمل الصالح يجزيهم بالحسنى 2 التي هي الجنة وقوله {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ 3 وَالْفَوَاحِشَ} بين فيه وجه إحسان المحسنين إلى أنفسهم حين طهروها بالإيمان وصالح الأعمال ولم يلوثوها بأوضاع كبائر الإثم من كل ما توعده فاعله بالنار أو بلعن أو إقامة حدٍ، أو غضب الرب.

1 هذه اللام هي لام التعليل إذ أوجد الله تعالى العوالم العلوية والسفلية من أجل الإنسان، وأوجد الإنسان للذكر والشكر فمن ذكر وشكر وهو المحسن فله الجنة ومن نسي وكفر فله السوأى وهي النار.

2 أي: بالمتوبة الحسنى وهي الجنة، والحسنى صفة لموصوف محذوف وهي المثوبة.

3 (الذين يجتنبون) الخ صفة للذين أحسنوا أي: أحسنوا بفعل الواجبات واجتنبوا كبائر الذنوب والسيئات حتى لا تتلوث أرواحهم بعد طهرها بالأعمال الصالحة.

(5/196)

والفواحش من زنا ولواط وبخل وقوله {إِلَّا اللَّمَمَ 1 إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} أي لكن اللمم يتجاوز عنه وهو ما ألم به المرء وتاب منه أو فعله في الجاهلية ثم أسلم، وما كان من صغائر الذنوب كالنظرة والكلمة والتمرة. وقد فسر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. فمغفرة الله واسعة تشمل كل ذنب تاب منه فاعله كما تشمل كل ذنب من الصغائر. وقوله تعالى {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} أعلم بضغفنا وغرائزنا وحاجاتنا وعجزنا منا نحن بأنفسنا ولذا تجاوز لنا عن اللمم الذي نلم به بحكم العجز والضعف، فله الحمد والمنة. وقوله: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} 2 ينهى الرب تعالى عباده المؤمنين عن تزكية المرء نفسه بإدعاء الكمال والطهر الأمر الذي يكون فخراً وإعجاباً والإعجاب بالنفس محبط للعمل كالرياء والشرك فقوله {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي لا تشهدوا عليها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي وقوله {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} أي أن الله أعلم بمن اتقى منكم ربه فخاف عقابه فأدى الفرائض واجتنب المحرمات منا ومن المتقى نفسه فلذا لا تمدحوا أنفسكم له فإنه أعلم بكم من أنفسكم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير ربوبية الله تعالى لكل شيء وهي مستلزمة لإلوهيته.
- 2- تقرير حرية إرادة الله يهدي من يشاء ويضل ويعذب من شاء ويرحم إلا أن ذلك تابع لحكم عالية.
- 3- تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل.
- 4- تقرير قاعدة أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر .
- 5- حرمة تزكية النفس وهي مدحها والشهادة عليها بالخير والفضل والكمال والتفوق.

1 عن ابن عباس: هو الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، واستشهد قائلاً:
 إن تغفر اللهم تغفر جماً
 وأي عبد لك ما ألما

2 في الآية دليل على كراهة تزكية العبد نفسه أو تزكية غيره ففي الحديث الصحيح: "أنه لم يرض لهم تسمية برة وقرأ: {فلا تزكوا أنفسكم} الآية: وقال سموها زينب" وفي الصحيح "أنه سمع رجلاً يمدح آخر فقال له: ويلك قطعت عنق صاحبك -مراراً- إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسبي ولا أزكي على الله أحداً أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك" روى مسلم "أن رجلاً أتى عثمان فأتى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود يحثو التراب في وجهه ويقول: أمرنا رسول الله أن نحثوا التراب في وجوه المداحين".

(5/197)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَرُزَّ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54)

شرح الكلمات:

أفرأيت الذي تولى: أي عن الإسلام بعد ما قارب أن يدخل فيه.
 أعطى قليلاً وأكدى: أي أعطى من زعم أنه يحتمل عنه عذاب الآخرة أعطاه ما وعده من المال ثم

منع.

أعنده علم الغيب فهو يرى : أي يعلم أن غيره يتحمل عنه العذاب والجواب لا.
أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى : أي أم بل لم يخبر بما ورد في الصحف
المذكورة وهي التوراة وعشر صحف كانت لإبراهيم عليه السلام.
ألا تزر وازرة وزر أخرى : أي أنه لا تحمل نفس مذنب ذنب غيرها.
وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : أي من خير وشر ، وليس له ولا عليه من سعي غيره شيء.
وأن سعيه سوف يرى : أي يبصر يوم القيامة ويراه بنفسه.

(5/198)

ثم يجزاه الجزاء الأوفى : أي الأكمل التام الذي لا نقص فيه.
إن إلى ربك المنتهى : أي المرجع والمصير إليه ينتهي أمر عباده بعد الموت ويجازيهم.
وأنه أضحك وأبكى : أي أفرح من شاء فأضحكه، وأحزن من شاء فأبكاه.
وإنه أمت وأحيا : أمت في الدنيا وأحيا في الآخرة.
وإنه خلق الزوجين : أي الصنفين الذكر والأنثى.
من نطفة إذا تمنى : أي من منى إذا تمنى تصب في الرحم.
وأن عليه النشأة الأخرى : أي الخلقة الثانية للبعث والجزاء.
وأنه هو أغنى واقنى : أي وأنه هو وحده أغنى بعض الناس بالكفاية، واقنى بعض الناس بالمال
المقتنى المدخر للقتية.
وأنه هو رب الشعرى : أي خالقها ومالكها وهي كوكب خلف الجوزاء عبده المشركون.
وأهلك عادا الأولى : أي قوم هود عليه السلام.
وتمودا فما أبقي : أي أهلكتها أيضا فلم يبق أحداً وهم قوم صالح.
وقوم نوح من قبل : أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وتمدود وقوم لوط.
والمؤتفة أهوى : أي وقرى قوم لوط أسقطها بعد رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض إذ الانتفاك
الانقلاب.
فغشاها ما غشى : أي بالعذاب ما غشى حيث جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل.
معنى الآيات:

إن هذه الآيات ترسم صورة لقرشي جاهل هو الوليد بن المغيرة إذ قدر له أن يستمع إلى قراءة رسول
الله صلى الله عليه وسلم فهش لها ودعاها الرسول فأسلم أو أوشك أن يسلم فعلم به أحد المشركين من
شياطينهم فجاءه فعيه بإسلامه وترك دين آبائه فاعتذر له الوليد بأنه يخاف عذاب الله فقال له

الشیطان القرشي وكان فقيراً والولید غنياً أعطني كذا من المال شهرياً أو أسبوعياً أو سنوياً وأنا أتحمّل عنك العذاب الذي تخافه وعد إلى دينك واثبت عليه فوافق الوليد على العرض وأخذ

(5/199)

يعطيه المال. ثم أكدى 1 أي قطع عنه ما كان يعطيه ومنعه. فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماً وتحذيراً لكل من تبلغه ويقرأها أو تقرأ عليه فقال تعالى في أسلوب حمل فيه السامع على التعجب: { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى } أي عن الإسلام بعد أن قارب الوصول إليه والدخول فيه، {وَأَعْطَى قَلِيلًا} أي من المال للشیطان المشرك الذي اتفق معه على أن يتحمّل عليه العذاب مقابل مال يعطيه إياه أقساطاً، {وَأُكْدِيَ} أي قطع ومنع لأن الذي يحفر بئراً في أرض أحياناً تصادفه كدية من الأرض الصلبة يعجز عن الحفر فينقطع عن الحفر ويمتتع كذلك الوليد أعطى ثم امتنع وهو معنى اكدى أي انتهى إلى كدية من الأرض الصلبة.

وقوله تعالى: {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى} 2 أي أن المرء في إمكانه أن يتحمّل عذاب غيره يوم القيامة والجواب لا علم غيب عنده لا من كتاب ولا من سنة، أم لم ينبأ بما في صحف موسى وهي التوراة وإبراهيم الذي وفى لربه في كل ما عهد به إليه من ذبح ولده حيث تله للجبين ليذبحه، ومن بناء البيت والهجرة والختان بالقدوم إلى غير ذلك من التكاليف الشاقة. أي ألم ينبأ أي يخبر هذا الرجل الجاهل بما في صحف موسى بن عمران نبي بني إسرائيل وإبراهيم أبو الأنبياء ثم بين تعالى ما تضمنته تلك الصحف من علم فقال:

* ألا تزرى 3 وازرة وزر أخرى أن لا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى.

* وأن ليس 4 للإنسان من ثواب يوم القيامة إلا ما سعى في تحصيله بنفسه وهذا لا يتعارض مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعوه له أو صدقة جارية أو علم ينتفع به إذ هذه الثلاثة أمور من عمل الإنسان وسعيه الولد أنجبه ورياه و الصدقة الجارية أوقفها بنفسه والعلم تعلمه وبثه في الناس وعلمه فالجميع من سعيه وكسبه.

وأن سعيه أي عمله في الدنيا من خير و شر سوف يرى علانية ويجزى به خيراً كان أو شراً والجزاء الأوفى أي الأكمل الأتم.

1 يقال: أكدى الكافر وأجبل إذا بلغ في حفر كدية أو جبلا فلا يمكنه أن يحفر، ثم استعمل فيمن

أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره. قال الحطيئة:

أعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه

ومن يبذل المعروف في الناس يحمد

2 الاستفهام إنكاري أي: ينكر عليه ما ادعاه من تحمل العذاب عن غيره، وفيه معنى التعجب فيما ادعاه كأنه يعلم الغيب ويشاهده، وليس له ذلك.

3(أن لا تزر وازرة) أن: هي المخففة من الثقيلة، وموضعها جائز أن يكون حرفاً بدلاً من (ما) في قوله (بما في صحف) وجائز أن يكون في موضع رفع على إضمار: هو، وهو ما يفهم من التفسير. 4 يظهر أن هذا العام خصصته السنة فقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم الحج والعمرة عن لبغير كما أجاز الصدقة كذلك وقد يقال إن الذي يحج أو يتصدق عن غيره) هو بمثابة متوسل إلى الله تعالى طالب منه المغفرة والرحمة فإذا استجاب الله تعالى له غفر للميت ورحمه وهذا جزاء كل عمل صالح.

(5/200)

-
- * وأن إلى ربك المنتهى أي إليه تصير أمور عبادته بعد الموت ويحكم فيها ويجزيهم بها.
 - * وأنه هو أضحك¹ وأبكى أي أفرح من شاء وأحزن فضحك الفرح وبكى الحزن. أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار. زيادة على من أفرح في الدنيا ومن أحزن.
 - * وأنه أمات و أحيأ أمات عند نهاية أجل العبد وأحيأه في قبره ونشره وحشره و أحيأ بالإيمان وأمات بالكفر وأمات بالقحط و أحيأ بالمطر.
 - * وأنه خلق الزوجين أي الصنفين الذكر والأنثى من سائر الحيوانات من نطفة أي قطرة المني إذا تمنى² أي تصب في الأرحام.
 - * وأن عليه تعالى النشأة الأخرى أي هو الذي يقوم بها فيحيي الخلائق بعد موتهم يوم القيامة.
 - * وأنه هو أغنى وأقنى أي أغنى بعض الناس فسد حاجتهم وكفاهم مؤونتهم، وأقنى آخرين أعطاهم مالاً كثيراً فاقتنوه قنيّةً.
 - * وأنه هو رب الشعرى³ ذلك الكوكب الذي يطلع خلف الجوزاء فالله خالقه ومالكة ومسخره وقد عبده الجاهلون واتخذوه رباً وإلهاً وهو مريب مألوه.
 - * { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى } قوم هود أرسل عليهم ريحاً صرصراً ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم، عاد تلك الأمة القائلة من أشد منا قوة دمر الله عليهم فأهلكهم أجمعين.
 - * واثمود⁵ فما أبقى أي وأهلك ثمود قوم صالح بالحجر فما أبقى منهم أحداً.
 - * وقوم نوح من قبل عاد واثمود أهلكهم إنهم كانوا هم أظلم من غيرهم وأطغى.
 - * والمؤتفة أي⁶ قرى قوم لوط سدوم وعمورة أهلكهم فرفع تلك القرى إلى عنان السماء ثم أهوى بها إلى الأرض وأرسل عليهم حجارة من طين من سجليل فغشى تلك المدن من العذاب الأليم ما غشى⁷

عذاب يعجز الوصف عنه هذا هو الله رب العالمين الذي اتخذ الجبال له أنداداً فعبدها معه.

1 قيل: لا يوجد في المخلوقات من يضحك ويبكي إلا الإنسان وقيل إن القرد يضحك ولا يبكي، وإن البعير يبكي ولا يضحك. والله أعلم.

2 قيل: سميت مني: مني لأنها تمنى فيها الدماء أيام التشريق وهو كذلك.

3 قال القرطبي: اختلف في من كان يعبد كوكب الشعرى فقيل: كان تعبد حمير وخزاعة وقيل: إن أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته، ولذا كان المشركون يسمون النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة لما خالفهم ودعاهم إلى التوحيد.

4 قرأ الجمهور (عاداً) بإظهار تنوين عاد، وقرأ ورش (عاداً الأولى) بحذف همزة الأولى بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة وإدغام نون التنوين من عاد في لام (لولى).

5 قرأ الجمهور (وتموداً) بالتنوين وقرأ حفص (وتمود) وقرأ حفص وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.

6 نصب المؤتفكة، على الاشتغال وأهوى. أي جعلها هاوية والإهواء: الإسقاط وجيء بصلتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليه لأجل التهويل، والذي غشاها: هو مطر من الحجارة المحما.

7 (ما) موصول فاعل (غشاها).

(5/201)

هذا هو الله الإله الحق الذي اتخذ الناس من دونه آلهة لا تعلم ولا تحكم ولا تقدر. هذا هو الله العزيز المنتقم لأوليائه من أعدائه يشقي عبداً عاداه ويسعد آخر والاه.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تقرير ربوبية الله تعالى وإثبات ألوهيته بالبراهين والحجج التي لا ترد بحال.
- 2- تقرير عدالة الله تعالى في حكمه وقضائه.
- 3- مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته.
- 4- تقرير حقيقة علمية وهي أن العمل الذي يزكي النفس أو يدنسها هو ذلك الذي يباشره المرء بنفسه وباختياره وقصده ونيته.
- 5- تحذير الظلمة والطغاة من أهل الكفر والشرك من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الدمار والخسران.

قَبَائِيَّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ

اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَقْمِنُ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

شرح الكلمات:

فبأي آلاء ربك: أي فبأي أنعم ربك عليك وعلى غيرك أيها الإنسان.
تتمارى: أي تتشكك أو تكذب.

هذا نذير من النذر الأولى: أي هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم من النذر الأولى أي رسول
مثل الرسل الأولى الذين أرسلوا إلى أقوامهم.

أزفت الآزفة: أي قربت القيامة ووصفت بالقرب لقرنها فعلاً.

ليس لها من دون كاشفة: أي ليس لها أي للقيامة من دون الله نفس كاشفة لها مظهرة لوقتها، إذ لا
يجليها لوقتها إلا الله سبحانه وتعالى.

أقمن هذا الحديث: أي القرآن.

(5/202)

تعجبون وتضحكون: أي تعجبون تكذيباً به، وتضحكون سخرية منه كذلك.

وأنتم سامدون: أي لاهون مشتغلون بالباطل من القول كالغناء والعمل كعبادة الأصنام والأوثان.

فاسجدوا لله: أي الذي خلقكم ورزقكم وكلائكم ولا تسجدوا للأصنام.

واعبدوا: أي ذلوا لله وخضعوا له تعظيماً ومحبة ورهبة فإنه إلهكم الحق الذي لا إله لكم غيره.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض العظيم لمظاهر القدرة والعلم والحكمة وكلها مقتضية للربوبية والألوهية لله سبحانه
وتعالى خاطب الله تعالى الإنسان فقال {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ} أي بعد الذي عرضنا عليك في هذه السورة

من مظاهر النعم والنقم وكلها في الباطن نعم فبأي آلاء ربك 2 تتمارى أي تتشكك أو تكذب، وكلها
ثابتة أمامك لا تقدر على إنكارها وإخفائها بحال من الأحوال. ثم قال تعالى: {هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ

الأولى} يشير إلى أحد أمرين إما إلى ما في هذه السورة والقرآن كله من نذر أو إلى النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وكلا الأمرين حق القرآن نذير ومحمد نذير من النذر الأولى التي سبقته وهم

الرسل، أو ما خوفت به الرسل أقوامها من عذاب الله تعالى العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة. ألا
فاحذروا أيها الناس عاقبة إعراضكم.

وقوله تعالى: {أَزَفَتِ الْأَرْزَفَةُ} يخبر تعالى أن القيامة قد آن أوانها وحضرت ساعتها إنها لقريبة جداً.

ليس لها من دون الله نفس كاشفة تكشف الستار عنها وتظهرها بل تبقى مستورة لحكمة إلهية قد

تفاجأ بها البشرية وويل يومئذ للمكذبين.

وقوله تعالى توبيخاً للمشركين والمكذبين: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ} أي غفلتم كل هذه الغفلة فتعجبون من هذا الحديث الإلهي والكلام الرباني وهو القرآن. {وَتَضْحَكُونَ} كأن قلوبكم أصابها الموات، ولا تكون على أنفسكم وقد بعتموها للشيطان ليقدمها إلى نار جهنم حطباً،

- 1 فبأي نعم ربك تشك أيها الإنسان المكذب، والآلاء: النعم، واحدها إلى وألى وإلي وألو كدلو.
- 2 التماري: التشكك، وهو تفاعل من المرية، ولا يصح أن يكون المراد بالمخاطب النبي صلى الله عليه وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يشك أبداً، وإن قاله بعضهم، ورده إمام المفسرين ابن جرير الطري.
- 3 حقيقة النذير: أنه المخبر عن حدث مضر بالمخبر، وجمعه: نذر ويطلق النذير على الإنذار فهو إذاً اسم مصدر، ومنه: {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ} أي: إنذاري لكم.

(5/203)

وأنتم سامدون 1 ساهون لاهون تغنون وتلعبون. ويلكم أنقذوا أنفسكم فاسجدوا لله واعبدوا2، فإنه لا نجاة لكم من العذاب الأليم إلا بالاطراح بين يديه إسلاماً له وخضوعاً. تعبدونه بتوحيده في عبادته، وتسلمون له قلوبكم ووجوهكم فلا يكون لكم غير الله مألوها ومعبوداً تعظمونه وتحبونه وتتقربون إليه بفعل محابه وترك مكاره.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان قرب الساعة وخفاء ساعتها عن كل خلق الله حتى تأتي بغتة.
- 2- ذم الضحك مع الانغماس في الشهوات.
- 3- الترغيب في البكاء من خشية الله.
- 4- كراهية الغناء واللهو واللعب.
- 5- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية لمن يتلوها ولمن يستمع لها، وهي من عزائم السجودات في القرآن الكريم، ومن خصائص هذه السجدة أن المشركين سجدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الكعبة كما في الصحيح.

1 السمود: الغناء بلغة حمير والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة اكتراثكم بما تسمعون من القرآن، وفعله: سمد يسمد: اسمد لنا أي عن لنا.

2 جائز أن يراد بالسجود: الصلاة والعبادة والتوحيد إذ كانت الصلاة يومئذ قد فرضت، وجائز أن

يكون المراد بالسجود الخضوع لله والإذعان له بالإيمان والتوحيد بعد ترك الشرك والكفر، وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة سجد فسجد المشركون بسجوده متأثرين بما أسمعهم الشيطان من مدح آلهتهم بقوله: تلك الغرائيق العلا.. وإن شفاعتهن لترتجى.

(5/204)

سورة القمر

...

سورة القمر

مكية

وآياتها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ

(5/204)

(5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ (6) خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)
شرح الكلمات:

اقتربت الساعة وانشق القمر : أي قربت الساعة، وانفلق القمر فلققتين على جبل أبي قبيس.

وإن يروا آية يعرضوا : أي وإن ير كفار قريش آية أي معجزة يعرضوا عنها ولا يلتفتوا إليها.

ويقولوا سحر مستمر : أي هذا سحر مستمر أي قوي من المرة أو دائم غير منقطع.

وكل أمر مستقر : أي وكل من الخير أو الشر مستقر بأهله في الجنة أو في النار.

ولقد جاءهم من الأنبياء : أي من أنباء الأمم السالفة مما قصه القرآن.

ما فيه مزدجر : أي جاءهم من الأخبار ما فيه ما يزرهم عن التكذيب والكفر.

حكمة بالغة : أي الذي جاءهم من الأنبياء هو حكمة بالغة أي تامة.

فما تغن النذر : أي عن قوم كذبوا واتبعوا أهواءهم لا تغن شيئاً.

فتول عنهم : أي لذلك فأعرض عنهم.

يوم يدعو الداع إلى شيء نكر :أي يدع الداع إلى موقف القيامة.
يخرجون من الأجداث :أي من القبور.
مهطعين إلى الداع :أي مسرعين إلى نداء الداع.
هذا يوم عسر : أي صعب شديد.

(5/205)

قوله تعالى {اَفْتَرَيْتَ [السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرَ] يخبر تعالى أن ساعة نهاية الدنيا وفنائها وقيام القيامة قد اقتربت، وأن القمر قد انشق معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم علامة من علامات الساعة، وانشقاق القمر كان بمكة حيث طالبت قريش النبي صلى الله عليه وسلم بمعجزة تدل على نبوته فسأل الله تعالى انشقاق القمر فانشق فلقتين على جبل أبي قبيس فلقة فوق الجبل وقلقة وراءه فشاهدته قريش ولم تؤمن وهو معنى قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} أي هذا سحر قوي شديد. قال تعالى {وَكَذَّبُوا} أي رسولنا وما جاء به من التوحيد والوحي واتبعوا في هذا التكذيب أهواءهم لا عقولهم ولا ما جاء به رسولهم. وقوله تعالى {وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَوِرٌّ} أي وكل أمر من خير أو شر مستقر بصاحبه إما في الجنة أو النار. وقوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ} أي من أخبار الأمم السابقة وكيف أهلكها الله بتكذيبها رسلها وإصرارها على الشرك والكفر، وذلك في القرآن الكريم ما فيه مزدجر 4 أي جاء من الأخبار الواعظة المذكورة من قصص الأنبياء مع أمهم ما فيه زاجر عن التكذيب والمعاصي هو 5 حكمة بالغة تامة، والحكمة القول الذي يمنع صاحبه من التردى والهلاك بصرفه عن أسباب ذلك.

وقوله تعالى {فَمَا تُغْنِ 6 النَّذْرُ} أي عن قوم كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا أهواءهم ولم يتبعوا هدى ربهم ولا عقولهم. إذا فتول عنهم يا رسولنا واتركهم إلى حكم الله فيهم. وقوله: {لَيَوْمٍ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ 7 نَكْرٍ} أي اذكر يا رسولنا يوم يدعو الداع إلى شيء نكر وهو موقف القيامة خشعاً أبصارهم وكل أجسامهم وإنما ذكرت الأبصار لأنها أدل على الخشوع من سائر الأعضاء {يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ} أي القبور جمع جدث وهو القبر كأنهم جراد منتشر في كثرتهم وتفرقهم وانتشارهم مهطعين إلى الداع أي مسرعين إلى داع الله إلى ساحة الموقف وفصل

1 إنها بالنسبة لما مضى من أيام الدنيا لقريبة جداً إذ أكثر عمر الدنيا قد انقضى، خطب يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيراً.

2 (مستمر): يكون بمعنى ذاهب من قولهم مر الشيء واستمر: إذا ذهب ويكون بمعنى محكم قوي

- شديد مأخوذ من المرة وهي القوة، وكونه مستمراً نافذاً أولى بالمعنى.
- 3 وجائز أن يكون (مستقر) في أم الكتاب: كائن لا محالة أو أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم إلى استقرار بانتصاره على الباطل وأهله فيكون في الخبر بشرى للنبي صلى الله عليه وسلم.
- 4 أصل: (مزدجر) مزجر من زجرته فانزجر فقلبت التاء دالاً لتقارب مخرجي التاء والدال، أي: جاءهم من الأخبار الواعظة ما يزجرهم عن الكفر، لو قبلوه واتعظوا به.
- 5 أي: جاءهم من مواظ القرآن وزواجره ما هو حكمة بالغة إلى المقصود مفيدة لصاحبها.
- 6 جائز أن تكون (ما) نافية أي: لا تغني النذر شيئاً عن تلك حاله، وجائز أن تكون استفهامية أي: أي شيء تغني النذر مع الإصرار على الكفر والتوغل في الباطل، والاستفهام للنفي أيضاً.
- 7 (نكر) ما تتكره النفوس وتكرهه، ونكر: وزنه نادر نحو أنف: بمعنى جديد.

(5/206)

القضاء. يومئذ يقول الكافرون هذا يوم عسر وهو كذلك عسير شديد العسر ولكن على المؤمنين يسير غير عسير. كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير مفهومه أنه على المؤمنين يسير.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

2- ذكر بعض علامات الساعة. كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر معجزة له صلى الله عليه وسلم.

3- التنديد باتباع الهوى، والتحذير منه فإنه مهلك.

4- عدم جدوى النذر لمن يتنكر لعقلة ويتبع هواه.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (10)
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ مَّدْسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ
مِنْ مُدْكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (16) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (17)
شرح الكلمات:

فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونون: أي كذبوا نوحاً عبد الله ورسوله وقالوا هو مجنون.

وازدجر: أي انتهزوه وزجروه بالسب والشتيم.

فدعا ربه إنني مغلوب فانتصر: أي فسأل ربه قائلاً رب إنني مغلوب فانتصر أي لي.

بماء منهمر : أي منصب انصباباً شديداً.
وفجرنا الأرض عيوناً : أي تتبع نبعاً.

(5/207)

فالتقى الماء : أي ماء السماء وماء الأرض.
على أمر قد قدر : أي في الأزل ليغرقوا به فيهلكوا.
وحملناه على ذات ألواح ودسر : أي حملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ودسر وهو ما يدسر به
الألواح من مسامير وغيرها. واحد الدسر دسار ككتاب.
تجري بأعيننا : أي بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا لها.
جزاء لمن كان كفر : أي أغرقناهم انتصاراً لمن كان كفر وهو نوح كفروا نبوته وكماله.
ولقد تركناها : أي إغراقنا لهم على الصورة التي تمت عليها.
آية : أي لمن يعتبر بها حيث شاع خبرها واستمر إلى اليوم.
فهل من مدكر : أي معتبر ومتعظ بها.
فكيف كان عذابي ونذر : أي ألم يكن واقعاً موقعه.
ولقد يسرنا القرآن للذكر : أي سهلناه للحفظ، وهيأناه للتذكير.
فهل من مدكر : أي فهل من متعظ به حافظ له نتذكر.
معنى الآيات:

قوله تعالى {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} يخبر تعالى مسلياً رسوله مخوفاً قومه فيقول {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي قبل
قريش قوم نوح وهو أول رسول أرسل إلى قوم مشركين فكذبوا عبدنا 1 رسولنا نوحاً كذبوه في دعوة
التوحيد كذبوه في دعوة الرسالة، ولم يكتفوا بتكذيبه فقالوا مجنون 2 أي هو مجنون {وَأَزْدُجَرَ} أي
أنتهروه وزجروه ببذيء القول وسيء الفعل فدعا أي نوح ربه قائلاً {أَنْتَ مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ} لي يا ربي،
فاستجاب الله تعالى له ففتح أبواب السماء بماء منهمر 3 أي منصب انصباباً شديداً، وفجرنا الأرض
عيوناً نابغة من الأرض فالتقى 4 الماء النازل من السماء والنابع من الأرض {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أي
قدره الله في الأزل وقضى بأن يهلكهم بماء الطوفان وقوله تعالى {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَدُسْرٍ}
والدسر جمع واحدة دسار ككتاب وكتب وهو ما تدسر به الألواح من مسامير وغيرها وقوله تعالى
{تَجْرِي} وهي حاملة لعوالم شتى {يَأْغِيْنَنَا} أي بمرأى منا محفوظة بحفظنا لها وقوله {جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفْرًا} أي أغرقناهم انتصاراً لعبدنا نوح وجزاء له على صيره مع

1 أخبر تعالى أن قوم نوح كذبوا الرسل. وكان في الكلام اجمال ففصله بقوله: (فكذبوا عبدنا) أي:

- نوحاص، وقالوا مجنون، وفيه إشارة إلى أن المكذب برسول يعتبر مكذباً بكل الرسل.
- 2 (مجنون) خبر لمبتدأ محذوف أي: هو مجنون. والجمله مقولة القول.
- 3 (منهم) أي: كثير والهمر: الصب، وكان انهمار الماء بدون سحاب وقيل استمر أربعين يوماً.
- 4 التقى الماءان النازل من الماء والنابع من الأرض (على أمر قد قدر) أي: على مقدار معين لم يزد أحدهما على الآخر.

(5/208)

طول الزمن لقد أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. وقوله {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً} أي تلك الفعلة التي فعلنا بهم وهي إغراقنا لهم تركناها آية للاعتبار لمن يعتبر بها حيث شاع خبرها واستمر إلى اليوم. وقوله تعالى {فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} أي معتبر ومتعظ بها. وقوله {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ} ألم يكن واقعاً موقعه؟ بلى. وقوله تعالى {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} أي سهلناه للحفظ وهيأناه للتذكر. فهل من مدكر؛ أي فهل من متعظ به حافظ له والاستفهام للأمر أي فاتعظوا به واحفظوه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم.
 - 2- تحذير قريش من الاستمرار في الكفر والمعاندة.
 - 3- تقرير حادثة الطوفان والتي لا ينكرها إلا سفيه لم يحترم عقله.
 - 4- فضل الله على هذه الأمة بتسهيل القرآن للحفظ والتذكر.
- (17) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (22)

شرح الكلمات:

- كذبت عاد: أي نبيها هوداً عليه السلام فلم تؤمن به ولا بما جاء به.
- فكيف كان عذابي ونذري 3: أي فكيف كان عذابي الذي أنزلته بهم وإنذاري لهم كان أشد ما يكون.
- إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً: أي ريحاً عاتية ذات صوت شديد.

1 أصل مدكر متذكر أبدلت التاء ذالاً كما أبدلت الذال دالاً وأدغمت الدالان الأولى في الثانية

فصارت مدكر أي معتبر متعظ.

2 ونذر: تقدم أنه اسم مصدر كالإنذار.

3 قال القرطبي: وقعت نذر في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحاليين أي: في الوصل والوقف، وقرأها ورش في الوصل لا غير. وحذفها الباقر ولا خلاف في حذف النون في قوله: (فما تغن النذر) والواو في قوله: (يدع) وأما الياء من (الداع) أثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل وحذفها الباقر.

(5/209)

في يوم نحس مستمر : أي في يوم نحسٍ أي شؤمٍ مستمر دائم الشؤم قوية حتى هلكوا.
تنزع الناس كأنهم أعجاز 1: أي تقتلعهم من الحفر التي اندسوا فيها وتصرعهم فتدق رقابهم.
نخل منقعر :منفصلة أجسامهم كأنهم والحال كذلك أعجاز أي أصول نخل منقلع.
ولقد يسرنا القرآن للذكر : أي سهلنا القرآن للحفظ والتذكير والتذكر به.
فهل من مدكر :أي تذكروا يا عباد الله بالقرآن فإن منزله سهله للتذكير.
معنى الآيات:

قوله تعالى {كَذَّبَتْ عَادٌ} هذا القصص الثاني في هذه السورة يذكر بإيجاز تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديداً لقومه المكذبين وذكرى للمؤمنين فقال تعالى كذبت عاد أي قوم هود كذبوا رسول الله هودا عليه السلام وكفروا بما جاءهم به من التوحيد و الشرع وقالوا انتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فأرسل تعالى عليهم ريحاً صرصراً ذات صوت شديد في يوم نحس 2 وكان مساء الأربعاء لثمان خلون من شهر شوال مستمر بشدة وقوة وشؤم عليهم مدة سبع ليال وثمانية أيام تنزع تلك الريح الناس وقد دخلوا حفرأ تحصنوا بها فتنزعهم منها نزحاً وتخرجهم فتصرعهم فتدق رقابهم فتتفصل عن أجسادهم فيصيرون والحال هذه لطول أجسامهم كأنهم أعجاز نخل منقعر 3 أي منقلع ساقط على الأرض. وقوله تعالى {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي؟} هذا الاستفهام للتهويل أي إنه كان كأشد ما يكون لعذاب والإنذار . وقوله تعالى {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} أي سهلناه وهيئناه بفضل منا ورحمة للحفظ ولولا هذا التسهيل ما حفظه أحد، وهيئناه للتذكر به. فهل من مدكر أي من متذكر والاستفهام للأمر كأنما قال: فاحفظوه وتذكروا به.

1 جملة: { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ } في موضع نصب على الحال من الناس.

2 النحس: سوء الحال، وقد انجر إلى المسلمين بواسطة عقائد المجوس التشاؤم بيوم الأربعاء من آخر الشهر، ولا تشاؤم في الإسلام والنحس كان على الكافرين الذين

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان عقوبة المكذبين لرسول الله وما نزل بهم من العذاب في الدنيا قبل الآخرة.
- 2- بيان أن قوة الإنسان مهما كانت أمام قوة الله تعالى هي لا شيء ولا ترد عذاب الله بحال.
- 3- بيان تسهيل الله تعالى كتابه للناس ليحفظوه ويذكروا به، ويعملوا بما جاء فيه ليكملوا ويسعدوا في الحياتين.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَلْقَى الدُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الكَذَّابِ الأَشِرِّ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (16) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَضِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (17)

شرح الكلمات:

كذبت ثمود بالنذر : أي كذبت قبيلة ثمود وهم قوم صالح بالحجر من الحجاز بالرسول لأن النذر جمع نذير وهو الرسول كما هو هنا.

فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه : أي كيف نتبع بشراً واحداً منا إنكاراً منهم للإيمان بصالح عليه السلام. إننا إذاً لفي ضلال وسعر : أي إننا إذاً اتبعناه فيما جاء به لفي ذهاب عن الصواب وجنون. ألقى عليه الذكر من بيننا : أي لم يوح إليه من بيننا أبداً وإنما هو كذاب أشير.

بل هو كذاب أشير : أي فيما ادعى أنه ألقى إليه من الوحي أشير بمعنى متكبر. ستعلمون غداً : أي في الآخرة. من الكذاب الأشير : وهو هم المعذبون يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم. إننا مرسلو الناقة فتنة لهم : أي إننا مخرجو الناقة من الصخر ومرسلوها لهم محنة. فارتقب واصطبر : أي انتظر وراقب ماذا يصنعون وما يصنع بهم، واصبر على أذاهم. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم : أي ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة فيوم لها ويوم لهم. كل شرب محتضر : أي كل نصيب من الماء يحضره قومه المختصون به الناقة أو ثمود.

فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر: أي فملوا ذلك الشرب وسئموا منه فنادوا صاحبهم وهو قدار بن سالف ليقتلها فتعاطى السيف وتناوله فعقر الناقة أي قتلها.

إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة: هي صيحة جبريل صباح السبت فهلكوا.

فكانوا كهشيم المحتظر: أي صاروا بعد هلاكهم وتمزق أجسادهم كهشيم المحتظر وهو الرجل يجعل في حظيرة غنمه العشب اليابس والعيدان الرقيقة يحظر بها لغمه يحفظها من البرد والذئب. معنى الآيات:

قوله تعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} هذا القصص الموجز الثالث وهو قصص ثمود قوم صالح فقال تعالى في بيانه {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} أي التي أنذرها نبيها صالح وهي ألوان العذاب كما كذبت فيما جاء به من الرسالة فقالوا في تكذيبهم له عليه السلام: {أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ} أي كيف يتم ذلك منا ويقع؟ عجبٌ هذا إنا إذا لفي ضلال وسعر إنا إذا اتبعناه وهو واحد لا غير ومنا أيضا فهو كغيره من أفراد القبيلة لفي بعد عن الصواب وذهاب عن كل رشد، وسعر 2 أي وجنون أيضا،

1 أي: أنتبع فردا ونترك جماعة؟ قرأ الجمهور: (بشراً) منصوباً على الاشتغال، ورفع بعضهم على الابتداء، وواحد: نعت يتبع المنعوت في النصب والرفع.

2 السع: الجنون، والمسعور: المجنون قال الشاعر:

تخال بها سعراً إذا السفر هزها

ذميل وإيقاع من السير متعب

يصف ناقته بالسعر لشدة نشاطها.

(5/212)

وقالوا مستنكرين متعجبين {أَلْقَى الدُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ} أي متكبر. قال تعالى رداً عليهم سيعلمون غدا يوم ينزل بهم العذاب ويوم القيامة أيضا من الكذاب الأشر أصالح أم هم، لن يكونوا إلا هم فهم الذين أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقوله تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ} أي كما طلبوا إذ قالوا لصالح إن كنت رسول الله حقا فسله يخرج لنا من هذه الصخرة في هذا الجبل ناقة فقام يصلي ويدعو وما زال يصلي ويدعو حتى تمخض الجبل وخرجت منه ناقة عشاء آية في القوة والجمال، وقال لهم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم أليم. ومعنى فتنة لهم أي امتحاناً واختباراً لهم هل يؤمنون أو يكفرون، ولذا قال تعالى لصالح فارتقبهم واصطبر 2 أي انظر إليهم وراقبهم من بعد واصطبر على أذاهم. ونبئهم أي أخبرهم بأمرنا أن الماء ماء بئرهم الذي يشربون منه

قسمة بينهم 3 أي مقسوم بينهم للناقة يوم وللقبيلة يوم، وقوله كل شرب 4 محتضر أي كل نصيب خاص بصاحبه يحضره دون غيره. وما تشربه الناقة من الماء نحيله إلى لبن خالص وتقف عند كل باب من أبواب المدينة ليحلبوا من لبنها وطالت المدة وملوا اللبن والسعادة فنادوا صاحبهم غدار بن سالف عاقر الناقة فتعاطى 5 السيف وتناوله وعقرها بضرب رجلها بالسيف ثم ذبحها. وقوله تعالى {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي} الذي أنزلته بهم بعد عقر الناقة كيف كان إنذاري لهم أما العذاب فقد كان أليماً وأما الإنذار فقد كان صادقاً، والويل للمكذبين. وهذا بيانه قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً} هي صيحة جبريل عليه السلام فانخلعت لها قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} 6 أي ممزقين محطمين مبعثرين هنا وهنا كحطب وخشب وعشب الحظائر التي تجعل للأغنام.

1 قال القرطبي: روي أن صالحاً صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عشراء وبراء.

2 (واصطبر) أصل الكلمة واصتبر قلبت التاء طاءً موافقة للصاد في الإطباق.

3 روي عن جابر قال: لما نزل الحجر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك قال: "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوماً وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غيها".

4 الشرب بكسر الشين: الحظ من الماء، ومعنى محتضر: أي يحضره من هو له دون غيره إذ هو من الحضور خلاف الغياب.

5 (فتعاطى) مضارع عاطاه معاطاة وهو مشتق من عطا يعطو: إذا تناول ما يطلبه من شيء كأنهم كانوا مترددين في عقرها كل واحد يريد إعطاء غيره آلة العقر حتى أخذها غدار وعقرها.

6 المحتظر: اسم فاعل: الرجل الذي يتخذ الحظائر لغنمه من الحطب والعيديان وأغصان الشجر.

(5/213)

وقوله تعالى {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} يدعو الله تعالى هذه الأمة إلى كتابه قراءة وحفظاً وتذكراً فإنه مصدر كمالهم وسعادتهم لا سيما وقد سهله وهياًه لذلك. ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله في إهلاك المكذبين.

- 2- بيان أن الآيات لا تستلزم الإيمان وإلا فآية صالح من أعظم الآيات ولم تؤمن بها قوم ثمود.
- 3- أشقى أمة الإسلام عقبة بن أبي معيط الذي وضع سلى الجذور على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي حول الكعبة، وعافر ناقة صالح غدار بن سالف كما جاء في الحديث.
- 4- دعوة الله إلى حفظ القرآن والتذكير به فإنه مصدر الإلهام والكمال والإسعاد.
- كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (40) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلَّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

شرح الكلمات:

كذبت قوم لوط بالنذر :كذبت قوم لوط بالنذر التي أنذرهم بها وخوفهم منها لوط عليه السلام.

(5/214)

إنا أرسلنا عليهم حاصبا : أي ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحجارة الصغيرة فهلكوا.

إلا آل لوط نجيناهم بسحر :أي بنتاه وهو معهم نجاهم الله تعالى من العذاب حيث غادروا البلاد قبل نزول العذاب بها.

نعمة من عندنا :أي إنعاماً منا عليهم ورحمة منا بهم.

كذلك نجزي من شكر :أي مثل هذا الجزاء بالنجاة من الهلاك نجزي من شكرنا بالإيمان والطاعة.

ولقد أنذرهم بطشتنا :أنذرهم لوط أي خوفهم أخذتنا إياهم بالعذاب.

فتماروا بالنذر :أي فتجادلوا وكذبوا بالنذر التي أنذرهم بها وخوفهم منها.

ولقد راودوه عن ضيفه 1 :أي أن يخلى بينهم وبين ضيفه وهم ملائكة ليخبتوا بهم.

فطمسنا أعينهم :أي ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم فكانت كباقي وجوههم.

ولقد صبحهم بكرة عذاب :أي نزل بهم بكرة صباحاً عذاب مستقر لا يفارقهم أبداً هلكوا به في الدنيا مستقر ويصحبهم في البرزخ ويلازمهم في الآخرة.

ولقد يسرنا القرآن للذكر :أي سهلناه للحفظ والتذكر به والعمل بما فيه.

فهل من مدكر؟ :أي من متذكر فيعمل بما فيه فينجو من النار ويسعد في الجنة.

ولقد جاء آل فرعون النذر : أي قوم فرعون الإنذارات على لسان موسى وهارون عليهما السلام.

كذبوا بآياتنا كلها :أي فلم يؤمنوا بل كذبوا بآياتنا التسع التي آتيناها موسى.

فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر :أي فأخذناهم بالعذاب وهو الغرق أخذ قوي مقتدر على كل شيء لا

يعجزه شيء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر موجز لقصص عدد من الأمم السابقة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

1 ليخبثوا بهم، أي: بإتيانهم الفاحشة، في القاموس: الخبث: الزنا، وخبث ككرم: إذا زنى وخبثت المرأة: إذا زنت فهي خبيثة، والزاني: خبيث.

(5/215)

وتهديداً للمشركين المصرين على الشرك بالله والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنذاراً لأهل الشرك والمعاصي في كل زمان ومكان فقال تعالى {كَذَّبَتْ 1 قَوْمٌ لُوطٌ} وهم أهل قرى سدوم 2 وعمورة كذبوا رسولهم لوطاً بن أخي إبراهيم عليه السلام هاران. كذبوا بالنذر وهي الآيات التي أنذرهم لوط بها وخوفهم من عواقبها.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً 3} أي لما كذبوا بالنذر وأصرروا على الكفر وإتيان الفاحشة أرسلنا عليهم حاصباً ريحاً تحمل الحصياء الحجارة الصغيرة فأهلكناهم بعد قلب البلاد بجعل عاليها سافلها. وقوله تعالى {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ 4} والمراد من آل لوط لوط ومن آمن معه من ابنتيه وغيرهما نجاهم الله تعالى بسحر وهو آخر الليل. وقوله {نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا} أي كان انجاؤهم إنعاماً منا عليهم ورحمة منا بهم. وقوله تعالى {كَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ شَكَرَ} أي كهذا الانجاء أي من العذاب الدنيوي نجزي من شكرنا فأمن بنا وعمل صالحاً طاعة لنا وتقربا إلينا وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ 5 بَطْشَتْنَا} أي إننا لم نأخذهم بظلم منا ولا بدون سابق إنذار منا لا، لا بل أخذناهم بظلمهم، وبعد تكرار إنذارهم، فكانوا إذا أنذروا تماروا بما أنذروا فجادلوا فيه مستهزئين مكذبين، ومن أعظم ظلمهم أنهم راودوا لوطاً عن ضيفه من الملائكة وهم في صورة بشر، فلما راودوه عنهم ليفعلوا الفاحشة ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم فأصبحت كسائر وجوههم لا حاجب ولا مقلة ولا مكان للعين بالكلية وقولنا لهم فذوقوا عذابي ونذري أي لأولئك الذين راودوا لوطاً عن ضيفه، أما باقي الأمة فهلاكهم كان كما أخبر تعالى عنه بقوله: {وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً} أي صباحاً {عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ} أي دائم لهم ملازم لا يفارقهم ذاقوه في الدنيا موتاً وصاحبهم بزخاً ويلازمهم في جهنم لا يفارقهم. وقلنا لهم فذوقوا عذابي ونذر حيث كنتم تمارون وتستهزئون وقوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا 6 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} أي القرآن للحفظ وسهّلناه للفهم والاتعاظ به والتذكّر فهل من مذكر أي فهل من متذكر متعظ معتبر فيقبل على طاعة الله متجنباً معاصيه فينجو ويسعد وقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ

- 1 عرف قوم لوط بالإضافة إليه عليه السلام لأنه لم يكن لتلك الأمة اسم عند العرب يعرفون به.
- 2 بعضهم يروونها بالذال المعجمة وبعضهم بالذال المهملة، وعمورة بعضهم يروونها بلفظ عمورية.
- 3 (إنا أرسلنا) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن من سمع بتكذيبهم تساءل عما فعل الله بهم.
- 4 لوط داخل في آله بفحوى الخطاب فلا يقال: لم لم يذكر لوط وذكر آله دونه.
- 5 البطشة المرة: أي الأخذة بشدة وعنف وقوة.
- 6 هذه المرة الثالثة ينوه فيها القرآن الكريم ولم يذكر هنا ما ذكر في المرتين قبل قوله: (ككيف كان عذابي ونذر) اكتفاء بما سبق ذكره بعداً عن التكرار غير المجدي.

(5/216)

آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ {1} أي قوم فرعون من القبط وجنده منهم كذلك جاءتهم النذر على لسان موسى وأخيه هارون فكذبوا وأصرروا على الكفر والظلم، وكذبوا بآيات الله كلها 2 وهي تسع آيات آتاها الله تعالى موسى أولها العصا وآخرها انفلاق البحر فبسبب ذلك أخذناهم أخذ عزيز غالب لا يمانع في مراده مقتدر ولا يعجزه شيء فأغرقناهم أجمعين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته بالالتزام وتقرير التوحيد وإثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم. إذ أفعال الله العظيمة من إرسال الرسل والأخذ للظلمة الكافرين بأشد أنواع العقوبات من أجل أن الناس لم يعيدوا ولم يطيعوا دال على ربوبيته وألوهيته، وقص هذه القصص من أمي لم يقرأ ولم يكتب دال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

2- بيان جزاء الشاكرين لله تعالى بالإيمان به وطاعته وطاعة رسوله.

3- مشروعية الضيافة وإكرام الضيف، وفي الحديث: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه".

4- تيسير القرآن وتسهيله للحفظ والاعتاظ والاعتبار.

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (44) سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)

شرح الكلمات:

أكفاركم خير من أولئكم: أي أكفاركم يا قريش خير من أولئكم الكفار المذكورين من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وملائمه؟ فلذا هم

-
- 1 هذا آخر قصة تضمنتها سورة القمر تذكيراً وإنذاراً لكفار قريش لعلمهم يؤمنون ويوحدون، والمراد من آل فرعون: أتباعه من رجال دولته وجنوده وقومه الأقباط، والشاهد من القصة أنهم كذبوا فأخذوا، فليعلم هذا المصريون على التكذيب من كفار قريش.
- 2 خمس منها في آية الأعراف: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ}. والأربع الأخرى هي انقلاب العصا حية، وخروج يده من جيبه بيضاء كفلقة القمر وسنو القحط والطمس على الأموال وانفلاق البحر، فهذه التسع آيات التي كذبوا بها كلها.
- 3 في الصحيح.

(5/217)

لا يعذبون.

أم لكم براءة في الزبر: أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الزبر أي الكتب الإلهية. أم يقولون نحن جميع منتصر: أم يقولون أي كفار قريش نحن جميع 1 أي جمع منتصر على محمد وأصحابه.

سيهزم الجمع ويولون الدبر: أي سيهزم جمعهم ويولون الدبر هاربين منهزمين وكذلك كان في بدر. بل الساعة موعدهم: أي الساعة موعدهم بالعذاب والمراد من الساعة يوم القيامة. والساعة أدهى وأمر: أي وعذاب الساعة وأهوالها أي هي أعظم بلية وأمر أي أشد مرارة من عذاب الدنيا قطعاً.

معنى الآيات:

يقول تعالى مبكثا مشركي قريش مؤنباً إياهم وهم الذين إن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم يقول الله تعالى لهم: {أَكْفَارُكُمْ}2 يا قريش خير من كفار الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون فلذا هم آمنون من العذاب الذي نزل بكفار الآخرين، أم لكم 3 براءة من العذاب جاءت في الكتب مسطورة اللهم لا ذا ولا ذاك ما كفاركم بخير من أولئكم، وليس لكم براءة في الزبر، وإنما أنتم مهملون فيما أن تتوبوا وأما أن تؤخذوا. وقوله تعالى عنهم {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ}4 أي جمه منتصر على كل من يحاربنا ويريد أن يفرق جمعنا نعم قالوا هذا، ولكن سيهزم الجمع ويولون الدبر، وقد تم هذا في 5 بدر بعد سنين ثلاث أو أربع وهزم جمعهم في بدر وولوا الأدبار هاربين إلى مكة. وقوله تعالى {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} أي الساعة التي ينكرونها ويكذبون بها هي موعد عذابهم

- 1 جميع: اسم للجماعة كأنهم قالوا: نحن جماعة منتصرة على من يريد حربنا وذكرت الصفة (منتصر) مراعاة للفظ الجميع لا لدلالته على متعدد.
- 2 جائز أن يكون الاستفهام على بابه حيث يطلب منهم أن يفصحوا عن الحقيقة فإن قالوا كفارنا خير قيل لهم ما وجه الخيرية، وإن قالوا: الكل سواء قيل إذاً فسوف تأخذون بالعذاب كما أخذ الأولون.
- 3 أم: للإضراب الانتقالي وما يقدر بعدها من استفهام هو للإنكار أي: بل ما لكم براءة في الزبر من العذاب حتى تكونوا آمنين من تكذيبكم وكفركم.
- 4 (أم) هي المنقطة المفسرة ببل للإضراب الانتقالي والاستفهام المقدر بعدها للتوبيخ.
- 5 فكانت هذه آية على أن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله لتحقق الغيب الذي أخبر به.
- 6 الساعة في القرآن: علم بالغلبة على يوم القيامة والحساب والجزاء.

(5/218)

الحق أم عذاب الدنيا فهو ليس شيء إذا قيس بعذاب الآخرة . {وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ} أي أعظم بلية وأكبر داهية تصيب الإنسان وعذابها، {وَأَمْرٌ} أي وعذابها أمر من عذاب الدنيا كله.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان حقيقة يغفل عنها الناس وهي أن الكفر كله واحد ومورد للهلاك.
 - 2- لا قيمة أبداً لقوة الإنسان إزاء قوة الله تعالى.
 - 3- صدق القرآن في إخباره بغيب لم يقع ووقع كما أخبر وهو آية أنه وحي الله وكلامه.
 - 4- القيامة موعد لقاء البشرية كافة بحيث لا يتخلف عنه أحد.
- إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (55)

شرح الكلمات:

إن المجرمين في ضلال وسعر: أي الذين أجزموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي في ضلال الدنيا ونار مستعرة في الآخرة.

ذوقوا مس سقر: أي يوم يسحبون في النار على وجوههم يقال لهم ذوقوا مس سقر جهنم.
إننا كل شيء خلقناه بقدر: أي إننا خلقنا كل شيء بتقدير سابق لخلقنا له وذلك بكتابته في اللوح

المحفوظ قبل خلق السموات والأرض فهو يقع كما كتب كمية وصورة وزماناً ومكاناً لا يتخلف في شيء من ذلك.

(5/219)

وما أمرنا إلا واحدة: أي وما أمرنا إذا أردنا خلق شيء إلا مرة واحدة فيتم وجوده. كلمح بالبصر: الشيء بسرعة كلمح البصر وهو النظر بعجلة. ولقد أهلكنا أشياعكم: أي ولقد أهلكنا أمثالكم أيها المشركون من الأمم السابقة. فهل من مدكر؟: أي فذكروا واتعضوا بهذا خيراً لكم من هذا الإعراض. وكل شيء فعلوه في الزبر: أي وكل ما فعله العباد هو مسجل في كتب الحفظة من الملائكة. وكل صغير وكبير مستطر: أي وكل صغير وكبير من سائر الأعمال والأحداث في اللوح المحفوظ مستطر مكتوب.

إن المنتقين في جنات ونهر: إن الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يفسقوا عن أمره في جنات يشربون من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل المصفى. في مقعد صدق: أي في مجلس حق لا لغو به ولا تأثيم. عند مليك مقتدر: عند مليك أي ذي ملك وسلطان مقتدر على ما يشاء وهو الله جل جلاله. معنى الآيات:

قوله تعالى {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ} يخبر تعالى عن حال المجرمين وهم الذين أجزموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك وغشيان الذنوب يخبر تحذيراً وإنذاراً بأن المجرمين في ضلال في حياتهم الدنيا، وسعر ونار مستعرة متأججة يوم القيامة يوم يسحبون في النار على وجوههم يقال لهم ذوقوا تهكماً بهم مس سقر 1 تذوقوا العذاب، وسقر طبق من أطباق جهنم وباب من أبوابها وقوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} 2 {إِعْلَامٌ مِنْهُ تَعَالَى عَنْ نِظَامِ الْكُونِ الَّذِي خَلَقَهُ

1 (سقر) قال عطاء: سقر: الطبق السادس من جهنم، ومسها: هو ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها، وسقر: اسم من أسماء جهنم لا ينصرف لأنه اسم مؤنث معرفة وكذلك جهنم ولظى.

2 روى الترمذي وحسنه وصححه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}. وروى مسلم عن طاووس قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل شيء بقدر: قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس".

(5/220)

